معجزة القرآن



لفضيلة الشيخ
محمد متولي الشعراوي

١

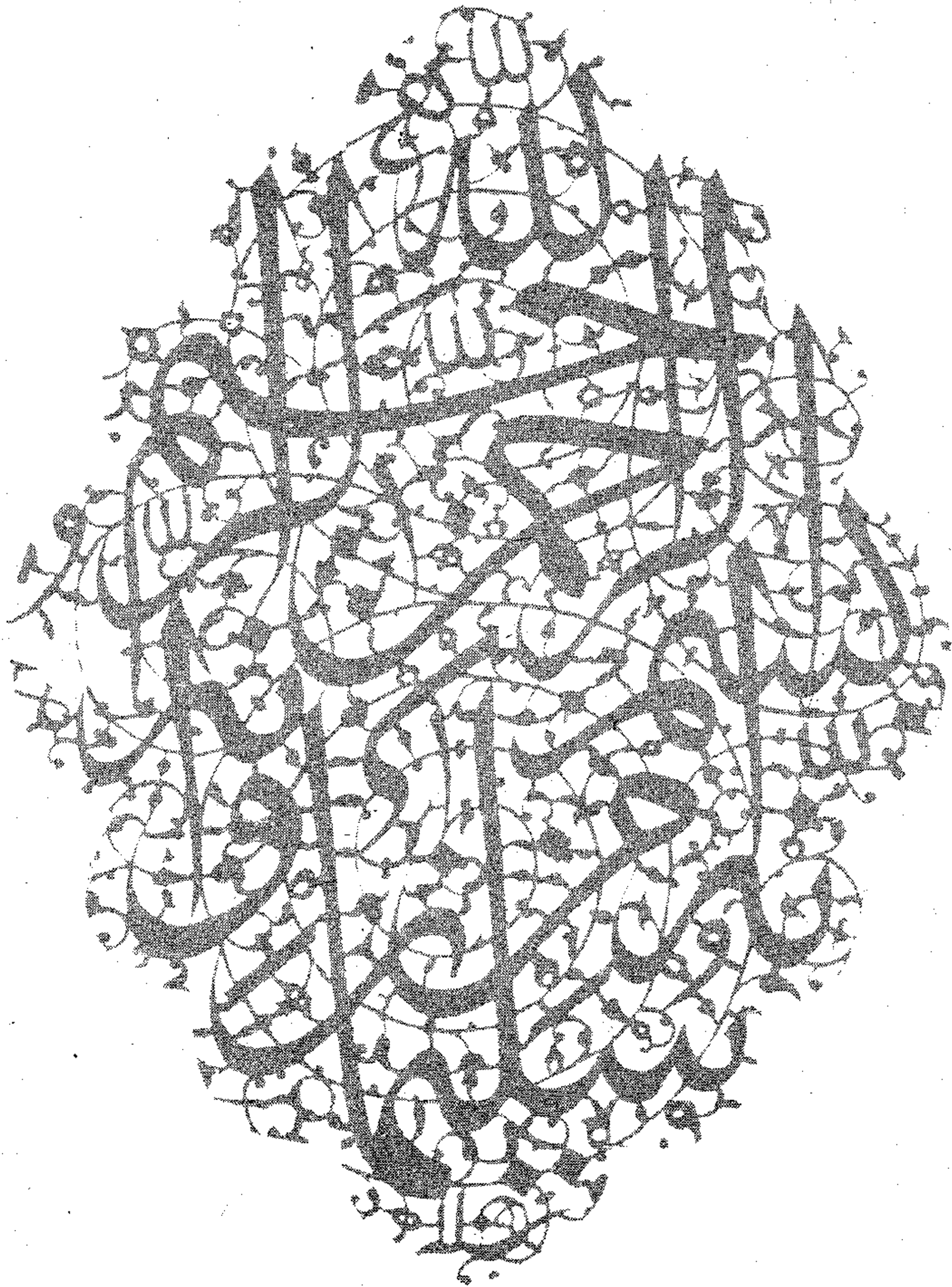
معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

● مـاكيـت : أشـرف حسـين



الفصل الأول

ما هي المعجزة

ما هى المعجزة ؟

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمتعبد بتلاوته والمتحدى به الانس والجن والعالمين .. ولم يتحد الله به الملائكة .. لأن الملائكة ليس لهم اختيارات يعملون بها .. إنما هم يفعلون ما يؤمرون .. ومن هنا فإن القرآن يتحدى كل القوى المختارة .. أو التى لها اختيار .. أو التى ميزها الله بقدرة العقل والفكر والاختيار .

على أننا قبل أن نتحدث عن معجزة القرآن .. فإننا يجب أولا أن نحدد ما هى المعجزة ؟ المعجزة هى خرق لنواميس الكون .. أو لقوانين الكون .. يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه .. ويثبتهم به .. ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم .. والسماء حين تؤيد وتنصر ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئا .

ولكننا حين يأتى إنسان ويقول إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهجه .. أنصدقه ؟ أم أننا نطالبه باثبات ما يقول ؟ إذن كان لابد أن تجىء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه فى رسالته وفى بلاغه عن الله ..

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تميزا واضحا قادرا .. فهى أولا تأتى وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه .. لماذا ؟ لأن التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحديا .. فمثلا إذا جئنا ببطل العالم فى رفع الأثقال .. وتحدينا به رجلا عاديا .. لا يكون هناك مجال للتحدى .. لماذا ؟ لأن المتحدى لم ينبغ فى نفس جنس العمل الذى أريد أن يتم فيه التحدى .. ولكننا إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم .. فإن التحدى يكون بينهما واضحا .. ويكون له معنى فيمن يثبت إنه هو الأقوى ..

وإذا جئنا بإنسان قد نبغ فى الطب مثلا .. وأرسلناه إلى بلد ليس فيه طبيب .. فلا يعتبر هذا تحديا .. لأنه لا يمكن أن يجد هذا الطبيب من ينافسه بحيث يكون هناك مجال للتحدى .. ولكننا إذا جئنا بهذا الطبيب وأرسلناه إلى أكبر عواصم الطب فى العالم .. هنا يكون تحديا لهذا الطبيب .. هو تحد بقوة العقل حيث أننا وضعناه فى اختبار مع أكبر ما فى عصره من قوة يمكن أن تواجهه ..

ما هى المعجزة ؟

نكون بذلك قد وصلنا إلى نقطتين .. النقطة الأولى .. أن المعجزة يجب أن تكون خرقا لقوانين البشر ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذه القوانين .. وثانيتهما أن المعجزة معجزة كل نبى يجب أن تكون مما نبغ فيه قومه حتى يكون التحدى نابغا وقويا .. واثباتا على قدرة الله سبحانه وتعالى .. فلا آتى بقوم نبغوا فى الطب مثلا وأرسل لهم معجزة فى البلاغة .. أو آتى بقوم قد نبغوا فى البلاغة وأرسل لهم معجزة فى الطب .. هنا الاحساس بالمعجزة لا يكون فيه التحدى القوى للإنسان .. فالتحدى يجب أن يكون فى أمر نبغ القوم فيه حتى لا يتحدى الله قوما بأمر لا يعرفونه .. ولا موهبة لهم فيه .. وحتى يكون للتحدى قيمة .. ومن هنا كانت معجزة كل رسول فيما نبغ فيه قومه ..

على أن المعجزة لا تأتى فقط بخرق القوانين .. والتحدى .. إنما توفر أسباب هذا التحدى .. بمعنى أن القوم الذين يريد الله أن يتحداهم يمكنهم من الأسباب كلها .. ثم بعد ذلك يعطل الأسباب .. فلا يتم الفعل .. ولنعط أمثلة سريعة على ذلك .. مثلا معجزة نجاة إبراهيم عليه السلام .. ومعجزة نجاة موسى عليه السلام .. كلتاهما معجزة .. وضعت فيها الأسباب .. ثم عطلت .. معجزة إبراهيم جاءت تحديا لقوم يعبدون الأصنام .. ويسجدون لها ويقدسونها .. ولذلك عندما أرادوا احراق إبراهيم كانوا يريدون أن ينتقموا لآلهتهم وهى الأصنام .. وكان الانتقام معدا بالشكل الذى يمجد هذه الأصنام .. ويجعل إبراهيم عبرة لكل إنسان تسول له نفسه أن يهينها أو يكفر بها ..

وجد إبراهيم ولم يحترق

جاءوا بإبراهيم .. وأمام آلهتهم وفى حمايتها .. أوقدوا نارا هائلة ليحرقوه .. والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون الانتقام من إبراهيم انتقاما تباركه الآلهة وتجعله رهيبا .. وجاءوا بالحطب ووقفوا أمام آلهتهم مصدر قوتهم .. وأوقدوا النار الهائلة .. كل شىء هنا معد لتمجيد آلهة غير الله سبحانه وتعالى .. وأتوا بإبراهيم .. والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار أمام آلهتهم .. كان من الممكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان .. ولا يظهر .. وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم

ما هى المعجزة ؟

لا يعثرون عليه . . ولكن لوحدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا على إبراهيم لاحرقناه . . وكانت ستظل قوة الآلهة المزيفة التى يعبدونها مسيطرة عليهم فى أن لها قدرة النفع والضر . . وإنها تنفع من يعبدها . . وتضر من يؤذيها ، وإنه لولا هرب إبراهيم لاحرق فى النار ودمرته آلهتهم وهى الأصنام تدميرا . . ولذلك كان لابد ألا يهرب إبراهيم بل يقع فى أيديهم ليشهد القوم جميعا سفاهة معتقداتهم وعجزها أمام قدرة الله . .

وكان من الممكن أن تنطفىء النار لأى سبب من الأسباب . . كأن ينزل المطر من السماء فتنطفىء النار . . ولكن هذا لم يحدث . . لماذا ؟ لنفس السبب ، لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم . . ولكن السماء أمطرت . . ولو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا منه بالحرق . .

فإبراهيم لم يهرب . . بل وقع فى أيديهم . . والنار لم تنطفىء . . بل ازدادت اشتعالا ثم ألقوا بإبراهيم فى النار ، فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الاحراق فى النار . . وتكون بردا وسلاما على إبراهيم . .

إذن فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من النار . . ولو أراد الله أن ينجيه من النار ماامكنهم من القبض عليه . . أو لنزلت الأمطار لتطفىء النار . . ولكن الله شاء أن تظل النار متأججة محرقة قوية . . وأن يؤخذ إبراهيم عيانا أمام الناس ويرمى فى النار . . ثم يعطل الله ناموس أو قانون إحراقها .

« **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** »

فتعطل إرادة الله خاصية إحراق النار . . وتقف آلهتهم تلك التى حطمها إبراهيم والنار متأججة . . وإبراهيم ملقى فى النار . . تقف آلهتهم التى أرادوا الانتقام لها أمام الملأ أجمع . . تقف عاجزة عن أن تجعل إبراهيم يحترق أو تناله بأى سوء . .

وموسى عليه السلام أوحى الله إلى أمه أن تلقيه فى اليم لينجو . . وآخر شىء يمكن أن يقوم به أب أو أم حين يريد أن ينجى طفله هو أن يلقيه فى الماء . . فالطفل عاجز صغير وليد . . والقاؤه فى الماء يعرضه لطير جارح يقتله أو يهاجمه وهو لا يملك لنفسه دفاعا ولا بأسا فيقتله . . وقد تأتى موجة صغيرة من الماء فتطيح بالسلة التى فيها موسى فينقلب فى الماء فيغرق فى الحال . . فهو لا يعرف شيئا عن العوم ولا يستطيع أن يفعل شيئا إذا سقط فى الماء . . وإذا لم يسقط فى

الماء فقد تأتى الأمطار لتملأ السلة التى هو بها . . فيختنق ويغرق . . وقد تأتى ريح تقلب هذه السلة فى الماء فيموت . . إذن فكل الأخطار موجودة فى القاء موسى فى اليم ماعدا فرصة الحياة . . والمنطق والأسباب والعقل كلها تقول أنه إذا أرادت أم موسى أن تنجيه فلتفعل أى شيء فى العالم إلا أن تلقيه فى الماء . . كان يمكنها أن تأخذه إلى مكان بعيد يختفى فيه . . وكان يمكنها أن تهاجر بابنها إلى خارج مصر . . وكان يمكنها أن تخفيه فى منزلها فى مكان حصين لا يصل إليه جنود فرعون . . ولكن الله أمرها بماذا . . بأن تلقيه فى اليم . . حيث يواجه خطر الموت أكثر مما يواجه احتمال الحياة . . وجعل فى هذا الخطر خطر موت موسى غرقا . . أو بطير جارح . . أو بريح قوية . . جعل هذه الأخطار كلها الطريق الوحيد المضمون لنجاة موسى . . لماذا ؟ لأن الله هو الفاعل . . وهنا تتعطل الأسباب . . ويصبح الالقاء نفسه هو النجاة والأمان والاطمئنان .

لماذا سجد السحرة ؟

نعود مرة أخرى إلى المعجزة . . لقد جاء كل نبى إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه . . قوم موسى نبغوا فى السحر . . فجاء موسى عليه السلام بمعجزة السحر . . وتحدى قومه . . فكان أول من آمن به هم السحرة . . لماذا ؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها . . فلما رأوا معجزة موسى كانوا أقدر الناس على فهمها . . والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله . . وقدرة البشر . . ولما أحسوه برهبة وهو يقابل ما نبغوا فيه من السحر بما أعطاه الله له . .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾

(سورة الشعراء)

هكذا كان أول من آمن هم أولئك الذين نبغوا فى المعجزة . . وهم أولئك الذين أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم فيما نبغوا فيه ، فلما رأوا عظمة التحدى خروا ساجدين . لماذا ؟ لأن لديهم جزءا من العلم الأرضى فى

ما هى المعجزة ؟

السحر .. إنما يخشى الله من عباده العلماء .. فلما رأوا المعجزة أحسوا بروعتها .. أحسوا بجلالها .. أحسوا بأنها من عند الله سبحانه وتعالى .. فنسوا فرعون ووعوده ، ونسوا الذهب والفضة وجاه الدنيا الذى ينتظرهم .. بل نسوا أن فرعون سيسومهم سوء العذاب .. وأنه جبار فى الأرض .. تلاشى كل هذا عندما رأوا المعجزة .. وخروا ساجدين لله .. وكانوا هم الذين أراد فرعون أن يتحدى بهم معجزة الله .. ودين الله .. فإذا بهم أول من يسجد لهذا الدين ..

تلك روعة المعجزة .. تستطيع أن تتبينها إذا عرفت أن السحرة كانوا موعودين بالجاه والسلطان والمال .. وكانوا هم أعوان فرعون الذين يروجون له .. وكان فى أيديهم حكم الدنيا إذا غلبوا .. أو إذا اتهموا موسى بأى اتهام باطل يروج له فرعون وجنوده .. ولكنهم بهتوا وذهلوا أمام معجزة فخروا ساجدين .. وتركوا كل هذا مضافا إليه عذاب فرعون عندما رأوا آية من آيات الله ..

وعيسى جاء إلى قومه وقد نبغوا فى الطب فأبرأ الأكمه والأبرص .. وزاد على ذلك بأنه أحيا الموتى بإذن الله .. إذن عيسى تحدى قومه فى شىء نبغوا فيه .. فجاء لهم بما تجاوز علمهم .. وزاد عليه بإحياء الموتى بإذن الله .. فكان التحدى من جنس ما نبغ فيه قومه ..

ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء والعرب قوم بلاغة وفصاحة .. فجاء لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه ، وهى بلاغة القرآن التى تحدتهم وأعجزتهم .. فقالوا ساحر .. وقالوا مجنون .. على أننا سنتناول معجزة القرآن بالتفصيل فى الفصول القادمة .. حيث أن اعجاز القرآن ليس لغويا فقط .. ولكن له جوانب كثيرة من الاعجاز الذى يتحدى به الله سبحانه وتعالى الانس والجن إلى يوم القيامة .. والقرآن له عطاء يتجدد مع كل جيل من الأجيال ..

وإذا كانت المعجزة هى خرقا للعادة مقرونة بالتحدى .. ولا يستطيع أحد معارضتها .. فقد تأتى المعجزة خرقا للعادة ، ولكنها ليست مقرونة بالتحدى .. أى أن الله سبحانه وتعالى لا يتحدى بها البشر ولا يطالبهم أن يأتوا بمثلها .. بل إن هذه المعجزة تأتى لاثبات طلاقة قدرة الله فى كونه .. بحيث لا يخضع الإنسان كل الأشياء للأسباب والمسببات .. بل إن الإنسان المؤمن يجب أن يلجأ إلى الله

سبحانه وتعالى فيما تعجز عنه الأسباب . . فالله قادر قاهر ليس لقدرته قيود ولا حدود . .

قـــدرة الله

والقرآن يعرض مسألة المعجزة لاثبات طلاقة القدرة الإلهية فى سورة مريم . . يأتى ليثبت قضية من القضايا التى اعتاد فيها الناس الأسباب والمسببات . . وهى مسألة بقاء النوع . . وبقاء النوع مشروط بالتقاء رجولة وأنوثة لينشأ اخصاب وحمل . . ولابد أن تكون الرجولة مكتملة . . والأنوثة غير ناقصة ليتم ذلك . .

فيأتى الله سبحانه وتعالى ليثبت لنا طلاقة القدرة الإلهية بلا حدود ولا قيود . . حتى لا يفهم الإنسان أن الخلق مقرون بأسباب ومسببات لابد من وجودها . . ومن هنا فإن الله فى قضية الخلق يريد أن يدير المسألة من زواياها الأربع . . فليس بقاء النوع أو ايجاد النوع رهنا بوجود ذكر وأنثى . . بل هو رهن بمشيئة الخالق . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يخلق رجلا بلا ذكر ولا أنثى . . ويخلق من رجل بلا أنثى . . ويخلق من رجل وأنثى . . ويخلق من أنثى بلا رجل . . وبذلك تكون أركان الخلق الأربعة قد اكتملت . .

ولنشرح ذلك قليلا . . الله خلق آدم أول الخلق من غير ذكر ولا أنثى فآدم لم يكن له أب ولا أم وإنما خلقه الله سبحانه وتعالى . . ونفخ فيه من روحه . . هذه واحدة . . خلق من غير ذكر ولا أنثى . . وخلق الله حواء على الأرجح من الذكر دون الأنثى . . ثم خلق البشرية كلها من الذكر والأنثى بقى شىء فى الخلق أن يخلق الله من الأنثى بلا ذكر . . فتأتى مسألة عيسى عليه السلام . . يأتى بقية الكون كله من البشر . ويأتى عيسى عليه السلام من أنثى لم يمسسها رجل . . ومن هنا تكون القسمة للخلق أربعة . . فأصل الخلق كما أراده الله أن يكون . . وجعل له الأسباب هو من ذكر وأنثى . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون النشء من غير وجودهما معا ، فخلق آدم . . ومن وجود الرجل وحده ، فخلق حواء من آدم . . ومن وجودهما معا فخلق الكون كله . . وجعله يتناسل . . ومن وجود الأنثى دون الرجل . . فخلق عيسى . . وبذلك تكون أوجه الخلق كلها قد اكتملت . .

إلا أننا يجب أن ننتبه إلى شىء هام . . خلق الإنسان . . بدون ذكر أو

ما هى المعجزة ؟

أنثى . . معجزة تخضع لله سبحانه وتعالى . . خلق الأنثى من الرجل وحده معجزة تخضع لارادة الله سبحانه وتعالى . . خلق الرجل من الأنثى وحدها دون أن يمسها رجل . . معجزة جعلها الله سبحانه وتعالى . . خلق الإنسان من ذكر وأنثى . . معجزة جعلها الله تمضى فى الدنيا بالأسباب والمسببات . . ولكنه لم يطلقها لتتم بالأسباب والمسببات وحدها . . فأدخل فيها المشيئة . . وقال سبحانه وتعالى :

« **ويجعل من يشاء عقيما** »

إذن كل معجزة الخلق التى تمت إنما تخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . فليس وجود النوعين موجبا لأن يوجد الخلق . .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

المسألة ليست وجود مسببات . . بل إن الله سبحانه وتعالى حين يريد للأسباب أن تفعل . . تفعل . . وحين يريدها أن تتعطل تتعطل . . وحين يريد أن تأتى بالعلل دون الأسباب يأتى بها فلا قيود ولا حدود لقدرة الله سبحانه وتعالى . .

وإذا تعطلت الأسباب

هذه قضية فى أصل الكون . . وهى قضية طرحها الله سبحانه وتعالى وأعطاها للبشر ليدخل الإيمان إلى قلب المؤمن فيضع فيه السكينة . . فالله سبحانه وتعالى يقول للمؤمن إذا ضاعت الأسباب فلا تيأس . . فأنا الذى خلقت الأسباب . . وأنا القادر على ايجاد المسببات دون القانون . . فلا تيأس إن عزت الأسباب . . ومن هنا يأوى المؤمن إلى ركن شديد . . ويحس بالطمأنينة تملأ قلبه . . ولا يمزقه

الفزع خوفا أو رعبا . . حينما يفقد أى شيء . . ذلك أنه يأخذ بالأسباب أولا . . فإذا عزت الأسباب أو تعذرت ووجد كل الطرق مغلقة فى وجهه ، اتجه إلى الله سبحانه وتعالى . . فالمؤمن لا ييأس من روح الله أبدا . . ولا تنهار نفسه . . ويضيع أمنه عندما يرى انهيار الأسباب . .

وتعرض لنا هذه القصة فى سورة مريم . . ميلاد مريم رضى الله عنها كان له ضجة . . يحكى ذلك القرآن الكريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾

(سورة آل عمران)

كلمة انى وضعتها أنثى التى قالتها امرأة عمران . . تحسر على أنها لم تضع ذكرا . . أى أن الوليد الذى جاء لا يؤدى الغرض الذى وهب من أجله . . لأن امرأة عمران نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى . . وكيف تستطيع مريم أن تؤدى الخدمة فى المعبد وهى أنثى . . وامرأة عمران تقول ان الرجل أفضل من الأنثى فى ذلك . . فيقول لها الله سبحانه وتعالى انك مازلت تحسبين أن الذكر أحسن من الأنثى . . هذه العملية التى تفكرين بها هى منطق الدنيا الخائب . . ويضيف الله سبحانه وتعالى :

« وليس الذكر كالأنثى »

أى أن الأنثى التى جاءت أفضل من الذكر الذى تمنيته . . وكأنما الأنثى لها مكانة أكثر مما تظنين . . فلا تقولى أن الله قد أعطانى أنثى ولم يعطنى ذكرا . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . ولأنه يعرف أن هذه الأنثى سيصبح لها شأن آخر . . وبعد ذلك نعرف أن والد مريم متوفى . . حيث أنها حين ولدت أرادوا أن يكفلوها . . وكلمة من يكفلها دليل على أن وليها الطبيعى وهو الوالد غير موجود .

ويكفلها زكريا . . ومعنى أن يكفلها زكريا ـ وفيه نبوة ـ أنه يأتى إليها بكل مقومات حياتها . . فعندما يدخل عليها المحراب يجد عندها رزقا . . ومعنى أن زكريا يجد عندها الرزق عند دخوله المحراب أو المكان الذى تصلى فيه مريم وتسجد . . معناه أنه لم يأت بهذا الرزق . . وإنما الذى أتى به هو الله سبحانه وتعالى . . بدليل أن زكريا يسألها :

« انى لك هذا ، قالت هو من عند الله »

وابتدأت الصغيرة المكفولة مريم بفطرتها تفهم أن الله سبحانه وتعالى ليس له قانون يحكمه . . وأنه يرزق من يشاء بغير حساب . .

هنا نتوقف قليلا لنعرف أن الله سبحانه وتعالى حينما أعد مريم للمهمة التى ستقوم بها جعلها أولا منذورة لله سبحانه وتعالى ولعبادته . . ثم جعل من يكفلها نبيا هو زكريا . . ثم بعد ذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يمهد لها فبين لها أن لكل شىء فى هذا الكون سببا . . إلا أن هناك أشياء تحدث بلا أسباب . . أو يعطل الله فيها الأسباب . . وبدأ بمسألة الرزق الذى يرزقها به . . فاكهة فى غير أوانها . . ورزق ليس موجودا فى الأرض . . تمهيدا لما هو قادم . . واعلانا لها بأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء . . ثم بعد ذلك أتى الله سبحانه وتعالى بقضية أخرى هى دعاء زكريا بالولد . . عندما رأى الرزق بلا حساب عند مريم . . هنالك دعا زكريا ربه . . وطلب زكريا ولدا فاستجاب الله لدعائه . . وبشره بالغلام . . هنا تذكر زكريا عند هذه البشرى . . انهيار الأسباب عنده . . فقال يا ربى انى رجل عجوز . . وامرأتى غاقر . . أى أن الأسباب الكونية لإمكان الانجاب غير موجودة . . فكيف أستطيع أن أنجب طفلا . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق زكريا . . ولم يك شيئا يذكر فهو يستطيع أن يعطيه الغلام دون التقيد بالأسباب . . هنا تذكير مرة أخرى لمريم بأن الله

سبحانه وتعالى إذا أراد فإنه يوجد الأشياء بدون الأسباب نفسها .. أولا .. أعطاها الرزق بلا أسباب للرزق .. ثم استجاب لدعوة زكريا التى دعاها فى المحراب .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« هنالك دعا زكريا ربه »

وكلمة هنالك أن الدعاء تم فى المحراب عند مريم لتشهد مرة أخرى ما يثبت فؤادها فيما أعده الله لها .. فترى الخلق يتم بدون أسباب الخلق .. فزكريا عجوز .. وامرأته عاقر .. ومع ذلك فإن الله قادر على أن يرزقه بولد .. وكل هذا هدفه ألا تهتز مريم مما ستتعرض له من ولادة دون ذكر .. ومع ذلك .. ومع كل هذه المقدمات اهتزت مريم حين رأت جبريل عليه السلام ..

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

أى أنه بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن ولد لزكريا مع انتفاء الأسباب .. مع كل هذه المقدمات اهتزت مريم عندما رأت جبريل حتى أن الله سبحانه وتعالى ليثبتها قال لها :

« كذلك قال ربك هو على هين .. ولنجعله آية للناس »

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لمريم بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن خلق مع اختفاء الأسباب تتعجبين مما يحدث .. لقد قلت يا مريم :

« يرزق من يشاء بغير حساب »

شهدت يا مريم أن الله سبحانه وتعالى حين يريد تعطيل نواميس الكون .. وايجاد المسببات بلا أسباب .. يستطيع أن يفعل ذلك . شهدته فى زكريا .. ومع ذلك تتعجبين .

معجزة ولكن ليست للتحدى

على أن هذه المعجزة .. معجزة خلق عيسى عليه السلام .. لم يكن مقصودا بها التحدى .. فالله سبحانه وتعالى لم يتحد بها أحدا .. لكن المقصود بها هو

ما هى المعجزة ؟

طلاقة القدرة . . أى أن الله يفعل ما يشاء . . ومقصود بها استكمال الخلق بحيث يصبح الخلق بدون ذكر أو أنثى . . ومن ذكر بلا أنثى . . ثم من ذكر وأنثى لمن شاء الله . . ثم من أنثى بلا ذكر . . وبذلك تكتمل مراحل الخلق . .

ومعجزة أخرى لم يتحد بها الله بشرا . . وهى معجزة شق موسى للبحر بعصاه . . فعندما طارد فرعون وجنوده موسى عليه السلام . . ووصل أتباع موسى الى البحر . . والبحر أمامهم . . وجنود فرعون وراءهم . . قال قومه إنا لمدركون . . وهذه مسألة طبيعية فى قوانين ومسببات البشر . . فجنود فرعون على بعد قريب . . والبحر أمام قوم موسى . . فهم لا يستطيعون مواصلة الفرار أو الهرب . . وحينئذ رفع موسى الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . لم يقل سنصعد الى جبل ليحمينا من فرعون وجنوده . . ولم يقل سنستقل سفينة ضخمة نهرب بها من فرعون وجنوده . . ولم يقل إننا سننجو بطريقة كذا وكذا . . وإنما حينما قال له قومه انا لمغرقون . . رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . وقال بملء فيه :

« **كلا ان معى ربى سيهدين** »

ومن هنا فإنه نقل المسألة من قانون الإنسان . . أو البشر . . إلى قانون الله سبحانه وتعالى . . فكأنه قد نقل القدرة من القدرة البشرية المحدودة . . إلى قدرة الله سبحانه وتعالى التى ليس لها حدود ولا قيود . . والتى تتم بكلمة كن . . ومادام قد نقل القدرة منه هو إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فقد أصبحت هذه القدرة ينطبق عليها لفظ سبحان الله وليس كمثله شىء . . أى أنه لا عجب فيما سيحدث ولو خالف كل قوانين البشر . . لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . فأصبحت النجاة نابعة من قدرة الله وليس من قدرة البشر . . فقال الله سبحانه وتعالى له :

« **ان اضرب بعصاك البحر فانفلق** »

والمعروف أن الماء لا ينفلق لأن قوانين الماء هى الاستطراق . . أى لا يكون عاليا فى مكان ومنخفضا فى مكان آخر . . لابد أن يتساوى سطحه . . فإذا ضرب موسى بعصاه البحر فهو لا يستخدم قوانين الأرض . . ولا قوانين الماء . . ولا قدرات البشر . . لأنه رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا تكون القدرة والفعل لله فينشق البحر . وينجو موسى وقومه .

هذا هو معنى المعجزة فى ايجاز بالغ . . فالمعجزة هى خرق لنواميس

ما هى المعجزة ؟

الكون . . تتحدى . . ولا يستطيع أحد معارضتها . . والمعجزات نوعان . . معجزات أعطاها الله سبحانه وتعالى لرسله ليتحدوا بها قومهم . . ويثبتوا أنهم جاءوا بالهدى وبالرسالات من عند الله . . ويثبتوا الإيمان فى قلوب الناس . . ويبينوا لهم الطريق المستقيم المؤدى إلى الحياة السليمة . . وهى قوانين الله فى الأرض . . وليعرف الجميع أن هؤلاء رسل جاءوا من عند الله بمنهج وضعه الله للإنسان . . وهناك معجزات أخرى فى الكون . . لم يرد الله بها التحدى . . ولكنه أراد اثبات طلاقته فى الكون فى أنه هو الخالق . . وأنه هو الموجد للأسباب والمسببات . . وأنه يقول كن فيكون بلا مسببات . . مادام الأمر قد رفع إلى الله سبحانه وتعالى بعيدا عن قدرات البشر وقوتهم . .

معجزة القرآن مستمرة

على أنه يلاحظ أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين . معجزات الرسل خرقت قوانين الكون . . وتحدت وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله . . ولكنها معجزات كونية من رآها فقد آمن بها . . ومن لم يرها صارت عنده خبرا إن شاء صدقه . . وإن شاء لم يصدقه . . ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث . .

إذن فالمعجزة الكونية المحسة . . أى التى يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة . . من رآها فقد آمن بها . . ومن لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك . . على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبدا . . هناك رأى يقول أن معجزات الرسل مع تقدم العلم يمكن أن يصل إليها البشر . . وهذا الرأى غير صحيح على الاطلاق . . فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة . . قد يقول واحد إننا قد نصل إلى قانون أو اختراع يشق الماء . . وحتى إن حدث هذا فإن المعجزة تبقى خالدة . . لأنه لا يمكن أن يأتى إنسان يضرب البحر بعصاه فينشق الماء إلا موسى عليه السلام . . وقد يقول بعض الناس أن عيسى عليه السلام كان يبرىء الأكمه والأبرص . . وأن هناك دواء الآن لبعض الداءات . . أو لكل هذه الداءات . . ولكننا نقول له أن المعجزة ستبقى معجزة . . فلن يستطيع بشر أن يشفى إنسانا مريضا بمجرد لمسه . . أو الاشارة إليه إلا عيسى عليه السلام . . قد يقول بعض الناس إننا نستطيع أن نذهب من مكة إلى بيت المقدس ونعود عدة مرات كل

يوم .. وهذا رد على معجزة الاسراء .. فنقول أبدا .. لن يستطيع إنسان أن يذهب بغير طائرة فى الجو إلا محمد عليه السلام .. فضلا عن الصعود إلى السماء السابعة .. ذلك أن المعجزة تظل خالدة فى نوعها وأدائها مهما طال الزمن .. وهى معجزة أساسها الاعجاز بالطريقة التى تمت بها .. ولا تصل إليها القوانين التى يكشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر .. بل تظل المعجزة معجزة ..

على أننا إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدنا هذه المعجزات فعلا من أفعال الله .. وفعل الله من الممكن أن ينتهى بعد أن يفعله الله سبحانه وتعالى .. البحر انشق لموسى .. ثم عاد إلى طبيعته .. النار لم تحرق إبراهيم .. ولكنها عادت إلى خاصيتها فى الاحراق .. ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم صفة من صفات الله .. وهى كلامه .. والفعل باق بابقاء الفاعل له .. والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه ..

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى التى يؤيد بها رسله .. أو يريدها آية من آياته .. تختلف عن معجزات البشر فى أن الله سبحانه وتعالى يجعل من يقوم بالمعجزة يملك خاصية هذه المعجزة وقتها .. أى أن الله سبحانه وتعالى يجعل الضعيف قويا .. وغير القادر قادرا .. والذى لا يستطيع شيئا يستطيع أن يفعله .. فمعجزة عام الفيل مثلا التى أرسل فيها الله سبحانه وتعالى طيرا أبابيل .. أفنت جيش أبرهه عندما جاء ليحطم الكعبة .. جعل الله المعجزة فى أن الطير الضعيف يستطيع أن يهزم فيلا جبارا قويا .. ويستطيع أن يفنى جيشا من أقوى جيوش العالم .. إن لم يكن أقواها فى ذلك الوقت .. ولقد كانت المعجزة فيها قدرة هائلة حتى انها هزت نفوس بعض المؤمنين الذين لم يروها .. أو لم يشهدوها .. وجاءوا بعد عصر النبوة .. ولقد أثير حول هذه المعجزات حديث طويل فى أنه كيف تستطيع الطير وهى تمسك بحجارة صغيرة جدا أن تفنى جيشا من الأفيال .. ولو هدمت فوقه عمارة لخرج سالما معافى .. ووجد بعض العلماء فى هذا الكلام تجاوزا لحدود العقل .. فبدأوا يحاولون تخريجها تخريجا عقليا بأن يقولوا أن هذه الطير كانت تحمل جراثيم فتكت بهذه الفيلة إلى آخر هذا الكلام الذى يحاولون به تبرير المعجزة . والمعجزة لا تبرر أبدا لماذا ؟ لأنها لا تخضع لقوانين البشر .. فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. ومعجزة الفيل

ما هى المعجزة ؟

حدثت كما رواها القرآن تماما من ناحية الطير . . ومن ناحية الحجارة . . ذلك أن هذه المعجزة وقعت فى العام الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . . ورسول الله بعث فى الأربعين من عمره . . أى أنه عندما نزلت هذه الآية كان هناك من شهدوا عام الفيل . . ممن أعمارهم قد بلغت الخامسة والخمسين . . والستين . . والخامسة والستين . . والسبعين . . وما فوق ذلك . . فلو أن القرآن جاء برواية منافية أو مخالفة لما شهدوه لقالوا أن هذا لم يحدث . . وأن طيرا لم تأت . . وأن حجارة لم تستخدم . . ولكن كون القرآن جاء بهذا . . وهناك شهود . . وشهود من الكفار الذين يهمهم الطعن فى الدين . . ويهمهم أن يشككوا فيه . . ولم يستطيعوا أن يجادلوا فى هذه الآية . . إذن فالطير قد جاءت . . والحجارة قد استخدمت . . وهذه معجزة من معجزات الله تحمل سمة المعجزات وهى أن الله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يحقق المعجزة يعطى القوة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها . . فهنا أعطى القوة للطير لتغلب الفيل . . عكس المنطق تماما . . وأعطى القدرة لموسى فغلب السحرة وأعطاه قدرة شق البحر فضرب الأرض بعصاه فشق البحر . . وأعطى لعيسى عليه السلام قدرة شفاء المرضى واحياء الموتى . . كل هذا بإذن الله . . وهنا الاختلاف بين الاعجاز الإلهى . . وأى اعجاز آخر . . فأنت حين تريد أن تجعل رجلا ضعيفا يحمل حملا ثقيلا لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل ولكنك تستطيع أن تحمله عنه . . وأى اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يعطى الإنسان قدرة خارقة ولكنه يساعده باستخدام شيء خارجى . . أما الله سبحانه وتعالى . . فإنه هو وحده المستطيع أن يجعل الضعيف قويا . . والعاجز قادرا . . والقوى لا حول له ولا قوة . . ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوى . . فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله سبحانه وتعالى . . الله أعطى لإبراهيم مثلا قدرة الخلق حينما طلب منه أن يأتى بالطير ويقطعها . . ثم يضع على كل جبل جزءا ثم يدعوها فتأتى له سعيا . . أى أن إبراهيم هو الذى دعا . . والله هو الذى أذن . . وشاء . .

على أن معجزة القرآن تختلف فى أوجه كثيرة عن المعجزات الأخرى . . وهذا ما سنبينه فى الفصل القادم . .

الفصل الثاني

معجزة القرآن وكيف تختلف

معجزة القرآن وكيف تختلف

معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين فى كثير من زوايا الاعجاز . . وفى القرآن اعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره . . حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه اعجاز أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الاعجاز . . أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال . . بل ان اعجاز القرآن موجود أحيانا فى حرف . . حرف من القرآن يحمل اعجازا رهيبا . . وتلك حقيقة سنتناولها بالتفصيل فى الفصول القادمة . . ولكن الذى يجب أن نعرفه الآن . . أن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق . . ذلك أن القرآن للعالمين . . أى الدنيا كلها . . لا يقتصر على أمة بعينها . . وإنما هو الدين الكامل لكل البشر . . ومن هنا فإنه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل . . وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الاعجازى فى قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء . . وبذلك يكون قد جمد . . والقرآن متجدد لا يجمد أبدا . . سخى يعطى دائما . . قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله . . وبنفس الآية . . أى أن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقا جديدا فى معناها . . ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق فى أول وقت نزول القرآن . .

ولكى تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين فى القرآن الكريم . . الأحكام الخاصة بمنهج العبادة . . أو ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التى حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد فى الأرض . . كلمة افعل . . ولا تفعل . . هذا حلال . . وهذا حرام . . هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل . . وإنما كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أو كما فسرت فى عهد نزول القرآن . . الصلاة خمس مرات . . لا اجتهاد فى هذا . . شهادة أن لا إله إلا الله . . الزكاة . . ما حرم على الإنسان وما أحل له . . الزواج والطلاق . . كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره . . ولا اجتهاد فيه . . لا يستطيع أحد أن يأتى ويقول لنا أن الصلوات أربع مرات فى اليوم . . ويفسر هذا بأى وجه من التفسير . . هذا غير مقبول . . وليس مجال المناقشة . . افعل ولا تفعل . . الأحكام التى إذا فعلتها نجوت . . وإذا لم تفعلها عوقبت . . هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد . . لأن الله

سبحانه وتعالى هو الذى يحدد لنا كيف نعبده .. وهو الذى يختار لنا الطريق ..

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء المتصلة بقوانين الكون والخلق .. تلك الأشياء التى لم يكن للعقل البشرى الاستعداد العلمى وقت نزولها ليفهمها تماما .. مثلا كروية الأرض .. احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن .. الغلاف الجوى المحيط بالأرض احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن .. علم الأجنة تناوله القرآن .. دوران الأرض حول نفسها .. الزمن .. ونسبية الزمن .. وعدد من حقائق الكون الأساسية .. نجد أن الآيات التى تتناول هذه الأشياء مرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عليها مرورا وترك للعقل فى كل جيل أن يأخذ قدر حجمه .. والمعجزة هنا فى القرآن انه يعطى لكل عقل قدر حجمه .. ويعطى لكل عقل ما يعجبه ويرضيه .. فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه .. ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه .. والمتبحر فى العلم يجد فى القرآن اعجازا يرضيه ..

هذه واحدة .. من اعجاز القرآن الكريم .. انه يقدم لكل نفس باستخدام الآيات والألفاظ التى تؤدى إلى المعنى .. فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من أسرار كونه .. ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدى نفس المعنى ..

رب المشارق والمغارب .

ولنضرب مثلا يوضح ذلك .. يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ..

« رب المشرق والمغرب »

« رب المشرقين ورب المغربين »

« رب المشارق والمغارب »

لو أخذنا كل آية من هذه الآيات وقت نزول القرآن الكريم على حجم تفكير العقل البشرى فى ذلك الوقت .. نجد أن مفهوم المشرق هو جهة شروق الشمس .. ومفهوم المغرب هو جهة غروب الشمس .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. فليس هناك تعارض بين العقل والآية فى ذلك .. نأتى بعد ذلك للآية الكريمة « رب المشرقين ورب المغربين » نقول إذا كان المشرق هو جهة الشرق .. فإن رب المشرقين معناها أنها تجمع بين عمومية الجهة وهى الشرق .. وبين المكان المحدد لشروق الشمس .. بمعنى أنك تقول

هذا هو الشرق .. وهذا هو الغرب .. وتشير بيدك إلى جهة المشرق أو المغرب .. فإذا أردت أن تحدد مكان شروق الشمس .. فإنك تقول أن الشمس تشرق من هنا .. وتحدد المكان بالضبط .. هذا هو التفسير فى وقت نزول الآية .. ثم نأتى بعد ذلك إلى « رب المشارق والمغارب » .. التفسير وقت نزول الآية هو أن كل بلد له مشرق وله مغرب .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى هو رب المشارق كلها والمغارب كلها ..

فإذا جئنا الى هذه الآيات اليوم لوجدنا تفسيرها يختلف .. رب المشرق والمغرب .. هذه قالوا عنها عمومية .. ولكن الله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب .. كروية الأرض تحتم هذا .. ففى الوقت الذى تغرب فيه الشمس على جهة .. فى نفس الوقت .. وفى نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى .. إذن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. ولم يقل رب المشرق ورب المغرب .. أو لله المشرق ، أو لله المغرب .. حيث كان المعتقد وقت نزول القرآن أنهما جهتان مختلفتان تماما .. متقابلتان بالنسبة للعين المجردة .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. معناها أن الشروق والغروب يتم فى وقت واحد .. أى أن الشمس تغرب على بلد فى نفس الوقت تشرق فيه على بلد آخر ..

نأتى بعد ذلك للآية الكريمة :

« رب المشرقين ورب المغربين »

لماذا قال المشرقين بالذات والمغربين .. إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد انها مقسمة إلى جزءين .. نصف مضىء .. ونصف معتم .. والنصف المضىء له مشرق ومغرب .. بينما النصف المعتم يسبح فى ظلام دامس ... فإذا استدارت الكرة تماما يواجه النصف المظلم الشمس والنصف المضىء يصبح ظلاما .. أصبح نصف الكرة الذى كان مظلما له مشرق .. ونصف الكرة الذى كان مضيئا يسبح فى ظلام .. إذن فالكرة الأرضية فى عموميتها لها مشرقان .. مشرق تضىء منه الشمس نصف الكرة ومغرب .. ثم تستدير الكرة كلها .. فيأتى نصف الكرة الآخر فيكون له مشرق ومغرب .. إذن فآية رب المشرقين ورب المغربين تعرض لنا بأن نصف الكرة يكون ظلاما ليس له مشرق ولا مغرب .. والنصف الآخر يكون مضيئا له مشرق ومغرب .. وعندما ينعكس الوضع يصبح هذا

النصف له مشرق ومغرب . . وهذا النصف لا مشرق له ولا مغرب . . وهكذا في عمومية الكرة الأرضية . . هناك مشرقان ومغربان . .

فإذا انتقلنا إلى رب المشارق والمغارب . . نجد أنه بعد أن تقدم علم الفلك لا يوجد مشرق واحد . . ومغرب واحد لأى دولة فى العالم . . وإنما هى مشارق ومغارب . .

إذن فزاوية الشروق تتغير . وزاوية الغروب تتغير . . ولكن الحس لا يدرك ذلك . . بل إنه إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد أنه فى كل جزء من الثانية مشرق تشرق الشمس فيه على مدينة وتغيب عن مدينة أخرى . . أى أن هناك ملايين المشارق والمغارب لكل بقعة من الأرض . . المشرق والمغرب للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال أيام السنة . . لا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذى أشرقت منه فى الأمس . . أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذى غربت منه بالأمس . . وإن كانت جهة الشرق واحدة . . إلا أن المشرق تختلف زاويته كل يوم . . وكذلك المغرب . . وتختلف فى فصول السنة . . وفى أيام الصيف عن الشتاء عن الخريف عن الربيع . . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا من حركة دوران الأرض حول الشمس مرة كل عام . . فإن هذه الحركة هى التى تجعل لكل يوم مشرقا ومغربا بزاوية مختلفة . . بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر . . وأبسط شيء لتدرك هذا بدلا من الدخول فى التعقيدات الفلكية هو صيام شهر رمضان . . ففى كل يوم تفطر فى مغرب مختلف عن المغرب الآخر فى الوقت . . وكذلك تمتنع عن الطعام فى مشرق مختلف عن المشرق الآخر فى الوقت . . وأوقات الصلاة تختلف كل يوم من أيام العام . . تبعا لحركة الأرض حول الشمس . .

واختلاف المشارق والمغارب يبين ـ بخلاف أن الأرض تدور حول الشمس ـ إن الأرض كروية . . فلو كانت الأرض مسطحة . . كان لابد أن تطلع الشمس من مشرق واحد . . وتغيب من مغرب واحد . . حينئذ لا يكون هناك مشارق ومغارب . . ولكن كونها كروية . . وكونها تدور حول نفسها وحول الشمس هو الذى يجعل هناك مشارق ومغارب . .

والذى أريد أن أقوله أن عطاء القرآن فى الأولى ، رب المشرق والمغرب لم يلغ عطاءه فى الثانية وهو رب المشرقين ورب المغربين . . وهو لا يلغى عطاءه فى

الثالثة وهو رب المشارق والمغارب ..

بل أن التقدم العلمى الذى غير كثيرا من مفاهيم الكون لم يستطع أن يغير معنى الآيات الكريمة .. بل انسجم معها .. ويحضرنى قول قرأته فى أحد المخطوطات القديمة يقول كاتبه « يا زمن وفيك كل الزمن » ومعنى هذا القول ان الزمن نسبى فى الكون . فمثلا عندما أؤدى أنا الظهر هناك أناس فى مكان آخر يصلون العصر .. وأناس فى مكان ثالث يصلون المغرب .. وأناس فى مكان رابع يصلون العشاء .. وأناس فى مكان خامس يصلون الفجر .. أى أنه فى الوقت الواحد يؤذن لله على ظهر الأرض الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر .. إذن فالله مذكور فى كل زمن وبجميع أوقات الزمن ..

هذه آية من آيات القرآن الكريم اتضحت دقة معناها عندما تقدم العلم .. كان لها عطاء وقت نزول القرآن .. ولها عطاء مختلف الآن .. وربما يكون لها عطاء آخر فى الأزمنة القادمة بعد أن يتقدم العلم .. والاعجاز هنا أن القرآن يعطى لكل جيل عطاءه .. ويعطى لكل عقل حاجته دون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون .. فهو متجدد العطاء دائما .. وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبدا مع القرآن .. لأن الله هو الفاعل .. والله هو الخالق .. والله هو القائل ..

هذه احدى نواحى اختلاف القرآن الكريم فى معجزاته عن الكتب السماوية الأخرى .. وهو ما سأتحدث عنه بالتفصيل فى الفصول القادمة ..

حفظ القرآن وتطبيق القرآن

على أن هناك ناحية ثانية وهى أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل اختلافا آخر .. فكل رسول كانت له معجزة وكتاب ومنهج .. معجزة موسى العصا .. ومنهجه التوراه .. معجزة عيسى الطب .. ومنهجه الانجيل .. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزته هى عين منهجه .. ليظل المنهج محروسا بالمعجزة وتظل المعجزة محروسة بالمنهج .. وهنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة فى نطاق التكليف .. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده بالمحافظة على هذه الكتب ..

ماذا حدث عندما كلف الله عباده بالمحافظة على هذه الكتب ؟

نسوا حظا مما ذكروا به . . أى أنهم نسوا ما ذكرهم الله سبحانه وتعالى به . . وما لم ينسوه حرفوه . . لووا ألسنتهم به . . وما لم يلووا ألسنتهم به زادوا عليه وجاءوا بأشياء من عندهم وقالوا إنها من عند الله ليشتروا بها ثمنا قليلا . . إذن فتكليف الله سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة ، أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف . . لكن عندما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن قال :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

لماذا . . أولا لأن القرآن معجزة . . وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الاعجاز . . وثانيا لأن الله جرب عباده فى الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها . .

وهنا نلاحظ شيئا هاما يبين لنا أن معجزة القرآن محفوظة من الله سبحانه وتعالى . . لو أخذنا خطين . . خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه . . وخط المحافظة على القرآن . . نرى أن تطبيق القرآن والعمل به كلما مر الزمن قل وضعف . . أما المحافظة على القرآن . . فكلما مر الزمن زاد بشكل عجيب . . حتى انك ترى القرآن الآن فى كل مكتب . . وفى السيارات . . وعلى صدور السيدات . . وفى المنازل . . وفى كل مكان . . وتجد تجميلا فى القرآن من أناس لا يؤمنون به . . فترى رجلا ألمانيا . . مثلا يكتب القرآن كله فى صفحة واحدة . . ويخرجه بشكل جميل وهو ربما لم يقرأ القرآن فى حياته . . وتجد اليابان مثلا تتفنن فى طبع المصاحف الجميلة ، فإذا سألت لماذا لا يفعلون ذلك فى الكتب الأخرى ؟ نقول لك إنهم مسخرون لذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظ القرآن . . وكل هذا الحفظ الذى تراه هو من عمل الله . . وليس من عمل الإنسان . . وأنت حين ترى القرآن فى مكتب أو سيارة أو منزل وتسأل صاحب المنزل أو السيارة . . أو المكتب هل تعمل بهذا القرآن ؟ هل تؤدى الصلاة كما يجب ؟ يقول لك لا ؟ إذن لماذا تحتفظ بالقرآن فى منزلك دون أن تعمل به ؟ فلا يستطيع أن يجيب أو يقول لك إنه بركة . .

ومن هنا فإن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك فى الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم . . أحيانا تجد غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله . . وأحيانا تجد من لا يطبق القرآن يقتنى أكبر عدد من المصاحف . .

معجزة القرآن وكيف تختلف

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذى يحفظ القرآن هو الله . . وإنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه ، لأن العباد هم المكلفون بالعمل . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظه . .

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية وهى أن القرآن نزل رحمة للعالمين أو للعالم أجمع . . وهذه احدى معجزات القرآن . . فقد كان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل المختلفة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الداءات وتهدى الناس إلى سبيل الله . . وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية . . لذلك اقتضى الأمر أن يأتى رسول ليعالج داءات هذا المجتمع . . بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول فى وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة . فإبراهيم عليه السلام . . ولوط أرسلا فى وقت واحد . . لماذا ؟ لأن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئا ، وذلك بسبب سوء المواصلات وعدم وجود التقدم العلمى الذى يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات . . بل إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتفنى دون أن يدرى مجتمع منها عن الآخر شيئا . . كما أن الداءات فى هذه المجتمعات كانت مختلفة . . فمنهم من كان لا يوفى الكيل والميزان . . ومنهم من كان يعبد الأصنام . . ومنهم من كان يفسد فى الأرض ، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعا واحدا . . يحدث شىء فى أمريكا . . وبعد دقائق تجده فى مصر . ويحدث شىء فى اليابان . . وبعد ساعات تجده فى أوربا . . إذن الاتصالات أصبحت سهلة وميسرة . . والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة . . ومع تعدد الاتصالات وسهولتها توحدت الداءات . . فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى . . فكان لابد من وحدة العلاج . . فمثلا الدعاية للكفر والشيوعية داء استشرى فى كل أنحاء العالم . . ولم يترك دولة دون أخرى . . النظام المالى والربا تجده فى الدنيا كلها . . أكل المال بالباطل والسرقة داء استشرى فى معظم دول العالم . . إذن الداءات أصبحت واحدة . . وهذا يقتضى وحدة العلاج . . ومن هنا جاء الدين الإسلامى للعالمين . . أى للدنيا كلها . . لأن وحدة الداء تقتضى وحدة العلاج . . وهذا من معجزات القرآن الكريم . . فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء فسبق بذلك علم البشر . .

معجزة القرآن وكيف تختلف

القرآن حدد مصدر العلم للبشر

فرق آخر بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى ، هو أنه حدد مصدر العلم البشرى . . وروى لنا كيف يتعلم الإنسان . . فقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . .

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر . . فأنت حين تريد أن تعلم طفلك . . تبدأ بتعليمه الأسماء . . فاللغة هى وسيلة للتفاهم بين البشر . . فهذا الإنسان الذى خلقه الله . . والذى عمر الأرض . . وأقام كل ما نشاهده من مدنية وحضارة . . كان يجب أن تكون هناك وسيلة للتفاهم بين البشر . . فبدون وجود وسيلة للتفاهم لا يمكن أن تقوم حضارة أو يتم تعايش حقيقى . . أو ينتقل العلم من جيل إلى جيل ليتقدم كل جيل ويأخذ حظه من المعرفة عن الجيل الذى سبقه . . ويضيف إليه . . وكانت هذه الوسيلة هى اللغة أو الكلمة التى تسمعها الأذن ويتكلم بها اللسان . . وإذا ولد الإنسان أصم لا يسمع فإنه لا ينطق . . وأمامنا الأمثلة فى العالم أجمع . . على أن أى إنسان لا يسمع لا يستطيع أن ينطق . .

إذن فليست اللغة هى فصيلة دم ولا بيئة . . ولا جنسا . . ولا وراثة . . ولا تعتمد على بشر معين . . وإنما ما نسمعه نتكلم به . . فلو إننى أتيت بإنسان فرنسى أو هولندى . . أو أفريقى . . أو من أى جنسية فى العالم . . أتيت به كطفل رضيع . . وتركته فى بيئة لا تتكلم إلا اللغة العربية . . فإنه سيتكلم لغة البيئة التى عاشها . . بصرف النظر عن جنسيته . . ولو إننى أتيت بإنسان عربى ووضعته فى بيئة لا تتكلم العربية لصعب عليه بعد ذلك أن يتحدث باللغة العربية . .

إذن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . . فلا جدوى من النطق بألفاظ إلا إذا كانت معانيها قد شرحت أولا والأصل أن يوجد الشيء ثم يوضع له اسم . . فأنت مثلا لا تستطيع أن تطلق لقب كوب إلا إذا وجد الكوب أولا . . وإلا فالكلمة ليس لها معنى . .

نعود إلى معجزة القرآن . . والقرآن كلام الله . . والكلام هو أساس الحضارة . . وأساس العلم الذى نزل من الله إلى الإنسان . . فالله سبحانه

وتعالى يقول فى كتابه العزيز . .
« وعلم آدم الأسماء كلها »

ونحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فلابد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولا . . ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث . . بل نبدأ ونقول له هذا قلم . . وهذه كراسة . . وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذا طعام . . وهذا طريق . . وهذا نور . . وهذا ظلام . .

إذن نحن نعلمه الأسماء أولا . . فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم ذلك أننا لا نعلم الطفل الأسماء فى المدرسة فقط . . بل نحن نعلمه بالفطرة . . الطفل المتعلم والجاهل يتعلم الأسماء . . فالأم تعلم الطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة . . والمدرسة تعلم الطفل الذى يذهب إلى المدرسة . . ولكن الاثنين لكى يستطيعا التفاهم فى الحياة يجب أن يتعلما الأسماء أولا . . فنجد أن الطفل الجاهل والمتعلم يعلم معنى الأسماء . . فهو يعلم معنى كلمة طريق . . أو كوب . . أو أسد . . أو نعامة أو إلى آخره . . لا فرق بين جاهل ومتعلم . . لأن هذا هو مدخل التفاهم بين البشر . . وأساس هذا التفاهم كما وضعه الله سبحانه وتعالى حين « علم آدم الأسماء » . . فأصبحت هى الأساس فى العالم أجمع . . والآن بعد أربعة عشر قرنا نجد أن أساس العلم فى الدول المتقدمة . . والدول غير المتقدمة هو الأسماء . . بل ان الدول المتقدمة لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم فى الحياة . . تأتى بصور لتعلم الأطفال الأسماء دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية . . ويستطيع الطفل أن يتعلم أى شىء آخر . . بعد ذلك . .

القرآن منهج للحياة

معجزة القرآن تختلف أيضا عن معجزات الرسل الأخرى . . إنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد فى منهج الله سبحانه وتعالى ما يعالج هذه القضية . . نحن نقول يعالج . . لأن التشريعات عندما تأتى تعالج واقعا موجودا فى المجتمع وفسادا انتشر . . ومن هنا فإن القرآن قد تعرض لقضايا الكون جميعها وأوجد لها العلاج ، وأوجد لها الشفاء والذى يدعيه البعض أن منهج الله لا يعالج قضايا العصر . . دليل على أنهم لم يدرسوا هذا المنهج . . ولم يتعمقوا

فيه . . فما من قضية أساسية فى المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم . . ولكن هنا يقع بعض اللبس . . فقد يقول بعض الناس : إن القرآن مثلا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختراعات الحديثة إلى آخر هذا الكلام . . والذى يجب أن يعرفه الناس جميعا أن القرآن هو منهج عبادة . . ولكنه حينما يأتى ليعالج ، لا يعالج الخصوصيات . . وإنما يضع المبدأ . . فهو حين يطلب منا أن ننقب فى الأرض ونبحث عن آيات الله . . وأن نتعلم فى أمور الدنيا . . وأن نعمل وننتج . . ونعمر الأرض إنما هو يطلب منا لو اتبعناه لاستطعنا أن نصل إلى أكبر تقدم يمكن أن يحققه بشر . . إذن المبدأ موجود فى ضرورة البحث فى الكون . . ومواصلة البحث والدراسة . . ومن يبحث ويدرس فى قلبه إيمان بالله . . وشعور بعظمة الله وقدرته يستطيع أن يحقق الكثير . . والكثير جدا . . المبدأ هو أن نزرع ونعمر ونكشف عن آيات الله فيها . . فإذا تقاعسنا عن هذا كله . . وإذا لم نفعل ذلك . . فلا يمكن أن نستغرب . . أو أن نتعجب لأن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا . . فنحن تركنا منهج الله فى العمل . . فلابد أن يتركنا قانون الله فى النتيجة . . وهذا هو الجمال فى الحياة . . فلا يمكن أبدا أن يكون هناك جمال فى الحياة . . إذا كان الطالب المجد . . والطالب الذى لا يقرأ كتابا فى حياته كلاهما ينجح . . ولا يمكن أن يكون هناك جمال فى الحياة إذا كان الإنسان الذى يحرث الأرض ويعتنى بها ويسقيها ويعالجها من الآفات . . والإنسان الذى يترك الأرض ولا يعمل فيها شيئا بل يهملها تماما . . كلاهما يجنى نفس المحصول ، إذا حدث هذا فإن الجمال فى الحياة يختفى ويصبح كل شىء قبيحا فلا تجد طالبا ينبغ . . ولا عالما يخترع . . ولا إنسانا يضيف إلى الحياة شيئا . . ولا مدينة تبنى مادام من يعمل ومن لا يعمل سيحصلان على نفس النتيجة . . ويحققان نفس الشىء . . ولكن الجمال فى الحياة فى تناسب النتيجة مع العمل . . وعن هذا يتحدث القرآن فى الدنيا والآخرة . .

وبذلك نكون قد عددنا أوجه الخلاف فى معجزة القرآن عن معجزات الرسل الأخرى . . فالقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق . . والقرآن للعالمين ، أى للدنيا كلها . . وليس لقوم محددين والقرآن يحوى الحقائق الأساسية فى الكون كله . . ويأتى بها واضحة فى ألفاظ تنسجم مع قدرة العقول التى عاشت وقت نزول القرآن . . وقدرة العقول فى كل جيل بعد ذلك . .

فالقرآن يعطى لكل عقل حجمه . .

ومعجزة القرآن تختلف أيضا فى أن الله هو الذى يحفظ كتابه ، أما معجزات الرسل السابقة . . فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به . . وأضافوا إليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أى تبديل أو تغيير . . كما أن القرآن كلام الله الذى بدأه مع آدم . . والذى هو أساس العلم البشرى كله . .

ولكن القرآن جاء يتحدى العرب فى اللغة . . وفى البلاغة . وذلك ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم . .



الفصل الثالث

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

القرآن كلام الله سبحانه وتعالى . . ومادام كلام الله فيجب أن يكون معجزا . . لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله ، العرب ، وهم أساتذة البلاغة فى ذلك الوقت . . وبهتوا لما فيه من اعجاز . . ومن بلاغة . . وقال بعض العرب فى ذلك الوقت ان أساتذة البلاغة قادرون على أن يأتوا بمثل هذا الأسلوب . . ولكنهم صرفوا من الله على أن يأتوا به . . وهذا القول هو اثبات بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . . فلو أنه ليس كلام الله لما صرف الله العرب عنه أن يأتوا بمثله . . وأثبتوا أن اعجاز القرآن الكريم موجود . . ولكنهم جعلوا هذا الاعجاز بالقدرة . . أى أن قدرة الله سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثله . . وكان هدفهم أن ينفوا الاعجاز عن ذاتية القرآن . . فى أن بشرا لا يستطيع أن يأتى بمثله . وبهذا النفى الذى أرادوه أعطوا للقرآن معجزة أخرى ، وهى معجزة القدرة . .

على أن اعجاز القرآن يجب أن ننظر إليه من الدائرة الأولى التى استقبلته . . وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فالمنطقى والطبيعى مادام القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، يكون أبلغ الكلام . . ويكون فيه معجزة . . وبلاغة القرآن لها عناصر لابد أن تتوافر فيها . . فالبلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ومقتضى حال المخاطب بالذات . . ولكن العجيب أن القرآن فى هذه الناحية ، وهى مطابقة الكلام بمقتضى الحال . . فيه معجزة كبرى . . فأحوال الناس متعددة . . متغيرة . . وأنت حين تخاطب إنسانا إذا لم تعرف ما فى نفسه . . فإنك لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه . . ومخاطبتك لرئيس الدولة مثلا . . أو الأمير . . تختلف فى أسلوبها وطريقتها عن مخاطبتك لخادمك أو من يعمل عندك . . تختلف فى أسلوبها عن مخاطبتك لزوجتك وأولادك . . وكل ذلك يختلف عن مخاطبتك لرئيسك فى العمل . . أو لمرؤوسيك . . إلى آخر النوعيات التى تخاطبها . . بل إن الأمر يمتد أكثر من ذلك إلى الحالة النفسية التى فيها المخاطب . . فإنسان غاضب فى قمة غضبه لا يمكن أن تخاطبه بنفس الأسلوب . . وبنفس الطريقة التى تخاطب هذا الشخص ذاته بها عندما يكون فى حالة نفسية سعيدة . . هذا له كلام . . وهذا له كلام آخر . . مخاطبة الإنسان

الغاضب لها طريقة . . ومخاطبة الإنسان الذى هو فى حالة نفسية سعيدة لها طريقة أخرى . . ولكن اعجاز القرآن يأتى فى أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا . . الغنى منهم والفقير . . التعيس منهم والسعيد . . الخادم منهم والسيد . . إنه يخاطبهم جميعا . . ويخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها . . فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه . . والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز فى داخل نفسه . . وزادت سعادته . . والأمير . . والخادم . . والمثقف . . وغير المتعلم . . وهؤلاء جميعا الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أى مستوى . . ولا أن تتوحد عقلياتهم . . بحيث يكلمهم متحدث واحد . . وفى نفس الموضوع فيفهمونه . . تراهم فى الصلاة . . وقد اجتمعوا فى المسجد . . وجلسوا معا . . ويتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعا . . رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية . . والحالة الاجتماعية وكل شىء اختلافا بينا . . ومن هنا كان الاعجاز الأول فى بلاغة القرآن . . انه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين . . من أجناس مختلفة . . وشعوب مختلفة . . وثقافات مختلفة . . ولغات مختلفة . . وبيئات مختلفة . . لم يخاطبهم بما يهز وجدانهم ومشاعرهم . . ويؤثر فى عواطفهم . . فإذا سألت أحدهم ما الذى أعجبك فى القرآن . . فإنه غالبا لا يستطيع أن يعطيك جوابا شافيا . . وإنما سيعطيك كل واحد منهم جوابا مختلفا . . وذلك يدل على أن الاعجاز واصل إلى قلبه . . متغلغل فى نفسه . . بما لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل . . أى أن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه . . وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا تتأثر بأسلوب القرآن . . ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التى أعطت القرآن هذه البلاغة . . ثم بعد ذلك لا نجد جوابا شافيا . . إذ إن الله سبحانه وتعالى يخاطب فى النفس البشرية ملكات هو خالقها . . وإن هذه الملكات تتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى . . وتهتز له دون فارق من فوارق الدنيا . . أو من الفوارق التى وضعتها الحياة الدنيا بين الناس . . ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن . . ولو كانوا غير مؤمنين . . فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هزا عنيفا . . ويجعلها تتأثر به . . حتى أن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يعلى

عليه .

وهكذا تأثر به دون إيمان . . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم باسلام أخته وزوجها كان ناويا الشر . . وما إن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه وانشرح صدره للإسلام . . لماذا ؟ لأن كلام الله سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة فى نفسه . . وهو فى غاية الضيق والحمق . . وينوى الشر . . وخاطب هذه النفس ، نفس عمر بن الخطاب ، وهى فى هذه الحالة من الغضب الشديد بنفس الكلام الذى يخاطب به المؤمنين ، وهم فى حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى الله سبحانه وتعالى . . وإذا بالآيات ، نفس الآيات التى تدخل السعادة على نفس قريبة من الله . . قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت . . وأصابت فى نفس الوقت نفوسا سعيدة وهى نفوس المؤمنين . . فجعلتها تزداد سعادة . . وتنشرح للإسلام . . ونفسا غاضبة تنوى الشر لم تصل إلى الإيمان بعد . . فهدأتها وجعلتها سعيدة . . وانشرح الصدر للإيمان . . مع أن الكلام واحد . . وفرق كبير بين حالة المخاطب فى الحالتين . . ومع ذلك ولأن القائل هو الله سبحانه وتعالى . . وهو العالم بالنفس البشرية التى خلقها . . فقد كان كلامه مناسبا لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات . . مع أنه نفس الكلام . .

إذن فهناك فى النفس ملكات خفية عن الإنسان . . لا يعرف سرها إلا الله سبحانه وتعالى . . ويقوم الله بمخاطبة البشر على اختلاف أحوالهم . . فتهتز هذه الملكات . . وتتأثر وينسجم الإنسان معها دون أن يعرف السر . .

قالوا ساحر . . وقالوا مفتر

إذا وصلنا إلى ذلك . . نكون قد تحدثنا عن أول شروط البلاغة . . وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ونجد أن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة فى أنه مطابق لكل أحوال البشر . . على اختلاف ظروفهم . . ولذلك تحير الكفار فى هذا الاعجاز فى مخاطبة البشر جميعا . . وفى هذا الاعجاز الذى تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه . . فقالوا ساحر . . سحر الناس بكلامه . . لأنه لا يمكن لبشر عادى أيا كان أن يأتى بكلام يطابق كل الأحوال . . ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر . . وقلت له انظم قصيدة . . أو أعد

كلاما لتلقيه أمام الناس . . فهو لا يستطيع أن يعد كلاما يقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم . . وفى نفس الوقت يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين . . ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال . . ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميرا . . ثم يقول نفس القصيدة فى خادم الأمير . . ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال . . ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم . . والعبد والسيد . . والرجل العادى والحاكم . . ومن هنا كانت المطابقة معجزة . . فقالوا ساحر . . فليأتوا بسحر مثله . . ثم هل للمسحور خيار أو ارادة مع الساحر . . اذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به . . فلماذا لم يسحركم أنتم . . ان بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين ، دليل على أنه ليس ساحرا . . وإلا لو كان ساحرا لكان قد سحركم جميعا . . ولم يسلب بعض الناس ارادتهم . . ويترك البعض الآخر على ارادته . .

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى . . قالوا مفتر . . نقول لهم مادمتم قد فهمتم أنه مفتر . . فافتروا أنتم إن كنت تستطيعون . . بل إنكم أنتم أيها الكفار أقدر منه على الافتراء . . فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس له دراية بفن الكلام . . والخطب والشعر والأدب . . بل إنه لا يقرأ ولا يكتب . . ولا يقول الشعر . . أما أنتم فأساتذة الكلام والبلاغة ، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . ولم يقل شعرا أو أدبا . . قد قال هذا الكلام . . وأنتم تقولون انه مفتر . . فوسائل الافتراء تملكون أسبابها أكثر من محمد عليه الصلاة والسلام . . عندكم الشعراء والأدباء . . فافتروا مثله . . وأداة الافتراء موجودة تستطيعون أن تستغلوها . .

ولقد أراد القرآن أن يرد على هذا الاعجاز . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

(سورة الحاقة)

حتى الرد فيه اعجاز . . فالشعر مفهوم . . انه من كلام موزون مقفى يعرفه

الناس جميعا .. ومن هنا فكونكم تقولون ان هذا شعر .. فهذا دليل على أنكم تكفرون .. لماذا ؟ .. لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة .. وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه .. ولذلك عندما تقولون أيها الكفار انه قول شاعر .. وما تقولونه ليس عن جهل .. ولكن عن كفر بالله سبحانه وتعالى لأنكم تعرفون الشعر جيدا .. ثم قال الله سبحانه وتعالى .. وإنما تقولون إنه قول كاهن .. فهنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة تذكرون .. أى انكم فى قولكم انه قول كاهن .. وقول الكاهن كلام فيه سجع .. ويمكن أن يختلط .. ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات .. ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الاعجاز .. كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت .. والزمن .. ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن .. ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم انه كاهن .. كان الرد بكلمة تذكرون .. لأنه من الواضح أن هذا ليس شعرا .. ومن هنا فإنه يمكن أن يختلط بكلام الكهان .. والفرق بين النثر والشعر فى هذه الحالة هو أولا الاعجاز فى مخاطبة ملكات النفس البشرية .. وثانيا طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قال .. ومن هنا قال الله سبحانه وتعالى « قليلا ما تذكرون » أن البشر معرض أن ننسى ما يقوله .. فاستخدم كلمة تذكرون .. ولم يستخدم كلمة تؤمنون .. أو الكفر .. التى استخدمها فى الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر .. لأن الشعر له قواعد معروفة ..

نأتى بعد ذلك إلى اعجاز آخر فى القرآن .. انه إذا قرأت أى كلام منثور .. ثم جاء الكاتب فاستشهد ببيت من الشعر .. تشعر ساعة ينتقل الكاتب أو المتكلم من النثر إلى الشعر .. انك انتقلت من طبيعة كلام إلى كلام آخر .. ثم تترك بيت الشعر وتعود إلى النثر فتعرف أيضا إنك انتقلت من كلام إلى كلام آخر .. نأتى إلى رسالة بن زيدون التى يقول فيها : « ومع اليوم غد .. ولكل أجل كتاب له الحمد على اهتباله .. ولا عتب عليه فى اغفاله » ..

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا
فأفعاله اللائى سررن ألوف

وهنا نلتفت فنجد اننا انتقلنا من النثر إلى الشعر فى كلام فى غاية الانسجام .. ولكى نعرف الفرق ..

نأتى إلى القرآن الكريم .. كلام الله .. اقرأ القرآن ..

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ
أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾
وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ
إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

أنت قرأت هذا النص القرآنى ولم تشعر أنك قد انتقلت من النثر إلى الشعر إلى النثر مرة أخرى دون أن تدرى .. أى انك انتقلت من شىء منثور إلى شىء منظوم .. ثم من شىء منظوم إلى شىء منثور .. وأتحدى أن يأتى بها إنسان عندما تنظر إلى الكلام الذى قيل « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم .. وأن عذابى هو العذاب الأليم » ما جنى بارقات مستفعل فاعلات .. بيت من الشعر .. ومع ذلك ما أحست أذنى انى انتقلت من النثر إلى الشعر .. وانى انتقلت بعده من كلام منظوم إلى كلام منثور ..

ومثل ذلك تجده فى كثير من آيات القرآن الكريم .. امرأة العزيز عندما جمعت النسوة :

﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ

ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(سورة يوسف)

قول الله سبحانه وتعالى « **فذلكن الذى لمتننى فيه** » مستفعل فاعل .. مستفعل فاعل .. هل شعرت أنك انتقلت من كلام منثور .. وكذلك قول الله سبحانه وتعالى « **فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر** » .. مفاعيل .. مفاعيل .. مفاعيل .. « **والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** » ..

فى كل من هذه الآيات لم تشعر أنك انتقلت من شعر إلى نثر .. لأنه توجد هناك فجوة كلامية .. والقرآن نظم فريد .. لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع .. وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى .. إذن فبلاغة القرآن فى مطابقته للحال .. حال جميع المخاطبين .. وبلاغته فى الانتقال من الشعر إلى النثر .. ومن النثر إلى الشعر دون أن تحس .. وبلاغته فى تحريك النفس البشرية .. كل نفس بشرية .. وبلاغته فى أن الله تحدى أساطين البلاغة .. بل تحدى الأنس والجن فى أن يأتوا بسورة من مثله .. فعجزوا وأمام هذا العجز لم يستطعيوا أن يصوبوا المواجهة التى يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد .. لم يستطعيوا أن يصوبوا هذه المواجهة إلى ذات المعجزة وهى القرآن الكريم .. لأن التحدى كان أقوى منهم جميعا .. فإذا بهم يصوبون ذلك إلى من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. قالوا :

« **لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** »

ـ وهنا مربط الفرس .. الحقد والغيرة لم يستطيعا أن يواجها القرآن .. فقالوا لماذا اختار الله محمدا لينزل عليه القرآن .. كإنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه السلام .. وليست آفته أنه صراع بين حق ينادى به القرآن .. وباطل هم مقيمون عليه ..

والذى يقيم على الباطل يريد للباطل أن يستمر .. لأن الباطل هو الذى يعطيه القوة والقدرة والسيادة .. وهو يريد لهذا الباطل أن يبقى لتبقى له

السيادة .. فيأتى الحق .. ويغلبه .. ويحس أن ملكه سيزول فيقول :
« اللهم ان كان هذا هوالحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء »
إذن فهو يريد العزة مع الباطل .. أما إذا كان زوال الملك سيأتى مع الحق فهو لا يريده .. ويطالب الله .. أو يطلب من الله أن يمطر عليه حجارة من السماء .. إذن فهو يكره الحق لذاته .. لأنه سيسلبه سلطانه وقوته .. ويريد للباطل أن يستمر .. ليبقى سيدا .. ولو بغير الحق .. ثم يقول الكفار بعد ذلك : **« ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا »** .. إذن المانع من الإيمان ليس أنه غير الحق .. لكن المانع له أنه سيزيل عنكم السيادة التى أعطاها لكم الباطل .. وسيتجرأ عليكم الناس وتتخطفون من أرضكم .. وكان هذا هو العناد .. بعد أن فشلوا فى تحدى معجزة القرآن اللغوية .. والرد عليها ..

معنى الحروف فى القرآن

ولكنهم فى تحديهم ووقوفهم موقف المعارضة .. أثبتوا أنهم داخل نفوسهم يعتقدون أن القرآن هو الحق .. لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا اعجازه .. الاعجاز أولا فى النبى المختار للدعوة .. والاعجاز ثانيا فى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر .. ولنتحدث عن هاتين النقطتين بشىء من التفصيل .. الاعجاز الأول أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقرأ .. ولم يكتب طوال حياته .. ولم يتعلم القراءة والكتابة .. ولم يدرس الأدب ولا الشعر .. ولا النثر .. ولا علم الكلام .. إلى غير ذلك .. ومع هذا فقد جاءوا بكلام غاية فى الاعجاز .. كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة .. وبرعوا فيها أن يأتوا به .. أو يأتوا بسورة من مثله .. بل الاعجاز يتجلى أكثر فى أن الله سبحانه وتعالى أثبت فى القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام .. بل هو كلام لا يمكن أن يأتى به أمى .. فالإنسان الأمى قد ينطق الكلمات .. وقد ينظم الشعر والنثر والسجع .. ولكنه لا يستطيع أبدا أن يأتى بالحروف التى تتكون منها الكلمات .. فإذا أنت ذهبت إلى إنسان لم يعرف فى حياته القراءة والكتابة .. وسألته ما هذا .. يقول لك هذا كوب مثلا .. فإذا قلت له ما هى الحروف التى تتكون منها كلمة كوب لم يعرف لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة .. وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى بالحروف التى

لا يعرف مسمياته رجل أمى . . ويجعل النبى ينطق بها ويجعلها فى القرآن فيقول : « ألف . . لام . . ميم . . كاف . . ها ـ يا ـ عين ـ صاد » امعانا فى الاعجاز والتحدى . . محمد نبى أمى لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبدا . . ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف . . لاثبات بأن هذا ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام . . لأنه لو كان كلام محمد وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب فى حياته . . لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التى لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة . .

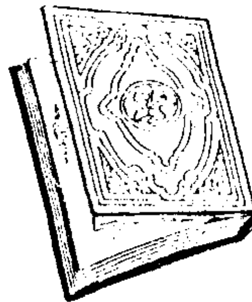
مهارة الصانع

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر فى أسلوب ومعان يعجز عنها البشر . . وهذا اعجاز وتحد . . لأنك تريد أن تدلل على مهارة الصانع فى أى شىء . . فأنت لا تأتى بمادة مختلفة . . ثم تقارن بين صانع وآخر . . أنت إذا أردت مثلا أن تعرف من هو أمهر الناس فى صناعة النسيج . . لا تأتى بخامة من حرير . . وخامة من قطن . . وخامة من خيش . . ثم تعطيها لثلاثة صناع . . وتقارن بين انتاجهم . . لأنك فى هذه الحالة لا تستطيع أبدا أن تقول ان هذه أحسن من هذه . . لأن نسيج الحرير لابد أن يكون أحسن . . نظرا لأن الخامة التى صنع منها الثوب هى أفضل الخامات . .

ولكن المهارة تكون فى استخدام مادة واحدة . . نعطى الكل قطنا أو حريرا أو صوفا . . ولذلك تكون العناصر المكونة للشىء واحدة . . أو متساوية . . فلا يكون لها دخل فى الجودة . . وتكون الجودة أو المهارة للصانع نفسه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولاً أن القرآن لم يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى . . مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر . . بل هى من جنس كلام البشر . . الحروف هى الحروف . . والكلمات هى التى تنطقون بها هى نفس الكلمات المستخدمة . . وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم . . ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده . . ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدى . . الحروف نفس الحروف . . والكلمات نفس الكلمات . . ولكن الذى أفحمهم هو الله سبحانه وتعالى . . فلم يستطيعوا أن

يأتوا بمثله . . وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف . . ومن هنا كان التحدى عظيما . . لأن الفارق هو بين قدرة الله سبحانه وتعالى . . وبين قدرة البشر . .

وعندنا فى البلاغة عندما نقول ان هذا الشيء بليغ . . ونقول ان العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة . . يعنى أن البلاغة هى وضع الكلام مناسبا للمقام الذى يقال فيه . . ومستوفيا لأركان سلامته . . وأركان الكلام هى ألا يكون بين الحروف تنافر . . مثل أن تكون الكلمة هيع . . هيع . وإنما تكون الكلمات منسجمة . . ولا تأتى مخالفة لقانون اللغة . . ولا تكون غريبة على الأذن . . عندما تستوفى الكلمة هذه الشروط . . توضع فى جملة يشترط أن تكون منسجمة مع الكلمة الأخرى . . خاضعة لقواعد اللغة . . وليس فيها تعقيد . . إذن عندما جاءوا ليعرفوا البلاغة قالوا هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . تراكيب منسجمة ومخاطبة للبشر . . مطابقة لمقتضى عقلهم . . ومن هنا فكانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب . . ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون هناك علم . . وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود . . ولكن علم الله سبحانه وتعالى بلا حدود . . ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم فى أنه معجز فى مخاطبته للبشر جميعا . . معجز فى بلاغته . . ومطابقته بمقتضى مخاطبته للبشر جميعا يخاطب ملكات فى النفس لا ندرى . . لا نعرف سرها . . مكون من نفس الحروف والكلمات التى يستخدمها العامى . . والمتلعم . . تحدى به الله البشر أن يأتوا بسورة مثله . . ثم تحدى الانس والجان . . وهم الذين لهم اختيار . . ووضع الله فيه أسماء الحروف كاعجاز لأن الموحى إليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم أمى لم يقرأ . . ولا يكتب . . على أن الاعجاز فى القرآن لا ينتهى عند هذا الحد . . وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التى يعجز عنها البشر . . **وهو موضوع الفصل القادم .**



الفصل الرابع

البلاغة في القرآن الكريم

إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة القرآن . . وبلاغته . . فإننا لابد أن نتناول دقة اللفظ . . أو دقة التعبير فى القرآن الكريم . . وكلام الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون فى غاية الدقة . . بحيث يعبر عن الشيء تعبيرا كاملا . . فلا تجد حرفا زائدا بلا معنى . . ولا كلمة مترادفة إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم . . والحقيقة أن المعجزة فى القرآن تجدها فى حرف . . فيقول الله سبحانه وتعالى :

« قل سيروا فى الأرض »

وتقف أنت عند هذه الآية الكريمة وتسأل . . لماذا لم يقل الله : قل سيروا على الأرض . . هل أنا أسير فى الأرض . . أو على الأرض . . حسب مفهوم الناس جميعا . . فأنا أسير على الأرض . . ولكننا نجد أن الله قد استخدم كلمة فى . . ولم يستخدم كلمة على . . يقول : سيروا فى الأرض . (ففى) تقتضى الظرفية . . والمعنى يتسع لأن الأرض ظرف المشى . . ومن هنا فإن التعبير جائز . . ولكن ليس فى القرآن كلمة جائز . . فالتعبير بقدر المعنى تماما . . والحرف الواحد يغير المعنى وله هدف . . وقد تم تغييره لحكمة لكن ما هى حكمة استخدام حرف (فى) بدلا من حرف (على) . . ؟

عندما تقدم العلم وتفتح وكشف الله أسرار الأرض وأسرار الكون . . عرفنا أن الأرض ليس مدلولها المادى فقط . . أى أنها ليست الماء والأرض . . أو الكرة الأرضية وحدها . . ولكن الأرض هى بغلافها الجوى . . فالغلاف الجوى جزء من الأرض يدور معها ويلازمها . . ومكمل للحياة عليها . . وسكان الأرض يستخدمون الخواص التى وضعها الله فى الغلاف الجوى فى اكتشافاتهم العلمية . . والدليل على ذلك أنك إذا ركبت الطائرة فإنها ترتفع بك ٣٠ ألف قدم مثلا عن سطح الأرض . . ومع ذلك فإنك لا تقول إنك خرجت من الأرض . . ولكنك تقول أنت تطير فى الأرض . . متى تخرج من الأرض علميا وحقيقة . . عندما تخرج من الغلاف الجوى للكرة الأرضية مادمت أنت فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية . . فأنت فى الأرض . . ولست خارج الأرض . . فإذا خرجت من الغلاف الجوى . . فأنت فى هذه اللحظة التى تخرج فيها خارج الأرض . . الغلاف الجوى متمم للأرض . . وجزء منها . . ويدور معها .

نعود إلى الآية الكريمة ونقول : لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ فى . . ولم يستخدم لفظ على . .؟ لأنك فى الحقيقة تسير فى الأرض . . وليس على الأرض . . هذه حقيقة علمية لم يكن يدركها العالم وقت نزول القرآن . . ولكن الله سبحانه وتعالى وهو القائل . . وهو الخالق يعرف أسرار كونه . . يعلم أن الإنسان يسير فى الأرض . . أنه يسير على سطح الأرض . . ولكنه لا يسير على الأرض . . بل يسير فيها بين الغلاف الجوى والسطح . . ومن هنا فهو يسير فى الأرض . . أى فى وسطها بين غلافها الجوى الذى هو جزء منها . . وبين اليابسة التى هى جزء آخر . . وهكذا نجد دقة التعبير فى القرآن فى حرف . . ونجد معجزة القرآن فى حرف . .

اختلاف الصبر

انتقل بعد ذلك إلى مثل آخر لنعرف مدى بلاغة القرآن فى اختيار اللفظ الذى يناسب المعنى تماما . . وليس فيه تجاوز ولا مترادفات . . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(سورة لقمان)

. . ثم نجد فى آية ثانية . .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

. . زادت هنا اللام . . أى إنسان يقول إن زيادة اللام هنا للتأكيد . . كلمة مترادفة . . لا يتوقف عندها كثيرا . . ولكن المسلم حين يدقق فى معانى القرآن الكريم . . يجد أن كل حرف فى القرآن الكريم . . قد تم وضعه بحكمه بالغة . . وأنه لا شىء اسمه مترادفات . . وانما لكل لفظ معنى يؤديه ، ولا يؤديه اللفظ الآخر . . رغم التشابه . . فإذا دققنا فى المعنى نجد ما يلى : فى الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى « واصبر على ما أصابك » . والأمر هنا نوعان نوع

للإنسان فيه غريم .. ونوع لا يوجد فيه غريم .. عندما أمرض ليس لى غريم .. وإذا أصابنى مكروه بقضاء وقدر .. كأن أكون سائرا فى الطريق فيسقط شيىء فوقى ليس هناك غريم .. إنما عندما أسير فى الشارع ويعتدى على إنسان بالضرب .. إذن هناك غريم .

فهناك نوعان من الصبر .. صبر النفس وما ليس لى فيه غريم .. وهذا هين لأنه ليس هناك إنسان انفعل عليه .. ولا أملك أن أرد على شيء قد حدث لى .. ما حدث هو قضاء الله .. وأنا ليس أمامى إلا الصبر .. هذا نوع من الصبر لا يحتاج إلى طاقة كبيرة ليمارسه الإنسان .. لأنه ليس هناك غريم استطيع أن أرد له ما أصابنى ..

والنوع الثانى من الصبر .. محتاج إلى جلد .. ومحتاج إلى قوة ارادة .. وهذا النوع هو الذى يوجد لى فيه غريم أستطيع أن أنتقم منه .. وأستطيع أن أصفح وأغفر .. إذن عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصبر بنوعيه .. يعطى لكل نوع ما يستحقه من وصف للنفس البشرية .. فهو عندما يتحدث عن الصبر على شيء ليس له .. فيه غريم .. يقول :

« **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** »

وعندما يتحدث عن الصبر الذى لى فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم .. وأكون منفعلا إذا لم أنتقم .. يقول سبحانه وتعالى :

« **إن ذلك لمن عزم الأمور** »

هنا اللام للتأكيد فى نوع الصبر .. وما يحتاجه من جلد وضبط للنفس .. ففى الحالة الأولى حينما لا تستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به .. يكون الصبر من عزم الأمور .. ولكن فى الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« **ولمن صبر وغفر** »

وهنا يظهر من كلمة غفر .. أن هناك غريما يمكن الانتقام منه .. وأن هذا الغريم قد غفر الإنسان له .. ومن هنا لابد أن تأتى اللام للتأكيد .. لتؤكد المعنى .. وتؤكد الفرق بين عزم الأمور فى الحالة الأولى .. وعزم الأمور فى الحالة الثانية .. وهكذا نرى أن حرفا واحدا فى القرآن الكريم يصنع معجزة ..

مخاطبة النفس البشرية

على أن المعجزة لا تأتى فى حرف فقط .. بل تأتى أيضا فى مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة .. الشيء الذى ينبىء عن علم تام بخفايا النفس البشرية .. وملكاتها التى نعرفها .. والتى نجهلها .. فمثلا عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين بأن يطوفوا بالبيت الحرام .. ساعة ما يلقى هذا الأمر ، ما الذى يهتز فى نفس المسلم الذى يستمع .. أى الملكات تهتز .. ملكة الاقتصاد فى النفس .. على أساس أن هؤلاء المشركين يأتون من كل الدول .. المدن .. القرى .. والبلاد المحيطة بمكة .. وهذه لم يصلها الإسلام بعد .. ومعنى منعهم من الحضور .. منع الخير الذى يأتى معهم .. فهم يأتون بالبضائع .. وينفقون .. ويحدثون رواجا اقتصاديا .. هنا تهتز ملكة الاقتصاد فى النفس .. والله سبحانه وتعالى وهو خالق للنفس البشرية .. يعلم هذا .. فعندما تنزل هذه الآية .. لا تقتصر على مخاطبة ناحية افعل ولا تفعل .. كأوامر ونواه .. وطريق ومنهج للحياة .. ولكن تتجلى فيها رحمة الله فتخاطب الآية الملكة النفسية التى تتأثر بالاقتصاد .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** »

يخاطب فى نفس الآية الملكة الاقتصادية .. ويخاطب الملكة الاقتصادية قبل أن يثار السؤال فى أن ذلك سيؤدى إلى ضيق الرزق .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

« **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله** »

نفس الآية .. والمعنى هنا أنه حذار أن تفتنكم الملكة الاقتصادية والخوف من ضيق الرزق عما أقول لكم فى افعل ولا تفعل .. ولا تخافوا من الفقر .. فإن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد .. وسيغنيكم من فضله ..

إن هذا المعنى .. معنى الملكة الاقتصادية .. وتأثيرها داخل النفس يتكرر الآن فى أشياء كثيرة تحدث فى الدنيا .. والله سبحانه وتعالى حين يقول لك افعل كذا .. أو يقول لك لا تتعامل مع كذا .. يأتى بعد ذلك مباشرة السؤال إلى ذهنك .. والرزق الذى أحصل عليه من هذا التعامل .. من أين آتى به .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى انى أرزقك من طريقى .. ومادام الرزق بيدى أنا فإننى سأيسر لك سبيلا آخر للرزق .. ولا تخش الفقر .. ولا تخف من أن رزقك سيناله غيرك .

« هو . . يطعمنى ويسقين »

والله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب دائما ملكات النفس البشرية . . ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين . . بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات . . فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطى معنى جديدا . . أو يفهم شيئا جديدا . . وهذه الدقة الهائلة . . تجدها موجودة بكثرة فى القرآن الكريم . . مثلا إبراهيم عليه السلام يقول :

« فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين »

. . هنا نتوقف لنسأل : لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام هو الذى خلقنى فهو يهدين . . وقال : الذى خلقنى فهو يهدين . . لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد . . فليس هناك إنسان مهما كبر وعظم وحكم الدنيا كلها . . يستطيع أن يدعى إنه يخلق إنسانا . . وإلا فسنطلب منه أن يفعل ذلك وسيعجز . . إذن فالخلق لم يدعه أحد . . لذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد . . إنما الهداية هناك مئات الألوف ممن يدعون إنهم يهدون الناس . . بعضهم وضع مناهج مع الدين . . وبعضهم وضع مناهج ضد الدين . . والمهم إنهم جميعا يدعون إنهم يريدون هداية البشر . . وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه . . ويدعى انه للهداية . . ومن هنا كان لابد من التأكيد على أن الهدى من الله وحده . . إن الحق والطريق المستقيم من الله وحده . . وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لابد من وضعه . . وإن الضمير فى الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكر به . . فالخلق صفة من صفات الله . . لا ينازعه فيها أحد . . فهو ليس محتاجا إلى تأكيد وإنما الهدى فيه ادعاءات من الناس . . وهنا تأتى كلمة (هو) ضرورة . ثم تأتى بعد ذلك فى :

« والذى هو يطعمنى ويسقين »

لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب فهناك ادعاءات كثيرة فى الرزق . . ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى كلمة :

« هو يطعمنى ويسقين »

ويقول أيضا :

« وإذا مرضت فهو يشفين »

.. ذلك إننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى .. ثم بعد ذلك نأتى إلى عدم وجود كلمة هو فى قوله تعالى :

« والذى يميتنى ثم يحيين »

ولم يقل : والذى (هو) يميتنى ثم (هو) يحيين .

لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله فى مسألة الموت والحياة .. ولا يدعيها لنفسه .. ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال .

وهكذا نرى فى هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالضمير فيضعه مرة .. ويحذفه مرة .. لأن المقام يقتضى ذلك .. ولأن دقة التعبير فى القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع فى المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة .. سواء من ناحية الاضافة أو الحذف .. أو اختيار الكلمات .. ولو إن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة هو فى كل الآيات التى ذكرناها .. أو حذف كلمة هو من كل الآيات التى ذكرناها .. لما تنبه لذلك معظم الناس .. لمعنى الحديث على أساس أنه كلام بشر .. ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى ..

لماذا التغيير

ونرى أن الدقة البالغة فى التعبير تقتضى التغيير فى كل حرف يتم .. وفى كل كلمة تقال .. بل فى نفس الكلمة مثلا .. مثل سقيناهم .. وأسقيناهم .. سقيناهم متعديا .. وأسقيناهم متعديا ..

« سقاهم ربهم شرابا طهورا »

هذا قول الله سبحانه وتعالى .. وفى آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

« وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم »

لماذا لم يقل لو استقاموا على الطريقة لسقيناهم .. مع أن سقى وأسقى بمعنى واحد .. واللفظان يتعديان لمفعولين .. ما هو الخلاف .. هل هى مجرد مترادفات .. أم ألفاظ تتغير حتى لا تتكرر نفس الألفاظ .. أبدا .. كل تغيير له حكمه .. كل تغيير يحدد معنى معينا لا يحدده غيره .. ونحن حين نأتى ونتابع القرآن الكريم نجد أن سقى تستخدم فى الأمر الذى ليس فيه كلفة ولا علاج .. وأسقيناهم فى الأمر الذى فيه كلفة وعلاج .. هذا فى أمور الدنيا

« أسقيناهم ماء غدقا »

أمر فيه كلفة .. فيه جهد .. نحن أوجدنا لهم الماء وجعلناه متوافرا لديهم بلا تعب ولا نصب .. فهو موجود فى البئر .. ولكن لكى تتم السقيا يجب أن يذهب الإنسان إلى البئر ليشرب .. أو أن يحضر له إنسان آخر الماء .. إذن هنا فى أسقيناهم .. رغم أن الماء موجود بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ومتوافر بقدرة الله سبحانه وتعالى .. إلا إن عملية السقا فيها عمل من الإنسان .. أو جزء من العمل .. فإذا أتينا إلى كلمة سقيناهم .. نجد الله سبحانه وتعالى يقول :

« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

هذا فى الجنة .. بمجرد الخاطر ليس فيه كلفة .. إذا أحسست بالعطش وجدت الماء أمامك يصل إلى فمك .. هنا فى الآخرة لا يوجد أى جهد ولا أى كلفة للإنسان فى أى عمل يعمله .. فكل شيء فى الجنة متى تمناه الإنسان وجده حاضرا أمامه .. إذن فقول الله سبحانه وتعالى ..

« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

معناه أن السقيا هنا فى الجنة ليس فيها أى جهد .. ولا أى كلفة .. ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين السقيين .. رغم إنه هو الذى أوجد الماء أو ما يتم شربه فى الحالتين .

« يعلمون .. ويعقلون »

إذا مضينا نقرأ فى القرآن الكريم .. نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظا معينا .. وفى حالة مماثلة لم يأت بنفس اللفظ حتى انك حين تسمع الآية تظن أنه سيأتى باللفظ الأول .. ولكنه لا يأتى به .. مثلا يقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعلمون »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون »

لماذا الاختلاف فى الكلمة .. مع أن العلم والعقل واحد .. أقول إن هناك فرقا كبيرا يحتم فى مرة استخدام لفظ يعلمون .. وفى مرة استخدام لفظ يعقلون ..

نأتى إلى نص الآيتين الكريمتين فى سورة البقرة يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ
أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والآية الثانية فى سورة المائدة . .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ
إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾

(سورة المائدة)

ولكن عندما يأتى المستشرقون يقولون إن اللفظين مترادفان . . فالعلم والعقل . . العقل والعلم شيء واحد . . والعاقل من علم أو من استطاع أن يعقل العلم ، ويقولون إن هذه مترادفات إلى آخر ما يقال فى هذا الموضوع . نقول لهم إنكم حينما تقولون هذا الكلام . . إنما لا تعرفون شيئا عن بلاغة القرآن الكريم . . فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم لفظين لأداء نفس المعنى ولكن كل لفظ له معناه . . كل لفظ يعبر بدقة عن المعنى المراد منه . . فالله سبحانه وتعالى عندما يقول يعقلون . . معناها إنهم لا يفهمون شيئا أى ليس لهم عقول تفكر . . لا يتدبرون فى أمر هذا الكون . . إنهم لا يستخدمون عقولهم . .

ولو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارىء . . وإن هذا الكون بدقته وبديعه لا يمكن إلا أن يكون من خلق الله سبحانه وتعالى . . هذه فى كلمة يعقلون . . إذن هنا هو نفى عنهم التدبر والتعقل فى أمور العبادة وفى أمور هذا الكون . .

ولكن عندما يقول الله سبحانه وتعالى لا يعلمون فهو قد نفى عنهم التعقل والعلم معا . . بمعنى أننى قد أكون أنا باحثا فى هذا الكون . . قد أكون متأملا فيه عاقلا لما يدور . . فافكر بعقلى . . وأصل إلى أشياء . . هذا هو الإنسان الذى يعقل . . أما قوله تعالى :

« **لا يعلمون** »

فهو يريد أن يقول لنا . إنهم بجانب عدم تدبرهم فى هذا الكون . . وإنهم لا يعقلون الآيات الموجودة فيه . . هم أيضا لا يعقلون ما علمه غيرهم من العلم . . فالذى لا يعقل لا يتدبر ولا يفكر فى آيات الكون . . أما الذى لا يعلم فهو لا يفكر بعقله . . ولا يعلم ما عقله غيره . . إنه ليس لديه علم . . ولا علم له من نتاج عقل غيره . . فالعلم أوسع من التعقل . . ذلك أن العلم قد يكون علم غيرى دونه أو كتبه وسجله وأكون أنا فى هذه الحالة قد أخذت هذا العلم . . وقرأته . . فكأنى علمت ما عقله غيرى . . وهذا يحدث لنا كل يوم فنحن حين نقرأ كتابا جديدا نعقل ما علمه غيرنا . . وحين نذهب إلى الجامعة ندرس ما علمه الأساتذة وكبار المفكرين . . فأنا لم أعقل الجاذبية مثلا . . ولم أعقل قوانين الفضاء لأننى لم اشتغل بها لكى أصل إليها بعقلى . . ولكنى علمتها عن طريق عالم فى الفضاء . . أو فى الجاذبية . . ووصل بعقله وفكره إليها ثم قرأت أنا ما علمه هو . . فأنا هنا علمت ما عقله غيرى . . فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا يعقلون فى الآية الأولى . . أى إنهم لا يتدبرون فى الكون مستخدمين عقولهم . . لأنهم يقولون . .

« **بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** »

ومن هنا فإن الله رد عليهم .

« **أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** »

ولذلك يصفهم الله سبحانه وتعالى :

« **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** »

أى لا يسمعون ولا يرون ولا يتحدثون بآيات الله سبحانه وتعالى وهذا هو السبب فى أنهم لا يعقلونها .. ولكن حين يقول الله سبحانه وتعالى : « لا يعقلون » .. تأتى ردا على كافرين .. قالوا :

« حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »

هنا هم قد نطقوا .. قالوا : لا نريد شيئا .. ولا نريد علما .. يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا .. فرد الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

أن أنهم لا يعلمون علما بعقلهم .. ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم .. وهكذا نرى الفرق بين كلمة لا يعقلون .. وكلمة لا يعلمون ..

نرزقهم .. ونرزقكم

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى تشهد على بلاغة القرآن الكريم .. ودقة التعبير فيه .. والقرآن الكريم ملىء باعجاز لا ينتهى أبدا .. مثلا بعض الآيات فى القرآن الكريم يقول العقل السطحى أن معناها واحد .. ويتساءل لماذا غير الله سبحانه وتعالى الألفاظ .. ولكن المتدبر فى القرآن الكريم لا يمكن أن يقول إنها توارد ألفاظ .. فليس هناك شىء فى القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظ .. ولكن هناك دقة بالغة فى التعبير .. واختيار اللفظ ..

فالنظر إلى المعنى الذى قد لا يفطن إليه كثير من الناس .. مثلا فإن وأد البنات كان موجودا فى الجاهلية .. ثم جاء الإسلام ليمنع هذا .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم »

.. الكلام هنا عن الفقر وقتل الأولاد .. نأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية ..

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم »

والآية الأولى « نحن نرزقكم واياهم .. والآية الثانية « نحن نرزقهم واياكم »

نسأل ما هو الخلاف .. الآية الأولى تقول ولا تقتلوا أولادكم من املاق .. أى أن الفقر موجود فعلا .. الاملاق وهو الفقر موجود فعلا .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى نحن نرزقكم واياهم .. مادام الفقر موجودا فعلا .. يكون الإنسان مشغولا برزقه أولا .. يبحث عن طعامه هو أولا ثم بعد ذلك يبحث

عن طعام من سيأتى به من أولاد .. هم الإنسان هنا هو البحث عن طعامه وطعام زوجته .. ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقكم واياهم** » .. أى انه يطمئنه أولا على رزقه الذى هو شغله الشاغل .. ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده فيقول له : أنت فقير ومشغول برزقك .. وتخشى أن تأتيك الأولاد ... لأنك لا تملك ما تطعمهم به .. اننى أرزقك .. وأرزقهم .. انك لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئا .. ولكن الآية الثانية تخاطب نوعا آخر من الناس .. الآية الثانية تقول :

« **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم** »

هنا الإنسان ليس مشغولا برزقه لا يخشى الفقر .. عنده ما يكفيه .. ولكنه يخاف أن رزق بطفل أن يصاب بالفقر .. أن يأخذ هذا الطفل جزءا من الرزق .. ويصبح الرزق لا يكفيه .. ويكفى طفله .. ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف انجاب الأطفال .. لماذا ؟ لأنه يخشى أن يأخذوا من رزقه شيئا .. فيصبح فقيرا .. فيقول الله سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقهم وإياكم** » .. الآية الأولى كان الشغل الشاغل للإنسان هو رزقه .. فخاطبه **الله** سبحانه وتعالى أولا بقوله نحن نرزقكم .. ليطمئنه أولا على رزقه .. الآية الثانية رجل ميسر فى الرزق لكنه يخشى الفقر من الأولاد .. **فالله** طمأنه على أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئا بقوله سبحانه وتعالى « **نحن نرزقكم واياكم** » .. إذن فالتغيير هنا لازم وضرورى .. كل يخاطب حاله على حده ..

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقهم واياهم** » وقال « **نحن نرزقكم واياكم** » .. ولم يقل نحن نرزقكم جميعا ؟ لأن **الله سبحانه وتعالى** يريد أن نعرف إنه لكل إنسان فى هذه الدنيا رزق مستقل عن الآخر .. وهذا الرزق الذى قسمه الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذ منه شيئا .. ومن هنا فالمولود لا يأخذ من رزق أبيه شيئا .. والوالد لا يأخذ من رزق ابنه شيئا .. ولأعلم اننى حينما أرزق بمولود أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم رزقى بينى وبينه .. أو عندما أقتل المولود لن استأثر أنا برزق أكبر .. أبدا ..

أنت العزيز

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ثم يقول عيسى بن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

كون عيسى بن مريم يقول :

« إن تعذبهم فإنهم عبادك »

فهذا مفروغ منها . . فنحن جميعا عباد الله مقهورون لارادته . . خاضعون له سبحانه وتعالى ولقضائه . . ثم يقول عيسى بن مريم : (وإن تغفر لهم) هذا طبعا ما يرجوه كل إنسان من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة . . ولكن هنا يتبع كلمة « وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . لماذا لم يقل إنك أنت الغفور الرحيم ؟ هنا موقف غفران . . فلماذا العزة فى موقف الغفران . . وليست المغفرة والرحمة ؟ يقول بعض الناس إن العبارة غير متمشية . . وإن سياق الكلام كان يقتضى أن يقول عيسى بن مريم « إنك أنت الغفور الرحيم » ونحن نقول إن كل من يثير هذا الكلام لا يفهم اعجاز القرآن . . فقول ابن مريم « إن تغفر لهم » . . يحمل نفس المعنى فى إنك أنت الغفور وإلا أن لم تكن غفورا فكيف تغفر . ولكن قوله إنك أنت العزيز الحكيم ما سبب وضع « العزيز الحكيم »

هنا .. هل الآية مختومة بما لا يتمشى مع العقل ؟

الآية مختومة بعبارة من أبلغ ما يمكن .. هنا فى مطلب الغفران .. وهو يدعو الله أن يغفر لعباده .. فيقول له : وإن تغفر لهم .. فإنك أنت العزيز .. أى الذى لا يحاسبه أحد على ما يفعل .. فلا أحد سيأتى ليقول لله لماذا غفرت لهؤلاء الناس الذين عصوا ؟ لأنك أنت العزيز لا يحاسبه أحد .. وليس فوقه قوة .. فأنت يا ربى إن أردت أن تغفر لهم فهى مشيئة رحمتك .. فإنك قادر .. لماذا ؟ لأنك أنت العزيز تستطيع أن تفعل ذلك دون أن يسألك أحد .. الحكيم الذى يتم كل أمر منك بحكمة .

وهكذا نرى أن هذه الكلمة وضعت بحكمة زيادة فى الاستغفار .. زيادة فى طلب المغفرة .. ياربى اغفر لهم إنك أنت العزيز .. لا يحاسبك أحد .. ولا يعقب عليك .. وبالتالى فنحن نلوذ بشيئين بأنك غفور رحيم .. وبأنك عزيز حكيم .. غفور تغفر الذنوب للعاصين .. وعزيز تستطيع أن تغفر ما تشاء لمن تشاء .. بلا قيود .. ولا يحاسبك أحد على ما تفعل .. ولا يعتب عليك .. ولا يسألك .. انك تستطيع أن تغفر الذنوب مهما بلغت .. هل وضح الآن معنى استخدام كلمة « العزيز » ؟!

ظالم النفس .. والسوء

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية .. فى الآية الكريمة ..

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم »

.. وقوله تعالى :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه »

بعض الناس يتساءل : أليست الفاحشة والسوء هما ظلم النفس .. انهما نفس الشيء .. فالذى يظلم نفسه يقودها إلى العذاب .. والذى يفعل فاحشة يقود نفسه إلى العذاب .. نفس الشيء .. بل إن بعض الناس يقولون إن العطف هنا غير واجب .

ولكننى أقول لهم أن دقة التعبير .. ودقة اللفظ من دقة القائل .. والله سبحانه وتعالى يبين لنا اعجاز القرآن .. ويقول لنا إن هناك فارقا بين من يفعل سوءا أو فاحشة .. ومن يظلم نفسه .. ما هو هذا الفارق ؟

الذى يفعل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة . . نفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا . . إنسان شرب الخمر . . حقق لنفسه لذة الخمر . . إنسان زنا . . حقق لنفسه شهوة عاجلة . . إنسان سرق مال غيره . . حقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال . . هذا هو الإنسان الذى يفعل السوء أو الفاحشة . . أما الإنسان الذى يظلم نفسه فهو إنسان آخر . . إنه يرتكب إثما ولا يستفيد منه . . لا يعطى نفسه شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة . . حينئذ يكون قد ظلم نفسه . . بمعنى إنه لا أعطاها شيئا عاجلا . . ولا نجاها من عذاب الآخرة . .

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه . . ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره . . الذى يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة . . أما من باع دينه بدنيا غيره . . خاب فى الأولى والآخرة . . هو الذى ظلم نفسه . . ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه . . فالإنسان حين يشهد زورا ليؤذى غيره لم يستفد هو شيئا فقد ظلم نفسه . . ارتكب إثما . . شهادة الزور دون أن يحقق نفعا دنيويا . .

إذا قبض ثمن شهادة الزور . . يكون قد حقق نفعا دنيويا . . ولكن الذى يظلم نفسه هو الذى يفعل ذلك ليرضى غيره . . ونجد كثيرين فى الدنيا مثل هؤلاء .

إنسان يتهم إنسانا آخر بتهمة باطلة . . لا يستفيد هو شيئا . . ويرتكب الاثم ، إذن هو ظلم نفسه . . إنسان يكتب تقريرا كاذبا فى إنسان ليمنع ترقية . . أو يتطوع بحديث يختلقه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه . . أو يشى بشخص كذبا ليدخله السجن . . أو يضعه فى الاعتقال . . أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة لمجرد الانتقام التافه . . كل هؤلاء يظلمون أنفسهم . . إنهم يرتكبون الاثم فى الدنيا . . ولا يجعلون له فائدة لا فى دنياهم . . ولا فى آخرتهم . . فكأن الذى ظلم نفسه هو الذى جعلها تدخل النار . . هو الذى جعلها ترتكب الاثم . . وفى نفس الوقت لم يعطها شيئا على وجه الاطلاق . . فهو ظالم لنفسه فى الدنيا . . ظالم لنفسه فى الآخرة . . وهنا فرق بين التعبيرين . . ومن هنا لا نقول أبدا هذا عطف . . ولا ألفاظ مترادفة بل دقة بالغة فى التعبير . .

نور .. وظلمات

تعبير آخر فى القرآن الكريم .. والقرآن الكريم ملىء بالتعبيرات الدقيقة .. نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة نور وظلام فى القرآن الكريم يقول (نور) ويقول ظلمات وظلمة .. ولكنه لا يقول أنوار .. أبدا هناك نور وظلمة .. وهناك نور وظلمات .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستخدم كلمة « أنوار » إنه يخرج الناس

« من الظلمات إلى النور »

.. وليس إلى الأنوار .. لماذا ؟ مع أن المنطقى أن يقال يخرج الناس من الظلمات إلى الأنوار .. نقول له .. إنك لم تع الحقيقة جيدا .. فى الدنيا هناك ظلمات كثيرة .. ولكن ليس هناك أنوار .. هناك نور واحد هو نور الله سبحانه وتعالى نور الحق .. ولذلك لا يستخدم الله سبحانه وتعالى إلا كلمة نور .. لأن النور هو نور الحق .. ولا نور غيره ..

لكل نفس هوى .. والهوى هو ظلمة .. وظلمة هذا غير ظلمة ذاك .. الإنسان فى كثير من الأحيان هو عبد لأهوائه .. والأهواء تختلف .. ومن هنا يأتى الصراع فى الدنيا .. القتل .. السرقة .. الاعتداء على الغير .. إلى آخر ما نشهده من صراع الحياة فى كل مكان ..

هذه ظلمات .. كل فى ظلمة مختلفة تبع هوى صاحبها .. هذا يقول كلاما .. وهذا يقول كلاما آخر .. هذا يريد أن يحقق شيئا .. وذلك يريد أن يحقق شيئا آخر .. كل إنسان يريد أن يأخذ ما لا حق له فيه .. وكل إنسان يتحدث بما يعتقد أنه يحقق له هواه .. إنسان يقول الشيوعية .. وآخر يقول الرأسمالية وثالث يقول الاشتراكية .. هذه كلها كلمات .. ووراءها هوى للنفس يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يحققه : أن يعلو فى الأرض .. أن يستبيح مال وحرمات غيره .. أن يذل الناس بما أعطاه الله له من مركز .. أو مال .. أو سلطان ..

إذن هى ظلمات كثيرة .. كل إنسان منا له هواه .. ولكن الله سبحانه وتعالى الحق .. وهو الذى وضع النور .. ليمكن الإنسان من أن يعيش عيشة راضية مطمئنة .. هذا النهج للحياة رسمه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. أما كل ما نتخبط فيه بعيدا عن منهج الله فهو ظلمات .. ومن هنا فإن الله سبحانه

وتعالى يخرجنا من ظلمات كثيرة إلى نور واحد . . هو نوره . . هو طريقه . . هو الحق . .

الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة « ظلمات » يتحدث عن أهواء الناس . . وهى مختلفة . . وحين . . يستخدم كلمة نور فهو يتحدث عن شيء واحد هو منهجه . . طريقه . . ذلك هو النور . . واذا اتفقنا على خير لا يمكن أن نختلف . . لا يمكن أن تجد خلافا بين أناس فى قلوبهم الخير . . ورغبتهم إلى الخير . . وعملهم الخير لا يمكن أن يختلفوا . . ولا يمكن أن يكون الصراع والشقاء إلا على تحقيق أهواء النفس فى الدنيا . . هل عرفت الحكمة من استخدام الله سبحانه وتعالى . . كلمة ظلمات بالجمع . . وعدم استخدامه لكلمة أنوار . . لأن هناك نورا واحدا هو نور الله سبحانه وتعالى .

هذه هى بعض الأمثلة البسيطة جدا . . والقرآن ملىء بالاعجاز . . الاعجاز والدقة فى التعبير . . اللفظ فى مكانه . . فإذا تغير عن مكانه فإنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى معنى آخر . . إلى شيء آخر ليس هناك مترادفات . . وليست هناك ألفاظ لا تتسم بالدقة . . وليس هناك كلمة فى غير موضعها . . وإنما دقة متناهية فى التعبير . . دقة متناهية فى البلاغة . . ولكن بعض المستشرقين الذين يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله . . أو الذين يدرسون القرآن الكريم ليحاربوه يقولون أن فى القرآن تناقضا ويزيدون على ذلك بأن هذا التناقض طبيعى لأن قائل القرآن . . كما يدعون . . هو محمد عليه السلام . . بشر فإنه أحيانا ينسى . . وأحيانا يمر عليه الزمن فيقول عكس ما قال . . إلى آخر ما فى طبيعة البشر من عدم التذكر خصوصا فى الفترة الطويلة . ويتحدثون عن التناقض فى القرآن الكريم . . وأنا سأحدثكم عن التناقض الذى يدعونه . . فى الفصل القادم من الكتاب . .



الفصل الخامس

التناقض في القرآن الكريم

التناقض فى القرآن الكريم

السؤال الذى شغل بال المستشرقين .. وكل من يريد أن يحارب هذا الدين .. هو الادعاء بأن هناك تناقضا فى القرآن الكريم .. ولو بذل هؤلاء الناس لفهم القرآن الكريم نفس الجهد الذى بذلوه فى محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض فى القرآن الكريم لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة القرآن .. وإلى معجزة القرآن وإلى الدقة البالغة فى كلام الله سبحانه وتعالى ..

ولكن المستشرقين يحاولون أن يأخذوا من المعجزة .. أهم ما فيها وهو إنها كلام الله سبحانه وتعالى .. وفى محاولاتهم هذه يلجأون إلى إظهار ما يسمونه « التناقضات » .. أو يطلقون عليه اسم « الأشياء المتناقضة » فى القرآن الكريم .. وأساس هذا الاتجاه هو أن المعجزة وهى القرآن كلام الله سبحانه وتعالى .. وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ .. منزه عن النسيان .. منزه عن كل ما فى البشر من تناقض .. وبالتالى فإن وجود أى تناقض ولو كان ظاهريا فى القرآن الكريم يساعدهم على هدم المعجزة .. وعلى الادعاء أن هذا الكلام هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وليس منزلا من عند الله ..

ولكن الاعجاز القرآنى .. الذى هو موجود فى كل حرف من القرآن .. إنما يظهر أمامهم بهذه الصورة ليجعلهم شهداء على المعجزة .. وليجعلهم وهم يحاولون أن يحاربوا هذا الدين .. وأن يشوهوا هذا الكتاب الكريم يبينون معجزاته .. ويظهرون ما خفى منها .. إذ أنهم يثيرون مما يزعمونه أشياء تجعل العقل البشرى ينشط فى محاولة للرد عليهم .. وبالتالى فإنه فى بحثه فى القرآن الكريم تتبين المعجزة .. ويتبين أن هذا الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ..

ولنبدأ الحديث من أوله .. ماذا قال المستشرقون .. قالوا .. كلام بشر .. هل هو كلام بشر فعلا ؟ .. تعالوا نناقش ما أثاروه قضية قضية .. وإن كان هذا يحتاج إلى كتاب مستقل ..

خلق السماوات والأرض

جاءوا فى أول الأشياء بالخلق .. خلق السماوات والأرض .. شيء هو من صنع الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عنه فى القرآن الكريم .. فهو يتحدث

عن شيء لا يعلمه إلا الله .. وبالتالى فإن أى تناقض ظاهرى فى هذه العملية مسألة تخدم قضيتهم فى محاربة هذا الدين .. ماذا قال المستشرقون ..؟ قالوا : إن القرآن الكريم قال فى عدة سور .. أن الأرض والسموات خلقتا فى ستة أيام .. وفى سورة فصلت : أن أيام الخلق ثمانية .. وقالوا أنها هفوة بشرية .. ونسيان ..

خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا هو هدفهم .. تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم فى سورة الأعراف :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام »

وقال فى سورة يونس :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

وفى سورة الفرقان :

« الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام »

.. إذن أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تم فى ستة أيام .. لا خلاف فى ذلك ولا جدال .. فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت .. حيث فصل الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض يأتى فى الآية التى تقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ ﴾

(سورة فصلت)

التناقض فى القرآن الكريم

إذا أحصينا عدد الأيام فى السورة الكريمة . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول أنه خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها . . وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام . . ثم استوى إلى السماء . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« **فقضاهن سبع سموات فى يومين . . وأوحى فى كل سماء أمرها** »

إذا أحصينا أيام الخلق فى سورة فصلت نجد أنها ثمانية يومان لخلق الأرض . . وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها . . أيام الخلق هذه ستة أيام . . يومان آخران للسماوات إذن فهى ثمانية أيام . .

يأتى هنا المستشرقون ليقولوا أن القرآن الكريم تناقض مع نفسه . . وأنه يقول فى عدة آيات أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . . ثم يأتى ليقول أن الخلق تم فى ثمانية أيام . . ويضيفون أن هذه غفلة لأن قائله بشر . .

ولو أننا دققنا فى الآية الكريمة التى يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة فالله سبحانه وتعالى يقول :

« **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين** »

ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا . . ويجادلون فيه أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذى يستخدم هذه الآية الكريمة فى التشكيك فى القرآن الكريم هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس . . ويريدون أن يجعلوا لله أندادا . . . وهم فى الحالتين غير مؤمنين يحاربون الله . . ويحاربون دينه . . إن بداية هذه الآية معجزة . . لأن الذين يجادلون فيها . . هم أولئك الذين يحاربون هذا الدين . . ويكفرون بالله ويحاولون التشكيك . . فكون الله سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية الكريمة :

« **وتجعلون له أندادا** » . .

وقال : •

« **أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض** » .

كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا فى القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات فى محاولة التشكيك . .

ونحن نقول لهم أن من يقول هذا الكلام . . إما أن يكون متعمدا أو غافلا من مدلولات النص ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

« **أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . وتجعلون له أندادا** »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« **وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها** » .

إذن الله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن اتمام خلق الأرض . . هو يعطينا تفصيل الخلق . . فيقول خلق الأرض فى يومين . . ثم يتم بعد ذلك الحديث عن الخلق فيقول . . « وجعل فيها رواسى وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام »

مادام الحديث تتمة لنفس الشيء الذى بدأ الكلام عنه . . وهو الأرض . . أى أن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السموات . . وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض . . فهو يتم لنا زمن خلق الأرض . . فهو يقول : انى خلقت الأرض فى يومين . . ثم أتممت خلقها فى أربعة أيام . . إذن فمدة الخلق ، كلها بالنسبة للأرض هى أربعة أيام . . **وليست** ستة .

ولنضرب مثلا يقرب ما نقوله للأذهان . . إذا فرض أننى ذاهب إلى الاسكندرية . . وأن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا . . فأنا أقول أن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا بعد ساعة . . وفى الاسكندرية بعد ساعتين ونصف . . فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والاسكندرية ثلاث ساعات ونصف أبدا . . المسافة بين القاهرة والاسكندرية هى التى ذكرتها مؤخرا . . أما الساعة التى سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف . . لماذا ؟ . . لأن طنطا جزء من الطريق بين القاهرة **والاسكندرية** . . والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض . . فهو يقول سبحانه وتعالى . . انى خلقت الأرض فى يومين . . ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسى من فوقها . . وباركت فيها أقواتها فى أربعة أيام . . كأن الأيام الأربعة هى كل الفترة التى استغرقتها . . عملية خلق الأرض . . منها يومان لخلق الأرض . . ويومان لاتمام الخلق بأن جعل لها الله سبحانه وتعالى رواسى من فوقها . . وبارك فيها أقواتها . . المدة كلها هى أربعة أيام . . وليست ستة أيام . . الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسر لنا أنه خلق الأرض فى يومين ثم أتم خلقها بكل ما فيها من أقوات ورواسى بما فى ذلك خلق الأرض نفسها أربعة أيام . . فكأن اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة التى استغرقها خلق الأرض . . مثل بالضبط

عندما تقول أن القطار يستغرق من القاهرة إلى الاسكندرية ساعتين ونصفا . . وبين القاهرة وطنطا ساعة . . المسافة كلها ساعتان ونصف . . ولكنك أردت أن تفصل الجزء من الكل . . فذكرت بالتفسير جزءا من الكل . . وليس معنى هذا أن هذا الجزء اضافة الخلق . . هذا جزء من الكل نستخدمه جميعا فى حياتنا اليومية كل يوم . . أقول وضعت أساس العمارة فى ثلاثة أشهر . . وأتممت بناءها فى عام . . هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاما وثلاثة أشهر . . لا . . لقد أتممتها فى عام . . ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء . . هنا تحدثت بالتفصيل . . والجزء من الكل . . ليس منفصلا . . ولا زائدا عنه . . تقول هذا المشروع تتم مرحلته الأولى فى عام . . وينتهى فى عامين . . هل معناه أنه يستغرق ثلاثة أعوام . . لا . . عامين . . لأن المرحلة الأولى هى جزء من الكل . .

تفصيل الخلق

والله سبحانه وتعالى لم يفصل لنا فى الآيات السابقة مراحل الخلق ولكنه أتى به مجملا . . إنما فى سورة « فصلت » . . تحدث أولا عن خلق الأرض . . خلق الأرض نفسها فى يومين . . ثم أتم الخلق بأن جعل فيها رواسى . . وبارك فيها أقواتها فى أربعة أيام . . هذه مرحلة خلق الأرض . . استغرقت أربعة أيام . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** » . .

هنا انتقل الله سبحانه وتعالى من عملية خلق الأرض إلى خلق السماء . . فقال تعالى :

« **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** » . .

مرحلة جديدة بعد إتمام خلق الأرض . . إن إتمام خلق الأرض استغرق أربعة أيام . . وخلق السماوات يومين . . فأيام الخلق ستة . . وهما من أيام الله سبحانه وتعالى . .

« **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** » . .

وهكذا نجد أن التناقض وهمى . . وأن المستشرقين أرادوا أن يستغلوا عملية تفصيل الخلق التى أوردها الله فى سورة فصلت ليشككوا فى القرآن . . وكان الله عليما قبل أن يبدلوا . . تبدأ الآية الكريمة بقوله :

« أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . وتجعلون له أندادا »
بدأها بهذا الكلام ليقول لنا من هم الذين سيجادلون فى هذه الآية وينشرونها بالطريقة التى تهواها أنفسهم للأضلال عن سبيل الله .

الود . . والمعروف

نأتى بعد ذلك إلى شيء آخر . . قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

(سورة المجادلة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

يأتى المستشرقون . . وكل من يحاول التشكيك فى هذا الدين يقولون ما هذا ؟ فى الآية الأول . . الله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نود من حاد الله ورسوله . . ولو كانوا آباءنا . . وفى الآية الثانية فى سورة لقمان يقول :
« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » . .
إذن فى الآية الأولى يقول لا تودهم . . وفى الآية الثانية يقول وصاحبهما معروفا . . كيف يمكن أن يستقيم ؟ أمران مختلفان فى نفس الشيء . .
نقول أنه ليس هناك أى اختلاف . . ولكنك لا تفهم دقة تعبير القرآن الكريم . . واللفظ فى القرآن الكريم . .
ولنشرح ذلك بالتفصيل . . المعروف يفعله الرجل لمن يحبه بقلبه . . ومن

لا يحب .. ذلك أنك يمكن أن تسير فى الطريق تجد إنسانا لا تعرفه .. ولا تربطك به أى علاقة .. ولكنك تجده فى مأزق فتسدى إليه معروفا لتنقذه .. كأن يكون قد فقد حافظة نقوده مثلا فتعطيه مبلغا من المال ليصل إلى منزله أو تقدم له معونة .. قد يكون جائعا فتطعية ثمن الطعام .. أنت هنا تفعل معروفا عسى الله أن يجزيك عنه .. لا يربطك بالإنسان الآخر أى صلة .. هذا هو المعروف .. ولكن المودة مكانها القلب .. هى فى القلب .. أنت لا تود إلا من تحب .. لا تريد أن تجلس أو تعيش إلا مع من تحب .. المعروف لا يمس القلب .. ولكن المودة تمس القلب .. القلب فى المودة يكون مع الشخص .. والقلب فى المعروف لا يكون معه .. وإذا كان القلب مع إنسان غير مؤمن فهو قلب غير مؤمن .. والله لا يجعل لك قلبين فى صدرك . مصداقا لقوله تعالى :

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

إنما امتداد المعروف هو رضاء الله سبحانه وتعالى ..

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة .. الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة المجادلة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » ..

هنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة الود .. وكلمة الود هى التى تمس القلب .. هنا لا تجد مثلا إنسانا مؤمنا يحب إنسانا يحارب الله ورسوله .. حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم .. الحب من داخل القلب .. من داخل النفس .. ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فى مسألة الوالدين .. وينهانا إن حاولا أن يمسا الإيمان فى قلوبنا أن نستخدم العنف ضدهما .. أو نفعل أى شيء .. وهم فى هذه الحالة يكونون فى سن كبيرة .. ضعفاء .. اقتربوا من نهاية العمر .. هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا .. وبالسهر علينا .. يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نحتفظ لهم بالود أن كانوا مؤمنين .. وبالحب الكبير .. وإذا حاولوا أن يدخلوا الشرك إلى قلوبنا .. أو حاولوا أن يجعلونا نشرك بالله سبحانه وتعالى .. يطالبنا بألا نطعهما .. ولكن نصاحبهما فى الدنيا معروفا .. أدب القرآن الكريم .. نفعل ذلك ارضاء لله سبحانه وتعالى .. ومكافأة للجميل .. ولكن القلب لا يودهم .. المعروف لمن تحبه ومن لا تحبه .. أما الود فلمن تحب فقط .. أنت حين تسدى لهما معروفا .. أى تعاملهما معاملة

حسنة . . ولكن ليس بقلبك . . لأنهما يحاولان أن يدفعاك للشرك . . تفعل ذلك ارضاء لله سبحانه وتعالى الذى يأبى ألا أن يكون رحيما حتى مع من يعصاه . . والذى ينهانا عن أى نقابل الإحسان بالإساءة . . والمعروف شىء . . والود شىء آخر تماما . .

أين هو التناقض الموجود . . هذه حالة . . وهذه حالة أخرى . . قلب مع الله لا يدخل فيه كافر . . ولا من يحاول أن يشرك به . . أما المعروف الذى أسديه إلى والدىَّ فأمرنى الله به . . رحمة بهما . . كما ربيانى صغيرا . إذ أن مناقشة الإيمان بين الابن ووالديه . . لا تتم إلا إذا بلغ الابن مرتبة الرجولة . . وفى هذه الحالة يكون الأم والأب قد بلغا مرحلة الكهولة . . وعلىَّ أن أعاملهما بالمعروف ردا للجميل . . وارضاء لله سبحانه وتعالى الذى لا يقبل الجحود . . لكن المعروف ليس بقلبى . . وهذا مختلف تماما عن ذلك . .

لماذا . . الأم وحدها

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة . . فالآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يوصى بالوالدين . . ثم لا يذكر إلا الأم . . مثلا فى سورة الأحقاف :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾

(سورة الأحقاف)

وفى سورة لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ

أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

(سورة لقمان)

نجد أن الله سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين .. ثم ذكر الأم وحدها دون الأب .. يأتى هنا بعض المستشرقين ويسألون : كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يوص إلا بالأم .. ثم ذكر فى أول الآية الأم والأب .. وفى آخر الآية الأم والأب .. دون أن يوصى بالأب .. ثم الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية يوصى من ؟. هل هو يوصى الطفل وهو رضيع فى حالة الحمل والولادة .. وهل يفقه هذا الطفل شيئا .. وهل يقرأ القرآن أو يعقل .. هل يذكر الطفل شيئا عن هذه المرحلة .. إذن من يخاطب القرآن ..؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع .. فهو يخاطب إنسانا لا يعقل .. وإذا كان يخاطبه بعد أن كبر فهو يخاطب إنسانا عن فترة لا يتذكرها .. ولا يعرفها ..؟!!

نقول له انك لم تفهم هذه الآية .. فالله سبحانه وتعالى فى توصيته بالأم قد اختصها لأنها تقوم بالجزء غير المنظور فى حياة الابن أو غير المدرك عقلا .. بمعنى أن الطفل وهو صغير فى الرضاعة .. وفى الحمل والولادة .. وحتى يبلغ ويعقل .. الأم هى التى تقدم كل شىء .. هى التى تسهر ترضعه .. وهى التى تحمل .. وهى التى تلد .. فإذا كبر الطفل وعقل من الذى يجده أمامه ؟ أباه .. إذا أراد شيئا فإن أباه هو الذى يحققه له .. إذا أراد أن يشترى شيئا .. لعبة جديدة .. ملابس جديدة .. إذا أراد مالا .. كل هذا يقوم به الأب .. إذن فضل الأب ظاهر أمامه .. أما فضل الأم فهو مستتر .. ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب .. لماذا ؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته .. يحس بفضل أبيه عليه .. ولكنه نادرا ما يقدر التعب الذى تعبته أمه .. وهو يزيد أضعاف أضعاف ما يقدمه له أبوه .. ومن هنا جاءت التوصية بالأم .. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمك .. أمك .. أمك .. ثلاث مرات .. ثم قال أبوك .. ولكن ما هو الهدف من هذا التذكير إذا كان الإنسان لا يعقل هذه الفترة .. لا يتذكرها من حياته مطلقا .. الهدف هو أن يرى ذلك على غيره .. ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتعبن .. وكيف يعانين .

ويقاسين .. وكيف يسهرون على أطفالهن .. وماذا يتحملن من مشقة .. وعندما يراه على غيره يدرك أن هذا قد حدث له .. ويحس به .. ولذلك يرد الجميل .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم .. ويريد أن يوصينا بالاثنين معا .. الأب والأم .. ولكنه يوصينا بالأم .. ويخصها بالذكر أكثر .. لأن تعبها غير واضح فى عقل الابن .. بينما الأب ما يفعله واضح وظاهر أمام الطفل .. هذا هو الهدف من الآية الكريمة ..

اتى فلا تستعجلوه

ويمضي المستشرقون فى الحديث عن القرآن الكريم فيقولون انه فى سورة النحل يقول القرآن :

« اتى أمر الله فلا تستعجلوه »

كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى .. اتى ثم يقول لا تستعجلوه .. اتى فعل ماض .. لأنه حدث .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يمضى هذا مع ذلك .. نقول لهم أنت حين تتحدث عن الله سبحانه وتعالى .. فيجب أن تضع فى عقلك وذهنك وتفكيرك إن الله ليس كمثله شيء .. أنت لك قوة .. ولله قوة .. ولكن هل قوتك كقوة الله سبحانه وتعالى ! أنت لك قدرة ولله قدرة .. ولكن هل قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى .. أنت تعيش فى الزمن .. والله سبحانه وتعالى لا زمن عنده .. انه منزه عن الزمن .. اتى هذه فى علم الله سبحانه وتعالى .. حدث .. ومتى .. قال الله سبحانه وتعالى اتى فقد حدث وتم .. وانتهى فى علم الله سبحانه وتعالى .. فى علم اليقين .. ولكن الأشياء تخرج من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم البشر .. تخرج بكلمة كن .. الله سبحانه وتعالى حين يريد أن ينقل شيئا من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم الإنسان .. فإن كلمة « كن » .. تكون الأمر الذى يحمل التنفيذ ..

الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة .. ومادام قد تقرر .. فليست هناك قوة فى هذه الدنيا تستطيع أن تمنع حدوثه .. إنه لا محالة .. فلا تطلبوه بكلمة كن .. وأنتم فى عجلة .. لماذا ؟ لأن المؤمن الحقيقى إذا كان يخشى شيئا فإنه يخشى يوم الساعة .. ويوم الحساب .. وإذا كان يخشى شيئا .. يخشى عدل الله سبحانه وتعالى .. الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

« ووجدوا ما عملوا حاضرا »

الصغيرة قبل الكبيرة .. وإذا كان لا يترك شيئا صغيرا فماذا يفعل فى الكبائر .. والإنسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه .. إنه يرتعد من هول ذلك اليوم .. أما الإنسان الكافر المتحدى فإنه هو الذى عن جهل .. وعن عدم ادراك .. لا يعرف معنى الآخرة .. ولا معنى الحساب .. ومن هنا فهو يستعجل .. يريد أن يصل إلى الآخرة .. ولو علم ما فيها .. وما ينتظره فيها .. لما ذكرها على لسانه .. فحينما يقول الله :

« اتى أمر الله »

أى أن الساعة تقررت .. وانتهى أمرها .. تم الأمر فلا تستعجلوه لا تتعجلوا يوم الحساب .. انكم تجهلون ما فيه من أهوال .. إذن فهى بالنسبة لله تم وانتهى .. ولكنه بالنسبة لى أنا مستقبل .. فليس هناك أى تناقض بين استخدام الماضى والمستقبل .. لأن اتى أمر الله فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه فى علمى أنا .. وفى ادراكى أنا .. وحتى يصل إلى أنا لايزال مستقبلا حينما يقول الله كلمة « كن » وينفخ فى الصور .. وهل يملك إنسان أن يمنع الله سبحانه وتعالى من تنفيذ أمر قدره .. لا قدرة فوق قدرة الله .. من الذى يمنع أمر الله يأتى مادام قد قال « اتى » أنت لا تملك مقومات الغد .. ولكن الذى يملك مقومات الغد هو الله سبحانه وتعالى اتى .. إذن فقد تم فعلا .. ولكنه محجوب عنى .. لذلك قال تعالى :

« فلا تستعجلوه »

هل رأى محمد ؟

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفيل مخاطبا محمدا صلى الله عليه وسلم ..

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »

بعض المستشرقين يقول هذا قصور فى التعبير .. « ألم تر » هل رأى محمد عليه السلام عام الفيل .. لقد ولد فى عام الفيل .. إنه لم ير .. لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم .. لقلنا علم عن غيره .. فالعلم قد تحصل عليه أنت .. وقد تحصل عليه عن طريق من علمه من غيرك من البشر .. ولكن الله

سبحانه وتعالى حين يقول ألم تر . . يقول المستشرقون فى هذا . . إن التعبير قد خان محمدا عليه السلام . . فهو لم ير . . وقوله ألم تر مجافاة لحقيقة واقعة ثابتة .

ولكن الذى فات هؤلاء إن هذه قضية من قضايا الإيمان . . ما يقوله الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن . . هو رؤية صادقة . . والقرآن هو كلام متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل . . فعندما يقول الله « ألم تر » . . معناها أن الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله . . ذلك لأن الرؤية هنا رؤيا معجزة كبرى . . والله يريدها أن تثبت فى عقولنا . . كما تثبت الرؤية تماما . . لماذا ؟ لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هى إن الله سبحانه وتعالى فى معجزة قد خلق من الضعف قوة . . وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا الله .

أنا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفا . . على أن يحمل حملا ثقيلا . . بأن أحمل عنه هذا الحمل . . ولكنى لا أستطيع ولا أقدر أن أجعل هذا الرجل الضعيف قويا . . بحيث يقوم هو بنفسه بحمل هذا الحمل الثقيل . . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يستطيع أن يخلق من هذا الضعيف الذى لا حول له ولا قوة قويا يهزم أقوى أقوياء العالم . . وأقوى ملوك الدنيا . . وهو إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة . . هذه هى احدى معجزات الله . . ومن هنا فإن الذى حدث فى عام الفيل . . أن طيرا أبابيل تمسك فى مناقيرها حجارة صغيرة جاءت . . وهزمت جيشا من الأفيال . . أقوى جيش فى العالم . . فى ذلك الوقت . . ولو اننى عقلا ومنطقا قلت لإنسان أن طيرا . . أو مجموعة من العصافير قد هزمت فيلا لسخر منى . . ذلك أن الفيل يستطيع أن يهلك مئات الطيور دون أن يصاب بأذى . . بل أن الطير يقف على ظهر الفيل . . فلا يحس الفيل به . . فكيف يكون هذا الطير يأتى وكونه يفنى هذا الجيش العظيم . . فقد استخدم الله أضعف مخلوقاته . . ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته . . وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يد الله سبحانه وتعالى .

بل ان بعض العلماء قد أخذ يتشكك فى هذه الناحية من كثرة ما تناولها المستشرقون . . فادعى أو قال بعضهم إن الذى فتك بجيش أبرهه . . هو الأمراض والجراثيم التى سلطها الله على هذا الجيش . . وأنا لا أتفق مع هذا المعنى . . فعام الفيل حدث عند مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ورسول الله بعث فى الأربعين من عمره . . أى أنه فى ذلك الوقت كان هناك من

هم فى سن الخامسة والخمسين .. والستين .. والخامسة والستين .. والسبعين .. ومن هم فوق ذلك .. ممن رأوا عام الفيل .. رأى العين .. ولو انه لم تأت هذه الطير .. ولو انه لم تلق بحجارة من سجيل .. ولو انها لم تجعل هذا الجيش عصفا مأكولا .. وهو ما يحتاج إلى أسابيع بالنسبة لأى جسم حيوانى .. أو بشرى .. لكان هؤلاء الناس قد قاموا وقالوا ان ما يقوله محمد غير صحيح .. لقد شهدنا عام الفيل .. ولم نر طيرا تأتى .. ولم نرها تفنى أعظم جيش بأحجار صغيرة تحملها فى مناقيرها .. ولم نر هذا الجيش يتحول إلى عصف مأكول فى لحظات .. فلأن أحدا لم يستطع أن يكذب هذه الواقعة .. وقت نزولها ممن رأوها .. دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم .. وليست محتاجة إلى تفسير لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء .. ومن هنا فإنه فى القضايا الإيمانية يكون كلام الله سبحانه وتعالى هو الرؤية الدائمة التى تتمثل أمامنا .. والتى تتكرر باستمرار فى الحياة .. فكم من ضعيف نصره الله على أقوى الأقوياء .. وكم من قوى خذله الله وجعل نهايته على يد أضعف الضعفاء . كلام الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن .. هو يقينى بمثابة الرؤية الدائمة .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « ألم تر » .. ولم يقل رأيت .. أو علمت .. « ألم تر » حاضر متجدد مستمر يحدث وسيحدث على مر السنين إلى يوم الساعة .. إنه قضية الحق ينصر الله المظلوم على الظالم .. مهما كانت قوة الظالم ، ومهما كان ضعف المظلوم .. تلك قضية إيمانية كبرى يجب أن تراها فى قلبك إذا كنت مؤمنا .. وتراها رؤية اليقين « ألم تر » .. هذا هو الإيمان .. وهذه هى الحكمة فى استخدام كلمة « ألم تر » .. تجعل المؤمن يحس بقوة الله وقدرة الله فى كل ما يحدث .. بالنسبة للحق والباطل .. وقضايا الحق .. وقضايا الباطل .. حتى قيام الساعة ..

من هم الكاذبون ؟

ونمضى لنقابل ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم .. التناقض الذى يدعون إنه موجود فيه .. وهم فى كل ما يثيرونه اظهار لاعجاز القرآن الكريم .. قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المنافقون :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

يقول المستشرقون إن المنافقين قد شهدوا أن محمدا رسول الله .. وأن الله يعلم أن محمدا رسوله .. ويعلم أيضا أن المنافقين كاذبون .. كيف يكون المنافقون كاذبين وهم شهدوا بما شهد به الله .. كيف تكون الشهادتان متفقتين .. فى أن محمدا رسول الله ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين .. مع اتفاق ما شهدوا به .. مع علم الله .. مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع .. فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع ؟ هذا تناقض .. هكذا يقول المستشرقون ..

نأتى بعد ذلك إلى معنى الآية الكريمة .. هم أى المنافقين قالوا :

« نشهد إنك لرسول الله .. والله يعلم إنك لرسوله »

إذن فهى قضية صادقة .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى إن المنافقين كاذبون ؟ هل التكذيب هنا يقع على انك : لرسول الله لا .. محمد رسول الله هذا صدق .. التكذيب هنا يقع على كلمة « نشهد » لأنهم قالوا .. نشهدوا إنك رسول الله .. فالتكذيب وارد على كمة نشهد لأن معنى الشهادة .. إننا نقول بألسنتنا ما فى قلوبنا .. والله يعلم إن ما فى قلوبهم يخالف ما يقولونه بألسنتهم .. إذن فقولهم « **نشهد إنك** » .. كلمة نشهد .. هم كاذبون فيها .. كاذبون فى أمر الشهادة .. لأنهم لا يشهدون .. ولا يؤمنون .. إن محمدا لرسول الله .. إنما جاءوا لينافقوا بهذا الكلام .. لا عن صدق .. ولكن عن نفاق .. محمد رسول الله لا تكذيب فيها .. ولكن التكذيب منصب على كلمة « نشهد » .. فى ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« والله يعلم إنك لرسوله »

وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به .. فرق بين تكذيب الشهادة .. وبين تكذيب المشهود به .. المشهود به إنك رسول الله صحيح مائة فى المائة .. ولكن شهادة المنافقين هى المكذبة .. ومن هنا ترى دقة التعبير فى القرآن الكريم .

السؤال ليس للعلم

نأتى بعد ذلك إلى اعجاز آخر من اعجاز القرآن الكريم . . إن الله يقول فى سورة الرحمن :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

. . ويقول فى سورة الصافات :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

فى الآية الأولى هناك نفى للسؤال . . وفى الآية الثانية هناك اثبات للسؤال . . كيف يكون ذلك . . هنا يأتى المستشرقون ليقولوا هذا تناقض فى القرآن الكريم . . كيف يقول الله سبحانه وتعالى :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

هذا تناقض . . محمد نسى . .

نقول لهم انكم تقولون ذلك لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال . . والسؤال نوعان . . نوع تسأله لتعلم . . ونوع تسأله ليكون المسئول شاهدا على نفسه . . التلميذ حين يسأل أستاذه . . يسأله ليعلم . . ليعرف العلم . . ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه . . هل يسأله ليتعلم أو ليعلم . . لا . . فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف تلميذه . . ولكنه يسأله ليكون التلميذ شهيدا على نفسه . . لا يستطيع أن يجادل . . أو يقول : لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفا . . الأسئلة فى الامتحانات مثلا لا تقوم وزارة التعليم بوضعها . . لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة . . فتريد أن تستزيد منهم علما . . ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فلا يستطيع أن يجادل . . ورقة الإجابة موجودة وهى شاهد على درجة الطالب . . إن كان ممتازا أو ضعيفا . . أو لا يعرف شيئا على الاطلاق . .

فالآية الكريمة . .

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

تنفى السؤال للمعرفة . . والله أعلم بذنوبهم . . الله سبحانه وتعالى يعلم . . وبالتالى فهو غير محتاج . . لأن يسأل للعلم . . وغير محتاج لأن يعرف منهم . . لأنه أعلم منهم . . ومن هنا لا سؤال . . لأن السائل أعلم من المسئول . .

فلا يكون السؤال للعلم .. ولذلك يقول الله :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

أما فى الآية الثانية « **وقفوهم انهم مسئولون** » .. أى انكم ستسألون لتقرروا الحقيقة والواقع فى الحساب .. لا لتقولوا شيئا لا يعلمه الله .. لتكونوا شهداء على أنفسكم .. وهذا ما تفسره الآيات التى قبلها .. والتى بعدها .. فإذن أين هو التعارض .. وأى تناقض هذا الذى زعمه المستشرقون فى القرآن .. **فالله** سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذبين .. لذلك تقول السورة :

« قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون .. احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم .. وقفوهم انهم مسئولون »

السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن انهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم .. هذا الذى كنتم به تكذبون .. هذا ما عبدتم من دون الله .. والآن جاء وقت الحساب .. لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة .. أين ماكنتم تعبدون من دون الله .. يسألهم عما كانوا يعبدون من دون الله .. ثم يقول **الله** سبحانه وتعالى :

« ما لكم لا تناصرون »

لماذا لا ينصركم أحد .. لماذا لا تنصركم الهتكم .. السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن ليكونوا شهداء على أنفسهم ..

يحملون أوزار غيرهم

ننتقل بعد ذلك إلى آية أخرى .. يقول المستشرقون إن الله سبحانه وتعالى قال فى سورة الأنعام :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

وفى سورة فاطر :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

وفى سورة النجم :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ثم يأتى **الله** سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت ويقول :

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم »

.كيف يمكن أن يحدث ذلك .. الله قضى بأنه لا تزر وازرة بأخرى ثم هنا يقول .. وليحملن أثقالا مع أثقالهم أى أوزارا مع أوزارهم أليس هذا تناقضا .. لقد نسى محمد .. هكذا هم يريدون أن يقولوا .. ولكنهم يجهلون اعجاز القرآن فى التعبير .. نقول لهم انه :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

معناها أن كل إنسان يحمل ذنبه .. ولكن بعض الناس يوم القيامة يحملون ذنوبا مع ذنوبهم .. من هم .. المضلون الذين يأتون فى الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيل الله .. الوزر فى الآية الأولى هو وزر الضلال .. فإذا كنت أنا ضالا .. وأنت ضال .. وفلان ضال .. كل منا يحمل وزره على نفسه .. فكل منا يحمل ضلاله ووزره .. فمن هنا فإنه لا يحمل ضال وزر ضال آخر .. ولكن هناك الضال .. وهناك المضل .. الضال هو من يضل الطريق .. يكفر بالله سبحانه وتعالى .. هذا هو الضال .. أما المضل فإنه لا يكتفى بأنه هو فى الضلالة .. لكن يضل غيره .. أى يأتى إلى رجل مؤمن .. ويحاول أن يفسد إيمانه .. يأتى إلى إنسان يتطلع إلى الله .. يحاول أن يجعله يكفر .. وربما ينجح فى ذلك .. هؤلاء الناس « المضلون » لا يحملون أوزارهم فقط .. ولكن لهم نصيب من كل وزر يرتكبه الذين أضلوهم .. مصداقا للآية الكريمة فى سورة النحل :

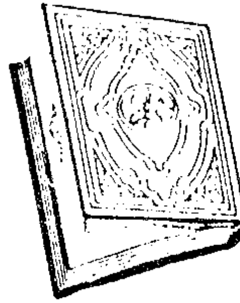
« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة .. ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم »

إذن من يضل الناس .. ويعمل على نشر الكفر والالحاد .. والذين لا يكتفون أنهم هم فى الضلالة .. وحدهم ولكنهم يريدون أن يضلوا غيرهم .. لهم نصيب من كل وزر يقوم به أولئك الذين أضلوهم .. فأنا مثلا حين آتى بإنسان لا يشرب الخمر .. وأظل أغريه حتى أجعله يشرب الخمر .. وأقدمها له .. وأغريه بها .. له وزر لأنه عصى الله وشرب الخمر .. ولى وزر لأننى أضللته وساعدته على المعصية .. وظللت أزينها له حتى وقع فيها .. ومن هنا فإن الآية الأولى التى تقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .. يقصد بها الضالين .. أما الآية الثانية التى تقول :

« وليحملن أثقالهم .. وأثقالا مع أثقالهم »

يقصد بها المضلين الذين يضلون عن سبيل الله . . فلهم نصيب من أوزارهم أولئك الذين أضلوهم . . والذين اتجهوا بهم إلى الكفر والاثم والعصيان . .

هذه بعض التناقضات التى يحاول المستشرقون أن ينالوا بها من القرآن الكريم . . وأن يقولوا انه قول بشر . . ولقد أوضحنا هذه التناقضات بشكل يظهر اعجاز القرآن فيها . . فلا تناقض فى القرآن أبدا وإنما بلاغة ودقة فى التغيير . . تجعل اللفظ والمعنى منسجمين تماما . . لا يبتعدان عن بعضهما البعض . . ولا يؤديان إلا نفس المعنى المقصود بالنسبة لمقتضيات الحال . . على أن المضلين . . أو عددا من المستشرقين لا يكتفون بذلك . . لا يكتفون بالقول بأن هناك تناقضا . . بل يقولون إن هناك تناقضا بين قوانين الكون وبين القرآن الكريم . . وفى هذا افتراء كبير . . وهذا هو موضوع الفصل القادم الذى سنتحدث فيه عن « القرآن . . وقوانين الكون » .



الفصل السادس

القرآن وقوانين الكون

القرآن وقوانين الكون

هناك كثير من دواعى الاعجاز فى القرآن الكريم لا يتنبه إليها العقل إلا بعد أن يبحث ويعيش وينشط .. هذا الاعجاز يظهر فى دقة التعبير فى القرآن الكريم .. ثم يظهر بطريقة أكثر وضوحا فيما يحاول بعض المستشرقين أن يدعوه على القرآن من ادعاء بالتناقض ..

ولقد تحدثت فى الفصول الماضية عن الاعجاز فى بلاغة القرآن الكريم .. ثم تحدثت عن الاعجاز فيما يدعونه من تناقض القرآن الكريم .. والآن أنتقل إلى قضية يحاول البعض اثارتها ..

حين فشلت قضية التناقض جاءوا بشيء اسموه تصادم القرآن الكريم .. وحقائق الكون .. وادعوا أن بعض آيات القرآن تتصادم مع الحقائق الكونية .. وهذا افتراء .. فلا يمكن أن يتصادم القرآن مع أية حقيقة كونية .. لماذا ؟

لأن القائل هو الخالق .. ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه .. ولكن الهدف من الطعن فى القرآن الكريم ـ ويجب أن نفطن لذلك ـ هو محاولة الايهام بأن القائل بشر .. وسنناقش فى هذا الفصل بعض ما يقال عن تصادم القرآن الكريم وحقائق الكون ..

قبل أن نبدأ يجب أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم له عطاء متجدد .. وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن .. ولو أفرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله فى عدد من السنوات .. أو فى قرن من الزمان .. لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء .. وبذلك يكون قد جمد .. والقرآن لا يجمد أبدا .. و إنما يعطى لكل جيل بقدر طاقته .. ولكل فرد بقدر فهمه .. ويعطى للجيل القادم شيئا جديدا لم يعطه للجيل الذى سبقه .. وهكذا ..

ولهذا ندرك كما ذكرت من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تنزل عليه القرآن لم يتعرض بالتفسير إلا لما تقتضيه أحكام هذا الدين فى « افعل ولا تفعل » .. الأشياء التى إذا فعلتها نجوت .. وإذا لم أفعلها عوقبت .. أما ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر فى المستقبل .. وما سيظهر بعد ذلك للعالم .. فلم يتعرض له التفسير .. لماذا .. لأن العقل فى ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمى ليفهم حقائق الكون ..

ولذلك أخذ منها قدر حجمه .. وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه .. ثم مرت السنوات أو القرون .. وظهرت حقائق علمية حديثة .. فتبين لنا أن عطاء القرآن فيها كان عطاء متجددا ..

القرآن .. والنظريات العلمية

ولكن قبل أن نمضى فى التحدث عن حقائق الكون .. فإننا يجب أن نجيب على سؤالين هامين.. السؤال الأول :

هو محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية .. وهذا أخطر ما نواجهه ... ذلك أن بعض العلماء فى اندفاعهم فى التفسير وفى محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمى .. يندفعون فى محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة .. يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة .. وهم فى اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة .. ويحاولون اثبات القرآن بالعلم .. والقرآن ليس فى حاجة إلى العلم ليثبت .. فالقرآن ليس كتاب علم .. ولكنه كتاب عبادة .. ومنهج .. ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم .. سيأتى عدد من الناس .. ويقولون انتهى عصر الإيمان .. وبدأ عصر العلم .. ولذلك وضع فى قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس .. ويثبت أن عصر العلم الذى يتحدثون عنه قد بينه القرآن فى صورة حقائق الكون .. بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرنا .. ولم يكتشف العقل البشرى معناها إلا فى السنوات الماضية .. ولقد قلت أن عطاء القرآن الكريم متجدد مصداقا للآية الكريمة :

« **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** »..

ويجب أن نتنبه هنا إلى حرف السين فى كلمة « سنريهم » لأن معناها المستقبل .. والمستقبل هنا لا ينتهى .. بل أن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذى بعده .. والجيل الذى بعده .. إلى يوم القيامة .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل .. ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معانى القرآن أكثر مما تحتمل .. وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا .. فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة .. أو علم الفلك .. أو علم الفضاء .. إلى آخر هذا .. ولكن

القرآن يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة .. وهى سورة البقرة ..

« **ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » .

أى أنه كتاب هدى .. ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فى كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة .. ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم .. والتى نعرف بعضها .. وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن .. أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون انتهى عصر الإيمان .. وبدأ عصر العلم .. وإن يقول لنا إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلها جديدا هو من علمى ومن خلقى .. فلا تعبدوا المخلوق .. وتتركوا الخالق .. ولكن هذا يجعلنا نتخذ العلم دليلا على صحة القرآن .. بل أن القرآن هو الدليل الحقيقى على صحة .. أو عدم صحة العلم .. فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح ..

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. لا تغيير فيه ولا تبديل .. ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظرية علمية كاذبة .. وما أكثرها .. تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية .. فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله .. ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى نثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض .. وليس نظرية علمية .. ونسرع ونربطه بكلام الله .. وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا فى حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض ..

لماذا .. تركها بلا تفسير

هذه واحدة .. أما الثانية فهى : لماذا لم يفسر القرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن .. وربما لأجيال بعدهم ؟!

المعروف أن حقائق الكون التى أعلنها الله فى القرآن الكريم تمس قوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها .. فالشمس .. ودوران الأرض .. والجاذبية الأرضية .. والليل والنهار .. وكل ما يتعلق بهذا الكون .. وعلم الأجنة وما يدور فى الأرحام .. وكل ما يتعلق باستمرار النوع

البشرى . . كل ذلك من قوانين الكون . . وقوانين الخلق ينتفع بها الناس سواء علموا بها أو لم يعلموا . . الملايين لا يعرفون شيئا عن النظام الكونى . . والتوازن الدقيق الموجود فيه . . ومع ذلك ينتفعون به . . والملايين لا يعرفون شيئا عن جاذبية الأرض . . ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها . . والملايين لا يعرفون شيئا عن حياة الطفل فى رحم أمه . . ومع ذلك فإن عدم العلم لم يمنعهم من إنجاب الأطفال . .

ومن هنا لم يكن تفسير مثل هذه القضايا العلمية المتقدمة التى ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله . . لأنهم ينتفعون بها . . سواء علموها أو جهلوها . . ولذلك أعطاهم الله على قدر عقولهم . . ثم فسر بعد ذلك للأجيال . . كل جيل على حسب عقله . .

نعود بعد ذلك إلى قول المستشرقين . . هم يقولون أن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم . . ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن . . إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون . . أو مع خلق الكون . . ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى أحيانا عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها . . لتبدو فى غير معناها الحقيقى . . أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن . . وكما قلت أعود فأكرر . . اننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم . . بل أن العلم هو الذى يجب أن يثبت . . ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم . . ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا . . ومن أى عالم فى هذا العالم . . لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر . . وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا كما قلت فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى . . ولكننى أرد على الذين يقولون أن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية . . وكلام الله سبحانه وتعالى . .

الأرض . . مددناها

نأتى بعد ذلك إلى حقائق القرآن . . واساءة تفسيرها بحيث تتصادم مع حقيقة علمية . . بعض العلماء يقولون أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى كتابه العزيز . .

« والأرض مددناها » . .

ومعنى المد . . البسط . . أى بسطناها . . ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا . . فلا تناقض بين القرآن الكريم . . وبين الظاهر الموجود . .
ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض . . ثار علماء الدين واتهموا كل من يقول أن الأرض كروية بالكفر . . لأنه يخالف فى رأيهم القرآن الكريم . .
نقول لهم لقد أسأتم تفسير حقيقة قرآنية . . الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية . . بل أعطانا أكثر من دليل على ذلك فى القرآن . . بل أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الأرض على هيئة كرة . . ولنناقش هذا كله . .

لقد قال الله سبحانه وتعالى :
« **والأرض مددناها** »
. . أى بسطناها . . ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أى أرض مبسوطة . . ومعنى ذلك أنك اينما تنظر إلى الأرض تراها مبسوطة . . إذا كنت فى خط الاستواء . . فالأرض أمامك مبسوطة . . فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبى فالأرض أمامك مبسوطة . . وإذا كنت فى القطب الشمالى فالأرض أمامك مبسوطة . . وإذا كنت فى أوربا . . أو أمريكا . . أو آسيا . . أو أى قارة من قارات الأرض . . فالأرض أمامك مبسوطة . . الأرض مبسوطة أمام البشر جميعا فى كل موقع موجودين فيه . . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية . . فلو أن الأرض مسطحة . . أو مربعة أو مثلثة . . أو مسدسة . . أو فى أى شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة . . وحيث أنه لا يمكن أن تصل فى الأرض إلى حافة فالشكل الوحيد الذى تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو أن تكون الأرض كروية . .
وهكذا أبلغنا القرآن فى كلمتين اثنتين « **والأرض مددناها** » . . أترى الإعجاز فى القرآن الكريم لقد أثبت الله كروية الأرض . . وفى نفس الوقت اختار العبارة التى لا تتصادم مع مفهوم العقل البشرى فى وقت نزول القرآن . . ولكن فى كلمتين اثنتين . . أعطانا الله السر فى الأرض . . إعجاز لا يمكن أن يكون قائله بشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أيضا فى أربع كلمات . . أنه خلق الأرض على هيئة كرة . . أى أنها كانت كذلك ساعة الخلق . .

الليل يسبق .. أم النهار

حينما نأتى إلى الآية الكريمة ..

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

يقول الله تعالى فى سورة يس :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(سورة يس)

والحديث هنا عن قوانين الكون .. الشمس لا تدرك القمر .. لأنهما كما قال العلماء يتحركان فى خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا .. هذه حقيقة علمية ظهرت فى السنوات الأخيرة .. وذكرها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. ولكن ما معنى « **ولا الليل سابق النهار** » .. المعنى هنا نفى لشىء موجود غير صحيح .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه .. يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطىء .. العرب كانوا يقولون أن الليل يسبق النهار .. واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس .. بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم شعبان .. والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان .. إذا كان العرب يقولون ان الليل يسبق النهار .. ومعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل ..

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. الليل يسبق النهار .. والنهار لا يسبق الليل .. النهار لا يسبق الليل .. تركها الله .. ولم يتعرض لها .. لأنها حقيقة .. ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار .. ورد عليهم بقوله تعالى :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. لا النهار يسبق الليل حقيقة كانت موجودة .. ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة .. لا الليل يسبق النهار خطأ كان موجودا فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

إذن لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. معنى ذلك أن الليل

والنهار يوجدان معا فى وقت واحد على الأرض .. لأن النهار لا يسبق الليل .. والليل لا يسبق النهار .. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية ..

لكن ليس هذا هو القصد النهائى من الآية .. الله سبحانه وتعالى أراد أن يصحح هذه الحقيقة .. ويقرر أن الليل والنهار موجودان معا على الأرض ليبلغنا عن حقيقة خلق الأرض .. لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض مسطحة .. فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق فى مواجهة السطح .. وحينئذ يكون النهار قد وجد أولا .. ثم يأتى بعد ذلك الليل .. وإما أن تكون الشمس غير مواجهة للسطح ساعة الخلق .. ومن هنا يكون الليل قد أتى أولا .. ثم بعد ذلك يأتى النهار .. ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا أن النهار والليل خلقا معا .. لم يسبق أحدهما الآخر دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض كروية .. لأنه حدد الشكل الوحيد الذى يوجد فيه الليل .. والنهار .. على سطح الأرض معا ساعة الخلق .. وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة هامة فى آية أو جزء من الآية يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كرة .. وأنه أوجد الليل والنهار معا عليها .. فيقول سبحانه :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

وعندما يتقدم الذهن البشرى ويبحث .. ويعرف معنى الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة .. وخلق الليل والنهار معا .. فى بضع كلمات ..

دوران الأرض .. والجبال

ننتقل بعد ذلك إلى قضية دوران الأرض حول نفسها .. لترى أن الله سبحانه وتعالى يمسها فى القرآن كحقيقة كونية .. فهو يتحدث حين يقول سبحانه فى سورة النمل :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النمل)

الجبال رواسى للأرض مفروض أن تثبتها وتمنعها من الحركة . . ومن أن يحدث بها أى خلخلة أو اهتزاز . . هذه الجبال هى الرواسى التى تجعل الأرض لا تميد بالإنسان . . هى مركز الثبات التى إذا نظرت إليها . . وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة فى مكانها لا تتحرك خطوة واحدة . . ثابتة جامدة . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول :

« **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى تحسبها .؟ قالها رحمة بالعقل البشرى . . فالإنسان يظن أن الجبال جامدة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التى نراها أمامنا ونحسبها جامدة . . تتحرك من مكان إلى آخر . . ولكنها « **تمر مر السحاب** » . . لماذا . . ؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة . . لا يتحرك بنفسه . . إنما تحركه الرياح . . فالسحاب بدون الريح يبقى فى مكانه . . ولكن الرياح هى التى تدفعه من مكان إلى آخر . . ومن هنا فإن استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « **مر السحاب** » . . يريد أن ينبئنا أن الجبال التى نحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها . . بل هى تابعة لحركة أخرى تدفعها . . تماما كما تدفع الرياح السحاب . . وإذا كانت الجبال وهى أوتاد الأرض ولا تتحرك ذاتية من نفسها . . فما الذى يدفعها . . محرك آخر . . وما هو المحرك الآخر . . انه الأرض . . وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض . . فلابد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور . . وإلا فكيف تقوم بتحريك الجبال وهى ثابتة . . ان الجبال فى حركتها . . تابعة لشىء آخر يتحرك . . تماما كالسحاب الذى يتبع فى حركته الريح والجبال ثابتة فوق الأرض فلا يوجد محرك آخر لها إلا الأرض . . وهكذا مس الله سبحانه وتعالى دوران الأرض بشكل بديع يبين لنا أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها . . وأن الجبال التى هى أوتاد الأرض تتحرك تابعة للأرض فى حركتها . . وأننا نحسب هذه الجبال جامدة . . ولكن قول الله سبحانه وتعالى « **تحسبها جامدة** » محتاج إلى وقفة . . ذلك أنه يقدم لنا حقيقة علمية أخرى . .

انك حين تكون فوق جسم متحركة حركة رتيبة لا اهتزاز فيها فإنك لا تحس بهذه الحركة إلا إذا قست هذا الجسم إلى جسم ثابت . . الطائرة حين تطير بنا . . إذا نظرت من النافذة . . فانى أحس بحركة الطائرة وطيرانها . . ولكن إذا

أقفلنا النوافذ . . وكان الجو مستقرا ليس فيه أى اضطراب بحيث لم يصاحب هذا الطيران أى اهتزاز فإننى لا أشعر اطلاقا بحركة الطائرة . . لماذا ؟ لأن كل شيء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لى فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولى ثابت . . ولا أحس فى هذا بأية حركة . . وكذلك بالنسبة للقطار والسيارة . . أنت حين تغلق النوافذ . . وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها . . فإنك لا تحس بالحركة . . ولكن إذا فتحت النافذة وقست الحركة إلى شيء ثابت فإنك تحس بالحركة . .

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحسكم . . لأن وضعها بالنسبة للأرض ثابت . . ووضعها بالنسبة لكم ثابت . . ووضعها بالنسبة لكل شيء حولها ثابت . . ومن هنا فإنك تحسبها جامدة . . ولا تفطن إلى حركتها أبدا . . لأنه ليس هناك شيء أمامك . . تقيس الحركة به . . ولكنى أقول لك أن هذه الجبال تتحرك وهى فى حركتها ليست لها حركة ذاتية أى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض . . بل تتبع الأرض فى دورانها . . ثم تتعجب أنت لذلك فيقول لك الله سبحانه وتعالى لا تتعجب إنه « **صنع الله الذى أتقن كل شيء** » يكون هناك يقين . .

بعض الناس يقولون أن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة . . ولكننا نقول لهم أنه فى يوم القيامة لا يكون هناك حسبان ولكن يكون يقينا . .

« **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » . .

ويقول الله سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة :

« **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** » . .

فكيف ينسفها الله ثم نحسبها جامدة ويقول الله سبحانه وتعالى :

« **يوم تبدل الأرض غير الأرض . . والسماوات** »

فى يوم القيامة . . ينسف الله الجبال ويبددها . . وكل شيء أمامك يكون يقينا فأنت ترى الجنة . . وترى النار . . وترى الله رؤية اليقين . . فالحسبان فى الدنيا واليقين فى الآخرة . .

الحديث عن الجنين . . لماذا ؟!

على أن القرآن مس أشياء كثيرة . . لو كان هذا كلاما من عند غير الله ما غامر

من يقوله فى أن يمس هذه الأشياء .. الحديث عن الأجنة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

(سورة المؤمنين)

ما الذى يجعل محمدا عليه السلام يقتحم قضية غيبية .. ويقولها فى القران الكريم وهى قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه .. فالقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ولا تغيير فيه ولا تبديل إلى يوم القيامة .. ماذا يمكن أن يحدث مع تقدم العلم .. لو ظهر أن هذا الكلام غير صحيح ؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر ؟ ولماذا يخاطر محمد عليه السلام فى شىء غيبى كهذا ؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه .. أو أن يتحداه فيه .. ولكن لأن الخالق هو الله .. والقائل هو الله .. جاء الحديث عن الأجنة فى القرآن قبل أن يصل إليه العلم .. ثم اكتشف العلم صحة كل كلمة فى القرآن .. إنه تحد .. وتحد من الله سبحانه وتعالى ..

وفى أنفسكم

شىء آخر مسه القرآن مسا دقيقا وهو الجسم البشرى وعلم الأعضاء .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويذكر الأذن دائما قبل العين .. ويقول الله « **السمع والأبصار** » .. ولا يقول البصر والسمع ..

يستوقفنا هذا لأن الإنسان حين يفقد بصره .. يفقد كل شىء .. يعيش فى ظلام دائم .. لا يرى شيئا على وجه الاطلاق .. يصطدم بكل شىء .. ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى وحينئذ تكون المصيبة أهون .. ولكن الله سبحانه

وتعالى حين يذكر السمع يقدمه دائما على البصر ..

إن هذا اعجاز فى القرآن .. لقد فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر لأنه أول ما يؤدى وظيفته فى الدنيا .. ولأنه أداة الاستدعاء فى الآخرة .. لأن الأذن لا تنام أبدا ..

إن السمع أول عضو يؤدى وظيفته فى الدنيا فالطفل ساعة الولادة يسمع ولكن العين لا تؤدى مهمتها لحظة مجىء الطفل فى الدنيا .. فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أن السمع هو الذى يؤدى مهمته أولا .. فإذا جئت بجوار طفل ولد منذ ساعات .. وأحدثت صوتا مزعجا فإنه ينزعج .. ويبكى ولكنك إذا قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك ولا يحس بالخطر .. هذه واحدة .. وإذا نام الإنسان فإن كل شىء يسكن فيه إلا سمعه .. انك إذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه فإنه لا يحس .. ولكنك إذا أحدثت ضجيجا بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعا .. هذه الثانية .. أما الثالثة فهى أن الأذن هى الصلة بين الإنسان والدنيا .. الله **سبحانه** وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال :

« **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا** » ..

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أى ازعاج .. ذلك أن ضجيج الحركة فى النهار يمنع الإنسان من النوم العميق .. وسكونها بالليل يجعله ينام نوما عميقا .. إذن الأذن هى التى تؤدى وظيفتها أولا .. وهى لا تنام ولا تغفل أبدا .. وهى الصلة بين الإنسان والدنيا .. وأداة الاستدعاء فى الآخرة .. ولذلك فضلها الله سبحانه وتعالى :

على أن هناك شيئا آخر نلاحظه هو أن الله سبحانه وتعالى يأتى بكلمة السمع مفردة دائما .. وكلمة الابصار مجموعة .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة فصلت :

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾

(سورة فصلت)

لماذا تأتى كلمة السمع مفردة .. وكلمة البصر مجموعة .. مع أنه كان يجب أن يقول الله سبحانه وتعالى أسماعكم وأبصاركم .. وكان من المفروض أو

المنطقى أن يكون هناك سمع وبصر . . أو أسماع وأبصار . . ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم . . فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بارادته . . فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر . . وأستطيع أن أغمض عينى عما لا أريد أن أراه . . أو أدير وجهى أو أدير عينى بعيدا عن الشىء الذى أريد أن أتجاهله . . ولكن الأذن ليس لها اختيار فى أن تسمع أو لا تسمع . . فأنت فى حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعا إلى أذنك . . سواء أردت أو لم ترد . . أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته . . ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه . . ولا تسمع ما لا تريده . . قد تتجاهله . . وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه . . ولكنه يصل إلى أذنيك سواء أردت أو لم ترد . . إذن فالابصار تتعدد . . أنا أرى هذا . . وأنت ترى هذا . . وثالث يرى هذا . . إلى آخر تعدد الابصار . . وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا . . ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعا مادمنا جالسين فى مكان واحد . . فكلنا نسمع نفس الشىء . . ومن هنا اختلف البصر . . ولكن توحد السمع . . كل واحد له بصر . . ينظر به إلى المكان الذى يريده . . ولكننا كلنا نتوحد فى السمع فيما نريد . . وما لا نريد أن نسمع . . ومن هنا جاءت كلمة الابصار . . بينما توحدت كلمة السمع . . ولم تأت كلمة الاسماع . . على أن الأذن مفضلة عن العين لأنها لا تنام . . والشىء الذى لا ينام أرقى فى الخلق من الشىء الذى ينام . . فالأذن لا تنام أبدا منذ ساعة الخلق انها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة . . بينما باقى أعضاء الجسم . . بعضها ينتظر اياما . . وبعضها ينتظر سنوات . .

والأذن لا تنام . . فأنت حين تكون نائما تنام كل أعضاء جسمك . . ولكن الأذن تبقى متيقظة . فإذا أحدث أحد صوتا بجانبك . . وأنت نائم . . قمت من النوم على الفور . . ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل . . فإن ضجيج النهار وأصوات الناس وكل ما يحدث فى هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم . . لأن آلة الاستدعاء وهى الأذن معطلة . . كما أن الأذن هى آلة الاستدعاء يوم ا لقيامة حين ينفخ فى الصور . .

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى . . تنعكس الأشعة على الأشياء . . ثم تدخل إلى العين فترى . . فإذا كانت الدنيا ظلاما فإن العين لا ترى . . ولكن الأذن

تؤدى مهمتها فى الليل والنهار .. فى الضوء والظلام .. والإنسان متيقظ .. والإنسان نائم .. فهى لا تنام أبدا .. ولا تتوقف أبدا .. أعرفت الآن لماذا فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر .. وقدمه فى القرآن الكريم ؟!

الاحساس .. والجلد

شىء آخر يستوقفنا هو ما كشف عنه الله سبحانه وتعالى عن الحس .. القرآن يلمس هنا حقيقة كونية هامة .. لأنه يأتى ويعلمنى كيف أعرف منافذ الحس .. أو مواضع الحس .. وهو يأتى ليمس هذا على أنه حقيقة كونية .. ولكنه لا يشرحه ككتاب طبى .. بل يقول الحقيقة .. فعندما يتحدث عن الكفار الذين يعذبون فى النار .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الله قد حدد لى حكمة تبديل الجلد أو تغييره بأنه ليذيقهم العذاب .. إذن فالاذاقة حسب القرآن محلها الجلد ..

نأتى الآن إلى الحقيقة العلمية التى تؤكد لنا أن كل أعصاب الاحساس موجودة .. تحت الجلد مباشرة .. وإن هذه الأعصاب التى تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ .. مكانها تحت الجلد مباشرة .. إذن قول الله سبحانه وتعالى :

« بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » ..

اعلان لحقيقة كونية يمسها الله فى القرآن .. وهى ان الاحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة .. وإن الله كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التى احترقت وماتت فيها أعصاب الاحساس بجلود سليمة لم تحترق ليذوقوا العذاب مرة أخرى .. فحينما يأتى الطب ليقول لنا أن أعصاب الجسم تحت الجلد مباشرة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ..

على أن نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم لا تقتصر على ما ذكرت لكن هذه بعض أمثلة بسيطة .. ولقد تحدثت فى الفصول الماضية إن الله سبحانه وتعالى قد

قال سيروا فى الأرض . . ولم يقل سيروا على الأرض . . وبينت الاعجاز فى ذلك بأننا نسير فعلا فى الأرض . . بين الغلاف الجوى والسطح . . كما بينت معنى الآية الكريمة « رب المشارق والمغارب » . . وهذا كله يعتبر اعجازا هائلا للقرآن الكريم . . وهناك نواحى اعجاز أخرى سنبين بعضها فيما بعد . .

طفل الأنابيب !

إننا قبل أن ننتهى من هذا النقاش . . يجب أن نتحدث عن حقيقة علمية . . وهى ليست حقيقة علمية . . يأتى بعضها الناس ليقولوا إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين . . هل هو ذكر أم أنثى . . ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلا صناعيا . . وإن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة . . وهى :

« **ويعلم ما فى الأرحام** » . .

ونحن نقول لمن يدعى هذا الكلام . . من الذى قال لك أن كلمة « ما » معناها ذكر أم أنثى . إن كلمة « ما » معناها شقى أم سعيد . . طويل أم قصير . . أبيض أم أسود . . عمره . . رزقه . . أجله . . اسمه . . كل شىء عن المخلوق الذى سيأتى إلى الدنيا . . بل ان الله سبحانه وتعالى أخبر « زكريا » بابنه قبل أن يولد . . وأخبره باسم هذا الابن . . وهو اسم لم يكن البشر يتسمون به . . وقال له عن مستقبله عندما يكبر . . إنه سيكون سيدا . . وحصورا ونبيا من الصالحين . . كل ذلك قبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم « زوجة زكريا » . . بل قبل أن يتم الخلق تماما . . فهذا البلاغ كان فى المحراب . . وزكريا يصلى يطلب ولدا . .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾

(سورة آل عمران)

إذن البشارة جاءت هنا وكل شيء عن المولود الجديد قبل أن يتم خلقه فى الرحم .. بل وأكثر من ذلك كان زكريا نفسه غير مصدق أن ذلك ممكن أن يحدث لأنه كبير فى السن وامرأته عاقر .. فى هذه اللحظة التى يستبعد فيها زكريا أن يرزق بطفل .. أخبره الله أنه سيرزق بولد .. ويكون اسمه « يحيى » وسيكون نبيا وحصورا ومن الصالحين .. وهذا هو بعض تفسير كلمة « ما » فكيف يفسر البعض كلمة « ما » أنها ذكر أو أنثى .. مع أن كلمة « ما » تتناول كل شيء عن المولود قبل أن يولد .. وفى أى أرض يموت .. ومستقبله .. ومن سيتزوج .. ورزقه .. وهل هو سعيد أم شقى .. طويل أم قصير .. وكل ما سيحدث له .. إن كلمة « ما » تتناول كل حرف فى حياة الإنسان ، ما سيشهده .. وكيف سيعيش ، وإلى أى البلاد سيهاجر .. إذن فعلم الله سبحانه وتعالى فى كلمة « ما » علم غير محدود .. فكيف تأتى أنت وتحدده بذكر أم أنثى .. مع أن الله سبحانه وتعالى لم يحدده .. بل قال « ما » فى الأرحام ؟

على أن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية .. ذلك أن الزوجة إما أن تلد ذكرا أو أنثى .. وفى بعض الأحيان تقول أنا سأرزق بولد .. وترزق بولد .. وفى بعض الأحيان تقول أنا سأرزق ببنت وترزق ببنت .. وليس معنى ذلك أنك تعلم الغيب .. ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة فى كل افتراض .. هناك ٥٠٪ ولد .. و٥٠٪ بنت .. وأنت ان جاء تخمينك صحيحا فلانك معك ٥٠٪ منه .. ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر وأنثى .. لو كانوا ٢٠ جنسا مثلا لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شيء من الدقة لأن التمييز بين عشرين جنسا والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلا إلى طريقة علمية دقيقة .. ولكن التمييز بين ذكر أم أنثى يمارسه بعض الناس الذين لم يقرأوا فى حياتهم كتابا .. يقولون لامرأة حامل يظهر عليك انك سترزقين بولد .. ويأتى المولود ولدا فعلا .. فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما فى الأرحام .. إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيرا

ولكن بعض الناس يأتون ويهللون ويقولون أن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى وهذا غير صحيح على الاطلاق . . إن ما« فى الأرحام » يشمل أكثر كثيرا من علم البشر من الآن وحتى يوم الدين .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الأخرى وهى الطفل الصناعى . . وهذه نقطة يثور حولها الجدل فى هذه الأيام حول طفل الأنابيب . . وما إلى ذلك . . وأنت إذا أردت أن تصنع بشرا . . فالمفروض أن تأتى بالمادة الحية تصنعها أولا ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتيسر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم لا يكون هذا أبدا فيه صناعة أو طفل صناعى . . أنت أخذت ما خلقه الله من الرجل وأوجدت له الطريقة ليتم ما أراده الله فيما خلقه الله للأنثى . . إذن أنت لم تفعل شيئا سوى أن كان هناك سبب يمنع الحمل . . واستطعت أن تتغلب عليه بطريقة ما . . ولكن المادة الحية والرحم الذى نما فيه الطفل هما من خلق الله سبحانه وتعالى . . فأين ما خلقت أنت من طفل صناعى . . أو طفل الأنابيب ؟! إنك لم تخلق شيئا . . وإذا كان الله قد يسر لك سبيلا لتعالج عقما باستخدام ما خلقه الله . . لاستمرار حياة البشر فى الأرض . . فأنت لم تخلق شيئا . . ولو أردت فعلا أن ترينا إنك تستطيع أن تخلق طفلا صناعيا . . فأبدا أولا بخلق المادة الحية والعلم كله عاجز عن أن يخلق خلية حية . . ولكن كل هذا محاولة للاضلال . .

على أن معجزة القرآن لم تأت لتبين أو تكشف عن بعض أسرار الكون . . وتلمس الحقائق الكونية الكبرى . . وإنما جاءت لتتحدى . . القرآن مادام معجزة فلابد أن فيه تحديا . . ولقد تحدى القرآن العرب بالبلاغة ولكن الإسلام هو دين البشرية كلها . . ولذلك كان للقرآن أن يتحدى الذين عاشوا وقت نزوله من غير العرب . . ثم يحمل تحديا لكل جيل بعد ذلك وإلا فالمعجزة لا تكون قائمة . .

ولقد استطاع القرآن أن يمزق حجب الغيب كلها . . مزق حجاب الماضى . . وحجاب الحاضر . . ومزق حجاب المستقبل . . ومزق حجاب النفس البشرية . . ومزق حجاب كل الأشياء التى لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن . . ومازال القرآن يتحدى . . ولا أحد يستطيع أن يواجه هذا التحدى . . وهذا التحدى هو ما سنبينه فى الفصل القادم . .

الفصل السابع

القرآن من وحي الغيب

القرآن مزق حواجز الغيب

حينما جاء القرآن تحدى فى أشياء كثيرة .. تحدثت عنها .. ولكنه فى تحديه مزق حواجز الغيب .. مزق حواجز الزمان والمكان .. فحواجز الغيب ثلاثة .. أولها حاجز المكان .. أى أن أشياء تحدث فى نفس اللحظة .. ولكن لا أعرف عنها شيئا .. لأنها تحدث فى مكان .. وأنا موجود فى مكان آخر ..

ثم هناك حاجز الزمن الماضى .. وهو شيء حجبه عنى زمن مضى .. فأنا لم أشهده .. وحاجز المستقبل وهو ما سيحدث غدا .. لأن حاجز الزمان المستقبل قد حجب عنى فلم أشهده .. إذن فحواجز الغيب ثلاثة .. حاجز المكان .. وحاجز الزمن الماضى .. وحاجز الزمن المستقبل .. على أن هناك أيضا حاجزا آخر .. هو حاجز النفس البشرية .. ما يخفيه الإنسان داخل نفسه ..

إذا قرأنا القرآن وجدنا أنه يمزق حاجز الزمن الماضى .. فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة .. ويروى لنا قصص الرسل السابقين .. ويحكى لنا أشياء لم يكن أحد يعرفها .. وعلى لسان من .. على لسان نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب .. ويحكى أسرار الماضى .. ويتحدى الذين يكذبون .. مزق الله حجاب وحاجز الزمن الماضى .. ويكفى أن تقرأ فى القرآن .. « وما كنت وما كنت وما كنت » .. لتعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من غيب الماضى ..

« **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى** » ..

« **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** » ..

أى إنك لم تكن هناك يا محمد .. ولكن الله هو الذى أخبرك ومزق لك حجاب الزمن الماضى ..

« **وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا** » ..

« **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك** » ..

وهكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضى فى أكثر من مناسبة ليخبر محمدا عليه السلام بالأخبار الصحيحة عمن سبقوه من الرسل والأنبياء .. ويصحح ما حرف من الكتب السماوية التى أنزلها الله وحرفها الرهبان والأحبار .

بل ان الاعجاز هنا جاء فى تصحيح ما حدث من تحريف الكتب السماوية التى سبقت القرآن .. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصارى .. ويقول لهم هذا من عند الله .. فى التوراه أو الانجيل ..

وهذا حرفتموه فى التوراة أو الانجيل . . ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدى أو يردوا عليه . . ذلك أن التحدى للقرآن فى تمزيق حجاب الزمن الماضى . . وصل إلى أدق أسرار الرسالات السماوية الماضية . . فصححها لهم . . وبين ما حرفوه منها وما أخفوه . . وتحداهم أن يكذبوا ما جاء فى القرآن فلم يستطيعوا . . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة مريم :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » . .

ثم جاء الأمر الثانى . . فمزق الله حجابَ المكان لمحمد عليه الصلاة والسلام . . وجاء فى أمر من أدق الأمور وهو حديث النفس . .

وهنا وقبل أن نبدأ . . أحب أن نضع فى أذهاننا جيدا . . أن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته . . وانه يبقى بلا تعديل ولا تغيير لا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يحرفه . . ومن هنا فإن هذا الكلام حجة على محمد صلى الله عليه وسلم مأخوذ عليه . . فإذا أخبر القرآن بشىء . . واتضح انه غير صحيح . . كان ذلك هدما للدين كله . .

يأتى القرآن بعد أن بينت خطورة ما يقول . .

« ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله » . .

ما معنى هذا الكلام . . معناه امعان فى التحدى . . فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضى . . وأخبرتكم بأنباء الأولين . . ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان . . وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبة لا ترونها بل يقول : سأهتك حاجز النفس . . وأخبركم بما فى أنفسكم . . بما فى داخل صدوركم . . بما لم تهمس به شفاهكم . . وكان يكفى لكى يكذبوا محمدا أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا . . لو لم يقولوها بالفعل داخل أنفسهم لكان ذلك أكبر دليل لكى يكذبوا محمدا ويعلنوا أنه يقول كلاما غير صحيح . . إذن فالقرآن فى هتكه لحجاب المكان . . دخل إلى داخل النفس البشرية . . وإلى داخل نفوس من . . إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام . . وقال فى كلام متعبد بتلاوته لن يتغير . . ولا يتبدل . . قال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ

﴿... بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾

(سورة المجادلة)

قال ما يدور فى أنفس غير المؤمنين . . فهل هناك أكثر من هذا تحديا لحجاب المكان .'. إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التى وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان . .

يحلفون . . وهم كاذبون

بل ان التحدى ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على اخفائه . . فالإنسان حين يحرص على اخفاء شيء . . ويكون غير مؤمن . . يأتى إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح . . وهو غير صحيح فى نفسه فقط . . ولكن حرصه على أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد إنه صحيح بالحلف . .

ويأتى الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس . . ويظهر ما فيها امعانا فى التحدى ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

(من الآية ٤٢ سورة التوبة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

(سورة التوبة)

ويقول سبحانه وتعالى :

« ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » . .

ويقول الله سبحانه وتعالى امعانا فى كشفه ما فى نفوس أولئك الذين يكذبون بهذا الدين . .

« ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم . . ولتعرفنهم فى لحن القول » . .

وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول للنبى عن المنافقين . . إنك تعرفهم فى لحن القول . أى أنهم يلحنون ويلوون ألسنتهم بالقرآن وهذا أمر اختيارى . . أى انهم يستطيعون أن يفعلوه ويستطيعون أن يمتنعوا عن فعله . . والله عندما ينزل هذه الآية يكون الفعل لم يتم . . أى أنهم يفاجأون بالآية قبل أن يقوموا بما ينوون القيام به . . ومن هنا يكون لهم حرية الاختيار . .

ومع وجود حرية الاختيار . . فإنهم يأتون ليقوموا بما قاله الله فى القرآن الكريم دون أن يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك . . بل أن الله سبحانه وتعالى يدخل إلى نفوسهم ليخرج من الأسرار ما يخفونه داخل صدورهم ولا يقولونه لأحد . . فالسر نوعان :

ـ سر بينى وبينك أى لا يعلمه إلا أنا وأنت كصديقين أو حليفين .

ـ وسر آخر أخفيه فى صدرى ولا يعلمه أحد فى هذه الدنيا . . ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى السر الذى أخفيه فى صدرى ولا يعلمه أحد فيفضحه أو يعلنه وأنا فى هذه الحالة أملك كل وسائل التكذيب . . لأنه لا أحد يعرف هذا السر غيرى . . ومع ذلك أقف مبهوتا من أن القرآن الكريم قد أظهر ما فى نفسى . . وما أخفيته . . فلا أستطيع أن أكذب . . مع اننى جئت لأقول الكذب . . أى أن المنافقين الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى جاءوا ليكذبوا . . ولكن عندما فضح الله سرهم . . بهتوا فلم تستطع ألسنتهم أن تنطق بالكذب . . بل وأكثر من ذلك قال الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولون كذا . . وسيفعلون كذا . . والسين هنا تدل على أن الفعل لم يتم . . ومع ذلك لم يستطع المنافقون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولونه . . مع أن فى امتناعهم عن القول هدما لقضية الدين والإيمان . .

إذن فالقرآن هنا جاء لأناس غير مؤمنين . . وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم فأخرج ما فى صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا . . وفضح كذبهم . . ونشر

على الدنيا كلها ما فى صدورهم من كذب ورياء ونفاق . . أى أنه اهانهم أمام المجتمع كله . . ولو كان هذا غير صحيح لقال هؤلاء القوم إننا لم نكذب . . إننا لصادقون . . والكلام الذى يدعى محمد أنه يأتى من عند الله كلام غير صحيح . . ولكن هؤلاء بهتوا من أن القرآن مزق حجاب نفوسهم فلم يستطيعوا ردا . . وبهتوا لأن الله أخرج ما فى صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا . . فلم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم تواروا بعد أن افتضحت حقيقتهم . . ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية . . وهى من أدق أسرار الدنيا التى لم يستطع علم أن يصل إليها حتى الآن . . فإذا بالقرآن يأتى متحديا بكلام متعبد به إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف ما فى داخل النفس . . ويعرى ما تكتمه عن الناس جميعا . . وما هى حريصة على كتمانه . . حتى انها تحلف باسم الله كذبا ليصدقها الناس . . يأتى القرآن فيمزق هذا كله . . أتريد اعجازا أكثر من ذلك . .

ومزق حجاب المستقبل

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل . . كان لابد أن يكون الحديث عن المستقبل على عدة مراحل . . المرحلة المعاصرة لكى يعرف أصحاب الرسالة والمؤمنون وغير المؤمنين إنه الحق . . ومرحلة المستقبل البعيد لكى يعرف كل عصر من العصور التى ستأتى بعد نزول القرآن . . إن هذا هو كتاب الله الحق . . ومن هنا كان التحدى بالنسبة للمعاصرين لأحداث قريبة . . وبالنسبة للعالم عن حقائق الكون كله . . هنا أحب أن أنبه إلى شىء هام جدا هو استخدام حرف السين فى القرآن : فحرف السين كما نعرف فى اللغة العربية لا يستخدم إلا بالنسبة لاحداث مستقبله . . والقرآن محفوظ ومتعبد به وبتلاوته . . سيظل محفوظا حتى يوم الساعة . . ومعنى ذلك أنه لا يمكن تبديله أو تغييره أو انكاره من أحد من المتعبدين به . . بل إنه سيظل يتلى هكذا كما أنزل . . إذن فأنباء القرآن باحداث مستقبلة يسجل هذه الأحداث على قضية الإيمان نفسها ويطعن الدين فى صميمه . . خصوصا إذا تبين أن ما تنبأ به القرآن غير صحيح . . ومن هنا فلابد أن يكون القرآن متأكدا من أن هذا سيحدث فى المستقبل . . من من البشر يستطيع أن يتأكد ماذا سيحدث له بعد ساعة

واحدة .. فما بالك بعد أيام وسنوات .. الجواب لا أحد .. ذلك أن قدرة البشر فى صنع الأحداث محدودة .. فقد حجب عنهم الزمن .. وحجب عنهم المكان .. فلو قلت مثلا اننى سأبنى عمارة فى هذه البقعة بعد عام .. أنا لا أضمن اننى سأعيش حتى الساعة القادمة .. وبذلك لا أستطيع أن أحكم إذا كنت سأكون موجودا هناك أم لا .. هذه واحدة .. ثانيا قد تأتى الحكومة مثلا وتبنى مستشفى فى هذا المكان .. أو قد يقام فى هذا المكان سوق أو شارع .. إذن فأنا لا أستطيع أن أجزم فى شىء مادى سيحدث بعد فترة زمنية محدودة .. ولكن الذى يستطيع أن يقول هذا يقينا هو الذى يملك القدرة .. ومن هنا فإنه يستطيع أن يقول يقينا أن هذا سيحدث بعد فترة من الزمن .. والذى يملك ذلك هو الله سبحانه وتعالى .. فإذا كان الحديث عما سيحدث بعد آلاف السنين .. فإن ذلك فوق طاقة البشر جميعا .. ولقد أنبأ القرآن بما سيحدث بعد أعوام قليلة .. وبما سيحدث بعد آلاف السنين .. فالذى قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقينا وهو الله سبحانه وتعالى .. انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » ..

لقد نزلت سورة القمر هذه فى مكة .. والمسلمون قلة .. وأذلة .. حتى أن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا الذى سيهزم ونحن لا نستطيع أن نحمى أنفسنا .. وهكذا يتنبأ القرآن بأن الإسلام سينتصر .. فى مكة .. وإن هؤلاء الجمع الذين تجمعوا لمحاربة الإسلام فى مكة سيهزمون ويولون الأدبار .. ويتنبأ بها متى .. والمسلمون قلة .. وأذلة .. لا يستطيعون حماية أنفسهم .. ويطلقها قضية .. هو على يقين من أن الله الذى قالها سيحققها .. وبعد ذلك نجد عجبا .. الوليد بن المغيرة العدو الأول للإسلام .. والمشهور بكبريائه ومكابرته وعناده .. يأتى القرآن ويقول : هذا الإنسان المكابر العنيد ..

« سنسمه على الخرطوم » .

أى إنه سيقتل بضربة على أنفه .. ويحدد موقع الضربة .. وبعد ذلك يأتى فى بدر فتراه قد وسم على خرطومه .. أى ضرب على أنفه .. من الذى يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها .. من الذى يستطيع أن يجزم .. ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة ..

القرآن مزق حواجز الغيب

التحدى .. لأعداء الله

نأتى بعد ذلك إلى آية أخرى .. الرسول عليه الصلاة والسلام يأتى فيقرأ ..

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

هذا قرآن .. وفى من .. فى عم الرسول .. وفى من .. فى عدو الإسلام .. ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية ؟ ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن ؟ ضد هذا الدين .. قالت له الآية يا أبا لهب أنت ستموت كافرا .. ستموت مشركا .. وستعذب فى النار .. وكان يكفى أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين .. ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. يقولها نفاقا .. ويقولها رياء .. يقولها ليهدم بها الإسلام .. لا ليدخل فى الإسلام .. يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمدا قد أنبأكم اننى سأموت كافرا .. وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله .. وأنا أعلن إسلامى لأثبت لكم أن محمدا كاذب .. لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا .. ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبى لهب على الوصول إليه .. بل بقى كافرا مشركا .. مات وهو كافر .. ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافرا .. أمرا ممكنا .. لأن كثيرا من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب .. وغيرهم .. كانوا مشركين وأسلموا .. فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا .. وسيموت وهو كافر .. المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو .. وتحداه فى أمر اختيارى .. كان من الممكن أن يقوله .. ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث .. لماذا .. لأن الذى قال هذا القرآن .. يعلم إنه لن يأتى إلى عقل أبى لهب تفكير يكذب به القرآن .. هل هناك اعجاز أكثر من هذا ؟

وتحد .. لغير العرب

انتقل بعد ذلك إلى النقطة الثانية .. وهى ماذا حمل القرآن لغير العرب فى عصره .. ولغير العرب والدنيا كلها بعد عصره ..؟ أى ماذا حمل القرآن من أنباء نواميس الله فى الأرض وقوانينه .. التى كانت غيبا على البشرية كلها فى عصره وبعد عصره ..؟ هنا الأمثلة كثيرة .. والمجال لا يتسع لها كلها .. ولكنى سأحاول أن أبين عددا منها فيما يختص بالاعجاز فى عصر القرآن لغير العرب .. فقد كانت هناك أمتان كبيرتان امبراطوريتان بجانب الجزيرة العربية . هما الروم والفرس .. الروم أمة مؤمنة .. أهل كتاب .. ولو أنهم لا يصدقون برسالة محمد إلا أن هناك عندهم إيمانا بوجود الله .. والقيم السماوية .. والفرس كانوا أهل كفر وإلحاد فى ذلك الوقت .. لا يؤمنون بأى دين من الأديان .. إذن فأيهما أقرب إلى قلب المؤمنين .. الروم باعتبارهم أهل كتاب .. وأيهما أقرب إلى قلب الملحدين والكفار .. الفرس باعتبارهم مشركين وكفرة .. قامت الحرب بين الدولتين .. فهزم الروم وانتصر الفرس .. وهنا فرح المشركون لأن الكفر قد انتصر .. وحزن المؤمنون لأن نوعا من الإيمان قد انهزم .. هنا يتدخل الله سبحانه وتعالى ليزيل عن المؤمنين هذا الحزن .. فيقول فى كلام محفوظ متعبد بتلاوته لن يجرؤ ولن يستطيع أحد أن يغير فيه .. يقول :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) ﴾

(سورة الروم)

ثم يمضى القرآن ليمعن فى التحدى ..

القرآن مزق حواجز الغيب

.. ما هذا ..؟ أيستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين .. هل يستطيع قائد أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ..؟ فما بالك أن ذلك يأتى ويقول أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .. هل أمن محمد صلى الله عليه وسلم على نفسه على أن يعيش بضع سنين ليشهد على صحة ما جاء به القرآن .. إذن فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى .. هذا هو القرآن .. كلام الله .. وأساس الايمان كله .. يأتى ويخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب .. ويقول الكفار أن القرآن كاذب .. ويقول المؤمنون أن هذا صدق .. ويحدث رهان بين الاثنين ..

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس .. أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم أكان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن أو يؤمن بالدين الجديد .. ثم إذا كان القرآن من عند محمد فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه .. لم يطلب منه أحد الدخول فيها .. أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد .. ولم يتحده فيها إنسان .. ولكن القائل هو الله .. والفاعل هو الله .. ومن هنا كان هذا الأمر الذى نزل فى القرآن يقينا سيحدث .. لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان .. ولا أى حجاب وهو الذى يقول ما يفعل .. ومن هنا حدثت الحرب .. وانتصر الروم على الفرس فعلا كما تنبأ القرآن ..

وهكذا تحدى القرآن الكفار وغير المسلمين فى وقت نزوله .. أى أنه لم يتحد العرب وحدهم .. بل تحدى الكفار والمؤمنين من غير العرب .. بأن أنبأهم بما سيحدث لهم قبل أن يحدث بسبع أو ثمانى سنوات .. تحداهم بهذا علهم يؤمنون ..

إذا انتهينا إلى هذا نكون قد أثبتنا أن القرآن تحدى العرب وغير العرب فى وقت نزوله .. ولكننا قلنا أن القرآن ليس له زمان .. وليس له مكان .. وانه سيظل حتى قيام الساعة .. فكيف يمكن أن يتحدى الأجيال القادمة ؟.. لابد أن يكون للقرآن معجزة دائمة .. أن يعطى عطاء لكل جيل لم يعطه للأجيال السابقة ..

وقد كان .. جاء فى القرآن أشياء لو أن أحدا أخبر بها وقت نزولها لأتهم

الذين قالوها بالجنون . . ولكنها جاءت للعصور القادمة . . جاءت لتتحدى عبر الأجيال إلى يومنا . . وإلى الأيام القادمة . .

القرآن حدثنا . . عن المضلين

ان ظهور قانون الصدفة . . ونظرية داروين . . وأن المادة خلقت قبل الروح . . وكل ما نسمعه اليوم من تشكيك فى الايمان وفى وجود الله سبحانه وتعالى . . قد سجله القرآن . . وأنبأنا به . . وقال أن المضلين سيأتون ليقولوا لكم أكاذيب عن خلق السموات والأرض . . وعن قضية خلق الإنسان . .

وإذا لم يكن الحديث عن الأجنة فى القرآن . . عن يقين كامل . . لكان القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه . . ذلك أن هذا الكتاب سيستمر إلى يوم القيامة . . فإذا جاء العلم عبر ألوف السنين . . وأثبت عدم صحة ما ذكره القرآن . . ضاعت قضية الإيمان كله . . ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله . .

إن إعجاز القرآن لم يتوقف . . ولن يتوقف . . وإذا كان القرآن قد تحدى الكفار فى عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم . . وأنبأهم بمصائرهم . . فإنه يتحدى الكفار حتى فى هذا الزمان . . فى هذا الوقت الذى نعيش فيه . . بل ويستخدمهم . . فى ماذا . . ؟ فى اثبات قضية الإيمان . . تماما كما استخدمهم وقت نزوله فى اثبات قضية الايمان . . إن هدف الكفار والمضلين عن سبيل الله هو إنكار هذا الدين وإنكار وجود الله . . ولكن القرآن جاء . . وبعد أربعة عشر قرنا ليستخدم الكفار فى إثبات أن دين الله حق . . وأن هذا الكتاب هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . . وهذا هو موضوعنا . . عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

ويقول :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . .

يكون قد أعطانى أن الإنسان يعلم ظاهرا عن الحياة فى هذه الدنيا ولكنه غافل عن أمر الآخرة . . أى أن مدى علم الإنسان . . هو الحياة الدنيا . . وأن العلم نوعان . . نوع مطروح لك لايجاد نشاطك فيه كما تريد . . وبلا قيود . .

ولا حدود . . ونوع ليس لك الحرية فى البحث فيه لأنك لا تعلمه . . وهذا النوع افعل كذا . . ولا تفعل كذا . . تقرب إلى بكذا . . واترك كذا . . هذه ليست اجتهاداتك أنت . . لأن المعبود هو الذى يقترح على العابد ما يعظمه به . . والنقاش فى شىء يجب أن يتم بين عقول متساوية أو متقاربة فى القدرة . . ومن منا يملك عقلا يقترب من قدرة الله تعالى . . لا أحد إذن . . فنحن نأخذ افعل ولا تفعل عن الله . . وما شرحته لنا السنة . . أما نشاطات الحياة الأخرى . . وآيات الله فى الكون . . فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل . . أصل إلى حقائق انتفع بها . . فإذا أردنا أن نحدد هذه الموضوعات . . نجدها فى القرآن . . فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾

(سورة فاطر)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى تكلم عن الجماد . . وتكلم عن النبات . . وتكلم عن الحيوان والإنسان . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » . .

العلماء فى ماذا ؟ فيما يتعلق بخلق الله من الجماد والحيوان والنبات والإنسان .

ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى المتناقضات الموجودة فى النوع الواحد . . لو أنه جنس واحد لما وجد فيه متناقضات . . إنما قوله تعالى :

« ثمرات مختلفا ألوانها » . .

كان يجب أن نلتفت إليها . . ولماذا اختلفت ألوانها . . وما هى العلاقة بين الألوان والطبيعة . . مثلا حينما يتغذى النبات وجد من الدراسة إنه يتغذى

بوساطة خاصية الأنابيب الشعرية . . وهنا نقف قليلا . . هل هذه الأنابيب الشعرية تميز . . هل تستطيع التمييز . . إذا جئنا بحوض . . ووضعنا فيه سائلا مذابا فيه أصناف مختلفة . . ثم جئنا بالأنابيب الشعرية . . نجد أن الماء قد صعد فى مستوى أعلى من مستوى الاناء . . ولكن هل كل أنبوبة ميزت عنصرا أخذته . . أم أن كل انبوبة أخذت من جميع العناصر وهى مذابة . . لكن النبات ليس هكذا . . انى أزرع الحنظل . . بجانب القصب . . فيخرج هذا حلوا . . وهذا مرا . . هذا يأخذ عناصره . . وهذا يأخذ عناصره من نفس التربة . . إذن هناك اختيار . . ومن هنا ظهر ما سمى بخاصية الانتخاب . . الانتخاب معناه الاختيار بين بديلات . . أى أنك تترك هذا وتأخذ هذا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

لكن خاصية الأنابيب الشعرية تتعامل مع السائل كله . . بلا تمييز . . ومن هنا نعرف أن الخاصية شيء . . واختيار النبات للعناصر الغذائية التى يريدها أو يحتاجها شيء آخر . .

نأتى بعد ذلك للجماد . . يقول الله سبحانه وتعالى :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . .

هذا علم الجماد . . وهو علم تحويه الآن مجلدات . . ثم بعد ذلك الإنسان . . أجناس الوجود كلها . . ثم بعد ذلك قال الله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »

العلماء فى ماذا ؟ بهذه كلها . . إذن كلمة العلماء أطلقت على من يتفكر فى خلق الله . . سواء كان جمادا أو حيوانا أو نباتا . . والذهن النشط يستطيع أن يصل إلى هذه العلوم الأرضية بالملاحظة والتجربة . . والدليل على ذلك إذا استعرضت تاريخ أى مخترع من المخترعات فى الكون التى أراحت الناس . . تجد إنها نتيجة لإنسان قد لاحظ بدقة . . ولم تمر عليه المسألة كباقى الناس . . والعلم مكانه المعمل والملاحظة والتجربة . .

حينما نتجاوز . . بلا دليل

ولكننا أحيانا نتجاوز موضوع العلم . . وموضوع التجربة والمعمل . . وذلك

عندما أقول مثلا الروح قبل المادة .. أو المادة قبل الروح .. فهذا بحث فى عنصرى تكوين الإنسان الذى لم نشهد خلقه .. ولا نستطيع أن نجرى عليه تجربة .. إن هذا فى علم الله .. فهو الذى خلق .. وهو الذى يستطيع أن يقول لنا كيف تم الخلق .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ..

إذن فهذه مسألة لا يمكن أن يصل فيها العلم البشرى إلى نتيجة .. لماذا ؟ لأننا لم نحضر التجربة .. ولم نرها بالعين .. ولا نستطيع أن نجربها أو نقوم بها .. ولكن بالأذن سمعنا عن الله .. وهذا أمر غيبى عنا .. ومادام الأمر غيبيا عنا .. فإن الله الذى خلقنى هو الذى يحدثنى .. كيف خلقت .. أما أنا فإننى لا أعرف كيف خلقت .. ومن هنا فإننى لا يمكن أن أتحدث علميا عن العنصرين اللذين يتكون منهما الإنسان .. وأيهما جاء أولا .. وإذا صمم أحد على أن يبحث فى هذا .. يكون قد شغل نفسه بعلم لا ينفعه عن جهل لا يضره .. لأنه لن يستطيع أن يدلل على ما يقول علميا .. وبالتجربة أنا أستطيع أن أمسك المادة وأدخلها المعمل .. ولكنى لا أستطيع أن أمسك بالروح وأدخلها إلى المعمل ..

والعلم يجب أن يتم على مادة صماء .. يمكن أن تدخل المعمل الأصم .. وتعطى حقائق صماء .. أليست هذه هى الحقيقة .. والدليل على ذلك أن المعسكرات المتصارعة لا تختلف فى مذاهب العلم .. ولكنها تختلف فى مذاهب الهوى والنظريات .. لا توجد هناك كهرباء أمريكية .. وكهرباء روسية .. ولا توجد كيمياء ألمانية ، ولا كيمياء انجليزية .. وكل علم الكيمياء .. فى أى دولة من دول العالم خاضع لما تعطيه التجربة الصماء التى لا هوى لها .. وبهذا تكون النتيجة واحدة .. سواء كان المعمل انجليزيا أو أمريكيا .. أو سوفيتيا .. أو أى معمل من معامل الدنيا .

ولكن الخلاف يحدث عندما تتدخل مذاهب الهوى والنظريات .. فإذا جئنا إلى مذاهب الهوى .. هوى النفس .. نجد أنها متناقضة .. ليست مختلفة .. ولكنها متناقضة .. هذا على النقيض من ذلك .. رأسمالية وشيوعية .. إيمان والحاد .. وانكار للديانات لماذا ؟ لأن هوى النفس دخل هنا فأفسد القضية العلمية وأضاع حقائقها ..

الكفار .. أثبتوا القرآن

فإذا أخذنا خلق الإنسان مثلا .. فإننا نأخذ هذا الخلق عن الله .. الذى خلق .. ماذا قال الله سبحانه وتعالى قال خلقتك من تراب .. وقال من طين .. وقال من حمأ مسنون .. وقال من صلصال كالفخار .. هذه ليست تناقضات فى الخلق .. أو تناقضات فى مادة الخلق نفسها .. وهى التراب .. بل أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أطوار هذه المادة من التراب إلى الطين إلى الحمأ إلى الصلصال .. إنها المراحل التى مر بها خلق الجسد البشرى من تراب إلى ما قبل نفخ الروح فيه .

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ما معنى كلمة مضل .. كلمة مضل تعطى أن هناك قضية حق وأن هناك إنسانا يريد أن يضللنى ويعطينى عكس القضية .. أى يعطينى غير الحقيقة وهو الضلال .. هذا هو معنى مضل .. إذن قول الله :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا » ..

أى أننى فى ساعة الخلق لم أطلب العون أو المساعدة أو المشورة .. أو النصيحة .. من هؤلاء المضلين .. وإلا لو كان حدث ذلك .. ثم جاءوكم يخبرونكم كيف تم خلق السماوات والأرض .. وكيف خلقتم أنتم .. لكان لكم العذر فى تصديقهم .. ولكن ماداموا لم يشهدوا الخلق .. ولم أطلب معونتهم .. فإن ما سيقولونه لكم غير واقع .. غير صحيح .. أنه اضلال .. وهذه معجزة من معجزات القرآن .. فقد قال لنا الله .. أنه سيكون هناك مضلون .. وان هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق فى قضية خلق السماوات والأرض .. وفى قضية خلق الإنسان .. فلا تصدقوهم لأننى لم أستعن بهم ساعة الخلق .. ولم يكونوا موجودين .. إذن لو لم يحدث أن جاء أناس يضلون عن سبيل الله .. لقلنا أن القرآن غير صحيح .. لأنه أين المضلون ؟ ولو وجد المضلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السماوات والأرض .. وخلق الإنسان لقلنا

القرآن مزق حواجز الغيب

إن القرآن غير صحيح .. لأنه لا يوجد من يضل عن سبيل الله ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السماوات والأرض .. ولا قضية خلق الإنسان .. ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم .. وهل المادة قبل الروح .. أم الروح قبل المادة .. وقانون الصدفة ونظرية داروين إلى آخر هذا الكلام .. كون هؤلاء جاءوا .. وكونهم تناولوا قضية خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فهذا اثبات لما جاء فى القرآن عنهم .. وكأن هؤلاء المضلين الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله .. إنما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الإسلامية وللقرآن .. بأنهم أثبتوا بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته .. أترى اعجازا أكثر من ذلك .. يستخدم الله الكفار الذين يضلون عن سبيله .. ويحاولون تكذيب القرآن .. يستخدمهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا وهم لا يدرون باثبات صحة الدين الذى يحاولون أن يهدموه وباثبات وجود الله سبحانه وتعالى .. وهم يريدون أن ينكروه .. فيقول فى قرآن نزل منذ أربعة عشر قرنا .. أن هناك من سيأتى ليضل عن سبيل الله .. ويتخذ من قضية خلق السماوات والأرض والإنسان مادة لهذا الاضلال وكل ما سيقولونه هو غير الواقع .. وأنا أنفى من الآن ما سيقولونه بعد مئات .. أو ألوف السنين .. وأقول لكم أنه غير صحيح .. إذن فكون هؤلاء المضلون جاءوا اثباتا للقرآن .. وكون أنهم قالوا غير الحق ولم يستطيعوا أن يدللوا عليه علميا .. وأخذوا يطلقون نظرياتهم .. كل نظرية تهدم الأخرى .. وهم يجتهدون فى محاولة هدم منهج الله .. ونحن نقول لهم انكم تثبتونه .. لأن الله أخبرنا عنكم فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. وقال انكم ستأتون وستفعلون كذا وكذا فى محاولة لتضليل الناس .. وهدم القرآن .. أترى الاعجاز فى استخدام الكفار لتثبيت قضية الإيمان فى الكون ..

خلق الإنسان

إذن فخالق الإنسان هو الله .. وخالق السماوات والأرض هو الله .. وهذا أمر غيبى نأخذه عمن خلق .. إلا أن الحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية غيبية .. فإنه ينير طريق العقل دائما بقضية نحسها ونشهدها .. تقرب القضية الغيبية التى يتحدث عنها .. فالله خلقنى من تراب .. من طين .. من حمأ

مسنون .. من صلصال كالفخار .. ثم نفخ من روحه ..

إذا أخذنا التراب .. ثم نضيف إليه الماء فيصبح طينا .. ثم يترك لتتفاعل عناصره فيصبح حمأ مسنونا .. كالذى يستخدمه البشر فى صناعاتهم .. ثم يجفف فيصبح صلصالا .. هذه أطوار خلق الجسد البشرى .. والبشر .. والخلق من الطين .. من الأرض .

فإذا جئنا للواقع .. فلنسأل أنفسنا .. الإنسان مقومات حياته من أين .. من الأرض .. من الطين .. هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل مقومات الحياة التى أعيشها .. إذن فالذى ينمى المادة التى خلقت منها هو من نفس نوع هذه المادة .. وهى الطين .. ولقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكونا من ١٦ عنصرا .. أولها الأكسجين .. وآخرها المنجنيز .. والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من نفس العناصر .. إذن فعناصر الطين الخصب هى نفس عناصر الجسم البشرى الذى خلق منه .. هذا أول اعجاز .. وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها اثبات صحة القرآن أو عدم صحته .. ولكنها كانت بحثا من أجل العلم الأرضى ..

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلا على قضية الخلق .. فالموت نقض للحياة .. أى أن الحياة موجودة .. وأنا أنقضها بالموت .. ونقض كل شىء يأتى على عكس بنائه .. فإذا أردنا أن نبنى عمارة نبدأ بالدور الأول .. وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير .. إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود .. أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها انها تمثل أول خطوة فى العودة .. ونحن لم نعلم عن خلق الحياة شيئا .. لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق .. ولكننا نشهد الموت كل يوم .. والموت نقض للحياة .. إذن هو يحدث على عكسها .. أول شىء يحدث فى الإنسان عند الموت .. إن الروح تخرج .. وهى آخر ما دخل فيه .. أول شىء خروج الروح .. إذن آخر شىء دخل فى الجسم هو الروح .. ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق .. يتصلب الجسد .. هذا هو الصلصال .. ثم يتعفن فيصبح رمة .. هذا هو الحمأ المسنون .. ثم يتبخر الماء من الجسد ويصبح الطين ترابا .. ويعود إلى الأرض .. إذن مراحل الافناء التى أراها وأشهدها كل يوم هى عكس مراحل الخلق .. فهناك الصدق فى مادة الخلق .. والصدق فى كيفية الخلق .. كما هو واضح أمامى من قضية نقض

الحياة . . وهو الموت . .

شيء آخر يقول الله سبحانه وتعالى :

« **ونفخت فيه من روحى** » . .

ومعنى النفخ أى النفس . . أى أن هناك نفسا خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه . . فبدأت الحياة . . وبماذا تنتهى الحياة بخروج هذا النفس . . فأنت إذا شككت فى أن أى إنسان قد فارق الحياة . . يكفى أن يقال لك انه لا يتنفس . . ليتأكد يقينا أنه مات . . إذن دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس . . مصداقا لقوله تعالى :

« **ونفخت فيه من روحى** »

وخروجها هو خروج هذا النفس . .

والإنسان . . فى بطن أمه

فالمسألة يقينا كما قال الله . . وإذا كنا نريد اعجازا أكثر . . فلننظر ماذا قال القرآن فى علم الأجنة . . علم تكوين الجنين فى بطن أمه وقد تناولت هذه المسألة فى فصل سابق . . ولكننى أعود فأقول . . هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن . . أو بعده بفترة . . أبدا . . أول من تحدث عنها هو القرآن . . وأعطانى ما هو غائب عنى . . لأن خلقى هو غيب . . فكون الله سبحانه وتعالى يأتى فى قرآنه ويعطينى مراحل تكوين الجنين . . فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه . . يقول الله فى أطوار الجنين :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ﴾

(سورة المؤمنون)

علم الأجنة ما عرفه الناس إلا حديثا . . والقرآن كما قلت كلام متعبد بتلاوته . . لا تبديل فيه ولا تغيير . . أى أن القضية التى يذكرها ستبقى كما هى

إلى آخر الدنيا . . فعندما يأتى القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدى العلم والعلماء . . إلى يوم القيامة . . يقول لهم هذا هو تكوين الجنين فى بطن أمه . . وأنا أذكره لكم وأذكر مراحله بتفصيل لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن . . ولا حتى بعد نزوله بمئات السنين . . ولكننى أسجله لتعلموا عندما أعطيكم من العلم ما تستطيعون به معرفة أطوار الجنين . . لتعلموا أن القائل هو الخالق . . لأنه لا يمكن لأحد أن يقول هذا الكلام . . وأن يتحدى بصحته على مر العصور . . وأن يخترق الحجب ليروى شيئا لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به . . إلا أن يكون ذلك هو الله . . وإلا فكيف يأمن أى إنسان . . أى بشر مهما بلغ من العلم . . كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين . . أو مئات السنين . . لن يأتى من يناقض هذا الحديث . . وما يثبت عدم صحته . .

فإذا لم يكن الحديث هنا عن الله . . وإذا لم يكن عن يقين كامل . . فكأن القرآن قد أعطى وسيلة هدمه . . كان يكفى أن يقول إنسان أن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين . . وقد أثبت التقدم العلمى أنه غير صحيح . . كان يكفى أن يقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه . . ويكون القرآن قد أعطى للكفار أقوى سلاح يهدمونه به . . فالذى كشف علم الأجنة متأكد تماما أن ما يقوله هو الحق . . وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتى ليناقض هذا الكلام . . ولقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين . . صحة ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرنا . . ولم تختلف عنه . . فى أى تفصيل من التفصيلات . . رغم أن هذا كان أمرا غيبيا . . وأمرا لم يتحدث عنه أى إنسان قبل أن يأتى القرآن . . ومع ذلك فقد ذكره القرآن بالتفصيل . . وحدد أطواره وجاء العلم بعد ذلك ليثبت هذه الحقيقة . . إذن فلابد أن قائل القرآن هو الله . . لأن الذى يعلم يقينا هو الله وحده . .

والمعجـزة . . مسـتمرة

إذن فالقرآن عندما نزل كان له أكثر من معجزة . . تحدى العرب فى بلاغتهم . . ثم مزق حواجز الغيب الثلاثة . . مزق حجاب الزمن الماضى . . وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم . . وتحدى فيها . . ثم مزق حجاب المكان وروى لنا ما يدور داخل نفوس الكفار والذين

القرآن مزق حواجز الغيب

يحاربون الإسلام وما يبيتونه للمسلمين . . روى لنا ما يدور داخل نفوسهم . . ولم تنطق به شفاههم . . ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذب القرآن ويقول لم تهمس نفسى بهذا . . ثم مزق حجاب المستقبل القريب . . وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور . . وبأحداث ستقع بعد سنوات . . وتحدى . . وحدث كل ما أنبأ به القرآن . .

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد . . ليعطى الأجيال القادمة من اعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لقائله وهو الله . . ولكن القرآن نزل فى زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلة جاءت تفصيلية لكفر عدد من المؤمنين وانصرف آخرون . . ذلك أن الكلام كان فوق طاقة العقول فى ذلك الوقت . . ومن هنا وحتى لا يخرج المؤمن عن إيمانه . . ويستمر الاعجاز . . جاء القرآن بنهايات النظريات . . بقمة نواميس الكون . . إذا تليت على المؤمنين فى ذلك الوقت . . مرت عليهم . . ولم ينتبهوا إلى مدلولها الحقيقى العلمى . . وإذا تليت بعد ذلك على الأجيال القادمة عرفوا ما فيها من اعجاز . . وقالوا إن هذا كلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين . . إذن فلابد أن هذا القرآن حق من عند الله . . وأن قائله هو الله الخالق . .

بقيت نقطة . . هل يأتى هذا فى الأحكام ؟ الجواب : لا . . أن أحكام الدين افعل ولا تفعل . . نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا اضافة عليها ولا تبديل ولا غموض . . منهج الله كامل . . فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية . . وشرح وفسر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيرا كاملا . . بحيث أصبح واضحا لكل إنسان يريد أن يعبد الله . . وأن يعيش فى الأرض طبقا لقوانين الله . . افعل ولا تفعل . . جاءت واضحة وكملت وفسرت فى عهد الرسالة . . وأصبح الحلال بينا . . والحرام بينا . . والدين بينا . .

أما آيات الله فى الكون . . فنلاحظ أنها لم تفسر تفسيرا كاملا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . حتى لا تكون ملزمة للمسلمين . . لماذا ؟ لأن لهذا عطاء يتجدد فى كل الأجيال . . وهذه الآيات هى التى تحدثنا عن بعضها . . لقد تحدى القرآن العرب بالاعجاز فى اللغة . . طلب أن يأتوا بمثل القرآن ثم زاد فى التحدى وقال بسورة من مثله . . ولكن التحدى للعالم لا يمكن أن يكون باللغة . . فاللغات مختلفة . . إذن بماذا تحداهم . . بالعلم . . وكان التحدى

مطلقا إلى يوم الدين . . قال أنتم جميعا لن تستطيعوا أن تخلقوا شيئا . . حتى نهاية العالم . . ثم تحداهم بخلق ماذا . . بخلق كون كالذى خلقه .؟ لا . . بخلق مجموعة شمسية من عشرات المجموعات الشمسية الموجودة فى الكون .؟ لا . . بخلق شمس أو قمر أو نجم .؟ لا . . إذن تحداهم بخلق الكرة الأرضية مثلا .؟ أبدا . . لابد أنه تحداهم بخلق الإنسان . . أبدا . . لقد تحداهم أن يخلقوا ذبابا ففى سورة الحج قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا تحدى الله البشرية كلها إلى يوم القيامة بأن يخلقوا ذبابة . . وقال أن العلم الذى ستعبدونه من دون الله والذى ستؤمنون به . . هذا العلم وكل القائمين عليه لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا . .

« **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له** » . .

ثم قال الله سبحانه وتعالى :

« **ضعف الطالب والمطلوب** » . .

وأضاف :

« **ما قدروا الله حق قدره** » . .

والعجيب أن الإنسان قد وصل إلى القمر . . وقد يصل إلى المريخ . . وقد يستكشف أبعد من ذلك . . ولكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن . . وهو طلب ضعيف جدا بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق ملايين الكائنات . . ولذلك قال الله :

« **ضعف الطالب والمطلوب** » . .

ثم أضاف سبحانه وتعالى :

« ما قدروا الله حق قدره » ..

أى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل الحدود والتصورات التى قد ترد على خواطركم .. وأنتم لا تعرفون قدرة الله .. ثم تحدى الله بعد ذلك فى قرآنه .. تحدى باستمرار الحياة .. الماء الذى خلق منه كل شىء حى .. قال الله تعالى :

« أفرأيتم الماء الذى تشربون .. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » ..

وقال تعالى :

« ينزل الغيث » ..

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرسل إليكم الأمطار والماء يأتى مدرارا ليسقى الدنيا كلها .. البشر والطيور .. والوحوش ، والزرع وكل شىء حى .. هذا الماء الذى تعب منه البشرية كلها عبا .. تجد الإنسان عاجزا عن أن يصنع نهرا مع أن عناصر تكوين الماء موجودة فى الكون .. أمام العلماء .. والمساحات الشاسعة من الصحارى فى الأرض محتاجة إلى قطرة ماء .. ثم تحدى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك .. تحدانا بأن نهرب من الموت .. قال :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

.. أى أن الله سبحانه وتعالى يتحدى فمهما وصلتم إلى العلم .. فلن تستطيعوا أن تنجو من الموت .. انكم تقولون فى العلم الأرضى أن الموت يحْدث بسبب جراثيم كذا .. وأمراض كذا إلى آخره .. حسنا .. شيدوا برجا وضعوا فيه إنسانا .. وأبعدوه عن كل المخاطر التى فى رأيكم وفى نظركم .. وفى علمكم .. تسبب الموت .. فلا هو يحارب ولا يمشى فى أى مكان ليصاب فى حادث .. فلا يستنشق هواء ملوثا بل يستنشق هواء نقيا .. ويأكل من طعام مطهر على أحدث الوسائل الصحية .. ويشرب من ماء ليس فيه جرثومة واحدة .. والجو الذى يعيش فيه منقى إلى آخر درجات العلم .. هنا نكون قد أبعدنا عن هذا الإنسان كل مسببات الموت التى نعرفها .. ومع ذلك فهل يمكن أن يكتب لإنسان مثل هذا الخلود رغم أننا منعنا عنه كل الأسباب الظاهرية للموت .. الجواب طبعا مستحيل .. لأن الله هو الذى يحيى ويميت .. والأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تفعل بإرادة الله ..

ثم تحدى الله العالم كله فى القرآن بخمسة مغيبات ..

القرآن مزق حواجز الغيب

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

تحدى الله بهذه المغيبات .. تحدى البشر جميعا .. فكأن القرآن كما تحدى العرب فى اللغة عندما نزل .. حمل تحديات للعالم أجمع .. وقال لهم : إنكم لن تصلوا إلى كذا وكذا إلى آخره .. عشرات التحديات التى ساقها القرآن للبشرية جميعا .. قال لن تصلوا إلى كذا .. لن تفعلوا كذا .. لن تخلقوا كذا .. وكانت هذه التحديات لكل البشرية .. ولكل العصور .. ومازالت قائمة حتى الآن .. ومازالت البشرية كلها عاجزة أمام قدرة الله .. لماذا ؟ إن السر يكمن فى كلمتين .. « سبحان الله » .. وليس كمثله شىء .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..



الفصل الثامن

سبحان الله



سبحان الله

الإنسان فى علاقته بالله سبحانه وتعالى يدخل فى حالات متعددة تتغير فيها طبيعة اتصاله بما هو غيب عنه بالنسبة للشخص الواحد . . فالإنسان مثلا حين يكون فى يقظة . . وفى حياته اليومية يرى الأشياء بقدر ما تعطيه هذه اليقظة من وعى دنيوى . . أو بقدر ما يحجب عنه جسده المادى من أشياء قد لا يعرف عنها شيئا . . والإنسان وهو يقظ خاضع للعقل خضوعا كاملا . . فإذا نام مثلا تغير الحال . . وأصبح يرى فى نومه أشياء لا يراها فى اليقظة ولا تدخل فى نطاق العقل البشرى . فيمكن أن يرى نفسه يطير فى الهواء مثلا . . أو يرى نفسه فى أماكن لم يرها فى حياته الدنيوية . . أو يتحدث فى الحلم مع أشخاص ماتوا إلى رحمة الله منذ مدة طويلة . . وفارقوا هذه الدنيا . . أو يرى أشياء عجيبة تحدث له لا تتفق مع العقل والمنطق . . ولا مع مهاراته . . فقد يرى مثلا أنه يركب حصانا وهو لا يعرف ركوب الخيل . . أو أنه يقوم بعمل لا يتقنه فى الدنيا . . والعجيب أن الرؤيا تتم . . والعين مغلقة تماما . . أى أن الذى يرى ليس هو العين . . وإنما الروح . .

إذن فالروح لها رؤيا خاصة وهى يمكن أن تلتقى مع الذين فارقوا الدنيا وتتحدث معهم . . والإنسان نائم . . يكون فى عالم آخر غير عالم اليقظة . . وتلتقى روحه وهو نائم مع أمه أو أبيه الذين فارقوا الحياة منذ سنوات . . ويرى أشخاصا وأشياء لم يعرفها فى حياته . . بل ولا تتفق مع منطق الحياة . .

ولكن ما الذى يجعل الإنسان يرى وهو نائم ومغمض العينين ما لا يراه . . وهو مستيقظ . . وما الذى يجعله يرى أماكن لأشخاص لم يشاهدهم فى حياته . . فإذا استيقظ ضاع كل هذا . . وبماذا نفسر هذه الظاهرة . . نقول أننا حين نصل إلى أشياء تقف فيها عقولنا لأنها تخالف ما نعتاد ونألف نضعها تحت عنوان « سبحان الله » وليس كمثله شىء . . ذلك لأننا لا نعرف قوانين الروح والجسد قائم . . ولا نعرف قوانينها بعد أن تفارق الجسد . . ذلك غيب عنا . . تعجز عنه عقولنا . . لذلك نضعه تحت عبارة . . « سبحان الله » وليس كمثله شىء . .

ونفسر هذه العبارة قليلا . . إذا قلت أن فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته . . هل تعنى شيئا . . الجواب أبدا . . لا يكون للشىء معنى إلا إذا نسب لفاعله . .

ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل . . بمعنى أننى إذا قلت أن طفلا صغيرا عمره أشهر ضربنى بكل قوته . . وقلت أن بطل العالم فى الملاكمة ضربنى بكل قوته . . فهناك فرق كبير بين المعنيين . . الأول ضربه لا يؤثر فى . . ولا أحس به . . والثانى ضربه قد يقتلنى . . مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التى وهبها الله لهما فى عملية الضرب . . ولكن الفعل هنا يتناسب مع الفاعل . . فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه . . وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعى بسهولة . .

لى قوة . . وله قوة

إذا أخذنا هذا المثل . . ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شىء . . استطعنا أن نقرب كثيرا من المعانى التى قد يستغلها البعض لاضلال البشر . . الله سبحانه وتعالى قوة . . ولى قوة . . ولكن هل قوتى مثل قوة الله سبحانه وتعالى . . الله سبحانه وتعالى علم ولى علم . . ولكن هل علمى مثل علم الله سبحانه وتعالى . . الله حى . . وأنت موصوف بالحياة . . فلا تقول إن حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى . . وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك . . وعلمه ليس كعلمك . . وقدرته ليست كقدرتك . . ومن هنا يخرج وجه المقارنة . . حيث انه لا مقارنة . . فالله بقدرته وقوته يأتى تحت وصف « **سبحان الله . . وليس كمثله شىء** » . . ومن هنا فإننى لا يجب أن أنسب إلى نفسى بالمدلول البشرى ما يقول الله سبحانه وتعالى عن ذاته . . فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتى . . ولكننى أقول « **سبحان الله . . وليس كمثله شىء** » . . وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامى . . وإنما أضعه تحت عبارة « **سبحان الله . . وليس كمثله شىء** » .

ومن هنا تجد تحت هذه العبارة « **سبحان الله وليس كمثله شىء** » . . أننا نستطيع أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة . . فأنت مثلا لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه . . وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان « **سبحان الله وليس كمثله شىء** » . . لأنه شتان بين رؤياك ورؤيا الله سبحانه وتعالى . . مثلا سبحان الذى أسرى بعبده . . من الذى أسرى . . الله سبحانه وتعالى . . أسرى به إلى المسجد الأقصى . . لا تأتى لى فى هذه الحالة

بقوانين الزمان . . وقوانين المكان التى تنطبق عليك أنت . . والتى تستطيع أن تراها وتتصورها . . ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله . . لماذا . . لأن الله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإن هذه القوانين التى تحكمك لا تحكمه . . والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى . . لأنه ليس كمثله شيء . . الذى أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حين قال بعض الناس أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس . . ويصعد إلى السماء . . ويعود فى ليلة واحدة . نقول أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يدع ذلك . . وإنما أسرى به . . والذى أسرى به هو الله سبحانه وتعالى . . والله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة إلى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الاسراء . . لأن الله هو الفاعل . . « **والله ليس كمثله شيء** » . وإذا كان كل شيء يأتى بالتشابه . . فإن الذى يأتى من الله سبحانه وتعالى « **ليس كمثله شيء** » . . ولذلك عندما نقول « **سبحان الله وليس كمثله شيء** » . . فإننا نعلو به سبحانه علوا كبيرا عن كل شيء يأتى بالتشابه . . إذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له . . أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل إليه . . لماذا ؟ لأنه **ليس كمثله شيء** . .

القـدرة . . والعـلم

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التى يؤيد بها أنبياءه . . أو عن عالم الملائكة والجن الذى لا نراه . . فنحن نعرف أن هذه حقائق . . لأن الله سبحانه وتعالى قادر . . وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها . . عالم وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته علم البشر . . ومن هنا فهو يخلق ما نرى . . ويخلق ما لا نرى . . ويخلق ما لانراه الآن . . وقد نراه فى المستقبل . .

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده . . ومن هنا فإنه يضع فى الكون آيات تقرب إلى العقل البشرى . . ذلك الذى يعجز عنه هذا العقل . . وتجعله قريبا من تصوره . . وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا . . وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين . . وأن نرد عليهم . . والإنسان المؤمن دائما فى قلبه سكينة . . وفى قلبه أمل . . ذلك أنه

مؤمن بقدرة الله التى هى بلا حدود . . ويؤمن بأن الله الذى كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه انجاء المؤمنين . . وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا . . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع الضر عنه . . ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس فى الروح . . يأتى واحد منهم ويقول ما هذا عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق إلا ما نراه . . ويجادل . . ويجادل . . إلى آخر هذا الكلام . . فإذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليه أنه وأنت أيضا لم تشهده . . وهنا ترد عليه بأن الله سبحانه وتعالى وقد وضع لنا فى هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع موجود فى هذا العالم منذ خلق الأرض ومن عليها . . وإنما هو خرج من علم القادر . . وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان . . ليدل على أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ولنناقش هذه المسائل الثلاث . .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وإن كان قد أصبح فى قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة . . فإن يطير الإنسان فى الهواء مثلا بطائرة . . كان فوق قدرة العقل فى الماضى . . بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلا . . إنك ركبت طائرة . . وطرت فى الهواء . . لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت انك تحدثت فى آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر فى وقت واحد . . لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد . . ذلك إن هذا فوق قدرة العقل البشرى . . ولكنك الآن تذهب إلى أى مطار فتركب الطائرة . . وتطير فى الهواء . . وتتحدث فى الإذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الإنسان غلافا جويا جديدا للأرض يمكنه من الطير . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا هذا . . ولا ذاك طبعا . . إنما الغلاف الجوى كما هو منذ خلق الله الأرض ومن عليها . .

وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذى حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشرى إلى

علم البشر . . أى أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر بكلمة كن . . فاستطاع الإنسان أن يطير فى الفضاء . . وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله . . وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشرى موجود . . وإن العقل البشرى ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة . . فى هذه الأرض . . وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علما كان فوق قدرة البشر . . أعطاه للقدرات البشرية . . حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه . . وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وحقيقة واقعة . . وأنه يمكن أن يجهلها . .

فوق الأسماع . . والأبصار

هذا بالنسبة للعقل . . أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شىء نعرفه كل يوم . . إذا جلست أنت فى حجرة مغلقة ليس فيها أى صوت وسألت أنا . . هل يوجد صوت فى هذه الحجرة . . تقول لى أنا لا أسمع شيئا . . وكونى لا أسمع شيئا . . فإنه لا يوجد صوت فى هذه الحجرة . . فإذا « فتحت الراديو » سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا . . من أين جاءت هذه الأصوات . . هذه الأصوات تسبح فى جو الحجرة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فوق قدرة الأذن . . فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات فى قدرة الأذن . . كان فى امكانك أن تسمعها وتميزها . . إذن فهذه الأصوات موجودة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها . . وربما فى المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو فى علم الله . . ولم يصل إلى العلم البشرى . . تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا تسمعها الآن . . ولا ندرى عنها شيئا . . بل اننى أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة . . إذا أتيت بالراديو الترانزستور . . ووضعت سماعة الأذن الصغيرة فى أذنك . . وجلسنا نحن الاثنين معا بجوار بعضنا البعض . . وسألتنى هل أسمع شيئا . . سأقول لا . . هل يوجد صوت هنا . . سأقول : لا . . بينما أنت جالس إلى جوارى . . والسماعة فى أذنك تسمع الدنيا كلها . . كما تشاء . . وأنا بجانبك لا أسمع شيئا . . ما معنى هذا . . معناه أن الجهاز الذى تستخدمه قد جعل الأصوات التى تسبح فى

الحجرة . . التقطها وجعلها فى مقدرة أذنك . . بينما أنا جالس إلى جوارك . . وفى نفس المكان . . ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعى . . هل معنى ذلك أن الأصوات التى تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة . . لأننى لا أسمعها . . مستحيل . . ولكن معناها أن هذه الأصوات التى تسمعها أنت وحدك . . والتى هى فوق قدرة أذنى موجودة . . ولكنى غير قادر على سماعها لأنها فوق قدرة أذنى . .

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود .

ثم نأتى إلى ما هو فوق قدزة البصر . .

أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التى يتحدث عنها الله . . ومن هنا فهى غير موجودة . . وأنا آتى لك بنقطة ماء من الترعة . . وأقول لك هل ترى فى هذا الماء شيئا . . ستقول لا . . وعندما أضع الماء تحت الميكرسكوب تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التى تتحرك بشكل عجيب . . أقول لك انظر فى الميكرسكوب . . سترى هذه الجراثيم . . بينما أن الإنسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه . . فإنك لا ترى فيها شيئا . . فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب . . أو وضعت عليها سائلا معينا تكتشف جراثيم وأشياء عجيبة . . أين كانت هذه الأشياء . . كانت فوق قدرة بصرك . . فعندما استعنت بآلة مكبرة جاءت من خارج قدرة البصر لتصبح من الممكن رؤيتها . . ولكن هل عدم رؤيتك لهذه الجراثيم معناها أنها غير موجودة . . أو ان هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكرسكوب . . كانت موجودة قطعا . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . وجاء اختراع الميكرسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة البشرية . . ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها . .

وإذا جلست فى حجرة فيها تليفزيون . . هذه الحجرة ليس فيها صورة . . فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة . . بل ورأيت وأنت جالس أمامك إنسانا يمشى فوق القمر . . هل فى قدرة البصر أن يرى إنسانا يمشى فوق القمر . . الجواب نعم . . إذا استخدم امكانيات الله فى الكون . . ولقد استخدم العلم امكانيات الله فى الكون فى نقل الصورة من مكان إلى آخر . . فالعلم لم يخترع طبقات الجو التى تنقل الصورة . . ولا يستطيع أن يخترعها . .

بل اكتشفها . . والله هو القادر الذى كان فى علمه كل هذا . . وأخرجه إلى علم غير القادر . . وهو الإنسان . . لماذا ؟ ليعلم الإنسان علم اليقين . . إن ما هو فوق قدرة عقله موجود . . وإن ما هو فوق قدرة سمعه موجود . . وإن ما هو فوق قدرة بصره موجود . . حتى إذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل . . أو السمع . . أو البصر . . عرف يقينا إنها موجودة . . وإن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق . .

إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلا . . وموجود بفرق شاسع جدا . . هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق . . والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانية . . وهى قضية الغيب ألا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس . . ويبعدوهم عن طريق الله . . فجعل العقل البشرى نفسه ينتقل بقدرة الله ومن جبل إلى جبل مما هو مستحيل عقليا إلى ما هو ممكن . . ليثبت إن ما فوق قدرة العقل موجود . . وجعل الأذن تستطيع بقدرة الله أن تنتقل مما هو فوق قدراتها العادية . . وجعل العين تستطيع أن ترى ما لم تكن تحلم بأنها ستراه . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى كل هذا العلم للعقل البشرى فى اللحظة الأولى التى خلقه فيها . . ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للإنسان عطاء فيه اثبات لقدرة الله . . وفيه اثبات لوجود الغيب . . وفيه اثبات لما هو فوق القدرات البشرية . .

عــلم البشــر

على أن العلم البشرى يتحدد فى شيئين رئيسيين . . علم مادى يخضع للتجربة البحتة . . لا يدخل فيه هوى البشر . . ذلك العلم هو الذى يتناول المادة فقط . . وهو الذى يمكن أن يفحص فى المعمل . . وتجرى عليه التجارب . . وليس فيه هوى النفس البشرية . . وهذا العلم هو الذى أتاحه الله للعقل البشرى . . وطلب منه أن يجتهد فيه . . ووعد الله بأن يكشف آياته فى الكون لأولئك الذين يعملون . . ويبحثون . . ويجرون التجارب . . ويجتهدون . . وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء . . وذلك ما لا يدخل فى معمل . . ولا يمكن اجراء تجارب عليه . . وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية . . والسياسية . . وكل شيء لا يخضع لتجربة المعمل . . هذا العلم تختلف فيه

الأهواء وتتصارع . . وسيظل الصراع بينها إلى يوم القيامة . . لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة . . وإنما تدخل فيه الأهواء الشخصية . .

النوع الأول من العلم صاحبه يظل يعانى حتى يصل إلى هدفه . . فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم . . فالعالم مثلا الذى يجرى تجارب فى معمله . . على اختراع جديد . . أو شيء جديد . . يظل يسهر ليالى طويلة حتى يصل إلى نتائج . . فإذا وصل إلى نتائج استفادت منها البشرية كلها . . وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك . . فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء . . واختراع الراديو والتليفزيون . . والتليفون . . إلى آخر هذه الأشياء التى اقتضت بحثا من أصحابها . . فإذا وصل البحث إلى نتيجة استفادت منها البشرية كلها .

أما النوع الثانى من العلم . . فهو الذى يخضع للهوى . . فإن صاحبه هو الذى يستفيد . . وغيره يعانى ذلك . . إنه يضع العلم على هواه . . وعلى أساس ما يرضيه هو . . ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية . . لا يعانى شيئا بقدر ما يعانى أولئك الذين يخضعون لها . . أو ينفذونها . .

ماذا قدم العـــلم

ماذا قدم العلم للبشرية . . تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية . . أن أساس الحياة البشرية من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير . . ولم يتبدل . . ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا . . وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر . . أى أنه يجعل الحياة أكثر سهولة . . وأكثر نعومة . . ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة . . بل أن الله سبحانه وتعالى علما منه بظلم الإنسان للإنسان . . جعل مقومات الحياة فى يده . . وما أعطاه منها ليد البشر . . أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادرا على اهلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق . .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . مقومات الحياة من كرة أرضية . . وشموس . . ونظام كونى لا دخل للإنسان فيه . . ولا يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة . . أو شمسا جديدة . . أو نجوما جديدة . . أو سماوات جديدة . . إلى آخر هذا . . هذا خلق الله . . والعلم إذا استطاع أن يكتشف الآيات فيه . . يكون قد تقدم تقدما هائلا . . ولكنه لن يستطيع أن

يخلق شيئا فيه . . أو يبدله . . أو يغيره . . وإذا كنا نتحدث الآن . . ونحن فى عصر العلم . . فتلك حقيقة هامة . . لا يستطيع أحد الجدال فيها . .

نأتى بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض . . الهواء . . والماء . . والطعام . . لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض . . الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق . . ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم فى البشر . . فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس جميعا . . لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك . . بل إنه أخضع الهواء لعدله . . فكان متساويا بين الناس جميعا . . فقيرهم وغنيهم . . وعظيمهم وحقيرهم وذلك الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا . .

. . فهم جميعا يتنفسون بنفس السهولة . . ونفس الطريقة دون أى عناء . . يصلهم الهواء إلى حيث هم . . وأينما كانوا . . فى حجرات مغلقة . . أو فى الطريق . . أو فى السيارة . . أو فى أى مكان فى العالم . . فإن الهواء يصلهم سهلا . . ميسرا . . متاحا للجميع . . وهذا عدل الله سبحانه وتعالى . . ولا دخل لبشر فيه .

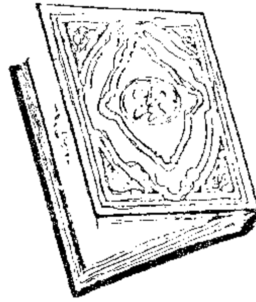
نأتى بعد ذلك إلى الماء . . وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوما . . أو عدة أيام . . نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة . . والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة . . ومحدودة . . وإن كانت لها امكانيات . . وهنا يتدخل ظلم الإنسان . . ولكن بقدر محدود جدا . . نظرا لأهمية الماء للحياة . . البشرية . .

ثم نأتى بعد ذلك للطعام . . فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه . . أكبر . . ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر . . ومن ثم فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام . . ولكنه فى نفس الوقت يستطيع الإنسان أن يحصل على ما يقيم أوده . . أو يبقى الحياة فى جسده بسهولة . . نظرا لأن الكمية التى يحتاج لها الجسم البشرى من الطعام قليلة نسبيا . . فهى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيمات يقمن أوده أو كمية محدودة من الطعام . . وكلما زاد اقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته . .

هذه هى مقومات الحياة الثلاثة . . شىء لا يستغنى عنه الإنسان ولا يستطيع الحياة بدونه أبدا . . وهو الهواء . . نافذ فيه عدل الله . . ليحصل كل إنسان

على حاجته بلا عناء . . وشيء يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه يوما وهو الماء . . متوافر للناس . . وشيء ثالث وهو الطعام تحكم البشر فيه أكثر . . ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر . . وهنا ترى عدالة السماء فى توزيع مقومات الحياة . .

ادعو الله أن يوفقنا إلى سواء السبيل . . ويهدينا إلى صراطه المستقيم . .



محتويات الكتاب

رقم الإيـداع : ٣٣٢١ / ٩٣

الترقيم الدولى / I. S. B. N.

977 - 08 - 0175 - 5

٢

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم
ادارة الكتب والمكتبات

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم بدأ بالفاتحة وهى أم الكتاب . . **والفاتحة بدأت « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين »** . . وأسباب الحمد كثيرة لأننا نحمد الشيء لذاته . . لأن فيه خصالا تستحق الحمد . . ونحمد الشيء لصفاته . . فعندما نرى شيئا جميلا كلؤلؤة بديعة . . نمدح صفاءها . . أو زهرة جميلة . . نمدح جمالها . . والحمد يكون أيضا على النعم أو على وجه الدقة على ما نالك من النعم . . فإذا أحسن إليك إنسان فأنت تحمّده على إحسانه . . وإذا أعطاك شيئا فأنت تحمده على عطائه . . الحمد أيضا يأتى لما أطمع فى الحصول عليه . . فأنت تمدح إنسانا لأنك تعرف أنك ستنال منه خيرا . . ومن هنا فإنك تقدم المدح لتحصل على الخير . .

والحمد يأتى من الخوف من العقاب ومن وجودى تحت سيطرته . . فإذا ارتكبت خطأ ، وكان هناك من يستطيع أن يعاقبنى على الفور ويبطش بى . . ولكنه قدم الرحمة على البطش والعقاب . . فأنا أحمده لأنه قدم رحمته على عدله وعقابه . .

هذه هى بعض العناصر التى يمكن أن تكون أساسا للحمد . . فإذا أتينا إلى الله سبحانه وتعالى . . وجدنا كل هذه العناصر وأكثر منها تستوجب الحمد لله . . فنعم الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى . . ويعطى . . ويفتح الأبواب المغلقة . . وييسر السبل فى الدنيا . . ويعطى الصحة والمال . . ويوفق فى العمل . . ويصيب بخيره من يشاء . . وهو فى كل هذا معط لا يأخذ شيئا . . أى أنه سبحانه وتعالى غير محتاج لنا فى شيء . . نحن جميعا لا نزيد ملك الله شيئا ولا ننقصه شيئا . . والله خزائنه لا تفرغ أبدا . . ولا يستطيع أحد أن يعد نعم الله أو يحصيها . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز **« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »** . . ومع تقدم احصاءات الدنيا كلها فإن أحدا لا يستطيع ولا يحاول أن يحصى نعم الله سبحانه وتعالى . . وهى نعم . . ظاهرة ونعم باطنة .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى الذى لا تعد نعمه ولا تحصى . . والذى لو أردنا أن نحمده ما وفيناه حقه . . ولو بقينا طول عمرنا نلهج بالشكر والثناء . الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين قد جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين

« **الحمد لله** » . . والعجيب فى هذا . . أنك تأتى لتشكر بشرا على نعمة واحدة أسداها إليك وتظل ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء . . وربما لا يرضيه كل هذا . . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته إنما يكتفى بكلمتين اثنتين « **الحمد لله** » . . وذلك ليعلمنا مدى القدرة . . ومدى الشكر . . والله الذى لا تعد نعمه ولا تحصى فى الدنيا والآخرة . . هو الذى يعدنا حسن الجزاء فى الآخرة والحياة الطيبة فى الدنيا والذى يقدم لنا فوق ما يقدم البشر فى العالم . . وفوق قدرة هذا البشر جميعا إنما يكتفى منا بكلمتين اثنتين لشكره هما « **الحمد لله** » .

الله الذى يعطى بلا حساب وينعم على كل المخلوقات . . يكتفى بكلمتى الشكر هاتين . . ولذلك جاءت الحمد لله فاتحة الكتاب . . وجاءت أيضا خاتمة فى قوله تعالى « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » . . فكأن الحمد واقع فى الدنيا والآخرة . . واقع والخلق فى حياتهم . . وواقع بعد أن ترجع الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى .

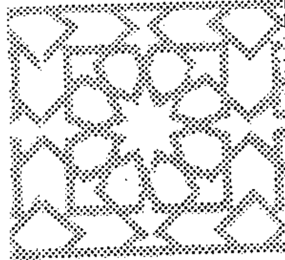
ولقد كان يصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهى . . ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حقه . . ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى أول الكتاب كيف نحمده . . وسوى بين عبيده جميعا فى صيغة الحمد . . لأن المطلوب من كل عبد من عباد الله أن يحمده على نعمه . . وليس كل عباد الله بقادر على أن يضع صيغة مناسبة لحمد الله سبحانه وتعالى .

فحين يعلمنا الله أن نحمده بقولنا « **الحمد لله** » . . فهو يعطى الفرصة المتساوية المتكافئة لعبيده بحيث يستوى فى ذلك المتعلم والأمى . . إذن فتعليم الله لعبيده صيغة الحمد نعمة أخرى يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد عليها . . ولذلك فإن الإنسان إذا أراد أن يحمد الله على نعمه . . فإنه يجب أن يحمده أيضا على تعليمه نعمة الحمد . فيظل العبد دائما حامدا . . ويظل الله سبحانه وتعالى دائما محمودا .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يضع على شفاهنا كلمة الحمد خلق لنا النعم التى تتعلق بالحمد . . وإذا نظرنا إلى ترتيب الأشياء لوجدنا أن نعمة الله على الإنسان تسبق وجود الإنسان . . فقد خلق الله سبحانه وتعالى السموات

والأرض وقدر فيها أقواتها ورزقها . . وعندما وجد الإنسان بكلمة **« كن »** . . كانت النعم موجودة . . بل أن آدم عليه السلام أبا الإنسانية عندما خلقه الله سبحانه وتعالى عاش فى جنة لا يتعب فيها ولا يشقى . . كل شيء متوافر فيها لحياته . . وآدم إنسان بلا ماض . . أى أنه جاء إلى الحياة دون أن يكون له ماض يسبقه . . ولكن نعم الله سبحانه وتعالى كانت تسبقه وتنتظره لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها لنفسه . . ولكن صنعها الله سبحانه وتعالى له .

هذه مقدمة عن معنى **« الحمد لله »** . . وهى مقدمة يجب أن نقولها شكرا لله على كل نعمة أنعمها الله علينا . . وهى مقدمة يجب أن تسبق ما سنتحدث عنه فى فصول هذا الكتاب عن (الله والكون) . . و(الشك والوجود) و(ظواهر الأشياء وحقيقتها) و (معجزة الاسراء والمعراج) . . ولنبدأ حديثنا عن الله والكون . .



الفصل الأول

الله.. والكون

الله .. والكون

حينما أتحدث عن الله سبحانه وتعالى . . وعن قضية الوجود ، نجد أن هناك كثيرين يحاولون التصدى لهذه القضية بالتشكيك أو بالانكار ويجهدون أنفسهم فى محاولة للوصول إلى أدلة مضللة تثبت نظرياتهم التى تفتقر إلى الدليل الصحيح .

وأحب قبل أن نبدأ هذا الحديث أن أقول أن أمنية كل مسرف على نفسه . . أمنية كل من كانت مصيبته فى دينه ، أمنية كل إنسان يعصى الله ، أن يحاول جاهدا الوصول إلى ما يشكك فى الوجود الالهى . . وهذا نابع من أن فى داخل كل إنسان عاص شيئا يؤرقه وهو يحس أن هناك حسابا وأن هناك آخرة . وأنه سيلقى الله . . وهذا يجعله ينطلق فى محاولاته للتشكيك فى الدين . . عل نفسه تنخدع ولو كذبا بأنه لا حساب ولا عقاب .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم خلال سنوات طويلة فى محاولاتهم للتشكيك فى الأديان السماوية . . واستخدموا فى ذلك عقولهم وخداع المنطق فى هذه المحاولات . . بينما ذهب عدد آخر من الفلاسفة إلى أن الدين عبودية ، وأن التحرر من الدين هو الحرية . . وكلا الافتراضين خاطىء فيما يدعيه .

والإيمان بالله قضية مثارة أجهد الناس أنفسهم فيها . . كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره فى هذا الموضوع . . ومعنى هذا الجدل كله الذى يمضى ولن ينتهى . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى . . أو أدلة تنفى وجود هذه القوة . . معناه أننا نعرف الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود . . وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها فى هذا الجدل ولكان العقل البشرى يعيش سعيدا مطمئنا بالعلم المادى الذى خلقه الله له .

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة ، نجد فى داخلهم قلقا رهيبا يؤرقهم . . ويخيفهم رغم نجاحهم المادى . . ونجد أعلى نسبة للجنون والانتحار هى فى أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية . . ذلك أن الإنسان قد يحقق من النجاح المادى ما يحسده عليه كثيرون من الذين ينظرون إلى الحياة الدنيوية وحدها . . ولكنه رغم هذا النجاح يعيش فى قلق رهيب لأنه لم يحقق الانسجام بين نفسه وبين الكون . . فالانسجام بين النفس والكون لا يكون إلا بالإيمان بالله واتباع منهجه .

ولنقرأ الآية الكريمة التى يفزع إليها كل مؤمن وهى آية الكرسى يقول الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية « **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** » . . ومعنى الحى أنه دائم الحياة لا يدركه الموت . . لأنه هو الذى خلق الحياة والموت . . ومعنى القيوم أى القائم على ملكه . وهذه تحتاج إلى تفسير . . فبعض الناس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ووضع له قوانينه . . ثم تركه يسير حسب القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهى قوانين دقيقة لا تختل بالزمن ولا تتأثر بأى شىء . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه خلق الكون ووضع له قوانينه ولكنه قائم عليه . . أى أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتركه لحظة واحدة .

ما معنى هذا الكلام . . معناه أن الله جل جلاله فى وجوده . . يعلمنا ألا نيأس أبدا . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع قوانين الكون وطلبَ منا أن نأخذ بالأسباب وأن نتبع هذه القوانين . . ولكن حينما نعجز أمام هذه القوانين ونأخذ بالأسباب فلا نصل إلى شىء ، فهناك دائما « القيوم » القائم على ملكه الذى يمكن أن يفتح الأبواب ويحقق ما نحسبه مستحيلا أو غير ممكن . . فحينما لا تستجيب الأسباب فإن المؤمن يفزع إلى ربه . . ويصيح قائلا « يارب » إيمانا منه بأن الله سبحانه وتعالى قائم على كونه . . ينصر الحق على الباطل . . والمظلوم على الظالم . . ومن هنا حين يفزع إلى الله سبحانه وتعالى . . إنما يعلم أن الله قادر متى عجزت الأسباب . . وأنه إذا كان قد أخذ بالأسباب ولم تستجب إليه فالله سبحانه وتعالى هو قائم على كونه فى كل لحظة وثانية . . يمكنه أن يبدل العسر يسرا . . واليأس أملا وفرجا .

فهاجر رضى الله عنها تركت وليدها عند بئر زمزم وانطلقت تسعى من أجل الماء . . ولكن الأسباب لم تستجب لها . . وبعد سبعة أشواط تعبت وتسرب اليأس إلى قلبها . . فضرب وليدها الأرض بقدمه . . وهو الضعيف الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا فانفجر الماء .

ومحمد عليه السلام أخذ بالأسباب فى الدعوة . . وعندما خرج من مكة إلى الطائف ولقى ما لقيه من الصبية والسفهاء . . جاءت الأسباب من الله لتحدث الاسراء والمعراج تثبيتا لرسول الله . . ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة والوفود التى تصل إليها فى الحج إلى الإسلام فيعرضون . . ثم جاء وفد من المدينة ليبايع رسول الله ، وكانت بداية الهجرة وانتصار الإسلام .

ولو نظر كل منا إلى حياته لوجد أنه قد مر فيها بأوقات توقفت فيها كل الأسباب ، وأحس باليأس القاتل .. وجلس يقلب المشكلة فلا يجد حلا .. ثم فجأة يأتى الحل من حيث لا يعلم ولا يدرى . إذن فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه ، تفزع إليه النفس المؤمنة فى حالة اليأس فتحس بالاطمئنان والطمأنينة .. لأن الله سبحانه وتعالى يسمع ويرى وهو قائم على ملكه لا يتركه أبدا .

ثم تمضى الآية الكريمة « **لا تأخذه سنة ولا نوم** » ولا تأخذه أى أنه لا ينام أبدا ولا يغفل .. وهنا يريد الله أن يزيد اطمئنان النفس التى يصيبها الفزع من هموم الدنيا ، يريد أن يعيد إليها الطمأنينة والأمان .. يقول سبحانه « **لا تأخذه سنة** » أى لا يغفل عن شىء أبدا ولا لحظة ، ومن هنا فإن هذه النفس المؤمنة تكون مطمئنة لأن الله سبحانه وتعالى ليس غافلا عما يعمل الظالمون .. « **لا تأخذه سنة** » وتكون هذه النفس فى حياة طيبة تنام ليلها ملء جفونها .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينام .. ومن هنا فإنه يقول لصاحب النفس المؤمنة .. نم أنت ولا تخش شيئا فإننى لا أنام .. أنا أحرسك وأنت نائم وأنت مستيقظ .. فلا تدع القلق يدخل نفسك وتحسب انك إن نمت ليلك نال منك أعداؤك .. تذكر دائما وأنت تذهب إلى فراشك لتنام والقلق يملأ قلبك فاننى أنا الله لا أنام وأعرف وأشهد كل شىء فكن مطمئنا لى ، وكن مطمئنا لحمايتى .. وإذا كان الإنسان ينام مطمئنا إذا وضع على باب منزله حارسا أو خفيرا أو رجلا ساهرا لا ينام الليل ، فكيف بمن يحرسه الله وكيف يكون الأمن الذى يحس به وهو يعلم أن القوة التى خلقت هذا الكون كله وأوجدته هى التى تحرسه .. ومن هنا فإن المؤمن يحس دائما بالاطمئنان إلى الله وبالأمان فى رعاية الله له فى أحلك الأوقات وفى أشد اللحظات .

وتمضى الآية الكريمة لتزيد من انسجام النفس البشرية مع الكون الذى خلقه الله فيقول الحق « **له ما فى السموات وما فى الأرض** » هنا زيادة فى ادخال الاطمئنان على النفس البشرية ، فالله سبحانه وتعالى يقول لعبده مم تخاف من رزق لن تحصل عليه غدا ، أو من عمل لن تنجزه غدا ، أو من مال محتاج إليه لن يأتيك غدا .. تذكر أن كل ما فى السموات وما فى الأرض هو ملكى أعطى من أشاء وأمنع عمن أشاء .. ففيم القلق وأنا الذى أملك وأعطى .. وفيم التفكير وأنا قادر على أن أعطيك ما تريد ، لأن كل الذى تراه أمامك وكثيرا مما لا تراه هو ملكى أعطى منه ما أشاء لمن أشاء .. إياك أن تفزع من الغد وأن

تخاف وأن تحس انك وحدك فى هذه الدنيا .. بل انني معك وأنا حي لا أموت .. دائم الوجود ولا أنام أبدا ولا أغفل .. كل شيء فى السموات والأرض هو ملكى .. ومادمت أنت عبدى وآمنت بى .. فاطمئن الى قضائى .. فإن كنت أرزق من يكفر بى وأطلب منك أن تستر من عصانى .. فكيف بمن أطاعنى وآمن بى !

وتمضى الآية الكريمة فتقول « **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** » .. وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا انه لا يعطى الشفاعة إلا لمن أذن له .. أى أنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لا تخف من أى إنسان فى الدنيا مهما كان ظالما .. ولا تخش أحدا مهما كان جبارا .. فهؤلاء جميعا ليس لهم شفاعة عندى حتى أمكنهم منك .. ولكن الذى له الشفاعة عندى هو من آذن له .. ومن يأذن الله له يجب أن يكون قريبا من الله .. وكل ظالم وجبار فى الأرض هو بعيد عن الله سبحانه وتعالى .

ثم تمضى الآية الكريمة بعد ذلك فتقول « **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يريد زيادة فى ادخال الإيمان والاطمئنان إلى قلب من يعبده فيقول له ولا تحسب اننى لا أعرف ما يحدث وما يدبر لك فاننى أعلم ما بين أيديهم ، أى ما يظهرونه ، وما خلفهم ، أى ما يسترونه أو يخفونه .. لأننى مطلع على الأعمال وعلى النوايا وعلى ما تخفى الصدور .. ولذلك لا تخش أن يفوتنى شيء .. أو يخفى على أى من خلقى حتى ما يدور فى صدورهم .. ولا يبوحون به لأحد .. وقول الله سبحانه وتعالى « **يعلم السر وأخفى** » معناه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر .. ما هو السر .. شيء مشترك بين اثنين .. أى شيء اعتزمت أن أقوم به وأسررت به لأحد من أصدقائى أو أقاربى .. ذلك أن السر ، أى ما يسر به لغيره .. أى ما يقوله له فيما بينهما سرا .. وما أخفى أى ما يخفيه فى صدره ولا يبوح به لأحد .. أى يبقى هذا الأمر فى صدره .. ولا يخرج إلى لسانه أبدا .. وبقاؤه فى صدره دون أن يسر به لأحد لا يجعله خافيا على الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله مطلع عليه إذا كان هذا هو الحال .. فمم تخاف .. وإذا كان الله يعلم كل شيء فما الذى يفزعك .. وإذا كان الله لا ينام فلماذا تخشى أنت النوم أو يذهب النوم عن عينيك ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** » . . أى أن علم الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحيط به أحد إلا ما يعطيه الله لمن شاء . . وهناك علم يعطيه الله لمن شاء من عباده . . وهناك علم يعطيه الله للبشرية كلها . . وهناك علم يختص الله به نفسه ولا يعطيه لأحد من عباده .

والعلم الذى يعطيه الله لمن يشاء من عباده هو ما يعطيه الله لرسله وأوليائه الصالحين وهذا كشف بين الله وبين من شاء من عباده لا يمكن التحدث فيه لأنه عطاء محدود بالعبد ذاته . ومختص به وليس موضوعا عاما للمناقشة . . أما العلم الذى يعطيه الله للبشرية كلها فهو العلم المادى الذى يكشف الله عنه للبشر جيلا بعد جيل . . وهذا العلم لكل جزء فيه ميلاد حدده الله سبحانه وتعالى فإذا صادف مولد من العلم إنسانا أو أناسا يبحثون ويجتهدون للوصول إليه أعطاه الله سبحانه وتعالى لهم . . وإذا لم يصادف هذا العلم أناسا يبحثون عنه أعطاه الله للبشرية بما نسميه (الصدفة) . . كأن يكون هناك باحث يبحث عن شيء فيكتشف شيئا آخر مخالفا له تماما . . هذا الكشف الذى لم يأت مطابقا للبحث الذى يتم وإنما جاء بطريقة الصدفة يكون كشفا من الله لأن موعد ميلاد العلم للبشرية قد أتى . . ولذلك فإننا نسمع كثيرا عن عالم يجرى بحثا للوصول إلى نتائج معينة . . وفجأة وهو فى أبحاثه يفاجأ باكتشاف لم يكن يتوقعه ولا يعرف أنه سيصل إليه . . كيف تم ذلك ؟ نحن نقول بطريق الصدفة . . ولكنه فى الحقيقة هو موعد ميلاد العلم للبشرية . . ولذلك خرج إلى الوجود من علم الله إلى علم البشر بكلمة « كن » . . لأن موعد ميلاده المحدد منذ الأزل قد حان .

هذا هو العلم البشرى . . أما علم الله سبحانه وتعالى الذى يختص به نفسه فهذا لا يصل إليه بشر . . وهنا ونحن نأخذ المعنى الاجمالى للآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول ، ومهما كان علم أولئك الذين يتربصون بك . . ومهما أعدوا . . فإن الله هو الذى يعلم . . ويعلم فوق علمهم . . ويعلم ما يفسد هذا العلم ويجعله عاجزا . . كل هذا ليحس القلب المؤمن بالاطمئنان إلى قضاء الله . . وبأنه فى أمان وأمن مادام الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحرسه .

على انى قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أشرح نقطة هامة تكمل المعنى . . هى أن الله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية . . وعطاء ألوهية . . الله سبحانه وتعالى كرب العالمين يعطى الجميع عطاء ربوبية . . ومن هنا قوله تعالى « **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست**

بربكم قالوا بلى » . . لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى ألست إلهكم . . ويشهدهم بالألوهية . . لأن العطاء هنا عطاء ربوبية . . الله رب العالمين . . ما هو عطاء الربوبية ؟

عطاء الربوبية هو عطاء متساو لخلق الله جميعا . . كل من خلقه الله أعطاه عطاء الربوبية . . فمثلا الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخره للإنسان . . والكون فيه قوى كثيرة أكبر وأضخم وأقوى من الإنسان ولكنها خاضعة له بحكم أن الله سبحانه وتعالى قد سخرها له . . فالشمس والأرض والرياح ، وكل القوى الهائلة فى هذا الكون هى أكبر كثيرا من الإنسان . . الشمس تستطيع أن تحرق الأرض بمن فيها . . والأرض إذا اختل دورانها فنى البشر . . والريح تستطيع أن تدمر . . والماء يستطيع أن يغرق والأمطار إذا توقفت تجف الأنهار وتنعدم الحياة . . كل هذه القوى وغيرها مما خلق الله من توازن فى الكون هى قوى أقدر من الإنسان وأكبر منه . . ولكنها مسخرة لخدمة البشر . . فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم وسأغيب غدا . . والماء لا يستطيع أن يغرق الأرض أو يجعلها كلها يابسة ويختفى منها ويرحل . . والأرض لا تستطيع أن تتوقف عن الدوران بإرادتها . . لكنها كلها كقوى هائلة ، مسخرة لخدمة الإنسان بإرادة الله . . فهى لا إرادة لها . . ولا تستطيع أن تعصى لله أمرا . .

والله فى عطائه لهذه القدرات عطاء ربوبية أى أنه لا يفرق بين مؤمن وكافر . . بل يعطى خلقه جميعا . . الشمس تشرق للمؤمن والكافر . . والأرض يزرعها من آمن ومن لم يؤمن . . والمطر ينزل على أمة مؤمنة وعلى أناس لا يعبدون الله . . قوانين الأرض هى عطاء ربوبية . . فالذى يفلح أرضه جيدا ويعتنى بها يحصل على ثمر وفير سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن . . والذى يهمل أرضه ولا يزرعها لا يحصل على شيء مهما كان إيمانه . . والذى يستفيد بعلم الله الذى كشفه الله للبشرية فى أن ينشىء صناعة حديثة . . أو أن يحرز التقدم فى الدنيا يجنى ثمرة ما فعل . . وهكذا فالله فى عطاء ربوبيته لا يفرق بين إنسان وإنسان . . والقوانين التى وضعها الله فى الأرض والأسباب التى خلقها تتفاعل مع من يأخذ بها سواء كان مؤمنا أو كافرا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى حين أشهد خلقه عليه « **ألست بربكم** » .

هناك بعد ذلك عطاء ألوهية . . وعطاء الألوهية هو العطاء لمن يؤمن بأن لا إله إلا الله . . الإيمان هنا هو عهد بين الإنسان وربه . . ولذلك نجد أن

القرآن الكريم يبدأ آياته فى سورة البقرة بقول الله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

ونجد الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز يخاطب دائما المؤمنين بقوله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا** » .. إذن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الأساس فى عطاء الألوهية .. وهذا العطاء هو الذى يوجد فى القرآن الكريم .. هو إيمان بالغيب .. إيمان بالبعث والحساب .. ثم طريق للحياة الآمنة المطمئنة الطيبة .. رسمها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز للذين آمنوا ..

إذن عطاء الألوهية هو الحياة الطيبة فى الدنيا وفى الآخرة لمن آمن بالله ولم يشرك به شيئا واتبع الطريق الذى رسمه الله للحياة فى كتابه الكريم وبينه لنا .. وفى هذا الطريق اصلاح لكل مفاسد الحياة .. وخلق لمجتمع كامل تسوده الرفاهية .. ويسوده الأمن .. وتملؤه البركة .

ونحن فى كثير من الأحيان نأخذ تشريعاتنا عن بشر .. ثم بعد ذلك نتعجب للشقاء الموجود فى المجتمع والذى تخلقه هذه التشريعات .. ولو أخذنا ما وضعه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز .. لأخذنا أكمل ما يمكن للبشرية أن تنشىء به مجتمعا فاضلا .. ذلك لأنه شتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى .. والله خالق النفس البشرية وخالق هذا الكون ، هو أعلم بما يسعده وبأصلح ما فى الحياة له ..

ولذلك فإن القلب المؤمن الذى يتبع طريق الله يحس فى داخله بعطاء الألوهية فيملؤه الاطمئنان .. وعندما نزلت الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله يعصمك من الناس » .. أمر رسول الله أصحابه الذين كانوا يحيطون به ليدافعوا عنه إذا حاول الكفار أو المنافقون ايذاءه أمرهم أن يتركوه .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وهو القوة الكبرى التى خلقت كل شىء .. يحرسه

فلا يحتاج لبشر .. ولا يستطيع بشر أن يقترب منه أو يؤذيه .. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينام تحت ظل شجرة وبلا حراسة .. لماذا ؟ لأن قلبه كان مليئا بالآية الكريمة « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومن هنا كان ينام مطمئنا وحده تحت ظل الشجرة ، مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى الذى لا ينام هو أقوى وأقدر من يحرسه .. وهو أقوى وأقدر من كل حراسات الدنيا ولذلك نام تحت الشجرة فى حراسة الله سبحانه وتعالى .. ولم يستطع أحد أن يقترب منه .

إذن فقضية الإيمان .. أن نؤمن بالله أو لا نؤمن .. والإيمان بالله معناه انك قد آمنت وصدقت بأن هناك قوة كبرى .. تتنزه عن كل هوى وغرض .. هى التى خلقت هذا الكون وسخرته لك .. وأن هذه القوة أو القدرة ليس كمثلها شىء .. فى العلم .. والخلق .. والرحمة .. والانتقام .. إلى آخر صفات الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإذا دخل الإيمان القلب فلا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله سبحانه وتعالى .. ولا قدرتنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال الله افعل .. فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن النقاش لا يكون إلا بين عقلين متساويين .. وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر .. وإذا قال لا تفعل فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن علم الله لا يمكن أن يقاس بعلمى .. ومع ذلك نجد بعض الناس يجادل بلا خجل ويدعى أنه مؤهل لمناقشة الله فى علمه ولمناقشة الله فى طريق الحياة الذى رسمه للبشر .

الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو تسليم لقدرات الله التى ليست فوقها قدرة .. ولعلم الله الذى ليس فوقه علم .. ولله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شىء .. وهذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية .. وهو مدخل لا يأتى إلا بعد تفكر وتدبر فى الكون وآياته .

على أن بعض الناس يسمى ذلك عبودية ، ويقول ان الدين عبودية .. ونحن نقول نعم الدين عبودية لله سبحانه وتعالى .. وفرق كبير بين العبودية لله والعبودية للبشر .. البشر عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدراتك ليضمها إلى قدراته ويجردك من الخير الذى تستطيع أن تحققه ليضمه إلى الخير الذى يملكه فإذا استعبد إنسان مجموعة من البشر ، فإنه يجعلهم يعملون من أجله فيزرعون الأرض ويأخذ هو المحصول ويقيمون العمارات ويتملكها هو .. أى أن عبودية البشر هى تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه .. وهذه العبودية يرفضها الإسلام .

أما عبودية لله سبحانه وتعالى فهى عبودية لتزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة ، وتزيد من عطاء الله لك فهى عبودية لصالحك .. فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. غنى عن جهدك .. وعن مالك .. وعما تملك جوازا فى الدنيا .. بل إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب كل شيء .. فالمال مال الله .. ينتقل من يد إلى يد .. ولا يأخذ منه كل إنسان إلا رزقه .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد قال « وللرجال نصيب مما اكتسبوا » ليوضح الحكمة البالغة بأن الرزق الذى تحصل عليه أو الكسب الذى تصيبه ليس لك وحدك .. فلزوجتك نصيب .. ولأولادك نصيب .. ولعدد من خلق الله نصيب .. بل إننا نتعجب أحيانا من إنسان بخيل لا يمتع نفسه بما رزقه الله .. ونتساءل فى عجب لماذا يفعل ذلك .. وربما نلومه على ما يفعل .. والجواب على ذلك أن هذا المال الذى اكتسبه والذى يحرص عليه ليس رزقه ولكنه رزق خلق آخرين .. وهو مجرد حارس عليه حتى يوصله إليهم .. ومن هنا فإنه لا يستطيع أن ينفق منه ولا أن يتمتع به .. وليبقى هكذا الرزق دون أن يمس حتى يصل إلى صاحبه .

فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى عبودية عطاء .. عطاء من الله لعباده .. والله له ملك السموات والأرض .. وهو لا يريد أن نعبده ليأخذ جهدنا ، أو ليحصل على ناتج عملنا أو ليكون له رزقنا .. بل هو الذى يرزقنا ويعطينا .. ويمنحنا ويبارك لنا فى جهدنا .. وهو الذى ييسر لنا كل أمر عسير .. ويفتح أمامنا الأبواب المغلقة .. فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى لصالح العبد .. هى زيادة للعبد فى كل شيء .. وبركة له فى ماله وصحته وأولاده وحفظ له من كل شر وسوء .

عبوديتنا لله تجعل الله عونا لنا فى كل أمورنا .. ومن منا لا يريد أن يكون خالق السموات والأرض عونا له على ما يريد .. ومن هنا فإن عبوديتنا لله نحن نرجوها ونطلبها .. ليعيننا الله ويكون معنا .. بينما عبودية الإنسان للإنسان هى أخذ من جهد الإنسان وعرقه وعمله لإنسان آخر .. وشتان بين الاثنين .

والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالحياة الطيبة .. فهو عندما يقول افعل يريد لى بهذا الفعل السعادة فى الدنيا والآخرة .. لأن فعلى لن يزيد فى ملك الله شيئا .. وعدم فعله لا ينقص من ملكه شيئا .. ومن منطلق الإيمان عندما أتبع طريق الله فاننى أختار الحياة الطيبة ليس حسب قدراتى أنا .. ولكن

حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء . . ومن منطلق عدم الإيمان فاننى أناقش وأفلسف وأقرر حسب قدراتى . . والفرق بين الإيمان وعدم الإيمان هو اختيار بين حياة رسمها الله سبحانه وتعالى بقدراته التى لا تحدها حدود ولا قيود . . وبعلمه الذى لا يصل إليه إنسان . . وبين حياة أرسمها أنا بعقلى المحدود . . والهوى الذى يملأ نفسى . .

والله سبحانه وتعالى فى كل رسالاته السماوية طلب منا أن نتدبر فى الكون . . وأن نبحث عن آيات الله . . لماذا يأمرنا الله بهذا . . لو أن فى هذا الكون دليلا واحدا على عدم قدرة الله ووحدانيته . . ما أمرنا الله أن نتدبر فى الكون . . وأن نتدبر فى أنفسنا . . لماذا ؟ لأن الذى يعرض عليك شيئا فيه أدنى شك . . لا يقول لك افحصه جيدا . . وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشيء الذى تنظر إليه حتى لا تتبين فيه أى نقص أو عيوب . . أما الذى يقول لك تدبر وفكر وانظر . . فهو موقن من اتقان العمل . . ولذلك يريدك أن ترى الابداع والاتقان الموجود . . وأن تشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق .

ولأضرب مثلا بسيطا يقرب ذلك إلى الأذهان . . إذا دخلت لتشترى أى شيء فى هذه الدنيا . . وجاء إليك صاحب الشيء أو صانعه . . فهو إما أن يكون أحد أمرين : أن يكون الشيء متقنا اتقانا بديعا وحينئذ يقول لك صانعه افحصه جيدا . . فإذا فحصته مرة . . طلب منك أن تفحصه مرات ومرات . . لماذا ؟ لتتبين دقة الصنع وتعرف كمال الشيء . . فإذا انتهيت من فحصه قال لك افحصه مرة أخرى . . وهكذا يظل يطلب منك أن تفحص الشيء مرات ومرات . . وإما أن يكون الشيء فيه عيوب . . والصانع يحاول أن يغشك ويخدعك . . وحينئذ يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك عما فى يدك . . حتى لا تتبين عيوبه أو النقص الذى فيه . .

والله سبحانه وتعالى يطلب منا فى قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون . . ويقول ان فى هذا الكون آيات بينات . . وأن فى خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات وفى أنفسكم ويقول سبحانه وتعالى « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » .

إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون وخالق البشر وعالم بأسرار كل شيء . . أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص وأشياء لا يعرفها قد يأتى التدبر فيها بنتيجة عكسية . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . وهو

القائل .. وهو العالم .. وهو يعرف دقة ما خلق .. ولذلك يقول تدبروا فى الكون .. انظروا فيه .. ستجدون آياتى واعجاز خلقى وقدرتى .. انظروا فى أنفسكم .. ويؤكد سبحانه وتعالى « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » .. أى آيات تلك التى يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى .. ويتحدى بها .. إلا إذا كان قد خلقها بقدرة واعجاز ؟

إذن هذا التحدى فى التدبر فى آيات الكون .. والتدبر فى الخلق والتدبر فى أنفسنا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان القائل هو الخالق .. هو الذى وضع آيات ومعجزات فى هذا الكون .. تدل على عظمته .. وعلى قدرته .

ونحن حينما نتدبر فى الكون نرى عظمة الله سبحانه وتعالى .. وهذا هو الهدف الأول للعقل البشرى .. أن يتدبر فى الكون ويعرف ماذا خلق الله سبحانه وتعالى .. وأنه لن ينسجم مع هذا الكون إلا إذا خضع لخالقه .

ولكن الإنسان الذى أخذ الأمانة فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

ما هى الأمانة .. الأمانة هنا معناها حرية الاختيار .. دون أى ضغط خارجى .. ووصف الله سبحانه وتعالى للإنسان بأنه جهول عندما قبل أن يحمل الأمانة .. معناه أنه لم يعلم .. ولم يقدر مسئولية هذه الأمانة وثقلها ..

ولنضرب مثلا صغيرا يقرب هذا إلى الأذهان .. لنفرض أن إنسانا قد جاءنى وأعطانى مبلغا من المال .. وقال هذا أمانة عندك .. ثم أتى كل شهر .. أو كل فترة ليعطينى مبلغا آخر ويقول هذا أمانة عندك .. وأخذت أنا هذا المال ومتعت به نفسى وأسرفت عليها وبذرت .. ثم جاء وقت السداد .. وجاء صاحب المال يطلب ماله .. وأنا ليس عندى منه شيء .. هذا هو ما يحدث فى الدنيا .. الله سبحانه وتعالى أعطانا من النعم ما لا يعد ولا يحصى .. وقال تمتع بهذا كله . ولكن عليك أمانة تحملها .. هى ألا تفسد فى الأرض .. وألا تسرق ..

وألا تستخدم نعمى فى معصيتى او فى ظلم الناس .. وقبل الإنسان الأمانة .. ولكن الشيطان استطاع أن يتسلل إلى نفسه منتهزا الفرصة فى أن الإنسان قد حمل الأمانة أى حرية القرار .. والله قال له افعل .. وقال لا تفعل .. وفى هذه الحالة لم يضع على ارادته الحرة أى قيد أو ضغط .. ومادام الإنسان قد أعطى حرية الاختيار .. فكأن هناك الحساب .. الرسالات السماوية التى أرسلها الله سبحانه وتعالى بينت للإنسان الطريق .. ولكن الأمانة التى حملها .. والتى رفضت كل مخلوقات الله أن تحملها .. أعطته الحرية فى أن يفعل أو لا يفعل .. وفى أن يخالف وأن يعصى .. ومادام الله قد قال افعل فمعنى قوله تعالى أن فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. ومادام الله قد قال فى أشياء لا تفعل فإنه فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. والإنسان وحده هو القادر على ذلك .. فالجبال مثلا ليس لها اختيار .. وكذلك الشمس والقمر والنجوم .. فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم أو لن أشرق والنجوم لا تستطيع أن تختار أن تسطع ليلة وتغيب ليلة أخرى .. بل ان الملائكة ليس لهم اختيار وإنما يفعلون ما يؤمرون .. ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة .. أخذ حرية الاختيار فى الدنيا .. فماذا فعل ؟

صور له جهله أشياء كثيرة .. فعبد أشياء لا تنفع ولا تضر .. عبد الشمس والنار والأحجار والأصنام والحيوانات المفترسة .. انطلق يعبد كل شيء صوره له جهله .. وأضله الشيطان عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له .. انطلق الإنسان جاحدا نعمة الله .. وترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى رحمة به ليبين له طريق الحياة الآمنة الطيبة .. وأخذ يشرع لنفسه تاركا شريعة الله .. وتغلبت عليه أهواؤه .. فأخذ يخضع الأشياء لهوى النفس وليس للحق .. فأصابه الشقاء فى الدنيا وحلت به الكوارث .

ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك ... لقد لخص الله سبحانه وتعالى فى بلاغة رائعة ووصف بليغ مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حين أورد لنا فى القرآن الكريم كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله .. ذلك أنه حين تم الاغراء .. تم بجملة واحدة أوردها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى وهو يصف اغراء الشيطان للإنسان :

« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »

إذن الإنسان يريد شيئين من الدنيا . . حياة خالدة لا تنتهى . . ومالا وفيرا لا يفنى . . يريد أن يبقى خالدا لا يموت . . وأن يكون له ملك يوفر له حياة الترف والعبث التى تهواها النفس . . وألا يتأثر ماله بكل ما ينفقه . . وألا يتأثر عمره بالسنوات . . يريد شبابا دائما . . وكنوزا لا تعد ولا تحصى . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التى اخترعها الإنسان وعبدها كانت إما وهما جالبة للرزق والجاه فى الدنيا . . أو وهما دافعة لأذى أو مرض يؤدى للموت وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا . . بل إن عبادة الناس للبشر تأتى من خلال هذين المدخلين . . فهو إما أن يرجو رزقا يتمتع به . . أو يرجو شفاء وقدرة لطول الحياة بما يصوره له وهمه من قدرات يعتقدها فى بشر . . والحقيقة إن هذه الآلهة لا تفعل هذا ولا ذاك ولا تملك النفع والضر حتى لنفسها . . ولكن الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تضعف إلى الدرجة التى تعتقد فيها أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا فإن هذا النفع أو الضر الوهمى هو خوف فى النفس البشرية . . يدخل بسبب عدم الإيمان . . وإلا فالنفس المؤمنة تعلم أن الله معها . . وأن هذه القدرة الخارقة القادرة هى التى تدافع عنها وتحميها وترعاها وتحرسها حتى عندما تنام كل الأعين لأن عين الله لا تنام .

والذى يؤمن إيمانا حقيقيا بذلك . . ليس محتاجا لأن يستعين بمن هم أقل قدرة من الله . . وشتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى . . فكونى أترك القدرة المطلقة إلى ما لا ينفع ولا يضر بعدم إيمانى . . هو جهل منى يجعلنى التجىء إلى غير الله . . وهذا الجهل وضعه فى نفسى هوى أنا أريد أن أحققه .

ولنوضح هذه النقطة قليلا . . أنا مثلا عندى مال . . ولكنى أريد أن أحصل على مال غيرى وبدون وجه حق . . الحياة السعيدة التى رسمها الله لى تقول لى لا . . لا تفعل ذلك . . وهى تقول هذا لتحمينى أولا . . فأنا فرد واحد فى مجتمع . . عندما أستبيح مال غيرى وأجعل هذا مبدأ . . فإن هناك ملايين من الأشخاص فى هذا المجتمع يكون لهم الحق فى أن يستبيحوا مالى . . ومن هنا حرم الله سبحانه وتعالى ذلك ليحمينى . ولو كنت أتدبر لعرفت أن عدم استباحة مال غيرى هو حماية لى ولمالى . . ولكننى أريد ملكا لا يبلى والشيطان يعمل على ذلك . . والله أخبرنى عن مدخل الشيطان إلى نفسى حتى أعرفه . . وأقى نفسى

الزلل والانزلاق . . ولكنى مع ذلك أنطلق لهوى فى نفسى . . وهو أن أملك . . وأملك بلا حدود ملكا لا يبلى فآخذ مال غيرى . . حينئذ تقفز إلى النفس البشرية التى هى فى أعماقى والتى رأت الله وتعرفه جيدا مصداقا لقول الله « **ألست بربكم . قالوا بلى** » هذه النفس تؤرقنى . . أحس فيها بما ينتظرنى جزاء لهذه المعصية . ومن هنا فإننى أحاول بقدر طاقتى ـ ولو وهما ـ أن أحتمى بأى شيء تاركا شريعة الله لهوى فى نفسى فآتى بحجر وأدعى انه هو الذى جلب لى الرزق . . أو آتى بحجر وأقنع نفسى زيفا بأنه سيحمينى من عذاب الله . . أحاول أن أطمئن نفسى وأزيل عنها القلق الذى يملأ النفس البشرية ويؤرقها ويحطمها عندما تغرق فى المعصية . .

ولنضرب لذلك مثلا لو أننا أتينا بشاب فى ريعان شبابه ثم جئنا له بأجمل فتيات الدنيا ، وقلنا له هى لك هذه الليلة . . ثم فتحنا له بابا مستورا فى الحجرة ليرى « النار » وقلنا له بعد هذه الليلة سيكون مصيرك هنا . . فهل تعتقد أنه سيرتكب المعصية . . الجواب . . أبدا . . ولكن لأن الجزاء مستور عنا فإن الشيطان يدخل إلى النفس البشرية محاولا ايهامها بأنه لا جزاء . . وهذا الوهم يصبح هوى فى النفس لأنه يطلق لها العنان لشهواتها . . ويحل لها أن تظلم غيرها ، وتأخذ حقه . . ومن هنا فإنها فى محاولة انكار وجود الله سبحانه وتعالى وتحاول أن تبذر الشك . . فإن أقصى ما تتمناه النفس العاصية هو أن يكون الله ليس موجودا . . ولكن الله موجود والشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

●● أوحى الله عز وجل إلى داود « وعزتى وجلالى ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها ، والأرض بمن فيها ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأرسخت الهواء من تحت قدميه ، وما من عبد يطيعنى إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى ، ومستجيب له قبل أن يدعونى ، وغافر له قبل أن يستغفرنى » .

الفصل الثاني

الشك .. والوجود

الشك .. والوجود

الإسلام إما أن يكون عن عقيدة .. فهو دين .. وإما أن يكون عن غير عقيدة فهو نفاق .. ولكى نبدأ الحديث يجب أن نحدد .. ما هو معنى العقيدة أولا ؟ العقيدة هى قضية اختمرت فى القلب اختمارا .. واقتنعت بها تماما .. بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى العقل لتناقش من جديد .. قضية قتلتها بحثا وتمحيصا ودراسة ومناقشة .. واقتنعت بها تماما .. بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى الذهن مرة أخرى .. فإذا طفت إلى العقل لتناقش من جديد .. فالإيمان هنا ناقص .. ولذلك حين قالت الأعراب آمنا .. ماذا قال الله لهم .

« قل لم تؤمنوا .. ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »

إذن الإيمان هو عقيدة اقتنع بها القلب تماما .. بحيث لم تعد تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .. وهو لا يأتى فى منطقة الحس .. أو المنطقة التى تخضع للحواس عندنا .. بمعنى أنك لا يمكن أن تقول لإنسان أنا مؤمن .. اننى أراك أمامى .. وأنت تراه أمامك فعلا .. ولا تستطيع أن تقول أيضا اننى مؤمن .. إن هذا الكوب ممتلىء .. والكوب ممتلىء بالماء .. وأنت تراه أمامك .. تلك ليست منطقة الإيمان .. ولكن منطقة الإيمان هى الغيب .. شىء غيبى عنك لا تراه ولا تستطيع أن تصل إليه بحواسك .. ولذلك فإننا فى كثير من الأحيان نحاول أن نشبه الإيمان بأنه يقين عندنا كالشىء الذى تراه .. فتقول أنا متأكد أن هذا سيحدث .. أو أنا مؤمن أن هذا سيحدث .. كما أراك أمامى تماما .. الذى سيحدث هو غيب عنى .. قد يحدث وقد لا يحدث .. أنا لا أستطيع هنا أن أقطع بذلك .. ولكن تصديقا منى للإيمان .. فأنا أقول إن هذا سيحدث كما أراك أمامى .. يقينا بالغيب .

وإذا كان ذلك فى أمور الدنيا الصغيرة .. فكيف فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى .. اليقين هنا يجب أن يكون على درجة عالية .. أن تعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وحين تشبه العبادة هنا بالرؤية .. فالرؤية ليست قضية جدلية .. بمعنى أنك ترى الشىء أو لا تراه .. الإيمان أيضا إذا خرج إلى دائرة الجدل والمناقشة الذهنية .. خرج عن معناه ولم يصبح إيمانا .. مادام هناك جدل مايزال فى العقل .. فالإيمان غير كامل ..

ولكن فيم يدور الجدل .. إنه يدور حول الدليل عن وجود الله .. أو محاولة انكار وجود الله .. نأتى أولا إلى الذى يجادل فى الدليل على وجود الله .. ونسأله : حينما أقبلت على وضع الدليل على وجود الله .. فما الذى حملك على ذلك .. ما الذى جعلك تتعب عقلك وفكرك لتضع الدليل على وجود الله .. الذى دفعك لذلك هو أن الله موجود فينا بالفطرة .. فينا جميعا .. أولئك الذين يؤمنون به فيطيعونه .. ويعملون بتعاليمه .. وأولئك الذين يسرفون على أنفسهم .. ويشعرون بعظم العقاب الذى ينتظرهم .. تحسه نفوسهم التى تعرف الله بفطرتها .. فيجهدون عقولهم فى محاولة النيل من دين الله .. وهم فى الحقيقة يحاولون الهرب ولو عقليا .. ولو بطريق التضليل من حساب هو واقع عليهم ..

إذن الذى يحاول أن يضع الأدلة على وجود الله .. فى الحقيقة قد أثبت هذا الوجود دون حاجة إلى دليل .. فالدليل على وجود الله .. هو طلب الدليل على وجود الله .. ذلك أن طلب هذا الدليل .. واجهاد العقل فيه .. معناه أن الله موجود فينا بالفطرة .. نحس به ونشعر بوجوده .. ونعرف أنه موجود ..

إذن فوجود الله سابق لمحاولة الوصول إلى دليل .. وهذه المحاولة التى هى قائمة وستظل قائمة إلى أن تنتهى الحياة ، إنما هى اعلان بأن الله موجود .. ونحن نحاول أن نستخدم ما يلائم عقولنا من أدلة .. ولو بحثنا ودققنا فى الرسالات السماوية التى أرسلها الله لنا .. لوجدنا أكبر الأدلة وأقواها موضوعة بالطريقة التى تناسب العقل البشرى وقدراته الماضية والحالية والمستقبلة ومفصلة تفصيلا يملؤه الاعجاز ..

وإذا دققنا فى علم الله ووصوله إلى الإنسان .. فهو اتصال الكلمات بالعقل .. أو كما قال الله سبحانه وتعالى « **وعلم آدم الأسماء كلها** » أى أنه سبحانه وتعالى .. علم آدم معانى الأشياء وأسماءها . ثم أتى الله سبحانه وتعالى بالملائكة ، وقال لهم أنبئونى بأسماء هؤلاء .. فلم يعرفوا .. وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ..

إذن .. المعنى يجب أن يوجد أولا .. أو الشىء يجب أن يوجد أولا .. ويكون مفهوما لدى السامع .. وموجود أصلا فى ذهنه .. ثم تأتى الكلمة لتبرز هذا المعنى إلى العقل .. فإذا قلنا منزل مثلا ، فإن له معنى معينا فى عقولنا .. هو مكان يقيم فيه الناس مكون من عدة حجرات .. إلى آخر ذلك .. ومن هنا

فإنه إذا ذكرت الكلمة . . قفز المعنى الموجود أصلا فى العقل لتكون مقبولة . . أو إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل ، ولم يعرف بوجودها جيدا . . كأن تأتى لرجل عاش فى أرض سهلة لم ير جبلا فى حياته ، ثم تقول له كلمة جبل . . إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل ، ولا يفهم شيئا . . ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذى تتحدث عنه أو تقوله له . . ومن هنا فهو لا يفهمه ولا يعرفه . . لأنه لم يدخل إلى عقله أولا . . إذا قلت لإنسان مثلا ، أن ذلك تم بالعقل الالكترونى ، فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئا . . مادام لا يعرف ماذا يفعل العقل الالكترونى . . ولكنك إذا قلت كلمة الله ، فإن العقول كلها تفهمها ، على أنها تلك القوة القادرة ، القاهرة . . التى خلقت الدنيا كلها ، ولكننا لم نر الله ، فكيف نفهم هذه الكلمة . . لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة ، وغير موجود فى عقولنا ونفوسنا . . لما فهمناها أبدا ، ولما أخذت هذا المعنى العالمى الذى ينسجم مع النفس البشرية . . ان يقيننا بوجود الله هو الذى يجعلنا نفهم هذه الكلمة . . ووجود الله فينا بالفطرة هو الذى يجعلها تدخل إلى عقولنا لأن أى كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين فى العقل البشرى أولا . . بل ان وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها . . فأنت لا تستطيع أن تحدث أحدا بكلمة جبل . ويفهم ما تقول . . أو بكلمة « قوى » ويفهم ما تقول . . إلا إذا كان المعنى موجودا أولا فى عقله . . قبل أن تنطق بالكلمة فالمعنى يوجد أولا . . ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه . . وإذا راجعنا قواميس اللغة فى جميع أنحاء العالم . . نجد أن الكلمات الموجودة فيها هى لأشياء موجودة أصلا . . وأن هذه القواميس تراجع كل عام لاضافة أسماء لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة فى العام الذى قبله . . وذلك بمعنى أن الشيء يوجد أولا ثم بعد ذلك يعطى تسمية . . بل ان هذا فى حياتنا اليومية ملحوظ فى كل شيء . . فهناك أسماء كثيرة فى اللغة تضاف إلى القواميس كل عام . . وهناك علماء متخصصون يجتمعون فى مجمع اللغة . . ليضعوا الأسماء لمعان أو لأشياء وجدت ولم تكن موجودة . . إذن فالأصل أن يوجد الشيء أولا . . ثم يضع الإنسان له الاسم . . ووجود اسم الله سبحانه وتعالى فى جميع لغات الأرض معناه أنه موجود فى جميع أديان البشر . . وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها . . وقبل أن ينطق لسان بأى لغة . .

ولفظ الله معناه واحد فى كل العقول . . وفى كل اللغات . . بل ان تقبل

الشك .. والوجود

العقل البشرى لاسم الله سبحانه وتعالى معناه أن هذا العقل يعرف الله بالفطرة .. وان كان الله فوق قدرة العقول .. ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسالات السماوية .. إلى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾

هذه الآية الكريمة التى أخبرنا بها الله تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل .. فقد عرفنا وجود الله يقينا .. وهذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا عليها أحد .. ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنسانا ينطق لفظا غريبا لا معنى له .. ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا .. ونحس به فى داخلنا .. ونحس بقدرته وقوته .. وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده .. وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون .. وربما لم يقرأوا كلمة واحدة فى حياتهم .. فإذا أخبرتهم عن أى شىء فى هذه الدنيا .. سألوك : ما معنى هذا الذى تتكلم عنه .. نحن لا نفهمك .. إلا كلمة الله سبحانه وتعالى .. فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم .. والصبى والرجل .. والكهل .. وكل إنسان يجلس أمامك .. ولن تجد أحدا يقف ليسألك : ماذا تعنى بكلمة الله .. اننا لا نفهم هذه الكلمة .. لماذا ؟ لأن الله يوجد فينا بالفطرة ومن هنا فإن الطفل يعبده .. والإنسان البسيط الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يعبده .. والإنسان المتعلم يعبده .. والإنسان الذى تبحر فى العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبده .. وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا .. ولكنها جميعا لا يوجد بينهاتصادم فى عبادة الله ..

وأنت تدخل إلى المسجد .. تجد عباد الله جالسين معا .. عقول كلها مختلفة فى السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعى والطباع والعادات وكل شىء .. ولكنها كلها منسجمة فى عبادة الله تركع له معا .. وتسجد له معا .. وتقرأ له القرآن معا .. وتسبح له معا .. كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان الله موجودا فينا بالفطرة .. وإلا مصداقا للآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(الآية ١٧٢سورة الأعراف)

على أن الذين يحاولون انكار وجود الله ، فمحاولة الانكار هذه وحدها اثبات .. لأنك لست محتاجا إلى أن تنكر ما ليس له وجود .. فالأرض مثلا بعض الناس يقول انها كروية .. وبعض الناس يقول انها مبسوطة .. ويحدث جدل .. لو لم ير الناس أمامهم الأرض مبسوطة ولو أن العلم لم يثبت لهم أنها كروية لما حدث هذا الجدل ، فالجدل هنا حدث لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين .. إذن فقبل النفى والجدل .. هناك وجود .. وإذا أردنا أن ننفى نظرية علمية إذن فهذه النظرية يجب أن تكون أولا موجودة وإلا فكيف ننفيها .. الخلاف هنا على النفى والوجود يجب أن يكون على واقع .. وإلا انتفى الجدل نفسه ..

إذن محاولة انكار وجود الله .. قد سبقتها حقيقة أن الله موجود فعلا .. وإلا فلماذا يحاول أى كافر أن ينكره .. محاولة النفى والجدل لا يمكن أن تتم إلا لشىء موجود .. وإذا لم يكن هناك شىء أصلا .. ففيم أجادل .. ومن الذى أحاول أن أنفى وجوده ..

الشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود .. والذين يحاولون وضع الأدلة للتشكيك فى وجود الله .. هم فى الحقيقة أثبتوا هذا الوجود دون حاجة إلى دليل .. فالدليل على وجود الله هو طلب الدليل على هذا الوجود .. واجهاد العقل فيه .. معناه أن الله موجود فينا بالفطرة ..

إذا انتهينا من هذه الحقيقة ، وأن الله موجود فينا بالفطرة . . يحس به كل قلب بشرى . . وكل نفس . . حتى أولئك الذين يكفرون به يخشونه . . ويخافون يوم الحساب . . وهم فى محاولتهم الانكار . . إنما يحاولون أن ينكروا العذاب الذى ينتظرهم ويقنعوا أنفسهم ، ولو كذبا ، بأن هذا العذاب لن يحدث . . ولن يتم . . ولن يكون . . ومن هنا تأتى محاولة الانكار خوفا من لقاء الله ورعبا مما توعدهم به . . ومحاولة أن يطمئنوا أنفسهم المرتعدة من الداخل والتى تحس بيوم الحساب . . محاولة طمأنتها خداعا . . بأنه ليس هناك حساب . . محاولة جمع الأدلة ولو باطلا على ذلك . . وتظل النفس الكافرة فى شقاء فى الدنيا حتى ينتهى أجلها . . فهى لا تعرف الطمأنينة أبدا . . وهى تخشى الغد دائما مهما أعطاها اليوم من أمان واطمئنان .

على أننا يجب أن نتحدث عن منهج الله . . ولماذا يحيد عنه بعض الناس . . هل لأن منهج الله لا يحمل العدل والسعادة للناس . . كل الناس . . لماذا تحاول النفس البشرية أن تختار لها طريقا آخر . . مرة تسميه الفكر المعاصر . . ومرة النظريات الحديثة . . لماذا تهرب من طريق الله ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع قيودا على هوى النفس البشرية . . وهذه القيود لم يضعها لصالح فئة معينة . . وإنما وضعها لصالح البشرية جمعاء . . ولكن الطمع البشرى بلا حدود . . والإنسان يريد أن ينطلق بغرائزه . . رغم أنه يعرف أن ذلك يأتى بضرر بالغ على المجتمع . . غريزة حب الامتلاك مثلا . . الإنسان يريد أن يملك كل شىء . . القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . وينظر إلى ما يملكه بعض الناس ويتساءل لماذا ؟! هل سيستطيعون انفاق كل هذا ولو عاشوا ضعف أعمارهم . . والجواب يكون فى كثير من الأحيان « مستحيل » . .

ويأتى السؤال الثانى : هل سيأخذون شيئا من هذا معهم بعد الموت . . بعد الأجل . . والجواب أيضا « مستحيل » . . إذا كان ذلك مستحيلا . . فلماذا كل هذه الحرب على الامتلاك ؟ والجواب أن النفس البشرية ، رغم يقينها أنها ستموت . تظن أن عمرها سيمتد سنوات وسنوات . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم أر يقينا أشبه بالشك . . من يقين الموت) .

ولكن الله سبحانه وتعالى حرص على أن يهذب غريزة التملك فمنع الاعتداء على ما يملكه الغير . . لماذا ؟ ليحمى كل فرد من المجتمع وليلتزم المجتمع كله

بأن يحترم حقوق بعضه .. نهى عن المال الحرام .. وعن أكل حقوق الضعيف ليحميه من بطش القوى .. وعن أكل أموال اليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة .. وسرقة أموال الناس .. لماذا ؟ ليحمى القوى إذا ضعف .. وليحمى القوى وهو قوى .

قد تبدو العبارة متناقضة ولكنها صحيحة .. إن الله الذى حرم علىّ ما يملك غيرى حرم على غيرى وهو المجتمع كله من أن يأكل حقى .. وأعطى لكل ذى حق حقه .. حرم علىّ أن آخذ حقوق غيرى وأنا قوى وهو الضعيف ليحميه منى .. ولكنه فى نفس الوقت حمانى من المجتمع الذى مهما كنت قويا كفرد .. فأنا ضعيف أمامه .. وإذا كان الله قد أباح لى أن آكل مال الضعيف فقد أباح للمجتمع كله أن يأخذ مالى .. بلا حق .. وبلا حساب ..

وهنا نرى عدل الله .. إنه يحمى الضعيف من القوى .. وفى نفس الوقت يحمى القوى من المجتمع .. أى أن التشريع هنا فى صالح المجتمع كله .. غنيه وفقيره .. ضعيفه وقويه .. ثم وضع الرحمة والتعاطف والتآخى بأن يعطى الغنى من ماله للفقير لينعم المجتمع بالسلام .. وليخرج الحقد والبغضاء والكره من النفوس .. وتحل مكانها الرحمة والتآلف .. والتآخى .. هذا هو تشريع من تشريعات الله سبحانه وتعالى .. قد يقف ظاهرا ضد أطماع بعض النفوس البشرية التى تريد أن تملك بلا حدود وتطمع فى أن تأخذ حق غيرها بلا وازع .. وأن تستحوذ على كل شىء .. ولكنه وهو يضع القيد يحمى هؤلاء الناس من أنفسهم .. من أطماعها التى تؤدى بها الى الهلاك فى الدنيا والآخرة .. ويحمى المجتمع كله .. ليجعله مجتمعا سعيدا متآخيا .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الغريزة الجنسية .. فإننا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحمى النفس البشرية مما يفسدها .. ويحميها من المجتمع أيضا ..

ويحكى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : انى أعاهدك على الإسلام .. ولكنى رجل أحب النساء .. ولا أستطيع أن أتخلى عن هذه العادة .. فهل تأذن لى .. ولم يقم رسول الله ليضربه .. أو يعنفه .. أو يدفع به ليرجموه .. لكنه وهو المعلم أراد أن يبين له الحكمة من التشريع هنا .. أراد أن يبين له .. كيف ذلك .. بطريقة يفهمها الرجل ويحسها .. فقال له صلى الله عليه وسلم بهدوء : أتحب أن يفعل ذلك بأمك ؟ فظهر الغضب على وجه الرجل وقال لا .. قال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بأختك .. فازداد

غضب الرجل فقال : لا .. فقال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بزوجتك .. فرد الرجل بسرعة : لا .. لا .. فقال رسول الله : وكلنا كذلك يا أخا العرب ..

وهكذا يبين له أن تشريع الله إنما وضع ليحمى أمه وأخته وزوجته مما لا يقبله أى إنسان .. ولو تذكر أى فرد هذا الحوار وهو يهم بمعصية الزنا ، إذا تذكر أنه يكره أن يفعل ذلك بأمه أو أخته أو بزوجته لامتنع فورا عما ينوى أن يفعل .. إذن فالتشريع هنا حين يسمو بالغرائز ويضع القيود عليها إنما يضعها لحماية الفرد نفسه .. لحماية أمه وأخته وزوجته من أى اعتداء .. للدفاع عن عرضه هو .. والإنسان يسعد بذلك .. ولكنه فى نفس الوقت الذى يريد فيه تشريعا يحمى أهله من أى اعتداء من المجتمع .. يقوم هو بالاعتداء على أهل غيره .

وهنا تظهر عدالة السماء لتقول لا .. كلكم سواء أمام الله وإذا كان الله بتشريعه .. قد حمى أهلك وعرضك .. فإنه يحمى أهل وعرض الآخرين .. فإذا انتهكته عاقبك .. وإذا خالفته عذبك .. لماذا ..؟ لأنك تريد الافساد فى الأرض .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نهانا عن تناول سير الناس بالباطل والتجسس على أخبارهم .. فقد نهانا عن ذلك ليحفظ سيرنا وأسرارنا .. فأنا لى عورات لا أحب أن يطلع عليها أحد .. وأنت لك عورات لا تحب أن يطلع عليها أحد .. وكلنا يسيئه أن يطلع على عوراته أحد .. أو يتناوله أحد بالسوء وهو غير موجود .. لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

ولكن بعض الناس يريد وضعا متميزا .. يحل لنفسه أن يسرق هو .. ولا يحل لغيره أن يسرقه .. ويحل لنفسه أن يعتدى على أعراض الناس .. ولا يرضى ولا يقبل أن يعتدى أحد على عرضه .. ويريد أن يتجسس ويكشف عورات غيره ويتناوله بالسوء .. فإذا تجسس أحد على عوراته هو .. أو تحدث عنه بالسوء .. ثار وهاج وانفعل .. والله يقول لا .. كلكم أمامى سواء .. عبيدى .. أنا خلقتكم وأعاملكم بلا تمييز .. لا أحل لأحد ما أحرمه على الآخر مهما كان هذا ذا قوة وسلطان .. و الثانى لا حول له ولا قوة .. ومن هنا فإننى عندما أحرم .. أحرم عليكم جميعا .. وعندما أحل .. أحل لكم جميعا .. قويكم وضعيفكم .. فقيركم وغنيكم .. وكل من يحسب أن ماله .. أو جاهه .. أو سلطانه سيجعله مميزا عندى فهو واهم ..

ذلك هو العدل الالهى .. وهذا هو منهج الله .. لا يفرق بين أحد .. ولا يحل لهذا .. ويحرم على ذلك .. فهو فى تشريعه إنما يستهدف حماية المجتمع كله غنيه وفقيره .. قويه وضعيفه .

إذن فما الذى يضعه الله .. انه يضع المجتمع الصحيح .. يضع القواعد للمجتمع القوى ويهذب النفس البشرية ويبنيها من الداخل ويجعلها صلبة قوية عادلة .. تحافظ على حقوق غيرها .. كما تحافظ على حقوق نفسها .. إنه يلغى قانون الغابة السائد بين الحيوان .. ويرقى بالإنسان إلى درجة الإنسانية .. يسمو به ويميزه عن باقى مخلوقاته ..

الله سبحانه وتعالى يضع لنا فى منهجه أساس بناء المجتمع الذى يسود الأرض .. لماذا ؟ لأنه هو الوحيد القادر على ذلك .. وهو أعلى من البشر جميعا .. وأعلم منهم .. وهو الذى خلق هذا الكون .. وسخر كل شيء فيه لخدمة الانسان .. سخر قوى أكثر كثيرا من الإنسان فالشمس والقمر والأرض والنجوم سخرها كلها لخدمة الإنسان .. وجعلها خاضعة له .. تعطيه دون أن يكون لها اختيار .. ودون أن تملك الارادة فى أن تمنح وتمنع ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه القوى جميعا وسخرها لخدمة الإنسان .. وهى قوى يعجز الإنسان أن يخلق مثلها .. فلا الإنسان يستطيع أن يخلق أرضا .. أو سماء .. أو شمسا .. أو قمرا .. أو غلافا جويا أو جاذبية أرضية .. إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذه القوى الجبارة وسخرها لخدمة الإنسان .. فهو القادر وحده على أن يرسم لنا الطريق الصحيح للحياة السعيدة على هذه الأرض .. وليس للإنسان مهما بلغ أن يتطاول ويقول أنا أقدر من الله سبحانه وتعالى فى رسم الطريق الصحيح للحياة على الأرض .. لأن كلا منا مهما بلغ ، عاجز أمام قدرة الله .. ولأن كلا منا ، مهما حاول ، يريد أن يعدل له هوى فى نفسه .. والله لا هوى له .. ولذلك فهو يحكم بالعدل ويضع الصراط المستقيم .. ومادام الله قد قال .. فهو أعلم منا جميعا .. ولذلك فإننا يجب أن نتبع منهج الله ودون أن نقارنه بمنهج بشرى مهما كان .

على أننا حين نسأل بعض الناس من الذى خلق السموات والأرض .. يقولون الله .. ثم تسألهم إذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا لا تتبعون منهج الله .؟ نجد بعضهم لا يجيب والبعض الآخر يحاول أن يضع منهجا بشريا مقابل منهج الله ثم يناقشك فيه .. ونحن نقول لهؤلاء جميعا انكم تناقضون

أنفسكم . . إذا كان الله هو خالق الحياة وخالق الكون . . وإذ كان الله قد وضع منهجا للحياة التى خلقها كما وضع قوانين للكون . . أتترك هذا العطاء وتذهب إلى ما يقوله بشر عن هوى . . أو عن أى شىء آخر . . كيف أترك من يعلم . . وأذهب إلى من لا يعلم . . وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق . .

بل إن الأساس فى اتباع منهج الله هو الايمان . . ولذلك تجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب عباده فى منهجه . . يقول دائما « يا أيها الذين آمنوا » ويكررها فى آيات كثيرة من القرآن . . لماذا ؟ لأن الأساس فى اتباع منهج الله هو الإيمان بالله والرسل والملائكة والغيب . ذلك هو الأساس . . أما غير ذلك فهو باطل . . ولو أتيت بما طلبه الله منك ولكن بلا إيمان فعملك باطل .

ولنوضح هذه النقطة قليلا . . الله أمرنا بالتصدق على الفقراء . . من فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإيمانا منه بالله ومنهجه فله الثواب . . ولكن هب أن إنسانا يتصدق على الناس ليقال عنه انه جواد أو كريم . . يأتى أمام القوم ويجمع الفقراء ويعطيهم المال ويتباهى بذلك ويتحدث عنه كثيرا ليقول الناس عنه انه رجل كريم . . حتى إذا جاءه فقير بينه وبين نفسه ، طرده ولم يتصدق عليه . . انه يريد السمعة والشهرة ولا يريد رضا الله . . هذا الإنسان لا يثاب رغم أنه أتى عملا من الأعمال التى حث عليها الله سبحانه وتعالى . . وطلب منا القيام بها . . ولكنه أتاها بلا إيمان . . أتاها وقلبه غير مؤمن بالله لا ينطبق عليه قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » . . كذلك رجل يصلى أمام الناس فإذا كان وحده لا يصلى . . هل يثاب على صلاته . . أبدا . . مع أنه يفعل ما أمره الله به ولكن بلا إيمان .

والله سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشركاء . . ولذلك إذا كان العمل لوجهه وإرضاء له سبحانه وتعالى فإنه يتقبله . . أما إذا كان لارضاء البشر فإنه غنى عنه ولا يتقبله . . حتى ولو كان فيه جزء لارضاء البشر أو لجاه الدنيا . . فإنه لا يتقبله فالله غنى عن العالمين . . والحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى) . . هو أكبر توضيح لذلك فالنية محلها القلب ، والله مطلع على القلوب . . يعرف ما تخفيه الأنفس . . ويعلم تماما . . ولكن بعض الناس فى هذه الدنيا يعتقد أنه يستطيع أن يخدع الله . . وهذه هى كارثة الانسانية كلها .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنين فى الوصول إلى وجود الله .. محاولين استخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية التى أنزلها الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له .. ذلك أن العقل له وظيفة .. أو وظائف فى الحياة .. ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بدليل فوق طاقته .. أو غير مستخدم الوسائل .. أو الرسالات التى أنزلها الله لعباده .. فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة فيما هو فى قدرة العقل البشرى .. منذ يوم خلقه .. إلى يوم القيامة .. ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا .. بأن يقدموا للعقل البشرى ما هو فوق طاقته .. وهذا مستحيل ..

ولقد قال لنا الله فى رسالاته هذا هو الطريق إلى عبادتى .. وشرحه لنا .. وبين لنا الثواب والعقاب .. وهذا دليل قوى على وجود الخالق .. ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام .. أو أى شىء غير الله .. فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم .. أو تبين لهم .. أو تعلمهم طرق العبادة .. ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدوا الشمس .. ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدت الأصنام .. والأحجار .. والحيوانات .. وكل شىء فى هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم ..

وإذا حكمنا المنطق وحده .. والعقل وحده .. فإن الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل فى أشياء هى فوق قدرة الاثنين معا .. وبالرغم من ذلك .. فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب .. بطريق الجهل .. وليس العدل .. ومن هنا فإننا لا نجد أى مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ما وراء المادة .. أو إلى العالم غير المادى .. قد وصلت إلى نفس النتائج التى وصلت إليها مدرسة أخرى .. بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة .. أو مناقضة للمدرسة الأخرى .. ولم تصل أى مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول ..

على أن الانسان فى صلته بالعالم الخارجى يتمتع بما نسميه بالحاسة .. أو الحواس .. فأنت ككائن بشرى حين تتصل بالعالم الذى يحيط بك .. فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هى : أن يسمع الإنسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق .. هذه الحواس تفهم بواسطتها العالم الخارجى .. وتميز

بواسطتها هذا العالم .. بل ونعطيه الصفات التى نطلقها عليه .. فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر .. ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ الحلو .. ولفظ المر .. ولفظ الجيد .. ولفظ الردىء .. بحاسة الذوق إلى آخر هذا الكلام .. إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس .. ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية .. وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان .. وما هو موجود فى داخله .. هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس .. أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات .. وبعض الناس لفظ الهام خاص .. وبعض الناس ألفاظا أخرى .. ولكن المؤكد أن هذا الاحساس الذى يتم بالنسبة لما فى داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التى نتصل عن طريقها بالعالم الخارجى .. وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى .. يطلق عليها كما قلت الهام أو بديهيات .. أو احساس داخلى إلى آخر هذا ..

ولنشرح الموضوع بشىء من التفصيل .. نبدأ أولا بالأشياء التى يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التى تصله بالعالم الخارجى . فهو يرى ألوانا مختلفة .. ويسمع أصواتا مختلفة .. ويلمس أشياء مختلفة .. ويتذوق أطعمة مختلفة .. ويشم روائح مختلفة .. هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجى .. أما اتصاله بما فى داخله فيأتى مثلا عن طريق شعوره بالجوع .. إننا لا نرى الجوع .. ولا نلمسه .. ولا نشمه .. ولا نتذوقه .. ولكننا نشعر به .. وما ينطبق على الجوع .. ينطبق على الأشياء الأخرى .. مثل الحب والكره مثلا .. الإنسان يحب شخصا ما .. ويكره شخصا ما .. أو شيئا ما .. دون أن يكون لذلك سبب حسى معروف .

إذن فهناك أشياء فى داخلنا .. تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا .. هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما .. ولكننا لا نرى بحواسنا .. إن الإنسان مهما قال فى شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التى تسبب الحب .. أو التى تسبب الكراهية .. فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس .. التى يتصل الإنسان عن طريقها بالعالم الخارجى .. أو التى تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادى .. ومن هنا فإن العلماء حريصون .. حينما يتحدثون عن الحواس ، على أن يقولوا أن هذه الحواس هى التى توصل الإنسان إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور الهام .. وأشياء

أخرى فى داخله توصله إلى داخل النفس البشرية .. وتؤثر فى هذه النفس ..

والذى لا يخضع للمنطق ، نحاول أن ننكر أن فى داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التى توصله إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم .. بينما ما بداخله يطرق بلا اتصال أو احساس معين .. الحقيقة ان الالهام أو الشعور والاحساس بما فى داخل النفس البشرية يوجد قبل احساس هذه النفس بما حولها من العالم .. تلك سنة الخلق .. فالطفل الصغير مثلا يحس بالجوع والعطش .. ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه فى الاتصال بالعالم الخارجى .. وهو يحس بالحنان والدفء .. والحب والكره .. والقسوة .. والرحمة .. كل هذه الأشياء توجد فى داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى .. بينما الحواس تنتظر أسابيع أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل ..

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية .. نجد أن أقواها هو احساس الإنسان بوجود الله .. هذا الاحساس الذى قد يفتقر إلى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته .. والكون .. ووجوده .. وكل شيء من هذا النوع .. ولكن هذا الاحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى ..

.. فاسم الله مثلا لا تدركه الحواس الخمس .. لأنه أكبر من قدرتها .. ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان .. حاسة غير مرئية .. ومن هنا فإن كلمة الله التى هى فوق قدرة الحواس الخمس .. نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها .. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية .. بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما .. على هذه النفس .. بل هو معروف لها بشكل ما .. قد لا نفهمه نحن .. ولا نستطيع أن نحلله .. ولكنه معروف .. فعندما يذكر لنا أحد اسم الله .. فإن الذى يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة .. هى التى خلقت هذا العالم .. وأن هذه القوة خارج نطاق العقل .. بل وخارج نطاق الحواس ..

إذن .. كيف ندرك وجود هذه القوة .. وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا .. وهى خارج نطاق الحواس .. وخارج نطاق العقل . هنا يأتى ما فى داخل النفس .. وهو الالهام .. أو الشعور .. ليقول لنا أن هذه القوة ، رغم أنها

فوق مستوى العقل والحواس .. موجودة داخل النفس .. والنفس تفهم وتحس بوجودها .

وفى العصر القديم بدأ الفلاسفة .. خصوصا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة .. عما وراء هذا العالم المادى .. عن الخلق . وعن القوة التى أوجدت هذا العالم .. إلى آخر فلسفة اليونان القديمة عما وراء المادة .. من الذى قال لهم ان هناك شيئا وراء العالم المادى .. يجب أن يدرس .. كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة .. مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا إلا عن المادة .. ونحن هنا لا نناقش الفلسفة اليونانية .. وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها .. أو فشلت .. موضوع لا يهمنا .. وإنما الأمر الذى يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة .. وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم .. ليست أشياء حواسية .. أى لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك ..

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ .. منذ بداية خلقه .. وهو يبحث عما وراء المادة .. يبحث عنه بطرقه المختلفة .. وهو أحيانا يتخذه سبيلا آخر لاظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التى هى وراء المادة .. ولكن المهم فى هذا كله .. أن هناك شعورا داخليا فى النفس البشرية .. يقول لها ان هناك شيئا وراء الطبيعة .. ان هناك قوة ما وراء هذا العالم .. وأن هذه القوة .. هى قوة عظيمة وخارقة .. هناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية بوجود الله .. تلك القوة التى هى وراء هذا الكون .. هناك شىء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى يرونه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية .

ولكن العالم المادى نفسه الذى نعيش فيه .. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور .. لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا .. إذن لابد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادى هى التى وضعت فينا هذا التصور ..

وعلمتنا أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه .. ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة .. ولو لم يكن هناك شعور فى داخلنا .. ويحسسنا قوى بوجود هذه القوة لما بحثنا .. ولما دخل كل هذا البحث فى تاريخ البشرية ..

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها .. هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله .. أو المرحلة التى يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون .. لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره .. فالإنسان عادة لا يبدأ فى التفكير فى مثل هذه الأمور .. أو التحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل .. ليكون لديه نضج العقل الكافى لمناقشة أمر عميق كهذا .. والسؤال الذى يجب أن يطرح هنا .. هو بأى منطق عبد هؤلاء الناس الله .. قبل الوصول إلى هذه السن .. وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التى تحتاج إلى عقل ناضج .. وإلى علم ودراسة وتأمل .. حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئا وراء المادة .. ولكننا نجد العقول البسيطة التى لم تقرأ كتابا واحدا .. ولم تدرس ما هى المادة .. تعرف أن الله موجود .. وتعبده بفهم .. ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الاطلاق .. يتقبلون وجود الله . ويقومون بعبادته .. دون أن يحسوا أن هناك تناقضا بين الكون الذى يعيشون فيه .. وبين وجود الخالق سبحانه وتعالى .. بل ان أكثرهم يحس بانسجام فطرى غريب بأن الله سبحانه وتعالى .. ووجود الكون شيئان لابد منهما .. ووجودهما حقيقة داخل النفس ..

ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله .. فما الذى أوجد هذا القلق فى العالم .. وما الذى أوجد المذاهب المتضاربة .. ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله .. وبعض الناس أن ينكر وجود الله .. ما سبب هذا التضارب العجيب الذى نراه .. مادامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله ؟

الحقيقة أن الذى صنع هذا هو هوى النفس .. وكل من حاول أن يخوض فى هذا الموضوع .. وضع الخيال مكان المنطق .. ووضع التصور مكان التفكير .. ومن هنا فإن العقل البشرى فى محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته .. لم يستطع أن يقدم ما يريده .. فانطلق إلى الخيال ..

وأريد هنا أن أضرب مثلا يوضح ذلك .. إذا أقفلنا باب هذه الحجرة التى نجلس فيها .. ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذى طرق الباب .. هذه قدراتنا .. وهذه نقطة لا خلاف عليها .. فإذا بدأنا نسأل أنفسنا .. من الذى طرق الباب .. هل هو رجل أم امرأة .. قصير أم طويل .. أبيض أم أسود .. عربى أم أعجمى .. هنا يبدأ الخلاف .. لماذا ؟

لأننا لا نحكم المنطق والعقل .. ولكن نحكم الخيال ..

وهذا هو ما حدث بالنسبة لعدد من البشر .. لقد أرهقوا أنفسهم فى تخيل الله .. مع أن هذا التخيل خارج عن نطاق العقل البشرى .. ومستحيل .. ذلك لأننا لكى نتخيل شيئا ما .. فإن هذا الشىء يجب أن يشبه شيئا فى قدرات العقل .. فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معينا لإنسان .. ولا يستطيع أن يفهمك .. تقول له : إنه شىء يشبه الكرة .. وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشرى إلى داخلها .. فاستطاع الإنسان أن يتصور ذلك الشىء .. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء .. إذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذى لا يمكن أن يدركه العقل .. ولا يخضع لمنطق .. ومن هنا فإننا لو قطعنا المنطق لما اختلفنا .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه وعن عبادته .. ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك .. إلى أشياء ليست فى قدرة العقول البشرية .. فنضيع .. ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله .. لكان فى ذلك المنطق السليم .. إذن فإن ما يؤكد وجود الله .. أنه موجود فى قلوبنا بالفطرة .. وطريقة عبادة الله وطاعته .. وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود فى رسالاته التى أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين .. فالمنطق يقول أننا نتبع هذه الرسالات .. والخيال يقول أننا نبحث عما فوق قدرات العقل .. ونتوه مع أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر .. هى فى حقيقتها أكبر دليل على وجود الله ..

على أننى أريد أن أنبه إلى كلمة هامة قد وردت فى الآية الكريمة :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا فى الأرض واستخدم بدلا منها لفظ الآفاق .. ونحن نعلم أن القرآن ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى ، غاية فى الدقة وفى اختيار اللفظ الذى يطابق المعنى تماما .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه سيكشف لنا فى المستقبل آياته فى الآفاق التى لا نعرفها حتى الآن .. أى أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لنا أكثر من آية ليست فى الأرض فقط .. بل فى الآفاق المحيطة بالأرض .. ولعل وصول الإنسان للقمر .. ومحاولة وصوله للمريخ .. وكل ما يحدث من محاولة

الكشف عن أسرار الكون فى الآفاق المحيطة بالأرض .. يأتى مصداقا لهذه الآية الكريمة .. ولكن بعض الناس يغتر بالعلم .. ناسيا أو متناسيا .. أن هذا العلم قد خرج إلى البشر بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس يحاول أن يفلسف العبادات بقدر طاقة العقل .. فيأتى المستشرقون مثلا يحاولون التشكيك فى القرآن الكريم فيقولون ان الله سبحانه وتعالى قال : « **ولله المشرق والمغرب ... فأينما تولوا فثم وجه الله** » ومع ذلك يأمرنا أن نتجه إلى القبلة فى صلاتنا وهى بيت الله الحرام وتكون الصلاة باطلة إذا لم نتجه إلى القبلة .

إذا كان الله سبحانه وتعالى فى كل مكان .. فى المشرق والمغرب .. وأينما وليت وجهك فثم وجه الله .. ألا يتعارض ذلك مع وجود مكان محدد يجب أن نتوجه إليه فى الصلاة إلى الله سبحانه وتعالى .

فالقضية هنا قضية إيمانية كبرى .. أساسها الاعتراف بالألوهية .. وبأن الله سبحانه وتعالى علمه فوق كل علم .. وأنه مادمت قد آمنت بالله .. وأسلمت بهذه القوى الكبرى .. فإن الله سبحانه وتعالى بحق الألوهية يختار لك الطريق الأحسن والأصوب .. وأنت تتبع هذا الطريق لأنه جاء من الله سبحانه وتعالى .. هذه هى قضية الإيمان والتسليم .. ذلك كما قلنا ، أن القدرة هنا ليست متساوية .. والعقل ليس متساويا .. وشتان بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة العقل البشرى .. والإيمان بالله أساسه التسليم بألوهيته .. ولهذا أتى الله سبحانه وتعالى بمسألة القبلة .

مكان القبلة لا يكلف المؤمن شيئا .. أى لا يضيف عليه أعباء جديدة أو مشقة .. فالتوجه إلى المشرق أو التوجه إلى المغرب .. أو التوجه إلى اليمين أو اليسار .. كل هذا لا يكلف المؤمن مشقة فى صلاته .. فهو لا يتحمل مشقة إذا توجه إلى المغرب بدلا من المشرق .. ونفس الجهد الذى سيبذله فى التوجه إلى أى جهة .. جهد متساو .

نأتى إلى الآية الكريمة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز عن القبلة :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾

وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام جدا وهو استخدام حرف (السين) .. وحرف السين لا يستخدم إلا فى شيء مستقبلي .. أى شيء سيحدث فى المستقبل ولا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا ويكون قد قام بالفعل .. بل لابد أن يكون لم يقم به ولكن سيحدث فى المستقبل .. أى أنه لم يتم .. ولكنه قادم ..

يأتى الله فى كتابه العزيز ويقول لنبيه الكريم « **سيقول السفهاء** » .. ومعنى أنهم سيقولون أنهم لم يقولوا بعد .. ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون .. وهؤلاء الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه واذاعة الأباطيل عنه .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول « **سيقول السفهاء** » يعنى أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء . ثم يخبر نبيه والمؤمنين أن هؤلاء السفهاء سيقولون « **ما ولاهم عن قبلتهم** » ..

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى هؤلاء الكفار فى أمر اختيارى مستقبلى لم يحدث .. وقال إنهم سيقولونه .. وأن هؤلاء الذين سيرددون هذا القول هم سفهاء .. وهنا المعجزة .. فالأمر هنا اختيارى يمكن للكفار أن يفعلوه وألا يفعلوه .. ويزيد على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء .. والقرآن كلام الله المتعبد به إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ولا تبديل .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء الناس حينما سمعوا هذه الآية لم يسألوا عن تغيير القبلة وتجنبوا كل هذا .. إذن لكانوا قد طعنوا القرآن وطعنوا الدين فى قضية إيمانية كبرى ، ولكنهم جاءوا وقالوا أن محمدا عليه السلام قال فى كلام يوحى إليه من الله أنه سيأتى أناس لقبهم السفهاء .. ويسألون ما الذى ولى المسلمين عن قبلتهم .. ولكن أحدا لم يسأل ولم يثر هذا الموضوع لتعلموا جميعا أن هذا الكلام غير موحى به .. وأن هذا الدين من عند محمد .

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل .. وهو الفاعل .. يجعل على يد خصوم القرآن وخصوم محمد عليه السلام ما يثبت صدق رسالته ويؤكد حقيقتها .. فيقول سبحانه وتعالى أنه سيأتى سفهاء من الناس ويسألون عن سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام .. وأنا أنبئكم عنهم قبل أن يأتوا .. وأقول لكم ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به .. ثم أعلن أن هؤلاء الناس هم سفهاء .. ويأتى فعلا هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء به القرآن .. مثبتين صدق كلام الله .. بينما هم يحاولون أن يضلوا عن دينه .. وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق

هذا الكتاب الكريم ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين . . مثبتين له بأمر الله وهم لا يملكون فى ذلك اختيارا . .

إذن فتغيير القبلة فيه معجزة إيمانية كبرى . . على أن الله سبحانه وتعالى . . قد تحدى خصوم هذا الدين فى أمر اختيارى . . أما قوله تعالى « **قل لله المشرق والمغرب** » فهذا اعجاز آخر على أن الإسلام سينتشر فى بقاع الدنيا كلها . . وأن المصلين فى كل مكان سيتجهون اتجاهات مختلفة . . فهذا سيتجه شرقا إلى القبلة . . وهذا سيتجه غربا . . وذاك شمالا . . وذاك جنوبا . . ولو أنهم جميعا يتجهون إلى مكان واحد وهو بيت الله الحرام . . إلا إن بعضهم سيتجه شرقا وبعضهم غربا وبعضهم شمال شرق . . وفى كل الاتجاهات هم يتجهون إلى بيت الله كما أن الصلاة إذا تعذر على الإنسان معرفة القبلة ، يمكن أن تكون صحيحة باتجاهه إلى المكان الذى يعتقد انه الاتجاه إلى بيت الله . . كذلك تكون الصلاة فى الطائرة . . أو الباخرة مع أن الطائرة أو الباخرة قد تغير اتجاهها أثناء الصلاة . . والمقصود هنا بالقبلة هو وحدة الهدف للمسلمين وهو التوجه إلى بيت الله الحرام . . والمقصود أكثر هو التسليم لله سبحانه وتعالى بالألوهية . . فأنت فى الحج مثلا تقبل حجرا . . وترجم حجرا . . ولا تخضع ذلك إلى منطق العقل المحدود . . ولكن تخضعه إلى أمر الله سبحانه وتعالى . . وأن له حكمته فى كل شيء قد أمر به . . فأنت فى هذه الحالة أحد ثلاثة . . إنسان مؤمن بالله تتبع ما يقوله الله بحق الألوهية ، وبحق عبوديتك له . . ولذلك نجد الخطاب فى الطاعات بالنسبة للمؤمنين فى القرآن الكريم فيما يتعلق بالطاعات فلا يقول يا أيها الناس لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا ولكنه سبحانه وتعالى يقول « **يا أيها الذين آمنوا** » . . والخطاب هنا للمؤمن الذى يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . وهو يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى من مرضه . . ولا يناقشه فى هذا الدواء وذاك . . ولا فى النظام الذى يتبعه فى العلاج لأن المفروض أن علم الطبيب أكبر كثيرا من علم المريض . . وفرق ، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر .

أما الكافر أو غير المؤمن فهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب . . تماما كما يمزق أوامر أكبر طبيب يعالجه ويتبع هواه . . فيشقى ولكن أحدا لا يلومه لأنه ليس بعد الكفر ذنب . . وإذا لم تؤمن فافعل ما شئت . .

أما الثالث فإنسان يعبد عقله وهو يريد أن يصل بعقله إلى منزلة متساوية مع علم الله سبحانه وتعالى . . وهذا يضل ويشقى ولا يصل إلى شيء لأن علم الله لا يحيط به أحد . .

هذه قضية إيمانية كبرى . . ولقد أراح الله العقول وجنبها كثيرا من الشقاء بأن أعطاها من علمه خلال رسالاته ما يبين لها طريق الحياة الطيبة على الأرض . . ولكن بعض هذه العقول يأبى أن تشمله رحمة الله . . فيتعب نفسه ويتعب عقله ولا يصل إلى شيء . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بقضية الإيمان الكبرى وهى التسليم لله فى العبادة والتكاليف . . ولم يأت بها فى أى مجال آخر . . أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإيمان امتحانا للنفس البشرية وتسليما لله سبحانه وتعالى . . فقال الله جل جلاله إذا أردت أن تعبدنى وتؤمن بى وأنه لا إله إلا أنا فهذا هو الطريق . . افعل كذا ولا تفعل كذا . . وفى هذا اختبار لطاعتك وإيمانك . . ومدى استقرار هذا الإيمان فى القلب . . فإذا كنت آمنت بى ربا وخالقا فاعبدنى كما رسمت لك الطريق . . وأنا حين أعبد الله . . أعبده كما يريد هو أن يعبد . . ولا أضع من تشريعى أنا وعقلى طريقا أعلم به الله سبحانه وتعالى كيف يعبد . . فهو الله وأنا العبد . .

ولعل تغيير القبلة امتحان للإيمان . . فالاتجاه إلى المشرق أو المغرب لن يكلف المؤمن جهدا . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾

(الآية ١٤٣ سورة البقرة)

ولكن الذين يناقشون قضية الإيمان لا يقدمون الدليل أو الحجة على ما يقولون . . ويتجنبون مناقشة جوهر الرسالة أو الطريق الذى رسمه الله لعباده . . يأتى الواحد منهم ليقول . . إن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله . .

وهذه قضية لا يستطيع أن يثبتها . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا . . وهو لم يأت بعلمه الانكارى عن طريق يقيني . . بل أتى عن طريق هوى فى نفسه . . يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله إلى شريعة أخرى تعطيه فوق ما له من حقوق . . وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق . . على أن الذين يجادلون ويحاولون أن يخدعوا الناس . . يأتون بأشياء كثيرة لا تمت للعلم بصلة . . نجد واحدا يقول أن أصل الإنسان قرد مثلا . . هذا شيء مبنى على الظن . . فالرجل الذى قال هذا الكلام لم يشهد قردا تحول إلى إنسان ولا يستطيع أن يحول قردا إلى إنسان . . ويجب حين نبدأ المناقشة معه . . نقول له تعال : هل شهدت قردا تحول إلى إنسان ؟ سيقول لا . . هل شهدت خلق الإنسان ؟ سيقول لا . . هل شهدت خلق القرد ؟ سيقول لا . . هل تستطيع أن تحول قردا إلى إنسان ؟ سيقول لا . . إذن على أى أساس بنيت نظريتك . . سيقول بالملاحظة والتخمين . .

حينئذ نناقشه بالملاحظة والتخمين . . نظرية الارتقاء التى يدعونها مبنية على التخمين والباطل . . وإلا فليقولوا لنا . . هل يستطيع إنسان أن يميز بين عصفور وعصفور آخر . . أو بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس . . أو بين قرد وقرد . . الجواب طبعا لا . . ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر رغم أننا مخلوقون بنفس الشكل . . فكل منا له عينان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان إلى آخر ذلك . . أى أن الشكل واحد مثل الأمم الأخرى من الناحية الحيوانية . . ولكن كل إنسان له صورة تميزه عن ملايين البشر . . فأنت حين ترى إنسانا بين الملايين التى تسكن الكرة الأرضية تقول هذا على وهذا إسماعيل وهذه فاطمة . . وهذا أبى وهذه أختى إلى آخر ذلك . . من الذى ميز الإنسان عن أى إنسان آخر ؟ إذا كان الخلق قد تم بالارتقاء من الناحية الحيوانية . . من الذى وضع هذا التمييز . . الذى ميزه هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التى رسمها له . . وهو مميز فى الدنيا ليحاسب فى الآخرة . . فلو أن الإنسان غير مميز لكانت حياته على الأرض مستحيلة التنظيم . . وكان من غير الممكن أن يكون شهيدا على نفسه فى الآخرة . . ولقد وضع الله التمييز فى الإنسان باعجاز شديد حتى أن بصمة الأصبع لا تتشابه بين بلايين الخلق . . منذ بداية الدنيا إلى نهايتها . . والإنسان صورة لا تتكرر . ولعل أكبر دليل على ذلك صور وتماثيل الملوك التى تركوها فى الأرض وماتوا منذ مئات السنين . . فأنت

تستطيع أن تميز صورة رمسيس .. وكليوباترا ونابليون وغيرهم عن بقية الأحياء .. رغم أنهم ماتوا ورحلوا عن هذا العالم .. فالإنسان قائم بذاته لا يتكرر رغم تكرار الخلق .. ليكون الحساب فى الآخرة حيث يعرف الناس بصورهم .. هذا التمييز الدقيق المعجز لا يمكن أن يأتى من خلق نشأ بالارتقاء أو بالصدفة .. ولكنه اعجاز الله وقدرته .. وآياته التى وضعها فى الإنسان مصداقا لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

بل أن العقل البشرى الذى وضعه الله فى مساحة صغيرة جدا مكون من ألف مليون خلية عصبية .. هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع .. وتعطى الاشارات ..

هناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام لتعطيك طعم الحلو والمر .. وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام .. وإذا اقترب شيء محرق من جسدك صرخت الثلاثون ألف خلية فى مخك : « احترس » .. وأشعرتك بالنار التى تقترب منها .. هذا الاعجاز لا يمكن أن يتم بالارتقاء أبدا .. والطفرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات .. لا يمكن أن تكون إلا من صنع قدرة الله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى .. هى التى أخذت حفنة من تراب ثم قالت « كن » .. فكان هذا الإنسان الذى يعيش فى الأرض .. ويبنى ويعمر .. ويصعد إلى القمر .. أنظر إلى كل ما يستطيع أن يفعله البشر وما سيستطيعون أن يفعلوه فى المستقبل .. تعرف ماذا يحدث عندما تمس قدرة الله حفنة من تراب ..

على أن النفس البشرية فى أعماقها لغز حتى على صاحبها .. فيها ملكات لم يكشف عنها الله سبحانه وتعالى للإنسان حتى الآن .. فالإنسان فى كثير من الأحيان لا يفهم نفسه .. ولا يصل إلى أعماقها وأسرارها .. والسلوك البشرى لا يزال لغزا أمام معظم الباحثين .. وإذا كانت هناك قوانين تحكمنا ونعرفها .. فهناك قوانين كثيرة لا نعلم عنها شيئا تحكم معظم تصرفاتنا .. فالإنسان عندما يحب مثلا .. لا يعرف لماذا يحب فقد يكون الشخص الذى تحبه لا يستحق هذه العاطفة .. وقد يكون إنسانا بالغ السوء .. وفيه من الصفات ما تكره .. ومع

ذلك تحبه . . فالحب والكره عاطفتان لا يعرف العقل البشرى قوانين لهما . . بل أن فيهما ما هو ضد المنطق والعقل فى كثير من الأحيان . . فالنفس البشرية فى عواطفها مزيج غريب من المنطق واللامنطق . . والعقل واللاعقل . . والتضحية والأنانية . . وهى لغز وستظل لغزا . .

وإذا كانت النفس البشرية لغزا لا نستطيع أن نفهمه . . فإن فيها فطرة نحس بها جميعا . . تلك الفطرة هى صلة هذه النفس بالله . . فالله يوجد فينا بالفطرة . . يعرفه الطفل . . والشاب والكهل . . والمثقف والجاهل . . وهؤلاء جميعا قد لا يستطيعون أن يشتركوا فى استيعاب شيء واحد . . ولكنهم جميعا يفهمون كلمة الله . . وتهتز نفوسهم عند سماع كلام الله رغم الفوارق بين العقول . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات فى النفس البشرية لا نعرفها نحن . . ولكن الله سبحانه وتعالى عليم بها . . وأسعد النفوس هى النفس المطمئنة . . تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . اطمأنت إلى قوله وعدله . . وقوته وقدرته . . وعلمه ووجوده . . اطمأنت إلى أن الله حق وأن الآخرة حق . . وأن الدنيا حق . . فعملت لكل عمله . . واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح . . واطمأنت إلى أن قضاء الله خير . . ما أعطى خير . . وما منع خير . . فالمنع رحمة لأنه بعد عن الشر أو حفظ منه . .

قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير فى المنع وخير فى العطاء . . وهى تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وأن الله يحب عباده المؤمنين . . وأنه رحيم فى قضائه مع النفس المؤمنة . . وأنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله . . ولا جبار يعلو على قدرة الله . . ولا مفسد يفلت من عقاب الله . .

ولكننا فى كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظار آخر . . فنحن نرى فيما يحدث اجحافا وظلما . . ونحس بأن المظالم تملأ الدنيا . . ونسأل أين عدل الله . . ولكننا فى الحقيقة تضيق صدورنا لأن جزءا من الحكمة مخفى عنا . ولقد شاءت رحمة الله أن يفسر ذلك لنا . . لنرى الفرق فى كثير من الأحيان بين الظاهر والحقيقة . . وهذا موضوع فصلنا القادم عن خواطرى حول سورة الكهف .

الفصل الثالث

خواطر حول سورة الكهف

عندما نتحدث عن معانى القرآن الكريم . . فإننا فى كثير من الأحيان يجب أن نتنبه إلى الحكمة من بعض الآيات التى نقرؤها . . ذلك أننا نمر أحيانا على أشياء دون أن نتنبه إلى المعنى الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها . . وأمرنا بأن نتدبر فيه . .

على أن ذلك لا يعنى أن نحاول تحميل القرآن أكثر من معانيه . . وبعض العلماء اندفاعا مع العصر . . أو محاولة فى اثبات اعجاز القرآن . . يقومون بربط بعض النظريات العلمية التى تذاع والتى تبهر الناس . . يحاولون ربط هذه النظريات ببعض آيات القرآن الكريم . .

والخطورة هنا أن النظرية العلمية تحتمل الخطأ والصواب . . فماذا يمكن أن يحدث إذا حملنا آيات القرآن ببعض النظريات . . ثم تبين بعد ذلك أن هذه النظريات غير صحيحة . . ماذا يكون الموقف . . إن الحماس لا يجب أن يأخذنا إلى الحد الذى نحاول فيه أن نجد فى القرآن الكريم ما يتوافق مع نظريات العلم الحديث . .

والذى أحب أن أبينه . . أن القرآن الكريم . . كتاب دين وليس كتاب علم . . علم أرضى . . بمعنى أنه لا يشرح لنا نظريات الهندسة . . أو قوانين الطب أو غير ذلك . . بل إن الله سبحانه وتعالى فى أول كتابه العزيز قد حدد الهدف . . وقال فى أول سورة البقرة :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ومن هنا وفى أولى آيات سورة البقرة . . أولى سور القرآن . . حدد الله سبحانه وتعالى هدف هذا الكتاب وأنه للهداية لمن آمن . .

كانت هذه مقدمة لابد منها . . عن خواطر حول سورة الكهف . .

فإن الذين يبحثون فى القرآن الكريم . . يجب أن يتأملوا فى كلام الله سبحانه وتعالى . . فالله سبحانه وتعالى قد وضع فى آياته من الأسرار ما يحتاج منا إلى التأمل وعدم المرور عليها مرورا عابرا . . وإذا كنت سأتحدث اليوم عن خواطرى

عن سورة الكهف . . فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع فى هذه السورة أشياء كثيرة يجب أن يقف عندها العقل . . وقبل أن نبدأ الحديث عن بعض آيات سورة الكهف . . فإننا نتوقف كثيرا عند اسم السورة . . الاسم هو سورة الكهف . . ما هو الكهف . . الكهف كما نعرفه هو فجوة داخلة فى الجبل . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق فى أماكن كثيرة كهوفا . . لنعرف ونحس ونرى ونشاهد الكهف . .

إذن فالكهف هو فجوة داخلة فى الجبل . . هل تستطيع وأنت خارج هذه الفجوة أن تعرف ما بداخلها . . الجواب طبعا لا . . لابد أن تبحث قليلا وتكتشف حتى تصل إلى ما هو داخل هذا الكهف وتعرفه معرفة حقيقية . . ومن هنا فإن اسم السورة لا يجب أن يمر علينا دون أن نفكر فيه . . ونعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جاء فيها بكهوف معنوية . . يعنى أشياء تنبئنا بما يستتر هنا من حقائق فى الكون . . وفى أحداثه . . فمثلا نجد أن قصة موسى عليه السلام مع الخضر . . أو مع الإنسان الذى آتاه الله العلم . . هى قصة المراد منها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر . . فاغراق السفينة التى يملكها مساكين كان عملا إذا نظرنا إلى ظاهره شرا . . ولكن حقيقته كان خيرا لأنه انقذ سفينة المساكين من ملك ظالم . . كان سيغتصبها . . وقتل الطفل ظاهره شر . . ولكن باطنه هو حفظ للأم والأب الصالحين . . رزقهما بطفل تقى . . يحفظ لهما صلاحهما . . ولا يرهقهما طغيانا وكفرا . . وبناء السور لأهل قرية من اللئام الذين رفضوا أن يطعموا شخصين غريبين جائعين . . هو عمل لا يتفق مع منطق الخير . . ولكن الحقيقة أن هذا السور قد بنى ليحفظ كنزا لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحا وتوفى . . ليحفظ لهذين الطفلين كنزا تحت هذا الجدار . . حتى يبلغ الطفلان أشدهما ويستخرجا كنزهما . . ولو تهدم الجدار لأخذ أصحاب القرية من اللئام الكنز . . وحرم الطفلان منه . .

على أننى سأتحدث عن هذا بالتفصيل . . فتلك الآيات لا يمكن تناولها فى سطور بسيطة كهذه . . ولكننى أردت أن أشير إليها لسبب هام وهو معنى الكهف . . فالله يريد أن يخبرنا أيضا ألا نأخذ الأشياء بظاهر الأمور . . فالذى يبدو لنا شرا وقد يكون فى قضاء الله خيرا والعكس صحيح . .

معنى الكهف

والكهف الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة . . كان كهفا حسيا أيضا . . أى كهف حقيقى . . التجأ إليه فتية مؤمنون . . وكان هذا الكهف سترا لحق إيمانى . . خائف على نفسه من طغيان باطل كافر . . على أننى سأبدأ فى خواطرى بثلاثة أشياء تبين المعنى . . وهذه الأشياء الثلاثة . . كانت مستورة عن علم الإنسان وقت نزول القرآن . . ثم كشفها الله للعلم البشرى بعد نزول القرآن . .

فى قصة الاسكندر ذى القرنين . . ونحن لن ندخل هنا فى مناقشة حول من هو الاسكندر وتحديد شخصيته إلى آخر هذا . . فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص . . أن يحدد شخص بذاته لأن التشخيص قد يفسد القضية . . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلا . . ومن هو فرعون موسى . . ومن هو قارون . . إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن . . فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان . . وهى قصص مضروبة لكل عصر . . والعبرة هنا تأتى بالشيوع . . أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة . . فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا . .

فعندما يضرب الله مثلا بالذين كفروا . . امرأة نوح . . وامرأة لوط . . فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط . . وإنما يعنى كل إمرأة يكون زوجها صالحا وتخونه . . وعندما يضرب المثل بإمرأة فرعون . . فإنما يعنى كل إمرأة مؤمنة وزوجها كافر . . وهذا يتكرر فى كل عصر . . والحادثة الوحيدة التى لن تتكرر هى قصة مريم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ومريم ابنة عمران » أى أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . .

إذن فالتشخيص فى القرآن الكريم . . ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص . . ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذى القرنين . . نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شىء . . وأتاه من كل شىء سببا . . ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذى القرنين . . ومن هو إلى آخر ما يراد به عن البعد عن الحكمة . . إلى فرعيات ليست مطلوبة . .

نأتى إلى آية هامة فى قصة ذى القرنين .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾

وتتوقف القصة عند ذلك وتنتقل إلى شيء آخر . . هنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية . . سوى أن ذا القرنين قد وصل إلى قوم لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترا . .

بعض الناس يمر على هذه الآية دون أن يتنبه إليها . . ولكن العقل يجب أن يقف هنا ليسأل . . ما هى الحكمة فى هذه الآية . . فإذا فكرنا فيها . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هناك قوما لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . .

ما معنى هذا الكلام . . ما هو المقصود من أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . . هل المفروض أن هذه الأرض قاحلة . . ليس فيها شجر يستر الناس عن الشمس . . أم المقصود أنه ليس لديهم مساكن يجلسون فيها لتسترهم من الشمس . . أم المفروض أنهم عرايا مثلا . . ليس عندهم ملابس تقيهم الشمس .

كل هذا قد يخطر على العقل البشرى . . ولكن الحقيقة أن كل هذه الأشياء لا تستر الشمس فالشمس موجودة خارج المنزل . . ولو جلست فيه . . كما أنها موجودة خارج ظل الشجرة . . ولو جلست تحتها . . كما أنها موجودة حتى ولو ارتديت الملابس التى تقيك من الشمس . . إذن كل هذا قد يبعد الشمس عنك . . ولكنه لا يسترها . . أى لا يخفيها . .

ولكن ما هو الذى يستر الشمس . . الذى يجعلها تختفى . . تغيب . . تذهب . . ما الذى يستر الشمس فى أى وضع من الأوضاع . . بحيث لا تجدها . . إنه الظلام . . إنه الليل . . الليل هو الذى يستر الشمس . . فلا تجد أشعتها فى أى مكان . . ولا تنظرها أينما كنت . . وكيفما كنت . . ولو صعدت لأعلى مكان . . ولو خرجت إلى الشارع . . فإنك لا ترى الشمس لأنها مستورة عنك بالظلام . .

هنا يجب أن نتوقف قليلا . . الله سبحانه وتعالى فى الآية الأولى وضع لنا القوانين التى يجب أن يسير عليها الممكن فى الأرض . . وقال لنا إننا يجب أن نضيف إلى الأسباب التى يعطيها الله سبحانه وتعالى أو يمكننا منها . . ثم بعد ذلك عندما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد يأجوج ومأجوج أنهم قوم مفسدون فى الأرض . . ولكنه فى الآية الكريمة :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

ثم يزد الله سبحانه وتعالى شيئا مما قام به ذو القرنين عندما بلغ هذه الأرض . . ولما كان القرآن الكريم كل حرف فيه بميزان دقيق . . فلابد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا شيئا فى هذه الآية الكريمة وحدها . . إذن ما هى الحكمة المستورة فى هذه الآية الكريمة . . ؟

بعض الناس يمر على هذه الآية ولا يسأل نفسه هذا السؤال . . الله سبحانه وتعالى جعل لذى القرنين عملا حين بلغ مغرب الشمس . . وجعل له عملا حين بلغ السدين . . ولكن فى هذه الآية الكريمة لم يجعل له عملا . . إذن لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى :

« لم نجعل لهم من دونها سترا »

ومن هنا فإن معنى الآية الكريمة :

« لم نجعل لهم من دونها سترا » . .

أن الاسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة . . أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية . . بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . . وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم تغيب عنها الشمس ٦ شهور فى العام . . فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ٦ شهور . . وعن القطب الجنوبى مدة ٦

شهور . . فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض . . وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة . .

الأذن . . والحياة . . والبعث

على أن لنا عودة فى الحديث عن ذى القرنين والآيات التى ذكرت عنه فى القرآن الكريم . . ولكن فلنبدأ الخواطر حول سورة الكهف من أولها . .

كما قلت . . الكهف فجوة داخلة فى الجبل . . لابد أن نبحث قليلا ونكتشف ما هو داخل هذا الكهف ونعرفه . . والكهف الحسى الذى ذكره الله أولا فى السورة هو الفتية الذين آمنوا بربهم . . هؤلاء الفتية كانوا مؤمنين . . خافوا على أنفسهم من طغيان باطل كافر . . فانتقلوا إلى كهف يختبئون فيه حتى لا يدفعهم هؤلاء الكفار إلى عدم الإيمان ويعودوا بهم إلى الكفر . والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا . . إنه مهما ظهر الباطل وطغى . . فإن الإيمان موجود فى الدنيا . . قد يكون مستورا عنا . . ولكنه موجود لا ينتهى أبدا .

هذه هى الآيات الأولى من السورة . . ولكننا عندما نتأمل . . فإننا نجد فى هذه الآيات عددا من المعجزات القرآنية . . التى يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بها . . وأن يوجه نظرنا إليها . .

يقول الله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

وهذه هى المعجزة الأولى فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الشىء الذى لا ينام فى الحواس هو الأذن . . أنت حين تغمض عينيك لا ترى . . ولكنك لا تستطيع أن تغمض أذنيك أبدا . . الأذن تظل مفتوحة تؤدى وظيفتها سواء أردت أو لم ترد . . إذا كنت لا تريد أن ترى شخصا . . فأنت تغمض عينيك فلا تراه أو تشيح عنه بوجهك . . ولكنك إذا لم ترد أن تسمع صوت نفس الشخص . . فأنت لا تستطيع أن تغمض أذنيك . .

وإذا كان هناك إنسان نائم . . فقد تمر بيدك قرب عينيه فلا يستيقظ . . ولكنك متى أحدثت صوتا بجانب أذنه فإنه يستيقظ على الفور . . فالله سبحانه

وتعالى يريد أن يخبرنا أولا أن الأذن لا تنام أبدا .. ثانيا إنها أداة الاستدعاء ثالثا : إنك لو فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا .. فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة .. ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين طويلة .. دون أن يحسوا بما حولهم .. فإنه لم يأخذ أبصارهم .. ولم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلا .. كحركة قلب النائم .. ولكنه ضرب على آذانهم وكان هذا كافيا جدا .. ليفصل بينهم وبين الدنيا تماما طوال فترة نومهم .. والأذن هى أداة الاستدعاء فى الآخرة ..

ثم ننتقل إلى آية أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾

العقل البشرى يجب أن يتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هذاالكلام .. وما هو الداعى لأن توضع هذه الألفاظ فى الآية .. مع أنها لو حذفت لا تغير من السياق كثيرا .. كما قلت وأقول دائما .. إن لكل كلمة فى القرآن الكريم معنى معجزا .. بعضه وصل إليه العقل .. والبعض الآخر سيصل إليه العقل بعد سنوات طويلة .. إذا تأملنا فى الآية الكريمة .

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

نجد أن الله سبحانه وتعالى سيبعث هؤلاء الفتية كآية من آياته .. أى سيعيدهم مرة أخرى إلى حياة البشر .. ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرقاد الطويل .. فنجد أننا الآن إذا أصيب أحدنا بمرض يتطلب رقادا طويلا .. فإن الأطباء يحذرون من أن المريض يجب أن يقلب يمينا ويسارا حتى لا يصاب جسمه

بالقروح .. أو تحدث له انسدادات فى الدورة الدموية فى القدمين .. أو فى الجزء الأسفل من الجسم ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الرقاد الطويل يجب أن يتم معه تقليب للإنسان الراقد .. بحيث لا يرقد على جزء واحد من جسده فترة طويلة .. فيصاب بأضرار بالغة يعرفها الطب جيدا هذه الأيام .. كشف عنهاالله سبحانه وتعالى من علمه للناس فعرفها لهم .

ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى .. وقبل أن يكتشف العالم البشرى ذلك بسنوات طويلة وضع هذه الآية الكريمة ليخبرنا بأنه مادام هناك رقاد طويل فيجب أن يقلب الإنسان يمينا ويسارا .. وأن يكون هذا أساسا فى المحافظة على صحته .. أو على الأقل فى منع أضرار بالغة عنه ..

المشيئة لله

ونأتى للآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة كبيرة .. لماذا : .. لأننى أنا أقول انى سأفعل كذا غدا .. وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا .. والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى .. إن شاء فعل وإن شاء لا يفعل .. ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل إلا بمشيئة الله .. ولأوضح ذلك قليلا .. الذى يريد أن يفعل شيئا .. يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل .. ويجب أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل .. ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل .. بمعنى أننى إذا قلت إننى سأذهب لمقابلة فلان غدا .. وهذا هو أبسط الأشياء فيها يقول الإنسان إنه سيفعله .. فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة .. حتى تتم هذه المقابلة .. وأنا لا أملك هذه القدرة .. فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة .. وليس يوما كاملا ..

إذن قولى إننى سأقابل فلانا غدا قول خاطىء . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غدا على قيد الحياة أم لا . . الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . إن شاء أبقاها . . وان شاء أخذها . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة . . فأنا قد أكون موجودا غدا . . ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص . . قد أمرض فجأة . . أو قد يأتينى شىء مفاجىء عاجل . . أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلا . . أو يحدث أى شىء آخر . . المهم أننى قد أكون على قيد الحياة . . ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة . . بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها . .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية . . وكنت أنا على قيد الحياة . . وبصحة جيدة . . وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة . . فهناك الطرف الآخر . . وهو الشخص الذى سأقابله . . وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب . . يتعطل فى الطريق . . يمرض . . يأتيه عمل مفاجىء . . يحدث له أى شىء مفاجىء يمنعه من حضور المقابلة . . كأن تتعطل سيارته . . أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة . . أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق . . أو فى المنزل . .

المهم فى هذا كله . . اننى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول انى سأفعل كذا . . ولكن من الذى يملك القدرة . . هو الله سبحانه وتعالى . . فهو الذى يقول كن فيكون . . حى لا يموت . . باق لا يفنى . . لا يستطيع أحد أن يشغله عن شىء . . أو أن يمنع فعله أو قضاءه . . فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون . . لماذا . . لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف . . أو تمنع . . أو تؤجل . . أو تؤخر . . أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى . .

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده . . أما نحن جميعا كلنا . . كل البشر فعالون لما يشاء الله . . فمادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم . . لأن الله وحده هو الفعال . . ومادام العمل لا يدخل فى المشيئة فهو لن يتم . . لأن الله وحده هو الفعال . .

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله وارادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال ..

والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك ..

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون لك .. وسخره من أجلك .. ولكى تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله فى حفنة من تراب .. وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله ..

إن الله يريد إن يذكرنا بنعمه وأن نعلم دائما أن الفضل منه .. وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .. وأن الذى منح يستطيع أن يمنع .. وهذه مسألة هامة جدا فى سلوكيات الحياة .. لماذا ؟ .. لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم ويفتك بالضعفاء .. ويطغى فى الأرض .. أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ .. والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء .. فإن خشية الله تدخل فى قلبه فتجعله يراجع نفسه فلا يبغى ولا يظلم ويخشى الله فى كل عمل يعمله .. وفى هذا صلاح الكون كله ..

الفضل لله وحده

ثم بعد ذلك تأتى الآية الكريمة فى استكمال الحوار .

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

هذه الآية ترد الشيء إلى أصله .. فالرجل هنا يذكره بقدرة الله التى نسيها .. ويقول له أنت نسيت الذى وهب .. وظننت أن ذلك من فعلك أنت .. وأن الأسباب هى التى أعطتك كل هذا .. ولكن الله هو الواهب الحقيقى .. وهنا يجب أن نتنبه إلى الكهف المعنوى الذى تحدثنا عنه فى أول الكلام فالعطاء هنا مستور داخل كهف الحقيقة .. المعطى هو الله سبحانه وتعالى .. ولكن هذه الحقيقة مسورة بالأسباب .. ومن هنا نجد بعض الناس يقول : إنما أوتيته على علم عندى .. والبعض الآخر يقول أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبهنا إلى الحقيقة فى كهف ظاهره الأسباب .. وباطنه قدرة الله سبحانه وتعالى ..

فماذا قال الله سبحانه وتعالى على لسان الرجل الأقل مالا وولدا .. قال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يأتى بعاملين أساسيين فى النعمة التى يتمتع بها ذلك العبد الذى اغتر بماله وبقدرته .. فقال :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾

لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى هذين العاملين . . ولم يذكر أية عوامل أخرى . . كأن يقول له مثلا ربما الله يستطيع أن ينهى أجلك غدا . . أو يستطيع أن يصيبك بمرض فلا تستطيع الحركة . . أو أى نوع آخر من أنواع النعم التى يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يسلبها من هذا الرجل الذى أصابه الغرور ونسى نعمة الله . .

السبب الأساسى فى ذلك أن هاتين النعمتين بالذات . . هما سبب وجود هذه الجنة . . أو الأرض الكثيرة الثمر . . الكثيرة الخير . . وهذان العاملان لا دخل لهما فى قدرة الرجل نفسه على العمل والعطاء . . حتى يمكن أن يقال إنه هو الذى استطاع أن يهب لنفسه هذه الأرض الكثيرة الخير . . والله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكرنا بأسباب قد تكون خافية علينا . . ولكنها الأساس فى الخير كله . . فالماء الذى يسقى منه الرجل هذه الجنة الصغيرة . . هذا الماء لم يخلقه هو . . ولن يستطيع أن يخلقه . . بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ساقه إليه . . ذلك أن العالم كله الآن وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم عاجز عن أن يوفر كوب ماء لشخص واحد . . وأمامنا المثل الحى . . هذه المساحات الشاسعة من الصحراء . . لو أن الإنسان يستطيع بعلمه أن يخلق الماء . . لخلق لها الماء الذى يحولها من صحراء قاحلة إلى جنات وافرة الظلال والثمر .

فالأساس هنا فى هذه الجنة وفى الزرع والثمر الموجود فيها هو قدرة الله سبحانه وتعالى الذى وفر لها الماء . . وهذه ليست قدرة أى بشر . . ولا يستطيع بشر أن يدعيها حتى يومنا هذا . . فالعلم البشرى بكل قدراته عاجز عن أن يخلق نهراً وسط صحراء . . ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى خلقت مئات الألوف من الأنهار . . التى تسقى كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان وزرع . . وتسقيه بما يحتاج . . وأحيانا بأكثر من حاجته . .

إذن العامل الأساسى فى وجود الخير كله هو الماء . . هو توافر الماء الذى خلقه الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكر الإنسان الذى أصابه الغرور فى نفسه . . بأن الأساس فى كل هذا هو الماء الذى وفرته لك والذى لا تستطيع أنت أن توفره . . ويقول سبحانه وتعالى .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾

والله سبحانه وتعالى يحفظ هذا الزرع من كل ما يهلكه من أنواء وعواصف وصواعق قد تقضى عليه .. وهذا ليس فى قدرة البشر .. بل هو ارادة الله سبحانه وتعالى .. يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء .. ومن هنا قوله تعالى :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾

الله .. هو الفعال

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى حقيقتين مستورتين عنا فى هذه النعمة .. وهاتان الحقيقتان هما الأساس .. الحقيقة الأولى أن الله سبحانه وتعالى قد أعد هذه الجنة بالماء أساس الحياة والزرع فيها .. والحقيقة الثانية قد حفظها وبارك فيها .. وكلا الأمرين ليس للبشر فيهما مشاركة .. بحيث يستطيع أن يجادل ويقول أنا فعلت وفعلت .. فالإنسان مثلا حين يزرع .. يضع الحب فى الأرض ويرعاه .. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هى التى تجعل هذا الحب فى الأرض ينمو ويثمر .. ولكن هنا مشاركة بشريه ظاهرية قد تجعل البشر يقول أنا الذى زرعت .. ولكن الله سبحانه وتعالى أتى بحقيقتين لا يستطيع أى إنسان فيهما أن يقول أنا شاركت .. الحقيقة الأولى توفير الماء الذى يكفى لاعطاء الحياة لهذه الأرض وجعلها صالحة للزرع .. وبدون هذا الماء لا يمكن أن توجد مثل هذه الجنة .. والحقيقة الثانية أنه حفظها وبارك فيها .. وكلتا الحقيقتين كما قلت لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيهما أو يدعى أنه هو الذى أوجدهما .. وهكذا .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾

ولكن لماذا أحيط بثمره ؟ حتى يعرف أنه لا حول له ولا قوة .. وإن المال والنفر اللذين اعتز بهما من دون الله لا يملكان له نفعا ولا ضرا . ومن هنا فإنه أصبح ليجد الجنة خاوية على عروشها .. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين له أن

من يعتز بهم من دون الله لن يستطيعوا أن يوقفوا قضاء الله . . وأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الجنة بقدرته هو . . فلما كفر بالنعمة . . واغتر بالمال والولد . . زالت عنه وذهبت . . والتفت حوله فوجد الآية الكريمة :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

أى أنه بحث عن أولئك الذين كان يعتز بهم فلم يجد أحدا يستطيع أن ينصره أمام قدرة الله . . وما كان منتصرا أى أنه حتى لو حاول ذلك بما له من مال أو نفر فلن يكتب له النصر . . .

هنا تأتى لحظة الندم فيقول :

﴿ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

فقد أحس عندما ذهبت النعمة أن الواهب هو الله وحده وهو الذى أخذها . . ولكنه كان قبل ذلك يقول . . ان المال والنفر الذين عنده هم الذين يحفظون هذه النعمة من الزوال ويرعونها . . وتمضى هذه الآية الكريمة . . بعد أن ضرب الله هذا المثل للرجل الذى أنعم عليه . . فأشرك غير الله فى هذه النعمة . . فأخذ الله منه ذلك . إن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك . . فالعمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى . . يتقبله الله ، والذى يقصد به ارضاء بشر ما . . ويفسره صاحبه على أنه تقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . فالله غنى عنه . . وكذلك النعم . .

والله يضرب لنا هذا المثل . . حتى نتخذ الطريق السليم فى الحياة . . فلا أدفع مبلغا من المال مثلا لعمل خير ويكون القصد الحقيقى من ذلك هو ارضاء شخص ما . . أو قضاء مصلحة دنيوية . . أو الحصول على سمعة أو شهرة . . أو أى غرض دنيوى آخر . . فإذا أتيت إلى حفل ما . . وقمت أعلن تبرعى بمبلغ من المال حتى يقال عنى إننى رجل خير ورجل بر وإحسان فإنى لا أفعل ذلك لوجه الله . . وإنما أشرك فى ذلك ما أبتغيه من سمعة الدنيا . . والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . . وإذا قدمت مبلغا من المال وأنا

أبتغى مرضاة الله . . فالله أغنى الشركاء عن أن يشرك معه أحدا فى عمل يقصد به وجهه . .

ومن هنا . . فإن الذى فعله صاحب الجنة فى أنه نسب الفضل إلى نفسه . . وأنكر نعمة الله أو الذى يفعله بعض الناس فى أنه يريد أن يحقق مصلحة دنيوية بعمل ظاهره الخير . . كل هذا يخبرنا الله سبحانه أنه لا يتقبله . . العمل الصالح لله وحده . . أما إذا كان عملا صالحا نقصد به مصلحة دنيوية وفى نفس الوقت يقال إنه لله . . فالله غنى عنه . .

حديث قدسـى

●● قال الله عز وجل لآدم : يا آدم انى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها ؟ قال : وما لى فيها يارب ؟ قال : إن حملتها أجرت وأن ضيعتها عذبت . قال : فقد حملتها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها .

حديث قدسـى

●● ينزل الله تبارك وتعالى فى آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فينظر الله فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره ، فيمحو ما يشاء وينظر ، ثم ينظر فى الساعة الثانية فى جنة عدن وهى مسكنه الذى لا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم يره أحد ولا خطر على قلب بشر ، ثم يهبط فى آخر ساعة من الليل فيقول : ألا من مستغفر يستغفرنى ، فاغفر له ؟ ألا سائل يسألنى ، فأعطيه ؟ ألا داع يدعونى ، فأستجيب له ؟ حتى يطلع الفجر ، وذلك قول الله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) فيشهده الله وملائكة الليل والنهار . .

الفصل الرابع

علم الله .. وعلم الأرض

وقبل أن نترك الحوار حول سورة الكهف .. يجب أن نتعرض إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وقصة ذى القرنين .

واسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال .. إنما هو عبد علمه الله من لدنه علما .. والله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة .. ولا يريدنا أن ندخل فى مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة .. ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها .. وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة .. ولذلك لم يعرف الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران .. وعيسى ابن مريم .. لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما .. ولذلك كان التعريف هنا واجبا .. أما فرعون مصر وذو القرنين .. وفرعون موسى .. وكل ذلك تركه الله سبحانه وتعالى بلا تعريف .. حتى لا ندخل فى جدل حول الأسماء .. ونترك الحكمة .. ففرعون هو كل رجل يريد أن يعبد فى الأرض .. وذو القرنين هو كل من أعطاه الله الأسباب للأشياء .. إلى آخر ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى **« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »** وقول الله سبحانه وتعالى هذا كهف يستر حقيقة .. فموسى رسول الله .. والرسول هو المبلغ عن الله .. ومن هنا فالمفروض أن كل علم يأتى عن طريقه .. لأنه مكلف بابلاغ الرسالة ..

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه ليس على مشيئته قيود أو حدود .. وهو يفعل ما يشاء ويختار .. ومن هنا فإنه قد يختار عبدا من عباده . يؤتيه علما لم يؤته لأحد من رسله .. وهذا فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .. مشيئة الله ليس عليها قيود .. وليس لها حدود ..

ثم نأتى بعد ذلك إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام .. وفيها عدة حقائق فى كهوف .. ولكن الكهوف التى تستر الحقيقة تأتى أولا .. ثم بعد ذلك تأتى الحقائق .. ومن هنا فإن موسى عليه السلام عندما يرى الكهوف .. ولا يرى الحقائق التى تسترها .. لا يستطيع الصبر على ذلك .. ومن هنا يقول له العبد الصالح **« إنك لن تستطيع معى صبرا »** ثم يضيف **« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا »** .

العبد الصالح حكم بعلمه الذى علمه الله له .. وموسى عليه السلام حكم بما يعلمه .. ومن هنا اصطدم الحكمان .. فالعبد الصالح كان يقوم بعمل

خير ، **حقيقته مستورة فى كهف ظاهره الشر** . . وموسى كان يرى فى هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط ويحكم به . . لأنه لا يعلم باطن الأمور . . وفرق كبير بين الظاهر والحقيقة . . فالظاهر يراه الناس جميعا . . أما الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلمها . . قد يؤدى الإنسان الصلاة ليقال عنه إنه رجل صالح . . بينما هو يعصى الله فى كل أمور الدنيا . . وقد يصليها رجل يملأ قلبه الإيمان . . كلاهما أمامنا يصلى . . ولكن الله يعلم الذى يصلى خشية له واتباعا لدينه . . والذى يصلى ليقال عنه انه رجل صالح . . ثم يفعل كل ما نهى الله عنه . .

ومثل ذلك الاحسان . . قد يحسن الإنسان وسط جمع من الناس لينال هدفا دنيويا . . وقد يبتغى فضل الله بحيث لا تعرف شماله ماذا أعطت يمينه . . كلاهما أمامنا يحسن . . ولكن الجزاء هنا مختلف . .

ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة فى الحياة . . الحياة كلها كهوف تخفى حقائق . . إنسان يقول إنه يريد لك الخير بينما هو يضمر الشر . . وآخر يسعى لإيذائك ويقسم أنه يسعى لفائدتك إلى آخر ذلك . .

عندما يصطدم الحكمان

هنا عندما يصطدم الحكمان . . يقول موسى عليه السلام « **ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** » . . ولكن الذى يستطيع أن يصبر هو المكلف بهذه الأعمال الذى يعرف حكمها . . والذى تلقى الأمر من الله سبحانه وتعالى . . أما من سترت عنه هذه الحكمة فإنه لا يستطيع أن يصبر . . ومن هنا يأخذ العبد الصالح عهدا على موسى فيقول له . . « **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** » .

وفى هذا حكمة أنه ما لم يعلم الله سبحانه وتعالى الإنسان الحقائق المستورة وراء الأفعال الظاهرية التى تحدث أمامه فإنه يضيق صدره ولا يستطيع الصبر . . وموسى عليه السلام رسول الله وكليمه ولكنه لم يستطع أن يصبر على أفعال أخفى الله سبحانه وتعالى عنه حكمتها . فإذا كان هذا قد حدث لموسى عليه السلام . . فنحن كبشر فى كثير من الأحيان تضيق صدورنا بما هو ظاهر أمامنا . . فنرى رجلا يعصى الله سبحانه وتعالى ومع ذلك يوسع الله له فى رزقه . . ورجلا آخر يسعى فى الشر . . ومع ذلك يمكنه الله سبحانه وتعالى من أمر من الأمور . .

ورجل ثالث يسعى فى الأرض فسادا . . فلا يخسف الله به الأرض . . بل يبدو ظاهريا للناس أنه يستطيع أن يفعل ما يريد . .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . إن هذا الذى ترونه أمامكم هو الكهوف الظاهرية للحقائق التى أسترها . . والتى يصل إليها علمى وعلم من أعلمه . .

وبذلك لا تحكموا بالظاهر . . تحسبون أن الخير الظاهرى هو خير حقيقى . . وأن الشر الظاهرى هو شر حقيقى . . فقد يحدث لك شىء تعتقد أنه شر . . ثم تمضى الأيام ويظهر ما هو مستور عنك . . فتجد أنه كان فيه الخير العميم . . وإنك لعدم ادراكك وعلمك قد حسبته شرا وقت حدوثه . . وقد يحدث لك خير وتفرح به . . ثم بعد ذلك يظهر أنه شر كنت تتمنى عدم حدوثه . .

والأمثلة فى حياة كل منا كثيرة . . فكلنا ضاعت منه فرص اعتقد أنها خير . . وحزن على ضياعها . . ثم جاءت الأحداث التالية لتمنحه فرصا أحسن . . وكانت حكمة الله أن يمنع عنه شيئا ليعطيه ما هو خير منه . . كذلك ما نعتقده شرا فى يوم من الأيام يصبح فجأة خيرا بعد أن تتكشف لنا الأحداث وتظهر الحكمة . . حامدين الله سبحانه وتعالى على أن ذلك حدث . . وكلنا لو استعرض شريط حياته لوجد عشرات الأحداث التى تبين له هذه الحكمة . .

ولكننا مع ذلك لا نطيق صبرا . . حين تقع الأحداث رغم علمنا بهذه الحقيقة . . لأنه مادامت الحكمة خافية عنا فإن الصدور تضيق والصبر يصبح بلا طاقة . . ولكن المؤمن هو الذى يعلم أن الخير فيما اختاره الله . . والشر فيما منعه وأبعده . .

نعود بعد ذلك إلى قصة موسى والرجل الصالح . . حين دخلت التجربة فى الحركة الفعلية فى الأحداث التى نعيشها . . ماذا جرى . . الكلام النظرى شىء . . وعندما تحدث الأفعال شىء آخر . . عندما تحدث الأفعال لا يملك الإنسان نفسه وينسى كل شىء . . وينفعل مع الأشياء بظاهريتها . . وذلك أمر يجب أن نتنبه إليه . . هناك فرق فى التأثير داخل النفس البشرية . . بين كلام يقال . . من السهل أن يصبر عليه الإنسان . . وبين الوقائع التى تحدث . . فإن النفس تنفعل بالوقائع وفى لحظة الانفعال تنسى أشياء كثيرة . .

ركب موسى والعبد الصالح سفينة . . والسفينة مملوكة لمساكين . . وموسى كنبى فيه الخير . . يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوصى برعاية المساكين . . ومن

هنا فإن من واجبه أن يعاونهم ويقدم لهم كل ما يحتاجونه ابتغاء مرضاة الله .. يركب موسى والعبد الصالح السفينة .. فإذا بالعبد الصالح بدلا من أن يقدم العون لهؤلاء المساكين أو يقدم لهم المساعدة .. أو حتى يمنع عنهم الأذى وهو أقل ما يجب .. إذا بالعبد الصالح يخرق السفينة ليعيبها ولا يطيق موسى صبرا على ذلك ..

كيف يقوم العبد الصالح بهذا العمل .. كيف يخرق السفينة ويعيبها حتى لا يستطيع هؤلاء المساكين أن يحصلوا على رزقهم بواسطتها .. أو حتى يقطعوا من قوتهم لاصلاحها .. وفرق بين سفينة سليمة .. وسفينة معيبة فى طلب الرزق وفى خدمة هؤلاء المساكين ..

ولا يطيق موسى صبرا .. فيحتج ويقول **« أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا »** .. وهنا يذكره العبد الصالح بعهده ويقول له **« ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا »** .. فيتنبه موسى عليه السلام إلى ما فعل ويقول **« لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا »** ..

لو أوتى العلم

ولو أن موسى عليه السلام أوتى علم العبد الصالح لفعل ما فعله العبد الصالح فى السفينة .. ولكنه هنا حجب عنه العلم .. فضاق صدره بظاهر الأحداث ..

ويمضى العبد الصالح وموسى عليه السلام فى رحلتهما .. وينطلقان فيلقى العبد الصالح غلاما فيقتله .. وهنا ينفد صبر موسى مرة أخرى .. كيف يقتل هذا العبد الصالح غلاما لم يؤذهما .. ولم يفعل شيئا .. وهنا نلاحظ أن حادث قتل الغلام أكبر من حادث خرق السفينة . ويقول موسى عليه السلام **« أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا »** ..

هنا يظهر الفرق بين من عنده الحقيقة .. وبين من حجبت عنه الحقيقة .. ولكن قتل الغلام مسألة تحتاج إلى قدر أكبر من عدم الانفعال لا يقدر عليه البشر .. فيذكره العبد الصالح بعهده .. ويقول له **« ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا »** .. وهنا يتذكر موسى عليه السلام أنه نسى هذا مرتين فيقول له **« إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا »** .. أى أنى أعذرك إذا رفضت مصاحبتى لأننى لا أطيق الصبر ..

وينطلق الاثنان معا إلى قرية . . هما غريبان وجائعان . . ويطلبان من أهلها طعاما . . والمفروض أن الغريب إذا مر بقرية فإن أهلها يعرضون عليه الضيافة ولو لم يطلب . . والخلق الإنسانى يقضى بأن يكرم أهل القرية الغريب الذى يدخل قريتهم ويطعموه حتى إذا لم يطلب الطعام . . فما بالك إذا كان جائعا . . وطلب منهم لقمة ليقيم بها أوده . . فإذا بهم يرفضون حتى ذلك . .

شخصان غريبان جائعان . . موسى عليه السلام والعبد الصالح . . دخلا القرية . . وطلبا من أهلها لقمة صغيرة فرفضوا أن يعطوهما أى شىء . . ماذا يكون سكان مثل هذه القرية . . يكونون من اللئام الذين لا يستحقون أى معروف . .

ولكن موسى عليه السلام يفاجأ . . العبد الصالح يجد جدارا متهدما فى القرية فيعيد بناءه ويكمله ويجمله . . ويذهل موسى عليه السلام من هذا التصرف . . لقد طلبنا لقمة من أهل هذه القرية لنسكت بها صراخ الجوع فرفضوا . . وأنت تجمل لهم قريتهم . . وتبنى جدارا متهدما جزاء لهم على ذلك . . كان من الأولى أن تطلب أجرا نأكل به طعامنا بدلا من أن نقوم بذلك مجانا . . فهؤلاء أناس لا يستحقون المعروف . . وهنا قال موسى عليه السلام **« لو شئت لاتخذت عليه أجرا »** . .

ولأن هذا هو الفرق بين العبد الصالح وموسى عليه السلام . . فقد عاهده أول مرة ونسى . . وعاهده ثانى مرة ونسى . . واتفقا على أن المرة الثالثة تكون فراقا بينهما فلا يصاحبه . . فقال له العبد الصالح **« هذا فراق بينى وبينك »** . .

ولكنه لم يقل له هذا الكلام ويمضى . . بل بين له الحكمة فى كل ما حدث . . قال إنه خرق السفينة التى يملكها المساكين . . ولكنه خرقها لينجيها من ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة غصبا . . ومن هنا لكى تنجو هذه السفينة ولا تضيع . . وتبقى لهؤلاء المساكين . . كان لابد أن يعيبها حتى لا يأخذها الملك الظالم . . والسؤال أيهما خير . . أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون اصلاحه أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الاطلاق . . أيهما خير للمساكين أتكون لديهم سفينة مخروقة . . أم يستولى الملك الظالم على السفينة . . ولا تبقى لهم سفينة أصلا . . لو خيروا لاختاروا ما حدث . . ووجدوا فيه الخير العميم لأن الذى حدث هو شىء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها . . ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا

الواقع .. ولكن غياب الحكمة عن موسى عليه السلام جعله لا يطيق صبرا على الواقع ويعتبره شرا .

وجد غلاما فقتله

نأتى بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح .. ماذا كانت الحكمة .. « **فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** » ..

أى إنسان ينظر إلى الابن كقرة عين .. وامتداد له .. وذكرى حسنة يتركها فى الدنيا .. ولكن الإنسان إذا نظر الى ابنه فى أنه سيكون السبب فى شقائه وتعبه .. ويفتنه فى دينه .. هو رجل صالح .. فإنه فى هذه الحالة يتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يبدله بابن غيره صالح مؤمن ..

فالابن .. أو الابنة .. وهذا ما نراه كثيرا فى حياتنا كل يوم .. عندما لا يكون صالحا .. قد يفتن أبويه فى دينهما .. قد يجعلهما يسرقان من أجله .. أو يرتكبان ما يغضب الله ليرضياه .. ومن هنا فأنت أحيانا تسرق من أجل ابنك .. وأحيانا تطغى من أجل ابنك .. والأب دائما والأم ضعيفان أمام الابن فى مطالبه ..

والإنسان الصالح لا ينظر إلى هذه الحياة وحدها .. وإنما ينظر إلى الحياتين معا .. الدنيا والآخرة .. ومن هنا حين يمد يده إلى مال غيره يعرف أنه سيحاسب .. وأنه سيعذب من أجل ذلك .. فلا يكون سعيدا بهذا المال الحرام .. بل يكون شقيا به .. وهكذا كل ما يغضب الله مهما كان فيه من بهجة دنيوية .. فإنه بالنسبة لرجل غير صالح .. أو غير مؤمن قد يسعده ذلك الذى يبتغى لذة عاجلة .. أما الإنسان المؤمن فإنه مهما أعطته الدنيا بطريق يغضب الله لا يمكن أن يكون سعيدا بما حصل عليه لأنه يعلم يقينا أنه باغضابه لله .. وارتكابه ما نهى عنه لن يحصل على شىء إلا الشقاء فى الدنيا والآخرة مهما كان ذلك الظاهر السريع يحمل من أشياء تفتن الكافر أو غير المؤمن ..

إذن .. إذا خير الوالدان الصالحان فى أن يهبهما الله ولدا فاسدا يضيع لهما دينهما ويخرجهما من الطاعة إلى الاثم .. أو لا يهبهما ولدا على الاطلاق .. اختارا الثانية .. ذلك أنهما يعلمان يقينا أنه من الخير لهما ألا يكون لهما ولد .. على أن يكون لهما ولد أو ابنة يورثهما الشقاء .. ويجعلهما يخرجان عن طاعة الله ..

الله سبحانه وتعالى لو خير الوالدين الصالحين وقال لهما هذا الابن سيؤدى بكما إلى النار . . وسيجعلكما تطغيان وتكفران . . لقالا يا ربى لا نريده . . إذن الاختيار هنا هو اختيار الرجل الصالح لما فيه الخير . . لو خير هذا الرجل بين ابن فاسد . . أو ابنة فاسدة تؤدى به إلى الكفر والطغيان وبين ذهاب هذا الابن . . أو هذه الابنة . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى اختار لهذين الوالدين الخير . . بل انه اختار لهما رحمة منه هائلة . . فالابن الذى قضى أجله وهو غلام قد منع عنهما الشرور التى كان سيرتكبها فى الدنيا . . وبذلك لحقه الله بوالديه فى الجنة رحمة بهما . . هذه واحدة . . والثانية الله سبحانه وتعالى يريد أن يبدل بهذا الابن غلاما آخر صالحا مصداقا لقوله تعالى . . **« فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما »** . . فالله سبحانه وتعالى قد اختار أن يبدل هذا الغلام الذى كان سينشأ فاسدا غير صالح . . وسيؤدى بأبويه إلى الكفر وإلى النار . . وأبواه صالحان مؤمنان قد اختار الله سبحانه وتعالى برحمته أن يبدلهما خيرا منه . . أى ولدا صالحا . . يكون خير ذكرى لهما يتركانها فى هذه الدنيا . .

ونحن حين نتابع الأحداث . . لا يجب أن نربط الحدث بزمن . . ذلك أن الزمن شيء نسبى موجود عندنا فقط . . أما الله سبحانه وتعالى فلا يحده زمن . . ومن هنا فإننا حينما نستحضر أى عمل يجب أن نستحضر العمل والجزاء عليه . . فنحن حين نرتكب معصية من المعاصى . . قد يفرح بها غير المؤمن . . يفرح بأنه حصل على مال حرام . . أو أنه أخذ ثمرة عمل غيره . . أو أنه ظلم إنسانا وطغى فى الأرض ليحصل على مكسب عاجل . .

ولكن الأمور لا تؤخذ هكذا بالنسبة للإنسان المؤمن . . والفرق هنا بين المؤمن والكافر . . أن الجزاء قد حجب عن الاثنين معا . . ولكن الإنسان المؤمن يرى الجزاء عن يقين . . وكأنه حاضر أمامه . . بينما الكافر لا يرى الجزاء لأنه مستور عنه . . وهو لا يؤمن به . . ولو كان الجزاء مكشوفا عنا لتساوى المؤمن والكافر فى الطعام . . فإذا ملأنا حجرة بالذهب . . وقلنا لإنسان هذا مال حرام هو لك . . خذه وتمتع به أياما معدودة . . ثم فتحنا له باب الحجرة فرأى عذاب الله فى نار جهنم . . وقلنا له بعد أن تتمتع بهذا المال لأيام معدودة سنلقى بك فى هذه الحجرة لتلقى جزاءك من الله . . فى هذه الحالة لن تمتد يده إلى قطعة واحدة من هذا الذهب . . وكذلك كل معاصى الله لن يقربها .

ولكن الذى يحدث .. أن الإنسان المؤمن يرى هذا فى عقله .. ولو أنه غيب عنه .. فهو حين يمد يده إلى مال حرام تظهر أمام عينيه صورة النار .. وعذاب الله .. فيبتعد مسرعا مستعيذا بالله من هذه المعصية .. أما الكافر .. أو غير المؤمن فإنه لا يستحضر هذا العذاب .. وينكره .. أو على الأقل يحاول أن ينكره .. وأن يقنع نفسه بأن كل هذا غير صحيح .. ومن هنا فإنه ينطلق إلى الحرام معتقدا موهما نفسه أنه لا عقاب بعده .. وأن الذى سيغنيه فى الدنيا هو مكسب له لن يحاسب عنه فى الآخرة .. بينما الحقيقة المستورة هى غير ذلك تماما ..

ومن هنا فإن الإنسان المؤمن يرى المعصية جزاء وعذابا من الله .. والإنسان غير المؤمن يرى المعصية مكسبا ومغنما .. وباختلاف النظرة يختلف العمل .. ولكن الحقيقة تبقى وإن كانت خافية مستورة عنا .. وهى أن كل عمل له حسابه ..

أى اختيار للأبوين

نعود بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح .. لو أن هذا الغلام عاش ولم يأت أجله .. ونشأ فاسدا وأورد أبويه النار وجعلهما يسرقان ويطغيان ليرضياه .. أكان ذلك خيرا لهما .. أم أن يبدله الله بغلام صالح يحفظ لهما دنياهما وآخرتهما .. ؟

لو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع .. لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسابا .. وأن هناك بعثا .. وهما يرعيان الله فى أمورهما فى الدنيا .. بهذا اليقين المستقر فى قلبيهما ..

إذن الذى حدث رغم أن ظاهره الشر ، حقيقته خير للأبوين .. الصالحين .. وللغلام .. ولكن الذى ستر عنه الغيب يحسب أنه شر .

والغريب أننا فى حياتنا نفعل أشياء كثيرة من أجل أن نحصل على حياة أفضل فى المستقبل .. فالأب والأم مثلا يحرمان نفسيهما من كل مباهج الحياة .. ليوفرا لأولادهما العلم الذى يجعلهم قادرين على حياة كريمة .. بل انهما يسعيان ليوفرا لأولادهما حياة أسعد من تلك التى عاشوها معهما .. والإنسان المريض يحرم نفسه من طعام يحبه .. أو من شراب تشتهيه نفسه .. أو من أشياء كثيرة يهواها قلبه .. ويتحمل مرارة الدواء .. وربما الرقاد الطويل ليحصل على الصحة ..

هذه سنن الحياة لا اختلاف عليها . . فإذا جئنا إلى الحياة الدنيا والآخرة وجدنا بعض الناس يسرعون إلى مغنم عاجل . . ناسين ذلك القادم وهو جزاء الله . .

وتعجب أنت من إنسان يحرم نفسه من بهجة الحياة فترة طويلة . . ويظل يذاكر ويكدح حتى يحصل على حياة طيبة . . ثم هذا الإنسان نفسه ينكر سنة الله سبحانه وتعالى التى اتبعها هو فى الأمور الدنيوية . . فيقترف الآثام . . ويرتكب المعاصى . . ناسيا أو متناسيا أن ذلك مثل الذى يلعب فى صباه . . ويفعل ما تهواه نفسه . . فإذا كبر لم يجد عملا يقتات منه . . بل انه أكثر من ذلك بكثير . . فالحياة الدنيا أيام معدودة . . والحياة الآخرة خلود . . والحياة الدنيا أن يتمتع الإنسان بقدراته هو . . والحياة الآخرة أن يتمتع الإنسان بقدرة الله سبحانه وتعالى . . التى لا تحدها حدود . . وفرق هائل بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق . . والحياة الدنيا فيها مباهج محدودة . . إذا أسرف فيها الإنسان هلكت صحته . . ولم يستطع التمتع بها . . فالذى يفرط فى الطعام علاجه الحرمان من الطعام . . والذى يفرط فى أى لذة أخرى دنيوية حرمه الله منها . . ويجعله غير قادر عليها . . أما الحياة الآخرة . . ففيها ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . .

هنا فى هذه الحكمة أساس إيمانى . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « **وكان أبواه مؤمنين** » . . فقد قدم الله سبحانه وتعالى حقيقة هامة قبل الحدث نفسه . . وهو أن الأبوين مؤمنان صالحان . . هذا الإيمان فى الأبوين يجعلهما إذا خيرا بين ابن يضيع هذا الإيمان . . وبين لا ابن على الاطلاق . . أن يختارا الحقيقة الثانية . . ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا العمل الذى إذا نظرنا إليه بالمقاييس الدنيوية تحسبه شرا . . بهذا العمل قد حفظ إيمان الأبوين وبدلهما ابنا صالحا . . ثم أكرم الابن بأن قضى أجله وهو غلام . . ولم يتركه حتى يدخل محك التجربة ويصبح فاسدا يكتب عليه العذاب فى الآخرة . وكما قلت لو خيرت أبوين مؤمنين بين قضاء الله . . وبين ما كان سيحدث لاختارا قضاء الله سبحانه وتعالى . . واعتبراه رحمة منه وفضلا . . ولكن الذى يجب ألا يغيب عنا فى هذه الحقيقة هو إيمان الأبوين أولا . . فالإيمان هنا هو أساس هذا الاختيار . .

العمل الصالح .. لا يذهب

ونتنقل بعد ذلك إلى الحقيقة الثالثة .. وهى القرية التى استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما .. اثنان غريبان دخلا إلى قرية وهما فى حالة جوع شديد .. أبسط الأشياء أن القوم الكرام .. إذا دخل غريب القرية أطعموه ولو لم يكن جائعا .. أو على الأقل عرضوا عليه الطعام .. إذا كان جائعا وجب عليهم إطعامه .. ولكن أهل هذه القرية التى دخلها موسى والعبد الصالح قابلوهما بلؤم ونذالة .. ذلك أن موسى والعبد الصالح كانا جائعين وغريبين .. وطلبا الطعام من أهل القرية .. ولم يطلبا طعاما فاخرا .. أو مائدة تحوى عشرات الأصناف .. ولكنهما طلبا لقمة تقيم أودهما وتسكت جوعهما .. فماذا فعل أهل القرية .. أبوا .. رفضوا أن يعطوهما حتى هذه اللقمة الصغيرة .. وإذا بالعبد الصالح يجد جدارا متهدما فى القرية فيبنيه ويجمله ويجدده .. ولم يطق موسى صبرا .. هؤلاء الناس رفضوا اعطاءنا لقمة ونحن جائعان .. وأنت تقوم بهذا العمل لهم مجانا .. تقدم لهم خدمة .. تبنى لهم جدارا متهدما .. جزاء على هذا اللؤم .. وهذه النذالة .. وتأتى الحقيقة المستورة لتبين لموسى عليه السلام الحكمة من بناء هذا الجدار .. فهذا الجدار لم يكن خيرا لأهل القرية الذين تخلوا عن كل مبادىء الشهامة .. بل كان خيرا لأولاد رجل صالح يخشى عليهم من أهل هذه القرية الذين لا يرعون عهدا ولا يطعمون جائعا .. ولأنهم يفعلون ذلك لا يطعمون الجائع .. ولا ينفقون شيئا فى سبيل الله .. فقد منع الله سبحانه وتعالى عنهم الخير .. وأبقاه لأولاد رجل كان صالحا وتوفاه الله .. ذلك أن العمل الصالح للأب يبقى لأولاده فى الدنيا وينفعهم .

وهنا يحدث الفراق بين موسى والرجل الصالح .. ولكن بعد أن يبين لنا الحكمة فيما حدث .. والحكمة هنا تختلف عن الحادثتين السابقتين ..

فكانت الحادثتان السابقتان فى ظاهرهما شر .. وفى حقيقتهما خير .. حادث خرق السفينة أنقذها من الملك الظالم الذى كان سيغتصبها .. وقتل الغلام حفظ لأبويه صلاحهما .. وعوضهما الله سبحانه وتعالى عنه بولد صالح .. أما هنا فالظاهر لأهل القرية أن هذا الرجل الصالح قد قدم عملا خيرا طيبا لهم بأنه وجد جدارا قديما يكاد يتهدم فبناه .. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. اتضح أنه حدث لمنع الخير عنهم .. فالجدار المتهدم كان تحته كنز .. وهذا الكنز كان لغلامين يتيمين فى المدينة .. وكان أبوهما صالحا .. إذن فصلاح الأب ينعكس

على الأبناء . . والأب الصالح يهيىء الله لأبنائه سبل الرزق فى الحياة . . بالعمل الصالح . .

والسؤال هنا . . وهل كان الكنز سيبقى لهذين الغلامين ؟ . . أبدا . . ذلك أن أهل هذه القرية وأخلاقهم عدم اطعام الضيف الجائع . . كانوا سينقضون على الكنز ويأخذونه . . ولا يعطون الغلامين شيئا . . فالله سبحانه وتعالى بسبب أن هذه هى أخلاق أهل القرية . . منع عنهم هذا الخير . . أو الكنز . . وفى نفس الوقت بسبب صلاح أبى الغلامين . . حفظ للغلامين كنزهما .

هذه هى الحكمة المستورة . . ولكن ما هو الظاهر أمام أهل القرية . . ان غريبين دخلاها جائعين فرفضوا اطعامهما . . فإذا بهذين الغريبين أو أحدهما يجد جدارا متهدما . . فيبنيه ويجمله ويزينه . .

لو أنك كنت تعيش فى هذه القرية . . ورأيت هذا الحادث . . لقلت سبحان الله . . قوم لئام يرفضون اطعام الجائع الغريب . . ويرفضون العمل بما أمر به الله من إطعام مسكين . . ومن إكرام الغريب يرفضون أن يقدموا لقمة واحدة لرجلين جائعين . . ثم يأتى أحد الرجلين فيقيم جدارا جميلا فى القرية . . ثم كنت تنظر إلى السماء . . وتقول يا ربى . . ما هذا . . هؤلاء الناس أشرار . . وقاموا بعمل شرير . . عمل لا ترضى عنه . . سبحانك وتعاليت . . وهو اطعام الجائع الغريب . . ثم ترسل إليهم من يجمل لهم القرية . . ويقيم فيها جدارا متهدما . . ويعمر فيها . . كيف تجازى يا ربى هؤلاء اللئام بهذا الخير . .

وكنت تتعجب كيف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لقوم هم أبعد ما يكونون عن طاعته من يزين لهم قريتهم ويجملها . . وهذا هو الذى جعل موسى لا يطيق صبرا . . ولكن عندما انكشفت الحقيقة عن المستور فى علمه . . تبين أن ما حدث لأهل هذه القرية لم يكن خيرا . . بل كان منعا للخير . . رغم أن ظاهره أمام من لا يعلم خير . . ولكن حقيقته عكس ذلك تماما . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد ساق لنا هذه الأمثلة فى سورة الكهف . . ليقول لنا لا تحكموا بالمقاييس الدنيوية . . فعندى أنا العلم . . ولا تحكموا بالظاهر أمامكم . . وأنا أعلم أن صدركم يضيق بما يحدث . . وأنكم لا تستطيعون الصبر . . وأنكم تتعجبون من أشياء كثيرة حين تجدون شرا . . يحدث لأناس طيبين صالحين . . وخيرا يحدث لأناس يعصون الله . . ذلك ليس المقياس . . لأن ما أمامكم هو الظاهر . . وما عندى هو الحقيقة . . والظاهر

أمامكم قد يكون عكس الحقيقة تماما .. وما تحسبونه شرا .. قد يكون خيرا .. وخيرا عميما .. وما تحسبونه خيرا قد يكون شرا .. أو منعا للخير.

كهوف الحياة

ولقد ساق الله سبحانه وتعالى هذه الأمثلة ليبين أن هناك كهوفا فى هذه الحياة .. توارى الحقائق عنا .. وأن على الإنسان ألا يغتر بظواهر الأشياء .. وأن يعلم أن هناك حقائق مخفية .. وليعلم كل إنسان أن كل قدر قد يقع عليه ليس له فيه اختيار .. فيه حكمة .. والحكمة ليست دائما ظاهرة .. ومن هنا فعلينا ألا نحكم نحن بعلمنا فيما يحدث لنا من أقدار .. وأن نتقبل الأشياء بلا انزعاج من شر نحسبه حدث .. ولا فرح شديد من خير نحسبه تم .. والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم .. وقد نكره شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وقد نفرح لأشياء ثم بعد ذلك نتمنى لو لم تحدث .. هذه حكمة .. يريد أن يبينها الله لنا سبحانه وتعالى حتى نتحمل الحياة .. ونحن نؤمن أن قدر الله سبحانه وتعالى هو ما نرضى به وأن ما يقسمه الله سبحانه وتعالى هو الخير لنا .. وهذا كما قلت فى القدر الذى يقع علينا .. ولا يكون لنا اختيار فيه ..

ونعود فى ختام الحديث عن سورة الكهف إلى قصة ذى القرنين .. فيقول سبحانه وتعالى « **ويسألونك عن ذى القرنين .. قل سأتلو عليكم منه ذكرا** » وهنا يحاول بعض الناس أن يخرج بالصورة عن هدفها إلى فرع لا يفيدنا .. وليس مطلوبا منا أن نبحث عنه .. فبدلا من أن يتأمل ما قاله الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين .. يدخل فى جدل حول من هو ذو القرنين .. ومتى عاش .. وفى أى بلد كان .. إلى آخر هذا الكلام ..

والقصص فى القرآن ليس مقصودا بها تحديد أو تشخيص أعلام القصة .. ليس مطلوبا منا أن نترك الحكمة من الآية .. وندخل فى جدل حول من هو ذو القرنين .. فذو القرنين موجود فى كل عصر .. بأسماء مختلفة ..

القـــرآن .. والحقيقـــة

نعود مرة أخرى إلى قصة ذى القرنين .. ولا نريد ولن ندخل فى تعريف من هو ذو القرنين .. وإنما نتحدث عن الحكمة فيما رواه الله سبحانه وتعالى ..

ذو القرنين رجل مكن الله له فى الأرض .. أى أعطاه الملك .. وأتاه الله

سبحانه وتعالى من كل شىء سببا . . أى أعطاه الأسباب التى تمكنه من أن يفعل ما يريد . .

ماذا فعل ذو القرنين عندما أعطاه الله الأسباب من عنده . . لم يكتف بذلك . . بل اتبعها بأسباب من فعله . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إنه إذا مكننا فى الأرض بأسباب من عنده . . لابد أن نضيف إليها أسبابا أخرى . . ولا نكتفى بذلك . . وهذا ينفى قضية التواكل والتكاسل عن العمل . . فإذا مكننى الله بأن أعطانى أرضا . . فيجب أن أضيف إليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار . . فإذا تركت الأرض بورا . . لا أضيف إليها عملا من عندى . . وإنما أخذت أسباب الله دون أن أضيف إليها سببا . . فأنا لا أعمل بشريعة الله فى الأرض . .

وإذا مكننى الله سبحانه وتعالى من مال . . فيجب أن أستخدمه فيما ينفع الناس ويفتح أبواب الرزق لهم . . ويعمر فى الأرض . . ولا أكتفى بأن أضعه فى خزائنى . . وأغلق عليه الباب . . وأنفق منه على حاجاتى . . أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانى أسباب المال . . فيجب أن أضيف إليها من عندى . . وهكذا فى كل أمور الدنيا . . إذا مكننى الله سبحانه وتعالى من أى شىء . . فيجب أن أضيف له من عندى فيبارك فيه الله . . ويزيده . . وألا أكتفى بما مكننى الله فيه . . فإذا مكننى الله من علم مثلا . . فيجب أن أنشره لينتفع به الناس . . إلى آخر هذا . .

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِى عَيۡنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمًاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنًا﴾

وهكذا خيره الله سبحانه وتعالى بعد أن مكن له فى أن يواجه هؤلاء الناس : المخطىء بالعذاب . . والمحسن بالحسنى . .

كما روى الله لنا فى القرآن الكريم . . « **أما من ظلم فسوف نعذبه** » . . لماذا ؟ لم يقل ياربى . . أما من ظلم فسوف أتركه ليعذب فى الآخرة . . لأن

قوانين الحياة .. وهذه نقطة هامة جدا .. تقتضى الحساب أولا ليستقيم كل شيء .. وحياة دنيوية بلا حساب تنتهى إلى نوع من الفوضى ..

فالدنيا فيها المؤمن والكافر .. وفيها المحسن والمسيء .. أساس الحياة الدنيا أن يكون الحساب قبل الثواب .. هناك قواعد وضعها الله للحياة الكريمة فى الأرض .. إنسان غير مؤمن سرق .. لابد أن يحاسب فى الدنيا .. إنسان غير مؤمن خرج عن أى حد من حدود الله لابد أن يحاسب .. ولكن ذلك لا يمضى على حدود الله وحدها .. فإذا أردنا أن تمضى الحياة بشكل مستقيم يضمن انتظام العمل .. وتحمل المسئولية .. فيجب أن يكون هناك حساب أولا لمن يخطىء ..

وهنا يجب أن نتنبه إلى هذه الآية جيدا .. لماذا قدم الله سبحانه وتعالى قوله وهو يروى لنا قصة ذى القرنين .. « **أما من ظلم فسوف نعذبه** » .. ثم جاء بعد ذلك قوله « **وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى** » .. ذلك أن المحاسبة أو الحساب يجب أن تسبق أية مكافأة .. أو ما نسميه نحن بلغتنا حوافز أو مكافآت تشجيعية .. أو ما نطلق عليه نحن جزاء دنيويا .. أو ماديا .. فإذا أخذنا أى عمل من الأعمال فى الدنيا كلها .. وبدأنا لا نحاسب المهمل .. ونجزل العطاء لمن يحسن العمل .. فإن ذلك العمل لا يستقيم أبدا مهما كان العطاء الذى نعطيه .. بل ان الأساس أن تأتى المحاسبة أولا .. ثم بعد ذلك .. وبعد أن يمضى العمل على أساس سليم .. ويؤتى ثماره ويزيد .. يأتى التشجيع .. واجزال العطاء ..

الظالم .. لنفسه

على أننا يجب أن نتنبه هنا إلى نقطة هامة جدا .. هى أنه من يظلم فى الأرض له حسابان .. عقاب الدنيا .. وعقاب الآخرة .. والظلم هنا لكى نعرف دقة التعبير فى القرآن الكريم .. نوعان .. إنسان يظلم نفسه .. وإنسان يظلم غيره .. وكلاهما له حساب .. فالإنسان الذى يظلم نفسه هو الذى يوردها مورد الهلاك فى الآخرة .. بألا يؤدى فروض الله .. وقد يكفر بالله ونعمه .. قد لا يحسن وهو يملك المال الكثير .. ولا يؤدى الصلاة .. ويقوم بالايذاء حبا فى الايذاء .. ودون أن ينال جزاء دنيويا .. ومن هؤلاء كثيرون .. كالذى يرسل خطابات مجهولة بتهم كاذبة .. ضد زملائه أو مرءوسيه أو جيرانه .. أو

كالذى يشهد شهادة الزور ابتغاء الأذى .. ودون أن يكون له جزاء يحصل عليه .. هذا الإنسان يظلم نفسه بأنه يوردها مورد التهلكة .. وفى نفس الوقت لا يعطيها جزاء الدنيا العاجل الذى قد تستفيد منه النفس الظالمة .. والنوع الآخر من الناس هو الذى يظلم نفسه ويظلم غيره .. كالذى يسرق مال غيره .. أو يزور ليحصل على مال حرام .. أو لذة عاجلة .. ذلك الإنسان قد باع الدنيا بالآخرة .. أعطى نفسه ما هو زائل .. وسلبها مما هو دائم وخالد ..

العذاب هنا يكون على شقين .. الشق الأول هو الشق الظاهر .. كأن يضبط إنسان إنسانا وهو يسرق المال .. أو يأخذ حقوق الإنسان بالظلم .. وهذا يجب أن ينال عقابه .. الشق الثانى .. إنسان يفعل فى الخفاء ما نهى الله عنه .. ولا يعبد الله .. وهذا يرد إلى ربه .. فيعذبه عذابا نكرا ..

إذن .. الله سبحانه وتعالى حدد لنا مهمة كل من يمكنه الله سبحانه وتعالى فى الأرض .. ومهمته أن يقف ومعه ميزان يزن به حركة الحياة .. حتى تستقيم هذه الحركة .. واستقامة حركة الحياة أساسها أن الظالم يعاقب .. ولا نقول إنه يترك لله ليعاقبه .. فلابد أن تكون هناك عقوبة دنيوية ردعا لمن لا يؤمن بالله .. أو لمن نسى الله .. وهذا لا يعفيه من عقاب الله ..

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ولكننا نقف عند هذه الآية الكريمة ونقول : ولماذا لم تكمل بأن هذا الإنسان يرد إلى ربه فيدخله جنات النعيم .. وهنا حكمة بالغة .. هى أن الإيمان هو بين العبد وربه .. والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعرف من المؤمن حقيقة .. ومن الذى يتظاهر بالإيمان .. بينما يفعل فى الخفاء ما ينهى عنه الله .. ومن هنا فنحن مهما أوتينا من مقاييس الدنيا .. لا يمكن أن نفرق بين مدعى الإيمان .. والمؤمن حقيقة .. ولذلك فأمر هؤلاء متروك لله سبحانه وتعالى الذى يعرف ما تخفيه الأنفس وما تكتمه الصدور .. وهو يعلم الذى يعمل عملا يبتغى به مرضاة الله .. والذى يعمل عملا ظاهره الخير .. وباطنه طلب الجاه فى

الدنيا .. ومن هنا فإن الأمر متروك لله سبحانه وتعالى .. ما كان مخفيا فى الصدور .. فينال المؤمن الحقيقى الجزاء .. أما الذى آمن رياء أو نفاقا .. أو ابتغاء سمعة .. أو ابتغاء لجاه دنيوى .. فأمره إلى الله .. وهو الذى يحكم ..

وتمضى الآية الكريمة لتقول :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

وقد تحدثت عن ذلك فى أول هذا الفصل وبينت أن معنى الآية الكريمة « لم نجعل لهم من دونها سترا » .. ان الاسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة .. أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام .. وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم لا تغيب عنها الشمس ٦ شهور فى العام .. فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ٦ شهور .. وعن القطب الجنوبى مدة ٦ شهور .. فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض .. لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض .. وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة ..

المال .. وما أعطاه الله

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ذى القرنين عندما بلغ ما بين السدين .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

وتمضى الآية الكريمة فيقول ذو القرنين وهم يعرضون عليه المال :

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وهنا نصل إلى قانونين من قوانين الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بهما .. القانون الأول .. قول ذى القرنين ما مكنى فيه ربى خير .. وهذا دليل قوى على أن الرجل الصالح المؤمن المصلح فى الأرض .. لا يتكالب على المال .. ولا يعمل من أجل جمع المال وكنزه .. بل إنه يعلم يقينا أن الخير الذى يعمله .. هو أبقى وأحسن من المال الذى يمكن أن يحصل عليه .. وأنه إذا أنفق ماله فى الخير .. فإنه لا يضيعه ولكنه يضاعفه .. وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن ذا القرنين رجل صالح .. ولو أنه كان رجلا يدعى الصلاح .. ويعمل من أجل الدنيا لفرح بالمال كشىء عاجل .. ولم يفضل عليه الخير الذى هو أبقى عند الله .. والذى يضاعفه الله سبحانه وتعالى ..

أى أن الله يريد أن يقول لنا لا تفرحوا بالمال .. ولكن افرحوا بخير أسوقه إليكم لتؤدوه .. فذلك أحسن من المال وأبقى .. وهو النافع فى الدنيا وفى الآخرة .. ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول على لسان ذى القرنين « **فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما** » .. ومعنى هذه الآية الكريمة أن الله يريد أن يقول لنا أننا يجب أن نعمل لندرأ الظلم عن أنفسنا .. فإذا كان هناك أناس ظالمون مفسدون فى الأرض .. فإننا يجب أن يكون بعضنا عونا لبعض فى درء هذا الخطر أو هذا الظلم الذى يهددنا .. وأننا فى حياتنا الدنيوية يجب أن نستخدم الامكانيات العقلية التى أعطاها الله لنا لندرأ عن أنفسنا كل ما هو شر .. ونأتى أو نعمل لما هو خير .. الله سبحانه وتعالى قد أعطانا نعمة العقل .. لا لنضيعها فى الجدل عن غيبيات لا نعلم عنها شيئا .. ولا لنفسدها بالدخول فى أشياء لن نصل فيها إلى نتيجة .. ولا نستطيع أن نثبتها .. ولكن لتعيننا فى حياتنا الدنيوية فنستخدم عقولنا لنكتشف ما فى الأرض من أسرار وضعها الله سبحانه وتعالى .. ومن مواد خلقها الله سبحانه وتعالى .. ثم نستخدم عقولنا لنصنع من هذه المواد .. وهذه القوانين التى خلقها الله ، ما يوفر لنا درء الخطر عن أنفسنا .. وتوفير الحياة الكريمة لنا .. والله سبحانه وتعالى قد

خلق لنا العقل .. وخلق لنا ما يشغله .. وميادين نشاطه فى الأرض .. ولكن بعض الناس يحاولون استخدام العقل فيما لا ينفع الناس .. بل يضرهم .. وفى التشكيك فى الغيبيات .. وفى النهى عن سبيل الله .. وفى الافساد فى الأرض .. تلك كلها أشياء لم يجعلها الله سبحانه وتعالى من وظيفة العقل .. فالعقل البشرى له حدود .. والله سبحانه وتعالى لا تحده حدود .. ولا قيود ..

ومن هنا فإن وظيفة العقل البشرى فى أن يشتغل فيما خلق له .. وهو الأرض وما وضعه الله فيها .. والكون وما يريد الله سبحانه وتعالى أن يكشف فيه من أسرار للعقل البشرى ..

وهكذا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نستخدم عقولنا فى حياتنا الدنيوية .. ولا نعطلها .. ولا نلغى تفكيرها .. وفى نفس الوقت ينهانا عن أن نهدر العقل البشرى فيما لم يخلق له .. وفيما لن يصل فيه إلى نتيجة ..

حماية .. أهل الضعف

كان أول ما فهمه ذو القرنين من هؤلاء الناس أنهم أهل ضعف .. يطلبون حمايتهم من أهل قوة وجبروت .. وهم يأجوج ومأجوج .. وأنهم مستعدون لدفع الأجر لذى القرنين مقابل أن يحميهم من هؤلاء الجبارين الذين يفسدون فى الأرض .. فيقتلون أولادهم ويأخذون مالهم .. إلى آخر ما كان يحدث .. وهؤلاء أناس ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. ولم تمكنهم عقولهم من أن يجدوا الطريقة ليحموا بها أنفسهم من هذا الجبروت .

وهنا قال ذو القرنين .. أن ما مكنى فيه ربى خير .. ما معنى هذا القول الكريم ؟.. معناه أن ذا القرنين أوتى من العلم .. بحيث عرف أن الخير فى الدنيا أفضل من المال .. لأن المال يأتى ويذهب .. أما الخير فيبقى إلى الأبد .. العمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى هو أحسن ما يمكن أن يكسبه الإنسان .. لماذا ؟.. لأنه باق خالد .. يذهب السيئات .. ويقرب من الله .. ويبقى خالدا للإنسان فى آخرته يزيد ولا ينقص .. والعمل الصالح

الذى يؤتيه الرجل المؤمن .. قاصدا به وجه الله سبحانه وتعالى .. يجعله ممن ينطبق قول الله تعالى عليهم ..

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا** » .. ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** » .. ومن هنا فإننا نرى أن عمل الخير جزاؤه فى الدنيا دعوة مجابة من الله سبحانه وتعالى بما تشتهيه نفس المؤمن .. وأن يكون الله سبحانه وتعالى هو المدافع عنه الذى يقف أمام أى إنسان يحاول أن يؤذيه .. فيحبط كيده .. ويضعف سلطانه .. ويجعل الأذى لا يصل إلى المؤمن أبدا .. لأن المدافع عنه هو الله سبحانه وتعالى .. ومن يستطيع أن يؤذى من كان الذى يدافع عنه هو الله ذو القوة المتين .. ثم أن هذا الخير الذى يقرب من الله .. يجعل الله سبحانه وتعالى يوجد له من كل ضيق فرجا .. ومن كل أزمة مخرجا .. من حيث لا يدرى ولا يحتسب .. هذا بخلاف أنه إذا ضاقت به أسباب الرزق .. فإن الله يفتح له من هذه الأسباب أبوابا لم يكن يفكر فيها .. أو يصل إليها فكره أو علمه .. هذا فى الدنيا .. بجانب جزاء الآخرة .. وهو الفوز العظيم .. وهو الجنة ..

إذا كان هذا هو جزاء الخير .. وإذا كان ذو القرنين على يقين من ربه الذى علمه الأسباب .. فهل يبيع هذا الجزاء كله .. ويتقاضى بدلا منه أجرا .. بلاشك أن قوله : « **ما مكنى فيه ربى خير** » .. معناه أنه على علم يقينى بأن جزاء الله عن الخير لا يمكن أن يقابله أجر .. ولو كان مال الدنيا كلها .. وهكذا اختار ذو القرنين .. وهكذا يختار كل مؤمن إيمانا حقيقيا الخير على المال .. اختار أن يحمى هؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكادون يفقهون قولا ، من الجبارين الذين يفسدون فى الأرض .. ويأخذ بذلك أجرا من الله سبحانه وتعالى لحماية الضعيف .. ونصرته ، الذى لا حول له ولا قوة .

ولكن كيف اختار أن تتم هذه العملية .. هل قام هو ببناء السور .. أو قام هو بعمل أى نوع من الحماية لهم .. أى أدى لهم مهمة تنتهى بانتهائه .. وتغيب عنهم بغيابه .. لا .. بل اختار أن يعلمهم شيئا يعملونه هم بأنفسهم .. حتى

إذا غاب عنهم أو رحل عنهم يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل بذاتهم .. أى أنه أضاف إليهم ما أعطاهم قوة ذاتية يستطيعون أن يحموا بها أنفسهم .. فقال « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » .. أى أنه أشركهم فى العمل .. وعلمهم كيف يستطيعون أن يبنوا بينهم وبين هؤلاء القوم الجبارين سدا يمنع الأذى عنهم .. أى أنه علمهم كيف يحمون أنفسهم من الظلم الذى يقع عليهم .. ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا اقامة السد بينهم وبين هؤلاء الجبارين .. وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم .. وتعلموا شيئا جديدا يحميهم ..

وفى هذا حكمة .. هى أن الضعفاء مهما كان ضعفهم .. فإن الممكن فى الأرض يعلم .. ويستطيع أن يجعلهم أقوياء .. وأن يعينهم على أن ينهضوا بأنفسهم .. ويزيلوا أسباب تخلفهم وضعفهم .. بشرط أن يشتركوا جميعا فى العمل .. لتستمر الدفعة .. ويتم العمل نفسه .. فإذا اشتركوا تعلموا .. وإذا تعلموا تقدموا واستطاعوا أن يحموا أنفسهم .. وأن يضيفوا إلى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة ..

وقبل أن أختم خواطرى عن سورة الكهف .. أحب أن أبين أن هذه السورة ترينا من كهوف الحياة ما يجعلنا نفهم كثيرا .. فالفهم الأول أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. وأنه لا شىء يتم إلا بارادة الله .. ومن هنا فإن الإنسان يجب أن يرجع كل شىء إلى الله سبحانه وتعالى فلا يقول سأفعل كذا .. إلا بعد أن يضيف إليها إن شاء الله .. لأن الذى يملك عناصر الفعل المستقبلى هو الله سبحانه وتعالى .. وثانى هذه الأشياء هو نظرة الإنسان إلى الأسباب .. فالإنسان إذا رزقه الله بمال أو بأرض .. أو فضله على غيره فى الرزق .. فيجب أن يعرف يقينا أن الفضل فى ذلك هو لله سبحانه وتعالى .. وألا يغتر بنفسه ويقول إنما أوتيته على علم عندى .. ذلك أن الغرور هو بداية عبادة النفس .. وبداية عبادة النفس تبعد عن عبادة الله .. فالله الذى أعطى يستطيع دائما .. ودائما أبدا أن يأخذ .. والله الذى وفق يستطيع دائما ودائما أبدا أن يحجب هذا التوفيق .. و من هنا فإن من المهلكات فى الدنيا أن يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يصنع قدره ، وأنه بذكائه يستطيع أن يفعل كذا وكذا .. ولكنه يستطيع فعلا

أن يفعل .. وأن ينجز بتوفيق الله له .. ذلك التوفيق الذى هو أساسه نجاح العمل .. والذى لولاه لفشل كل شيء .. العمل نفسه مطلوب وواجب .. ولكن الغرور ليس واجبا .. بل أنا أعمل .. والله يوفق ويبارك .. ويرزق ..

والحكمة الثالثة أن ظاهر الأشياء ليس هو حقيقتها .. الخير والشر لا يمكن أن يحكم عليهما إنسان من ظاهر الأمور .. ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع من أنفسنا حكما على ما يحدث .. ونتقبل قضاء الله دون أن نبكى حزنا اعتقادا منا أنه شر .. أو نطير فرحا لأننا نحسب أنه خير .. فحقيقة الخير والشر لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نتقبل قضاء الله دائما بالرضا .. وبأن هناك حكمة مستورة .. ومادمنا مؤمنين .. فإن الله لا يضيع مؤمنا .. ولقد ساق الله لنا سبحانه وتعالى من خلال قصة موسى والعبد الصالح أمثلة عديدة على ذلك ..

رابعا .. أن هناك أمورا قدرية تقع على الإنسان بدون حركة منه .. ولا دخل له فيها .. وأن هذه الأمور لا تحدث عشوائيا .. ولا تتم هكذا .. بل هناك وراءها دائما مدبر هو الله سبحانه وتعالى .. وهى وان كانت فى بعض الأحيان تبدو بعيدة عن ادراك عقولنا .. فيجب أن نفهم أن كل قدر فى الكون له سبب يعلمه الله سبحانه .. وتعالى الذى يسبب الأسباب ..

وأن القضاء الذى يجرى على الإنسان من الله سبحانه وتعالى هو قضاء مرسوم .. وإن بدا لنا فى كثير من الأحيان كأمر عادى .. كذلك الذى خرق السفينة وأقام الجدار لا أحد يستطيع أن يفهم سر هذا القدر إلا بعد أن بينه الله سبحانه وتعالى لنا ..

وأخيرا فإننا مهما كنا مستضعفين فى الأرض .. نستطيع أن نتعلم من أولئك الذين مكنهم الله بأسباب العلم .. أو أعطاها لهم .. وأن نضيف إلى هذا العلم عملا يبارك لنا فيه الله ..

وأخيرا فإن علينا أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى حين يمكننا من الخير .. ومن عمل الخير .. إنما يمكننا من أحسن عمل يمكن أن نقوم به فى الجزاء وفى الثواب .. فى الدنيا والآخرة .. وأن الذى يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ليس هو الذى يمكنه من المال أو الجاه أو من النفوذ .. ولكنه ذلك الذى يمكنه من عمل الخير .

الفصل الخامس

عتاب النبي في القرآن الكريم

بعض المستشرقين الذين لا يحلو لهم إلا الطعن فى هذا الدين . . ومحاولة أخذ الأشياء وتأويل معناها بالتأويل غير السليم . . يحاولون التشكيك فى هذا الدين فيما يحويه القرآن الكريم من عبارات يعاتب فيها الله سبحانه وتعالى نبيه . . ويتخذون من هذه المواقف ذريعة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على صواب فى أشياء قام بها . . وهم يستخدمون من القرآن الكريم الآيات مثل :

« واستغفر لذنبك » . .

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

(الآية ٧٤ سورة الإسراء)

وقول الله سبحانه وتعالى معاتبا النبى بعد أن أخذ أسرى فى غزوة بدر ، وجعل فداءهم من الأسر تعليم المسلمين القراءة والكتابة .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ ﴾

(الآية ٦٧ سورة الأنفال)

وما قيل عن بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية . . إلى آخر الآيات التى يعاتب الله سبحانه وتعالى رسوله فيها . . والتى يستخدمها أولئك الذين يريدون الطعن فى هذا الدين كوسيلة للتخطيء واظهار أن النبى لم يكن على صواب .

وقبل أن أبدأ الحديث عن كل هذه الآيات ومغزاها ومعناها . . فإن لنا وقفة مع الذين يستخدمون هذه الآيات . . هى أنهم يثبتون بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى . . وأنه لم يحدث فيه تبديل ولا تغيير حتى وصل إليهم . . فلو حدث فيه تبديل أو تغيير . . لحذفت منه

الآيات التى تتضمن عتابا من الله لرسوله .. أو على الأقل حرفت .. ولكن كون القرآن قد جاءنا .. وفيه هذه الآيات مع ما يمكن استغلاله فيها .. وكونها لم تتغير .. ولم تتبدل .. فهى دليل على أن القرآن قد وصلنا كما أنزله الله سبحانه وتعالى .. تأكيدا للآية الكريمة :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

وكون هذه الآيات نزلت فى القرآن الكريم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان رسول الله يتلقى القرآن من الوحى ويبلغه للمؤمنين .. ومن هنا فإنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن أمينا فى ابلاغ الرسالة .. لأخفى هذه الآيات .. وما كان أحد من البشر يستطيع أن يعرف إذا كانت قد أنزلت .. أم لا .. ولو أن هذا القرآن كلام بشر ما كان يحوى عتابا لرسول الله .. فالبشر من عادتهم لا يتقبلون النقد .. ويدعون الكمال .. وما من منهج بشرى يلوم فيه صاحبه نفسه أو يعاتبها .. بل كل منهج وضعه بشر يحاول أن يوهم الناس بأن هذا هو الكمال المطلق ..

ومن هنا فكون هذه الآيات قد نزلت دليل على أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى .. وليس كلام بشر .. وكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام بإبلاغ هذه الآيات دليل على أنه أمين فى ابلاغ الرسالة التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها .. لم يخف منها حرفا واحدا .. وكونها موجودة فى القرآن حتى الآن رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة على نزوله .. دليل على أن كلام الله قد وصلنا كما أنزل بلا تحريف .. ولا تبديل . تلك حقيقة هامة يجب أن نذكرها قبل أن نبدأ الحديث فى الموضوع .. ذلك أن الذين أرادوا أن يهدموا هذا الدين إنما قد ثبتوه وأثبتوا أن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى وأن نبيه كان أمينا فى ابلاغ رسالته .. وأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما أنزله الله ..

نأتى بعد ذلك إلى الحديث عن الآيات التى فيها عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله .. وقبل أن نبدأ أحب أن أجيب على سؤال حول هذا الموضوع .. وهو التشكيك فى القرآن الكريم ذلك أن ما يقوله بعض المستشرقين من أن سورة

التوبة هى السورة الوحيدة فى القرآن الكريم التى لا تبدأ بـ « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. ويفسرون ذلك بأن محمدا عليه السلام قد نسى لأنه كلام بشر .. ولكننى أقول لهم إن سورة التوبة هى السورة التى ذكر الله فيها سبحانه وتعالى أولئك المطرودين من رحمته ومن هنا فلا يمكن أن تبدأ بالرحمة .. وبسم الله الرحمن الرحيم .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حجب الرحمة عن هؤلاء الذين تناولتهم هذه السورة الكريمة والتى يبدؤها الله سبحانه وتعالى بقوله :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« أن الله برىء من المشركين ورسوله »

ثم يقول :

« وبشر الذين كفروا بعذاب أليم »

ثم يقول :

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »

ثم يقول :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(الآية ١٢ سورة التوبة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وتمضى السورة الكريمة لتؤكد أن الله لا يهدى القوم الظالمين فيقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ سورة التوبة)

هؤلاء الذين ذكرهم الله فى هذه السورة . . ولقد حرصت على أن أورد جزءا كبيرا منها . . هؤلاء مطرودون من رحمة الله فكيف تبدأ السورة الكريمة بالرحمة وهى تخبرنا بالمطرودين من رحمة الله الخالدين فى عذابه . . إذن محمد صلى الله عليه وسلم لم ينس . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تبدأ هذه الآية دون ذكر رحمته لأنها عن المطرودين من رحمة الله الذين لا نجاة لهم من عذابه .

نعود إلى موضوعنا الأساسى بعد هذا التفسير الذى كان لابد منه للرد على المستشرقين لنتحدث عن عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم . .

الله عاتب رسوله فى القرآن وقال :

« **واستغفر لذنبك** »

ثم قال الله سبحانه فى سورة الفتح :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

كيف يكون الغفران لما تقدم وما تأخر وفى نفس الوقت يقول الله سبحانه وتعالى « **واستغفر لذنبك** » . . وما الذنب الذى ارتكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

إذا بدأنا الحديث عن معظم آيات العتاب . . فهى عتاب على رسول الله فى الاسراف فى الدعوة وتحميل نفسه فوق ما يطيق وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه :

« **طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى** »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** »

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« لم تحرم ما أحل الله لك »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون »

ويقول الحق لنبيه :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك »

ويقول سبحانه وتعالى لرسوله :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »

ويقول الحق للنبى :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى »

ويقول « **لولا كتاب من الله سبق** » .. إلى آخر هذه الآيات التى تحمل عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الله « **لست عليهم بمصيطر** » وقوله « **قل لست عليكم بوكيل** »

كل هذه الآيات فيها عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن عتاب على ماذا ؟ على أن رسول الله يحمل نفسه مالا تطيق .. ولماذا يحمل رسول الله نفسه ما لا تطيق ؟ حبا فى الله وفى دينه .. ورغبة فى أن يدخل الإيمان إلى كل نفس وفى كل قلب .. حب رسول الله لله سبحانه وتعالى واخلاصه فى دعوته وتفانيه فيها جعله يحمل نفسه مالا تطيق .. ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى رحمة برسوله أن يقول له « **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** » .. أى انك يا محمد

تحمل نفسك ما لا تطيق فى هذه الرسالة . . ونحن لم ننزل عليك هذا القرآن لتشقى نفسك به . . ذلك أن القرآن هو بلاغ للناس . . « **فمن شاء فليؤمن . . ومن شاء فليكفر** » . .

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** »

هنا حدد الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى دينه بعدم الاكراه . . ولذلك حكمة بالغة هى حكمة الثواب والعقاب فى افعل . . ولا تفعل . فالله سبحانه وتعالى قال افعل كذا ولا تفعل كذا . . وأبان للناس طريق الحق وطريق الباطل . . ومن هنا يقتضى عدل الله سبحانه وتعالى أن يتم الاختيار بالارادة الحرة وبلا إكراه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعث رحمة للعالمين يرى ما ينتظر غير المؤمنين من عذاب عظيم . . يراه يقينا ويعرفه . . ومن هنا فهو مشفق على غير المؤمنين . . يحاول أن يبذل كل ما يستطيع . . وفوق ما يستطيع . . ليدخلهم إلى رحمة الله . . لأنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . . وفى هذا يحمل نفسه فوق ما تطيق . .

وقبل أن نبدأ فى النقاش حول هذه الآيات هناك أمران أحب أن أتحدث عنهما . . الأمر الأول الذين يحاولون التشكيك فى الإسلام باستخدام آيات العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . إنما يحكمون على أنفسهم بأنهم مغرضون . . ذلك إنك إذا أخذت القرآن . . فيجب ألا تستشهد بجزء منه ثم تستبعد جزءا آخر . . فالآيات التى نزلت ثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة . . فالله سبحانه وتعالى قال لرسوله « **وإنك لعلى خلق عظيم** » . . وقال : « **وإنك لتهدى إلى الحق** » . . وقال : « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » وقال : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** » .

وآيات كثيرة فى القرآن الكريم أثنى فيها الله سبحانه وتعالى على رسوله . . فهل من العدل أن نتجاهل هذه الآيات ثم نأتى بالآيات التى فيها عتاب . . ونحاول أن نأخذها وحدها لنحدد علاقة الله برسوله على طريقة « **لا تقربوا**

الصلاة » ان فى هذا محاولة لطمس الحقيقة واخفائها . . واظهار الشيء بغير حقيقته . . ولكننى لن أسترسل فى هذه الناحية . .

والأمر الثانى أن مسألة العتاب على رسول الله . . كانت فى ماذا . . هناك فرق بين العتب على . . والعتب لى . . والعتب هو لون من اللوم على ما حدث . . لأن القوانين التى بينى وبينك تمنع حدوثها وهذا اللوم معناه أولا وقبل كل شيء هو وجود الود بينك وبين الشخص الذى تلومه . . ذلك لأنك لا تلوم إنسانا بينك وبينه قطيعة . . فالكافر لا يلام على ذنب يرتكبه . . لأنه ليس هناك بعد الكفر ذنب . . ومن هنا فهو لا يعاتب . . والعدو لا يلام على ما يفعل لأنك تتوقع من عدوك أى شيء . . ومن هنا فمهما فعل فإنك لن توجه إليه اللوم . .

يبقى بعد ذلك الذى بينك وبينه ود . . وعلى قدر الود يكون اللوم . . فإذا كان الود عظيما . . كان هناك مكان للوم ولو على شيء صغير . . وإذا كان الود بسيطا لا يكون اللوم إلا على الأشياء الكبيرة . . فأنت لا تلوم رجلا تعرفه على هفوة صغيرة ارتكبها . . ولكن ان حدث هذا من أخ عزيز عليك جدا فإنك تتأثر بقدر حبك له . . وودك إليه . . ومن هنا فأنت تعاتب أخاك على ما لا تعاتب عليه صديقا . . وتعاتب صديقك على ما لا تعاتب عليه غريبا . . وبقدر الود يكون اللوم على الأشياء الصغيرة .

...

إذن هنا . . وعكس ما يريد المشككون . . هناك ود عظيم بين الله ورسوله . . وهذا الود هو الذى جعل الله يوجه إلى رسوله هذا الكلام . . ولكن يوجهه له لماذا . . هل لشيء فعله ضد قوانين الله . . أم رحمة به وخوفا عليه . .

فلنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان . . عندى ولدان ولد مهمل فى دروسه لا يستذكر . . فأنا أوجه إليه اللوم لأنه أهمل واجبه . . وولد آخر لا يترك المذاكرة لحظة واحدة يمنع نفسه من الراحة والطعام والنوم ويظل يذاكر طوال النهار والليل فأنا أوجه إليه اللوم كذلك . أنا أعتب على الأول لأنه خالف القوانين التى يجب أن يتبعها لينجح . ولكن الثانى لم يخالف هذه القوانين فلماذا أعتب عليه . . لأنه أسرف فيها . . وحينئذ يكون العتب أو اللوم لصالحه دليلا على شدة الحب له والخوف عليه . . حينما أقول له اترك المذاكرة . . واسترح قليلا لترفه عن نفسك . . فأنا ألومه على شيء أنا أطلب منه أن يعمله . . أنا الذى طلبت منه أن يذاكر لينجح . . وكنت سألومه لو لم ينفذ كلامى . . ولكننى

ألومه الآن لأنه أسرف فى ذلك .. أى أن العتب له وليس عليه .. ورحمة به وليس عتابا على اهمال ارتكبه .

والآيات التى فيها عتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تحمل معظمها هذا المعنى .. شيء حمل رسول الله نفسه عليه .. وهو غير محمول عليه بحكم التشريع .. شيء مباح ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح .. خرج من السهل إلى الصعب .. « **عبس وتولى ان جاءه الأعمى** » .. أيهما أسهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى جاء وفى قلبه إيمان .. أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم .. الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الله .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب .. إنه يريد أن يعز الاسلام بصناديد قريش وزعمائها .. وهنا تتدخل الارادة الالهية ... الرسول يترك أمرا سهلا ميسرا .. وكلف نفسه بالجانب الشاق .. لماذا ؟ .. لصالح الدعوة .. هنا يقول له الله لماذا تترك السهل وتدخل الصعب .. ان الله غنى عن هؤلاء جميعا .. فيا محمد لا تضيق على نفسك وتحملها المشقة لتهدى من يرفض قلبه الهداية .. انما أنا أريد منك أن تهدى كل قلب يتشوق للإيمان ويهفو إلى الله .. وألا تأخذ الطريق الصعب وتضيق على نفسك .. وهكذا معظم آيات العتاب .

الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. ولكنه يقوم الليل .. ولا ينام .. ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان .. وتسأله عائشة فى عجب .. يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. فيقول رسول الله أفلا أكون عبدا شكورا .. إذن .. ومع المغفرة التى أعطاها الله له لا يريد إلا أن يعبد الله حق عبادته .. ويأبى رسول الله أن يكون مقصرا فى مقام الشكر .. لماذا ؟

إذا نظرنا إلى الإنسان بالنسبة لربه .. وقارنا نعم الله عليه .. وما كلفه به من الطاعات .. لوجدنا أن نعم الله لا تعد ولا تحصى .. وأن المطلوبات منا لله سبحانه وتعالى محدودة وبسيطة .. وهنا يحس القلب المؤمن بعطاء الله .. وبأن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يكلفنا بقدر ما أعطانا من نعم .. لما كانت عبادة الليل والنهار كلها تكفى .

القلب المؤمن يحس أن نعم الله أكثر مما يؤدى عليها من شكر .. فيدخل فى مقام الود والاحسان .. ويقوم الليل .. ويصلى والناس نيام .. صلاة لم يكلف بها فى أصل التكليف .. يسرف فى الطاعة .. وفى المناجاة .. وفى الشكر .. وفى قراءة القرآن .. وهو فى كل هذا فى نظر نفسه مقصر .. لأن نعم الله عليه أكبر من هذا كله .. هل يكون مثل هذا الإنسان مخالفا لما أمر به الله .. أبدا .. ولكن ـ وهنا اشفاق الله سبحانه وتعالى على رسوله .. فالرسول يحمل نفسه مسئولية أولئك الذين لم يؤمنوا .. ويحاول أن يهديهم بقدر طاقته إلى الإيمان ويشقى ويحرم نفسه من متع الدنيا كلها .. يأتى الله سبحانه وتعالى .. فيقول لنبيه يا محمد ليس عليك ذنب .. ان لم يؤمنوا فلا تحمل نفسك أشياء لم يكلفك الله بها .. وكفاك أنك بلغتهم الرسالة .. وأديت الأمانة .. وأبنت لهم الطريق .

هذا هو عتاب الله لرسوله .. فهل هذا عتاب عن ذنب .. أم عتاب عن ود .. وحب .. ورحمة من الله سبحانه وتعالى .. فيقول الله لرسوله « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » .. ويقول « **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** » .. ويقول .. « **لم تحرم ما أحل الله لك** » .. كلها آيات تمثل حب الله لرسوله .. حبا عظيما .. ورحمة بلا حدود .. ويقول الحق تبارك وتعالى لرسوله «**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** » لقد أبلغتهم رسالة ربك فلا تجعل حبك لله وحبك لهدايتهم إلى طريقه يدخل الحسرة إلى نفسك .

هذه هى آيات العتب التى يتجلى فيها حب الله لرسوله .

بقى أن نتحدث عن آيتين يكثر حديث المستشرقين عنهما .. الآية الأولى « **واستغفر لذنبك** » .. وفى نفس المقام تكمل المعنى آية أخرى « **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** » .. هنا فى الآيتين يطلب الله من رسوله الاستغفار .. والاستغفار معناه طلب المغفرة .. فما هو الذنب .. وما هو طلب المغفرة ..

الآية الكريمة فى سورة غافر وهى تبدأ كما يلى :

« **فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** »

والاستغفار هنا إذا دققنا فى هذه الآية مرتبط بالتسبيح أى أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله . . واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات »

ومن هنا فإن سياق الآية يدل دلالة واضحة على أنها كلها تتعلق بالعبادات . . وان ليس فيها ذنب يجازى عليه بالعقاب بل هى توجيه من الله سبحانه وتعالى . . بأن الاستغفار للذنوب والتسبيح بالعشى والابكار . . هى من المكملات للعبادة والطاعة والقرب من الله سبحانه وتعالى . . هنا ليس مقام لوم . . وليس مقام مؤاخذة . . ولكنه مقام زيادة القرب بالاستغفار والتسبيح . والشهادة أنه لا إله إلا الله . . والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات . . فى مقام العبادة أيضا . .

كل ما يقال عن أن هذه الآية هى فى مقام اللوم غير صحيح . . ذلك أنها فى مقام العبادة وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى . . والرسول كان يستغفر للمؤمنين وفى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول الله . . قال إلا أن يتغمدنى الله برحمته) .

إذن طلب الرحمة والمغفرة من الله مطلوب من كل مؤمن مهما بلغت درجة ايمانه . . ومكمل للعمل الصالح مهما كان هذا العمل الصالح مقبولا عند الله . . أو ما يجب على أمته أن تقتدى به . . حتى ولو كان هذا العمل قد أعفاه الله منه . . والله سبحانه وتعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . ولكنه كان يقوم الليل ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان ويستغفر الله فى اليوم مائة مرة . . لماذا . . لأنه هو القدوة الذى ستتبعه الأمة المسلمة كلها .

ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة هى فى مقام العبادة والقرب من الله وليست فى مقام اللوم كما يدعى المستشرقون الذين أخذوا جزءا منها فقط ليشوهوا به هذا الدين .

على أننى رغم ما قلت سأناقش رأيهم لأريهم أنهم على ضلال . .

وقبل أن نمضى يجب أن نحدد ما هو الاستغفار . . الاستغفار هو نوع من الايمان الذى يحس الانسان فيه بالذلة لله سبحانه وتعالى . . ومتعة المؤمن العزة

أمام غير الله . . والذلة لله . . ولا تجد إنسانا ليس فى قلبه إيمان يستغفر الله سبحانه وتعالى . . بل إنه قد يكون مستعدا لأن يذل نفسه لبشر . . وأن يرتكب فى سبيل ذلك من المعاصى ما حرمه الله . . ولكن عندما يأتى الى الاستغفار تأخذه العزة بالاثم . . ولذلك لا يستغفر الله . . ويطلب منه مغفرة الذنوب إلا قلب مؤمن بالله سبحانه وتعالى . . ذلك الذى يجد لذة الخضوع والخنوع لله . . والاعتراف بعظمة الله وقدرته فى الاستغفار وطلب المغفرة منه .

فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

هذه الآية الكريمة توضح لنا معنى الاستغفار . . وكيف أنه لا يحدث إلا إذا كان الإنسان فى قلبه إيمان ومعنى الآية الكريمة أنه ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لأننى أرسلتك رحمة للعالمين . . وحيث إن رحمتى سبقت عذابى . . لذلك فأنا لا أعذبهم وأنت فيهم الرحمة المهداة . . ثم تمضى الآية الكريمة لتشرح ماذا سيحدث بعد انتقال رسول الله إلى جوار ربه . . وهنا يكمل الله الحديث فيقول **« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »** . . إذن بعد انتقالك يا محمد إلى جوار الله فإن الله سبحانه وتعالى لن يصيب بعذابه المستغفرين . . لماذا . . ؟ لأن الاستغفار هو الخضوع والخنوع لله . . لا يوجد إلا فى قلب مؤمن . . ومادام الايمان موجودا فى القلب فرحمة الله تحيط بعبده .

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى لنا قيمة الاستغفار عنده . . وكيف أنه يمنع العذاب . . ويمحو الذنوب . . ويمضى الله سبحانه وتعالى فى بيان فضل الاستغفار إليه فيقول :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »

إذن أولى مراحل المغفرة وأهمها هى الاستغفار . . والخضوع لله . . والخشوع لله . . من أقوى علاماته الاستغفار . . والقلب غير المؤمن ليس فيه رحمة ولا فيه

مغفرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو أمته دائما للاستغفار وكان يقول : « استغفروا الله فإنى استغفره فى اليوم مائة مرة » . . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله فى اليوم مائة مرة ، فكيف يكون حالنا نحن ؟!

إذن الاستغفار مرتبة من مراتب الإيمان والخشوع لله سبحانه وتعالى . . لا تدخل إلا قلب مؤمن . . ولا ينطقها بصدق إلا إنسان يخشى الله . . ولا يهرع إليها إلا من يخاف ربه ويخشى يوم الحساب . . ومن هنا فإن الاستغفار يوجد فى قلب كل مؤمن . . ويكفى أن تذهب فى يوم من الأيام إلى الكعبة الشريفة وتنظر إلى وجوه حجاج بيت الله الحرام الذين جاءوا من أقصى الأرض ليؤدوا فريضة من فرائض الله . . وتسمعهم وهم يستغفرون الله سبحانه وتعالى بكل لغات الأرض . . فيفيض الله عليهم من رحمته . . تنزل الدموع من عيونهم . . ويجهش حتى أقوى الرجال بالبكاء عندما تمس قلبه رحمة الله . . حتى ذلك الذى يمكن أن يواجه أحداث الدنيا كلها . . يأتى إلى هذه البقعة الطاهرة نادما مستغفرا من ذنبه . . ويتجشم الصعاب والمشاق ليستغفر الله . . فى مكان فضله الله سبحانه وتعالى واختاره بيتا له . . عسى أن يقبل الدعاء . . ويغفر الذنب . . وتفيض الرحمة . .

إذن الاستغفار جزء هام من الإيمان . . ومن لا يستغفر بقلبه فهو محروم من نعمة كبرى من نعم الإيمان . . فالله سبحانه وتعالى حين يأمر رسوله بالاستغفار . . والرسول قدوة لكل المسلمين وهو قدوة حسنة . . عندما يأمره بذلك فإنه من خلاله يأمرنا جميعا أن نستغفر لذنوبنا . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بالاستغفار . . فهذا أمر لنا بالاكثار من طلب المغفرة ، والغفران من الله . . لنمحو ذنوبنا ولنكون دائما خاشعين لله مدركين أنه إذا غرتنا قوتنا على ظلم الناس فلنتذكر قدرة الله علينا . . وحينئذ نهرع إلى الاستغفار . . ونرفع الظلم ونتوب إلى الله وتخشع قلوبنا .

إذن الاستغفار يحرص الله سبحانه وتعالى . . على أن يبقى بينه وبين المؤمن . . لأن فى هذا تذكيرا دائما بقدرة الله وقوته وضعف العبد وعجزه . . وفى هذا تذكير لنا بالله كلما نسينا . . وبالحساب كلما أخذتنا الدنيا بعيدا عما أمرنا الله

به .. وخضوعا وخشوعا للقدرة الكبرى والقوة الكبرى التى نعبدها وهى الله سبحانه وتعالى .. قلب مستغفر لله يخلق بينه وبين الآثام حجابا .. قلب مستغفر لله لا يمكن أن يمضى فى اثم ارتكبه أو ظلم قام به لأنه يتذكر الله .. فيستغفر .. ويعدل عن الظلم ويتوب عن الاثم .. قلب يستغفر الله لا يعذب صاحبه .. لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

هذه هى نعمة الاستغفار وهى نعمة لا تحس إلا فى القلب المؤمن .. ولا توجد إلا فى النفس الخاشعة .. ومن هنا يقول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ (١) وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا (٢) فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا (٣) ﴾

التسبيح والاستغفار هما خشوع لله .. وخضوع لله .. وذل لله .. يعشقه القلب المؤمن .. ولذلك ارتبطت هذه الآية بالفتح .. وفى نفس الوقت لم يرتبط بالذنب .. أى أن التسبيح والاستغفار كلاهما حمد لله .. كلاهما يقربنا من الله .. وكلاهما ينقى النفس من الدنيا .. ويقربها من الجنة ..

ولكن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله « واستغفر لذنبك » .. فما هو الذنب الذى اقترفه رسول الله حتى يستغفر له .. لكى نفهم هذا يجب أن نضع أمامنا الحقيقتين الآتيتين :

أولاهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين .. ومن هنا فإنه رحمة .. وأن الله سبحانه وتعالى هو القوى القادر العزيز الجبار .. الذى يمهل ولا يهمل .. فإذا أخذ كان أخذه أخذ عزيز مقتدر .. رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يحاول بقدر طاقته .. وفوق طاقته مع الكفار والمنافقين عسى الله أن يهديهم .. ويعذب نفسه من أجل ذلك ويشقى .. والله سبحانه وتعالى يقول له « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .. يأتى المنافقون ويعتذرون لرسول الله عن

الجهاد فيأذن لهم . . كل بعذره . . فيأتى الله سبحانه وتعالى ويقول له **« عفا الله عنك لم أذنت لهم »** هنا الله سبحانه وتعالى يلوم رسوله على الافراط فى الرحمة . . يموت الكفار الذين عذبوا رسول الله . . والذين حاربوا دين الله . . ولكن رسول الله الذى هو رحمة مهداة يأتى فيصلى عليهم عسى الله أن يرحمهم . . فيقول له الله سبحانه وتعالى **« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا »** . . هل صلاة رسول الله ذنب . . انها افراط فى الرحمة . . واجهاد لرسول الله . . يتعب نفسه ويطلب الرحمة من الله حتى لأولئك الذين رفضوا الهداية . . بل ان رسول الله يطلب لهم المغفرة فيرد الله سبحانه وتعالى **« ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »** . .

هنا رحمة أهداها الله إلى الأرض . . تنظر إلى السماء وتقول يارب أنا رحمة أرسلتنى إلى عبادك . . إلى خلقك . . فلترحم بى حتى أولئك الذين رفضوا الإيمان . . حتى أولئك الذين رفضوا الهداية . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد حرم من رحمته المشركين والظالمين والفاسقين . . ومن هنا فإن الله يرد على رسوله ويقول له يا محمد أنت رحمة للمؤمنين أنت رحمة لهذا العالم كله بأن تريهم الطريق إلى الله طريق الهداية والنور . . أن تبين لهم طريق الحياة الآمنة المطمئنة الطيبة التى رسمتها لعبادى . . وكلفتك بابلاغها لهم . . من اتبعها فله الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . . ومن لم يؤمن بى ورفض اتباعها فسيلقانى وسيلقى جزاءه . . فلا تسرف يا محمد فى طلب الرحمة لأولئك الذين لم يؤمنوا . . ولا تستغفر لهم . . ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فاننى أنا القوى القادر . . وسأجزيهم بما كانوا يفعلون . .

رسول الله هنا . . أتعب نفسه فى الدعوة . . والرحمة والمغفرة أكثر مما كلفه الله . . والله سبحانه وتعالى يطلب إليه أن يستغفر من ذلك . . لأن التجاوز فى هذا هو تجاوز فى أمر من أمور الله . . ولو كان هذا بالزيادة فهل يعتبر هذا ذنبا ؟ وهل يعتبر تشريع الله لرسوله إلا جزءا من الرسالة ؟ هنا الرحمة المطلقة التى تحاول أن تصل حتى إلى قلب غير المؤمن . . لأنها تعرف العذاب الذى ينتظره ولكن الله سبحانه وتعالى يرد **« ان أنت إلا نذير »** . . **« لست عليهم بمصيطر »** . . **« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا »** . . إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم .

هنا يأتى بعض الناس فيقول أن تجاوز رسول الله فى الدعوة وفى طلب الرحمة وفى اتعاب واجهاد نفسه للهداية لمن لا يريد الهداية يتعارض مع الآية الكريمة **« وما ينطق عن الهوى »** . . أى أنه ـ وأنا أذهب هنا مع مغالاة المستشرقين ـ حتى فى اجهاد رسول الله نفسه فى الدعوة قد نطق عن هوى فى نفسه وهو محاولة للوصول بالعاصين للإيمان رغم أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض عليه ذلك . . إذن فقد اتبع هوى فى نفسه وهو الاسراف فى الدعوة واجهاد نفسه فيها . . واشقاء نفسه بها . . رغم أن الله لم يلزمه بذلك .

أقول لهؤلاء جميعا إن معنى **« وما ينطق عن الهوى »** . . انه مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى رسوله الحق . . وبين له الطريق فإن رسول الله يتبع هذا الحق ولو كانت نفسه تهوى شيئا آخر . . ومتى قال الله سبحانه وتعالى **« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا »** فإنه بعد نزول هذه الآية وتحديد أمر الله لا يقوم رسول الله أبدا بالصلاة على أحد من الكفار قد مات ولو كانت نفسه تهوى ذلك . . وبعد نزول الآية الكريمة **« عبس وتولى أن جاءه الأعمى »** فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يترك رجلا جاء يطلب الهداية لينصرف إلى عظيم مهما كان شأنه . . أخذته العزة بالاثم ولو كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تهوى أن يعز الله الإسلام بهذا الرجل العظيم فإنه لا يتبع هوى النفس أبدا ولكن يتبع ما أوحى إليه . . ومن هنا فإن الآية الكريمة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم متى أوحى إليه بأمر من الأمور ومهما كانت نفسه تهوى فإنه لا يمكن إلا أن يتبع هذا الأمر ولا يجعل النفس تميل مع هواها ضد ما أوحى إليه مهما كان .

ومن هنا فإن الآية الكريمة « تبت يدا أبى لهب وتب » نزلت فيمن . . فى عم رسول الله . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب له الهداية . . والوحى كما قلت كان بين الله ورسوله . . ولكن عندما نزلت الآية الكريمة تلاها رسول الله رغم أنها نزلت فى عمه وأنها تتوعده بالنار والعذاب الأليم . . وهكذا فى كل حكم من أحكام الدين لا يتبع رسول الله هوى النفس أبدا . . إنما يتبع الحق وما أنزل مهما اصطدم هذا الحق بقوة وعنف مع هوى النفس .

ونتنقل بعد ذلك إلى الآية الثانية وهى قول الله تعالى :

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

هذه الآية الكريمة يفسرها بعض المستشرقين . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد يستجيب لدعوة الكفار . . الذين قالوا نعبد إلهك عاما وإلهنا عاما . . ولكن كل ما يقوله المستشرقون فى هذا الموضوع غير صحيح . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن إليهم ولم تمل نفسه إلى ما يقولون ولنتأمل معنى الآية الكريمة : « **ولولا أن ثبتناك** » . . « **لولا** » هنا حرف امتناع أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثبت من الله . . ومن هنا فإن كل ما يأتى بعد ذلك فى هذه الآية ممتنع بحرف لو . . إذن فالله سبحانه وتعالى يقول إنك مثبت منا يا محمد . . وهذا التثبيت يمنع عنك أى انحراف عن دين الله أو خروج عنه ثم تمضى الآية الكريمة « **لقد كدت** » وكدت معناها مقاربة الفعل دون اتيانه . . أى انك لم تفعل ذلك . . وإذار أردنا المعنى اللغوى نقول قرب أن يفعل . . فالفعل منفى على الاطلاق . . بل أن القرب من الفعل منفى بكلمة لو . . ماذا كان يحدث لو لم نثبتك وتركناك لفطرتك يا محمد بدون مدد من السماء . . حتى لو لم نثبتك بفطرتك السليمة ما كنت تفعل هذا . . وإن كانت البشرية بدون امداد من السماء لأى إنسان تجعل فيه الميل إلى ذلك . . لكنك مثبت من السماء . . ومثبت بفطرتك السليمة . . إذن امتناعك عن أن تركن إليهم . . أى أن تقترب بخاطرك دون فعل مما يقولون ممتنع بتثبيتك من السماء وبفطرتك السليمة . .

ثم تمضى الآية الكريمة « **إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات** » . . وهنا لنا وقفة . . من المقصود بضعف الحياة وضعف الممات هل المقصود هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الممتنع عن ذلك بمدد من السماء وبفطرته السليمة مادام مدد السماء يمنعه ومادامت فطرته السليمة تمنعه . . فالآية الكريمة لا تنطبق على رسول الله ولكنها تنطبق على من يفعل ذلك . . ولكن رسول الله لم يفعله ولم يقترب منه .

ولكن هناك حكمة كريمة لورود هذه الآية . . والحكمة هنا واضحة . . الله سبحانه وتعالى يختار من عباده من يشاء . . ويعطيه من المنزلة ما يشاء . . ثم يأتى بعد ذلك اغراء الدنيا وكيد الشيطان . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا فى هذه الآية إنه على قدر القرب منه يكون الجزاء . . ولننظر ماذا قال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا
وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا
وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ
فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(الآيات من ١١٢ ، ١١٥ سورة المائدة)

الحواريون هم الذين آمنوا مع عيسى ابن مريم وهاجروا معه وجاهدوا فى المسيحية . . أرادوا أن يروا آية من آيات الله . . فاستجاب الله لدعاء رسوله عيسى ولكنه قال « **فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** » . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى أراهم آية بينة من آياته ولذلك يكون حسابهم غير حساب من لم يره الله آية من آياته .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . انه بقدر القرب من الله يكون الحساب . . وحساب الذى يرى آية من آيات الله يكون أدق من حساب العادى . . ولذلك يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول لنساء الرسول « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء** » لماذا ؟ لأن قربكن من رسول الله يجعل لكن حسابا آخر وميزانا آخر . . فامتنعن عن موطن الشبهة تماما . . فالذى يدخل فى مقام الود من الله له مقاييس بقدر ما فتح الله عليه من آياته ومن فيضه .

إذن معنى الآية الكريمة التى جاءت بعد « **ولولا أن ثبتناك** » . . إنه يا محمد فلتعلم أمتك كلها . . وليعلم العالم أجمع أن من هو قريب منى . . وأكشف له عن آياتى . . ثم يعصى ويبتعد له حساب أقسى كثيرا من ذلك الذى لم أكشف له عن هذه الآيات . . وحكمة الله سبحانه وتعالى جاءت فى بداية الآية « **ولولا أن**

ثبتناك » . . ولولا حرف امتناع ومعنى ذلك أن كل ما بعدها ممتنع لوجود التثبيت من الله . .

إذن فمعنى الآية الكريمة : أنت يامحمد مثبت من السماء . . ومثبت بفطرتك السليمة . . ولكن الذى يقترف ذنبا من عامة الناس له مقياس فى الحساب . . والذى يقترف ذنبا ممن نريه آياتنا يضاعف له العذاب . . مقام الود من الله يدقق المقاييس . . وهذا واضح فى الآية الكريمة التى طلب فيها عيسى بن مريم من الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء لقد رأوا المائدة تنزل من السماء . . آية محسوسة ملموسة اختص المسيح والحواريون برؤيتها ولذلك قال تعالى . . « **فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** » .

إذن فالآية الكريمة ليس المقصود بها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وافق على ما طلبه الكفار من أن يعبد الهههم عاما . . ويعبدوا الله عاما . . ولكن المعنى أنك يا محمد مثبت من لدنا فهذا ممتنع عنك تماما أن تميل إليهم ولكن القرب منى وكشف آياتى لمن أريد يجعل أولئك الذين فى مقام الود والكشف من الله سبحانه وتعالى . . لهم عذاب مضاعف لأنهم رأوا ثم كفروا بعد رؤيتهم لآيات الله .

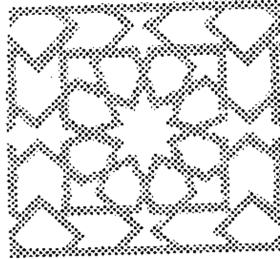
الآية ليست لوما لرسول الله ولا أخذا عليه وإلا لما ابتدأت بحرف امتناع يمنع وقوع الفعل . . ولكنها شرح لكل بشرية مؤمنة . . بأنه على قدر الود يكون الحساب . . وأن من يكفر بعد أن رأى آيات الله وعرفها فإن حسابه ليس بميزان كحساب باقى الناس . . ولكنه بميزان أدق وحساب مضاعف .

هذه هى بعض الخواطر التى أردت أن أشرحها حول عتاب الرسول فى القرآن الكريم . . فالعتاب كان على الاسراف فى الاجتهاد للدعوة . . والحزن على غير المؤمنين ومحاولة الاستغفار للكفار أو الصلاة عليهم بعد موتهم . . وفى ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رحمة للعالمين يجهد نفسه فى هذا . . ويحملها ما فوق طاقتها . . فنهاه الله عن هذا وقال له . . استغفر لهذا الاسراف الذى قمت به ولم يكن مطلوبا منك .

أما مسألة ميل رسول الله إلى الكفار وأخذ الآية الكريمة « **ولولا أن ثبتناك** » على أنها لوم للرسول فالرسول لم يمل للكفار قط . وإلا لما بدأت الآية بحرف الامتناع لولا . . ليؤكد الله سبحانه وتعالى امتناع حدوث هذا الشىء . . ثم

ليخبرنا أنه بقدر الود إلى الله والقرب منه وكشف الله لآياته لعباده يكون الحساب للذى يضعه الله فى منزلة أعلى ويريه آياته إذا كفر بعد ذلك .. يكون حسابه ضعف عامة الناس أو كما قال الله لعيسى والحواريين « **فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين** » .

على أن الله سبحانه وتعالى كان دائما يثبت رسوله كلما ذهبت نفسه حسرات على عدم إيمان الناس .. وعدم استجابتهم للدعوة .. واشفاقه عليهم وما سيلقونه فى الآخرة .. وفى هذا لابد من الحديث عن معجزة الاسراء والمعراج .. وهو موضوع الفصل القادم ..



الفصل السادس

معجزة الإسراء والمعراج

معجزة الاسراء والمعراج تختلف عن المعجزات التى سبقتها فى المفاهيم والمعنى .. وفى جوانب كثيرة .. ولعل ما من معجزة حدثت لنبى أثارت جدلا مثل معجزة الاسراء والمعراج .. ذلك أن المعجزات السابقة كانت تخرق قوانين الكون .. وكما بينت فى الجزء الأول من كتاب معجزة القرآن أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون لم يتركه هكذا عشوائيا ، بل خلق كل شيء بقانون دقيق : الأرض لها قوانين .. والشمس لها قوانين .. والنجوم لها قوانين .. والماء له قوانين .. وكل خلق من خلق الله سبحانه وتعالى له قوانين .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ويتركه لهذه القوانين بل هو قائم على خلقه إلى يوم الدين .. ومن هنا فإن الله وهو القيوم مادام قد خلق هذه القوانين ، وأوجدها ، هو وحده القادر على أن يخرق هذه القوانين لمن يشاء من عباده .. وهذه هى المعجزة .. والمعجزة تتم لتثبيت المؤمنين فى حالات إيمانية معينة ، يواجه فيها المؤمنون بالله بمحنة شديدة فتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتحدث معجزة تثبت الإيمان فى القلوب .. فتنصر المؤمنين على الكافرين ..

على أن هذه المعجزات كلها معجزات مشهدية .. أى أنه يشهد حدوثها مع رسول الله عدد من المؤمنين الذين يريد الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم .. وهنا الاختلاف بين معجزات الرسل .. ومعجزة الاسراء والمعراج .. ذلك أن المعجزات السابقة حدثت أمام جمع من المؤمنين .. وهى معجزات كونية .. أى أنها خرق لقوانين الأرض .. أما معجزة الاسراء والمعراج فقد حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده .. وخرقت له فيها قوانين السماء .. وهنا الفارق الكبير .. ذلك أن رسول الله هو البشر الوحيد الذى أسرى به الله سبحانه وتعالى بالجسد من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى .. ثم عرج به إلى السماء .. وهو البشر الوحيد الذى فتحت له أبواب السماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى بالجسد والروح معا ..

على أن بعض الناس يجادل فى هذه النقطة .. وهى مسألة الاسراء والمعراج بالجسد أو بالروح .. وهم يقولون لماذا يصر بعض العلماء على أن معجزة الاسراء والمعراج تمت بالجسد والروح .. بينما الأقرب إلى العقل والمنطق أن تكون قد تمت بالروح وحدها .. وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما رأى وهو نائم .. كما يرى أى إنسان أشياء فى الحلم .. وأنه لا يجب أن يتعب

العلماء أنفسهم فى نقطة الاسراء بالجسد مادامت تصطدم مع العقل والمنطق . . والاسراء بالروح لا يقلل من قيمة المعجزة . . وإلى هؤلاء جميعا أحب أن أقول أن مسألة الاسراء بالجسد مسألة أساسية . . لماذا ؟ لأننا لا يمكن أن نطبق العقل والمنطق على قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإذا كان الله هو الفاعل فلا نقول أن ذلك أقرب إلى العقل . . أو أبعد عن العقل . . بل هنا يتوقف حكمنا بالمنطق والعقل لأن قدرة الله سبحانه وتعالى فوق كل العقول . .

ومن هنا فإننا إذا حاولنا أن نضع قيودا لمعجزة الاسراء والمعراج . . ونقول انها أقرب إلى العقل أن تتم بالروح ، بدلا من أن تتم بالجسد إلى آخر ما نقول فى هذا الشأن . . فإننا بذلك نضع قيودا على قدرة الله سبحانه وتعالى فى أن يفعل ما يشاء . . وهنا الخطأ . . ذلك أننا حين ننقل الأمر من قدرة البشر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فلا يجب أن نقيس هذه القدرة بقدرة العقل البشرى مهما كانت . . فإذا قال لى أحدهم أنه أقرب إلى المنطق والعقل أن يتم الاسراء والمعراج بالروح . . أقول له انك تحاول أن تضع على قدرة الله قيودا من صنع عقلك . . والمخلوق لا يستطيع أن يقيد قدرة الخالق . . وفرق كبير بين قدرة الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وقوانينه . . وبين قدرة العقل البشرى الذى أعطى امكانية اكتشاف هذه القوانين . وفهمها والانتفاع بها . . فالقانون الأرضى يخرج من علم الله إلى علم البشر كما سبق أن أوضحت . . والله سبحانه وتعالى أعطى العقل القدرة على الاستفادة بهذا القانون واستخدامه . . لماذا ؟ لأنه سخر كل ما فى السموات والأرض لخدمة الإنسان ونفعه . .

ومرة أخرى أقول . . ان المعجزات الحسية التى تتم . . هى معجزات لتثبيت الإيمان . . فى وقت يزلزل فيه المؤمنون . . فيأتيهم من السماء ما يثبتهم . . وهى معجزات تحدث فى وقتها . . وتنتهى ولا تتكرر . . من رآها صدقها . . ومن لم يرها يمكن أن يصدقها . . ويمكن ألا يصدقها . . ولو أن هذه المعجزات لم ترد فى القرآن الكريم . . ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها . . لو أنها وردت فى كتب التاريخ مثلا . . لكان من الممكن أن يصدقها إنسان . . ولا يصدقها إنسان آخر . . كل حسب تفكيره وقدراته العقلية . . ولكن ورودها فى القرآن الكريم جعلها صادقة ثابتة . . يقينية . .

ولكن معجزة الاسراء والمعراج . . تختلف عن هذه المعجزات كلها . . فهى لم تقع على مشهد من المؤمنين . . تثبيتا لأيمانهم . . بل وقعت لرسول الله صلى الله عليه

وسلم وحده .. ومن هنا لم يكن الهدف منها كالمعجزات الحسية الأخرى ، تثبيتا للإيمان .. بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبلغ الناس بها .. لم يصدقه عدد منهم ..

إذن لماذا كانت معجزة الاسراء والمعراج .. مادامت تختلف عن معجزات الرسل الأخرى فى تثبيت الإيمان .. كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم للتبليغ .. عن الله سبحانه وتعالى .. فى أهم أركان الإسلام .. وهى الصلاة .. التى فرضت من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله علية وسلم مباشرة .. أى بلا وحى .. تعظيما لشأنها .. واجلالا لقدرها .. حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها الفرض الوحيد الذى لا يجوز لإنسان أن يتركه أبدا .. فصوم رمضان مثلا مباح تركه للمسافر والمريض .. على أن يصوم أياما أخر .. وغير القادر .. على أن يطعم مسكينا .. والزكاة مثلا ليست مفروضة إلا على من له مال .. أما من لا يملك مالا أو كان غير مستحق للصدقة مثلا .. فلا زكاة عليه .. والحج لمن استطاع إليه سبيلا .. إلا الصلاة .. فى الحرب والسلم .. وقت المعارك .. وفى ميادين القتال .. وقت المرض ووقت الصحة .. وقت القدرة على الحركة .. ووقت عدم القدرة على الحركة .. والإنسان يستطيع أن يصلى وهو نائم .. إذا كان المرض يقعده عن القيام .. وهو جالس إذا كان المرض يقعده عن السجود والركوع .. ولكن ترك الصلاة أمر لم يجعل له الله سبحانه وتعالى بديلا .. ولم يرفعه عن عباده .. ويجعل بدلا منه فداء .. وفرضه وقت السفر .. ووقت المرض .. وجعل فيه من التيسيرات ما يمكن كل إنسان من أداء الصلاة .. فى الحالة التى يكون عليها .. فأجاز الجمع بين الصلوات فى السفر .. إلى آخر ما نعرفه من أحكام الصلاة ..

إذن .. الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه .. لا يجب أن تنقطع أبدا .. وكل وقت له ميعاد .. وله أداء .. ولعظم شأن الصلاة .. ولكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ولكونها صلة العبد بالله .. ولكونها خشوع العبد لخالقه .. فقد فرضت مباشرة من الله سبحانه وتعالى للرسول .. وفرضت فى أكرم مكان عند سدرة المنتهى .. فرضت فى مكان من الرقى .. والقرب من الله سبحانه وتعالى بحيث لا يستطيع جبريل عليه السلام أقرب الملائكة لله أن يصل إلى هذه المكانة .. بل إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله عندما وصل إلى سدرة

المنتهى .. وطلب منه أن يتقدم .. قال جبريل لرسول الله إذا تقدمت احترقت .. وإذا تقدمت أنت اخترقت .. ومعنى ذلك أن نور الله سبحانه وتعالى فى هذا المكان بالذات لا يستطيع أن يتحمله حتى أعظم الملائكة .. المكان عظيم وجليل .. يتناسب مع جلالة ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عبده .. ومن هنا نستطيع أن ندرك القيمة العظمى للصلاة كركن من أركان العبادة ..

على أننا قبل أن نستطرد فى هذا الحديث .. ونبين مدى اختلاف المعجزة .. فانما يقفز إلى أذهاننا عدة تساؤلات .. السؤال الأول : لماذا كان الاسراء والمعراج .. ولم يكن معراجا فقط .. أى لماذا أسرى الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. ثم بعد ذلك عرج به إلى السماء ..

إن فى ذلك حكمة تقتضيها المعجزة .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان عليه أن يبلغ ما كلفه به ربه .. والله سبحانه وتعالى كلف رسوله .. ليس أمام جمع من الناس .. على مرأى من أحد من أمته .. ولكنه كلفه بينه وبينه .. ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون فى هذه الحالة أمينا فى الاخبار عما أبلغه الله به .. أى أنه يكون وسيلة فى أمر يريد الله أن يعرفه لخلقه .. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الاسراء مقدمة للإيمان بالمعراج ..

الاسراء آية أرضية من مكة إلى بيت المقدس .. والمسافة من مكة إلى بيت المقدس فى ذلك الوقت لم تكن أمرا مستحيلا .. بل كانت القوافل تقطعها فى أيام أو أسابيع .. المهم أنه كان يتم السفر من مكة إلى بيت المقدس .. مهما اختلفت الوسيلة .. إذن المعجزة هنا فى الاسراء .. فى الزمن وحده .. معجزة الزمن هنا هى المقصودة .. فالله سبحانه وتعالى لا يحده زمن ولا مكان .. رسول الله أسرى به .. ثم صعد إلى السماء ثم عاد فى نفس الليلة .. معجزة الزمن هنا جعلت الناس لا يصدقون .. فأخبرهم رسول الله بالقوافل القادمة .. وبأشياء رآها على الأرض خلال الاسراء به من مكة إلى بيت المقدس .. والعودة .. ووصف لهم بيت المقدس .. أى أنه أعطاهم آيات أرضية حسية مشهودة على المعجزة .. وكان هذا مقصودا .. لأنه متى أعطاهم رسول الله هذه الآيات .. وهذه المعالم التى رآها فى الطريق بين بيت المقدس ومكة .. ثم بعد ذلك تأكدوا من أنها صحيحة .. فلاشك أن هذا يصبح دليلا

على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون فصعد إلى السماء . . إذن يكون ما علموه من آيات أرضية . . أو دلائل أرضية . . دليلا على صدق ما علموه مما حدث لرسول الله حين صعد إلى السماء . .

فالاسراء معجزة ، المراد بها الدليل الأرضى . . على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق قوانين الكون لرسوله . . وأسرى به من مكة إلى بيت المقدس فى زمن وجيز . . أو فى لا زمن . . ويكون فى هذه الحالة قد تأكد لهم أن الله قد خرق قوانين الأرض لرسوله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد خرق له قوانين الأرض . . فهو قادر على أن يخرق له قوانين السماء . . فإذا أخبرهم رسول الله بعد ذلك بشىء حدث . . فلهم أن يصدقوا المعجزة . . ولا يشكوا فيها . .

إذن . . الاسراء كان مقدمة أرضية للتثبيت . . وللدلالة على صدق ما حدث طبقا لمقاييس العقل البشرى . . ولكن بعض الناس يأتى الآن ويقول . . إن الإنسان يستطيع أن يسافر الآن من مكة إلى بيت المقدس فى أقل من نصف ساعة مثلا . . وأنا أقول لهم إن هذا لا يمس المعجزة . . فمعجزة الله تبقى معجزة خالدة مهما تقدم العلم . . فعيسى عليه السلام مثلا كان يبرىء الأكمه والأبرص . . ولكنه كان يبرئه بلمسة من يده . . والطب تقدم الآن . . وأصبح الطبيب باستخدام الدواء ربما يستطيع أن يبرىء الأكمه والأبرص ولكن المعجزة بقيت معجزة وهى أنه لا يمكن أن يقوم أحد من البشر بابراء الأكمه والأبرص بمجرد لمسه . . كما كان يفعل عيسى . . كذلك المعجزة بالنسبة لمحمد عليه السلام قد يستطيع إنسان أن يتخذ وسيلة ما ليقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس فى زمن قياسى . . ولكنه لن يستطيع أبدا أن يقطعها بجسده مجردا . . فتلك معجزة من الله لن يصل إليها بشر . . لا يستطيع إنسان أن يطير هكذا وحده فى الهواء . . ويقطع أى مسافة فى لحظات . . كما حدث لمحمد عليه السلام . .

إذن المعجزة هنا خالدة . . باقية فى طريقة حدوثها . . ولا يتأتى لأحد من البشر أن يصل إليها . .

يبقى بعد ذلك سؤال هام . . لقد كلم الله موسى عليه السلام . . وهو على الأرض . . فلماذا أسرى بمحمد عليه السلام إلى السماء ليفرض على عباده الصلاة . . ولماذا لم يكلم رسوله وهو على الأرض . . كما حدث لموسى ؟

معجزة الاسراء والمعراج

إن المعجزة الأولى وهى الاسراء .. تمت كآية أرضية .. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وروى ما رآه بين مكة وبيت المقدس .. رواه كآية أرضية ليقرب إلى أذهان البشر الآية السماوية التى حدثت .. فإن كان قد صدق فيما رواه عن القوافل .. والمشاهد التى مر بها وهو يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. فإن ذلك يدل على صدق روايته عن المعجزة الكبرى .. ويؤكد لمن يروى له أنها حدثت ..

وهكذا كان الله رحيما دائما بالعقل البشرى .. فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر غيبا هو فوق قدرة العقل البشرى .. وفوق طاقة البشر .. إنما يأتى بشىء قريب إلى فهمهم .. ليستطيعوا استيعاب هذا الشىء القريب ، أن يثبت إيمانهم .. ولا يسهل خديعتهم من غير المؤمنين الذين يحاولون التشكيك فى هذا الدين .. فنجد الله سبحانه وتعالى مثلا .. وقد كان فى علمه أن الناس سيعبدون العلم .. مبهورين بما يحقق .. ناسين قدرة الله سبحانه وتعالى .. يقول لهم : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له** » .. ثم قال الله سبحانه وتعالى « **ضعف الطالب والمطلوب** » .. وجاءت الآية الأرضية فوصل العلم بالإنسان إلى القمر .. ولكنه لم يستطع أن يخلق جناح ذبابة .. وهناك آيات أخرى كثيرة عن الموت والحياة .. والبعث تقرب إلى الأذهان .. كل هذا وتؤكده .. ليكون دليلا دامغا ضد الذين يحاربون هذا الدين .. وفى القرآن معجزات كثيرة تحدثنا عن بعضها .. وسنتحدث عن بعضها فى المستقبل إن شاء الله .

نعود مرة أخرى إلى معجزة الاسراء والمعراج .. وقد توقفنا عند سؤال هام ..

لقد كلم الله موسى عليه السلام وهو على الأرض .. فلماذا أسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء ؟ ولماذا لا يكلم رسوله وهو على الأرض ..

وقبل أن نبدأ فى الإجابة على هذا السؤال .. نعود للآية الكريمة التى تبدأ « **سبحانه الذى أسرى** » .. والذى أسرى هنا هو الله سبحانه وتعالى .. أما الذى أسرى به وعرج به إلى السماء .. وصعد به إلى السماء .. فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذن فالفاعل هو الله .. ومادام الفعل من الله .. فيجب أن تنسب القدرة إلى الفاعل .. أى إلى الله سبحانه وتعالى .. والله لا تحده حدوده .. ولا قيود .. ولا تنطبق عليه مقاييس البشر .. وليس عنده زمان

ولا مكان . . ومن هنا فعندما نتحدث عن المعجزة . . يجب أن تكون فى أذهاننا قدرة الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى . .

ونعود مرة أخرى إلى السؤال . . لماذا كلم الله موسى . . ورفع محمدا إلى السماء . . ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا أن يكلم رسوله وهو على الأرض ؟ وهل الله سبحانه وتعالى يحده مكان . . بحيث يرفع رسوله إليه . . أم أنه لا يحده مكان ولا زمان ؟

حينما نتحدث عن هذا كله . . لا يجب أن نضع أمامنا مقاييس البشر . . فالزمان والمكان هما خلق من خلق الله سبحانه وتعالى . . خلقهما للإنسان فى حياته الأرضية . . ولكن الله لا يحده زمان ولا مكان . . ولا قدرة . . ومن هنا فإننى لا يجب أن أفهم المعجزة بمقاييسى أنا . . وقدراتى أنا . . كبشر . . ولكن يجب أن أفهمها بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى لا يوجد عنده زمان ولا مكان . . فإذا نقصت المسافة . . وإذا قلت رفعه . . فمعنى الرفعة هنا شىء مختلف تماما عن معنى الارتفاع فى الجو مثلا . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين صعد برسوله إلى السماء . . ليس معنى هذا الصعود الذى نفهمه . . ولكن معناه الصعود الذى هو من قدرة الله . . والعمل يتناسب دائما مع القدرة . . ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قد غير الله بقدرات الله من طبيعة الأشياء . . بحيث وصل إلى منزلة هى أكبر من منزلة أكبر الملائكة المقربين إلى الله سبحانه وتعالى . . وكما أن الأرض خلق الله لها قانونا . . فالسماء قد خلق لها سبحانه وتعالى قوانين . . ومن هذه القوانين أنه لا أحد بصورته البشرية يستطيع أن يصل إلى السماوات . . أو يخرج من عالم الأرض . . وعالم الأرض هنا ليس معناه القمر . . ولا النجوم المحيطة بالأرض . . ولا الشمس . . فهذه كلها مجموعة شمسية . . هى مجموعة الأرض . . وكلها تتفاعل معا . . وتتأثر معا . . بقوانين قد وضعها الله لها ليكمل بعضها بعضا فى المهمة التى حددها الله لها . . فالشمس مثلا إذا غابت اختلت الحياة فى الأرض . . والقمر إذا اختفى . . ربما حدث خلل فى قوانين المجموعة الأرضية . . إذن فهذه المجموعة الأرضية التى تضيئها الشمس التى نراها كل صباح إنما هى مجموعة واحدة . . خلقها الله سبحانه وتعالى وسخرها لخدمة الإنسان . . فالشمس تخدم الإنسان . . فتعطيه الدفء . . وتمكن له سبل الحياة . . وتنبت له الزرع . . إلى آخر ما يحدث . . ولو غابت هذه الشمس لتحولت الأرض إلى كتلة من الجليد

لا يعيش عليها البشر . . والريح . . والسحاب . . ونظام الكون . . كل ذلك مسخر للإنسان . . إذن فى داخل هذه المجموعة الشمسية حركة الإنسان . . وفى خارجها مئات من المجموعات الشمسية والكواكب . . مثل المجموعة الشمسية الموجودة فيها الأرض . . كلها من خلق الله . . وكلها لها قوانين تتبعها . . ولها مهام يعلمها الله سبحانه وتعالى . .

ولكن الله . . وهنا يجب ألا ننسى أن القدرة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى . . قد خرق كل هذه القوانين لمحمد عليه السلام . . وجعله بإذن الله وبأمره يخرج من هذه المجموعة إلى الكون الأعلى ليرى من آيات الله ما لم يره بشر . . وليصل إلى سدرة المنتهى . . وليسمع صرير الأقلام . . وليس معنى هذا أن كل ذلك محدود بمسافة ومكان . . ولكن معنى الرؤية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه انتقل بقدرة الله من هذه المجموعة الأرضية . . إلى ما هو أرقى وأعلى منها . . وهذا الانتقال يقتضى تغيير طبيعة البشر من حال إلى حال . .

ولكى أقرب هذا إلى الأذهان . . أحب أن أقول ان الله سبحانه وتعالى مع كل آية سماوية يعطينا ما يقربها للأذهان . . فى حياتنا الأرضية . . فالإنسان مثلا طبيعته وهو نائم تتغير عن طبيعته وهو مستيقظ . . فهو حين يكون مستيقظا يعيش الحياة الأرضية العادية . . فإذا نام فقد يرى أشياء لا تخضع لقوانين الكون . . كأن يرى مثلا أماكن لم يرها فى حياته . . ولم يسمع بها . . وقد يلتقى مع أناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة . . ويكلمهم ويكلمونه . . وقد تحدث له أشياء لا تتفق مع طبيعة العقل البشرى . . كأن يقفز من فوق جبل عال . . وينزل سالما على الأرض . . أو ينتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها فى لحظات . . أو يرى عالما لا يوجد فى حياتنا الأرضية . . أو يذهب إلى مكان بعيد مئات الألوف من الأميال . . كل ذلك يحدث فى لحظات . . والإنسان نائم . . فإذا استيقظ ذهب عنه كل هذا . . وبدأ حياته الأرضية العادية . .

ما معنى هذا الكلام كله . . معناه أن طبيعة الإنسان . . والقوانين التى تحكم الإنسان وهو نائم . . تختلف اختلافا كليا عن تلك القوانين التى تحكمه وهو مستيقظ . . فهو يرى وعيناه مغلقتان . . ويتكلم ولسانه لا يتحرك . . ويسمع بينما لا أصوات حوله على الاطلاق . . كل ذلك يحدث خلال النوم . . لماذا ؟

لأن طبيعة البشر هنا اختلفت . . ومع اختلاف الطبيعة اختلفت القوانين . . فأصبحت تلك القوانين التى تحكم الإنسان وهو مستيقظ بالمكان والزمان . . والرؤية بالعينين والكلام باللسان . . أصبحت كل هذه القوانين ملغاة . . وانتقل الإنسان إلى طبيعة أخرى . . تحكمها قوانين أخرى . . ألغت إلى وقت محدود . . كل القوانين الأرضية التى اعتدنا الحياة بها . . فإذا كان هذا يحدث للإنسان عندما ينام . . وهو جسد لا ينتقل من مكانه . . فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى التى لا تحدها قيود ولا حدود . . وألا تستطيع هذه القدرة أن تخضع الجسد البشرى وهو مستيقظ لنفس القوانين التى يخضع لها وهو نائم ؟ بل هى تمكن له من معجزات أكثر بكثير من ذلك . . فإذا اقتربت الصورة من العقل البشرى إلى هذا الحد . . استطعنا أن نفهم أن المعجزات التى تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . من خرق للقوانين البشرية . . والصعود إلى الملكوت الأعلى بالجسد . . هى معجزات أراد الله أن يقربها لنا بأن جعل البشر العادى يخرج من قوانين الأرض أثناء النوم . . فكيف بقدرة الله حين يريد أن يخرج رسوله من قوانين الأرض . .

إذن . . فالمعجزة تمت . . وتمت بقدرة الله . . ورأى رسول الله من آيات ربه الكبرى فى السماء . . أى أن موسى عليه السلام رأى آيات ربه الأرضية . . أما محمد عليه الصلاة والسلام . . فقد رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى . . وهنا الاختلاف . . بين المعجزتين . .

أما حديث الله سبحانه وتعالى . . فقد تم فى مكان المعجزة . . أو مكان الآيات . . التى أراد الله أن يكشف عنها لرسله . . فكشف الله لموسى آياته الكبرى فى الأرض . . وكلمه وهو على الأرض . . وكشف الله لمحمد عليه السلام آياته الكبرى فى الملكوت الأعلى . . وكلمه عند سدرة المنتهى . . والله موجود فى كلا المكانين . . وفى كل مكان وزمان . . ومن هنا فإن الحديث لم يكن مرتبطا بتحديد مكان الله سبحانه وتعالى . . فهو موجود فى الأرض . . وموجود فى السماء . . ولكنه كان مرتبطا بكشف الله سبحانه وتعالى لآياته الكبرى . . فعندما كشف الله آياته الكبرى لموسى فى الأرض . . كان الحديث وموسى على الأرض . . ومحمد عليه السلام رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى . . فكان الحديث حيث المعجزة . . وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان . . وليس كما يقول بعض المشككين بأن الله قد رفع إليه محمدا عليه

السلام ليكلمه فى الملكوت الأعلى . . وأن هذا تحديد لمكان يوجد فيه الله سبحانه وتعالى . . فالله بالآيتين كلام موسى على الأرض . . وكلام محمد فى الملكوت الأعلى . . إنما أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود فى كل مكان . . وأنه يستطيع أن يخاطب من يشاء . . وكيف يشاء سواء تم ذلك على الأرض . . أو فى الملكوت الأعلى . . أو فى أى مكان فى ملك الله . . فالآية هنا دليل على أن الله سبحانه وتعالى لا يحده مكان ولا زمان . .

إذن الاسراء والمعراج تما . . بالروح والجسد معا . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى أنبياءه معجزات . . وهذه المعجزات هى خرق لقوانين الأرض التى وضعها الله سبحانه وتعالى . . ومعجزة إبراهيم . . ومعجزات موسى وعيسى كلها جاءت لتبطل مفعول قوانين أرضية وضعها الله سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض . . فسلب الله النار خاصية الاحراق فى معجزة إبراهيم . . وأبطل قوانين الماء ليعبر موسى البحر . . وأعطى عيسى عليه السلام القوانين التى يشفى بها المرضى . . ويحيى بها الموتى بإذن الله . . وفى معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . . خرق الله له قوانين الأرض . . وقوانين السماء . . فجعله ينتقل من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس فى لحظات . . وفى هذا خرق لقوانين الأرض . . كمعجزة أرضية أن ينتقل الإنسان بجسده وبدون استخدام أى وسيلة أرضية متاحة من مكان إلى آخر فى وقت لا يستغرق أكثر من دقائق . . ولكن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن خرق له قوانين السماء . . فقانون السماء الذى وضعه الله سبحانه وتعالى هو ألا يصعد إنسان بجسده إلى السماء . . ولكن هذا القانون أبطل الله مفعوله لرسوله . . وجعله يصعد بالجسد حتى سدرة المنتهى . . ثم أراه الآيات الكبرى فى السماء . .

على أن لنا حديثا بعد ذلك حول الآية الكريمة « **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** » . . أى نزل من مكانه إلى مكان أقرب . . وهنا تدخل المسافات . . ولكن المعنى مختلف تماما . . فنحن نقيس البعد والقرب بالمسافة . . ولكن الحقيقة هى غير ذلك . . فنحن نأخذ الزمان والمكان أساسا لنا . . والزمان والمكان مخلوقان لله سبحانه وتعالى . . ومادام كل منهما مخلوقا لله . . فلا زمان ولا مكان فى حكم الله . . فلا يجب هنا أن نطبق قوانين البشر . .

على أننا فى هذه الحالة . . وكما قلت عدة مرات . . فإن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقول البشر . . يعطيهم فى الحياة ما يقرب إليهم فهم ما هو فوق طاقة العقل وقدرته . . فإذا أردنا أن نحلل هذه العبارة بالمقاييس البشرية . . عندما أقول ان فلانا قريب من قلب فلان . . أو قريب من فلان . . هل أنا استخدم فى هذه الحالة المسافة . . أبدا . . ذلك أنه قد يكون جالسا إلى جوارى تماما . . ولكن بين قلبيهما مسافة كبيرة خلقتها الأحداث من بغض وتنافر وتناحر . . ومن هنا فإن إنسانا يجلس إلى جوار إنسان قد يكون أبعد الناس عنه أو عن فهمه . . أو قد يكون أبغض الناس وأبعدهم عن قلبه . . بل إنه أحيانا يعيش اثنان فى بيت واحد . . وتحت سقف واحد . . وكلاهما فى عالم مختلف تماما عن الآخر . . وكلاهما بعيد عن الآخر فى كل شىء . . فى حبه وبغضه وعاداته . . وتقاليده . . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع . . ومن هنا فإن قرب الإنسان فى المسافة لا يعنى قربه من الإنسان الذى يجلس إلى جواره . . وإنما القرب يمكن أن يكون مع إنسان بعيد من ناحية المسافة . . فقد يكون أكثر الناس رؤية لك . . وقربا من مكانك . . هو أبعدهم عنك . . وقد يكون أقل الناس مقابلة لك . . وأبعدهم عن مكانك هو أقرب الناس . . إلى قلبك . . إذن فالقرب والبعد لا يمكن أن يقاسا بالمسافة . . ولا يمكن أن تنطبق عليهما مقاييس المكان . . ولكن تطبق عليهما مقاييس أخرى قد يكون أقلها شأنا هو المسافة . . ومن هنا فإننا لا يجب أن نأخذ الآية الكريمة « فكان قاب قوسين أو أدنى » . . بأن معناها دنو فى المسافة . . ولكن معناها قرب من القلب . . وهذا يأتى بالكشف . .

وإذا أردنا أن نوضح هذه العبارة . . فإننا نقول مثلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سبح الحصى فى يده . . وأنا شخصيا أحب أن أعدل هذه العبارة . . بحيث أقول لأجعلها أقرب إلى الدقة . . إن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده . . فالحصى يسبح فى يد المؤمن . . وفى يد الكافر . . وكل شىء فى الكون يسبح لله . . ولكننا لا نفقه ولا نسمع تسبيحهم . . وهذه الأشياء لا تسبح بإرادة الإنسان . . ولا دخل له فيها . . ولكنها تسبح بإرادة الله سبحانه وتعالى . . فرسول الله حين أمسك بالحصى . . سمع تسبيحها . . لأن الله سبحانه وتعالى كشف له عن ذلك . . ولكن أى إنسان يمسك بالحصى لا يسمع تسبيحها . . لأن الله لم يكشف له عن هذا التسبيح . . ومن هنا فإن الكشف يكون دنوا من الله سبحانه وتعالى . . وقربا منه . . بحيث يرى من شاء ما يشاء

من أسرار كونه . . والله سبحانه وتعالى يكشف ما يشاء لمن يريد . . فيقول الله سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾

(الآيتان ١٨ ، ١٩ سورة ص)

هل معنى ذلك أن الجبال توقفت عن التسبيح . . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

ومعنى ذلك أن كل ما فى الأرض يسبح لله . . ولكن الذى أعطى لغة تسبيح الجبال . . واستطاع أن يفهمها . . وسمعها . . هو داود عليه السلام . .

والسؤال الذى يحاول بعض الناس أن يوجهوه . . هو بأى لغة يتم هذا ؟ وأنا أتعجب كثيرا من هذا السؤال . . فاللغة ليست محدودة بالألفاظ . . الاشارات اللاسلكية التى تنتقل عبر العالم . . هى لغة لا يستطيع أن يفهمها إلا من يقوم بالعمل فى هذا المجال . . ويدرس هذه اللغات . . فإذا جئنا بإنسان لم يدرس هذه اللغة . . وجعلناه يستقبلها فلن يفهم شيئا . . والشفرة السرية المستخدمة بين الدول . . هى لغة أيضا لا يستطيع أن يفهمها إلا من يعطى مفاتيحها . . والاشارات البحرية مثلا لغة ثالثة يفهمها رجال البحار . .

إذن هناك بجانب الألفاظ المنطوقة لغات متعددة يفهمها أهل الأرض . . ويصطلحون عليها . . ولا يستطيع أن يفهم هذه اللغات إلا من أعطى مفاتيحها . . فكذلك تسبيح الجبال . . وتسبيح كل شىء . . لا يفهمه إنسان ولا يسمعه إلا من أعطى مفاتيحه . . تماما كما أن هناك تخاطبا بعشرات اللغات يتم عبر العالم . . سواء بالشفرة . . أو باللاسلكى . . أو بغيره . . ونحن لا نحس بها . . ولا ندرى . . حتى بمجرد وجودها . . ولا بما يتم فيها . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين كشف للنبى صلى الله عليه وسلم أسرار السماء . . وأراه الله آياته الكبرى . . كان ذلك فضلا من الله لنبيه . . ولا يمكن أن نضع نحن البشر بمقاييس الزمان والمكان . . ماهية هذا الكشف . . ذلك لأن

الله سبحانه وتعالى منزه عن الزمان والمكان . . لا أستطيع أن أقيس المسافة . . وأقول كم صعد رسول الله فى السماء . . لأن الله ليس عنده مسافة . . ولا أستطيع أن أقول . . كم من الزمن استغرق ذلك . . لأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن . . ولكننى أستطيع أن أقول ان ذلك حدث . . لأن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وكل شىء . . يستطيع أن يعطل القوانين لتتم معجزة من المعجزات لأنبيائه . . والمعجزة كما قلت سابقا لا تتكرر أبدا . .

وكما نقول فى صعود محمد عليه السلام إلى السماء . . نقول فى القرب منه . . فالقرب ليس بالمسافة كما أوضحت . . ولكن معناه التصاق بالقلب والروح . . لأن الوحى حين كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه كلام الله . . كان قريبا إلى قلبه . . وإلى روحه قربا لم يحدث لبشر قبله . . ومن هنا كان النبى صلى الله عليه وسلم . . أثناء الوحى يغيب عن الوعى . . وبعد الوحى يبدو مرهقا من امتزاج الوحى بالطبيعة البشرية . . وهو امتزاج لا يحدث إلا بأمر الله . . ومن هنا أيضا عندما نزل القرآن على رسول الله وهو يصف نزول الوحى . . ان جبريل جاءه وقال له اقرأ قال ما أنا بقارىء . . قال أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . . ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد . . ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى وقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء قال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

والغطة أو « الضمة » هنا هى تعبير من رسول الله عن القرب والامتزاج الذى يتم من خلال الوحى بالقرآن . .

ولقد رأى رسول الله فى السماوات السبع ما رآه . . وجاء وقص ذلك على الناس . . فمنهم من صدق . . مثل أبى بكر تصديقا إيمانيا . . لأن أبا بكر عندما روى له ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسراء . . سأل سؤالا واحدا هو هل قال محمد هذا ؟ قالوا نعم . . قال : إذن فهو صادق . .

وكان التصديق هنا أن رسول الله لا يكذب أبدا .. ولا ينطق عن الهوى .. ولذلك لقب أبو بكر بالصديق .. ولكن بعض الناس أنكروا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وهنا أخبرهم رسول الله من أنباء القوافل التى بين بيت المقدس ومكة .. فقالوا له صف لنا بيْت المقدس .. فوصفه وصفا دقيقا .. وكانت هذه الآيات الأرضية مقصودا بها .. أنه مادام رسول الله قد صدق فى ذلك .. فهو صادق فيما رواه عن المعراج .. وعن صعوده إلى السموات .. وعن اختراقه الحجب ..

تلك هى معجزة الاسراء والمعراج .. وهى معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الأرض .. وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى .. ويثبته .. ويفرض عليه أقدس العبادات .. وأقربها إلى الله سبحانه وتعالى وهى الصلاة .. والمقصود بالمعجزة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهى لم تحدث أمام جمهرة من الناس .. أو على مشهد من الملأ .. بل حدثت بين الله ورسوله .. وكشف له فيها أسرار السماوات .. وأسرار الكون ..

ماذا تعلمنا هذه المعجزة .. تعلمنا أولا قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يفعل ما يشاء .. لعباده الذين يختارهم .. وتعلمنا أن خاتم الرسالات قد فتح الله له .. ليس فقط ملك الله فى الأرض .. ولكن ملك الله فى السماوات .. تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان .. يكلم نبيا وهو على الأرض .. ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى .. ولو كان الله سبحانه وتعالى موجودا فى السماوات وحدها .. ما كلم نبيا له على الأرض .. ولو كان موجودا فى الأرض وحدها .. ما كلم نبيا عند سدرة المنتهى .. وأخيرا .. إن معجزات الرسل قد تمت على مشهد من المؤمنين .. لتثبتهم .. أما رسول الله فكونه خاتم المرسلين .. فقد اختص وحده بالصعود إلى السماء .. أما المعجزة الخالدة الباقية فهى القرآن الذى يعطى عطاء لكل جيل .. يختلف عن عطاء الجيل الذى سبقه .

حديث قدسـي

●● إذا كان ليلة القدر ينزل جبرائيل فى كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ، فإذا كان يوم عيدهم باهى بهم ملائكته فقال : يا ملائكتى ما جزاء أجير وفى بعمله ؟ قالوا : ربنا جزاؤه أن يوفى أجره . قال : يا ملائكتى : عبيدى وإمائى قضوا فريضتى عليهم ثم خرجوا يعجون - يصيحون - إلى بالدعاء ، وعزتى وجلالى وكرمى وعلوى وارتفاع مكانى لاجيبنهم ، فيقول : ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات فيرجعون مغفورا لهم .

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى ان من عبادى من لو سألنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألنى علاق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزائنى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ، ولكنى فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم . يا موسى ان فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وضاعفت لهم فى الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلؤك فى ليلك ونهارك .

●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شىء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتنى بعذاب لم تعذّب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزتى لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٢ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0176 – 3

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

٣

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

وحدة الكون.. وقدرة الله

وحدة الكون وقدرة الله

الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بوحدة الكون وقدرة الخالق .. وحدة الكون فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ٢٩

وقدرة الخلق فى الإعجاز الذى نراه فى كل خلق من مخلوقات الله .. سر الحياة المغلق .. مهما تقدم الإنسان فى العلم .. وتطور عقله وأعطاه الله وكشف له عن أسرار الحياة المادية فى الكون .

وبعض الناس يأتى إلى الآية الكريمة « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ليجادل فيها .. فهناك أشياء فى نظر بعض الناس قد قام البشر بالمساهمة فيها ، مثل الزرع .. مثلا .. والاختراعات الجديدة التى دخلت فى خدمة الإنسان كقدرته على الطيران مثلا .. أو الاستخدامات الحديثة للتليفزيون والاذاعة إلى آخر ذلك .. بعض الناس يقول إن هذا من عمل البشر .. فهذا من اختراع أو صنع العالم الفلانى .. وذلك من انتاج أبحاث أجريت إلى آخر ما يقال .

ولكى نبحث هذا الموضوع من أساسه نقول إن الأرض مرتبة هكذا .. جماد .. فنبات .. فحيوان .. ثم الإنسان .. الجماد .. فيأتى نمو فيكون نباتا .. ويأتى حس فيكون حيوانا .. فيأتى فكر فيختار بين البديلين فيكون إنسانا .. هذه هى كل الأجناس المرئية فى الأرض أو التى يراها الإنسان أو يحس بها .. ولسنا بصدد الحديث عن الأجناس غير المرئية فذلك يخرج عن موضوعنا .. كل الأجناس المرئية من جماد ونبات وحيوان والإنسان فى غير ما يفكر فيه ويختاره بإرادته الحرة بين البديلين .

كل هذه الأجناس بما فيها بما يدخل فى الإنسان نفسه .. ويعمل بحركة لا ارادية لا دخل لإرادة البشر فيها .. كالتنفس مثلا .. ونبضات القلب .. والدورة الدموية .. وعمل الجهاز الهضمى إلى آخر هذه الأشياء .. لا تدخل إرادة الإنسان فى عملها .. فأنت لا تستطيع أن تقول لقلبك انبض فينبض .. أو توقف عن العمل فيتوقف .. وأنت بإرادتك لا تستطيع إذا توقف القلب عن

العمل أن تعيده مرة أخرى أو إذا توقفت الرئتان عن التنفس بأن تجعلهما تتنفسان . . أو إذا توقفت المعدة عن هضم الطعام . . أن تصدر إليها تعليماتك فتعود مرة أخرى إلى عملها . . كل ذلك خارج عن الارادة البشرية . . أو عملية الاختيار التى اختص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان . . فى افعل ولا تفعل . . وأعطاه فيها حرية الاختيار بين البدائل المختلفة .

الجماد والنبات والحيوان . . والأجزاء التى تدخل ضمن جسد الإنسان ولا تخضع لإرادة ومنها خاصية النمو مثلا . . فهى غير خاضعة للارادة البشرية . . كل هذه الأشياء منضبطة انضباطا قسريا قهريا لا دخل لأحد فيها . . فالجماد مضبوط ضبطا مقصورا على مهمته . . والنبات مضبوط بحيث يؤدى مهمته . . فأنت تزرع البذرة فى الأرض فتتفاعل وتنبت لها جذور وساق . . دون أن يكون لك أنت أى دخل فيها . . بل إنك تستطيع أن تشاهد هذه العملية من خلال أنبوبة اختبار تأتى بها . . وتضع فيها البذرة فترى كيف تنمو بذاتيتها بما أودعه الله فيها من انسجام مع مهمتها فى الكون . . فتجد أن البذرة رغم أنها توضع فى أرض واحدة وتسقى من ماء واحد . . إلا أن كل نبات منها يمتص من الأرض ما يجعله صالحا لمهمته . . فتختلف الألوان . . ويختلف المذاق . . رغم أن الأرض واحدة . . والماء واحد .

هذا هو انسجام النبات مع مهمته فى الحياة . . وقد وضع الله سبحانه وتعالى فى هذا النبات خاصية الاختيار من مواد الأرض بما يلائمه ليتم انسجامه مع الكون ومع مهمته . . والحيوان أيضا منسجم مع مهمته فى الكون . . سواء ذلك الذى أخضعه الله سبحانه وتعالى وسخره لخدمة البشر . . أو ذلك الذى لم يسخر ولم يخضع لارادة البشر كالحيوانات المفترسة مثلا . . كل هؤلاء فى انسجام مع مهمتهم فى الكون .

● **الإنسان . . والقدرة**

يأتى بعد ذلك الإنسان . . الأجزاء غير الخاضعة لاختيار الإنسان منسجمة مع مهمتها فى الكون . . فالتنفس مثلا يتم بطريقة تلقائية وبلا صعوبة . . وكل

إنسان يجد حاجته من الهواء دون تعب أو مجهود . . والقلب ينبض دون أن تحس به . . بل إن القلب والتنفس والجهاز الهضمى وكل الأجزاء غير الخاضعة لارادتك . . تعمل وأنت مستيقظ . . وتعمل وأنت نائم . . وتعمل دون أن تحس بها فى انسجام كامل . . إلى أن تأتى أنت وتفسد مهمتها كأن ترهق المعدة بالطعام . . أو القلب بالمجهود أو تدخن مثلا بشراهة بما يفسد رئتيك . . هذا الفساد الذى جاء . . أنت الذى أدخلته بإرادتك . . وسوء استغلالك لنعم الله

التى أنعم بها عليك . . وهكذا الفساد فى الأرض جميعا . . يأتى من تدخل هوى النفس ليحاول الإنسان أن يغير ما فى الكون حتى يخضع لهواه . . هنا تبدأ عملية الإفساد . . فكل إنسان فى الأرض مرجعه إلى هوى النفس البشرية وإذا أردنا أن نصلح عدنا إلى القوانين والقواعد التى وضعها من لا هوى له . . وهو الله سبحانه وتعالى . . إذا فعلنا ذلك يصلح كل شىء . .

ولكن الإنسان يريد أن يمضى كل شىء على هواه . . وأن يضع موازين الحق لا على أساس الحق نفسه . . ولكن على أساس ما يشتهى ويريد . . ومن هنا نشأت التعاسة وجاء الشقاء إلى الأرض . . فلو أخذ كل إنسان حاجته فقط ما وجد جائع ولا فقير . . ولكن بعض الناس يأخذ أكثر من حاجته لا ليومه فقط . . ولكن لحياته كلها . . محاولا بذلك أن يصل إلى ما يسميه الأمان . . بينما لو عرف الحقيقة لعلم أن الأمان بيد الله لأن الغد بيد الله . . وما تحرص عليه أنت اليوم . . قد يذهبه الله إذا شاء غدا . . وما ليس معك اليوم . . قد ينعم الله به عليك بعد ساعات . . إذن الضمان البشرى فى حقيقته يجب أن يكون متصلا بالله سبحانه وتعالى . . وليس بماديات الحياة . . ذلك أن قدرة الله هى التى تعطى وتمنع . . وتنعم وتذهب النعم .

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ٢٩

وخلق الأرض والسموات وكل ما فيهما هو لله سبحانه وتعالى . . وهذه قضية

لا جدال فيها . . فلم يأت أحد ويدعى أنه خلق الأرض . . أو خلق السموات . . أو خلق الشمس والقمر والنجوم . . أو خلق ما على الأرض من حياة . . ولو أن هذا الخلق لغير الله سبحانه وتعالى لوجدنا من يجىء ويقول أنا خلقت . . ولكن أحدا لم يدع ذلك حتى ولو مجرد ادعاء . . ومن هنا فإن قضية الخلق ثابتة لله سبحانه وتعالى بلا جدال . . وبلا مدعين . . على أن هناك خلقا بالقدرة . . وخلقا بالقوة . . الخلق بالقدرة هو ما وضعه الله سبحانه وتعالى فى الأرض منذ بداية الخلق . . وما وضعه من قوانين لاستمرار هذا الخلق . . فأنت حين تجىء وتدعى انك أنت الذى زرعت هذه النخلة . . نقول لك من أين جئت بالبذرة أو النواة التى زرعتها ؟ . . فتقول من نخلة كانت مزروعة . . ومن أين أتت بذرة أو نواة هذه النخلة التى كانت مزروعة ؟ . . فتقول من النخلة التى سبقتها . . وهكذا حتى تصل إلى الخلق الأول . . فكأن هذه البذرة التى وضعتها فى الأرض هى ثمرة البذرة الأولى التى خلقها الله سبحانه وتعالى ـ فقدرة الله هى التى أوجدت هذا . . رغم أنك تكون قد حرثت الأرض لتضع البذرة . . مهمتك كلها فى الزرع هى الحرث فقط . . أما البذرة نفسها فهى من الخلق الأولى الذى تكرر حتى وصل إليك .

قد يقول بعض الناس إن هناك أصنافا جديدة . . تأتى من تطعيم بذرة ببذرة . . أو من أبحاث معينة على البذرة نفسها . . تطعيم بذرة ببذرة هو من خلق الله للبذرة الأولى والثانية . . وكل ما فعلته أنت . . هو أن الله هداك إلى هذه الطريقة . . ولكنك لم تخلق شيئا جديدا . . وتحسين البذرة بما تستخدمه من مواد فأنت أيضا تستخدم ما خلقه الله دون أن تخلق شيئا جديدا .

● والعلم الحديث

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها اكتشافات لقوانين الكون . . فالذى اخترع الطائرة لم يخلق الغلاف الجوى الذى تطير فيه . . ولا خلق المادة التى تصنع منها الطائرة . . وإنما خلق بقوة الله سبحانه وتعالى الذى أعطاك المادة وأعطاك القوانين التى تعمل بها . . ثم أعطاك القوة التى

تجعلك تكتشف كل هذه الأشياء .. وما يقال عن الطائرة يقال عن باقى الاختراعات .. فلم يخلق إنسان مادة .. ولا خلق قوانين فى الكون .. وإنما هو كشف لخلق الله سبحانه وتعالى فى كونه بما يريد سبحانه وتعالى أن يكشفه لخلقه من أسرار الابداع فى الكون .. إذن فقول الله سبحانه « **خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » ينطبق على ما كان موجودا قبل نزول القرآن .. ووقت نزول القرآن .. وبعد نزول القرآن إلى أن تقوم الساعة .. وكل ادعاء بأن هناك إنسانا خلق شيئا هو ادعاء غير صحيح .. وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أنه خلق مظاهر الكون الثابتة الرتيبة التى يحسب الإنسان أنها لا تتغير كالشمس والقمر والأرض والنجوم .. كل هذه الآيات إنما هى لحياة الإنسان على الأرض .. فمتى ذهبت هذه الحياة .. وجاءت الساعة تغيرت الأرض والسماء والنجوم وكل ما حولها .. وانقلبت الحياة كلها من حياة تستخدم فيها الأسباب .. إلى حياة ينعم الله فيها على عباده دون أسباب .. فتنفعل الأشياء لك بمجرد أن تأتى إلى خاطرك .. فإذا تمنيت الشيء وجدته أمامك بقدرات الله وليس بقدراتك أنت .

ووحدة الكون .. تنبع من قدرة الخالق سبحانه وتعالى .. والله يريد أن يذكرنا دائما بقدرته .. ولذلك وضع فى الكون آيات تذكرنا بهذه القدرة .. وأبقى فيه مع الأسباب طلاقة القدرة حتى لا نعبد الأسباب .. وأرسل لنا الرسل لنتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا .. واننا ملاقوه .. وان بدء الحياة من الله والحياة تعود لله سبحانه وتعالى .. وان الله ينصر الذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة .

وقبل أن نتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى وكيف يذكرنا بها نريد أن نقف وقفة صغيرة هى موضوع جدل كبير بين المستشرقين .. ذلك هو تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالملائكة فى غزوة بدر .. بعض المستشرقين يثير هذا الموضوع على أساس أن النتيجة لا تتناسب مع حجم الحدث نفسه .. والمعروف أن الملك الواحد له قدرة وقوة من الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يدمر بها مدينة

بأكملها . . فكيف يمد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذا العدد من الملائكة فى معركة محدودة كمعركة بدر ، عدد القتلى من الكفار فيها يزيد قليلا على سبعين . . وهل يتناسب هذا العدد مع من قتله المسلمون ومن قتلهم الملائكة . . نقول لهم . . إنكم لم تفهموا الحكمة من تأييد الملائكة للمسلمين فى هذه الغزوة . . فالذى لاشك فيه أن الملائكة ثبتوا المسلمين على القتال لأن قريشا كانت لها هيبة كبيرة بين القبائل . . وكان هذا التثبيت عاملا حاسما فى النصر . . ولكن الحدث نفسه من الله سبحانه وتعالى العليم بالغيب وبما هو قادم . . يتناسب مع النتيجة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه من أصلاب بعض هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين فى بدر سيخرج من يدافع عن دين الله . . ويقاتل فى سبيله . . ويكون نصيرا ونصرا للإسلام . . ولكن المقصود بالقضاء عليهم فى غزوة بدر هم أئمة الكفر الذين ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون . . والذين نستطيع أن نشبههم الآن بمجرمى الحرب . . أى الذين لا يكتفون بقتال المسلمين بل يحرضون غيرهم ويدفعونهم إلى محاربة دين الله . . هؤلاء علم الله سلفا أنهم أعداء دينه . . وإنهم سيحاربون الله ورسوله ما بقى فيهم نفس يتردد . . ولذلك كان القضاء على هؤلاء دون غيرهم من الذين جاءوا لمقاتلة

المسلمين فى غزوة بدر إما مدفوعين أو بحمية الجاهلية . . فإذا قلنا إن الملائكة قد ثبتوا المؤمنين بأنهم معهم يكون ذلك صحيحا . . وإذا قلنا أن الملائكة شاركوا فعلا فى المعركة يكون بأنهم قد قتلوا أئمة الكفر الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين . . وإذا كان الحدث هنا لا يتناسب مع القدرة . . فإنه يتناسب مع الحكمة والهدف . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك الكفار جميعا . . بل لو أراد أن يهلك من فى الأرض جميعا لأهلكهم فى لحظة بكلمة « كن » . . ولكن الهدف هنا لم يكن الكفار على اطلاقهم لأن الله يعلم أنهم سيهتدون وسيكونون من الداعين لدينه . . المجاهدين فى سبيله .

تبقى بعد ذلك عدة أسئلة . . إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم يهلك الله سبحانه وتعالى أئمة الكفر بلا قتال . . وهو قادر على ذلك . . والجواب سهل

ويسير . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينصر دينه على أيدى المؤمنين من عباده ولا يريد أن ينصر دينه بطلاقة قدرته . . وإلا لكانت طلاقة القدرة هى الأساس . . ولما احتاج الله سبحانه وتعالى لأن يرسل رسولا أو نبيا . . فالله يريد منا أن نأتيه طوعا واختيارا . . أى نأتيه بإرادتنا الحرة طائعين ونحن فى نفس الوقت نملك الخيار فى أن نفعل ذلك أو لا نفعله . . فإذا فعلنا وجئنا طائعين مؤمنين فإن الله قد كتب على نفسه أن ينصر الذين آمنوا ويؤيدهم ويدافع عنهم ويثبتهم . . وهو يريد هنا أن يثبت الذين آمنوا ويعطيهم ثقة فى النفس وقدرة تعدهم للمهام القادمة من فتح مكة والجزيرة العربية وباقى أنحاء العالم . . ولذلك فهو يثبتهم بالملائكة . . ويخبرهم بذلك حتى إذا جاء قتال جديد . . دخل المؤمنون المعركة وكلهم ثقة فى أن الله سبحانه وتعالى معهم . . وإنه سينصرهم مهما كان عدوهم . . فزالت الخشية من قلوبهم . . وملأتهم شجاعة الإيمان . . وصلابة الإيمان . . وبذلك يكونون قد أعدوا الاعداد الصحيح والسليم لكل ما يكلفهم به الله سبحانه وتعالى من جهاد قادم . . ويأتى القرآن وهو كلام الله . . الذى لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة ـ يأتى ليذكر هذه الواقعة حتى يعرف الذين لم يشهدوا معركة بدر ، ان الله مع المؤمنين دائما وإنه يمدهم بالملائكة ليثبتوهم وينصروهم . . وهكذا يحس المؤمنون حتى قيام الساعة بتأييد الله ونصرته لهم . . وتبقى هذه الروح الإيمانية . . وتحول أولئك المجاهدين إلى رجال أشداء لا تدخل قلوبهم الرهبة من أعداء دين الله ولا يخافون الهزيمة مهما كانت قسوة عدوهم .

● الملائكة وغزوة بدر

ولأن الله سبحانه وتعالى يشرع للبشر فى الأرض . . فهو يأتى بالنظرية والتطبيق معا . . وكانت النظرية هى ما أورده الله سبحانه وتعالى فى كتابه . . وتطبيقها هو ما حدث فى بدر . . فالتثبيت بالملائكة له هدف إيمانى باق حتى قيام الساعة . . أما الخسائر فى المعركة فهى بالنسبة للكفار فهم أئمة الكفر الذين يحرضون الناس والقبائل على قتال المؤمنين . . وهكذا نجد أن الآية منسجمة

تماما مع الهدف الإيمانى وهو تأييد الله للمؤمنين . . والهدف الواقعى وهو التطبيق العملى لهذا التأييد بواقع حدث فعلا . . والهدف الغيبى وهو أن من بين هؤلاء الذين دفعوا لمحاربة المسلمين فى بدر . . من سيدخل الإسلام . . ومن سيحارب فى سبيل الله . . ومن سينصر دين الله .

هذه لمحة سريعة للرد على بعض الذين يحاولون النيل من دين الله بالتشكيك فى القرآن . . نأتى بعد ذلك إلى تذكير الله سبحانه وتعالى لنا بقدرته دائما . . وهذا التذكير هو رحمة بخلق الله . . ذلك أنه يبعدهم عن العذاب . . ويعطيهم الحياة الكريمة فى الأرض . . وفى هذا سأذكر بعض خواطرى عن سورة « الطارق » التى هى تتناول ـ كباقى سور القرآن ـ التذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وبأنه لا شىء فى هذا الكون يخرج عن هذه القدرة . . يقول الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ ﴾

الطارق آية ١

والسماء معناها : كل ما علاك وأظلك ، وكل ما يعلو الإنسان يطلق عليه اسم السماء . . وقد تحدث العلماء فى أول الأمر عن السماء على أساس أنها العلو المباشر فوقهم . . وكلما اهتدى كشفهم إلى ارتفاع جديد فى هذا العلو أطلقوا عليه اسم السماء . . حتى تم اكتشاف سبعة كواكب تدور حول الشمس . . فقالوا إنها السموات السبع . . ثم كشفت كواكب أخرى . . فيظل هذا التفسير لأنها وصلت اليوم إلى عشرة .

والحقيقة إنه ما من تفسير أخذ يضيق المسافة كالتفسير العلمى للسماء والله سبحانه وتعالى قال عن بناء السماء .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾

سورة الذاريات آية ٤٧

أى انه أعطى صفة السعة لبناء السماء . . ولقد سبق أن تحدثنا عن قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة البشر . . وقلنا إن الفارق بين القدرتين هائل . . بحيث لا مقارنة . . وان كل شيء تعتقد أنه وصف حقيقى لصفة من صفات الله فهو ليس كذلك . . لأن الله ليس كمثله شيء . . فإذا وصلت إلى شيء . . وأردت أن تضع لله صفة مثله نقول إنك قد أخطأت . . لأن الله ليس كمثله شيء . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى « **وإنا لموسعون** » . . فمعنى ذلك أن البعد لا نهائى . . لا يمكن أن يصل إليه عقلك المحدود . . فكل قول بأن الكواكب والنجوم التى نراها هى السموات قول غير صحيح ذلك أن الله حين تكلم عن الكواكب قال :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ ﴾

سورة الصافات آية ٦

فهذه الأجرام التى نرصدها هى فى السماء الدنيا . . وبقيت بعد ذلك السموات سقفا محفوظا كما أرادها الله سبحانه وتعالى . . وسعة لا نهائية لا تدخل تحت ادراك العقل البشرى . . فحين يقسم الله بها يجب أن نعلم أنها شيء هائل فوق قدرة كل العقول . . وإن بناءها وحفظها من معجزات الله سبحانه وتعالى .

● ما هو الطارق ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول « **والسماء والطارق** » . . ما معنى كلمة الطارق ولماذا يقسم الله بهذه الكلمة . . ان الرد على ذلك يأتى فى الآية التى تأتى بعدها . . « **وما أدراك ما الطارق** » . . كأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف المعنى الذى يريده الله سبحانه وتعالى من كلمة « **الطارق** » . . وانه سيعطينا هذا المعنى . . ولنقف عند هذه النقطة قليلا . . طارق اسم فاعل من طرق . . وطرق معناها ضرب بشدة ليحدث صوتا ننتبه إليه . . والطارق أيضا هو السائر بالليل . . ذلك أن الليل سكون وصوت الأقدام يسمع فيه ولا يسمع بالنهار وسط الحركة والضجيج . . وهناك ما يطرق الفكر ليتملك الإنسان . . كل هذه

المعانى تلتقى فى شىء واحد . . هو أن هناك شيئا حسيا . . أو ماديا . . أو نفسيا . . ينبهك بما يشبه الطرق . . فيجعلك تتنبه إلى ما لم تكن تفكر فيه أو مستعدا له . . وذلك يأتى من خارج نفسك وليس من داخلها ولكنه يؤثر فى هذه النفس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝ ﴾

الطارق الآيتان ٢ - ٣

والنجم الثاقب هو الذى يرسل شعاعه بالليل لتهتدى به . . أى أنه يثقب الظلام ليريك الطريق . . ومادام الله قد أحل لنا السعى بالليل والنهار . . فقد جعل طرق الهداية فى كل منهما فجعل الشمس والنور للنهار . . والنجوم والقمر لليل . . كل وقت له هداية . . فإذا استيقظت فى الصباح وجدت الدنيا يملؤها النور . . وإذا سعيت فى الليل كان القمر والنجوم هاديا لك . . فالله لا يتركك وحدك بلا هداية . . وتمضى السورة الكريمة :

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ ﴾

الطارق آية ٤

ما هى العلاقة بين السماء والطارق . . والنجم الثاقب . . والحفظة على النفس . . لو نظرنا نظرة سطحية لقلنا لا علاقة بين هذا كله . . ولكنه فى الحقيقة مرتبط ببعضه ليذكرك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فالله يريد أن يلفتنا إلى قدرته . . فقسمه بالسماء هو قسم القادر الذى بنى السماء بهذه العظمة من الاتساع وحفظها . . فقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق السماء يعرفها كل من يدرس علم الفلك . . وهو ينظر إلى هذا البعد اللانهائى من ملايين السنوات الضوئية دون أن يصل إلى السماء الأولى .

● **وبالليل أيضا**

ولكن السموات السبع غيب عنا محفوظ من الله سبحانه وتعالى .. وإن كنا نستطيع أن ندرك عظمة القدرة الإلهية فيه .. فإنها ليست شيئا محسوسا فى حياتنا .. ولكن قدرة الله فى الأرض ومن حولنا يجب أن تطرق عقولنا فى كل ثانية .. لأننا أينما ننظر إلى شجرة .. إلى زهرة .. إلى جبل .. إلى البحار .. إلى مخلوقات الله فى كل مكان .. هناك فى كل شىء آية تطرق عقولنا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. هذه الآيات التى تنبه العقل إلى عظمة الله وقدرته هى أمامنا فى حياتنا كلها .. وهى كالطرق الذى ينبهنا دائما إلى القدرة الالهية ..

والله سبحانه وتعالى حين يذكر بعد ذلك « **النجم الثاقب** » .. أى الذى يثقب الليل بنوره فإنه يريد أن ينبهنا إلى أن القدرة معنا .. سواء كنا مع الناس أو كنا فى مكان بعيد سحيق تستره الظلمة من كل مكان .. فالليل ستر للإنسان يعتقد فيه أن أحدا لا يراه .. لأن الظلام يخفى .. والسكون يضلل .. والناس فى الليل ينامون فلا يوجد أحد إلا أقل القليل .. ولذلك فإننا يجب أن نعلم أنه رغم هذا كله فإن هناك نورا يأتى ليثقب أى ظلام ويعرف كل سر .. حتى إذا غاب الناس عن الوجود وكنت أنت وحدك المستيقظ .. تلك هى قدرة الله وعلمه .. أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بهذا القسم أنه لا شىء يسترنا عنه .. نهارا أو ليلا فى أى مكان كنا فيه .. فإذا اعتقدنا أن النهار ونوره فيه رقابة من البشر .. وأن حركة الحياة قد تمنعنا من شر نريد أن نرتكبه .. فلنعلم أن الظلام لا يحمينا من الله .. ولنعلم أن هناك من يثقب الظلام .. ويعرف الخبايا التى تدور فى الليل .. فالله سبحانه وتعالى قدرته بلا حدود .. قد يقربها إلى أذهاننا عظمة السماء وسعتها وسر بنيانها .. والله يرانا .. سواء أضاء لنا الكون أو أظلم .. كنا بمفردنا أو كنا مع الناس .. هذه القدرة لابد أن تطرق أذهاننا باستمرار وتذكرنا كلما أردنا أن نقوم بمعصية أن الله يسمع ويرى .. وأننا لا نغيب عن قدرته أبدا .

ثم يذكرنا الله سبحانه وتعالى بأن ما نفعله لا يعلمه الله فقط . . ولكنه يسجله علينا . . فكل نفس عليها حافظ . . وكل شيء محفوظ عنده . . وكل صغيرة وكبيرة تحسب على الإنسان بحيث يذهل الناس يوم القيامة من دقة الحساب . . ويقول الكفار :

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

الكهف آية ٤٩

القدرة موجودة بالليل والنهار . . قادرة على أن تثقب كل ستر . . وهناك من يكتب ما لك وما عليك . . ما لك عند الله . . وما عليك مما سيحاسبك عليه الله . . فالإنسان فى كل كلمة يقولها . . وفى كل عمل يأتيه . . هو يتعامل مع الله سبحانه وتعالى . . فإن ظلم أحدا من عباده . . فالله يقتص للمظلوم . .

وإذا أحسن لأحد من عباده فالله يجزى المحسن . . وإذا أخذ أحد مالا حراما فالله يحاسبه . . فى كل عمل أنت تتعامل مع الله سبحانه وتعالى . . ولا تحسب أنك تستطيع أن تخدعه . . لأنك فى هذه الحالة تخدع نفسك . . فإذا أنت تظاهرت بشيء وأخفيت قصدك الحقيقى . . فتذكر أن قدرة الله سبحانه وتعالى تصل إلى ما فى داخلك وتحاسبك عليه . . وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون قوته مع الضعيف ضد القوى . . ومع المظلوم ضد الظالم حتى يكون هناك تكافؤ فى الفرصة . . وتعادل فى القوة . . يضع الميزان للحياة فى الأرض . . فلو أن الله كان مع القوى ضد الضعيف . . ومع الظالم ضد المظلوم لفسدت الحياة . . ولاستشرى الظلم فى الأرض . . ولأصبح الناس أسيادا وعبيدا . . ولزاد القوى قوة وزاد الظالم ظلما . . ولكن قدرة الله تأتى للقوى لتقول له إذا غرتك قوتك . . فتذكر أننى مع الضعيف ولا تغتر بنفسك ولا تمض بقوتك تفسد فى الأرض . . فإن القوى الحقيقى الذى لا يغلب هو الله سبحانه وتعالى وهو مع

الضعيف ضدك فاحذره . . وتذكر جيدا واجعل هذا يطرق فكرك كلما أقدمت على عمل يغضب الله . . فإذا طرقت قدرة الله عقلك فستتردد . . وربما توقفت إذا دخل الإيمان إلى قلبك لأنك ترى مع ذلك المغلوب على أمره . . قدرة الله . . التى هى أقدر منك بملايين المرات . .

وفى الحياة أمثلة كثيرة لقدرة الله سبحانه وتعالى . . إنسان تراه فى قمة السلطان والجاه والقوة . . وفى لحظة واحدة . . يتغير الموقف كله . . ويجد هذا الجبار نفسه فى السجن لا حول له ولا قوة . . قد يستجدى حارسه كوب ماء . . وقد كان قبل ذلك بساعات يحيط به مئات الحراس يتمنون اشارة من يده . . تلك عبرة من عبر الحياة وضعها الله سبحانه وتعالى كما وضع اذلال الجبارين فى الأرض . . ليذكرنا أن الله مع الضعيف وانه لا قدرة إلا قدرة الله . .

والله سبحانه وتعالى لا يحب أحدا إلا لعمله . . ولا يكره أحدا إلا لظلمه . . وبذلك يكون عدل الله سبحانه وتعالى تاما بين البشر . . وقدرة الله عندما تطرق العقل دائما . . تذكرنا بهذه الحقيقة . . تقينا من كل شر ننويه . . ولنعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى . . وأن كل قدرات البشر تتضاءل بل تكاد تنمحى أمام قدرة الله . . والله الذى يعطى الرزق لبلايين البشر على الأرض . . قادر على أن يعطى المؤمن ما يريد ويشتهى . . والله الذى ينجى ملايين الناس كل يوم من كروب وأزمات . . ويأخذ بيدهم بعيدا عن كل سوء . . قادر على أن يفرج كرب المؤمن وينجيه من كل سوء . . والمهم أن يعرف الإنسان أن كل شىء مكتوب ومحفوظ فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله فى الآخرة . . وهذه وقاية للنفس البشرية من أن تظلم وتطغى . .

● **والله يحفظ**

على أنه بجانب أن الكرام الحافظين يسجلون على الإنسان أعماله فإنهم يحفظون المؤمنين من شرور قد لا تستطيع القوة البشرية أن تردها . . فهناك أشياء فى كثير من الأحيان تحدث لك . . فإذا سألت أى شخص من الذين وقعت لهم

هذه الأشياء وكيف نجوت يقول لك لا أعلم . . لولا فضل الله ما استطعت أن أنجو . . ذلك أن قوة البشر المادية وقدرته المحدودة عاجزة عن دفع هذا الضرر . . ولذلك فهو لا يستطيع أن ينسب الفضل إلى نفسه . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا . . فهو يحفظهم من أشياء وشرور قد تدبر لهم أحيانا دون أن يعلموا بها . . والحفظ هنا يكون بقدرة الله وقوته .

ثم تستطرد الآية الكريمة :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾

الطارق آية ٥ ـ ٧

وهنا يجب أن ندقق فى المعنى . . الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى شيء هام حتى لا يأخذنا غرورنا فنحسب أننا نستطيع أن نغيب عن قدرة الله أو أن نخدعه . . فيقول للإنسان قبل أن تغرك قوتك . . وتبارزنى بالمعاصى . . وتكفر بنعمتى . . تدبر قليلا لتعرف مقدار نفسك . . أنت تحسب نفسك سيدا فى الكون . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعلك سيدا . . وأخضع لك كل قوى الكون اخضاعا جبريا . . لا دخل لارادتك فيه . . وكان هذا أولى أن تسجد لله شكرا على نعمه . . ولكن الغرور يأخذك . . وعبادة النفس . . وعبادة الفرد . . وظاهر الحياة الدنيا تجعلك تغتر بقدراتك . . فإذا حدث لك هذا . . فاجلس دقائق وتدبر مم خلقت . . من ماء دافق . . من خلية فى غاية الدقة لا ترى بالعين المجردة . . هذه الخلية الدقيقة . . هى أصلك . . من بعد آدم وحواء . . تتشكل هذه الخلية التى هى فى غاية الدقة . . ثم تبدأ فى العمل بقدرة الله . . فيسير كل شيء فى مساره . . فتجد أن هذه الخلية غير القادرة على أن تفعل شيئا ـ إذا تركت وشأنها ـ عندما تمسها القدرة تتشكل وبعضها يخلق عظاما . . وبعضها يخلق عضلات . . وبعضها يخلق أعصابا . . وبعضها يخلق عقلا . . وبعضها يخلق رئة . . وبعضها يخلق قلبا . . وبعضها يخلق عينين ولسانا وشفتين . . ويدين وقدمين . . وبعضها يبقى فى الجسم ليخلق نموا بعد

أن تأتى أنت إلى الدنيا . . وهكذا نجد أن هذه الخلية غاية فى الدقة تخلق ملايين الأشياء التى يتكون منها جسم الإنسان ودمه وكل ما يحتاجه هذا الجسم من حياة . . بل إنه من الشيء الواحد نجد أشياء فى الخلق . . فمن العظام . . نجد عظاما جوفاء . . وعظاما مسطحة وعظاما دقيقة . . ثم تتصل هذه الأجهزة بعضها ببعض لتبدأ العمل كوحدات متكاملة فينشأ جهاز عصبى متكامل . . وجهاز هضمى متكامل . . كل ذلك يدل على قدرة فائقة وهندسية الهية . . هى وحدها القادرة على اتمام هذه المعجزة . .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . لا تغتر بما أنت فيه من ابداع خلق . . ولكن إذا أردت فارجع هذا إلى أصله . . لتعرف عظمة القدرة الالهية . . فقدرات الخلق لا تكمن فى هذه الخلية . . ولكنها تكمن فى قدرة الله . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾

الطارق آية ٥

حتى لا يغره ما هو عليه الآن . .

على أن هناك بعض الناس يتساءلون . . إن آدم لم يخلق بهذه الطريقة . . فهل الخطاب فى القرآن موجه إليه . . نقول لهم إن هناك فرقا بين مشهدية الخلق . . وغيبية الخلق . . والله سبحانه وتعالى حين خلق آدم كانت هناك مشهدية الخلق . . أى أن آدم عرف كيف خلق ورأى الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فهو غير محتاج لهذا التذكير . . ولكننا نحن وكل من خلق بعد آدم . . كانت هناك غيبية فى خلقه . . أى أنه لم يعه ولم يشهده . . ولذلك فإنه فى كثير من الأحيان يغيب عن عقله أن يتدبر فيه . . ويأخذ الأشياء على أنها بديهيات . . أو مجرد تفاعلات تتم ، متناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى . . الذى جعل من هذه الخلية الدقيقة كل الأجهزة المعقدة فى الجنس البشرى . . ثم بعد هذا أعطاها كل أطوار النمو حتى الموت .

● لفتة من الخالق

فإذا كان الإنسان تغره قوته ، وقدرته فالله يلفته إلى خلقه . . ويقول له تذكر مم خلقت . . لتعرف قدرتى . . ولا تغتر بنفسك . . تذكر الخلية الدقيقة الصغيرة التى بدأ خلقك بها . . وقبل ذلك كنت عدما . . والله الذى أتى بك إلى الحياة . . وهنا نلاحظ دقة المعنى فى السورة الكريمة . . فالله سبحانه وتعالى يريد لقدرته أن تطرق عقولنا دائما لتكون حاجزا واقيا لنا من المعاصى . . فكلما أخذتنا الدنيا . . وغرنا ما نحن فيه من جاه وسلطان ونفوذ طرقت قدرة الله عقولنا . . لتذكرنا أن اللهموجود . . وأن هناك من يسجل علينا أعمالنا . . وأن نتدبر فى خلقنا لنرى القدرة . . بعض الناس يتساءل ما هى العلاقة بين النجم الثاقب والكرام الحافظين وخلق الإنسان ؟ كلها أشياء قد يخيل للناس انها غير مترابطة . . ولكنها مترابطة تماما . . وإن كانت تنتقل من موضوع إلى آخر فى أشياء يبدو أنها لا علاقة لبعضها ببعض . . بعض الناس يتساءلون ما هى العلاقة بين النجم الثاقب وخلق الإنسان مثلا ؟ ونحن نقول إنها تذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فالنجم الثاقب يذكر بأنه لا شىء يغيب عن علم الله مهما حاولت أن تذكره . . والخلق تذكير بعظمة الله وقدرته بالنسبة للإنسان . . وكيف إن هذه القدرة تأخذ خلية دقيقة لا ترى بالعين المجردة لتصنع منها الإنسان الذى يسود الكون .

ثم تمضى السورة الكريمة . . بعد أن ذكرتنا بالنجم الثاقب . . والكرام الحافظين . . وعظمة خلق الإنسان . . يقول الله سبحانه وتعالى « **إنه على رجعه لقادر** » إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا كله من عدم . . وأوجده وركبه . . من خلية متناهية فى الدقة . . أفلا يستطيع أن يعيده . . القدرة هنا تقول نعم . .

ولنضرب مثلا على ذلك ولله المثل الأعلى . . إذا أتيت بصانع صنع لك شيئا وتحطم هذا الشىء . . أفلا يستطيع أن يصنع غيره . . فى هذه الحالة يكون عليا أهون . . لأن الصناعة الأولى أكسبته خبرة تجعل اعادة صناعة الشىء أسهل

وأيسر . . وإذا كان ذلك فى القدرات البشرية المحدودة . . فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى التى هى بلا قيود ولا حدود . . وإذا كان الإنسان قد خلق من عدم . . أى إنه خلق من لا شيء ظاهر . . فإنه حين يموت ويتحلل لا يخرج عن قدرة الله . . لأن الله فى هذه « الحالة » يستطيع أن يعيده . . وهو أسهل عليه . . فالخلق الأول من عدم . . والخلق الثانى من شيء كان موجودا . . ولاشك أن الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود . . ونحن نقول هذا لنقرب المعنى إلى العقل البشرى ، فليس هناك عند الله سبحانه وتعالى سهل وصعب . . بل كل شيء يخضع لكلمة « كن » . .

والله حين يذكرنا بأنه على رجعنا لقادر . . ليس لأن الله محتاج إلى خلق من خلقه . . فالله غنى عنا جميعا . . لا يزيد من ملكه شيء إذا آمنا . . ولا ينقص من ملكه شيء إذا لم نؤمن . . ولكنه يذكرنا رحمة بنا لأن القرآن رحمة للناس جميعا . . وهو يريد أن تطرق عقولنا دائما عظمة الخالقة ، وضآلة المخلوق . . علّ هذه التذكرة تعود بنا إلى طريق الله . . وتمنعنا من المعصية . . فقول الله سبحانه وتعالى « **إنه على رجعه لقادر** » . . أى لا تحسبوا إنكم تستطيعون أن تخرجوا على سلطان الله أحياء كنتم أو أمواتا . . أو تخرجون من قدرة الله أينما كنتم . . وكيفما كنتم . . وهذا الاعجاز فى خلق الإنسان يزيد إيماننا بقدرة الله سبحانه وتعالى . .

● وتبلى السرائر

ثم تمضى السورة الكريمة فيقول الله سبحانه وتعالى « **يوم تبلى السرائر** » . . وهى تمضى فى نفس المعنى وهو أننا لا نستطيع أن نستر شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . والنية هى أساس الحساب عند الله . . ولذلك قال الله « **يوم تبلى السرائر** » . . النية محلها القلب . . وهى القصد الحقيقى الحر للإنسان . . فليس لأحد فى هذه الدنيا أن يجبر قلبك على ما لا تريد . . قد يخضع جسدك ويجعلك تفعل ما يطلبه منك كرها واجبارا . . وقد يخضع لسانك ويجعلك تقول ما يريده خوفا أو رعبا . . وقد يخضع حركتك فيضعك فى السجن أو فى مكان

لا تستطيع أن تغادره .. كل هذه القوالب المادية للجسد تخضع للقهر .. إلا القلب .. فلا إنسان يستطيع أن يخضع قلبك على شيء أنت لا تريده .. وأن يضع فى القلب مشاعر لا ترضى أنت عنها .. بل ان ما فى داخلك لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تضع فيه ما لا تريده أنت ما استطاعت .. ولقد ترك الله هذه المنطقة فى حرية تامة لأن الحساب يكون عليها .. ولكى يكون الحساب عدلا يجب ألا تتدخل أى قوى بشرية بالاكراه بل يخضع لإرادتك الحرة وحدها وهذه شهادة عليك لا لك ..

ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى الحساب عن كل من يكره على شيء مادام قلبه مستنكرا له .. يأباه ولا يريده .. حتى الإيمان والكفر .. القمة فى هذه الحياة .. قال الله سبحانه وتعالى .. « **الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** » .. وحتى الاكراه على الفاحشة فإن الله لا يحاسب عليها .. فالحساب أساسه الارادة الحرة التى هى فى قلبك .. مشاعرك الحقيقية التى لا يستطيع إنسان أن يكرهك فيها على شيء .. ولكن الله يحذرنا فى نفس الوقت من أن نعتقد أننا نستطيع أن نخدع الله .. فنقول « أكرهنا » .. مع أننا لم نكره .. بل فعلنا طائعين مختارين .. فهو يقول سبحانه وتعالى « **يوم تبلى السرائر** » .. أى يظهر الله سبحانه وتعالى حقيقة ما فى القلوب .. ونحن مهما بلغنا من الذكاء والفطنة والعبقرية .. قد نستطيع أن نخدع بشرا مثلنا .. أو مجموعة من البشر .. ولكننا لا نستطيع أن نخدع الله .. وفى الآخرة يظهر الله ما فى أنفسنا واضحا جليا بعد أن كان الإنسان يخفيه فى الحياة الدنيا .. والله لا يعلم السر فقط .. ولكنه يعلمه ويظهره يوم القيامة .. فإذا كنت قد حسبت إنك نجوت .. لأن أحدا لا يعرف ما فى نفسك .. أو حقيقة ما أخفيت .. فإن الله سيظهر هذا فى الآخرة .. فإذا أوجدت الفرصة لتعمل شيئا أنت متأكد انك تستطيع أن تخفيه عن الدنيا كلها ولا تحاسب عليه .. فاعلم انك لن تفلت من حساب الله .. فالسر يعلمه الله .. وإذا كانت لك قوة فى الدنيا تحمى هذا السر من أن يكتشف .. فإنه لن تكون لك قوة فى الآخرة ..

وتمضي السورة الكريمة « فما له من قوة ولا ناصر » . . القوة تنقسم إلى قسمين أساسيين . . إما أن تكون قوة ذاتية تملكها أنت بأية وسيلة من الوسائل فتحميك . . كقوة جسد . . أو قوة سلاح . . أو أية قوة أخرى تقف منعة من أن يصل إليك القصاص . . وإما أن يكون لك أقوياء ينصرونك على عدوك . . كأن تكون من عائلة ذات عزوة أو يكون حولك أناس أقوياء مسلحون يقفون معك وينصرونك على عدوك . . والسورة تمضى فى نفس المعنى . . فهى بعد أن تذكر الإنسان بألا يغتر بخلقه واخضاع الكون له ، تذكره بألا يغتر بقوته ولا بمن ينصرونه . . وفى الآخرة لن تكون لك قوة من ذاتك . . ولن تكون لك عزوة تنصرك وتعينك على من تظلم . . ولكن لماذا التذكير هنا بالقوة . . لأن القوة تغرى الإنسان بالظلم . . والمظلوم هو ضعيف أخذ قوى حقه . . فهو لا يستطيع أن يسترده . . والذى يبغى فى الأرض ويتجبر هو من له قوة تنصره وتعينه على هذا . . والله سبحانه وتعالى يقول لا تجعل الظلام يغريك بأنه سيسترك . . ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يتركك هكذا . . بل هناك حافظون يسجلون عليك كل ما تفعل . . ولا تجعل غرور البشرية يأخذك . . بعيدا عن الله . . ولا تحسب أن ما تخفيه ينجيك . . ولا تعتقد أن قوتك فى الدنيا . . سواء أكانت قوة ذاتية أم من أهلك واتباعك يمكن أن تحميك من الله . . دع كل هذا يطرق عقلك فى كل ثانية . . حتى تعرف قدرة الله فتتبع منهجه وطريقته .

● ذات الرجع

والله سبحانه وتعالى حين يذكرنا بالآخرة . . فلأن هذه هى أمنية كل إنسان أسرف على نفسه وأطلق لها العنان فى شهواتها بلا حساب . . وأمنية الكافر الكبرى هى ألا يكون بعد الموت شىء . . لأنه إذا استحضر الجزاء أصاب نفسه الخوف والهلع . .

ثم تمضى السورة الكريمة . . « والسماء ذات الرجع » . . والرجع هو المطر . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا هنا بحقيقة علمية هامة لم يكشفها الله لعباده إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين . . ولقد عرفنا فيما كشفه الله لنا من

علم بشرى أن مياة البحار تتبخر ثم بعد ذلك تصعد إلى السماء فتصبح سحابا ثم تعود إلى الأرض مرة أخرى على شكل مطر . . أى أن السماء ترجع الماء إلى الأرض . . ومرة أخرى تتم الدورة ، وتتبخر مياه البحار والمحيطات وينشأ السحاب ثم يعود الماء . . أى أن الماء الذى يترك الأرض يعود إليها مرة أخرى . . وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى « **والسماء ذات الرجع** » . . أى السماء ذات المطر . . هكذا تفهم لمن لا يعلم شيئا عن عملية البخر التى تتم . . ولا يوجد فيها تصادم مع عقل بشرى يجهل هذه الحقيقة العلمية . . فإذا عرفنا الحقيقة العلمية تكون الآية أدق فى المعنى وأشمل . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « **والأرض ذات الصدع** » . . أى الأرض التى تتشقق ليخرج منها الزرع . . وهذه أيضا تتكرر فى كل دورة زراعية . . فتتشقق الأرض ليخرج منها زرع . . ثم يأتى زرع جديد فتتشقق الأرض ليخرج منها المحصول الجديد . . كل شيء يأتى ويعود . . هذه هى قوانين الله فى الأرض . . وإذا كان كل شيء يعود . . مثلما يأتى . . فلماذا الإنسان وحده لا يعود ؟!! إذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل للماء دورة يعود بها إلى الأرض مطرا . . وجعل الأرض تعطى المحصول بعد المحصول إلى ما شاء الله . . فما الذى يجعل الإنسان يشذ ويقول . . إنه لن يعود مرة أخرى إذا كانت دورة الحياة فيها عودة . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يبسط أمام عقولنا ويعطينا مثلا لما يمكن أن يحدث فى عودة الإنسان . . فأعطانا مثل الماء والزرع . . ليبين لنا أنه قادر على اعادة الشيء مرات ومرات . . وأن المسألة ليست شيئا عسيرا . . ولكنها شيء يسير جدا يتكرر فى الحياة أمامكم . . وتراه عيونكم كل يوم . .

ثم تمضى السورة الكريمة « **إنه لقول فصل وما هو بالهزل** » . . وهنا يعطينا الله سبحانه وتعالى عمق القضية وجديتها . . فالله لا يسوق لنا كل ما تقدم لنأخذه باستخفاف . . ولكن لنأخذه بعمق وجدية . . لماذا ؟ لأنه فى الآخرة سيكون الفصل . . ولن تكون هناك أى فرصة أخرى لإنسان ليتوب أو ليرجع مرة أخرى إلى الحياة الدنيا . . ومادام فصلا فهو نهاية . . ليس بعدها

إلا الجزاء . . فلا يريد الله سبحانه وتعالى من أحد أن يأخذ هذا الكلام إلا بعمق وجدية . . حتى إذا جاء وقت الفصل لم تكن له حجة . . ولم يقل يارب لقد كنت أحسب أننى سأعود مرة أخرى إلى الدنيا . . أو كنت أطمع فى رحمتك لكى تعيدنى إليها . . وقد أعددت نفسى حين أعود على أن أعمل صالحا ترضاه . . أراد الله أن يبطل كل هذا فقال « **إنه لقول فصل** » . . أى حكم لا رجعة فيه . . وقال سبحانه وتعالى « **وما هو بالهزل** » . . أى ما سيلقاه العاصى فى الآخرة ليس هزلا . . كأن يقول بعض الناس « **لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** » . . أو يقولون إننا كنا نحسن الظن بالله . . أو يتحدثون باستخفاف حول النار وعذابها . . الله سبحانه وتعالى ينبههم أن هذه المسألة لا يجب أن نأخذها بهزل . . لأنه سيكون يوما عظيما . . وكل تذكيرى بهذا اليوم هو رحمة بكم . . وهو بذلك يريد أن يلفتنا إلى هول اللقاء الذى سيتم فى الآخرة حتى لا نستخف به . . بل نأخذ كلام الله سبحانه وتعالى على أنه بقدرات الله . . وقدرات الله ليس كمثلها شىء . . وكلما عظمت قدرة الله فى نفس المؤمن أحس بالهول الرهيب فى يوم القيامة . .

● أمهلهم رويدا

نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « **إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » . . هنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن هناك من يكيدون للمؤمنين . . ويكيدون لمحاربة دين الله . . وإذا سمعنا أو رأينا لفظا لا يصح أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى مثل الله يكيد وهم يكيدون . . فلنعلم أن ذلك اللفظ لوقوعه فى صحبة غيره . . ويبسط الأمور لنا . . فمثلا قول الله سبحانه وتعالى « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** » . . هل عندما نجازى صاحب السيئة يكون ذلك سيئة أيضا . . أبدا . . انك عندما تجازى صاحب السيئة على سيئته يكون ذلك حسنة . . وإنما سميت سيئة لوقوعها فى صحبة السيئة الأولى . . فالمعنى إذا كنت قد أسأت بفعلك فنحن حين نعاقبك على ذلك نسىء إليك . . أى نعمل شيئا يصيبك بالسوء . . وإن كان هذا الشىء فى حقيقته شيئا حسنا لأنه يدفع

السيئة .. أو على الأقل لا يجعلك تكررها مرة أخرى .. فإذا كان يدفع السيئة ، وذلك شيء يسوؤك لأنك لم تصل إلى هدفك الذى كنت ترجوه فأنت قصدت بالسيئة ايذاء معينا أو عملا تسيء به إلى إنسان .. ومادام الضرر لم يقع فإنك تحس .. إن كل ما قدرته وأعددته قد أبطله الله .. فيسوؤك ذلك رغم أن ما حدث هو فعل حسن .. وأما إذا قوبلت السيئة بالسيئة كأن تضرب إنسانا ضعيفا فيأتى من هو أقوى منك فيضربك .. فإنه فى هذه الحالة يكون ما حدث حسنا لأنه يعلمك ألا تفترى على الضعيف والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسلط عليك من هو أقوى منك .. وتعلم أنه إذا أغرتك قوتك فعليك أن تتذكر قدرة الله سبحانه وتعالى وحينئذ يكون الفعل الذى قوبلت به السيئة هو فعل حسن .. وإنما سميت سيئة كما قلنا لوقوعها فى صحبة الأولى .. فإذا كان أولئك الذين يكيدون ويخططون ويدبرون .. يفعلون ذلك لايذاء المؤمنين ومحاربة دين الله .. فإن الله يواجههم بنفس جنس عملهم .. أى أنه يتركهم يدبرون ما يدبرون .. ويدبر الله سبحانه وتعالى ما يبطل كيدهم ..

ولذلك فعندما نرى اناسا يحاولون أن يستغلوا العلوم المادية فى صرف الناس عن الإيمان أو مستشرقين يدعون البحث فى الإسلام .. وهم فى الحقيقة يحاولون أن يصلوا إلى أى تناقض ظاهرى يستغلون به عقول السذج والضعفاء .. وعندما أرى من يجادل فى خلق السموات والأرض إلى آخر ما يحدث امامنا هذه الأيام .. نعرف أن هؤلاء جميعا يحاولون الكيد لدين الله .. وتزيين الطريق المعوج .. مستخدمين فى ذلك كل الوسائل ..

وقبل أن نمضى فى الحديث عن هؤلاء الناس .. يجب أن نلتفت إلى حقيقة هامة هى أن دين الله سبحانه وتعالى يشتد ويقوى عندما يوجد من يحاربه .. فإذا رأيت الإسلام يضطهد فى أى مكان فاعلم أن ذلك بداية ليصحو الدين فى نفوس المؤمنين ويصبح قويا عاتيا يعصف بمن يحاربه .. وأى اعتداء على الإسلام إنما يعطى قوة دافعة لهذا الدين فى قلوب الناس .. وبعض المؤمنين يشفق من كيد الكافرين ضد الإسلام .. إما خوفا من أن يؤثر ذلك على المؤمنين ويجذبهم بعيدا

عن الطريق المستقيم وإما جزعا أن يؤدى ذلك إلى ضعف الدين وانصراف المؤمنين عن عبادتهم . . وكلا الرأيين غير صحيح . . لماذا ؟ لأن هؤلاء الكافرين يكيدون بقدراتهم البشرية . . فهم يأتون فى قضايا يحاولون اظهار تصادم القرآن مع حقائق الكون مثل تفسيرهم الخاطىء لكروية الأرض والذى تحدثنا عنه فى الفصول السابقة وأثبتنا أن قول الله سبحانه وتعالى « **والأرض مددناها** » دليل على كروية الأرض . . أو يأتون فى محاولة لاظهار تناقض فى القرآن الكريم . . كقول الله سبحانه وتعالى « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » ثم قوله تعالى

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ سورة العنكبوت آية ١٣

والحقيقة أن النفس الأولى التى يعنيها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **ولاتزر وازرة وزر أخرى** » وهى النفس التى ترتكب المعصية . . فكل إنسان يحاسب عن معاصيه . . ولايسأل عما فعله غيره من المعاصى . . أما النفس الثانية التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم** » . . هى النفس التى لاتكتفى بالمعصية . . بل تحاول أن تضل غيرها وتدفعها إلى المعصية . . فقد يكون هناك إنسان يصلى فيأتى شخص ويظل يجادله بالباطل حتى يصرفه عن صلاته . . وقد يكون هناك إنسان يدفع إنسانا آخر إلى المعصية دفعا . . وهناك نوع ثالث يحاول أن يستخدم كل مهاراته ومنطق خداعه ليضل الناس عن سبيل الله . . هؤلاء لايحملون أوزارهم فقط ولكن ينالهم نصيب من أوزار الذين أضلوهم . . وقد يأتى إنسان ليحاول أن يخرجك عن مفهوم الإيمان . . بأن يصل العبادات لغير الله . . كأن يقول إن الصلاة مثلا نوع من الرياضة إلى آخر مانسمعه ونراه . . ذلك كله نشهده هذه الأيام . . ونراه أمامنا فى كل لحظة .

الله خير الماكرين

على أن الله سبحانه وتعالى فى ذكره لهذه الحقيقة وهى أن هناك ناسا سيأتون ويكيدون لدين الله . . ويكيدون للمؤمنين . . من الآن وحتى قيام الساعة . .

لا يذكرها ليعلمنا بهم فقط .. ولكن ليؤكد لنا أنه إذا كان هؤلاء الكافرون يكيدون .. فهناك كيد الله سبحانه وتعالى .. وهو أقوى منهم وأقدر .. ومن هنا فإنهم إذا فعلوا لا يجب أن يدخل فى أنفسنا أى جزع أو خوف لأن الله لهم بالمرصاد .. وانى أعجب لبعض الناس يدبرون ويخططون ضد دين الله فى الأرض .. وليعلوا كلمة الباطل .. وهم فى تخطيطهم هذا يعملون حسابا لكل خطوة .. ويدرسون كل الاحتمالات .. ومن كل الزوايا .. ويتوهمون إنهم سينجحون فيما ينوون فعله .. نقول لهؤلاء انكم تنسون شيئا هاما .. وهو أن الله موجود .. وأنه يخطط ويدبر .. وأن الفرق هو انكم تخططون بقدرة مساويكم من البشر .. ولكنكم لا تشعرون بما يعده الله سبحانه وتعالى لكم .. فالله سبحانه وتعالى يشعر بمكركم وأنتم لا تعرفون ماذا يعد الله والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك « **وإذ يمكر بك الذين كفروا** » .. ثم يقول الله « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » .. لماذا قال الله سبحانه وتعالى إنه خير الماكرين .. لأن مايعده الله لايعلمه أحد .. ومادام لايعلمه أحد فهو يأتى بغتة ليبهت أولئك الذين وضعوا كل مكرهم وحيلتهم فيما أرادوا أن يفعلوه .. إنهم يكيدون كيدا للدعوة .. وماداموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وأمام دين الله وقوف مواجهة بدأوا يمكرون .. أى يعدون الخطط فى السر ويتحايلون على مواجهة دين الله .. ولكن كل مايفعلونه مفضوح أمام الله .. والله سبحانه وتعالى لاتنطلى عليه حيلة .. ولاينطلى عليه خداع .. وهو يعرف أمورا يظن من يكيد للدين أنها خافية عليه .. ولكن هذه الأشياء كلها هى عند الله بأدق أسرارها .. ولذلك تفشل المخططات .. وتنقلب على أصحابها .. كما يحدث فى كثير من الأحيان .. وربما تساءلوا عن السبب .. والسبب واضح .. فهم قد نسوا قدرة الله سبحانه وتعالى .. وهى القدرة الحقيقية فى الكون .. واتجهوا إلى الأسباب .. وهى تعطى .. ولكن أمر الله .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعطل الأسباب إذا شاء .. ويجعلها تعطى إذا شاء .. ومن هنا فالكون كله خاضع لمشيئته .. وليس لقدرة البشر بالأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى للعيش على الأرض .. وانني أقولها بصراحة .. ما من إنسان قدر شيئا ونسى

قدرة الله سبحانه وتعالى . . إلا جعل الله من أسباب هذا الشىء ما يأتيه بعكس ما يطلب . . ثم سلط عليه نفسه وتركه فى الدنيا يذهب هنا وهناك . . ويخطط ويدبر . . ويتمزق قلقا وخوفا دون أن ينال شيئا . .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يدخل الطمأنينة إلى قلب المؤمنين . . وبنفس وحدة المعنى التى فى السورة الكريمة . . سورة الطارق . . بأن تطرق قدرة الله عقلك كل دقيقة . . ولا تغيب عنه أبدا . . ففى حالة الاثم والعدوان تطرق قدرة الله عقلك لتذكرك أن محاولة أى كافر للنيل منك . . لن يتركها الله سبحانه وتعالى تنجح . . وهو يعلم كيد الكافرين وقادر على أن يعطيهم ويجزيهم أضعاف أضعاف ما يكيدون لدين الله . . حين تتذكر ذلك تدخل الطمأنينة إلى قلبك . . وتواجه أى قوة فى العالم دون خشية إلا لله . .

ثم نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « **فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » . . الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يمهل الكافرين وينتظر أمر الله فيهم . . وبعض الناس يستعجل الجزاء ويريد أن ينزل الله سبحانه وتعالى بالظالم الجزاء فور ظلمه . . وبعض الناس يتساءل فى كثير من الأحيان وهو يرى إنسانا طغى وبغى . . أين عدل الله وأين قدرة الله . . نقول له إن عدل الله موجود . . لا يفلت منه أحد . . وقدرة الله موجودة . . لا يستطيع أحد أن يخرج منها . . ولكن الحكمة من الخلق كله تنتفى لو أن كل سيئة قوبلت بالجزاء فى اللحظة التى تتم فيها . . والله سبحانه وتعالى يريد من عبده المؤمن أن يأتيه اختيارا . . لا اجبارا . . فالفرق بين الإنسان وباقى المخلوقات أن الإنسان قادر على الاختيار . . ولذلك فالله لا يريد أن يجبر الناس على الإيمان . . ولو أراد لأنزل عليهم آية من السماء ظلت أعناقهم خاضعة لها إلى يوم القيامة . . ولما كلفه هذا شيئا . . والاختيارية هنا تقتضى شيئين أساسيين . . أن تكون قادرا أن تفعل . . وقادرا ألا تفعل . . وأن يتم اختيارك بحبك لله دون ما قهر على نفسك . . وأن يتعاظم هذا الحب ليتغلب على كل معصية مزينة لمتعة وقتية . .

● **الجزاء غيب**

ولو أن الله سبحانه وتعالى استحضر الجزاء مع العمل .. ما شذ واحد عن الإيمان .. ذلك أنه لو رأى الإنسان ، وهو يمد يده إلى مال حرام ، النار التى سيحرق فيها جزاء على عمله .. لهرب وترك مال الدنيا كله .. ولو رأى الإنسان الذى يغضب الله بأى عمل لو أتيح له أن يرى جزاءه عما فعل لما أقدم على ذلك أبدا .. ولو أتينا بمال الدنيا كله .. وشهوات الدنيا كلها .. ووضعناها فى مكان وأتينا بإنسان فى مقتبل العمر ممتلئا قوة .. حتى يستطيع أن يتمتع بهذا كله أكبر متعة .. وقلنا له : لك كل ما تراه أمامك .. ثم فتحنا له بابا من أبواب جهنم .. وقلنا له قبل أن تتمتع بكل هذا كما تشاء وكيفما تشاء .. فإن مصيرك هنا إلى الأبد .. لو فعلنا ذلك ورأى الإنسان ما سيحدث له بعد المعصية عين اليقين .. لما وجد القوة والقدرة فى نفسه على أن يقدم على معصية .. ولكن الذى يدفع الإنسان إلى أن يقدم على معصية هو أن الجزاء مستور لا يراه .. ولذلك فإنه يمنى نفسه مرة بأنه ليس هناك عقاب ولا آخرة .. ومرة بأنه سيغفر له .. ومرة بأنه سيتوب فى آخر حياته .. ومرة بأنه سيفلت من العقاب إلى آخر ما يدخله الشيطان فى النفس البشرية من محاولة لتزيين المعصية حتى يقدم الإنسان عليها .. ولذلك فإن ستر الجزاء .. هو الاختيار الحقيقى للنفس البشرية وفتح الله الأبواب لبعض العاصين ليزيد ظلمهم ، هو فتنة .. والفتنة هى امتحان أو اختبار .. إما أن تنجح فيه أو تفشل .. وأساس الاختبار أن تكون شهيدا على نفسك .. فلا تقول لو إنه حدث كذا لما فعلت .. ولكنه حدث وفعلت وكنت على نفسك شهيدا .. وسجل ذلك الكرام الحافظون عليك .. فأصبح لا جدال ..

والله سبحانه وتعالى حين يقول « **فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » فهل يريد أن يقول إن الله لا يأتى الجزاء مع نفس العمل .. بل أحيانا يمد للظالم .. ولكن هذا لا يجعلك تيأس .. ولا تحس أن الله قد تخلى عن المؤمنين .. فالجزاء لابد

قادم . . وانما الامهال هنا هو الاختبار الحقيقى لإيمان المؤمنين . . اختبار لمدى قوة هذا الإيمان . . فإذا فتن بذلك الاختبار كان الإيمان ضعيفا . .

على أن بعض الناس يعتقد أن الجزاء فى الآخرة فقط . . وأنا أقول إن الجزاء فى الدنيا والآخرة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يترك ظالما بلا نهاية . . ولا عاصيا بلا عقاب ليصبح عبرة لكل من حوله . . وهو حين يقتص من الظالم لا يسلط عليه مؤمنا . . ولكنه يسلط عليه من هو أظلم منه حتى يكون الجزاء رادعا . . ويكون الانتقام من نفس نوع العمل وأحيانا هو أشد . . ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى « **ونذيق بعضكم بأس بعض** » . . إنما يدلنا على أن من يسلط على الظالم يكون ذا بأس شديد ليذيقه من نفس بأس عمله . . والمهم أن الله فى قضائه يجعل الظالمين عبرة ليستريح الناس من أعماقهم إن ربك يمهل ولا يهمل . . على أن إمهال الله للعاصى هو من أبواب الرحمة التى كتبها على نفسه حتى للعاصين من عباده . . فلو أن الله أخذ الناس بذنوبهم ما أبقى عليها منم دابة . . ولكن الله يمهل كامتحان للمؤمن . . وفرصة توبة لغير المؤمن . . وكل شيء مسجل بواسطة الكرام الحافظين . .

وإذا تأملنا سورة الطارق . . نجد أن الله يريد منا أن نتذكر . . وأن تطرق عقولنا قوته وقدرته . . وأنه لا يغيب عن علمه شيء . . ولا نعتقد أن الظلام يخفينا عنه . . وأنه هو الذى خلق النجم الذى يثقب الظلام ويظهر ما فيه . . وهو بعلمه يعلم ما نخفى وما نعلن . . وحتى نعرف جيدا أننا سنكون شهداء على أنفسنا . . وأن كل ما نعلمه مسجل علينا بكرام حافظين يكتبون ما نفعل . . والله يطلب منا أن تطرق قوته عقولنا إذا أصابنا الغرور بما مكننا الله فيه فى الأرض . . فنعلم أننا موجودون بقدرة الله . . وأننا مخلوقون من خلية دقيقة مستها القدرة . . فكان الإنسان . . وأن الإنسان سيد الكون بقدرات الله وليس بقدراته هو . . وإنه سيعود إلى الله سبحانه وتعالى الذى خلقه من عدم . . وإعادته أسهل من خلقه . . والناحية الثانية للغرور هى الاغترار بالقوة . . سواء كانت القوة الذاتية أو قوة من ينصرونك . . فهذه وتلك لن تكونا معك وأنت

تلاقى الله ولن تجد قوة من ذاتك ، ولن تجد من ينصرك . . والوجه الثالث للاغترار . . هو الاغترار بالذكاء بأن تعتقد أنك تستطيع أن تخفى على الله شيئا وما تحاول اخفاءه الله سيعلنه وهو يعلم السر وما تخفيه فى صدرك . . ثم يذكرنا الله فى دورات الحياة المتكررة فالماء يصعد إلى السماء فى هيئة بخار . . فترجعه السماء إلى الأرض كمطر . . وتكون هذه العملية هى مد الأرض بماء عذب سائغ للشاربين من مياه البحر المالحة التى لا يستطيع إنسان أن يشرب منها كوبا واحدا . . وهذه العملية تبين لنا أن كل شيء يدور عدة دورات فكوب الماء الواحد يشربه ملايين الأشخاص كل فى عصره . . فهو يدخل الجسد البشرى ويخرج منه ثم يتبخر . . والأرض (نفس قطعة الأرض) أطعمت ملايين الأشخاص على مر السنين . . فإذا كان لكل شيء عودة . . فلماذا يشذ الإنسان ويحسب إنه لن يبعث . . ويضيف الله بأن هذا قول فصل يجب أن يؤخذ بعمق وجدية . . وأن الذين يحاربون دين الله يجب أن نواجههم . . وقدرة الله تطرق عقولنا فنعرف أنهم لا حول لهم ولا قوة . . وأن الله مذهب كيدهم . . وألا يصرفنا عن الإيمان ما نراه من ظالم لا يقتص منه فى التو واللحظة ، أو كافر لا ينزل به عذاب الله . . ذلك لأن لكل من هؤلاء موعدا . . ولكن الله يتركهم فترة امتحان للإيمان وليكون الكافر على نفسه شهيدا . . وأساس الكون كله . . هو الفرصة المتكافئة . . فى قواه الظاهرة وقواه الخفية . . ولكن ما هى القوى الخفية فى الكون ؟



الفصل الثاني

القوى الخفية في العالم

الله سبحانه وتعالى حينما خلق هذا الكون .. وضع لكل شئ فيه قانونا . وجعل القوانين تخضع لمن خلقت من أجله .. فالإنسان له القانون البشرى الذى يناسب خلقه من طين .. والجان له القانون الذى يناسب خلقه من نار .. فهو يستطيع أن يخترق الجدران بحكم طبيعة خلقه .. ويستطيع أن يتشكل كما يشاء .. والشياطين لها قوانينها .. والملائكة كخلق من نور لها قوانين .. وهى تصعد إلى السماء وتنزل إلى الأرض بأمر ربها ..

ونحن حين نتحدث عن العلم .. فإننا نطلب من العقول أن تنطلق كما تشاء .. لتبحث فيما تشاء من ظواهر الكون المادية .. فقوانين الشمس والأرض والنجوم والرياح والنبات والحيوان .. وكل ما يستطيع الإنسان أن يبحث فيه بحثا معمليا متاح للعقل البشرى .. يجتهد فيه كما يشاء .. ومطلوب من الإنسان أن يكتشف آيات الله فى الكون .. والله سبحانه وتعالى حين قال فى كتابه العزيز :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

سورة فصلت آية ٥٣

إنما أعطانا أنه سيكشف عن هذه الآيات لغير المؤمنين .. لأنه سبحانه وتعالى قال « **حتى يتبين لهم انه الحق** » .. أى أن هؤلاء الذين سيريهم الله آياته منكرون للحق .. ولو أنهم كانوا مؤمنين .. لما كانت هناك حاجة لأن يذكر الله سبحانه وتعالى « **حتى يتبين لهم أنه الحق** » .. ذلك أن المؤمن يعرف أن الله حق .. والقرآن حق .. ورسول الله حق .. وهذا الدين بمنهج حياته وبالاعلام عن الآخرة حق .. ولكن ارادة الله قضت أن يكتشف غير المؤمنين آيات الله ليدحضهم .. ويكونوا هم بعدم إيمانهم المثبتين للإيمان فى الأرض .. ذلك أن الكفار يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله .. فى مرات مستخدمين نظريات يطلقون عليها العلم زيفا .. وفى مرات مستخدمين ما يوجد فى عقول البسطاء من تضاربات يحاولون الايهام بها .. بين القرآن وحقائق الكون .. ولذلك يأتى

الله سبحانه وتعالى بهم هم .. ليسخر من كل قدراتهم .. ويستخدمهم فى تثبيت الإيمان ..

والله سبحانه وتعالى .. قد استخدم الكفار فى تثبيت الإيمان .. منذ بداية نزول القرآن الكريم حتى الآن .. ففى أول أيام الرسالة نزلت الآية الكريمة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

سورة المسد

وكانت هذه الآية كما ذكرنا فى الجزء الأول .. أول تثبيت للإيمان على أحد ائمة الكفر .. ذلك أن أبا لهب كان يستطيع زيفا أو كذبا .. أن يأتى فى جمع من العرب ويقول .. « لقد قال فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل .. قال انى سأموت كافرا وأصلى نارا ذات لهب .. وهأنذا أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. لأثبت أن محمدا كاذب فيما يقول » .. كان أبو لهب بهذه الشهادة يستطيع أن يهدم الدين من أساسه .. ولكنه حتى هذا الأمر الاختيارى لم يجرؤ عليه .. وعند تغيير القبلة .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

سورة البقرة آية ١٤٢

واستخدام حرف السين هنا يدل على أنهم لم يقولوها إلا بعد نزول الآية الكريمة .. وكان من الممكن ألا يقولوا .. ثم يأتى إلى العرب ويقولوا أن محمدا قد قال « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » .. ولكن أحدا لم يقل ذلك .. وكان ذلك هدما فى قضية الدين .. ولكنهم جاءوا وقالوا ..

وإذا انتقلنا إلى التحديات فى العصر الحديث . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

سورة الكهف آية ٥١

أى أنه سيأتى أناس يضلون عن سبيل الله . . أى يحاولون اضلال غيرهم . . وأنا لم أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ولم أتخذهم سندا لى . . فلو أنه لم يأت من يجادل فى خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ويقول ان الإنسان أصله قرد إلى آخر النظريات التى نسمعها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان . . لقلنا أين هؤلاء الذين أنبأ عنهم القرآن . . ولكن كونهم أتوا . . وكونهم يحاولون الاضلال عن سبيل الله بنفى القدرة الالهية فى الخلق . . فقد جاءوا مثبتين للإيمان . . وسيأتون على مر السنين والقرون . . فعطاء القرآن مستمر حتى يوم القيامة . . سيأتى من الكفار وغير المؤمنين من يكشف لهم الله آيات من آياته . . يحاولون هم الوصول إليها بالتشكيك فى دين الله . . وتأتى نتيجتها بأنه الحق . . وتأتى مثبتة للإيمان . .

● قوانين الجن والملائكة

تلك مقدمة كان لابد منها . . لبيان القدرة الالهية . . وكيف تستطيع أن تسخر الكافر وغير المؤمن بدين الله لتثبيت هذا الدين واظهار أنه الحق . . وهذه العقول غير المؤمنة تحاول أن تدخل فى مجالات لم يخلقها الله للعقل البشرى . . فتجادل فى الملائكة والآخرة والجان والشياطين . . إلى آخر هذه المخلوقات . . التى لم نعرف عنها شيئا ولا نستطيع أن ندخلها إلى المعمل لنضعها تحت الميكرسكوب . .

وليس هذا محاولة للحجر على العقل البشرى . . بل للعقل البشرى الحق فى أن يبحث فى كل شىء . . بشرط ألا يقدم لنا خرافات . . لا يملك عليها دليلا . .

فإذا تحدث عن قوانين الجن والملائكة . . أو عن خلق الإنسان بطريقة تتنافى مع ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى . . نقول ما هو برهانكم ؟ فإذا كان مجرد فرض أو وهم . . فإننا نرفضه ولا نقبله . . وإذا كان عليه دليل مادى فإننا نناقشه . . والله سبحانه وتعالى حين خلق أعطانا قوانين المخلوقات الأخرى التى خلقها . . ولكننا لا نتحدث عن خصوصيات وإنما نتحدث عن الأشياء العامة . .

حين يأتى إنسان ويجادل فى ذلك . . ويحاول أن يكذب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم) . . ويقول هذا غير ممكن . . نقول له : هل عرفت قوانين الشيطان . . فيقول لا . . نقول أليس الدم مكونا من كرات حمراء وكرات بيضاء إلى آخره . . ألا يستطيع أى ميكروب أن يدخل إلى مجرى الدم ويجرى فيه . . إذن فلماذا تنكر أن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم . . مادمت لا تعلم شيئا عن قوانين الشيطان . . ومادمنا نعلم جميعا أن كل شىء فى هذا الكون له قانون يخضع له . . فقانون الشمس ليس كقانون الأرض . . وقانون الجماد ليس كقانون الإنسان . . والملائكة لهم قانون يفعلون ما أمرهم الله . . والجان لها قانون مختلف عن قانون الإنسان . . وهناك عباد يعطيهم الله علما ورحمة . . فيصبحون بقوانين خاصة لهم قدرات على الكون . .

على أننا يجب أن نتنبه إلى سورتين هامتين نقرؤهما كل ليلة . . هما سورة الفلق وسورة الناس . . ففى سورة الفلق نتجه إلى الله ونستعين به فى الأمور التى لا ارادة لنا فيها . . وفى سورة الناس نتجه إلى الله ونستعيذ به فى الأمور التى لنا

فيها ارادة . . ولكننا نخاف أن نضعف أمامها . . ولنوضح هذا الموضوع قليلا . .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

سورة الفلق

كل هذه الشرور التى نستعيذ بالله منها . . تأتى من خارج أنفسنا . . أو من خارج منطقة الحساب والتكليف فى افعل . . ولا تفعل . . فعندما يقول الله سبحانه وتعالى « **قل أعوذ برب الفلق** » . . فالاستعاذة هنا . . هى الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى من شيء يفزع الإنسان ويهدد أمنه وأمانه . . ولا يستطيع الإنسان أن يواجهه بقدراته . . ومن هنا فهو يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لأنه القادر على دفع السوء بقدرة تفوق قدرة البشر جميعا . .

والله سبحانه وتعالى هو الذى طلب منا أن نستعيذ به . . ومن هنا فنحن حين نفعل ذلك . . إنما نطبق منهج الله فى أنه أمان الخائفين وجار المستجير . . والمنهج هو النور والهداية للإنسان فى حياته . . والفلق هو النور بعد الظلمة . . أو هو ما ينفلق عنه الوجود والحياة . . وإذا كان الفلق بمعناه الأول أو الثانى . . والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجد النور فى الكون لتسير الحياة على هداه . . وهو الذى أوجد النور فى القلوب . . ليهديها إلى الإيمان واليقين . . وهو الذى أوجد الكون وخلقه هذا الخلق المبدع وهو فالق الحب والنوى . . من هنا فكلا المعنيين يلتقيان . .

والله سبحانه وتعالى . . حين طلب منا أن نفزع إليه قال « **من شر ما خلق** » . . وهنا لنا وقفة . . فمادام الله سبحانه وتعالى قال « **من شر ما خلق** » . . فلابد أن هناك شرا . . قد خلقه الله بالنسبة للإنسان . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا إلا النافع فى حياتنا . . والإنسان هو الذى أوجد

الشر . . وأوجد المعصية . . وأوجد كل ما يفسد هذا الكون . . ويسفك الدماء فيه . . وينشر الظلم والبغى والطغيان . . فما هو الشر الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ؟

● معنى الفيضانات والزلازل

هناك رأيان يجب أن نتناولهما فى هذا الموضوع . . الرأى الأول . . يتعلق بحكمة الخالق . . والرأى الثانى يتعلق بالخلق نفسه . . أما ما يتعلق بحكمة الخالق فالله سبحانه وتعالى قد خلق لنا قوى هائلة فى الكون لنؤدى مهمتنا فى الحياة . . وأخضع لنا هذه القوى بمشيئته هو . . فالشمس والقمر والأرض والنجوم وكل ما فى الكون والحيوانات التى ألفت البشر . . كل هذه القوى مسخرة للإنسان بأمر الله . . ولكن الإنسان بغروره يحاول أن يدعى أن هذه القوى مسخرة له بأمره وذاته . . أى يحاول أن يأخذ مما أعطاه الله له من أسباب الحياة فى الكون ، على أساس أنه شىء طبيعى . . لم تتدخل قوة الله سبحانه وتعالى فى تسخيره . . ومن هنا يأتى الله سبحانه وتعالى بعلامات تذكر الخلق بنعم الله عليهم . . فتأتى الريح لتصير اعصارا مدمرا . . وتحدث الزلازل والفيضانات بأعداد قليلة . . وبصورة نادرة . . لأنه ليس المقصود منها الدمار . . فلو شاء الله لدمر الكون كله فى لحظة . . ولكن المقصود منها التذكير . . ليقول الله للإنسان . . إذا كنت تدعى أن الريح مسخرة لك بأمرك . . أو بقوانينها . . فأنا سأخرق قوانين الريح لتصبح اعصارا مدمرا . . وقوانين الأرض الطيبة التى تعطيك كل شىء لتبتلع ما فوقها . . لعلك تتذكر انك لا تملك السيطرة على هذه القوى . . وإذا كنت تستخدمها وتنتفع بها ، فذلك بقدرات الله سبحانه وتعالى التى سخرها لك . . فاعبده . . وأسجد له . .

وإذا كانت هناك اشارات وقتية تأتى بين الحين والحين . . وفى مساحات محدودة جدا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فإن هناك بجانب ذلك ما يذكرنا دائما بهذه القدرة . . فمثلا إذا جئنا إلى الحيوانات . . نجد بعضها

مسخرا للبشر . . ليخدمه فى الحياة . . فالفرس مثلا أقوى من الصبى الصغير مئات المرات . . ولكن هذا الصبى يستطيع أن يركبها ويسخرها لما يريد . . وقوة الصبى وعقله وقدراته لا يمكن أن تجعل الحصان خاضعا له خضوعا اراديا . . أى بارادة الإنسان . . فلو وجدت الفرصة لمعركة بين الحصان والصبى . . لقضى الحصان على الصبى فى دقائق . . ولكن هذا الحيوان ذلله الله لخدمة الإنسان . . فأصبح مقهورا بقدرة الله . . يستطيع أن يستخدمه فى الأغراض التى يريدها . .

فإذا جئنا إلى الثعبان مثلا . . وجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه للإنسان . . وليس معنى هذا أن الثعبان شر مطلق . . بل أن من السموم الناقعات دواء . . فنحن نستخرج من سم الثعبان دواء ربما أنقذ حياة مئات الألوف من البشر . . ونحن نستفيد بجلد الثعبان . . وبعض الشعوب تستفيد بلحمه وتأكله . . إذن فهو ليس شرا مطلقا . . ولكنه شر يمكن أن يؤذى الإنسان ويقتله . . ومن هنا فنحن نستعيذ بالله منه . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه لنا . ولذلك فهو يستطيع أن يهاجم الإنسان ويقتله . .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى المخلوقات المجهولة لنا . . كالشياطين والجان . . نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يسخرها لنا . . ولم يجعلها خاضعة لخدمة البشر . . وهى تستطيع أن توسوس للإنسان بالشر . . وأن تؤذيه . . ومن هنا فإننا لا نستطيع بقوتنا الذاتية أن نواجهها لأننا لا نراها . . ولكن الله طلب منا أن نستعيذ به منها . . فإذا استعذت بالله من شر هذه المخلوقات وقفت ارادة الله سبحانه وتعالى بينك وبينها حجابا لا تستطيع أن تخترقه ، فأصبحت لا تملك لك ضرا . . إذن فهناك أشياء لم يخضعها الله سبحانه وتعالى بقدرته للبشر . . ولا يستطيع البشر أن يخضعها بقدراته . . وسواء أكانت هذه الأشياء من قوى الطبيعة . . أم من قوى الحيوانات . . والإنسان الذى يعيش معنا أو من القوى الخفية فى الكون التى لا نراها . . فإنها شر للإنسان . . لأنه لا يستطيع أن يقف أمامها بقدراته الذاتية . . ومادامت كذلك . . فقد أمرنا الله أن نستعيذ به منها . . ونحن حين نلجأ إلى الله فى ساعة المرض . . نلجأ إليه لتكون قدرته مع

الدواء ليتفاعل معه فى الجسم ويقضى على الميكروبات . . ففى كثير من الأحيان يتناول مريضان بنفس الداء نفس الدواء . . احدهما يشفى والثانى يشتد عليه المرض . . ونسأل الطبيب فيقول لك إنها قدرة الله التى جعلت الدواء يتفاعل هنا مع الميكروب فيقتله . . ولا يتفاعل هناك . . والميكروبات ليست شرا مطلقا فإننا نستخرج منها الأمصال التى تقينا من الأمراض . . وأحيانا نستخرج منها الدواء . . ولكنها شر للإنسان . . ونحن بجانب العلاج الطبى نتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليحقق لنا الشفاء . . وهذا هو معنى الآية الكريمة « **وإذا مرضت فهو يشفين** » . . ذلك فإن الأخذ بأسباب الأرض جزء من محاربة الداء . . أما أسباب الشفاء فهى فى يد الله سبحانه وتعالى . . ولقد أمرنا أن نأخذ بالدواء الذى خلقه الله لشفاء الداء . . ثم نترك اتمام الشفاء لقدرة الله . . ولعل أكثر الناس فهما لهذه النقطة هم الأطباء الذين يشاهدون معجزات الشفاء كل يوم . . والذين ينتظرون بعد اعطاء الدواء قدرة الله على الشفاء . .

إذن فحكمة الخالق فى كل ما تحدثنا عنه من شر للبشر . . هو لفت للقدرة التى سخرت كل شيء للإنسان . . فقوة الميكروب . . أو الثعبان . . أو أى خلق من خلق الله لا تقاس بجانب قدرات الكون كله من شمس وقمر ورياح وبحار وأنهار . . والله يريد دائما أن يلفتنا إلى أن الأشياء مذللة بقدرته وليست بعقولنا . . فيأتى بأشياء متناهية فى عدم القدرة أمام قدرات الكون . . كالميكروبات أمام الشمس مثلا . . ليذكرنا انه هو الذى ذلل لنا قوى الكون الهائلة . . وأننا بقدراتنا لا نستطيع أن نذلل أدنى الأشياء المتناهية فى الصغر كالميكروبات . . وذلك حتى لا يظن الإنسان الذى سخر له الله الكون كله انه مستغن عن الله . . بل تأتى هذه الأشياء لتذكره بالنعم . . وفى نفس الوقت تجعله يحس انه محتاج إلى الله فى كل دقيقة . . وخوف الإنسان من الأشياء التى لم تذلل له هو ربط للإنسان بالخالق . . وفى نفس الوقت اشعار للإنسان بضعفه وقدرة خالقه . . ذلك أنه ضعيف لا يستطيع أن يتغلب على هذه الأشياء . .

ولكنه فى نفس الوقت قوى إذا استعاذ بالله .. فلا تستطيع هذه الأشياء أن تمسه ..

● الحكمة من الخلق

هذه حكمة الخالق .. أما الحكمة من الخلق .. فهى فى المقارنة الدائمة بين ما هو مسخر لنا .. وما لم يسخر لنا .. هذه المقارنة الدائمة المستمرة .. آية يومية لكل من تبعد نفسه عن الإيمان .. انه جبار فى الأرض .. نسى الله .. وحسب انه ملك الدنيا ومن عليها .. وأخذ يملأ الأرض ظلما وطغيانا .. يأتى الله ليسلط عليه أدق مخلوقاته وهى الميكروبات .. فيصبح عليلا مريضا .. لا يقدر على المشى .. وربما لا يقدر على الكلام .. وهنا تظهر حكمة الخلق أمام خلقه .. حينما يرون هذا الجبار وقد أذله المرض .. فيصيحون (سبحان الله) .. وتتجلى القدرة الالهية أمام هؤلاء الذين ينسيهم بريق الدنيا وزخرفها قوة الله وقدرته ..

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول « ومن شر غاسق إذا وقب » .. والغاسق هو الليل .. « وإذا وقب » معناها إذا دخل بظلمته .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. أنا خلقت الليل والنهار .. وجعلت النهار مضيئا آمنا لتسير حركة الحياة فى الكون .. وجعلت الليل ساكنا مظلما لتنام فيه وتستريح .. وتصبح قادرا على حركة الحياة فى اليوم التالى .. ولكن لليل ظلمة .. والظلمة تخفى الأشياء .. وتغرى بالشر .. ومعظم الجرائم والشرور ترتكب فى الليل .. وأنت فى النهار قد ترى عدوا يتربص بك .. أو تلمح حشرة يمكن أن تؤذيك وتشعر بالأمن والأمان لأن الدنيا حولك مليئة بالحركة والحياة .. ولكن ذلك ينتفى مع ظلمة الليل .. ومن هنا فأنا أعطيك نعمة الأمان بالليل كالنهار .. وهى أن تستعيذ بى .. ثم تنام أنت هانئا مطمئنا .. لأنى أنا الله الحى القيوم .. الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .. فأنت إذا استعذت بى ستنام فى حراستى وأنا لن أغفل عنك لحظة واحدة مادمت قد لجأت إلى واستعذت بى .. فلا تخش أن

تأخذنى سنة من النوم . . أو أغفل عن أى شيء . . لأننى لا أنام . . ولا يفوتنى شيء مما يحدث فى الدنيا . . ظاهرا أو باطنا . . وحراستى لك . . لا تستطيع جيوش العالم كله أن تمنحك اياها . . فإذا جاء الليل فاستعذ بى ونم آمنا مطمئنا فأنا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . . لن أغفل عنك لحظة . . ولن أتركك ثانية . . بل ستكون دائما فى حراستى بقدراتى التى لا تستطيع أن تصل إليها كل المخلوقات . .

وتمضى الآية الكريمة فتقول « **ومن شر النفاثات فى العقد** » . . ولقد وقف العلماء عند هذه الآية الكريمة وقفة طويلة . . فقد قالوا . . النفاثات هن الساحرات ولكن فرعون كان له سحره . . ومن هنا أطلق بعض العلماء النفاثات على السحرة على اطلاقهم الذكر والأنثى . . وحدث الخلاف . . لماذا ؟ لأننا نواجه قضية غيبية وليست قضية عقلية . . فأنت لا تستطيع أن تدخل السحر فى المعمل . . ولا تستطيع أن تضع مواصفات له . . ولذلك فإن هذه الأشياء كانت ولاتزال محل جدل كبير . . فبعض الناس ينكرها انكارا تاما على أساس انه لا يصدق إلا ما يراه . . ونحن نقول له هل كان أجدادنا يرون الميكروبات والفيروسات كما نراها الآن . . الجواب كلا . . لأنها كانت غيبا عنهم . . ولكن كونها غيبا لا يمكن أن ينفى وجودها . . وكوننا حين اخترعنا الميكروسكوب ليكبر ألوف المرات . . فإن هذا الاختراع لم يوجد الميكروبات والفيروسات . . ولا يستطيع أحد أن يقول انه خلقها . . ولكنه فقط أزال سترا من الأستار التى كانت موجودة على عقولنا . . فاستطعنا أن نرى ما كان موجودا ولكن لم نكن نراه . . ولله فى ذلك حكمة كبيرة! . . فهو يكشف لنا كل يوم عن أشياء فى الكون كانت غيبا عنا وربما لم نكن نصدقها لنراها أمامنا رؤيا العين . . وتصبح حقيقة واقعة ليقول لنا هذا ما كان غيبا عنكم . . وكانت تنكره عقولكم لأنكم لا ترونه . . قد أصبح حقيقة واقعة أمامكم . . وعرفتم أنه موجود . . حتى إذا حدثتكم عن غيب لم تروه حتى الآن . . فاعلموا أن عدم رؤيتكم له لا ينفى حقيقة وجوده . .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد ذكر السحر فى القرآن الكريم . . وذكر السحرة . . فلابد أن يكون هناك سحر وسحرة . . ولكن العلم لا يعرف شيئا عن السحر ونحن نقول لهم هذه قضية غيبية قد تكون علما غدا . . وبعد غد . . ولكنها حقيقة مادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عنها . .

● **السحر وأعين البشر**

ولكن ما هو السحر ؟ يقول الله سبحانه وتعالى . . « **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** » . . والسحر نوعان . . نوع فيه قدرة البشر . . ونوع فيه الاستعانة بقوى غير قوى البشر . . النوع الأول وهو ما فى قدرة البشر لا يغير طبيعة الأشياء وانما يصورها فى عين الإنسان بغير شكلها الحقيقى . . أى أن العين هى التى تسحر . . والنظر هو الذى يخدع . . وليست المادة هى التى تتغير مصداقا لقوله سبحانه وتعالى « **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** » . . وإذا اتبعنا السحر من أبسط ما يقوم به البشر إلى أكبر ما يقوم به الذين يستعينون بغير البشر . . نجد أنه فى أبسط أشكاله خداع للنظر . . فالسحرة البسطاء الذين يقدمون الألعاب فى الحفلات الحواة . . يعتمدون على خداع النظر أو خفة اليد . . ذلك أنهم يتدربون على تحريك اليد بسرعة لا تلحظها العين . . وبذلك يحسب الإنسان أن ما يحدث أمامه هو تغيير لطبيعة الأشياء . . والحقيقة أن ما يحدث هو خداع للنظر . . والنظر يخدع بأشياء كثيرة . . السراب تحسبه العين ماء وبعض ألوان الطيف تبدو كأطباق طائرة للعين . . والحركة السريعة لا تستطيع أن تصل إليها عين الإنسان . . وأنت إذا أدرت مروحة كهربائية وحاولت أن تحدد شكلها وهى ساكنة لا تستطيع إلا بعد أن توقف دورانها لتراها ساكنة أولا . . فخداع النظر لا يمكنك من معرفة الشكل مع الحركة السريعة .

إذن فخداع النظر نوع من السحر . . وهذا معروف الآن لا جدال فيه . . والسحرة الذين يقومون بالألعاب السحرية يعتمدون على سرعة حركة اليد . . فيخدعون العين . . ويبدون وكأنهم يأتون بنوع من السحر .

هذا تفسير بسيط ليفهم الناس أن السحر لا يغير طبيعة الأشياء . . وإنما يسحر العين . . فترى ما يريده منها الساحر أن تراه . . هذا إذا كان السحر مجرد استعراض للقدرات . . أما إذا كان السحر للشر . . فلا يمكن أن يصل الساحر إلى مراده إلا إذا أضاف الرعب والرهبة بجانب خداع النظر . . أى أن الساحر يجب أولا أن يدخل الخوف فى قلب المراد التأثير عليه بالسحر حتى يخضعه تماما . . ويجعله يفعل ما يريد . . ومن هنا فإن بعض هؤلاء السحرة يستعينون بأصوات مخيفة . . أو بجماجم وعظام الموتى . . المهم أنهم أولا يدخلون الرعب إلى نفوس الناس . . ثم بعد ذلك يسحرون أعينهم ويستخدمونهم فى الشر والايذاء . . ونادرا ما يمارس مثل هؤلاء السحرة أعمالهم فى ضوء النهار . . بل هم يمارسونها دائما فى غرفات مظلمة وسط أصوات مثيرة للرعب . . يتسلط من خلالها الساحر على المسحور . . ورغم أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء . . فإنه بإدخال الرهبة إلى القلب مع استخدام سرعة الحركة . . واليد المدربة . . والحيلة المتقنة . . يخيل للرائى أنه يرى قوى خارقة ويخضع لها تماما . . ولذلك عندما واجه السحرة موسى عليه السلام وألقوا حبالهم وعصيهم . . قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾

سورة طه آية ٦٦

واستخدام كلمة (يخيل) التى استخدمها الله سبحانه وتعالى يجب أن نلتفت إليها . . وهى أن السحرة لم يغيروا طبيعة الأشياء . . ولكن خيل للحاضرين أن حبال السحرة وعصيهم هى حيات وأفاع تسعى . . فاستخدام الله سبحانه وتعالى كلمة (يخيل) معناه أن الحبال والعصى لم تتغير طبيعتها إلى حيات . . ولكن جو الرعب الذى أحدثه السحرة بجانب حيلتهم وخفة أيديهم قد خدع أعين الناس . . فجعلهم يتخيلون أنها أفاع وثعابين . . حينذاك ماذا حدث . . ألقى موسى عصاه . . فإذا هى حية تسعى وتلقف ما يأفكون . . حينئذ سجد

السحرة لرب موسى .. وصدقوا أنه رسول .. لماذا .. لأنهم أيقنوا أنه ليس ساحرا .. فهم أعرف الناس بخداع النظر .. وهم أعرف الناس بفنون السحر .. وهم أعلم الناس أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء .. ولكن طبيعة الشيء هنا قد تغيرت .. وتحولت عصا موسى إلى ثعبان هائل .. وهذا ليس من صنع ساحر .. ولكنه من قدرة الله سبحانه وتعالى .. وكان السحرة أول الساجدين .. لأنهم أيقنوا أن موسى رسول صادق عن ربه .

● التجربة والتدريب

ولقد دخل موسى هذه التجربة بعد أن دربه الله سبحانه وتعالى .. ليعلم الفرق بين السحر والمعجزة .. وحتى لا يسحره السحرة ويسترهبوه .. فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾

سورة طه آية ١٧ - ٢٠

حينئذ أوجس موسى خيفة .. بعد أن رأى العصا التى كانت فى يده تتحول إلى حية هائلة فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) ﴾

سورة طه آية ٢١

وأعادها الله مرة أخرى عصا ..

لماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك مع موسى .. يجب أن نعرف أن كل شيء يحدث له حكمة .. لا شيء فى أمر الله يحدث عشوائيا .. أو بلا هدف ..

وهذه معجزة ليست فى تحويل العصا إلى حية فقط .. ولكن نفس ما حدث هو اعجاز .. ذلك أن الله فى علمه أن فرعون سيأتى بالسحرة ليحاول أن يهدم بهم رسالة موسى عليه السلام .. وأن هؤلاء السحرة سيخدعون الناس ويسحرون أعينهم .. فدرب الله سبحانه وتعالى موسى على تغيير طبيعة الأشياء .. ليستطيع أن يتبين الفرق بين السحر والمعجزة .. ولو أن الله سبحانه وتعالى أدخل موسى التجربة دون تدريب .. لكان موسى عندما رأى العصى تنقلب إلى حيات .. خاف وذعر .. وربما حاول الابتعاد عن المكان حتى لا يؤذى .. وكانت هذه كافية لتدخل الشك فى قلوب من آمن .. ومن سيؤمن .. فمادام الرسول نفسه قد خاف من السحرة فلابد أنهم هم الأعلى .. ومن هنا جاء الله سبحانه وتعالى برسوله ودربه أولا .. فزالت الرهبة من نفسه ورأى الفرق بين الحية الهائلة التى تحولت عصاه إليها وبين كيد السحرة الذى لا يمكن أن يقارن بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وحين واجه السحرة .. كانت التجربة فى قلبه تحميه .. ومع ذلك « **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** » .

فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

سورة طه آية ٦٨ - ٦٩

وكذلك أيد الله نبيه ليثبته مرتين .. مرة بتحويل عصاه إلى حية تسعى .. ومرة أخرى بتأييده عندما أوجس فى نفسه خيفة من السحرة ..

على أن هناك لفتة إيمانية وهى إيمان السحرة بربهم .. ولقد آمن السحرة بالله قبل أن يقتلهم فرعون بساعات .. وبذلك دخلوا الجنة .. وهذه الواقعة .. تجعل الإنسان لا ييأس أبدا من رحمة الله .. ذلك أن هؤلاء السحرة ظلوا على

كفرهم .. وجاءوا ليحاربوا دين الله بسحرهم .. ثم آمنوا حينما رأوا المعجزة.. وكان الإيمان قبل أجلهم بساعات فغفر لهم .

● قوانين لغير البشر

إذن فالسحر بالنسبة للإنسان العادى أو بالنسبة للبشر الذين لا يستعينون بقوى أخرى قد بينه الله سبحانه وتعالى ووضحه بأنه يعتمد أساسا على خداع الأعين وادخال الرهبة فى النفوس والحيلة .. هذه الأشياء الثلاثة تجعل المسحور يستسلم لارادة الساحر .. متوهما أنه يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء وأن يأتى بمعجزات .. والله سبحانه وتعالى يأمرنا بألا نخاف هذا النوع من السحر ولا نخشاه .. وإذا حاول أحد أن يدخل الرهبة فى قلوبنا بهذا النوع من السحر .. فعلينا أن نستعيذ بالله فلا يستطيع أن يؤثر فينا .

هناك نوع آخر من السحر يعتمد على قوى أخرى غير قوى الإنسان .. وإذا أردنا أن نوضح ذلك فعلينا أن نقرأ فى سورة النمل قصة ملكة سبأ .. فعندما أراد سليمان أن يأتى بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى بيت المقدس .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

سورة النمل آية ٣٨

ولم يجدد سليمان الذى أعطى من الله السيطرة على الجن والإنس والشياطين .. لم يحدد ممن يطلب احضار عرش ملكة سبأ .. بل معناه أن بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم فى الطريق إليه يعتبر خرقا لقوانين البشر .. وربما لا يكون خرقا لقوانين الجان .. أو لقوانين مخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئا .. ولكنها بطبيعة قوانينها والخواص التى أعطاها الله لها .. تستطيع أن تقوم بهذا العمل .

ماذا حدث عندما طلب سليمان القيام بهذه المهمة ، وما معنى طرح السؤال « **أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** » . . معناه أنْ بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم فى الطريق إليه . . وهو يريد واحدا أن يذهّب إلى اليمن ويأتى بالعرش . . وبلقيس ومن معها مازالوا فى الطريق إليه . . ويصل العرش قبل أن تقطع بلقيس ملكة سبأ ومن معها المسافة الباقية بينها وبين مكان سليمان عليه السلام .

هنا ملاحظة هامة . . من الذى تكلم . . هل تكلم بشر عادى . . وقال أنا أستطيع أن آتيك به . . لا . . لأن هذا فوق قوانين البشر وقدراتهم . . هل تكلم الجن على طلاقته . . لا . . إنما الذى تكلم هو أقوى الجان وليس جنا عاديا . . ولذلك كان المتكلم فردا واحدا . . فقال الله سبحانه وتعالى « **قال عفريت من الجن** » . . إذن . . فالذى تكلم ليس الجن على طلاقته وإنما أقوى الجن الذى يقدر على هذه المهمة الصعبة . . وحينما تكلم أقوى الجان أعطى زمنا يناسب القانون الذى يتبعه . . أى الذى خلقه الله له . . فقال :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

سورة النمل آية ٣٩

أى قبل أن يقوم سليمان من مجلسه . . وكم يستغرق مجلس سليمان . . ساعة ، ساعتين . . ثلاث ساعات . . المهم أنه حدد مدة زمنية طويلة إلى حد ما حتى يأتى بالعرش .

هنا تدخل الذى عنده علم من الكتاب . . لماذا . . لأن الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى علما من الكتاب سيأخذ قانونا أقوى من قوانين الجان . .

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

سورة النمل آية ٤٠

هنا يجب أن نتنبه إلى الحكمة الكبرى ، فكل خلق فى حضرة سليمان يتكلم بالقانون الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى له .. فالإنسان من طين .. مادة عتمة .. الله سبحانه وتعالى جعل قوانينه تناسب خلقه .. ولذلك عندما عرضت مسألة احضار العرش لم يتقدم إنسان .. ولم يقل واحد من الحاضرين من البشر .. أنا آتيك به إذا أعطيتنى عددا من الجياد القوية أو أى شيء آخر .. وإنما سكت البشر على اطلاقه .. لأن قوانينه تمنعه من التعرض لهذه المسألة .

ولم يتكلم الجن العادى .. لأنه لا يقدر على هذه المهمة .. رغم أن قوانينه قد تؤهله لأن يقوم بهذا العمل .. فالجن بقوانينه أخف وأقوى من البشر .. ويستطيع أن يقطع المسافات أسرع .. وأن ينفذ من المادة .. وهذا قانون أعطته له طبيعة خلقه من نار .. والنار لها قوانين غير قوانين الطين .. أقول سكت الجن على طلاقته خوفا من فشله فى هذه المهمة . ونطق أقواهم وهو عفريت واحد .

وهكذا يجب أن نعلم أن لكل خلق قانونا .. وأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من هذه القوانين ما يجعل من بعض خلقه قادرا على أن يفعل ما لا يستطيعه البعض الآخر .. وجعل الذى عنده علم من الكتاب يستطيع أن يخرق القوانين كلها .. لتبقى له سبحانه وتعالى وحده القدرة على أن يغير طبيعة الأشياء .. ويعطى للأدنى ما يجعله فوق الأعلى .. فهو أعطى لبشر من قوانين الكتاب ما جعله يتفوق على جميع خلقه .. ويأتى بعرش ملكة سبأ فى لا زمن تقريبا .

وبعض الناس يستعين فى السحر بقوى لها قوانين تفوق قدرة الإنسان .. فيستعين بالجان والشياطين ..

● **حكمة هاروت وماروت**

وهنا نأتى لقصة هاروت وماروت .. وقبل أن نبدأ هذه القصة يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون على أساس الفرص المتكافئة .. أى أن لكل

إنسان فى الحياة نفس الفرصة المتساوية التى للإنسان الآخر . . فإذا استعان إنسان بقوى لها قوانين تفوق قدرة البشر . . فإنه أخذ فرصة غير متكافئة مع سائر البشر . . وهو حين يأخذ هذه الفرصة . . إنما يتحدث كذبا انه سيستخدمها من أجل الخير . . ولكن قدرته تغريه فيبدأ فى استخدامها فى الشر والايذاء . . وحينئذ يسلط الله عليه نفس القوة التى استعان بها فتؤذيه . . ويموت إما منتحرا أو مجنونا أو فى فقر مدقع . . والمهم أن نهايته دائما تكون سيئة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

سورة الجن آية ٦

تلك لمحة سريعة . . سنتحدث عن ذلك بالتفصيل . . يقول الله سبحانه وتعالى فى قصة هاروت وماروت :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

. . ولهذا قصة تروى . . فقد قيل إنه عندما أعطى الله سليمان الملك كان الشياطين يستخدمون السحر فى الافساد فى الأرض . . فقام سليمان بجمع كل تمائم هذا السحر ودفنها فى الأرض . . ولما مات سليمان . . قالت الشياطين إنه كان يحكمهم بالسحر . . ودلت على المكان الذى أخفى فيه هذه التمائم فتم استخراجها . . نعود إلى الآية الكريمة :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

أى أن الشياطين حاولت الخداع بأن سليمان قد أوتى ملكه عن طريق السحر وليس برسالة من الله سبحانه وتعالى .. « **وما كفر سليمان** » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يبرىء سليمان من هذه التهمة ويقول إنه لم يكفر .. بل أوتى رسالة حقيقية من الله سبحانه وتعالى .. وإذا كان سليمان لم يكفر .. فالذين كفروا هم الشياطين التى أطلقت هذه القصة غير الحقيقية على سليمان ..

وتمضى الآية الكريمة « **يعلمون الناس السحر** »

وإذا وقفنا عند هذه الآية .. نجد كلمة السحر لنعلم أنه بجانب السحر البشرى الذى هو خداع البصر .. يوجد سحر من أجناس أخرى هى الشياطين .. وأن الذين يمارسون هذا النوع من السحر من الشياطين .. هم كفرة .. أو مردة .. عاصين لله سبحانه وتعالى .. والشياطين بحكم قوانينها تستطيع أن تتشكل فى أشكال مختلفة مثل الحيوانات والإنسان أحيانا إلى آخر ذلك .. وهى حين تتشكل فى هذه الأشكال فإنه يحكمها قانون الشكل .. وهذا رحمة من الله سبحانه وتعالى لأنه لو كانت الشياطين تستطيع أن تتشكل بأشكال مختلفة .. ولا يحكمها إلا قانونها .. لكانت الحياة على الأرض عملية صعبة للإنسان .. ولتحكمت فيه الشياطين وأزعجته .. ولكن كونها محكومة بقانون الشكل الذى تتشكله .. فإنها تخشى إن هى بقيت فيه أكثر من لحظات أن يستطيع الإنسان القضاء عليها .. فإذا تشكل الشيطان فى شكل إنسان .. أو قرد .. أو حمار .. فإنك إذا أطلقت عليه الرصاص أو ضربته بسكين قتلته .. وهو يعرف ذلك ، ومن هنا فإنه لا يبقى على هذا الشكل لأنه يعرف أنه معرض للخطر من الإنسان .. فلا يتشكل إلا لحظات .. ثم يعود إلى طبيعته .. وهذا التشكل هو الذى تقوم به الشياطين لخداع البشر .. وأحيانا يتشكل الشيطان على شكل قبيح جدا ويقف بين المرء وزوجه .. وكلما نظر الزوج إلى زوجته وجدها على صورة قبيحة تجعله يكرهها . وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾

سورة البقرة من الآية ١٠٢

● **الفرصة والحساب**

نأخذ من هذه الآية الكريمة عدة مبادىء .. أولها : إن السحر بهذه الطريقة أى بطريقة التشكل لحجب الحقيقة عن الرائى إنما هو قوانين الجن .. أو الشياطين .. أما الإنسان فلا يملك من فنون السحر غير خداع البصر .
وثانيها : إن هذا السحر نزل به ملكان هما هاروت وماروت ..

وأن كل من أذن له الله ليتعلم على أيديهما قالا له إنما نحن فتنة فلا تكفر .. أى أن هذا النوع من السحر هو فتنة للبشر .. وكل من يتاح له معرفة أسراره .. إنما هو معرض للكفر .. لماذا ؟ لأن هذا النوع من السحر يعطى الإنسان فرصة كبرى على غيره من بنى جنسه .. وإذا ملك الإنسان الفرصة ويستطيع أن يتحكم فى بنى جنسه بقوى أكبر منه فإنه بهذه الحالة يجد نفسه متجها إلى الظلم والبغى والكفر .

ولنوضح هذا قليلا .. هب أننا نعيش فى قرية صغيرة .. وأتيح لأحد أفراد هذه القرية أن يحصل على بندقية أو سلاح نارى .. إنه عندما يحصل عليها يقول : انى سأستخدمها فى حماية نفسى ودفع الأذى عن أهل بيتى .. ثم بعد ذلك يجد انه يستطيع أن يخضع بها أهل القرية كلها .. فيبدأ فى فرض الاتاوات والارهاب والافساد فى الأرض .. وهكذا تعطيه الفرصة غير المتكافئة اغراء كبيرا للإفساد ..

ولكن لماذا أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة . . الفتن كلها هى امتحان للإيمان . . المال فتنة والولد فتنة والنفوذ والسلطان فتنة والترف فتنة ، وهذه الفتن كلها إنما وضعها الله سبحانه وتعالى فى كونه كامتحان للبشر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

سورة آل عمران آية ١٤٢

إذن . . فالفتن كثيرة فى الكون . . يأتى إنسان فيقول اللهم ارزقنى مالا لأتصدق وأكون من الصالحين . . فإذا رزقه الله المال . . منع الصدقة وأخذ حق اليتيم والمسكين . . ويأتى آخر ويقول اللهم ارزقنى ولدا أو أولادا يكونون عزوة لى . . فإذا أعطاه الله الأولاد استخدمهم ليرهب بهم الناس ويفرض الاتاوات . . وهكذا . . وكل هذا يدخل فى معنى الأمانة . . أى أن الله سبحانه وتعالى حمل الإنسان الأمانة . . ومعنى ذلك أنه حمله وديعة عنده . . والمهم هو وقت السداد . . وإذا أردنا أن نوضح هذه النقطة قليلا . . فإن الله قد عرض على الإنسان الأمانة أى حرية الاختيار . . فى افعل ولا تفعل . . ويأتى الإنسان ليقول : ربى بما أعطيتنى من حرية الاختيار فانى سأعبدك حق عبادتك وأصلح فى الأرض . . ويمضى الإنسان ليفسد فى الأرض بدلا من أن يصلح فيها . . ويهلك الحرث والنسل . . ثم يأتى وقت أداء الأمانة . . وهو ساعة الموت . . وهنا المفروض أن يقدم الإنسان حسابا لخالقه . . ولكنه لا يستطيع الوفاء بما وعد . . ويأتى وقت السداد فلا يجد شيئا يقدمه . . وكذلك الإنسان الذى يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعله قادرا على تسخير قوى فوق قوى البشر . . ويقول ياربى استخدمها فى الخير . . ويستخدمها فى الشر وايذاء الناس . . ثم يأتى وقت يجد فيه أنه قد خان عهد الله ولم يرع الأمانة . . وكل ما يصيب الإنسان فى هذه الدنيا

من فتن . . هو اختبار للإيمان . . فالإنسان يطلب والله يعطيه ليختبر إيمانه . . وليس لأن الله لا يعلم هذا الإيمان . . ولكن ليكون الإنسان شهيدا على نفسه . . فيجادل ويقول لو اننى أعطيت لفعلت الخير . . ولكنه يعطى الإنسان ليفعل الشر ليكون شهيدا على نفسه . . والإنسان العاقل هو الذى يبتعد عن هذه الفتنة ويقول ياربى أنا لا أضمن نفسى وأخشى أن أفتن فى إيمانى فلا أريد شيئا لا أقدر عليه . . مثل هذا الإنسان يكون بعيدا عن الفتنة . . لأنه عرف ضعف النفس البشرية فرفض أن يحمل أمانة لا يستطيع الوفاء بها . . مكتفيا بما حمله الله فى افعل ولا تفعل . . وهذا الإنسان عادة ليس له صلة بعوالم أخرى وإنما يحيا الحياة الطيبة . . ولكن من لهم تطلعات فى الدنيا هم الذين يطلبون الفتنة ثم يسقطون فيها . . والفتن كما قلنا . . امتحان للنفس البشرية وامتحان عسير . .

● **الخير ممتنع هنا**

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة . . نقول إن السحر عند البشر هو بإخضاع قوى غير بشرية للإنسان يستعين بها . . وهذه القوى . . قوانينها غير قوانين البشر فهى تستطيع أن تقطع المسافات فى زمن قياسى . . وتستطيع أن تتشكل بأشكال معينة . . ومن هنا فإنه يمكنها أن تأتى بأشياء بعيدة فى زمن بسيط . . أو تقوم بالتشكل حسب إرادة البشر التى سخرت له . .

ولما كان هذا السحر من قوانين الجن والشياطين . . فإن الله سبحانه وتعالى قد أطلعنا على ما يمكن أن يفعله . . فتقول الآية الكريمة :

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ

سورة البقرة من الآية ١٠٢

إذن فالخير ممتنع هنا . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد لمثل هذا السحر ما يمكن أن يؤديه . . فهو يستخدم فى التفرقة بين المرء وزوجه . . أو فى بث الكراهية فى العائلة الواحدة . . أو فى ارتكاب الجرائم والسرقات . . المهم فى أنه يستخدم فيما يضر ولا ينفع . . والضرر هنا يضر الاثنين معا . . من استخدم السحر . . ومن استخدم ضده السحر . . ولكن الله وقى من استخدم ضده السحر . . وطلب منه أن يستعيذ به . . ويقرأ « **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد** » . . ومن هنا وضع الله سبحانه وتعالى سياجا للوقاية للمؤمن . . فالاستعاذة بالله . . وقراءة القرآن الكريم وقراءة سورة الفلق . . ومن يفعل ذلك لا تمسه مثل هذه الأشياء .

على أنه فى قول الله تعالى « **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** » . . معناها أن الذين يتعلمون هذه الأشياء يقع عليهم الضرر . . ذلك لأنهم استغلوا الفرصة غير المتكافئة فى الشر . . ومن هنا فإن الذى يستعين بهذه القوى نجد أن رزقه قد وضع فى يد من هم أدنى منه . . أى أن الله سبحانه وتعالى يرزقه على يد من هو أقل منه علما بتلك القوانين . . هذه واحدة . . والثانية أن الله يسلط عليه من استعاذ بهم من الجن . . فتحدث له الكوارث فى نفسه وأولاده وبيته . . لا يستطيع أن يواجهها . . وتكون نهايته اسوأ نهاية . . فيموت فقيرا . . مصابا بالكوارث . . كافرا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

سورة الجن آية ٦

أى أنهم باستعانتهم بهذه القوى غير البشرية لا يزدادون خيرا ولكن يزدادون رهقا وعنتا . . ثم يصل بهم الحال إلى الكفر والعياذ بالله وهكذا تكون الفرصة غير المتكافئة وبالا على صاحبها . . لا يرى فيها خيرا أبدا . . ولكن يعيش فى بؤس وشر ورعب حتى ينتهى أجله كافرا .

فالسحر سواء كان بقانون البشر . . أو بقانون غير البشر . . لا يغير طبيعة الأشياء . . ولكنه بقانون البشر هو خداع للعين واسترهاب للنفس . . وبقانون غير البشر هو أشياء تحدث بقوانين مخلوقات أخرى يخيل لنا نحن المحكومين بقانون أدنى . . أن أشياء قد تغيرت . . ولكنها فى الحقيقة لم تتغير . . بل تشكل شيئا ما . . بين بصرك وبين حقيقة الأشياء . . وهى فى الحالتين استخدام لنوع من الخداع بقانون البشر . . أو بقانون غير البشر . . تسترهب الناس وتفتنهم وتسحر أعينهم فيخضعون لها . . والحقيقة أن السحر تخيل وسيطرة على المرء . . سواء بقوانين متساوية أو بالاستعانة بقوى أخرى . . والذى يحدث مجرد تخيل يوقع الإنسان تحت سيطرة الساحر . . ولكن ذلك كله لا يصيب الإنسان المؤمن . . لأن الإيمان يجعلك تعرف يقينا . . إنه لا يوجد جنس فى الكون يستطيع أن يغير طبيعة المادة . . والإنسان المؤمن الذى يستعيذ بالله دائما لا يمكن أن يصيبه كيد ساحر مهما كان . . لأن الله يدافع عن الذين آمنوا . . ويقيهم كل شر . . والإنسان الذى يريد الشر للمؤمن لا يصيب به إلا نفسه . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى « **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** » . . ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حكم على هؤلاء الذين يحاولون بالسحر خداع البشر واسترهابهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى « **ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق** » . . أى أن الذين اشتروا بالإيمان خداع الناس واسترهابهم ليس لهم فى الآخرة عند الله أجر . . بل لهم عذاب مهين . . لما اشتروا الكفر بالإيمان . . والله سبحانه وتعالى لا يمكن كافرا من مؤمن . . فالذى يخيل إليه أنه بالسحر واستخدام الشر قد نجح . . يقول له إنك وقعت فى فتنة . . وتمضى الأيام . . ويجد الإنسان الذى أراد الشر بالناس أن هذا الشر يعود إليه ليصبح ذليلا منبوذا تسلط عليه الكوارث . . وتأتى الآخرة . . فإذا هو كافر ليس له فيها نصيب .

بقيت بعد ذلك مسألة الحسد . . يقول الله سبحانه وتعالى « **ومن شر حاسد إذا حسد** » . . ما هو الحسد . . الحسد هو تمنى زوال النعمة . . بمعنى إننى أرى

إنسانا فى نعمة فأتمنى زوالها عنه . . وأعمل فى سبيل ذلك . . ولكن هل للحسد علاقة بالعين . . علاقة مادية . . أو أن الأعمى لا يستطيع أن يحسد مثلا . . هذا خطأ شائع . . فالأعمى والمبصر كلاهما يستطيع الحسد . . أى تمنى زوال النعمة عن شخص آخر . . فالحسد متعلق بارادة الحاسد وليس يبصره . . والإنسان الذى يحسد . . يفعل ذلك اختيارا . . فأنت لست مكرها على الحسد . . ومكان الحسد هو القلب وليس العينين .

ولكن الذى يحسد . . لا يفهم معنى النعمة . . فالنعمة من الله سبحانه وتعالى ولا يوجد عبد تأتى إليه بعلم منه . . بل إن الله سبحانه وتعالى يفتح الأبواب أمام من يشاء ويجعلها صعبة أو مستحيلة أمام من يشاء . . تلك حقيقة يجب أن نفهمها . . النعمة من الله . . وللابقاء على النعمة عليك أن تردد قول الله تعالى : **« ما شاء الله . لا قوة إلا بالله »** . . فى هذه الحالة تنتقل النعمة إلى واهبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى فيبطل الحسد .

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى . . قد وضع تكافؤ الفرص فى الكون . . وليس معنى أنه ميسر لك فى الرزق . . أو فى الجاه والسلطان . . إنك تملك أسباب الجاه والسلطان والتمتع . . فهناك من يملك المال وهو عاجز عن التمتع به . . وقد تضع أمامه أشهى الأطعمة ولكنه لا يستطيع أن يمد يده إلى لقمة واحدة مما أمامه . . لما يعانيه من مرض . . وقد تأخذه إلى أجمل بقاع الدنيا ولكنه يجلس فيها حزينا كئيبا . . لا يحس بالجمال حوله . . وقد يعيش فى قصر كبير . . ويكون حارس هذا القصر أو من يخدم فيه أكثر تمتعا من صاحب القصر نفسه . . أكثر تمتعا بالحياة والجمال فى هذا القصر . . إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها . . وقد يجعل الله الإنسان الذى يملك كل أسباب الدنيا محتاجا إلى من هم أدنى منه . . وربما حاجة تنغص عليه حياته .

والفرص المتساوية قد تخفى علينا ونحن نبحث عن المال والجاه . . ولكننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وهب إنسانا نعمة المال . . وإنسانا نعمة

الصحة . . وإنسانا نعمة البركة . . وإنسانا نعمة اليسر فى الرزق . . ومن فقد شيئا عوضه الله عنه بأشياء . . ففاقد البصر له أذن مرهفة تعوضه عما فقد . . وفاقد الحركة قد يعطى ذكاء خارقا يجعله أعلى بكثير ممن يتحركون فى الحياة . . والأشياء هنا تمضى بمقدار . . فإذا كانت الفرص غير متكافئة ظاهرا فذلك لا يخل بتكافؤ الفرص فى الحقيقة فربما يتمتع إنسان عاجز عن شيء بعطف الناس كثيرا مما يجعله ميسرا فى حياته عن كثيرين .

● معنى الحسد

والحسد هو تمنى زوال النعمة . . وهذا التمنى قد يأتى بأن تعمل أنت على تعطيل الأسباب التى تؤدى للنعمة ظاهرا . . كأن يكون لإنسان أرض وافرة الانتاج كثيرة الرزق تحسده عليها . . فتأتى وتغرقها أو تقلع الزرع منها . . أو يكون لإنسان بيت جميل أو سيارة فاخرة فتأتى لتحرقها . . وقد يكون هذا التمنى بالدعاء دون الفعل . . أو يكون من داخل النفس بحيث يؤثر على المحسود . . فيوجد فى داخله ما يؤرق عليه حياته بمجرد احساسه أن هناك من يتربص به ويتمنى زوال نعمته ويعمل على ذلك .

وإذا كان للحسد أشكال مختلفة . كما للسحر . . فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما . . فهما موجودان فى الكون . . ولا يمنع وجودهما إنهما شيئان غير ماديين لا يمكن أن نضعهما فى المعمل ونجرى عليهما التجارب العلمية . . فما هو فوق المادة وما لا تراه العين موجود فى الكون لا يستطيع أحد أن ينكره ولقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل وشرحنا أن هناك أشياء لم نكن نعلم بوجودها فى الماضى نراها الآن رؤيا العين . . وأشياء لم تكن فى قدرة العقل البشرى منذ مئات السنين قد أصبحت الآن فى قدرة هذا العقل . يستطيع أن يدركها ويستوعبها كحقائق موجودة وملموسة . . والإنسان سواء مارس السحر . . أو كان حاسدا . . فكلاهما معصية لله سبحانه وتعالى . . فممارس السحر يريد أن ينتهى بأن يحقق لنفسه خيرا . . ولكنه ينتهى

وقد أحاط به الشر من كل جوانبه .. وأصبح الخير ممتنعا تماما .. والحاسد يتمنى زوال نعمة غيره ، وهو فى هذه الحالة لن يستفيد شيئا .. فالذى يغرق زراعة غيره أو يهلك أرضه .. أو يحرق بيته .. لن يعطيه الله هذه الأرض أو هذا البيت .. وهو فى الحقيقة ظالم لنفسه .. أى أنه لم يعطها شيئا تنتفع به .. ولو شيئا عاجلا .. ولكنه فى نفس الوقت أعطاها الإثم الذى يوردها مورد الهلاك فى الدنيا والآخرة .. وكان الأحرى بالحاسد أن يعرف أن النعمة من الله سبحانه وتعالى وان الله عنده خير كثير .. وانه يستطيع أن يعطى كلا منا ما يريد دون أن ينقص ذلك من ملك الله شيئا .. ومن هنا فكان الأحرى به أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليطلب منه ما يشاء .. ولكنه بدلا من ذلك يتمنى زوال نعمة الغير .. ولو أن هذا المال .. أو الجاه .. أو السلطان .. أو الصحة سيذهب إلى الحاسد لقلنا ربما يبحث عن نفع عاجل .. ولكن الحاسد أول من يعلم أنه لا يصله شيء من هذا .. وهو فى تصرفه إنما ينسب النعمة إلى المنعم عليه .. ولو أنه كان مؤمنا حقا لنسب النعمة إلى خالقها .. ولعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى .. فكأن الحسد هو اعتراض من الحاسد على ارادة الله سبحانه وتعالى فى أن يهب نعمه لمن يشاء .. والاعتراض على الارادة هنا .. نوع من الكفر .. فهو لا ينكر أن الله هو المنعم فقط .. ولكنه يعترض على الارادة التى أعطت النعمة .

والحقيقة أن حسد النعمة- قد لا يصيب إلا الحاسد بحسده .. فمادام المنعم عليه يستعيذ بالله سبحانه وتعالى .. وينسب النعمة إلى المنعم نفسه وهو الله لا يصيبه شيء .. ومادام لم يغتر وقال « **إنما أوتيته على علم عندى** » ويفسد فى الأرض فإنما النعمة تبقى مادامت منسوبة إلى المنعم .. وتزول عندما ينسبها إلى نفسه .. فالإنسان الذى يقف متباهيا بغرور ويقول أنا فعلت هذا بذكائى وقدرتى .. يقول له الله سبحانه وتعالى مادمت قد أشركت معى شريكا هو ذاتيتك وذكاؤك فأنا أغنى الشركاء عن الشرك ويتركه فتزول عنه هذه النعمة وتذهب لأنه بذاته لا يستطيع أن يحقق شيئا .. ولكن ما يحققه هو بفضل من الله

الذى يوفقه ويهديه . . وينير له الطريق . . ويمنحه الأسباب التى تجعل هذه النعم خاضعة له . . ولو زالت بركة الله من المال لذهب فيها لا ينفع . . ولو زالت بركة الله من الصحة لكان هناك المرض . . ولو زالت بركة الله من أسباب الرزق لأصبحت هذه الأسباب لا تعطى شيئا رغم كل الجهد الذى بذله ويبذله الإنسان .

● **الناس فريقان**

ويجب أن نعلم أن الناس فريقان . . فريق معتمد على الله . . ينسب الفضل دائما لله . . وهذا الفريق لا تزول عنه نعمه . . ولا يضره سحر . . ولا يحسد ماله حاسد . . لأنه محاط بسياج من الله سبحانه وتعالى . . وفريق آخر ينسب الفضل لنفسه وهؤلاء إنما يصيبهم زوال النعمة وغيرها لأنهم قد نقلوا القدرة من الله سبحانه وتعالى إلى قدرة البشر . . وفرق هائل بين القدرتين .

إذن فالله يطلب منا سبحانه وتعالى أن نستعيذ به من أشياء . . وهذه الأشياء إن لم تكن شرا مطلقا فهى شر لنا . . ومادام الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعيذ به من هذه الأشياء فهو يعلم أن قدراتنا لا تستطيع أن تواجهها . . لأننا لا نعلم شيئا عن قوانينها . . فالشياطين مثلا ترى الإنسان وهو لا يراها . . وكذلك الجن . . وجهلنا بقوانين هذه المخلوقات وعدم رؤيتنا لها . . يجعلنا عاجزين عن أن نواجهها بقدرات الدنيا . . وفى هذه الحالة طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نلجأ إليه فيمنع عنا بقدراته هذه الأشياء .

والسحر هو خداع للبصر واسترهاب للنفس . . إما بقوانين الأرض . . واستخدام الجماجم والأصوات المزعجة . . وخفة اليد والحيلة . . وإما بقوانين الجان بالتشكل . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . والله سبحانه وتعالى حين طلب منا أن نستعيذ به من هذه الشرور كلها . . ورفع القدرة والأمر إليه . . فهو دليل على أنها فوق قدرة العلم البشرى . . فلا نجادل فيها بطريقة معملية مادية . . وإنما نأخذها على أساس إخبار الله لنا بها . . خصوصا وقد عرفنا أنها

غيب عنا . . وكل إنسان مهما بلغ من العلم . . يجد فى نفسه استجابة لهذه الأشياء . . وعليه أن يستعيذ بالله منها . . ومادام الشىء قد خرج عن علم البشر . . ومادام ليس فى قوتك ان تدفعه عنك . . فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن ترفع الأمر إليه . . فيواجهه هو بقدراته .

وهناك كلمة أخيرة . . إن شر ما يصيب النفس البشرية هو الوسوسة . . أى الاستماع إلى اغراء الشياطين وقوى الشر . . وليس معنى أن الله أخبرنا بهذه الأشياء أن يدخل الخوف والوسوسة إلى قلوبنا . . بل معناه أن نحس باطمئنان كامل لقدرة الله ، واننا معه فى أمان تام . . لأن الله يدافع عنا . . ولا يدخل إلى قلوبنا لحظة أن هناك قوة أو قدرة تستطيع أن تجب قدرة الله سبحانه وتعالى . . مهما كانت . . وان رحمة الله قد أصابتنا حين نستعيذ به من هذه الأشياء . . فهذا العلم الذى أنزله الله لنا هو سياج الأمن الذى يحفظنا من كل سوء . . ويبعد عنا كل شر . . ولا تصدق دجالا . . أو أفاقا . . يوهمك أنه يستطيع أن يؤذيك أو يضرك . . وأنت محاط بسياج من قدرة الله . . وحتى أولئك الذين أوتوا العلم بهذه الأشياء . . إنما أوتوا الشر الذى يحيط بهم وينهى حياتهم أسوأ نهاية .

على أن بعض الناس يتعلق بالأسباب وحدها . . ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون ووضع له قوانين . . ثم تخلى عنه . . ولكن هذا غير صحيح . . فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه إلى يوم القيامة . . وطلاقة القدرة باقية فى الكون مع الأسباب . . وهذا حديثنا فى الفصل القادم .

الفصل الثالث

طلاقة القدرة في الكون

الله سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعا . . وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها . . والقوانين التى تحكمها . . والله سبحانه وتعالى حين قال « كن » . . تم الخلق فى نفس اللحظة . . ولكن الأسباب تفاعلت فى السموات والأرض فى ستة أيام . . وهى ستة أيام كأيام البشر لأن القرآن يخاطب الإنسان . . ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى القدر البشرى . . والعقل البشرى . . سواء كان ذلك حاضرا أم مستقبلا مما يخفى على عقولنا الآن .

ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على طلاقة القدرة . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض . . لعبد الناس الأسباب . . ونسوا المسبب أو الخالق . . لذلك بقيت طلاقة القدرة لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته . . وإنه يفعل ما يشاء . . عندما يشاء . . وقتما يشاء . . لذلك نجد إنسانا يكد ويكدح كثيرا . . ومع ذلك فهو ضيق الرزق . . وإنسانا آخر يعمل قليلا ومع ذلك فرزقه وفير . .

وإنسانا ضعيفا ينتصر بقدرة الله على إنسان قوى ظلمه . . تلك ليست القاعدة . . فالقاعدة هى الأسباب . . ولكن طلاقة القدرة . . تأتى . . وتأتى بشكل ظاهر لتلفت الناس إلى قوة الله وقدرته .

إن هذا الحديث لا يعجب أناسا كثيرين من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية . . ذلك لأنهم ينسبون إلى الاسلام أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة . . ويقولون إن قول الله تعالى **« يرزق من يشاء بغير حساب »** . . هو مدعاة لئلا يسعى الإنسان فى الرزق . . فمادام الله يرزق من يشاء بغير حساب . . فلماذا العمل والتعب . . ولماذا السعى وراء الرزق . . مع ما يورثه للنفس من مشقة ومما تكره . . وقبل أن نجيب على هذا السؤال . . نطرح قضية هامة معاصرة . . تفيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله وتجعلهم يعرفون يقينا صدق الآية الكريمة **« يرزق من يشاء بغير حساب »** . . هؤلاء

الذين يطعنون الدين فى هذه الآية . . يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها . . فكل رزق مساو للعمل الذى يتم من أجله . . فأنت إذا عملت ليل نهار . . زاد رزقك . . وإذا عملت بضع ساعات مثلا قل رزقك . . وهكذا . . تلك هى القاعدة التى يتبعونها فى أن كل رزق يجب أن يكون مساويا للعمل الذى يتم من أجله .

نقول لهم . . إن هذا قد يكون صحيحا كقاعدة عامة . . ولكنه لا ينفى قول الله تعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » . . ولنلاحظ فى الآية الكريمة قول الله « من يشاء » . . ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب . . بل لكل رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله من عمل وجهد له . . ولكن هناك المشيئة . . أو طلاقة القدرة . . تعطى بغير حساب . . أو بغير أسباب .

وإذا نظرنا إلى دول البترول . . تلك التى تملك القوة الحقيقية فى المال أو فى الرزق فى العالم أجمع . . إذا نظرنا إليهم . . نجد أنهم أكثر الناس رزقا أو مالا . . بل هم قد فاقوا فى الرزق تلك الأمم التى فاقتهم فى العمل والعلم . . وأصبحت تتجه إليهم ليدعموها فى الرزق . . فأمريكا وأوربا الغربية من أكثر الدول عملا وعلما . . ولكنها فى اقتصادها تتجه إلى دول البترول لتقترض منها البلايين . . لتدعم اقتصادها . . وتحاول أن تجذب أموال دول البترول لتستثمر فى بنوكها . . بل إن دول البترول تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان . . إذا هى سحبت دعمها الاقتصادى لها . . وأوقفت مشترياتها منها .

إذن من الذى يملك القوة الاقتصادية الحقيقية فى العالم . . إنها دول البترول . . فهى التى تملك المال أو الرزق حقيقة . . وهى التى تستطيع أن تتحكم ليس فى رزقها فقط . . ولكن فى اقتصاد العالم كله . . وذلك بشهادة كل الماديين وغير المؤمنين فى العالم .

● يرزق من يشاء

بقى بعد ذلك الشق الثانى من السؤال .. وهو إذا كانت دول البترول قد وصلت إلى هذا المركز الذى يتحكم فى اقتصاد العالم أجمع .. فلابد أنها قدمت حسب النظرية المادية من العلم والعمل ما يفوق ما قدمته دول العالم أجمع .. ولكن هذا غير صحيح .. فهذه الدول تقدم علما وعملا .. بل إن اكتشافات البترول قامت بها شركات غربية من الدول التى تخضع الآن اقتصاديا لدول البترول .. أى أنه حتى العمل القليل الذى تم .. تم بواسطة خبراء .. جاءوا وبحثوا .. وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى .. فكيف إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى **« يرزق من يشاء بغير حساب »** .. كيف يمكن تفسير ما هو حادث .. لو أن القاعدة على اطلاقها أن الأسباب هى التى توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث .. ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم .. وفى زمن قياسى .. لا يستطيع العمل والعلم خلاله أن يحدثا ذلك .. فلكى تتطور دولة .. أو عدة دول .. لتصبح أغنى دول العالم .. فإن ذلك يتطلب بجانب العمل والعلم فترة زمنية طويلة .. ولكن هنا .. لا الزمن .. ولا العلم .. ولا العمل تتناسب مع الرزق .. إذن من الذى أوجد هذا الرزق .. الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة **« يرزق من يشاء بغير حساب »** .

هنا يجب أن يتوقف الحكم المادى الغربى الذى يأخذ الأسباب على اطلاقها .. والذى يطعن فى الآية الكريمة **« يرزق من يشاء بغير حساب »** .. ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر .. وتقدم العلم ومقاييس الزمن .. نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك .. تأمل فى الكون .. تجد فى كل مكان رزقا لمن يشاء الله بغير حساب .. هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيدا .. لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وقتما يشاء .. وأنه إذا كانت الأسباب موجودة .. فإن طلاقة القدرة موجودة فى الكون .. وأعتقد أنه

لا أحد يستطيع أن يرد على هذه النقطة . . أو يدعى ظلما وبغير حق أن الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » . . ليست حقيقة كونية . . موجودة منذ خلق الله الأرض . . وستظل إلى قيام الساعة . . ونحن نطلب من كل من يستطيع الرد على ذلك أن يتكلم . .

نعود بعد هذه اللمحة إلى طلاقة القدرة . . لماذا أبقى الله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة فى الكون ولم يتركه يتفاعل بالأسباب وحدها ؟ الذى حدث . . أن الأسباب . . أو المعطيات المادية . . تعطينا ظاهر الحياة . . وتنظم سيرها العادى . . ولكن إبقاء هذه الأسباب وحدها فيه بعد عن الله سبحانه وتعالى . . ذلك أن الله قد مكن بعض خلقه من الأسباب فى الأرض . . ليسير الكون . . وتمضى الحياة . . فهذا رئيس للدولة . . وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان . . وهذا ميسر له أسباب المال . . إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها . . وجعل الله العطاء ظاهرا من الأسباب ليسير الكون . . ثم ماذا حدث . . جاء إلى الكون أناس ماديون . . يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله بالأخذ بالأسباب وحدها . . فهذا يملك المال وهو يستطيع منحى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهذا يملك الجاه والسلطان . . وهو يستطيع أن يعطينى منه ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهكذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله . . انهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل منصب . . أو جاه . . أو مال . . فماذا يكون الموقف . . لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون . . لأصل إلى حاجتى . . أو ما أريد . . فإذا قال لى صاحب المال . . أو صاحب النفوذ والسلطان اقتل وسأعطيك كذا وكذا . . لفعلت ذلك بلا تردد . . إحساسا منى بأن عطاء الأسباب فى يد هذا وحده . . وأن معصيته ستؤدى بى إلى التهلكة وتحرمنى من مقومات الحياة . . وأن طاعته ستجعلنى أعيش الحياة الرغدة التى أتمناها فى الدنيا . . وبهذا . . وبغير ما نظر إلى ما قال الله افعل ولا تفعل . . انطلق أنا

لأحقق هوى وشهوات . . ذلك الذى يملك المال أو الجاه أو السلطان . . ولو كانت تغضب الله . . وتمضى الأسباب لتؤدى إلى عبادة الفرد . . حيث يصبح الهوى الشخصى . . والغرض البشرى . . هما الأساس فى الحياة . . فيفسد الكون كله . . ولا تمضى الحياة وفقا لمنهج الله الذى يحمى الانسان الضعيف من بطش القوى . . والمظلوم من قدرة الظالم . . ولكنها تكون حياة وفقا لهوى النفس . . فيصبح الذى يحكم هو شهوة الحاكم وليس دين الله . .

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها . . وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال . . وتضيع موازين العدل . . وتكثر من البغى فى الأرض والفساد . . وما من أمة عبدت الفرد إلا وانتشر فيها الظلم . . وعم فيها الارهاب . . وضاع فيها الحق واستعبد فيها الإنسان . . تلك حقيقة تستطيع أن تدركها إذا نظرت إلى أى دولة نصب حاكمها نفسه إلها . يعبد من دون الله فى الأرض . . وهى حقيقة منذ بدء التاريخ فى عهد فرعون حتى عصرنا هذا . . والله سبحانه وتعالى قد شدد العذاب على أولئك الذين يعاونون هذا الحاكم . . ويفعلون له ما تهوى نفسه ويغضبون الله سبحانه وتعالى . . فخص آل فرعون دون سائر خلقه بأنهم منذ ساعة أن توفاهم حتى يبعثهم يوم القيامة يعرضهم على النار صباحا ومساء . . فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

سورة غافر آية ٤٦

أى أنه لم يختصهم فقط بأشد العذاب يوم القيامة . . بل زادهم بالعرض على النار غدوا وعشيا إلى يوم البعث . . وتشديد العذاب هنا متناسب مع شدة المعصية . . فعبادة الفرد هى اطلاق للشهوات والظلم والإفساد . .

● **الأسباب وحدها .. لا**

إذن فإطلاق الأسباب وحدها فى الكون .. يؤدى إلى عبادة الفرد .. وإلى ظلم عظيم .. ويجعل الناس يعبدون الأسباب .. وينسون المسبب ويخضعون لمن فى يده الملك والسلطان .. والجاه والمال .. ويتركون حكم الله .. لماذا ؟ لأن الأسباب هنا هى التى تعطى .. وهى التى تهب .. وما يهب ظاهرا يعبده الناس .. لأنه ظاهرا يعطى ويمنع .. ومن هنا كان لابد من طلاقة القدرة لتصحح المسيرة .. وتفيق الناس .. وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب .. وأنه يستطيع كما أعطاها أن يأخذها .. وأن العبادة لله وحده .. وأن من ترك المسبب وعبد الأسباب .. فإنه قد ضل .. ونسى الله ..

ولذلك فنحن نتعجب من إنسان يملك أمور الدنيا كلها من قوة وجاه ومال وسلطان .. ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة فيقصيه عن ملكه ويبعده عن ماله .. ويصبح ذليلا طريدا .. تضيق عليه الأرض بما رحبت .. بعد أن كان يملك من أسباب القوة والملك ما يجعل الدنيا كلها تخضع له وتتقرب إليه ..

ونحن نرى كل يوم طلاقة القدرة فى العالم كله من ملك يذهب .. وملك يجىء .. ومن صاحب سلطان أو مال .. يصبح فقيرا معدما أو مطرودا فى ساعات .. ومن ذلك الذى كان يجلس على كرسى الوزارة .. ثم بعد ذلك بساعة نجده فى السجن والقيود فى يديه .. كل ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بطلاقة القدرة وقوة المشيئة .. ويؤكد لنا أن الأسباب التى أعطيت لأى بشر .. لتمكن له ملكا .. أو جاها .. أو سلطانا .. إنما هى أسباب معطاة من الله سبحانه وتعالى .. وليست باجتهاد هذا الشخص أو نابعة من ذاته .. بحيث إذا أراد الله .. زالت هذه الأسباب .. ولو كانت الأسباب ذاتية .. أى تنبع من الإنسان نفسه لبقيت له .. ولم يستطع أحد أن يأخذها منه .. ولكن كونها تزول عنه وفى لحظات دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبه هذه الأسباب .. وهو الذى أخذها منه ..

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور فى الدنيا . . بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء . . ولا تقتصر على فرد دون آخر . . بل يراها الجميع . . وكل منا صاح فى يوم من الأيام (ربنا كبير) . . أو (ربنا موجود) . . أو (ربك يمهل ولا يهمل) وهو يرى طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا على ظالم قوى . . أو تقتص من إنسان ارتكب جريمة وحسب أنه نجا من العقاب . . أو لتعيد حقا ضاع من صاحبه وحسب الناس أنه ضاع إلى الأبد . . أو لتزيل ظلما . . أو لتقعد جبارا كان يؤذى الناس لتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه . . تلك كلها طلاقة القدرة وكلمة (يارب) التى تخرج من قلب مظلوم لا حول له ولا قوة يتبعها تدخل السماء لتزيل ظلما وتعيد حقا . . وتصحح الموازين فى الأرض . .

وإذا كانت طلاقة القدرة باقية فى الكون . . فأساس بقائها أنها تذكرنا بالله سبحانه وتعالى . . فإذا وعدك ظالم بأخذ أسباب المال مقابل أن تفعل له ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . وإنك إذا عصيت هذا الظالم وأطعت الله . . فإن الله يعطيك من الرزق ما لا يخضع للأسباب . . ويفتح لك أبوابا ما كنت تدرى عنها شيئا . . ومن حيث لا تعلم يأتيك الرزق الذى تريده . . وإذا طلب منك صاحب جاه أو سلطان أن تفعل ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأنك إذا أطعت الله أعطاك هذا المنصب أو خيرا منه . . وأنه إذا كان هذا الإنسان يملك الأسباب التى تجعلك تخاف ألا تصل إلى ما ترجوه . . فإن الله سبحانه وتعالى يملك طلاقة القدرة التى تعطيك بلا حساب . . وبهذا تعرف جيدا أن من يغريك : هذا بماله . . وهذا بسلطانه . . هما سببان زائلان . . وأن طلاقة القدرة لا يهمها هذه الأسباب . . ولا تتقيد بها . .

● **الله يذكرنا بقدرته**

على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة القدرة غيبا عنا . . ولا جعلنا نجهلها ولا نعرف عنها شيئا . . بل ذكرها فى مواضع كثيرة من القرآن

الكريم .. بحيث نجد فى كل سورة اشارة إلى طلاقة. قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قرأت قوله تعالى « **يختص برحمته من يشاء** » .. « **يعذب من يشاء** » .. « **يغفر لمن يشاء** » .. « **يهدى من يشاء** » .. « **يضل من يشاء** » .. « **يرزق من يشاء** » .. « **يعز من يشاء** » .. « **يذل من يشاء** » .. « **يؤتى الملك من يشاء** » .. « **ينزع الملك ممن يشاء** » .. « **إن الله على كل شيء قدير** » .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا طلاقة القدرة فى هذه الآيات وفى عشرات من الآيات الأخرى فى القرآن الكريم .. وليست هذه الآيات إلا مثلا فقط على أن طلاقة القدرة يشار إليها فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .. ولو قرأت القرآن لوجدت أضعاف أضعاف هذه الآيات تنبئنا بطلاقة القدرة .. على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة قدرته سرا على عباده .. بل أنبأهم بطلاقة هذه القدرة ووجودها .. ولعل الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** » .. هو قمة طلاقة القدرة .. ذلك أن هذه الآية تنبئنا أنه ليس عند الله أسباب .. وأنه إذا كان قد خلق الأسباب لتنتظم الحياة على الأرض فهى ليست قيدا على مشيئته سبحانه وتعالى .. ولو كانت قيدا لقال لنا الله إنه إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ليكون .. ولكن كلمة « كن » معناها أنه لا دخل للأسباب هنا .. وأن الشيء يوجد بمجرد قول الله سبحانه وتعالى « **كن** .. **فيكون** » دون أسباب أو مسببات .. وخلق السموات والأرض وما فيهما كان بكلمة « **كن** » .. وخلق الإنسان كان بكلمة « كن » .. والله سبحانه وتعالى يقول : « **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور** » ويقول : « **ويجعل من يشاء عقيما** » .. والحكمة هنا أنه رغم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل السبب فى الذرية من ذكر وأنثى .. أى أنه لا يتم الانجاب إلا باجتماع الذكر والأنثى .. إلا أن طلاقة القدرة تجعل من يشاء عقيما .. أى أنه رغم اجتماع الذكر والأنثى لا يتم الانجاب .. وتتوقف الأسباب أمام مشيئة الخالق ..

هذا ما قاله الله سبحانه وتعالى عن طلاقة القدرة فى القرآن الكريم .. فإذا جئنا إلى التطبيق .. وجدنا أن طلاقة القدرة ظاهرة واضحة فى الرسل عليهم

السلام . . فمعجزاتهم كلها تأتى بطلاقة القدرة وليس بالأسباب . . فنوح عندما دعا ربه أن يهلك الكافرين . . فتحت ينابيع من السماء والأرض ليتم الطوفان . . ولم تفتح هذه الينابيع بالأسباب . . ولكنها فتحت بطلاقة القدرة . . وإبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار . . وخاصية النار هى الإحراق . . قال الله سبحانه وتعالى « **يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** » . . فتوقفت خاصية الإحراق فى النار فأصبحت لا تحرقه ولا تؤذيه . . هنا أيضا طلاقة القدرة . . وموسى عليه السلام عاش مع طلاقة القدرة طوال عهد نبوته . . نظرا للمعصية المستمرة لبنى إسرائيل . . فقد قال الله « **اضرب بعصاك البحر** » . . فانفلق . . وظهر قاعه ووقف الماء الذى من خاصيته الاستطراق . . وقف ساكنا بعيدا عن الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وعبر موسى وقومه البحر . . وعندما حاول فرعون العبور عادت نظرية الاستطراق إلى الماء فأغرقته هو وجنده . . وعندما استسقى موسى قومه . . ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . . ولو أن موسى عليه السلام قام بحفر حفرة ليبحث عن الماء . . لقلنا إنه اتخذ الأسباب . . ولكن لمجرد ضربه الحجر بعصا انفجر منه الماء . . لا عين واحدة . . ولكن اثنتا عشرة عينا . . ذهبت كل عين بمائها إلى القوم الذين قسمها الله لهم . . ورفع الجبل فوق بنى إسرائيل وضربهم الميت بأجزاء من البقرة بعد ذبحها . . أى ضرب ميت بميت . . وتخرج منها الحياة . . ويبعث القتيل ليدل على قاتله .

● هو علىّ هين

كل هذه معجزات لا يمكن أن تدخل فيها الأسباب . . بل هنا تتجلى طلاقة القدرة فى أن يقول للشىء « **كن فيكون** » . . ثم تأتى بعد ذلك طلاقة القدرة فى زكريا ومريم . . حينما دعا زكريا الله أن يهبه غلاما « **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى** »

« **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** » هنا أخذت زكريا طلاقة القدرة فاهتز . . وسأل الله سبحانه وتعالى كيف يمكن أن يحدث

ذلك وهو شيخ كبير وامرأته عاقر أى أن الأسباب إذا طبقناها هنا لا يمكن أن تؤدى إلى مولد طفل . . حينئذ رد الله سبحانه وتعالى عليه « **هو علىّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** » . . أى أن الله سبحانه وتعالى ذكر زكريا بطلاقة القدرة فقال له لا تعتقد أن هناك شيئا صعبا علىّ لأن الأسباب لا تأتى به . . بل من أهون الأشياء على قدرتى أن أفعل ما أريد . . ويتم ما أشاء بدون أسباب . . وإذا كان هذا صعبا على فهمك . . فتذكر خلقك . . « **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** » . . فإذا كانت قدرتى أن أوجد من العدم . . أفلا أستطيع أن أخلق بلا أسباب . .

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها رزقا . . أى فاكهة فى غير أوانها . . فسألها « **أنى لك هذا** » أى من أين أتيت بهذه الفاكهة وهذا الطعام . . فقالت « **هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** » . . إشارة إلى أن طلاقة القدرة لا يستعصى عليها شىء . .

بل إن خلق المسيح عيسى ابن مريم كان من طلاقة القدرة . . والله سبحانه وتعالى خلق آدم من لا شىء . . وخلق حواء من آدم . . أى أنثى من ذكر بلا أنثى . . وخلق من ذكر وأنثى . . ولاتمام مراحل الخلق بقى أن يتم الخلق من أنثى بدون رجل . . وقد تم ذلك فى عيسى ابن مريم عليه السلام .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاسراء والمعراج نجد أنها معجزة كبرى دالة على طلاقة القدرة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس . . حيث صلى بالأنبياء . . وهى طلاقة فى القدرة أن يصلى حى بأولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم منذ مئات السنين . . ثم بعد ذلك انطلقت به طلاقة القدرة ليخترق السموات السبع . . ويصل إلى سدرة المنتهى . . وهذا الانطلاق كان فيه تغيير لطبيعة الأشياء حتى يمكن لرسول الله أن يصل إلى سدرة المنتهى . . بل إن الوحى نفسه من طلاقة القدرة أن يلتحم الملك بإنسان ليتم تبليغ القرآن الكريم . .

كل هذه الأشياء فى مجموعها . . هى تطبيق حى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . فالله لم يذكر لنا طلاقة القدرة فى القرآن الكريم . . دون أن يعطينا أمثلة على التطبيق . . متواكبة مع رسله . . تؤيدهم هذه القدرة بالمعجزات التى رواها لنا القرآن الكريم . .

على أن طلاقة القدرة لم تتوافر للرسل وحدهم . . بل هى فى كل جزء من الحياة . . وإذا أردنا أن نتأمل طلاقة القدرة فى مظاهر الدنيا . . فلنأخذ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦) ﴾

سورة البقرة آية ٢٦

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا ببعوضة ، والمثل هنا كالأمثلة فى القرآن الكريم لا تضرب جزافا . . ولكن لحكمة بالغة . . حين ضرب هذا المثل قال الكفار ماذا أراد الله بهذا مثلا ولم يفهموا شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلا بدقة الخلق . . فإن خلق البعوضة المتناهية فى الصغر بكل الوظائف اللازمة لها فى الحياة . . دقة فى الخلق تستوجب خالقا قادرا . . فهذه البعوضة الصغيرة الحجم . . قد جعل الله فيها كل أسباب الحياة . . وما فوقها . . أى ما أصغر منها وأدق فى الخلق . . خلقه الله ووضع فيه أسباب الحياة . . واستمرار الحياة .

● **لا تستهينوا بالخلق . .**

وهنا حكمة بالغة . . ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا ألا نستهين بالمخلوقات الدقيقة التى خلقها لصغر حجمها وضآلتها . . بل انه كلما زادت دقة المخلوق كان بأسه شديدا . . وكلما زادت ضخامة المخلوق فليس هذا بالضرورة دليلا على القوة . . وإذا أخذنا بهذه النظرية . . وعدنا إلى بداية الخلق . . نجد مثلا أن الحيوانات الضخمة التى عاشت فى القرون الأولى على الأرض كالديناصور مثلا قد هلكت وانقرضت ولم تستطع أن تعيش العصر الجليدى الذى ساد الكرة الأرضية . . هذه الحيوانات المرعبة التى كانت تزلزل الأرض . . لم تستطع أن تتغلب على الطبيعة . . بينما البرغوث والنملة مثلا قد عبرا هذه العصور حتى عصرنا هذا . . ويقول العلماء وهم يفسرون هذه الظاهرة . . إن الحيوانات الضخمة فى أجسامها كانت تملك عقولا صغيرة . . لم تمكنها من التحايل على البيئة ولذلك هلكت . . هذا هو تفسير العلم . . ولكن التفسير الإيمانى يقول . . ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن البقاء لا يخضع لعنصر القوة . . وإنما يخضع لعنصر القدرة وأن الأشياء القوية . . أو ذات القوة الهائلة التى تظن أنها ستسود الأرض إلى الأبد . . تأتى قدرة الله سبحانه وتعالى فتهلكها . . بينما تبقى الأشياء الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة . . فالفيروس مثلا الذى لا يستطيع أحد رؤيته حتى الآن لتناهى حجمه فى الدقة . . أقوى من الفيل والأسد وعقل الإنسان وكل قدرات المخلوقات على الأرض . . فهو يستطيع أن يقضى على أى من هؤلاء ، فالكل يقف عاجزا أمامه . . وهو يعيش ملايين السنين مع ضآلة حجمه وتناهيه فى الصغر . . وهذه الفيروسات تستطيع أن تسلب الحياة من شعب بأسره . . ومن أمة تختال على الناس بقوتها . . فيسلط الله سبحانه وتعالى هذه الفيروسات التى لا ترى وتنتشر بين أفراد هذه الأمة كوباء يفنيها . . هنا طلاقة القدرة التى تعطى ذلك الشيء المتناهى فى الصغر قوة هائلة تجعله يهلك أقوى الأقوياء فى الأرض . . دون أن يستطيع القوى أن يفعل شيئا . . ويأتى ذلك لنؤمن بأن القوة هى لله فلا نغتر بقوتنا الظاهرية . . ونحسب

أنه لا يوجد فى الأرض من يغلبنا . . وأدق مخلوقات الله تستطيع أن تسلبنا الحياة فى ساعات . . وفى ذلك قضاء على الغرور فى النفس البشرية وتثبيت للإيمان بأنها بدون قوة الله وتأييده لا تساوى شيئا .

على أن الله سبحانه وتعالى . . قد أعطانا كل هذه لحكمة بالغة . . وأوجد لنا ما يثبت طلاقة قدرته علما وعملا . . وقولا وفعلا . . حتى يمضى موكب الإيمان فى الحياة فى نفوس مطمئنة إلى قوة الله . . لا تزلزلها الأحداث . . ولا تشقيها الأسباب .

والنقطة الأولى فى الحكمة البالغة فى طلاقة القدرة هى إيمان بأن الله موجود إذا عجزت الأسباب . . وهذا الإيمان هو الذى يبقى الإنسان المؤمن مطمئنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه مهما كانت الأسباب تقول ذلك . . وإذا كانت الدول المادية التى لم يدخل فيها الإيمان تعانى من شيء وهو الاحساس بالخوف واليأس من الحياة . . ورغم كل ما فى هذه الدول من تقدم مادى . . وأمن وأمان . . فإن كل فرد فيها يعيش فى قلق يمزقه . . لماذا . . لأن كل إنسان مادى يعبد الأسباب . . دون المسبب . . ويعتقد فى القدرة البشرية دون قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإذا فصل من وظيفته لا يقول إذا أغلق الله بابا للرزق أمامى فسيفتح لى عدة أبواب . . ولا يقول ان هذا ابتلاء من الله ليمتحننى ، وأن مع اليسر يسرا ، ولا يقول إن الذى آمنت به وعبدته لن يتخلى عنى أبدا . . فذلك منطق الإيمان . . ولكن منطق المادية يجعله يرى المستقبل أسود . . ويحس أن الدنيا أغلقت فى وجهه . . وأنه لن يجد بابا للرزق . . و أنه قد انتهى تماما . . ومن هنا فهو بيأسه من رحمة الله يلجأ فى كثير من الأحيان للانتحار ويصاب بالجنون . . لماذا . . لأنه يعتقد أن البشر الذى منعه هو الذى يملك كل الأسباب . . وأن الله سبحانه وتعالى لا يملك شيئا .

وإذا مرض الإنسان المادى . . بمرض ميئوس من شفائه . . فقد الأمل فى المستقبل . . ولم يقل إذا عجزت الأسباب فإن رحمة الله لن تتخلى عنى وسيجد لى

سبيلا للشفاء . . أو يقول ان الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفينى حتى ولو عجزت الأسباب . . بل هو فى عبادته للأسباب يتخذها إلها ، فإذا عجزت الأسباب فإن إلهه قد تخلى عنه . . ولم يعد أمامه إلا مصير أسود .

● **نجاة للمؤمنين**

الله سبحانه وتعالى . . يريد أن ينجى المؤمنين من هذه الحياة الشقية . . فهو وعدهم بالحياة الطيبة . . والحياة الطيبة ليس فيها الشقاء البشرى الذى تفرضه المادة على الإنسان . . بل فيها رحمة الله سبحانه وتعالى . . تلك الرحمة التى جعلت طفلا كإسماعيل عليه السلام . . يضرب الأرض بقدمه الصغيرة فيخرج ماء زمزم . . بعد أن هرولت أمه عليها السلام بين الصفا والمروة سبعة أشواط وهى تبحث عن الماء . . تأتى رحمة الله لتجعل الماء يخرج من ضربة بقدم طفل صغير . . فيتشقق الصخر ويخرج منه الماء .

تلك هى المعجزة الكبرى التى يريدنا الله أن نعيش معها . . فإذا وقفت أمامنا الأسباب فأمامنا الطلاقة الكبرى . . نلجأ إليها . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه » . . وإذا تأملنا هذه الآية . . نجد أن الله سبحانه وتعالى استخدم لفظ (المضطر) المضطر ذلك الذى تخلت عنه أسباب الدنيا ووقف كل شىء حائلا بينه وبين ما يريد . . حينئذ لا تجدى الأسباب معه . . فيقول الله سبحانه وتعالى . . إذا تخلت عنك الأسباب فلا تيأس ولا تعتقد أن كل شىء قد ضاع . . بل ارفع يديك إلى السماء وقل (يارب) وساعتها تتفتح أبواب السماء . . وتتدخل القدرة . . لتحقق لك ما تريد .

وهذا ليس غريبا عنا . . عن حياتنا العادية . . وليس كلاما يقال دون أن يكون له واقع فى الحياة . . فلو استعرض كل منا شريط حياته لوجد أن فيه طلاقة القدرة . . كم منا واجه مشاكل بلا حل . . وربما ظل ساهرا ليالى

طويلة .. يقلب عقله .. ويعمل فكره .. ولا يستطيع أن يصل إلى الحل .. ثم فجأة يتغير كل ما حوله ليجد الباب مفتوحا من حيث لا يدرى ولا يحتسب .. ويأتى الحل ميسرا سهلا من أشياء لم نكن نتوقعها .. ولا نظن أنها ستحدث .. كل منا مر بذلك .. وكل منا رأى فى حياته مرة أو مرات قدرة الله سبحانه وتعالى وهى تزيل ظلما ما كان يحسب أن يزول .. أو تحل مشكلة لم يكن يعتقد أن لها حلا .. أو تأتى بشىء لم يكن يحلم به .. كل هذا حدث لنا جميعا .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يملأ النفس المؤمنة برحمته .. بحيث تواجه مصاعب الحياة وفى قلبها شعلة ايمان لا تنطفىء .. هذه الشعلة هى أمل متصل بالله سبحانه وتعالى .. أمل لا ينطفىء أبدا .. حينئذ يحس الإنسان المؤمن بأن كل الصعاب التى يواجهها لن تقضى عليه .. ولا تمس أمنه وأمانه .. لماذا .. لأنه يتذكر قول الله سبحانه وتعالى « هو على هين » .. فالصعاب مهما بلغت فهى على الله شىء هين .. وهى أمام قدرة الله سبحانه وتعالى لا شىء .. فلا يدخل اليأس إلى قلبه أبدا .. ولا تحطمه الحياة فتدفعه إلى الجنون والانتحار .. ولعل ارتفاع نسبة الجنون والانتحار فى الدول المادية .. وانخفاضها فى الدول التى تتمسك بالدين هما خير دليل على الحياة الطيبة التى يعطيها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين .

والنقطة الثانية هى أن طلاقة القدرة تفسر لنا ما يحدث فى الكون من أشياء لا تتفق مع الأسباب .. فنحن نعيش فى كون تحكمه طلاقة القدرة مع الأسباب .. ولذلك فاننا نرى أحيانا أن انسانا يملك كل أسباب القوة من جيش وشرطة وأجهزة دولية .. ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة .. فنجد قدرة الله سبحانه وتعالى تأتى إلى هذا القوى فتزيله من مكانه .. وتأتى بهذا الضعيف وتضعه مكانه .. ذلك يحدث أمامنا فى العالم كل يوم .. ولو طبقنا

الأسباب لقالت عكس ما يحدث . . ولكن الأسباب شيء . . وطلاقة القدرة شيء آخر .

فإذا جئنا لأمة كافرة . . كالاتحاد السوفيتي مثلا نجد الله سبحانه وتعالى يسلط عليها ما يهلكها . . أحيانا بين يوم وليلة . . وأحيانا على فترة من الزمن . . فإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن كان هو مخزن الحبوب فى العالم . . وبعد أن كانت أوكرانيا تنتج من القمح ما يزيد على حاجة الاتحاد السوفيتي بكميات هائلة . . نجد أن البركة قد رفعت منها . . وأصبح الاتحاد السوفيتي يستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج . . ولا يجد رغيف الخبز الذى يقتات به وانتهى الأمر به إلى الانهيار والتفكك إلى دويلات صغيرة متناحرة . . وكذلك نجد فى كل الدول التى تحارب الدين . . تملؤها الكوارث . . ويذهب عنها الأمن والأمان . . ويصبح رزقها ضيقا . . وأمنها معدوما . . والشقاء يخيم على كل من يعيش فيها كل ذلك يتم بطلاقة القدرة دون الأسباب التى ربما قد تؤدى إلى عكس ذلك . . بل أنه فى بعض الأحيان . . تقوم هذه الدول بمشاريع تجند لها دعايتها . . وتقول ان بها خيرا وفيرا . . وأنها ستحقق الرفاهية والعيش الرغد . . ثم تتم هذه المشاريع فإذا بها تأتى بعكس ما قيل عنها تماما . . وإذا بها وبال . . فى وبال . . فى وبال . .

وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى تجعله هو الوحيد . . وتجعل كل ما حوله متغيرا . . وتأتى أنت لترى الدول الكبيرة التى لم تكن تغرب عنها الشمس وقد تضاءلت وربما انمحت من خريطة الكون . . وربما أصبحت عاجزة عن حماية نفسها . . مع أن الشعب هو الشعب لم يتغير . . والقدرات هى القدرات لم تتغير . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى غير كل شيء .

● كل شيء له مولد

والنقطة الثالثة ان كل شيء فى الكون قد جعل الله له مولدا فى طلاقة قدرته . . فطلاقة القدرة هى التى تكشف أسرارا لكل جيل أخفيت عن الجيل

الذى سبقه . . فالله له عطاء جديد لكل جيل من البشر . . وإذا أردنا أن نستطرد فى شرح هذه النقطة . . نقول ان بعض الناس يعجزه تفكيره عن فهم تفسير للآية الكريمة « وإذا مرضت فهو يشفين » . . وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقا لهذه الآية . . والبعض الآخر يذهب إيمانا منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب . . ولكن الذى يحدث أن لكل شفاء أجلا . . فإذا جاء الأجل أو الموعد كشف الله للطبيب المرض فيتحدد الداء والدواء ليتم الشفاء . . والذى يحدث عادة . . وهذا فى حياتنا كلنا . . اننا نذهب إلى أشهر الأطباء وأكثرهم علما وفنا فلا يتم على يديه الشفاء . . ثم نذهب إلى طبيب صغير أو مبتدىء فيعرف الداء ويكتب الدواء . . ونحن حين يحدث هذا نتعجب . . ذلك لأن الذى حدث يخالف الأسباب فى الأرض . . فالمفروض أن الطبيب الأكثر علما هو الذى يكتشف الداء بحكم علمه وخبرته . . والطبيب المبتدىء لا يمكن أن يكتشف ما عمى على أستاذه . . تلك هى أسباب الأرض . . ولكن الحقيقة . . أو ما يحدث . . وما نشاهده جميعا ونعرفه هو عكس ذلك . . والحقيقة أن علم الطبيب المبتدىء لا يمكن أن يزيد على علم أستاذه . . ولا خبرته . . ولكن الذى حدث أن وقت الشفاء قد جاء . . فيسر لنا الله الطبيب الذى عرف الداء وكتب الدواء . . وإذا لم نذهب نحن إلى الطبيب فأحيانا يحدث ذلك بطريق ما نسميه « الصدفة » وهو أن يجمعنا مكان مع أحد الأطباء . . ويدور الحديث عن المرض ويقوم الطبيب بتشخيص الداء وكتابة الدواء .

وكما يقال عن المرض . . يقال عن كل كشف من أسرار الأرض . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يمكن منه خلقه . . فكل كشف له ميلاد عند الله وفى علمه . . والذى يحدث أنه عندما يأتى وقت هذا الميلاد إما أن يصادف هذا الكشف عالم يبحث عنه . . فيكشفه الله سبحانه وتعالى له . . وإذا لم يصادف هذا الكشف عالم يبحث فى نفس الموضوع كشفه الله سبحانه وتعالى لعالم يبحث فى موضوع آخر . . ولذلك نرى كثيرا من الأبحاث العلمية التى تبدأ بالبحث عن كشف ثم تنتهى إلى كشف آخر مختلف تماما . . لم يكن يدور فى ذهن العالم . . بل حدث

بطريق ما نسميه الصدفة . . ولو تتبعنا الكشوف العلمية وما يحدث فيها . . لوجدنا أن اكتشافات كثيرة قد تمت دون أن يكون هناك باحث عنها بالذات . . بل بدأ البحث عن شيء وانتهى إلى شيء آخر .

وهكذا يكون العطاء فى كثير من الأحيان بمولد وميقات من الله سبحانه وتعالى . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يطلعنا على ذلك . . فأحيانا نأخذ بالأسباب . . وأحيانا نرى أن هناك أشياء يحار العقل فيها فننسبها للصدفة . . أو للحظ . . أو لكل هذه المسميات .

النقطة الرابعة أن الإيمان بطلاقة القدرة هو أساس الإيمان وركيزته والذى لا يؤمن بطلاقة القدرة لا يمكن أن يؤمن بالغيب . . فالإنسان الكافر . . أو الذى ينكر وجود الله يأخذ بالأسباب وحدها . . فما هو ظاهر أمامه . . يصدقه . . وما هو غيب عنه يكذبه . . فإذا حدثته عن الجنة والنار . . والثواب والعقاب . . وما أعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من عباده سخر منك . . ولكن الذى يؤمن بطلاقة قدرة الله هو الذى يفهم معنى أنه سيكون فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ولذلك فإننا لكى نؤمن بالآخرة . . ونؤمن بقدرة الله على بعث الموتى . . ونؤمن بما يعدنا الله من ثواب أو عقاب . . يجب أن نؤمن أولا بطلاقة القدرة . . ونعرف أن الله سبحانه وتعالى لا تحده قيود ولا حدود . . ولا شيء عنده يقع تحت كلمة مستحيل . . وأنه مادام قد وعد . . ووعده الحق . . فإنه سيتحقق . . وأنه قادر على أن يخلق جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . وقادر على أن يعطى الإنسان نعيما أبديا . . ويعطيه عذابا أبديا . . وقادر على أن يسجل أعمال كل البشر . . وعلى أن يواجههم بأعمالهم فى الآخرة . . تلك كلها لا تخضع لقانون السببية . . ولكنها تخضع لطلاقة القدرة التى حرص الله سبحانه وتعالى على أن يبينها لنا قولا وفعلا . . ويضعها فى حياتنا اليومية . . فنحن نعيش

مع طلاقة القدرة كل يوم ليزداد إيماننا بالغيب الذى حجب عنا .. ونحن حين نجد طلاقة القدرة التى تصطدم مع العقول وتحيرها .. إنما يزداد إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى فوق قدرة العقول كلها .

● أساس إيمانى

تلك حقيقة يجب أن نتنبه إليها .. فطلاقة القدرة أساس إيمانى لكل شىء أخبرنا الله عنه .. وجعله غيبا عنا .. وكل شىء يكشفه الله سبحانه وتعالى لنا جيلا بعد جيل .. ذلك أن هذه الأشياء التى تزيدنا يقينا بقدرة الله .. يجب أن تزيدنا خشوعا له .. فكل يوم يضاف إلى علمنا أسرار كانت موجودة فى هذا الكون .. ولم نكن نعرف عنها شيئا .. وهذه الأشياء فى كثير من الأحيان تصحح مفاهيم خاطئة كانت موجودة على أساس أنها علم أرضى .

ولو أننا قمنا بحصر ما كشفه لنا الله سبحانه وتعالى من أسرار فى الكون .. لوجدنا أن هذا الجيل يجب أن يكون أكثر عبادة وخشية لله من الأجيال التى سبقته لأنه وصل إلى أسرار فى الكون جعلته يعرف قدرة الخالق وعظمته .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

سورة يونس الآية ٢٤

ومعنى هذه الآية الكريمة .. أن الله سيكشف من أسرار كونه للبشر ما يريهم به دقة صنعه وإحكام خلقه .. ولكن البشر لن يأخذوا هذه الأشياء على هذا المعنى .. بل سيركبهم الغرور .. ويحسبون أنهم هم الذين صنعوا .. وهم الذين اكتشفوا .. ويجعلهم هذا الغرور يظنون أنهم قد وصلوا إلى العلم الذى يمكنهم من أن يتحكموا فى كل شىء فى الأرض .. حينئذ يأتى قضاء الله ..

وتقوم الساعة .. ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة (ظن) لحكمة بالغة .. ذلك أن الله هو الذى سخر للإنسان كل ما فى الكون .. وهو الذى كشف له عن الآيات فى هذا الكون .. ولكن بدلا من أن ينسب الإنسان الفضل لصاحبه .. نسبه لنفسه .. ليس حقيقة .. ولكن (ظنا) .. فالعلم كلما تقدم .. اعتقد الإنسان أن هذا عطاء من ذاته .. وأنه هو الذى سخر هذه الأشياء لنفسه .. وهذا الظن يجعله يعتقد أنه قد سيطر على الأرض تماما .. وأصبح قادرا عليها وعلى كل القوى فيها .. حينئذ تأتى الساعة .. وتتعطل القوانين كلها .. ويعرف الإنسان أن ما وصل إليه هو من فضل الله .. وأن الله إذا كان قد خلق لنا الأسباب وجعلها خاضعة لنا .. فيجب ألا نغتر بها وننسى طلاقة القدرة ..

ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

سورة فصلت الآية ٥٣

والقرآن كلام متعبد به .. لا يتغير ولا يتبدل حتى قيام الساعة .. ولذلك فإن كل جيل سيقرأ « سنريهم » .. و(السين) مستقبلية .. والمعنى أن كل جيل يرى ما لم يره الجيل الذى سبقه .. ليس فقط من آيات الله فى الأرض .. بل فى الآفاق .. وفى النفس البشرية .. ولعل التقدم العلمى فى كشف الآفاق .. وفى معرفة أسرار الجسم البشرى يجىء مصداقا لهذه الآية الكريمة .. ويجب أن نعرف أنه لا يقدر على العطاء المستقبلى إلا الله سبحانه وتعالى فلا يمكن مهما بلغت أنا من العلم أن أتنبأ بما سيحدث مستقبلا .. ولأجيال قادمة .. ولكن الله سبحانه هو القائل .. وهو الفاعل .. ومن هنا فإنه يستطيع أن يعطينا صورة يقينية عن المستقبل .

والنقطة الخامسة أن الإنسان حين يتمسك بالأسباب .. فإنه يعطى نفسه قدرات ليست فيه .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يرى عبدا من عباده

يأخذ بالأسباب . . فإنه يتركه ليتفاعل مع الأسباب التى اعتقد أنها قد أعطته . . وفى هذه الحالة تسقط عنه الأسباب فيذهب العطاء . . ولو أن الإنسان كان قد ملك الأسباب حقيقة وهى التى تعطى ، لما زالت عنه هذه الأسباب وذهب العطاء . . ولقد أعطانا الله سبحانه وتعالى مثلا لذلك فى القرآن الكريم . . فقارون قال : « **إنما أوتيته على علم عندى** » . . وصاحب الجنتين فى سورة الكهف قال : « **ما أظن أن تبيد هذه أبدا** » . . والذين أرادوا أن يأخذوا حق الفقراء فى ثمر الحديقة . . قالوا : « **لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** » . . وكان فى هذا كله الهلاك . . فخسف بقارون وبداره الأرض . . وأحيط بثمر الجنتين . . وذهب خير الحديقة . . وأصبحت كالصريم . . كان ذلك كله سببا فى زوال النعمة . . لأن المنعم عليه أخذ ظاهرية الأشياء دون حقيقتها وهى طلاقة القدرة التى أعطت . . والتى أخذت .

وطلاقة القدرة تعنى أن الله واحد أحد . . والقول بأن الله أحد . . معناه أنه يجمع من الصفات ما لا يمكن أن تجتمع لبشر أو لمخلوق . . بل للخالق وحده سبحانه وتعالى . . وهو الذى يملك وحده طلاقة القدرة . . يقول للشىء كن فيكون بلا أسباب . . وكل منا له حظ فى العلم . . ولكن الله سبحانه وتعالى عليم . . أى لم يعلمه أحد . . وإنما العلم من ذاته . . ويعلم ما لا نعلم . .

إذن فقولنا (أحد) . . هو تنزيه لله سبحانه وتعالى أن يكون هناك شبيه له . . فالشىء الواحد ممكن أن يكون له شبيه . . والشىء الواحد ممكن أن يكون من مجموع الأشياء . . فأنت تقول عن عدة أشخاص إنهم يتحدثون بلسان واحد . . أى أن كل واحد منهم . . يكرر نفس الكلام الذى يقوله زميله . . ولكن « الأحدية » تنفى هذا كله عن الله . . وأنت تقول للشىء المكون من عدة أجزاء شىء واحد . . فالكرسى مثلا مكون من خشب ومسامير وجلد . . ولكنه شىء واحد . . هو كرسى . . والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك تماما . . ذلك أن الله لا يمكن أن يكون مكونا من أجزاء متداخلة . . تبارك وتعالى وتنزه عن هذا . . وإلا فأى واحد من الثلاثة خلق الآخرين . . ومن الذى وجد أولا . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى وجد أولا . . فباقى الأجزاء هى من خلقه وليست جزءا منه . . ومن هنا فإنها تصبح من مخلوقات الله . . وليست جزءا من الذات . . والقول بأن الله سبحانه وتعالى . . مكون من عدة أجزاء ، ينفى الكمال عن الله إذا انفصلت ما يقال عنها أجزاء متداخلة عن الله سبحانه وتعالى . . إذن فالقول بأن الله واحد . . هو قول فيه تجاوز . . ولكن صحيح القول أنه أحد . . ليس كمثله شيء . . ولا يحتاج لأى خلق من خلقه . . بل هو الله الأحد الذى لا شبيه له . . ولا يرقى شيء مهما بلغ إلى قدرته وعظمته . .

● **الله الصمد**

والله هو الصمد . . أى القوى الذى يقصد لذات قوته . . أى أن الله سبحانه وتعالى وحده الأحد الذى ليس كمثله شيء . . الصمد الذى يقصد إليه فى الحوائج . . فأنت تتجه إلى الله سبحانه وتعالى إذا أردت شيئا واستعصى عليك . . وأنت تتجه إليه إما اضطرارا . . وإما اختيارا . . وهناك خلق مسخر لله لا اختيار لهم فى الاتجاه إلى الله أو لغير الله . . فالملائكة مثلا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ليس اختيارا . . ولكن اضطرارا . . فهم مخلوقون لهذا . . وكذلك الشمس والقمر . . وكل الأشياء التى سخرها الله سبحانه وتعالى . . فهى مسخرة لما خلقت له . . فالشمس لا تستطيع أن تختار يوما تشرق ويوما تغيب . . والأرض لا تستطيع أن تقول سأتوقف عن الدوران . . والنجوم والقمر والجبال والبحار . . كل شيء مسخر لا يملك قدرة الاختيار . . ومن هنا فهو متجه إلى الله . . يقوم بدوره الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له . .

يأتى بعد ذلك الإنسان . . وقد أعطاه الله حرية الاختيار . . وجعله قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وأن يتجه إلى الله . . أو يحاول انكار وجودالله . . وذلك فى فترة حياته الدنيا فقط . .

إذن فقول الله سبحانه وتعالى « الله الصمد » وضع أمامنا الصورة الصحيحة للعقيدة . . فمادام الله أحدا . . فليس هناك غيره . . ومادام الله الصمد . . فهو مقصود فى الحوائج . . ليس هناك من يقوم بديله . . فلا وجود على الحقيقة إلا وجوده . . ولا فاعل إلا فعله . . والله سبحانه وتعالى لا ينقص من ملكه أن يعطى كل إنسان ما يشاء . . ولا أن يكفر الناس جميعا . . فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . وهو القادر على أن يهب ويأخذ . . وأن يجعل الضعيف قويا . . وهذا هو الفرق بين عطاء الله وعطاء البشر . . وفرق آخر . . أن الإنسان إذا أعطى لا يستطيع أن يسترد عطاءه . . فأنت إذا أعطيت شخصا مالا . . وتنكر لك . . فأنت لا تستطيع أن تسترد هذا المال مادام هذا المال قد أصبح مملوكا له . . وأنت إذا كنت طبيبا وأعطيت الإنسان دواء أزال مرضه ثم رفض أن يدفع لك نفقاتك فأنت لا تستطيع أن تسلبه نعمة الصحة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى ويأخذ . . فهو إذا أعطى النعم وكفر الإنسان بها . . يستطيع أن يجعل الغنى فقيرا . . ويجعل السليم مريضا . . وإذا قابل الإنسان النعمة بالشكر . . زاده الله وأعطاه . .

والله سبحانه وتعالى . . إذا أعطى إنسانا أسباب الحكم فى الأرض . . فبغى على الناس وظلمهم . . فإنه يسلط عليه من هو أظلم منه . . فينتقم منه . . فالله لا يسلط على الظالم رجلا طيب القلب مؤمنا . . ذلك أن اللين والرحمة . . وحب العفو . . وكظم الغيظ . . ومواجهة الاساءة بالإحسان . . وهو ما أمر به الله . . يقف بين هذا العبد المؤمن . . وبين القصاص العادل من الظالم . . ولكن يسلط على الظالم من هو أشد منه ظلما . . حتى يكون القصاص رهيبا . . ويأتيه الله من حيث لا يدرى ولا يحتسب . .

وطلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى هى نعمة لا تبارى على خلقه . . فالله سبحانه وتعالى لا هوى له . . كلنا عبيده . . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . ومن هنا . . فإن طلاقة القدرة تصحح المسيرة فى الكون . . ذلك أن

الله دائما مع الضعيف ضد القوى . . ومع العاجز ضد القادر . . ولو لم توجد طلاقة القدرة . . وبقيت الأسباب وحدها تعطى . . لملأ الفساد الأرض . . ذلك أن الذى يأخذ بالأسباب يمتلىء غرورا بقدرته على خلق الله . . ويأخذ حق الغير . . ويحاول أن يملك ما لا يستطيع أن يفنيه أو يستخدمه طول حياته . . ومن هنا فإن قضية الحياة نفسها تفسد . . ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل الأسباب . . فيصبح القوى ضعيفا . . والغنى فقيرا . . والعزيز ذليلا . .

إذن فالله سبحانه وتعالى خلق الكون . . ومنح كل من فى الكون رزقا وعطاء . . الكافر منهم والمؤمن . . والعطاء من الله سبحانه وتعالى لكل فرد هو ابتلاء . . سواء أكان هذا العطاء خيرا أم شرا . . فأحيانا يكون ما نحسبه شرا هو خير لحياتنا من مئات الأشياء التى قد نفرح عندما تحدث . . والله سبحانه وتعالى قد أعطانا الأسباب لتسير الحياة فى الكون . . ولكن فى نفس الوقت . . بقيت طلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى . . ذلك حتى لا ننسى الله ونعبد الأسباب . . فالكون يمضى كله بالأسباب . . ثم تأتى طلاقة القدرة فى حدث من الأحداث . . لتلفت الناس إلى أن معطى الأسباب موجود وقادر . . وأن الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تكون قيدا على قدرته . . وأننا يجب أن نلتصق فى حياتنا بالله . . وليس بالأسباب التى مكن الله فيها عددا من خلقه . . وفى هذه الحالة نتذكر أن ما أجراه الله علينا على يد عبد من عباده . . إنما هو من الله أولا . . قسمه الله لنا . . ثم أجراه على يد هذا العبد . . فلا ننسى المنعم ونعبد السبب . . ولنعلم أيضا حينما يحيط بنا اليأس . . ونصل إلى شىء لا تستطيع الأسباب أن تجد له حلا . . وتقف قدراتنا عاجزة أمامه . . نتذكر أن طلاقة القدرة موجودة . . وفى هذه الحالة لا يدخل اليأس إلى قلوبنا أبدا . . لأن قدرة الله بلا حدود ولا قيود . .

وطلاقة القدرة تصحح المسيرة . . وتذكر الناس بعدم الابتعاد عن الله . . وتتدخل لتنصر المظلوم على الظالم . . وغير القادر على القادر وتقتص للضعيف من القوى . .

والله أحد لا شريك له ، قادر على أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء . . مقصود فى كل الحوائج . . بيده الخير كله . . يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته . . دون أن ينقص ذلك مما عند الله شيئا . . وهو فى قوته لا يستعصى عليه أحد . . مهما بلغ جاهه أو سلطانه . . ولذلك فإننا يجب ألا نخاف الدنيا كلها . . مادمنا مع الله . . ومادمنا على الحق . .

والله أحد ليس كمثله شىء . . لا شريك له . . ولا أحد يعلو ليكون ندا لله جل جلاله . . وكل الناس بدرجاتهم وجاههم فى الدنيا هم عبيد لله سبحانه وتعالى . . فالكل عبد الله . . والكل آتيه بعد هذه الحياة .

وطلاقة القدرة تعطينا الشجاعة فى هذا الكون لكى نواجه كل ظالم . . ونقف مع كل مظلوم . . ونأخذ جانب الحق . . فإذا حاول أحد أن يخيفنا بالأسباب أو ظاهر الحياة الدنيا من جاه أو سلطان أو ملك أنعم الله به على عبد من عباده . . فلنتذكر أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى يستطيع أن يأخذ . . وكما أعز يستطيع أن يذل . . وأن نقف مع الحق . . ولا تغرنا الأسباب لأنها زائلة .

وطلاقة القدرة من روح الإيمان . . لأنها تجعلنا نؤمن يقينا بما يستطيع الله أن يكافىء به المؤمن فى الآخرة من نعم دائمة . . مما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . وتذكرنا دائما بأن الله وحده هو القادر . . والله وحده هو الفعال .

حديث قدسى

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى إن من عبادى من لو سألنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألنى علاق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزانتى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ، ولكنى فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم . يا موسى إن فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وأضعفت لهم فى الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلؤك فى ليلك ونهارك .



●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شيء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتنى بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزتى لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .



الفصل الرابع

خواطر عن سورة مريم

لا يكمل الحديث عن طلاقة القدرة إلا إذا سجلنا بعض الخواطر عن سورتى آل عمران ومريم . . ذلك أن طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . تتمثل فى أجل معانيها فى قصة مريم . . وعيس ابن مريم عليهما السلام . . ولقد كان اختيار مريم فيه طلاقة قدرة . . واصطفاؤها الأول فيه طلاقة قدرة . . وتطهيرها فيه طلاقة قدرة . . واصطفاؤها الثانى فيه طلاقة قدرة . . ومولد عيسى ابن مريم من طلاقة القدرة . . ثم بعد ذلك رسالته مؤيدة كلها بطلاقة القدرة . . ورفعه إلى السماء فيه طلاقة قدرة .

كل هذه الأشياء جاءت لتهزم العالم المادى الذى كان يعيش فيه بنو اسرائيل خلال هذه الفترة . . فبنو اسرائيل فى طول حياتهم والمادة تحكمهم وتسيطر عليهم . . والذهب هو معبودهم . . حتى حينما أراهم الله طلاقة القدرة بأن جاوز بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون . . اتخذوا عجلا من الذهب له خوار البهائم . . وعندما أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالمن والسلوى وهى أشياء غيبية لا يستطيعون التحكم فيها . . ولكنها رزق يأتيهم به الله ـ طلبوا أن يأكلوا مما تنبت الأرض فى عدم ثقة بالغيبيات . . وثقة كاملة بالماديات . . وعندما أرسل الله لهم طالوت ملكا ونبيا . . قالوا إنه لا يملك مالا . . يؤهله للملك . . وهكذا كل حياتهم هى انكار لنعم الله . . وايمان بالماديات . . وبعد عن الغيب . . حتى أنهم قتلوا أنبياء الله الذين جاءوهم يدعون إلى منهج غيبى ويطلبون نبذ الإيمان المطلق بماديات الحياة . . وهنا يجب أن نفرق بين رسول ونبى . . فالرسول مرسل بمنهج سماوى من الله سبحانه وتعالى وهو مؤيد من عنده . . والله يحفظه فلا يستطيعون الوصول إليه . . ولكن النبى لا يأتى بمنهج ـ ولكن يأتى بقدوة سلوكية ـ أى أنه يأتى مطبقا لرسالة غيره من الرسل . . التطبيق السليم والصحيح . . هذا النبى الذى هو قدوة سلوكية تعرض للقتل من بنى اسرائيل الذين لم يحتملوا منهج الله فى البعد عن الماديات .

وقبل أن أبدأ الحديث عن الخواطر الايمانية حول سورة مريم . . أحب أن أوضح حقيقة هامة . . هى أن الله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا . . يكون

هذا الرسول من البشر . . لماذا ؟ . . لأن رسالة الله فى افعل ولا تفعل . . هى المنهج الذى اختاره الله سبحانه وتعالى للحياة الآمنة الطيبة على الأرض . . ولكن الله لا يترك منهجه بدون تطبيق . . بل هو يرسل المنهج . . ويرسل من يطبقه ليكون قدوة حسنة للمؤمنين بالمنهج . . وليرى الناس كلهم المنهج يطبقه على الطبيعة بشر مثلهم . . فلا يقولوا يارب إن هذا المنهج لا نستطيعه . . أو إنه يارب فوق طاقة وقدرات البشر . . فيرسل الله سبحانه وتعالى بشرا رسولا . . يطبق المنهج بحذافيره . . ويريه للناس فى الحياة العملية وفى التجارب اليومية . . حتى يكون هؤلاء الناس شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . ولا يقول واحد منهم إن الله قد حملنا فوق قدراتنا أو فوق ما نطيق .

إذن فبشرية الرسول . . أمر حتمى للرسالات كلها . . ولو كان الرسول فوق مستوى البشر لوجدنا عذرا لأولئك الذين لا يتبعون المنهج ويخالفونه . . ولقال هؤلاء كيف تريدوننا أن نتبع منهجا وضع لمن هم فوق مستوى البشر . . هؤلاء الذين طبقوا المنهج ليسوا بشرا مثلنا . . أما نحن كبشر عاديين فقدراتنا تختلف . . وهى فى جميع الأحوال أقل منهم قدرة . . فإذا أردت يارب أن ترسل لنا منهجا نتبعه . . فأرسل لنا بشرا رسولا يطبقه . . ولا ترسل لنا رسولا فوق قدرة البشر لأنك فى هذه الحالة تطالبنا بما فوق طاقة البشر . . ومن هنا كانت حتمية الرسالات تقتضى أن يكون الرسول بشرا ليكون قدوة مساوية لقدرة المؤمنين . . فيتخذوه قدوة حسنة دون ما حجة بأنه يملك ما فوق الطاقات البشرية .

نعود بعد هذه المقدمة إلى الخواطر عن قصة مريم عليها السلام . . وتبدأ القصة كما يرويها القرآن الكريم بامرأة عمران . .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة آل عمران الآية ٣٥

. . أى أن امرأة عمران حينها حملت . . وقبل أن تلد . . أو كانت تعرف أنها ستلد ذكرا أو أنثى . . نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى ولعبادته . . وكان هذا النذر لمحة إيمانية من امرأة مؤمنة أرادت أن تهب لله ذريتها تقربا منه .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

فوجئت امرأة عمران عندما وضعت أنها لم تضع ولدا ولكنها وضعت أنثى . . وفى هذه الحالة انتابتها الحيرة . . فقد كانت تريد ولدا يدعو إلى منهج الله وينشأ فى عبادته . . ولكنها وضعت بدلا من ذلك أنثى . . فاتجهت إلى الله سبحانه وتعالى لتقول :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

أى أن الذكر أو الولد له قدرات على المشاق فى الحياة . . وعلى الدعوة لدين الله لا تملكها الأنثى . . ورد الله سبحانه وتعالى ليذكرها بطلاقة القدرة . . فقال يا امرأة عمران إننى أعلم بما وضعت ، وأنا الذى أخلق ما فى الأرحام ولست أخلقه فقط بل أعلم كل شيء عنه من يوم مولده إلى يوم وفاته . . كم عمره . . وكم رزقه . . هل هو شقى أم سعيد . . مرزوق أو مقتر عليه فى الرزق . . ماذا سيحدث له من أحداث ويصيبه من أمراض . . فى كل رحلة حياته . . وأعلم كل صغيرة وكبيرة عما يواجهه فى الحياة . . وليس هذا فقط بل اننى أخلق صورته وأعلم هذه الصورة قبل أن يعرفها أحد من العالمين . . ومن هنا فإن علمى بما

جاء فى الأرحام يتجاوز علم الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى لو شاء أن تضع امرأة عمران ولدا لأعطاها ولدا ولكن الطلاقة الكبرى بدأت منذ اللحظة الأولى لخلق مريم فى رحم أمها فجعلها الله أنثى وحينئذ اتجهت أمها إلى السماء وقالت ياربى « وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . . أى ياربى لا تجعل للشيطان كيدا ولا سيطرة على مريم وعلى ذريتها .

● **لقاء مع القدرة**

وهنا يأتى سؤال هام : من أين عرفت امرأة عمران أن مريم ستكون لها ذرية ؟ هل أنبأها الله سبحانه وتعالى بما هو قادم . . أم أنه دعاء أم لابنتها حسب ما هو متبع ، ولا أحد يعلم إذا كان الله قد أنبأ أمها بما أعده لمريم . . فلم يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنبأها . . ولكنه فى الغالب دعاء كل أم . .

هنا بدأت الخطوة الأولى لالتقاء مريم مع طلاقة القدرة . . فتقبلها الله سبحانه وتعالى كنذر نذر لله قبولا حسنا . . وهذا القبول غير الاصطفاء الذى سنتحدث عنه فيما هو قادم . . ولكنه الخطوة الأولى على الطريق إلى المعجزة الكبرى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . وما يعده لبنى إسرائيل من نبى يفيقهم بطلاقة القدرة عن عبادة الأسباب والماديات وأنبتها نباتا حسنا . وذهبت مريم إلى مكان تنقطع فيه إلى العبادة . . وتنافس الأحبار ورجال الدين أيهم يكفلها . . فقد كانت من طيب المنبت والخشوع إلى الله سبحانه وتعالى بحيث رغب كل منهم فى أن يكون له شرف كفالتها . . وألقوا أقلامهم . . وقسم الله سبحانه وتعالى أن يكفلها زكريا . . ودخلت مريم وانقطعت لعبادة الله .

كان زكريا يدخل على مريم المحراب ليحضر لها طعامها وشرابها ويطمئن عليها بينما انقطعت هى إلى عبادة الله سبحانه وتعالى . . ولكن زكريا فوجىء بشيء غريب . . ذلك أنه كلما دخل على مريم وجد عندها رزقا . . وأى رزق ذلك الذى وجد . . رزق عجيب . . فاكهة الصيف فى الشتاء . . وفاكهة

الشتاء فى الصيف . . ورزق لا ينفد مهما أكلت منه مريم . . ولا يتلف أو يتعفن . .

كان هذا شيئا عجيبا أثار انتباه زكريا . . وكان هذا أول اصطفاء لمريم بأن اختصها ربها بطلاقة القدرة . . فأراها أنه يعطى ما يشاء لمن يشاء دون أسباب . . حتى إذا وقعت المعجزة . . ووضعت مريم عليها السلام عيسى . . بدون الأسباب البشرية . . لم تهتز اهتزازا يذهب نفسها . . ولم تشك فى أن ما حدث ربما كان فيهٌ خدعة . . بل انها رأت بعينها فى الاصطفاء الأول بطلاقة القدرة . . ما يبرر ويسهل عليها فهم الاصطفاء الثانى على نساء العالمين . . بأن تضع بدون رجل . . ودون أن يمسها إنسان . . ولذلك كانت طلاقة القدرة فى رزق مريم عن غير طريق الأسباب بداية تمهيدية من الله سبحانه وتعالى . . واصطفاء أول تمهيدا للاصطفاء الثانى على نساء العالمين . . ولكن زكريا النبى الحريص على مريم دخل الشك إلى قلبه . . ورغم علمه بأن مريم متفرغة تماما للعبادة وانها لا تغادر غرفتها وتقضى الليل والنهار فى الركوع والسجود لله سبحانه وتعالى . . إلا أنه ببشريته أراد أن يتأكد فسألها « **أنى لك هذا** » أى من أين ذلك يا مريم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا هنا لفتة كريمة فيها صلاح الكون كله . . فلو أن كل رب لأسرة . . أو راع لمجموعة من الناس . . عندما وجد مظهرا من النعم لا يتناسب مع القدرات البشرية . . قال من أين لك هذا ؟ لصلح الكون كله . . ولأصبح كل إنسان رقيبا حقيقيا على أسرته . . ولكن الذى يحدث أن الأب أو المسئول عن الأسرة . . يجد من بناته وأولاده ما لا يتناسب مع قدراته المادية . . كفستان مرتفع الثمن ، أو مال كثير . . أو أى شىء غال لا يستطيعون شراءه . . لو أنه وقف وقال من أين لكم هذا . . لعرف كل واحد منهم أنه إذا انحرف ، فإنه سيحاسب . . ولعلم قبل أن يمد يده إلى الحرام . . أن الحرام سيكشفه . . ويجعله موضع مساءلة . . ولكنه حين يغمض الأب عينيه ويرى مع

بناته وأولاده ما لا يتناسب مع دخولهم فلا يسألهم من أين لكم هذا . . يشيع الفساد فى الكون . . وتلك الآية ترينا مدى حرص زكريا على مريم وسلوكها . . مع أنها عابدة متعبدة . . منقطعة لعبادة الله سبحانه وتعالى . . إلا أن ذلك لم يعفها من المساءلة من زكريا . . ولم يقل زكريا لنفسه أن مريم امرأة عابدة متعبدة لا يمكن أن يأتيها هذا إلا من طريق سليم . . ولكنه وضع المساءلة أولا . . ليكون متأكدا مائة فى المائة من مصدر هذا الرزق . . حينئذ ردت مريم :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٣٧

وكان الرد مفاجأة لزكريا . . فقد التقى وجها لوجه مع طلاقة قدرة الله التى تهب ما تشاء لمن تشاء دون اللجوء إلى الأسباب . . وإنما تقول للشىء كن فيكون . . وهنا ثارت فى نفس زكريا قضية قديمة . . فهو ليس له ذرية وامرأته عاقر . . وهو كنبى يخاف على أتباعه بعد موته أن يتفرقوا أو يضلوا . . ويريد لهم قدوة سلوكية تحفظهم من بعده .

وثارت فى نفس زكريا مسألة طلاقة القدرة . . فمادام الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب فلماذا لا يدعوه ليرزقه بولد . . ومادامت الأسباب لا تقيد قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإنه قادر على أن يهب زكريا ما يريد . .

● إعجاز الخالق

وهنالك . . وفى محراب مريم :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٨

.. رفع زكريا يده إلى السماء .. وهو فى محراب مريم .. وقال ياربى لقد تجلت طلاقة قدرتك فى هذا المكان فرزقت مريم فاكهة وطعاما ليسا موجودين فى الدنيا .. فبحق طلاقة القدرة هذه .. هب لى ذرية طيبة واسمع دعائى .. ولم تمض إلا لحظات وزكريا قائم يصلى فى المحراب عند مريم حتى نزلت الملائكة وقالت له :

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٨

.. نزلت الملائكة على زكريا تبشره بالغلام .. ليس بهذا فقط .. بل تقول له ما هو مستقبله .. وإلى ماذا سيصير .. فلم تكتف الملائكة بإبلاغ زكريا بأن الله سيهب له غلاما .. بل إنه سيكون سيدا ونبيا من الصالحين .. وهكذا كان الابلاغ فيه اعجاز .. اعجاز بعلم الخالق قبل أن يخلق .. وقبل أن تحمل زوجة زكريا .. فقال له إن زوجتك ستحمل .. وستأتى بولد .. ولن أخبرك بهذا فقط .. بل ان هذا الغلام سيشب ويكبر .. ويكون سيدا فى قومه .. ونبيا من الصالحين .. وهكذا نرى مدى التفسير الصحيح لقول الله سبحانه وتعالى « **ويعلم ما فى الأرحام** » .. وهو لم ينبىء زكريا بأن امرأته ستلد ولدا .. وهى قد حملت به .. أو قد مضى عليها فى الحمل عدة شهور .. بل قال له وأنبأه بذلك قبل أن تحمل .. وقبل أن يحدث أى اتصال بين زكريا وزوجته .. وأنبأه بالمستقبل الذى ينتظر هذا الطفل بعد سنوات طويلة ..

هنا اهتز زكريا .. اهتز من اللقاء بطلاقة القدرة .. وتذكر الأسباب التى تعطى .. واعتقد انه قد فهم خطأ .. فأراد أن يتأكد .. فرفع يده إلى السماء مرة أخرى .. وقال :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٠

.. رفع زكريا يده إلى السماء وقال ياربي لقد التبس على الأمر فأنا أريد أن أتأكد انني لم أسيء الفهم .. أنا ياربي رجل عجوز .. وامرأتي عاقر لا تلد .. الأسباب هنا ممتنعة من الناحيتين .. ناحية زكريا الذى بلغ من الكبر عتيا .. ولم يعد بالأسباب صالحا لإنجاب الولد .. وحتى هب أن زكريا صالح لذلك فامرأته عاقر .. لم تلد طوال حياتها .. ولم تلد فى شبابها .. فهل ياربي إذا كنت لم أستطع أن أنجب الولد فى شبابي .. وإذا كانت زوجتى عاقرا لم تحمل طوال حياتها .. أتأتى الآن وهى عجوز لتحمل .. وآتى الآن أنا وأنا شيخ كبير لأفعل ما عجزت عن أن أفعله فى شبابي .. هنا اهتز زكريا بالأسباب .. وكان لقاؤه مع طلاقة القدرة .. وكان أول لقاء له .. لقاء قويا هزه من أعماقه فاعتقد انه قد فهم خطأ قول الملائكة أو أن هناك لبسا ما .. حينئذ يقول له الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٩)

سورة مريم آية ٩

وفى سورة آل عمران :

﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٧

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى زكريا بحقيقتين هامتين حول طلاقة القدرة فيقول له إن الله يفعل ما يشاء ، أى ليس هناك قيود على ارادة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كانت هناك الأسباب فى الدنيا فالله هو الذى خلق الأسباب .. ولا يمكن أن يكون المخلوق قيدا على الخالق .. إن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب وتحد من قدرته .. بل انه يفعل ما يشاء دون أن تكون هناك فى الكون كله قدرة مانعة لهذا الفعل .. أو موقفة له .. ولو كانت هى الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى لنظام الحياة فى الكون .. ثم يلفت الله

سبحانه وتعالى زكريا إلى الحقيقة الثانية . . فيقول له إنك تتعجب مما أبلغتك الملائكة وأخبرتك به . . ولكنك يجب ألا تتعجب لأن الذى تحسبه صعبا ومستحيلا هو على هين . . انه أمر بسيط جدا بالنسبة لى . . أنا الذى خلقت هذا الكون كله بما فيه ومن فيه . . هل يستعصى على أن أخلق لك غلاما . . ذلك أمر هين وبسيط أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . وإذا كنت تتعجب من ذلك فانظر إلى نفسك حتى يزول العجب فقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . . أوجدتك من العدم . . فلماذا تتعجب أن أخلق لك ابنا . . إذا كنت أنا قد أتيت بك من العدم . . وخلقتك ووهبت لك الحياة . . فمن السهل على أن أهب لك الولد .

● **العطاء . . بلا أسباب**

وكانت هذه إفاقة لزكريا وهو واقف فى محراب مريم . . وأول ما رآه من طلاقة قدرة الله التى جعلته بعد ذلك لا يشك فى مريم أبدا إذا وجد عندها أشياء عجيبة . . بل يعلم ان طلاقة القدرة تستطيع أن تعطى بلا أسباب . . بدليل إنها أعطت زكريا الولد بلا أسباب . . وكان هذا من الله سبحانه وتعالى تطهيرا لمريم عليها السلام من أى شك يمكن أن يقع فى أى نفس بشرية . . ذلك ان المعجزة التى تمت مع زكريا وفى المحراب عند مريم . . جعلته يعرف يقينا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . ولا يتساءل هو أو غيره عما يكون عند مريم من رزق يهبه الله لها .

ويمضى القرآن الكريم ليروى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

سورة آل عمران الآيتان ٤٢ ـ ٤٣

هنا نزلت الملائكة إلى مريم لتنبئها أن الله قد اصطفاها وطهرها ثم اصطفاها على نساء العالمين . . الاصطفاء الأول هو بالعيش مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله تقبل مريم عند ولادتها كنذر لله . . ثم اصطفاها بأن جعلها دون خلقه تعيش دائما مع طلاقة القدرة استعدادا لما سيحدث من ولادة المسيح عليه السلام ثم طهرها بعد ذلك بأن منع عنها الشياطين وجعلها تتطهر بالعبادة الدائمة له والركوع والسجود لله سبحانه وتعالى . . ثم حدث الاصطفاء الثانى وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن . . أن تضع مولودا دون أن يمسها رجل . . وكان الاصطفاء الثانى هو اصطفاء لمريم بالذات . . ولذلك نلاحظ فى القرآن الكريم أنه حين تأتى أنباء المعجزات والقصص الايمانية لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا . . لماذا ؟ . . لأن هذه لمحات ايمانية مقصود أن يقتدى بها الناس . . ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة . . لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم . . إلا مريم . . فكلما ذكرت فى القرآن . . قال الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران . . لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة . . فهذا اصطفاء لمريم أو اختيار لها لهذه المعجزة دون نساء العالمين . . ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ نساء الأرض . . ولكنه استخدم لفظ نساء العالمين . . أى نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله . . لن توجد أنثى يتكرر لها ما حدث لمريم مما اصطفاها الله سبحانه وتعالى به وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر .

تم الاصطفاء الأول . . ثم بعد ذلك قضت مريم سنوات فى العبادة حتى تطهرت . . والتقت بطلاقة القدرة وألفتها فأصبح الله يرزقها بغير حساب ويطهرها ويحفظها من شياطين الإنس والجن . . ثم جاء الاختيار الثانى ونزلت الملائكة على مريم لتقول لها :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٥

كانت هذه أول بشارة لمريم ومحاولة لاعدادها لما سيتم من ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام .

وأخذت مريم بهذه البشارة . . فرغم التقائها مع طلاقة القدرة . . وتعودها عليها فى الرزق من الله بغير حساب . . ورغم أنها قضت فترة طويلة تتعبد وتتطهر . . وحفظها الله من كل الشياطين . . فإن نفسها اهتزت من وقع الخبر . . واتجهت إلى السماء وقالت :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

سورة آل عمران الآية ٤٧

اتجهت هى الأخرى كما اتجه زكريا إلى الأسباب . . ومع عيشها فى ظل طلاقة القدرة فى المحراب فإنها لم تستطع أن تستوعب تماما طلاقة القدرة فى الخلق . . فقالت يارب كيف ألد ولم يمسسنى بشر . . لم يقربنى رجل . . فكيف أضع غلاما . . وهنا جاء رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٧

لم يقل الله سبحانه وتعالى لها كيف سيتم ذلك . . ذلك أن الخلق مما احتفظ الله به لنفسه . . ولم يطلع عليه أحدا من خلقه . . حتى أن ابراهيم عليه السلام حينما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾

سورة البقرة آية ٢٦٠

. . لم يقل له الله سبحانه وتعالى كيف يحيى الموتى . . ولم يطلعه على سر الحياة والموت . . وانما أدخله فى تجربة رأى فيها إحياء الموتى بقدرة الله . . فجاء بالطير

وقطعه ثم وضع كل جزء على جبل ثم دعاهم فجاءوا إليه أحياء . . كانت هذه تجربة عملية على إحياء الموتى . . ولكنها لم تكن إخبارا من الله سبحانه وتعالى لابراهيم عن سر الحياة والموت .

كذلك مريم . . حين سألت الله سبحانه وتعالى . . كيف سيكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، لم يعطها سر الخلق . . ولكنه قال لها :

﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾

سورة آل عمران آية ٤٧

أى لم تتعجبين أن الله قادر على أن يخلق ما يشاء . . وقد أراك طلاقة القدرة فى الرزق . . وسيريك طلاقة القدرة فى الاصطفاء . . لم تتعجبين يا مريم . . ألم يخلق الله سبحانه وتعالى آدم بدون ذكر أو أنثى . . ألم يخلق حواء من ذكر بدون أنثى . . فالله سبحانه وتعالى ليس لقدرته حدود . . انه قادر أن يخلق بدون ذكر أو أنثى كخلق آدم . . وقادر أن يخلق بدون أنثى كخلق حواء . . وقادر أن يخلق من أنثى بدون ذكر كعيسى ابن مريم . . وقادر أن يخلق من ذكر أو أنثى وهو خلق الأسباب . . إذن فلا عجب هنا لأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء وإذا أراد أمرا فإنه لا يلجأ إلى الأسباب . . وانما بطلاقة قدرته يقول له كن فيكون . . إذن فلا تتعجبى مما بشرتك به الملائكة . . لأن الله قادر على أن يخلق عيسى دون أن يمسك بشر .

● لماذا جاء الملك

وجاء الملك المكلف بالمهمة إلى مريم . . فظهر لها على هيئة بشر . . قد يقول بعض الناس مادامت الملائكة قد بشرت مريم بالغلام . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد لفتها إلى طلاقة القدرة فى انه يقول للشىء كن فيكون . . فلماذا جاء الملك إلى مريم وتمثل لها فى صورة إنسان . . نقول إن فى ذلك حكمة كبرى . .

ان الملك لم يأت إلى مريم ولم يتمثل لها فى صورة إنسان . . ويقول لها أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . ثم يختفى فجأة دون أن يمسها لو لم يحدث ذلك لربما دخل الشك إلى قلب مريم . . واعتقدت أن بشرا قد مسها بأن خدرها أو وهى نائمة . . وعلى العموم لم يكن الأمر يدخل يقينا إلى نفسها . . ولكن كون الملك جاء . . وكونه تمثل لها بشرا سويا . . وكونه قال لها إنى رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . وكونه اختفى دون أن يمسها . . أدخل اليقين فى قلب مريم فى أن ما حدث لها . . هو من طلاقة قدرة الله وليس لبشر دخل فيه . . ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت فؤادها مرة أخرى بعد أن اهتزت نفسها . . من تبشير الملائكة لها . . وتعجبت أن تلد بدون أن يمسها ذكر . . وهنا . . ومع هذا التثبيت من الله سبحانه وتعالى مريم . . لأنها تجربة سيكذبها فيها اليهود . . ولو لم تكن على يقين مما حدث . . وانه من طلاقة قدرة الله فإن نفسها قد تهتز وتضعف . . ذلك لأنه أمر غير مألوف فى تاريخ البشر كلهم . . وانه يصطدم بأسباب العقل . . وانه لا يتمشى مع المنطق البشرى . . ومن هنا كان لابد من تثبيت مريم تثبيت اليقين . . حتى لا تهتز نفسها أبدا لما سيقابلها من أهلها وعشيرتها من انكار وعدم تصديق لما حدث . . وكان لابد أن تكون مريم على يقين كامل من أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى أعطتها عيسى عليه السلام . . ومن هنا كان التثبيت بالتعرف على طلاقة القدرة . . فى أمور مادية محسة كالرزق . . ثم التطهير بالعبادة حتى تشف النفس البشرية . . وتستطيع أن ترى ما لا يراه غيرها . . ثم بالإخبار من الملائكة . . ثم بعد ذلك باليقين من الروح أو الملك الذى أرسله الله لها على صورة إنسان . . والذى اختفى من أمامها دون أن يمسسها . . ومع ذلك قالت مريم :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢٠

.. وعادت مريم إلى الأسباب مرة أخرى .. فرد الله :

﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢١

هنا حسم الله سبحانه وتعالى المسألة مع مريم تماما فى رده عليها هذه المرة فقال إن ذلك على هينّ وبسيط أن أهبك غلاما بدون بشر .. وسيكون هذا الغلام آية للناس ، أى معجزة من الله سبحانه وتعالى لخلقه يفيقهم من الماديات التى عبدوها من دون الله .. ورحمة منا .. أى أنه سيكون رحمة لمن يتبعه .. يقودهم إلى الطريق .. ويرشدهم إلى المنهج .. ويكون قدوة لهم .. وينقذهم من ضلال بنى اسرائيل وماديتهم « وكان أمرا مقضيا » .. هنا الحسم .. أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لمريم إن هذا الأمر قد قضى وانتهى .. ولم يعد لك خيار فيه .. وأنه بعد هذا الاعداد كله فلابد أن يدخل اليقين قلبك على أن الله سبحانه وتعالى يقول للشيء كن فيكون فيما يريد أن يفعله .. ولقد قضى الأمر وانتهى .. ولم يعد موضع أخذ ورد .. وحملت مريم بطلاقة القدرة .. وذهبت إلى مكان بعيد عن الناس .. فقد كانت تخشى أن تواجههم .. فهى تعلم يقينا أن هذا آية من آيات الله .. ولكن ماذا ستقول لهم .. وكيف تشرح لهم طلاقة القدرة .. وهم لا يعرفون عنها شيئا .. أن بنى اسرائيل أناس ماديون .. والمادة تبعد الشفافية عن الجسم وتجعله معتما .. لا يرى إلا ما هو مادى صرف .. معزول تماما عن الغيبيات فكيف ستأتى إلى هؤلاء القوم .. لتقول لهم كلاما عن طلاقة قدرة الله .. وكيف سيصدقونه وهم على غير علم .

● وكان هذا يخيف مريم

كان هذا هو الذى يخيف مريم عليها السلام .. وهو الذى جعلها تبتعد عن الناس إلى مكان قصى بعيد تضع فيه طفلها .. لأنها لم تكن تستطيع أن تواجه وحدها قوما لا يعلمون شيئا عن طلاقة القدرة .. بمعجزة من معجزات طلاقة

القدرة . . مريم نفسها كانت على يقين مما حدث . . وبعد الآيات البينات التى أراها لها الله سبحانه وتعالى . . وتبشير الملائكة لها . . ثم الملك الذى ظهر ليجعلها تتأكد يقينا أنه لم يمسسها بشر . . ثم قول الله سبحانه وتعالى « وكان أمرا مقضيا » . . كل ذلك قد جعل مريم لا تهتز ولا تظن بنفسها السوء . . بل هى على يقين من المعجزة . . ولكن ماذا تقول للناس . . وكيف تفسر لهم ما حدث . . وكيف تجعلهم يصدقون ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن غافلا عن هذا . . كان يعلم هذا كله . . وهو العليم بخلقه . . وكان يعرف أن مريم إذا واجهت بنى اسرائيل وقالت لهم انها طلاقة قدرة الله فلن يصدقوها . . ولن يستمعوا إليها . . وسيفترون عليها مختلف الافتراءات . . حينئذ جاء الحل من السماء . . قال لها الله سبحانه وتعالى أنت لن تتكلمى يا مريم ولا أريد لك أن تتكلمى . . ذلك أنك مهما قلت فإن كلامك قد يؤخذ وينسج عليه افتراءات ضدك . . ولكن الذى سيتكلم هو هذا الطفل الرضيع الذى يبلغ من العمر ساعات فقط . . سأجعله ينطق أمامهم لأريهم طلاقة القدرة . . فإذا ما رأوا آمنوا . . لا يوجد طفل فى العالم يتكلم بعد ولادته بساعات . . ولا يستطيع لفترة قد تزيد إلى عام . . ولكنى سأجعل عيسى ابن مريم يتكلم بعد ولادته بساعات . . لماذا . . لمجرد الاعجاز . . لا . . فالله سبحانه وتعالى أعلى وأكبر من أن يريد شهادة من خلقه على اعجازه . . أو أن يريد شهادة من خلقه على أى شىء . . ولكن حتى إذا كذبوا بطلاقة القدرة التى فعلت كل هذا وجاءت بعيسى ابن مريم . . أريهم طلاقة القدرة على الطفل الصغير علها تفيقهم من غيهم وتجعلهم يحسون أنه من الجرم والاثم الكبير الافتراء على مريم . .

ومن هنا فإن عيسى ابن مريم تكلم ساعة ولادته . . بل انظر إلى دقة تعبير القرآن الكريم :

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

سورة مريم آية ٢٤

أى أن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم لحظة ولادته وعمره دقائق فقط .. وقبل أن تمتد يد أمه لتلتقطه من تحتها .. لا تحزنى فقد جعل الله تحتك نورا منه يهدى إلى الحق .. وكان قول عيسى عليه السلام ردا على مريم التى كانت تفكر .. كيف ستلاقى قومها به .. وماذا ستقول لهم .. وكان الموقف بالنسبة لها عصيبا .. حتى أنها قالت « **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » .. وهى فى لحظة تمنيها الموت لأنها تعرف ما ستقابله من بنى اسرائيل .. وكيف سيقابلونها بالنكران والافتراءات .. والموقف العصيب الذى ستمر به .. وهى فى قمة هذا .. تكلم عيسى ابن مريم وقال لأمه « **ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا** » .. ثم نبهها الطفل الذى ولد منذ دقائق فقط أنها فى حاجة إلى الطعام والشراب .. لتقوى وتشتد وتستطيع أن تواجه ما هو قادم .. فقال لها « **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا** » .. ثم جاءت الآية الكبرى من الله سبحانه وتعالى ..

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢٦

هكذا قال عيسى ابن مريم لأمه مؤيدا بروح القدس .. ومؤيدا بنور من الله سبحانه وتعالى .. قال لها ان أحدا لا يطلب منك أن تتكلمى فمهما قلت فى هذه الحالة فلن يفيد .. ولن يقنع أحدا .. ذلك أنهم معزولون عن طلاقة القدرة .. وقد جئت لهم لأخرجهم بطلاقة القدرة من المادة التى يعبدونها .. فمهما قلت يا مريم فقولك لن يقنع أحدا .. وفى مثل هذه الحالة قول الأم لا يفيد .. فاصمتى أنت تماما .. وقولى : « **إنى نذرت للرحمن صوما** » .. أى قررت أن أصوم لله تعالى .. فكان الصوم عن الكلام .. قولى لهم إننى لن أكلم إنسانا اليوم لأننى صائمة عن الكلام .. ولكن الذى سيكلمكم ..

ويناقشكم .. ويرد على حججكم .. هو هذا الطفل الصغير الذى عمره ساعات .. إنه هو الذى سيرد ليكون دليلا ماديا ملموسا أمامكم على طلاقة قدرة الله التى جاءت به .. ومادمتم لا تعبدون إلا المادة ولا تثقون إلا فى الماديات .. فقد اختار الله سبحانه وتعالى لكم معجزة من جنس ما تثقون فيه .. ليرد كيدكم .. ويكون آية من الله لكم لا تستطيعون انكارها .. ولا تقدرون على اخفائها ..

عند هذه النقطة اطمأن قلب مريم .. وعرفت أن الله سبحانه وتعالى الذى اصطفاها على نساء العالمين لن يتركها .. وأنه سيرسل معها من يدل على صدقها وطهرها .. وان هذا الطفل الصغير الضعيف سيكون الدليل على قدرة وعظمة الله سبحانه وتعالى وعلى صدق مريم ..

● **المواجهة .. بالمعجزة**

وحين اطمأنت مريم عليها السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى سيرسل معها الدليل المادى الذى لا يحمل الشك فى صدقها .. اطمأن قلبها .. وحملت ابنها وذهبت إلى قومها .. ويقول القرآن الكريم :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

سورة مريم الآيتان ٢٧ - ٢٨

وهكذا نجد أن المواجهة التى توقعتها مريم قد حدثت .. وأن بنى إسرائيل قد واجهوا مريم بالسوء قبل أن يسمعوا منها كلمة واحدة .. وهم كقوم ماديين عبدوا الأسباب .. لم ينتظروا حتى تتكلم مريم لتروى لهم ما حدث وهو المنطق الطبيعى فى هذه الأشياء .. فقد كان من الممكن أن يسألوها عن هذا الطفل ..

ربما ليس طفلها .. ربما وجدته فى مكان يواجه خطرا فجاءت به .. وربما ماتت أمه وهى تلده فحملته مريم إلى قومها .. ولكن كل هذه الافتراضات التى تحتم الأخذ بحسن النية أولا لم ترد على خاطر بنى إسرائيل .. بل افترضوا السوء من أول وهلة وأخذوا يعيرونها وانها ارتكبت اثما كبيرا ويذكرونها بطيب أصلها وصلاح أبويها وأخيها هارون .. وكيف أن هذا الصلاح والتقوى كان يجب أن ينتقل إليها .. وأن تكون هى قدوة سلوكية حسنة .. واتهموا قبل أن يسألوا وقبل أن يعرفوا الحقيقة .. وفى هذا يبين لنا القرآن الكريم سوء أخلاقيات بنى إسرائيل وإسراعهم إلى الظن بالسوء والافتراء فى الاتهام .. وكيف أنهم وقد عصوا الله وقتلوا أنبياءهم .. إنما ذلك عن خلق سيىء لا يعرف للعمل الطيب مكانا .

حينئذ ماذا فعلت مريم .. أشارت إلى عيسى عليه السلام وهى تحمله .. فبهت القوم لأنهم لم يتوقعوا منها ذلك .. كانوا يتوقعون أن تتحدث هى معهم .. أو أن تقول لهم شيئا يبرئها .. أو تحاول تبرير ما حدث .. ذلك كان ظنهم ولكنهم فوجئوا بها وهى تشير إلى الطفل الصغير .. ولم يفهموا لأن طلاقة القدرة غابت عنهم وهم لا يتعاملون إلا بالأسباب .. فأبدوا عجبهم مما فعلته مريم فقالوا : **« كيف نكلم من كان فى المهد صبيا »** .. أى يا مريم أنت تستخفين بعقولنا فهذا طفل صغير عمره ساعات .. أو يوم أو بعض يوم .. فكيف تطلبين منا أن نتحدث معه .. وهل ينطق مثل هذا الطفل .. إن الأسباب كلها تقول لا .. إنه عاجز عن النطق ..

ولكن الله سبحانه وتعالى أنطق عيسى ابن مريم .. أنطقه وهو طفل صغير .. أنطقه ليثبت لهم طلاقة القدرة .. وأن الله سبحانه وتعالى الذى لا يجعل طفلا ينطق إلا بعد عام أو أكثر من عام من عمره .. يستطيع أن يجعل طفلا عمره يوم أو بعض يوم أن يتحدث .. ولا يجعله يتحدث حديث الأطفال .. بل يجعله يتحدث حديث الرجال راجحى العقل والمنطق .. وأن

يناقش ويرد بالحجة عليهم .. وأن يكلمهم وكأنه قد بلغ مبلغ الرجولة .. وعقل كل شيء ..

● **المعجزة .. والحكمة**

لماذا وقعت هذه المعجزة .. ولماذا أتمها الله سبحانه وتعالى ؟ ليجعل هؤلاء القوم الماديين يوقنون بما حدث لمريم .. فلو أنها رزقت طفلا عن طريق عادى كما تلد النساء لما استطاع هذا الطفل أن يتكلم أو ينطق حرفا واحدا .. وحتى ولو كانوا قد انتظروا عليه حتى يكبر .. ليتعلم النطق لكان حديثه حديث الأطفال .. فيه سذاجتهم وافتقارهم إلى المنطق والحجة والفهم .. ولكن كون عيسى ابن مريم نطق بعد ولادته بيوم أو بعض يوم فإن ذلك معناه يقينا أن ذلك الطفل لم يأت بالطريق العادى وهو الذكر والأنثى .. ولكن معجزة كلامه تدل على طلاقة القدرة فى مولده .. وأن مريم لم يمسسها بشر .. وإنما عيسى ابن مريم جاء بكلمة « كن » .. والا إذا كانت مريم قد مسها أى بشر لجاءت بطفل عادى مما تلد النساء .. كان يجب على بنى إسرائيل أن يفيقوا ساعة نطق عيسى ابن مريم .. وأن يعلموا أنهم أمام معجزة خارقة لله سبحانه وتعالى .. وأن يؤمنوا بكل ما تقوله مريم .. ويؤمنوا بعيسى رسولا ونبيا ..

ماذا قال عيسى ابن مريم .. كان أول ما قاله « **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » .. أى أن أول ما بشر به هو رسالته .. قال إنى عبدالله حتى لا يفتن الناس بمولده .. فيحملوا الأشياء أكثر مما تحتمل .. فحسم الموقف بأنه عبد من عباد الله وبشر ورسول .. ثم بعد ذلك قال « **آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » .. أى جعل لى كتابا سأبلغه إليكم .. ورسالة من السماء لكم .. وهكذا كانت أولى معجزات عيسى عليه السلام فى أولى كلمات نطقها .. فقد أبلغهم بالمستقبل وهو مازال فى المهد صبيا .. فقال لهم إنى قد جئتكم بكتاب من الله سبحانه وتعالى .. لأهديكم إلى صراطه المستقيم .. والله جعلنى لكم نبيا .. وفوق ذلك آتانى الحكمة .. وأنتم ترون هذه الحكمة .. وأنا أتحدث إليكم ..

فليس حديثى هذا حديث طفل رضيع .. ولكنه حديث رجل أوتى الحكمة يستطيع أن يجادلكم فيما تقولون .. وكانت هذه معجزة ثانية بطلاقة القدرة .. إنباء بغيب قادم ونبوة ورسالة .. ومازال عيسى ابن مريم فى المهد صبيا .. وانباء بأنه وهو طفل رضيع لم يعط نعمة الكلام فقط من الله سبحانه وتعالى .. بل أعطى نعمة الحكمة أيضا ..

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾

سورة مريم آية ٣١

ومضى عيسى ابن مريم فى كلامه ليقول إن الله سبحانه وتعالى قد أحاطنى ببركته أينما أكون .. فما من مكان أذهب إليه .. إلا حلت فيه البركة .. وملأه الرزق .. كما أوصانى الله سبحانه وتعالى أن أعبده حق عبادته مادمت حيا .. والعبادة واجبة على الإنسان فى فترة الحياة التى تتصل فيها الروح بالمادة .. تلك الفترة هى التى يكون فيها الإنسان مختارا أن يفعل أو لا يفعل .. أن يعبد الله أو يعصيه .. فقبل الحياة .. وبعد الموت لا يكون هناك اختيار .. بل هو قهر .. والله سبحانه وتعالى قال فى قرآنه الكريم « لتنذر من كان حيا » .. أى أن القرآن الكريم للأحياء وليس للأموات .. ولا يستطيع واحد عصى الله فى حياته الدنيوية أن يقول بعد أن يموت .. إننى سأعبد الله حق عبادته بعد الموت ليكفر عنى ما فعلته وارتكبته من معاص .. فبعد الموت ينقطع عمل ابن آدم .. ويعرف جزاءه أو مصيره .. بل إن فى ساعة (الغرغرة) .. وهى ساعة خروج الروح من الجسد .. تعرض أعمال ابن آدم عليه .. فإن كانت طيبة انفرج وجهه وظهر السرور عليه .. وعندما تنظر إليه بعد الموت .. تقول ان نهايته أو خاتمته كانت طيبة .. وإن كان عمله سيئا .. انقبضت أساريره وأكفهر وجهه .. وحاول أن ينطق بالشهادتين فخانه لسانه .. وفى هذه اللحظة يعرف أن مصيره هو النار .. والذى يصل إلى حالة الغرغرة يعرف يقينا أنه ميت .. ويبدأ أولى دقائق حياته فى العالم الآخر .. وهكذا جاء قول عيسى ابن مريم

مؤكدا أنه كنبى لم يعف من التكليف .. فقد طلب منه الله سبحانه وتعالى وأوصاه بأن يعبده حق عبادته مادام حيا ..

ويمضى عيسى ابن مريم عليه السلام .. ليكمل ما أوصاه الله به فيقول .. «وبراً بوالدتى» .. ولم يقل وبراً بوالدى .. وهذه تأتى لتؤكد لبنى إسرائيل مرة أخرى معجزة الله فى مريم عليها السلام .. فلو أن عيسى جاء من ذكر وأنثى .. لقال وبراً بوالدىّ .. ولكنه قال وبراً بوالدتى ليكون شاهد صدق على طريقة خلقه .. وأنه لم يأت من ذكر وأنثى .. بل أتى بطلاقة القدرة من مريم عليها السلام دون أن يمسسها رجل ..

● **وكانت معجزة كافية**

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة .. لقد أتت مريم قومها وهى تحمل عيسى عليه السلام .. ونطق عيسى وهو فى المهد .. وكانت هذه معجزة كافية لتقنع بنى إسرائيل بأن ما حدث ليس شيئا عاديا .. ولا تنطبق عليه أسباب الدنيا التى يعرفها الناس .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعرف عناد بنى إسرائيل .. ومكابرتهم فى الحق .. وإمعانهم فى الباطل .. ولذلك فقد أراد أن يأتى بأكثر من آية .. تأكيدا لصدق مريم عليها السلام فى كل ما تقول .. ولم يجعل الطفل ينطق فقط .. ولكنه جعله يؤكد لهؤلاء القوم بأنه جاء من امرأة دون أن يمسسها رجل .. ويؤكد لهم هذا بكلامه هو .. وهو رسول ونبى .. مؤيدا من الله بمعجزة منذ لحظة ولادته .. ومبلغا عن الله سبحانه وتعالى برسالة ومنهج .. ومن هنا .. فإنه صادق أمين فيما يقوله .. فإذا قال وبراً بوالدتى ولم يقل وبراً بوالدىّ .. فإن ذلك معناه صدق معجزة مريم .. وهكذا يسوق الله سبحانه وتعالى الدليل تلو الدليل لبنى إسرائيل على طلاقة القدرة .. وصدق رسالة عيسى عليه السلام .. ورغم ذلك فقد كابروا ولم يؤمنوا ..

ويمضى عيسى عليه السلام ليقول «ولم يجعلنى جبارا شقيا» أى أننى لم آت إليكم كجبار يفسد فى الأرض ويقهر الناس ويجبرهم على الأشياء .. وينشر

الرعب وسفك الدماء . . بل جئتكم رحمة من الله سبحانه وتعالى . . رحمة منه لأعيدكم إلى المنهج الذى تركتموه واتخذتموه وراءكم ظهريا . . أى وضعتموه وراء ظهوركم حتى لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا إليه أبدا وجئتكم كرحمة لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . . وفى هذا رحمة من الله وفضل . . إنه يرفع العنت عنكم . . ويزيل عنكم بعض المشاق التى فرضت عليكم بعصيانكم للمنهج ولأوامر الله . . أنا قد جئت لأرفع عنكم كل هذا برحمة من الله سبحانه وتعالى . . فكأننى رحمة فى أن أعيدكم إلى المنهج . . لتعودوا إلى طريق الله السوى . . وأجنبكم عذابه وغضبه . . وجئت إليكم لأيسر لكم حياتكم فأحل لكم بعض ما حرم عليكم . . وجئتكم برحمة أخرى . . هى أننى أخرجكم من الماديات التى غرقتم فيها . . وألفتكم إلى الغيب وإلى الله سبحانه وتعالى . . علكم ترعون الله وتهتدون . . وتعرفون أنه بجانب ماديات الدنيا . . فهناك الغيب والروح . . وهناك غير المادة التى تعبدونها وتتخذونها إلها . . وهناك الله سبحانه وتعالى الذى هو بطلاقة قدرته يستطيع أن يحقق لكم كل ما تريدون . . فلا تتخذوا منهج الله وراء ظهوركم وتنبذوه . . وتعبدوا مادة الدنيا وحدها .

لم يجعلنى الله جبارا . . ولكنه سبحانه وتعالى جعلنى رحمة . . ولم يجعلنى شقيا محكوما عليه بالشقاء والعذاب . . بل جعلنى مرضيا عنه منه . . أى أن الله قد رضى عنى فى الدنيا والآخرة . . ولم يجعلنى من زمرة الأشقياء الذين يشقون بغضب الله فى الحياة الدنيا وعذابه فى الآخرة .

ثم يمضى عيسى ابن مريم عليه السلام « **والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** » . . وهذه الآية تحمل معانى عميقة . . فما من شىء أحدث جدلا فى الدنيا مثل ثلاثة أشياء . . يوم ولادته وطريقة هذا المولد . . ويوم وفاته ورفعه إلى السماء . . ويوم يبعث حيا ، أى بعثه فى آخر الزمان ليهدى الناس . . أو بعثه يوم القيامة . . وهذه النقط الثلاث مازالت موضع جدل كبير حتى يومنا هذا . . وستظل كذلك حتى قيام الساعة . . فمازال مولد عيسى ابن مريم موضع

جدل بين اليهود والنصارى .. ومازال كل فريق منهما يتحدث عن هذا المولد بطريقة تختلف عن طريقة الفريق الآخر .. مازالت النظريات الفلسفية تقوم .. والفلاسفة والذين يكتبون عن الدين يحاولون وضع الروايات المختلفة والنظريات الفلسفية المتناقضة عن مولد المسيح عليه السلام .. ورغم أن القرآن الكريم قد حسم الموقف تماما .. وروى عن الله سبحانه وتعالى قول الحق الذى فيه يختلفون .. إلا إنه مازالت هناك فلسفات تقوم ونظريات بعد نظريات .. ولقد كان يكفى ما أراه الله لعباده من طلاقة القدرة فى مولد المسيح عليه السلام .. وحديثه وهو طفل .. والمعجزات التى أيده بها .. فقد كان جبريل لا يفارق عيسى عليه السلام ليثبته أمام الجدل والاتهام اللذين واجهه بهما بنو إسرائيل .. ولكن رغم كل هذه المعجزات والتحضير الالهى لمولد عيسى .. واللفتة إلى الروحانيات .. أو إلى الغيب وطلاقة القدرة التى جاء بها عيسى عليه السلام .. فإن الجدل مازال يثور .. ولكم أن تطلعوا على الكتب التى تصدر حتى فى هذه الأيام فتجدوا انها تحمل صور هذا الجدل .. ودليلا يهدمه دليل .. ولكن رغم هذا الجدل فإن عيسى عليه السلام .. أعطى السلام والأمن من الله يوم مولده وبرأه الله سبحانه وتعالى من كل جدل يحدث بعد ذلك ..

ويدور الجدل حول وفاة عيسى عليه السلام .. والقرآن الكريم يقول لنا .. إن عيسى لم يصلب وأن الله قد رفعه إليه .. ولاشك أن مسألة الرفع إلى السماء يجب ألا نتوقف عندها .. ذلك لأن عيسى عليه السلام من مولده إلى وفاته مؤيد بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كان ميلاده معجزة .. وحديثه وهو طفل معجزة .. والأشياء التى قام بها وهو نبى والتى سنتناولها معجزات .. وكلها مؤيدة بطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. لا تخضع لأسباب الكون .. فلماذا نريد أن نخرج عن هذا كله فى رفعه إلى السماء .. ولماذا نصدق طلاقة القدرة فى مولده ومعجزاته .. ثم بعد ذلك نأتى إلى وفاته ورفعه إلى السماء ونجادل فى الأسباب .. مادامت الرسالة كلها مؤيدة بطلاقة القدرة .. فيجب أن نأخذ كل الأحداث فيها بمنطق طلاقة قدرة الله .. وليس بمنطق الأسباب .. فلا نطبق

على جزء من حياة عيسى عليه السلام طلاقة القدرة .. وعلى جزء آخر منها الأسباب ، وألا نكون قد ناقضنا أنفسنا .. وهدمنا المنطق .. بل إننا يجب أن نأخذ رسالة عيسى منذ مولده حتى رفعه إلى السماء بطلاقة القدرة وحدها التى تقول للشيء كن فيكون ولا نأخذها بالأسباب والمسببات التى نعرفها .

● لماذا الجدل ؟

ثم لماذا الجدل عن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بالجسد أو الروح فلقد حدثت هذه المعجزة لرسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأسرى به الله بالجسد إلى سدرة المنتهى .. ثم أعاده إلى الأرض مرة أخرى .. وهذا ثابت ويقينى مما أخبرنا به القرآن الكريم صدقا من الله سبحانه وتعالى .. فهل تقف طلاقة قدرة الله عن أن يرفع عيسى إلى السماء بالجسد .. إن الذى يؤمن بطلاقة القدرة يعلم يقينا أنه لا شيء يستطيع أن يحدها .. ولا قيود ولا حدود على قدرة الله سبحانه وتعالى ولا أسباب ولا مسببات .. ومادام الفعل قد نسب إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذى عرج إلى السماء بمحمد عليه السلام وهو الذى رفع عيسى إلى السماء .. فإن العمل يجب أن ينسب إلى قدرة الفاعل الذى ليس كمثله شيء .. فإذا كان الفاعل هو الله سبحانه وتعالى يكون الفعل بلا قيود ولا زمان ولا مكان .. ويكون مصدقا لأن الفاعل هو الله الذى خلق كل شيء والذى يقول كن فيكون .

إذن فلا محل للجدل هنا .. لأن الجدل يمكن أن يثار إذا كان الفاعل إنسانا .. أو محدود القدرة .. ولكن إذا كان الفاعل هو الله فلا جدال .. أما بقاء عيسى عليه السلام ليبعث فى آخر الزمن أو يوم القيامة فلا يثير جدلا هو الآخر .. ذلك أنه فى الحالة الأولى .. فإن الفرق بين معجزة محمد عليه السلام ومعجزة عيسى هو فرق الزمن الأرضى أو الوقت .. فمحمد عليه السلام عرج إلى السماء ثم أعيد إلى الأرض فى فترة زمنية قصيرة .. وعيسى عليه السلام سيأخذ فترة زمنية أطول ولا زمن عند الله سبحانه وتعالى ..

على أننا فى كل هذا .. وأعود فأكرر مرة أخرى يجب أن ننسب الفعل إلى الفاعل .. وإذا كنا فى الأشياء الأرضية ننسب الفعل إلى الفاعل .. فحفل يقيمه وزير أو حاكم لا نتقبله بعقولنا كما نتقبل بنفس المقاييس حفلا يقيمه رجل فقير بسيط .. فإذا قيل لى إن حاكما أو وزيرا قد أقام حفلا .. وإن رجلا بسيطا قد أقام حفلا .. فإننى بعقلى ودون أن يخبرنى أحد أعرف أنه يجب أن أنسب الفعل إلى الفاعل .. فأعرف أن الحفل الذى يقيمه الوزير أو الحاكم يقام فى مكان فاخر .. يحضره عدد كبير من الناس وعلية القوم .. بينما حفل الرجل الفقير يقام فى مكان بسيط ويحضره عدد قليل من عباد الله البسطاء ، إذن ففى الحالتين قد نسبت الفعل إلى الفاعل .. وفرقت فرقا هائلا بين امكانيات الفاعل فى حدث واحد وهو الحفل .. وإذا كانت هذه هى المقاييس فإننا يجب أن نفرق بين قدرة الفاعل وهو الله .. وبين قدرة البشر .. وأن ننسب الحدث لقدرة فاعله الذى ليس كمثله شىء ..

على أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن هذه المسائل الثلاث ـ مولد عيسى ورفعه إلى السماء وبعثه ـ ستكون مثار جدل حتى قيام الساعة .. وأن الله سبحانه وتعالى قد برأ عيسى عليه السلام من هذا الجدل .. ومن كل ما قيل ويقال بعد رفعه إلى السماء ..

على أننا حين نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام .. فيجب أن نلاحظ شيئا هاما .. هو أن الله سبحانه وتعالى فرق بين هذه المعجزات رغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله .. فقال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ..

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

سورة آل عمران آية ٤٩

نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات .. فجعل بعضها تتبعه عبارة (بإذن الله) .. والبعض الآخر لم يذكر فيه شيئا عن هذه العبارة .. ورغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من ربه بالمعجزات ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات التى هى بإذنه والمعجزات التى أيد بها رسوله .. فمعجزة الخلق وان عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيرا .. ذكر الله سبحانه وتعالى أن الحياة تدب فى هذا الطين بإذن الله .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد احتفظ بسر خلق الحياة لنفسه .. ولم يعطه لعبد من عباده .. ومن هنا كان لزاما أن تأتى كلمة بإذن الله بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله سبحانه وتعالى .. ثم تمضى السورة الكريمة : « **وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله** » .. ذلك أن الشافى هو الله سبحانه وتعالى .. ولا شافى غيره .. مصداقا لقوله تعالى « **وإذا مرضت فهو يشفين** » .. كما أن إحياء الموتى هو بإذن الله سبحانه وتعالى الذى يحيى ويميت .. وهكذا كانت هذه المعجزة إعلانا من الله سبحانه وتعالى بأنه هو الفاعل وحده .. لا يشرك أحدا معه فى ذلك .. إنه إذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول فإنها تتم بإذن الله فإنه هو الذى يحيى ويميت وهو الذى يشفى من المرض ..

ثم تأتى بعد ذلك المعجزات الأخرى « **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم** » تلك آية من الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام .. مكنه الله منها فاستطاع أن يقوم بها بذاتيته .. وهى وإن كانت تأييدا من الله .. إلا إنها تأييد لرسوله .. كدليل على صدق الرسالة .. وأن الله سبحانه وتعالى لم يحتفظ

بسر هذه الأشياء لنفسه . . بل أطلع عليها عيسى عليه السلام ومكنه منها . . ومن هنا فإن هناك معجزات احتفظ الله بسرها لنفسه ومكن عيسى من القيام بها . . ومعجزات أطلع الله عيسى عليه السلام على سرها ومكنه منها وسر الخلق والموت وإحياء الموتى احتفظ به الله لنفسه ولم يطلع رسولا من رسله على الكيفية التى يتم بها ذلك .

على انه رغم طلاقة القدرة التى لازمت عيسى منذ ساعة مولده حتى رفعه إلى السماء . . تلك الطلاقة التى أعطته من ساعة ولادته حتى ساعة رفعه إلى السماء معجزات بينات . . فإن ذلك لم يقنع بنى إسرائيل . . ولم يجعلهم يؤمنون به . . بل على العكس جعلهم يتمسكون بالماديات وهم يرون الغيبيات وطلاقة القدرة . . وبدأوا يتآمرون عليه ويكذبون رسالته . . وكلما جاءهم بمعجزة أنكروها ولم يلتفتوا إليها . . ذلك هو طبع بنى إسرائيل . . فقد جاءهم موسى بمعجزات لا تعد ولا تحصى . . وكلما حدثت أمامهم معجزة . . بقوا فترة وجيزة على الإيمان . . ثم عادوا إلى الكفر مرة أخرى . . ولم تجعلهم كل المعجزات يبتعدون عن الماديات ويتجهون إلى الله سبحانه وتعالى . . بل كان ولاؤهم دائما للذهب والمال حتى يومنا هذا . . ولقد لعنهم الله بكفرهم . .

● . . ولم يؤمنوا ! . .

وعيسى عليه السلام بعد كل ما أراه لهم رؤيا العين . . ويقين المشاهدة . . أحس انهم لم يؤمنوا . . وأحس أنهم يبتعدون عن الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

* فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

سورة آل عمران آية ٥٢

أى أن عيسى عليه السلام حين أحس من هؤلاء اليهود بكفرهم وعنادهم .. وعدم طاعتهم أو اقتناعهم رغم كل ما أرسله الله على يديه من آيات بينات .. أحس عيسى منهم الكفر .. فبدأ يبحث عن رجال أمناء مؤمنين .. يبلغون رسالته من بعده ويحملون منهج الله إلى عباد الله فى الأرض .. كان ذلك يقينا من عيسى عليه السلام أن بنى إسرائيل لن يؤمنوا له رغم كل البينات التى جاء بها .. ورغم أنه قد جاء إليهم رحمة من الله سبحانه وتعالى ليحل لهم بعض ما حرم عليهم .. ليدلهم على منهج الله الذى ينجيهم من عذاب اليم .. ورغم كل هذا الذى يعتبر فى مصلحة بنى إسرائيل .. فقد أحس عيسى منهم الكفر وعدم الإيمان .. فبدأ يلتجىء إلى الحواريين ومريديه ليلقنهم الرسالة الصحيحة .. ويخبرهم بما أنزله الله عليه .. حتى يكونوا من بعده دعاة مخلصين لهذا الدين الذى كان واثقا ان بنى إسرائيل سيحاولون تشويهه ومحاربته ونشر الأكاذيب عن رسالته ولقد قام الحواريون بتلقى منهج الله ثم نقلوه بعد ذلك إلى أقطار الأرض ..

وهكذا كان عيسى عليه السلام حريصا فى حياته على أن يبلغ الرسالة التى كلفه الله بها .. فلما لم يفلح مع بنى إسرائيل اتجه إلى تلاميذه وحوارييه .. وأعطاهم التعاليم التى نزلت عليه من السماء .. وأخذ عهدا منهم أن يقوموا بابلاغها إلى الناس حتى يفوت على بنى إسرائيل فرصة القضاء على هذا الدين وهو ما كانوا يبيتونه وأحسه عيسى عليه السلام فى حياته .

إلى هنا .. وأتوقف عن خواطرى حول سورة مريم .. وعيسى ابن مريم عليهما السلام .. ولقد كانت رسالة عيسى عليه السلام تجسيدا لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. فطلاقة القدرة جاءت من أول الرسالة إلى آخرها .. فعندما نذرت امرأة عمران ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى .. جعلها الله تلد أنثى .. ولما أحست امرأة عمران أن الذكر ليس كالأنثى .. ورفعت يديها إلى السماء معلنة ذلك .. قال لها الله سبحانه وتعالى إنه أعلم بما وضعت .. ثم بدأ اصطفاء مريم يكشف طلاقة القدرة لها على أشياء مادية من الرزق الذى يعطيه لها الله

وهى فى المحراب تتعبد . . وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرى زكريا طلاقة القدرة عندما سأل مريم من أين لك هذا . . ورزقه بابن وهو رجل عجوز وامرأته عاقر . . ثم طهر الله سبحانه وتعالى مريم بالعبادة له والسجود إليه والتقرب منه ثم اصطفاها مرة أخرى على نساء العالمين لتكون هى الأنثى الوحيدة فى سائر مخلوقات الله من الأنس والجن وكل ما خلقه الله لتضع مولودا بدون ذكر . . ولذلك كان الاصطفاء الثانى مقرونا بذكر اسم مريم مميزا فى القرآن الكريم . . ففى كل آيات القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران . . وعيسى ابن مريم . . ولا يأتى ذكرها ولا ذكر ابنها بالاسم الأول وهو مريم وعيسى . . مع أن المتبع فى القرآن الكريم هو الاسم الأول فقط . . لأن ما يرويه القرآن هو أمثلة إيمانية لا تتعلق بالشخص نفسه . . إلا فى قصة مريم فقد اختصها الله بهذه المعجزة التى لن تتكرر إلى يوم القيامة . . والتى فضلها بها على كل النساء واللاتى خلقهن فى العالمين .

وقد جاء ميلاد المسيح ابن مريم دليلا على طلاقة القدرة التى تقول للشىء كن فيكون . . فولد من أنثى بدون ذكر . . وثبت الله مريم قبل أن يحدث ذلك . . ثم أظهر صدق المعجزة بأن جعل عيسى ابن مريم ينطق وهو طفل عمره دقائق . . ثم أيده بالمعجزات . . عدد منها بإذن الله كأن يصنع الطين على هيئة الطير ويحيى الموتى ويشفى المرضى ، كل ذلك يتم بإذن الله . . وعدد منها يتم بما أطلعه الله ونبأه به من أسرار الكون لتكون آية ودليلا على صدق رسالته كإنباء الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

ورغم هذه المعجزات البينات . . وأن عيسى قد أرسل رحمة لبنى إسرائيل . . فقد كفر به بنو إسرائيل وتربصوا به . . فلما أحس عيسى منهم الكفر جمع حوارييه أو تلاميذه . . وأبلغهم ما أرسل به لينقلوا رسالة الله إلى البشر . . وحملهم أمانة هذه الرسالة . .

وعند هذا الحديث . . يجب أن نتناول معجزة الخلق . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الخامس

معجزة الخلق

الاعجاز فى القرآن الكريم هو إعجاز دائم . . أى أن القرآن معجزة يوم أن أنزل . . ومعجزة فى هذا العصر . . ومعجزة فى العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة . . ذلك ان إعجاز القرآن اعجاز متجدد . . وعطاءه هو عطاء لكل جيل . . عطاء مختلف عن الجيل الذى سبقه . . تلك حقيقة هامة لابد أن نعيها حين نتحدث عن اعجاز القرآن الكريم . .

والقرآن لا يفسر بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يقول إنه يفسر القرآن . . بل هى خواطر إيمانية لكل مجتهد حول القرآن الكريم . . ذلك أن التفسير الكامل للقرآن لا يعلمه إلا الله وحده . . وإنما خواطر القلب المؤمن هى التى يمكن أن نسجلها حول آيات القرآن الكريم . . ولو أن القرآن الكريم كان من الممكن أن يفسر لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره . . لأنه نزل عليه . . ولكن رسول الله بيَّن للناس الأحكام التكليفية التى يثاب المرء إن فعلها . . ويعاقب إن تركها . . وهى حدود الله سبحانه وتعالى فى افعل ولا تفعل . . أما ما يتعلق بالوجود وأسرار القرآن حول هذا الوجود . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشع ذلك ولم يعممه . . وإن كان قد علمه هو نفسه . . لماذا ؟ لأن العقول قد لا تتقبله . . فالقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود . . وانما وضعت أسرار الوجود فى القرآن الكريم لتعطى عطاء لكل جيل حسب العلم الذى يكشفه الله له . . حينئذ يكون عطاء القرآن مستمرا مع تقدم العلم والحياة إلى أن تقوم الساعة . .

إن فى القرآن إعجازا فى اللفظ . . واختيار الكلمات والمعانى . . بحيث تناسب كل عقل . . وكل جيل . . ولعل أولى معجزات القرآن أنها تخاطب الجميع : المتعلم . . والجاهل . . والذى قرأ علوم الدنيا كلها . . والذى لم يقرأ حرفا واحدا . . وإذا لاحظنا فى الخطاب البشرى . . نجد أنه يقال لكل مقام مقال . . أى أن الذى يتحدث به مع نخبة من العلماء غير الذى يتحدث به مع أناس بسطاء . . لم يقرأوا شيئا . . غير حديثك لأولئك المفكرين . . ولكنك

تذهب إلى المسجد فتجد العالم والأمى ونصف المتعلم يجلسون معا . . ويقرأ القرآن . . فتهتز نفوسهم جميعا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات خفية فى النفس لا يعلمها إلا هو . . وهذه الملكات هى التى تهتز للقرآن الكريم . . كلام الله . . وكل واحد من الجالسين مهما كانت ثقافته له متاع فيما يقرأ . . واهتزاز وانفعال داخل نفسه . . رغم أنه من الصعب أن تخاطب هؤلاء جميعا . . وتحدثهم بكلام دنيوى لاختلاف مستوى العقول . .

إن القرآن الكريم لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود . . ولكنه آشار إليها وسجلها ليظهر الاعجاز الالهى للناس . . فى كل عصر . . ومع تقدم العلم البشرى . . على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شىء لا يجب أن يحدث . . فالقرآن لا تربط صحته باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت . . ولكن العلم هو الذى يستمد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم . . فكل علم مخالف لحقائق القرآن هو علم زائف . . لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى . . ولا يمكن لمخلوق أن يصل فى أسرار الكون إلى علم الخالق . . تلك حقيقة هامة خاصة لأولئك الذين يحاولون أن يربطوا معجزة الخلق بنظريات أرضية . . والحياة والموت هما مما اختص به الله سبحانه وتعالى نفسه . . حتى إنه إذا أعطى هذه المعجزة إلى رسول من رسله . . كما أعطاها إلى عيسى عليه السلام . . فإنه يقول . . باذن الله . . فعيسى يقول . . **« وأحيى الموتى بإذن الله »** . . ويقول . . **« إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله »** . . ولكنه يقول . . **« وأبرىء الأكمه والأبرص »** . . **« وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »** . . يلاحظ أن معجزة الحياة والموت لم ترد إلا ومعها كلمة باذن الله . . بينما وردت المعجزات الأخرى كابراء الأكمه والأبرص . . وغير ذلك . . كمعجزات أيد بها عيسى من الله سبحانه وتعالى . . دليلا على صدق رسالته . . وتبليغه عن الله . . ولكن معجزة الخلق هى لله وحده . . ولكن بعض الناس يأتى ليجادل فى ذلك . . مدعيا أن الإنسان أصله قرد . . إلى آخر ما يقال فى عدد من النظريات

العلمية . . ونحن نقول لهؤلاء . . إذا كان الإنسان أصله قرد . . فلماذا توقف هذا التحول منذ ألوف السنين . . لماذا لم نشهد نحن فى كل التاريخ المكتوب للبشرية . . ان قردا قد تحول إلى إنسان . . فمن الذى اختص قردا واحدا . . دون بقية بنى جنسه . . فى أن يتحول إلى إنسان مرة واحدة فى التاريخ لا نعرف لها سجلا . . ولم نسمع عنها شيئا . . اللهم إلا افتراضات لا تستند إلى الحقيقة . . لو أن الإنسان أصله قرد . . لكانت سنة أن يتحول القرود إلى بشر . . ومادام ذلك قد حدث مرة واحدة . . فإنه لابد أن يتكرر . . ولكننا لم نشاهد هذا فى التاريخ الإنسانى . . فما الذى أوقفه . . ولماذا لم تستمر العملية ككل عمليات الحياة . . إن الذى أوقفه أنه لم يحدث أصلا . . ولم يكن موجودا إلا فى خيال أولئك الذين زعموه بلا دليل علمى محسوس . . ولو كان هذا صحيحا لأمكن بعد تقدم العلم البشرى أن يقوم العلماء بتحويل قرد إلى إنسان . . ولكنه مجرد زيف . .

والله سبحانه وتعالى حين أوجد الحياة أبلغنا بطريقة الخلق ومعجزته . . وقال إننى خلقت من كل شىء زوجين اثنين . . أى أن كل مخلوقات هذه الدنيا بدأت بخلق الله سبحانه وتعالى لذكر وأنثى . . ثم بدأ التكاثر بعد ذلك . . وكل من يقول غير هذا . . هو مخالف للحقائق العلمية فى أن الحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا بذكر وأنثى . . وهذا هو بداية الخلق . .

● أسرار الخلق

على أن بعض الناس لا يكتفى بما قال الله سبحانه وتعالى عن الخلق . . وإنما يحاول أن يصل إلى أسرار هو ليس مؤهلا لها . . نقول له إن الله سبحانه وتعالى أعطى للعلم البشرى ما يفيده . . وحجب عنه ما هو علم لا ينفعه . . وجهل لا يضره . . فعدم علمك بأسرار خلق الشمس مثلا . . لا يؤثر فى شىء فى استفادتك بالشمس نفسها . . فى الزراعة . . والتدفئة . . واستغلال النهار فى السعى من أجل الرزق . . وغير ذلك مما احتاجه فى حياتى العادية . . تماما كما

يحدث بالنسبة للكهرباء مثلا . . فعدم معرفتى بأسرار الكهرباء لا يمنعنى من أن أضغط على الزر . . فأوقد المصباح . . وأؤدى عليه حاجاتى فى الليل . . وعدم علمى بأسرار التليفون لا يمنعنى من أن أستخدمه لأتحدث به إلى من أريد . . وهكذا أشياء كثيرة فى الكون . . أستطيع أن استخدمها دون أن أصل إلى أسرارها . . أى يستخدمها العالم بها والجاهل بها بنفس الطريقة . . ونفس الاستفادة

ومن هذه الأشياء . . الغيبيات التى اختص بها الله سبحانه وتعالى نفسه . . نجد إنسانا يبحث عن أسرار الروح . . نقول له انك لن تخلق روحا . . ولن تصل إلى أسرارها لأنك لا تستطيع أن تأخذها وتضعها فى المعمل . . وتجرى التجارب عليها . . فهى شيء غير مادى يتصل بالمادة فيعطيها الحركة . . ويخرج منها فتعود مادة هامدة كما كانت . . وأنت لا تعرف مكان الروح فى جسدك . . فى أى جزء هى . . هل هى فى القلب . . أو فى المخ . . أو فى اليدين . . أو فى القدمين . . فالجسد كله يتحرك بالروح . . ولكن هذه الحركة عامة . . بحيث لا يستطيع إنسان أن يحدد بالدقة مكان الروح من الجسد . . بل ان الروح حين تغادر الجسد فإن وزنه لا ينقص . .

إذن النفس هى اتصال الروح بالمادة لتعطيها الحياة . . فإذا اتصلت الروح بالمادة أعطتها القدرة على الحركة والنمو . . وكل ما تحتاجه الحياة البشرية . . وإذا انفصلت عنها عادت المادة إلى طبيعتها الساكنة الهامدة . . والله سبحانه وتعالى احتفظ لنفسه بسر الحياة . . وسر الموت . . فهو خالق الحياة . . وخالق الموت . . وكل محاولة فى هذه المجالات . . إنما هى علم لا ينفع وجهل لا يضر . . ذلك أن عدم معرفتى بأسرار الروح والخلق لا يمنعنى من ممارسة حياتى على الأرض . . وليس معنى ذلك أن البحث فى هذا الموضوع منهى عنه . . بل ليبحث أهل الأرض كما يشاءون . . ولكن الذى نرفضه أن يأتى إنسان بنظرية مبنية على الظن والاستنتاج . . ويحاول أن يجعل منها قضية لطعن الدين . . بينما

هى فى الحقيقة مجرد ظن لا يغنى عن الحق شيئا . . كأن يقول عالم إن الإنسان أصله قرد دون أن يأتى بدليل مادى على ذلك . . فهذا أمر مرفوض لأنه يخالف قول الله تعالى . . بأن الخلق تم لكل نوع بزوجين ذكر وأنثى . . فالبحث العلمى إذا قام على حقائق فإنه مقبول . . وإذا قام على الظن والافتراض . . فإنه مرفوض . . وحقائق الكون كما ذكرها الله فى القرآن الكريم هى حقائق أزلية . . لا يمكن أن تتصادم مع الخلق لأن القائل هو الخالق . .

ونأتى الآن إلى خلق آدم . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين . . أى من عناصر الأرض والتربة التى نعيش عليها . . والبحث العلمى المعملى أثبت أن الأرض تتكون من ١٨ عنصرا . . كلها موجودة فى جسد الإنسان . . ثم نفخ الله سبحانه وتعالى فيه من روحه . . والروح من أمر الله . . لم يصل إليها العلم . . ولن يصل . . فتم خلق آدم . . وخلق حواء من آدم . . ثم عرض الله سبحانه وتعالى آدم على الملائكة . . وقال لهم إنه خلق خليقة فى الأرض . . وهنا قالت الملائكة . . اتخلق من يفسد فيها . . ويسفك الدماء . . ونحن نسبح بحمدك . . قول الملائكة هذا قد يوحى بأنه كان هناك خلق آخر قبل خلق الإنسان . . عوالم أخرى كالجن مثلا . . وأن هؤلاء أفسدوا فى الأرض . . وسفكوا فيها الدماء . . وكانت تجربة شهدها الملائكة . . فحكموا بها . . ومن هنا فإن حكمهم كان على شئ قد مضى . . وحدث . . وهم يطبقون التجربة بالقياس . . حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى . . علم آدم الأسماء كلها . . أى أنه علمه أسماء الأشياء التى سيقابلها فى حياته على الأرض . . وسواء كان ذلك هو العلم البشرى كله . . اختزن فى عقل آدم ليخرج بعد ذلك إلى ذريته جزءا جزءا . . أو سواء كان ذلك العلم الأولى الذى استخدمه آدم حين نزل إلى الأرض . . فالثابت أن علم آدم جاء من الله سبحانه وتعالى . . وأن الله هو الذى علم الإنسان . .

● العقل يرث الحضارات

وهنا لنا وقفة قصيرة .. أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل العقل البشرى منفردا بأن يرث الحضارات .. أى أن الإنسان هو الكائن الذى يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى أبواه وأجداده .. فأنت تستطيع أن تعلم ابنك ما وصلت إليه من قمة العلم .. وهو يزيد عليه .. ويعلم ابنه ما وصل إليه من قمة العلم .. وابنه يزيد عليه وينقل إلى أبنائه ما أخذه عن أبيه .. وما زاد عليه .. وهكذا تنتقل الحضارة الإنسانية من جيل إلى جيل مستوعبة الماضى .. مضيفة إليه من الحاضر لتصل إلى المستقبل .. هذه خاصية للعقل البشرى وحده .. أعطاها الله سبحانه وتعالى له .. وهى خاصية لا توجد فى الحيوانات مثلا .. فأنت تدرب القرد أو الفيل .. أو أى حيوان آخر .. على أن يقوم بأعمال معينة تحتاج إلى شىء من التدريب .. وهو ينجح فى القيام بها .. ولكنه لا يستطيع أن ينقل ذلك إلى أخوته وأولاده .. بل لا يستطيع أن ينقله إلى أحد من بنى جنسه .. فالقرد الذى يتعلم شيئا مثلا .. لا يستطيع أن يعلمه لأولاده .. ليزيدوا عليه ثم يعلموه لأولادهم .. وهكذا .. كما يحدث فى البشر .. ذلك أن وراثة الحضارة خاصية يتمتع بها العقل البشرى وحده .. وهذه الخاصية قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى ليستطيع أن يتقدم .. وأن يكون معدا عندما يكشف الله له آياته فى الأرض فيستوعبها .. ولولا تلك الوراثة الحضارية لبقى الإنسان الأول على ما هو عليه .. ولما تقدمت الدنيا كلها .. لأنه فى هذه الحالة حتى لو حصل إنسان على العلم فإنه يعجز عن نقله إلى أولاده .. فينشأ الابن على الفطرة .. وحتى إذا استوعب الابن علما لا ينقله إلى أولاده .. وهكذا يبقى الإنسان بدائيا كأول عصور الحياة .. ولكن وراثة الحضارة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى وحده قد جعلته يستطيع أن يحقق هذا التقدم العلمى الهائل .. فإذا قال لك أحدهم مزهوا بما حققه الإنسان من العلم الذى أتاحه الله له فى الأرض .. فقل له لا تزه بنفسك ولا بالبشر جميعا .. بل ارجع الفضل إلى الله .. واسجد له شكرا .. لأنه هو الذى اختص عقلك البشرى دون سائر المخلوقات .. لوراثة الحضارة

والعلم . . ولو كان لك عقل كالقرد مثلا . . لبقيت على حالتك بالنسبة للحياة الأولى . . ولما استطعت أن تتقدم خطوة واحدة فى سبيل الحضارة . . وأن تصل إلى هذا العلم الذى أتاحه لك . . فالفضل أولا فى كل تقدم بشرى هو لله سبحانه وتعالى الذى أعطى العقل البشرى خاصية التقدم بأن جعله يستطيع أن يرث الحضارة . . وإذا أردنا أن نسجد شكرا للنعم التى أتاحها لنا الكشف العلمى . . والتقدم التكنولوجى . . فإننا يجب أن نسجد أولا لله سبحانه وتعالى . . الذى وهبنا العقل . . الذى يمكن أن يحقق هذا . . واختصنا بالقدرة على استيعاب التقدم العلمى . . والذين يحاولون استغلال هذا التقدم العلمى بالتشكيك فى قضية الدين . . نقول لهم ارجعوا إلى الأساس . . أولاً . . من الذى حقق هذا التقدم العلمى . . علم اتاحه الله للعقل البشرى . . وكيف استطاع العقل البشرى أن يستوعب العلم . . استطاع أن يستوعبه بالخاصية التى أعطاها الله له . . وميزه بها . . وهى القدرة على استيعاب الحضارة . . والزيادة فيها . . فاستيعاب علم مضى . . والزيادة عليه بعلم قادم . . ثم استيعاب هذا العلم القادم . . فضل لله على الإنسان وحده . . ولو كان للإنسان عقل كسائر الحيوانات مثلا . . لما استطاع أن يوجد حضارة أو يستوعب علما . . والذى خلق هذا العقل البشرى . . وأعطاه هذه الميزات . . هوالله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع أحد أن يجادل فى هذه الحقيقة . .

بعد أن علم الله آدم الأسماء كلها عرضها على الملائكة . . وقال أنبئونى بأسماء هؤلاء . . حينئذ قالت الملائكة سبحانك . . لا علم لنا إلا ما علمتنا . . الله سبحانه وتعالى هنا يريد أن يعلمنا مبدأ هاما . . إنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يميزه على الجنس الأعلى . . وهو وحده القادر على ذلك . . فالملائكة مخلوقات من نور . . والإنسان مخلوق من طين . . والنور مادة شفافة . . والطين مادة معتمة . . ولكن الله سبحانه وتعالى جاء فميز آدم الذى هو من طين بالعلم . . وجعله يتفوق على الملائكة الذين هم من نور . . وتلك لا يقدر عليها إلا الله

سبحانه وتعالى . . معطيا المثل على أنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يتفوق به على الأعلى . . ليقضى على الغرور فى أى من خلقه . .

واعترفت الملائكة بأن علم آدم الذى أعطاه الله له يفوق علمهم . . حينئذ أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم . . وهنا نقطة هامة يثيرها بعض الناس . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن السجود لغيره . . فكيف يأمر الملائكة بالسجود لآدم . . والسجود منهى عنه لغير الله . . نقول لهم . . انكم لم تفهموا ماذا حدث . . إن الملائكة لم يسجدوا لآدم . . ولكنهم سجدوا طاعة لأمر الله الذى أمرهم أن يسجدوا لآدم . . فالسجود هنا ليس لآدم نفسه . . ولكنه لأمر قاله الله سبحانه وتعالى . . تماما كما يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتجه إلى الكعبة فى صلاتنا . . ونسجد . . نحن لا نتجه إلى الكعبة لذاتها . . ولكن طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى أن نسجد للقبلة فى هذا الاتجاه . . وكل أوامر الدين من السجود والحج والصوم والصلاة . . إنما هى تنفيذ لأوامر الله سبحانه وتعالى . . فنحن نصلى خمس مرات فى اليوم . . تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم ونصوم رمضان تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم . . ونزكى من أموالنا تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالزكاة . . ونحج البيت تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالحج . . كل هذه الأشياء لا نفعلها اختيارا منا بالنسبة للقبلة أو لعدد مرات الصلاة . . أو للصوم . . أو للحج . . ولكنها تنفيذ لأمر الله بأن افعل ولا تفعل . . وهذا السجود والخضوع هو طاعة لله سبحانه وتعالى . .

● أوامر الله . . تكفى

على أننى أختلف مع بعض الذين يحاولون ربط أوامر الله بأنها مظاهر دنيوية . . فيأتى بعض الناس ليقول لك إن الصلاة هى نوع من الرياضة . . وأنا أقول لا . . إنها طاعة لأمر الله . . ولو كانت نوعا من الرياضة للعبنا الرياضة وتركناالصلاة . . وبعض الناس يقول لك إن الصوم هو للاحساس بشعور الإنسان الجائع . . وأنا أقول لا . . إنه طاعة لأمر الله . . ولو أنه احساس

بالجوع لما وجب الصيام على الجائع الذى لا يجد قوتا يكفيه . . ولأصبح الإنسان الجائع معفى من الصوم . . وهكذا كل مناسك الله . . فالحج يقال عنه اجتماع للمسلمين . . وأنا أقول لا . . بل هو تنفيذ لأمر الله . . ولو كان مجرد اجتماع للمسلمين لعقدنا مؤتمرا اسلاميا يجتمع فيه المسلمون . . واستغنينا عن الحج .

إذن كل مناسك الدين فى افعل ولا تفعل . . إنما نقوم بها لأنها أوامر الله . . دون ما فلسفه دنيوية . . فأنا أتجه إلى القبلة لأن الله سبحانه وتعالى أمرنى بذلك . . وأصلى وأصوم وأزكى لأن الله سبحانه وتعالى أمرنى بذلك . . دون أن يكون هناك أى صلة بين ما أفعل أو الرياضة . . أو الشعور بالجوع . . أو ما يقوله بعض الناس عن مظاهر دنيوية . . يحاولون بها تبرير فروض الله . . والله سبحانه وتعالى حين يقول افعل . . فهذا كاف جدا لأن افعل دون أى مبرر آخر . . وحين يقول لا تفعل فهذا كاف جدا ألا أفعل دون أن يكون هناك مبرر آخر . . ذلك أنه مادام الأمر قد صدر من الله فإن مجرد صدوره من رب العالمين هو سبب اتباعى له . . وليس أى سبب آخر . . فتلك هى العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى . . فالله هو الخالق . . وهو الذى قال اعبدنى بأن تفعل كذا وكذا أو كذا والله هو الأحق بأن يخبرنا بطريقة عبادته والتقرب إليه . . وهذه رحمة منه سبحانه وتعالى أن يسر لنا هذا السبيل . . وأظهر لنا ما يجب أن نفعله لعبادته والتقرب إليه . . ونحن حين نأخذ ذلك نأخذه شاكرين لله سبحانه وتعالى أن بينّ لنا الطريق إلى عبادته . . وإلى الحياة الطيبة التى وعد بها عباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة . .

سجد الملائكة . . طاعة لأمر الله أن يسجدوا لآدم . . ولم يسجدوا لآدم . . لأنه هو آدم . . أو هو إنسان . . ولكن سجدوا لأن لله أمرهم أن يفعلوا ذلك . . تماما كما نتبع نحن تعاليم الله فى السجود والعبادة كما بينها الله لنا . . هنا حدثت معصية ابليس . . وابليس كان من الجن . . ومن الجن المقربين . .

ولكن الكبرياء دخلت نفسه .. والغرور ملكه .. فرفض السجود .. وقال « أأسجد لمن خلقت طينا » ..

وهنا يدور جدل كبير .. فأبليس قد عصى الله .. ورفض أن يسجد لآدم فطرد من الجنة ولعن إلى يوم القيامة ووعد بعذاب شديد فى الآخرة .. وآدم قد عصى ربه وأكل من الشجرة .. فتاب الله عليه ولم يطرده من رحمته .. بل أنزله إلى الأرض وأرسل له هدى من عنده ليتبعه .. بعض الناس يقول لماذا غفر الله لادم ولم يغفر لأبليس .. وأنا أقول إن الفرق بين المعصيتين كبير .

وهنا لنا وقفة .. لو لم يكن الله سبحانه وتعالى قد أعلن بوضوح أن أبليس مطرود من رحمته .. رجيم ومبعد .. ربما قلنا إن ابليس مكلف فعصى .. وهو عرضة أن يعود إلى منهج الله فيقبل الله توبته ويغفر له فيصبح معفى عنه .. مغفورا ذنبه .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقطع أى حس بالظن بوسوسة الشيطان .. ولذلك فقد حكم عليه هذا الحكم المطلق الذى لا رجعة فيه .. لماذا ؟ لأن معصية ابليس هى معصية كبيرة .. لا يمكن أن تغتفر .. فأبليس قد رد الأمر على الله سبحانه وتعالى .. وعندما طرده الله من رحمته لم يتب .. ولكنه قال .. بعزتك لأغوينهم أجمعين .. وهنا يجب أن ننظر إلى جلال القسم الذى يدل على ذكاء ابليس .. فانه لم يجد منفذا لأن يمضى فى معصيته فى الأرض .. إلا عزة الله سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى عزيز .. وهو فى عزته ليس محتاجا لأحد من خلقه .. بل أن الخلق هم المحتاجون لله سبحانه وتعالى .. ولكن الله غنى عن العالمين .. ومعنى أنه غنى عن العالمين .. أى غنى عن كل ما خلقه من أنس وجان .. وملائكة .. وأرض .. وسماوات .. وكل خلق له .. فمن هذه النقطة .. نقطة العزة استطاع ابليس أن ينفذ بقسمه .. ليقول لله سبحانه وتعالى بعدم حاجتك إلى هؤلاء جميعا .. وإلى خلقهم وأرزاقهم إلى يوم القيامة .. سأقوم بأغوائهم ..

● الغواية والإنسان

وما هى الغواية ؟ هى ابعاد الناس عن طريق الله .. وتزيين الباطل لهم .. فالمنهج فى افعل ولا تفعل .. انما يريد الخير للإنسان .. ولكن مفهوم الخير يختلف عند البشر .. فهناك خير عاجل .. وخير آجل .. ولنقرب هذه النقطة إلى الأذهان .. هب أن هناك طالبين .. أحدهما يقوم للمذاكرة .. والدرس .. والتحصيل .. والآخر يقضى نهاره فى اللعب .. ولا يذهب إلى المدرسة .. كلاهما يريد الخير لنفسه .. ولكن النظرة إلى الخير هى التى تختلف .. فالأول يرى الخير فى المذاكرة والتحصيل .. ليحصل على مستقبل أفضل .. فهو يريد الخير الآجل .. والثانى يريد أن يمتعها فى كل يوم تعيشه .. ثم بعد ذلك يجد نفسه متشردا .. أو سارقا .. ليحصل على رزقه .. هذا هو الفرق بين الاثنين .. والفرق فى النظرة إلى الخير .. والمؤمن ينظر إلى الخير على أساس الدنيا والآخرة .. فهو يريد أن يحقق خيرا فى الاثنين معا .. ومن هنا فإن أى شىء يأتيه فى الدنيا يمنع عنه خير الآخرة .. فهو مرفوض .. بينما الكافر يريد الخير العاجل .. ومن هنا فهو يفعل أى شىء .. ليحصل على خير الدنيا دون أن يعمل حسابا للآخرة .. فإذا استطاع أن يحصل على المال من أى طريق حرام .. أو على المتعة من غير حلال .. أسرع إليها .. ثم يأتى الموت فيجد كل منهما ما قدمه .. الأول قدم الخير للآخرة .. فيجد خيرا .. والثانى لم يقدم شيئا للآخرة فيجد الجزاء ..

إذن .. فمنهج ابليس أن يمنعك أن تفعل شيئا لآخرتك .. ومن هنا فهو يزين لك الحياة الدنيا .. بما فيها من متع مادية ويحاول أن ينسيك الآخرة بما فيها من نعيم دائم .. وهذه الغاية تتم بقسم ابليس بعزتك .. وهو يدخل من باب استغناء الله عن كل خلقه .. فلو أراد الله سبحانه وتعالى خلقه جميعا مهديين إلى الصراط المستقيم .. لما استطاع أن يتقدم منهم .. ولما استطاع أن يغويهم .. ولذلك استثنى وقال : إلا عبادك منهم المخلصين .. أى ياربى سأغوى خلقك .. إلا الذى تريده أنت وتخصه بالهداية .. فإننى لا أستطيع أن يبقى لى

سلطان عليه .. لأن كلمة الله هى العليا .. ولا أحد يستطيع أن يقف أمام سلطان الله ..

ثم قال ابليس أنا لن أقعد لهم على طريق الشر .. لأن طريق الشر غير محتاج إلىّ .. أنا لا أذهب إلى الخمارة .. أو إلى بيت الدعارة .. أو إلى أماكن القمار .. وإنما سيكون عملى فى مهابط الطاعة .. فى أماكن العبادة .. هؤلاء هم الذين أغويهم أنا .. لأن هذا عملى ، أن أخرج هؤلاء عن طاعتك .. فكل إنسان اتبع الشر .. فهو قد اتبع طريقى دون حاجة إلى غواية .. ولكن كل إنسان يريد أن يعبد الله .. فمهمتى أن أغويه وأبعده عن هذه العبادة .. لذلك قال .. « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » .. ولم يقل .. لأقعدن لهم على الطريق المعوج ..

وهكذا تتضح ضخامة معصية ابليس .. فهو قد تحدى الله بالمعصية .. ورد الأمر عليه قائلا .. أنا لا أسجد لمن خلقت طينا .. أى أن ابليس اعتبر نفسه أكبر من أن يخضع لأمر من الله سبحانه وتعالى .. ووضع نفسه فى موضع مساو للآمر .. يرد عليه أمره .. فيقول له اسجد .. ويقول لن أسجد .. ثم لم يقل له لن أسجد .. وكفى .. بل قال له لن أسجد لمن خلقت طينا .. أى أنه وضع علمه فى وضع مساو لعلم الله .. وقال هذا خلقته من طين ولن أسجد له لأننى أعلم أننى خير منه .. وإن كنت قد أمرتنى بالسجود .. فلن أسجد لأن لى علما مساويا لعلمك .. وأنت خلقت هذا من طين .. وخلقتنى من نار .. وأنا أفضل منه .

كانت هذه هى المعصية الكبرى التى لا يمكن أن تغتفر .. ثم بعد ذلك كان هناك طريق التوبة .. ولكن ابليس بدل أن يسلك طريق التوبة .. أمعن فى مكابرته .. فقال .. « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** » .. اننى لن أتركهم يعبدونك ياربى .. ولكنى سأحيط بكل مطيع لك .. مؤمن بك .. لأفسد عليه إيمانه ..

وأزين له طريق السوء .. والبعد عن منهج الله سبحانه وتعالى .. إلا الذين اخترت .. فهؤلاء لا أستطيع أن أقربهم لأنك تحميهم وتدافع عنهم .. وأنا مخلوق .. وأنت الخالق .. وهكذا حتى فى المضى فى المعصية أحس ابليس أنه لا يستطيع أن يقترب من عباد الله المخلصين الذين هداهم إليه ..

● اصرار على المعصية

ثم ننظر إلى الامعان فى المعصية .. ويمضى ابليس فى امعانه فيقول .. « **ثم لآتينهم من بين أيديهم .. ومن خلفهم .. وعن ايمانهم .. وعن شمائلهم** » .. إذن ابليس قال لآتينهم من أمامهم .. ومن خلفهم .. وعن اليمين .. وعن الشمال .. ولكنه لم يقل لآتينهم من فوق .. أو من تحت أرجلهم .. لم يذكر شيئا عن الجهتين الباقيتين .. رغم أنهما من الجهات الست المعروفة .. ذلك لأنه يعلم جيدا أن ما فوق الإنسان يمثل الفوقية الالهية .. ومكان سجود الإنسان موضع قدميه يمثل مكان العبودية .. ولا يتأتى للشيطان أبدا أن يعيش فى مستوى علو إلهى فوقى .. ولا فى مستوى تحتى يمثل مكان السجود والعبودية .. إذن انتهت الجهات الست .. ولم يستطع ابليس أن يدعى أنه سيأتى من مكان فوقى .. أو من مكان تحتى هو مكان السجود والعبادة .. والعجيب أنك إذا نظرت إلى نظريات الالحاد فى كل عصر .. تجدها من هذه الجهات الأربع .. يقول لك هذا تقدمى .. أو رجعى .. أى خلفى يريد العودة إلى الوراء .. أو يمينى .. أو يسارى .. تلك هى نظريات الالحاد الأربع التى يأتى منها ابليس .. ولكننا لسنا فى واحدة من هؤلاء .. لسنا تقدميين .. ندعو إلى التحلل والالحاد .. والاباحية .. ولسنا رجعيين نسير على ما وجدنا عليه آباءنا .. ولسنا يمينيين على عرف العصر .. ولا نحن يساريون على عرف العصر .. وانما نحن أمة محمدية فوقية .. كل أمورنا تأتى من السماء .. ولذلك فإنك إذا خضعت إلى حكم الله سبحانه وتعالى .. فاعلم انك غير خاضع لمساويك .. ولا أنت ذليل لخلق مثلك .. بل أنت خاضع للذى هو أعلى منك .. والذى

تخضع له كل المخلوقات طوعا فى الحياة الدنيا . . وكرها فى الآخرة . . وأنت فى ذلك مساو لأعلى خلق الله فى الأرض . . فهو خاضع لله . . وأنت خاضع لله . . وهو مطلوب منه أن يطبق منهج الله . . وأنت مطلوب منك أن تطبق منهج الله . . إذن لا ذلة هنا أبدا . . بل أنت مساو لأكبر خلق الله فى الدنيا . . وربما أنت أفضل منه فى الطاعة . . فإذا قال لك أحدهم إن العبودية ذل . . تقول له أبدا . . بل الذل هو فى اتباع غير منهج الله . . فإذا أنت اتبعت غير منهج الله تصبح ذليلا لبشر مثلك . . مهانا فى حياتك . . مقضيا عليك بالذلة . . ولكن إذا خضعت لله وحده فأنت وكل خلق الله فى منزلة متساوية . . ترفع رأسك أمام الجميع لأن أى إنسان مهما علا . . فهو خاضع لمنهج الله . . إما طوعا فى الحياة الدنيا . . وإما قهرا فى الآخرة . .

● **أمية الرسول**

. . ولعل هذا هو الذى جعل الله سبحانه وتعالى يختار رسولا أميا ليحمله بآخر رسالة من السماء إلى الأرض . . وما هو معنى أمى . . معناه أنه كما ولدته أمه . . لم يأخذ ثقافة من خلق من خلق الله مساو له . . لا تثقف على الشرق ولا على الغرب . . ولا قرأ لفيلسوف ولا لصاحب نظرية . . إذا كان الإنسان فى هذه الحالة لم يقرأ لمساو له . . ولم يأخذ من ثقافات الدنيا شيئا . . يكون كل ما يأتى به معجزا ومعجبا . . لأنه من فوق . . من الله سبحانه وتعالى . . إذن فالأمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم شرف وشهادة . . فهى شرف له . . لأن الذى نزل به القرآن من اعجاز . . قد هز الدنيا كلها . . وشهادة لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه جاء بهذا الكلام من فلاسفة الشرق . . أو فلاسفة الغرب . . بل هذا الكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى . . والقرآن الكريم الذى فيه اعجاز متجدد . . وعطاء مستمر للبشرية كلها حتى يوم القيامة . . إذا جاء على يد رسول أمى فهو شهادة له بأنه منهج السماء . . وما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسرى على البشر من بعده . . فتلك معجزة تختص

بالقرآن الذى نزل على رسول الله . . أما نحن فقد طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نتعلم ونقرأ . . ونتدبر فى آيات الله فى الأرض . . لماذا ؟ لأن أحدا منا لن ينزل عليه قرآن أو كتاب من السماء . . فقد انتهت الرسالات بنزول القرآن الكريم . وخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . . ولذلك لا يكلّفنا الله سبحانه وتعالى بما اختص به رسول الله . . بل يطالبنا بأن نقرأ ونتعلم . .

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل إلى ارتفاعات حضارية . . وكانت له نظريات عقلية واصلاحات حدث بها الناس . . ليقودوا حركة حياتهم لكان الكافرون قد قالوا إن القرآن الكريم علم بشرى . . ولكن الأمية هنا تأكيد لصلة رسول الله بالسماء وأنه ليس للأرض أى دخل فى هذا المنهج . . وأن هذا المنهج ليس من معطيات عقول البشر . . بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعلويته واتصاله بالسماء إلى المنهج الذى يعلم البشر جميعا . أما القرآن فيعلم البشرية كلها . . ومن هنا فإن كل ما أوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو من الله .

مادام الشيطان قد قال لأغوينهم . . فإن ذلك يعنى اصرارا على المعصية . . وهنا فرق بين معصية ومعصية . . وفرق بين الاصرار على المعصية والندم عليها والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك . .

● المعصية تختلف

إذن فمعصيتا آدم وابليس الاثنتان من خلق الله . . وكلاهما عصى . . ولكن المعصية تختلف . . فمعصية آدم غفرت له . . ومعصية ابليس لم تغفر . . ذلك لأن ابليس رد الأمر على الآمر . . ودخل فى نفسه الكبر فى أمر من أمور الله . . ووضع نفسه ظلما فى وضع مساو لعلم الله سبحانه وتعالى . . فاستحق بذلك أن يطرد من الجنة . . وأن تنزل عليه اللعنة . . ولكن آدم اعترف بمعصيته . . وقال ياربى ان كنت قد عصيت فإنك أنت الحق . . وقولك الحق . . ولكن نفسى ضعفت ولم تستطع الاحتمال . . وهذا هو الفرق بين المعصيتين . . فالأولى دخل

فيها الكبر . والثانية دخل فيها الندم . . وكلتاهما آية . . آية ليفهم الناس المعصية التى تغفر . . والمعصية التى لا يغفرها الله . . فإذا عصى الإنسان . . واستكبر وأصر على ما فعل . . ووضع نفسه فى وضع مساو لعلم الله . . فأخذ يشرع ويحل ما حرم الله . . ويحرم ما أحله . . واتخذ نفسه إلها . . فهو بذلك لا يدخل فى رحمة الله . . أما إذا ندم على ما فعل . . واعترف بأنه ضعف . . وبأن الله سبحانه وتعالى هو الحق . . وقوله الحق . . فقد دخل فى الرحمة والغفران . .

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم . . عرفه بعدوه وهو الشيطان . . ودربه على حياته القادمة فى الأرض . . فقال له إن هذا الشيطان عدو لك . . فلا يغوينك . . لماذا ؟ . . لأن اغواءه لك لا يحمل الحياة الطيبة . . فأنت إذا اتبعته أصبحت شقيا . . سارقا . . أو قاتلا . . معتديا على أعراض الناس . . مذموما من الجميع فى الدنيا والآخرة . .

ورغم ذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذى خلق النفس البشرية عالم يضعفها . . ولذلك فهو يقول « وخلق الإنسان ضعيفا » . . والضعف هنا عدم القدرة على اتباع منهج الله . . رغم أن فيه الحياة الطيبة . . ذلك أن الإنسان عجول . . يريد كل شىء . . ويريده فى وقت قصير جدا . . ولو أنه صبر لنال ما يريد . . ولو أنه اتبع منهج الله لأوتى أضعاف أضعاف ما سيحصل عليه من المعصية . . ولكنه يريد كل شىء فى لحظة . . وهو يريد خلودا فى الأرض . . وما هو بخالد . . ويريد مالا لا يفنى . . والمال صفته الفناء . . إما يفارقك هو . . أو تفارقه أنت . . وكلاهما فناء له لأنك أصبحت عاجزا عن أن تصل إليه . . ومن هذه النقطة استطاع الشيطان أن يغرى آدم فى الجنة . . ويجعله يأكل من الشجرة التى حرمها الله . . والشجرة هنا رمز لكل معصية . . والخلود والمال الذى لا يفنى رمز لكل طمع بشرى . . ولقد كانت التجربة ليحدث شيئان . . أولهما أن يعلم الإنسان أن ما يعده الشيطان غير صحيح . . بل أحيانا يأتى بعكس ما هو مطلوب منه . . فالإنسان قد يزين له الشيطان قتل إنسان آخر . . ويقنعه بأنه لن يقع فى قبضة العدالة أبدا . . فإذا

ارتكب الجريمة كان بعد ساعات فى يد العدالة .. لماذا ؟.. لأن الشيطان يريد المعصية .. ويريد اهلاك العاصى فى نفس الوقت .. ذلك أنه يحس بعداوة رهيبة للإنسان .. فهو يعتقد أن الإنسان كان سبب طرده من الجنة .. وسبب لعنة الله فى الدنيا والآخرة .. كل هذه الأشياء قد خلقت بغضا رهيبا فى الشيطان للإنسان .. ولذلك فهو يغريه ليهلكه .. يزيد له أن يفعل .. فإذا فعل يهرب الشيطان بعد أن أوقعه فى المعصية ويتركه لأسوأ الجزاء فى الدنيا والآخرة .

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن أخبرنا بذلك لنتخذ حذرنا .. ونتقى وسوسة الشيطان .. وأعطانا التجربة المادية لآدم .. لنعلم أن وسوسة الشيطان وهم من الغرور .. وتزيين للباطل .. وأن الإنسان لن يحصل على شيء من هذا كله .. ولذلك فإن معصية الشيطان تختلف عن النفس الأمارة بالسوء .. فالنفس الأمارة بالسوء إذا أرادت معصية .. أصرت عليها وألحت حتى يقوم صاحبها بارتكابها .. وهى هى نفس المعصية .. لا تتغير ولا تتبدل . ولكن اغواء الشيطان مختلف عن ذلك .. ذلك أنه يريد المعصية لمجرد المعصية .. فإذا وجد إنسانا قويا فى ناحية من النواحى .. اتجه إلى ناحية ثانية .. لأنه لا يريد هذا اللون من المعصية فقط .. ولكنه يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من الأشكال .. فإذا عز عليه باب .. يطرق بابا آخر .. وهكذا يظل يحاور النفس المؤمنة .. يزين لها هذا فلا تأخذه .. فيزين لها ذلك .. ويأتى عن طريق فيجده مغلقا .. فيأتى عن طريق آخر .. وهكذا يظل يحوم حول النفس المؤمنة اغراء من كل ناحية .. حتى تسقط النفس فى معصية من المعاصى .. ولقد كانت رحمة الله بالمؤمن .. ان دله على طرق الشيطان من كل ناحية من النواحى .. ودله على الطريقة التى يقى نفسه بها ..

● **الإنسان .. وعدوه**

وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان .. وعرفه عدوه فى الأرض .. وعرفه الطريق الذى يعمل به .. وبين له كيف أن الشيطان لا يقدم إلا غرورا

للنفس .. وأن مهمته أن يخلخل منهج الله .. بصرف النظر عن نوع المعصية .. ودلنا على أنه بقراءة القرآن نبعد الشيطان عن أنفسنا .. ولكن بعض الناس يقول أنه يقرأ القرآن .. ومع ذلك فإنه لا يحس بالوقاية من وسوسة الشيطان . نقول له إن هناك شيئا اسمه الفاعل .. وشيئا اسمه القابل .. وكلنا يستمع إلى القرآن .. ولكن درجة التقبل ليست عندنا واحدة .. بل كل بدرجة إيمانه .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

سورة محمد آية ١٦

أى أنهم يسألون عن القرآن لأنه لم يؤثر فيهم .. القرآن فاعل صحيح .. وإنما المستقبل غير موجود .. وحتى نوضح هذه المسألة فى الأمور المادية نقول لك إذا أتيت بثلاثة أشخاص .. كل واحد منهم مختلف فى درجات البصر .. فالأول بصره حاد .. والثانى متوسط .. والثالث ضعيف .. ووضعتهم فى مكان خلوى وسألتهم ماذا يرون عند حافة بصرهم .. فسيروى لك كل واحد منهم شيئا مختلفا .. ولكن الوجود أمامهم هو شىء واحد لا اختلاف فيه .. والمسألة أن كل واحد منهم قد رأى بقدر قوة بصره .. بل إن الشىء الواحد قد يؤثر تأثيرا مضادا .. إذا كان المستقبل مختلفا فأنت إذا نفخت فى يدك فى البرد .. تريد أن ترفع درجة حرارتها لتسخنها .. وإذا نفخت فى الشاى فأنت تريده أن يبرد .. الفعل واحد .. هو اخراج الهواء من الفم .. ولكن المتقبل للفعل مختلف .. ومن هنا كان أثر الفعل عكسيا .. ففى المرة الأولى كان لرفع الحرارة .. وفى المرة الثانية كان لخفضها .. مع أن الحادث واحد .

كذلك القلوب .. بعضها متفتح للايمان يجهد نفسه فى طاعة الله . ويحمل نفسه على المنهج .. والثانى باع كل شىء فى سبيل شهواته .. وفى ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

سورة فصلت آية ٤٤

وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن الفعل قد يكون واحدا .. والاستقبال له مختلفا .. فيجب لكى تستقبل القرآن أن تصفو أداة الاستقبال للقرآن .. وتتقى كل خاطر يبعدك عن المنهج .. وتبتعد عن كل اغراء يوقعك فى الخطيئة ..

وأنت تواجه الشيطان .. فإنك خلق لله .. وهو خلق لله .. ومادمت تواجهه مواجهة منفردة .. فإن المعركة هنا تعتمد على قوتك وقوته .. ولكنك إذا واجهته وأنت ملتحم بالله .. فلا يستطيع أن يقدر عليك .. ولنوضح هذه النقطة قليلا .. نقول لو أن طفلا صغيرا .. مشى فى الشارع وحده .. وقابله طفلان صغيران .. المفروض هنا أن تقع معركة يستخدم كل منهم قوته .. ولكن هب أن الطفل نزل مع أبيه .. وأبوه هذا شاب قوى .. هل يستطيع الطفلان الآخران أن يتعرضا له .. أبدا .. إنهما يهربان من وجهه لماذا ؟ .. لأن المعركة لم تعد صراعا بين قوة صبى .. وقوة صبى آخر .. بل دخل فيها من هو أقوى من الصغيرين بمراحل .. وهكذا أنت فى معركتك مع الحياة .. فى كل شيء تعمله . إذا دخلت وأنت موصول بربك فمحال أن يهزمك أحد .. لأن قوة الله معك .. تجعل الهزيمة محققة لمن يريد أن يؤذيك .. ولكن متى تتعرض للهزيمة والمهانة .. إذا دخلت المعركة بعيدا عن ربك .. فإنك فى هذه الحالة تواجه قوة متساوية .. مع قوة متساوية .. والغلبة لمن هو أقوى .. أنت هنا أبعدت قوة الله عن جانبك .. وهى القوة التى تضمن لك النصر .. والتى

لا يستطيع أن يهزمها أحد . . ولا يصل لقدرتها أحد . . وأنت بذلك تتخلى عن أقوى سلاح فى حياتك . . وأقدر من ينصرك فى كل أزمة . . تتخلى عن القوة الحقيقية فى الكون . . عن الفعال لما يريد . . وتدخل مغترا بقوتك وقدرتك وحدك . . ثم تتعجب بعد ذلك كيف هزمت . . ولو انك فكرت ثانية واحدة . . لعرفت السبب . . ولعلمت أنك جردت نفسك من أقوى وأقدر أسلحتها وأنه يجب ألا تتعجب وتسأل نفسك لماذا هزمت . . لأن السبب معروف . .

● **لا سلطان علينا**

وأنت حين تستقبل القرآن بصفاء . . وتستعيذ بالله من الشيطان . . يصبح الشيطان لا سلطان له عليك . . ذلك أن المؤمنين لا سلطان للشر عليهم . . ولذلك فإن الشيطان يأتى فى الآخرة ليقول « **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** » . . ومع ذلك فإن أولى خطوات الشر تبدأ من النفس البشرية . . فالشيطان لا يستطيع أن يجبر أحدا ويقهره على الشر . . ولا يستطيع أن يستخدم سلطان القهر لمن لا يريد أن يفعل . . ولكنه أولا يجب أن يجد استمالة وقبولا من النفس البشرية . . يجب أن يكون هناك اقناع بالشر . . والاقناع هنا لا يكون بالحقيقة . . ولكن بالغرور . . ولا يدخل إلى نفس متواضعة . . وانما يدخل على نفس يملؤها الكبر . . ويصور لها فكرها . . انها تستطيع أن تصنع قدرها . . وأن تغتنم الفرصة . . وأن تصل بالدس والغش والخداع والشر . . إلى ما تشتهيه . . هذه النفس هى التى فيها الاستجابة . . الاستجابة للشر . . والتى تبدأ مسيرتها مع الشيطان من هذه النقطة . . وتمضى الأحداث . . وربما تمر السنوات . . ثم يعرف الإنسان أن كل ما فعله لم يحقق له شيئا . . بل أتى له بعكس ما يريد . . فيصبح مكروها من الناس . . مذموما . . ليله قلق . . ولا يرى فيه النوم . . والنهار شقاء لا يرى فيه الراحة . . وكل ما حوله من نعيم لا يحمل قطرة واحدة من سعادة . .

فإذا أردت أن تتخذ الطريق الذى رسمه الله للحياة الطيبة فى الأرض .. فأول شىء يجب أن تعلمه أنك غير مقهور على الشر .. ولا على معصية الله .. بل إنك تفعل ذلك بمحض ارادتك .. وباستجاباتك لهذه الأشياء .. علك تحقق منها نفعا عاجلا .. أما إذا لم تستجب .. فإنك تظل معصوما منها .. ولذلك لا تصدق من يقول لك إنك مقهور على الشر .. بلَ اعلم أن العيب فى نفسك .. ولا تصدق من يقول لك مثلا إنه لو لم تعرض عليه رشوة .. أو لم ييسر له اختلاس .. لظل نزيها .. فالأصل هو فى النفس .. وفى استجابتها أولا .. ولولا أن التمنى كان فى نفسه .. والرغبة ملكت قلبه .. ما مد يده إلى حرام .. وما مشى فى طريق الشر ..

ويجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان يريدنا بلا معارض وبلا موسوس .. فهو قادر على ذلك .. وإذا كان يريدنا أن نكون مقهورين على الطاعة .. فهو قادر على ذلك .. ولكنه يريدنا أن نأتى إليه باختيارنا .. وأن نعبده اختيارا من أنفسنا .. وليس قهرا منها .. ومن هنا فكان لابد أن يكون هناك الإيمان والمعصية .. هذا له حلاوة .. وهذا له اغراء عاجل ليتم الاختيار عن حقيقة واقعة .. وليكون هذا الاختيار هو الطريق إلى الجنة .. وإلى الحياة الطيبة فى الدنيا .. ولذلك فإن وجود الشيطان واغراءاته وكل ما هو موجود فى الحياة الدنيا .. إنما هو ضرورة لازمة للطاعة .. فلو أنها ليست موجودة .. لكان الإنسان مقهورا على الطاعة .. ليس له طريق غيرها .. ولانتفت بذلك كل الحكمة من الجزاء والعقاب .. ولانتفت حكمة خلق الحياة .. والدنيا والآخرة ..

وجود الاغراء الدنيوى .. أو الشر .. أو وسوسة الشيطان حكمة بالغة للحياة الدنيا .. لأن الاختيار يقتضى وجود بديلين يختار الإنسان بينهما .. ولولا تزيين الشيطان للمعصية ما عرفنا قدر حب الله فى قلوبنا .. حين ترى نفعا عاجلا مزينا له بأسلوب تهواه نفسه .. ثم تعرض عنه وتقول إنى أريد الله ..

فذلك أقوى مراتب الطاعة . . احساس العبد بحبه لربه . . ولأن هذا الإله يجب أن يعبد وأن يترك من أجله كل ما أخبرنا به أن يترك ، هو مقياس الطاعة فى النفس البشرية . .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان . . هب أن أما دعيت إلى حفل كبير فيه من زينة الدنيا ما فيه . . وبعد أن ارتدت أفخر ثيابها فوجئت بطفلها وقد ارتفعت درجة حرارته يشكو من الحمى . . حينئذ فهى تلقى بكل ما ارتدته جانبا . . وتجلس بجوار طفلها تمرضه . . وتستدعى له الطبيب . . مقياسان فى قلب الأم تفاعلا معا . . المقياس الأول حبها . . لأن تذهب إلى هذا الحفل . . والمقياس الثانى حبها لأن تؤدى واجب الأمومة نحو طفلها . . والذى يتغلب هو المقياس الأقوى . . ولكن لو لم يوجد هذا المقياس . . أى لو لم تدع الأم إلى الحفل . . ولم يمرض طفلها فى نفس الوقت . . فهل كنا نستطيع أن نعلم أن هذه الأم بارة بطفلها . . أو أنها ستلقيه إلى أحد الخدم أو أحد الجيران . . وتذهب هى لتستمتع بوقتها . . ما كان يمكن أن نعلم لو لم يوجد المقياسان فى وقت واحد . . كذلك الخير والشر . . والطاعة والمعصية . . ووسوسة الشيطان وحب الله . . كلاهما يجب أن يوجد فى النفس البشرية فى وقت واحد . . لكى نعلم مقدار حب العباد لله . . أو مقدار إعراضهم عن ذلك الحب . .

● الرحمة والتجربة

والله سبحانه وتعالى كان رحيما بنا فى التجربة . . فهو لم يخلقنا ليلقى بنا إليها دون أى تدريب سابق . . بل خلقنا ودربنا وأفهمنا ماذا سيحدث . . فالشيطان عصى الله أمام آدم . . ثم توعد آدم . . والله سبحانه وتعالى نهى آدم عن الأكل من الشجرة . . وقال لآدم انى حرمتها لأنها تهلكك وتضرك . . وجاء الشيطان بمنطق الكذب . . فقال إن هذه الشجرة تمنحك الخلود . . وملكا لا يبلى . . وأن الله سبحانه وتعالى منعك من الأكل منها . . لأنه لا يريد أن تصبح ملكا . . أو خالدا . . كان هناك قول الله الحق . . وكان هناك قول الشيطان الذى لا يحمل

إلا الكذب . . وعدم الصدق . . ومع ذلك ضعف آدم . . ضعف أمام رغباته فى الخلود . . وضعف أمام رغباته فى الامتلاك . . مع أنه كان يعيش فى جنة يأكل فيها بلا تعب ولا اجهاد . . ورغم أنه كان يعيش فى تلك الجنة يذهب فيها إلى المكان الذى يريده . . ويجد رزقه وقتما يريد . . وعندما يشتهى . . أى: لا يحتاج لشىء أكثر مما وفره الله له . . إلا أن الطمع البشرى بلا حدود . . أو مع أن الله سبحانه وتعالى قد وفر لآدم الاستمتاع البشرى . . فقد بقى الطمع فى نفسه . . واستطاع الشيطان أن يدخل إليه من هذه الناحية . .

التجربة كانت فيها معصية من آدم . . لأن الله سبحانه وتعالى كرمه . . ولكن نفس آدم أساءت الظن بالله . . لأن الله سبحانه وتعالى وفر له سبل الحياة بلا عناء ولا تعب . . ولكنه أراد أن يزداد من ذاتيته . . كأن هناك من يملك شيئا . . ولأنه حين حرم الله عليه الشجرة حرمها لأنه يعلم انها ضارة به . . تشقى . . ولكن آدم لم يفطن لهذا . . ولم يفطن أن تحريم الله له بالنسبة لهذه الشجرة . . لابد أن يحمل خيرا له . . لأن الله سبحانه وتعالى حين خلقه من طين . . أمر من هم أعلى منه خلقا . . الملائكة والجان . . وهم مخلوقات من نار . . ومن نور . . أن يسجدوا له . . وفى هذا تكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم . . فيعلم أن ربه الذى كرمه بأن يسجد من هم أعلى منه خلقا لآدم . . لا يمكن أن يريد به السوء . . بل لابد أنه يريد به خيرا . . وإلا فلماذا كرمه . . أنت حين تكرم إنسانا . . وتعمل كل شىء من أجله . . فإن ذلك دليل على حبك له . . ورغبتك فى تحقيق الخير . . ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد بآدم شرا . . لفعل . . ولما أخضع ملائكته بأمر السجود لآدم . . هذا التكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم . . ونلتفت إليه نحن أيضا . . لنعلم أن الله سبحانه وتعالى كرمنا . . وفضلنا على خلقه . . ولا يمكن أن يكون هذا التكريم . . لأن الله يكرهنا . . بل لأن الله يحبنا . . ويريد لنا الخير . . ونقبل على منهج الله من منطق هذه النقطة . . فنعلم يقينا أن ما قال الله سبحانه وتعالى عنه افعل . . فهو

خير لأن الله يريد لنا الخير . . وما قال عنه لا تفعل فهو الشر . . لأن الله لا يريد لنا الشر . .

ثم هناك لفتة أخرى يجب أن تؤكد هذا المعنى . . هى معاداة الشيطان للإنسان . . تلك المعاداة التى جهر بها . . ورفضه أمر الله بالسجود . . كانت هذه يجب أن تلفتنا إلى أن الشيطان عدو لنا . . فإذا وسوس لك أن افعل كذا . . فهو يريد بك شرا . . وإذا وسوس لك ألا تفعل كذا . . فهو يريد أن يمنع عنك الخير . . كانت هذه هى التجربة التى مر بها آدم فى الجنة . . ومع ذلك ضعفت نفسه وعصى . . وأكل من الشجرة . . وهنا ظهرت الحقيقة . . فلو أن آدم لم يأكل من الشجر لظللنا حتى يومنا هذا نقول . . لو أنه أكل منها لأصبح خالدا . . وأصبحت ذريته من الخالدين . . وأصبح عنده مال لا يفنى . . وربما كان الشيطان مصدقا عندنا . . ولكن كون آدم أكل . . فظهر أن كل ما قاله الشيطان من اغواء . . هو كذب . . يريد به أن يطرد آدم من الجنة . . فلا هو أصبح من الخالدين بعد أن أكل . . ولا هو أصبح صاحب مال لا يفنى . . ولكن ظهرت عورته أمام كل الخلق . . وأسرع إلى الشجرة يقطع من أوراقها ليدارى هذه العورة . . إذن فالحقيقة أنه عندما اتبع اغواء الشيطان . . لم يحصل على شى إلا الضرر . . والطرد من الجنة . . والشيطان يريد أن يفضح عوراتنا . . ويظهر السيء منها أمام الدنيا كلها . . منذ خلق الله آدم حتى هذه الساعة . . وإلى آخر الخلق . .

● **وامتدت رحمة الله**

وهكذا كانت التجربة والواقع . . قبل أن ينزل آدم إلى الأرض . . الله سبحانه وتعالى أعطاه أمرا . . والشيطان أغواه على معصيته . . وظهر أن أمر الله هو الخير . . وأن وسوسة الشيطان كلها كذب وخداع . . واغراء بلا حقيقة . . وكان الله رحيما أن أعطانا هذه التجربة . . وذكرنا بها فى قرآنه الكريم . . علنا نفيق . . ونعرف الحقيقة . . ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا الخير . .

ولا يريد لنا الشر ولا العذاب أبدا . . وأننا إذا أحببنا الله . . أحبنا ودافع عنا .

وامتدت رحمة الله إلى الإنسان فى الأرض . . ثم علمه كلمات يتوب عليه بها . . ويمحو له الذنوب . . ويغفر الخطايا . . بشرط أن يكون فى النفس البشرية ندم آدم . . ولا يكون فيها استكبار ابليس . . وقال إذا ضعفت نفسك فاستعذ بى من الشيطان . . وأنا أعيذك منه . . وقال قبل أن تقبل على أى عمل . . اقبل عليه بقولك باسم الله . . ذلك أنك لا تبدأ باسم الله إلا إذا كان العمل الذى تعمله خيرا . . فإنك تستحى أن تبدأ معصية باسم الله . . وعلمنا أن نقول بسم الله الرحمن الرحيم . . لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا الرحمة . . وأنت حينما تعمل أى عمل . . وفى بالك الله سبحانه وتعالى . . فانه سيعطيك العطاء فى الدنيا . . والثواب فى الآخرة . . واياك أن تستحى إن كنت عاصيا لله . . أن تستفتح أعمالك باسم الله . . لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد . . ولا يتغير على خلقه . . فأنت إذا عصيته . . لا يتغير ويقول . . أنا سأطرد هذا العبد . . ولن أتقبل منه شيئا . . بل انه بمجرد أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم . . وتقبل على الله . . يقبل الله عليك . . فإذا كنت قد عصيت الله فى شىء . . فتذكر أنه رحمن . . رحيم . . وأنه يقبل على كل عاص . . فى اللحظة التى يتوب فيها ويعود إلى الله . . إن الله سبحانه وتعالى لا يحقد . . ولا ينفعل . . ولا يتغير . . وأنت عبد من عباده عندما ترجع إليه تجده الرحمن الرحيم . .

والله سبحانه وتعالى حين شرع العقوبة لأى معصية . . فمعناه أنه شرع لها الوجود . . وإلا فلماذا يضع الله عقوبة لشىء ليس موجودا . . وكما شرع لها الوجود . . شرع لها التوبة . . باب ليخرج العاصى منه . . فيغفر له . . فإذا كنت قد عصيت الله فلا يجب أن تستحى أن تلوذ برحمة الله . . فالله سبحانه وتعالى رحمن رحيم . . كلمة رحيم مأخوذة من الرحمة . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . أنا أريد بكم الخير حتى ولو عصيتمونى . .

ولذلك كتبت على نفسى الرحمة .. فإذا كنت عاصيا فلا تستحِ أن تلجأ إلى رحمتى وتوبتى ..

وهكذا نرى مدى حب الله سبحانه وتعالى لعباده .. يأتى أولا ليخضع الكون لهم .. ويخضع من هم أعلى منهم .. كالملائكة .. ثم يقول لهم .. اننى أحبكم .. ولذلك كرمتكم .. وما سأقوله لكم هو الخير فاتبعوه .. وما سأنهاكم عنه هو الشر فانبذوه .. ثم تأتى التجربة فى معصية .. فنعرف صدق حب الله سبحانه وتعالى لنا .. ورحمته بنا .. ونعرف أنه قد منع آدم من الأكل من الشجرة .. لأنها شر .. والشيطان أغراه بها لأنها شر أيضا .. ولكن الذى منع وهو الله يريد لنا الخير .. والذى أغرى هو ابليس يريد بنا الشر .. وتحدث التجربة واقعا .. بعد أن كانت نظرية .. ثم ينطلق الإنسان إلى الأرض .. يحمل التجربة والتوبة .. فيأكل من مائة شجرة .. فيقول الله سبحانه وتعالى سأفتح لك باب توبتى مادمت نادما .. ولن آخذ منك رحمتى .. فأنا أرزق عبادى جميعا .. المؤمن والكافر .. والعاصى والمطيع .. وتلك رحمتى بعبادى .. علّ العاصى فى يوم حين يحس بنعمتى ورحمتى يصبح مطيعا عابدا ويعود إلىّ ..

على أن هناك نقطة أحب أن أشرحها فى هذا المجال .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى رحيم .. ومعنى رحيم أن هناك مبالغة فى الرحمة .. وبعض الناس يعتقد أن صفات الله سبحانه وتعالى تتأرجح بين القوة والضعف .. فمرة يكون راحما .. ومرة يكون رحمانا .. ومرة يكون رحيما .. نقول له إن هذا خطأ كبير .. فصيغ المبالغة تأتى فى صفات البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده أن الصفة تضعف .. أو الصفة تقوى .. بل هى ثابتة بلا تغيير .. ولكن المتغير هو متعلقات هذه الصفة ..

ولنشرح هذه النقطة قليلا .. هب أن إنسانا يأكل كمية كبيرة من الطعام .. فأنت تقول عنه أكول .. وهب أنه يأكل كمية صغيرة .. ولكن خمس أو ست

مرات فى اليوم .. فأنت تقول عنه أيضا أكول .. ولو أنه لا يأكل فى كل مرة كمية كبيرة من الطعام .. ولكنه يأكل خمس أو ست مرات فى اليوم .. إذن المبالغة تأتى فى الحدث .. وفى تكرار الحدث .. وإذا أردت أن تفهم التغيير فى متعلقات صفات الله .. فأنت تقول رحمن .. لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا .. ويجعل الأشياء تنفعل لهم .. إذن عدد الداخلين فى رحمة عطاء الله بالنسبة للدنيا .. هم كل خلقه .. ليعطيهم جميعا عطاء ربوبية .. إذن فهو رحمن .. ولكنه فى الآخرة مثلا رحيم .. لأنه يطرد الكافرين من رحمته .. ويبقيها للمؤمنين وحدهم .. إذن الصفة لم تتغير .. ولكن الذى تغير هو من تشملهم هذه الصفة .. ففى الدنيا كل عبد يأخذ من رحمة الله .. عدد هائل .. فهو رحمن .. وفى الآخرة يقل هذا العدد .. وتصبح متعلقات الصفة .. أو من تشملهم الصفة أقل عددا ممن كانت تشملهم فى الدنيا .. فيصبح رحيما .. ومن هنا فإن صفات الله ثابتة .. ولكن من تتناولهم هذه الصفات هم المتغيرون حسب أحوال خلق الله .. وقولك **« وما ربك بظلام للعبيد »** .. معناها أنك نفيت عن الله صفة المبالغة فى الظلم .. ولكنك لم تنف عنه الظلم لأنه قد يكون ظلوما وليس ظلاما .. نقول له إنك لم تفهم الآية .. فتكرار الصفة يوجب نفى المبالغة .. فعدد خلق الله لا حصر لهم .. لو أن الله ظلم كلا منهم ذرة .. لأصبح ظلاما لكثرة عدد الذين ظلمهم .. ولو أن كلا منهم لم ينله إلا ذرة من الظلم .. لذلك نفى الله عن نفسه حتى هذه الذرة .. فقال إنه ليس بظلام .. أى حتى ذرة الظلم فى هذا العدد الهائل لا تصدر عن الله سبحانه وتعالى ..

● الله .. والعاصى

إذن بداية العمل ببسم الله .. تعطينا العطاء والثواب فى الدنيا والآخرة .. وتحفظنا من أشياء كثيرة ..

.. ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى العاصى فلا يأخذه مرة واحدة .. وإنما يأخذه بعذاب محدود صغير .. فيشكو الى الله سبحانه وتعالى .. ويرفع يديه إلى

السماء . . ويصيح يارب . . فينجيه الله . . وبمجرد أن يحس الإنسان ببعد الخطر . . يعود مرة أخرى إلى الذنب . . بل ربما عاد إلى ما هو أكبر منه . . ناسيا أو متناسيا . . أنه كان يمر بضر . . أو بشدة . . أو بضيق . . وانه رفع يديه إلى السماء وقال يارب . . وكان عدلا ألا تنفتح أبواب السماء لعاص . . وألا ينفذ منها الدعاء الذى قيل بلسان لا يذكر الله . . كان ذلك عدلا . . ولكن رحمة الله سبقت . . فانفتحت أبواب السماء . . واستجيب للدعاء . . وكشف الله الضر . . وبمجرد أن أحس الإنسان أنه قد نجا . . عاد إلى كفره . . فيعود الله سبحانه وتعالى ليذكره به . . ويقول له أفق انك تهلك نفسه . . من تبارز . . وأنت لا قدرة لك . . وأنا وحدى القادر . . ولكن الغرور يركب الإنسان . . فيمهله الله . . ثم يذكره بقدرته عليه . . فيفتح عليه بابا صغيرا من الشدة . . أو الغضب . . فيجأر للسماء . . ويرفع يديه ويصيح يارب . . ويكون عدلا من الله سبحانه وتعالى ألا يتقبل . . ويكون عدلا ألا تفتح أبواب السماء . . ولكن رحمة الله تتدخل . . وترفع الشدة . . وتزيل الكرب . . فإذا أحس الإنسان أنه نجا . . عاد إلى كفره . . إلى أن يفتح الله عليه بابا من الشدة . . أو العذاب لا يغلق أبدا . . لأنه صمم على الكفر . . رغم أن الله أراه رحمته مرات ومرات . . وأزال عنه الكرب المرة تلو المرة . .

وإذا عدنا إلى قصة موسى عليه السلام نجد أن الله سبحانه وتعالى أخذ فرعون بالقول اللين أولا . . فقال الله لموسى وهارون :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

سورة طه الآيتان ٤٣ ، ٤٤

فرعون طغى . . واتخذ نفسه الها فى الأرض يعبد من دون الله . . والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا . . ليهديه إلى صراطه المستقيم . . ويذكره

بالله . . لم يقل لهذا الرسول اذهب . . واقطع رقبة فرعون . . وخذ ملكه . . وأنا سأمكنك من ذلك . . ولم يقل له سأخسف بفرعون وآله الأرض . . وأعطيها لك . . ولكننا نجد هنا أدب الرحمة فى أن الله سبحانه وتعالى يقول . . اذهب لهذا الطاغية الذى نصب نفسه إلها يعبد من دونى . . وقل له قولا لينا . . برفق . . دون أن تهينه . . أو تنهره أمام قومه . . علّ قولك هذا يوقظ فى نفسه الشعور بالذنب . . والإيمان بى فيتذكر ويخشانى . .

لنر كيف يحب الله سبحانه وتعالى عبده حتى العاصى . . ويأخذه باللين والرفق والهوادة . . وهو القادر على أن يبطش به بطشا . . هل هناك رحمة أكثر من هذا . . إن أرحم الرحماء لا يمكن أن تفيض منه هذه الرحمة . . على عاص له . . إلا الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله يأمرنا أن نستر على العاصى . . ولا نفضحه . . فإذا وجدنا إنسانا يرتكب معصية . . وشاء قدره أن نعلم بها . . فمن حسن الإيمان أن نسترها عليه . . ولا نفضحه . . لماذا ؟ لأن ستر المعصية قد يفتح أمامه طريق التوبة والندم والرجوع إلى الله . . بينما نشر هذه المعصية واذاعتها قد يجعله يضل عن الطريق . . ويتمادى فيها . . فهو إذا رأى انه عصى الله . . وأن الله ستره . . فربما يفيق إلى نفسه . . ويعود إلى التوبة مرة أخرى . . هذه هى رحمة الله بعباده . . حتى العاصى منهم . . والله لا يريد أن يعذب أحدا . . ماذا يفعل الله بعذابنا . . ولكن الإنسان هو الذى يصر بالمعصية على أن يدخل النار . . ويستكبر على الأرض . ؟ وكلما أعطاه الله من نعم . . زادته طغيانا وكفرا . . وجعلته بدلا من أن يسجد لله شكرا . . ينطلق ليحاربه بنعمه . . ذلك كفر الإنسان . . وتلك رحمة الله .

● فرعون يتكرر

. . نعود بعد ذلك إلى قصة فرعون وموسى . . قال موسى القول اللين لفرعون . . فلم يرتدع . . وزاده القول اللين طغيانا . . وحاول أن يبارز موسى

بالسحرة . . فأبطل الله خداع السحر . . وكان السحرة أول المؤمنين . . وكانت هذه معجزة كافية لأن يؤمن فرعون بعد أن سجد السحرة لرب موسى . . كان فرعون يجب أن يؤمن بأن موسى ليس ساحرا . . ولكنه رسول . . وبدلا من ذلك زادته هذه الآية طغيانا . . فإذا به يأمر بقتل السحرة . . وكلما جاء موسى بآية . . أنكرها . . ثم أمر بتذبيح أولاد قوم موسى . . واستحياء نسائهم . . وبدأ الله سبحانه وتعالى بعد كل الآيات التى أيد بها موسى . . بدأ الله يذكر فرعون بقدرته مباشرة . . بدون رسول . . فسلط على قوم فرعون الدم . . والضفادع . . والقمل . . وفى كل مرة تحدث فيها آية من هذه الآيات التى تحمل العذاب الأصغر . . بدلا من أن يؤمن فرعون . . ويتذكر قدرة الله . . ويتوب إليه . . ويعرف أن الله فعال لما يريد . . يأتى إلى موسى . . ويقول له ادع لنا ربك يزيل عنا هذا ونحن نؤمن . . فيدعو موسى ربه . . فيزيل العذاب . . فيزداد فرعون كفرا . . فتأتى آية أخرى . . تذكر بالأولى وبقدرة الله . . وبأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض . . أى أنه يملك القوة للفعل . . والقدرة على تحقيق ما يريد . . وفرق بين القوة والقدرة . . فأنت قد تملك القدرة . . ولكنك لا تملك القوة لتحقيق ما فى قدرتك . قد تكون تاجرا بارعا . . ولكنك لا تستطيع أن توفر لك مكانا تمارس تجارتك فيه . . وقد تكون مهندسا ممتازا . . ولكنك لا تستطيع أن تأتى بالأشياء اللازمة لتبنى العمارة الضخمة التى تقدر على بنائها . . ولكن الله سبحانه وتعالى يملك الاثنتين معا . . أى أنه يملك كل عناصر الفعل . . فإذا أخذ فرعون بآية من العذاب . . أراد الله أن يذكره به وبقدرته . . عله يتذكر . . فإذا ذهبت الآية قال لن يستطيع أحد أن يأتى بآية أخرى . . وظن أنه قد نجا تماما . . وصور له غروره أن ما يحدث لن يتكرر . . فيذكره الله مرة أخرى . . فيسرع إلى موسى يطلب منه الدعاء فيكشف الله عنه الضر . . فيعود مرة أخرى إلى طغيانه . . هذا هو الاصرار على الكفر . . والاصرار على المعصية . . والاصرار على الكفر والمعصية لا يحبهما الله سبحانه وتعالى . .

وقصة فرعون هذه ليست غريبة عن حياتنا . . فالله سبحانه وتعالى يأتى لكل عبد من عباده الكافرين ليذكره به . . فيتجه بالدعاء إلى الله وقت المحنة . ثم تزول المحنة فينسى . . وهكذا حتى يفتح الله عليه بابا ذا عذاب شديد . . حينئذ يتذكر الله . . ولكن بعد فوات الأوان . . ففرعون حينما كان يغرق فى البحر أعلن إيمانه . . ولكن الوقت كان قد فات . . لأن الله فتح عليه من أبواب الرحمة والتوبة . . وأراه من الآيات . . ما كان يجب أن يجعله مؤمنا . . شديد الإيمان . . ولكنه أصر على الكفر . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكرنا بذلك . . وبأن الاصرار ليس من صفات المؤمنين . . ولكنه من صفات العصاة الكافرين . . فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾

سورة آل عمران من الآية ١٣٥

والاستغفار هنا ندم وتوبة على الاثم . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « **ولم يصروا على ما فعلوا** » . . أى أنه نفى عنهم الاصرار على الاثم . .

إذن عمل المؤمن يجب أن يكون باسم الله . . لأن الله هو الذى سخر له الأشياء . . وباسم الله لأنه يريد أن يستعين بقدرة الله . . ومادام كل عمل تعمله . . وفى بالك الله . . فالله يعينك . . ويكون معك . .

وذكرك لله سبحانه وتعالى يجعل القلب يخشى . . والناس لا تمضى فى المعصية . . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يذكرنا انه معنا يسمع ويرى . . ومن هنا فإننى حين أقوم بعمل يؤذى غيرى يقول الله لى لا . . هذا ليس لك . . وهنا تتدخل الشرائع . . ولا تتدخل الشرائع إلا لصالح الإنسان . . فالإنسان يريد فى حياته أن يحصل على كل شىء . . ما يملكه . . وما يملكه غيره . . حينئذ يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له لا . . أنا حميتك بقانونى . . من أن يعتدى غيرك على

ما تملك . . ولقد حميتك من هذا رحمة منى لأنك فرد . . وغيرك كثيرون . . وإذا أبحت الاعتداء على المال فكأنى أبحت للناس كلها الاعتداء على مالك . . وإننى قد أكون حرمت اعتداءك على مال فرد أو اثنين ولكننى منعت الملايين من الاعتداء على ما تملك من مال أو عرض . . أو أى شىء بالنسبة للدنيا . . وأنا حين أفعل ذلك . . أحميك . . أحميك وأحفظ لك مالك وعرضك . . وأمنك . . فاذا اعتدى أحد عليه فأنا اقتص منه وأنا القادر على القصاص . . الفعال لما أريد . .

وهكذا كانت معجزة الخلق من الله سبحانه وتعالى . . رحمة للإنسان . . وفضلا من الله . . كان يقتضى منا الحمد والشكر والطاعة . . وعندما نقول فضلا من الله . . فاعلم أن السموات والأرض . . وما فيهما من رزق ونعم وآيات وخلق من يوم الخلق . . إلى يوم القيامة . . هى فضل من الله . . أى زائد عن حاجته . . لا يحتاج إليه لأن الله غنى عن العالمين . . وهكذا حين يعطينا النعم . . يعطى . . ويعطى . . ويعطى . . لأنه ليس محتاجا أن يبقى شيئا لذاته . . فهو سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله . .

معجزة الخلق فيها رحمة . . وفيها نور . . وفيها فضل . . وفيها رضا من الله . . وكل ما نحتاجه هو أن نتأمل هذا كله ابتداء من آدم إلى يومنا هذا . . وإلى ما سيأتى . . لنعرف مدى حب الله سبحانه وتعالى لنا . . ومدى رحمته بنا . . ومدى كفر الإنسان بنعم الله . . ولو قدرنا الله حق قدره لعلمنا أن العمر قصير ، حتى لو خصصناه كله لشكر الله على رحمته . . ولكن الإنسان أحيانا لا يرى وعيناه مفتوحتان . . ولا يسمع وأذناه سليمتان . .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٤ / ٩٣
I. S. B. N
977 - 08 - 0177 - 1

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

٤

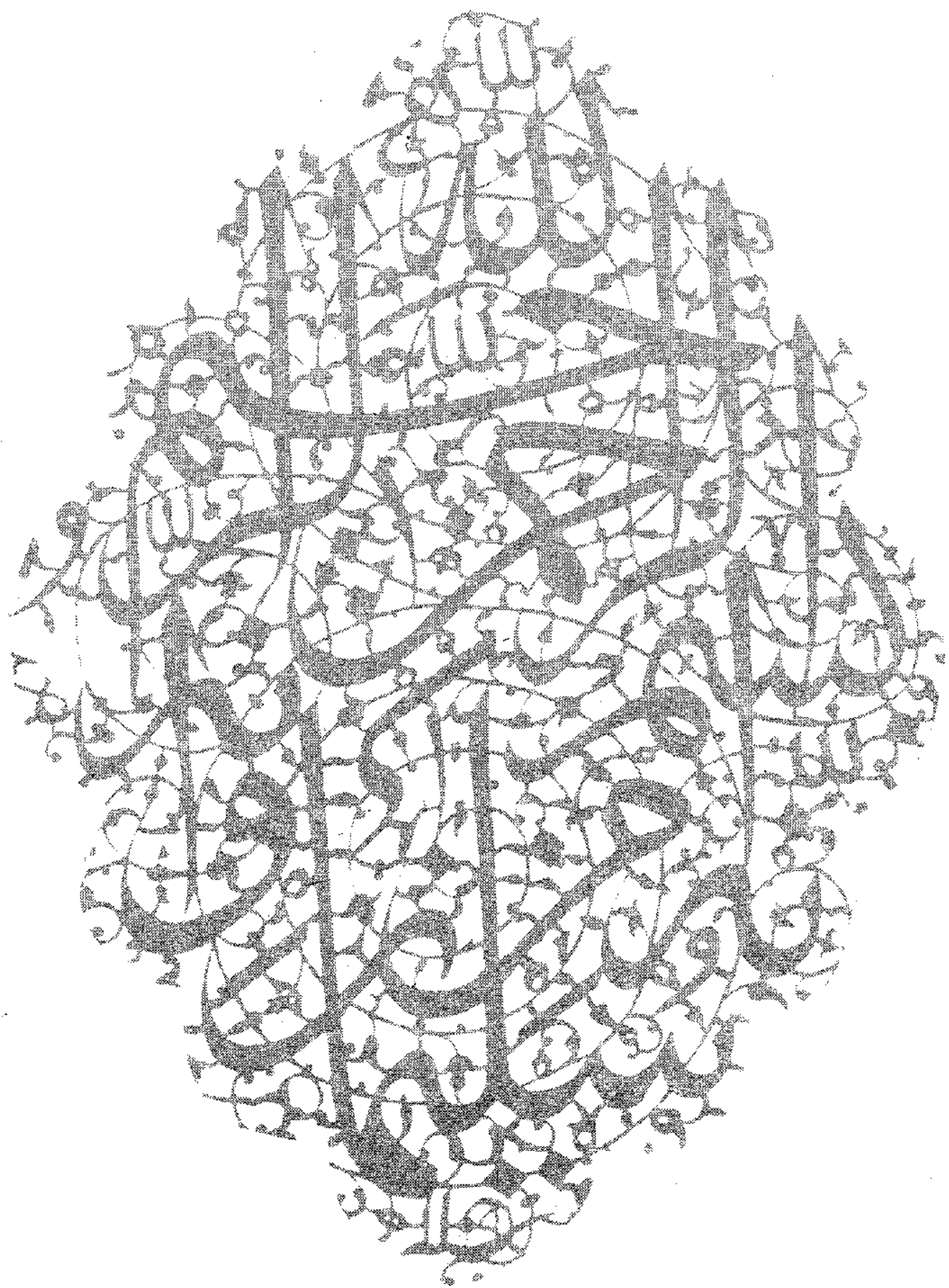
معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

الإخراج الفنى : اشـرف حسـين



الفصل الأول

عِنّدَمَا يتوَقَفُ الكوْنُ!

عندما يتوقف الكون !

فى كثير من الأحيان يلفتنا القرآن إلى أشياء قد تغيب عن عقولنا . . أحيانا بسبب زحمة الحياة . . وأحيانا بسبب التعود والعادة . . وأحيانا بسبب العجلة التى يريد بها الإنسان أن يقضى أموره . . وقصر النظر الذى يجعله بعيدا عن الصبر . . قليل التفكير فى الحكمة فى كثير من الأمور .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى وضع فى كل شيء حكمة . . وسواء غابت عنا أو عرفناها . . فهى موجودة،والله المبدع قد خلق فى الكون أسرارا تتكشف كل يوم . . لتذهلنا بعظمة الخالق وحكمته .

أن سورة التكوير . . تبدأ بشرح الأهوال التى تتعلق بقيام الساعة . . أو بيوم القيامة . . وفى كل آية من الآيات الأثنتى عشرة الأولى . . كلمة إذا . . فتبدأ السورة . .

اثنتا عشرة آية تبدأ بحرف إذا . . وهو حرف شرط . . ثم بعد ذلك يأتى الجواب المراد وهو :

« علمت نفس ما أحضرت »

وفى سورة الانفطار أيضا . . إذا يقول سبحانه :

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ ﴾

سورة الانفطار

أى أن هذه كلها مقدمات عندما تحدث تعلم كل نفس ما قدمته وما أخرته . . وهكذا نجد أن هذه الآيات المتعددة . . كلها علامة على شيء واحد وهو الآخرة . . وعلم الإنسان بما قدم وأخر .

على أننا نلاحظ أن هذه الآيات تصور انقلابا هائلا فى الوجود . . انقلابا لم تعتده النفس البشرية . . فالنفس اعتادت أن ترى الشمس تؤدى دورها كل يوم باستكانة . . واعتادت على النجوم فى نظامها الرتيب . . واعتادت على الجبال راسية فى مكانها ! . . فإذا تغير كل هذا وهو من نظام الكون الأساسى . . ولم تعد

الشمس تؤدى مهمتها . . ولا النجوم تؤدى مهمتها . . ولا البحار تؤدى مهمتها . . ولا الجبال تؤدى مهمتها . . إلى آخر الآيات . . فكأننا خرجنا تماما عن صورة الكون المألوف . . إلى صورة أخرى مغايرة تماما .

والإنسان لا يتنبه للخطر . . ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف فيه . . فأنت مادمت تتمتع بالصحة . . لا تشعر إنك تتمتع بشيء . . بل تأخذ هذه النعمة على أساس اعتيادى . . وأن هذا هو المألوف . . والذى يجب أن يحدث . . فإذا اعتلت صحتك . . عرفت معنى النعمة . . وقدرت ما حباك الله به وما أعطاه الله لك . . دون أن تتنبه أو تشعر . . فأنت ترى بعينيك . . ولكنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء . . أو مرض أخرج هذا البصر عن مألوف عمله . . وأنت تسمع بأذنيك . . ولكنك لا تحس بنعمة السمع إلا إذا اختل هذا الجزء من الحواس . . وهكذا كل شيء فى حياتك . . كونه يمشى منسجما مع وظيفته التى خلق لها . . يفقدك الشعور به . . فإذا اختل . . بدأت تتنبه إلى هذه النعمة . . وتحس بما حباك الله به . .

كم من إنسان يأكل بأسنانه عشرات المرات . . كل يوم وهو لا يشكر الله . . فإذا ما أصيب ضرس واحد من هذه الأسنان . . بدأ يشعر بآلام هذا الضرس وبأهميته . . وكم من إنسان يتخم نفسه بالطعام . . دون أن يحس بنعمة الله عليه . . فى أنه وقاه شر ما أفرط فيه . . فإذا ما أصيبت معدته شعر بأن له معدة . . وأنها نعمة كبيرة . . وأنه يجب أن يحافظ عليها . . إلى آخر ما نعرفه فى كل أعضاء الجسم . . الذى هو سليم منها يجب أن نشكر الله سبحانه وتعالى على أنه عافاه لنا . . وجعله يؤدى عمله المخلوق له أداء كاملا . . فى هذه الحالة فإننا لا نحس بالنعمة . . ولا نقدم الشكر . . فإذا خرج عضو من أعضاء الجسد عن مهمته المألوفة وأصابه عطب . . ذكرنا نعمة الله فيه .

القرب من الله

والإنسان فى حياته يكون أقرب إلى الله حين يمرض . . ذلك أنه يحس بنعمة

الله .. وكلمة آه التى يقولها الإنسان وهو يتألم .. كلمة فطرية .. يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب .. وهو الذى يستطيع أن يشفى .. فإذا ما استرد الإنسان صحته .. استرد معها افتراءه .. ونسى النعمة .. لأن الإنسان يفقد الأثر بالنعمة .. مادامت هى موجودة .. وهى ممنوحة له من الله .. دون أن يتعب هو .. أو يجهد .. ولذلك لا يشعر بقيمة المطر .. إلا من تنعدم عندهم الأمطار .. ولا يشعر الإنسان بقيمة الرزق .. إلا عندما يمر بأزمة يحتاج فيها إلى المال .. وفى كل الأزمات وخلال كل الفترات التى تخرج فيها الحياة عن رتابتها .. ويصبح ما اعتقده الانسان أنه حق مطلق له قد أخذه هو لنفسه .. يصبح هناك ما يذكرنا جميعا بالمنعم .. وحينئذ ترتفع الأيدى إلى السماء .. ويتجه الإنسان إلى الله .. ذلك أن خروج النعمة عن مألوف عطائها يذكرنا بفضل الله علينا .. ذلك الفضل الذى ننساه دائما حين يعطينا الله من نعمه .. ويغدق علينا من فضله .

إذن فقيمة الأحداث التى تصيب الإنسان فى نفسه .. أو فيما تحيط به من نعم .. إنما هى تذكرنا بالخالق .. بالله سبحانه وتعالى الذى أعطانا هذه النعمة .. ولولا تلك الأحداث والأزمات لمضينا فى حياتنا .. أو لمضى الكثير منا فى حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه ..

ولكن بعض الناس يحاول أن يأخذ على نظام الكون .. هذه الأشياء المذكرة بالنعمة .. فمثلا تأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص .. تجد خمسة من المكفوفين .. وإنسانا فقد احدى عينيه .. وآخر فقد قدمه .. أو لا يستطيع أن يحركها .. إلى آخر هذا .. شواذ فى الوجود .. وفى الخلق .. ولكن هم قلة القليل .. لتذكرنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا هذا الوجود .. وأن هذا الوجود ليس وجودا آليا .. أو ميكانيكيا .. وأننى لم أحصل على حق .. هذا الجسد السليم بذاتيته .. ولم أحقق لنفسى .. بل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى .. فالمكونات الفردية تؤكد لنا أن الخالق مهيمن على كل شىء .. وأنه إذا

كان واحد منا لم يشذ فى صورته . . فتلك نعمة من الله سبحانه وتعالى . . وبعض الناس يقول فى محاولة لتبرير دقة صنع الإنسان . . إن العقل الالكترونى فى حساباته مثلا لا يخطىء . . بينما العقل البشرى يخطىء . . ونحن نقول لهم . . إن كل الآلات بما فى ذلك العقول الالكترونية لا تخطىء لأنه ليس لها اختيار . . فهى تفعل ما تؤمر به . . ولكن العقل الإنسانى يخطىء . . لأن الله أعطاه ميزة الاختيار . . وهى ميزة أعطته بدائل يستطيع أن يلجأ إليها . . فإذا سألته سؤالا يستطيع أن يتجنب الحقيقة . . ويكذب . . كما يستطيع أن يقول الصدق .

وكون العقل البشرى عنده البدائل التى يختار منها . . دليل على قدرته . . لأنه لو لم تكن هذه البدائل ما كان يمكن أن يخطىء . . بل كان لابد أن يمضى فى حياته آليا . . ولكن ميزة الخطأ أو الصواب هى التى وضعت أمامه القدرات الهائلة للتقدم . . أو هى ميزة الحياة . . ذلك أن العقل استطاع بتحركه وقدراته غير الآلية . . أن يصل إلى ما كشفه الله له فى الأرض من علم وتقدم . . ولو لم يكن يملك هذه القدرات غير الآلية . . لما أمكنه أن يصل إلى ذلك . . فالعقل الالكترونى مثلا الذى لا يخطىء . . لايستطيع أن يخترع عقلا الكترونيا أكثر تقدما وتطورا منه . . ولكن العقل البشرى الذى يملك الاختيار . . وهو بالتالى يملك ميزة الفكر فى أن يقبل أو لا يقبل . . وميزة الابتكار فى أن يميز بين البدائل . . كل هذه الميزات التى منحها الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى قائمة على قدرة هذا العقل . . بتحرك غير آلى . . أى أنه قد لا يكون فى دقة الآلة التى يخترعها . . والتى قد تبهر الإنسان . . ولكن خروج هذا العقل عن آلية التفكير قد أعطاه ميزة الحضارة كلها والتقدم . .

عقل يخطىء ويصيب

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا كله . . وإلى أنه وراء كل شىء فى هذا الكون إله قائم عليه . . وأن هذا الإله خلق للإنسان عقلا ربما يقل فى قدرته

الميكانيكية عن كثير من الآلات الصماء .. التى لا تخطىء .. ولكن كونه قد خلق بحرية فكر .. وقدرات تحمل الصواب والخطأ .. قد استطاع بما كشفه الله له أن يصل إلى هذه المدنية .. فالعقل الالكترونى الذى لا يخطىء ، هو أدنى مرتبة من العقل البشرى .. لماذا ؟.. لنحس بعظمة الله فى مقاييس الكون .. وحكمته فى خلق العقل البشرى .. لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن ميكانيكية العمل .. مع عدم حرية الاختيار هو أدنى مرتبة من عقل حر مفكر .. وأن العقل الآدمى الذى يصيب ويخطىء .. قد منحه الله من الميزات والقدرة أكثر من ذلك العقل الالكترونى الذى لا يخطىء .. فالعقل البشرى لا تقيده قيود .. تجعله قاصرا عن أن يقوم بشىء واحد .. بينما كل الآلات التى قد تذهلك طريقة تقدمها العلمى .. لا تملك أهم شىء فى الدنيا وهو الفكر .. وكما أننا إذا درسنا العقول الالكترونية مثلا .. لأدركنا ما أنعم الله به علينا من نعمة العقل الإنسانى .. والفكر الإنسانى .. فالإنسان حين يرى إنسانا أعمى يتذكر فضل الله عليه فى أنه قد أعطاه النظر .. وإذا رأى إنسانا أعرج .. أحس بنعمة رجليه .

إذن فالأشياء الموجودة فى الكون وسائل ايضاح لنعم الله سبحانه وتعالى .. وفيها خروج عن المألوف بحيث يهز الإنسان من داخله .

ولكن قد يسأل سائل .. ما ذنب هؤلاء فى أن يكونوا وسيلة ايضاح لغيرهم .. ونحن نقول أن الله سبحانه وتعالى رغم أنه جعل ذلك فى قلة من البشر لا تكاد تذكر بالنسبة لعدد البشرية الهائل .. إلا أنه عوض هؤلاء عما فقدوه .. ولابد أن لكل واحد فيهم ميزة عن غيره من الخلق تعوضه عما فقد .

الميزة الأولى التى يشتركون فيها جميعا .. هى أنهم ينالون من عطف الناس .. ومعاونتهم ما لا يناله غيرهم .. أما الميزة الثانية .. فإن لكل واحد منهم نبوغا لا يتوافر لغيره .. وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع آخر .. ولعلنا

نرى أمثلة كثيرة لذلك . . فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم . . وفى كثير من الأحيان وصل أولئك المصابون بعاهات مثل شلل الأطفال وغيره إلى مناصب رؤساء دول . . وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

إذن فالله سبحانه وتعالى عندما وضع مثل هذا الشذوذ فى الكون . . وضعه بنسبة ضئيلة جدا . . لتلفت البشرية كلها إلى نعمة الله . . ثم بعد ذلك يأتى عون الله فيعوضه من الخير والنبوغ . . والعطف الإنسانى ما ييسر له كثيرا من أمور حياته . . ويمنحه فرصا متميزة .

وإذا ناقشنا ما يقوله بعض الذين لا يؤمنون بالدين . . من أن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالفكر . . ثم سلب الفكر من بعض الناس . . فأصبحوا مجانين . . نقول أن لهذا حكمة . . كما أن لكل شىء فى هذا الكون حكمة فى الخروج عن المألوف .

وننسى النعمة . . والمنعم

على أننا قبل أن ننتقل لنناقش حالة أولئك الذين سلبوا نعمة الفكر . . أو نعمة العقل التى أعطاها الله للبشر . . فإننا نحب أن نتوقف وقفة أخرى . . عند مسألة قدرات العقل البشرى والعقول الالكترونية . . ذلك أن هناك نقطة لابد من مناقشتها . . وهى أن العلم كشف من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى . . وليس ذاتية يحققها العقل البشرى من نفسه . . فالله سبحانه وتعالى يكشف للعقل البشرى جيلا بعد جيل ما هو فوق قدرات هذا العقل . . لنعرف جميعا أن العلم هو من عند الله . . وأنه لا علم لنا . . إلا ما علمنا الله سبحانه وتعالى .

فإذا قال إنسان كيف يخترع العقل الإنسانى الذى يخطىء ويصيب ما هو أكثر

منه دقة . . وهو العقل الالكترونى فى عدد من العمليات الحسابية . . بل كيف يمكن أن يخترع العقل الإنسانى ما هو أقوى من قدراته فى مجالات كثيرة من العلم . . الحقيقة أن هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى . لتدلنا على أن هذا الكشف هو من الله . . وأنه هو الذى يسره للعقل البشرى . . وجعله فى طاقته . . كما يسر أشياء كثيرة لم تكن فى قدرة العقل البشرى . . وأدخلها فى قدراته . . كالطيران . . والتليفزيون . . واللاسلكى . . والكهرباء . . كل هذه الأشياء كانت موجودة فى الكون منذ بدء الخلق . . ثم أدخلها الله سبحانه وتعالى فى قدرة العقل البشرى . . فأصبحت من استخدامات الإنسان فى الحياة اليومية . . ولكن الله لم يدخل هذه القوة فى قدرة العقل البشرى منذ بداية الخلق . . حتى لا يقول الناس إن هذه من القدرات الذاتية التى يستطيع العقل البشرى التحكم فيها . . بل أدخلها بعد فترة من الوقت لتكون آية على أن الكشف من الله للعقل .

على أن بعض الناس يتساءل : إذا كانت كبرى نعم الله على الإنسان هى العقل . . يرث الحضارة . . ويعطيه الله العلم والمعرفة . . فما ذنب هؤلاء الناس الذين ولدوا فاقدى العقول . . ونعود إلى نفس ما تحدثنا عنه . . من أن الله سبحانه وتعالى وضع فى الكون نماذج قليلة جدا . . لتذكر البشر بنعمه . . ولكنه فى نفس الوقت أعطاهم من الميزات ما يعوضهم عما فقدوه . . فإذا كان عدد قليل من الناس قد فقد عقله . . فقد رفع الله سبحانه وتعالى عنه التكليف فى الدنيا والآخرة . . بحيث لا يحاسب . . فهو يقول ما يشاء فى الدنيا ولا يحاسبه المجتمع . . وهو فى الآخرة لا يحاسبه الله سبحانه وتعالى . . وفى هذا تعويض كبير عن العقل . . فى نفس الوقت الذى جعل فيه هؤلاء الناس تذكرة دائمة للإنسان بنعمة العقل . . وبأنه ليس هو الذى خلق عقله . . ولا هو الذى أورثه الحضارة البشرية . . ولكن الله هو الذى خلق . . وهو الذى أورث .

إذن فعدل السماء مطلق . . فيما أعطاه الله للإنسان . . ولكل واحد فينا

ـ رغم كل ما يمر به ـ نقطة يتميز بها عن غيره من البشر . . تعوضه عما يعتقد أنه فقده . . فالذى لا يملك المال يملك البركة . . فيبارك الله له فى القليل . . والذى لا يملك المنصب . . يملك الصحة التى تعوضه عن هذا كله . . أو يملك البركة فى أولاده . . فييسر الله له سبل العلم والحياة والرزق لهم . . والذى لا يملك هذا كله يملك الستر . . ونعمة القناعة . . إلى آخر نعم الله التى لا تعد ولا تحصى . . والإنسان لو نظر إلى نعم الله التى أعطاها له . . لعرف أن ما أعطاه أكبر كثيرا مما منع . . وفى بعض الأحيان تأتى لحظات من الحياة يكشف فيها الإنسان أن نعم الدنيا كلها التى اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد حرمه منها لا تساوى نعمة واحدة مما وهبه الله . . فكم من مريض يتمنى أن يأخذ الله كل نعم الدنيا ويعطيه صحته . . أو يعطيه راحة البال . . أو يزيل عنه الشقاء .

فلنتذكر . . خالق النعمة

إذن فالأحداث إذا خرجت عن طبيعتها حول الإنسان . . فهى تذكره بالخالق الذى أعطاه هذه النعم . . وقد يغره الوجود فى نظامه العام . . فيعتقد أنه ليس وراء هذا الوجود خالق ومدبر . . فيأتى الله سبحانه وتعالى بأولئك الذين يخرجون عن النظام العام . . ليذكر الناس بأن هذا الكون هو من خلق الله . . وأن كل شيء فيه يمضى بأمر الله . . وكل شيء يمكن أن يخرج عن مهمته . . ومن رحمة الله أنه يخرج بنسبة تافهة لا تذكر . . إنما هو تذكير للقدرة . . وبأن هذا الكون ليس موجودا وجودا تلقائيا . . وليس خاضعا لأحد أبدا إلا لخالقه . . وتأتى الأشياء لتلفتنا إلى الحق سبحانه وتعالى . .

فالشمس الرتيبة التى تراها كل يوم تؤدى مهمتها فى استقرار ودوام . . حتى تجعلك تحس خطأ انها دائمة وخالدة . . سيجىء يوم تتغير فيه :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾

سورة التكوير

فترى انقلابا هائلا فى الكون يؤكد أن هذا الكون كله متغير . . وأن بقاءه ودوامه على هذه الحالة هما تنفيذ لمشيئة الله . . وعندما تأتى المشيئة لتغيير الكون . . يذهب الاستمرار والاستقرار فى كل شىء . . ومن هنا فإنك يجب ألا تتعلق بعظمة الخلق مهما بلغت . . ومهما بدا لك انها مستقرة . . وإنما تتعلق بعظمة الخالق الذى هو وحده الباقى . . فكل هذا المعتاد . . والمألوف الذى حولك فى الكون من شمس ونجوم وبحار . . وجبال سيتغير . . لماذا ؟ لأنه لا يستمر بذاته ولكنه يستمر بقدرة الله سبحانه وتعالى .

عندما يشاء الله

وحينئذ تبرز قضيتان هامتان . . يراهما بعض الناس . . انهما متعارضتان . . وفى الواقع انهما متفقتان تماما . . القضية الأولى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وله مشيئة فى أن يختار ولا يختار . . أى أنه أعطاه ميزة بالقدرة على الاختيار . . وهو ما لم يعطه لغيره من خلقه . . والقضية الثانية . . هى مشيئة الله التى يخضع لها كل شىء . . فى الكون . . فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

سورة الانفطار

والجواب على ذلك سهل . . فالإنسان حر فى أن يختار هذا أو يختار ذلك . . ولكن من منا يستطيع أن يحقق ما يريده بالضبط . . أنت تريد أن تؤذى إنسانا . . وتفعل كل ما فى استطاعتك لتصل إلى ذلك . . ولكنك لا تصل إلى ما تريد . . ربما قدمت شكوى فيه فتنقلب الشكوى عليك . . وبدل أن يصاب هو بالأذى . . تصاب أنت . . وربما حاولت أن تقتله مثلا . . وفى آخر لحظة ارتجفت يدك . . أو ظهر شىء أزعجك . . فطاشت الرصاصة . . ولم يتم شىء . . وفى أحيان أخرى . . تنجح فى مسعاك . . سواء كان خيرا أو شرا . . إذا التقى ما تريده مع المشيئة تم . . وإذا لم يلتق مع المشيئة لا يتم . . ولذلك

فالدين يأمرنا أن نسعى . . وأن نعمر فى الأرض . . وأن نقوم بما ينفع الناس . . هذا كله عبادة لله سبحانه وتعالى . . ثم تأتى بعد ذلك النتيجة . . فيجزى الإنسان على ما نواه وسعى فيه فعلا . . ولعل الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول :

« إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى »

يفسر لنا ذلك تماما . . فمناسبة الحديث لشخصين خرجا مع رسول الله . . أحدهما مهاجر إلى الله . . والثانى كما قيل إلى امرأة يريدها . . ولما بلغ الأمر رسول الله . . قال إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى . . ولو كنت واقفا فى هذه اللحظة لرأيت الرجلين يخرجان مع رسول الله . . الظاهر واحد . . ولكن هذا له جزاء . . وهذا له جزاء آخر . . رغم أن العمل فى ظاهره واحد . . إنما فى حقيقته مختلف . . كذلك مشيئة البشر . . قد يسعى شخصان لهدف واحد . . أحدهما يحققه . . والثانى لا يصل إليه . . سواء اختارا طريق الخير أو الشر . . الاختيار لهما . . ولكن التوفيق . . أو الاتمام يأتى من المشيئة . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يأتى يوم القيامة . . فيصفه بأنه يوم تبلى السرائر . . يقف اثنان أمام رجل فقير محتاج . . احدهما يضع فى يده المال سرا . . ويختفى دون أن يراه أحد . . والثانى يقف حتى يأتى الناس . . ويقول بأعلى صوته . . « جنيه كامل أهوه » ليسمعه الجميع . . وتكتب للأول حسنة . . ولا تكتب للثانى . . مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يصل إلى الرجل جنيهان . . ولو عن طريق غير طريق ارضاء الله بالاحسان على الفقير . . فيأتيه جنيه بالاحسان . . ويأتيه جنيه آخر بالتباهى والتفاخر . . ورغم أن الوسيلتين مختلفتان . . إلّا أن المشيئة تمت . . ووصل إلى هذا الرجل رزقه الذى قدره الله له . . فالإنسان يختار بين البدائل نعم . . ويسعى فى الخير أو الشر . . نعم . . ويأتى الشيطان ليغرى . . وطاعة الله لتذكر الإنسان . . ثم يتم العمل إذا التقت المشيئة به . . أما إذا لم تلتق . . فقد يأتى شىء يوقف هذا كله . .

والأمثلة فى الحياة كثيرة . . قد تذهب إلى طبيب مشهور . . فيعجز عن أن

يشخص لك الداء . . ويعالجك خطأ . . ثم يأتى طبيب صغير . . ربما بما نسميه نحن الصدفة . . ليكشف عليك . . فيهديه الله إلى المرض الذى تشكو منه . . وتتعجب أنت كيف يتفوق تلميذ على أستاذه . . مع أن الأول أكثر علما وخبرة . . والثانى لايزال مبتدئا . . ولكن الله يرد أن يلفتك إلى أن ما فى الكون هو الذى يعطيه . . وأنه إذا كانت القاعدة أن الطبيب المشهور الذى درس ونجح . . وأمضى سنوات طويلة من الخبرة . . هو الذى يستطيع أن يكتشف الداء . . فإن هذه القاعدة لابد أن تسرى . . لأن الحياة فى الأرض تمضى بالأسباب . . ولكن فى نفس الوقت يلفتك إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى لهذا الطبيب ثمرة بحثه من العلم . . وأنه حين يسلبها منه فى حالة من الحالات . . إنما ليذكرنا أننا يجب أن نعترف بفضل الله على كل واحد فينا . . فيما وهبه اياه . . فعلم الطبيب الكبير هو فضل من الله . . أعطاه له بالأسباب . . وهى الاجتهاد والاطلاع والبحث . . حالة الطبيب المبتدىء الذى اكتشف الداء . . هو الهام من الله أعطاه له ليلفت الناس إلى أنه إذا كان قد وضع فى الكون قوانين . . فهناك فوق القانون مشيئة الله . . وأن هذه القوانين تعمل باذن الله وقدرته . . ولذلك فهى نعمة يجب أن نشكر الله عليها .

وفى حياة كل منا أمثلة كثيرة . . لأشياء أرادها وعمل من أجلها . . ويسرها الله له . . وأشياء أرادها وعمل من أجلها . . ولم ييسرها الله له . . حياتنا كل يوم فيها هذه النماذج التى نعيشها كل يوم . . على أننا سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل عندما نصل إليه .

تكوير الشمس . . وفاعليتها

نعود إلى الآية الكريمة . . « اذا الشمس كورت » . . الصورة الموجودة . . ان الشمس تبدو لنا على صوة كرة . . فما معنى قول الله سبحانه وتعالى . . « إذا الشمس كورت » . . بينما هى فى واقعنا تبدو لنا مكورة فعلا . .

وقبل أن نتناول هذه النقطة . . نقول أن تكوير الشمس الذى يبدو لنا . . هو ما لا يتصل بفاعليتها . . فالشمس سواء بدت لنا مكورة . . أو غير ذلك . . الذى نستفيده منها . . هوالأشعة التى تصل إلينا من الشمس . . وأشعة الشمس منبسطة فى الوجود كله . . فى الكون كله . . فإذا كانت الشمس على هيئة كرة . . أو غير ذلك . . دون أن تصل أشعتها إلى الأرض . . انعدمت الفائدة منها بالنسبة للبشر . . وتكوير الشيء فى اللغة . . معناه طى الشيء . . إيذانا بانتهاء مهمته . . فأنت اذا طويت الكتاب . . معناه انك انتهيت من قراءته . . أو قراءةالفقرة التى تريد الانتهاء منها . . وهناك فى الكون أشياء تؤدى مهمتها بأن تطوى . . وأشياء أخرى تؤدى مهمتها بالبسط . . فالثوب مثلا اذا انتهيت منه طويته . . ومقبض الباب لابد أن تقبض عليه حتى يؤد مهمته بالفتح أو الاغلاق . . إذن فما معنى إذا الشمس كورت . . انها لفتة من الله سبحانه وتعالى .

والقرآن كما قلت يخاطب كل العقول . . ومن هنا فإنه لا يخاطب هؤلاء . . ويخاطب معهم عقول كل البشر . . ولذلك فإن شكل الشمس كما تبدو لنا من بعيد أو شكلها عندما نقترب منها . . حيث نرى ألسنة اللهب تمتد إلى مسافات بعيدة . . فكل هذا لا يأتى فى الحسبان . . لماذا . . ؟ . . لأنه تنطبق عليه القاعدة جهل لا يضر . . بمعنى أنه سواء علمت أسرار الشمس أو لم أعلمها . . وسواء قضيت السنوات الطويلة أدرس فى طبيعة تكوين الشمس أو لا أدرسه . . فإن

هذا كله لا يؤثر فى انتفاعى بالشمس فى حياتى اليومية . . فأنا أستفيد بالشمس . . كرة كانت . . أو ألسنة لهب . . أو أى شكل آخر . . ذلك أن استفادتى منها هى من الأشعةالتى تصل إلى الأرض من الشمس . . تلك التى تبعث الدفء فى الأرض . . وتنمى الزرع . . ولها دور كبير فى حياة الكون كله .

فإذا كانت الشمس على هيئة كرة ، أو غير ذلك . . فهو ما لا يتصل

بفاعليتها . . إذ أنها لو كانت على شكل من الأشكال . . ومنعت أشعتها من أن تصل إلى الأرض . . انعدمت فائدة الشمس للبشر . . وأصبح وجودها كعدمه . . مادامت لا تؤدى مهمتها فى حياة الإنسان .

ولكن ما معنى قول الله سبحانه وتعالى :

« إذا الشمس كورت »

انها لفتة من الله سبحانه وتعالى تعنى أنه إذا الشمس قد انتهت مهمتها فى الكون . . والأشعة المنبسطة التى ترسلها كل يوم إلى الأرض كخيوط دقيقة تنزل منها . . هذه الأشعة كورت . . وأصبحت ملفوفة . . أى أنها أصبحت تحيط بالشمس وحدها . . دون أن تصل إلى الأرض . . فقول الله سبحانه وتعالى :

« إذا الشمس كورت »

معناه انه لم يعد لها مهمة فى الوجود . . وهذه من علامات انتهاء الحياة فى الكون . . وقيام الساعة .

علامة نهاية . . وبداية

ولكن لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى فى الآية :

« إذا الشمس كورت » .

ذلك ليعطينا الفرق بين الدنيا والآخرة . . فهذه علامة لنهاية وبداية . . نهاية عالم نعيش فيه بالأسباب . . وبداية عالم تنتهى فيه الأسباب . . ففى الدنيا . . الحياة تسير طبقا لقوانين معينة وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهذه القوانين نستمد منها الحياة . . فمهمة الشمس فى ارسال أشعتها إلى الكون . . هى استمرار الحياة الأرضية . . ولكننا فى الآخرة لسنا محتاجين إلى هذه الأسباب . . وذلك فإن الشمس تنتهى مهمتها وتصبح الحياة . . أو الوجود . . بطريقة مخالفة . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . »

لماذا ؟ . . لأن الأرض هذه خلقها الله . . وفيها عناصر الحياة بالسبب . . فوضع فيها العناصر التى تمد النبات بالغذاء . . والتى تمد الأرض بالماء . . إلى آخر ما هو موجود فى خلق الله . . مما يتناسب مع الحياة على الأرض . . والإنسان عليه أن يزرع ويجتهد . . ويعمل الإنسان . . حتى يستطيع الحياة على الأرض وحتى تمضى هذه الحياة التى وضع الله لها القوانين ، ولكن فى الآخرة لن يعمل الإنسان . . ولن يزرع . . ولكن الله سيعطيه بلا أسباب . . يخطر ببالك الشىء . . فيجىء لك . . إذن فالأرض بحالتها الراهنة . . والسماء بما تؤدى من مهام . . كلها لخدمة حياة الإنسان . . على الأرض . . حيث أن الله سبحانه وتعالى قد سخر كل ما فى السموات والأرض من قوى لخدمة الإنسان . . ولكن الأمر يختلف فى الآخرة . . لأن هذا التسخير ينتهى . . وتصبح الحياة مختلفة تماما . .

فقوله تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾

سورة التكوير

معناه التف ضوؤها . . واشعاعها . . ولم يعد يصل إلى الكون . . وانتهت مهمة الشمس . . وطويت أشعتها . . وأصبح الوجود غير الوجود . . وتمضى السورة الكريمة

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الانكدار فى اللغة هو الانصباب . . أو الانقضاض . . ومهمة النجوم تأتى فى وجودها . . فى أماكنها فى الفضاء . . فإذا ما هوت النجوم كما سيحدث عند قيام الساعة . . فمعنى ذلك أيضا أن مهمتها قد انتهت هى الأخرى . . ولم

يعد لوجودها بشكلها الحالى معنى .. وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾

سورة التكوير

وهذه الجبال الشاهقة التى نراها أمامنا راسية شامخة .. هى الرواسى التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الأرض .. لتجعل حركة الأرض رتيبة ليس فيها أى اضطراب .. وطبعا ما ينطبق على الشمس والنجوم .. ينطبق على الجبال .. فى مهمتها هى فى الحياة الدنيا وحدها .. لتحفظ التوازن فى الكرة الأرضية .. وتمد البشر بما يحتاجون من معادن .. وتتكون على قممها الثلوج التى تمد عددا من الأنهار .. والعيون بالماء .. إلى آخر ما نعرفه .. وما لا نعرفه عن مهمة الجبال فى الأرض .. ولكن هذا كله لا لزوم له فى الآخرة .. حيث ستتبدل الحياة تماما .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾

سورة النبأ

« وتمضى السورة الكريمة » :

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾

سورة التكوير

واللفظ يأتى فى القرآن .. يحاول العلماء أن يجيئوا بكل الاستعمالات اللغوية له .. وينظروا أنسب معنى لغوى يؤديه .. فالعشار تطلق على النياق .. ومفردها ناقة .. ويكون مر على حملها عشرة شهور .. وذلك إيذانا بأن الواحد سيصبح اثنين .. ثم يأتى مع المولود الجديد اللبن الذى يكون منه غذاؤه .. وغذاء الإنسان .. ومعنى ذلك أن التكاثر هنا غير مطلوب بأسبابه .. أى أنه إذا العشار عطلت .. لم يصبح هناك أية حاجة إلى الازدياد البشرى بالطريقة التى

وضع الله قوانينها فى الأرض . . فتلك الطريقة . . طريقة الميلاد وضعت حتى لا ينقرض كل من يعيش على الأرض بعد فترة من الزمن . . ذلك أن الحياة ما هى إلا رحلة قصيرة فى عمر الزمن . . وإذا كان الموت مكتوبا على كل حى . . فإن الميلاد هو الذى يضمن للحياة استمرارها وحركتها . . وإلا إذا كان الموت بلا ميلاد . . يكون هناك انقراض للبشرية . . وكل من فى الكون . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا فى هذه النقطة . . إلى أنه لا حاجة وقت أن تأتى الآخرة لهذا التزايد والميلاد . . لأن الآخرة خلود . . فهى إما جنة أبدا . . أو نار أبدا . . أى أنه فى هذه الحالة لسنا محتاجين للتكاثر العددى . . للابقاء على النوع . . لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد ألغى الموت فى الآخرة . . ووضع بدلا منه الخلود فإنه لا حاجة للتكاثر بالأسباب البشرية وستصبح كل النعم بلا أسباب . . بكلمة كن . . وبمجرد التفكير فيها . . والله سبحانه وتعالى وضع التكاثر بالأسباب فى الدنيا . . ولكن فى الآخرة ما دامت قد ألغيت الأسباب . . يكون التكاثر أو الزيادة إذا أرادهما الله سبحانه وتعالى . . أو بالخلق المباشر . . يكون بلا أسباب سوى كلمة كن . .

والله يريد أن يقول لنا أنه فى يوم القيامة ستتوقف كل الأسباب التى وضعتها للحياة فى الأرض . . ويتبدد كل شيء . . وهناك تفسير آخر بأن هذا المعنى يشمل أيضا السحب . . تحمل الأمطار إلى الأرض . . لينمو الزرع ويزدهر . . ولا حاجة لذلك ولا مهمة فى الآخرة . . ولذلك فإن السحب ستتعطل مهمتها . . وتتوقف .

ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾

سورة التكوير

ومعنى الوحوش حشرت أى جمعت . . وهل الوحوش غير مجموعة . . طبعا لا . . لأن كلمة الوحوش . . معناها الأنعام غير المستأنسة . . فلا يمكن أن

نستأنس الوحوش المفترسة . . ونرعاها مثلا . . ونهيىء لها أسباب التكاثر . . كما نفعل مع الأنعام المستأنسة التى خلقها الله للإنسان . . لتكون سببا مساعدا فى حياته . . بامداده بالألبان واللحوم . . وغير ذلك مما تؤديه من مهام فى الأرض . . وبعض الناس يقول انك يمكن أن تستأنس الوحوش . . فهناك مدربو الحيوانات المفترسة . . وهؤلاء يستطيعون أن يسيطروا عليها بشكل ما . . حتى يفعل الأسد ما يريده المدرب منه . . ويطيعه . . ويصبح بلا خطر عليه . . وهذا يصح فى بعض الأحيان . . ولكن الشىء الذى لم يتنبه إليه البشر . . أن هذه أشياء فردية . . لا تمثل قاعدة عامة فى الكون إننا لا نرى مدربا مهما كانت مهارته أو قدرته . . يستطيع أن يستأنس أسدا . . بحيث يصبح هذا الاستئناس وراثيا . . أى أن ينتقل إلى ابن هذا الأسد . . ومن ابنه إلى ابنه . . أى أن الاستئناس هنا عمل فردى لا يخرج النوع عن طبيعته الوحشية وأن أخرج فردا واحدا منه كما أن الائتناس بهذه الطريقة لا يتم بالكمال الالهى . . ولكن بالقدرة البشرية المحدودة . . فقد يفترس الأسد مدربه فى لحظة غفلة منه . . ولكنك لا ترى . . ولا يمكن أن ترى كبشا . . أو جملا . . أو بقرة تفترس إنسانا . . بل انك ترى الطفل الصغير الذى لا حول له ولا قوة . . يقود ذلك الجمل الهائل . . فيطيعه . . ويفعل ما يريد . . رغم أن قوة الجمل تساوى قوة الطفل مائة مرة . . ولكن الذى أخضع الجمل للطفل ليس قدرة الطفل . . ولكنها قدرة الله التى جعلت هذا الجمل بضخامته يخضع خضوعا تاما للطفل الصغير على ضآلته لأنه مسخر من الله له .

فالإنسان لا يستطيع أن ينقل الاستئناس إلى وحش من الوحوش . . ويجعله مسخرا لخدمته ولذلك فإن ما يحدث بالنسبة للوحوش . . هو استئناس من ذات واحدة . . أو من وحش واحد لإنسان واحد . . لا يتكرر ولا يتبدل إذا تغير أحدهما . . ولكن الأنعام الأخرى مستأنسة بتسخير الله لها لخدمة الإنسان . .

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

عندما يتوقف الكون !

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾

سورة التكوير

ما معنى .. إذا الوحوش حشرت ؟

السؤال هنا .. هو لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« وإذا الوحوش حشرت » ..

خلق الوحوش أساسا فى الكون له حكمة لابد أن ننتبه إليها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يظهر فى الكون آيات تلفتنا إلى قدرته .. ونحن حين نرى الحيوانات المستأنسة فى خدمتنا .. نسخرها حيث نشاء .. نعتقد أن هذا نابع من قدرتنا .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. يريد أن يلفتنا إلى أن هذا تسخير منه ـ وليس قدرة منا ـ ولذلك فقد خلق الوحوش لترد على أى إنسان يريد أن يدعى أنه قد أخضع ما خلق الله له من أنعام فى الكون بقدراته هو .. فيقول له ! إذا كنت قد فعلت ذلك بقدراتك .. فهذه وحوش لم أسخرها لخدمتك .. فاستخدم قدراتك وأرنى إذا كنت ستستطيع أن تسخرها أنت أيها الإنسان لخدمتك .. ولذلك فإننا حينما نرى هذه الحيوانات المفترسة .. القليلة العدد فى العالم .. نتذكر ذلك الكم الهائل من الأنعام التى خلقها الله لنا .. وسخرها لنا بقدرته .. فنحس أن الكون يسير بقدرة الله .. ونشكر الله على نعمه ..

« وإذا الوحوش حشرت » ..

معناه أن طبيعة تكوينها .. أنها غير مجموعة بل نافرة .. وغير خاضعة لنا .. ونحن لا نجتمع معها فى مكان واحد .. بل هى تنفر منا .. ونحن ننفر منها .. ومعناه أيضا أنها نافرة طوال فترة حياتها تبحث عن فرائسها .. ومعناه أيضا أنها نافرة من بعضها البعض .. لأنها تعتدى على بعضها البعض .. ويفترس الواحد منها الآخر من نفس النوع أحيانا دفاعا عن نفسه .. والقوى منها يفترس

الضعيف . . وقد يستطيع الضعيف أن يتغلب على القوى إذا أخذه على غرة . . هذه الوحوش يوم القيامة تجدها قد جمعت وظهرت كلها . . تقف أمام الناس هادئة خاشعة من هول الموقف . . أى أنها تخرج عن طبيعتها . .

وتمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾

سورة الانفطار

ما هو معنى التفجير . . إذا أردنا أن نصل إلى المعنى الذى يمكن أن يدخل إلى أذهاننا بسهولة ويسر . . فلنتذكر تفجير ذرة . . وما يحدثه من طاقة هائلة . . من النيران والدمار . . فإذا طبقنا نفس المعنى على البحار . . نجد أن المعنى قد اقترب منا فى قوله تعالى :

« وإذا البحار فجرت »

أى إذا امتلأت نارا أو أنها تضطرب وتهيج. والمهم فى هذا المعنى هو الخروج عن المألوف الذى تعودناه .

كيف تسأل ؟

ثم نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ ﴾

سورة التكوير

والناس هنا تتعجب من هذه الصياغة . . « الموءودة » هى التى وضعت فى التراب حية بعد ولادتها . . وكانت عادة وأد البنات منتشرة عند العرب فى الجاهلية . . ولكن الآية تقول :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾

سورة التكوير

وهل الموءودة تسأل . . وهل تعرف بما تجيب . . وهى التى اعتدى عليها بغير ذنب جنته . .

إن هذه العادة السيئة التى كانت سارية فى الجاهلية كانت عملية فظيعة جدا ضد المرأة . . فالطفلة التى حدث عليها مثل هذا العدوان الرهيب . . أنت سبب فى ايجادها . . أى هى بعض منك . . ومن مثلها وُجدْت . . وهذا دليل على قساوة القلب . . وقساوة العطف . . ذلك أنك عندما تقوم بهذا العمل تتجرد من انسانيتك تماما . . لأنك تعاقب طفلة على ذنب أنت سببه . . وتعاقب نوعا على ذنب منه وجدت . . وتعتدى على من لا حول له ولا قوة . . ومن لم يقم بأى أذى . . أو أى عمل ضدك . .

والله سبحانه وتعالى حين يأتى بهذا . . إنما يريد تقريع الأب الذى أقدم على هذه العملية التى تخالف كل قيم الانسانية . . ويريد أن يعرفه أنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة . . فيوجه السؤال للطفلة . . ما السبب الذى دعا أباك إلى أن يقوم بهذا العمل الوحشى . . ماذا فعلت حتى يقوم أبوك بمعاقبتك بهذه الطريقة . . وطبعا سيكون الرد أنها لم تفعل شيئا . . ويتم حساب الأب:مادامت هذه الطفلة لم تكن قد ارتكبت ذنبا . . فلماذا فعلت بها هذا . . وهو فى حقيقته باستخدام هذه الألفاظ . . إنما أراد الله أن يستحضر أمام الأب الصورة الكريهة لعمله ضد طفلته . . فيأتى بالطفلة البريئة ويسألها لماذا قتلك هذا الأب بلا ذنب . . والأب حاضر يستحضر كل هذا المنظر الذى حدث فى الحياة الدنيا . . فيعرف هول ما ارتكبه . . ولو أن السؤال كان للأب . . فربما حاول اختلاق الأسباب أو تعليل فعلته . . ولكنه سؤال الابنة أمام الأب يجعله يحس بعظم ذنبه . . ولا يجد ردا .

ما هى النفس

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾

سورة التكوير

وكلمة النفوس حار فيهاالفلاسفة على مر العصور . . مرة يقولون أنها الروح . . ومرة يقولون أنها القلب . . ومرة يقولون أنها المادة . . ولكن الحقيقة أن كلمة نفس تطلق على امتزاج الروح بالمادة . . فإذا كانت الروح وحدها دون أن تدخل أو تمتزج بأى مادة . . سميت الروح . . وإذا كانت المادة وحدها . . دون أن تمتزج بأى روح . . سميت المادة . . فإذا تم الامتزاج سميت النفس . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« الله يتوفى الأنفس » .

ما معنى يتوفاها . . معناها أنه يفصل الروح عن الجسد . . هذا هو معنى توفى الأنفس . . فإذا عادت الروح إلى الجسد . . عادت النفس من جديد . . ومادام هذا هو مدلول النفس . . أى امتزاج الروح بالجسد . . فكيف يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة :

« وإذا النفوس زوجت » . .

معنى ذلك أن الأرواح التى خرجت من الأجساد عادت إليها مرة أخرى . . فالموت هو انفصال الروح عن الجسد . . ومعنى قوله تعالى :

« وإذا النفوس زوجت »

أى أن المادة ستعود إلى الروح . . وتعود النفس مرة أخرى بعد أن ذهبت بالموت . . ولكن المعنى هنا يتجاوز هذا . . بحيث يمتد إلى الحياة الدنيا كلها . . فإذا النفوس زوجت . . ليس معناه فقط أن المادة والروح عادتا مرة أخرى

فالتحمتا . . ولكن معناه أنهما عادتا معا أيضا . . كل عمل قام به الإنسان فى الدنيا . . وافترق عنه ، سواء كان خيرا أو شرا ، فالعمل الذى يقوم به الإنسان فى حياته الدنيا . . فيه أشياء لا تفارقه إلا بالموت . . وهناك أشياء اقترفها أو أقوم بها لفترة من الفترات ثم أنساها . . وأشياء أنسى الله فيها . . وأنسى أنه رقيب حسيب . . وأشياء أخرى أعتقد أن أحدا لم يرنى . . مع أن الله يسمع ويرى . . المهم أن كل هذه الأشياء سواء التى افترقت وأنا فى الحياة . . أو التى واصلت معى الرحلة إلى نهاية الحياة . . كلها ستأتى فى هذه اللحظة . . مع عودة الروح والمادة الى امتزاجهما . . تعود معهما أعمال الدنيا التى ظن الإنسان أنها انتهت . . ولكن بعض الناس يظن أن عمل الشر الذى قام به مادام قد فارقه . . قد انتهى . . وبعض الناس يظن أن عمل الخير الذى قام به مادام فارقه قد انتهى . . ونقول لهؤلاء وهؤلاء . . لا . . فكل شىء محسوب ومكتوب . . وذلك الذى يظن أنه فعل ذنبا . . وهرب من العقاب . . أو لم يره أحد ، والذى يفرح ويسمى نفسه بالعبقرى ، أو الفهلوى لأنه استطاع أن يخدع الناس . . ويحصل على مال حرام . . أو يسرق جهد غيره . . إنما هو فى الحقيقة يتمتع بقسط كبير من الغباء . . لماذا ؟ . . لأنه خاف من قدرة الإنسان المحدود القدرة . . ونسى الله بقدرته المطلقة . . التى ليس لها حدود ولا قيود . . هو خدع بشرا . . أو مجموعة من البشر . . تلك مسألة تافهة . . ولكن الله يسمع ويرى . . وهو يراه . . وهذا هوالمهم . . لأن قدرة الله تفوق قدرة البشر جميعا ملايين المرات . . ولا أدرى كيف يفرح انسان بالهرب من مجموعة لها قدرات محدودة . . وينسى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تراقبه . . وأن الله عزيز مقتدر . . ولو فكر الإنسان بذرة من العقل . . لعرف الحقيقة أنه لم يخدع إلا نفسه وأنه لم يكسب . . بل خسر كثيرا . . لماذا ؟ . . لأنه فى انشغاله ولهفته على أمور الدنيا . . خاف من عين بشر تراه . . أو علم بشر يصل إليه . . ونسى عين الله التى لا تنام . . وعلمه الذى لا يغفل عنه شىء فى الأرض . . ولا فى السماء . . تلك حقيقة لابد أن نتذكرها جميعا . . لأنها أساس الإيمان . . فحين ننسى الله ونخاف البشر . . نكون قد خرجنا من دائرة الإيمان الحقيقى .

الحقيقة .. والبشر

ولذلك يمضى الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ ﴾

سورة التكوير

ما معنى نشرت .. معناها أن هذه الصحف كانت مطوية .. مخفية عن البشر فى الدنيا .. فبعض الناس كان يفعل أشياء فى الخفاء .. لا يعلمها أحد .. والبعض الآخر كان يحرص على اخفاء حقيقته .. ويظهر بعكس هذه الحقيقة .. وبعض الناس كان يقول شيئا .. وفى قلبه شيء آخر .. يكذب وينافق .. ويفعل ما يغضب الله .. وطوى هذا كله .. وانتهى برحيل الإنسان عن الحياة .. ونسى .. ولم يعد شيئا مذكورا .. هذا هو المألوف فى الدنيا .. ولكن وكما قلت فإن الآخرة هى خروج عن كل مألوف فى الحياة الدنيا .. ولذلك فإن ذلك الذى طوى وأصبح نسيا منسيا .. وأعتقد الناس أنه انتهى وفات .. ولم يعد له وجود دنيوى سينشر يوم القيامة ويعرف .. ويراه صاحبه أمامه .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

من الآية ١٤ سورة الإسراء

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟

حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾

سورة الكهف

فالذى يعتقد أنه حصل على مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله .. سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه .. وجاءت لحظة الحساب .. إنه لا يواجه هذا فى الدنيا بل يواجهه فى الآخرة .. وبينما هو يحسب .. وكل من فى الأرض يحسب أن ما فات طوى .. فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا .. أنه إذا كان هذا هو المألوف فى الدنيا .. فمقاييس الآخرة تختلف .. وكل شىء سيكون حاضرا .. ذلك الذى ظنّه الجميع نسيا منسيا .

إذن فالعمل الدنيوى يكون له وجود فى الآخرة ساعة يتم الحساب .. والذى يعتقد أنه حصل من مغانم فى الدنيا بطريقة أو بأخرى مما حرمه الله .. سيواجه يوم القيامة بأن كل هذا قد حضر أمامه .. وجاءت لحظة الحساب التى قد لا يواجهها فى الدنيا .. بينما يواجهها فى الآخرة .

إن الذى يعاقب على ما فعله فى الحياة الدنيا .. خلال فترة وجوده وحياته .. هو من رحمة الله عليه .. ذلك أن عقاب الدنيا مهما كان قاسيا .. لا يمكن أن يقارن بيوم القيامة .

وتمضى السورة الكريمة :

« وإذا الصحف نشرت »

.. ما معنى نشرت .. معناها أن هذه الصحف كانت مطوية مخفية عن البشر فى الدنيا .. فالبعض كان يحرص على اخفائها .. والبعض نسيها أو نسيتها الدنيا بعد وفاته ورحيله عنها .. ولكن هذه الصحف التى كانت مطوية تخرج للإنسان يوم القيامة .. ثم تمضى السورة الكريمة :

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ ﴾

سورة التكوير

.. وعلم الإنسان عن السماء علم محدود جدا .. رغم كل الاكتشافات التى تمت حتى الآن .. فالسماء لا تزال بنيانا مغلقا أمام البشر .. وستظل كذلك إلى يوم القيامة .. وكل الاكتشافات التى تتم .. والتى ستتم فى المستقبل ستبقى معها أسرار السماء مغلقة على العلم البشرى .. فاتساع السماء يمتد ملايين السنوات الضوئية التى لا يمكن أن يصل إليها علم بشر .. والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« وإذا السماء كشطت »

.. معناها كشف أسرارها للبشر .. ويرى ويعرف ما لم يكن يراه ويعرفه فيما مضى .. أو فى حياته الدنيا .. فأسرار السماء مغلقة أمام البشر تماما .. وبعدها لا نهائى .. والله سبحانه وتعالى قد جعلها مليئة بالأسرار .. ولا نهائية فى اتساعها .. حتى لا يصل إليها علم بشر .. فالإنسان محتاج إلى ملايين السنين ليصل إلى بعض الكواكب التى نراها .. فكيف لا نراه ؟

﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ ﴾

سورة التكوير

.. هذه عملية الهول الأكبر .. يوم يرى الإنسان الجحيم .. ويرى الجنة .. يراهما عيانا بيانا .. والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة التكاثر :

﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

سورة التكوير

ومعنى ذلك أن أنواع العلم عند الله متعددة . . والله سبحانه وتعالى يعطينا العلم أولا خبراً من عنده . . يصدقه المؤمن . . وينكره الكافر . . ويبقى هذا الخبر موضع جدل عند غير المؤمن . . ثم بعد ذلك عندما يصدق الخبر الذى قاله الله سبحانه وتعالى . . يكون ذلك عندك علم يقين . . أى أنك تؤمن يقينا بأنه مادام الله سبحانه وتعالى هو القائل . . فهو علم يقينى لاشك فيه . . وكأننى أراه . . ولو أننى لم أره عين اليقين .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى صورة حسية يوم القيامة . . أو عندما يشاء الله بمعنى أنه بعد أن كان معنى أو صورة فى عقلك يصبح صورة تراها بعينيك . . وهذه الصورة هى حق اليقين . . الذى لا جدال فيه . . وذلك فى يوم القيامة . . يوم ترى كل شيء بعين اليقين .

والإنسان فى حياته الدنيا . . تغيب عنه أشياء كثيرة . . فالله سبحانه وضع سنة الحياة متكاملة ورسم طريقها كاملا . . ولكن بعض الناس تطبق القوانين . . فيما يتعلق بأمور الدنيا . . وينساها أو ينكرها فى دين الله ، فأنت إذا

بدأت حياتك . . ذهبت إلى المدرسة لتدرس وتحصل . . وأنفقت الأموال . . وأمضيت السنوات . . فى عمل مضن . . فإذا سألك أحد لماذا تفعل هذا . . ولماذا لا تلعب وتلهو كما تريد . . بدلا من السهر والمذاكرة والارهاق . . قلت له : انى أبنى مستقبلى . . واقتنع هو بذلك . . بل أن ولى الأمر يغضب ويثور . . عندما يرى اهمالا من ابنه فى بناء مستقبله . . ثم تأتى الثمرات بعد ذلك .

وأنت حين تمرض مثلا . . يقول لك الطبيب : لا تقرب هذا الطعام . . وخذ هذا الدواء . . والطعام الذى يحرمك منه الطبيب . . قد يكون لذيذا محببا إلى نفسك . . والدواء الذى يعطيه لك يكون مرا كريها إلى نفسك . . ولكنك

رغم ذلك كله تمتثل لأوامر الطبيب حتى تشفى من مرضك .. وتعود إليك صحتك .. وأنت فى شبابك تحاول أن تعمل وتكسب بقدر ما يمكن .. وأحيانا ترهق نفسك .. لماذا ؟ حتى تجد حاجتك عند الشيخوخة .. أو عندما تضعف صحتك .. ولا تقوى على العمل ..

ولماذا ننساه فى الدين ؟

والعجيب أنك تطبق هذا كله فى حياتك الدنيا على أساس أنه أمر مسلم به .. وتتهم من لا يفعل ذلك بأنه فاقد العقل .. يجنى على نفسه .. وسيحصد الفشل والألم فى حياته .. فالطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة .. نقول ان أباه ناقص عقل .. لأنه لا يعده للمستقبل .. والمريض الذى لا يتناول الدواء ولا يمتنع عما يضره من الطعام .. تتهمه بضعف الارادة .. وتقول أنه يجنى على نفسه .. والإنسان الذى لا يعمل وهو شاب ويلهو تقول أنه سيحصد الندم فى شيخوخته .. ولكن ذلك الذى يمضى فى الحياة الدنيا ناسيا الله .. وناسيا الآخرة .. وناسيا الحساب .. وناسيا كل ما ينتظره .. نقول عنه إنه إنسان فهلوى .. أو شاطر .. بينما نفس القوانين تنطبق عليه .. بل أقسى .. فهو يهدر حياته الدنيوية .. وعندما يصل إلى الآخرة .. يكون رصيده صفرا .. فى موقف الهول الأعظم .

نقول أن التلميذ الذى لا يذهب إلى المدرسة عندنا فاشل .. والمريض الذى لا يتبع أوامر الطبيب ناقص العقل .. والإنسان الذى لا يعمل فى شبابه قصير النظر .

لكن الذى يعصى الله فى الدنيا ولا يطيع أوامره .. ويضيع دنياه وآخرته .. لا ننظر إليه نفس النظرة .. مع أن قانون الله واحد فى جميع الأحوال .. والدراسة .. أو الدواء .. أو العمل الشاق .. ليست أشياء محببة إلى

النفس . . وهناك مما حرمه الله . . ما هو محبب إلى النفس . . ولكنك للأسف الشديد تجد بعض الناس يحرم نفسه من أشياء كثيرة . . ليحصل على الشهادة أو المال . . أو ليبرأ من مرض . . ولا يبذل نفس الجهد ليرضى الله ويمتنع عما حرمه .

وجاءت الساعة

« وإذا الجحيم سعرت . . وإذا الجنة أزلفت »

. . هنا يبقى وقت الحساب . . تماما كما تأتى السن التى يندم فيها الشاب على أنه لم يتعلم . . والمريض على أنه لم يتناول الدواء . . والشاب على أنه لم يعمل . . يأتى ذلك الوقت الذى يندم فيه الإنسان على أنه عصى الله . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أمهله مرات ومرات . . وأراه العذاب الأصغر . . وذكره بما يفعل . . ولكن النفس البشرية تريد أن تسعى إلى نفع عاجل . . وتعتقد أن الدنيا بلا نهاية . . والحياة ـ مهما بلغ العمر ـ ممتدة ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لم أر يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت »** . . ذلك أن الإنسان مهما بلغ عمره . . وهو يعرف يقينا إنه ميت . . يظن أن ذلك لن يأتى إلا بعد سنوات وسنوات . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع حدودا للاستمتاع البشرى . . ولكن الطمع البشرى ظل بلا حدود . . فالإنسان إذا أسرف فى الطعام مرض . . وإذا أسرف فى الرفاهية أصابت جسده العلل التى أصبحت تعرف الآن عند الطب بأمراض الرفاهية . . أو أمراض المدنية . . ولهذا حكمة .

إن ما يمكن أن تتمتع به وقتا أو كمية محدود . . حتى تحس أن ذلك للزائد عن الحد قد أعطى لك لتعين به غيرك على حركة الحياة . . وانك إن لم تفعل ذلك فلا فائدة له عندك . . ولكننا مع هذا كله . . وفى مشوار الحياة القصير . . ننسى أن الله يسمع ويرى . . وننسى أن الحساب الذى أخبرنا الله عنه . هو علم يقين فعلا .

ولو تذكرنا هذا لعرفنا تفاهة ما نحصل عليه كل قانون من هذه القوانين . . حكمة تقديم العملى أولا للحصول على الثمار . . وهذه الحكمة لا تمضى بدونها الحياة . . ونحن حريصون عليها فى الأعمال الدنيا . . ننساها بالنسبة للآخرة . . ولذلك يذكرنا الله سبحانه وتعالى بها .

ثم تمضى السورةالكريمة :

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

سورة التكوير

. . أى أنه إذا حدث هذا كله . . وخرج كل ما فى هذاالعالم عن المألوف . . فالشمس والجبال . . والنجوم . . وكل آيات الكون . . الكبرى التى أخضعها الله سبحانه وتعالى للإنسان . . وسخرها له . . ووضع لها نظاما رتيبا تمشى به . . خرجت عن هذا النظام . . وعن هذا المألوف . . وعن مهمتها . . لأن الحياة الدنيا قد انتهت . . فى هذه اللحظة تعلم كل نفس ما أحضرت .

لماذا . . ما أحضرت

ويعض الناس يتساءل هنا . . لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى « **ما أحضرت** » . . ولم يستخدم ما أحضر لها . . وهل النفس هى التى قامت باحضار هذه الأشياء إلى الآخرة . . أم أن قدرة الله سبحانه وتعالى هى التى أحضرتها له . . ولكن كما قلت وأقول دائما لكل لفظ فى القرآن حكمة ودقة فى الاختيار . . فلا يوجد شىء فى كتاب الله اسمه الصدفة . . بل كل شىء بميزان دقيق .

الله سبحانه وتعالى يقول:« **ما أحضرت** » . . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان فى هذه الحياة . . ويبين له طريق الحق . . ثم بعد ذلك ترك له حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل . . الذى آمن بالله سبحانه وتعالى وصدق الرسالات دخل فى

تعاقد إيمانى مع الله . . فقال يا ربى لقد آمنت . . وآمنت بمحض اختيارى . . وبهدايتك إلى . . ومن هنا فإننى بإيمانى التزمت بما تقول فى افعل ولا تفعل . . فكأن الإنسان المؤمن ألزم نفسه أولا بالإيمان بالله . . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يذكر الأوامر التكليفية فى القرآن . . يقول :

« يأأيها الذين آمنوا »

فى كل أمر تكليفى . .

« يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ».

أى يأيها الذين ارتضيتم الإيمان طريقا باختياركم الحر . . وصدقتم ، فهذا هو المطلوب منكم .

إذن فالإنسان شريك هنا فى كل ما يتم من أفعال يحاسبه عليها الله سبحانه وتعالى بالثواب أو بالعقاب . . ومن هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« علمت نفس ما أحضرت »

. . لأنه لم يحضر لها شيئا لا علاقه لها به . . وإنما أحضر لها كل شيء لها به علاقة . . والنفس هى التى آمنت . . وارتضيت . . وصدقت . . ودخلت فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى . . ولذلك هى التى أحضرت . . أى فعلت أعمالها .

وأولئك الذين لم يؤمنوا . . هم رفضوا الدخول فى الإيمان بالله . . وبرفضهم هذا اختاروا طريقا آخر . . وفعلوا ما فعلوه . . باختيارهم هذا الطريق . . ولذلك أحضر لهم ما فعلوه . . لأنهم شركاء فى الفعل أيضا . . ليس بالإيمان . . ولكن بالعمل . . بإنكارهم رسالة الله . . وبالعمل على عكس ما رسمه الله سبحانه وتعالى منها للحياة فى افعل ولا تفعل . . فالنفس البشرية شريكة فى كل ما تقوم به . . وهذه النفس تعلم ما أحضرت فى يوم القيامة .

ولكن كيف تعلم ؟ إذا كانت نفسا مؤمنة . . فقد علمت بما آمنت به . .

نقول نعم .. ولكنها علمت به علم يقين ..

أى أيقنت أن هذه الساعة ستتم .. وأن الحساب سيكون .. ولكنها فى هذه اللحظة ترى كل شىء عن اليقين .. والنفس التى لم تؤمن أنكرت كلّ هذا .. وحاولت أن تستره ومضت فى الدنيا تحاول بعقلها المحدود أن تشق طريقا آخر بمنطق الهوى .. وليس بمنطق الحق .. فى هذه اللحظة لم تكن عند هذه النفس صورة ما يحدث يوم القيامة .. ولم تقبل على الصورة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى .. فى هذه اللحظة تعلم علم اليقين .. وترى عين اليقين .. لا علم الصورة .. وبعد أن كان الأمر مبهما .. أو كان الأمر مستورا عنها .. أصبح واضحا مرئيا رأى العين .. بحيث لا يستطيع أى واحد أن ينكر أى شىء .. لا يستطيع من لم يؤمن أن ينكرْ فى هذه اللحظة وهو يرى عين اليقين .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا لا تغتروا بثبات الوجود .. لا تغتروا بأن الشمس تشرق كل يوم .. والأرض ثابتة .. والجبال راسية .. والدنيا تبدو وكأنها دائمة .. لا تغتروا بكل هذا وينسيكم ما هو قادم .. ذلك أنه فى اللحظة التى تنتهى فيها الحياة .. سيذهب كل هذا فى غمضة عين .. كل ما نألفه .. وألفته سيضيع وينتهى .. وكل ما تعودت عليه سيختفى .. وسنجد عالما آخر مختلفا تماما عن ذلك الذى ألفته .. بل لا يمت إليه بصلة .. ستكشف لك أشياء لم تكن تعرفها .. وستظهر لك أسرار كانت خافية عنك .. إن هذا سيحدث ويجب أن نوقن أنه سيحدث .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس » ..

.. لماذا يقول الله سبحانه وتعالى لا أقسم ..؟ بينما الهدف هو القسم ..

الله لا يجيء بمادة القسم

نقول : أن الله سبحانه وتعالى يقول فى السورة :

« **فلا أقسم بالخنس** » . .

ذلك أن الله عندما يجب أن يقسم . . لا يجيء بمادة القسم أبدا . . فيقول سبحانه وتعالى :

« **والطور وكتاب مسطور** »

. . ولا يقول أقسم بالطور . . فكما قلنا ، إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يقسم لا يأتى بمادة القسم . . وإنما حين ينفى القسم فهذا تأكيد له . . لماذا . . ؟ . . لأن القسم على الشيء معناه اعتراف من المتكلم . . لشبهة المخاطب فى الانكار . . فأنت حين تتحدث مع شخص عن شيء ما . . وتجد فيه الشك تقسم له . . ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذا كله . . ذلك أن علمه وقوله لا يصل إليهما الشك أبدا . . فإذا قال شيئا سبحانه وتعالى . . فيكفى أنه قال . . لأنه هو الله . . هو الخالق والعالم . . هو الله . .

ونحن إذا أردنا أن نقسم بشيء . . أقسمنا بالله . . لأنه عليم بكل شيء . . شهيد على كل ما يحدث . . ولكن الله سبحانه وتعالى ـ وذاته مصونة ـ حين يخاطبنا . . فإنه ليس محتاجا لقسم . . لأنه لا يوجد من هو أعظم ولا أعلم منه ليقسم به . . ومن هنا فإن قول الله وكلامه . . هما فى مرتبة القسم . . بل أعلى من مرتبة القسم . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

من الآية ٥٣ سورة فصلت

أى أنه كان يكفيهم أن هذا القول من الله ليتم التصديق . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريد لأحد يوم القيامة أن يكون له حجة عليه . . ومن هنا يأتى بالبينات فى كتابه . . ويضع من المعجزة فى القرآن . . ما يجعله كتاب هداية وصدق . . لكل من يعقل . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المنكرين . . لو كنت مقسما . . لأقسمت بكذا وكذا . . ولكننى لا أقسم . . والقسم هنا لا ينصب على الحقائق التى يذكرها الله سبحانه وتعالى . . ولكنه ينصب على صدق التبليغ عن الله . . فيما جاء فى القرآن الكريم . . فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا أقسم . . فى هذه السورة . . يأتى بعد ذلك بجواب . . وهو أنه لقول رسول كريم . . أى أن القسم لا ينصب على كلام الله . . ولكنه شهادة من الله سبحانه وتعالى على صدق البلاغ . . وصدق الرسالة . . إذن فنفى القسم هنا معناه أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم . . لأن كلامه أعلى من أى قسم فى هذه الدنيا . . ولازالة الشبهة عما يثيره وسيثيره بعض المبطلين عن هذا القرآن . . يقول الله سبحانه وتعالى لو كنت مقسما . . لأقسمت بكذا وكذا . . ولكننى لا أقسم . . وهذا معنى النفى هنا . . ويأتى هذا ليس عن الحقائق الموجودة فى القرآن . . ولكن عن أمانة التبليغ . . وهو ما سنتناوله بالتفصيل عندما نصل إلى الآيات التى تشرح ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلا أقسم بالخنس »

. . والخنس معناها الكواكب والنجوم . . تطلع من أماكنها فى أبراجها . . ثم تعود إلى أبراجها . . لماذا اختار الله النجوم فى هذا القسم . . وفى قسم آخر :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾

سورة الواقعة

ذلك أنه فى خلق هذه النجوم من المعجزات والآيات الكونية . . ما يعجز البشر جميعا . . والبشر عاجز علميا وعقليا عن معرفة العظمات الموجودة فى خلق السماء . . ولكن تكفى ومضة من الومضات لترينا هذه العظمة كأن يكون بيننا وبين كوكب مئات الملايين من السنين الضوئية لنرى البعد الشاسع واللا نهائى الموجود فى الفضاء لمواقع هذه النجوم . . ونعرف أن الله سبحانه وتعالى حينما صنع هذا الكون الهائل . . صنع فيه أشياء تصل أبعادها إلى مسافات ينوء فيها العقل . . وجعلنا نراها لنحس بهذه العظمة . . على أنه فى خلق النجوم وحركتها . . والنظام البديع فى هذا الكون . . آيات على دقة متناهية . . يعرفها كل من يدرس علم الفلك . . أو يعمل به . . فإن الحركة التى تتم فى السماء بهذه الدقة المذهلة . . ومنذ ملايين السنين هى من صنع خالق عظيم . .

والسبب الثانى للقسم . . هو أن هذه النجوم تمثل لنا حقيقة هامة فى الكون . . فنحن نراها بالليل . . ولا نراها بالنهار مثلا . . مع أنها موجودة . . وهى تبدو لنا ثابتة بالعين المجردة . . ولكنها تتحرك . . ولها مجالات مغناطيسية . . إلى آخر ذلك . . ومعنى هذا أننا عاجزون عن أن ندرك حقائق كثيرة من الكون ادراك الرؤية النظرية . . ذلك أننا نعتقد أن ما نراه فقط هو موجود . . أما ما هو غائب عنا فلا وجود له . . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . . فهذه النجوم سواء رأيناها . . إذا جاء الليل . . أو لم نرها إذا طلع النهار . . موجودة فى أماكنها . . لا تغيب بمجرد طلوع الشمس . . ثم تعود عندما يأتى الليل . . فعدم رؤيتها بالنهار ليس اختفاء لها . . ولكنه عدم ادراك منا لهذا الوجود . . وهذه النجوم سواء لاحظنا حركتها أو لم نلحظ . . فلها حركتها فى الكون . . وعدم ملاحظتنا لهذه الحركة ليس معناها أنها توقفت . . بل هى موجودة . . ومن هنا فإن الله يريد أن ينبهنا . . إلى أن هناك أشياء نراها . . وأشياء تختفى عنا . . ولكن اختفاءها عنا ليس انعداما لوجودها . . ولكنه خروج بها من علمنا . . أو بصرنا . . ولذلك فإن ما سيحدث يوم القيامة بالنسبة للشمس والجبال . . وكل ما ألفناه فى حياتنا اليومية . . هو مخفى عنا . .

لا نستطيع أن نراه أونرصده . . ولكن هذا الاختفاء لا يعنى عدم الوجود . . ولكنه يعنى عدم العلم منا بهذا الوجود . . فإذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن هذا سيحدث . . فيجب فى هذه الحالة ألا نحكم عقولنا أو علمنا . . بل أن نصدقه . . لأنه يأتى ممن هو أعلم منا . . وممن خلق هذا الكون ووضع له

نظامه . . وإذا كنا نريد أن نعتمد على علمنا فقط . . فالله يأتى لنا بأشياء ظاهرة . . لا تحتاج إلى أبحاث . . وإنما يراها كل الناس . . ويقول لنا : انكم لا ترون هذه النجوم وقت طلوع الشمس . . ولكنها موجودة . . فالانكار هنا مردود عليه بأن علمكم قاصر . . وحواسكم قاصرة . .

والله سبحانه وتعالى قد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة فى الاحساس بالوجود. . . مع عدم فهم الشيء . . أو قصورنا عن فهمه . . ولعل أبرز الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . هوالروح . . ذلك أنه جعلها ظاهرة وخافية . . وتلك هى المعجزة . . ففى الوقت الذى هى فيه أوضح من الوضوح . . هى من أدق الأسرار التى لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

أين الـــروح ؟. .

ونفسر هذه النقطة قليلا . . الإنسان أو أى كائن حى . . نقول : الإنسان يمشى ويتحرك . . ويرى . . ويسمع . . ويحس إذا كان حيا . . فإذا خرجت الروح ذهب كل هذا وأصبح جثة بلا حراك . . إذن نحن جميعا نرى الروح . . ليس فى ذاتيتها . . ولكن فى آثارها . . نراها فى أنفسنا . . ونراها فى غيرنا من البشر جميعا . . بل وفى كل الكائنات الحية . . والدليل على الروح هو القدرة على الحركة . . والكلام . . والرؤية . . والطعام والشراب . . وكل ما يفعله الإنسان فى حياته . . فلو خرجت هذه الروح لحملنا الجسد وواريناه التراب . . لأنه بدون الروح لا شيء .

هذه حقيقة ليست محتاجة إلى مناقشة . . لأننا نراها رأى العين . . ولا أحد يستطيع أن يجادل فيها . . لأنه لا أحد يستطيع أن يجعل الميت الذى غادرت الروح جسده . . يقوم بوظائف الحى . . الذى مازالت فى جسده الروح . . ومع ذلك فما هى الروح . . لا أحد يعرف . . وأين مكانها . . هل هى فى القلب الذى ينبض . . أو فى العقل الذى يفكر . . أو فى العين التى ترى . . أو فى الأذن التى تسمع . . أو فى اليد التى تفعل . . أو فى القدم التى تمشى . . إنها فى كل هؤلاء جميعا . . ولكننا لا نستطيع أن نحدد مكانها بالضبط . . قد يقول بعض الناس أن الروح فى كل خلية حية . . وهذا صحيح نظريا . . ولكن إذا أصيب إنسان فى حادث . . وبترت قدماه مثلا . . فهل انفصل جزء من روحه . . أم أن الروح باقية فى جميع أجزاء الجسم تؤدى وظيفتها كاملة . . الذى انفصل وتم بتره هو الأداة التى تقوم بالعمل . . أما الروح نفسها فما زالت باقية تعطى وتهب الحياة للجسم . . والدليل على ذلك أنها عندما تخرج يموت الإنسان . . فيتوقف كلية عن كل وظائف الحياة .

إذن فتحديد مكان الروح بالضبط . . لا يمكن أن يصل إليه أدق العلماء . . لأن آثارها والدليل عليها موجود فى كل أجزاء الجسم . . ولكن وجودها لا يعطينا علما عنها . . وهذه هى المعجزة . . فها هى الروح . . ظاهرة أمامنا فى كل جسد . . ولكن إنسانا لن يستطيع أن يخرج روحا من جسد . . ويقول هذه هى الروح . . أنظروا . . هى التى كانت تحرك هذا الجسد كله . . أو يعيد ادخال الروح إلى جسد تكون قد خرجت منه . . وهنا رغم ظهور آثار الروح تماما . . فإن السر مخفى عنا .

نصل بذلك إلى أن الروح هى التى تدير الجسم . . وتعطيه الحركة والحياة . . والحس . . ظاهرة آثارها . . ولكن بالله عليك ما شكلها . . هل رأيتها . . هل سمعتها . . هل لمستها . . إنها فى كل وسيلة من وسائل الحس . . ولكنك مع كل وسائل الحس عاجز عن ادراكها . . فإذا تحدث الله سبحانه وتعالى عن

الكون .. وحركته .. وما لا تراه فيه .. فلا تنظر إلى هذا القول .. بالتعجب .. لأن عنصرا خلقه الله سبحانه وتعالى .. وأدخله فى جسدك .. ثم جعله لا يدخل فى علمك .. أو فى نظام حسك .. أو قدرة رؤيتك .. فإذا كان مخلوق من مخلوقات الله .. وهوا لروح .. لا يدخل فى نطاق رؤيتك .. فكيف يكون الخالق سبحانه وتعالى .

إذن فقسم الله سبحانه وتعالى بالخنس .. الكواكب التى تطلع من أماكنها ..
« والجوار الكنس » .

أى المكان الذى يأوى اليه الظبى .. أو الحيوان .. والذى قد تمر عليه .. وهناك ظبى فيه .. وأنت لا تدرى ولا تعلم .. ولكن لأن هذا أخفى عليك .. ليس معناه أنه غير موجود .. بل معناه أن علمك لا يصل إليه .. ثم يجىء بعدها ..

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ ﴾

سورة التكوير

« والليل إذا عسعس » معناها أنه اشتد ظلامه .. ومعنى ذلك أن أولئك الذين ينكرون هذا إنما يعيشون فى جهل له ظلام دامس مثل الليل تماما .. فهم لا يرون شيئا .. لأن الظلام الذى وضعوه حول أنفسهم يقصر كل حياتهم على الماديات التى يرونها .. هذا الظلام قد حجب عن أنفسهم نور الإيمان الذى كان يقودهم إلى الحقائق .. ولف الشىء بالظلمة .. والظلمة الشديدة .. هو اخفاء له عن النظر دون اختفائه من الوجود .. فالعلاقة هنا بين النجوم .. وظلمة الليل .. والبيت الذى يختفى فيه الظبى أو الحيوان .. تأتى فى معنى واحد .. وهو وجود الشىء رغم عدم علمك به ..

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
« والصبح إذا تنفس » .

وهذه معجزة الحياة فى الكون . . ولقد ثبت أن الكون كله يتنفس مع الصبح . . تأتى ملايين الأشجار فى الكون . . فتأخذ الهواء الفاسد . . وتعطى الأوكسجين اللازم لحياة البشر . . الحياة الصحيحة . . ولذلك فكلما ابتعد الإنسان عن المدينة . . والتلوث الذى يحدثه الكون . . وذهب إلى مكان فيه حدائق وأشجار . . كان ذلك أجدى لصحته وأحسن . . لأنه سيعيش فى جو من الأوكجسين النقى . . الذى يخرج من هذه الأشجار كل صباح فكأنه سيعيش حياة تملؤها الصحة . . والناس حريصون على أن يحيطوا منازلهم والأماكن التى يعيشون فيها بالأشجار والحدائق لهذا السبب . .

والصبح عندما يتنفس يكون أنقى ، الأوكسجين قد انطلق إلى الدنيا . . ثم تبدأ الحياة . . ووسائل المواصلات والمصانع . . وكل ما فعله الإنسان لتفسد جمال ما خلقه الله فى حياة للبشر .

والصبح إذا تنفس . . أى أن له حياة . . فكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل الشديدة . . التى تخرج فيها يدك ولا تكاد تراها الظلمة . . مع علمك بوجود هذه اليد . . فانك لا ترى مكانها . . يأتى الصبح . . واشراق الضوء . . ليعطينا الهواء النقى للتنفس . . وتخرج الأشجار والنباتات الأوكسجين صالحا نقيا . . لأن يتنفس به الإنسان . . فالكون فى الصبح فى ذلك الوقت يبدأ التنفس .

وإذا أردنا أن نضع المعنى متكاملا . . فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن أشياء ستحدث يوم القيامة . . ثم قال لنا ان عدم علمكم بها لا ينفى وجودها . . وأنها ستحدث . . وأضاف أن علم الإنسان قاصر . . كظلمة الليل تختفى بعض الأشياء فيها . . فلا تتبينها العين رغم وجودها . . وإن هذا القرآن هو الصبح الذى يريك كل شىء بوضوح . . وهو كعملية التنفس التى تتم على الأرض لأنه يدلك على طريق الحياة الطيبة الآمنة . . ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى هذا المثل . . إننا سنكمل الحديث فى الفصل القادم .

الفصل الثانى

قوانين الكون والإنسان

الدنيا كلها بجميع قدراتها . . وعلومها وتقدمها . . لا تصل إلى ذرة فى علم الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإن ما يقوله الله ليس محتاجا إلى تأكيد . . لأن قول الحق أكبر من أى تأكيد . . وغير المؤمن يحاول دائما أن يدخل الشك إلى القلب المؤمن بكلمة كيف . . ذلك أنه فيما تتناوله الآية الكريمة من علامات القيامة يحاول الإنسان أن يثير الجدل حولها بكلمة كيف . . كيف سيحدث هذا ؟ .

والعلم الحديث يكشف لنا عن أشياء . . ولكنه لا يستطيع أن يفسر لنا أشياء كثيرة تحدث فى الكون . . والقانون الذى يربط الإنسان وهو نائم بالكون . . غير القانون الذى يربطه وهو مستيقظ . . أنه عندما يكون منتبها متيقظا . . تحكمه قوانين معينة . . فيرى بعينيه . . ويسمع بأذنيه . . ويمشى بقدميه . . ويعيش حياته العادية . . فإذا نام . . رأى وعيناه مغمضتان . . ومشى وقدماه لا تتحركان . . وحدثت له أشياء لا يمكن أن تحدث له فى الدنيا . . ولا تخضع لمنطق العقل . . وذلك يتم دون أن يستطيع العلم أن يحدد لنا كيف . . أو يكشف لنا كيف تتغير علاقة الإنسان بالكون . . وتتغير كل القوانين التى تربطه به . . وقد سألت صديقى العالم إذا كان الإنسان يرى بعينيه . . فكيف يرى وهو نائم مغمض العينين . . وإذا كان الإنسان يمشى بقدميه . . فكيف يمشى ويجرى فى الحلم وقدماه راقدتان فوق السرير . . سألته لأنه دائما يريد أن يعرف كيف .

وقلت أن الأحاسيس التى تربط الإنسان بالكون وهو مستيقظ . . تربطه وهو نائم . . ومع الأحاسيس بالشعور . . فإذا رأى حلما يحزنه . . قام والدموع فى عينيه . . وإذا رأى حلما يبهجه . . قام والبسمة على شفتيه . . وإذا رأى حلما يفزعه قام فزعا .

إذن فهناك قانونان مختلفان يتحكمان فى الإنسان . . أحدهما يخضع له وهو مستيقظ . . وهذا يدرسه العلم ويقترب منه . . ومن بعض حقائقه . . والقانون

الثانى يخضع له نفس الإنسان وهو نائم . . وهو ما يحاول العلم أن يصل إليه ولكنه لا يستطيع . . وهناك قانون ثالث يحكم علاقة الإنسان بالكون بعد أن يموت . . ثم هناك قوانين ليوم القيامة . . كل قانون من هذه القوانين يحدد علاقة مختلفة تماما بين الإنسان وقوى الكون . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يقرب إلى أذهاننا هذا . . فأرانا اختلاف علاقة الإنسان بالكون فى حالة النوم واليقظة . . فذلك رحمة من الله بعقولنا . . ذلك أن الله عندما ينبئنا عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل الإنسانى . . ولا يريد أن يكشفها له . . يعطينا بجانبها ما يبسطها لنا ويقربها من أذهاننا . .

على أن كلمة « كيف » . . تأتى دائما لتحاول تشكيك الإنسان المؤمن أو احراجه وسط الذين يدعون العلم . . وينكرون الإيمان . . فهو يريد أن يعرف كيف خلق الله الكون . . وكيف يبعث الله الناس يوم القيامة . . إلى آخر هذا الكلام الذى يقال .

والحقيقة ان استخدام كلمة كيف هنا ضد العلم البشرى . . وضد القوانين البشرية . . وكل قوانين الدنيا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يكشف للإنسان عن أشياء فى الكون . . ويخفى عنه أشياء أخرى . . هذه مشيئة الله . . وتلك حكمة أرادها الله ليمتحن من يؤمن بالغيب . . ومن يكفر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء . . ومن هنا فإنك حينما تقول كيف فى أشياء غيبية . . لا تستطيع أن تصل إليها بالعلم البشرى . . أى فى داخل المعمل وبتجارب معملية . . وحينما تكون كيف هذه عن قدرة الله سبحانه وتعالى . . وقوة الله سبحانه وتعالى . . فإنك هنا تنكر كلمة لا إله إلا الله . . لماذا ؟

لأنك تقول كيف حينما يكون الإنسان متساويا مع من يناقشه . . بمعنى انى وأنا لم أدرس الطب . . لا أستطيع أن أناقش الطبيب . . وإذا لم أدرس الفلك مثلا . . لا أستطيع أن أناقش عالم الفلك فى حركة النجوم والكواكب . . تلك

حقيقة كونية لا يستطيع أحد أن ينكرها . . عندما أقول كلمة كيف . . لابد أن يكون العلم متساويا . . والعقل متساويا . . أو قريبا على الأقل . . فكلمة كيف لا تقال فى حياتنا البشرية إلا بين عقلين متساويين فى العلم . . ومن منا نحن البشر يستطيع أن يتساوى فى علمه مع الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن أنزل إلى الشارع . . وآتى بإنسان لم يقرأ كلمة فى حياته . . بل لا يعرف القراءة والكتابة . . ثم أتناقش معه فى كيف أعالج مريضا . . أو كيف ابنى عقلا الكترونيا . . أو كيف أصل إلى الكواكب . . أو فى نسبية الزمن . . كل هذا خارج عن نطاق علمه . . وبالتالى فإنه يجهله . . وأى نقاش فيه هو نوع من الجنون . . والغاء للعقل . . وسيقول عنى العلماء . . ومنهم من كنت أتناقش معهم . . انني رجل مجنون . . كيف تشعر إذا قرأت اعلانا عن مناقشة تجرى بين اينشتين مثلا . . وأحد سكان الغابات عن كيفية التفجير الذرى أو النووى . . أو غزو الفضاء . . هل يسمح العقل البشرى بهذه المناقشة . . وهل يمكن أن تحدث . . وهل يجتمع علماء الأرض ليروا أو يستفيدوا من النقاش الذى يجرى بين رجل الغابة . . وبين اينشتين حول غزو الفضاء . . وما سيضيفه هذا النقاش من علم للبشر وللبشرية .

أظن أن هذا مستحيل . . وأن مناقشة مثل ذلك ستثير سخرية العالم . .

ولكن للأسف الشديد فإن ما ينكره العلماء على غيرهم من البشر بالنسبة للعلم . . يستبيحونه بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . وهم يريدون أن يناقشوا كيف خلق الله . . وهم يريدون أن يناقشوا الموت والبعث . . والجنة والنار . . وتلك غيبيات إيمانية أبقاها الله فى علم الغيب عنده . . ولم يطلع عليها أحدا من خلقه . . ومن هنا فإنه لا يمكن النقاش فيها . . لأن هذا النقاش لن يوصلنا إلى علم . . وإذا كان الفارق بين رجل تربّى فى الغابة وبين اينشتين هو مائة درجة . . فالفارق بين علم أكبر علماء الأرض . . وبين علم الله هو بلايين البلايين من الدرجات التى لا تعد ولا تحصى . . فالله ليس كمثله شىء . . والله

سبحانه وتعالى لا يصل لذرة من علمه أحد .. ولذلك قال الله فى قرآنه الكريم :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

سورة الإسراء

علم الله .. والإيمان

انى أستطيع أن أناقش .. أن أدرس ظواهر الكون .. تلك التى أستطيع أن أدخلها فى المعمل .. وأجرى عليها تجارب بعيدة عن نظريات الهوى .. أو الكلام الذى يقال بلا دليل .. ولكن كل شيء غيبى عنا هو علم الله .. وهو يدخل فى قضية الإيمان .. ولا يدخل فى قضية العلم .. فإذا كان الله قد أرانا آياته فى الأرض .. وبين لنا فى كتابه العزيز قوانين الكون قبل أن تكتشف بمئات السنين .. بل وبألوف السنين .. ليدلنا على أنه الخالق .. فإن ذلك يكون كافيا جدا لقضية الإيمان .. أما من يريدون أن يضعوا قدراتهم .. مثل قدرة الله سبحانه وتعالى .. فيقولون كيف .. هم بذلك يحاولون أن يضعوا قدرة عقولهم فى كفة متساوية .. مع قدرة الله سبحانه وتعالى . وهذا مرفوض تماما .

ولكن صديقى العالم لم يكتف بهذا الكلام .. بل قال:كيف يكلم الله الناس فى يوم القيامة .. هذه الألوف من اللهجات .. وهذه الألوف من اللغات .. كيف يكلمها الله فى فترة واحدة .. ودفعة واحدة .. ونسى الآية الكريمة التى تقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

سورةالروم

أى أن اختلاف اللهجات هو آية من آيات الله سبحانه وتعالى .. والله هو

الذى منح الإنسان نعمة الكلام .. وعلم اللغة تصديقا لقوله تعالى :
« **وعلّم آدم الأسماء كلها** » .

والله حين أرسل الرسل .. أرسلهم بلغة أقوامهم .. وكان لابد لكى ينتقل العلم من إنسان إلى إنسان .. ومن جيل إلى جيل .. وإن ترث البشرية الحضارة .. أن تكون هناك لغة .. بل أن الله سبحانه وتعالى يقول :
« **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** »

أى أن الكلام لآدم علمه الله سبحانه وتعالى .. ثم علم آدم حواء .. ثم بدأت اللغة فى البشرية كلها .. ومن هنا فإن هذه آية من آيات الله .. خص بها الإنسان .. وميزه بها .. ووهبها له .. وإذا كانت اللغة هبة من هبات الله للإنسان .. فإذا كل فرد منا يفهم اللغة التى أراد له الله أن يتحدث بها .

ولقد أراد الله أن ينبئنا أن اللغة هبة من عنده .. وليست وراثة .. وليست خاضعة لأقوام دون أقوام .. ولا هى حسب الجنس .. فإذا أتينا بطفل صغير من أوربا .. ووضعناه فى بلد تتكلم اللغة العربية .. فإنه ينشأ وهو يتحدث اللغة العربية .. رغم أنها ليست لغة آبائه وأجداده .. والعكس صحيح بالنسبة لطفل عربى يوضع فى مجتمع أجنبى .. هذه الحقيقة وضعها الله ليؤكد لنا أن اللغة ليست وراثة .. وهو لم يختص بها قوما معينين .. بحيث إذا أتيت بطفل انجليزى .. فإنه يتحدث باللغة الانجليزية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها .. وإذا أتيت بطفل عربى .. فإنه يتحدث اللغة العربية مهما كانت البيئة التى ينشأ فيها .. ولكن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .. واللغة تعلمنا أنه لا جدوى أبدا من النطق بألفاظ لها مدلول ومعنى إلا إذا كانت قد سمعت أولا .. فلو انك أتيت بشخص أجنبى لم يسمع اللغة العربية .. ونطقت أمامه ألفاظا عربية .. فإنه لا يفهم شيئا .. وكذلك بالنسبة للعربى الذى تنطق أمامه ألفاظا غير عربية .. فإنه لا يفهم أيضا .

نعود بعد ذلك إلى بداية العالم . . إذا كان العالم قد ابتدأ من ذكر وأنثى . . كما دللنا على ذلك . . كيف تفاهما . . لابد أنهما سمعا شيئا اعتادت عليه آذانهما . . فنطق به لسانهما . . وتكلما به . . ولكن كيف سمعا وهما الأول والبداية . . وممن سمعا . . إذن لابد أن يكون هناك سمع ليس من جنسيهما . . لأن الأصل . . فى الجنس البشرى أنه من لا يسمع لا ينطق . . كما نعرف جميعا . . إذن لابد أن يكون قد علمهما معلم آخر . . إذن فالإيمان بوجود الله ضرورة لغوية . . لأنه لابد أن الله سبحانه وتعالى قد كلم آدم فسمع . . وكلم آدم حواء فسمعت . . وبدأت اللغة لغة التخاطب والتفاهم نقلا عما علمهما الله .

هذا واقع مادامت هذه الإنسانية كلها قد بدأت من ذكر وأنثى وكان بين هذا الذكر وهذه الأنثى تفاهم . . فلابد أنهما سمعا الكلام .

وهنا يأتى قول الله سبحانه وتعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ليشرح لنا ما حدث . . فالله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . . أى اللغة التى يتحدث بها ويتفاهم بها . . ويتكلم بها . . ومن معجزات القرآن أن ذلك لا يزال هو المتبع حتى الآن رغم مرور هذا الوقت الطويل . . وهذا التقدم العلمى الضخم فى العالم . . فنحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فأننا نبدأ بأن نعلمه الأسماء . . ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث . . أو أى شىء آخر . . إنما نعلمه الأسماء أولا . . أول شىء نقول له هذا قلم . . وهذه كراسة . . وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذا طعام . . وهذا طريق . . وهذا نور . . وهذا ظلام . . نعلمه الأسماء أولا . . وبعد أن يتعلم الأسماء تصبح الاشتقاقات من الأسماء . . وأخذ الأحداث منها عملية سهلة . . إذن عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها »

فيجب أن نعرف أن الله قد علم آدم لغة الكلام أولا . . وأن لغة الكلام حتى عصرنا هذا تبدأ بتعليم الأسماء كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى علم الإنسان اللغة التى يتكلمها . . ألا يستطيع أن يخاطبه بكل لغة علمها . . أو عرفها له . . ألا يمكن أن يتم هذا الخطاب فى وقت واحد ؟ . . العقل والمنطق والمدلول يقول نعم . . لماذا لأننا عرفنا بالدليل أن القوانين التى يخضع لها الإنسان متغيرة .

قوانين النوم . . غير قوانين اليقظة . . وقوانين الجسد . . غير قوانين الروح . . وهناك قوانين نعرفها . . وهى قوانين الإنسان فى اليقظة . . لأننا نتعامل معها فى الحياة . . ولكن هناك قوانين لا نعرفها ونجهلها تماما رغم أننا نعيشها . . وهى القوانين التى يخضع لها الإنسان وهو نائم . . فلا يستطيع أحد أن يفسر لنا هذه القوانين . . على سبيل الجزم . . إنما هناك نظريات بلا دليل . . فالعلم فى المادة التى تدخل المعمل . . قد يصل إلى علم يقينى . . ولكن فيما وراء المادة . . فإنها نظريات بلا دليل . . وعلى أية حال . . إذا كان العلم عاجزا عن أن يفسر لنا قانون الإنسان وهو نائم . . فكيف يريد أن يفسر لنا قانون الإنسان فى الآخرة .

والله سبحانه وتعالى حين كشف لنا من علم . . كشف لنا أن قانون قدراتنا موجود فى الكون . . فالبصر له حدود معينة يقف عندها .

. . فأنت لا تستطيع مثلا إذا نظرت بعينيك أن ترى ماذا يحدث فى قرية بعيدة . . أو فوق القمر . . ولكنك بواسطة عدسات تليفزيونية خاصة يدخل ذلك فى قدرتك البشرية . . أو فى قدرة عينيك على الأصح . . لأنك إذا كنت لا تبصر . . فلا أحد يستطيع أن يدخل شيئا فى قدرة إبصارك . . فالإنسان الأعمى لا يستطيع أن يستفيد من الامكانيات البشرية التى قد يعطيها العلم

للبصر كتكبيرالأشياء مثلا ملايين المرات . . ورؤية ماذا يحدث فوق القمر بواسطة عدسات تليفزيونية . . كل هذا هو للمبصر وحده . . وكما يقال عن التليفزيون . . يقال عن الاذاعة . . فأنت تستطيع أن تسمع إنسانا يتحدث فى أمريكا . . أو فى أى مكان فى العالم . . بواسطة استخدام الأثير . . ولكن فاقد السمع مهما قدمت له . . لا يستطيع أن يستفيد من ذلك .

إذن . . فهناك قوانين يخضع لها البشر . . فى اليقظة والحياة العادية . . وهذه القوانين هى خليط مما كشفه الله للإنسان من علم . . وما خلقه الله له من حواس يستقبل بها هذا العلم .

عندما نتحدث لمن رحلوا عنا

على أنه عندما ينام الإنسان . . يخضع لقوانين أخرى بعيدة تماما عن قوانين الحياة . . فهو يرى أشياء وأماكن لم يرها فى حياته . . وربما ليس لها وجود فى الدنيا . . وهو يفعل أشياء لا تنطبق عليها قوانين الأرض . . كأن يقفز من جبل عال . . وينزل إلى الأرض سليما . . بل أنه أكثر من ذلك أحيانا يرى أولئك الذين رحلوا عن هذه الدنيا من أسرته . . ويتحدث إليهم ويكلمهم . . وهو أحيانا فى أحلامه يبكى . . وأحيانا يضحك . . وأحيانا يقوم منزعجا . . وأحيانا يقوم مسرورا . . فكيف يمكن أن يحدث هذا كله للإنسان . . مع أنه نائم . . كيف يمكن أن يرى وعيناه مغمضتان . . مع أننا لو وضعنا عصابة على عينيه فى اليقظة . . لا يستطيع أن يبصر . . كيف يمكن أن يحس ويشعر . . ويتعذب ويتألم . . ومن أين تأتى هذه الأماكن العجيبة التى يراها . . والتى لا وجود لها فى الدنيا . . والعلم عاجز حتى الآن عن أن يعرف كيف يرى الإنسان وهو نائم وعيناه مغمضتان . . وكيف يمشى ويجرى وهو على السرير قدماه لا تتحركان . . إذن فقوانين الكون التى يخضع لها البشر خلال اليقظة تختلف تماما عن تلك التى يخضع لها خلال النوم . . مع أن الفرق بينهما دقائق . . فإذا أخذنا نحن قوانين

اليقظة وحدها . . على أنها القوانين التى تحكم البشر. . وتركنا قوانين الكون التى نعيشها جميعا . . فإننا نجد أنفسنا قد تركنا جزءا هاما من حياة الإنسان . . وإذا نحن أخذها بكلمة كيف . . فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن أن نقدم تفسيرا علميا واضحا لما يحدث . . والجواب هنا أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرينا يقينا أن علمنا قاصرا حتى نتخلى ـ فى قضايا الغيب التى هى أكبر من قدراتنا ـ عن كلمة كيف . . ونعرف أننا فى حياتنا نخضع لقوانين لا نستطيع تفسيرها . . مع أننا نراها يقينا . . ومن هذا المنطق . . فإن الإيمان ليس رأى العين . . ذلك أن رأى العين لا تدخل فى العقل الإيمانى . . فأنا حينما أراك وأتحدث إليك . . لا أقول انى أؤمن بأننى أراك . . لأننى أراك فعلا . . ولكنى حينما أؤمن . . فأننى أناقش القضية حتى يقتنع بها عقلى . . وحينئذ يصبح الإيمان بما هو غيب عن هذا العقل . . قياسا على ما هو واقع . . وبعد فكر ودراسة ومناقشة . . لكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لنا من شواهد تقودنا إلى الإيمان . . ولذلك يبدأ القرآن الكريم فى سورة البقرة بقوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

سورة آل عمران

أى أن الإيمان بالغيب أساس من أسس العقيدة . . وحيث أنك لا ترى الغيب . . فإن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا ما يقربه إلى عقولنا بحيث يدخل الإيمان إلى القلب . . ولا يصبح الغيب محل المناقشة . . فحين يقول الله سبحانه وتعالى أن كل شىء يوم القيامة سيتغير ويتبدل . . فإن هذاالكلام مادام صادرا عن الله سبحانه وتعالى . . فيكفى مصدره وصدوره عن الله . . ليصبح يقينا دون أية اضافات أخرى .

داخل النفس البشرية

وهناك فى حياتنا أشياء نستطيع أن نحسها ونراها . . ولكن هناك أشياء لا نراها ونحسها . . فالاحساس بالجوع والحب والكره . . أشياء لا تنطبق عليها الرؤية . . ولكنها مع ذلك غرائز وضعت فينا . . وموجودة داخل النفس البشرية . . والحقيقة أن الإلهام والشعور داخل النفس البشرية . . يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم . . تلك سنة الخلق . . فالطفل الصغير قبل أن يتصل بالعالم الخارجى . . أو بعد ولادته بساعات . . أو أيام . . يحس بالجوع والعطش . . والألم . . ويعبر عنها بالبكاء . . ويحس بالحنان والدفء . . والحب والكره . . والقسوة والرحمة . . كل هذه الأشياء توجد فى داخل النفس البشرية . . مع دقات الحياة الأولى . . بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أو شهورا . . قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل .

وإذا درسنا النفس البشرية . . وإحساساتها الداخلية . . نجد أن قواها هى إحساس الإنسان بوجود الله . . هذا الإحساس الذى يفتقر فى بداية حياتنا إلى شىء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته . . والكون ووجوده . . ولكنه يؤكد ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى .

وأحب أن أوضح هذه النقطة قليلا . . إن النفس البشرية التى فيها أحاسيس لم يستطع أحد أن يحللها بدقة . . ولا نستطيع نحن أن نصل إليها . . هذه النفس تحس يقينا بوجود الله سبحانه وتعالى . . فاسم الله مثلا . . هو شىء لا تدركه الحواس الخمس . . ولا يدركه العقل البشرى . . لأنه أكبر من كل هذه القدرات . . ولكن تدركه حاسة داخل النفس . . حاسة غير مرئية . . ومن هنا فإننا إذا ذكرنا كلمة الله سبحانه وتعالى . . نجد أن الأذن تفهمها . . وأن النفس تجد بينها وبين الله ألفه . . ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية . . ذلك أنه لابد من وجود التصور أولا داخل النفس . .

حتى تألف الشيء . . ويستطيع أن يصل إلى العقل . . ومن هنا فإنك إذا حدثت إنسانا عن شيء لم يره . . ولم يسمع به فى حياته . . تجده لا يفهم . . خصوصا إذا ذكرت اللفظ دون شرح . . فأنت إذا قلت ناطحة سحاب مثلا . . أو مركبة فضاء . . أو حتى الأشياء البسيطة مثل كلمة بحيرة . . دون أن يكون الإنسان قد رأى فعلا هذا الشيء سواء رؤية مباشرة . . أو عن طريق التعلم . . فإنه لا يفهم . . ويسأل ما معنى هذا . . وتستطيع أن تجرب مع أطفالك بأن تخبرهم عن أشياء لم يروها . . ولم يعرفوا عنها شيئا . . وتذكر أمامهم مجرد الاسم . . حينئذ سترتسم على الوجوه علامة استفهام ضخمة . . ان من أمامك لا يفهم . . ولكن عندما تذكر اسم الله . . تجد كل نفس تدركه . . رغم أن أحدا لم يره . . ولم يستطع أن يصل بقدرة عقله إليه . .

ما معنى هذا . . معناه أن الله فينا بالفطرة . . أننا نحس بوجود الله فى داخلنا . . وان هذا اللفظ ليس غريبا علينا . . كيف يكون الاسم مألوف . . وهو خارج نطاق العقل . . بعض الناس يسميها الفطرة . . والبعض يسميها الالهام أو الشعور . . ومهما كانت التسمية فإن الحقيقة تبقى فى أن النفس البشرية تألف وتفهم اسم الله سبحانه وتعالى لمجرد ذكره . . وأنها تجد تألفا مع هذا الاسم . . وشعورا داخليا يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى ووجوده .

ولكن العالم المادى الذى نعيش فيه . . لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور . . وذلك يخبرنا به الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

سورة الأعراف

فمسألة الربوبية لا يختلف عليها أحد . . بل ان الإنسان منذ فجر التاريخ

وهو يبحث عما وراء المادة بطرقه المختلفة . . ولقد حاول بعض البشر أن يعبروا عن هذه القوة بأشياء استندوا فيها إلى عقولهم ، والتزم البعض الآخر بالرسالات السماوية التى أرسلها الله للبشر . . ليخبرهم عما يريدهم أن يعلموه بالنسبة للكون . . ومنهج الحياة . . وطريقة عبادة الله . . ولكن هؤلاء . . يحسون أن هناك قوة وراء هذا العالم . . وهى قوة عظيمة خارقة . . وهناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية . . يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى تراه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة . . قادرة منظمة قوية .

على أن هناك مرحلة أخرى أحب أن أسجلها . . هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله . . باستخدام العقل البشرى . . لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره حتى ينضج ويكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين . . ولكننا نجد الطفل الصغير يعبد الله . . والعقل البسيط الذى لم يقرأ كتابا واحدا يعرف أن الله موجود . . والإنسان الدارس والفيلسوف يعرف بوجود الله . . كل العقول تتفاوت فى الفهم . . وربما تتفاوت فى المنطق . . وفى أشياء كثيرة . .

ولكنها بكل ثقافاتها وفهمها سواء كانت بسيطا أو عميقا تعبد الله . . دون أن تحس أن هناك تناقضا بين وجود الخالق سبحانه وتعالى . . والكون الذى نعيش فيه . . بل أن أكثرهم يحسون بانسجام فطرى غريب . . بأن الله سبحانه وتعالى ووجود الكون حقيقيان داخل النفس . . ليس بينهما أى تناقض . . وإذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان كل من يحاول أن يحجب وجود الله ، يفهم هو معنى هذه الكلمة التى يناقشاها . . والتى يحاول أن ينكرها ليكون الهوى البشرى هو أساس المجتمع كله فإن وجود الله فيها بالفطرة . . وفهمنا جميعا لاسم الله الذى فوق قدرة العقل والاحساس . . والمناقشات التى تتم إنما هى كلها تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى موجود . . وأنه قادر على أن يغير هذا العالم عندما يريد ويأتى كل إنسان إلى الآخرة ليواجه حسابه .

ما معنى القسم ولماذا . . ؟

. . نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة التكوير

هذا هو الذى أقسم به الله سبحانه وتعالى فى بداية السورة . . فما معنى هذا القسم . . ؟

. . الله سبحانه وتعالى يبين لنا فى السورة أشياء هى غيبيات عنا . . لا يستطيع أن يدركها العقل البشرى إلا بالإيمان . . وفوق أن هذه الأشياء غيبيات عنا . . أى نحن لا نراها الآن . . ولكنها ستحدث فى المستقبل . . بل أنها فوق ذلك كله . . أكبر من القدرة البشرية . . بمعنى أنه ليس فى قدرة إنسان أن يفجر البحار . . أو يوقف أشعة الشمس . . أو يزيل الجبال . . ويبدل الأرض ويغير النجوم إلى آخر ما أنبأنا به الله من علامات الساعة . . هذه الأشياء إذا نسبت إلى القوة البشرية . . فإنه من الصعب تصديقها . . ولكنها إذا نسبت إلى قوة الله سبحانه وتعالى أصبح من الممكن أن تحدث . . ولذلك فنحن لسنا أمام أمر محجوب عنا فقط . . ولكننا أمام أمر لابد أن ينسب إلى قدرة الله . . لأنه لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله .

والصورة تعطى انقلابا عاما فى الكون . . ثورة فى الوجود . . تقضى على كل الأشياء التى اعتادها الناس . . وأصبحت نظاما رتيبا فى الكون . . وقانونا ثابتا محكما . . ثم تأتى فترة ينقلب فيها هذا كله . . ويتغير كل موجود . . إلا الله سبحانه وتعالى . . فالإنسان إذا أراد أن ينصرف إلى شىء فى هذا الوجود كله . . فلابد أن يرتبط بالوجود المطلق الذى لا يتغير . . وهو الله . . أما كل مخلوق

سوى الله . . فإنه سيتعرض للفناء مهما بدا ساكنا مستقرا أبديا . . ولذلك فإن الله حين أقسم يأتى القسم من الله سبحانه وتعالى . . وهو الوحيد الباقى . . وألا يأتى من أى شيء سيلحقه الفناء . . هذا أول أهداف القسم . . أما الهدف الثانى . . فهو بيان الوسيلة التى يتحقق بها للإنسان المؤمن النجاة من كل هذا . . والوصول إلى الحياة الخالدة الباقية . . وهذه الوسيلة هى اتباع منهج الله . ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره . . لأن كل عقل . . وكل نفس لها هوى . . وهذا الهوى . . أو الغرض يدخل فى كل ما تقوم به هذه النفس من اعداد أو تصوير لمنهج الحياة . . وأنت إذا أردت أن تعرف . . هل هذا المنهج من الله سبحانه وتعالى . . أو من صنع البشر . . فما عليك إلا أن تنظر إلى أولئك الذين يدعون إليه . . فالمنهج البشرى . . يضعه إنسان . . سواء كان مفكرا . . أو فيلسوفا . . أو سياسيا . . أو من رجال القانون . . المهم فى هذا كله . . أنه يضع هذا المنهج . . وتكون حوله مجموعة من الناس . . أيا كانوا . . وبأى شكل يدعون لتطبيق هذا المنهج . . أنظر إلى هؤلاء الناس . . إذا وجدت أنهم يستفيدون فائدة شخصية من تطبيق هذا المنهج . . بأن يزدادوا ثراء . . أو غنى أو نفوذا . . أو يمتلكوا شيئا . . فاعرف أن هذا منهج بشرى . . وضعه إنسان . . أو عدد من الناس لهم هوى أو غرض في نفوسهم يريدون تحقيقه . . فإذا أخذنا الشيوعية مثلا . . وأردنا أن نطبق عليها هذه النظرية . . نجد أن أولئك الذين يدعون لهذا المنهج . . أو يقودونه سواء كانوا أعضاء للجنة المركزية . . أو أعضاء للمؤتمر العام للحزب . . نجد أنهم مميزون عن باقى الناس يحصلون على ميزات . . لا يحصل عليها أحد غيرهم . . وهم يعيشون عيشة الترف والبذخ . . بينما شعوبهم تقاسي وتعانى أشد المعاناة . . ولذلك حين نجد فائدة شخصية لمن يدعون لتطبيق هذا المنهج . . نقول أنه منهج وضع لتحقيق غرض معين . . أو منفعة خاصة لعدد محدود من الناس . . وإذا أخذنا النظام الديكتاتورى مثلا فى أى من بلاد الدنيا . . نجد أن أولئك الذين يحيطون بالحاكم . . مستفيدون . . أو هم أكثر الناس استفادة من هذا النظام . . حينئذ نحس ونعرف أن هذا النظام من وضع بشر . . ولكن حين يقول رسول الله صلى

الله عليه وسلم . . « إذا سرقت فاطمة بنت محمد . . لقطع محمد يدها » . . وحين يقف أبو بكر الصديق . . وهو يحكم بتعاليم الله . . ليقول : القوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه . . والضعيف منكم قوى عندى حتى أخذ الحق له . . وحين يقول أيضا : « وليت عليكم ولست بخيركم . . فإن أصبت فأعينونى . . وإن أخطأت فقومونى » . . نعرف أن ذلك هو منهج الله . . لماذا ؟ . . لأنه لا يعطى ميزة لأى فرد من أولئك الذين يدعون إليه . . فإذا سرق أى إنسان أقيم عليه الحد . . وقطعت يده . . وإذا سرقت فاطمة بنت محمد رضى الله عنها . . يقام عليها الحد . . والذى يقيمه هو النبى والداعى . . فأى ميزة تلك هى التى حصل عليها . . بحيث تجعله يستفيد فوق سائر الذين يتبعونه . . وإذا جاء خليفة وحاكم . . وقال:إن القوى ضعيف حتى أخذ الحق منه . . والضعف قوى حتى آخذ الحق له . . أصبح مركز القوة الوحيد هو الحق وحده . . ولا توجد أى مراكز أخرى تستطيع أن تقف أمام الحق . . بل كل قوى يصبح ضعيفا حتى يؤخذ الحق منه . . وإذا كان الحق هو مركز القوة الوحيد فى الحكم الاسلامى . . انتهى الهوى تماما . . ولا يستطيع أى إنسان أن يحصل على ميزة . . بل أن المهاجرين فى أول الاسلام تركوا أموالهم . . وكل ما يملكونه من وسائل الترف والزينة والجاه . . والمال فى مكة . . وهاجروا إلى المدينة . . فكأنهم باتباعهم الدين الجديد لم يستفيدوا شيئا دنيويا . . بل تركوا أعز ما يملكون فى الدنيا فى سبيل المنهج . . والدعوة إليه . . وحيث تحس أن الإنسان يترك ما يملك . . فى سبيل منهج يتبعه ويدعو إليه . . ولا يستفيد شيئا . . فإنك تعرف أن هذا المنهج هو منهج الحق . . الذى لا يوجد فيه هوى . . ولا غرض دنيوى .

منهج البشر وكيف تعرفه ؟

ولكل إنسان ، مهما كان ، فى حياته هوى شخصى . . حتى ولو كان طفيفا . . فتلك هى الطبيعة البشرية . . ولكن الذى لا هوى له هو الله سبحانه وتعالى . . فهو غير محتاج لك . . ولا يريد منك شيئا . . وهو يعطيك

ولا يأخذ . . ولا يطمع فيما تملك . . ولا تستطيع أنت أن تنال من ملكه شيئا . . حتى يخافك أو يخشاك . . إذن فالتشريع هنا لا يتم عن هوى . . وإنما يتم عن حق وعدل . . فإذا زاد على ذلك . . مع أن علم الله لا يصل إليه بشر . . وحكمته فوق عقول الناس . . أصبح التشريع كاملا متكاملا . . والإيمان هنا هو إيمان بقدرة الخالق . . فمتى آمنت يصبح كل ما يصدر عن الله . . ولا تراه . . لأنه مخفى عنك . . أو لأنه سيحدث بعد فترة من الزمان . . أصبح كل هذا يقينا . . والذى يجب أن تتأكد منه فقط هو أنه صادر عن الله . . ومادام صادرا عن تلك القدرة الهائلة التى لا تحدها حدود . . ولا قيود . . فهى تستطيع أن تفعل ما تشاء . . وإيمانك يجعلنا نحس يقينا بأن ما يقوله الله سبحانه وتعالى هو الحق . . ولذلك جاء القسم . . جاء ليقول:إن كل هذه الأشياء التى أنبأتكم عنها مما سيحدث . . عندما تنتهى الحياة . . أو تأتى الساعة . . هى من الله وأن الذى أخبركم بها رسول كريم . . رسول لأن الله لا يخاطب البشر بالخطاب المباشر إلا فى الآخرة . . ومن هنا فلابد من رسول يختاره الله سبحانه وتعالى ليبلغ الرسالة أو المنهج . . وقد أتت الرسل على مر التاريخ تحمل تعاليم السماء إلى البشر . . وتصحح ما فسد من أن يصبح هوى النفس . . والغرض هو الحق . . وكريم بمعنى أنه معروف عندكم بكرم الخلق . . وقد كنتم تأتمنونه على كل غال ونفيس . . وحتى بعد أن أعلن الرسالة وبدأ الدعوة إلى الدين الجديد فأنت مازلتم تعترفون بكرم خلقه وتأتمنونه على كل غال ونفيس . . والدليل على ذلك أنه عندما هاجر رسول الله إلى المدينة . . كانت عنده ودائع من عدد من أهل مكة غير المسلمين . . تركوها عنده لكرم خلقه وأمانته . . وأنه كلف من يعيد إليهم هذه الودائع . . إذن فهو كريم وأمين بشهادة قومه قبل الرسالة . . وبعد الرسالة . . والله يقسم أنه كريم وأمين أيضا فى رسالته . . وأمين فى تبليغ هذه الرسالة كما أنزلها الله سبحانه وتعالى . . فالقسم هنا جاء عن أشياء تدخل فى قدرة الله وحده . . ولذلك لابد من تأكيد من الله . . بأنها ستحدث . . والقسم يأتى بأن البلاغ صحيح . . وأن الرسول الذى يقوم بالبلاغ معروف بكرم الخلق . . قبل أن يعهد إليه بالرسالة . . بشهادتكم جميعا . . وأنه

بعد أن أوحيت إليه الرسالة كريم أيضا . . بمعنى أنه سخى فى العطاء . . لا يؤدى ما طلب منه فقط . . ولكنه يزيد على ذلك حبا في الله . . وعشقا لمنهج الله . . فالرسول وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . يقوم الليل كله . . ويصلى حتى تتورم قدماه . . ويؤدى فوق ما طلب منه . . ويلزم نفسه بأشياء لم يلزم الله بها . . ولكنه يقوم بها تطوعا . . مع ما فيها من مشقة على النفس . . إذن فهو ليس فقط مبلغا ورسولا . . بل هو محب للمنهج . . كريم فى أداء ما طلبه الله منه . . إلى درجة ارهاق النفس لإرضاء الله .

هل هو محمد . . أم جبريل ؟

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

والله سبحانه وتعالى حين يقول قوة . . لا يعنى القوة البدنية . . ولكنه يعنى قوةالنفس . . فقوة البدن هذه مسألة سهلة يستطيع كل انسان أن يصل إليها . . ولكن قوة النفس هى الاختبار الحقيقى للرجال . . وقد قال رسول الله ليس القوى بالصرعة . . ولكن القوى من يملك نفسه عند الغضب . . فالله سبحانه وتعالى حين يصف نبيه بالقوة . . ليس معنى هذا أنه مصارع قوى . . أو معناه الغلبة البدنية . . ولكنه قوى يقف وحده أمام الدنيا كلها . . ويرفض أن يلين . . فإذا عرضوا عليه المال والذهب . . والحكم . . وكلها مغريات هائلة للنفس . . استطاعت قوة نفسه أن تتغلب على هذا كله . . فيقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر . . أو أهلك دونه . . ما قبلت » . .

هذه هى القوة الحقيقية للنفس . . قوى وهو يواجه مع قلة ضعيفة ذليلة جبروت قريش وإيذاءها دون أن يتراجع . . أو يصيبه الضعف أو الوهن . .

قوى وهو يخرج مع أبى بكر . . ويرى كفار قريش على باب الغار . . سيوفهم مشرعة . . فيقول لأبى بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . ولا يخشى . . ولا يخاف شيئا . . قوى وهو يأخذ بدعوته إلى المدينة . . ويواجه المعركة تلو المعركة . . حتى إذا جمعت له قبائل العرب كلها . . واليهود فى المدينة ليقضوا على دينه وجد نفس يواجه قوى هائلة . . لم يدخل الخوف إلى قلبه . . بل ظل ثابتا صامدا . . قويا فى الحق . . فعندما أتى على بن أبى طالب مع رجال يهودى ليقضى بينهما . . وجلس على إلى جوار الرسول . . قال له رسول الله : قم حتى أقضى بينكما . . قوى لأن الدنيا كلها لم تستطع أن تجرفه . . أو تشده إليها . . فيركن إلى الترف . . وإلى المسكن الفاخر .

هذه كلها وغيرها هى علامة قوة النفس الحقيقية . . ولذلك عندما كان أى إنسان له حق . . كان يرحب بأن يقضى الرسول بينه وبين خصمه . . وعندما يكون الإنسان عليه الحق . . كان يهرب من هذا القضاء . . لماذا ؟ . . لأنه يعرف أن قوة نفس الرسول ستجعل الحق وحده ينتصر دون أى شىء آخر مهما بلغ .

هذه هى القوة فى أمور الدنيا . . ولكن الآية الكريمة تقول :
« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

فما هى القوة عند الله سبحانه وتعالى . .

بعض المفسرين يقول : ان هذه الآيات فى وصف جبريل عليه السلام . . وأن الله سبحانه وتعالى . . أراد أن يعطينا ما هو غائب عنا . . وهو الرسول الذى اصطفاه الله سبحانه وتعالى من الملائكة ليبلغ إلى رسالة إلى محمد عليه الصلاة والسلام . . وأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد لنا أن كلا الرسولين . . سواء ذلك الذى نزل بالقرآن إلى الأرض وهو جبريل . أو ذلك الذى أبلغه إلى البشر وهو محمد عليه الصلاة والسلام . . كلاهما أمين فى بلاغه . . وبعض المفسرين يقول : ان الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لوصف

جبريل بالأمانة . . لأن جبريل مسير لا اختيار له . . فالملائكة يفعلون ما أمرهم الله . . وليس لهم اختيار فى أن يفعلوا شيئا أو لا يفعلوه . إنما الذى له اختيار فى ذلك هم البشر . . الذين حملهم الله الأمانة فقبلوها . . وأصبح لهم اختيارات . فهم يستطيعون قول الحق . . ويستطيعون إنكار الحق . . إلى آخر ما نعرفه من خيارات متاحة للبشر ، ولذلك فإن أمانة التبليغ هنا تأتى ردا على الكفار الذين يريدون أن يشككوا فى هذا الدين . . وتشكيكهم ينصب على أنه قول بشر . . أو قول شاعر . . أى أنه ليس منهج الله . . ومن هنا جاءت الآية لترد عليهم . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسولا من البشر . . ورسولا من الملائكة . . فلا تعارض فى أن تنطبق أوصاف القوة والأمانة والكرم عليهما . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« ذى قوة عند ذى العرش مكين » . .

أى أنه ليس قويا فى الدنيا فقط . . ولكن ممكن عند ذى العرش . . له مكانة عليا عند الله سبحانه وتعالى . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« مطاع ثَمَّ أمين » . .

قد يقول بعض الناس أن الرسول قد يتصف بالقوة والمكانة عند الله ولكن الناس الذين اتبعوه لا يطعيونه . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : ان أولئك الذين يتبعون هذا الدين لا يعصون الله ما أمرهم . . ويفعلون ما يؤمرون . . أى أن الذين يتبعون رسول الله يطيعونه ويفعلون ما أمرهم الله به . . ولكن لماذا التنويه هنا بالطاعة .

معنى الطاعة ؟

إذا أردنا أن نفسر ذلك . . فيجب أولا أن نفرق بين الطاعة وعدم الطاعة . . ولا نأخذ اللفظ على اطلاقه . . فالطاعة إما أن تكون فى أمور محببة إلى

النفس . . كأن يدعوك إنسان إلى أن تقضى فترة فى مكان جميل . . أو تؤدى عملا يعطيك مالا وفيرا بجهد قليل . . أو تسافر إلى بلد أنت تحب أن تسافر إليه . . أو قد يدعوك إلى طعام محبب إلى نفسك . . إلى آخر ما هو محبب إلى النفس البشرية . . حينئذ تكون الطاعة سهلة ومحببة إلى النفس . . ولكن عندما يدعوك الإنسان إلى مشقة تتحملها نفسك ، حينئذ تكون الطاعة اختبارا للإيمان . . ولذلك حين يصف الله رسوله بأنه مطاع معناها أن الرسول سيطلب من الناس ما يضع قيودا على هوى النفس . . ولكنه يصلحها .

ولقد تحدثنا من قبل فيما حرمه الله . . وقلنا ان التحريم هو لصالح كل فرد فينا . . فالإنسان الذى يمد يده إلى مال حرام . . لو أن هذا أبيح لمدت الدنيا كلها يدها إلى ماله . . فإذا كان هو فردا واحدا منع من عمل فقد تم هذا المنع لحمايته هو من أن يمد أفراد كثيرون أيديهم لما عنده . . وفى هذا فوضى تقتلع المجتمع من أساسه . . فمجتمع فيه السرقة مباحة . . ينتهى إلى فوضى تهزه بعنف وتقضى عليه . . ومجتمع فيه القتل مباح . . أو العرض مباح . . . أو أى شىء مما حرمه الله مباح . . هو مجتمع بلاشك مقضى عليه خلال سنوات قليلة . . لا يستطيع إنسان أن يحيا فيه الحياة المطمئنة التى وعدنا الله سبحانه وتعالى بها .

ولعل من الغريب حين نتأمل أننا نجد أن مبادىء الدين الإسلامى مطبقة كقيم اجتماعية فى المجتمعات المتقدمة . . ففى أى مجتمع متقدم تراه يحافظ على حق كل إنسان . . يعاقب أشد العقوبة على الكذب . . باعتباره من الرذائل التى تقود المجتمع إلى عدم الثقة . . وإلى اخفاء الحقائق . . وإلى أشياء كثيرة . . يكافىء الأمين . . ويعترف بالفضل لصاحبه . . ويفتح الآفاق أمام الجميع . . كل هذه الأشياء هى من قيم الإسلام . . ولكن هؤلاء الناس أخذوها وجعلوها قيما إجتماعية . . لماذا ؟ . . لأن التقدم لا يتم إلا بتطبيقها . . بل إن الأعجب من ذلك أننا نجد أشياء هى مباحة فى هذه المجتمعات . . ولكن هذه المجتمعات

تقاومها . . وتشن الحملات لمنعها . . كالخمر مثلا . . محاضرات عن مضار الخمر . . وجمعيات لإنقاذ المدمنين على الخمر من الهلاك . . الذى يقودهم إلى هذا الادمان . . وأبحاث طبية إلى غير ذلك . . أن هذا كله لا يتم إيمانا بالإسلام . . أو لأن الإسلام حرم الخمر . . وإنما يتم عن قيم . . ونتائج فرضت نفسها على المجتمع . . إذا أريد له أن يزدهر . . وفى هذه يقول الله سبحانه وتعالى عن الإسلام :

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

سورة الصف

والذى لاشك فيه أنه لا يوجد تفسير أصدق لهذه الآية من التفسير الحادث الآن . . فالذين يحاربون شرب الخمر . . ويحاولون اقتلاع هذا الداء من مجتمعاتهم . . والذين يبيحون الطلاق لأنه ضرورة إجتماعية . . والذين يصنعون القيم للمجتمع مستمدة من تعاليم الله . . ولكن بلا إيمان . . وإنما كضرورة إجتماعية ، يعلنون للعالم أجمع أنهم يظهرون مبادىء هذا الدين . . وإن كرهوا أن يزدهر الدين نفسه . . فهم كارهون لظهور الدين . . وفى نفس الوقت يظهرون مبادئه ويجعلونها قيما إجتماعية . . ولقد قال الشيخ محمد عبده . . حينما زار أوربا . . « رأيت قوما لا يقولون لا إله إلا الله ويعملون بها . . ونحن قوم نقول لا إله إلا الله . . وفى أحيان كثيرة لا نعمل بها » .

الدليل على الاتهام

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

« وما صاحبكم بمجنون »

وهو بذلك يرد على الاتهام الذى حاول بعض المشركين أن يلصقوه ظلما وعدوانا برسول الله . . وانظر إلى قول الله سبحانه وتعالى . . وإلى دقة القرآن الكريم وبلاغته فى التعبير .

« وما صاحبكم »

أى أن هذا الرسول الكريم قد صاحبكم فترة كبيرة . . أربعين سنة . . وعرفتموه . . وعرفتم خلقه جيدا . . فإذا كان اليوم قد جاء بدين يحقق العدالة . . ويسلب الظالم قوته . . ويعطى الضعيف حقه . . فلا تحاولوا أن تصرفوا الناس عن هذا الدين بادعاءاتكم الكاذبة . . ذلك أن رسول الله صاحبكم قبل أن يقوم بتبليغ الرسالة أربعين سنة كان فيها مثالا للأمانة والصدق . . ورزانة العقل . . وكان مفخرة لقومه . . ومن هنا فإن إدعاءكم عليه بأى شيء كاذب . . هذا الادعاء يمكن أن يصحح بكلمة واحدة وهى: **« وما صاحبكم »** أى يمكن أن يصحح أو يرد عليه . . بأن رسول الله لم يأت من بلد بعيد . . ولم يكن محجوبا عنكم قبل الرسالة . . بل كان يصاحبكم وكنتم تشهدون له . . فإذا انقلبت هذه الشهادة الآن إلى ضدها . . فذلك لغرض وهوى فى النفس . . وليس عن حقيقة . . ولذلك فإن الحكم على رسول الله . . قد صدر منكم أنتم قبل أن أبلغكم باختيارى له رسولا كريما . . ومن هنا فإن هذا الحكم هو حجة عليكم بأنكم كاذبون فيما تدعون . . وان قلتم مجنون فمردود عليكم . . أولا بشهادتكم له بالخلق الكريم . . وثانيا بأنكم كنتم عرضتم عليه أن تملكوه عليكم ويترك الدعوة . . فرفض . . فهل كنتم ستملكون عليكم إنسانا مختل العقل .

ولقد حاول المشركون أن ينالوا من رسول الله . . ومن هذا الدين بأكثر من طريقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى ناقشهم بالحجة . . وجردهم من كل ما قالوا . . أو من كل ما حاولون أن يمسوا به هذا الدين . . قالوا : إن رسول الله افترى هذا الكلام ونسبه إلى الله . . فتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من القرآن . . وإذا كان ادعاؤهم بأن هذا الكلام افتراء . . فليفتروا وليأتوا بمثله . . ولكنهم عجزوا أمام هذه الحجة . . فقالوا شاعر . . ورد الله تعالى :

« قليلا ما تأمنون »

لماذا ؟.

إن هذا القرآن قد أرسل فى أمة شهرتها البلاغة والفصاحة .. والقرآن ، فى اعجازه البلاغى ، يخاطب كل العقول .. وكل النفوس على اختلافها فى كل وقت من الأوقات .. على اختلاف أحوالها .

ولنشرح هذه النقطة قليلا .. البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .. ولا يوجد بشر فى هذه الدنيا يستطيع أن يأتى بكلام يقال فى كل مناسبة .. فيكون مطابقا لمقتضى الحال .. فأنت حين تتحدث لإنسان غاضب ، تتحدث بلهجة .. وحين تتحدث لإنسان سعيد فرح ، تتحدث بلهجة أخرى .. وحين تتحدث إلى حاكم أو أمير . فهناك لهجة ثالثة .. وحين تتحدث إلى إنسان عادى فهناك لهجة رابعة .. ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر .. وقلنا له أنظم قصيدة .. أو أعد كلاما لتلقيه أمام الناس .. بحيث يمكن أن تقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم .. وتخاطب به فى نفس الوقت مجموعة من الجهلاء .. وتقوله أمام أمين أو حاكم .. وتقول نفس الكلام أمام خادم هذا الأمير .. ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال .. فإنه يعجز .. ولكن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة .. فى أنه مطابق لكل أحوال البشر .. يهز نفوس الكفار .. ويهز نفوس المؤمنين .. ويحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا .. الغنى منهم والفقير .. التعيس منهم والسعيد .. الخادم منهم والسيد .. وهو يخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها .

فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه .. والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتزت نفسه .. وزادت سعادته .. فالقرآن يحيط بعلم حالات كل الأفراد من أمم مختلفة .. وشعوب مختلفة .. وثقافات مختلفة .. وتراث مختلف .. فإذا سألت كل واحد منهم ما هو شعوره وهو يسمع القرآن .. ربما أعطاك كل واحد جوابا مختلفا .. ذلك لأن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات .. لا يعلمها إلا خالقها .. ولذلك فإن هذه الملكات تتأثر

بكلام الله .. وتهتز له .. دون فارق من فوارق الدنيا .. ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار .. أن يستمع الناس إلى القرآن .. ولو كانوا غير مؤمنين .. حتى أن الوليد بن المغيرة وهو كافر .. قال : إن له لحلاوة .. وإن عليه لطلاوة .. وإن أعلاه لمثمر .. وإن أسفله لمغدق .. وأنه يعلو ولا يعلى عليه .. وهكذا تأثر به دون إيمان .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها .. كان ينوى الشر .. وما أن استمع إلى آيات القرآن حتى هدأت نفسه .. وانشرح صدره للإسلام .. لماذا ؟؟ لأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى .. وقد خاطب نفسا فى غاية الضيق وهى نفس عمر بن الخطاب وقت دخوله للبيت بنفس الألفاظ التى خاطب بها المؤمنين الذين يقرأون .. وهم فى حالة انسجام وسعادة لقربهم من الله .. وإذا بنفس الآيات التى أدخلت الهدوء والانسجام على نفوس قد آمنت .. أدخلت نفس الهدوء على نفس ثائرة لم تكن آمنت بعد .. ولهذا فإن القول بأنه شاعر مردود عليه .. بأن بلاغة القرآن لا تعطى ولم تعط لبشر .

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى .. قالوا مفترى .. نقول لهم ما دمتم قد فهمتم أنه مفترى .. فافتروا أنتم .. إن كنتم تستطيعون .. بل أن الكفار كانوا أقدر على الافتراء .. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب .. بل أنه لا يقرأ ولا يكتب .. فإذا كان رسول الله وهو لا يعرف القراء ولا الكتابة .. وأنتم تقولون هذا الكلام .. فأنتم تملكون وسائل الافتراء وعندكم الشعراء والأدباء فافتروا مثله .. وكان العجز هو جوابهم .

وهكذا أعجزهم الله

ولقد أراد أن يرد على هذا .. فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

سورة الحاقة

حتى الرد فيه إعجاز .. فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى .. يعرفه الناس جميعا .. ومن هنا فإن القول بأن هذا شعر، دليل على أنكم لا تؤمنون .. لماذا ؟ .. لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة .. وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه .. ولذلك فإنكم عندما تقولون أنه قول شاعر .. ليس هذا عن جهل .. ولكنه عن عدم إيمان .. ومحاربة لهذا الدين .. لأنكم تعرفون الشعر جيدا .. ولا يمكن أن يغيب عليكم أن ما تقولونه هو افتراء .. لعلكم بقواعد اللغة .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولا هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

وقول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات .. ولا أن يكون فيه هذا الاعجاز .. كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن .. ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن .. ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم بأنه كاهن .. كان الرد بكلمة تتذكرون .. لأن طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قاله .. خصوصا عندما يكذب .. فتكون كلمة تتذكرون هى الفيصل .. ولم يستخدم هنا عدم الإيمان التى استخدمها سبحانه وتعالى فى قولهم شاعر .. لأن الشعر له قواعد معروفة ويكون الكلام على أنه قول شاعر .. قصد الافتراء فيه واضح .. ويلاحظ هنا أن الله يقرع الحجة بالحجة .. والتحدى بالتحدى .

ورد رسول الله :

ما أنا بقارىء

وتمضى الآية الكريمة : **« ولقد رآه بالأفق المبين »** .

ما معنى هذه الآية . . محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صور متعددة . . رآه فى صورة بشر . . ورآه فى صورة مَلَكْ . . ثم رآه فى صورته الحقيقية . . عند سدرة المنتهى . . فى الإسراء والمعراج . . هناك رأى رسول الله جبريل فى صورته الحقيقية . . فى السماء . . ولقد كان أول لقاء بين جبريل وبين رسول الله فى الغار . . وكان هذا اللقاء أول امتزاج لرسول الله بالملك الذى جاء بوحى السماء . . وكان امتزاجا فيه معان كبيرة . . أولها أمر من الله سبحانه وتعالى يوضح لنا . . أن هذا المنهج يأتى بأمر وقدرة الله . . دون ما تدخل بشرى . . فقال له الملك: اقرأ . . ورد محمد عليه الصلاة والسلام : ما أنا بقارىء . . وكلا القولين يتم بالأسباب التى يملكها كل منهما . . فالملك يقول: اقرأ . . أمر من الله سبحانه وتعالى . . ومحمد يرد: ما أنا بقارىء . . بالأسباب البشرية . . فهو لم يتعلم القراءة والكتابة . . حتى يستطيع أن يقرأ . . ويضمه الملك ضمة شديدة . . ضمة تجهده وترهقه . . لماذا ؟ . . لا لأن فيها امتزاجا بين الملَك والبشرية . . هذا الامتزاج وهو الوحى كان صعبا شديدا على محمد عليه الصلاة والسلام . . حتى أنه كان يتصبب عرقا . . وذهب إلى خديجة وهو يرتجف . . امتزاج رهيب بين بشَر وملَك . . لا يمكن أن يتم إلا بأمر الله سبحانه وتعالى . . واختلاف الطبيعة والقوانين . . ولا أن يتحمل إلا بقدرة الله ورحمته . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل جنس خلقه قانونا . .

فالبشر لهم قانون يتمشى مع خلقهم من طين . . والجن لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نار . . والملائكة لهم قانون يتمشى مع خلقهم من نور . . وكل واحد من هؤلاء بقانونه الخاص لا يستطيع أن يمتزج بالآخر . . وإذا كان هناك امتزاج بين إنس وجن . . فهذا لا يتم بقانون عام . . ولكنه يتم بقوانين خاصة . . قد يصل إليها بعض الناس دون بعضهم . . والذى يحصل على هذه الميزة . . ويستخدمها فى غير ما يرضى الله . . يصيبه عذاب أليم . . ولكن الامتزاج بين الملائكة والبشر لا يتم إلا للرسل . . أو لمن يختاره سبحانه وتعالى برسالة أو مهمة فى الأرض .

ساعة نزول القرآن .. قال جبريل ناقلا كلام الله سبحانه وتعالى إلى محمد عليه الصلاة والسلام: « اقرأ » .. فرد النبى : ما أنا بقارىء .. ولقد كان الاثنان يتحدثان بوحى من قانونهما .. فجبريل يقول : اقرأ .. لأن الله سبحانه وتعالى قرر أن يعلم محمد ما لم يعلمه لأهل الأرض كلهم .. ورد الرسول: ما أنا بقارىء .. كان من واقع السبب البشرى .. والصدق مع النفس .. إذ كيف يقرأ وهو لم يتعلم القراءة ولا الكتابة .. ولقد جاء هذا بحكمة .. ليقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : اننى أعلم أنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة .. ولكننى سأعلمك ما لم أعلمه لأحد من العالمين .. وبذلك يكون العلم من الله سبحانه وتعالى .. لا دخل لبشر فيه .. ولا لإنسان .. وتكون الأسباب هنا غير متمشية .. فعندما يأمر الله لا توجد أسباب .. ولكن توجد طلاقة القدرة التى تَجُبُّ الأسباب كلها .. فالأسباب وضعت للحياة الدنيا وحدها .. وحتى تسير نظم الحياة .. ولكنها لم توضع للآخرة مثلا .. حتى تتم الأشياء بلا أسباب .. بمجرد ورودها فى الخاطر أو الذهن تتم .

وكان هذا اللقاء بين الملك الكليم .. والرسول الكريم معجزة .. لتعلن للناس .. إن المعلم هنا ليس الإنسان .. ولكنه الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قال :

« إقرأ باسم ربك »

أى أن الله هو المعلم .. انك لم تقرأ يا محمد بالأسباب .. ولن تقرأ بأن نرسلك إلى معلم يعلمك القراءة والكتابة .. ولكن ستقرأ باسم الله .. أو بقدرته .. ستتعلم ما لم يتعلمه بشر .. وكان هذا الاعجاز كافيا ليؤمن الجميع بأن المنهج من الله سبحانه وتعالى .. ولكن الكبر والكفر والعناد من البشر .. وقفت حائلا دون ذلك .

وهكذا كان الاعجاز فى القرآن الكريم من أول لحظة .. ولقد رأى محمد

عليه الصلاة والسلام جبريل فى أكثر من صورة . . ولكنه عندما صعد إلى السماء رآه فى صورته الحقيقية . . كتطمين من الله سبحانه وتعالى لمحمد . . واعجاز بأن أطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من خلقه .

رآه رأى العين

إذن فقول الله سبحانه وتعالى :

« ولقد رآه بالأفق المبين »

دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنهج . . ويعرف المبلغ عن الله وهو جبريل عليه السلام . . ومن هنا فلا يقال ولا يقبل قول فيه أى اهتزاز عن الوحى . . ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل رأى اليقين بحيث لا يختلط عليه أى شىء . . بينما يعرف جبريل معرفة تامة . . وهو ينقل عن يقين بأن الوحى من الله سبحانه وتعالى يقين وحق . . وتمضى السورة الكريمة :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أن الله سبحانه وتعالى يشهد الرسول أنه يقوم بالتبليغ الكامل لكل شىء . . ولا يحجب شيئا عن المؤمنين بل إنه فى أمانة المبلغ حريص عليها كل الحرص . . وفى تعليم المسلمين لدينهم . . وإفهامهم بكل أحكام هذا الدين . . لا يضن بشىء مما يوحى إليه غيبا عن الناس جميعا . . أى أنهم ليسوا شهودا على الرسول والوحى وقت الإبلاغ . . ولكن الله سبحانه وتعالى يشهد . . أن الرسول يقوم بتبليغ كل شىء .

لقد كانت هناك أحكام جاء القرآن وصححها . . وأحكام أخرى جاء القرآن وأقرها . . وهناك عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى افراطه فى الرحمة بمن لا يؤمنون . . ذلك أن الرسول قد بعث رحمة للعالمين . . يعرف ويرى تماما

ما ينتظر غير المؤمنين من عقاب عظيم .. ومن هنا فهو مشفق على الناس جميعا .. لأنه مرسل إليهم جميعا .. يحاول أن يبذل كل ما يستطيع .. وفوق ما يستطيع ليدخلهم إلى رحمة الله .. لأن الله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .. وفى هذا يحمل نفسه فوق ما يطيق .. والآيات التى فيها عتاب على رسول الله تحمل هذا المعنى .. شيء حمل رسول الله نفسه عليه .. وهو غير محمول عليه بحكم التشريع .. شيء مباح ، ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح .. وخرج من السهل إلى الصعب .. قول الله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾

سورة عبس

أيهما أسهل على رسول الله .. أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى .. جاء وفى قلبه إيمان .. أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم .. الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الإيمان .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب .. أنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها .. وهنا تتدخل الارادة الإلهية .. الرسول يترك أمرا سهلا ميسورا . ويكلف نفسه بالجانب الشاق .

وهنا يقول الله .. لماذا تترك السهل وتحمل نفسك كل هذه المشقة .. لا تضيق على نفسك لأن الله غنى عن هؤلاء جميعا .. والآية هنا من مقام العبادة .. وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك كان رسول الله يحمل نفسه المشقة زيادة فى مقام العبادة .. فيقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : اننى لا أريد منك أن تحمل نفسك فوق ما تطيق .. إنه حب من الله لنبيه .. وحب وعبادة من الرسول لله .

صدق المنهج فى التبليغ

ولعل هذه الآيات على قلتها تلفتنا إلى شيء هام .. هو : لو أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم لو لم يبلغ كل ما أوحى إليه عن الآية لكانت هذه الآيات هى ما يحجب عن المؤمنين .. ولكنها دليل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .. وإن رسول الله كما وصفه الله :

« وما هو على الغيب بضنين »

أى أنه لا يخفى شيئا أبدا مما يوحيه الله إليه .. ثم تمضى السورة الكريمة :

« وما هو بقول شيطان رجيم »

والشياطين فى الماضى كانت تسترق السمع فى السماء .. وكانت فى استراقها هذا تعلم ببعض أشياء قبل أن تنزل إلى الأرض .. ولكن هذا منع تماما وقت نزول القرآن .. وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

سورة الجن

وهكذا وقت نزول القرآن منعت الجن والشياطين من استراق السمع لما ينزل من السماء .. ولذلك فإن هذا ليس بقول شيطان قد استرق السمع من السماء .. ووصل إلى شىء ما .. بل إنهم معزولون تماما عن السمع .. لا يستطيعون الوصول إلى القرآن .. ومنهج الشيطان مخالف تماما لمنهج الله سبحانه وتعالى فى كل شىء .. وهو منهج يدعو إلى الافساد فى الأرض .. وإلى القتل .. والمذابح ويبيح الحرمات .

فأين تذهب

ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« فأين تذهبون » .

وفى هذا تذكير لنا بأن الله خلقنا . . وأننا إليه نعود . . فأين تذهبون . . أى تختفون من الله . . فلا يوجد مكان فى الأرض . . يخرج عن علم الله . . ولا يوجد علم تعلمه يخفى على الله سبحانه وتعالى . . ولا يوجد مكان تذهب إليه ولا يستطيع الله أن يعيدك منه . . كل المنافذ التى تعتقد أنها تستطيع أن تنجيك من الله فى الدنيا والآخرة مطلوب منك أن تأخذ بها . . ثم بعد ذلك سترى أنه لا يوجد منفذ واحد تستطيع أن تخرج فيه أو منه عن علم الله . . أو ارادة الله . . أو قدرة الله . . فأينما تكن . . وحيثما كنت . . يأت بك الله وقت أن يشاء . . وحين يشاء .

أنتم تجادلون فى الدنيا . . وتجادلون فى هذا الدين . . وتكابرون وتستكبرون فى الأرض . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يسألكم سؤالا . . ويطلب منكم الإجابة عليه :

« فأين تذهبون » .

أخبرونا فى أى مكان يمكن لكم أن تخرجوا عن ارادة الله سبحانه وتعالى . . أو عن قدرته . . كل واحد منا لابد أنه ملاقى الله . . فأين تذهبون . . ذلك هو السؤال الذى لا يستطيع أى فرد أن يجيب عليه . . ولا يملك أى إنسان القدرة أو القوة أن يفلت من مُلْك الله .

الله سبحانه وتعالى سأل هذا السؤال . . وطلب الإجابة . . وهو يعلم أنهم سيعجزون عن الإجابة . . ولكنه أراد أن يلفتهم إلى أن البشر كلهم سيلاقونه . . وأنه لابد من لقاء الله . . ولذلك يجب أن يرسم كل إنسان حياته على أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى . . ويسأل نفسه أين يذهب . . وماذا سيفعل فى هذا الموقف . . ولو كان هذا السؤال حاضرا دائما فى أذهان الناس لامتنعوا عن كثير من المحرمات . . والظلم الذى يرتكبونه . . فإذا أرادوا أن

يفتكوا بضعيف تذكروا قدرة الله عليهم . . وإذا أرادوا أن يحصلوا على مال حرام . . تذكروا أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يذهب هذا المال . . ومعه المال الحلال فيما ينغص حياة الإنسان . . كالمرض الذى ينفق أى شخص الألوف دون أن يستطيع الحصول على الشفاء . . أو كالولد الفاسد الذى يأخذ المال بالقوة والعنوة . . ويبعثره يمينا ويسارا حتى يفنيه . . أو الزوجة التى لا تراعى الله فى مال زوجها . . وتنفقه فى تفاهات الحياة . . وببذخ شديد .

كل هذه الأشياء وغيرها . . إذا حدثت لك فإنك تنفق المال وأنت تعيس . . أى أن المال الذى أخذته حراما . . لا يأتيك بالسعادة . . ولكن يأتيك بالتعاسة . . وأنت تعيش مريضا بلا أمل للشفاء . . أو ترى ابنا عاقا ينتزع أموالك بالقوة . . أو زوجة تبعثر مالك يمينا ويسارا على كماليات الحياة .

هذا هو الشقاء الذى يأتى من أن تنسى الله . . ثم بعد ذلك يأتى يوم القيامة فيحاسبك الله على ما فعلت . . فتكون فى هذه الحالة قد أخذت الشقاء فى الدنيا والآخرة . . امتدت يدك إلى مال حرام فجعله الله نقمة عليك . . فكنت شقيا وأنت تنفقه . . وكنت شقيا عند لقاء الله .

والإنسان إذا نسى الآخرة أو أنكرها . . فليفعل ما يشاء . . فالآخرة والحساب أساس الإيمان . . ولقاء الله سبحانه وتعالى هو ما يشغل بال أى مؤمن ويجعله يتجه إلى الطريق السليم . . والله سبحانه وتعالى الذى يشمل برحمته ملايين البشر فى العالم كل يوم . . ليس عاجزا على أن يشملك برحمته . . والله سبحانه وتعالى الذى يرزق كل من فى الأرض . . ليس صعبا عليه أن ييسر لك رزقك ويزيده . . ويفتح لك أبوابا جديدة . . والله سبحانه وتعالى الذى يزيل برحمته الهموم والمتاعب كل يوم عن الملايين . . ليس عاجزا عن أن يحل لك مشكلتك . . والله سبحانه وتعالى الذى يدبر كل شيء . . وييسر كل شيء . . قادر على أن يدبر لك . . وييسر لك الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . . ولكنك

حين تنسى لقاء الله تنقلب الموازين فتصبح الدنيا حراما أو حلالا . . هى الهدف لا فرق بين ما يغضب الله . . وبين ما يرضيه . . لأنك لا تؤمن بلقاء الله فى الآخرة . . ومن هنا جاء السؤال ليجعلك تفكر قليلا وترى أن كل إنكار للقاء الله سبحانه وتعالى . . هو زيف حقيقة . . والله يقول :

« فأين تذهبون »

وليقل لنا أى إنسان غير مؤمن . . إلى أين سيذهب . . وكيف سيهرب من لقاء الله . .

وتستطرد السورة الكريمة :

« إن هو إلا ذكر للعالمين ».

وكلمة ذكر هنا تلفتنا لفتة ثانية . . معنى الذكر أن شيئا كان عندك فغفلت عنه . . وبذلك يذكرك به . . وكان الأصل فى الإنسان أنه حينما خلقه الله سبحانه وتعالى تلقى المنهج عن آدم عليه السلام . . وكان مفروضا أن آدم يبلغه لذريته . . ولكن الحقيقة أنه كلما بعد الزمن تغفل النفس قليلا . . ويبدأ التحريف والتبديل فى منهج الله . . وينصرف الناس عن المنهج واضعين أهواءهم أساسا لحياتهم . . فيبعث الله رسولا ليذكرهم .

وفى القرآن يروى لنا الله سبحانه وتعالى كيف غفل الناس جيلا بعد جيل عن الله . . وكيف أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إليهم . . كما يبين الله لنا الداءات التى تهلك المجتمع وتصيبه بغضب من الله . . ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

سورة الأعراف

بعض السطحيين الذين يقرأون القرآن يسأل : كيف أقر الناس وأجابوا بنعم عندما سألهم الله :

« ألست بربكم »

ثم بعد ذلك اختلفوا . . والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته . . وهى شيء لا يختلف عليه أحد فى العالم . . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى عمل الربوبية . . عطاء متساويا للجميع . . فالشمس ترسل أشعتها للكافر . . والمؤمن . . سواء بسواء . . ولا تأتى على أرض المؤمن فتشرق عليها . . وعلى أرض الكافر فلا تشرق . . وكذلك الأرض تنفعل بكل من حرثها ووضع البذرة فيها . . ثم سقاها بالماء . . سواء كان هذا الإنسان مؤمنا أو كافرا . . فهى لا تفرق بين هذا وذاك . . وإنما تعطى للشخص بقدر عمله واخلاصه فى اصلاحها . . وريها والعناية بشئون الزرع .

هذا كله عطاء ربوبية . . فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس . . ولا أحد يمكن أن يقول إنه هو الذى أوجد الأرض . . ولا البحار . . ولا الريح . . ولا الجبال . . ولا خواص الغلاف الجوى . . إلى آخر ما نعرفه . . ونستفيد منه . . هذا كله عطاء ربوبية خصصه الله للإنسان على اطلاقه . . ولم يخصصه لمؤمن دون كافر . . ولا أحد يستطيع أن ينكر عطاء الربوبية . . لأنه ظاهر . . ولا أحد يمكن أن يدعيه لنفسه من دون الله . . إذن فعطاء الربوبية لا يختلف عليه أحد ولكن المسألة هى فى العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . فالله قد قال ألست بربكم . . ولم يقل ألست بإلهكم . . وكان عطاء الربوبية الذى نراه أمامنا واضحا جليا . . يجب أن يقودنا إلى العبودية لله سبحانه وتعالى .

قلب الإنسان . . والغفلة

إذن فمعنى القول :

« إن هو إلا ذكر »

إن الإيمان فينا بالفطرة . . وأنه كان يجب أن ينقل إلينا كما علمنا آباؤنا كثيرا من أمور الحياة . . ولكن قضية الدين دائما تتبعها الغفلة . . لماذا ؟ مثلا لم يغفل الإنسان أو لا يغفل أبدا عن صنع الخبز . . وهى عملية منقولة لنا عن الآباء . . هم الذين علمونا كيف يطحن الدقيق ويترك حتى يخمر ثم يخبز . . وقالوا لنا إنه إذا لم يترك الدقيق حتى يخمر فسد الخبز . . وحرصنا نحن على ذلك . . ولكننا سمعنا منهم عن المنهج . . ولم نحرص عليه . . لماذا ؟ لأن المنهج يقف دائما أمام شهوات النفس . . فى أن تغتصب مالا حق لها فيه . . وأن تعتدى على الضعيف . . وأن تحصل على مال بدون وجه حق . . والنفس بطبيعتها تريد أن تتملك . . وأن تتملك بلا حدود . . ورغم علم الإنسان يقينا أنه سيأتى إليه يوم قرب أو بعد . . يترك هذه الدنيا . . ويخرج منها كما دخلها لا يحمل شيئا من متاع الدنيا ولا زخرفها . . رغم علمنا بذلك . . فإن الطمع البشرى يجعلنا نريد أن نملك ونملك . . حتى ولو عرفنا أننا تاركوه . . بل أن الإنسان رغم علمه اليقينى بالموت يعتقد أن كل إنسان غيره سيموت . . ويستبعد هو نفسه أن تأتى نهايته . . ولذلك قال رسول الله صلى الله علية وسلم : « لم أر يقينا أشبه بالشك كيقين الإنسان بالموت » .

الدين يضع القواعد والضوابط . . ويسوى بين الناس . . ويكبح جماح النفس . . ذلك الذى يريد أن يحصل على كل شىء حقا كان أو باطلا . . وألا يحصل غيره على شىء . . هذه الأشياء التى يظنها البعض قيودا على النفس . . وهى فى الحقيقة خلق مجتمع يسوده السلام والحب . . ونبذ الكراهية والحقد . . ولو طبق كل إنسان منهج الله على نفسه لاستراحت البشرية كلها . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« ذكر »

يعنى أن هناك قضية . . وهى قضية الغفلة عن المنهج . . وأن الله يريد أن يذكرنا بها . . علنا نناقش أنفسنا . . والعجيب أننا فى أشياء كثيرة نترك الذكر تماما . . فالابن إذا أصيب بمرض . . الأب يأتى له بأحسن الأطباء وقد يحمله من

بلد إلى بلد باحثا عن الشفاء . . ولكنه إذا عرف أن ابنه لا يصلى تجاوز عن ذلك ببساطة ولا يذكره بالصلاة . . ولا يذكره بمنهج الله ولكن من أين تأتى الغفلة . . هذا هو حديثنا فى الفصل القادم .

حديث قدسى:

يا عبادى . . كلكم ضال إلا من هديته . . فسلونى الهدى أهدكم . . وكلكم فقير إلا من أغنيته . . فسلونى أرزقكم . . وكلكم مذنب إلا من عافيته . . فمن علم منكم إنى ذو قدرة على المغفرة . . فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب رجل من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم . . اجتمعوا على أشقى قلب من عبادى . . ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة . . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم . . اجتمعوا فى صعيد واحد . . فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته . . فأعطيت كل سائل منكم ما سأل . . ما نقص ذلك من ملكى . . إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر . . فغمس فيه ابرة ثم رفعها إليه . . ذلك بأنى جواد ماجد . . افعل ما أريد . . عطائى كلام . . وعذابى كلام . . إنما أمرى إذا أردته أن أقول . . كن فيكون .

كل عمل ابن آدم يضاعف . . الحسنة بعشر أمثالها . . إلى سبعمائة ضعف . . إلى ما شاء الله . . إلا الصوم . . فإنه لى . . وأنا أجزى به . . يدع شهوته وطعامه من أجلى . . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره . . وفرحة عند لقاء ربه . . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . .

الفصل الثالث

الانسان .. والأمانة

الانسان ... والامانة

من أين تأتى الغفلة . . ولماذا تصيب الإنسان بالذات . . لأن الإنسان هو الذى اختار أن يحمل الأمانة .

أخذ الإنسان حرية الاختيار فى افعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فعبد كل شيء فى الدنيا . . لا ينفعه ولا يضره . . عبد الأحجار والأصنام . . وعبد النار والشمس . . وعبد الحيوانات المفترسة والحيوانات الأليفة . . وانطلق فى جهل بعيد عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له . . انطلق الإنسان جاحدا بنعمة الله . . ترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى له . . ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه . . فأصابه الشقاء فى الدنيا . . وحلت به الكوارث . . ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك . . ؟

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية فى هذه الدنيا . . فقد لخصه الله سبحانه وتعالى فى شيئين أساسيين . . وصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان إلى النفس البشرية . . وما يريده كل إنسان . . ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغرى آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له :

« هل أدلك على شجرة الخلد . . وملك لا يبلى »

إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا . . الخلود والأموال التى لا تفنى . . ولا تنتهى . . أنه يريد أن يبقى فى الدنيا خالدا لا يموت . . ويريد أن يكون له ملك يعيش عيشة الترف التى يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التى اخترعها البشر هى إما جالبة للرزق . . وإما دافعة للضرر وتبعده عن الموت . . وهى فى الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك . . ولكنه الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تعتقد أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

وهنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة . . الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته . . وأشهدهم على أنفسهم . . نجد فى النفس البشرية أثر هذا حتى الآن . . فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة . . ولا تحتاج لأى شرح إذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى . . يكفى أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدينا . . بكل لغة من لغات العالم . . والمعنى واحد . . وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا . . أو التفاهم معا . . لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض . . ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض . . ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله . . وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعا بين يدى الله . . هم لا يعرفون بعضهم البعض . . وربما التقوا أياما فى الحج . . ثم بعد ذلك لا يلتقون . . ولكن رغم أنهم غرباء فى كل شىء . . تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله سبحانه وتعالى يمعن فى التحدى . . ويقول « هذا هو الله » فهل تجد له سميا . . أى أنه تحدث فى القرآن . . إنه هو خالق كل شىء . . وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد .

عندما يتحدى الخلق جميعاً

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها . . إن عادة الإنسان أن يطلق اسما على كل شىء . . لا يوجد شىء فى الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولا من الإنسان فكل شىء يطلق عليه اسم . . أنت لك اسم . . وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسما . . والظواهر الطبيعية لها أسماء . . وكل شىء فى الدنيا له أسماء . . والاختراعات الجديدة . . والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها أسماء . . حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يعرفها ـ بتشديد الراء ـ إذن فكل شىء فى هذا الدنيا له اسم يميزه عن غيره . . ثم يأتى القرآن ويتحدى . . ويقول . . إن الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا . . أى لن تجد إنسانا يتسمّى باسمه .

والتحدى هنا لمن ؟ . . التحدى فى القرآن ، وفى الإيمان هو للمشركين ، ذلك

أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبدا . . لأن المؤمن قد أمن وأطاع . . وهو ليس محتاجا للتحدى . . ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا . . وقربا من الله سبحانه وتعالى . . أما المحتاج للتحدى فهو ذلك الذى يكفر . . فيأتى الله ليقول له : ان هناك تحديا . . تحديا لك فى كذا وكذا . . فهل تستطيع أن تفعله . . يا من تعبد نفسك . . أو تعبد الإنسان أو تعبد الحجر أو تعبد أى شىء آخر . . إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة أنك أنت وما تعبده . . يعضدونك ويشدون أزرك . . لهم قطرة من القوة . . فاننى أتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا .

والتحدى دائما من الله سبحانه وتعالى للإنسان . . يكون فى أمر اختيارى . . إذ أن التحدى لا يمكن أن يكون فى أمر اجبارى يجبر الإنسان عليه . . بمعنى مثلا أننى لا أستطيع أن أقول لإنسان أننى أتحداك مثلا أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين . . أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك . . إلى آخر هذه الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها . . هنا يكون التحدى بالغ الصعوبة . . وغير ميسر . . وأحيانا مستحيل ولا يعتبر تحديا . .

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى . . يأتى بأمر اختيارى يمكن لأى إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه . . فالله سبحانه وتعالى مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذى أتاحه الله لعقول البشر . . وجعله فى طاقته . . سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلها . . ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم . . هذا علم الله أزلا . . فوضع فى القرآن ما يرد عليهم . . قال لهم : إن الذى تعبدونه من دون الله قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم . . وتزعزع إيمانكم . . ولكنى أقول لكم أن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة .

هذا تحد رهيب للعلم الذى وصل إلى القمر . . وهو فى طريقه إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة . . ولو اجتمع لها علماء العالم كله . . وفعلا كان

هذا هو التحدى . . والتحدى هنا يقول أنا سأعطيكم من علمى ما أريد . . لتصلوا إلى القمر . . وتطيروا فى الهواء . . وتفعلوا ما يعتبره العقل البشرى يشبه بالمعجزات . . ولكن لكى تعلموا أن هذا بأذنى وأمرى . . فاننى سأمنع عنكم خلق أحقر شيء « الذبابة » . . ستصلون بعلمكم إلى ما أريد . . ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة . . ما استطاعوا .

ويأتى العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة . . حتى أن الإنسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض . . ووسائل الكترونية حديثة تفوق فى خدمتها كل ما تصورته العقول . . ونزل الإنسان فوق القمر . . وهو فى طريقه إلى كوكب الزهرة . . إلى غير ذلك . . ولكن التحدى ظل قائما . . ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتى من العلم أن يخلق ذبابة . . أو حتى جناح ذبابة .

جاء التحدى فى أشياء أخرى كثيرة فى القرآن . . مثل المطر . . وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة . . فإن العلم عاجز عن أن ينشأ سحابة صناعية . . ويجعلها تمطر حيث يريد . . بل إن بعض بلاد الدنيا تعانى من كثرة الماء . . وكثرة الأمطار . . والبعض الآخر يعانى من القحط الشديد . . والعلم لا حيلة له فى ذلك .

مع أن الله كشف لنا الطريقة التى يتكون بها السحاب . . ثم الطريقة التى ينزل بها المطر . . وهنا إمعان فى التحدى . . إذ أنه يعطينا الأسباب . . ويجعلنا عاجزين عن العمل . . ثم يتحدانا فيأمر اختيار كإنزال المطر مثلا . . وهو أمر أبسط كثيرا علميا . . من الوصول إلى القمر والمريخ . . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بها .

وفى القرآن تحديات كثيرة ليست هى موضوع حديثنا الآن . . إذا أن الحديث عن الله والنفس البشرية . . حين يأتى الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار فى شيء اختيارى . . هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه . . أو طبقة من

الكفار بعينها كالعلماء . . أو التجار ؟ . . أم أنه يريد أن يكون التحدى شاملا للجميع . . يستطيع أن يقدر عليه كل كافر . . حتى ذلك الذى لا يكتب حرفا . . لم يعرف من الدنيا شيئا . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدى هنا عاما فى مقدرة كل فرد .

التحدى . . فى الاسم

أى أنه يتحدى فى الاسم . . والاسم هنا شىء يقدر عليه كل إنسان . . بل ويستخدمه كل إنسان فى الدنيا كلها . . كل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه . . أو جنسيته . . إلى آخره . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويتحدى . . ويقول إننى أنا الله . . وهذا اسمى . . سأختص به نفسى . . ولن تجد له سميا . . أى مسمى بهذا الاسم فى الدينا كلها .

يأتى هذا التحدى وأنا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث . . هل سمعتم عن إنسان اسمه « الله » ؟ . . هل سمعتم إن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له . . أو زوج له . أو على أى شخص كان . . حتى الآلهة التى اخترعها الإنسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى . . ولقد جاء هذا التحدى فى أمر اختيارى . . أى يستطيع أى إنسان يفعله بإرادته . . وفى أمر لا يستلزم أى مؤهلات . . أى يستطيع أى فرد فى الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم . . أو فكر . . أو أى شىء مميز . . أى أنه تحد للبشرية كلها . . ومع أن هذا التحدى نزل منذ أربعة عشر قرنا . . ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله . . ويحاولون هدمه . . لم يستطع واحد منهم أن يطلق الاسم على فرد أو شىء . . أو حتى على إله يعبده . . وهكذا بقى التحدى . . وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها

هذا التحدى لا يقدر عليه إنسان . . ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه . . ولكن التحدى فى أمر اختيارى لا يستلزم أى صفات أو مؤهلات

معينة . . وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدى . . هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده .

وبرغم ذلك التحدى الذى لا يجيب عليه أحد . . نجد بعض الناس يحاولون جاهدين انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . ويجادلون فى ذلك جدالا كثيرا . . ولكن هؤلاء الناس نفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا . . وحين يجدون نفسهم فى كرب لا يستطيعون الخروج منه . . أو فى بلاء لا يستطيعون رده . . تجد ألسنتهم تصيح بلا شعور يارب . . وتستنجد بالله الذى يحاولون انكار وجوده . . كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى . . وهى فى نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله . . إنها تجزع إليه . . تستغيث بالخالق . . بالقدرة . . بالقوة . . بالذى يقول كن فيكون . . كيف يتم ذلك ؟.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد عرف ضعف النفس البشرية . . كما علم أنها ستبتعد عن المنهج . . فوضع لها تحديات فى القرآن الكريم . . فإنه سبحانه وتعالى حفظ القرآن من العبث البشرى . . فماذا فعل الله . . لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى أعناق البشر . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أئتمن البشر عليها . . هم الذين يحفظونها من أى تحريف أو تبديل . . أو اغفال لذكر أحكام الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى اختص القرآن الكريم بأنه يحفظه .

وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا . . وسيبقى إلى يوم القيامة . . محفوظا من أى عبث بشرى . . أو أى تدخل من أى إنسان كان . . ومهما بذلت من محاولات . . ومهما دبر . . فإن أحدا لن يستطيع أن يمس القرآن . . لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه . . ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى . . ولذلك فإنك ترى مثلا أنه بينما خط الحفاظ على المنهج من المسلمين يتقلص مع مرور

الزمن . . أى أن عدد المسلمين الذين يتبعون المنهج . . ويعيشون . . يقل مع الزمان . . ومع المغريات المادية . . فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف . . فتجد ألمانيا تطبع القرآن بشكل جميل فى لوحة واحدة . . مع أنها لا تؤمن بالقرآن . . وتجد اليابان مثلا . . وايطاليا . . تطبعان المصاحف طباعة متقدمة . . ونجد كل إنسان يضع المصحف فى جيبه . . أو فى سيارته . . أو آيات قرآنية تعلق على الصدور . . وتعجب أنت من أن الخط الإيمانى يميل إلى الهبوط . . بينما خط حفظ القرآن يعلو ويزداد . . نقول لك . . إنه لو كان الخطان يتبعان ارادة البشر . . لكان من المنطقى أن يسيرا فى اتجاه واحد . . ولكن هناك خطا يتبع الارادة البشرية وهو الإيمان . . وخطا يتبع ارادة الله سبحانه وتعالى . . وهو حفظ القرآن مصداقا لقوله تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

أما الخط البشرى فيتناقص . . وأما الخط الإلهى فيعلو ويزداد . . وهذه احدى معجزات القرآن . .

« إلا أن يشاء الله »

ثم تأتى السورة الكريمة إلى قوله تعالى :

« إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

إن هو إلا ذكر للعالمين . . أى أن هذا القرآن نزل ليذكر الناس بالطريق المستقيم . . ليعلمهم طريق العبادة . . والحياة الطيبة الآمنة على الأرض . . فالقرآن للأحياء وليس للموتى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى وضع فيه السعادة فى الدنيا والآخرة . . وهو موجود ليذكر الناس حتى لا يكون لأحد حجة على الله سبحانه وتعالى فى أنه لم يعرف طريق الهداية . . أو جهل هذا الطريق . . فالقرآن موجود لكل من يريد أن يتذكر . . إلا أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لمن شاء منكم أن يستقيم »

إذن هو لم يطلق التذكرة هنا لكل البشر . . ولكنه حددها . . أن هذا القرآن أتى ليكون مذكرا لكل من أراد الاستقامة . . فإذا أمسكت القرآن . . وبدأت تدرس تعاليمه . . بهدف الاستقامة . . هداك الله سبحانه وتعالى إلى الطريق المستقيم . . وإلى الخير . . ثم تأتى الآية الكريمة :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »

وهذه الآية تحدد طريق المشيئة . . بأنها من الله سبحانه وتعالى . . وهى تثير جدلا كثيرا . . وبعض الناس يرى فيها سلبا لحرية الاختيار التى أعطاها الله للبشر . . ذلك أنه إذا لم أصل . . فقد شاء الله ألا أصلى . . وإذا تركت الصوم . . فقد شاء الله أن أترك الصوم . . وإذا لم أزك فهذه مشيئة الله . . فلماذا يحاسبنى . . وهذا القول فيه مغالطة شديدة . . ولنبدأ الحديث بالتفصيل .

الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان . . جعل له أشياء . . هو مخير فيها . . وأشياء لا اختيار له فيها . . ومعظم الأشياء خلاف العبادات . . والتكليف . . وأمور الحياة . . الإنسان غير مخير فيها . . شكل الإنسان . . هل هو طويل أم قصير . . ذكى أم غبى . . أبيض أم أسود . . قوى البنية أم ضعيف البنية . . من هو أبوه . . من هى أمه . . ما هو بلده الذى يولد فيه . . كل هذا لا اختيار للبشر فيه . . الكون كله بشمسه وقمره . . ونجومه وجباله . . وأرضه ونظامه البالغ الدقة . . الأجل والموت والحياة والصحة . . والمرض . . كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية . . رغم ما يدعيه عدد من الناس . . فالطبيب هو واسطة الشفاء . . وليس هو معطى الشفاء . . والله أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه . . وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء . . فلا يستطيع أن يقدم العلاج .

الجسد البشرى لا دخل للإنسان فيه . . فى أجزاء كبيرة منه . . فالقلب يدق

سواء أردت أنا أو لم أرد . . والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن أصدر إليها أمرا بذلك . . والدورة الدموية تسير وأنا لا أكاد أحس بها . . وأشياء كثيرة فى الجسم تمضي دون ما إرادة منى . . بل انها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم . . لا أدرى شيئا . . إذن هذه الأشياء كلها لا اختيار لى فيها . . ولا حساب عليها .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تدخل فى نطاق الحساب . . وهى الحياة . . بكل معاملاتها . . وكل ما يدور فيها . . الله سبحانه وتعالى قد وضع لى أشياء . . وترك لى الخيار . . أى أن أختار بين البدائل . . ولم يضع عليها قيودا فى افعل ولا تفعل . . فأنا مثلا أستطيع أن أضع أثاثا فى المكان الذى أعيش فيه . . يلائم ذوقى . . وليس هناك حساب . . أو أن أختار لونا معينا لثوب ارتديه . . أو أن أختار شكل الثوب . . أن أركب القطار أو الباخرة . . أو الطائرة . . أو السيارة . . أختار وسيلة المواصلات . . كل هذا يدخل فى المنطقة الاختيارية للإنسان . . ولكن لا عقاب عليه . . لأن الله لم يحدد لى شيئا . . وترك كل ذلك لاختيارى .

ثم ندخل بعد ذلك فى منطقة التكليف . . وهى المنطقة التى عليها الحساب . . التى قال لى الله سبحانه وتعالى فيها . . افعل ولا تفعل . . مادام الله سبحانه وتعالى قد قال افعل . . فلابد أنه أعطانى القدرة على الفعل . . ومادام الله قد قال لا تفعل . . فلابد أنه أعطانى القدرة على عدم الفعل . . وهنا منطقة الحساب . . وهذه تخضع للمشيئة البشرية بلا قيود . . بل إن هناك قيودا قد وضعها البشر على هذه المنطقة الاختيارية . . فجاء الله وأبطل هذه القيود من الحساب . . حتى يكون العدل مطلقا . . فإذا أتيت بإنسان . . وظللت أعذبه عذابا فوق طاقته . . ليقوم بفعل منكر نهى عنه الله . . فإنه إذا قام بفعل هذا المنكر غفر الله له . . لأنه لم يتم بالارادة الحرة النابعة من هذا الإنسان . . بل تم بالتعذيب . . وتصل هذه المسألة إلى حد الفتيات اللاتى يكرهن على أعمال سيئة

بالتعذيب يغفر الله لهن . . مادام هذا ناتجا عن تعذيب واكراه . . وليس عن ارادة حرة . . بل إن من يكره ليعلن عدم إيمانه . . وهو فى قلبه مؤمن . . يكتب عند الله مؤمنا .

مشيئة الله
وأحكام الاختيار

إذن فما معنى . .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

انني سأقدم هنا معنيين فقط . . المعنى الأول أن ما تشاءون إلا أن يشاء الله . معناه أن كل شيء فى هذا الكون خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . وقد شاء الله أن يعطيكم الاختيار الحر فى عدد من المسائل . . ترك لكم أن تفعلوا فيها ما تريدون . . ولو شاء الله سبحانه وتعالى . . ما أعطاكم هذا الاختيار . . فهناك خلق من خلق الله نراه أمامنا لا يخضع لأى اختيار . . كل ما خلقه الله فى هذه الأرض . . من جماد . . ونبات . . وحيوانات . . كلها مقهورة تؤدى مهمتها فى الكون بلا اختيار . . والملائكة الذين لا نراهم . . هم أيضا لا اختيار لهم . . والله سبحانه وتعالى قد خلق كل هذه المخلوقات . . ومشيئته أن تكون مقهورة على ما تفعل . . ولذلك سقط عنها الحساب . . وخلق الجن والإنس . . وشاء الله أن يكون لهم اختيار فى بعض أمورهم . . ولذلك جاء هذا الاختيار ليس محتاجا للتحدى . . ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا . . وقربا من الله لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . ولو لم يكن الأمر كذلك . . فأرونى إنسانا يستطيع أن يكون له اختيار . . فيما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يعطيه الاختيار فيه . . أرونى إنسانا قادرا على أن يتنفس . . أو لا يتنفس . . طبقا لاختياره هو . . ويبقى على قيد الحياة . . أرونى إنسانا يستطيع أن يأمر معدته أن تتوقف عن هضم الطعام عندما يشاء . . أو أن تقوم بهضم الطعام إذا أصيبت بمرض منعها عن أداء وظيفتها . . أرونى إنسانا يستطيع أن يتحكم فى لونه . . أو فى أمه . . ومن تكون . . أو أبيه

ومن هو . . أو فى أى بلد يولد . . أو أن يعطى الحركة لقدميه أو يديه باختياره هو إذا أصابها بالشلل .

كل هذه الأشياء . . ولقد أتيت بها من داخل الجسد البشرى . . لا تخضع لاختيار البشر حتى ولو أرادوا ذلك . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا تخضع . . كما شاء للإنسان أن تكون له إرادة حرة فى منطقة معينة من حياته من افعل ولا تفعل . . أرونى إنسانا يستطيع أن يوقف الشمس عن الظهور أو يمنع الليل من المجىء . . أو يوقف الأرض عن دورانها . . كل هذا شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون للبشر فيه مشيئة . . إذن فقول الله :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

لا يتعارض أبدا مع المشيئة الحرة للبشر . . ذلك إن الله شاء فى أشياء ألا تخضع لاختيار البشر . . وخرجت فعلا عن هذا الاختيار . . وشاء فى أشياء أخرى أن تبقى داخل الاختيار إلبشرى . . فكانت مشيئة الله نافذة . . وكان الاختيار الحر للبشر فى عدد من أمور حياتهم . . إذن فهذا الاختيار الحر يخضع لمشيئة الله . . لأن الله شاء أن يكون للبشر اختيار فى هذه المنطقة . . ولو كانت ارادة الله غير ذلك لما استطاع بشر أن يكون له اختيار .

وبذلك يكون حرية الإنسان داخل المشيئة الإلهية . . لأن الله شاء له أن يأخذ هذه الحرية ليحاسبه عليها . . ثم بعد ذلك . . نأتى إلى النقطة التالية . . وهى أن الله سبحانه وتعالى علم أن هذه المشيئة ستفسد البشر . . وتبعدهم عن نور الله . . فالاغراءات كثيرة . . والإنسان خلق ضعيفا . . وهنا جاءت رحمة الله ليعطى شعاعا من نوره . . لكل إنسان يضل الطريق . . هذا الشعاع يهدى إلى الحق . . ويرينا طريق الحياة السعيدة المطمئنة فى الدنيا . . والآخرة . . كيف يحدث ذلك ؟.

ما هى الأمانة
التى قبلها الانسان

وقبل أن نكمل الحديث عن هذا الموضوع . . أحب أن أتعرض إلى نقطتين أساسيتين . . إن حرية الاختيار التى أعطاها الله سبحانه وتعالى للإنسان عبر عنها فى القرآن الكريم بكلمةالأمانة . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

سورة الأحزاب

ما هى الأمانة . . معناها العام . . هى أن يعطيك إنسان شيئا تحفظه له عندك كأمانة . . ويشترط لذلك أن يكون هذا العطاء بينك وبينه بلا شهود . . فإن كان هناك شهود . . لم تصبح أمانة . . ولكنها تصبح دينا . . وإذا كانت هناك ورقة مكتوبة لا تصبح أمانة . . ولكنها تصبح دينا مسجلا على ورقة . . إذن شرط الأمانة أن تكون بينك وبين الشخص الذى ائتمنك دون شهود . . بحيث تستطيع أن تنكرها إذا أردت . . وأن تفى بها إذا أردت . . وفى كلتا الحالتين يكون الوازع هو الحق وحده . . وهو الاحساس بوجود الله سبحانه وتعالى . . وبأنه هو المطلع .

إذن فالأمانة التى عرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان . . عرضها قبل ذلك على عدد من مخلوقاته . . لكن هذه المخلوقات جميعا رفضت أن تحمل الأمانة . . لماذا ؟ . . لأنها أحست أنها لن تستطيع أن تفى بها . . فالنعم التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لها حق أداء . . وهذه المخلوقات كلها أحست بعجزها عن حق أداء الشكر لله على نعمه . . ولذلك رفضت . . وجاء الإنسان . . وقبل حمل الأمانة . . قَبِلَ أن يأخذ النعم . . ويؤدى عنها حق

الشكر . . وحق العبادة لله . . وأن يكون فى ذلك مختارا . . يفعل أو لا يفعل . . وكما تفرح أنت إذا ترك إنسان عندك مبلغا ضخما كأمانة . . فإذا احتجت إلى شيء . . كان من السهل أن تمد يدك وتحصل على ما تريد . . ثم يأتى وقت المطالبة . . فلا تستطيع أن تفى بالأمانة التى حملتها . . فقد فرح الإنسان بأن لديه رصيدا من النعم التى سخرها الله سبحانه وتعالى له . . يستطيع أن يسحب منها كما يشاء . . وعندما يريد . . دون أن يؤدى حقها لله . . حق شكر . . وحق عبادة . . وحق طاعة . . ولقد كان الإنسان حين فرح بذلك ظلوما . . لماذا ؟ . . لأنه ظلم نفسه . . فطلب ما لا تقدر عليه هذه النفس الضعيفة أمام مغريات الكون . . ولأنه ظلم نفسه . . لأن البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بظلم . . فلو اتبعنا جميعا الحق . . ما بعدنا عن منهج الله . . ولا فسدت الأرض . . فالحق هو ما يطالبنا به الله . . فإن اتبعناه . . فنحن لم نخن الأمانة . . لأننا اتبعنا منهج الله فى الأرض . . ولكن متى نخون الأمانة ؟. عندما نظلم . . نأخذ حق الغير . . نمد أيدينا إلى مال حرام . . نعتدى على حرمة غيرنا وماله وعرضه . . حينئذ نكون قد ظلمنا الناس . . وخنا الأمانة . . فالظلم هنا يرتبط بالبعد عن منهج الله . . هو ظلم للنفس . . بقيادتها . . إلى غير طريق الحق . . وهو ظلم للناس . . بالاعتداء على حقوقهم . . فالقوى يسلب الضعيف حقه . . والغنى يستغل الفقير . . وتفسد الدنيا من ظلم البشر .

والإنسان عندما فعل ذلك كان جهولا . . لماذا ؟ . . لأنه ظن أنه سيكسب شيئا . . فقاد نفسه إلى الهلاك دون أن يكسب أى شيء . . صور له جهله أن الدنيا هى الأساس . .وصور له غروره أنه يستطيع أن يحصل على ملك لا يبلى . . أى لا يزول . . وصور له قصر نظره أنه يستطيع أن يخلد فى الأرض . . وأن يعيش إلى ما لا نهاية . . وأن هناك من الوسائل البشرية ما يمكن أن يؤخر الموت . . ويعطى حياة طويلة . . كل هذا هو شعور الإنسان الذى يصوره له جهله . . ذلك أن الإنسان رغم معرفته الأكيدة . . بأنه ميت

لا محالة . . فإنه يتصور أن يموت الناس جميعا إلا هو . . ويحس حتى وهو فى أحلك الظروف . . وهو يصارع الموت . . أنه سينجو . . ولو أن كل إنسان أحس يقينا بالموت . . لتغيرت الدنيا كلها .

إذن . . فالإنسان حمل الأمانة . . أمانة الشكر على عطاء الله . . الشكر على نعمة الحياة . . الشكر على رزق الله . . الشكر على أن الله سبحانه وتعالى يبارك له . . ويعطيه . . ويرزقه . . وينجيه من كل سوء . . ويدفع عنه كل شر . . حمل الأمانة . . التى تلزمه بالحق بين الناس . . وبالعدل فى حكمه . . وباحترام حقوق الآخرين مهما كانوا ضعفاء . . حمل هذه الأمانة . . ونزل إلى الأرض . . فماذا فعل . . استطاع الشيطان أن يصل إلى قلبه . . وصور له أنه يستطيع أن يملك . . وأن يملك بلا حساب . . بينما فى الحقيقة أن ملك الإنسان ينحصر فيما ينفقه لحاجته . . وأحيانا تجد إنسان غنيا تقدم به العمر . . ومع ذلك هو يحاسب عن كل قرش أنفقه . . ويحاول أن يوفر بقدر ما يستطيع . . وتتساءل أنت وتتعجب : كيف تكون هذه الأموال كلها عند هذا الإنسان . . ثم يقتر على نفسه هذا التقتير . . وتجد أنها مسألة لا تتمشى مع حكم العقل ولا مع منطق الفكر السليم . . نقول لك ولكنها تتمشى مع قدر الله . . فالمال رغم أن هذا الرجل قد كسبه . . ليس رزقه . . ولو كان رزقه لتمتع به . . ولكنه مجرد حارس عليه ليسلمه إلى صاحبه . . وهو فى دوره هذا بالحراسة على هذاالمال . . إنما يأخذ منه رزقه فقط . . ويبقى بقدرة الله . . أمينا على الجزء الباقى . . حتى يوصله إلى أصحابه . . فيأخذوه . . وربما انفقوه فيما لا ينفع ولا يجدى .

وجهل الإنسان الحقيقة

إذن الإنسان حين قبل الأمانة . . وقبل أن يحملها . . لم يقدر أنه سيأتى يوم من الأيام يسأله الله عنها . . وأين بدد الأمانة . . وصور له جهله أن ما يتمتع به فى الدنيا . . هو الذى سيفوز به . . وأنه إذا ملك أكثر من حاجته أمن غده . .

وأصبح آمنا مطمئنا . . بينها الحقيقة . . أن الأمانة فى وجه الله وحده . . وأن الإنسان مهما ملك . . قد يأتى عليه يوم وليلة ينزع فيها كل ملكه . . ويصبح لا يملك شيئا . . وأمامنا الأمثلة فى كل مكان فى العالم مما يحدث .

والله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان حرية الاختيار بالمشيئة . . أى لأن الله شاء أن يكون الإنسان حرا فى عدد من جوانب حياته . . وفى نفس الوقت حمله أمانة الطاعة والشكر لله . . وجعل هذه الأمانة بينه وبين الله سبحانه وتعالى . . لا يطلع عليها فرد . . ولذلك كانت من دقة القرآن الكريم . . أنه أطلق لفظ الأمانة على ما حمله الإنسان . . لماذا ؟.

لأنه لا يوجد إنسان يعرف . . ما بين الله وبين البشر . . إلا الله سبحانه وتعالى . . فأنا قد أتظاهر بالصلاح . . وأذهب إلى المسجد وأصلى . . فى كل وقت . . ولكن هذا التظاهر لا يكون عبادة . . وإنما يكون لأحصل على سمعة طيبة . . بين الناس . . أو لييسر لى أمرا من أمور الدنيا . . فإذا خلوت إلى نفسى عصيت الله . . وإذا كنت بعيدا عن الناس . . لم أراقب الله فيما أعمل . . فكأن المسألة كلها تظاهر لفائدة دنيوية . . ولكننا ونحن نرى الظاهر وحده نحكم على هذا الإنسان بالصلاح والتقوى . . لأننا لا نعرف الجزء الباقى من حياته . . وقد يذهب إنسان إلى الحفلات الخيرية . . يعلن أمام الناس عن تبرعه بمبلغ من المال للخير . . وهو يريد بذلك ثلاثا : أن يقول الناس أنه رجل الخير والبر والتقوى . . هذه واحدة . . وأن ينبهر الناس بغناه وثروته التى تمكنه من التبرع بهذه المبالغ للخير . . فيقول الناس : لابد أنه غنى . . لابد أن عنده أموالا كثيرة . . هذه ثانية . . أو يكون هذا تقربا لغير الله سبحانه وتعالى . . كأن أدفع هذا المبلغ لرجل ذى نفوذ باسم الخير ليقضى له مصلحة دنيوية . . أو يكون لى طلب فى جهة ما . . فأحاول أن أرضى صاحب هذه الجهة . . فأتبرع لمشروع يديره هو . . والمهم فى هذا كله . . أننى أقصد غير وجه الله . . ذلك أن الخير الذى أفعله لوجه الله سبحانه وتعالى . . تعطى فيه يمينك مالا تدريه شمالك . . أى أنه يحاط بالكتمان الشديد حتى لا يشتبه فيه أية ذرة شك . . من أن القصد به

هو غير الله . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك . . فإذا أشركت معه أحدا فى عمل من الأعمال . . فإن الله سبحانه وتعالى يستغنى عن هذا العمل ولا يقبله . . ويتركك لما أشركت به .

ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ الأمانة . . التى تحدثنا عنها . . وقلنا انها تكون بين طرفين . . ولا يعرف ثالث عنها شيئا . . كذلك العبادة . . وكل عمل يقصد به وجه الله . . يكون بين العبد وبين الله . . فإذا أخذ أى صورة من علانية الأداء . . أو أية صورة من المظهرية فسد . . كذلك لا يحكم على هذا العمل من مظهره . . فلا يقال عن إنسان أنه رجل البر والتقوى . . لأنه يجرى وراء أصحاب النفوذ يعطيهم ماله باسم الخير . . ليحقق غرضا دنيويا . . ولا يقال رجل عابد لمجرد أنه يتظاهر بالتقوى . . بل لابد أن يكون التصديق بالعمل . . وفى آخر المطاف . . نجد أن الإنسان مهما برع . . ومهما كان . . لا يستطيع أن يحكم حكما صحيحا . . على علاقة إنسان آخر بالله سبحانه وتعالى . . بل إن الحكم لله وحده فى هذه العلاقة . . لأن الإنسان أحيانا يخفى فى صدره ما لا يعلمه أحد إلا الله . . ولذلك قال الله عن يوم القيامة :
« يوم تُبلى السرائر » .

أى يوم يكشف الله عما فى الصدور . . ويظهره . . فنعرف من كان يقول ما لا يفعل .

أحداث الحياة . . والمشيئة

على أننا إذا دخلنا فى نقاش حول المشيئة الإلهية . . واختيار الإنسان فإننا نجد جدلا كثيرا . . ولن ندخل فى هذا الجدل الذى هو جهل لا يضر . . وعلم لا ينفع . . وإنما فقط سأعطى رأيى فى هذا الموضوع . . بما يوضح بعض جوانبه التى تجعل الإنسان يحس بمسئولية اختياره . . أو بأنه محاسب على هذا الاختيار فى الآخرة . . وهذا هو المهم .

إذا أردنا أن نقسم أحداث الحياة . . فإننا يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أشياء : أشياء عامة . . فعل يحدث وليس لى دخل فيه . . كالكون مثلا بكل آياته : شمسه وقمره ونجومه . . وأرضه وهوائه . . هذه ليس لى دخل فيها . . وبالتالى لا تدخل فى دائرة النقاش . . وفعل يقع علىّ . . وليس لى دخل فيه . . كان أكون سائرا فى الطريق . . فتصدمنى سيارة . . أو أصاب بمرض . . أو ينهدم المنزل الذى أعيش فيه . . أو أمشى فأتعثر فى الطريق وأسقط . . فأصاب إلى غير ذلك من ملايين الأفعال فى الأرض . . تلدغنى حشرة مثلا . . أو أفقد وظيفتى . . لأن الشركة قد أفلست . . كل هذه أشياء لا دخل لى فيها . . ولا تدخل فى منطقة الحساب . . لماذا ؟ . . لأنها أشياء تقع علىّ دون ارادة . . دون ما فعل منى . . ولذلك فهى أحداث لا تدخل فى دائرة افعل ولا تفعل .

وإذا أخرجنا أحداث الكون بهذه الطريقة . . بقى بعد ذلك فعل لى فيه ارادة . . وهذا الفعل أما أن أقوم به أنا . . وإما يفرض على . . مثلا إنسان جاء واعتدى على بالضرب أو بالسب . . لم أكن أنا أريد أن أقاتل . . ولكن هذا الفعل فرض على . . إنسان جاء ليسلبنى شيئا لم أكن أنا أريد أن أسلب . . ولكن هذا الفعل فرض على . . إلى آخر الأفعال التى تفرض على البشر بالأحداث . . هذا فعل وقوعه على لا يحملنى ذنبا . . لأننى أنا الشخص المعتدى عليه . . ولكنه يحمل ذنبا على المعتدى . . وحينئذ يحل القصاص . . أى يجوز لى رد الاعتداء دون أن أرتكب إثما . . ورد الاعتداء هنا يتم بالارادة الحرة . . فأنت تستطيع أن تضرب إنسانابالقلم . . كما ضربك بالقلم . . وتستطيع بدلا من أن تضربه قلما . . أن تحطم ضلوعه . . وتستطيع أن تقتله . . إذن رد الفعل هنا يختلف . . وهكذا يجيء تشريع الله من افعل ولا تفعل . . محاولا اشاعة الحب بين الناس بدلا من الكراهية والبغضاء . . وسفك الدماء . . فيحرص على العفو عن المسيء . . ويحاول أن يجعل رد الإساءة لا يزيد عن حجم الاساءة نفسها . . حتى لا تتطور الأمور . . إلى ما هو أبشع . . مما يفسد الدنيا . . ويملأها حقدا وبغضاء .

فأنت مثلا إذا ضربك إنسان ضربة واحدة بالعصا . . وأمسكت العصا وضربته . . تكون فى هذه الحالة قد رددت العدوان بمثله . . وتجد أن هذه القضية لا تثير أحدا . . لا من أهلك ولا من أهله . . فمادام الرد مساويا للفعل . . فإنه نادرا ما يصيب أحدا من البشر بالانفعال . . لدرجة أن تتسع الخصومة ليدخل فيها عدد كبير من الناس . .

ولكن إذا ضربك إنسان بالعصا . . فأمسكت بندقية وقتلته . . حينئذ يكون رد الفعل عنيفا . . وتجد أكثر من إنسان من أهل القتيل يريد أن يقتص منك . . وهكذا تدخل مشيئة الله سبحانه وتعالى وهو المشرع الحكيم العليم ليمنع سفك الدماء . . والبغضاء والمشاحنة . . فجعل العفو له ثواب كبير . . وكتمان الغيظ عملية محببة إلى الله . . وفى نفس الوقت . . وحتى لا يشجع العدوان على اطلاقه . . جعل الرد مماثلا للعدوان تماما :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . .

المشيئة الحرة

نأتى بعد ذلك للنفس البشرية وأعمالها . . والتى تقع منها اختيارا أو ترد خطرا . . ولكنها تفعل ما تفعل . . بمشيئتها الحرة . . ودون ما ضغط عليها . . هذه الأعمال الاختيارية مقسمة إلى قسمين . . قسم لا ثواب ولا عقاب عليه . . كأن تحب أن تناول صنفا معينا من الطعام أحله الله لك . . أو تختار نوعا من الفاكهة . . أو تؤثث بيتك بالطريقة التى تريد . . إلى آخر هذه الأعمال التى لم يتعرض لها القرآن بافعل ولا تفعل . . هذه أنت حر فيها . . ليس عليها عقاب إذا ما فعلتها . . ويبقى بعد ذلك القسم الصغير من الأعمال الاختيارية التى أنزل فيها الله أحكاما بافعل ولا تفعل . . هذا هو الاختبار الايمانى فى الحياة . . اختبار لحرية الإنسان فى الفعل . . والله سبحانه وتعالى لا يحاسب بشرا إلا على عمل حر قد قام به . . وأنت لكى تقوم بعمل . . لابد أن تتوافر لك عدة مقومات . .

الزمن مثلا الذى سيتم فيه العمل . . القدرة على هذا العمل . . الوجود لإتمام العمل . . والامكانيات . . إلى آخر ذلك . . ولنوضح هذه النقطة قليلا . .

هب أننى أريد أن أبنى عمارة . . لابد أن أهيىء الأرض أولا . . وهذه الأرض قد تكون موجودة . . أو غير موجودة . . فإذا وجدت حددت زمان العمل . . أنا بتحديد الزمن . . أتجاوز طاقتى البشرية . . ذلك لأننى لا أستطيع أن أجزم أننى سأكون موجودا فى الغد . . أى أننى لا أستطيع أن أقول جزما أننى سأذهب إلى السوق غدا لأشترى شيئا . . أو سأبدأ فى بناء هذه العمارة غدا . . لماذا ؟ . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون على ظهر الدنيا غدا . . أو رحلت عنها . . هذه واحدة . . ولا أضمن ظروف العمل . . فقد أكون على ظهر الدنيا . . وأذهب إلى مكان العمارة . . ثم بعد ذلك لا يحضر الرجال الذين سيقومون بالبناء . . ولاأستطيع أن أقوم بالبناء وحدى . . وأجعله يقوم . . وحتى لو وجدت أنا . . وجاء الرجال . . فلا أضمن أن يأتى سبب خارج عن ارادتى . . ليمنع اتمام العمل . . كأن يأتى أحد الناس . . ويوقف البناء بدعوى أن هذه الأرض ملكه . . أو تستولى الحكومة على الأرض فجأة . . أو يصدر قانون بمنع البناء على هذه الأرض . . أو تكون أوراقى غير مستوفاة بشكل لم أتنبه إليه . . أو يأتى أى إنسان ويقيم اشكالا يمنعنى من البناء . . إذن رغم أننى أملك المشيئة وهى وجودى لحظة البناء . . وأملك القدرة . . وهى هؤلاء العمال الذين جاءوا للبناء . .

أملك الأرض والأسمنت والحديد . . فقد لا يتم العمل . . إذن من وحده الذى يستطيع أن يتمم العمل . . ولا يقف فى طريقه حائل . . انه الله سبحانه وتعالى . .

الله وحده هو الذى يستطيع أن يقول للشىء كن فيكون . . فهو إذا أراد . . لا يمكن لفرد أن يأتى ويمنع هذه الارادة . . وهو إذا شاء . لديه القوة وحده . .

لينفذ ما يريد . . دون الاستعانة بأحد فى الدنيا كلها . . وهو العزيز القادر الذى لا تستطيع أى قوة مهما كانت أن تأتى لتوقف عملا قال له الله سبحانه وتعالى له : كن . .

إذن الذى يملك المشيئة الحقيقية فى أن يتم عمل فى الأرض هو الله سبحانه وتعالى . . ولكننا نحن البشر لا نملك إلا مشيئة مجازية . . وقد نخرج فى الصباح . . وفى نيتنا أن نفعل كذا وكذا . . ثم لا يتم شىء من هذا كله . . لأننا كما قلت لا نملك القدرة لإتمامه . ولأن هناك ظروفا تأتى لكل منا مهما علا شأنه . . وبلغ سلطانه لتمنع تنفيذ عمل يريد أن ينفذه . . حتى الحاكم الذى له الأمر والنهى . . والكل يطيعه . . لا يستطيع فى أحيان كثيرة أن ينفذ ما يريد . . هذه هى مشيئة العمل .

بقيت بعد ذلك النقطة الأخيرة . . وهى نقطة الحساب . . وهذه النقطة عن الأفعال . . التى حددها الله سبحانه وتعالى فى منهج الإيمان بافعل ولا تفعل . . قد تأتى أنت هذه الأفعال مكرها . . كأن يجلدك رئيس العصابة لتسرق . . وتضطر كارها . . وتحت شدة التعذيب تسرق . . وتحاول أن تهرب . . فيعيدك . . مادمت تأتى هذا العمل مكرها . . فقد أسقط الله عنك الحساب . . حتى فى الإيمان . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى . . فى الاكراه على الكفر :

« إلا من أُكرِه وقلبه مطمئن بالإيمان » .

إذن الإكراه يسقط الحساب . .

إنها فى القلب

تبقى بعد ذلك الارادة الحرة . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع هذه الارادة الحرة فى مكان لا يستطيع أن يسيطر عليها أحد فى العالم . . انها فى القلب . . وما هو داخل القلب أو النية لا تستطيع الدنيا كلها أن تصل إليه . .

فأنت قد تكره انسانا . . وربما تحت التعذيب . . أو التهديد . . أو الخوف . . تتظاهر بالحب له . . ولكن الحقيقة أنك تكرهه من داخل قلبك . . وتبقى هذه الحقيقة لا تستطيع أن تمسها الدنيا كلها . . أنت لا تريد أن تفعل شيئا قد يكرهك الناس على فعله . . ولكنك فى قلبك تستنكره وتنكره . . والله يعلم ما تخفى الصدور .

إذن الحساب هنا على الإرادة الحرة . . التى لا يستطيع بشر ولا قوة فى الأرض أن تجبرك على شيء فيها . . ولكنها متروكة لك وحدك . . وهى لا تتغير ولا تتبدل إذا كنت غنيا أو فقيرا . . مريضا أو صحيحا . . كبيرا أو صغيرا . . قويا أو ضعيفا .

هذه المنطقة بالذات التى يتم على أساسها الحساب . . تركها الله سبحانه وتعالى حرة لك . . هذه هى منطقة الأمانة التى حملتها . . ولماذا هى أمانة . . لأن ما فيها بينك وبين الله وحده . . لا يستطيع إنسان أن يفتح صدرك . . ليعرف حقيقة ما فيه . . فما فى القلب هو سر بين الله والعبد . . وهو الأمانة التى حملها الإنسان فى الأرض . . فإن فعل إثما بإرادته الحرة . . وقلبه . . مصدقا لعمله بلا إكراه . . استحق العقاب . . وإذا فعل خيرا وقلبه مصدق لعمله بلا محاولة للتظاهر أو التفاخر . . أو الكبر . . أثيب . . وفى هذه المنطقة وحدها . . منطقة القلب والأمانة . . يكون الشعور الإنسانى حرا وحقيقيا . . ويكون الجزاء من نوع العمل . .

إذن الله سبحانه وتعالى . . حينما أعطانا الاختيار . . حدد منطقة الاختيار فى أعمالنا . . ثم جاء إلى هذه المنطقة . . وهى منطقة الاختيار ليخرج منها عددا من الأعمال ليس فيها تشريع . . وترك لك حرية الاختيار بلا ثواب ولا عقاب . . ثم جاء لمنطقة الأمانة . . وجعل الثواب والعقاب فيها . . لماذا ؟ .

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى القلب منطقة الثواب والعقاب . . لأنه الجزء الوحيد الذى لا يسيطر على مشاعره أحد إلا أنت . . فما فى قلبك هو ملكك وحدك . . بإرادتك وحدك ولا يستطيع أى فرد أن يضع إجبارا فيه . . وبذلك يكون الحساب عدلا . . لا يدخل فيه ظلم أبدا . . ولماذا قال افعل ولا تفعل . . لأن منهج الايمان به . . والخالق هو الذى يحدد كيف يعبده خلقه . . ولأنه وضع فى هذا المنهج أشياء تمنع فساد الدنيا . . وتصلح الحياة . . كما سبق أن قلت .

والله سبحانه وتعالى حين يأمرنا ألا تمتد أيدينا لمال غيرنا . . إنما يحمى مالى كفرد من المجتمع كله . . ولكن إذا ترك الله سبحانه وتعالى الاعتداء على المال بلا عقاب . . فكأنه أباح للدنيا كلها أن تعتدى على مالى . . ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة .

وإذا حمى الله سبحانه وتعالى عرض أحد . . فهذه الحماية ليست قيدا علىّ . . وإنما هى ميزة كبيرة لى . . ذلك أنه إذا أباح لى الاعتداء على عرض غيرى . . فكأنه أباح للمجتمع كله الاعتداء على عرضى . . ولك أن تتصور أيضا ما يمكن أن يحدث فى الدنيا إذا كان ذلك هو الشرع والقانون . . وانى أذكر أن رجلا جاء إلى رسول الله . . وقال له أريد أن أسلم . . ولكننى أحب النساء . . ولن أقلع عن ذلك فقال له رسول الله . . وهو المعلم لأمته . . أتحب أن يفعل أحد هذا فى أختك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى أمك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى زوجتك . . قال : لا . . قال : أتحب أن يفعل أحد هذا فى ابنتك . . قال : لا . . فرد الرسول الكريم كلنا كذلك يا أخا العرب .

وهكذا بين الرسول حكمة التشريع فى أنه قيد إنسانا من عدوان على عرض إنسان آخر . . فقد وفر الحماية لأمه وأخته . . وابنته . . وزوجته . . وأظن أننا لو فاضلنا بين الاثنين . . لأخذنا القيود التى وضعها الله سبحانه وتعالى .

قيود ولكنها تحميك

وهكذا وضع الله قيودا ليحمى المجتمع . . ويوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة على الأرض . . فيعيش مطمئنا إلى أن أحدا لن يعتدى على ماله . . أو عرضه . . أو يعتدى عليه وعلى حياته وأسرته . . وأطفاله . . ولو فهم الناس هذه القيود لاحسوا بنعمة الله الكبرى عليهم . . بل إن الدول التى لا تتخذ الإيمان سبيلا . . اضطرت أن تفرض مثل هذه القيود . . وان كان العقاب مختلفا . . لتحمى المجتمع . . وليستطيع هذا المجتمع أن ينمو ويتقدم . . فإذا كان الإنسان يشكو من قيد قد وضعه الدين عليه . . أو على تصرفه . . فليتذكر الميزة التى أعطاها له هذا القيد ليعرف بعد ذلك أن الدين بأوامره ونواهيه ليس قيدا . . ولكنه حماية . . وليس عقابا . . ولكنه اصلاح وصلاح . . وهو أن قال لا تفعل . . فلأن لا تفعل هذا . . هى حماية للإنسان فى المجتمع . .

مرة أخرى إلا أن يشاء الله

وأختم خواطرى حول هذه السورة الكريمة بالحديث عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

سورة الكهف

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة . . لماذا ؟ . . لأنى أنا أقول أننى سأفعل كذا غدا . . وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا . . والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى . . إن شاء فعل . . وإن شاء لا يفعل . . ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل . . إلا بمشيئة الله . . ولنوضح ذلك قليلا .

الذى يريد أن يفعل شيئا . . يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل . . ويجب

أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل . . ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل . . بمعنى أننى إذا قلت سأذهب لمقابلة فلان غدا . . وهذا هو أبسط الأشياء فيما يقول الإنسان أنه سيفعله . . فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة . . حتى تتم هذه المقابلة . . وأنا لا أملك هذه القدرة . . فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة . . وليس يوما كاملا . .

إذن قولى انى سأقابل فلانا خاطىء . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غدا على قيد الحياة أم لا . . الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . إن شاء أبقاها . . وإن شاء أخذها . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة . . فأنا قد أكون موجودا غدا . . ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص . . قد أمرض فجأة . . أو قد يأتينى شىء مفاجىء عاجل . . أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلا . . أو يحدث . . أى شىء آخر . . المهم أننى قد أكون على قيد الحياة . . ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة . . بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية . . وكنت أنا على قيد الحياة . . وبصحة جيدة وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة . . فهناك الطرف الآخر . . وهو الشخص الذى سأقابله . . وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب . . يتعطل فى الطريق . . يمرض . . يأتيه عمل مفاجىء . . يحدث له أى طارىء مفاجىء . . يمنعه من حضور المقابلة . . كأن تتعطل سيارته . . أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة . . أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق . . أو فى المنزل .

المهم فى هذا كله . . انى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول انى سأفعل كذا . . ولكن من الذى يملك القدرة . . هو الله

سبحانه وتعالى .. فهو الذى يقول كن فيكون .. حى لا يموت .. باق لا يفنى .. لا يستطيع أحد أن يشغله عن شىء .. أو أن يمنع فعله أو قضاءه .. فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون .. لماذا ؟. لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف أو تمنع .. أو تؤجل .. أو تؤخر .. أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى ..

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده .. أما نحن جميعا كلنا .. كل البشر فعالون لما يشاء الله .. فمادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم .. لأن الله وحده هو الفعال .

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » .

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله وإرادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« واذكر ربك إذا نسيت »

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال .. والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب أوالنطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك .

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون لك .. وسخره من أجلك .. ولكن تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله من حفنة من تراب .. وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله .

إن الله يريد أن يذكرنا بنعمه . . وأن تعلم أن الفضل منه . . وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ . . وأن الذى منح يستطيع أن يمنع . . وهذه مسألة هامة جدا . . فى سلوكيات الحياة . . لماذا ؟ . . لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم . . ويفتك بالضعفاء . . ويطغى فى الأرض . . أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله . . وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ . . والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء . . فإن خشية الله تدخل فى قلبه . . فتجعله يراجع نفسه . . فلا يبغى ولا يظلم . . ويخشى الله فى كل عمل يعمله . . وفى هذا صلاح الكون كله . . ولكن بعض الناس لا يزال يجادل . . وينسى الإنسان إنه غبى وساذج . . وهذا موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

قسمت الصلاة بينى وبين عبدى شطرين . . فنصفها لى . . ونصفها لعبدى . ولعبدى ما سأل . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . اقرأوا . . يقول العبد : « الحمد لله رب العالمين » . . فيقول الله عز وجل:حمدنى عبدى . . يقول العبد : « الرحمن الرحيم » . . يقول الله : أثنى على عبدى . . يقول العبد : « مالك يوم الدين » . . يقول الله عز وجل: مجدنى عبدى . . ويقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين ». ويقول الله: هذه بينى وبين عبدى . . ولعبدى ما سأل . . ويقول العبد:« إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . . فهؤلاء لعبدى . . ولعبدى ما سأل .

الفصل الرابع

الله .. والزمن

أمور الغيب دائما .. هى الباب الذى يدخل منه كل ملحد إلى النفوس الضعيفة .. لماذا ؟ .. لأننا لا نرى الغيب .. ومادمنا لا نراه فهو كما قلت شيء إيمانى .. إما أن تؤمن به .. أو لا تؤمن .. والإيمان هو بالغيب .. لأنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به .. لأنك تراه عين اليقين .. وبذلك فأنت لا تؤمن .. لأن الإيمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات .. ولكنه مطلوب فى الغيبيات .. فيما هو غيب عنا .. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب أولى مراتب الإيمان .. فقال تعالى فى سورة البقرة ..

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

سورة البقرة

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى .. أول شروط التقوى : الإيمان بالغيب .. باعتباره قضية هامة جدا .. تحكم السلوك الإنسانى .. فأنت مادمت تؤمن بالغيب .. وباليوم الآخر وبالحساب .. فإنك تخشى الله سبحانه وتعالى .. فى كل عمل تعمله .. فإذا مددت يدك لتسرق .. تتذكر أنك ملاقى الله .. وأنه سيحاسبك على ذلك .. فتتراجع عن هذه السرقة .. وإذا أردت أن ترتكب ما حرم الله .. وتذكرت الآخرة والحساب .. خشيت الله وتراجعت ..

إذن أساس السلوك البشرى فى الدنيا .. هو الإيمان بالغيب .. والإيمان بالغيب .. يدخل فيه أساسا الإيمان باليوم الآخر .. فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا .. إيمان يقين .. بمعنى أن ذلك يحدث .. وكأنك تراه أمامك .. يقينا لا يدخل إليه الشك أبدا وإلا فى هذه الحالة تكون قد اهتززت ويستطيع من هنا الملحد .. أو غير المؤمن .. أن يدخل إليك ليضع الشك فى نفسك .. ويحاول أن يوهمك أن كل حديث عن الغيب .. هو غير صحيح .. أو غير واقع .. ومادام غير واقع .. فإن السلوك الإيمانى كله يتغير .

والإيمان بالغيب والآخرة .. هو أساس الإيمان كله .. فمادام ليس هناك حساب فممن نخشى ؟.. وممن نخاف ؟.. ولماذا ترتدع .. من الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه .. إلا إيمانك بالآخرة والحساب .. من الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل ؟.. أو أن تظلم وتبغى فى الأرض .. وتغرك قوتك .. فتفعل ما تشاء .. وتبغى على حقوق الناس كما تريد .. ان الوازع الذى يقول لك قف مكانك هو الإيمان بالآخرة .. لأنك فى هذه الحالة .. ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك .. وإنك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض .. أو فى هذه الحياة الدنيا .. فإنك ستلقى الله وإنك ضعيف ذليل فى الآخرة .. لا ناصر لك ولا معين .. وستقف أمامه خاشعا ليسألك عما فعلت .. يسألك عما جنته يداك .

إذن لولا الإيمان بالآخرة .. لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش .. يقتل القوى الضعيف .. ويعتدى القادر على غير القادر .. ويضيع الحق .. وتباح الحرمات .. ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب الله له فى الآخرة .. لماذا ؟.. لأنه يؤمن أنه ملاقى الله سبحانه وتعالى .. وأن حساب الآخرة سيكون بقدرات الله سبحانه وتعالى ..

قضية اليوم الآخر

بل أن أخشى ما يخشاه الكافر هو الحساب فى الآخرة .. قد يبدو هذا الكلام عجيبا .. كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة ومع ذلك يخشاه .. حقيقة الكافر لا يؤمن بالآخرة .. ولكن فى داخله شىء يؤرقه .. والموت الذى يراه كل يوم على حياة غيره .. يملأ حياته هو بالرعب .. والفزع .. وينغص عليه عيشه .. انه يعرف يقينا إنه سيخرج يوما ما من هذه الحياة .. فهو يرى ذلك كل يوم فى حياة ألوف غيره .. بل يراه فى حياة أقرب الناس إليه .. وهم أسرته وأقاربه .. ولذلك فهو لا يستطيع أن يزيح هذه الحقيقة من عقله .. ويلح عليه السؤال ..

إلى أين ؟ . . إلى أين ؟ . . فيحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل . . ولو زيفا . . ولو تضليلا . . ولو اضلالا . . محاولا أن يقنع نفسه أنه لا شيء بعد الموت . . وأنه لا آخرة ولا حساب . . عله يهون على هذه النفس . . التى ترى العذاب فى داخله . . يهون عليه ارتكاب المعاصى . . ولكنه ومهما فعل . . يظل فى قلق وخوف . . ويؤرقه الغد . . ويزعجه المستقبل . . ويحس أن حياته بكل ما فيها من مظاهر الدنيا هى لا شيء . . ومهما حاول أن يقنع نفسه . . فانه يعيش فى فراغ قاتل .

إن قضية اليوم الآخر . . أى يوم الدين . . هى قضية الإيمان . . الإيمان إنك ستلاقى الله سبحانه وتعالى . . وسيحاسبك . . فلتحاسب نفسك أولا . . والمؤمن إذا جاء أجله . . كانت نفسه مطمئنة . . لأنه كان على يقين أنه سيلاقى الله . . فراعى الله فيما يعمل . . أما غير المؤمن . . إذا سمع حديثا عن الموت . . انزعجت نفسه . . وملأ قلبه الخوف . . لماذا ؟ . . لأنه يعلم داخل نفسه أنه سيلاقى الله . . ولكنه يحاول بأدلة كاذبة . . أن يستر هذه الحقيقة . . التى سيكشفها الموت . . مصداقا لقوله تعالى :

« فبصرك اليوم حديد »

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)** . . والحديث فى ظاهره لا ينطبق على المنطق الدنيوى . . فالمفروض أننى وأنا أعيش فى الدنيا متيقظ متنبه . . فإذا جاء الموت . . جاء كما يقولون النوم الأبدى . . ولكن الحقيقة غير ذلك . . فالناس فى هذه الدنيا نيام . . وماذا يحدث للنائم . . أنه لا يرى ما حوله . . ولا يتنبه لحقيقة ما يجرى . . وكذلك نحن فى الدنيا . . لا نرى ما حولنا . . لأن الروح موجودة داخل الجسد . . يحد من رؤيتها ذلك الطين الذى خلق منه الإنسان . . ولذلك فهى لا ترى الملائكة . . ولا ترى الجان . . ولا ترى كثيرا مما يحدث فى الدنيا . . مما لو رأته لأحست بأن حقائق الكون مستورة عنها . . ولعلمت يقينا بالغيب . . وما يحدثنا الله به عن أشياء

لا نسمعها ولا نراها . . مثل عالم الجن . . وعالم الملائكة . . ولكن عندما تخرج الروح من الجسد . . ترى الروح . . وهى لذلك ترى ما كان محجوبا عنها . . وتتنبه . . وتستيقظ . . وتفيق مما صور لها . . من أن الدنيا هى كل شىء . . وأن الحصول على كل شىء ولو بالباطل هو قانون الحياة . . عندما تخرج الروح من الجسد . . تعلم ما هى قوانين الحياة . . وما هى قوانين ما بعد الحياة . . وترى أشياء كثيرة لا تراها ولم تكن تصدقها فى الحياة الدنيا .

إذن فالناس وهم متيقظون منتبهون وهم فى الحياة الدنيا . . انما هم فى الحقيقة نيام . . مستورة عنهم غيبيات كثيرة . . تقال لهم ولكن لا يرونها . . فإذا ماتوا انتبهوا . . وعرفوا كل شىء . . مصداقا لقول الله :

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

ولولا أن الله سبحانه وتعالى هو مالك يوم الدين . . ما استطاع إنسان مستقيم أن يتحرك فى الحياة . . لماذا ؟ لأن حركتك فى الحياة إذا كنت مستقيما على المنهج سينتفع بها غيرك ممن لا يتبعون المنهج . . أنت لا تمد يدك إلى مال أحد . . ولكن هم سيمدون أيديهم إلى مالك . . أنت لا تؤذى أحدا . . ولكن هم سيؤذونك فى رزقك وأهلك كل ما يستطيعون به النيل منك . . أنت تعفو عن المسىء . . وهم سيستغلون هذا العفو معتبرين انه ضعف . . ومادمت رجلا طيبا فلا يخشى منك . . وهكذا يستهينون بك . . فإذا لم تعلم يقينا أن كل هذا له حساب . . انك ستجازى على اتباعك للمنهج . . وأن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا . . وانه سيمدك بنصره مادمت مؤمنا . . إذا لم يكن كل هذا صحيحا . . لكانت الدنيا للكافر وحده . . ولكنا قد تركناها لغير المؤمن . . يفعل ما يشاء ودون حساب . . ولكن الحساب من الله يأتى فى الدنيا والآخرة . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل كافر . . يحبط أعماله فى الدنيا . . ويوفيه أجره فى الآخرة .

وهكذا يكون الإيمان بيوم الدين . . إيمانا بأن المؤمن لا يشقى . . لأن غيره

عصى الله . . وخالف الله . . إيمانا بأن المؤمن لا يذل . . لأنه يعفو ويصفح ولا يؤذى أحدا . . فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له:اطمئن اطمئنانا كاملا . . واتبع أنت المنهج . . وأتركهم يفعلون ما يريدون . . أو أدعهم بالحكمة والموعظة الحسنة . . وتأكد أن الله سبحانه وتعالى قادر عليهم . . وأن يد الله هى العليا . . والله لا يريد هؤلاء أن يأتوا إليه مكرهين . . وإلا لخلقهم هكذا . . أو لأنزل آية من السماء ظلت أعناقهم لها خاضعين . . انه سبحانه وتعالى لا يريدهم أن يأتوه قهرا . . أو قسرا . . أو تحت تهديد سيف . . أو خوفا من ضربهم بالسياط . . كل هذا لا يريده الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن قدرة الله فى اخضاعهم إيمانيا أقوى من قدراتنا نحن . . ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم يأتون إليه وهم مكرهون لاستطاع . . ذلك على الله هين . . ولكن الله يريد من البشر . . أن يأتوا إليه طائعين مختارين . . أن يأتوا يقولون ياربى اعطنا القدرة على أن نطيع . . وأن نعصى . . وزين لنا الشيطان المعاصى . . وبهرتنا الدنيا ببريقها ومغرياتها . . ولكننا تركنا كل ذلك من أجلك . . وجئنا إليك ياربى طائعين مختارين . . لنعلن أننا نحبك . . وأن حبك فى قلوبنا . . ورضاك فى نفوسنا . . قد فاق كل شىء . . فلم يعد فى الدنيا ما يجذب قلوبنا إلا الحب لك . . ولم يعد فى الدنيا شىء يغرينا إلا رضاك . . ولذلك فكل عمل فيه حب لك نحن نحبه مهما طغى على نفوسنا . . وكل عمل فيه رضاك نحن نقدم عليه مهما كان من مشقة . . لأننا ياربى نعلم أن الخير هو ما اخترت . . ونعلم أننا سنلاقيك ونحسب حساب هذا اليوم .

هذا هو منهج الإنسان المؤمن . . ومنهج العبادة التى يريدها الله سبحانه وتعالى . . الله لا يريد منا أن نأتى إليه مكرهين . . ولكن يريد أن نأتى إليه باختيارنا . . ولهذا خلقنا مميزين بالعقل وحرية الاختيار . . ولو أن الله سبحانه وتعالى . . كان ير يد أن يقهرنا على عبادته . . لخلقنا لا اختيار لنا . . كالملائكة وباقى خلقه الذين هم ليسوا مختارين فيما يفعلون .

مالك يوم الدين

وإذا قرأت :

« مالك يوم الدين »

فى المصحف تجدها مكتوبة بقراءتين :

« مالك يوم الدين » .. « وملك يوم الدين »

فإذا قرأتها بأى القراءتين فهى صحيحة.فإذا قرأتها مالك .. فمالك الشيء هو المتصرف فيه وحده .. ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه .. أنا أملك عباءتى وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى .. والملك الذى يحكم على الجميع .. كلمته هى العليا وليس فوقها كلمة .. يأمر فيطاع .. ويقول فينفذ قوله .. فإذا قلت :

« مالك »

فمعنى ذلك أن أحدا لا يتصرف فى ملكه غيره .. والله وحده هو المتصرف فى كل الأمور .. وفى يوم الدين .. هو الذى يملك التصرف بلا منازع .. ولا يستطيع أحد غيره أن يتدخل أو يكون له الأمر ولو ظاهرا .. ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس .. ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض .. ولكن فى الآخرة ليس هناك ظاهر .. فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .. فهو المالك وحده ظاهرا وباطنا .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى وصف يوم الدين :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله »

وإذا قرأنا :

« ملك يوم الدين »

فمعناها المتصرف وحده فى أمور هذا اليوم مصداقا لقوله تعالى :

« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »

فكأن الله سبحانه وتعالى . . خلق الأسباب فى الدنيا لتمضى الحياة . . ولكنه فى الآخرة . . لا توجد أسباب . . وإنما قضاء الله سبحانه وتعالى مباشر . . والملك فى ظاهر الدنيا عند الناس ولكن الحقيقة أن الملك لله وحده.فإذا أراد الإنسان أن يتعامل فى تفسيره مع ظاهر الحياة . . قال ان ملك يوم الدين هى الأبلغ . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل كلامنا يملك ظاهرا فى الحياة الدنيا . . فهذا يملك . . وهذا يملك . . وهذا يملك فى دنيا الأسباب . . ولكن فى الآخرة . . لا أحد يملك ظاهرا ولا باطنا . . لا مالك ولا ملك إلا لله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس قد يتساءل : هل الأمر فى الآخرة لله وحده سبحانه وتعالى . . أم الأمر فى كل وقت لله ؟ نقول أن الأمر فى كل وقت لله . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكن بعض خلقه . . أو بعض الناس فى الأرض . . فجعل لهم ملكا ظاهريا . . أى ظاهرا للناس لا يخفى عليهم . . ولهذا حكمة هى حكمة الحياة نفسها . . والله سبحانه وتعالى لو لم يجعل الظاهر فى الأرض . . ولو لم يجعل الأسباب . . لما وجدت الآخرة ولانتفت الحكمة من خلق الدنيا . . لماذا ؟ لأن الدنيا هى دار اختبار الإيمان . . أى أن الله سبحانه وتعالى يمتحن فيها عباده . . وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه . . وحين يأتى يوم القيامة يجىء واحد من هؤلاء . . ويقول ياربى لقد كنت سأتبع طريقك السوى ولكنك لم تمتحنى. ولكيلا يجادل إنسان . . ويكون كل شخص شهيدا على نفسه خلق الله الأسباب فى الدنيا . . وخلق هذا الملك الظاهرى .

وقبل أن نشرح ما معنى الملك ظاهرا للناس . . نود أن نبين الحكمة من اختبار النفس البشرية . . فبعض الناس يتساءل إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء . . وليس لعلمه حدود ولا قيود . . فلماذا يمتحننا فى هذه الحياة الدنيا وهل هو محتاج إلى ذلك ؟. والجواب طبعا لا . . فالله سبحانه وتعالى كما

قلت .. علمه أزلى .. ويعرف كل نفس منذ خلقها .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نكون شهداء على أنفسنا .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. ولله المثل الأعلى .. تأتى الجامعات فى كل أنحاء الدنيا وتقيم امتحانات لطلابها .. هل الجامعة تجهل العلم .. فتريد أن يعلمها الطلاب ما لم تعلم .. طبعا هذا غير صحيح .. ولكنها تر يد أن يكون كل طالب شهيدا على نفسه .. فإذا قال أحدهم اننى أعرف كل ما تعلمته .. أو كل ما قررته على الجامعة .. فإنه فى هذه الحالة يرى اجاباته .. فإذا هو لا يعلم شيئا فيكون شهيدا على نفسه .. ولا يستطيع أن يجادل .. ولكن ماذا يحدث لو أننا ألغينا هذا الامتحان .. كل طالب سيدعى انه يستحق مرتبة الشرف .. حتى ذلك الذى لم يقرأ صفحة واحدة .. وتكون النتيجة اختفاء المقاييس .. والله سبحانه وتعالى أرسل منهجه للبشر .. وقال افعل .. ولا تفعل .. وحتى يكون كل إنسان شهيدا على نفسه .. كانت الحياة الدنيا .. وكانت حرية الاختيار لنصل بذلك إلى الحياة الآخرة .. دار الخلود .. حيث ينعم من أطاع الله .. ويحاسب من لم يطعه .

فلو ان الله سبحانه وتعالى .. لم يجعل الملك ظاهرا فى الأرض للبشر .. لما كانت هناك معصية .. لأنه مادام الأمر مباشرا من الله .. وبلا أسباب كما سيحدث فى الآخرة .. فما الذى يغرى الإنسان .. وفيم يكون له اختيار فى المعصية أو الطاعة ؟ وكل شيء مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب .. اذن لابد من وجود الأسباب .. وأن يكون الملك ظاهرا بين يدى بعض الناس .. ويحدث اغراء للآخرين .. فى أن هناك من يضر وينفع من البشر أخذا بالظاهر .. ويأتى ذلك البشر الذى مكنه الله فى الأرض .. ويطلب من الناس أن يفسدوا فيها .. وأن يعصوا الله .. ويفسد هو فيتبعوه .. رغم أن الله سبحانه وتعالى .. قد بين لهم فى كتابه المنهج .. ولكنهم يتركون المنهج ويتجهون إلى الظاهر .. يزين لهم الشيطان ما يرتكبونه من معصية .. على أساس أن

ظاهر الحياة الدنيا هو الحقيقة . . وأن الخير فى الدنيا فى المال الحرام . . وأخذ حق الضعيف . . وأن تملك كل ما تستطيع . . وأن المال حلالا أو حراما . . هو الأمان . . ويبين الحقيقة التى يقدمها لنا الله سبحانه وتغالى فى منهجه . . والزيف الذى يحاول بعض الناس ايهامنا به . . عن طريق ظاهر الحياة الدنيا يكون الامتحان . . ليصبح كل إنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ويحضر مع كل نفس عملها .

ظاهــر الأســـباب

فكأن ظاهر الأسباب فى الدنيا . . هو من أساس حكمة الحياة . . أن يكون ظاهرا أمامك . . ان هذا يعطى . . وهذا يمنع . . وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير . . وهذا يستطيع أن يمنع عنك الرزق . . وأنت إما أن تندفع لإرضاء بشر على حساب الله سبحانه وتعالى . . فتكون بذلك قد عصيت . . وإما إن تلتزم بمنهج الله ولا تخشى أحدا . . مصداقا لقول لله سبحانه وتعالى . .

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

سورة آل عمران

إذا خشيت الشيطان وكل ما يخوفك به فى الدنيا من فقدان للمركز . . أو للجاه . . أو للمال . . أو لأى شىء آخر . . فأنت فى هذه الحالة تبتعد عن منهج الله . . وتعصيه لإرضاء بشر . . وفى هذه الحالة تكون شهيدا على نفسك . . وإذا التزمت بطاعة الله ولم تخش غيره تكون أيضا شهيدا على نفسك . . ثم لا يحدث غير ما أمر به الله .

إذن ظاهرية الملك لازمة فى الحياة الدنيا . . غير لازمة فى الآخرة . . ولذلك

فإن هذا الظاهر يختفى فى الآخرة . . وتختفى معه الأسباب . . ويكون كل شىء مباشرا من الله سبحانه وتعالى لعبيده . . لماذا ؟ لأن الآخرة هى دار خلود . . وليست مرحلة اختبار للحساب .

وهكذا نرى أن وجود ظاهر الملك فى الدنيا لأحد غير الله سبحانه وتعالى . . هو أمر تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا . . من انها امتحان يمر به الإنسان . . ليوصله إلى الجنة . . أو إلى النار . . أما فى الآخرة . . فظاهر الملك يختفى . . كما تختفى الأسباب . . ولذلك فإن الأمر فى يد الله وحده . . فى الدنيا والآخرة . . ولكن الظاهر أن تبتلى فى الدنيا بملك ظالم . . أو بحاكم يأخذ ما أتاه الله من أسباب للظلم والطغيان . . فيأكل أموال الناس . . ويتخذ نفسه الها . . ذلك ظاهر الحياة الدنيا . . أما فى الآخرة . . فإنك تخرج تماما عن أى طغيان بشرى مما تواجهه . . وتخرج تماما عن حكم الذين لا يأتمرون بمنهج الله ولا يتبعون ما أنزله . . فيختفى الطغيان البشرى . . ويختفى الظلم البشرى . . فلا مالك . . ولا ملك . . بأى معنى إلا لله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه وتعالى يستخدم كلمة يوم . . فى وصف يوم الدين . . كما يستخدمها سبحانه وتعالى فى آيات أخرى كقوله :

« وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . . « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . .

هنا يأتى بعض الناس ليجادل فى هذا ويقول :كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مرة بألف سنة . . ومرة بخمسين ألف سنة . . وأى مقياس هو لليوم عند الله . . ويزعم فى ذلك أن هناك تضاربا فى القرآن الكريم فهو يحسب اليوم مرة بألف سنة . . ومرة أخرى بخمسين ألف سنة .

ونحن نقول لهؤلاء . . إن الله سبحانه وتعالى عندما يستعمل كلمة يوم . . فإنه يخاطب البشر . . فالقرآن إنما نزل للناس . . ومادام قد نزل لهم . . فلابد

أن يخاطبهم بلغة يفهمونها . . وإلا استحال عليهم فهمه . . وبالتالى كانت الهداية إلى منهج الله مستحيلة . . نحن الذين نعرف اليوم . . فاليوم هو فترة من الزمن . . تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أو من شروق الشمس إلى غروب الشمس . . فبعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم . . والبعض الآخر يطلق على النهار والليل كلمة يوم . . وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن . . تحدها علامة معينة . . مثل شروق الشمس . . أو شروق الشمس وغروبها . . فالقرآن يخاطبنا على قدر عقولنا .

ولكن هل معنى يوم الدين أنه يوم من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أو يوم فيه ليل ونهار . . أو يوم يحده زمن معين . . تتحكم فيه ظواهر خارجة عن الارادة كشروق الشمس . . وغروب الشمس . . ودوران الأرض حول نفسها .

إن الزمن لا يوجد إلا فى حياة البشر . . فكل حدث بالنسبة للبشر له زمن محدود . . أو ظرف زمان . . وله مكان محدود يقع فيه . . أو ظرف مكان . . وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه . . ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن ألا يقع فى زمن محدد . . أو مكان محدد . . ولا نستطيع نحن أن نستوعب مثل هذا الفعل إلا بالزمان والمكان . . فالعمر يحسب بالزمن . . والأحداث تؤرخ بأزمانها وأماكنها . . وكل إنسان منا له تاريخ ميلاد . . ومكان ميلاده . . وله تاريخ وفاته . . ومكان وفاته . . وبغير ذلك لا تفهم الأمور . . فنحن عاجزون عن فهم الأمور على اطلاقها . . بل لابد أن يحدها الزمان والمكان . . تلك قوانين الله فى الأرض .

ولكن الله سبحانه وتعالى . . لا يحده مكان ولا زمان . . إذن فكيف يستخدم الله سبحانه وتعالى كلمة يوم التى يحدها مكان وزمان . . وهو لا يحده مكان ولا زمان .

معنى الزمن

ولكننا إذا أردنا أن نفهم معنى الزمن فى حديث الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى يخلق الزمان والمكان . . أى أنه مالك الاثنين معا . . والمخلوق لا يكون قيدا على ارادة الخالق . . أو يحدد هذه الارادة .

يوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . بأحداثه كلها . . بجنته وناره . . وكل الخلق سيحاسبون فيه . . وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون . . أو يخرج من علمه سبحانه وتعالى إلى علم غيره . . سواء من الملائكة . . أو البشر . . أو من غيرهما من خلق الله . . نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم غيره . . سواء من الملائكة أو البشر ، أو من غيرهما من خلق الله . . نقول:إن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخرج شيئا من علمه إلى علم خلقه على إطلاقهم . . فإنه يقول كلمة : « كن » .

فيخرج الشيء من علم الله الأزلى إلى علم غير الله المحدود . . أى أن الله سبحانه وتعالى . . لا يحده يوم ولا زمان ولا مكان ، ولكنه جل جلاله إذا قال هذا يوم الدين . . كان ذلك هو يوم الدين . . فإذ أراده الله سبحانه وتعالى فى هذه اللحظة وقع فى هذه اللحظة . . وإذا أراده جل جلاله بعد ألف عام . . وقع بعد ألف عام . . وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره بعد مليون سنة . . حدث بعد مليون سنة . . فما يريده الله سبحانه ليوم الدين هو موجود فى علمه . . بكل مواصفاته من وزمان ومكان . . وحشر . . وطريقة بعث . . وطريقة حساب . . وجنة . . ونار . . كل هذا موجود فى علم الله . . والله سبحانه وتعالى يملك أن يكون يوم الدين هو هذه اللحظة أو هو بعد ألف سنة . . أو بعد ملايين السنين .

والإنسان لا يملك الزمن . . ولكن الزمن هو الذى يملكه . . فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى . . لتغير شيئا قد حدث فيه . . فما حدث قد انتهى وخرج عن قدرتك تماما . . ولذلك إذا كنت قد ارتكبت جريمة قتل مثلا . . فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء . . حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته . . وإذا أذيت إنسانا مثلا فأنت لا تستطيع أن تعيد الزمن . . حتى تزيل الضرر الذى أصابه فيما آذيته به . . وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى . . فإنك لا تملك القدرة على المستقبل . . فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه . . ولا من خير حتى تستزيد منه . . ولكنك تملك فقط اللحظة التى تعيش فيها . . فاللحظة التى سبقت هى ماض لا يملكه إلا الله . . واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله . . وأنت لا تستطيع أن تتحكم فى الزمن فتوقفه . . فلا تستطيع مثلا أن توقف دوران الأرض . . حتى لا يكون ليل ولا نهار . . ولا تستطيع أن تتحكم فى الزمن لتبقى طفلا لا ينمو . . أو شابا لا يصيبه الهرم . . أو إنسانا يتخطاه الموت . . كل هذا خارج عن إرادتك البشرية تماما . . وسواء أردت أو لم ترد . . فالزمن يمضى . . وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة وترحل . . وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصحيحه .

ولذلك إذا قلنا يوما بمنطق البشر . . فهذا قانون دنيوى . . لا تسيطر عليه أنت . . حقبة من الزمن تمر . . سواء أردت أو لم ترد . . بأحداثها التى لا تستطيع أن تتنبأ بما هو قادم منها . . ولا أن توقف أو تعيد ما تم منها . . هذا هو المنطق البشرى . . ولكن الله سبحانه وتعالى بقدراته هو يملك كل شىء . . فيوم الدين موجود عنده فى علمه . . وهو يستطيع أن يظهره لنا فى الوقت الذى يريده . . فأنت إذا قست كلمة يوم الدين بمقاييس البشر . . فأنت مخطىء . . لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .

وإذا قال بعض العلماء . . إن مالك يوم الدين معناها مالك أمور هذا اليوم . . نقول لهم : متى كان الله سبحانه وتعالى غير مالك لكل أمر . . لقد

كان دائما هو المالك . . ولكنه استخلفنا فى مال أو حكم أو سلطان . . بأذنه . . وبأمره . . متى شاء . . وكيف شاء . . دون تقيد بأى أمر من الأمور . . ولذلك عندما يحث الله سبحانه وتعالى على الانفاق لإعانة الفقير والمسكين . . لا يقول: انفقوا مما لديكم . . أو مما كسبتموه . . وإنما يقول سبحانه وتعالى :
« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا هذه الخلافة . . وفوض الأمر إلينا فيما أعطى من مال . . أو جاه . . أو سلطان . . ليرى ماذا نفعل . . وهل ننفق فيما أمرنا الله . . أم ننفق فى الافساد فى الأرض . . ونكون بذلك شهداء على أنفسنا يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى من قدرته . . انه يستطيع أن ينزع ما أعطاه للبشر فى أى وقت يشاء . . وهذه من طلاقة القدرة . . فالإنسان إذا أعطى الإنسان مالا مثلا . . فإنه قد لا يستطيع أن يسترده منه . . وإذا أولاه ولاية مثلا ـ قد لا يستطيع أن ينزعه منها . . ذلك أن الوالى يمكن أن يجرد جيشه أو يسلحه . . ويعلن استقلاله عمن ولاه الحكم . . وكذلك فى كثير من أمور الدنيا . . فإذا أطعمت إنسان طعاما مثلا فإنك لا تستطيع أن تسترده . . ولكن الله سبحانه وتعالى . . يستطيع أن يأخذ من كل إنسان أيا من نعمه التى استخلفه فيها . . ويستطيع كذلك فى لا زمن تقريبا .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى إنسانا الصحة . . فهو قادر على أن يزيلها عنه فى لحظات . . وإذا كان الله قد أعطى إنسانا مالا . . فهو قادر على أن يذهبه عنه . وإذا أعطاه حكما . . أو عزة . . أو جاها فهو يستطيع أن يسلبه اياها تماما . . ذلك هو الله . . وتلك قدراته . . ولذلك لا يجب ألا نتعجب من إنسان ضاع ملكه فى أيام . . أو فقد ماله فى ساعات . . أو ابتلى بمرض بين يوم وليلة لا يستطيع أن يجد له شفاء .

تلك هى من قدرات الله سبحانه وتعالى .. ولذلك حين نقول : « مالك يوم الدين » .

فإن الله سبحانه وتعالى .. يملك الأمر فى الدنيا والآخرة .. الأمر بيده دائما .. وهو الذى يضع ويحدد .. وفى الآخرة تزول كل الأسباب .. ويزول معها كل قانون دنيوى .. وتصبح القدرة والقوة لله سبحانه وتعالى مباشرة بلا أسباب .. بما أنه مالك الأمر كله بلا أسباب .. فهو سبحانه وتعالى يحدد وبلا أسباب .. شكل هذا اليوم وكل مواصفاته .. فلا نستطيع نحن أن نقول أن هذا اليوم سيكون ٢٤ ساعة .. أو سيخضع لأى مقياس من مقاييس البشر .

بعض العلماء يقول .. ان الناس قبل اليوم الآخر .. ستشملهم غيبوبة الموت .. وأن الآخرة ستكون استيقاظا لهم .. لأنهم فى الآخرة سيتعرضون لأهوال .. ويرون أشياء .. ومن هنا ستكون الآخرة نهارا .. لأن الرؤية وقتها أو محلها النهار .. ونحن نقول لهم أن هذا فيه تجاوز .. لماذا ؟ .. لأنهم كما يخطىء الكثيرون منا .. يأتون بمقاييس الدنيا .. ويطبقونها على يوم ليس من أيام الدنيا .. والله سبحانه وتعالى أعطانا علامات الآخرة . ومن هذه العلامات كما قدمنا فى سورة التكوير .. وشرحنا باستفاضة اختلاف المألوف .. أى أن كل شىء فى هذه الدنيا .. قد ألفته النفس كالليل .. والنهار .. والبحار .. والجبال .. والنجوم .. والشمس .. والقمر .. كل ما ألفناه فى هذه الدنيا ينتهى .. مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾

سورة التكوير

ولهذا فإن كل المقاييس الدنيوية ستزول . . ولا يصح لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا من المألوف . . فى وصف يوم الدين . .

كأن نقول ان كلمة يوم . . معناه أنه سيكون نهارا . . إلى آخر ما يقال . . لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا . . أنه فى هذا اليوم . . سيزول كل شيء ألفه الإنسان . . فلا يأتى أى منا ليقول : إن هذا اليوم ٢٤ ساعة . . أو أنه نهار . . إلى آخر هذا . . لابد كل شيء يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . يضعها هو ونحن لا ندرى عنها شيئا . . إلا عندما يريد الله سبحانه وتعالى أن يظهرها لنا . .

وهكذا نرى أن الزمن عند الله مختلف . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الزمن ويحدده . . ولذلك فعندما يتساءل بعض الناس . . عن معنى الآية الكريمة :

« كل يوم هو فى شأن » .

وهل اليوم هنا يحسب بالساعات . . أى كل ٢٤ ساعة . . أو اليوم معناه النهار . . فنحن نقول أن الله سبحانه وتعالى شأنه لا ينتهى أبدا . . فإذا كان معنى اليوم . . هو النهار والليل . . فالله سبحانه وتعالى . . شأنه ليلا ونهارا.وإذا كان معنى اليوم هو النهار فقط . . والأرض كرة نصفها ليل ونصفها نهار . . ولذلك فإن النهار موجود دائما على الأرض . . وهذا معناه أن شأنه لا ينتهى أبدا . . وإذا أردنا الدقة . . وتتبعنا دوران الأرض حول نفسها . . وحول الأرض . . وخطوط الطول التى رسمها الإنسان على سطح الأرض . . لوجدنا أنه فى كل جزء من الثانية . . يبدأ فيه نهار فى مكان . . وينتهى ليل فى مكان . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

« كل يوم هو فى شأن » . .

فهو فى شأن لا ينتهى أبدا . . لأن حركة الليل والنهار . . مستمرة على الأرض . . لا تنتهى أبدا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى فى شأن دائما . .

على أن القوة البشرية .. تتوه فى قدرة الله سبحانه وتعالى .. فهى فى قضايا الغيب قاصرة .. لا تستطيع أن تفهم .. والله سبحانه وتعالى .. يعلم أن علم البشر محدود .. وهو الذى أعطى هذا العلم للبشر .. لذلك يأتى الله سبحانه وتعالى فى قضية الزمن .. ورحمة بعقول البشر .. ليعطى مثلا يقرب المعنى إلى الأذهان .. فيقول جل جلاله :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

سورة الحج

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

سورة المعارج

.. والله هو الذى ييسر لنا الأمور .. يخاطبنا على قدر عقولنا .. وعندما يقول الله :

«يوم» ..

فمعنى ذلك أنه يوم بمقدار حسابنا البشرى .. كما سبق أن قدمنا .. والاختلاف هنا الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فى حقبة الزمن .. بين شروق شمس وغروب شمس .. أو شروق شمس وغروب شمس هو اختلاف مقصود .. ليبين لنا أنه لا زمن .

اختلاف المقياس

كيف يمكن أن يحدث ذلك .. باختلاف المقياس .. الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا ويقول لنا : أنا الذى خلقت اليوم الذى تعيشونه .. وهو ٢٤ ساعة .. والمخلوق ليس قيدا على قدرة الخالق .. ولذلك .. فإذا أردت أن أخلق

يوما .. يفصل بين شروق شمس وغروبها ألف سنة .. لاستطعت .. وإذا أردت أن أخلق يوما يفرق بين شروق شمس وغروبها .. مليون سنة لاستطعت .. ذلك هو الله الخالق .. فالزمن هنا يخضع لادارة الله سبحانه وتعالى فى قوله :

« كن » ..

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟.. لأن الله هو الذى يخلق الزمن ويحدده .. وهو قادر على أن يخلق يوما مقداره ساعة .. ويوما مقداره مائة ألف سنة .. ويوما يستمر بلا نهاية .. فلا مقاييس للزمن هنا .. لأن الله يخلق ويختار .. فلا يأتى أحد ما يعتر على ذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« مالك يوم الدين » ..

أن يحاول أو يأخذ من كلمة يوم .. قيدا على قدرة الله .. فيقول أنه ليل أو نهار .. أو أن مقداره ٢٤ ساعة .. أو سنة .. أو عشر سنوات .. ولكن كلمة يوم هنا .. مختلفة عن مقاييس الدنيا .. لأن الله سبحانه وتعالى .. قال لنا وأخبرنا أن الآخرة خروج عن كل مألوف فى الدنيا .. وقال لنا وأخبرنا .. ان كلمة يوم التى استخدمها سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. ليست مقصورة على المعنى البشرى .. الذى نفهمه .. بل قد يكون يوم ٢٤ ساعة .. ويوم ألف سنة .. ويوم خمسين ألف سنة .. ولذلك ترك لنا نسبية الزمن مفتوحة .. ليقرب من أذهاننا .. أن الآخرة .. أو يوم الدين .. لها مقاييس أخرى .. ولنعرف ونحس أن كلمة يوم بالنسبة للآخرة .. تختلف مقاييسها .. عن كلمة يوم بالنسبة للدنيا .

وهكذا نرى عظمة القرآن الكريم .. فى أنه يأتى بما يحسبه بعض الناس تناقضا ظاهريا .. ثم يعطينا هذا التناقض .. فيهلل أولئك الذين أصابت قلوبهم الغفلة .. فيبدأون الحديث عن القرآن الكريم .. والتناقض فيه .. إلى آخر ما قيل .. وما يقال .. فتنشط العقول المؤمنة ويفتح الله عليها لتبين للناس

الاعجاز الموجود الذى لولا غير المؤمنين لما تنبه إليه أحد . . وهكذا يسخر الله ويبين معجزاته .

وفى بعض الأحيان . . يأتى بعض الناس . . ليسألوك عن تناقضات ظاهرية فى كتاب الله . . فيقولون أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** » .

ويقول :

« **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » .

ويتساءلون كيف يمكن أن تخاف القلوب وتطمئن إلى شىء واحد وهو ذكر الله . . مع أن الخوف عكس الطمأنينة . . فالخوف فزع وشعور بالخطر . . والطمأنينة راحة . . واحساس بالأمان . . فكيف يمكن أن يجتمعا فى وصف شىء واحد . . وهو ذكر الله . . مع أن الذى يخيف . . عكس الذى يطمئن .

ونحن نقول لهؤلاء . . كما قلنا من قبل . . فيما يتعلق بالزمن . . وكونه اليوم ألف سنة . . أو خمسين ألف سنة . . نقول لهم . . إن الله سبحانه وتعالى حين يقول . . فلا شىء فى القرآن الكريم اسمه الصدفة . . ولا شىء اسمه تجاوز المعنى . . بل ان المعنى فى القرآن مطابق ومساو للفظ تماما . . فحين يقول الله سبحانه وتعالى :

« **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** » . .

فهو يصف ذلك الإنسان المؤمن . . أو النفس المؤمنة . . يصفها وصفا دقيقا . . هذه النفس . . قد نسيت الله لحظة . . أغراها أى شىء فى الدنيا . . مال . . أو جاه زائف . . المهم . . إن هذه النفس جرتها الدنيا لحظة أو لحظات . . فنسيت الله . . ثم تذكرت .

ومعنى التذكر . . إنها أفاقت مرة أخرى . . فعرفت أنها ستلاقى الله سبحانه وتعالى . . وأن هذا اللقاء يقين . . حينئذ يدخل الوجل . . وهو الخوف الشديد إلى هذه النفس . . تحس بهول ما صنعت حين نسيت الله لحظة . . لماذا ؟ . .

لأنها تعرف الله . . تعرف قدراته . . وتعرف ما ستلاقيه فى اليوم الآخر . . إذا نسيته . . فى هذه اللحظة . . تستحضر العقاب يقينا . . وقدرة الله يقينا . . فيصيبها الهول والفزع . . لماذا ؟ . . لأنها تعلم أن الجزاء يأتى بقدرات الله . . وهذا يجعل أقوى القلوب المؤمنة . . ترتعد من الوجل والخوف . .

هذه هى النفس المؤمنة . . أما النفس غير المؤمنة . . فهى تلهو وتلعب . . وإذا ذكر الله . . لا يدخل الوجل . . ولا الخوف إلى النفس . . لماذا ؟ لأن استحضار العذاب أو لقاء الله . . غير موجود بل أن بعض هؤلاء الناس. يتهمون الإنسان المؤمن بأنه إنسان أبله . . رجل لا يتمتع بالذكاء . . وكيف يتمتع بالذكاء . . وهو يشقى ويتعب للحصول على مال ورزق . . ثم بعد ذلك يعطيه لغيره من الفقراء والمحتاجين مجانا . . وكيف يكون ذكيا . . وهو يستطيع أن يضع الجنيه فوق الجنيه . . والرزق فوق الرزق . . ويشترى عمارة . . أو سيارة فاخرة . . أو يذهب فيقضى وقتا ممتعا فى أوربا وأمريكا . . ومع ذلك فإنه يفضل أن يعطى هذا الرزق لانسان بائس . . أو فقير . . أومحتاج . . دون أن يتمتع به هو .

الناس تتمتع بما حباها الله من مال تشترى به فاخر الثياب . . وفاخر الأثاث . . وفاخر السيارات . . وتتمتع بالدنيا ، ومن أعز على الإنسان من نفسه يمتعها ؟. وهذا المؤمن يتعب فى المال ويشقى . . ثم يوزعه على الناس . . والمتع فى الدنيا حوله . . ولكنه يغض البصر عنها . . ويحرم نفسه . . ويبتعد عن الحرام . . إنه إنسان حرم نفسه من ماله . . ومن زينة الدنيا .

ولكن الحقيقة . . أن الإنسان المؤمن . . هو أذكى الناس جميعا . . لأن المال الذى اكتسبه غيره . . أنفقه وأفناه فى متاع محدود . . وعلى قدر ما تعطى الدنيا . . ولكن هذا المؤمن أخذ ماله . . واختار ثلاثة أشياء هامة . . أولا أن هذاالمال يبقى ولا يفنى . . فماله إذا أنفقه فى الدنيا يفنى . . وماله عند الله

يبقى .. وهو يريد أن يجعل هذا المال .. باقيا أبدا إلى يوم القيامة .. ولذلك فقد دفع بماله إلى الفقراء والمساكين .. لا ليفنيه .. ولكن ليبيقيه :. فأيهما أذكى ؟ ذلك الذى يفنى ماله فى لحظات .. أم ذلك الذى يجعله خالدا .. هذه واحدة .. أما الثانية .. فقد كان هذا المال .. سيتمتع به حسب قدرات البشر .. فالذى سيأخذ هذا المال .. وفى أى فن يعمل .. سيمتع صاحب المال على حسب قدراته .

فإذا اختار صاحب المال سيارة فاخرة مثلا .. من أفخر سيارات الدنيا .. فيستمتع بقدرات البشر الذين صنعوا هذه السيارة .. بما استطاعوا أن يوفروا فيها من وسائل الراحة والرفاهية .. وإذا اختار مثلا أن يأتيه طعامه من أفخر مطاعم العالم .. فهو سيتمتع بطعام طيب .. حسب قدرات ذلك الطاهى الذى أعد الطعام .. فإذا اختار أفخر ثياب الدنيا .. فهو سيتمتع بقدرات الدنيا حسب قدرات صانع هذا الثياب .. ولكنه اذا اختار الله سبحانه وتعالى .. فإنه قد اختار أن يتمتع بقدرات الله .. التى ليس لها حدود ولا قيود .

فمن الذى يمتاز بالذكاء فى هذه الحالة .. ذلك الذى اختار المتعة بقدرات البشر .. أم الذى اختار المتعة بقدرات الله سبحانه وتعالى .. أيهما أكثر ذكاء وفطنة .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثالثة .. إن المال فى الدنيا قد يضر وينفع .. أى أنه ليس نافعا لصاحبه على اطلاقه .. فإذا استخدمت المال مثلا .. فى الافراط فى فاخر الطعام .. أصابت جسمك الأمراض والعلل .. التى قد تمنعك من تناول لقمة واحدة .. فإذا أردت أن تسرف فى الشراب مثلا .. أو فى الملذات الحسية .. ينهدم جسدك .. وتضيع قوتك .. وتضعف صحتك .. وتصبح عليلا .. وهكذا أصابك المال بالضرر وليس بالمنفعة ..

وقد تنفق هذا المال على إنسان فيطمع فيك .. وتحسن إليه فيرى الخير عندك

فيقرر أن يقتلك ليحصل على مالك كله . . وفى هذا يكون المال ضررا لك وليس نفعا . . وقد يجلب عليك المال العداوات . . والعقد . . والكراهية . . من غيرك من البشر .

وهكذا نرى أن المال فى الدنيا . . قد يضر وينفع . . أى أنه ليس كله نفعا . . أى فيه ضرر ونفع . . ولكنه عند الله سبحانه وتعالى . . نفع بلا ضرر . . وتمتع حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . دون أن يصيبك منه إلا الخير . . والخير العميم . . فمن هو الذكى . . . ذلك الذى ينفق ماله فيما يمكن أن يعود عليه بالضرر . . أم ذلك الذى ينفق ماله فيما يعود عليه بالنفع الخالص .

وهكذا نرى ان المؤمن ليس إنسانا غبيا . . كما يدعى بعض الناس . . بل انه أذكى كثيرا . . من هؤلاء الذين يتظاهرون بالفطنة . . وحسن معالجة الأمور . . ويختارون ما قد يضرهم ولا ينفعهم . . بينما المؤمن ينفق ماله . . فيما ينفعه ولا يضره .

يقيــن الإيمــان

ولذلك . . فإن الإنسان المؤمن . . يتصرف فى حياته كلها من منطلق واقع يقينية الإيمان . . وهو يعلم يقينا أنه سيلاقى الله سبحانه وتعالى . . وهو يعلم يقينا انه سيحاسب . . وهو يعلم يقينا أن هناك الآخرة . . وهو يعلم أن الله يجزى الحسنة بعشر أمثالها . . ويضاعف لمن يشاء . . وهو فى عمله هذا مستبشر بالله وبالآخرة . . وكأنه يراها . . ويعيشها . . ويحسها . . فإذا نسى لحظة . . أو سها فترة . . ثم تذكر . . أو ذكره إنسان بالله . . ظهرت أمامه الصورة التى يعرفها عن الآخرة . . فارتعد الجسد خوفا من الله . . ووجل القلب رعبا من الجزاء .

هذا هو معنى الآية الأولى ، فأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى :

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

هذا ذكر .. وهذا ذكر .. نعم .. والخطاب فى الآيتين للإنسان المؤمن .. الذى وجل قلبه مؤمن .. والذى اطمأن قلبه مؤمن أيضا .. فقط هنا مجال التذكير مختلف .. فالأول ذكر الله وهو يرتكب معصية .. أو يهم بارتكاب معصية .. والثانى .. ذكر الله وهو يواجه ابتلاء .. وهو يواجه أزمة .. وهو يواجه ضيقا .. والإنسان المؤمن يصادف فى حياته أشياء كثيرة وأزمات .. بل فى بعض الأحيان .. يبتلى من الله سبحانه وتعالى .. امتحانا للإيمان .

وكقاعدة عامة نستطيع أن نطبقها .. فالإنسان غير المؤمن .. فزع فى حياته .. قلق فى كل شيء .. من الغد .. من المستقبل .. من المال .. من الصحة .. من زوال النعمة .. من بطش ظالم أو جبار .. من رزق الغد .. من كل شيء حوله .. فإذا صادفته أزمة .. انقلب هذا الفزع إلى رعب .. يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الجنون .. أو الانتحار .. أو ارتكاب جريمة .. أما الإنسان المؤمن .. فإذا صادفته أية أزمة فى الدنيا .. فإن قلبه مطمئن إلى أن الله لن ينساه .

إذا لم يكن لديه طعام الغد .. فرزق الغد سيأتى .. وإذا حدثت له أزمة فالله مفرج الكروب والأزمات .. وإذا اعتدى عليه جبار .. فقلبه مطمئن إلى قضاء الله .. فإذا أصابته شدة ذكر الله فاطمأن قلبه .. وإذا زالت عنه نعمة .. تذكر أن الله سبحانه وتعالى .. يعطى من يشاء .. وأنه سيعوضه عما فقد .. فاطمأن قلبه .. فهو كلما ذكر الله سبحانه وتعالى .. علم أن الله معه بقدراته .. ومادام الله معه .. فمنذا الذى سيغلبه .. ومنذا الذى سيصيبه بالسوء .. وممَ يخاف ؟ فأين هو التناقض بين قوله تعالى :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »

وقوله سبحانه :
« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »
فذكر الله يعنى انك تذكر الله وأنت غافل . . والآية الثانية تعنى انك تواجه أمرا من أمور الدنيا قد يفزعك . . وفى كلتا الآيتين . . أنت تفزع إلى الله . . الأولى بقلب وجل خائف منه . . نادما على ما فعلت . . طالبا التوبة . . والثانية بقلب مطمئن إلى قضائه . . محتميا بالله . . مؤمنا بأنه لن يتخلى عنك . . وأنه مادام الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عنك . . فلن تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تصل إليك .

تلك هى معجزات الإيمان . . الخوف من الله سبحانه وتعالى . . إذا نسيناه . . والرجاء فى الله سبحانه وتعالى . . كلما ضعفت قدراتنا عما واجهناه . . أو نواجهه فى هذه الحياة .

نعود بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :
« مالك يوم الدين »
كل ما نسبه الله سبحانه وتعالى . . نفسه فالشبه له . ما هو معنى ذلك ؟ معناه أن الله عندما يقول « مالك يوم الدين » فيوم الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى أى أن كل ما سيحدث فيه . . وكل ما سيتم . . يقع تحت :
« سبحان الله » . . « وليس كمثله شيء ».

لأننا فى هذه الحالة ننسب الفعل إلى الفاعل . . وهذه قاعدة عامة . . فأنا إذا قلت مثلا كلمة (فرح) على إطلاقها . . فإنها تفتقر إلى التحديد . . لكننى إذا نسبتها إلى فاعلها . . فقد يقترب من ذهنك المعنى . . فإذا قلت مثلا . . فرح . . البواب . . كان لها معنى حسب قدرات البواب . . فإذا قلت فرح ابنة

المحافظ . . تغير المعنى تغيرا كاملا . . رغم أن الفعل واحد . . ولكن الفاعل مختلف . . فإذا قلنا فرح ابنة الملك . . تغير الفعل مرة أخرى . . ليشمل الفخامة والقدرة وأشياء كثيرة . . لا يشملها فرح ابنة البواب مثلا . . فأنت حينما تقارن فرح ابنة البواب . . وفرح ابنة الملك . . وما بينهما من فارق هائل . . فإنك فى الحالة الأولى تنسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى . . ففى هذه الحالة . . يتناسب الفعل مع قدرات الفاعل . . الذى ليس كمثله شيء . . والذى تفوق قدراته قدرات البشر جميعا . . بملايين المرات . . لذلك لا تحاول أن تضع عقلك قيدا على فعل الله سبحانه وتعالى . . وأن تصوره بقدراتك أنت . . بل اثبته . . أو انسبه لقدرات الله سبحانه وتعالى . . فيخرج عن نطاق العقل . . ماذا قال الله سبحانه وتعالى :

« **مالك يوم الدين** » .

فإن كل شيء يحدث فيه بقدرة الله مباشرة . . دون أى واسطة أو أسباب . . فانسب الفعل للفاعل . . الذى لا يحده قيد ولا زمن . . هكذا يأتى كل شيء فى يوم الدين . . مقدار ذلك اليوم مثلا . . الله يعلمه ونحن لا نعلمه . . لأن يوم الدين بكل ما فيه فى علم الله سبحانه وتعالى . . أن يبقى يوم الدين ألف سنة . . أو مائة ألف سنة . . أو مليون سنة . . مما نعد نحن . . أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا اليوم . . يستطيع أن يبقيه ما يشاء إلى ما شاء . . ما سيحدث من أهوال فى هذا اليوم . . وماذا سترى الناس . . وماذا ستسمع . . وماذا ستشاهد . . كل هذا مما لم نألفه . . ولم نعرفه فى حياتنا هذه سيحدث . . رؤيتنا للملائكة . . رؤيتنا للنار والجنة . . كل ذلك يخرج من نطاق قدراتنا . . إلى نطاق قدرة الله . . فهو الذى سيخرج لنا هذا كله . . وسيريه لنا . . ولذلك لا تقل كيف . . لأن الله سبحانه وتعالى يملك القدرة . . وليس كمثله شيء . .

على أن الله سبحانه وتعالى . . تحدث فى القرآن الكريم عن مفهوم الزمن . .

فقال سبحانه وتعالى :

« أتى أمر الله فلا تستعجلوه »

والذى يلفت النظر هنا . . هو أن الله سبحانه وتعالى يقول « أتى » . . ويقول « **فلا تستعجلوه** » . . اتى فعل ماضى . . أى أنه حدث فى الماضى . . شيء ثم وقع . . فكيف يقول الله سبحانه وتعالى « اتى » . . ويقول « **فلا تستعجلوه** » . . مع ان الاستعجال يقال لشيء مستقبلى . . أى شيء لم يحدث بعد .

هذا هو معنى الزمن عند الله سبحانه وتعالى . . فأتى أمر الله أى اتى وأصبح حقيقة واقعة . . وكل أحداث الأرض منذ بدء الخليقة حتى نهايتها موجودة عند الله سبحانه وتعالى . . وهو الذى يقول لها :« **كن** » . . فتخرج من علمه وبقدرته . . إذن أتى معناه انه تم فى علم الله . . تماما كما قلنا . . إن يوم القيامة أو يوم الدين . . بكل ما سيحدث فيه . . أو ما سيجرى وما سيتم موجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . فإذا شاء الله له أن يخلق . . قال:« **كن** » . . فظهر إلى علمنا . . وعرفناه . . وإن لم يشأ أبقاه غيبا عنا . . فلا ندرى به شيئا . . ولا نعلم له وجودا .

ولذلك عندما يخاطبنا الله سبحانه وتعالى عن شيء فإنه عنده اتى وانتهى . . ولكنه يقول لنا :« **فلا تستعجلوه** » . . أى لا تستعجلوا بروزه إلى علمكم المحدود . . ودائما الإنسان عجول . . يريد أن يصل إلى كل شيء بسرعة . . حتى لو كان فى هذا الشيء ضرره . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . إن ما هو ماض عندى . . أعرفه وقررته وخلقته . . ربما سيظهر لكم عندما أشاء . . ولذلك لا تستعجلوه فربما كونى حجبته عنكم فيه حكمة بالغة .

الله سبحانه وتعالى حين يقول « **أتى** » . . فهو يقرر ما هو واقع فعلا . . فأنا لا أستطيع أن أحكم على شيء مستقبلى . . لأننى لا أملك القدرة على التنفيذ . .

بل أنا خاضع لظروف كثيرة تحكمنى .. ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: « أتى » .. فلا يوجد من يستطيع أن يمنع أمرا لله أن ينفذ .. ولذلك فهو لا محالة واقع .. حدد الله بدايته ونهايته .. وقد يستمر هذا الأمر لحظة .. وقد يستمر ملايين السنين مما نحسبه نحن .. ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حدد كل تفاصيله .. وكل شىء يقع فيه .. وبهذا المفهوم نفهم معنى :

« مالك يوم الدين »

على أن الإنسان المؤمن .. حينما يفكر فى يوم الدين .. فإنه يحس براحة نفسية .. لماذا ؟ لأن هذا اليوم .. هو الضمان لكل مؤمن .. امتنع عن حرام الدنيا .. وامتنع عن كل شىء فيه نفع عاجل .. أو مكسب عاجل .. نهى الله عنه .. ذلك انه فى هذه الحالة .. يطمئن إلى انه مادام قد امتنع عن حرام الدنيا فجزاؤه فى الآخرة .. ومادام قد قصد بعمله وجه الله سبحانه وتعالى .. فالله لن يضيع أجره .

ولن يأتى إنسان مهما بلغ فى هذه الدنيا من قوة وقدرة ونفوذ .. ويقول أو يدعى .. انه يستطيع أن يمنع أجر الآخرة عن إنسان أحسن .. أو تصدق .. أو تقرب إلى الله بعمل من الأعمال الصالحة .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى .. هو مالك هذا اليوم دون ما تدخل بشرى على وجه الاطلاق .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . والأمر يومئذ لله » .

ولذلك فإن أى عمل صالح .. هو اعداد من المؤمن ليوم الدين .. وهو اعداد لا يخضع لقدرة بشر إلا صاحب الشىء نفسه .. فأنت مهما كانت القوى التى ضدك .. تستطيع أن تمد الاعداد الجيد .. المتقبل من الله ليوم الدين .. وإعداد المؤمن هو اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد أهديت شاة لرسول الله من بعض المسلمين فطلب من عائشة أن تتصدق بها على فقراء

المسلمين . . وكانت عائشة رضى الله عنها . . تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يحب لحم الكتف . . فأبقت قطعة لحم الكتف ولم تتصدق بها . . ولما جاءت عائشة سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ماذا صنعت بالشاة قالت تصدقت بها وبقيت كتفها . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بل كلها بقيت إلا كتفها .

الصدقة باقيــة

السيدة عائشة أرادت أن تقول لرسول الله. . ان كتف الشاة هى التى بقيت ولم تتصدق بها . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . صحح لها المنطق . . وقال لها لقد بقيت الشاة . . أى ما تصدقنا به هو الباقى . . ولكن كتف الشاة التى أبقيتها لنأكلها هى الجزء الذى ضاع لأننا سنأكله ويفنى . . كل الشاة بقيت لنا إلى يوم القيامة جزاء على الصدقة . . لأن ما تتصدق به للآخرة هو الباقى . . وأن ما سنأكله سينتهى . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يقول الإنسان مالى . . مالى . . وهل لك من مالك إلا ما لبست فأبليت . وأكلت فأفنيت . وتصدقت فأبقيت**) . إذن ما هو الباقى للإنسان من المال ؟ الصدقة وحدها .

والإنسان فى الدنيا . . يعيش قلقا خائفا من زوال النعمة . . فالنعمة إما أن تفارق الإنسان بأن تزول عنه . . أو يفارقها هو بأن يترك الحياة الدنيا . . لذلك تجد أشد الناس حرصا على الدنيا . . ذلك الذى هو فى نعمة يخشى أن يفارقها . . ولكن النعمة فى الآخرة لا تفارق الإنسان أبدا . . إذن فمن الخير لى أن يكون نعيمى فى الآخرة . . حيث لا تفارقنى النعمة أبدا . . بل أعيش مخلدا فيها .

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل صالح . . وقال له أريد أن أعرف . . أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال له الرجل الصالح . . إن الله أرحم

بعباده .. من أن يجعل موازينهم فى أيدى أمثالهم .. فميزان كل امرىء فى يد نفسه .. لماذا ؟ لأنك تستطيع أن تغش الناس .. ولكنك لا تستطيع أن تغش نفسك .. ميزانك فى يدك تستطيع أن تدرك أأنت من أهل الدنيا .. أم من أهل الآخرة .. فقال الرجل طالبا من العبد الصالح أن يشرح له كيف ذلك ؟ فرد العبد الصالح .. إذا دخل عليك من يعطيك مالا ودخل عليك من يأخذ منك صدقة فبأيهما تفرح ؟ فسكت الرجل .. وهنا قال العبد الصالح : إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا .. فأنت من أهل الدنيا .. وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة .. فأنت من أهل الآخرة .. لماذا ؟ لأن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه .. فالذى يعطينى مالا .. يعطينى الدنيا .. والذى يأخذ منى صدقة .. يعطينى الآخرة .. فإذا كنت من أهل الآخرة .. فانى أفرح بمن يأخذ منى صدقة .. أكثر من فرحى بمن يعطينى مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين .. إذا دخل عليه من يريد منه صدقة .. يقف له .. ويقول مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجر .. ولذلك فأنا يجب أن أرحب به وأحييه .. لأنه يحمل حسناتى إلى الآخرة .. ولذلك أيضا فإن الكلمة غير الطيبة تفسد الصدقة .. مصداقا لقوله تعالى :

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

لماذا قال الله سبحانه وتعالى ذلك .. لأن الذى يتبع الصدقة بالأذى .. ليست وجهته الآخرة .. وليس إيمانه كاملا .. إذ كيف أهين أو أؤذى ذلك الذى جاء يحمل حسناتى إلى الآخرة بغير أجر .. أيأتى إنسان يحمل لى زادى إلى الآخرة فأهينه وأؤذيه .. أيكون هذا إيمانا ؟ أم انى أرحب به وأكرمه .. وأفرح به لأنه سيؤدى لى خير ما فى الدنيا .. وسيؤديه بلا أجر .

ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :

« مالك يوم الدين » .

هى قضية ضخمة من قضايا الإيمان .. لأننا ساعة أن نؤمن فنحن مردودون

إلى الله وحده . . وفى هذا اطمئنان للإيمان فى القلوب . . وأنت وحدك الذى تضع الأساس . . أو تملك الميزان ولذلك فلو لم يقل الله سبحانه وتعالى :

« **مالك يوم الدين** »

جعل الآخرة كالدنيا . . فيها من يستخلف فى الأمور . . لاهتز الإيمان باليوم الآخر . . ولم يكن فيه الحسم . . والقوة . . والقدرة . . ولأصبح القوى فى الدنيا يأخذ كل شهوات الحياة . . ويعطى نفسه ما يشتهى بلا قيود . . بينما ذلك الذى يتبع المنهج . . قد قيد نفسه ولم يحصل على شىء .

« **ومالك يوم الدين** » . .

معناها ان الابتداء من الله . . والانتهاء إلى الله . . فكأن الحياة تشبه طرف قوس . . تبدأ بخلق الله . . وتنتهى بعودة إلى الله . . ومادام الابتداء من الله . . والانتهاء إلى الله . . لم يبق بين البداية والنهاية إلا ما يرد إلى الله . . أى أن كل عمل فى الدنيا يقصد به وجه الله . . هو الباقى فى هذه الحياة . . وأريد هنا أن نلاحظ شيئا ـ هناك فى اللغة ما يسمونه بضمير الغائب . . إذا قلت : زيد حضر . . فهو موجود معنا وقت الحديث . . هناك غائب . وحاضر . ومتكلم . . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة . . فأنت عندما تجلس أمامى وأراك وأتحدث إليك . . لا أقول اننى أؤمن لأنك أمامى وأنا أراك . . ولكن الإيمان يكون بما هو غيب عنى . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يتكلم بضمير الغائب . . لأن الله غيب فيقول :

« **الحمد لله رب العالمين** »

الله غيب . . ورب العالمين غيب . . والإيمان إيمان بالغيب . . ولا توجد عقيدة فى أمر حسى أبدا . . لا أقول مثلا اننى جالس أمامك وأنت تتحدث إلى . . هذه ليست عقيدة . . لأنها أمر حسى لا يدخل فى مقام الاعتقاد . . إذن فـ « **الحمد لله** » غيب . . « **ورب العالمين** » غيب . . و« **الرحمن الرحيم** »



غيب . . و« **مالك يوم الدين** » غيب . . والقياس هنا على أساس الغيب . . ولابد إذا سرنا على نفس الطريق . . أن يكون السياق اياه نعبد . . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق . . وجعله حاضرا . . فقال: « **إياك نعبد** » . . فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب . . بعد أن كان علم يقين بالغيب . . أصبح علم يقين . . فلا تقول اياه نعبد ولكن تقول اياك . . فكأنك استحضرت الغيب ربا ورحمانا ورحيما . . واستحضرت « **مالك يوم الدين** » . . وعندما اختمرت صفات الغيب . . انتقلت إلى محضر الشهود . . وقلت :

« **إياك نعبد وإياك نستعين** »

ايـــاك نعبـــد

عندم نرى لفظ اياك . . فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى انني قلت لك انني سأقابلك . . فانني قد اقابلك وحدك . . وقد اقابلك مع جمع من الناس . . أو مع آخرين . . فهنا الخصوص أو التصور غير محدد . . ولكنني إذا قلت لك . . اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . . وانني سأقابلك أنت بالذات . . ففي هذه الحالة لا يمكن أن تعطف عليها شيئا آخر . . اياك سأقابل . . أي انني سأقابلك أنت . . إذن فاستعمال لفظ « **اياك نعبد** » . . معناه أن العبادة لله وحده . . فلو قلت نعبدك وحدك . . لا تؤدي نفس معنى إياك نعبد . . لماذا ؟ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . . ولكن إذا قلت « **إياك نعبد** » . . وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده . . لماذا ؟ لأن العبادة خضوع لله . . بافعل ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة هي العبادة . . والسجود هو منتهى الخضوع لله . . ذلك إن الإنسان يعرف بأنه مستوى القامة . . ومعناها أن رأسه أعلى وقدميه أسفل ، فعندما يأتي السجود . . تأتي هذه القامة . . أعلاها إلى أسفلها . . وهذا هو منتهى الخضوع . . الرأس يأتي عند موضع القدم .

نأتي بعد ذلك إلى « **إياك نعبد** » . . أي نخضع لك . . نستعين بك في كل

الأمور .. ولكن هذا الخضوع يتم غيبا .. هل أمرنى الله سبحانه وتعالى أن اختفى عن الناس جميعا .. فى غرفة مغلقة .. أو فى مكان مظلم عندما أعلن خضوعى له .. لا .. وإنما أمرنى ان أفعل ذلك علنا .. أمام الناس جميعا .. أن أسجد واضع رأسى مكان قدمى .. وأعلن خضوعى وذلتى لله أمام البشر كلهم .. أعلن عبوديتى لله .. وذلك حتى لا أستعلى ولا أستكبر .. والله يريد الناس جميعا عبيدا له وحده .. لذلك يستوى فى العبودية .. وفى اعلان الخضوع لله الغنى والفقير .. والكبير والصغير .. والملك والعبد .. كل هؤلاء يستوون فى الخضوع لله .. وفى اعلان هذا الخضوع .

إذن قوله سبحانه وتعالى: « **اياك نعبد** » .. تنفى العبودية لغير الله .. أى لا نعبد غير الله .. ولذلك لا نعطف عليها أبدا .. ساعة ترى المفعول تقدم « **إياك نعبد** » .. فمعناها حتما .. إننا نعبدك ولا نعبد سواك .. إذن « **إياك نعبد** » .. أعطت التخصيص بالعبادة .. حين يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالعبادة .. وذلك حين نقول الحمد لله .. فإننا نستحضر مستوجبات الحمد .. وهى نعم الله ظاهرة وباطنة .. وحين نقول رب العالمين .. فنحن نستحضر نعم الربوبية من خلق وايجاد من عدم .. إلى كون ملىء بالنعم التى تعطى بلا مقابل .. إلى اخضاع لقوى الكون لخدمة الإنسان .. إلى منهج يحقق لنا السعادة .. وحين نستعرض: « **الرحمن الرحيم** » فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة .. ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة .. وكل ما وضعه الله سبحانه وتعالى من رحمة فى هذا الكون وسعت كل شىء .. وحين نستعرض « **مالك يوم الدين** » .. فإننا نستحضر يوم الحساب .. وكيف أن الله سبحانه وتعالى سيجزينا خير الجزاء .. ويعطينا نعيما وجنة وفق ما يريد .. فإذا استعرضنا هذا كله واستحضرناه فهذه نعم الله أعطاها لنا .. فما هو المطلوب منا ؟ المطلوب منا .. « **إياك نعبد** » أى أن نعبد الله وحده .. وكيف نعبد الله .. إذا عرفنا المطلوب منا .. فكيف نمضى فى العبادة ؟

وهنا نتوقف قليلا .. لنضع خاطرا هاما لابد أن نعرضه .. إذا أردت أن

تصنع شيئا . . فإن أمامك طرقا كثيرة . . قد تصنعه مثلا على طريق ما يسمونه طريق الهواة . . أى بلا دراسة ولا دراية . . وإنما بشيء تحاول أن تقلده ولكنك إذا أردت أن تصنع شيئا بإتقان . . فلابد أن يكون هناك منهج تدرسه يحوى أصول هذه الصناعة . . حتى تستطيع أن تنفذها بإتقان . . إذا قال لك ابنك انه يريد أن ينجح فى الامتحان . . ويحقق شيئا جميلا أو معرفة . . تقول له لابد أن تذاكر . . إذن المذاكرة شرط من شروط النجاح . . والكل متفق على أن الشرط سبب وجود الجواب . . فالمذاكرة سبب وجود النجاح . . هذا هو ظاهر العلم . . ولكن باطن العلم غير ذلك . . ذلك أن ظاهر العلم يهمل شيئا هاما . . عناصر حركة الإنسان . . وهو الدافع قبل الواقع . . أنت تقول انك تذاكر لتنجح . . فكأن النجاح وجد فى ذهنى أولا . . بكل ما يحققه لى من مميزات . . ثم بعد ذلك ذاكرت . . ليصبح هذا النجاح حقيقة واقعة . . ومعروف أن الشرط سبب وجود الجواب . . إذن . . لابد أولا أن تؤكد ان الدافع يأتى قبله .

إذن فالدافع موجود قبل المذاكرة . . وبعد المذاكرة جاء الواقع فتحقق ما أردت . . فالسيارة سبب . . وقطع الطريق سبب . . ولكن الدافع أن أصل إلى مكان أحب أن أصل إليه كالاسكندرية مثلا . . فأنا عندما اذهب . . أركب أولا ولكن الدافع يكون فى ذهنى قبل أن أركب . . إذن فالغاية وجدت أولا ثم بعد ذلك جاء الشرط لتحقيق الغاية . . فبعد أن كانت دافعا فى عقلى فقط . صارت واقعا .

الفصل الخامس

إِلَّا .. لِيَعْبُدُونْ

فى كثير من الأحيان نجد الجدل يخرج أشياء كثيرة عن معانيها .. ويدخلها فيما ينفع وما لا ينفع .. الله سبحانه وتعالى .. خلقنا فى الحياة لنعبده .. هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها .. والله سبحانه وتعالى جعل علة الخلق هى العبادة .. وتم الخلق لتحقق العبادة .. وتصبح واقعا .. ولكن هل العبادة هى مجرد الجلوس فى المساجد والتسبيح .. أم ان لها منهج عمل بينه القرآن .. منه العبادة .. ومنه العمل .. ومنه السعى فى الأرض .. ومنه مقاومة الفتن والاغراءات .. ومنه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. ومنه أشياء كثيرة .. بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. ووضحها فى منهج متكامل للحياة ..

لو أن الله سبحانه وتعالى .. أراد منا التسبيح والصلاة فقط وحدهما دون شيء آخر .. ما خلقنا مختارين .. والله سبحانه وتعالى غنى عنا جميعا .. ويستطيع أن يخلق مما يشاء .. كما يشاء .. من يسبحون بحمده .. ولا يعصون له أمرا .. وأن من خلق الله سبحانه وتعالى .. كالملائكة وغيرهم .. من يسبح بحمده ولا يعصى له أمرا .. ومن هو مقهور على عبادته ..

ولو أن هدف الخلق .. هو العبادة بمفهومها الذى يحاول بعض الناس أن يفسره .. ما استطاع خلق من خلق الله أن يشذ عن طاعته .. والله سبحانه وتعالى له صفة القهر .. ومن هنا فهو يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته .. لا يستطيع أحد المعصية أو الافلات .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه ..

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »

أى أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا لعبادة القهر .. وليس محتاجا لأن يقهر خلقه ليعبدوه .. فهو غنى عن الجميع .. وعبادة الخلق لله سبحانه وتعالى ..

لن تزيد من ملكه شيئا . . وعصيان خلق الله لله سبحانه وتعالى لن ينقص من ملكه شيئا .

ولكن الله خلقنا لنعبده اختيارا . . لنأتيه ونحن نملك الحرية أن نأتى . . وألا نأتى . . أن نتبع المنهج وألا نتبعه . . يريدنا الله سبحانه وتعالى . . أن نأتى طواعية من أنفسنا . . ونختار أن نكون مقهورين لعبادته . . ونحن نستطيع ألا نكون . . ولكن بارادتنا . . وبحبنا لله سبحانه وتعالى . . يدفعنا هذا الحب أن نقيد ارادتنا التى شاء الله سبحانه وتعالى . . أن يعطيها لنا اختيارا . . أن نقيد هذه الارادة بارادة الله سبحانه وتعالى . . فإذا قال افعل فعلنا . . وإذا قال لا تفعل لم نفعل . . حبا لله وقربا منه . . وجهدا مخلصا فى الوصول إلى رضاه . . هذه هى أعلى المنازل عند الله سبحانه وتعالى . . التى منحها لآدم ولذريته من بعده .

فالذى يأتى الله سبحانه وتعالى مقهورا . . إنما يأتيه وهو غير مختار . . فهو لا يستطيع أن يفعل الا ذلك . . ولكن الذى يأتى الله سبحانه وتعالى اختيارا . . فهو أعلى منزلة . . لأنه يستطيع أن يفعل غير ذلك . . زينت له الشهوات . . وزينت له المعاصى . . والشيطان يغريه . . والدنيا تجذبه . . وبريق كل شىء يحيط به . . ومع ذلك فهو يترك هذا كله بارادته . . يدفعه حبه لله سبحانه وتعالى . . أن يأتى طائعا مختارا . . ليتخلى عما نهى عنه الله . . ويتمسك بما أمره الله به . . تلك عبادة عن محبوبية . . عن حب الله . . عن تمتع بطاعة الله سبحانه وتعالى بالاختيار . . نسبح لله . . نعم . . عن حب . . نعبد الله نعم . . عن قرب وعن رغبة . . نأتى الله سبحانه وتعالى . . لنقول له : يارب أعطيتنا الحرية فى أن نفعل . . أو لا نفعل . . وزين لنا الشيطان الدنيا ونعيمها . . وحفت الطاعة بالمكاره . . ولكننا تركنا الدنيا كلها . . بما تعرضه وما تقدمه . . وجئنا إليك مؤمنين . . إن الحياة التى وضعتها لنا . . هى الحياة السليمة الصحيحة الباقية . . هى النعيم الحقيقى . . أتينا إليك طائعين

مختارين . . لنلتزم بعبادتك . . هذا الالتزام هو حب لك . . أو على الأصح . . حب لما تحب . . وكره لما تكره .

عباد الرحمن

ولذلك يجب علينا أن نفرق . . حينما يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . عبادا وعبيدا . . يجب أن نفرق بين هاتين الكلمتين . . ونعرف أنهما ليستا مترادفتين . . ولكن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر . . فكل خلق الله عبيد . . لماذا ؟ لأن هناك أمورا قهرية تجرى على هذه الدنيا . . وهناك أشياء كثيرة لا اختيار لى فيها . . أبى وأمى مثلا . . بلدى . . رزقى . . الأحداث التى تقع على . . كل هذا أنا مقهور فيه . . ولذلك حين يريد الله سبحانه وتعالى عبيدا . . فإنه يجرى عليهم صفة القهر . . فلا يستطيعون أن يتحللوا أبدا . . ولكن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يخلق عبادا . . فإنه يخلق أناسا لهم منطقة اختيار . . يستطيع كل واحد فيهم أن يشذ . . وأن يفعل أو لا يفعل . . وأن يطيع أو لا يطيع .

فالذى يتنازل باختياره عن حركة الحياة . . هم عباد الرحمن . . أولئك الذين أعطاهم الله صفة الاختيار . . فى أن يفعلوا أو لا يفعلوا . . ولكنهم تنازلوا عن الاختيار الذى منحه الله لهم . . تنازلوا عنه . . فإن أطاعوا فحبا لله لا قهرا . . وإن هم فعلوا فخشوعا وخضوعا لله . . وليس عن عدم قدرة . . وان هم وحدوا حركة حياتهم مع منهج الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى . . فذلك حبا فى الله وتقربا إليه . . هؤلاء الذين يسميهم الله سبحانه وتعالى عبادا . ولذلك استمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

۞ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴾

سورة الفرقان

هؤلاء العباد . . ولم يقل الله سبحانه وتعالى وعبيد الرحمن . . بل قال:« **وعباد الرحمن** » . . لماذا ؟ لأن هؤلاء قهروا أنفسهم على حب الله بمحض ارادتهم واختيارهم . . ودخلوا فى حب الله فالزموا أنفسهم بمنهجه .

والإنسان المقهور على شيء لا يستطيع منه فرارا . . ولا اختيارا . . أقل ثوابا من ذلك الذى يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ذلك أن الثانى قد ألزم نفسه بشيئين أساسيين . . الشيء الأول أنه كان يستطيع أن يفعل ولم يفعل . . وهذه منزلة عند الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن العبد ارتفع بعبوديته . . بأن قهر نفسه واختار الله فى وقت كان يستطيع فيه المعصية . . وهذه درجة أعلى فى الحب . . أن تختار الله سبحانه وتعالى طواعية . . وأن تتوجه إليه راجيا متوسلا أن يقبلك . . فى هذه الحالة يكون حب الله فى قلبك قد زاد . . وتكون منزلتك عنده قد ازدادت أيضا . . هذه واحدة .

الحقيقة الثانية : ان الإنسان قد التزم بالتكليف . . وألزم نفسه بمنهج الله . . فدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى . . مع أنه يستطيع أن يفعل غير ذلك . . وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم . . نجد أن الله سبحانه وتعالى فى التكليف لا يخاطب الناس جميعا . . وإنما يسبق أحكام التكليف دائما بكلمة :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام »
« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة »
« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم »

إلا .. ليعبدون

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أَحلَّ الله لكم »

.. أى أن الله سبحانه وتعالى .. لا يكلف إلا المؤمن .. الذى يدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. الذى يقول يارب آمنت بك ربا .. وبالإسلام دينا .. وأريد يارب أن أتبع هداك .. وأن أمضى فى صراطك المستقيم .. ويتم ذلك بالإرادة الحرة .. دون ما تدخل .. حين يأتى العبد إلى الله سبحانه وتعالى .. معلنا إيمانه .. ملزما نفسه بما يريد أن يتبعه .. حينئذ يكون قد دخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى .. ويكون ملتزما بمحض اختياره أن يتبع منهج الله .. فيخاطب الله بالمنهج .. ويبلغه بالتكليف .. أما ذلك الكافر .. الذى لا يلتزم بشىء .. ولا يؤمن بشىء .. فهو لا يدخل فى هذا التكليف الإيمانى .. بين الله والعبد المؤمن .. وهو غير مخاطب بالتكليف .

إذن فالإنسان إذا دخل طريق العبادة .. طريق الإيمان .. فإنما يفعل ذلك باختياره .. فاذا التزم .. أصبح من عباد الله .. الذين يكلفهم الله ويطيعونه .. ويلتزمون بمنهجه .. وهكذا تكون العبادة بالنسبة للإنسان من شقين الأول .. أن يؤمن طواعية واختيارا .. والشق الثانى .. أن يلتزم طواعية واختيارا أيضا .. فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾

سورة الزمر

نعرف أن غفران الذنوب جميعا .. لأولئك الذين اختاروا منهج الله .. وارتقوا من منزلة العبيد إلى منزلة العباد .

قلوب تخشع

فالذى يأتيك طائعا مختارا . . يأتيك بالحب وهو قادر على ألا يأتيك . . هؤلاء هم العباد . . وحين يريد الله سبحانه وتعالى . . حين يقول: « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » . . هل معنى ذلك أنه يريدهم عبيدا أو عبادا . . يريدهم عبادا . . أى يريدهم أن يتنازلوا باختيارهم . . وحبهم لله . . عن كل ما يغضب الله . . وأن يتبعوا باختيارهم وحبهم لله ما يرضيه . . ولو أراد الله غير ذلك ما استطاع واحد منا أن يكفر .

ولذلك قال ابليس: « **إلا عبادك منهم المخلَصين** » . . أى ذلك الذى اختار طريقك يارب . . أو هؤلاء الذين اختاروا طريقك . . واختاروه بحب . . ومشوا فيه بإخلاص . . وتنازلوا عن اختيارهم حبا لك . . هؤلاء لا يستطيع إبليس أن يغويهم أبدا . . لماذا ؟ لأنه يعلم أن الله يرعاهم . . ويدافع عنهم . . ويحيط بهم أينما كانوا . . وأن سياج عناية الله يمنع إبليس من الاقتراب منهم . . هؤلاء هم العباد المخلصون . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **لا إكراه فى الدين** » . . فالله لا يريد قوالب تخضع . . ولكنه يريد قلوبا تخشع بالحب . . لأن اخضاع القالب . . يمكن أن يأتى بالرغم منك . . فإذا أمسك إنسان كرباجا . . وقال لك افعل كذا وقلت لا . . فيضربك بقوة . . ويؤلمك الضرب . . خضع قالبك . . أى خضع الظاهر منك وقمت تفعل له ما يريد . . ولكن هل تفعل هذا بحب ؟ هل تفعل هذا بشوق ؟ هل تفعل هذا عن رغبة ؟ لا ، أنت تفعل وأنت مكره . . الله سبحانه وتعالى وهو قادر على هذا . . لا يريد أن يُكرِهك . . ولكنه يريد قلوبا تخشع . . أى يريدك أن تخشع من داخل قلبك . . والقلب هو المنطقة الحرة التى خلقها الله فى الإنسان . . ولا تستطيع قوة فى الأرض . . أن تجعلها مقهورة على شىء . . فما فى قلبك هو ملك خاص لك . . ليس للعالم كله سلطان عليك . . وقد يكرهك إنسان فتتظاهر له بالحب . . ولكن قلبك يظل يكرهه ويرفضه . . وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع . . ولكن قلبك يمقته . . وفى نفس الوقت مهما فعلوا فيك . . ولو

وضعوك فى سجن تعذب فيه ليل نهار .. ولو قطعوا جسدك .. فإنهم لن يستطيعوا أن يكرهوا قلبك على حب شيء تكرهه .. أو كره شيء تحبه .. بل تبقى هذه المنطقة حرة لا يتدخل فيها إنسان .. ولا يستطيع إنسان أن يتدخل فيها .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

لماذا ؟

لأن الاكراه فى هذه الحالة .. يكون اكراها للقالب .. وليس للقلب .. والله سبحانه وتعالى كما قلنا .. لا يريد قوالب تخضع .. ولكنه يريد قلوبا تخشع .. ولذلك مادام القلب خاشعا .. فالله راض .. حتى ولو أجبر القالب على غير ذلك .. ولذلك فقد أسقط الحساب عن كل من أكره قالبه على شيء وقلبه يرفضه .. فأنت إذا أمسكت عصا غليظة .. وأجبرت إنسانا على الصلاة .. وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها .. فلا صلاة له .. وأنت ان أكرهت إنسانا على فعل منكر .. وقلبه يرفضه .. فلا حساب عليه .. فالله يسقط عنه الحساب .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

إنه يقول لرسوله ونبيه الكريم .. أنا لا أريد أعناقا تخضع بالقهر .. لأننى لو أردت ذلك فما أسهل أن أفعله .. أنا لا أريد إكراها .. إنما أريد « **عبادة** » .. تأتى بالحب لى .. وليس بالإكراه على عمل أريده .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول :

« وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » .

فالمهمة هنا أن يكونوا عبادا لا عبيدا .. وأن يأتوا لله سبحانه وتعالى عن محبوبية وخضوع .. ولو أتوا عن غير ذلك ما حققوا مهمتهم فى الحياة .. وأن يأتوا عن حب فى كل ما يعملون .. إذا عبدوا فعبادتهم عن حب .. وإذا

حكموا فحكمهم عن حب فى ارضاء الله .. وإذا باعوا وإذا اشتروا .. فكل ذلك فى إطار حب إرضاء الله .. فى كل أمر من أمور الدنيا .. لا يشغلهم إلا ذلك الحب .. فكل عمل يقومون به .. يبتغون به رضاء الله .. ويسألون أين الرضا فيتبعونه ... فلا يغش أحدهم فى بيع .. ولا يزور فى قول .. ولا يزيف شهادة .. وهكذا .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مختارين .. فكل ما نعمله فيه اختبار لنا .. وفيه اختيار لنا .. ويكون عن رضا .. وعن نية .. وعن رغبة .. وعن غاية .. فالذى يسرق .. يختار أن يسرق .. والذى يفعل ما يغضب الله .. فهو يختار ذلك .. وهو فى اختياره هذا .. قد خرج عن طريق الحياة الذى رسمه الله سبحانه وتعالى له .. فهو لم يأخذ شيئا .. ولن يأخذ شيئا .

حقيقة الحياة كلها إنها اختبار فى العبادة .. يمر به الإنسان .. اختبار لما يمكن أن يفعل ولا يفعل .. فالمال مال الله .. لا يملكه أحد .. والأرض أرض الله .. لن يحتفظ بها أحد .. الإنسان يأتى ويخرج .. وكما جاء يخرج .. فيما عدا عمله .. وحسناته وطيب الذكر والعبادة .

الرحلة كلها من المهد إلى اللحد .. رحلة إيمان .. وفى مفهومها الواسع اختبار لحب الله فى القلب وعبادة الله فى الأرض عن اختيار حر .. ومهما فلسفنا الأمور .. أو وضعنا للدنيا موازين ومقاييس .. فإننا نأتى فى النهاية .. إلى انها رحلة إيمانية لاختبار حب الله فى النفس .. دون أى شىء آخر .. وإذا كانت أشياء قد وضعت فى الأرض لتحث الإنسان على العمل أو على الزرع وتعهده .. وكل ما نراه .. فهذه كلها أسباب ومسببات .. وضعها الله سبحانه وتعالى .. لتمضى الحياة فى الكون ..

وإذا كان هناك مغريات قد وضعت فتلك اختبارات الإيمان .. أما من يقول

انه يملك . . أو انه يستطيع كذا وكذا . . أو أنه يفعل كذا وكذا . . فكل ذلك فى مبناه الحقيقى مجاز . . لا علاقة له بجوهر الأشياء . . فأنا أملك مجازا مادمت حيا . . فإذا مت . . فلا أملك شيئا ولو كنت ملكا للدنيا كلها . . وأنا أحكم مجازا وأقضى . . فإذا انقضت أسباب الحكم التى مكننى الله بها . . فلا أستطيع أن أقضى ولا على فرد واحد . .

رحلة الحياة هى اختبار إيمانى فى العبادة . . قد جعله الله اختيارا للبشر . . ليفضلهم على سائر مخلوقاته ويجزيهم عليه جزاء كبيرا . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال عن الإنسان « **إنى جاعل فى الأرض خليفة** » . . تلك الخلافة هى ذلك الاختبار الإيمانى الذى يمر به كل إنسان .

الوجود . . والايجاد

العلة فى الخلق هى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . العلة فى الوجود والايجاد . . هى تحقيق العبادية المثلى لله سبحانه وتعالى . . من الذى حقق ذلك . . من الذى قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

سورة المائدة

من الذى جاء على يديه كمال الدين . . وتمام النعمة . . انه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . تتمثل فيه أفضل درجات الرضا من الله سبحانه وتعالى . . وآخر درجات الاتمام للعبادية . . التى أرادها الله من خلق الإنسان على الأرض . . عبادية عن محبوبية وعشق لله . . عبادية عن دخول طاعة الله سبحانه وتعالى طوعا واختيارا . . عبادية بالالتزام بما أنزل الله التزاما كاملا . . والبعد عما

نهى عنه بعدا كاملا .. هذه هى العبادية المثلى .

الله سبحانه وتعالى أرسل محمدا .. ليكون مثلا أعلى للبشرية كلها .. يحتذى به أولئك الذين يريدون أن يعبدوا الله عبادة حرية واختيار .. وحب وإيمان .. وقرب من الله سبحانه وتعالى .. فإذا عرفت هذا كله .. فلابد أن يتسع عقلك وفطنتك لمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه .. وقربه منه .. وحبه له .

ولكن لكى نعرف هذا كله .. بما يحمله من عمق للبشرية .. فلابد أن نعرف معنى قوله تعالى « **اياك نعبد** » .. ومادام الأساس فى البشرية كلها هو العبادة فلنبدأ بمعنى « **اياك نعبد** » ..

ولنبدأ خطوة خطوة .. « **إياك نعبد** » .. أى لا نعبد سواك .. نعبدك وحدك ، وهذا معناه الخضوع لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد .. والله سبحانه وتعالى الذى نخضع له .. خضوعنا له هو قمة الشرف لنا .. فالله سبحانه وتعالى بعلاه وقدراته وقوته .. وكل صفاته .. هو قمة تجعل الخضوع له تشريفا .. فأنت لا تخضع لمساو لك .. ولا لمن فوقك درجة .. ولا لمن فوقك درجات .. بل تخضع لخالق الكون كله .. ومهما تعددت القوى التى تفوقك .. فإن لكل قوة فى الكون قدرة لا تتجاوزها .. ولكن الله سبحانه وتعالى فوق كل قدرة .

والأصل فى الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى .. ولو كان هذا هو الكون .. لتكرر خضوع بعضنا لبعض .. ولكن الله سبحانه وتعالى .. حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع لسواه .. ولو درسنا العقل البشرى عبر التاريخ .. لوجدناه قد خضع وعبد الشمس .. وعبدالريح .. وعبدالحيوانات المفترسة .. وعبد الأحجار والأصنام .. أشياء كان يخشاها .. وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه .. وأخرى صور له عقله أنها

تقربه من الله سبحانه وتعالى .. وكان فى كل خضوعياته يخرج من عبودية إلى عبودية .. فهو مرة يعبد الها فيجد انه لا ينصره فيتجه إلى اله آخر .. فلا يجد له حولا ولا قوة .. فيمضى إلى إله ثالث ورابع .. ويظل حائرا ينتقل من عبودية إلى أخرى .. يصور له جهله أشياء .. ويصور له خوفه أشياء .. فخضع الإنسان للإنسان .. وخضع للحيوان .. وخضع للجماد .. وفى كل خضوعه كان يعطى ولا يأخذ .. يعطى القرابين .. ويعطى الذهب والفضة للمعابد .. ولا يأخذ شيئا .. فإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى ويقول .. « **وتوكل على الحى الذى لا يموت** » فيحررنا من كل هذه العبوديات .

فأنت تجد حاكما تخضع له .. ثم يذهب هذا الحاكم ويضيع خضوعك .. وتجد نفسك بلا نصير .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية .. أنت تخضع لرجل ذى مال .. ثم يأتى ليفلس .. وتجد نفسك لا شىء .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل عنك هذه العبودية .. أنت تخضع لإنسان لأنه يملك شيئا ولكنه يتخلى عنك ـ وبدلا من أن يعطيك ما تريد .. يعطيك الخوف والفقر .. أنت تعبد مالا أقتنيته أو ذهبا أخذته .. أو قوة جعلتك تتفوق على غيرك أو سلاحا تملكه ولا يملكه آخر .. هذه هى عبادات الدنيا .. ثم يذهب هذا المال أو تضيع هذه القوة .. أو يأتى إنسان بسلاح جديد يهزمك .. المهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينجيك من كل هذا .. يريد أن ينصحك يقول لك « **توكل على الحى الذى لا يموت** » .. فإذا طلبته وجدته .. فهو القوى وقوته أزلية .. وهو القادر وقدرته لا تزول .. وهو المتحكم وحكمه لا ينتهى وعرشه قائم حتى قيام الساعة .. كلمته هى النافذة فى كل وقت .. وفى كل عصر .. وفى كل زمان .. هو الله وحده لا ينازعه ولا يستطيع أن يصل إلى ملكه أحد .. هو الباقى حين يزول الجميع .. وهو القوى حين يضعف كل شىء .. وهو القادر حين تزول القدرة على الدنيا كلها .. وهو الذى يستطيع أن يبدل العسر يسرا .. والظلام نورا .. والضيق فرجا .. ولا يطلب لذلك كله ثمنا ولا جزاء .. إلا أن تقول: « **إياك نعبد** » .. فكيف تترك الله وتعتمد على

سواه .. وكيف لا تتوكل على الحى الذى لا يموت .

لو حكمت عقلك دقيقة .. لوجدت أن كل ما دون الله هو سراب وأوهام .. وشيء ضائع وزائل .. ولكن الباقى هو الله .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يطالبك أن تتوكل عليه .. أى إذا قصدت حاجة فقل:اللهم أعنى .. وإذا أردت عملا فارفع يدك إلى السماء وقل:اللهم يسر لى .. وإذا كان هناك ما يؤرقك فقل:اللهم اذهب عنى هذا .. وإذا كنت تواجه شيئا عسيرا فاطلب العون من الله سبحانه وتعالى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .

اياك نعبـــد

إذا قلنا « **إياك نعبد** » .. فاننا نعتز ولا نذل .. لماذا ؟ لأن ذل الدنيا كلها لا يستطيع أن يدخل إلى قلوبنا .. فإذا هددنا قوى ونحن ضعفاء فلن تصيبنا ذلة .. لأن الله سبحانه وتعالى معنا .. وإذا واجهتنا أى مصاعب أو متاعب .. فلا يجعلنا هذا نعيش فى ذل لأن وكيلنا هو الله سبحانه وتعالى .

نحن نصبح فى الصباح وصدورنا مملوءة بالعزة .. ورءوسنا مرفوعة للسماء .. لماذا ؟ لأننا توكلنا على الله سبحانه وتعالى .. وكل ما فى الكون خاضع لله .. فلا قوى يستطيع أن يدعى قوة فوق قوة الله .. ولا عزيز يجرؤ أن يقول إلا انه ذليل لله سبحانه وتعالى .. لذلك فإن الإنسان الذى لا يعتمد على الحى الذى لا يموت يعيش فى ذل الدنيا .. وفى عبودية هذا الذل .. فهو يصبح خائفا أن يفقد عمله .. أو يفقد ماله .. وهو حين يتكلم أو يتصرف .. خائف أن يغضب رئيسه عليه أو يغضب صاحب العمل . وهو فى خوف دائم من كل من هو أعلى منه .. وهذا الخوف يدفعه إلى حياة بائسة بغيضة .

ولكن ذلك المعتز بالله سبحانه وتعالى .. لا يهمه إلا أن يرضى الله وحده .. والذل لله عز .. والذل لغير الله بؤس وشقاء وهوان .. ذلك أن الله سبحانه

وتعالى يريد لى الخير .. ولا يريد لى الشر .. فهو يعطينى .. وهو يرحمنى .. وهو لا ينظر إلى ما فى يدى .. وهو مادمت أحبه فإنه يمنحنى من نعمه فوق ما أريد .. ولكن الإنسان يريد أن يأخذ ولا يعطى .. وأن يسلب الحق .. وأن يفعل كل ما تكرهه النفس .

عندما نقول « **إياك نعبد** » .. فإن عبوديتنا لله تعطينا الخير من الله .. والله سبحانه وتعالى قد أعطانا العزة فى هذه العبودية فى أشياء كثيرة .. فالله سبحانه وتعالى قد جعلنا جميعا متساوين أمامه .. ليزيل عنا ذل الدنيا .. وجعل لنا عبادته تذكرة لذلك .. وجعل لنا فى يوم الجمعة موعدا .. فرضه علينا ليذكرنا بالحقيقة التى ننساها أحيانا وهى عزة العبادية .. فنحن أمام الله جميعا متساوون فى كل شىء .. الحاكم عبد .. والمحكوم عبد .. أكثر الناس عزا وجاها .. يدخل المسجد حافى القدمين .. ويجلس على الأرض .. وأقل الناس يدخل المسجد بنفس الطريقة .. ويجلس بنفس الطريقة .. لماذا ؟ حتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى .. أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عنده .. وأن منازل الدنيا ليس معناها رضى من الله .. فنغتر وتأخذنا العزة بالاثم .. ونحسب أن عطاء الله فى الدنيا هو عطاؤه فى الآخرة .

أبدا فهذا غير صحيح .. يأتى الإنسان فى الدنيا فيعطيه الله الجاه والمنصب والمال .. فيغتر .. ويعتز .. ويأمر وينهى .. ويمضى يمينا ويسارا .. يحسب انه فى منعة .. ثم تأتى صلاة الجمعة .. فيذهب هو وأقل الناس شأنا عنده .. يجلسان معا على الأرض متساويين .. وربما كان أقل الناس فى الصف الأول .. وهو فى الصف الأخير .. ويركعان معا .. ويسجدان معا .. لا فرق ولا منازل دنيوية هنا .. لماذا ؟ حتى لا ينسيه غروره وما هو فيه من عز . حتى لا ينسيه هذا ان الله سبحانه وتعالى يريد عبادا .. وان العباد هم الذين يأتونه طائعين مختارين .. وانه إذا كان الله قد أعطاه فى الدنيا .. فليس هذا استثناء بالدخول إلى الآخرة فى منزلة أكبر أو أعلى .. فإذا تذكر ذلك وخرج من المسجد ..

ووقف أمامه رجل فقير ضعيف .. فلا تجعله عزة الدنيا يفترى على هذا الرجل .. بل يتذكر انه عندما كان فى المسجد .. كان هذا الضعيف المسكين فى الصف الأول .. وهو فى الصف الأخير .. فإذا تذكر ذلك .. تذكر الله وقوته .. وأحس ان هذا الشخص قد يكون أقرب منه إلى الله .. فلا يظلم .. ولا يغتر .

والعجيب أن بعض الناس يأتى إلى المسجد قبل الصلاة بدقائق .. ثم يتخطى الرقاب حتى يصل إلى الصف الأول .. ويظل يزاحم .. ويضايق فى المصلين حتى يجد مكانا له مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ما معناه ـ إن الرحمات تتنزل على الصف الأول فالذى يليه فالذى يليه .. نقول لهذا الشخص : من تخدع ..؟.. ليس معنى أن الرحمات تتنزل على الصف الأول .. انك تأتى فى اللحظة الأخيرة .. ثم تحشر نفسك فى الصف الأول معتقدا انك تخدع الله سبحانه وتعالى .. ان الملائكة يقفون على أبواب المساجد يوم الجمعة .. فيقيدون فى صحائفهم الداخلين .. الأول فالأول .. حسب دخولهم إلى المسجد .. حتى يصعد الخطيب إلى المنبر .. فإذا وصلت قبل الصلاة بدقائق فالزم مكانك .. ولا تحاول أن تخدع الله سبحانك وتعالى .. لأنك لن تستطيع أن تخدعه .. ولا تتخط الرقاب .. واعلم أن هذا هو بيت الله .. لا فضل فيه لأحد إلا لمن دخله أولا .. وإياك أن تتحدث فى أمور الدنيا داخل المسجد .. فالله لا يبارك فى حديث الدنيا داخل بيته .

على باب المسجد .. كما تخلع نعليك .. تخلع الدنيا كلها .. فأنت هنا مهما كان جاهك وسلطانك .. من عباد الله .. الدنيا خارج المسجد .. أما فى داخله فعبادة الله وحده .. والله خلقنا متساوين .. أكرمنا هو أتقانا .. ولم يخلقنا مميزين بسبب درجات الدنيا .. التى وجدت لتسير الحياة فى الأرض .. فإذا أردت أن تعبد الله فاخلع الدنيا من نعليك قبل أن تدخل المسجد .. فإذا قضيت الصلاة .. وخرجت من المسجد فباشر أمور دنياك .

إذن عبادة الله عزة . . لأنها تذكرنى بأننى متساو أمام الله . . مع أكبر خلقه فى الدنيا وأعلاها شأنا . . وأننى أنا وهو نصلى معا . . ونركع معا . . ونسجد معا . . ولا تسرى علينا إلا قوانين الله سبحانه وتعالى . . هذه واحدة . . والنقطة الثانية أننى عبد الله الذى لا يتركنى أبدا . . إذا أردت أن أقف بين يديه . . اتجهت إلى القبلة . . وصحت الله أكبر . . وإذا أردت أن أدعوه . . صحت يارب . . فقال ماذا تريد يا عبدى . . ؟ . . والعظيم من عظماء الدنيا إذا أردت منه شيئا فإنك تطلب أن تقابله . . وعليك أن تقابل أولا من هم أدنى منه . . ليسألوك لماذا تريد أن تقابله . . وفيم تريد أن تتكلم . . فإذا قلت لهم وأوضحت الغرض من المقابلة . . تركوك أياما وأسابيع . . وربما أشهرا وأنت تنتظر . . وقد يقولون لا . . وقد يقولون نعم . . فإذا قالوا نعم حددوا لك الزمان والمكان . . ثم بعد ذلك ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة أو ساعة . . وجلست منتظرا . . فإذا تمت المقابلة بعد هذا كله . . وأردت أن تشرح له ما جئت من أجله . . قد لا يستمع إليك . . ويقوم واقفا لينهى المناقشة .

أنظر إلى هذا كله . . ثم أنظر إلى عبوديتك لله سبحانه وتعالى . . أنت الذى تحدد الزمان . . وأنت الذى تحدد المكان . . فالله سبحانه وتعالى موجود دائما . . لتدعوه عندما تريد . . وإينما كنت تستطيع أن تتجه إلى السماء وتصيح يارب .. فتجد الله مستمعا إليك . . وأنت الذى تحدد الوقت . . والله سبحانه وتعالى لا يمل حتى تمل أنت . . فلو ظللت طول الليل تناجى وتدعو ، فالله معك يستمع إليك . . حتى تمل أنت وتتوقف عن الدعاء . . إذن فحسب نفسى عزا أننى عبد الله . . يحتفى بى بلا مواعيد . . ويعزنى ويقول يا عبدى أنت تلقانى متى تريد . . وفى أى مكان تريد . . أهذه عبودية أم عزة . . وهل توجد عزة أكثر من هذا ؟

المساواة فى العبادة

ولقد كان مبدأ المساواة فى العبادة . . من المبادىء التى قاومها غير المسلمين فى

أوائل الدعوة . . فقد قاوم الكفار الاسلام مقاومة عنيفة . . لأنه يساوى بين السيد والعبد أمام الله . . ولذلك فقول الله سبحانه وتعالى:« **إياك نعبد** » . . ومساواته بين خلقه ـ تلك المساواة المطلقة . . التى لا تعترف بفروق الدنيا.. ستجد بلاشك من يحاربها ويقف أمامها . . وسيكون هؤلاء المحاربون الذين يتصدون لمنهج الله سبحانه وتعالى . . هم السادة أو الأقوياء . . الذين يرفضون هذه المساواة . . ويريدون بقاء السيادة لهم . . كما يريدون بقاء مجتمع السادة والعبيد . . ويحاربون الدين الجديد التى يساوى بين السيد والعبد .

والذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة . . الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة . . والذى فيه نصرة الضعيف على القوى . . والمظلوم على الظالم . . الذين سيتمسكون بالعبادة وبمنهج العبادة . . الذى هو فيه هذه المساواة الكاملة . . والذى فيه نصرة الضعيف على القوى . . والمظلوم على الظالم . . الذين سيتمسكون بهذا المنهج هم الضعفاء . . لماذا ؟ . . لأن ضعفهم نشأ من اغتيال كسبهم وحقوقهم من الأغنياء ، إذن فهناك إنسان قوى لا يريد منهم « **إياك نعبد** » . . ولكن يريد كل شيء له . . يريد أن يتميز على الناس جميعا . . وإنسان ضعيف يتمسك بمنهج « **إياك نعبد** » . . لأنه يعيد إلى الضعفاء حقوقهم .

إذن ساعة نقول « إياك نعبد» سيتأبى عليك الذى يحبون أن يعبدوا من الناس . . وهم الأقوياء . . ومادام ذلك سيحدث . . فسندخل أول الأمر فى صراع . . جانب منه ضعفاء متمسكون بدين الله . . وجانب منه أقوى يرفضون هذا الدين . . يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت الذين آمنوا . . فيقول لك لا تخف من هذاالصراع . . ولا تحس بالرعب أو الفزع من أولئك الذين يملكون الأسباب فى الدنيا . . أسباب الحياة والسلطان والقوة . . الذين يريدون أن يُعبَدوا من الناس . . ذلك لأنه إذا عجزت الأسباب . . فهناك الله سبحانه وتعالى . . وهو يستطيع أن يحميك . . فاطلب المعونة من الله . . استعن بالله

سبحانه وتعالى .. وقل « **وإياك نستعين** » ..

ومادمت ستخص الله وحده بالعبادة ، فإن هذا التخصيص سينشأ عنه صراع بين حق وباطل .. وقد يكون هذا الصراع الباطل .. قوة ظاهرة فى الدنيا .. ولكن الحق له قوة تفوق قوة الباطل .. ولذلك تأتى:« **إياك نعبد** » أولا .. ويعلم الله سبحانه وتعالى أن صراعا سينشأ بين أقوياء وضعفاء فى الدنيا .. فيقول : قل:« **وإياك نستعين** » .. فلا يدخل الخوف إلى قلبك من هؤلاء .. وتذكر إنك تستعين بالله سبحانه وتعالى .

وكلمة « **وإياك تستعين** » هذه .. هى دستور فى حياة الإنسان المؤمن .. لأنك حين تقول استعان فلان بفلان .. لا يمكن أن يكون لذلك معنى غير معناها وهو طلب المعونة .. وطلب المعونة معناه أنه استنفد الأسباب التى عنده فى أن يقوم بالعمل .. فلما عجز استعان بغيره .. فأنا أريد أن أحمل حملا معينا .. فلا أستطيع لأن الحمل ثقيل .. وهنا ألجأ إلى غيرى .. وأطلب منه أن يقدم لى المعونة . حتى أستطيع أن أنقل هذا الحمل الثقيل من مكان إلى آخر .

إذن « **وإياك نستعين** » .. معناها أنه فرغت أسبابنا كبشر .. لأن الخصم الذى أمامنا أقوى منا .. فنحن نقول:انه فرغت أسبابنا يارب .. لأن الباطل أمامنا قوى .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : لا يمكن أن تخصنى أنت بالعبادة .. وأتخلى عنك .. بل أنا أعينك وأنصرك .. وهنا نحن نستعين بقدرة الله أمام باطل قوى .. ولكن يجب أن تنفد أسبابنا أولا .

ثم بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « **إهدنا الصراط المستقيم** » .. **هنا نحن نطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الذى ارتضاه لعباده .. وحين يطلب الإنسان العابد الهداية من ربه .. يكون ذلك معناه أنه ارتضى الله سبحانه وتعالى مكلفا ومشرعا .. وقال : يارب لقد آمنت .. يارب سأعبدك وحدك وأستعين بك .. فاهدنى الصراط المستقيم وأرنى الطريق الذى يوصلنى إليك .**

والله ولى التوفيق

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٥ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0178 – X

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

٥

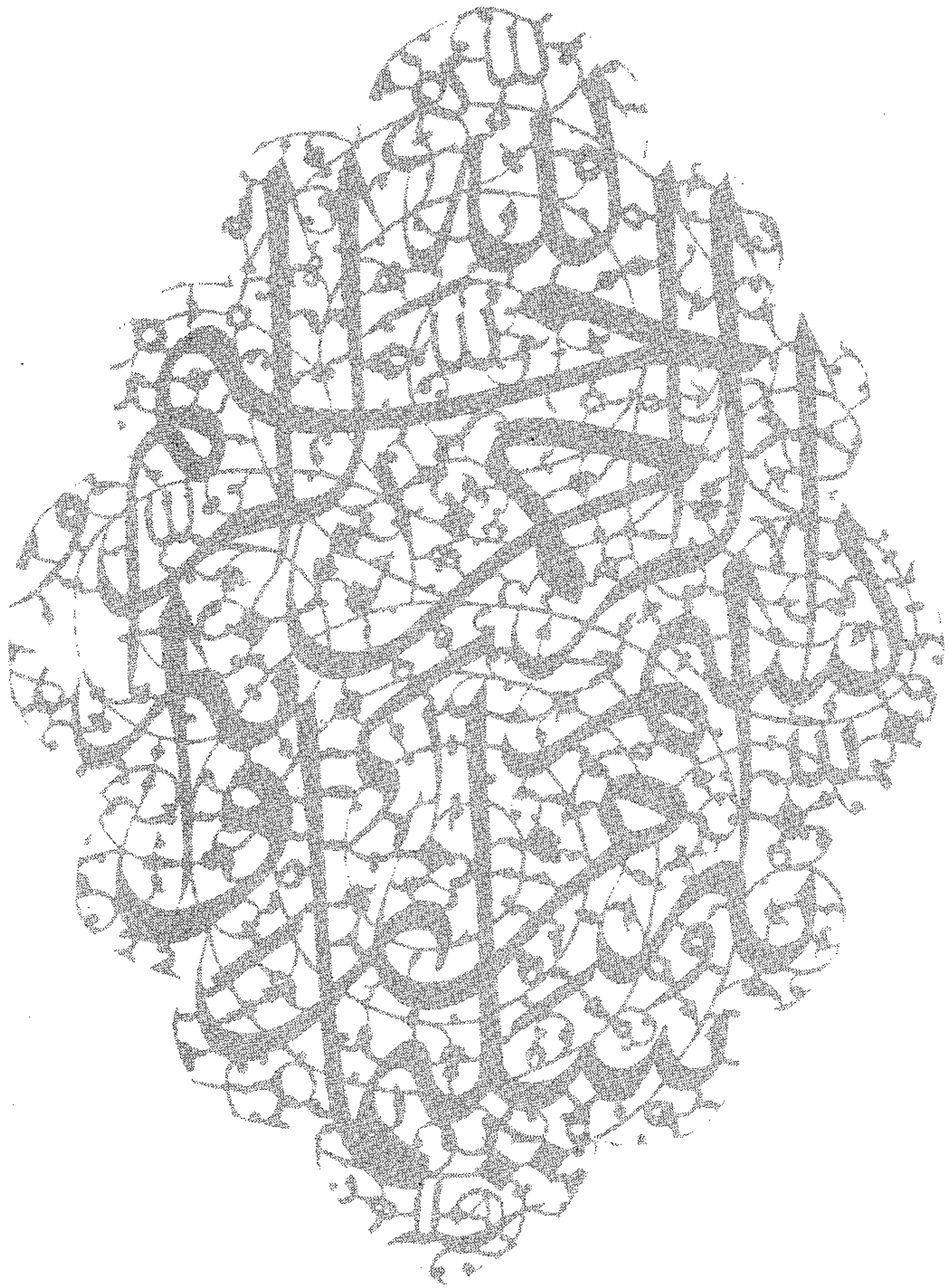
معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

الاخراج الفنى : اشرف حسين



الفصل الأول

القرآن .. والنفس البشرية

إن كل ما يتعلق بالكون . . وآثار القرآن الكريم حول الوجود . . فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بما علم هو نفسه منها . . واكتفى بأن علم من وجد عنده استشرافاً للفهم . . ولكنه لم يشع ذلك ولم يعممه . . ذلك لأنه بمقياس العقل فى ذلك الوقت . . كانت توجد عقول كثيرة لا تتقبل مثل هذا الفهم . . ولا تستطيع أن تعقله . . بل كان مجرد طرح مثل هذه الموضوعات . . لا يفيد قضية نشر الدعوة للدين .

والقرآن الكريم لم يأت ليعمم أسرار الوجود . . ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة . . وبأسرار الوجود مكتنزة . . وذلك حتى لا يكشف الحق تبارك وتعالى أسرار الوجود لأولئك الذين يجتهدون بعقولهم للوصول إلى أسرار الكون . . حينئذ يكون عطاء القرآن متساويا مع فهم العقول .

ويمر الزمن ويزداد التقدم البشرى . . ويتيح الله لعباده آيات من آياته فى الأرض . . ويكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول . . ذلك لأن للقرآن عطاء متجدد فى كل عصر . . وإلا لو أعطى الله كل ما عنده وقت نزول القرآن لجمد بعد ذلك . . ولم يكن له عطاء . . ولكن القرآن معجزة خالدة حتى يوم القيامة . . ومن هنا فإن يحمل عطاء لكل جيل . . يختلف عن العطاء الذى أعطاه للجيل الذى سبقه . . وهكذا . . ونحن مثلا لا نجد صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن غير التكليف . . فمثلا لم يسأل الرسول أحد عن « ألم » . . ألف لام ميم . . ولا عن « حم » . . مع أن الرسول كان يستقبل أناسا كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وأناسا كثيرين يكفرون بما أنزل الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله وضد القرآن . . ولكننا لم نسمع عن واحد منهم . . وهم قوم بلاغة فصحاء يجيدون اللغة العربية بالموهبة . . لم نجد أحدا من الكفار سأل عن معنى ألف لام ميم . . أو « حم » . . أو « عسق » . . كيف يمر المكابر على ذلك مثل فواتح السور . . ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ويجادله . . وقد كانت هذه فرصة فى المجادلة .

ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور .. دليل على أنها لم تكن تناقض واقعا عندهم .. فلا المؤمنون سألوه عنها .. ولا الكافرون سألوه عنها .. مع أن الكافرين كانوا حريصين على أن يهاجموا رسول الله بأى شىء من الأشياء .. ولو أن هذه الحروف من فواتح السور كانت تخدمهم فى غرضهم وهو مهاجمة هذا الدين .. لقالوا للناس ذلك وجاهروا به .

القرآن يخاطب ملكات خفية فى النفس

والقرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها .. إنه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن .. ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى .. وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن .. ولذلك كان حرص الكفار على ألّا يسمع أحد القرآن حتى الذين لا يؤمنون بالله .. ذلك أن كل من يسمع القرآن سيجد له تأثيرا وحلاوة .. قد لا يستطيع أن يفسرها .. ولكنها تجذبه إلى الإيمان .. ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه ، ولو كان القرآن لا يعطى شيئا من هذا .. ولا يخاطب الملكات الخفية فى النفس .. لما اهتم الكفار بأن يسمع أحد القرآن أو لا يسمعه .. ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط .. ويعتدون على من يتلوه فى الأماكن العامة .. بل قالوا .. فألغوا فيه .. ومعناها شوشروا عليه .

ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم .. إلا خوفا مما يفعله القرآن الكريم فى النفس البشرية .. كيف يستطيع أن يؤثر فيها .. وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان .. وتلك من معجزات القرآن الكريم التى يتميز بها عن أى كتاب فى هذا العالم .

لكل شىء أجل وميعاد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك القرآن .. فيما عدا التكليف بافعل

ولا تفعل . . تركه ليبين الزمن معجزاته . . فالقرآن كلام الله . . والكون هو خلق الله . . وفى القرآن آيات الله . . وآيات الكون تفسر لنا آيات القرآن الكريم فى الخلق . . فى خلق السموات والأرض . .وفى الليل والنهار . . والشمس والقمر . . وكل الآيات .

وهذه الآيات الأرضية لها ميلاد تكشف فيه للإنسان . . هذا الميلاد يأتى مع باحث عن آيات الله فى الأرض . . فيثيبه الله سبحانه وتعالى على جهده بكشف آية من الآيات الأرضية له . فإذا لم تصادف الآية التى جاء موعد ميلادها الكونى . . إذا لم تصادف هذه الآية عالما يبحث عنها . . كشفها الله سبحانه وتعالى لعالم أو مجتهد يبحث عن شىء آخر . . ولذلك فنحن نسمع كثيرا عن بحث بدأ بشىء وانتهى إلى شىء آخر . . ونسمع كثيرا عن أشياء يقول العلماء إنهم اكتشفوها بالصدفة . . والحقيقة أنه ليس هنا شىء إسمه الصدفة فى الكون . . ولكن لكل شىء أجل وميعاد . . وعندما يأتى الأجل يكشف الله عن آية من آياته فى الأرض بما نسميه نحن الصدفة . . وبما نراه كل يوم فى حياتنا . . بل إن الإنسان أحيانا يمرض ويذهب إلى كبار الأطباء . . فلا يعرفون الداء . . ثم يذهب إلى طبيب صغير فيكتشف الداء . . هل هذا الطبيب أكثر علما من أساتذته . . الحقيقة لا . . ولكن عندما جاء موعد الشفاء . . كشف الله أسباب المرض لأصغر طبيب . . مما حجبه عن أكبر أساتذة الطب . . وكل ما يعطيه الله لبعض خلقه . . هو أن يعطيهم القدرة بإستنباط سر من أسراره . . أو آية من آياته فى الكون . . عندما تكون العقول مستعدة . . والكون مهيأ لتقبل ما فى القرآن . . فبعض الناس يتساءل مثلا . . لماذا لم يذكر القرآن مثلا بكلام واضح أن الأرض كروية عندما نزل . . وأنا أقول لهم بالله كيف كان من الممكن أن تستقبل العقول البشرية مثل هذا الكلام أو تستوعبه . . خصوصا أنه يأتى فى أمر لا ينفع . . بل قد يضر . . وفى علم لا ينفع وجهل لا يضر . . فانتفاع الإنسان بالأرض وما عليها ليس مرهونا بأنه علم أنها كروية أو غير كروية . . وأستفيد من دوران بالليل أو النهار مثلا . . سواء علمت أن الأرض تدور حول نفسها أو لم

أعلم تلك الحقيقة ، إذا الاستفادة من بعض الأشياء لا تتوقف على معرفة أسرارها والكون موجود بكل خواصه ليفيد الناس الفائدة التى تمكنهم من الحياة فوق الأرض عرفوا كل خواصه . . أو عرفوا بعض هذه الخواص فقط . . فأنت مثلا تشعل المصباح بضغطة على زر الكهرباء . . وتنتفع بضوء الكهرباء . . ولو إنك لا تعرف أسرارها . . بل إن معظم الناس الذين يستخدمون الكهرباء ويستفيدون منها لا يعرفون أسرارها . . ولكن ذلك لا يمنعهم من الاستفادة من خواصها ، ولا يقلل من هذه الاستفادة . إذن فعدم علمنابكروية الأرض أو أنها تدور حول نفسها . . لا ينقص منا شيئا من فائدة هذه الأشياء . . بل نحن نستفيد من كل هذه الخواص . . رغم عدم علمنا بها . . ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم . . تعرض لهذه المسائل تعرضا لا يتناسب مع مستوى العقول واستعدادها . . فإنه ربما يصرف بذلك العقول عن أساسيات القرآن . . وهى العبادة إلى الجدل والمجادلة . . حول ما يقوله . . ولا يستطيع العقل أن يستوعبه أو يفهمه فى ذلك الوقت .

كل عصر له عطاء

والحق سبحانه وتعالى قد ترك فى القرآن أشياء لوثبات العقول فى العلم . . حتى إذا استطاعت العقول أن تكشف شيئا فى الكون . . وجدت خيطا يربط بين آيات الله فى الكون . . وبين آيات القرآن الكريم . . واكتشف أن الأسرار الكونية التى وصلت إليها ليست علما جديدا . . ولكنه علم وضعه الله سبحانه وتعالى فى الأرض ساعة الخلق . . ثم بعد ذلك كشفه لعقول البشرية بعد ألوف السنين . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن لجمد القرآن . . لماذا . . لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد أن يفسر رسول الله . . فيقف الأمر عند ذلك . . وتأتى المعطيات الجديدة . . والكشوف الجديدة . . فلا تجد فى القرآن عطاء له .

ولذلك فإن عدم تفسير رسول الله للكونيات فى القرآن . . هو تفسير لهذه

الكونيات . . لأنه ترك تفسير هذه الكونيات لعطاء العقول . . فكل من يستطيع أن يجتهد ويوفقه الله إلى آية من آيات الأرض يجد إشارة لها فى القرآن الكريم وهنا يكون المنع هو عين العطاء . . لأنه أتاح الفرصة لعطاء متجدد للقرآن الكريم . . إلى قيام الساعة . . وكل عصر له عطاء يؤكد معجزة القرآن .

قرآن . . وكتاب

وكلمة القرآن تقوم على تفهم الذى تقرؤه . . لأنه قرآن ، قرأ ، قرآنا . . مثل غفر غفرانا . . وهو علم نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى . . ويسميه الله كتابا . . إذن هو قرآن إذا لاحظت القراءة . . وهو كتاب إذا لاحظت الكتابة.والقراءة تستلزم حافظا يقرأ . . والكتابة لا تستلزم حافظا . .

فالإنسان حين يقرأ من الكتاب ليس محتاجا إلى الحفظ . . ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل الحفظ . . يحفظ فى الصدور ويسجل فى الصحف . . حتى لا يضيع بين الحافظين .

وحينما كتب القرآن كان زيد لا يكتب شيئا إلا إذا وجد مكتوبا . . وهناك اثنان من الحافظين . . وهكذا اشتركا فى الكتابة والحفظ معا فى تدوين القرآن الكريم وجمعه . . وكان لا يكتفى بحافظ واحد بل بحافظين ، حتى إذا نسى أحدهما ذكره الآخر . . وكان هذا هو أساس جمع القرآن الكريم فى مصحف . . ولكن زيدا شذ عن القاعدة فى آية واحدة . . تلك الآية وجدها مكتوبة . . ولكن كان لها حافظ واحد . . ولكن انظروا إلى الخواطر الإيمانية . . حين يقذفها الله سبحانه وتعالى لاستكمال منهجه . . الآية وجدها زيد عند خزيمة . . ولم يكن هناك أحد يحفظها غيره . . ولكنها مدونة ومكتوبة . . حينئذ تذكر زيد كلمة لرسول الله فى قوله : (من شهد له خزيمة فحسبه) .

. . وكان الرسول قد أعطى خزيمة نصاب الشهادة وحده . . وهذا له حادثة

يجب أن نرويها . . فقد كان هناك رجل قد استدان منه رسول الله مالا . . فجاء الرجل وطالب بالمال . . فقال الرسول . . لقد أعطيتك المال . . فقال الرجل أريد شاهدا على ذلك . . ولم يكن أحد مع رسول الله حينما أعطى الرجل المال . . فجاء خزيمة بن ثابت وقال يا رسول الله أنا كنت موجودا وأنت تعطيه هذا الدين . . فانصرف صاحب الدين على الفور . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت إلى خزيمة . . وقال له يا خزيمة أنت لم تكن موجودا حينما أديت الدين لصاحبه . . فكيف قلت إنك كنت معى . . ورد خزيمة . . يا رسول الله أنصدقك فى كل ما جئت به من أمور الدين موحى إليك من الله سبحانه وتعالى . . ثم أكذبك فى بضعة دراهم .

كان فكر خزيمة أن رسول الله إما أن يكون صادقا . . وإما أن يكون غير صادق . . ومادام هو صادقا فى المنهج . . فلابد أن يكون صادقا فى الدين . . وفى أنه رد هذاالدين لصاحبه . . ذلك أن عدم الصدق فى واقعة الدين يلغى الصدق فى كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هنا فلابد أن يكون رسول الله صادقا فى كل ما قاله . . وهذا المدين كاذب . . وهكذا تقدم خزيمة للشهادة . . على أساس المنطق الايمانى . . وهنا قال رسول الله من شهد له خزيمة فحسبه ويذلك تم تسجيل الآية .

إذن فالقرآن قرآن لأنه يقرأ . . وكتاب لأنه يكتب . . وإذا أردنا أن نعرف القرآن التعريف الحقيقى . . فهو يبدأ بالفاتحة . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . . » حتى آخر سورة « قل أعوذ برب الناس . . » .

وبعض الناس يقول إن القرآن كلام منزل على محمد صلى الله عليه وسلم . . بقصد التحدى والاعجاز بين منهج الله . . ولكنك لن تعرف ما هو القرآن إلا إذا قرأته من أوله لآخرة . . وهناك كتب نزلت من الله سبحانه وتعالى . فالتوراة

والانجيل وصحف موسى . . هى كلام الله . . ولكن هذه الكتب كان مقصودا بها المنهج فقط . . بينما القرآن الكريم يحمل المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فموسى عليه السلام كان منهجه التوراة . . ومعجزته العصا . . يضرب بها البحر فينفلق . . ويلقيها أمام السحرة . . فتتحول إلى حية تأكل ما يصنعون . . ويضرب بها الحجر فينبعث منه الماء . .

والانجيل هو منهج عيسى عليه السلام . . أما معجزاته فكانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

إذن فالمعجزة شيء . . والمنهج شيء آخر . . ولكن القرآن الكريم تميز بأنه المنهج والمعجزة معا . . لأن القرآن نزل على نية الثبات . . إلى أن تقوم الساعة . . ولذلك لابد أن يؤيد دائما بمعجزات . . وأن تكون المعجزة معه .

المنهج عين المعجزة

فالمنهج عين المعجزة . . حالة مفقودة فى الرسالات كلها . . ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم . . أمر موجود يمكن أن يشار إليه فى أى وقت من الأوقات . . ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى عن كونيات الحياة للعقل البشرى فى القرن العشرين . . نجد أن القرآن يشير إليها . . لأن العمر فى الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة . . ومادام إلى أن تقوم الساعة . . فيظل معجزة حتى قيام هذه الساعة . . ولابد فى هذه الحالة أن يكون له عطاء يمثل إعجازا لكل عصر .

ولو جاء القرآن وأعطى إعجازه كله فى قرن مثلا من الزمان . . ويستقبل القرن الآخر بلا إعجاز . . وبذلك يجمد . . ولكن لكى تبقى المعجزة . . يجب أن يظل إعجاز القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة . .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى . . « سنريهم آياتنا فى الآفاق » . . هذه هى الآية الكوينة . . « وفى أنفسهم » . . وهذه هى الآيات الطبية . . حتى يتبين لهم أنه الحق . . أى أن القرآن هو الحق . . وبذلك يمكن لنا أن نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم . . حتى يتبين لهم أنه الحق . . وكلمة « سنريهم آياتنا » توحى لنا أن الله سبحانه وتعالى سيعطينا آيات الكون وأسراره . . ويمكن أن يعطيها للمؤمنين أو لغير المؤمنين . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى من آيات الكون للمؤمنين . . فبرع المسلمون ووضعوا أساس العلم الحديث للعالم . . ثم أعطى لغير المؤمنين . . وذلك يفسر قوله سبحانه وتعالى حتى يتبين لهم أنه الحق . . أى أن الذى أعطاهم الله آيات الكون فى وقت من الأوقات . . منكرين للقرآن كحق . . لأن المؤمن يفهم أن القرآن هو الحق . . وهو ليس فى حاجة إلى بيان . . أما غير المؤمن فهو الذى يشك فى هذا الدين . . وفى هذه الحالة يكشف له الله آية تبين له أنه الحق ، والقرآن حين يتحدى . . يتحدى فى أمر معجز . . وأنت لا تتحدى إنسانا كسيحا فى المشى . . ولا تتحدى إنسانا ضعيفا فى حمل الأثقال . . هنا التحدى غير موجود .

ولكنك إذا أردت أن تتحدى . . فيجب أن يكون هذا التحدى فى شىء تنبغ فيه . . ولذلك جاء القرآن وتحدى العرب فى البلاغة والكلمة . . وكان العرب متفوقين فيها . . وبذلك حين غلبهم القرآن . . كان التحدى فيه حجة . . فقد جاء من نوع ما نبغوا فيه . . لأنه لو كان غير ذلك . . ولو جاء القرآن لقوم لا يحسنون البلاغة . . وليس منهجهم بلوغ الكلمة . . يكون حينئذ ليس معجزا . . ولقد كان العرب يتفوقون بالأداء الطيب المعجز شعرا ونثرا وخطابة .

وجاء رسول الله صلى الله عليه سلم . . كيف كان موقفه فى هذا كله . . لقد عاش بينهم أربعين سنة . . لم ينظم شعراً . . ولم يلق فيها خطاباً . . ولم يكن من نبغاء البلاغة . . وما عرف عنه إلا كلام عادى قبل الرسالة . . وليس له علاقة لفنون الشعر والخطابة . . ولا هو متفوق فيها . . ولا يقوم بما يقوم به فطاحل

البشر والأدب من تحد وقصائد إلى غير ذلك . . والمعجزة هنا أننا حين نتحدى أولئك الذين نبغوا فى فن البلاغة . . نتحداهم بإنسان لم يشتهر عنه أنه قال شيئا من البلاغة . . حتى نعرف أن هذا الذى يقول ليس من عنده . . والمواهب الموجودة فى الشعر . . تظهر فى سن مبكرة . . من العشرين الى الثلاثين . . وإن كانت هناك مواهب تظهر عند الصغر . . ولكن النبوغ والعبقرية لا تأتيان إلا متأخراً فى سن الأربعين . . وعندما يفاجأ العرب والعالم . . بأن محمد بن عبدالله . . الأمى الذى لم يعرف عنه أنه خطب أو قال شعرا . . أو كان من رواد البلاغة . . عندما يقول كلاماً معجزاً لأصحاب المواهب . .نقول فى هذه الحالة . . أن هذا ليس من عنده . . لأنه ليس من المعقول أن يكون عنده هذه العبقرية ثم يكتمها إلى سن الأربعين . . ولكن المعقول أنها جاءت له من الله . . ولذلك عندما يعرض القرآن للمتشككين يقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا يقول رسول الله أنه ليس هو قائل هذا القرآن حتى يبدله . . ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

هنا بلاغة وإعجاز فى الرد . . فرسول الله يرفض أن ينسب الكمال لنفسه . . والناس بطبعها تدعى الكمال لنفسها . . وتنسب للنفس ما لم تفعله . . كل واحد منا يريد أن يثبت أنه عبقرى . . وأنه عالم . . وأنه فى فنه مسيطر . . وأنه

لا يوجد من يفهم مشاكل الدنيا كلها إلا هو . . وهو فى سبيل ذلك مستعد أن يسرق جهد غيره وينسبه إلى نفسه . . أى أن الطبيعة البشرية تحاول أن تدعى الكمال ولو كذبا . . ولكن هؤلاء الناس يريدون أن يعطوا الكمال لرسول الله . . فينسبوا إليه أنه هو الذى قال هذا القرآن . . وبدلا من أن ينساق رسول الله وراء هذا الكمال الذى يحاولون أن ينسبوه إليه . . يوحى له الله بأن يرد عليهم ويقول لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . . ثم بعد ذلك يوحى الله إليه بالحقيقة أو الدليل يرد عليهم فيقول . . فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . . أى أننى عشت معكم أربعين سنة قبل أن يوحى إلى . . ولم أحاول حتى مجرد الدخول فى مزايدات البلاغة والشعر والخطابة . . ولم يشتهر عنى ذلك . . بل كنت أقول كلاماً عادياً . . فإذا كان هذا هو خلقى وطبعى كما تعرفون . . فيجب أن تعرفوا أن الكلام المعجز لكم . . والذى أتلوه عليكم هووحى من الله سبحانه وتعالى وهذا كلامه . . فإن كنت أحسن فن الكتابة والخطابة فربما ساروكم الشك . . ولكنى كنت أقول كلاماً عادياً . . ولم أحاول أن أدخل معكم فى أى من مسابقات البلاغة والخطابة . . ولا أن أعجزكم بقولى . . فعندما يأتى هذا القول المعجز يكون من الله سبحانه وتعالى .

لا يعرفون .. كيف يكذبون

ثم نجد شيئاً هاماً . . رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو قرآناً هو كلام الله . . ويأتى بالحديث القدسى . . ثم يأتى بالحديث النبوى . . كم لوناً من الكلام . . ثلاثة . . قرآن . . وحديث . . وحديث قدسى . . والثلاثة مختلفة فى الأسلوب والبلاغة . . بحيث عندما يقرأ أحدهم قول القرآن يقول هذا قرآن . . وإذ تلا أحد عليك الثانى يقول هذا حديث قدسى . . وإذا تلا عليك الثالث تقول هذا حديث نبوى . . وآتونى بأى عبقرى من عباقرة البلاغة . . ليستطيع أن يكون له ثلاثة أساليب . . لكل أسلوب طابع خاص مميز . . لا يشترك فيه مع غيره .

لا يمكن أن يكون لشخص واحد ثلاث شخصيات أسلوبية .. بل لكل واحد شخصية أسلوبية واحدة .. وإذا حاول أن يخرج عنها فلابد أن تغلبه .. وتكون هذه الفروق الهائلة بين الأساليب الثلاثة هى دليلا على أنها من عند الله .. وبذلك يكون التشخيص الأسلوبى فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بالمنهج الذى هو القرآن .. ثم الحديث القدسى .. ثم بالحديث النبوي .. أكبر دليل على صدق الرسالة .. والحق سبحانه وتعالى حين أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم .. وفاجأ الناس بهذا البيان .. ذهلوا .. ولم يستطيعوا أن يردوا .. كانوا يريدون تكذيب القرآن .. ولكنهم لا يعرفون كيف يكذبونه قالوا هذا ساحر .. وكان الرد ببساطة إن السحر ليست له إرادة مع الساحر .. بحيث لا يستطيع أن يدفع المسحور عن نفسه .. ولذلك نقول لهم مادام محمد ساحراً وسحر الناس .. لماذا لم يسحركم أنتم حتى تؤمنوا به .. لو كان ساحراً ما كنتم امتنعتم عليه وكان سحركم كما سحر الآخرين .. إنما كونكم حتى الآن تجلسون تردون وتجادلون .. معناه أنه لم يسحركم .. وهذا دليل على أنه ليس بساحر .

وقالوا مجنون .. ونحن نقول لهم إن عمل المجنون هو عمل بغير رتابة .. بمعنى انك لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعله إنسان فاقد العقل .

بل أنه قد يكون جالساً معك يتحدث .. وبعد دقيقة واحدة يضربك أو يؤذيك أو يقتلك .. رتابة العقل هنا غير موجودة .. وغير العاقل لا يمكن أن نقول ماذا سيفعل فى الدقيقة التالية .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان على خلق عظيم .. بشهادة الله سبحانه وتعالى .. وبشهادتكم أنتم .. فقد كنتم تلقبونه بالأمين .. وتأتمنونه على أموالكم وكل ما له قيمة .. فكيف يمكن أن تأتمنوا إنساناً بلا عقل .. إذن فأنتم تردون على أنفسكم .

ولا يمكن أن تأتى المواهب للإنسان فجأة . . فأنت إذا أردت أن تتعلم شيئاً . . فلابد أن تبدأ بالتجربة والخطأ . . فإذا أردت أن تقود سيارة مثلاً . . فلابد أن يأتى إنسان يجيد قيادة السيارة آلياً . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلمه أحد البلاغة . . ولم يتدرب عليها . . وكان خلقه الحق والصدق . . ولقبه الأمين . . والسلوك هو انطباع النفس على خلق معين انطباعاً ييسر الحركة فيه بدون فكر . . فيقال فلان خلقه الكرم . . أى أنه كريم حتى ولو كان يملك القليل . . خلقه الصدق . . أى أنه صادق حتى على نفسه . . خلقه الأمانة . . أى أنه أمين مهما بلغت قيمة ما تأتمنونه عليه . . لا يطمع ولو كان فقيراً وأعطيته مبلغاً هائلاً من المال . . ورسول الله عرف بهذه الطباع كلها وعرف أنه على خلق عظيم .

ولقد تعب الكفار من أن كل ما حاربوا به هذا الدين . . أظهر الله كذبه وبطلانه . . ولذلك قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . . وكان من المنطق أن يقولوا إذا كان هذا الحق من عندك فاهدنا له . . إنما هذا دليل على كراهيتهم للحق وتبنيهم للباطل . . وقالوا « لولا نزل القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم » . .

لأنهم يريدون واحداً منهم . . يأمنونه فى أن يكون معهم . . ولو كان هذا ضد الحق . . فالاعتراض هنا على أنه ليس من هؤلاء الأغنياء . . الذين يمكن أن يتعاطفوا معهم أو يمكن أن يتبعوهم دون أن يحسوا بأن شيئا تغير . . وهكذا كان القرآن عندما يقرأ يزداد المؤمنون إيماناً . . أما الكفار فكانوا يحاولون أن يجدوا فيه منافذ أومآخذ فلا يجدون إلى أن انتهى الأمر وآمنوا .

والحق سبحانه وتعالى حين يعطى رسله منهجاً . . والحق غيب . . ويكون عطاؤه غيباً . . ولذلك يحدد عطاء المنهج للرسل . . « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » . . طبيعة التكوين البشرى لا يمكن أن تستقبل من الله مباشرة . . والوحى معناه الاعلام بشىء فى خفاء .

ولكن نبسط هذا المعنى . . لو أنه جاءك ضيف ثقيل . . لا تريد أن تقابله . . تتفق مع خادمك على إشارة معينة تعطيها له . . فيعلم ويتخلص من هذا الضيف . . ويكون فى هذه الحالة الاعلان قد تم بطريقة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول . . ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول . . ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية . . والوحى مادام إعلاماً بخفاء . . فإنه يقتضى موحياً . . وموحى إليه . . والموحى هو الله سبحانه وتعالى . . يوحى للملائكة . . ويوحى للنحل . . ويوحى لغير أنبيائه . . كلم موسى مثلا حين أوحى إليه أن يلقى موسى عصاه فى البحر . . والشياطين يوحون إلى أوليائهم ولكن حين يطلق اسم الوحى كعلم . . يكون إعلاماً من الله لرسوله . . والله سبحانه وتعالى حين يكلم بشراً ويوحى إليه . . لابد من ثلاث طرق :

. . **« ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب »** . . كما كلم الله موسى عليه السلام . . أو يرسل رسولاً كجبريل عليه السلام . . وبذلك تكون كلمة الوحى الأولى مطلق الهام . . **« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً »** يعنى إلهاما . . الله يقذف فى قلبه ما يشاء ويعلمه به . . ولكن الخواطر فى القلب كثيرة . . فكيف نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى هذه النفس . . حين يوحى الله إلى بشر . . نجد التسليم المطلق فى ملكات النفس . . ولا نجد أية معارضة . . ولذلك فإنه أحياناً يأتى وحى من الله بأمر منا مناقض للعقل . . ومع ذلك نقوم به ونتبعه . . **مثلا أم موسى قال لها الله سبحانه وتعالى « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم »** . .

ولو انك ذهبت إلى أى إنسان يخاف على ابنه من خطر وقلت له ألقه فى البحر . . لاتهمك بالجنون . . ولم يتقبل كلامك . . لأنك فى هذه الحالة تريد أن تنجى الابن من موت مظنون إلى موت محقق . . فالإبن إذا كان يتعرض للخطر . . فإنك تأخذه وتخفيه فى مكان آخر . . أو تهاجر به من دولة إلى أخرى . . أو تقوم بإخفائه بحيث لا يظهر أبداً . . ولكن أن تلقى طفلاً بلا حول

ولا قوة فى البحر . . فأنت تحكم عليه بموت محقق . . لأنك تقذف به إلى أمواج وتيارات قد تقتله . . فإذا نجا من تيارات البحر فهناك الطيور الجارحة . . وهذا طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه . . فإذا نجا من الطيور كانت له الريح . . تستطيع أن تقلب الصندوق الصغير الذى يرقد فيه . . فإذا نجا من الريح كانت له الأمطار تنزل فتملأ الصندوق بالماء فيغرق . . وهكذا إذا نجا من واحدة لقى مصرعه فى الثانية . . فأنت فى هذه الحالة لن تنجيه . . ولكنك توصله لموت محقق . .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من ذلك . . أنه مهما حفت بنا الأخطار . . فلا نحس أن هذا غضب من الله . . فقد يكون فى هذا الطريق المغلق طريق نجاة . . رسمه الله سبحانه وتعالى . . فلا يدخل اليأس إلى نفوسنا أبداً . . ولا نحس ولا نعتقد أننا انتهينا . . ولكن الذى نريد أن نصل إليه . . هو أنه حين أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه فى البحر أوالنهر . . قامت أم موسى بوضع طفلها فى صندوق . . وألقته فى الماء دون أن يكون فى نفسها أى معارض يمنع هذا رغم أن العقل يرفضه . . وهذه هى سمات الوحى فى مخاطبته للملكات البشر . . الله سبحانه وتعالى حين أوحى إلى أم موسى أن ألقيه فى اليم . . جعلها تسمع أمره إلى الماء . . فليلقه اليم بالساحل . والأمر هنا قد صدر من الله سبحانه وتعالى للماء . . وعرفت أم موسى أن اليم سيلقيه فى الساحل . . فأرسلت أخته تتبعه لترى إلى أين سيذهب . . وفى أى مكان سيلقيه الماء .

ساعة الوحى :

والرسالات السماوية نجد فيها الوحى بالخاطر . . والكلام من وراء حجاب . . أو إرسال رسول فى السماء هو جبريل عليه السلام . . كل أعمال التكليف تصدر بالطرق الثلاثة . . ولكن القرآن الكريم لم يأت إلا بطريق واحد . . فلم يأت القرآن نفثاً فى الخاطر . . ولم يأت القرآن كلاماً من وراء

حجاب .. وإنما جاء بواسطة إرسال رسول من الملائكة .

ويجيء الرسول بصلصلة الجرس تنبيهاً بأن الوحى قد جاء .. ثم بعد ذلك يسمعون حول رأس الرسول دوياً .. إذن هناك تغيير كيماوى يحدث .. ومن هنا لا يمكن أن يلتبس الأمر مادام يتم بهذه الطريقة .. وإرسال رسول هو جبريل عليه السلام بالوحى .. يجعل نفس محمد تطمئن على أن المسألة ليست فيها شك .. بل إن كيماويات الجسد تتغير .. فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان يجلس بجواره أحد الصحابة .. وحينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة الصحابى .. فأحس بها كأنها جبل .. كل هذه العمليات تتم دليلاً على أن الوحى قد جاء .. وترك ثقل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر .. فقد كان يعانى إرهاقاً شديدا ساعة الوحى .. ثم بعد ذلك بعض الوقت .. فاشتاق النبى إليه .. وهذا الشوق كان يعطيه طاقة لتحمل الوحى .. وهو المزج بين الطبيعة البشرية وطبيعة المزج .

ولذلك قال سبحانه وتعالى « **ورفعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك** » ..

أى أننا خففنا عليك ما كان يحدث عند امتزاج الوحى بك .. وقد يأتى الوحى بسورة طويلة ويقوم الصحابة بكتابتها .. ثم يأتى رسول الله يقرؤها فى الصلاة .. وتكون طبق ما نطق به .. ائتونى بإنسان يقول كلاماً من عنده .. وبعد سنوات يردد نفس الكلام بنفس الألفاظ .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنه وحى يوحى ولأنه كلام الله .. يظل فى قلبه طوال حياته .

مصدقاً لقول الله سبحانه وتعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » ..

يأتى بعض الناس فى محاولة للتشكيك فى القرآن الكريم .. ويقول .. الإنسان قد استطاع الوصول إلى القمر .. وبعد ذلك نفد من أقطار السموات .. وهذا الكلام لا يتفق مع العقل .. ولا المنطق .. فالمجموعة

الشمسية كلها هى ضاحية من ضواحى الأرض . . وما بين الشمس أو المجموعة والأرض ٨ دقائق ضوئية . . ولكن هناك من الكواكب بينى وبينها مليون سنة ضوئية . . وكل هذه دون السماء الدنيا . .

وهكذا يظهر أن معنى قول الله سبحانه وتعالى « **وإنا لموسعون** » . . أى أنه فضاء ولا نهاية .

وإذا حسبنا الثانية الضوئية نجد أنها ٣٠٠ ألف كيلو متر . . فإذا ضربنا ٣٠٠ ألف × ٦٠ وهى عدد الثوانى فى الدقيقة . . ثم نضربها فى ٦٠ وهى عدد الدقائق فى الساعة الواحدة . . ثم فى ٢٤ وهى عدد الساعات فى اليوم ثم فى ٣٦٥ وهى عدد الأيام فى السنة ، ثم ضربنا كل هذا فى مليون وهو عدد السنوات الضوئية بيننا وبين بعض الكواكب . . نحس بالبعد اللانهائى فى السماء الدنيا وحدها . . وهو بعد تعجز عن إدراكه العقول . .

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

يقول بعض الناس إن هذا هو سلطان العلم الذى استطاع أن يقودنا إلى القمر . . ولست أدرى ما هى العلاقة بين السماء والقمر . .

والله سبحانه وتعالى يقول « **أقطار السموات والأرض** » . .

والقمر ضاحية من ضواحى الأرض . . ولا دخل له بالسماء . . ولا يحتاج إلى سلطان . .

ولو كان الله سبحانه وتعالى . . يقصد سلطان العلم لما قال بعدها « **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران** » . .

ولكن لماذا جاء الله فى هذه السورة بكلمة سلطان . . لو أن كلمة بسلطان لم ترد فى القرآن الكريم . . لقلنا أن حديث الاسراء والمعراج ربما كان حديثاً فقط . . لماذا ؟ . . لأن النبى صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماء . . والقرآن يقول إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . ولا تنفذون (ثم يسكت) ولا يقول إلا بسلطان . . وفى هذه الحالة يكون قد حكم الله . . لا أحد ينفذ من أقطار السموات والأرض . . وكلمة بسلطان . . معناها من الله سبحانه وتعالى . . وتكون هذه الآية تأكيداً لصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج . . ولو لم يأت لأثارت تساؤلات كثيرة . .

إذن هذه الآية لا علاقة لها بصعود الإنسان إلى القمر . . لأن القمر ليست له علاقة بحكاية السماء . . أين القمر من السماء ؟ . . أين القمر من الكواكب التى تفصلها عنا ملايين السنين الضوئية . . التى لا يستطيع رقم أن يصل إلى حسابها . . فإذا قال إنسان إنه سيرسل بشراً إلى السماء نقول له إن عمر هذا الإنسان سينتهى قبل أن يصعد إلى السماء . . ذلك أنه محتاج قبل أن يجتاز السماء الدنيا إلى ملايين السنين . . ومن هنا يجب أن نلاحظ أن هناك فرقاً بين حقيقة وبين ظل . . وبين جهل . . وبين وهم . . ولا نربط القرآن إلا بالحقيقة العلمية الثابتة . . لأننا لو ربطناه بغير ذلك . . لتذبذب القرآن .

وحكاية ربط النظريات العلمية بالقرآن محتاجة إلى وقفة . . ذلك أن عدداً كبيراً من النظريات العلمية يثبت خطؤها بعد فترة من الوقت . . ولذلك لا يجب أن نربط القرآن إلا بالعلم الذى عليه دليل الحقيقة الثابتة . . أما ما عدا ذلك من جهل وتقليد وشك وظن . . فإياك أن تربط القرآن بواحدة من هذه . . لأنك فى هذه الحالة تسىء إلى كتاب الله بنية حسنة . . وأنت تربطه بآيات الكون .

. . والذى أريد أن أقوله . . إن القرآن هو المهيمن . . وهو الصادق . . ولو جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم . . فإننا نؤمن أن القرآن على حق . .

وهذه النظرية العلمية باطلة كاذبة .. لماذا ..؟ لأن القرآن كلام الله .. والنظريات العلمية هى نظريات البشر .. وكلمات الله أصدق إذا ناقض قول بشر .. ولذلك فإن القرآن مهيمن كلامه .. لاشك فيه .. فكلام الله يقين .. ولا عيب أن تتناقض وهما نظرية مع القرآن الكريم .. لأن التناقض لا يحدث هنا فى أمر تكليفى بافعل ولا تفعل .. وهو الأساس فى كتاب الله .. فنحن بعد أن عرفنا أن الأرض كرة .. والأرض تدور حول نفسها .. ما الذى زاد فى التكليف ..؟ لا شىء .. والذى لم يعرف هذه الحقيقة من الأميين .. أو الذين لم يحصلوا العلم .. ما الذى حدث لهم .. فى أمور حياتهم اليومية وعلاقتهم بالله .. لا شىء .. إذن فهو علم لا ينفع .. وجهل لا يضر .. إذن فالأمور المقصورة فى كونيات الكون .. والكونيات التى تعرض لها القرآن .. دعها حتى تنضج النضج الذى يمكنك بعد ذلك عن يقين من أن تربط واحدة منها بالأخرى ..

وهذا مصداقاً للآية الكريمة ..

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت)

ولنضرب لذلك مثلا .. كنا ندرس ونحن فى المدرسة أن الأرض كروية .. وكنا ندرس ذلك بأدلة يرويها العلم .. ولكن العلم الآن ليس محتاجاً إلى أدلة .. لأن الإنسان رأى الأرض وهى كرة .. وليس مع العين دليل آخر .. ثم عرفنا أن الغلاف حول الأرض .. وأنه يتبع الأرض ويدور بها .. إذن الغلاف الجوى جزء من الأرض يتبعها ويدور معها .. والذى يطير فى الغلاف الجوى بالطائرة .. لا نقول أنه خرج من الأرض .. بل إنه يطير مع الأرض ..

وكنا نقرأ قديماً قوله الله سبحانه وتعالى «**قل سيروا فى الأرض**» .. فنأخذها على أن الأرض ظرف للسير .. ولكن بعد أن عرفنا أن الغلاف

الجوى جزء من الأرض .. اتضح لنا أننا لا نمشى فوق الأرض أو على الأرض .. ولكننا نمشى فى الأرض .. أى بين الغلاف الجوى والقشرة الأرضية .. وإلا لو كنا نمشى على الأرض لوجب أن نمشى فوق الغلاف الجوى .. ولو كنا أجهدنا الأسلوب لنفهم فى الماضى .. ما عرفنا المعنى .. ولكن الحقيقة الكونية التى كشفها الله لعباده .. قربت لنا المعنى .. وجعلتنا أكثر فهماً له ..

فعندما يقول الله « **سيروا فى الأرض** » .. كان يقصد أن الغلاف الجوى جزء من الأرض لا ينفصل عنها .. وأننى حينما أسير .. أسير فوق القشرة الأرضية وتحت الغلاف الجوى .. إذن فأنا أسير فى الأرض .. وليس على الأرض .

قدرة الفاعل

ويقول الله سبحانه وتعالى : « **وترى الجبال تحسبها جامدة . وهى تمر مر السحاب .. صنع الله الذى اتقن كل شىء** » ..

كان بعض الناس يفسر هذه الآية على أساس أنها فى الآخرة .. ولكن ليس فى الآخرة حسبان .. بل فى الآخر يقين .. أما الحسبان فهو فى الدنيا .. لأن هناك فى حياتنا الدنيا أشياء أخفيت عنا .. وأشياء لا نراها ..

وقول الله « **صنع الله الذى أتقن كل شىء** » ..

يدل على أن القضية غريبة عن العقل .. لأنك حين تقرأ الآية وتستغربها .. ولا تستطيع أن تقبله عقلياً .. يقول لك الله سبحانه وتعالى إن هذا من صنع الله .. حينئذ أصبحت حقيقة كونية .. وعليها دليل وهو قول الله سبحانه وتعالى .. وحينما يقول الله .. فإننا ننسب الفعل إلى الفاعل .. حين نتحدث ونقول شيئاً لابد أن أنسبه لقدرتك .. حتى أعرف هل تستطيع أن تقوم به أم لا .. فإذا كنت ضعيفاً وقلت أنك هزمت بطل العالم فى رفع الأثقال .. حينئذ

أستغرب هذه الحقيقة . . وأشك فيها لأن قدرتك لا تتناسب مع الفعل . . أما إذا قال الله سبحانه وتعالى . . فقدرته تتناسب مع كل شيء في الدنيا . . ولذلك فإذا قال الله فهو يقين . . لأنه لا قادر غيره . . ولا قوى سواه . . وتلاحظ هنا أن الله تبارك وتعالى قد قال « تمر مر السحاب » . . كون أن الجبال التى نحسبها جامدة تمر . . هذا دليل على أن الأرض تدور . ولا يمكن أن يحدث المرور هنا إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها . . ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى « مر السحاب » . . لأن السحاب ليس مروره ذاتياً . . أى أنه لا يملك قوة ذاتية للحركة وإنما تدفعه الريح . . فكأن الجبال لا تملك هى الأخرى قوة ذاتية للحركة . . ومادامت تمر مر السحاب . . فإنما هناك قوة تدفعها وهى تبعيتها لحركة الأرض . . وعندما نسمع فى القرآن كلمة « تحسبها » . . نعلم أن هذا يخص أمور الدنيا . . فلا حسبان فى الآخرة وإنما يقين . . وإنما الحسبان فى الدنيا لأنها هى التى فيها أشياء مخفاه عنا ولا نراها . . وبعض الناس يتساءل إذا كانت هذه الجبال وهى عالية تمر هذا المر . . أو تتبع الأرض فى حركتها فلابد أن تنفصل عن الأرض . . ولكن الله سبحانه وتعالى خلق توازناً فى الأرض . .

فالبروز العالى يتبعه عمق كبير . . وهناك تناسب فى الكتل . . وهذا التناسب هو الذى يحفظ توازن الأرض . . وأنت إذا أخذت قطعة من الأرض إلى مركز ما . . وأخذت قطعة من القطاع الثانى لابد أن تكون متساوية فى الوزن . . وإلا . . لو أقمت عمارة فى هذه الحالة . . فإنها تقع أو تسقط . . ولكنك وأنت تقيم عمارة فأنت تأخذ الثقل وهو الطوب ولوازم البناء فى مكان آخر . . وهنا فأنت لم تخل بالتوازن . . وكل لفتة فى القرآن الكريم إلى آيات الكون . . لا يجب أن تجعلنا متسرعين فى تفسير هذه الآيات قبل أن يظهرها الله سبحانه وتعالى . . وكل سر فى الكون له ميلاد . . ومهما اجتهد الانسان فإنه لا يكشف له السر إلا إذا جاءت لحظة ميلاده . . ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية فى القرآن الكريم حتى يظهرها الله للعقول . . وقال سيدنا عمر . . دعوا هذه الأشياء حتى يأتى إذن الله لعقول أن تجدها .

فيه شفاء ورحمة

وعلى أية حال . . فإن هذه الأشياء لا تدخل فى المنهج . . ومن هنا فإنها لا تؤثر على حياة الإنسان . . ولا على انتفاعه بالظواهر الكونية . . فالشمس ينتفع بها من يعرف حقيقتها . . ومن لا يعرف . . وكذلك كل المظاهر الكونية . . وهنا يكون التعب فى علم لا ينفع وجهل لا يضر . . والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . وقد حمل منهج البشرية ليحمى حركة الإنسان الاختيارية . . ومادام الإنسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم . . فإنه يستديم الجمال فى الكون . . ويظل الكون جميلاً فيما لك فيه خيار جماله ودقته فى الأشياء التى لا خيار لك فيها .

ولقد قلنا أن هذا الكون ليس فيه عمل اختيار كامل . . أو متقن كل الاتقان . . وكلنا نقول حينما نرى ما يحدث فى الكون أن الكمال لله وحده . . وفساد الكون يأتى من أشياء داخل فيها اختيار الإنسان بدون منهج الله . . فهذه الأشياء هى التى تفسد الكون . . ولو دخلنا فى الأمور الاختيارية بمنهج الله لاستقام جمال الكون . .

وأحب أن أضرب مثلا على ذلك . . لو ذهبت إلى غابة أو روضة أو حديقة لم يدخلها الإنسان لو وجدت فيها الجمال . . ولو ذهبت إلى حديقة ثانية دخلها الإنسان . . تجد فيها القذارة والتشويه للجمال . . لماذا ؟ منهج الله جاء ليعصم الحياة فى حركة الإنسان الاختيارى . . وإذا ظل الجمال فى الكون موجوداً رضى الموجود عن الوجود . . واستقامت حركته وظلله الأمن والسعادة والرفاهية . . إذن منهج الله فى القرآن . . إنما جاء ليهدى للتى هى أقوم . . لذلك فإن القرآن نزل فى وقت اندثرت فيه الرسالات . . وزادت فى الشعوب بأكملها العلل والداءات .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن القرآن إنه شفاء ورحمة . .

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة »

إذا أردنا أن نعرف لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. ولماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى فيه رحمة وشفاء .. والرحمة هى التى تمنع كل داء فى الكون يأتى منه فساد المجتمع .. الرحمة تستأصل كل ما لا تحبه فى الحياة .. أما الشفاء فهو أن يكون الداء موجوداً فعلاً ثم بعد ذلك تأتى العافية .. والذى حدث عندما نزل القرآن أن الداءات كانت موجودة فى الكون من حروب وقتل وتشريد .. واستعباد وتفرقة بين الناس .. يأكل القوى حق الضعيف .. عذاب فى الأرض .. كان هذا هو حال المجتمع البشرى عندما جاء القرآن .. ولذلك نزلت الرسالة لتشفى البشرية من الشقاء الذى تعيش فيه .. فإذا شفيت البشرية من هذا واستقر منهج الله فى الأرض .. وحكم حركة الحياة .. تأتى بعد ذلك الرحمة .. لماذا ؟ لأن الأصل فى الأشياء انك تمنع الشر الموجود أولا .. فإذا منعت هذا الشر والتجأت إلى منهج الله .. ابتدأت الرحمة تأتى لتمنع الشقاء عن الكون .. فإن حدثت غفلة وابتعد الناس عن المنهج .. جاءت داءات جديدة .. فإذا عدت إلى القرآن .. وإلى منهج الله .. جاء الشفاء .. ثم جاءت الرحمة ..



الفصل الثاني

لماذا تركوا.. المنهج

داء البشرية الأصيل هو الغفلة (وتغيير المنهج) . . ذلك لأن الإنسان يتغاضى عن كثير من منهج الله . . فأنت إذا مرض إبنك . . أسرعت به إلى الطبيب تريد له العلاج . . وإذا لم تجد طبيبا أسرعت بطفلك إلى طبيب آخر . . وهكذا تنتقل من طبيب إلى طبيب تتعجل الشفاء لطفلك . . ولكن إذا ترك طفلك الصلاة . . فإنك نادرا ما تؤاخذه على ذلك . . فأنت تهتم بالابن اهتماما بالغا فى أن توفر له مستقبله الدنيوى . . ومن خلال هذا تنسى تماما « المنهج » .

بل إنك فى كثير من الأحيان . . تقاوم منهج الله . . لأنه يحد من حركتك فى الحياة التى لو تركت لكى تتمتع بالحركة فيها حسب هواك وما تريد . . لفسد العالم كله . .

والمنهج فى الإسلام موصى به من الله سبحانه وتعالى . . وهو محفوظ منه . . أى أن الله هو الذى يحفظه . . والقرآن معجزة . . ومنهج الاعجاز فيه هو أنه ليس للبشر فيه مكان . . فهو كلام الله محفوظ من الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة . . والاعجاز فيه أنه يعطى عطاء لكل جيل يختلف عن الجيل الذى قبله . . والاعجاز فيه إنه صالح لكل زمان ومكان . . والاعجاز فيه أنه يداوى أمراض المجتمعات أينما كان . . وانه كلام الله . . يحمل العلاج لكل الداءات . . ما معنى هذا ؟ معناه أن مجرد القول بهذا الكلام يفسر لنا معجزة كبيرة فى القرآن الكريم . . فالرسالات قد نزلت تعالج داءات المجتمع . . كل رسالة نزلت إلى قوم تعالج الداءات أو الانحرافات الموجودة فيه .

وكان المجتمع البشرى إذا انحرف . . أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا إلى هذا المجتمع . . ليعيد منهج الله ويعلى راية الحق ويعالج الداء . . حتى إنه كان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد . . مثل إبراهيم ولوط . . ولكن القرآن جاء يعالج المشاكل برمتها . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى كان فى علمه أن الداءات ستتوحد . . ولذلك كانت وحدة الحل ضرورة . . ولقد شهدنا ذلك يتحقق . . فما يحدث الآن فى أى مكان من بلاد الدنيا . . نجده بعد دقائق قد عرفه العالم

أجمع .. وأنت تستطيع أن تركب الطائرة ، وخلال ساعة أو ساعتين تكون قد نقلتك من قارة إلى قارة أخرى .. المسافات اقتربت والدنيا كلها أصبحت يسمع بعضها البعض .. وكأنها تعيش فى بقعة واحدة .. لم تعد هناك انعزالات فى الكون .. بل أصبح الكون كله يعيش قريبا متقاربا .. وبذلك توحدت الداءات التى يشكو منها العالم .. ولو نظرت إلى أى دولة من دول العالم .. غنية أو فقيرة .. لوجدتها تشارك باقى الدول فى نفس المشكلة .. البطالة لارتفاع الأسعار .. وقلة الأجور .. ومشاكل الانتاج .

ولعل أبرز دليل على وحدة الداءات فى المجتمع .. أن الدولة المتقدمة ترسل خبراءها إلى الدول المتخلفة .. لتعالج المشاكل فيها .. ولو أن هذه المشاكل أو الداءات مختلفة .. لما استطاع خبراء الدول المتقدمة أن يعالجوا مشاكل الشعوب الأخرى .. ولكنها واحدة .. دول تغلبت عليها .. ودول أخرى لم تستطع التغلب .. وهذا إعجاز القرآن الكريم .. بأنه تنبأ بوحدات الداءات والمشاكل فى العالم .. فجاء بوحدة الحل لهذا كله فى نظام الحياة الذى قدمه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين .

وعندما جاء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام الله .. كان هناك قضايا قضى فيها الرسول .. وجاء حكم الله موافقا لذلك مرة .. ومعدلا له مرة .. ولذلك قال المتشككون فى منهج رسول الله .. ان تصحيح الله لأحكام صدرت من رسوله صلى الله عليه وسلم .. دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يخطىء .. نقول لهم أن ذلك جزاف من القول .. فما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب ؟ الخطأ هو أن توجد قاعدة مسبقة ثم يخالفها المخطىء .. فيأتى من وضع القاعدة فيصوبها له .. نحن نعلم الطفل أن الفاعل مرفوع .. فيأتى هو ولا يرفع الفاعل مع انك نبهته إلى ذلك مسبقا .. وفى هذه الحالة تصوب له أنت خطأه .. لماذا ؟ لأنه خالف القاعدة الصحيحة التى أعطيت .. ولكن إذا لم يكن هناك قاعدة .. ويأتى التصويب بعد

الحدث .. فلا يقال انه أخطأ .. لأن الذى أخطأ لابد أن يعرف ما هو الصواب .. ولم يكن هناك حكم من الله خالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم رده الله عن هذه المخالفة .. ولكن كل الأمور كان يتم الحكم فيها ببشرية الرسول .. ثم يأتى قول الله بحكم الله .. وحكم البشر فى قضية لا يمكن أن يكون مساويا لحكم الله . فحين يأتى كلام الله لا يقال إن الله صوب .. وإنما يقال إن الله قد هداه إلى ما هو أصوب .

رسول الله كان عنده عبد اسمه زيد بن حارثة .. وهبته له زوجته خديجة .. ولما علم أهل زيد .. وكان قد خطف منهم وبيع فى مكة لما علموا بوجوده فى مكة .. جاءوا إليه .. وعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدم أهل زيد .. ترك لزيد أن يختار .. إما أن يبقى معه وإما أن يعود مع أبويه .. فقال زيد ما كنت لاختار على رسول الله أحدا .. وهنا أراد الرسول أن يكرم الإنسان الذى اختاره فتبناه .. فكان له أبا وسمى زيد بن محمد .. وكانت عادة التبنى موجودة عند العرب .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبطل التبنى .. فهدى رسوله إلى ذلك .. فقال تعالى : « **أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** » .. إذن عندما وقعت الواقعة لم يكن هناك حكم من الله خولف .. ولكن التصرف كان يتمشى مع الأحداث .. ثم جاء حكم الله الذى نزل عليه الجميع .. وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « **هو أقسط** » .. أى أنه أفضل .

ومعنى ذلك .. أنك أنت يا محمد فعلت ذلك .. ولكنى سأدلك على ما هو أقسط عندى .. لأنك قريب منى .. ورسول إلى البشر أجمعين .. ولذلك فلابد أن أهديك إلى أقوم طريق .. وأعلمك إلى ما يقربك منى .. إذا أردت أن تعرف فأعلم انه أقسط عند الله أن تدعو زيداً إلى أبيه .. أى زيد بن حارثة .. ذلك هو الأقرب إلى الله سبحانه وتعالى .. وحين تنزل الآية .. يتخذ الرسول

الكريم على الفور طريق القربى إلى الله سبحانه وتعالى ويبطل التبنى .

ويأتى بعض الناس ليقول هناك تناقض بين هذه الواقعة وبين قوله تعالى : « **وما ينطق عن الهوى** » . . ونقول لكل من يثير هذا الكلام : انك لم تفهم معنى الآية الكريمة « وما ينطق عن الهوى » معناه أنه لا ينطق عن هوى فى نفسه . . فإذا كان صديقا لأحد أو قريبا لفرد أو يحب إنسانا فلا يجعله هذا الهوى يبتعد عن الحق أو يقضى بغيره . . رسول الله حين ينزل إليه الحق . . لا ينطق عن هوى أبدا مهما كان ذلك الذى تهواه نفسه . . فهو دائما مع الحق . . ولذلك كان الناس إذا اختلفوا حول أى قضية . . كان من له الحق يطلب أن يحكموا فيها رسول الله . . ومن كان عليه الحق هرب من حكم رسول الله . . ذلك أنهم يعلمون جميعا أن رسول الله مع الحق . . ولا ينطق عن الهوى .

ولهذا كانت كل لفتات الله سبحانه وتعالى إلى رسوله . . إنما هى لفتات لزيادة القربى . . ولفتات حتى لا يحمل رسول الله نفسه فوق طاقته .

رسول الله فى قضية ابن أم مكتوم نزلت فيها الآية الكريمة : « **عبس وتولى إن جاءه الأعمى** »

ما الذى اختاره الرسول . . إختار الأمر السهل أم الأمر الصعب ؟ لقد ترك الرسول السهل إلى الصعب . . وبدلا من أن يتخذ الطريق السهل ذهب يتعب نفسه مع قادة كفار قريش . . وهنا يطالبه الله بأن يلتجىء إلى الأسهل . . لأنه يحب رسوله . . والرسول يحب الله ويريد أن يتحمل فى سبيله مشقة هائلة . .

ولذلك لم يعاتبه الله . .

وهكذا لابد أن نعرف مقام محمد عند ربه . . فالله سبحانه وتعالى يريد لنبيه أقرب مقام .

وفى نفس الوقت تأتى رحمة الله أن تحمل رسوله ما لا يطيق : « **ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** » . .

فقد ألزم محمد نفسه بشيء أكثر مما يجب عليه . . وهذا من منطلق الأمانة فى التبليغ والأداء . . والرسول صلى الله عليه وسلم حين يبلغ هذه الآيات كلها ولا يكتم منها شيئا فهى أمانة البلاغ . . والقرآن قد جاء إلينا كما قاله الله سبحانه وتعالى . . الله تكلم . . وجبريل نقل كلام الله إلى محمد . . ومحمد نقله إلى الصحابة والدنيا كلها . . والقرآن كما قلنا الكون يفسره .

وهناك اتجاهان الآن . . اتجاه يحاول أن يلصق العلم بالقرآن . . واتجاه آخر يرفض أن يقترن العلم بالقرآن . . لأن النظرية العلمية قد تكون غير صحيحة . . والمنهج الأول خاطىء . . والمنهج الثانى خاطىء . . لماذا ؟ لأن هناك فى الكون حقائق علمية ونظريات علمية . . وأن تربط القرآن بنظريات علمية خطأ . . لأن النظرية العلمية قد تخطىء . . ولكن هناك الحقائق العلمية . . وابتعادك بالقرآن عن النظريات العلمية تماما قد يجعلك لا تلحظ المعجزات القرآنية وآيات الله فى الكون . . ولكن الذى يحدث أن النظريات العلمية إما جهل . . وهو أن تؤكد حقيقة علمية غير صحيحة . . وإما تقليد أمام نظرية علمية واقعة وليس عليها دليل . . وإما علم حقيقى إذا كانت النظرية واقعا علميا وعليها دليل مجزوم به .

ولكن هل يصطدم القرآن بالعلم . . ؟ . . الحقيقة لا . . القرآن لا يمكن أن يصطدم بالعلم . . لأن الله هو الذى خلق الكون . . وأنه سبحانه وتعالى هو الذى أنزل القرآن وهذا كلامه . . ومادام القائل هو الفاعل ، فلا يمكن للعلم أن يصطدم مع القرآن أبدا . . وإنما القرآن يصطدم مع الجهل . . مع الشك . . مع الظن . . مع الوهم ومع التقليد . . أما ما ثبت أنه علم . . فلا يمكن أن يصطدم مع القرآن الكريم . . لأنه كما قلت . . قائل القرآن هو خالق الكون . . ومادام القائل هو الفاعل فلا توجد حقيقة كونية تتناقض مع حقيقة قرآنية . . وهو ما يؤكده كل علماء العالم .

الفهم الخاطىء

ولكن ما الذى يحدث . .؟ ومتى ينشأ التناقض ؟ حقيقة علمية وحقيقة قرآنية لا تناقض . . إنما التناقض ينشأ من أن هناك حقيقة كونية تحتوى على نسبة من الخطأ . . أو حقيقة قرآنية يُساء فهمها . . فتصدم بحقيقة كونية .

مثلا بعض الناس يقول إن القرآن الكريم أكد عدم كروية الأرض . . فإذا سألتهم من الذى أعطاكم هذه الحقيقة القرآنية . . قالوا الآية الكريمة : « والأرض مددناها » . . أى بسطناها . . أى أن الأرض مبسوطة بنص القرآن الكريم . .

نقول لهم هذا الفهم خاطىء . . فقول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » . . يحمل الدليل الاعجازى على كروية الأرض . ويستبعد أن تكون الأرض مسطحة . . بل إن الآيةالكريمة « والأرض مددناها » لا تصح إلا إذا كانت الأرض كروية . . كيف ؟.

القرآن الكريم قال : « والأرض مددناها » أى بسطناها ، ولكن هل قال القرآن الكريم أو حدد أى تلك التى مددناها أو بسطناها . . لا لم يحدد . . ولكنه ذكر لفظ الأرض على إطلاقها . . أى أنك إذا نزلت على أى أرض على سطح الكرة الأرضية ترى الأرض مبسوطة أمامك . . سواء كان المكان الذى نزلت فيه . . فى خط الاستواء أو فى القطب الشمالى أو الجنوبى . . إذن الأرض ممدودة حيثما ذهبت . . وأينما كنت . . فإذا كانت الأرض مربعة أو مسدسة أو مثلثة أو على أى شكل هندسى آخر يتنافى مع الحقيقة القرآنية فى قول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » . . أى « بسطناها » . . لأنك ستصل فيها إلى مكان تكون فيه الأرض ممدودة . . لابد أن تكون الأرض كروية .

ولذلك عندما يقولون إن كروية الأرض تصطدم مع حقيقة قرآنية . . نقول : إن الصدام لم يحدث بين حقيقة علمية قرآنية . . . بل الصدام الذى حدث هو بين فهمك أنت لحقيقة قرآنية وإعطائها غير معناها . . فأنت قد أخذت الحقيقة

القرآنية بالعكس . . فاصطدمت مع الحقيقة الكونية . . بينما لو دققنا فى المعنى لوجدنا أن الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية لا اصطدام بينهما . . ولذلك فليطمئن الغيورون على دين الله . . الذين لا يريدون أن يربطوا القرآن بالمسائل العلمية . . نقول لهم إذا أردتم أن تربطوا القرآن فيجب أن يكون ذلك حقيقة قرآنية بحقيقة كونية . . وحينئذ لا تصادم أبدا . . لأن حقائق الكون لا تتعارض مع الحقائق القرآنية . .



مثل آخر . . بعض الناس يأتى ويقول لك تفسيرا لقول الله سبحانه وتعالى **« ويعلم ما فى الأرحام »** . . ويقولون إن بعض الأطباء أصبحوا يأخذون عينات . . ويعرفون هل جنين الأم ذكر أم أنثى قبل الوضع بفترة قليلة . . نقول لهم : أولا ما يذكر عند الأطباء ليس حقيقة كونية . . لأن هناك نسبة فى الخطأ تحدث . . تقل أو تزيد . . ويضاف إلى ذلك أن الاختيار هنا فيه نسبة ٥٠٪ خطأ و٥٠٪ صواب . . أى أن هناك إحتمالين لا ثالث لهما . . إما أن يكون ذكرا وإما أنثى . . ومن هنا يكون التمييز سهلا . . بل إننا نرى عددا من النساء ينظرن إلى إمرأة ويقلن لها ستأتين بولد . . أو ستلدين أنثى . . وتضع المرأة فعلا حسب النبوءة . . فهل هؤلاء السيدات اللاتى لم يقرأن سطرا واحدا فى حياتهن فى الطب أو فى غير الطب . . يعلمن ما فى الأرحام . . أم أن المسألة مجرد تخمين . . لو أن الاختيار بين بدائل عديدة ثلاثين أو أربعين مثلا . . وجاء العلم بالنوع الحقيقى من بين الثلاثين احتمالاً لقربت المسألة من أن تكون حقيقة علمية . . ولكن البدائل هنا واحد فقط .

أن كلمة (ما) تعنى أكثر من ذلك بكثير . . فهى تعنى هل هو ذكر أم أنثى ؟ . . شقى أم سعيد ؟ . . أبيض أم اسود ؟ . . ما هو عمره وما هو رزقه . . وما هو نصيبه فى الحياة . . وما سيحدث له منذ لحظة دخوله فى الحياة إلى لحظة خروجه منها .

ولعل القرآن الكريم يفسر لنا شيئا من مدلول كلمة ما . . فى قوله سبحانه

وتعالى فى سورة مريم : « يا زكريا إن نبشرك بغلام إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » . . وقوله تعالى :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

بماذا أنبأ الله زكريا . . ؟ . . أنبأه أن إمرأته وهى عاقر ستلد . . وأنها ستلد غلاما . . سيطلق عليه اسم يحيى ، وهو اسم لم يطلق على أحد من قبل . . وأن هذا الغلام سيكون سيدا ونبيا من الصالحين . . وأنه سيأخذ الحكم صبيا . . وسيكون تقيا وبارا بوالديه . . ولن يكون جبارا . . وأن السلام سيكون عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . . كل هذا أخبر الله به زكريا . . بالغلام قبل أن يوجد فى بطن الأم أو قبل أن يتم الحمل . . فزكريا كان يصلى فى المحراب . . ويدعو الله بأن يرزقه بولد . . حين أخبرته الملائكة . . لم ينتظر حتى يتم الحمل . . ولا هو اقتصر على ذكر أو أنثى . . ولكنه تناول أشياء كثيرة ومتعددة ستحدث بعد ميلاد الطفل بسنوات عديدة . . وعرفها زكريا . . فمن ذا الذى قال إن كلمة (ما) تعنى ذكرا أو أنثى فقط .

لقد روى الله سبحانه وتعالى لزكريا مجمل الأحداث الهامة فى حياة ابنه يحيى .. قبل أن تحمل أمه فيه .. فإذا قلت إن كلمة « ما » تعنى ذكرا أو أنثى .. نقول لك من الخطأ أن تقصر معنى القرآن على شيء .. وأن تربط القرآن بكونيات لم تثبت لأن فيها نسبة خطأ .. كما هو الحال بالنسبة للذكر أو الأنثى .. ولعل هذا يذكرنا بما حدث فى أول العصر الحديث حين ربط بعض العلماء بين الكواكب السيارة السبع والسماوات السبع .. ثم مرت السنوات واكتشف كوكب ثامن .. وكأن هذا الذى حدث محاولة لربط ظن كونى بحقيقة قرآنية .. والعلماء فى ذلك الوقت فرحوا عندما وجدوا الكوكب الثامن .. ونسوا أن كل هذا فى السماء الدنيا .. ثم بعد ذلك زاد الكشف حتى أصبح عدد الكواكب أحد عشر .. وأن بينى وبين الشمس ٨ دقائق ضوئية .. وبينى وبين عدد من الكواكب وهو ما سبق أن تحدثنا عنه .. فإذا جاء أحد يحاول أن يربط نزول الإنسان على القمر كحقيقة علمية بالآية القرآنية « **لا ينفذون إلا بسلطان** » . ويقولون إن هذا هو سلطان العلم .. نقول أنك قد جهلت حقيقة قرآنية . على أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى الجن والأنس أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض .. والقمر ضاحية من الأرض .. والمجموعة الشمسية كلها دون السماء الدنيا .



والإنسان فى كثير من الأحيان يغتر بقوته .. ويحاول أن يجعل من هذه القوة ميزانا للكون كله .. مع أن الله سبحانه وتعالى قد جعل القوة البشرية محدودة .. والقدرة البشرية على الاختيار مركزة فى الحدود .. فالجسد الإنسانى مثلا خارج قدرة الاختيار .. كيف أنت .. ما هو شكلك .. طويل أم قصير .. كيف تنمو ؟ .. كل هذا خارج منطقة الاختيار .. أعضاؤك تعمل خارج الاختيار .. قلبك يدق سواء أردت أم لم ترد ..

ومعدتك لا تنتظر أمرا منك حتى تقوم بهضم الطعام .. وأنفك ورئتاك لا تأخذان إذنا منك لتستنشق الهواء .. تبقى بعد ذلك الحركة الاختيارية .

وهى تسير مع جزء محدود من حركة الحياة . . هناك أشياء تركك الله سبحانه وتعالى تختارها دون أن يقيدك . . فأنت حر مثلا بين أصناف متعددة من الطعام . . تختار منها ما تشاء دون أن يكون هناك عقاب عليك . . وأنت تستطيع أن تذهب لتعيش فى أى بقعة من بقاع الأرض . . دون أن يحاسبك الله لماذا تركت هذا البلد وعشت فى تلك . . ولكن الأمر الاختيارى الذى عليه الحساب هو فى التكليف . . فقد أعطاك الله القدرة أن تفعل ولا تفعل . . فعرض عليك الصلاة . . وأنت تستطيع أن تصلى وأن تترك الصلاة . . وكذلك الصوم . . وكذلك الزكاة . . لماذا ترك هذه التكليفات وأعطى لك فيها أن تختار فى أن تفعل ولا تفعل . . لأن الله سبحانه وتعالى يريدنا كذلك . . فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن نذهب إليه قهرا . . لاستطاع وهو قادر على ذلك .

وإذا أراد أن يخلقنا مسخرين لعبادته . . لكنا كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يثبت أن من خلقه من يذهب إليه اختيارا . وهو قادر ألا يذهب . . لماذا . . ؟ لأن هذه صفة المحبوبية للمعبود . . لو أن الله سبحانه وتعالى جعل كل الناس مؤمنين . . لكان ذلك صفة القهرية . . ولكن الله يريد المحبوبية التى تجعلك وأنت قادر على ألا تطيع . . وأن تطيع .

وإذا أردنا أن نضرب بذلك مثلا . . ولله المثل الأعلى . . نقول : هب أن لديك عبدين . . واحداً اسمه سعد وواحدا اسمه سعيد . . الأول تقيده وترسله إلى حيث تريد . . لا يجرؤ على أن يعصيك لأنك تستخدم معه القهر . . أما الثانى فتتركه بلا قيود . . ولكنه يفعل ما تطلبه منه مع أنه قادر على العصيان . . فى هذه الحالة يكون الثانى يطيع أوامرك لأنه يحبك . . وقد يكون هذا الحب من العطاء . . عطاء الله لنا فى الدنيا والآخرة . . ذلك العطاء الذى يسترنا وينجينا ويحيينا الحياة الطيبة . . ثم يعطينا الجنة فى الآخرة . . يدفعنا إلى عبادة الله حبا فى عطائه . . وبعض المتصوفين يعرفون أن عطاء الله هو الأنس بلقائه . . هذا

يكون من أجل لقاء الله سبحانه وتعالى والتنعم بهذا اللقاء .
ولقد قالت رابعة العدوية . . « **اللهم إن كنت تعلم انى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها . . وإن كنت تعلم انى أعبدك خوفا من نارك فأدخلنى فيها . . فأنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد** » . .

وهكذا خلقنا الله سبحانه وتعالى فى الحياة مختارين لنعبده . . وأنت حين تستعرض أفراد الانس وأفراد الجن . . تجد فوارق فى العطاءات . . البشر منا كأناس هم أفراد متساوون . . إنسان وإنسان . . ولكن قد يعطى الله فرصا لأحدنا أكثر من الآخر . . وكذلك توجد هذه الفوارق فى جنس الإنسان والجان . . فالله تبارك وتعالى خلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار . . وعناصر المواد التى تكون منها كإنسان تتحكم فى طبيعته . . فإذا وقفت أنا مثلا وراء جدار فإنه لا يظهر منى شيء من أمام هذا الجدار . . أى أننى بطبيعتى كإنسان من طين . . لا أستطيع أن أخترقه ، ولا أن يرانى أحد وأنا مختبىء خلفه . . ولكن لو أوقدنا نارا خلف هذا الجدار وأنت جالس أمامه . . فربما ترى وهج النار . . إذن فالوهج نفذ من الجدار . . بينما الطين بقى جامدا لا يستطيع أن ينفذ . . كذلك الجن فقد خلقه الله من نار . . أى أن الله سبحانه وتعالى أعطاه خصائص لم يعطها للإنسان . . وهكذا كان الجن بحكم خلقه متميزا عن البشرية . . ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى للجنس الأدنى وهو المخلوق من طين ويجعله يتميز على الجنس الأعلى . . فيأمر الملائكة أن يسجدوا له . . ويسخرهم لشئونه . . ويعطى لمن يشاء القدرة على أن يسخر الجن ويجعله خادما له . . كما أعطى لسليمان عليه السلام . . بحيث كان البشر هنا حاكما للجن وأجناس أخرى متميزا عليها .

قوة بارادة الأقوى

ولماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك . . ليميز أن المسألة ليست بعنصر الخلق . . ولكن بارادة الخالق . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه يخضع

الأعلى للأدنى ، لنعلم أن القوانين لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله هو الذى يحكم القوانين .. وهذه لا قيود لها على قدرة الله سبحانه وتعالى .. وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى من صفاته .. ولكن الله شاءت رحمته فى كل أمر غيبى عنا .. أن يقربه إلينا ليجعله فى حدود الفهم البشرى وتلك هداية للبشر ورفقا بعقولهم .. فالله سبحانه وتعالى مثلا جعل الذرية من الذكر والأنثى .. هذا هو قانون الحياة .. ولكنه يأتى بخلق آدم بلا أب ولا أم .. ويخلق حواء بدون أنثى من ضلع آدم .. ويخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام .. ثم يخلق من الذكر والأنثى .. وهذا قانون الكون .. ولكنه يخضع لمشيئة الله .. فيجعل الله سبحانه وتعالى من يشاء عقيما ، أى أنه رغم وجود الذكر والأنثى لا تحدث ذرية .

والله سبحانه وتعالى يضرب لنا هذه الأمثال كدليل على طلاقة القدرة .. وأن القوانين لا تحكم الله .. وقدرة الله فوق كل قانون .. والله يفعل هذا فى أمثلة قليلة وليس على العموم .. لأن ارادة الله شاءت أن تمضى الحياة فى الأرض بالأسباب .. أى بالقوانين التى وضعها الله لها .. ولكن حتى لا نترك الله ونعبد هذه القوانين والأسباب .. ونعتقد انها تعطى وحدها دون المسبب أو الخالق .. فقد ضرب الله لنا هذه الأمثلة .. لنعرف أن ارادة الله فوق القوانين وفوق كل شىء .. فإذا جعل الله جنيا فى خدمة الانس .. مصداقا لقوله :

« وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

وحين نقرأ هذه الآية نعرف أن الله إذا أعطى فرصا غير متكافئة يحاسب عليها .. أى أن الأساس فى الكون هو الفرصة المتكافئة للجميع .. كل إنسان ميسر لما خلق له .. فيه ميزات تساوى الميزات التى يحصل عليها الآخر .. فإذا استطاع إنسان أن يسخر جنيا حصل على فرصة أكبر من أفراد جنسه .. لأنه فى هذه الحالة يكون فى خدمته من يملك قانونا أقوى .. ويستطيع أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله غيره من البشر .. حينذاك إذا استبد بهذا الإنسان هواه وأنانيته .. واستخدم هذه الميزة فى الشر بدلا من الخير .. سلط الله عليه ما يجعله مرهقا

متعبا فى حياته . . ولذلك نجد أمثال هؤلاء الناس يعيشون حياة تعسة شقية . . وينتهى أمرهم بالانتحار أو الجنون .

إذن الذى يأخذ فرصة أعلى من غيره . . قد تشقيه ولا تسعده . . والذى يعطيه الله فرصة أقوى إذا لم يستخدمها فى الخير . . سلط عليه الشقاء . . ولذلك نجد من يصل إلى فرصة أعلى . . نحن نغبطه على أنه سيعيش حياة كريمة . . ولكن الحقيقة أنه ربما تجلب له هذه الفرصة الشقاء والتعاسة . . وذلك هو قانون التوازن فى الدنيا . . أى مجتمع . . المجتمع الذى لا يصلح إلا إذا تكافأت فيه الفرص . . قرية آمنة مطمئنة . . ثم يأتى إنسان ويحصل فيها على السلاح . . يعطيه فرصة غير متكافئة مع أهل القرية . . ويجعله هو الأقوى إذا استخدم هذا السلاح فى الدفاع عن القرية ضد أى مجرم يعبث بأمنها . . أو ضد أى إنسان يريد أن يهددها . . بارك الله فى عمله . . ولكن إذا استخدم هذا السلاح فى فرض الأتاوات على الناس والظلم فى الأرض . . وأن يكون هو الأقوى . . سلط الله عليه من أهل القرية . . أو من خارجها . . من يأتى ويحمل سلاحا ويقف ليهدده هو . . ويصبح هنا تكافؤ فرص . . لأن الذى يمتلك السلاح فى هذه الحالة يخشى ذلك القادم أو الذى يحمل سلاحا من أهل القرية . . فيبدأ فى مراجعة نفسه ويبتعد عن طغيانه . . فإذا أخذه غرور الدنيا ولم يفعل ذلك . . فقد يدفع حياته ثمنا لتجبره وبعدها عما أمر به الله . .

إذن فوجود الإنسان الذى يخل بتكافؤ الفرصة فى المجتمع . . يفسد هذا المجتمع . . فيأتى الله سبحانه وتعالى بمن يعيد التوازن إليه . . وفى هذا التوازن يكون الصلاح . . فتكافؤ الفرص فى الحياة هو التوازن . . فإذا اختل ذلك فسد المجتمع . . كذلك الذى يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلا . . نجد شكله منفرا . . ورغم انه قد يستخف بعقول بعض البشر . . ويحصل منهم على أموال . . إلا انك دائما تجده مفلسا معسرا ويموت فى أسوأ حال . . إذن الفرصة غير المتكافئة لا تجلب له إلا الشقاء . . كما قال الله سبحانه وتعالى : **« فزادوهم رهقا »** .

سليمان .. والجـــان

والله سبحانه وتعالى حين سخر الجن لسليمان .. سخرهم لنفع الناس وعمارة الأرض .. ولم يسخرهم فى الايذاء .. فالذين يسخرونهم فى الايذاء يجنون الشر .. وهذه رحمة من الله تبارك بعباده .. لأنه لو أعطى لعدد من البشر فرصة لم تتح للآخرين .. فإن القسوة والشقاء سيسودان العالم .. خصوصا إذا استغل من أعطى هذه الفرصة ليزداد بها شرا ومعصية .

ونريد أن نلفت الأنظار هنا إلى قوله سبحانه وتعالى فى تسخير الجن لسليمان : « **وما كفر سليمان** » .. أى أن الله سبحانه وتعالى حين سخر لسليمان الجن ، كان عليما بأن سليمان لن يكفر .. ولن يستخدم هذه القوة المسخرة له فى الشر .. ولكن استخدمهم فى الخير .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى عن الملكين هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر .. « **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** » .. وكلمة (لا تكفر) معناها انك إذا أخذت قوة ظاهرية فى الكون فاياك أن تستعملها فى غير الخير .. وهذا ينطبق على العموم فى أى قوة يعطيها الله لك .. فأنت وقت الطلب تقول ياربى اعطنى كذا لأعبدك حق عبادتك وافعل الخير فى الكون .. فاياك أن تستعملها فى غير الخير .. فإذا أعطاك الله غرتك قوتك الظاهرية ، وبدأت تفسد فى الأرض .. فإذا أردت حكما مثلا دعوت الله سبحانه وتعالى أن يمكنك فى الأرض .. واستجاب الله لك .. فإذا بك بعد أن يمكنك الله فى الأرض تستخدم ما أعطاه لك فى محاربة الحق ونشر الظلم والفساد .. معتقدا انك فى منعة من الله سبحانه وتعالى .. وهكذا وقت أن كنت تطلب تدعى الخير .. وبعد أن تمكنت اتجهت إلى الشر .

وهنا يعلمنا الله مسلك الشيطان فى النفس البشرية .. فأنت إذا ملكت سيأتى الشيطان ليوسوس فى نفسك .. كما وسوس فى نفس آدم .. فيوحى إليك أن

ملكك هذا لا يبلى . . أى لا يزول . . وانك خالد لن تلقى الله ليحاسبك . . فتنسى يوم الحساب . . وتبدأ تفسد فى الأرض . . ثم بعد ذلك يزول ملكك . . ويذهب عنك الجاه والسلطان . . وتلقى الله وحيدا مجردا من كل جاه الدنيا . . حيئنذ يكون الشيطان قد أفسد عليك الفرصة التى أخذتها . . بدلا من أن تكون أنت الأعلى أصبحت أنت الأسفل . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا حين نقرأ القرآن . . أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . لماذا ؟

لأنك لو استعنت بالخالق بين خلقه . . لا يستطيع هذا الخلق أن يفسد نفسك . . والشيطان يريد وأنت تقرأ القرآن أن يمنعك من أن تتلقى فيوضات القرآن . . فإذا استعنت بالله فالشيطان يخمد . . لأنه إذا ذكر الله خمد الشيطان الرجيم . . إذن فقول الله إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . يقال ليصبح جهاز استقبالك لصفاء القرآن بلا شوائب .

والقرآن كلام الله . . فأنت تسمعه سبحانه وتعالى يتكلم .
ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : **« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا »**
لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم . . وأنت حين تتحدث وقت قراءة القرآن فانك لا تشوشر على قارئه . . ولكنك تشوشر على كلام الله . . ولذلك فإن جعفر الصادق . . رضى الله عنه . . كان أكثر أهل بيت رسول الله علما بأسرار القرآن . . لذلك قال : عجبت لمن يصيبه الهم والخوف . . خوف المكر به . . أنه لم يقرأ قول الله تعالى **« حسبنا الله ونعم الوكيل »** وقد سمعت الله بعدها يقول : **« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء »** . . وهكذا كان يقول عن القرآن دائما سمعت الله يقول :

والقرآن سمى قرآنا لأنه يقرأ . . وسمى كتابا لأنه يكتب . . وجعله سبحانه وتعالى حفظا فى الصدور وتسجيلا فى السطور . . والقرآن نزل ليذكر الناس الطريق المستقيم . . ويرسم لهم الحياة الطيبة الآمنة هى الأرض . . لكن الله

سبحانه وتعالى لينصف خلقه ولا يجعل لأحد حجة يوم القيامة . . حفظ القرآن من التدخل البشرى . .

فلم يستطع أحد . . ولن يستطيع أن يخفى شيئا من القرآن . . أويبدل أو يغير فيه . . ولو نظرنا إلى منهج القرآن . . لوجدنا الناس كلما تقدم بهم الزمن . . تحللوا من المنهج وابتعدوا عنه . . ولكن مع تحللهم من المنهج فإن حفظ القرآن فى ارتفاع مستمر . . وهنا تظهر معجزة من معجزات القرآن الكريم . . ذلك أن الله قد علِم أزلا هوى النفس البشرية . . وعلم أن هذه النفس ستحيد عن الطريق المستقيم . . فماذا فعل الله . . ؟

لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى عنق البشر . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ائتمن البشر عليها . . هم الذين يحفظونها من أى تعديل أو تحريف . . أو إغفال لذكر أحكام الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختص القرآن بأنه هو الذى يحفظه مصداقا لقوله تعالى : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » . . وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا . . وسيبقى إلى يوم القيامة محفوظا من أى عبث بشرى . . أو أى تدخل من إنسان مهما كان .

لقد بذلت محاولات ودبرت مؤامرات . . ولكن أحدا لم يستطع ولن يستطيع أن يمس القرآن الكريم . . لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى . . ولذلك عندما درس المستشرقون القرآن والكتب السماوية الأخرى . . وجدوا تعارضا بين الكتب السماوية وبين حقائق الكون . . ولكنهم لم يجدوا أى تعارض بين القرآن وبين قوانين الكون . . لماذا . . ؟ لأن الكتب الأخرى دخلها هوى البشر . . نسوا بعض ما ذكروا به . . والذى لم ينسوه أخفوه . . والذى لم يخفوه حرفوه وبدلوه . . أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه . . لذلك فإنك ترى أيضا أنه بينما خط المسلمين فى تطبيق المنهج يقل مع مرور الزمن . . ومع المغريات المادية ، فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد سخر غير المؤمنين للمساهمة فى خط حفظ

القرآن . . ليدل على أن هذا الخط منه هو وحده لادخل لبشر فيه . . فتجد ألمانيا مثلا تطبع القرآن الكريم بشكل جميل فى لوحة واحدة . . وإيطاليا واليابان تطبعان القرآن طباعة متقنة . . وربما لاتقومان بطبع الانجيل ولا التوراة . . وتجد الانسان يضع المصحف فى جيبه أوفى سيارته . . وآيات قرآنية تعلق على الصدور . . والقرآن فى كل بيت حتى ذلك الذى لايتبع منهج الله . . وتعجب أنت أن خط الايمان يميل إلى الهبوط . . وخط حفظ القرآن يميل إلى الصعود . . نقول لك : أنه إذا كان الخطان يتبعان إرادة البشر لكان المنطق أن يسيرا فى إتجاه واحد . . ولكن هناك خطا يتبع الارادة البشرية وهو الايمان . . وخطا يتبع إرادة الله وهو حفظ القرآن . . الخط البشرى يتناقص والخط الالهى يعلو ويزداد . . ذلك لأن الحفظ مقطوع به من الله . . وبوعد منه سبحانه وتعالى . . ولو كان الامر منطقيا لأهملنا تسجيل القرآن كما أهملنا تسجيل منهجه من حياتنا . . ولكن الاهمال يحمل سلوك البشر . . وتوثيق المنهج من حيث تسجيله وحفظه والعناية به هو من الله . . إذن فلا عذر لأحد . . فإن منهج الله حفظا وتسجيلا لن يختفى من الوجود . . وسيظل القرآن لكل من أراد أن يستقيم ويتبع المنهج .

***

ولكن الناس حين يصرفون أنفسهم عن القرآن يكونون داخلين فى دائرة التكليف أو الأمر الاختيارى . . ودائرة التكليف تستطيع فيها أن تفعل . تطيع أو لا تطيع . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال إفعل فلابد أنك تستطيع ألا تفعل . . ومادام قد قال لاتفعل فإنك تستطيع أن تفعل . . وإلا لما قالها . . والله سبحانه وتعالى قد جعل لك أمورا إختيارية . . وأمورا بلا إختيار . . ومعظم الأشياء خلاف العبادة والتكليف وأمور الحياة الشخصية . . الانسان غير مخير فيها . . شكل الانسان . . هل هو طويل أم قصير . . ذكى أم غبى . . أبيض أم أسود ، قوى البنية أم ضعيف الجسد . . من هو أبوه ومن هى أمه . . ماهو البلد الذى ولد فيه . . كل هذا لا إختيار للبشر فيه . . والكون بنظامه المتقن هواؤه وماؤه . . أرضه وسماؤه . . شمسه وقمره . . نجومه وجباله . . نظامه المتقن الذى لا يختل . . البالغ الدقة . . كل هذا لااختيار للبشر فيه . .

الحياة والموت . . الصحة والمرض كلها عوامل لاتخضع للمشيئة البشرية . . رغم مايدعيه عدد من الناس . . فالطبيب هو واسطة الشفاء . . وليس معطى الشفاء . . والله سبحانه وتعالى أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه . . وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء فلا يستطيع له علاجا .

بل إن الجنس البشرى لادخل لانسان فى أجزاء كثيرة منه . . القلب يدق سواء أردت أم لم ترد . . والمعدة تعمل على هضم الطعام دون أن تصدر لها أمرا بذلك . . والدورة الدموية تؤدى مهمتها وأنا لا أكاد أحس بها . . وأشياء كثيرة فى الجسم تمضى دون إرادة منى . . بل إنها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم لا أدرى شيئا . . كل هذه الأشياء لا اختيار لى فيها . ولا حساب عليها . . والكون بجماده ونباته وحيوانه وأجناسه الأخرى غير الانس والجان مقهور لله سبحانه وتعالى . . ولذلك نجد كل الأنظمة تمضى تؤدى مهمتها . . ولكن الخلل فى الكون يجىء من ناحية ماجعل الله سبحانه وتعالى الانسان مختارا فيه . . فالاختيار هنا يجعل الانسان يؤدى أعمالا ضد المنهج فيفسد الكون.

***

وإذا كنا نريد أن نعيش القرآن . . وأن نحيا بما أمر الله . . فإننا لا نطمع فى أن نفسر القرآن . . لأن أى تفسير للقرآن متروك للزمن . . وسيظل القرآن يعطى إلى أن تأتى الساعة ، وفى كل زمن سيتسع القرآن تفسيره تفسيرا يتفق مع قضايا الكون كله . . أما الأحكام التكليفية أو منهج العبادة فى القرآن الكريم . . فإنها لاتحتاج إلى تفسير . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسرها . . وليس منا من هو أعلم من رسول الله .

فالأمر فى أحكام التكليف والعبادة يتعلق بالثواب والعقاب . . وهذه يتساوى عندما من أدرك عصر النبوة ومن لم يدركه إلى قيام الساعة . . ولذلك كان التفسير كاملا حتى لايبقى هناك شىء غامض فى أمور العبادة . . فلأنها لا تطبق الحياة التى يشير إليها القرآن الكريم . . فالذى يستقبل القرآن الكريم إستقبالا

إيمانيا لايقف أمامه حكم من أحكام العبادة .. ولذلك فإننى أحب أن أقول إن كل مفسر يتعرض للقرآن إنما يسجل خواطره الإيمانية حول القرآن .. وإذا أردت أن أطوف بخواطرى حول القرآن فإننى أجد أن الله سبحانه وتعالى قد طلب منا أن نقرأ الآية .. وقبل أن نفسرها أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وذلك هو أول لقاء بين المؤمن وبين القرآن .. مصداقا لقوله تعالى : **« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »** .. لماذا ؟.

لأن الشيطان عدو للإنسان .. وتتمثل هذه العداوة فى آدم عليه السلام أصل البشرية كلها .. لقد استكبر الشيطان وهو يرى الله يخص الإنسان برحمته فيخلقه بيديه وينفخ فيه من روحه .. ويجعله خليفته فى الأرض .. استكبر الشيطان كيف يفعل الله هذا لآدم ويتركه هو .. وهو الأكثر قدرة بحكم خلقه من نار .. وعندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم رد الشيطان الأمر إلى الله .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه فى موضع متساوٍ لله سبحانه وتعالى .. لم يعصه فقط .. بل وضع نفسه فى موضع متساو لله سبحانه وتعالى .. وقال : **« خلقتنى من نار وخلقته من طين »** .. **« أأسجد لمن خلقت طيناً »** .. وكان الشيطان ممثلا فى إبليس .. فطرده الله من رحمته ..



إذا أردت واتجهت بنيتك أن تقرأ القرآن الكريم .. فتقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. لماذا ؟ هذا أمر طبيعى .. فالذى يبعدك عن المنهج ويحاول أن يوسوس لك بعمل الشر .. ومعصية الله هو الشيطان .. ذلك لأن الشيطان عدو للإنسان .. وعداوة الشيطان للإنسان مسبقة .. ومنذ الخلق .. وهى تتمثل فى عدواة الشيطان لآدم عليه السلام .. وذلك حينما استكبر الشيطان عن أمر الله بالسجود لآدم .. وقال خلقتنى من نار وخلقته من طين .. وقال **« أأسجد لمن خلقت طيناً »** .. وهكذا جاءت عداوة الشيطان من أنه يعتقد أن الإنسان أقل منه .. وأنه يعتبر الإنسان من مادة أدنى من المادة التى خلق منها

الشيطان . . ومن هذا جاء الاستكبار . . وكانت معصية إبليس لأمر الله . . فأعلن سبحانه وتعالى طرده من رحمته . . وسماه رجيما مبعدا .

معصية الشيطان

ومعصية الشيطان تختلف عن معصية البشر . . فالشيطان عصى الله سبحانه وتعالى . . ورفض أمر السجود لآدم . . وكانت هذه معصية . . وآدم عصى الله وأكل من الشجرة . . وهذه معصية . . ولكن كلتا المعصيتين مختلف تماما . . فالشيطان حين عصى واستكبر على الله سبحانه وتعالى . . وأصر على المعصية . . وقال : « **لأغوينهم أجمعين** » . . وتحدى وأمعن فى التحدى . . ورفض أن يعترف أنه على خطأ . . بل رد الأمر على الآمر وهو الله سبحانه وتعالى .

أما آدم عليه السلام فإنه حينما عصى اعترف بذنبه وتاب إلى الله . . ولم يصر على ما فعل . . بل قال يا ربى إنى إنسان ضعيف أغوانى الشيطان وأذلنى . . وأننى يارب أعلم أنك أنت الحق . . وأن قولك الحق . . وأن منهجك الحق . . ولكن نفسى ضعيفة . . لم تحتمل المنهج فوقعت فى الخطأ . . وإنى أعود إليك ياربى تائبا . . نادما . . مستغفرا .

كان هذا هو منهج آدم . . اعترف بألوهية الله . . واعترف بعظم الذنب والتوبة عنه . . والتعهد بعدم العودة إليه . . أما إبليس . . فإنه على عكس ذلك . . لم يعترف بذنبه . . بل أصر على المعصية . . وأصر على أن رأيه هو الحق . . وأنه لم يخطىء . . وأنه حين يرد أمر الله فإنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه على صواب . . ولذلك أبعده الله وطرده من رحمته . . فبماذا قابل إبليس هذا الطرد ؟ قابله بإمعان فى التحدى بأن قال : « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** » . . ولكنه حتى وهو فى المعصية . . كان يعلم أن أمر الله نافذ ولذلك قال « **بعزتك** » . . من باب العزة لله لأن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . .

ولذلك جاء من هذا الباب .. باب غنى الله سبحانه وتعالى عن كل خلقه وعدم حاجته إليهم .. أقسم إبليس .. ولم يجد منفذا ينفذ منه إلى البشر .. إلا بعزة خالقهم عنهم وعدم حاجته إليهم ..

ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون كل الخلق طائعين له .. مهتدين لمنهجه .. لمااستطاع إبليس أن يقترب منهم .. ولذلك استثنى فقال : « **إلا عبادك منهم المخلصين** » .. أى أن الذى يريده الله ويصطفيه عبدا مخلصا له .. لا يستطيع إبليس أن يصل إليه .. لأن سلطان الله يمنعه .. ومعنى قول إبليس « **بعزتك** » .. إنك يارب لو أردتهم خاضعين للهداية بأمرك أنت .. وبدون إرادة منهم .. ما استطعت أن أصل إلى واحد من البشر .. ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار .. فالذى هو مخلص فى هدايته .. أنا لا أستطيع أن أقترب منه .. أما الذى لم تدخل الهداية إلى قلبه لتصبح يقينا .. والذى ينظر للدنيا بعين .. والآخرة بعين .. فأنا سأحاول أن أغويه لينظر إلى الدنيا وحدها .

حديث قدسى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ان الله عز وجل قال : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى .. فأنا منه برىء .. وهو للذى أشرك » .

الفصل الثالث

منهج السماء واحد

ما هى طرق اغواء الشيطان للإنسان المؤمن . . ؟ لقد بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وهى كما يلى : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » . . أى أن إبليس لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية . . وانطلق يخالف كل ما أمر به الله . . فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها . . وهى ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء . . لذلك فإن إبليس لا يُذهب إلى الحانات مثلا أو بيوت الدعارة . . ويبذل فيها جهدا لأن هذه لا تحتاج إلى جهد منه . . فكل من ذهب إلى هذه الأماكن فإنما هو ذاهب إلى معصية . . وليس فى حاجة إلى إغواء . . وقد اختار هذا الطريق . . ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة . . أو أماكن العبادة . . هؤلاء الذين يبذلون إبليس معهم كل جهده . . أو كل حيله وإغوائه . . ليصرفهم عن عبادة الله .

ولذلك لم يقل إبليس فى حديثه لأقعدن لهم على الطريق المعوج . . لأن الطريق المعوج لا يحتاج إلى جهد . . لأنه بطبيعته يتبع الشيطان . . ومن هنا فإن إبليس يغوى أهل الطاعة لا أهل الشر والفساد . . بأن يزين لهم المعصية . . أو يغريهم بمد أيديهم إلى المال الحرام . . أو يزين لهم أمرا من أمور الدنيا التى نهى عنها الله سبحانه وتعالى .

وقصة إبليس فى غواية آدم . . لعل فيها الشرح الكافى . . فآدم عاش فى جنة يجد فيها كل ما يطلب . . بلا تعب . . وبلا عمل . . وحرمت عليه شجرة واحدة من الجنة كلها التى فيها ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات . . فجاء إبليس ليغرى آدم على المعصية . . فأخذ يزين له هذه الشجرة . . ويزين له مخالفة أمر الله . . ويقول له : « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** » . . ثم قال : « **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » .

وهكذا كانت الغواية فى أن إبليس صور لآدم أن الله قد منعه من هذه الشجرة

ليمنع عنه خيرا . . فلما صدق آدم إبليس . . عرف أن الله قد منعه من الشجرة لأنه يريد له الخير . . وكان هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يبلغنا حتى نفطن إلى طريق إبليس إلى الغواية . . فلا خير فى خير يؤدى إلى النار ومعصية الله . . ولا شر فى شر يؤدى إلى الجنة وطاعة الله .

وهكذا أراد الله أن يلفتنا لفتة كريمة إلى أنه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة فى الأرض . . ورسمه له وبينه . . ولكن الشيطان يأتى ويزين لنا طريق الباطل ، ويحاول أن يصور أن فيه خيرا . . فإذا سقط الإنسان فى الشر . . هرب إبليس ونال الإنسان جزاءه . . فالذى يسرق مثلا لا يعتقد أبدا أن أمره سينكشف . . ذلك لأنه لو فكر لحظة واحدة فى أن أمره سينكشف . . وأنه سيلاقى جزاءه لتردد كثيرا فى أن يسرق . . ولكن الشيطان يقول له مد يدك وخذ هذا المال . إن أحدا لن يراك . . وتستطيع أن تفوز به دون عقاب . . ويدله على طريقة للتزييف والتزوير مثلا . . ويقنعه بأن أحد لن يكشفها . . والقاتل حين يقدم على جريمته . . فإنه يقدم عليها وهو معتقد أن أحدا لن يراه ولن يكشف أمره . . ولذلك فإن الطرق الحديثة فى مكافحة جريمة التخريب مثلا . . تقتضى أول ما تقتضى أن يبقى كل من فى المكان حتى ينتهى الاحتفال تماما . . لأنه من النادر أن يضع أحد قنبلة لينسف بها نفسه . . لذلك فإنه إن لم يؤمن تماما أنه سينجو فإنه لن يقوم بهذا العمل . . وكذلك كل الجرائم الأخرى . . يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها . . ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع . . ثم بعد ذلك ينكشف أمره . . فيهرب الشيطان ويتركه يواجه مصيره .

حكم العقل

ولو أن آدم قد حكم عقله لعلم كذب منهج إبليس . . فإبليس كما يدعى يدله على شجرة الخلد . . ولو كان حقيقة أن هذه الشجرة شجرة الخلد لما قال إبليس لله سبحانه وتعالى « **انظرنى إلى يوم يبعثون** » . . ولما طلب منه أن يبقى على

حياته إلى يوم القيامة . . بل لأكل من شجرة الخلد ونال الخلد وأصبح غنيا عن الله سبحانه وتعالى . . ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية . . واستطاع أن يقود آدم إلى المعصية .

وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم . . دخل من ناحية الغفلة لأبناء آدم . . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم . . وتذكروا أن هناك عدواة سابقة بين آدم وإبليس . . وأن إبليس طرد من الجنة بسبب آدم . . وأنه طرد من رحمة الله بسبب آدم . . ولذلك فهو عدو لآدم وذريته حتى يوم القيامة . . ولعرفوا أن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى ليمهله إلى يوم البعث لينتقم من آدم وأولاده بإبعادهم عن الطريق المستقيم . وإغوائهم على معصية الله . فإذا عرفنا ذلك أخذنا حذرنا منه . . وحين نأخذ حذرنا وتنكشف وسوسة الشيطان . . فإنه يهرب .

إبليس والإفساد

وشرح إبليس كيف سيفسد الصراط المستقيم . . وقال « **لآتينهم من بين أيديهم** » يعنى من أمامهم « **ومن خلفهم** » وهذه جهة ثانية . . « **وعن ايمانهم** » وتلك جهة ثالثة . . « **وعن شمائلهم** » وهذه جهة رابعة . . ولكن الجهات ست وليست أربعا . . فما هما الجهتان الباقيتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان . . هما فوق وتحت .

لماذا هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات . . ولم يقل سيأتى من فوقهم ومن تحتهم . . لأنه يعلم أن الجهة الفوقية تمثل الفوقية الالهية . . ولذلك ابتعد عنها . . وأن الجهة السفلى جهة السجود تمثل العبودية البشرية حيث يسجد الإنسان لله . . ولذلك يبتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما . . وأنت إذا ما نظرت إلى ما يروجه الملحدون فى كل عصر نجد عجبا . . نجد كل هذه الجهات الأربع مذكورة عن الملحدين ، ما عدا الجهة العليا والجهة السفلى . . فأحدهم يقول عن نفسه تقدمى . . أى جهة الأمام . . والثانى يقال عنه رجعى

أى جهة الخلف . . آخر يقال عنه يمينى . . جهة اليمين . . وآخر يقال عنه يسارى . . جهة اليسار . . ولكن لا أحد من المذاهب الالحادية يسمى نفسه فوقى . . لأن المستوى الفوقى هو للألوهية . . ولا يسمى نفسه تحتى لأنه مكان السجود للعبودية . . ونحن نقول لكل أصحاب هذه المذاهب نحن لسنا تقدميين ندعو إلى التحلل . . ولا رجعيين نرفض أن نتقدم خطوة إلى الأمام مع الزمن . . ولا يمينيين على عرف العصر . . ولا يساريين أيضا على عرف العصر . . وإنما نحن أمة محمدية فوقية . . كل أمورها تأتى من الفوقية الالهية .

ميزة الإسلام

ولابد أن نشرح هذه النقطة قليلا . . نحن أمة محمدية فوقية . . تعبد الله بإعلان عبوديتها وخضوعها له . . ولذلك حين نتبع هذا المنهج . . منهج السماء . . نكون قد تميزنا عن البشر جميعا . . كيف ؟ . . لأن كل إنسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى . . ولا يأخذ منهجه عنه . . هو خاضع لمنهج بشرى . . وضعه مساو له من البشر . . والبشر له هوى . . وفى كل نفس بشرية هوى تريد أن تحققه . . ولذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز على الناس . .

وإذا نظرت إلى أى منهج بشرى وجدت أنه يحقق الفائدة لمن وضعوه . . ويقدم لهم ميزات فوق ميزات غيرهم . . فذلك هو طريق البشر . . طبقة تضع منهجا لتتميز به عن الآخرين وتستفيد هى وحدها . . وقد يكون هذا المنهج من وضع مجموعة أفراد وليست طبقة . . ولكن المهم فى هذا كله أن الفائدة تعود على عدد محدود من الناس هم واضعو هذا المنهج . . ولكنك إذا خضعت لحكم الله . . فاعلم أنك خاضع لغير مساويك . . والله سبحانه وتعالى لا هوى له . . فهو غنى عن العالمين . . أنت محتاج إليه . . وهو غير محتاج لك .

ولذلك حين يضع لك منهجا فإنه يضع هذا المنهج ليعطيك الخير . . ولا يضعه ليمنع عنك خيرا . . أو ليستأثر هو بالخير . . لأنه أولا هو مصدر الخير

كله . . وثانيا هو غير محتاج لما تملك ولا ما يملك البشر جميعا . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى المنزه عن الهوى إذا وضع المنهج . . فلا ذلة . . لماذا ؟ . . لأنه يضع المنهج بقواعد ثابتة تسرى على الجميع . . فأنت خاضع لمنهج الله سواء كنت تربح قروشا قليلة لا تكاد تكفيك أو عندك مال الدنيا . . ولا ذلة ، لأنك أنت ومن هو أعلى منك خاضعون لمنهج السماء . ولذلك فعندما تتبع منهج الله تعيش عزيزا . . مرفوع الرأس . . ماضيا فى طريق الحق . . والله لا يأخذ منك ولكن يعطيك ويفتح لك . . لا يذلك ولكنه يعزك .

النبى الأمى

ربما كانت تلك الحكمة هى التى أدت إلى أن يختار الله سبحانه وتعالى نبيا أميا . . لم يتعلم . . ذلك أن الله حينما اختار رسوله من البشر . . والرسالات فى تبليغها للناس لابد أن تتم عن طريق البشر . . فبشرية الرسول ضرورة حتمية فى رسالات الله إلى أهل الأرض . . لأن الرسالة السماوية تمثل النظرية . . وحياة الرسول الكريم تمثل التطبيق . . وإذا لم يكن الرسول بشرا كان ملكا . . أو من هو فوق قدرة البشر . . لقال الناس كيف نتبع ملكا ونحن بشر . . إن هذا الملك له قانونه . . وهو مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين . . هو يستطيع أن يعيش بلا طعام فلا يأكل ولا يشرب . . ولكن نحن لابد أن نبحث عن الرزق لنطعم أنفسنا وأولادنا . . ولا يحتج بعضهم بأن عدم بشرية الرسول تجعل تطبيق المنهج مستحيلا . . ولكن كون الرسول بشرا . . وكونه بشرا من بينهم يعرفه قومه خير المعرفة ، يبطل هذه الحجة . . ويجعل تطبيق المنهج سهلا وميسرا . . لأن الذى يقوم به بشر . . إذن فالمنهج فى قدرة البشر . . وهكذا فإن بشرية الرسول حتمية لسلامة التطبيق .



فإذا كانت بشرية الرسول حتمية . . فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب ؟ معنى أمى . . أى كما ولدته أمه . . لم يأخذ ثقافة من

بشر . . فلا هو تثقف على الشرق . . ولا هو تثقف على الغرب . . ولا هو قرأ لفيلسوف . . ولا اطلع على نظرية انسان . . بل هو لم يقرأ كلمة فى حياته . . عندما يأتى هذا الإنسان بكل هذا الاعجاز القرآنى فهو لا يمكن أن يأتى به من ذاته . . لأنه غير مؤهل لذلك . . ولابد أنه أتى به من الفيض الالهى . . من فوق .

إذن فالأمية شرف لرسول الله ودليل على صدق رسالته . . وليست مهانة لأمثالنا . . بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى للعرب فى جاهليتهم ليكونوا هم أمة القرآن له حكمة . . فلو نزل هذا القرآن فى أمة متحضرة فى ذلك الوقت . . كفارس أو الروم . . لقالوا التقاءات حضارية . . وهبات عقلية . . وموجات إصلاحية . . قام بها أناس عن حضارة وثقافة . . ليقودوا حركة الحياة .

ولكن الأمية التى جاءت لتحجب الفكر البشرى عن رسول الله . . والجاهلية التى جاءت لتحجب الرؤية الحضارية عن رسول الله . . إنما جاءت أيضا لتؤكد أن هذه الرسالة هى من السماء . . وأنه لا دخل للأرض فيها . . ومادام ليس للأرض دخل . . ولا لثقافتها وحضارتها مكان . . فالذى قاله هذا قرآن أوحى إليه من السماء .

والله سبحانه وتعالى حين منع رسول الله بالأمية من ثقافات ومعطيات عقول البشر . . وصله بالعلوية التى تعلم البشرية ما لم تعلم .

مدرسة الرحمن

ويحضرنى هنا لقاء الغار . . حينما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام مع الملك جبريل وضمه بقوة وقال : « **اقرأ** » . . ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرتعد من الضمة . . « **ما أنا بقارىء** » . . نقول إنه لا تعارض بين الاثنين .

فالرسول حينما قال ما أنا بقارىء . . أخذ بالأسباب البشرية فى أنه لم يتعلم القراءة والكتابة . . ولذلك كان صادقا مع نفسه . . وأمام ربه . . والله سبحانه وتعالى حينما قال لرسوله : « **اقرأ** » . . لم يأخذ بالأسباب الأرضية . . بل أخذ

بالأسباب العلوية . . أى يا محمد ستقرأ .

ولكنى لن أرسلك إلى معلم أو مدرسة تتعلم فيها القراءة . . ولكنك ستقرأ باسم ربك . . أى العلم الذى سيأتيك هو من الله سبحانه وتعالى . . وهو علم يحيط بعلم البشرية كلها . . ولكنه لا يحتاج منك لأن تتعلم القراءة والكتابة . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك . . وسيعلمك ما لم تعلم . . فالعلم مصدره الله . . وهكذا كان الاعجاز فى الآية الأولى التى نزلت من القرآن تطلب من نبى أمى أن يقرأ . . والنبى وهو يرتعد من ضمة الملك جبريل يقول : ما أنا بقارىء . . فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له : أنت ستقرأ وأنا الذى سأعلمك علما من عند الله . . من السماء . . لا علم بشر .



وهكذا كانت قضية بشرية وأمية الرسول تقتضى كمعجزة أن المنهج صالح لحياة البشر . . وأن العلم القادم ليس هو من نتاج لقاءات العقول . . بل علم من السماء . . ولذلك تحدى الله سبحانه وتعالى أن يأتى أحد بسورة مثله . . وكان هذا التحدى خروجا بالقرآن عن القدرة البشرية . . ذلك أنه حسب علم البشر يأتى إنسان يخترع شيئا . . ثم يأتى بشر آخر بمثل هذا الشىء ويزيد عليه . . وكلما تقدم الزمن وكشف الله لعباده عن علم الأرض جاءت الزيادات بعد ذلك . . ولكن القرآن الكريم لأنه من السماء بقى إعجازا أربعة عشر قرنا . . وسيبقى إعجازا أبديا . . ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية قد استطاعت بهذا العلم الإلهى أن تسود الأرض كلها . . وأن تقضى على حضارتين كانتا على قمة ما صنع البشر فى الأرض فى ذلك الوقت وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية . . كيف تم ذلك ؟ . .

هل استطاع القرآن أن يعطى للعرب سلاحا بشريا يفوق أسلحة هذه الدولة . . أم كشف عن سر القنبلة الذرية مثلا . . لم يحدث ذلك أبدا . . إنما

جاء هذا الدين الجديد بمنهج من السماء . . إذا اتبعناه سدنا الأرض . . لماذا ؟ . . لأنك وضعت منهجا سماويا مقابل منهج أرضى . . ولذلك فإن المنهج الذى ساد به العرب الأرض . . لم يكن منهجا من وضعهم أو اختراعهم . . ولو كان منهجا بشريا لانهزم أمام الروم والفرس . . ولكنه منهج علوى من السماء .

معصية إبليس

نعود بعد هذا الايضاح إلى معصية إبليس . . لماذا قال الشيطان أنه سيغوى البشر . . ولماذا نشأت هذه العداوة الرهيبة . . أولا لأن الله فضل الإنسان على سائر المخلوقات وجعله خليفة له فى الأرض . . وسخر له الأرض والسماء . . وميزه باختيارية العبادة . . أى أنه يأتى إليه طائعا مختارا عن حب وود . . والشيطان يريد أن يفسد كل هذا لعدواته للإنسان . . وزاد الحقد حين اتخذ آدم سبيل التوبة طريقا لغفران ذنب المعصية . . ومضى إبليس فى تكبره واتخذ طريق الكبر والمكابرة . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم . . وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . . إذن فآدم وإبليس دخلا فى المعصية ولكن بطريق مختلف . . أولهما هو آدم تاب إلى الله واعترف بذنبه وضعفه . . فأعطاه كلمات يتوب بها ويعود إلى منهج الله . . وإبليس أصر على المعصية وأمعن فى المكابرة ، وبدلا من أن يعود إلى الله قال لأغوين هذا الذى فضلته على .



وإبليس دائما يأتى من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا . . فإذا وجد إنسانا متشددا فى ناحية يأتى من ناحية أخرى تكون ناحية ضعف . . فإذا كان الإنسان متشددا فى الصلاة يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها . . جاء إبليس من ناحية المال فيوسوس له حتى لا يخرج الزكاة ، ويقتر ويأكل حقوق الناس . . مدخلا السرور إلى نفسه بالوهم ، بأن هذه الطريقة تزيد ما عنده وتجعله غنيا آمنا مطمئنا . . والحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما نقص مال من صدقة) .

والصدقة هى التى تكثر المال . . وتضع بركة الله فيه . . وتجعله يزداد وينمو . . والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد فى الدنيا . . وحينما يحين الأجل يتركه الإنسان ويمضى . . ولكن بعض الناس يغفل هذه الناحية ولا يتذكرها . . فحينما يجد إبليس إنسانا متشددا فى الصلاة محبا للمال . . جاءه من ناحية ضعيفه فيمنعه من الزكاة ، ثم يزيد هذا الضعف بأن يغريه بالمال الحرام .

وتبدأ المعاصى التى تنسج عودا عودا كما ينسج الحصير ليغطى القلب كله وتمنعه عن ذكر الله . . وإذا وجد إبليس فى العبد المؤمن تشددا فى الصلاة والزكاة وضعفا من ناحية المرأة مثلا . . أتاه من ناحية هذا الضعف ، فيظل يزين له إمرأة خليعة ويزينها فى نظره . . ويوسوس له ويوسوس لها حتى يسقط فى الحرام . ومتى سقط فى الزنا سقط فى الكبائر .

فإذا كان قويا فى هذه النواحى كلها جاء إبليس وزين له الخمر أو مجلس السوء أو النميمة . . المهم أن إبليس يترك نقطة التشدد فى الإنسان ويأتيه من نقطة ضعفه حتى ينفذ إليه من نقطة الضعف . . ومتى نفذ بدأ ينسج الحصير عودا عودا .

ولذلك تجد هناك فارقا بين معصية يوحى بها الشيطان ، ومعصية تصر عليها النفس . . فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عندها وأصررت عليها . . فاعلم أنها هى التى تحاول أن تقودك لمعصية من هذا اللون بالذات . . لأن النفس تريد من صاحبها أن يكون على لون خاص يحقق لها رغبة أو شهوة . . ولكن إبليس ليس على هذا المنوال . . فإبليس يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من أشكال المعصية . . ولا يهمه نوع معين من العصيان فى ذاته . . فإذا طرق لك بابا وجدك فيه متشددا متمسكا لا تصغى إليه . . انطلق يطرق بابا آخر فيه نقطة ضعف . . وهكذا يظل يتنقل من باب إلى باب حتى تسقط فى قبضته وتستمع إليه .

إغواء وخداع

وقد فصل الله أمر الشيطان .. فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعدا ، وهو يعرف أن مصيره النار .. وإياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يغوى الإنسان يأتى له عن طريق شر يضره .. بل ربما يلبس هذا الشر لباسا خادعا ليقع فيه .. فاللص مثلا إذا أراد أن يسرقك لا يأتى إليك ويقول لك أنا سأسرق ما فى جيبك .. بل ربما دفعك إلى الأرض ثم يتقدم منك ليرفعك من المكان الذى سقطت فيه .. وفى هذه اللحظة أنت تظن أنه يعمل خيرا وأنه يعينك على النهوض بعد أن سقطت على الأرض .. فى هذه اللحظة يكون هو قد ارتكب الشر وسرق حافظة نقودك .

إذن هو غلف عمله الشرير بلباس من الخير ظاهرى .. لكن يأتى إلى شيخ مثلا .. يحمل حقيبة ثقيلة .. ويعرض عليه أن يحملها عنه ليعينه حيث أن هذا الشيخ ضعيف لا يقدر على حمل الحقيبة ولكن ماذا يحدث ؟.. أنه بعد أن يأخذ الحقيبة ليحملها يغافل صاحبها ويهرب بها .. عمل ظاهره الخير وحقيقته الشر .

وهكذا الشيطان يغريك على مال حرام مثلا .. ويوسوس إليك أنك محتاج لهذا المال وأنك ستأخذه كسلفة وتعيده عندما يتيسر حالك فى القريب العاجل .. وتفعل أنت ذلك .. وتمد يدك .. عمل ظاهره خير لك تفرج به أزمتك وترد المال .. ولكنك لا تستطيع أن ترده .. بل إنك تحس أن هذه الطريقة سهلة وتمضى فى الطريق إلى المعصية .

فلا تحسب أن الشيطان أبله بحيث يأتى لك بصورة الشر على أنه شر ويذكرك بالعذاب .. بل أنه يتسلل لك على أساس أنه خير لك .. وإذا كان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .. فإن الله سبحانه وتعالى قد شاء من رحمته أن يكشف لنا أسلوبه حتى نستطيع أن نقى أنفسنا منه .. وأحسن ما يقى الإنسان هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .. لأن الشيطان يخلخل فيك منهج

الله . . فالشيطان لا يتركك أبدا مادمت أنت على الطاعة يحاول أن ينفذ إليك من ناحية بعد الأخرى حتى يوقع بك . . ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . . تزيدك فهما للقرآن واحساسا بآياته . . وهذا يقربك من الله .

استيعاب القرآن

والقرآن الكريم هو عطاء من الله سبحانه وتعالى لعباده . . والله فى عطائه يساوى بين جميع الخلق . . فعطاء القرآن متساو . . ولكن كل إنسان يأخذ على قدره . . فالقرآن يقرأ والناس تسمع . . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن بنفس القبول . . لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ ﴾

(سورة محمد)

والقرآن هدى ورحمة . .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾

(سورة فصلت)

فعطاء القرآن واحد ولكن الفرق فيمن يستقبلون القرآن . . قلب مؤمن يستقبل عطاء القرآن بشكل مختلف تماما عن القلب غير المؤمن . . إنسان متعبد للقرآن فى نفسه قبول للآيات بينما الإنسان غير العابد لا يفقه شيئا من القرآن الكريم .

ولكى نوضح هذه النقطة قليلا . . أنت مثلا عندما تخرج فى الشتاء من

منزلك . . وتجد الجو باردا وتنفخ فى يداك حتى تدفئها من البرد . . وعندما يأتى لك كوب شاى ساخن . . وتريد أن تقلل من سخونته تنفخ فيه . . الفعل واحد ولكن متقبل الفعل مختلف . . ولذلك مرة قمت بالفعل للتدفئة ومرة قمت بنفس الفعل للتبريد . . ولذلك عندما تقرأ القرآن أو تستمع إليه . . لابد أن تنقى النفس المستقبلة للقرآن وتجعلها صافية . . وأحسن صفاء للنفس هو أن تخلصها من الشيطان وأقول ما تخلص به نفسك من الشيطان هو أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . وبذلك تكون قد استعذت بالله وكان الله معك . . فإذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك . . ويكون لك هدى ونور . . وأنت إذا استعذت بالله من أى شيطان أو أى مكروه فانك بذلك تجعل الله إلى جانبك . . فإبليس من خلق الله وأنت من خلق الله . . فإذا واجهتما بعضكما كانت الغلبة لمن هو أكثر قوة أو أكثر حيلة . . ذلك لأن كلا منكما يعتمد على ملكاته الشخصية فى مواجهتكما معا . . ولكن إذا استعاذ أحدكما بالله كان الله فى جانبه . . والشيطان لا يمكن أن يستعيذ بالله أو يستعين فى عمل من الأعمال . . إذن فأنت صاحب الميزه لأن الشيطان مطرود من رحمة الله . . رجيم ومبعد . . فهو إذا استعان استعان بذاتيته أو بما منحه الله من صفات خلقه . . ولذلك مهما كانت قدرة الشيطان أو قوته . . فإنك إذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم تكون أنت الأقوى ويكون النصر فى جانبك . . لأن الله عندما يكون معك فى هذه اللحظات تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . . ولذلك عندما ينفرد الخلق بالخلق تكون الغلبة للقوى .

ولكن عندما يذهب مخلوق إلى خالقه ويستعيذ به ويستعين به يكون هو الأقوى رغم ضعفه . . ويكون هو الغالب رغم عدم قدرته . . وإذا بعد اثنان من البشر عن الله أصبح كل منهما يعتمد على قوته الذاتية . . فإذا استعان أحدهما بالله انقلبت الآية تماما . . ولذلك فعندما تقرأ القرآن لابد أن تصفى جهاز استقبالك . . ليس لقدرتك أنت ولا الاستعانة بقوتك . . ولكن بقدرة الله .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى أن الشيطان سيأتى يوم القيامة ليقول : « وما كان لى عليك من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » .

وبهذا يكشف لنا الله سبحانه وتعالى سرا آخر عن إبليس . . هو أنه ليس له سلطان . . أى أن إبليس لا يستطيع أن يقهر أحدا على المعصية ولكنه يغريه . . فإذا استجاب سقط . . وإذا استعان بالله نجا . . والشيطان لا يستطيع أن يقودك إلى الشر رغما عنك . . ولكن باختيارك . . بوقوعك فى اغرائه واستجابتك له . . لذلك يتم الحساب على ما ترتكبه من المعاصى باغواء الشيطان . . ولو أن إبليس له صفة القهر أو سلطة اخضاع الإنسان دون ما ارادة منه لسقط الحساب . . فنحن نعلم جميعا أن الحساب لا يتم على أمور جبرية لا يملكها الإنسان فيها حق الاختيار . . والقهر يسقط الحساب عن البشر . . ولكن الذى يتم على أساسه الحساب هو أمر اختيارى تستطيع أن تفعله أو لا تفعله بإرادة منك . . وهنا يكون الحساب عدلا . . لأنك أنت الذى اخترت . . وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى نقطة هامة أن وسوسة الشيطان بالشر ليس فيها القهر . . ولكن فيها الاختيار . . والله سبحانه وتعالى يعطينا فيها القدرة على أن نختار . . وأن نفعل أو لا نفعل . . ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف . . لماذا ؟ . . أولا لأن معك قوة الله وقدرة الله تستطيع أن تستفيد بها . . وثانيا لأن الأمر هنا اختيار لا إجبار . . فليس هناك قهر . . ولو كانت نفسك قوية لاستطعت أن تتغلب عليه . . وإبليس لا يستطيع أن يرغمنا على عمل . . ولا يملك الحجة الصحيحة لاقناعنا بإثم . . ولكن المسألة أنه يملك النفس الضعيفة ويستطيع أن يغريك أو يوهمك بشىء كاذب . . حتى إذا ارتكبته وجدت أن النتيجة غير ما قال . . رغم ذلك فإن التهافت على الدنيا والتكالب عليها . . يدفعنا إلى ألا نتنبه للغفلة فيدخل الشيطان حياتنا مرات ومرات .

أعوذ بالله

فإذا استعذت باسم الله من الشيطان الرجيم . . فانك يجب أن تبدأ باسم الله

الرحمن الرحيم . . ولذلك قال رسول الله (**كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر**) يعنى مقطوع الذنَب . . وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم وحده . . بل على كل عمل يصادفك فى حياتك . . لأنك حين تبدأ باسم الله فإنك تطرد الغرور من قلبك . . ذلك أنك كما قلنا يمكن أن تبدأ العمل معتمدا على قوتك الذاتية . . وفى هذه الحالة تبدأ والغرور يملؤك بأنك تستطيع أن تحقق ما أنت مقدم على عمله بقوتك الذاتية . . فكأنك استغنيت عن الله وابتعدت عنه . . ويظل الغرور يملأ قلبك فتصدق الأكذوبة الكبرى فى أن يستطيع أن يصنع قدره ومستقبله . . ولكن إذا استعذت بالله وبدأت العمل ذاكرا اسم الله سبحانه وتعالى . . فأنت فى هذه الحالة تتذكر أنك بدون الله غير قادر . . وأنه إذا سلبْ عنك عونه وبركته وقدرته فإنك تصبح عاجزا عن أن تفعل شيئا . . وقرب الإنسان من الله وشعوره بحاجته إليه فى كل لحظة وثانية هوالذى يقرب الإنسان من الله . . ولقد سئل آل بيت رسول الله لماذا لا تطلبون الغنى . . فقالوا نحن قوم نحب أن نجوع فنطلب . . ونعطى فنشكر . . وهذه العبارة تحمل رغبة الطلب فى دوام الصلة بالله . . فالإنسان إذا أحس أنه يستطيع أن يحقق لنفسه ما يريد . . فإذا أصابته نعمة من الله نسبها لنفسه . . وادعى أنه يستطيع أن يحصل على الرزق بقدرته هو . .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه** » .

ما معنى هذه الآية الكريمة . . معناها إذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة نسبها لنفسه فأعرض عن الله بدلا من أن يشكره . . لماذا ؟ لأنه حقق شيئا بما أعطاه الله من علم فى الأرض .

ونوضح هذه النقطة قليلا . . الإنسان فى بداية حياته مثلا كان يعتمد على الأمطار فى الرى والزراعة . . فإذا نزل المطر رفع يديه للسماء شاكراً لله نعمه . . وإذا تأخر المطر رفع يديه إلى السماء طالبا من الله رحمته . . كان هذا هو حال الإنسان حتى أنعم الله عليه بشىء من العلم . . فاستطاع أن يبنى سدا لتخزن

خلفه المياه . . فإذا سقط المطر كان هناك فائض خلف السد . . يستطيع أن يستعين به الإنسان فى أوقات الجفاف . . عند هذه اللحظة يحس الإنسان وهما أنه استغنى عن الله . . لأنه إذا تأخر المطر ولم تمطر السماء . . ذهب وفتح عيون السد ليأخذ منه الماء . . وهكذا أنعم الله على الإنسان بأن أعطاه علما يستطيع به أن يقيم سداً ليحجب مياه المطر ويبقيها حتى الموسم القادم . . وكان الرد على ذلك أن الإنسان بدلا من أن يشكر الله على العلم الذى أتاحه له ليجعل حياته أيسر . . بدلا من أن يفعل ذلك نأى عن الله سبحانه وتعالى ونسب العمل إلى نفسه ونسبه إلى قدراته هو . . وكأنه استغنى عن قدرة الله التى أعطته المطر وأعطته العلم ليبنى السد .

وهكذا فى كل مظاهر التقدم والمدنية . . كلما ازداد كشف الله سبحانه وتعالى لآياته فى الأرض للبشر . . ليعطيهم حياة أيسر وأفضل . . ابتعد هؤلآء الناس عن الله . . وبدأوا يتجهون إلى آيات الله فى الأرض ليتخذوها إلها . . ونسمع من يقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم . . وكل هذه السفسطة مما يدور على ألسنة بعض الناس فى هذه الأيام .

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد نسوا المنعم ، وعبدوا النعمة . . ونقلوا إلى قدراتهم الذاتية ما كشفه الله لهم من آياته فى الأرض .

وحين يبدأ الإنسان قراءة القرآن الكريم ، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . ثم يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم . . والعمل الذى لا يبدأ باسم الله عمل أبتر . . أى ليس كاملا . . ليس فيه الدنيا وليس فيه الآخرة . . أى أنه ينطبق عليه قول الله « **خسر الدنيا والآخرة** » لماذا ليس فيه الدنيا . .؟ لأن عدم ذكرك الله يجعلك تعتمد على قوتك الذاتية . . أنت هنا لا تستعين بالقادر . . وكذلك تعتقد أنك ألصق بهذا العمل . . رجل ذكى يستطيع أن يصنع قدره . . رجل استغنى عن الله . . لأنه يبدأ عمله دون أن يستعين باسم الله . . وهنا

يكون العمل على قدر طاقتك .. والله لا يبارك .. والله لا يوفق مادمت غير مستعين به .. بل يتركك لذاتك .

وهكذا تخسر الدنيا .. لماذا ؟ لأنك إذا بدأت باسم الله كان معك بقدرته وقوته .. كان الله معك يفتح لك الطريق .. ويزيل لك العقبات ويدلك على الخير .. ويحفظك من الشر .. وهذا يتم لا بقدرتك أنت البشرية المحدودة .. ولكن بقدرة الله التى هى بلا قيود .. ولا حدود .. وهكذا تجد نفسك إذا استعنت بالله تجنى أكثر .. وتحقق أكثر .. ولذلك فأنت تخسر فى الدنيا إذا لم تستعن به .. والله الذى ليس كمثله شيء .. وبذلك تكون قد خسرت الجزء الأكبر من الدنيا .. ولم يبق لك فيها إلا قليل تستطيع أن تحققه بذاتك فتجد العناء والتعب والشقاء .. وقد لا تحقق شيئا .. وخسرت الآخرة .. لأنك إذا بدأت العمل باسم الله .. فإن الله جل جلاله يضع لك وقاية من الاثم ومن كل ما يغضب الله .

لا معصية .. مع الذكر

وعندما تبدأ عملا باسم الله .. فانك لا يمكن أن تبدأ بمعصية .. عندما تهم بشرب الخمر ويأتى اسم الله فى بالك .. تجزع وتخاف وتسرع تاركا ما كنت تنوى أن تفعله .. عندما تهم بسرقة وتتذكر اسم الله .. تبتعد نفسك وتبتعد يدك عن المال الحرام .. عندما يعرض عليك إنسان رشوة لا تستطيع أن تقول باسم الله .. هل يرتشى إنسان وهويذكر هذا الاسم الكريم .. تجد نفسك تتردد .. ويدك لا تمتد .. وتذكرك لاسم الله يذكرك بقوانين الله فلا تأخذ الرشوة .

وهكذا فى كل أمور الدنيا مادام ذكر الله على لسانك فإنه يمنعك من المعاصى .. سد بينك وبين الآثام .. إذن فأنت إذا تعودت أن تبدأ أى عمل باسم الله استجبت أن تبدأ عملا يغضب الله ، لأنك لا تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله أو أباحه الله .. وهكذا أمرنا أن نبدأ بعد الاستعاذة بالله من الشيطان

أن نبدأ عملنا باسم الله . ومستعينين بالله ولننظر إلى الرحمة من الحق فى قوله تعالى : « **باسم الله الرحمن الرحيم** » . . ولنشرحها شرحا يقربها إلى الذهن . . ولماذا أمرنا الله بأن نبدأ بقولنا باسم الله الرحمن الرحيم .

باسم الله

باسم الله . . أى باسم الإله المعبود . . فنحن نذكر الله سبحانه وتعالى . . وأنه الخالق الذى نعبده . . وعبادة الله تأتى بما أعلمنا به الله سبحانه وتعالى من أوامر بافعل ونواه بلا تفعل . . وإذا أردنا أن نعبد الله فإن لله سبحانه وتعالى قوة وقدرة لا تدركها العقول والأبصار . . ومن هنا شاءت رحمته أن يبين لنا الطريق لعبادته . . فلو تركنا الله لأنفسنا لاختلفنا ولوضع كل انسان طريقة لعبادة الله تتفق مع الهوى البشرى . . ولرأيت طرقا متضاربة وأشياء لا تخطر على البال هذا يشرع لهواه . . وهذا يشرع لهواه وضاعت الحقيقة . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لتبين طريق العبادة للناس . . وقال أنا الله وهذه رسلى . . وإذا أردت أن تعبدنى وتدخل فى طاعتى . . فأنا أريك طريق الهداية . . طريق العبادة . . وهذا طريق الحق . . لماذا ؟ لأننا جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى وهو لا يميز بين أحد منا . . نحن متساوون أمامه . محتاجون لما عنده وهو لا يحتاج لما نملك . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يضع لك طريق الهداية بلا هوى . . بحيث لا يحمل أحدا ما لا يحمله للآخر . . وبحيث لا يختص أحدا بالمحاباة أو التمييز . . وكل المناهج البشرية التى توضع . . أنها يراعى فيها فائدة البشر . . فالإنسان عندما يشرع . . يحاول أن يستفيد هو من التشريع . . يحاول أن يأخذ منك شيئا . . لكن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع فإنه يعطيك ولا يأخذ منك شيئا . . بل يزيدك من فضله . . وهكذا ترى أن التشريع يأخذ من الإنسان . . أماالتشريع الإلهى فإنه يعطى الإنسان ويزيده . . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

إذن فحين نبدأ باسم الله . . يريد الله أن يذكرنا بحقيقتين هامتين . . أولاهما

حق العبادة والشكر . . لأنه مادام الله يعطينا طريق العبادة فى الحياة . . وعطاء العبادة فى الدنيا والآخرة . . وهو لا يأخذ منا شيئا . . وإنما هو يدلنا على الطريق الذى نزداد به من فضل الله فى الدنيا وفى الآخرة . . وكما سبق أن وضحت فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل لنا منهج العبادة وفحسب نظريا . . وإنما يرسل لنا التطبيق العملى . . فيرسل بشرا رسولا ليبين لنا منهج العبادة . . وبشرية الرسول هنا حتمية ليكون من نفس الجنس . . حتى لا نجادل ونقول حملتنا يارب ما فوق طاقة البشر .

الرحمن الرحيم

ويمضى الله سبحانه وتعالى ويقول : « الرحمن الرحيم » . . وذلك ليذكرنا بحقيقة أخرى هامة . . هى أن باب الله سبحانه وتعالى مفتوح دائما . . وأنه إذا كنت قد ارتكبت معصية . . أو ضعفت نفسك فى آثم . . أو نسيت الله فى لحظة . . فإن هذا ليس معناه أن الباب أوصد فى وجهك . . بل الله الرحمن الرحيم يقبل التوبة ويغفر الذنوب جميعا . . ولهذا إذا ارتكبت معصية . . فإياك أن تستحى من أن تعود إلى الله وأن تبدأ باسم الله . . لماذا . . لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد . . ولا يتغير على خلقه . . فالإنسان عندما تعصيه أو تخالف أوامره قد ينفض يده عنك . . وقد ينهى علاقته بك إلى الأبد . . وفى كثير من الأحيان يسعى للإضرار بك . . ولكن الله سبحانه وتعالى إذا عصيته عن ضعف أو نسيان أو زلة . . دون استكبار أو إصرار ، فإنه يفتح بابه لك . . فإذا قلت باسم الله الرحمن الرحيم وعدت إليه . . وجدته رحمانا رحيما . . وجدته يغفر لك المعصية ويزيل عنك الذنب ويطهرك . . لتبدأ من جديد على طريق الله . . إذن فالرحمن الرحيم . . حيثيات اقبال العاصى على أن يعود ويبدأ عمله باسم الله . . حيثيات من الله سبحانه وتعالى . . والذى يريد أن يذكرنا فى كل لحظة أن باب الرحمة مفتوح . . والله سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة أى معصية . . معناها أنه أذن لها أن تقع . . فلو لم يكن علم الله سبحانه وتعالى بأن هذه المعصية ستقع . . ما شرع له العقوبة . . وكما شرع العقاب . . شرع التوبة . . ووضع اسم الرحمن الرحيم . . اشتقها من الرحم وهو مكان الجنين فى

البطن . . ولا يوجد من هو أكثر مغفرة فى الدنيا من الأم بالنسبة لولدها . . فالولد قد يخطىء . . ولكن قلب الأم هو دائما غفور لهذه الخطايا . . ولا تجد أما مهما بلغت من خلق سيىء أو جحد للنعمة أوقلب قاس . . لا تجد أما مهما كان فيها من الخصال لا تغفر لابنها إساءاته وعصيانه . . والله سبحانه وتعالى كلما أعطانا شيئا غيبيا . . وأراد أن يقرب هذا الشىء الغيبى إلى مفهومنا البشرى . . أعطانا مثلا نراه فى حياتنا حتى تستطيع القلوب أن تستوعب . . والعقول أن تعى . . ولذلك حين أراد أن يرحمنا برحمته . . اتخذ الأم وابنها مثلا للمغفرة حتى نعرف أن رحمة الله بلا حدود .



إذن فكلمة رحمن وكلمة رحيم مشتقة من الرحم الذى يعطى الجنين كل ما يحتاج . . ليأخذ منه كل ما يريد بلا مقابل . . فالرحم يعطى للجنين الغذاء . . ويعطيه كل وسائل الراحة . . ولا تأخذ الأم من الجنين شيئا . . فهو يأكل من طعامها ويتغذى من دمها . . ويحصل على كل احتياجاته من جسدها . . وقد يكون على حساب احتياجات الأم نفسها . . فتضعف هى ويقوى هو . . والمهم أن الرحم هو مكان العطاء للطفل بلا مقابل . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا أن قلب الأم مغفرة بلا حدود . . وأن رحم الأم هو المكان الذى ينمو فيه الجنين بعطاء بلا حدود . . علنا بعد ذلك نقترب بأذهاننا من معنى كلمة الرحمن الرحيم . . والله غنى عنا جميعا . . ومادام غير محتاج الينا فهو يعطينا بلا مقابل . . والله غفور رحيم . . رحمته لا تعرف الحقد ولا الضغينة ولا الأنانية . . فسبحانه وتعالى رحمته بلا حدود ولا قيود . . وكلنا فى حياتنا نعيش طامعين فى رحمة الله سبحانه وتعالى نخطىء ونعود إلى حظيرة الله . . ونضعف فيقوينا الإيمان لنتغلب على ضعفنا . . فإذا كنت عاصيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول لك لا تستحى أن تهتف باسمى . . فاننى قد فتحت لك أبواب الرحمة ما يسع ذنوبك جميعا . . وعندما تهتف باسمى حين تبدأ العمل . .

فأنت تمنع عنك غرور النفس . . ولذلك إذا لم تقدر على العمل بذاتك . . فإننى

أعينك عليه بتسخير الأشياء لك فتزداد قدرة على قدرة .. وتحصل على ثواب الدنيا والآخرة .



وبعض الناس يثير فى هذه النقطة جدلا حول صفة الرحمة فى الله سبحانه وتعالى فيقول أنه يأتى بها مرة بصيغة القوة والضعف .. والكثرة والقلة .. فإذا قيل رحمن تصبح مبالغة وإذا قيل رحيم تصبح مبالغة .. وإذا قيل راحم تصبح بلا مبالغة .. ونحن نقول أن صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. فمرة يكون راحما .. ومرة يكون رحمانا .. ومرة يكون رحيما .. وصيغ المبالغة لا تأتى إلا فى الشىء المتغير .





الفصل الرابع

الله لا يتغير.. ولا يتبدل

الله سبحانه وتعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن الذى يحدث فى التغيير أن متعلقات هذه الصّفة هى التى تكثر وتقل . . أنت تقول إن فلانا أكل . . أى أنه تناول طعاماعاديا كسائر البشر ـ ثم تقول أكول أى أنه يتناول من الطعام أضعاف ما يتناوله البشر . . فإذا كان الإنسان يتناول رغيفا فى الطعام . . فإن هذا الشخص الأكول يتناول ثلاثة أو أربعة أرغفة . . فإذا كان يأكل نفس الأرغفة العادية . . ولكنه يتناول الطعام عشر مرات فى اليوم فتكون المبالغة منا فى تكرار الحدث . ويأكل فى كل وجبة رغيفا مثلا ولكنه يكرر ذلك عشر مرات فى اليوم ، فهو أكول . . إذن فالمبالغة تأتى من تكرار شيء عادى . . ومن خروج الشيء عن المألوف ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول « **وما ربك بظلام للعبيد** » . . ويقول « **ولا يظلم ربك أحدا** » . . حينما نأتى إلى هذه الآية الكريمة « **وما ربك بظلام للعبيد** » نجد هنا صيغة المبالغة ـ وقد يتبادر إلى بعض الأذهان مثل المستشرقين مثلا ـ أن الله سبحانه وتعالى . . وقد نفى عن نفسه المبالغة فى الظلم فقال « **بظلام** » . . لم ينف عن نفسه صيغة الظلم . . ويضيف الله سبحانه وتعالى « **ولا يظلم ربك أحدا** » ـ فهو فى هذه الآية قد نفى عن نفسه الظلم تماما . ولكنه فى الآية الأولى نفى المبالغة فى الظلم ، نقول له إنك لم تفهم معنى الآيتين الكريمتين ، الآية الأولى « **وما ربك بظلام** » أقال الله سبحانه وتعالى للعبد . . أم للعبيد . . لو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة العبد بدلا من استخدامه كلمة العبيد . . لقلنا إن الله قد نفى صفة المبالغة فى الظلم عن نفسه . . ولكنه ترك صفة الظلم.. ولكن قوله سبحانه وتعالى « **للعبيد** » . . معناها أن الحدث هنا متكرر . . فلو أن الله لا يبالغ فى الظلم . . ولكنه يظلم كل فرد من عباده مقدار ذرة ـ لكان بذلك تبارك وتعالى « **ظلاما** » . . لماذا ؟ . . لأنه كما قلنا تكرر الحدث مرات . . ومن هنا تأتى صيغة المبالغة مهما كان الحدث ضعيفا . . لأن المبالغة هنا لا تأتى من الحدث نفسه . . ولكنها تأتى من التكرار .

ومن هنا إذا ظلم الله كل إنسان ذرة . . فإن تكرار الحدث مع هذا العدد الهائل يصبح من صيغ المبالغة . . ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينفى هنا

انه يظلم أحدا من عباده ولو مقدار ذرة . . لذلك فهو يقول « **وماربك بظلام للعبيد** » . . أى أنه لا يظلم إنسانا ولو ذرة واحدة . . ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى هنا صفة المبالغة . . لماذا ؟ لأن متعلقات الصفة مجموع هائل من البشر . . ولكن قول الله سبحانه وتعالى « **ولا يظلم ربك أحدا** » . . هنا جاءت بصيغة الفرد . . فكأنه نفى الظلم بصيغة المبالغة .

الصفة لا تتغير

ولذلك فإن استخدام الله سبحانه وتعالى للحفظ « ظالم » ولفظ « ظلام » . . ليس معناه أن تتغير علوا وضعفا . . لأن الكمال لله سبحانه وتعالى . . ولكن معناه أن الذى يتغير هو متعلقات الصفة . . فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن ينفى وقوع أى ظلم على عبيده الذين هو قادر عليهم جميعا . . فيجب فى هذه الحالة أن تتناسب الصفة مع العدد الذى يقدر عليه الله وهو كل خلقه . . ولذلك يجب أن تنفى بصفة المبالغة . . لأن الله سبحانه وتعالى . . لو أصاب عباده كل مجموع بذرة واحدة من الظلم لكان ظلاما . . والله سبحانه وتعالى ينفى هنا حتى مجرد مظنة الظلم .

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول راحم ورحيم . . فتلك تتعلق بصفات الرحمة . . فهو فى الدنيا يرحم المؤمن والكافر . . فيسخر ما خلقه للبشر جميعا . . فالشمس حين تعطى أشعتها لا تفرق بين مؤمن وكافر . . بل هى تعطيها للجميع عطاء ربوبية . . والأرض حينما تنفعل وتخرج لك الزرع . . هى لا تفرق بين المؤمن والكافر . . ولذلك فهى تعطيها عطاء متساويا . . فلا تقول هذا مؤمن يقوم بزراعتى فسأعطيه الثمر . . وهذا كافر سأحرمه من ثمره . . أو تقول هذا المؤمن سأعطيه أضعاف هذا الكافر . . ولكنها تنفعل للاثنين معا . . وباب الرحمة والتوبة مفتوح فى الدنيا للعاصى .

إذن فصيغة الرحمة هنا لابد أن تكون بصيغة المبالغة . . لأنها تشمل الخلق

كلهم .. المؤمن منهم والكافر .. العاصى منهم والمطيع .. ولكن إذا أتينا للآخرة مثلا .. نجد أن الله يطرد من رحمته العاصين والكافرين .. ولا تشمل رحمته إلا عباده المؤمنين .. هنا فى هذه الحالة قلت متعلقات صفة الرحمة .. وإن كانت الصفة نفسها لم تتغير ولم تتبدل .. هكذا فى كل صفات الله جل جلاله .. كلما شملت الصفة عددا هائلا جاءت بصيغة المبالغة فإذا كانت متعلقات الصفة عددا محدودا فلا مبالغة .. والصفة لا تتغير ولكن متعلقاتها .

والحق عز وجل طلب منا حين نبدأ فى قراءة القرآن وفى كل عمل .. أن نبدأه **« باسم الله الرحمن الرحيم »** .. بسم الله الذى سخر لنا الأشياء ، ولولا تسخيرها لنا لما استطعنا أن نسخرها لأنفسنا ، وإذا كان بعض الناس لا يفطن إلى تسخير الله لما فى الكون .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بذلك دائما حتى لا ننسى .. ولكن لماذا ننسى ؟ لأن رتابة الأشياء تجعلنا نحس أنها حق مكتسب لنا فى الحياة .. فالشمس تشرق كل صباح .. ولكن من منا يفكر وقت شروق الشمس أن الله سخرها لنا من سبل الحياة فى الكون .. الشمس تشرق كل يوم .. ولا نحس أن ذلك إلا من رتابة الكون ونظامه دون أى تفكير .

إن الإنسان لو فكر فى أن هذه الشمس التى تشرق كل صباح هى نعمة من نعم الله التى سخرها لعباده .. وأنه لا أحد يستطيع أن يسخر الشمس للخلق إلا الله سبحانه وتعالى .. ما وجد فى الدنيا كافر .. لأن الشمس تشرق كل يوم باذن ربها .. لتذكره بنعمة الله عليه وتسخيرها له .. وكذلك القمر .. وكذلك النجوم .. وكذلك الأرض .. وكل ما تعطى من عطاء للبشر .. الأرض التى ذللها الله سبحانه وتعالى للإنسان وكذلك الأنعام التى تدر لنا الألبان .. ونستخدمها فى أشياء كثيرة .. ولكن الإنسان ينسى هذا .. فإذا ركب الطفل الصغير حصانا أو جملا فاننا نقول إن الطفل يقود الجمل .. وذلك ما يقال فى الدنيا جوازا .. ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ذلل الحصان أو الجمل للإنسان .. فاستطاع هذا الطفل أن يقوده .. ذلك أن هذا الحصان أو هذا

الجمل .. هو أقوى من الطفل عشرات المرات .. ويستطيع أن يتغلب عليه أو يفتك به .. ولكنك تجده مع ذلك طائعا ذليلا للإنسان .. هذه الطاعة ليست للبشر .. وإنما لأمر الله فى التسخير للبشر .. فهذا الجمل لا يخضع للطفل الصغير خوفا منه .. ولا عن عدم قدرة .. ولكنه يخضع له لأن الله أمره أن يخضع فخضع .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى هذه النعمة فى الكون .. فجاء ببعض الحيوانات التى خلقها .. ولم يجعلها مذللة للإنسان بل تركها غير مسخرة له .. جاء الله فى الكون بعدد هائل من هذه الحيوانات أخضعها للبشر وذللها لهم .. وبعدد قليل منها لم يذلله مثل الثعبان والعقرب الحيوانات المفترسة التى يخشاها الناس ويهابها لأنها تلحق الضرر بهم .. ورغم مرور مئات الألوف من السنين .. وربما ملايين السنين فإن هذه الحيوانات ظلت لا تخضع لبشر .. ولا يستطيع إنسان أن يستأنسها ويستخدمها .. فلا نجد إنسانا مثلا يستطيع أن يستخدم الأسد فى جر المحراث .. أو يستطيع أن يستخدم النمر فى دوران الساقية رغم أنهما أقوى من البقر .. لماذا ؟ حتى إذا جاء إنسان وحاول وقال أنا سخرت هذا واستخدمته لنفسى وذللته .. فاننا نقول له إذا كنت قد فعلت ذلك .. فذلل لنا العقرب وابعد عنا سمها .. وذلل لنا الثعبان أو الأسد أو النمر إلى غير ذلك من الحيوانات المفترسة غير المذللة للبشر .. حينئذ سيعجز تماما إذا أنت لم تستطع أن تذلل العقرب على ضآلة شأنه .. والثعبان على صغر حجمه فكيف تستطيع أن تذلل الجمل أو الحصان على قوتها وكبر حجمها وقدرتها على الفتك بك .. إنك لم تذللها .. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخرها لك .

نقول .. لا

ولكن بعض الناس يثيرون هنا نقطة هامة .. فالحيوانات المفترسة يأتون بها إلى السيرك .. ويقوم الإنسان بواسطة الكرباج أو التخويف بتدريبها بحيث تطيعه .. أفلا يعتبر هذا تذليلا .. نقول لهؤلاء .. لا .. لا يعتبر تذليلا ..

لأن هذه حالة فردية تتوقف على مهارة المدرب وموهبته وقدرته على اخضاعه الأسد الذى أمامه فقط . . وفى كثير من الأحيان يقوم الأسد بافتراس مدربه . . ولكن هل يستطيع المدرب أن ينقل هذا إلى جنس الأسد عامة . . وهل استئناس هذا الأسد إن كان يصح أن يقال ان هذا استئناس . . هل ينتقل هذا الاستئناس إلى ذرية الأسد بحيث تولد الذرية خاضعة للبشر . . الجواب طبعا لا . . إذن لا هو استئناس للجنس على اطلاقه . . ولا هو استئناس ينتقل إلى ذريته بحيث تولد هذه الذرية خاضعة . . ولكنه حالة فردية لا يمكن القياس عليها . . وكما قلت فى أحيان كثيرة . . قد يفترس الأسد مدربه . . وبهذا ينهدم القول بالاستئناس . . إذن كل ما يحدث بالنسبة لاستئناس حيوانات مفترسة . . هو حالات فردية تتوقف على مهارة المدرب . . فاذا فقد المدرب مهارته أو غفل عنها لحظة افترسه الأسد أو النمر . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد أطلق لنا الحيوانات على اطلاقها فكل بقرة تولد ذلولا . . وكل جمل يأتى إلى هذه الدنيا . . هو خاضع للبشر مذلل له . . وكل حصان يستطيع الطفل الصغير إذا دربته أن يقوده . . وهذه ليست حالات فردية ولكنها عامة . . تخضع لعموم التكليف وتنتقل وراثيا من الأب والأم إلى الجنس كله ، وهذا هو التذليل الحقيقى والتسخير الذى يحمل آية من آيات الله للبشر . .

وحين نقول باسم الله نستعين بالذى سخر لنا كل شيء فى هذه الدنيا وأخضعه لنا . . ولكن الإنسان لا ينتبه للخطر ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف . . فأنت مادمت تتمتع بالصحة لا تشعر انك تتمتع بشيء . . انك تأخذ هذه النعمة على أساس المألوف . . فهناك ألفة بينك وبين الصحة والعافية تجعلك لا تحس بقيمتها . . فإذا اعتلت صحتك أو مرضت . . فى هذه اللحظة تعرف معنى النعمة . . وتتنبه إلى ما أعطاه الله لك . . إنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء أخرج هذا البصر عن مألوف عمله . . فأصبحت لا ترى كالمعتاد . . أنت لا تحس بقلبك إلا إذا مرض واختل . . وبأذنيك إلا إذا أصاب سمعك شيء . . وبيديك إلا إذا وجدت صعوبة فى أن تستخدمها . . وبقدميك

إلا إذا فقدت القدرة على المشى . . حينئذ فقط تحس . . والإنسان يكون فى حياته أقرب إلى الله حين يمرض . . ذلك أنه فى تلك اللحظة التى غادرت فيها العافية جسده . . أحس بنعمة الله . . وكلمة (آه) التى يقولها الإنسان حين يتألم . . كلمة فطرية يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذى وهب . . وهو الذى يستطيع أن يشفى . . فإذا ما استرد الإنسان صحته استرد معها انعدام الاحساس بالنعمة . . فبقاء النعمة يجعلنا ننساها . . ولكن خروجها عن المألوف يجعلنا نحس بها . . ولذلك لولا تلك الأحداث والأزمات التى تمر بنا . . الكثير منا فى حياته وهو لا يحس بنعم الله عليه . . والله سبحانه وتعالى كما وضع فيما سخره لنا من مخلوقات . . وضع فيها الدليل على نعمته مثلما تناولناه حول الحيوانات التى أخضعها الله للإنسان والتى لم يخضعها . . كذلك وضع فى البشر أشياء تذكره بالنعمة . . ولقد وضع الله هذه الأشياء بأعداد قليلة . . وأعطى أصحابها ما يعوضهم عما فقدوه . . فمثلا نأتى إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص . . فنجد عشرة أو أكثر من ذلك قليلا من المكفوفين . . وبعض الناس قد فقد عينيه أو احدى قدميه أو ما شابه هذا . . شواذ فى الوجود . . وقلة القليل فى الخلق . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد وضعها ليذكرنا بنعمته علينا . . حتى لا نقول إن هذا الوجود وجود آلى . . أو ميكانيكى . . واننى حين خلقت سليما معافى قد حققت ذلك بذاتى . . فيوجد الله فى القربة رجلا فاقد البصر ليقول لى أنت لم تحقق لذاتك نعمة البصر . . وإنما أنا الذى حققتها لك . . وإذا نسيت فإن هذا يذكرك . . وإذا اعتقدت انك أنت الذى أوجدت القدمين السليمتين . . والساعدين القويين فالله يذكرك بأن هذه نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى عليك . . وفى نفس الوقت فإن الإنسان الذى فقد جزءا من نعمة الله عليه بالسمع أو بالبصر أو بالحركة . . يوجد له الله من يقوده فى حركته فى الحياة . . ومن يعوضه عن هذا العجز . . فالضرير مثلا أو فاقد البصر . . يعطيه الله ذاكرة لا تخطىء . . ويعطيه فوق ذلك عطفا من البشر لا يحصل عليه إنسان سليم معافى . . وييسر له من الأمور ما تعلمه أنت وما لا تعلمه . . والمهم فى هذا كله أن الله يجعل حياة مثل هذا الشخص ميسرة . . بالقدر الذى يعوضه عما فقد .

وهكذا يأتى فقدان اى إنسان لنعمة من النعم تذكره بباقى نعم الله سبحانه وتعالى . . تلك النعم التى يأخذها كل إنسان على أنها حق مكتسب ولا يتنبه إليها . . ولذلك تأتى لفتة من الله يرى فيها الإنسان شخصا آخر فاقدا لهذه النعمة فيتذكر فضل الله عليه .

والأشياء الموجودة فى الكون والتى تخرج عن مألوف الخلق هى وسائل إيضاح لنعم الله سبحانه وتعالى يهز الإنسان من داخله . . ولقد رأينا ونرى كل يوم نوابغ فى كل علم . . من أولئك الذين حرمهم الله نعمة من النعم . . فلكل واحد من هؤلاء نبوغ لا يتوافر لغيره . . وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع معين . . فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم . . وعدد من المصابين بعاهات مثل شلل الأطفال وصلوا إلى مناصب رؤساء دول ، وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب . . كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر .

وإذا تأملنا فى أشياء كثيرة فى الكون . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع الأقوى للأضعف بقدرته ـ فمثل الطفل والجمل والحصان يعطينا صورة لذلك ـ ومثل العقول الالكترونية التى تفوق قدرة عقول الانسانية فى عدد من العمليات الحسابية .

نقول أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع هذا الكشف للعقل البشرى . . ليدلنا على أن الكشف العلمى هو من الله سبحانه وتعالى . . فلذلك يسر لعقل البشر أن يخترع آلة تفوقه فى الدقة . . إذن فعدل السماء مطلق فيما أعطاه الله للانسان . . ولكل واحد منا نقطة يتميز بها عن غيره من البشر ، ونعم الكون سواء كانت من خلق الله . . أو مما كشفه الله من علم للعقل البشرى كلها تحمل الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق . . وهو الذى أعطى . . ولو كان العطاء عطاء بشريا لاستطاع البشر أنفسهم أن يخضعوا تلك النسبة القليلة من الشواذ للاطار العام للخلق . . ولذلك إذا كان للكون نظامه العام الذى

يألفه الإنسان حتى يعتقد زيفا أنه ليس وراء هذا الوجود خالق أو مدبر . . يأتى الله سبحانه وتعالى ليخرج أشياء بسيطة عن النظام العام . . لتذكر الخلق بالخالق .

ومن رحمة الله أن يحدث هذا بنسبة تافهة لا تذكر . . بهدف التذكير بالقدرة الالهية . . وإن هذا الكون ليس موجودا تلقائيا . . فالكون لا يخضع لأحد أبدا إلا لخالقه . . فعندما تبدأ العمل باسم الله . . فانك تجعل قدرات الله معك فلا تخشى شيئا . . ولا تخاف أحدا . . وحين نستعين بالله من الشيطان الرجيم . . نستعين بالخالق من خلقه . . وهنا لا يقوى الشيطان ولا يجرؤ على أن تكون له مواجهة . . فمادمت فى معية الله . . فلا يجرؤ ابليس أن يذهب إليك .

حكمة الغار

ولعل فى قصة الغار الذى التجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة . . التجأ هو وأبو بكر رضى الله عنه إلى غار ثور واختبآ داخله . . وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار . . وملأ الخوف قلب أبى بكر من أن يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ايدى الكفار . . وقال لو نظر أحدهم تحت قدميه لشاهدنا . . وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعا . . فالكفار يقفون عند مدخل الغار . . والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى داخله . . ونظرة واحدة من الكفار داخل الغار تفضح الأمر كله . . فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رفع الأمر إلى الله . . وقال لأبى بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) . . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة بقول الله سبحانه وتعالى **« لا تحزن إن الله معنا »** .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . وهو وأبو بكر فى معية الله . . وأصبح هنا قول أبو بكر لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . . هو قول يعتمد على الذاتية البشرية . . ولكن قول الرسول صلى الله عليه وسلم (**لا تحزن إن الله معنا**) . . معناه أنه بقدرة البشر . . إنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا . . ولكننا ما دمنا قد رفعنا الأمر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى

ستزيغ أبصارهم فلن يرونا . . وحتى لو نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا . . فنحن لا نحفظ أنفسنا . . وهكذا جاءت هذه الآية لتبين لنا . . كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة . . وإننا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور . . وتنطبق نفس الحكمة على تنزل القرآن وهو ما سبق أن ذكرناه بالتفصيل . . فمحمد صلى الله عليه وسلم حين قال له « **إقرأ** » . . كان يقول له أنا لا أريدك أن تقرأ بالأسباب ولا بما تعلمته . . ولكن « **اقرأ باسم ربك** » . . وهنا نقل القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس لقدرته حدود ولا قيود . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسول الله أنا لا أريدك أن تقرأ بما تعلمته من البشر . . ولكنك ستقرأ بما ستتعلمه من خالق البشر . . إذا أراد أن يقول لشيء كن فيكون .

والله تبارك وتعالى يخبرنا فى سورة الكهف . . ان الاعتراف بفضل الله . . هو للنعيم . . فيقول الحق سبحانه وتعالى « **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه** » . . والقول هنا أنه حينما دخل جنته أو حديقته ووجدها مثمرة يملؤها الثمر . . مخضرة جميلة . . فى هذه اللحظة اغتر بقوته أو بعلمه . . وساعة حدث هذا الغرور ظلم الإنسان نفسه . . لماذا ؟ . . لأنه نسب إليها الفعل دون أن يذكر قوة الله . . وحين يحدث ذلك يتخلى الله عن هذا الإنسان . . ويتركه لذاته . . ليضيع فى الدنيا . . ولذلك فهو ظلم نفسه لأنه جردها من عون الله لها . . ورمى كل الثقل عليها .

وتمضى السورة الكريمة إلى قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

(سورة الكهف)

وهنا يكون قد دخل نفسه مدخل الشيطان الذى دخله لآدم . . إستذله الشيطان بأن قال له . . « **قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك**

لا يبلى » . . وهذا الإنسان وسوست له نفسه بأن هذه الجنة لن تبيد . . أى لن تنتهى وتذهب . . أى أنها ملك لا يبلى . . وأضاف «وما أظن الساعة قائمة » وهكذا أعطى لنفسه الخلد من أن الساعة لن تأتى . . وأنه سيظل خالدا هو وحديقته هذه . . بماذا رد عليه الإنسان المؤمن .

رد قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد غاب عليه أنه فى هذه اللحظة التى يتمتع فيها بمثل هذه النعم نسى الله . . فنسب الشيء إلى نفسه . . وقال له لولا أن قلت وأنت تدخل هذه الجنة : ما شاء الله وأنه لا قوة إلا بالله . . فلا تنسب القوة إلى نفسك . . حينئذ ماذا حدث . . « أحيط بثمره » . . فانتهت الحديقة وأصبحت خرابا .

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) ﴾

(سورة الكهف)

فى اللحظة التى نسى فيها الله ـ تخلى الله سبحانه وتعالى عنه . . وتركه لقدراته . . فهلكت الحديقة وذهب عنها الماء وانتهت الخضرة وضاع الثمر . . وأصبحت خاوية وتركه الله ليصلحها بقدراته هو ومن معه دون عون من الله سبحانه وتعالى . . ولكنه لم يجد من نصره من دون الله . . ولو أنه رفع الأمر إلى قدرة الله لبارك الله له فى رزقه وفى زرعه .

قصص القرآن

والقصص فى القرآن الكريم لا يتناول أشخاصا بذواتهم أى أن هذه القصة وكل قصص القرآن الكريم . . إنما هى عبرة عامة وموعظة تتكرر فى كل

عصر . . ما عدا قصة مريم عليها السلام . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لتعرف أشخاصهم . . بل اكتفى باسم واحد عام . . ففرعون مثلا هو كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلها يعبد فى الأرض . . وصاحب الجنة فى سورة الكهف . . هو كل من ينسى الله وينسب الفضل إلى نفسه . . ولذلك فإننا نعيب على بعض الناس فى البحث عن من هو فرعون موسى . . أو من هو ذو القرنين . . ونحن نقول إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة والعظة . . ولذلك عندما جاء الله سبحانه وتعالى إلى سورة مريم عليها السلام . . قال مريم ابنة عمران . . ولم يقل مريم فقط . . لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة المقصود مريم ابنة عمران بالذات . . وان هذه القصة لن تحدث لغيرها . . كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام . . هو عيسى ابن مريم بالذات . . وليس أى إنسان آخر . . فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو عيسى ابن مريم . . ومريم ابنة عمران . . أما باقى قصص القرآن فالذى يجب أن نستخلصه منه هو العبرة والعظة دون أن نتعب أنفسنا فى البحث عن علم لا ينفع . . أو جهل لا يضر . . فما الذى يتغير فى قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا أن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثانى أو رمسيس الثالث . . ليس هذا هو المهم .

ولكن المهم أن تعرف العظة . . مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلها من دون الله فى الأرض . . وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم . . ولذلك فإننا يجب أن نستخلص العبرة من قصص القرآن الكريم . . ولا نضيع الوقت فى معرفة أصحاب هذه القصص فى التاريخ .

الله يتكلم

وحين يقرأ القرآن الكريم من أى قارىء . . يجب أن يتصور المؤمن أنه يسمع الله يتكلم . . ويلغى المتكلم الوسيط . . ولذلك حين نقول باسم الله أو نبدأ أعمالنا باسم الله الرحمن الرحيم . . لابد أن ننسب الكلام إلى المتكلم . . فأنت

حين يأتى إليك إنسان فى أمر من الأمور ويريد منك تنفيذه . . فسألته باسم من تتكلم . . فتجد أنه إذا كان عاديا قال باسم وكيل النيابة أو باسم وزير الداخلية مثلا . . ثم إذا ارتقى فى المقام تكلم باسم الشعب . . أو باسم الدستور . . وأنت تطيع المتكلم عندما ينسب الكلام إلى المصدر الذى يعطيه القوة . . فإذا قلت باسم الله نسبت الفضل له . . ومن الذى يعطيك فى هذه الحالة القوة . . إنه الله الذى ليس كمثله شيء . . والذى يقول للشيء كن فيكون .

عندما تبدأ قراءة القرآن . . فإنك تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . ثم تبدأ القراءة باسم الله الرحمن الرحيم . . وحين تبدأ أى شيء باسم الله . . فإنك تنقل الأمر من قدرتك إلى قدرة الله . . فيكون الله سبحانه وتعالى يسخر ما لا يستطيع تسخيره . . وييسر لك الأمر . . ويبارك لك فيما تفعل . . فأنت إذا كنت فلاحا وذهبت لتحرث الأرض لتعطى لك الزرع . . فلابد أن تتذكر أولا أنك لم تخلق الأرض . . ولا خلقت عنصرا من عناصرها . . وأنت لم تخلق البذرة التى وضعتها فى الأرض . . فهذه من خلق الله . . جاء الإنسان إلى الدنيا فوجد الله سبحانه وتعالى قد أعدها له . . وأنت لم تخلق المياه التى نزلت من السماء . . ولم تنزلها فى هذه البقعة بالذات . . والدليل على ذلك أن العالم مليء بالصحارى . . بينما مناطق أخرى تصيبها الفيضانات من كثرة الأمطار . . ولو كنت الذى فعلت هذا لاستطعت أن تروى الصحراء . . وأن توجد البحار والأنهار . . ولكنك لم تستطع . . وكل ما يقال مخالفا لذلك . . هو ظن . . وليس علما ولا حقيقة . . فلا أنت خلقت البذرة . . ولا أنت أنزلت المياه . . كل ما فى الأمر . . أنك أعملت فكرك المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة المخلوقة من الله .

علمك محدود

إذن فعلمك هنا محدود . . محدود . . ولذلك حين تقبل على الزراعة . . إذا لم تبدأ باسم الله . . لنسبت الفضل إلى غيره . . وبالله عليك لو أنك لم تبدأ

باسم الله . . باسم من تبدأ . . باسمك أنت ، وأنت لا قدرة لك على خلق الأرض . . ولا انزال المطر . . ولا إيجاد البذرة . . لا قدرة لك على أن ترغم الأرض أن تنبت . . ولا أن تخلق أرضا غير تلك التى خلقها الله لتزرعها . . ولا أنت تستطيع أن تخلق بذرة من عدم . . ولا أن تنزل الماء . . فما هى قدرتك التى تبدأ بها . . وأى قدرة تلك التى تدفعك أن تستغنى عن الله سبحانه وتعالى لتنسب الفضل لنفسك . . لا توجد قدرة انسانية تستطيع أن ترغم عملا من الأعمال فى الدنيا على أن ينفعل بها . . هناك أشياء سخرها الله للإنسان . . وما سخره الله لك يخدمك بدون جهد منك . . وأحيانا بجهد ضئيل حتى تستمر الحياة والعمل .

وفى الدنيا أشياء كثيرة لا تدخل فى قدرتى وقدرتك . . ولا فى طاعتى وطاعتك . . الشمس لا يستطيع أحد أن يأمرها أن تطلع أو تغيب حسبما يريد . . والقمر لا ينفعل بأوامر أهل الأرض أن يظهر أو لا يظهر . . والسحاب يمشى حيث يشاء الله لينزل المطر حيث يريد . . والهواء موجود فى الأرض سواء قلت له استمر أو طلبت منه أن يختفى ـ هذه الأشياء كلها سخرها الله سبحانه وتعالى لك . . فأنت حين تبدأ باسم الله . . باسم الخالق الذى سخر لك كل هذا . . وما كنت تقدر أنت بقدراتك على أن تسخرها . . أنت فى هذه الحالة تبدأ باسم الذى جعل هذه الأشياء تنفعل لك . . وأحيانا تنزل إلى المنفعل بك فلا تجد قدرة لك عليه . . الأرض تنفعل لك لأن الله قد سخرها . . ولكن فى بعض الأحيان ورغم التكنولوجيا الحديثة لا تنفعل لك . . دول كبرى متقدمة تنظر إلى علمها وإلى تخلفنا فى العلم بحسد شديد . . وتقول أنها تقدمت وفعلت كذا وكذا . . وكذا . . ثم بعد ذلك نفاجأ بنقص شديد فى أحد محاصيلها الزراعية . . وهذا يحدث ونسمع عنه بين حين وآخر . . وعندئذ نتساءل . .

برغم العلم والتقدم لم تستطع هذه الدول أن تجعل الأرض تنفعل لها بنسبة مائة فى المائة . . لماذا ؟

الأسباب .. والقدرة

وهذه النقطة تحتاج إلى شيء من الايضاح .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون .. وجعل من قوانين الحياة أنها تتم بالأسباب .. من يزرع الأرض ويهتم بها ويبحث عن آيات الله فيها .. تنفعل له .. سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فالله سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعا .. وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها .. والقوانين التى تحكمها .. والله سبحانه وتعالى حين قال كلمة « كن » .. تم الخلق فى نفس اللحظة .. ولكن لأسباب تفاعلت فى السموات والأرض فى ستة أيام .. وهى ستة أيام كأيام البشر .. لأن القرآن يخاطب الإنسان .. ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى العقل البشرى .. سواء كان ذلك حاضرا أو مستقبلا .. مما يخفى على عقولنا الآن .. ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على قدرة الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض .. لعبد الناس الأسباب وحدها .. ونسوا المسبب أو الخالق .. ولذلك بقيت طلاقة القدرة فى الكون .. لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته .. ولكنه يفعل ما يشاء .. ووقتما يشاء .. ولكن طلاقة القدرة لا تحدث إلا بين حين وآخر .. لأنها ليست قانون الأرض .. ولا هى وسيلة الحياة فيها .

إذا حدثت طلاقة القدرة كل يوم انتفت الأسباب .. ولم يعد لقانون الدنيا وجود .. ولكنها تأتى لفتة .. وهى فى مجيئها مكلفة من الله سبحانه وتعالى .. تكون مؤثرة حتى يحسها الإنسان ولا تمر مرورا عابرا .. لذلك نأتى ونجد أن محصول الحبوب فى دولة كبرى تأخذ بالتكنولوجيا الحديثة قد انخفض أو اصابته كارثة .. ومعنى هذا أن الأرض قد رفضت أن تنفعل بالأسباب ونتساءل نحن .. إن الأرض هى الأرض .. والطرق العلمية هى الطرق العلمية .. والماء هو الماء .. فما الذى تغير .. ؟

أقول أنها لفتة من الله سبحانه وتعالى حتى لا نعبد الأسباب ونترك الله ..

ولكن حتى هذه اللفتات .. يحاول الإنسان بقدر طاقته أن يجعل لها قوانين سببية .. مع أنها جاءت لتلفت الناس إلى القدرة الالهية التى هى فوق الأسباب .

يرزق من يشاء

وهذا الحديث قد لا يعجب أناسا كثيرين .. من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية .. ذلك أنهم ينسبون إلى الاسلام .. أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة .. ويرددون قول الله تبارك وتعالى « ... **ويرزق من يشاء بغير حساب** » .. على أساس أنه مدعاة ودعوة صريحة لعدم العمل .. فإذا كان الله يرزق من يشاء وبغير حساب .. فلماذا العمل والتعب .. ولماذا السعى وراء الرزق .. مع ما يورثه للنفس من مشقة .. وقبل أن أجيب على هذا السؤال لابد من ايضاحين :

الايضاح الأول أنه إذا كانت طلاقة القدرة تعطى .. فإنها كما أوضحت لا يمكن أن تصبح قانون الكون .. لأن طلاقة القدرة هى قانون الآخرة .. وليست قانون الدنيا .. ففى الآخرة يأتيك بمجرد أن يجول فى خاطرك أو تفكر فيه .. لا عمل فى الآخر ولا سعى .. وإنما عطاء من الله بلا حدود ولا قيود .. أما فى الدنيا فهناك قانون الأسباب .. ومعه طلاقة القدرة .

والايضاح الثانى أن لكل إنسان رزقا قد لا يعلمه .. وإذا كان الكافر يحدد الرزق بالمال وحده .. فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من الله سبحانه وتعالى .. فحب الناس لك رزق .. والبركة فى بيتك رزق .. والبركة فى صحتك وأولادك رزق .. إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق .. نعود مرة أخرى إلى نهاية الآية الكريمة « **يرزق من يشاء بغير حساب** » .. لنطرح قضية هامة معاصرة تفيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله .

الذين يطعنون فى هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها . . فكل رزق عندهم مساو للعمل الذى يتم من أجله . . فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك . . وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك . . وهكذا تلك هي القاعدة التى يتبعونها . . كل رزق مساو للعمل .

المسبب . . والأسباب

نقول لهؤلاء الناس إن هذا قد يكون صحيحا لقاعدة عامة . . ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . ولنلاحظ فى نهاية الآية الكريمة « من يشاء » . . ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب . . ولكن كل رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله له من عمل وجهد . . وتبقى المشيئة أو طلاقة القدرة تعطى بغير حساب وبغير أسباب . . وإذا نظرنا إلى دول البترول مثلا . . تلك التى تملك القوة الحقيقية فى المال أو فى الرزق فى العالم كله . . إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس فى العالم كله رزقا ومالا . . بل هم فاقوا فى الرزق . . تلك الأمم التى فاقتهم فى العمل وفى العلم . . فأصبحت تتجه إليهم ليدعموها فى الرزق كأمريكا وأوربا الغربية وهم أكثر عملا وعلما . . تتجه إلى دول البترول لتقترض منها الملايين لتدعم دول . . وتحاول أن تجذب أموال دول البترول إلى بلادها . . بل أن دول البترول . . تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان . . إذا هى سحبت دعمها الاقتصادى لها . . وأوقفت تعاملها معها . . فالذى يملك القوة الاقتصادية فى العالم هو دول البترول التى لا تتحكم فى رزقها فقط . . ولكن فى اقتصاد العالم كله . . بشهادة غير المؤمنين والماديين فى هذا العالم .

وإذا قلنا أن دول البترول قد وصلت إلى المركز التى يتحكم فى اقتصاد العالم أجمع ، فلابد أنها قدمت حسب النظرية المادية السببية من العلم والعمل . . ما قدمته دول العالم أجمع . . وهذا غير صحيح . . بل إن بعض هذه الدول

تعمل على استخراج البترول منها .. شركات غربية من الدول التى تخضع اقتصاديا لدول البترول .. والعمل الذى تم .. تم بواسطة خبراء وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى .. فكيف يحدث هذا إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى « يرزق من يشاء بغير حساب » .. ولقد شاءت قدرة الله أن يتم ذلك فى أمة اسلامية ، ويكون برهانا صادقا على كلام الله .

ولو أن القاعدة على إطلاقها .. أن الأسباب هى التى توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث .. ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم .. وفى زمن قياسى لا يستطيع العلم والعمل خلاله أن يعطيا بهذه الوفرة وبهذا السخاء .. ذلك لكى تتطور دولة أو عدة دول لتصبح أغنى دول العالم .. فإن ذلك يتطلب بجانب العلم والعمل فترة زمنية طويلة .. ولكن هنا لا الزمن ولا العلم ولا العمل يتناسب مع الرزق .. إذن من الذى أوجد هذا الرزق ؟.. ومن الذى أعطاه ؟.. الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة « ... يرزق من يشاء بغير حساب » .. ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر ومقاييس العلم والزمن .. نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك .. فقد أتينا لك بمثل من العصر الذى تعيش فيه .. ولم نأت لك بمثل من التاريخ .. حتى لا نقول حكاية مكذوبة أو أسطورة من الأساطير .

ولم نأت لك بنبوءة .. حتى لا تقول غيب لن يحدث .. ونحن نقول لك قبل أن تتسرع فى اتهامك .. تأمل الكون .. تجد فى كل مكان لله رزقا بغير حساب .. هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيدا .. لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وكيفما يشاء .. وأنه إذا كانت الأسباب موجودة .. فإن طلاقة القدرة موجودة منذ خلق الله الأرض .

الاستعانة بالقدرة

إذن فبداية العمل باسم الله .. هى استعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى فى

الكون . . ورد الفعل إلى الفاعل الذى يحدث أن الأسباب المادية تعطينا ظاهر الحياة الدنيا وتنظيم سيرها العادى . . ولكن نسبة العمل إلى الأسباب وحدها تبعدنا عن الله سبحانه وتعالى . . ولقد مكن الله بعض خلقه من الأسباب فى الأرض . . ليسير فى الكون . . وتمضى الحياة . . فهذا رئيس الدولة . . وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان . . وهذا ميسر له أسباب المال إلى آخر ما نراه فى الدنيا . . وجعل الله العطاء ظاهرا فقط من هذه الأسباب ليسير الكون . . ثم ماذا حدث ؟ . . كانت هذه الأسباب أو حاول بعض الناس الماديين أن يتخذوا له ما يطلب . . وهذا يملك الجاه والسلطان . . وهو ظاهرا يستطيع أن يعطينى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله . . وأنهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل مال . . أو جاه أو سلطان . . لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون لأصل إلى ما أريد . . فلو قالوا اقتل . . لقتلت . . ولو قالوا أظلم . . لظلمت . . ولو قالوا إفعل كذا وكذا مما يغضب الله . . لفعلت . . إحساسا منى فى أن عطاء الأسباب فى يد هؤلاء وحدهم . . وأن مخالفتهم ستؤدى بى إلى الحرمان من مقومات الحياة . . وأن طاعتهم ستعطينى الحياة الرغدة التى أتمناها . وهكذا وبغير نظر إلى ما قال الله . . افعل . . ولا تفعل . . انطلق لأحقق هوى وشهوات البشر . . ولو كانت تغضب الله . . وهكذا يصبح الهوى الشخصى والغرض البشرى هما أساس الحياة فيفسد الكون كله . . ويصبح الحكم هو شهوة الحاكم . . وليس دين الله .

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها . . وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال وتضييع موازين العدل . . وتكثر من البغى والفساد فى الأرض . . وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيهاالظلم . . وعم فيها الارهاب . . وضاع فيها الحق . . واستعبد الإنسان .

نســـوا الله

إن إطلاق الأسباب وحدها فى الكون يؤدى إلى عبادة الفرد .. وذلك يؤدى إلى ظلم عظيم .. ولذلك كان لابد من طلاقة القدرة لتصحح المسيرة وتفيق الناس .. وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب ويستطيع كما أعطاها أن يأخذها .. وأن العبادة لله وحده .. فمن ترك المسبب وعبد الأسباب .. فقد ضل ونسى الله .. ولذلك فنحن نتعجب من ضعيف لا حول له ولا قوة يمكنه الله من قوى .. ومن كان يملك الجاه والسلطان ثم أصبح طريدا يبحث عن إنسان فلا يجد حتى من يصافحه .. ومن ينتقل من الحكم إلى السجن وبالعكس .. إن ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى وقوة المشيئة .. وأن الله هو الذى يعطى الملك والجاه والسلطان .. فإذا عبد الناس هذه الأسباب وانطلقوا يسجدون لها .. أزالها الله .. لماذا ؟ حتى يفيق الناس ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى الأسباب .. وأن هذه الأسباب ليست ذاتية للحاكم أو صاحب السلطان .. ولو كانت ذاتية لما زالت عنه .. ولكن الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أعطى الأسباب يستطيع أن يزيلها .. وأمام هذه الحكمة التى تحدث فى عالمنا كل يوم .. يسجد الناس لله بدلا من السجود لغير الله .. سواء أكان أسبابا أم بشرا .. ويحسون أن القوة والمنعة هما من الله وليسا من أى إنسان .

يـــارب

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور الدنيا .. بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء .. طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا من ظالم قوى .. وتقتص من إنسان ارتكب جريمة وتصور أنه نجا من العقاب .. أو تعيد حقا حسب صاحبه أنه ضاع .. أو لتذل جبارا يؤذى الناس وتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه .

تلك طلاقة القدرة . . وكلمة (يارب) تخرج من قلب المظلوم : فلا تجد بينها وبين السماء حجابا . . وتتدخل السماء لتزيل ظلما . . وتعيد حقا . . وتصحح الموازين فى الأرض . . ولذلك فإن المؤمن لا يعمل بنفس مفهوم الكافر . . فأساس عمل الكافر المال الذى ينتج عن العمل بصرف النظر عما يقوم به .

ولكن المؤمن يضع دائما اسم الله مع العمل . . ويبدأ العمل دائما باسم الله .



الفصل الخامس

حركة الحياة في الكون

حركة الحياة فى الكون

الله سبحانه وتعالى نظم بالمنهج حركة الحياة فى الكون .. لماذا ؟ لأن حركة الحياة هى مقصود كل إنسان سواء كان مؤمنا أو كافرا .. فكل منا يريد أن يتحرك فى الحياة ويحصل على رزقه وقوته ، وعلى ما يستطيع الحصول عليه مما يعينه على حياته .. لذلك كان المؤمن متحركا فى الحياة .. والكافر متحركا فى الحياة .

ولكن الله سبحانه وتعالى رسم منهاجا للإنسان المؤمن .. يتحرك فيه فى حياته ولكن هناك فارقا بين تحرك الكافر وتحرك المؤمن .

الإنسان المؤمن يتحرك فى الحياة وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى .. وهو لا يهتم فى سبيل ذلك بضرر دنيوى أو ما يقال عنه بالضرر الدنيوى .. فإذا وجد مالا حراما يستطيع أن يأخذه امتنع عن ذلك .. وإذا وجد شيئا يستطيع أن يستولى عليه بالباطل رفض أن يفعل .. وإذا استطاع أن يعتدى على حق ضعيف تراجع ولم يقدم .. كل هذه تعتبر عند أهل الدنيا كسب وغنائم .. ولكنها بالنسبة للإنسان المؤمن خسارة كبيرة لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عليها فى الآخرة وأن الثواب الذى قد يحصل عليه فى الدنيا محدود جدا .. ولكن ثواب الآخرة بلا حدود .. ومن أجل هذا كان المؤمن يسير فى حركة الحياة على أساس الحق .. وعلى أساس أن يأمن كل إنسان على حقه .. بينما الكافر يسير فى الحياة على أساس النفع العاجل .. إنه يريد كل ما تعطيه الحياة من خير ظاهر .. حتى ولو كان هذا النفع العاجل سيؤدى به إلى الهلاك والدمار .. فنجده يقدم على سرقة مال غيره .. وربما خاطر بحياته من أجل ذلك .. وهو فى الدنيا لا تحكم حركته حدود ولا قيود .. فإذا وجد من هو أضعف منه سلب ماله .. وهو ينطلق فى حركة الحياة يأخذ من عرق سواه ..

والذى يفسد الحياة وحركتها على الأرض هو أن يوجد احياء دماؤهم من عرق سواهم .. وما يزيدهم فسادا ألا يكون الإنسان آمنا على نفسه وماله .. فى هذه الحالة تضيع حركة الحياة فى الكون .. ويصبح المجتمع أشبه بالغابة التى تعيش

على مبدأ السلب والنهب . . وسفك الدماء وأخذ حقوق الآخرين . . وحينئذ لا يمكن أن تكون الدنيا أمينة ولا مأمونة بالنسبة لأى انسان . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحافظ على حقوق الضعيف قبل القوى . . وأن نرى من لا ناصر له . . فإذا فعلنا ذلك صلح المجتمع كله .

قضة المنهج واحدة

ولقد كانت قضية المنهج منذ خلق الله آدم حتى الآن قضية واحدة . . هى قضية الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد . . وكان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل . . كل رسول يأتى يؤمن بمن قبله ويشدد على أمته أن ينصروا الرسول المقبل . . لماذا ؟ لأن رسالة السماء للإنسان أو البنى آدم فى جوهرها واحدة . . ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ ميثاقا على الأنبياء . . وكان الميثاق أن كل رسول يأتى فى عصر رسول آخر يؤمن به . . كما حدث بالنسبة لابراهيم ولوط مثلا . . فقد أرسلا فى عصر واحد . هذا يعالج داء . . وهذا يعالج داء آخر . . وكان كل منهما مؤمنا بالآخر . . حتى أن ابراهيم عليه السلام جادل الملائكة حينما جاءوا يهلكون قوم لوط . . جادلهم فى أمر لوط . . فقال له الملائكة نحن أعلم بمن فيها . . ذلك أنهم يتلقون أوامرهم من الله سبحانه وتعالى . . فهم بذلك أعلم .

إذن فكل رسول جاء فى عصر رسول آخر كان يؤمن به . . وإن لم يكن فى عصره كان يوصى أمته أن ينصروا الرسول المقبل ويطيعوه . . وكان أفراد أى أمة شهداء على أنفسهم . . ونبى كل أمة شهيد عليها . . والله شاهد وشهيد على الجميع .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يحتفظ بانسجام تام فى الدعوة إلى منهجه منذ أول الخلق حتى نهايته . . فلا يتعصب قوم لملتهم أو لنبيهم لأنهم جميعا

يبلغون عن اله واحد منهجا واحدا . . وبذلك يكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متكاملا متعاضدا . . وبذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أنه لا حجة لنبى ولا لتابع نبى أن يصادم مؤمنا آخر برسالة سماء . . بل لابد أن يقف المؤمنون جميعا متصادمين مع من لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . . ولكن ماذا يحدث إذ تولى بعض الناس الذين آمنوا برسول سبق عندما جاءهم رسول جديد مصدقا لما معهم . . ومبينالهم بعض الذى اختلفوا فيه . . إن الذى يتولى ويعطى ظهره للنبى الجديد يقول الله سبحانه وتعالى عنهم « **فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » . . والفسق هو الخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى .

الكمال الإيمانى

وهكذا أوجب الله علينا أن نأخذ الكمال الإيمانى من مواكب الرسل لأنه ما من رسول أتى وهاجم منهج الرسول الذى قبله أو سفهه . . أو حاول أن ينكره . . بل كل رسول جاء مصدقا بمن قبله ومبشرا بمن بعده . . فمن يأتى بعد ذلك فيقول أنا أقبل هذا ولا أقبل ذاك فإنما هو فى الحقيقة خارج عن منهج الله . . لماذا ؟ لأن الرسالات فى جوهرها واحد . . ومصدرها واحد . . فلا يعقل أن تأتينى رسالة من نفس المصدر فأرفضها وأقول انى لا أؤمن بها . . مع أن الرسول الذى جاء مبلغا عن الله بمعجزات من الله بصدق رسالته . . بمنهج عن الله يصحح ما قد يكون قد حرف .

ولكن ما الذى يحدث ؟

فى الحقيقة أن رفض الإيمان بالرسول الجديد تكون له أسباب ، وهذه الأسباب هى التى تدفع الذين اعتنقوا منهج الرسول السابق من تصديق الرسول الجديد . . والأسباب هنا واضحة وظاهرة ، وهى أنه قد حدث تحريف فى منهج الله لصالح البشر . . وأن عددا من الناس القائمين على المنهج وعلى حفظه قد

حرفوا فيه لاستفادة البشرية .. ليصبحوا هم المستفيدين .. ووضعوا فيه ما لم يبلغه الله ، وما لم يقله رسله .. ثم نسبوه لله سبحانه وتعالى ، هذا التحريف هو الذى يمنعهم من اتباع الرسول الجديد .. لأن الرسول قد جاء بمنهج حق يجردهم من ميزات الدنيا التى وضعوها لأنفسهم واستباحوها ونسبوها ظلما وعدوانا إلى الله سبحانه وتعالى .

وفى هؤلاء يقول الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا تقف أمور الدنيا ومغانمها وما تعطيه حائلا بين بعض الناس وبين تصديق الرسول الجديد .. فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء الناس بقوا على إيمانهم .. أم أنهم خرجوا عن منهج الله .

الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا يحيط بالإنسان فى كل تصرف له ولذلك لا تجد تصرفا بشريا لا يخضع لمنهج الله .

وقول الله تعالى « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » دليل على ذلك ..

ولقد أراد أحد الناس أن يتحدى الشيخ محمد عبده فى هذه النقطة فجاء إليه وقال له : إن الله سبحانه وتعالى قد قال : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » .. فرد الشيخ محمد عبده نعم القرآن لم يفرط فى شىء .. وهنا قال السائل أخرج لى من القرآن ما يبين كم رغيفا تصنع من أردب القمح .. وقام الشيخ محمد عبده إلى أحد الخبازين وسأله كم رغيفا يصنع من أردب القمح .. فرد الخباز كذا رغيفا فقال السائل مندهشا وهل هذا من القرآن ؟ فرد الشيخ محمد عبده نعم من القرآن ..

وقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وحتى أطيع القرآن وأمضى على المنهج سألت أهل الذكر فأفتونى ..
وهكذا لو فكرنا قليلا لوجدنا أن منهج الله يحيط بحياة الإنسان إحاطة كاملة .. ومادمنا جميعا نعلم أن لهذا الكون إلها واحدا ، ونؤمن بذلك .. ومادمنا جميعا نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله .. كل رسول مصدق لمن قبله ومبشر بمن بعده ، فلا نأتى ونقول إننا لا نؤمن بمنهج الله وخاتم رسله .. إلا أن يكون هناك غرض شخصى .. منهج يوافق الهوى .. منهج هو من صنع الناس للناس .. والعجيب أن الإنسان فى بعض الأحيان يفضل أن يتبع منهجا وضعه البشر .. من أن يتبع رسالة السماء .

وهنا لابد من تفسير .. إن الإنسان لا يجب أن يتبع مساويا .. بل لابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه .. فما الذى يجعل إنسانا يتبع منهجا بشريا من مساو له .. والجواب على ذلك بسيط .. حين تتلاقى المصالح والأهواء ويحلل الحرام ويباح كل منكر .. تجد الإنسان يتبع منهج الإنسان .. هذه هى الحقيقة التى يجب أن نعيها حينما نسمع عن تشريع البشر للبشر .. وحينما نسمع أن بعض الناس وبعض الشعوب والأمم تترك منهج الله الذى لا هوى فيه والذى يعطى لكل إنسان حقه .. والذى هو أمن وأمان للجميع .. تترك هذا التشريع وتتبع تشريعا بشريا .. حينئذ نقول هوى النفس دخل هنا .. وأصبح التشريع يوضع لصالح من يحكم .. فإذا تغير الحاكم تغير التشريع .. وهكذا يظل هذا التشريع يتبدل ويتغير حتى يصل إلى مجموعة من المتناقضات التى هى أساسا هوى النفس .. الذى قال الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون)

وإذا نظرنا لأى تشريع بشرى ، فلابد أن ننتظر أولا إذا كان هذا التشريع يحقق ميزة لأولئك الذين وضعوه . . حينئذ نعرف أين هو هوى النفس وحينئذ نعلم من الذى يشرع . . وحينئذ تبدو لنا الأسباب التى ابتعد من أجلها بعض الناس عن منهج الله . . وجعلوا الخلق مقابلا للخالق . . إنه هوى النفس الذى يحكم مناهج البشر .

الله سبحانه وتعالى لم يترك خلقه إلا بعد أن بين كل شىء لهم . . وبين لهم أنه خلق هذا الكون من أجلهم . . كيف أخضع كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد للإنسان . . بل إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الحجة البالغة ، فخلق أشياء لا نقدر عليها ثم سخرها لنا . . فالشمس والقمر والبحار والكون كلها فوق قدرة الإنسان . . والسؤال : هل أنت سخرت هذا كله ليكون فى خدمتك . . سخرته بقدرتك وقوتك وعلمك . . الجواب طبعا لا . . فإذا كان الجواب كذلك . . فما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى سخر ، وهو الذى وضع المنهج **« أفغير دين الله يبغون »** .

ولكن الهوى النفسى الذى سيطر يحاول أن يتخذ صورا معينة . . مثل تطور الكون أو عصر العلم . . أو عصر الاكتشافات العلمية . . إلى آخر هذا الكلام . . وهذه كلها مبررت للخروج من منهج الله إلى هوى النفس البشرية . . فمنهج الله لا يقيد إنسانا من أن يبحث فى الأرض وأن يستكشف . . بل إنه يحثه على ذلك ولكن فى حدود المنهج . . فلا يأتى إنسان كشف الله له سرا من أسرار الحياة يتخذ من هذه النغمة طريقا إلى محاربة الله فى الأرض ممجدا فيها كشف ناسبا الفضل لنفسه متناسيا نعمة الله عليه . . نقول له هل هذا الشىء الذى اكتشفته كان موجودا فى الكون أم لم يكن موجودا . . هل أضفت شيئا إلى الدنيا . . ويكون الجواب لا . . لأنه لا أحد يستطيع أن يضيف إلى الدنيا شيئا . . ولكن الإنسان حين يكتشف خاصية جديدة وضعها الله فى الأرض وأخفاها إلى أن جاء وقت ميلادها . . إذن فهو لم يضف شيئا إلى

الكون . . ثم نأتى بعد ذلك إليه لنسأله . . أنت تريدنا أن نتبع منهجك ونترك منهج الله بدعوى انك الأحدث أو الأقرب إلى العقل والفهم . . أو الأقرب إلى المعجزة العلمية كما يدعون . . ونحن نريد أن نسألك هل ما اكتشفته من علم يساوى عظمة خلق الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين على الكون . . هل هذا الذى اكتشفت يساوى عظمة خلق البحار والأنهار والجبال . . هل ما اكتشفته يساوى عظمة هذا الكون كله . . فإذا كان جوابك نعم . . فلك الحق أن تقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم . . وإذا كان جوابك لا . . فكأنك تحتقر عقولنا لانك تقدم شيئا تافها ، وتطالبنا أن نترك من أجله عبادة الله بكل العظمة والقدرة الظاهرة أمامنا .

لو انك خلقت كونا جديدا لا أقول أبدع من الكون ولا أقول مماثلا لكون الله . . ولكنى أقول أصغر من كون الله ، لكان لك الحق فى أن تدعى . . ولكنك حتى الآن عاجز عن أن تخلق ذبابة . . ومع ذلك تريد أن تخرجنى من عبادة ربى بدعوى العلم . . أى علم هذا الذى يدعو للخروج عن طاعة الخالق واتباع هوى النفس فى أشياء لم توفر أساسيات للبشرية وإن كانت قد أعطتها شيئا من الرفاهية . . فقد سلبتها الأمن والأمان والحياة الطيبة وكل شىء جميل فى هذا الكون ، وملأت الدنيا بالتلوث وشبح الحرب والقتل والسلب والنهب .

على انه لابد من ايضاح لهذه النقطة . . تلك المخترعات البشرية متى تنشط وتزدهر . . إنها تنشط فى أوقات الحروب . . فى أوقات القتال والقتل عندما تشتعل الحرب ويريد كل إنسان أن يسيطر على الآخر ويقهره ويذله . . ويريد شعب أن يسيطر على باقى الشعوب ويذلها ويسلبها خيراتها . . حينئذ يبدأ الانفاق بسخاء شديد مع البحث عن أدوات وأسرار مدمرة فى هذا الكون . . وإذا رجعت إلى تاريخ معظم المخترعات تجد انها أساسا كانت للشر والقتل . . ثم بعد ذلك عندما انتهت الحرب بدأ تطويرها للأغراض السلمية . . القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية وحتى ما يسمونه بغزو الفضاء ليس لخدمة الإنسان

ورفاهيته ، ولكن ليسيطر البشر على البشر ويقهروهم . . فإذا استخدم بعد ذلك أى اختراع من هذه الاختراعات لخدمة الإنسانية . . فلا يجعلنا ذلك ننسى الهدف الأساسى الذى تم من أجله هذا الاختراع ونهلل ونكبر .

والله سبحانه وتعالى خلق فى الكون أساسياته أو مقومات الحياة . . فخلق لنا الماء الذى نشربه . . ثم جاء العلم ليجعل الإنسان بدلا من أن يشرب من البئر أو الترعة يشرب ماء مثلجا فى منزله . . وخلق الله الإنسان صالحا للحركة يستطيع أن ينتقل من مكان لآخر ، وخلق له الدواب التى تعينه على ذلك . . وجاء العلم المخلوق من الله وكشف للإنسان نوعا من الرفاهية يستطيع أن ينتقل بها ، وخلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الطعام . . وجاء العلم المخلوق من الله ليدخل بعض التحسينات على إنتاج الطعام فيجعله أكثر غزارة أو أحسن طعما .

وهكذا كل ما فعله الإنسان كان اضافة ولم يكن أصلا فى شىء . . حتى اللبن الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به البشر . . وجعله آية من آياته اختص بها نفسه . . عجز العلم حتى الآن عن أن يوفر كوب لبن واحدا بطريقة صناعية . . وظلت الأبقار هى الأساس تسقى الدنيا كلها لبنا كل يوم بوفرة كبيرة . . وعلماء العصر بكل قوتهم عاجزون عن أن يعطونا كوبا واحدا من اللبن . . ثم بعد ذلك لا يخجل إنسان من أن يقول لقد بدأ عصر العلم وانتهى عصر الإيمان . . ويدعو لعدم الإيمان بالله .

قدرة الخلق

اذن العلم لم يخلق أساسيات الحياة ولا هو أعطى شيئا لم يكن موجودا ولكنه وفر الرفاهية فى الكون . . فما الذى يدعونا لأن نترك الله ونقول أن عصر العلم قد بدأ ؟

على أننا إذا أردنا نظرة منصفة . . فلابد أن ننظر إلى عالم اليوم وما فيه من شرور وحروب وقتل ونهب للأموال فكل هذا الذى نراه ، ونسأل أنفسنا . . هل ما وفره العلم يساوى كل هذا الشقاء . . هل سلب حرية الإنسان وأمان الإنسان وأن إحساس الناس بأنه فى أية لحظة يمكن أن تأتى حرب نووية تفنى العالم كله . . احساس الملايين من البشر بعدم الأمن والأمان هل يساوى هذا فى حياة الناس الشقاء الذى يعيشونه الآن .

إننا نجد أوربا الآن فى موجة عارمة اسمها العودة إلى الطبيعة . . وهذه الموجة التى انتشرت بين الشباب تطالب بأن يعود الإنسان إلى الطبيعة التى خلقها الله . . وأن يدمر الناس القنابل النووية وغيرها من أسلحة الدمار ويتخلصوا من كل ما يلوث الجو ويفسده . . ويعودوا إلى الطبيعة السمحة بكل ما تأتيه من خير بلا شرور . . ومن حياة بلا آلام . . ومن راحة بال بلا قلق . . ومن كل شيء حلو . . ولو أننا نحن الذين طالبنا بذلك لقالوا متخلفين . . ولكنها أوربا التى يعتبرها هؤلاء الناس أساس الحضارة والمدنية تطالب بالعودة إلى الطبيعة . . ولعل فى هذا ردا وردا علميا على ضيق النفس البشرية مما سببته وتسببه المدنية من آلام ومشاكل .

ما معنى هذا . . هل معناه أن نترك الدنيا لغيرنا . . أبدا . . ولكن معناه أن نسير فى كل شيء بمنهج الله سبحانه وتعالى . . فإذا عملنا عملنا باخلاص . . وإذا أخذنا لم نأخذ حقوق أحد . . ولم ننسب فضلا لغير أهله . . مادمنا نتبع المنهج فلنأخذ الدنيا كلها ونبحث فى العلم كيفما نشاء . . ولكن دون خروج عن المنهج حينئذ يحدث انسجام بيننا وبين الكون . . ونحس بالسعادة فى كل خطوة نخطوها . .

ولكن الذى يحدث أننا نريد أن نترك منهج الله بهذه الأشياء الظاهرية التى تبهر ضعاف النفوس . . والمفروض أن كل كشف علمى فى الأرض يزيدنا التصاقا بالله سبحانه وتعالى . . فهو إظهار لقدرة الله فى الكون وإبداعه فى الخلق .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أى الذين فتح الله لهم بابا من أبواب العلم .. كان يجب أن يكونوا أكثر الناس خشية لله .. لأن الله أطلعهم على آية من آياته وأفهمها عقولهم .. ولذلك كان يجب أن يكون الشكر على قدر العطاء .. ولكن بعض العقول تغتر وتعتقد أنها هى التى فعلت .. ولا تستطيع أن تفسر لنا كيف أنه فى بعض الأحيان تعجز هذه العقول عن أن تحرك أصبعا من أصابع صاحبها عندما يداهمه المرض ويصبح عاجزا عن الحركة .. ولا أن تقول لنا كيف أنها تقف عاجزة لا تستطيع أن تمنح نفسها الحياة .. ولا تقدر أن تعطى لنفسها الصحة .

على أن المشاكل التى تنشأ فى كثير من الأحيان من اكتشافات علمية يهلل لها البشر ، تجعل الشك فى القيمة المطلقة لهذه الاكتشافات موجودا فى كل لحظة .. فهؤلاء الذين قدموا المبيدات الحشرية هم الذين حرموها .. وكثير من الأدوية التى قيل إنها تفعل المعجزات وتشفى كثيرا من الأمراض حرم استعمالها تماما بعد سنوات بسيطة .. لأنه ثبت أن لها أضرارا تفوق منافعها مئات المرات .. والسجل العلمى حافل بمثل هذه الأشياء .

على أن الإنسان يقتله جشعه .. فهو يملك المال الذى يكفيه طوال حياته ويزيد .. ولكنه يطلب مزيدا من المال ويشقى نفسه فى الحصول عليه .. وكل مخلوق لله يأكل على قدر حاجته .. الطير تلتهم من الحبوب ما يكفيها فقط وتترك الباقى .. وأنت إذا وضعت كمية كبيرة من الغذاء أمام أى حيوان فإنه لا يأكل منه إلا حاجته ويترك الباقى .. أما الإنسان فهو الوحيد الذى يأكل أكثر من حاجته .. ويشرب أكثر من حاجته .. ويريد أن يملك أكثر من حاجته .. وهذا الجشع البشرى هو أساس الشقاء الذى تعانيه البشرية .. وفى كل ما هو يزيد عن الحاجة من طعام أو شراب أو مال يكنز بلا حساب .. فهو بعيد عن منهج الله .

الإســــلام

والله سبحانه وتعالى خلق فى كونه أشياء أسلمت لله سبحانه وتعالى ورفضت الاختيار .. رفضت أن تكون مختارة فى طاعة الله ..

والله سبحانه وتعالى يقول « **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** » .. إذن هذا الكون كله قد أسلم ورفض أن يكون مختارا فى أن يؤمن أو لا يؤمن .. أسلم طوعا .. بل اختار الإيمان دون أن تكون له إرادة فى المعصية .. أما الإنسان فقد قبل أن يحمل الأمانة وأن يأتى الله باختياره عن حب .. ومادام يستطيع أن يأتى فهو يستطيع أيضا ألا يأتى .. ومادام قد أعطى حرية الإيمان وحرية أن يؤمن .. فقد أعطى أيضا حرية ألا يؤمن .. ما هى الأمانة .. هى شيء أئتمنك الله عليه .. فإذا أردت أن تبسطها وتضرب مثلا ولله المثل الأعلى .. أقول هب أننى جئت إليك وأودعتك شيئا وقلت هذه أمانة عندك سآخذها عندما أطلبها .. أنت فى هذه الحالة وفى سلوكك شيئان .. إما أن تأخذ هذا المال الذى أودعته .. وتبعثره فيما ينفع ولا ينفع ولا تحافظ عليه ولا ترعى الأمانة حق رعايتها .. وفى هذه الحالة يأتى وقت السداد فلا تجد عندك شيئا .. وإما أن تحافظ عليها وتنميها وتزيدها .. ويأتى السداد فتجد ما تسد به ويفيض .

والله سبحانه وتعالى حين أعطانا حرية الاختيار .. وأعطانا كل ما فى الكون وسخره لنا .. كان هذا من أجل الإنسان .. ثم أعطانا الأمانة .. وهى العقل وحرية الاختيار وأشهدنا على نفسه .. فقال .. أنا ربكم وهذه معجزاتى .. الأرض والسماء والجبال .. والشمس والقمر والنجوم .. وكل ما فى الكون مسخر لكم .. وخلقته من أجلكم .. وأنا أقول لكم اننى أنا الخالق ولا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق .. إذا استخدمتم عقولكم رأيتمونى فى كل آية فى الأرض .. وفزعتم إلى فى كل ما تخافون منه .. فلقد وضعت لكم منهج الحياة

الذى يسعدكم فى الدنيا والآخرة . . فمن أدى أمانته نحوى فى رحلة الدنيا القصيرة . . متعته فى الدنيا والآخرة .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

بعض الناس حمل الأمانة وراح يضيعها فيما لا ينفع وفيما نهى الله عنه . . معتقدا أن الدنيا دائمة . . وأن الحياة بلا نهاية كافرا بلقاء الله . . وبعض الناس آمن وحفظ الأمانة . . حتى إذا جاء يوم اللقاء . . قال يارب أعطيتنى الأمانة فحفظتها وعملت بها فجازنى أحسن الجزاء .

الإسلام . . والسيف

على أن بعض الناس . . يعتقد أنه من الاسلام أن تجعل من لم يؤمن طوعا يؤمن كرها . . فإذا كان هناك إنسان لا يصلى فمن حقك أن تكرهه على الصلاة ولو اضطررت أن تجلده . . وإن كان هناك إنسان لا يؤمن . . فبالسيف يؤمن . . نقول له : ليس هذا هو الاسلام . . ولا يمكن الوصول للاسلام بالكره أو بالاكراه . . ولم يسلم أحد كرها ، بل كل الذين أسلموا أتوا باختيارهم طائعين . . ولا يقبل قول أن الاسلام انتشر بالسيف . . ذلك أن السيف رفع فى الاسلام لحماية حرية الإنسان فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . ولمنع الاكراه . . فلقد

كانت هناك قوى متسلطة على الناس بالسيف .. تكرههم على عبادة غير الله ، وترغمهم على عقائد زائفة .. بل إن هناك من كانوا مكروهين على عبادة البشر .. فكان الحاكم ينصب نفسه إلها .. من عبده فله الأمان .. ومن لم يعبده يقتل .. وهنا قال الاسلام لا .. قفوا عن حدكم .. ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون .. دعونا نعرض عليهم الاسلام .. وأعرضوا أنتم عليهم ما أردتم .. « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .. وكانت سماحة الاسلام .. وقوة الاسلام .. وحجة الاسلام هى الدافع لأن يعتنقه الملايين .. لأنهم رأوا فيه دين الحق .

ولو أن ما يقوله بعض الناس صحيح من أن الاسلام لا ينتشر إلا بالسيف .. فأين هو السيف الذى يجعل الألوف يعتنقون الاسلام كل يوم .. وأين هو السيف الذى يجعل الملايين يدينون بدين الاسلام .. بل لو كان هذا من أساس الدين لقام المسلمون بقتل كل إنسان غير مسلم فى الدول التى فتحوها .. وكان فى هذه الدول غير مسلمين .. نحن ما فرضنا دينا على إنسان غير مسلم فى بلاد يحكمها الاسلام .. بل تركناه على فكره .. له إن شاء أن يسلم .. وله إن شاء أن يبقى على دينه .. ولعل وجود غير مسلمين فى بلاد فتحها الاسلام فى بداية الدعوة الاسلامية .. بل وحماية هؤلاء الناس غير المسلمين وتوفير الأمن والأمان وحرية العبادة لهم .. لدليل على أنه لا إكراه فى الدين .. وأن الاسلام يؤمن بحرية العقيدة .. وأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يأتوا إليه طائعين لا مكرهين .

ولكن كلنا نسلم لله كرها وبلا اختيار .. أنت ترى أن هناك تناقضا فى هذا الكلام .. ولكن فى الحقيقة ليس هناك تناقض .. بل هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله . فى حياة كل فرد منا أشياء يسلم فيها باختياره .. الله سبحانه وتعالى أعطاه فيها ارادة أن يسلم أو لا يسلم .. فقال له افعل .. ومادام الله قد قال لك افعل .. ففى مقدورك ألا تفعل .. وإلا لما قال الله افعل .. وهناك أشياء

قال الله فيها لا تفعل . . ومعنى ذلك أن فى مقدورك أن تفعل . . قول الله سبحانه وتعالى بافعل ولا تفعل . . لا يكون إلا إذا كان لك حرية الاختيار . . وإلا يصبح الأمر هنا بلا معنى . . فكيف يقول لك الله سبحانه وتعالى افعل فى شيء أنت مجبر على فعله لا اختيار لك فيه . . أو يقول لك لا تفعل فى شيء أنت لا تستطيع أن تفعله . . حينئذ يكون الأمر فاقدا معناه . . إلا إذا وجد الاختيار .

ولكن هناك أشياء فى الكون . . أنت مقهور أن تسلم فيها لله . . يوم ولادتك مثلا . . هل تستطيع أن تختاره وتقول سأولد يوم كذا ولا يولد يوم كذا . . أبوك وأمك هل لك اختيار فيهما لتقول أنا سأختار أبى هذا الرجل الغنى وأمى هذه السيدة الثرية . . يوم وفاتك مثلا أتستطيع أن تقول لن أموت اليوم سأموت غدا أو فى العام القادم . . ما يقع عليك من أمراض وأحداث هل أنت مختار فيه ؟ . . هل تستطيع أن تقول سأمرض بهذا المرض ولن أمرض بهذا المرض . . نموك مثلا . . هل تستطيع أن تقول لن أنمو وسأبقى طفلا . . أو لن أصل إلى الشيخوخة وسأظل شابا . . قلبك ومعدتك . . هل تستطيع أن تقول لقلبك لا يدق لمدة اسبوع مثلا . . أو سأوقف معدتى عن الحركة لمدة شهر . . أو لا أريد للدورة الدموية أن تمشى فى جسمى عدة أسابيع . . أو سأتوقف عن التنفس ساعة أو ساعتين . .

كل هذا لا تستطيع أن تفعله بل أنت مكره فيه . . فالله هو الذى يختار يوم ولادتك . . ومن هو أبوك ومن هى أمك . . وهو الذى يختار يوم ولادتك . . ومن هو أبوك ومن هى أمك . . وهو الذى يضع فيك الحياة لتنمو . . فإذا أراد أن يسلب الحياة فهو الذى يسلبها . . ففى هذه الأشياء وكلها سواء أردت أو لم ترد أنت مسلم لله سبحانه وتعالى كرها . . أى دون إرادة منك . . بل الله يفعل ما يريد سواء أردت أو لم ترد .

إذن حينما يقول الله سبحانه وتعالى : **« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها »** . . فليس معنى ذلك أنك تكره الناس على الإسلام . . ولكن

معناه أن الله سبحانه وتعالى جعل فى حياة بعض مخلوقاته ومنها الإنسان والجن مثلا مناطق الاختيار . . يعطيهم فيها الحرية فى أن يختاروا . . ومناطق هم مكرهون فيها . . مقهورين لله لا اختيار لهم . . قد يحدث لك شيء أو تمرض بمرض معين أو يقع عليك ما تكرهه . . لو أن لك ارادة حرة فى هذا لمنعت حدوثه مادمت تكرهه . . ولكنك مقهور لأمر الله فيه لا تستطيع دفع الأمر عن نفسك ومادمت تكره شيئا ولا تستطيع دفعه عن نفسك . . إنك مكره أن تسلم فيه لله سبحانه وتعالى فيما أراد . . إذن فأنت فى هذه الأمور مسلم لله كرها . . أى دون أى اختيار منك . . بينما فى أمور الدين أنت مسلم لله طوعا أى باختيارك . . فأنت تستطيع أن تصلى أو لا تصلى . . وأن تزكى أو لا تتزكى . . وتصوم ولا تصوم . . وتحج أو لا تحج ؟

* * *

وبعض الناس يجاهر بالكفر بالله ويتباهى . . نقول له لو انك فعلا تستطيع أن تخرج من طوع الله . . فأرنا كيف تتصرف فى الأمور التى أكرهك الله عليها . . أرنا كيف تستطيع أن تختار يوم مولدك أو يوم وفاتك . . أو أن تمنع المرض عنك . . أو أن تغير ما يقع عليك من أقدار أو أن توقف نمو جسدك . . إلى آخر الأمور التى أعلن الله سبحانه وتعالى أنك مقهور فيها . . فإذا استطعت ذلك فقد يكون لك حجة . . فإذا لم تستطع ولن تستطيع . . فإنك فاقد الحجة فى نفسك وفى ذاتك . . فكيف تريد أن تقنعنا بما أنت عاجز عنه . . لو انك تتحكم فى قدرك كما تدعى فأرنا كيف لا تسلم لله فى يوم مولدك ويوم أن تموت وفى الأحداث التى تقع عليك ولا تستطيع دفعها . . أنت خاضع لله . . مسلم له كرها . . أى رغما عنك . .

إذن قول الله سبحانه وتعالى **« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا »** . . نأخذ ذلك لأجناس الأرض التى اختارت الإسلام لله ونأخذ معها الإنسان المؤمن الذى أسلم لله فى كل الأمور . . فهو أسلم لله فى الأمور التى له

اختيار فيها وفى الأمور التى ليس له فيها اختيار . . فالإنسان المؤمن أسلم قيادته لله سبحانه وتعالى فى كل أمر من أمور الدنيا .

وإذا أتينا إلى قوله تعالى « وكرها » . . فهذه النسبة للإنسان الذى يرفض أن يسلم قيادته لله فى الأمور التى له فيها اختيار . . فهو يكفر بالله ويرفض أن يسلم قيادته له . . حينئذ نقول : رغم رفضك طوعا أن تسلم قيادتك لله فيما ليس لك فيه اختيار . . فإنك تسلمها لله قهرا أو كرها فيما ليس لك فيه اختيار . . فأنت لا تستطيع أن تدفع عن نفسك أمرا من أمور الله سبحانه وتعالى أنت تكرهه . . الله يجرى عليك ما يشاء . . وأنت تسلم وتذعن وأنت كاره لأنه لا ختيار لك فى أشياء كثيرة مثل مولدك ووفاتك والأقدار التى تتم عليك .

إرادة الله

إذن فالله سبحانه وتعالى هو الذى يملى إرادته فى كثير من أمور حياتك التى لم يترك لك اختيارا فيها . . لكان علينا أن نفهم إن الله سبحانه وتعالى ترك لنا الاختيار فى عدد من الأمور وأراد لنا . . فلا يأتى إنسان ويكره إنسانا آخر على شيء تركه الله مختارا فيه . . كأن يقتله إذا لم يسلم . . أو أن يستخدم السيف لإجبار الناس على الإسلام . . الحرية هنا من الله سبحانه وتعالى . . أرادها للإنسان . . وأراد الله ألا تطغى إرادة بشر على إرادة بشر . . وألا يكره إنسان إنسانا آخر على أن يفعل شيئا رغم ارادته . . وهذه هى الرحمة . . الرحمة من الله فى ألا يجعلك مقهورا لبشر مساو لك . . بل يجعلك حرا فيما أراد أن تكون لك فيه حرية الاختيار .

* * *

وأنت حين تفكر فى منهج الله وفيما قاله بافعل ولا تفعل . . نقول لك إذا فعلت ما الذى يفيد الله مثلا . . وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله . . لا شيء وإذا

كان الآمر له مصلحة فيه وهوى شخصى . . كأن يأمرك إنسان أن تفعل شيئا لفائدته . . حينئذ يكون الفعل لمصلحة من يأمر وليس لمصلحة من يقوم به . . فإذا لم يكن للآمر مصلحة فيما أمر به . . فلابد أنه يريد مصلحة الفاعل نفسه . . تماما كما تأمر ابنك الصغير بأن يذاكر أو يجتهد . . ولا يضيع وقته فى اللهو والعبث حتى ينجح فى الامتحان . . قد يتحمل الابن شيئا من المشقة فى المذاكرة . . ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة . . وقد يكون أحب إلى نفسه أن ينزل ويلعب ويلهو ولا يقرأ سطرا . . ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة وتكون حريصا عليه . . وتأخذ من رزقك لتأتى له بمدرس خصوصى يعينه .

وقد تتحمل أنت ضنك العيش وتقترض وتعمل أكثر حتى توفر له ما يضمن له النجاح . . هل الأمر هنا لمصلحة الآمر أم لمصلحة من يقوم بالفعل . . الجواب انه لمصلحة من يقوم بالفعل . . ومادام الأمر كذلك . . فإن من مصلحة الابن وحده أن يذاكر حتى إذا بلغ مبلغ الرجولة . . كان رجلا مرفوع الرأس مصون الكرامة . . يحترمه الناس . . وله مركز فى المجتمع . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى لا هوى له ولا مصلحة . . فإن هدفه من منهجه للخلق هو اصلاح الخلق ذاته . . هو أن يكون هذا الخلق منسجما مع باقى الكون فى التسليم لله سبحانه وتعالى .

وإذا أردنا أن نعرف معنى:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من فى السموات ومن فى الأرض أسلم لله . . فمطلوب منك أنت أن تنسجم مع الكون وتسلم حركتك الاختيارية فيه لله سبحانه وتعالى . . فكل ما فى الكون سخر وقهر على أن ينفذ ما أراده الله سبحانه وتعالى . . والشمس والجبال وباقى المخلوقات قالت أتينا طائعين حتى تكسب ثواب الطاعة . . ولو

انها قالت لن نأتى طائعين لأتت كرها . . ولكنها أرادت أن تكسب ثواب الطاعة فاختارت أن تأتى طائعة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « وإليه يرجعون » أى ليست المسألة أن الله سبحانهُ وتعالى قد خلقك مختارا ثم خرجت من كونه وشردت . . لا أنت لم تخرج من كون الله . . وإذا كنت تريد أن توهمنا انك خرجت عن قهر الله لك . . فقل لنا كيف انك لن تعود إليه . . ادفع عن نفسك الموت ان استطعت واعط لنفسك الخلود . . ولكنك لن تستطيع . . فإذا كنت مقهورا فى أشياء داخل نفسك . . داخل ذاتك . . إذا كنت خلال فترة الاختيار وهى الحياة الدنيا خاضعا لله سبحانه وتعالى فى أمور كثيرة . . فكيف بعد أن تترك هذه الحياة .

أن كل من لم يسلم وجهه لله فى أمور الاختيار التى أعطاها الله سبحانه وتعالى له فى الدنيا يكون فى كبرياء كاذب . . لأن الكبرياء الصادق يرفعك إلى أن تنسجم فى الأمور الاختيارية مع إرادة الله سبحانه وتعالى . . وأن تسلم له قيادتك الاختيارية وهذا هو أساس الإيمان .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾

(سورة البقرة)

خاتم الأديـان

هنا فإن الله سبحانه وتعالى رد الأمر كله منذ بدء الخليقة حتى نهايتها للإسلام

والتسليم لله . . فهذه الأديان كلها إنما هى يكمل بعضها البعض **« قل آمنا بالله »** . . هذا هو الأساس والعهد . . الإيمان بمن ؟ بالله . . ثم اقرأ النص القرآنى الكريم : **« اليوم أكملت لكم دينكم »** . . أى ان الديانات السابقة كلها أكملها الله سبحانه وتعالى بالإسلام . . ولذلك مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ليكمل اللبنة الناقصة فى البناء الإيمانى . . فهذه الرسالة اكمالا للبناء الإيمانى الذى أراده الله سبحانه وتعالى . . ثم انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى : **« وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم »** . . وتوقف عند كلمة **« وما أوتى »** لنعرف أنهم لم يأتوا بشىء من ذاتيتهم . . ثم قوله تعالى **« لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »** .

إذن فليس لأى رسول سلطة زمنية حتى يستقل بما أوحى إليه أو بما أوتى . . لماذا ؟ لأنه لا شىء هنا من ذاتية الرسل . . ولكن كل من الله . . ومن هنا لا أستطيع أنا أن أتوقف عند رسول معين وأفرق بينه وبين باقى الرسل . . وأقول سآخذ من هذا ولا آخذ من الذى بعده . . لأنه لو كان للرسول ذاتية لكان هذا جائزا لتقول أن فكر الرسول انضج من الرسول الذى بعده أو أكثر عمقا . . ولكن حيث لا ذاتية لأحد . . فإن الأمر من الله . . وبما أن الأمر من الله سبحانه وتعالى . . فاننا نأخذ من الله فيعطينا عن رسول بعد رسول حتى نصل إلى تمام الدين الذى هو من الله فى قوله تعالى : **« اليوم أكملت لكم دينكم »** . . ثم يختمها بماذا ؟ **« ونحن له مسلمون »** .

إذن البداية من الله . . والنهاية إلى الله . . وهى الإسلام لله سبحانه وتعالى . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال : **« ونحن له مسلمون »** تكون تلك هى القضية الكونية فى موقف الرسالات . . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد إلى الله من الإنسان فيما له فيه اختيار يكون الكون كله بما فيه الإنسان المؤمن المسلم قيادته لله سبحانه وتعالى . . يكون مسخرا لله . . فلا تأتى حركة لتعاند حركة أخرى . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه هو الذى خلق وسخر وهيمن . . ووضع لكل

إنسان فى مجال حركة الحياة قانونا يعصمه من أن يعتدى على غيره .

وإذا نظرت إلى البشر حينما اضطروا أن يعيشوا فى مجتمعات معا . . نجد أنهم حاولوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم والكوارث فى الأرض . . فإذا نظرنا إلى نظام الطيران مثلا نجد أن هناك هيئات دولية . . تحاول أن تمنع تصادم الطائرات فى الجو . . ومن هنا فإن لكل طائرة مسارا وإذنا بالطيران . . فكذلك منهج الله وضع حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة فى الوجود . . ولذلك فى قانون التسخير . . لا تصطدم حركة الوجود أبدا . . الأرض لا تصطدم بالشمس . . والقمر لا يصطدم بالأرض ولا بالشمس . . والجبال لا يصطدم بعضها البعض . . وهذا الكون الهائل المليء بالكواكب والمجرات والأجرام السماوية . . لا تجد فيه اصطداما يحدث . . بل انسجام غريب ودقة ما بعدها دقة . . لا تجد الشمس لا تشرق يوما فى موعدها ولا القمر يختفى دقيقة واحدة عن موعده . . بل كل شيء غاية فى الانسجام .

تعال إلى ما صنعه الإنسان ويقوده باختياره . . سيارة تصطدم مع سيارة وقطار يصطدم مع قطار . . ودولة تصطدم مع دولة . . ومخلوقات تصطدم كلها ببعضها البعض . .

هذا الاصطدام فى حركة الحياة . . ينشأ فى الأشياء التى جعل الله للإنسان اختيارا فيها . . أما الأشياء المسخرة للإنسان والتى ليس له فيها اختيار فإنها تسير فى غاية الدقة منذ أن خلقها الله .

وإذا كان الإنسان يضطر إلى أن يعدل قوانينه التى وضعها فى كل فترة من الفترات . . فهذا الاضطرار إنما ناشيء عن اصطدام حركة الحياة . . فنحن لم نسمع أنه جرى تعديل على نظام الكون منذ ملايين السنين . . فلا الشمس عدلت مسارها . . ولا القمر وجدناه يوما فى مكان ويوما فى مكان آخر بحجة التعديل أو التصحيح . . ولا الأرض غيرت مدارها . . فإذا كان الأمر

كذلك . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا منهج الحياة الذى ينسجم مع الكون ولا يصطدم أبدا . . فلماذا تشذ أنت عن الكون كله . . ولماذا يشذ بعض البشر عن منهج الله . . وبدلا من أن يأخذوا قوانين الله التى وضعها للحياة فى الأرض . . نجد قوانين قد وضعها مفكرون من البشر . . هذا قانون رومانى وهذا قانون فرنسى إلى آخره . . افنترك تشريع الله مع ما يحمله لنا من انسجام مع الكون ونتبع ما يشرعه البشر . . ثم نتساءل عن سر الشقاء والتصادم وعدم الانسجام فى الكون . . وفى كل فترة نعدل ونبدل ونغير . . بينما الله سبحانه وتعالى أعطانا القانون الأزلى الذى يحقق لنا الحياة الطيبة .

إذا أردنا أن نعرف لماذا تتصادم حركة الحياة فى الكون . . ولماذا هذا الشقاء . . فعلينا أن نتذكر ما الذى حطم الانسجام بيننا وبين الكون . . وأوجد هذا الشقاء .

* * *

وإذا أردنا أن نخرج من هذا كله . . فلابد أن نعرف أن البداية من الله ، والنهاية من الله . . وأنه لا حل إلا التسليم لله .



الفصل السادس

الله .. والعباد

الله سبحانه وتعالى له صفة العدل المطلق .. وعدل الله لا يجعله يميز بين خلق وخلق .. بل كلهم متساوون أمامه .. لا تفرقة ولا تمييز .. لذلك فإن من يقول أن التقدم العلمى هو دليل إيمانى ، إنما يمس صفة العدل . ذلك أن معنى هذا الكلام .. أن أولئك الذين سبقوا قبل حدوث هذا التقدم العلمى كان إيمانهم ناقصا .. لأن أحد أسس الإيمان كانت غير موجودة ..

ومن هنا فإن اطلاق مثل هذه الأشياء فى عموميات .. فى الحقيقة تمس قضية الإيمان بشكل مباشر .. فآيات الله الدالة على خلقه .. وعلى عظمته .. وعلى قدرته .. موجودة منذ بداية الخلق .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وجد فى الكون من أسراره ما ينبىء بعظمة الخالق ويدل عليها .. ثم أعطى عطاء متجددا بعد ذلك لكل جيل غير الجيل الذى قبله .. هذا العطاء إنما لتعلم أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتخلى عنه لحظة واحدة .. وان له عطاء متجددا لخلقه كل يوم .. بل كل ساعة .. حتى لا نحس نحن البشر أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ثم تركه بعد ذلك يعمل بالأسباب وحدها ، بل لابد من الأسباب من طلاقة القدرة .. تكشف وتعطى وتمنح .. وتذكر الناس بأن الله ينصر الضعيف على القوى .. والمظلوم على الظالم .. حتى لا يستشرى الفساد فى الأرض . والسماء لا تتدخل إلا عندما لا تكون فئة من الخلق قائمة تجاهد فى سبيل الحق ، فإذا كانت هناك مثل هذه الفئة .. فإن السماء تبارك لها عملها وتنصرها .. أما إذا لم تكن هناك هذه الفئة فإن السماء تتدخل تدخلا مباشرا . لتنزع ظالما من قوته وسلطان ظلمه .. أو تزيح جبارا فى الأرض فتنتزعه من أسباب جبروته .. المهم أن يحدث شيء ما ، يجعل الناس تصيح من أعماقها (ربنا كبير .. ربنا موجود) .. وأنت حين تسمع هذه العبارة تحس أن طلاقة القدرة قد تدخلت لتصحح وضعا لا تستطيع أسباب الدنيا أن نصححها .. ذلك أن الله خلق الدنيا .. وخلق لها قانون الأسباب لتعمل به .. فإذا حدث شيء بقانون الأسباب .. كأن انتصر قوى على ضعيف .. أو تمكن ظالم من مظلوم ، فانك فى هذه الحالة تأخذ المسألة على انها أمر عادى ..

لماذا ؟ لأن هذا هو قانون السببية الذى تسير عليه الحياة فى عمومها ، والذى نشترك فيه جميعا . . فأنت لكى تحصل على الرزق مثلا يجب أن تعمل . . فإذا عملت وأخذت أجرك فهذا شىء طبيعى لا يثير فى نفسك العجب . . وأنت حينما تريد أن تسافر إلى مكان ، فإنك تذهب وتقوم باجراءاتك وتسافر . . شىء طبيعى تابع لقانون السببية . . وشىء تشترك فيه البشرية جميعا .

ولكن فى أحيان تجد أن قانون السببية لا يعمل . . يفتح الله لك بابا صغيرا . . لنرى منه قدرته وتحس بعظمته ، وبأن قانون الأسباب لا يقيد الله سبحانه وتعالى فيما يشاء . . وحينئذ حين تقف أمام قوى تقول كل الأسباب أنه سينتصر عليك . . ثم نجده ينهزم وينهار . . لا تملك إلا أن تصيح من أعماقك (ربنا كبير . . ربنا موجود) . . وحين يراد بك سوءا وتُحكَم أسبابه ، ثم يكشفه الله ويدفعه عنك . . فإنك فى هذه الحالة تصيح (ربنا كبير . . ربنا موجود) . . وحينما تكون فى عسرة من الرزق ، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويفتح لك بابا للرزق من حيث لا تدرى ولا تعلم . . شىء لم تكن تتوقعه على الاطلاق . . إنسان يأتى إليك ويكفيك بعمل ويجزل لك العطاء . . حينئذ تصيح قائلا : (ربنا كبير . . ربنا موجود) .

وليست طلاقة القدرة وقفا على أحد دون الآخر ، بل فى حياة الناس جميعا فكلنا رأى طلاقة قدرة الله فى فترة من فترات حياته . . رأى طلاقة القدرة فى عدل الله أو رحمة الله . . أو شفاء من مرض يئس الأطباء من علاجه . . أو رزق جاء ليذهب حالة عسر وضنك . . لماذا ؟ لماذا يرينا الله طلاقة القدرة فى الدنيا حتى لا ييأس المؤمن أبدا . . فإذا توقفت الأسباب عن العطاء ، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح بابا من أبواب رحمته . . ومن هنا فإن الإنسان المؤمن عندما تصل به الأسباب إلى طريق مسدود ، يرفع كفيه دائما إلى السماء ويقول : (يارب) . . ويعلم أن الطريق الذى سدته الأسباب . . تفتحه طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

وفى القرآن الكريم يروى لنا الله سبحانه وتعالى أمثلة من طلاقة قدرته حتى نمضى فى الحياة بلا يأس . . فقصة هاجر عليها السلام فيها طلاقة قدره . . ذلك لأن إبراهيم أخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى واد غير ذى زرع . . وعند الكعبة المشرفة تركها هى وابنها . . وارتاعت المرأة . . كيف يتركها وهى امرأة ضعيفة ومعها طفل رضيع فى مكان قفر لا زرع فيه ولا ماء .. ولا نبات ولا إنسان . . فسألته هاجر : هل تفعل ذلك يا إبراهيم بفكرك أنت أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمرك بذلك . . فقال إبراهيم عليه السلام : بل الله أمرنى بذلك . . قالت هاجر بإيمان . . إذن لن يضيعنا .

وانطلق إبراهيم عائدا وترك الأم وطفلها الرضيع فى هذا المكان القفر . . هنا فى هذه البقعة كان قانون السببية معطلا فلا توجد أسباب للحياة . . لا يوجد ماء يشربونه ولا طعام يأكلونه . . ولا بشر يعينهما بأن يحضر لهما الطعام والثياب . . وهكذا تعطلت الأسباب . . وكنا إذا حكمنا قانون السببية فلابد أن نقول : أن الأم وطفلها هالكان لا محالة .

وحاولت هاجر أن تأخذ بقانون الأسباب . . فانطلقت تسعى بين الصفا والمروة . . تصعد على هذا التل . . وتصعد على ذلك التل . . عسى أن ترى إنسانا أو تشاهد طيرا أو تلمح من بعيد قافلة قادمة . . كان كل هدفها أن ترى سببا من أسباب الحياة تتمسك به هى وطفلها . . وقطعت المسافة سبع مرات بين الصفا والمروة . . تصعد إلى هذا التل . . ثم تصعد إلى ذلك التل فلم تجد شيئا . . ولم تجد أحدا . . ونال منها التعب . . فجلست بجوار وليدها . وإذا بالصغير الضعيف يضرب بكعبه الأرض فينفجر منها (بئر زمزم) وتدب الحياة فى المكان ويمتلىء بالماء . . هنا كانت طلاقة القدرة هى التى فجرت الماء . . وهى التى أعطت الحياة فى الوقت الذى تعطلت فيه الأسباب . .

وقصة موسى عليه السلام . . خافت أمه أن يذبحه فرعون ورجاله . . وكان

من الممكن أن تهاجر به سرا من مصر . . أو أن تذهب إلى مكان بعيد لا يراها فيه أحد . . أو أن تختفى به فى مغارة فى جبل . . كانت الأسباب تقول هذا . . وكانت هذه هى طريقة النجاة . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من قصة موسى مثلا على طلاقة القدرة . . فأوحى إلى أمه أن تلقيه فى الماء ليكون هذا هو السبيل لنجاته وحفظ حياته . . وأنت حين تضع شيئا فى صندوق وتلقيه فى الماء فإنما تريد أن يراه الناس جميعا . . فالواقف على الشاطىء إذا نظر إلى الماء رأى الصندوق . . فكأنما هذا اعلان لا اخفاء . . ومع ذلك جعل الله سبحانه وتعالى هذا الاعلام هو عين الاخفاء .

تثبيتا للمؤمنين

ولكن لماذا أعطانا الله هذه الأمثلة . . تثبيتا للمؤمنين على الإيمان وليس معنى هذا ألا نأخذ بقانون الأسباب ولا نعمل منتظرين طلاقة القدرة . . بل ان طلاقة القدرة لا تأتى إلا إذا استنفد الإنسان الأسباب أولا . . فإذا فرغ الإنسان من الأسباب ولم تعطه شيئا رفع يديه إلى السماء . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « **أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه** » . . والمضطر هنا هو الذى يستنفد أسباب الدنيا ولا يجد أمامه مخرجا . . وهذا هو الذى تتفتح أبواب السماء له ، على أن الله سبحانه وتعالى له اختبارات إيمانية . . فهو يختبر صبر العبد وقوة إيمانه وتحمله . . وهذه الاختبارات الإيمانية هى الأساس ليزيل الله الضيق ويذهب الهم ويفتح أبواب السماء .

والإيمان بالله هو إيمان كامل ، فلا يوجد شىء اسمه إيمان ناقص . ذلك أنك إذا أخذت من الإيمان شيئا فقد أخذت جوهره . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** » ذلك أن الإيمان هو الالتزام بمنهج الله . . والله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين ألا يواجهوا حركة حياتهم إلا بالحق . . وساعة تؤمن بالله . . معنى ايمانك هى حيثية قبول الحكم منه . . فأنت مادمت آمنت أنه

الله .. القادر .. الحكيم .. الخالق .. فإنك تلتزم بما يطلب منك ، فإن لم تلتزم كان إيمانك بلا قيمة ولا وزن .. لماذا ؟

أنظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : « **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .. ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما** » .. هذه الآية الكريمة التى نزلت فى اليهود إنما تبين لنا صفة من صفات الإيمان هى جوهره ، فالإيمان كالأمانة .. ليس هناك إنسان أمين وإنسان نصف أمين وإنسان ربع أمين .. بل إما أن يكون الإنسان أمينا .. أو لا أمانة له .. بصرف النظر عن قيمة ما سيأخذه أو ما سيغريه على التخلى عن الأمانة .. فيأتى الله سبحانه وتعالى بمثلين الأول هو القنطار .. والثانى هو « الدينار » كلاهما يمثل قيمة نقدية .. وفى نفس الوقت يضرب لنا مثلا إيمانيا .

الأول أعطيته قنطارا كأمانة .. كبر الحجم والقيمة يغريه بأن يأخذ هذه الأمانة لنفسه .. ولكن لأنه أمين لا يقترب منها ويحفظها لك .

والثانى أعطيته دينارا .. تفاهة القيمة تجعله لا يطمع فيها .. ولكنه يطمع فى الدينار ولا يرده إليك إلا إذا قاضيته وذهبت إلى القاضى وإلى المحكمة وأجبرته على أن يدفعه ..

إذن فالمسألة هنا ليست بالقيمة ولكن بالالتزام .. لا أستطيع أن أقول عن إنسان يسرق جنيها أنه أمين لأنه سرق جنيها فقط .. بل من يسرق جنيها فقد خان الأمانة .. كذلك الإيمان .. من لا يلتزم بجزء منه فقد انتفى عنه الايمان ..

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى حينما يكلفه .. ينادى أولا ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا عليكم** » كذا وكذا .. يعنى يا من آمنت بى إلها .. اسمع منى الحكم الذى أريده منك .. وأنا لا أطلب هذا الحكم من خلقى جميعا ولكن أطلبه من الذين آمنوا .. لذلك ينادى الحق سبحانه وتعالى : « **ياأيها الذين آمنوا** » .. فمن أوفى بعهده الإيمانى فعل .. ومن لم يوف بعهده الإيمانى فقد

خرج عن مناداة الله فى قوله سبحانه وتعالى : « **يا أيها الذين آمنوا** » . . وهكذا يكون الإيمان وفاء بالعهد والتزاما بما أمر به الله وتنفيذ مراد الله فى افعل ولا تفعل .

ولا تصدق أبدا أن إنسانا غير مؤمن يحبه الله سبحانه وتعالى . . بعض الناس لا يؤدى ما أمر به الله . . ثم بعد ذلك يأتى إليك ويقول إنه يحس بأن الله يحبه وأنه يحس أن الله يرعاه . . نقول هؤلاء جميعا . . لا تعيشوا على الوهم . . فالله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بذلك . . بل قال : « **إنه يحب المتقين** » . .

ليس من أهلك

وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك . . ولله المثل الأعلى :

نأتى إلى قصة نوح عليه السلام . . الحق سبحانه وتعالى وعد نوحا بأن ينجيه من الغرق هو وأهله . . ثم فوجىء نوح بابنه يكفر ويرفض أن يصعد معه إلى السفينة ويقول : « **سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** » . . ويرد نوح : « **لا عاصم اليوم من أمر الله** » . . ثم يحول بينهما الموج فيغرق الابن ويصاب نوح بذهول . .

لقد وعده الله بأن ينجيه هو وأهله . . ولكنه أغرق ابنه . . فهل وعد الله غير حق ؟

فيرفع نوح يديه إلى السماء ويقول : « **رب ان ابنى من أهلى وإن وعدك الحق** » . . أى ياربى ابنى هذا من أهلى الذين وعدتنى بأن تنجيهم معى ووعدك يا ربى الحق وأنت وعدت . . فيرد الله سبحانه وتعالى : « **إنه ليس من أهلك أن عمل غير صالح** » . .

مامعنى هذا الكلام ؟ . . معناه آن الذاتية عند الله وصلات النسب والدم لا تنفع الإنسان ولا تؤهله لحب الله ورحمته . . ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة : (**يا فاطمة انى لن أغنى من الله شيئا**) . .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب نوحا لم ينسب الابن لنوح .. ولكن نسب الابن إلى عمله .. فقال « انه عمل غير صالح » .. وأهل الأنبياء هم الذين على منهجهم .. هم الذين يتبعون المنهج .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جاء بسلمان وهو فارسي وليس عربي الجنسية أو المولد .. وقال : (سلمان منا آل البيت) .. الذى نسب سلمان إلى آل بيت رسول الله هو عمله .. وليس قرابته أو صلة الدم أو أى شيء آخر .

ولعلى أذكر فى ذلك قصة كعب بن الأشرف .. دخل عليه جماعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه الطعام والكساء ، فقال لهم أتؤمنون بأن محمدا رسول الله .. وكان كعب كافرا .. أراد أن يعرف إن كانوا مؤمنين أو لا .. فقالوا له نعم نحن نؤمن بأن محمدا رسول الله .. فقال كعب لقد حرمتم أنفسكم من الخير .. كنت أريد أن أبركم وأن أكسوكم وأن أعطيكم الطعام ولكن بإيمانكم بمحمد حرمتم أنفسكم من خير كثير .. فمادمتم قد أعلنتم الايمان فلا طعام لكم عندى ولاشراب ولا كساء .

وجلس أفراد الجماعة يتداولون .. وقالوا نحرم أنفسنا من هذا الخير كله ؟ .. فعادوا إلى كعب وقالوا له دعنا فترة نراجع فيها أنفسنا لأنه ربما كان فى ملتنا شبهة .. فلما قالوا هذا الكلام أعطاهما الطعام والشراب والكسوة .. ولكن هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فقد خرجوا على الإيمان ليحصلوا على الطعام والكسوة .. وهكذا كان خروجهم ولو لمجرد قولهم شبهة البعد عن الإيمان بالله .. ولكن هل هذا الكلام لا ينطبق على هؤلاء الناس وحدهم .. إنه ينطبق علينا جميعا ..

كل منا يزين للسلطان أو الحاكم فعلا من الأفعال التى لا يرضى عنها الله ليحصل على نفع شخصى ، فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا ..

كل من يعين إنسانا على باطل أو على ظلم أو يمضى به فى طريق غير طريق

الحق . . يزين له الطريق ويغريه فيه فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا . . كل من يشهد زورا أو يفعل باطلا أو يفعل شيئا دنيويا لا يرضى الله فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا . . وحتى تعمم القاعدة : كل من يجعل آية من آيات الله سلعة يبيعها أو يخالفها ليحصل على الثمن يعتبر داخلا فى النص .

لا خـــلاق لهم

ماذا يقول الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء ؟. يقول « **أولئك لا خلاق لهم** » . . وما هو الخلق . . الخلق أن توجد صفة من الإنسان تلتصق به حتى يصير يوصف بها . . فلان اتصف بالصدق . . معناه انه التصق بالصدق . . وفلان خلقه الكرم . . أى أصبح طبعه الكرم . . وفلان صفته السماحة إلى آخر ذلك . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « **لا خلاق لهم** » . . أى لا صفة لهم فى الآخرة التى هى أساس التقييم الصحيح . . والتقييم الصحيح فى الوقت الذى لا يستطيع الإنسان أن يغير شيئا . . فى الوقت الذى هو مقهور فى كل شيء فمن لا خلاق له فى الدنيا يستطيع أن يعدل سلوكه وأن يغيره . . وربما بعد أن يعدل سلوكه يكون له نصيب . . أما من لا خلاق له فى الآخرة . . ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم فهل يستطيع أن يفعل شيئا . . ذلك الذى خسر إيمانه .

ولذلك عندما يحاول الكافرون مخاطبة الله وهم فى النار . . يقول لهم الله سبحانه وتعالى : « **إخسأوا فيها ولا تكلمون** » وعندما تقرأ آيات الله حول الحساب والآخرة نجد أن الذين يستهينون بيوم القيامة هم الذين لا يؤمنون بالله . . ولكن المؤمنين يرتعدون من هول ذلك اليوم . . ومن حساب الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها « **ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** » .

على أن الإيمان بالله يجعلك فى درجة عالية جدا . . بحيث عندما يحدثك الله

سبحانه وتعالى عن الغيبيات فكأنك ترى ما تقرأه يحدث أمامك .. والله سبحانه وتعالى يقول مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** » .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير رأى العين .. ولو أن الله سبحانه وتعالى قال ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. لكان ذلك فى رأى بعض الناس تعبيرا أدق .. لأن محمدا عليه السلام مادام لم ير فإنه يكون قد علم من غيره .. فالعلم قد تحصل عليه باجتهادك الشخصى .. وقد تحصل عليه عن طريق غيرك سن البشر .. فأنت حين تدرس العلوم والتاريخ فى الجامعات فإنك تعلم ما علم غيرك ونقل إليك بواسطة الكتب .. ثم تضيف أنت علما بعد ذلك فتصبح إضافة يتعلمها غيرك من الناس الذين سيأتون بعدك .. إذن فاستخدام كلمة « ألم تعلم » بدلا من « ألم تر » كانت ستكون أدق بشريا .

لكن القرآن الكريم كلام الله لم يكتبه بشر .. والحديث فى قضية من قضايا الايمان بالنسبة لإنسان مؤمن بمثابة رؤية صادقة .. فإذا جاء من الله فهو رؤية يقينية .. ولأن القرآن يحدثنا عن غيبيات مما سيحدث فى الآخرة .. والإيمان أساسا إيمان بالغيب ، فإذا لم تكن متيقنا من أنك ستقابل فى الآخرة كل ما ذكره الله سبحانه وتعالى .. فإنه فى هذه الحالة يهتز إيمانك .

إن أساس اليقين البشرى فى الدنيا هو الرؤية بالعين .. وما دمت أراك أمامى فلا يوجد سؤال فى نفسى هل أنت موجود داخل الحجرة أم غير موجود .. ولا يثور حول ذلك جدل .. وإذا كنت أجلس وأتحدث مع زوجتى فلا أسأل نفسى أبدا هل هى موجودة فى البيت أم لا .. تلك بديهيات لا تدخل فى مجال المناقشة ويسلم بها كل إنسان .

ولعل الجدل الذى كان قائما حول كروية الأرض انتهى تماما حين صعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على شكل كرة كبيرة هائلة .. وفى تلك

اللحظة توقف الجدل تماما لأن رؤية العين حولت القضية من جدل علمى إلى يقين بصرى وانتهى كل شىء ولا مجادلة .

وأنت فى قضية الإيمان تناقش كل شيء بعقلك وتبحث الأمور وتزنها . . فتقارن الحجة بالحجة إلى أن تهتدى للإيمان . . عند هذه النقطة يستقر الإيمان فى قلبك ولا يطفو مرة أخرى إلى العقل ليناقش من جديد . . فإن عاد مرة أخرى إلى العقل فإيمانك فى هذه الحالة إيمان ناقص .

فإذا آمنت إيمانا كاملا . . وأخبرك الله سبحانه وتعالى عن شيء فهو رؤية يقينيةٌ فى نفسكْ . . تماما كالرؤية اليقينية التى تتم بالعين . . فإذا حدثك عن النار مثلا فكأنك تراها . . وإذا حدثك عن الجنة فهى يقين رؤية فى نفسك . . وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن شيء مضى . . فهو يقين فى نفسك كأنك عشته .

إذن فالعملية هنا هى قضية إيمانية كبرى . . فالسماع من الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن يقينية . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » فهى رؤية يقينية تماثل رؤية العين . . ولأن القرآن لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة . . لذلك فإن المسائل المستقبليةفيه تظل مستقبلية . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »** . . فمعنى ذلك أن هذا الأمر سيظل أزليا . . بمعنى أن هذه الآية حين نزلت قرئت سنريهم . . ونحن الآن نقرأها سنريهم . . والذين سيأتون بعدنا سيقرأونها سنريهم . . وهكذا يريد الله لنا أن نعرف أن هناك عطاء جديدا لكل جيل من الله سبحانه وتعالى ، غير عطائه للجيل الذى قبله . . . ولذلك فإن حرف « السين » فى القرآن يحمل إعجازا مستقبليا حتى يوم القيامة .

ولكن لماذا جاءت كلمة « ألم تر » فى سورة الفيل . . ولماذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون حادث الفيل هذا يقينا مثل يقين الرؤية . لأن هذا الحادث يمثل

طلاقة القدرة التى تعطى شعاع الإيمان وتطرد شعاع اليأس من نفس المؤمن .. فالحادث كما نعرفه أن أبرهه جاء بعدد ضخم من الأفيال ليهدم الكعبة .. وخرج سكان مكة إلى الجبال تاركين البيت لأنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام أبرهه وأفياله وجنوده وجيشه الجرار ..

هنا حادث إيمانى هائل .. رجل استعان بجبروت الدنيا وهو أبرهه ليهدم بيت الله الحرام .. وقوة دنيوية أخرى وهم سكان مكة خافوا من جبروت الأرض وتركوا البيت .. حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى .. لقد انطلق أهل مُكة إلى شعاب الجبال ، وتركوا الطريق خاليا بين جيش أبرهه الجبار وبين بيت الله الحرام .. ولم يكن أمام أبرهه إلا أن يمشى مسافة قصيرة بلا مقاومة ليهدم البيت .. وهكذا تخلى البشر عن قضية حق وهى حماية بيت الله الحرام ممن يريد أن يهدمه وابتعدوا جميعا .

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفجر قضية إيمانية كبرى وأن يريهم أن الجبار الذى يخشونه .. والجيش الجرار الذى يهابونه هو عند الله لا يساوى شيئا .. وأن صاحب الحق الضعيف يجب ألا يخاف من الباطل القوى .. ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالطير .. تلك المخلوقات الضعيفة التى أن أمسكتها بيدك وضغطت عليها بقوة ماتت أو فقدت الحياة .. جاء الله سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات الضعيفة .. وقال سأريكم أيها البشر أن أضعف مخلوقاتى سيهدم هذا الجيش الجبار ويمحقه .. وانطلقت الطير تحمل حجارة صغيرة فقضت على الفيلة الجبارة فى زمن قصير وحطمت الجيش تماما .. حدث هذا أمام أعين الناس وشهده الجميع .

والعجيب أن بعض العلماء لا يتقبل الآن أن طيرا صغيرا يهزم جيشا جبارا من الفيلة لجيش أبرهه .. فأخذ بعضهم يشكك فى الرؤية .. ويقول انها جراثيم هى التى قتلت جيش أبرهه وقضت عليه .. كأنما هى مسألة صعبة على الله

سبحانه وتعالى أن يرسل طيرا ضعيفا ليقضى على جيش من الأفيال القوية .. ولذلك فهم يريدون أن يسهلوها على الله سبحانه وتعالى .

ونقول لهؤلاء جميعا : أن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا إلى عون أو مساعدة .. وأن عام الفيل كان عام مولد رسول الله .. ورسول الله بعث فى الأربعين .. أى أنه كان هناك من هم فى سن الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين ومن هم فوق ذلك .. هؤلاء جميعا رأوا عام الفيل رؤية العين .. فلو لم تأت هذه الطير .. ولو لم تلق بحجارة من سجيل ولو لم تجعل جيش أبرهه عصفا مأكولا لكان هؤلاء الناس قالوا إن ما يقوله محمد غير صحيح .. ولقد شهدنا عام الفيل ولم نر طيرا تأتى ولم نرها تفنى جيشا عظيما وفيلة جبارة بأحجار صغيرة .. ولكن أحدا من الكفار أو غير المؤمنين الذين كان يهمهم الطعن فى هذا الدين لم ينفوا هذه الواقعة وقت نزولها .. مع أنهم رأوها . وهذا دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم .. ولعل هذا ينبهنا إلى الحكمة فى قوله تعالى : « ألم تر » .. لأنه وجد من بيننا الآن من يتشكك فى هذا الأمر .. فكان لابد أن يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر » .. وكأنها جاءت ردا على هؤلاء الذين تشككوا فى الماضى والذين يتشككون الآن ..

التكليف .. وحركة الاختيار

والعبادة لله سبحانه وتعالى هى تكليف .. والتكليف إنما جاء ليضيق حركة الاختيار عند الإنسان .. افعل هذا .. ولا تفعل هذا .. والله قيد حركتنا حينما وضع المنهج بافعل ولا تفعل .. ولو أننا درسنا العلة فى تقييد حركة الإنسان لحمدنا الله سبحانه وتعالى على منهجه .. فما قال افعل كان الخير فيه .. وما قال لا تفعل كان الخير فى تركه .. فكأن التكاليف لو عقلها العاقل لعلم أن الله المعبود المكلف وضع لنا كل ما هو كريم فى الحياة وضمن لنا عدم التصادم مع الكون .. لأن الله يريد أن يوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة .. لذلك فهو يضع قواعد هذه الحياة .

قد يكون هذا شاقا على بعض النفوس .. ولكننا لو تأملنا لوجدنا المشقة ضئيلة جدا لتقى المجتمع من شرور رهيبة .. والله سبحانه وتعالى حين يمنعنى عن السرقة .. قد يحمينى من نزوة نفس .. ولكنه إذا أباح السرقة فقد أباح مالى للمجتمع كله .. وهو حين يحرم القتل ، ربما منعنى من نزوة انتقام .. ولكن تعالوا وانظروا إلى مجتمعات أبيحت فيها السرقة والقتل والنهب ـ كما يحدث الآن فى لبنان مثلا ـ أرأيت إنسانا آمنا على نفسه هناك .. أرأيت إنسانا يخرج من بيته فى الصباح ويعرف أنه سيعود إلى أولاده أو لا يعود .. أرأيت إنسانا آمنا على طعام اختزنه لساعة عسرة أو لإطعام أولاده الصغار .. أرأيت إنسانا يمشى فى الشارع يتلفت يمنة ويسرة لا يعرف من أين يأتيه الموت .. إنه مجتمع رهيب ..

ومنذ عدة سنوات انقطعت الكهرباء فى مدينة نيويورك بأمريكا عدة ساعات فارتكبت ألوف الجرائم من السرقة والاغتيال والنهب .. وقعت كل هذه الجرائم خلال خمس أو ست ساعات من الظلام .. انطلق المجتمع كله يقتل بعضه .. وينهب بعضه .. ويسرق بعضه .. ويفتك بعضه بالبعض الآخر ..

هذه تجربة حدثت فعلا فى مجتمع يوصف بأنه متقدم .. ولو ان انقطاع التيار الكهربائى هذا حدث فى بلد يطبق حدود الله كالسعودية مثلا حيث تقطع يد السارق .. لو أن التيار الكهربائى انقطع هناك عدة أيام لا عدة ساعات لما حدثت جريمة واحدة .. ولعاش كل طفل وامرأة وشيخ فى أمن وأمان .. ولتعاونوا جميعا على قضاء حوائجهم فى الظلام .. وهذا هو الفارق .. هذا هو الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يوفره لكل مؤمن .. يريد أو يوفر له الأمن والأمان والحياة الطيبة الكريمة .. وهذا لا يتأتى فى أى مجتمع لا يقيم حدود الله .. مهما قيل عن هذا المجتمع أنه متقدم .. ولن تجد فى مجتمع لا يقيم حدود الله حياة طيبة .. بل تجد الخوف يسيطر على كل إنسان .. كل متربص بالآخر .. وكل يحمل سلاحا ليدافع عن نفسه أو ليهاجم غيره .. هل عرفنا الآن بمثل حى قريب ما معنى تطبيق منهج الله .. وهل شهدنا كيف يتصادم

الإنسان مع الحياة إذا ابتعد عن هذا المنهج فينقلب الأمن إلى خوف والطمأنينة إلى ذعر .. والحياة الطيبة إلى حياة بائسة .

إذن فمن نعم الله علينا أنه وضع لنا منهج الحياة ولم يتركنا نضعه لأنفسنا .. ذلك لأنه لو تركنا نضع نحن المنهج لفسدت الدنيا .. ولاعتدى القوى على الضعيف ، وأخذ القادر حقوق غير القادر .. ومن نعم الله أيضا أنه رب كل شيء .. ومن هنا فان ما سخره الله لنا لا يستطيع أن يتمرد على أمر الله .. فالشمس والقمر والهواء والجبال والأرض .. كلها لا تستطيع أن تعصى أمر الله ، فى أن تخضع للإنسان .. وتخدمه ، وتفعل ما هى مسخرة له .. فلا الشمس مثلا تستطيع أن تقول انها لن تشرق اليوم أو غدا .. أو تستطيع أن تبتعد عن الأرض فتحولها إلى كتلة من الجليد .. أو تقترب منها فتحولها إلى مكان حار متلهب تنتهى فيه الحياة .. ولا يستطيع الهواء أن يقرر مثلا فى يوم من الأيام أن يترك سطح الأرض ويذهب بعيدا .. وتصبح الأرض بلا غلاف جوى الحياة فيها مستحيلة ، ولا يستطيع البحار والأنهار أن تجف .. ولا الجبال أن تزول وهى الرواسى التى تحفظ سطح الأرض وتوازنها .. كل هذا لا يمكن أن يتم لأن الله رب العالمين .. رب هذه المخلوقات كلها .. وكل هذه المخلوقات تخضع لأمر الله سبحانه وتعالى ..

ولو كان هناك أكثر من إله لفسدت الأرض لأن كل إله كان سيصدر أوامر مختلفة إلى ما خلق أو ما يسيطر عليه .. وكل ما سخره الله سبحانه وتعالى للبشر هو عالم مقهور لا اختيار له .. أو هو عالم كما سبق أن بيننا اختار أن يكون مقهورا لله على أن يأخذ الحرية فى افعل ولا تفعل ولذلك فقد يرى الكون الإنسان عاصيا لله .. وهذا تصادم بين كون يخضع خضوعا تاما لله وإنسان عاص .. ولكن رغم ذلك لا يستطيع هذا الكون أن يخرج عن تسخير الله له لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا .

هذا فى الحياة الدنيا : أما فى الآخرة فإن كل هذه الأشياء المسخرة من الله

تشهد على الإنسان . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : **« يوم تشهد عليهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »** . . فيقولون **« أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء »** . . أى أن جوارح الإنسان هى خاضعة له بالتسخير فى الحياة الدنيا . . فإذا أمرها بمعصية تؤديها كارهة لأنها مسخرة لا تستطيع أن تعصى للإنسان أمرا . . فإذا جئنا إلى الآخرة وزال التسخير . . نطقت الأيدى والأرجل بما كان الإنسان يفعله من المعاصى .

رحمة الخالق

ولذلك يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى رحمة الخالق بالإنسان وجحود الإنسان لربه :

« قالت الأرض يارب إئذن لى أن أخسف بابن آدم الأرض فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت السماء يارب لى إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال يارب إئذن لى أخر على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . . وقالت البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

إذن كل العوالم التى سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان . . ضجت من معصيته وتوجهت إلى الله سبحانه وتعالى طالبة الاذن أن تفنى بنى آدم من الوجود جزاء له على معصيته . . ويمضى الرسول الكريم مكملا . وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : (**لو خلقتموه لرحمتموه دعونى وعبادى إن تابوا إلى فأنا حبيبهم . وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم**) . .

إذن هذه هى رحمة الله بخلقه تلك الرحمة التى جعلته يسخر لنا ما فى الكون . . ثم يمنع كل ما هو مسخر من أن يخرج عن طاعة الإنسان . . هذه هى

رحمة الله وصبره على عباده . . وعدم مواجهة الاساءة بالعقوبة . . وفتحه باب التوبة والمغفرة لكل نادم على معصية . وفتحه باب رحمته لكل عاص . . إن الله لا يأمر الأرض أن تهلك من فوقها بزلزال مدمر . . ولم يأمر المياه أن تغرق الأرض . . ولم يأمر السماء أن تسقط كسفا على الناس . . بل منع كل هذا برحمته . . وفتح باب التوبة والمغفرة ووضع لنا منهج الحياة . . ومع ذلك فنحن نعصاه .

ادراكات . . لا تستوعبها العقول

والله سبحانه وتعالى جعل لكل خلق من خلقه ادراكات . . ولكن ظنون الناس وعقولهم لا تتسع لهذا . . فكل خلق نراه أمامنا أو لا نراه يتفاهم مع خالقه . . مع أننا لا نستطيع أن نتفاهم مع بعضنا البعض . . ويريد البعض منا ألا يتفاهم مع منهج الله . . فالشمس لها حديث مع الله . . والأرض لها حديث مع الله . . والجبال لها حديث مع الله .

اقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

خطاب مع الله سبحانه وتعالى . . قول السماء والأرض وهى تناجى خالقها . . وهنا نتوقف قليلا . . هل يقال لشيء أو يقول الشيء إلا أن يكون هناك فهم من القائل . . وهل حديث الشمس أو الأرض الذى ورد فى القرآن الكريم ليكشف لنا ادراكات هذا الفهم الذى تعجز عقولنا عن فهمه . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه علم سليمان منطق الطير . . وأن سليمان فهم من النملة . . وأن الجبال يسبحن مع داود . . وعرفنا أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم كان يسمع تسبيح الحصى وهو فى يده .. والحصى يسبح سواء كان فى يد رسول الله أو بعيدا عن يده .. ولكن الله سبحانه وتعالى أفهم رسول الله لغة الحصى فسمع تسبيحه .. كما فهم سليمان عن النملة .. وجذع النخلة بكى حنينا إلى رسول الله .. إذن كلها عوالم لها ادراكات .. بل اننى أضيف لهذه العوالم عواطف .. مع أن العواطف مشهور عنها انها عند الإنسان فقط .

ولكن انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى عندما يتحدث عن اخراج قوم فرعون عن مصر « **كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين** » .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى : « **فما بكت عليهم السماء والأرض** » .. إذن السماء والأرض لهما بكاء .. ومادامت السماء والأرض لم تبكيا على آل فرعون .. فإن لهما مناسبات تبكى فيها .. ولو أن السماء والأرض لا تبكيان على أحد لما كان الله سبحانه وتعالى يخبرنا بذلك .. ولكن قول الله تعالى : « **فما بكت عليهم السماء والأرض** » يدل على أنهما تبكيان .. وهما تبكيان العبد الصالح .. الأرض تبكى مكان سجود العبد المؤمن عليها .. والسماء تبكى مكان صعود دعاء العبد الصالح إليها .. فالمكان يصلى فيه الإنسان ويدعو ربه .. المكان الذى لم يشهده إلا على طاعة .. ولم يره فى معصية .. ينسجم مع هذا العبد الصالح ، ويأنس بجلوسه فيه .. فإذا فارقه الإنسان بالموت مثلا يحزن عليه ويبكى .. ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه (إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضع الأرض فهو مصلاه .. المكان الذى كان يسعد وهو يسمع الإنسان يصلى ويسبح مولاه .. أما الموضع فى السماء فهو مقعد عمله الطيب الذى يتقبل فيه دعاؤه) .

وهكذا نجد ان الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق انفعالات للأرض والسماء .. فإذا قالت الأرض شيئا .. أتقوله لى أم لمن خلقها .. تقوله طبعا لمن خلقها .. ولا يعز على من خلقها أن يتفاهم معها .. لأن الأشياء فى التكوين منفعلة للخالق .. والله سبحانه وتعالى يقول : « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول**

له كن فيكون » . . وهكذا تصبح الكلمة وجودا . . وكل شيء فى الكون موجود بكلمة « كن » . . وكل شيء منفعل لله سبحانه وتعالى . . لأنه وجد من الله قال له « كن » فتم الخلق . . ولا يحدث ذلك إلا إذا كان هناك فهم من هذا الشيء لأمر الله سبحانه وتعالى .

* * *

وكل شيء فى الدنيا والآخرة هو فى علم الله سبحانه وتعالى . . فالله لا زمن عنده ولا شيء يحجب المستقبل . . ولكن الزمن عندنا نحن .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾

(سورة الحديد)

إذن فالوجود كله فى علم الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . . ولا يمكن أن يتم خلق شيء إلا إذا كان خالقه يعلمه ولا يجهله . . ولا يمكن أن يكون المخلوق قيدا على خالقه . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء . . ما خلق . . وما سيخلق . . وما سيتم إلى يوم القيامة . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد . . فإذا أراد أن يخلق يوما مثلا مقداره أربع وعشرون ساعة . . قال له : « كن » فكان . . وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره ألف سنة . . قال له : « كن » فكان . . وإذا أراد أن يخلق زمنا للناس قال له : « كن » فكان . . ومن صفات مخلوقيته عز وجل أنه يخلق الماضى والحاضر والمستقبل . . ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بذلك فى القرآن

الكريم .. فمزق لنا حجب المستقبل فقال تعالى : **« الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد »** .

ولقد نزلت هذه الآية عندما قام الفرس بحرب الروم وهزموهم .. وكان الروم يعتنقون المسيحية .. والفرس كفرة لا يؤمنون بالله . وفرح المشركون بهزيمة الروم لأنهم يناصرون أهل الكفر وهم الفرس .. ونزلت الآية الكريمة بأن الروم سيغلبون فى بضع سنين .

والسؤال هنا أنه لو كان هذا القرآن من عند غير الله .. لما غامر أبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلام لا يتبدل ولا يتغير .. متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. يعلن ويؤكد نتيجة معركة حربية ستحدث بعد بضع سنين بين دولتين .. لأن هذا يعرض قضية الإيمان كلها للخطر .. فماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس تصالحا ولم يتقاتلا .. أو أنه بدأت معركة هزم فيها الروم مرة أخرى .. ومن الذى يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستقوم بعد ثمانى سنوات ويحدد الغالب فيها مع أن أحدا لم يطلب منه ذلك .

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد .. وهو الذى يخلق النصر والهزيمة .. وكل ما سيحدث فى علمه .. جاء القرآن يتحدث ويمزق حجاب المستقبل .. الذى لا يستطيع أن يمزقه أحد .. ويعلن نتيجة معركة حربية ، ويعلن من المنتصر .. ويعلنها بثقة تامة .. وتمر السنون وتحدث المعركة كما تنبأ القرآن تماما .

علم الله حتى يوم القيامة وما بعد يوم القيامة .. وإذا كان القرآن قد مزق الحجب .. وأتى بمعجزات لاتزال تتضح كل يوم .. فإنه قد أتى بذلك ليفيق عقل البشر .. فيعرفوا يقينا أن القرآن منزل من عند الله فيتبعوه .. ولكن **« إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »** .

حديث قدسي

عن أبي ذر رضي الله عنه . . عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن الله تبارك وتعالى انه قال :

يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي . . وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا . . يا عبادي . . كلكم ضال إلا من هديته . . فاستهدوني أهدكم . . يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . . يا عبادي كلكم عار . . إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم . . يا عبادي . . انكم تخطئون بالليل والنهار . . وأنا أغفر الذنوب جميعا . . فاستغفروني اغفر لكم . . يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني . . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم . . ما زاد ذلك في ملكي شيئا . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم . . كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا . . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته . . ما نقص ذلك مما عندي . . إلا كما ينقص المخيط . . إذا ادخل في البحر . . يا عبادي . . إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . . ثم أوفيكم اياها . . فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك . . فلا يلومن إلا نفسه » .

الفصل السابع

البداية من باب الرحمة

حين نبدأ باسم الله . . فاننا نبدأ العمل ومعنا قدرة الله سبحانه وتعالى تعيننا على العمل . . والفعل عادة يحتاج إلى أكثر من صفة . . فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . . تقول باسم القوى حتى تمدك صفة الله سبحانه وتعالى بالقوة . . وإذا أردت علما فانك تبدأ فى الاستعانة باسم الله العليم . . ليمدك الله من لدنه بالعلم . . وإذا كانت الحكمة هى مطلبك تقول باسم الله الحكيم . . وإذا كان ما تريد أن تستعين به هو القهر . . استعنت بالله القاهر .

إذن فأنت فى كل مرة تستعين باسم الله . . متخذا من صفاته سبحانه وتعالى ما يناسب العمل الذى تنوى القيام به . . ولكن الأعمال والأفعال لا تحتاج إلى صفة واحدة . . بل صفات كثيرة . . بل أن أتفه عمل يحتاج إلى أكثر من صفة . . بل إلى صفات متعددة . . ولا تعتقد أن هناك عملا يحتاج للقدرة وحدها . . وإنما يحتاج للعلم مع القدرة . . ويحتاج للحكمة . . ويحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى . . بدلا من أن يثقل عليك صفات المجالات للفعل . . قال لك . . قل . . « باسم الله » . . لأن هذا الاسم يجمع كل الصفات ويعينك على كل الأمور . . فإذا قلت « باسم الله » . . فكأنك قلت باسم القوى . . وباسم القادر وباسم المهيمن . . وباسم الرحمن . . وباسم الرحيم . . وبكل الأسماء الحسنى . . لماذا ؟ . . لأنك اتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال . . ولقد اختلف عدد من العلماء حول « بسم الله الرحمن الرحيم » . . وهى موجودة فى ١١٤ آية من القرآن الكريم . . هل هى من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ « باسم الله الرحمن الرحيم » . . تحسب البداية على أساس أنها من آيات السورة . . أم أنها جاءت فى فاتحة الكتاب . . ثم بعد ذلك كفواصل بين السور . . ورجح بعض العلماء أن « باسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم ولكنها ليست آية من السورة نفسها . . ولهذا السبب فإنك تسمع بعض الأئمة حين يقيم الصلاة

ويقرأ الفاتحة . . يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فى سره . . ثم بعد ذلك يبدأ بـ« **الحمد لله رب العالمين** » ويستكمل قراءة الفاتحة . .

وفاتحة الكتاب هى قسمة بين الله وبين العبد . . الله سبحانه يقول فى حديث قدسى :
(قسمت الصلاة بينى وبين عبدى) ويعنى بالصلاة فاتحة الكتاب - بدليل التفسير الذى جاء بعدها . . وكون الله سبحانه وتعالى لم يقل فى حديثه القدسى قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى . . ولكنه قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى . . وذلك يدل على أن فاتحة الكتاب هى جوهر الصلاة . . والفاتحة قسمهاالله سبحانه وتعالى إلى نصفين . . نصف له جل جلاله . . ونصف لعبده . . أما الذى لله سبحانه وتعالى فثلاث آيات هى « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين** » . . والآيات التى هى للعبد « **إهدانا الصراط المستقيم . . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » . . وهنا نلاحظ أن «**الرحمن الرحيم** » جاءت بعد « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فأنت حين تقرأ الفاتحة تقول « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . ثم بعد ذلك تقول . . « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** » . . فكأن « **بسم الله الرحمن الرحيم** » الأولى التى قلتها إنما هى بداية للعمل . . والعمل يتم للوصول إلى غاية ونتيجة . . فإذا بدأت « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . مستعينا بالله سبحانه وتعالى وبقدرته . . متجها إلى الله سبحانه وتعالى طالبا رحمته وغفرانه . . فلا يؤاخذك بما فعلت فى الماضى . . وينزل رحمته عليك لتبدأ العمل الذى تنوى القيام به .

فإذا أنعم الحق تبارك وتعالى عليك باتمام العمل . . فماذا تكون النتيجة الطبيعية لذلك ؟ . . هو أن تقول « **الحمد لله رب العالمين** » . . ثم بعد ذلك تعود فتقول « **الرحمن الرحيم** » . . شاكرا لله سبحانه وتعالى رحمته التى أمدك بها سواء توفيقا أو إعانة . . ثم بعد ذلك تمضى فتقول « **مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين** » . .

وقد قال رب العزة جل جلاله .. قسمت الصلاة بيني وبين عبدى .. ثلاث لى .. وثلاث له .. فإذا قال « **الحمد لله رب العالمين** » قال الحق حمدنى عبدى .. وإذا قال « **الرحمن الرحيم** » .. قال الحق اثنى على عبدى .. وإذا قال « **مالك يوم الدين** » .. قال الحق مجدنى عبدى .. وإذا قال « **ايك نعبد واياك نستعين** » .. قال الحق تبارك وتعالى هذه لى وله .. منه العبادة ومنى العون ولعبدى ما سأل .. والثلاث التالية « **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » يقوله الحق سبحانه وتعالى .. يكون لعبدى ما سأل ..

والحق تبارك وتعالى بدأ الحديث القدسى بقوله « **الحمد لله** » .. ولم يقل سبحانه وتعالى إذا قال العبد « **بسم الله الرحمن الرحيم** » أجبته بكذا .. ولكنه. جل جلاله بدأ حديثه القدسى بقوله إذا قال العبد « **الحمد لله** » .. وبذلك دل على أن فاتحة الكتاب شيء والتسمية الاستهلالية شيء آخر .. فالتسمية الاستهلالية من القرآن وليست من نص السور .. لأن الله سبحانه وتعالى حين قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى .. لم يبدأ الفاتحة بقوله تعالى « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. ولكنه قال تعالى الحمد لله .. ولذلك تقول « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فى الصلاة سرا .

ويريد الحق تبارك وتعالى بالتسمية الاستهلالية « **بسم الله الرحمن الرحيم** » أن يذكرنا دائما أننا ندخل عليه من باب الرحمة .. أكثر من أن ندخل عليه من باب العمل .. والإنسان خلق خطاء .. والإنسان خلق ظلوما .. وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله الا أن يتغمده الله برحمته**) .. قيل حتى أنت يا رسول الله .. قال عليه الصلاة والسلام حتى أنا ..

وأنت إذا استعنت بالله .. فانك تستعيذ برحمة الله سبحانه وتعالى .. لأنك لو لم تستعذ بعدل الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. ولولا رحمة

الله ما بقيت لنا نعمة . . ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم . . ما أبقى على ظهرها من دابة . . وأنت لو لم تستعذ بالله . . لما وجدت سبيلا إلى جنته . . فذنوب الإنسان فى الدنيا ومعاصيه لا تحصى ولا تعد . . إذا تكلم فقد ينم . . وإذا حكم فقد يظلم . . وإذا ظن فقد يسىء . . وإذا تحدث فقد يخطىء . . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . . هذه أشياء يرتكبها كل واحد منا مئات المرات . . وبدرجات متفاوتة . . فما من إنسان لم يصدر عنه فى يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم . . ولو مرة . . ولم يصدر عنه حكم بعيد عن الصدق فى أى أمر من أمور الحياة وجانبه الحق . . ومن منا لم يسىء الظن بإنسان كل يوم . . ومن منا لا يخطىء الحديث ولا يبتعد عن الحق ولو خطوة واحدة . . ومن منا ذلك الذى يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه . . وأن يخلص هذه النفس عن هواها . . وأن يبعدها بعدا كاملا عن كل خطيئة . . منذا الذى يستطيع أن يدعى أنه منذ أن يستيقظ حتى ينام . . لم يخطىء خطأ . . ولم يرتكب إثما ولو صغيرا . . ولم يهدر حقا لإنسان . .

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لله . . لا يصلون إلى مرتبة الكمال . . فالكمال لله وحده . . ورسول الله صلى عليه وسلم يقول (كل بنى آدم خطاء . . وخير الخطائين التوابون) . . والله سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول « **إن الإنسان لظلوم كفار** » . . والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم . . وأن يمنعه عن طاعة الله .

ولذلك كان لابد من باب الرحمة يدخل منه البشر إلى الله سبحانه وتعالى . . وان يكون هذا الباب مفتوحا على مصراعيه . . يهرع إليه كل عاص ليقول يارب عدت إليك وأنا نادم على ما فعلت . . فتقبلنى . . حتى أن عددا من كبار الزاهدين والمتقربين إلى الله . ربما ارتكب فى بداية حياته بابا من أبواب المعصية ثم تاب إلى الله فتقبل توبته . . وحسن اسلامه . . وإذا نظرنا إلى بداية الاسلام نجد أن رجالا ونساء من الذين حاربوا هذا الدين فى أوله . . قد حسن إسلامهم . . ووضعوا فى الاسلام ليصيروا عونا ونصرا لدين الله بعد أن كانوا

حربا عليه .. وغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما ارتكبوه فى أيام الجاهلية .. وفتح لهم أبواب رحمته ورضاه ليصبحوا من أئمة هذا الدين .

ولكن لماذا قال الله « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. ولماذا قرن اسمه بالرحمن الرحيم .. حتى إذا قلت لأى عاص ابدأ عملك باسم الله يقول لك لقد صنعت كذا وكذا .. وأنا أستحى أن استعين بالله بعد أن عصيته وأغضبته .. تقول له أن الله سبحانه وتعالى علم ذلك أزلاً .. ففتح الباب لكل عاص يريد أن يتوب إليه ويستعين به .. فقرن اسمه جل جلاله بالرحمن الرحيم .. حتى تتذكر أنك لو كنت ارتكبت معصية فان الباب مفتوح .. ولو قلت اننى قد عصيت الله نقول لك إن ذلك لا يمنع من الاستعانة بالله لأنه رحمن .. ولأنه رحيم .. ولا تمنعك معصية من أن تستعين باسم.الله فى كل عمل .. لأنها الطريق إلى التوبة .. وإلى الإيمان .. الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به فى كل أمر من أمور الدنيا .. وأنت إذا استعنت باسم الله الجامع لكل صفات الكمال أعانك .. فإن كنت عاصيا .. فلا تعتقد أن الله قد طردك من رحمته .. أو يتخلى عنك إذا رفعت يدك إلى السماء واستعنت به .. أو قد غضب عليك حتى أنه لا يستجيب لك عندما تستعين به .. إنه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به .. ولذلك فقد وضع لك صفة الرحمن الرحيم .. حتى نتذكر أن بابه مفتوح دائما .. وكما قلت أنه لولا رحمة الله ورحمانيته لما بقيت لنا نعمة .

* * *

إذن فنحن نعيش معاصينا فى مجال جلالات الرحمن وجلالات الرحيم .. ولذلك حينما يأتى الحق تبارك وتعالى ويعرض نعمه على الخلق .. ثم يعرض بعد ذلك ما فعل الإنسان بهذه النعم يقول « **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » .. ولقد جاءت هذه الآية الكريمة فى القرآن الكريم مرتين .. مرة فى قوله تعالى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم** » .. والآية الثانية يقول « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** » .. سياق الآية

الأولى تجليات الرحمة . . وسياق الآية الثانية جبروت الإنسان العاصي يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** » . .

وعندما يقول الحق جل جلاله وهو يعدد نعمة غفور رحيم . . قال ذلك لأن النعمة تقتضى ثلاثة عناصر . . عنصر هو المنعم . . وعنصر ثان وهو المنعم عليه . . وعنصر ثالث وهو النعمة . . وفى حديث النعمة نجد أن الله استخدم حرف (ان) ـ وهو حرف شرط ـ ولكنها تستعمل فى المشكوك فيه . . بينما (اذا) حرف شرط تستعمل فى المحقق . . شيء محقق تريد أن تتحدث عنه تستخدم (اذا) فإن قلت ان حدث هذا . . فأنت تشك فى أنه سيحدث . . ولكنك إذا قلت إذا حدث هذا . . فإنك تعرف أنه سيحدث . .

ولقد استخدم الله (ان) بلهجة التشكيك فقال : « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » . . لأنه أراد أن يقول لنا أنه ما من بشر سيقبل على عد نعم الله . . انه يخاطبنا بلهجة الشك لأن هناك شكا فى أن يقبل أحد على عد نعم الله . . ولم نسمع حتى الآن عن انسان جاء بسجل وبدأ يحصى فيه نعم الله سبحانه وتعالى . . لماذا لأن الاقبال على احصاء يكون على شيء تستطيع أن تحصيه . . فمثلا فى مراكز الاحصاء تحصى عدد البشر كل عام . . لأنها تستطيع أن تقوم بالاحصاء . . وتحصى عدد المنازل والشقق والانتاج الزراعى والحيوانى وغيره . . أما الذى لا تستطيع أن تحصيه فهل تقبل على احصائه . . ؟ هل سمعت عن مركز للاحصاء قام باحصاء الذرات الموجودة فى الأرض من الرمال . . لم نسمع عن هذا طبعا . . لماذا ؟ . . لأنه لا أحد يستطيع . . وبالتالى مادام يظن أن هذا غير ممكن فإنه لا يقبل عليه . . ونعم الله لا تعد ولا تحصى . . ولم نسمع رغم تقدم آلات الاحصاء بالعقول الالكترونية وغيرها التى جعلت عددا من الاحصاءات غير الممكنة فى الماضى سهلة الحدوث الآن . . لم نسمع أن مؤسسة أو هيئة قامت باحصاء نعم الله على الإنسان فى الأرض . . لماذا ؟ . . لأنه من

المستحيل ذلك .. فشهيق الهواء الذى يدخل الصدر نعمة .. ان هو لم يدخل فقد الإنسان حياته .. وزفير الهواء الذى يخرج من الصدر نعمة .. إن لم يخرج من الصدر فقد الإنسان حياته .. وشعاع الضوء الذى ينعكس على العين نعمة .. لأنه ينعكس على العين ويمكنها من الرؤية والعين حين تستقبل شعاع الضوء وتعكسه لترى نعمة .. الخطوة الواحدة نعمة .. وحركة أصبعك نعمة .. وان تبتلع ريقك نعمة .. وان ينبض قلبك نعمة .. وان يتحرك لسانك بالكلام نعمة .

* * *

كل هذه وملايين غيرها نعم .. ونعم كبيرة على كل فرد فينا .. والإنسان لا يحس بالنعمة .. لماذا ؟ لأنه كما قلنا يعتاد عليها ويألفها .. فيعتقد أنها حق مكتسب له وينسى المنعم .. ان كل إنسان على وجه هذه الأرض يسبغ الله عليه بملايين النعم .. وان لم يعطه شيئا جديدا يحس به .. فعندما يكون نائما ويستيقظ فقد عادت إليه نعمة الحياة .. وإذا قام من سريره فهذه نعمة الحركة .. وكل حركة فى حياة الإنسان نعمة .. ولكن بعض الناس لا يتنبه إلى نعم الله ينعم بها وهو جاحد .. ومهما تعددت وسائل الاحصاء وتطورت فإنها ستظل عاجزة .. وسيظل الإنسان عاجزا عن احصاء نعم الله .. ولو أراد أن يستطيع .

واستمرار النعمة دليل على أن المنعم غفور رحيم .. ومن رحمة الله -أنه لا يعطى النعمة للشاكرين وحدهم .. أو للمؤمنين وحدهم .. ومن رحمته أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه .. ولو لم يكن الله رحمانا رحيما وغفورا رحيما لمنع نعمه عمن عصاه .. وهنا يستوجب الله الحمد على كل النعم .. وقد بدأت الفاتحة وهى أم الكتاب بالآية الكريمة « **الحمد لله رب العالمين** » وأسباب الحمد فى الكون كثيرة .. فآيات الله فى الكون كله .. فى لؤلؤة بديعة التكوين .. فى زهرة يملؤها العبير وتختلط فيها الألوان .. عطاءات الله كثيرة تستحق الحمد .. والحمد يأتى أيضا خوفا من العقاب .. فأنا موجود تحت سيطرة الخالق .. فإذا ارتكبت خطأ كان فى استطاعته أن يبطش بى على الفور .. فأين أنا من قدرة

الله . . ؟ وما هى قوتى أمام قوته سبحانه . . ؟ إذا أراد سبحانه وتعالى أن يهلك الكون كله لاستطاع فى لحظة . . وأنا أبطش تغرنى قوتى . . وأنسى الله فى ساعات يسرى . . آخذ المال الذى أعطانى اياه واستعمله فى معصيته . . والصحة التى منحها لى الله فاستعملها فى الايذاء أو فيما لا يرضيه . . وأمضى فى الدنيا أحاول أن آخذ منها كل ما استطيع . . وليس فيها ما يؤخذ لأنى تاركه جميعا . . يقصدنى الخلق لأزيل ظلما فامتنع . . أو افعل خيرا فتأخذنى العزة بالاثم . . ويطلب منى أن أسعى فى معروف فارفض . . أملأ الدنيا بالنميمة والحقد وارتكب الذنوب والمعاصي . . وأبحث عن الأمان فى جاه الدنيا . . ولا أمان إلا فى وجه الله . . ثم تأتى أيام يملؤها العسر والشدة . . واتطلع إلى السماء وأصيح يارب . . وكان عدلا ألا تجاب نفسى ملأتها الخطايا واستغرقتها الحياة الدنيا . . ولكن الله يفتح بابه ويمد يده . . ويمسح الشقاء ويزيل الهم . . لأنه قدم الرحمة على البطش وقدم العفو والمغفرة على العقاب .

* * *

نعم متكررة

وفى كل يوم يموت الألوف . . ويهبنا الله نعمة الحياة والبقاء فى الوجود . . وعندما أفتح عينى فى الصباح . . لابد أن أقول الحمد لله لأنه منحنى نعمة الحياة والوجود . . وفى كل يوم تقع مئات الحوادث ويزول ثوب العافية عن الألوف من البشر . . وتحدث الكوارث ويكون ضحاياها الألوف من الناس فى العالم . . فإذا قمت من النوم فلابد أن أنطق بالحمد لله . . وإذا مضى اليوم ولم يزل الله عنى ثوب العافية فلابد أن أصيح من أعماقى الحمد لله . . والله نجانى من حوادث اليوم وشروره . . وسترنى وأنا مذنب . . وأعطانى وأنا غير مستحق للعطاء . . وفتح لى طريقا مغلقا أو أزال من طريقى إنسانا يضايقنى . . أو عرفنى ما لم أكن أعرفه . . ألا يستحق هذا منى أن أقول الحمد لله . . اننى لو قضيت يومى كله أعد نعم الله على ما أعطانى ووهبنى . . وما منعه عنى ونجانى لكان اليوم كله لا يكفى حمدا لله .

ورحمة من الله سبحانه وتعالى بالعالمين جعل الشكر له والحمد فى كلمتين « **الحمد لله** » .. والعجيب أنك إذا حاولت أن تشكر بشرا على جميل أسداه إليك ـ فتبقى ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء .. وتعيش ساعاتك بل وأيامك قبل لقائك لهذا الشخص تعد الكلمات وتختار العبارات .. تضيف وتحذف وتسأل الناس رأيهم علك تصل إلى قصيدة أو خطاب يلهج بالشكر لهذا الإنسان على عمل طيب واحد قدمه إليك .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا عسى أن يعرف البشر مدى النعم وقدرة المنعم .. فيحس فى داخل قلبه بعظمةالله .. ويوفى البشر حقهم فى الشكر دون ذلة تدنى النفس .. أو مبالغة تصيب الإنسان بالغرور .. أو نفاق يرتكب به البشر المعاصى .. ان الله يعطى بغير حساب وينعم على كل المخلوقات يكتفى بكلمتى « **الحمد لله** » يضعهما فى أول كتابه فاتحة الكتاب ـ ويضعهما خاتمة لكل حياة مؤمنة فى الأرض فيقول تعالى « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » .

ولو أن الله تبارك وتعالى ترك صيغة الحمد دون أن يحددها لكان من الصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهى .. ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حق قدره ويكون شكرا على نعمه .. فكيف نحمد الله والعقل البشرى عاجز عن ادراك قدرته .. والعقل البشرى مغرور بما يسره الله له فى الدنيا من علم .. وكيف نحمد الله والكلمات تعجز عن التعبير عن الحمد لله .. مصداقا لقوله تعالى « **وما قدروا الله حق قدره** » .. وإذا كان البشر عاجزين عن أن يفوا للقدرة الالهية بالتقدير .. فكيف يستطيعون أن يفوا لها بالحمد .. وكيف يمكن للمخلوق المحدود أن يحمد الكمال الالهى .. ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى فاتحة الكتاب كيف نحمده ..

والمساواة بين البشر جميعا فى توحيد « **الحمد لله** » .. فيها يسر منهج الله ورحمته بعباده .. ولو أن الله سبحانه وتعالى تركها بلا تحديد .. لتفاوتت درجات

الحمد . . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب يحمد الله بلفظ بسيط حسبما تستطيع فطرته . . وهذا عالم يحمد الله بما أتيح له من قدرات على البلاغة والتعبير . . ولكن شاء عدل الله أن يسوى بين عبيده جميعا فى صيغة الحمد ليعطى الفرصة المتساوية المتكافئة بين المتعلم والأمى من عبيده .

* * *

وإذا نظرنا إلى النعمة أولا قبل المنعم عليه . . لوجدنا أن الإنسان حين يأتى إلى الأرض . . وقبل ميلاده . . يقدر الله سبحانه وتعالى سبل حياته ورزقه وعمره . . وهل هو شقى أم سعيد . . وكل النعم التى سينعم بها عليه فى الدنيا . . وهكذا تسبق النعمة الوجود البشرى . . وحين ينزل الإنسان إلى الحياة تكون نعم الله سبحانه وتعالى قد سبقته . . فينزل الله من صدر أمه لبنا دافئا فى الشتاء باردا فى الصيف . . معقما من كل الأمراض بأكثر مما يستطيع العلم بكل قدراته أن يعقمه . . ويجد هذا اللبن جاهزا . . فإذا جاع نزل اللبن له . . وإذا شبع توقف نزوله حتى يجوع مرة أخرى . . معين من الغذاء لا ينضب إلا إذا استغنى الطفل عنه . . والطفل حين يولد ضعيفا عاجزا عن الدفاع عن نفسه . . ولكن الله يهيىء له أبويه ليحولا ضعفه إلى قوة . . فهمها لا ينامان حتى ينام . . وإذا مرض حملاه إلى الطبيب . . وإذا جاع وهو عاجز عن الكسب سخر له أبويه يسعيان فى سبيل رزقه . . وإذا حاول أحد الاعتداء عليه كان أبواه الدرع الواقية يفديانه بحياتهما ويحرمان نفسيهما من مباهج الحياة ليربياه ويعلماه . . حتى الذى يموت أبواه يهيىء الله سبحانه وتعالى من يكفله . . ويصبح أقوى الأقوياء فى العالم ضعيفا أمام ابنه الصغير . . وهكذا أوجد الله سبحانه وتعالى لهذا الضعيف النعم التى يحتاجها . . بل أوجدها له قبل أن يأتى إلى الدنيا . . فترى الأم تعد للابن ملابسه وسريره قبل أن يولد . . كل هذا والطفل لم يأت بعد إلى الدنيا . . وهو مازال فى بطن أمه . . وهكذا نرى أن النعمة تسبق الوجود البشرى . .

وإذا كان بعض الناس يقول أن الذى يوفر الحياة للبشر هم البشر . . بمعنى أن

أبا الطفل وأمه وعائلته هم الذين يعدون له سبل الحياة . . نقول أن هذه سنة الله فى الأرض . . فهو سبحانه قبل أن ينزل الإنسان إلى الأرض خلقها له . . وهيأ له ظروف الحياة فيها . . فالنعمة سبقت المنعم . . وآدم عليه السلام خلق بلا ماض . . فلم يكن له أبا يعد له أو أم تجهز من أجله . . ولكن سبقته النعمة فعاش فى جنة لا يجوع فيها ولا يشقى . . وهكذا كانت نعم الله سبحانه وتعالى تسبق آدم وتنتظر لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها بشر . . ولكنها من صنع الله سبحانه وتعالى .

ومن يدعى أن النعم التى تسبق البشر هى من صنع الإنسان . . نقول له . . إن لبن الأم الذى يعتبر غذاء أساسيا للطفل . . ليس من صنع البشر ولكنه من صنع الله . . وحنان الأم والأب . . ليس من صنع بشر . . ولا يستطيع البشر أن يضع عاطفة قوية راسخة ولكنها من صنع الله .

* * *

والإنسان حين يقول الحمد لله . . فإنه يقطع بأن حمدا لابد أن يكون موجودا فى الكون . . لماذا ؟ . . لأن هناك أشياء يجدها الإنسان فى الكون تخضع له . . وتعطيه نعما بغير قدرة منه . . وبغير دخولها فى علمه . . فلا هو يستطيع أن يقدم لنفسه هذه النعم . . ولا هو يمكن أن يدخلها فى سيطرته . . فالإنسان خلق فوجد الكون مهيأ له . . الشمس تدفئه وتعطيه الحياة . . والأرض تطعمه وتعطيه الثمر . . والمطر ينزل عليه ليسقيه . . والهواء موجود إينما كان ليتنفسه بسهولة . . والنهار ليعمل وينتج والليل لينام ويستريح . . كل هذه الأشياء خلق الإنسان ليجدها فى الكون . . ألا تستحق الحمد . . ؟

إذن فنحن حين نقول الحمد لله . . فنحن نعلن أن هناك فى الكون أشياء يجب أن يتم الحمد عليها . . نعم كثيرة تجعل حياة الإنسان ممكنة وسهلة فى هذا الكون . . ولعل نعمة تسخير الكون للإنسان تقتضى وجود الحمد . .

حديث قدسي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يقول ربنا عز وجل : « أنظروا فى صلاة عبدى .. أتمها أم انقصها ؟ .. فإن كانت تامة كتب له تامة .. وان كان نقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع .. قال أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال » .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٦ / ٩٣

I. S. B. N

977 – 08 – 0179 – 8

٦

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم

إدارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

الأمثال في القرآن الكريم

لماذا ضرب الله الأمثال ؟
الله سبحانه وتعالى ضرب للناس أمثالا فى القرآن الكريم وقال :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾
(سورة الزمر ٢٧)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾
(سورة البقرة ٢٦)

وقال جل جلاله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾
(سورة إبراهيم ٢٥)

الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان . وربطها بالهدى والضلال . . فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمن ليزداد إيمانا . . وأراد الله أن يرد بها على الكافرين .

قبل أن نبدأ لنتحدث عن لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم . . فإننا لابد أن نفرق بين المثل والمثال .

أولا هناك كلمة مِثْل . . وهناك كلمة مثال . . ومِثْل (بكسر الميم) تعنى التشبيه بشىء . . أى أن هذا الشىء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أو ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾
(من الآية ٢٣ سورة البقرة) (من الآية ٣٨ سورة يونس)

ومعنى ذلك بسورة كالقرآن تماما . . أى أن هناك تشبيه حالة بحالة .

ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة مِثْل . . نقول هذا الشىء مِثْل الكرة . . لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما . . أو أن نقول هذا الشىء يشبه سنام الجمل . . أى أنه على هيئة سنام الجمل تماما . . وهنا نحن نشبه حالة بحالة . . أو مفردا بمفرد .

أما المَثَل (بفتح الميم) فهو يختلف عن ذلك تماما . . ذلك لأنها لا تشبه شيئا فرديا بشىء فردى . . ولا تشبه حالة بحالة مثلها . . ولكن المثال يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يَسْتوعبها . . ولا يشترط أن يكون المثال من نفس نوع الشىء الذى نتحدث عنه . . بل قد يكون مختلفا تماما ، ولكنه فقط يعطينا الفكرة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا . .

إذا أخذنا الأمثال فى حياتنا . . وجدنا أنها تقرب المعانى . . فمثلا حينما تواجه إنسانا يتحداك أو يحاول أن ينال منك مغترا بقوته . . مزهوا بقدرته . . تقول له إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . . ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار ، حتى تضرب مثل هذا المثل . . ولكنك تريد أن تقول إذا كنت قويا فأنا أقوى منك . . استخدمت فى هذا كلاما يعطى المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص ، ولا بالحالة نفسها . . ولا تتقيد بأن يكون ما قلته مِثْل (بكسر الميم) ما هو حادث فعلا . . فليس هناك ريح . . ولا هناك إعصار حتى يكون التشبيه مماثلا ومطابقا لما تريد أن تقوله . . ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة فى أن الإعصار أقوى من الريح . . وأقدر على مواجهتها لتدلل على المعنى الذى تريده . . وهو أنك إذا كنت قويا فقد لقيت من هو أقوى منك .

وهناك مثل آخر يقول (قبل الرماية تملأ الكنائن) . . ومعنى ذلك أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل وتبدأ الرمى بالسهام . . لابد أن تكون كنانتك

التى تمتلىء بالسهام وتحملها وراء ظهرك .. لابد أن تكون قد ملأتها .. وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية ، فلن تستطيع أن تقاتل .. تأتى أنت إلى ابنك مثلا وتجده طوال السنة يلعب ولا يذاكر .. ثم فى ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولا أن يستوعب .. فتقول له : قبل الرماية تملأ الكنائن .. أى أنك لم تستعد طوال العام .. ولم تذاكر .. لذلك فإن كنانتك خالية .. فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غدا .. وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان .

والمثال هنا لا يرتبط بواقع الشىء .. فلا ابنك ذاهب للقتال .. ولا توجد سهام ولا كنائن .. بحيث يكون التشبيه مطابقا للأحداث .. ولكنك لا تريد ذلك .. بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى ، بصرف النظر عن الواقع الحادث .. فبالتالى فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد .

وهكذا باقى الأمثال .. كلها لا تشبه شيئا بشىء بعينه .. بل إن الذى تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفا عن الذى يحدث فعلا .. ولكنه يعطيك نفس المعنى ويقربه إلى عقلك ، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه .. وهناك مئات الأمثال التى نعرفها جميعا مثل أبدى المخض عن الزبد .. وما وراءك يا عصام .. إلى آخر هذه الأمثال التى نرددها كل يوم .

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

والله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال .. ليقرب إلى أذهاننا معانى هى غيب عنا .. ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشرى مهما اجتهد .. لأن هذا العالم محجوب عنا .. وكل ما هو محجوب عنا .. هو عدم بالنسبة للعقل .. والفكر البشرى لا يستطيع أن يصل إليه .

فمثلا إذا أخذنا الأشياء التى لم تكن موجودة فى حياتنا ثم أصبحت موجودة .. هذه الأشياء مثل التليفون أو التليفزيون أو الطائرة إلى آخر علم الله

الذى أظهره للإنسان ومكنه منه . . هل كان من الممكن قبل أن توجد هذه الأشياء أن يستطيع العقل استيعابها . . طبعا لم يكن من الممكن . . وحتى الأسماء التى وضعت لها . . لم تكن موجودة فى لغة البشر قبل أن توجد هذه الأشياء . . لأن العقل لم يكن يستوعب هذه الصورة . . أو هذا الاختراع الجديد . . وباختصار كل هذا فوق قدرة العقل البشرى . . وأدخله الله تعالى فى قدرة العقل البشرى بأن كشف الله له عنه . . وهكذا خرج إلى علم الإنسان . . وأصبح مألوفا لديه بعد أن كان مجهولا . . فلو اننا جئنا بإنسان ولد منذ خمسمائة سنة وناقشناه عن هذه الأشياء لما فهمها . . ولو قلنا له أن الإنسان يطير فى الهواء ويصل الآن إلى القمر ويخترق الفضاء لاتهمنا بالجنون . . ذلك لأن هذه الأشياء بالنسبة لعقله كانت معدومة تماما لا وجود لها . . ولكن الآن أصبحت تدخل فى نطاق العقل البشرى حتى العقل الذى لم يتعلم شيئا . . ولم يدخل المدرسة فى حياته . . فإنه لا يستغرب إذا قلت له . . الطائرة وسفينة الفضاء إلى آخر ما يقال .

الإيمان ضرورة

هنا لنا وقفة أن نمضى فى الحديث . . الله سبحانه وتعالى غيب عنا . . لم يره أحد . . ومع ذلك فإن لفظ الجلالة فى كل لغة من لغات الدنيا موجود . . وإذا قلت كلمة الله لأى إنسان لا يستغربها . . بل يحس بمعانى الجلالة والخلق . . والقدرة والقوة . . بشكل لا يتفق مع منطق الأشياء الدنيوية . . بل إن الملحدين الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . إنما يؤكدون هذا الوجود . . ذلك لأن الشىء لا ينكر إلا إذا كان موجودا . . أما إذا كان غير موجود . . فإنه ليس محتاجا إلى إنكار . . فإنه بطبيعة عدمه لا يفرض أى جدل . . فإذا كان هناك كوكب مختف عنا فى السماء لا نراه . . هل يثور هناك جدل بين العلماء عن هذا الكوكب . . طبعا لا . . لأن الوجود أصلا انتفى . . ففيم الجدل . . والمشكلة نفسها التى تطرح هذا الجدل غير موجودة . . وإذا كان هناك فى باطن الأرض أو فى الغلاف الجوى أشياء لا نعرفها ولم نصل إليها . . هل يجادل أحد

فيها ؟ وكيف يقوم الجدل ونحن لا نعرفها . . وكيف يمكن المناقشة والعقل لا يستطيع أن يصل إليها . . ومن هنا . . فإن أى جدل يتم على شىء . . فلابد أن يكون هذا الشىء موجودا . . وكون أن أى إنسان يحاول ستر وجود الله . . ويقول إن الله سبحانه وتعالى غير موجود « وأعوذ بالله من هذا » فإنه فى هذه الحالة يثبت هذا الوجود . . وإلا فما الذى أنكره وما هو هذا الشىء الذى أحاول أن أثبت انه غير موجود .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى موجود بذاته . . موجود بآياته . . تدرك العقول معنى لفظ الجلالة مصداقا للآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣)

إذن فهذه الآية التى هى معجزة من معجزات القرآن تبين لنا كيف أن العقول كلها تدرك معنى لفظ الجلالة ، مع أن أحدا لم ير الله . . إلا أننا جميعا الجاهل منا والمتعلم . . والذى قرأ والذى لم يقرأ سطرا واحدا فى حياته ، إذا ذكر أمامه لفظ الجلالة كان له معنى وألفة . . ولم يستغربه أحد . . وهذا دليل لغوى على وجود الله سبحانه وتعالى . . ودليل على أن العقل يعرف خالقه . . وأن المعنى معروف لديه . . بل إن الذى يحاول ستر وجود الله . . نقول له إنك تثبت وجود الله ، ذلك انه لو كان الله سبحانه وتعالى غير موجود كما تزعمون . . ما كان هناك سبب لمحاولة ستر وجوده . . وكأنك فى هذه الحالة تثبت بأن الله موجود .

تلك هى المعجزة التى لابد أن ننتبه لها . . وأن نعرف أن الله سبحانه وتعالى موجود فى قلب وعقل كل واحد منا . . وأننا جميعا إذا ذكر اسمْ الله أمامنا . . عرفنا ولم نشعر بعدم ألفة . . وهذا اعجاز الله .

ولذلك فإن العقل البشرى . . وهو يألف وجود الله ويحس به . . يبدأ البحث فى الكون . . فيرى آيات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه جل جلاله . . يرى الشمس كل نهار . . ويرى النجوم كل مساء . . ويحس بالهواء الذى يتنفسه والذى هو لازم لحياته . . ويرى الماء يملأ الأرض . . ويروى الزرع الذى يقتات منه وكيف خلقت التربة لتغطية هذا الزرع ليعيش . . ويرى نعم الله سبحانه وتعالى تحيط به فى كل مكان . . فالأرض ولو انها كرة مستديرة ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد مهدها له ليستطيع السير فيها والتنقل . . والإنسان ولو انه يقف فوق الأرض ورأسه فى الهواء . . إلا أن جاذبية الأرض تمسك به ، فلا يطير فى الهواء . . بل هو يستطيع أن يسير مطمئنا وقد لا يدرى أنه يسير فوق كرة كما كان فى الماضى قبل أن يعرف الناس كروية الأرض . . والأنعام التى خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان مسخرة له . . تعطيه اللبن وهو أحد مقومات الحياة . . وتعطيه اللحوم ولها منافع كثيرة . . والماء ينزل من السماء ليسقى الزرع والأنعام ولا ينتهى أبدا . . فكلما شرب منه الناس وارتوى منه الزرع . . وشرب منه باقى مخلوقات الله . . جاء مطر جديد لتستمر الحياة .

كل هذا النظام البديع الذى يسير عليه الكون لابد له من موجد ومن خالق . . قائم عليه بنظام غاية فى الدقة . . وهنا يعرف الإنسان بالعلم كما عرف بالفطرة . . أن لهذا الكون إلها هو الذى أوجد كل هذه النعم وهو الذى خلق الإنسان .

لماذا الرسل ؟

هذا غاية ما يستطيع أن يصل العقل إليه . . هو أن يعرف وجود الله بآياته فى الكون وفى الخلق . . ويعرف أنه إله واحد لا شريك له . . لماذا ؟ لأن الله قد أخبرنا بأنه هو الذى خلق كل هذا وسخره للإنسان . . ولم يستطع أحد أن يدعى أنه فعل هذا . . فلو أن هناك إلها آخر . . فاما أن يكون قد عرف . . وفى هذه الحالة كان لابد أن يتكلم ويخبرنا أنه خلق . . وإما أن يكون قد جهل هذا . . وفى هذه الحالة تسقط عنه صفة الألوهية . . ولذلك فإن قضية وحدانية الله سبحانه وتعالى محسومة تماما . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قال إنه خلق وأوجد ولم تأت قوة أخرى لتقول انها خلقت أو أوجدت . . ولا تستطيع أى قوة أخرى أن تدعى ذلك . . فلذلك فالقضية محسومة فى أنه إله واحد لا شريك له . . هو الله سبحانه وتعالى . . ولا تحتاج إلى مزيد من المناقشة .

وإذا توصلنا إلى هذه الحقيقة ، وهى أقصى ما يستطيع العقل أن يصل إليه ، فإننا فى هذه الحالة محتاجون لأن نعرف ماذا يريد الله منا فى هذا الكون . . وكيف نعبده ونتقرب إليه ، ونشكره على هذه النعم التى سخرها لنا . . والتى لا يستطيع أحد أن يدعى أنه قام بتسخيرها .

من الذى يحدد الطريقة التى نعبد الله بها ونتقرب إليه ونشكره على نعمه . .

لاشك أن الذى يحدد ذلك هو الخالق والمعبود . . وهو الذى يقول يا عبدى إذا أردت أن تعبدنى وتتقرب إلى . . فافعل كذا . . ولا تفعل كذا . . فهووحده الذى يستطيع أن يحدد . . ومن هنا كانت حتمية الرسل . . بشر اختارهم الله سبحانه وتعالى وأوحى إليهم بما يريده من منهج العبادة فى الأرض . . وأن يبلغوا عباده كيف يتقربون إليه ويشكرونه على نعمه . . ويؤدون حق الألوهية له .

ومن هنا جاءت الرسل لتبلغ عن الله سبحانه وتعالى منهج العبادة الذى اختاره وارتضاه لخلقه . . وحتى يصدق الناس أن هؤلاء الرسل قد اختارهم الله سبحانه وتعالى ليبلغوا منهجه إلى الناس . . أيدهم بمعجزات تخرق قوانين الكون ونواميسه . . وحفظهم ليبلغوا رسالته . . فجعل لكل نبى معجزة لا يقدر عليها غيره من البشر . . وجعل هذه المعجزة دليلا على صدق الرسالة . . ووضع فيها من القوة والقدرة ما لا يستطيع إنسان أن يدعيه . . فلم تحرق النار إبراهيم . . ولا يستطيع أحد أن يسلب من النار خاصية الحرق إلا الله سبحانه وتعالى . . وانشق البحر لموسى . . ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . . وأحيا عيسى الموتى بإذن الله . . وكانت معجزة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هى القرآن الكريم الذى وضع فيه الله سبحانه وتعالى إعجازا متجددا إلى يوم القيامة ، يفيض على كل جيل بمعجزات لم يعطها للجيل الذى قبله .

ولماذا منهج السماء ؟

وهكذا جاءت الرسل بمنهج الله سبحانه وتعالى إلى البشر . . وجاءت بمرادات الله جل جلاله فى افعل ولا تفعل . . ولكن هل كان هذا لفائدة يرجوها الله سبحانه وتعالى من خلقه . . أبدا . . بل كانت رحمة وفائدة لخلقه .

والله سبحانه وتعالى خلق الكون بكل ما فيه من نعم قبل أن يوجد الإنسان . . ذلك لأنه لابد أن توجد النعمة قبل أن يوجد المنعم عليه . . فالإنسان قبل أن يوجد على الأرض كان لابد أن توجد مقومات حياته . . وكان لابد من وجود الهواء الذى سيتنفسه . . والطعام الذى سيأكله . . والماء الذى سيشربه . . والشمس والكون الذى سيخدمه . . إذن فكل هذه النعم وجدت قبل أن يوجد الإنسان وسخرت له . . ووجدت بجلال وكمال قدرات الله سبحانه وتعالى . . لم يستطع الإنسان أن يضيف إليها شيئا . . فلا هو اخترع غلافا جويا جديدا . . ولا أوجد أرضا أخرى كبيرة أو صغيرة . . ولا استطاع أن

يعطينا شمسا صناعية تفعل لنا ما تفعله الشمس التى خلقها لنا الله . . ولا أوجد نجوما وكواكب . . ولا استطاع أن يوجد بحارا أو أنهارا أو ماء صناعيا يشرب منه الناس . . وكل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى من تقدم هو فى ترف الحياة وسهولتها . . فأصبح الماء يصل إليك فى مكانك . . وأصبحت تدوس على زر فيصنع لك الشىء فى دقائق . . وأصبحت تركب سيارة وطائرة وصاروخا . . كل هذا زيادة فى رفاهية العيش . . ولكن النعم الأساسية التى بها مقومات الحياة . . هى من خلق الله منذ بداية الكون .

إذن فمن كمال صفات الله . . أنه ليس محتاجا لعبادة خلقه . . ذلك لأن هذه الصفات هى التى أوجدت كل شىء فى هذا الكون قبل أن يوجد الإنسان فيه . . وإنما منهج السماء من أجلنا نحن عباد الله ، حتى نستطيع أن نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، فيعزنا بفضله . . ويتغمدنا برحمته . . ويمتعنا بقدراته . . ولو إننا لم نقم بواجب العبادة ما نقص ذلك من ملك الله شيئا ولا من كماله . . ولا من جلاله . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل بمنهج السماء فهو رحمة لنا . . قوة لنا فى الدنيا وعز . . ونحن نعرف أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وأن الله معنا . . ونعيم لنا فى الآخرة بقدرات الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن نصل إليه ولا إلى شىء منه بقدراتنا نحن . . ولذلك فإن كل عاص لله . . لا يضر الله شيئا . . ولكن ، أى هذا العاصى أو الكافر هو الذى يخسر . . ويحرم نفسه من نعيم الله سبحانه وتعالى .

تقريب الغيب

وكما اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان . . اقتضت رحمته أن يضرب فى منهجه الأمثال . ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما هو غيب عنا . . ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها . . وجعلنا نحسها ونراها . . وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيبا عنا كاختبار وامتحان إيمانى . . لذلك لم يطلعنا عليها وإن أخبرنا بها . .

وكان يجب على العقل البشرى . . أنه مادام قد وصل إلى اليقين بالله سبحانه وتعالى ، فيكفى أن الله قال . . فيصبح ذلك قضية إيمانية . . ولكن الله سبحانه وتعالى علم أنه سيأتى مضللون . . وأن هؤلاء المضللين . . تؤيدهم شياطين الإنس والجن . . سيحاولون أن يهزوا الإيمان فى القلوب . . وأن يشككوا الناس فى عقيدتهم . . ولا مجال فى ذلك إلا فى استخدام ما هو غيب لا نستطيع أن نراه أو نلمسه . . ذلك أن الرؤية عين يقين . . فمادمت أنا أراك أمامى فلست محتاجا إلى دليل آخر يقول لى أنك موجود معى فى الحجرة . . ولكن إذا كنت لا أراك فأنى أبحث عن دليل . . كأن أسمع صوتك . . أو أحس بحركتك . . إلى آخر هذه الأدلة المحسوسة .

هنا يأتى المضللون . . يحاولون التشكيك . . ليس فيما نراه . . ولكن فيما لا نراه . . ومن هنا يبدأ حديثهم . . محاولين أن يصلوا إلى ستر هذه الحقائق المخفية عن النفس البشرية أو إنكارها . . ورحمة من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى . . ورحمة بالمؤمنين . . ضرب هذه الأمثال ليقرب ما هو غيب عنا بشىء محسوس لنا . . ولا يقربه بالمثل (بكسر الميم) . . بل يقرب الفكرة نفسها بالمثل (بفتح الميم) .

فالله مثلا لا زمن عنده . . الأحداث عنده سبحانه وتعالى لا تخضع للزمن ولا لأية قيود . . ولكن لأن الإنسان يحكمه الزمن . . فكل مقاييس حياته منذ ولادته حتى مماته . . محسوبة بالزمن . . فهو يكبر بمرور الوقت . . وهو لا يفعل شيئا إلا ولابد أن يستغرقه زمن معين . . طال أو قصر . . وهو محدود بهذا الزمن . . ولذلك فعقله لا يستطيع أن يتصور أو يتخيل أن هناك أحداثا غير محكومة بالزمن .

والزمن مخلوق لله سبحانه وتعالى . . أى أن الله هو الذى خلق الزمن . . دوران الأرض حول نفسها من خلق الله . . ودوران الأرض حول الشمس من

خلق الله .. وهو الذى جعل العام اثنى عشر شهرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

.. إذن فالزمن مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. والمخلوق لا يتحكم فى الخالق .. بل الخالق هو الذى يتحكم فى المخلوق .. يشكله كيف يريد .. أو يجعله عدما بعد خلق .. فتلك قدرات الخالق جل جلاله .

يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(من الآية ٤ سورة المعارج)

ويقول مالك يوم الدين ولا يحدده بزمن إلا أنه يوم .

ويقول العقل البشرى .. هل اليوم ألف سنة .. أو خمسين ألف سنة .. أم ما هو اليوم عند الله .. إن اليوم الذى نعرفه من شروق شمس إلى مشرق شمس أخرى .. أو من غروب شمس إلى غروب شمس مرة أخرى اليوم .. ذلك اليوم الذى نعرفه .. فما هو اليوم عند الله تبارك وتعالى ؟.

إن هذا الاختلاف فى زمن اليوم .. يفتح أمام العقل البشرى ويقرب إليه معنى نسبية الزمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا زمن عنده .. وأنه هوالذى يخلق الزمن .. فإن أراد أن يخلق يوما مقداره ألف

سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره خمسين ألف سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره مليون سنة .. قال له كن فيكون .. وإذا أراد أن يخلق يوما كيوم الدين .. يعلم الله سبحانه وتعالى وحده متى زمن هذا اليوم .. قال له كن فيكون .. وهكذا فإن الله قادر على أن يخلق ألف سنة فى يوم واحد .. وقادر على أن يخلق يوما واحد يساوى خمسين ألف سنة مما نحسب نحن ونعد .. وإن أراد أكثر من ذلك أو أقل .. قال كن فيكون .

إذن فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه هوالذى يحدد مقاييس الزمن . ومادامت مقاييس الزمن غير موجودة .. ولا تحد من قدرة الله .. فالله يستطيع أن يخلق يوما مقداره ٢٤ ساعة .. وأن يخلق يوما مقداره ألف سنة أو خمسين ألف سنة .. أو مائة ألف سنة أو مليون سنة .. فهو الذى يخلق ويختار .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى يوم الدين .. فهو الذى يملك كل هذا اليوم بكل خصائصه وبدون أى مقاييس بشرية .. يحدد بدايته ونهايته .. فيستطيع أن يجعله لحظة .. ويستطيع أن يجعله ملايين السنين مما نحسب نحن .

إذن هذا الخلاف .. أو الاختلاف الذى ساقه الله سبحانه وتعالى فى زمن اليوم ، إنما أراد أن يقرب به إلى عقولنا .. كيف أن الله سبحانه وتعالى لا زمن عنده .

رحمة بالمخلوق

نأتى بعد ذلك إلى الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى .. فنجدها جميعا فيها رحمة لعباد الله .. فهى تحاول أن تقرب إليهم ما هو غيب عن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل إليه .. وهى تقرب إلى عقولنا الجزاء الذى يعطيه

الله لنا سبحانه وتعالى فى الآخرة . . سواء كان هذا الجزاء عقابا أو ثوابا . . وهى تقرب إلينا معنى الحياة كلها . . منذ بدء الخلق حتى نهايته . . وهى تلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فى غير ما نراه . . حتى نعرف يقينا أن الله الذى خلق الناس جميعا . . وأعطاهم حقا متساويا . . يدافع عن كل خلقه بنفس القدر وبالتساوى . . وهو كما يحمى حقوقنا من غيرنا ، يحمى حقوق غيرنا منا . . وهو يلفتنا إلى حق الفقير والضعيف وكبير السن والوالدين . . وكل من له حق علينا . . حتى تكون حركتنا فى الحياة حركة صحيحة . . ثم بعد ذلك يعطينا الأمثال عن مواكب الايمان وكيف تتم . . والمهلكات فى الدنيا وكيف تحدث . . وما هو ظاهرها وباطنها . . كل ذلك بأسلوب يجعل الفكرة تدخل إلى عقولنا لنفهمها بمقاييس عالمنا المحس . . ولو أن القدرة هنا مختلفة ، والقوة مختلفة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء . . ولابد فى كل حدث . . أن ننسب الحدث إلى الفاعل . . أو إلى قدرة الفاعل . . فلكل إنسان قدرات متفاوتة . . فإذا قال لك أغنى أهل الأرض أنه سيعطيك منحة . . وقال لك أفقرهم أنه سيعطيك منحة . . فكلاهما استخدم نفس اللفظ ، وهو كلمة (منحة) . . ولكن هل تساوى اللفظ فى المعنى ؟

نجد هنا أن اللفظ رغم أنه واحد . . إلا أن هناك تفاوتا كبيرا فى المعنى . . ما الذى أوجد هذا التفاوت . . نسبة الفعل الى الفاعل . . ذلك هو التفاوت الذى جعل اللفظ مختلفا تماما . . فأفقر أهل الأرض قد يعطيك قطعة صغيرة من الخبز أو شق تمرة . . وأغنى أهل الأرض قد يعطيك ملايين الجنيهات . . كلاهما منح . . ولكن هل تساوت المنحة . . أم أنه كان هناك تفاوت كبير لأن الفاعل مختلف .

فإذا نقلنا القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شىء . . إذا قال الله سأمتعك . . وقال لك أحد أهل الأرض سأمتعك فاللفظ واحد . . ولكن هل المعنى واحد ! . . أبدا . . المعنى الأول ينسب إلى قدرات الله الذى ليس كمثله

شيء .. فيكون المتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. أما الفعل الثانى فيكون على قدرات البشر المحدودة .. وهو المخلوق الضعيف .. فما يستطيع أن يقدمه .. هو لا شيء بجانب ما تستطيع أن تعطيه قدرات الله سبحانه وتعالى .

إذن فالأمثال التى يضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم تقرب المعنى فقط ، وتجعله محسوسا للناس .. حتى إذا جاء من يضل .. وقال إن هذا الكلام فوق قدرة العقل وحاول أن يشكك فيه .. نقول له إن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا قد ضرب لنا مثلا يقرب المعنى .. والأمثلة التى يضربها الله سبحانه وتعالى قد تكون فى القرآن وقد تكون فى الحياة نفسها .. فمثلا ما قاله الله عن خلق الإنسان .. وأطوار هذا الخلق من تراب ثم من صلصال .. ثم من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .

أمثلة من الحياة

يأتى المضلون ليجادلوا فى هذا مع أنهم لم يشهدوا الخلق .. ويحاولون أن يشككوا فى القرآن الكريم .. ولكن الله سبحانه وتعالى جعل فى الحياة قضية محسوسة وهى الموت .. لترد عليهم وعلى اضلالهم .. فالموت نقض للحياة .. والشيء الذى ينقض .. أول ما ينقض فيه هو آخر ما تم فيه .. فالعمارة يبدأ هدمها من آخر طابق ارتفع اليه البناء .. وأنت حين تذهب إلى الاسكندرية مثلا .. وتريد أن تعود مرة أخرى ، فإن أول خطوة فى العودة هى آخر خطوة فى الذهاب .

فلننظر ماذا يحدث فى الموت وهو نقض للحياة .. أول ما يخرج من الإنسان هو الروح أو النفس .. وهو آخر ما دخل فيه .. هذه النفخة تتوقف ، فيكون هذا أول نقض للحياة . ثم يتعفن بعد ذلك ويصبح طريا كالصلصال .. ثم يصير ترابا ويعود إلى الأرض .. هذا هو نقض الحياة ، وهو أمر غيبى عنا ..

وهكذا شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى .. أن تجعل الموت مثلا محسوسا عما هو غيب عنا وهو خلق الحياة .

الإنسان يضرب مثلا

على أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال وسمع الأمثال التى يضربها الناس برسول الله ، محاولين التشكيك فى الإيمان . فرد عليها .. وهذه الأمثال رغم إنها قد مر عليها أكثر من ١٤٠٠ سنة .. فمازالت كما هى تستخدم فى الاضلال .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

وهكذا أراد الإنسان العاجز وغير القادر على أن يضرب مثلا لله القادر سبحانه وتعالى .. فتساءل الإنسان عمن يحيى العظام وهى رميم بعد أن تصبح ترابا .. ورد الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن المعجزة أمامكم .. فهذه العظام أين كانت قبل أن توجد وتخلق .. كانت ترابا مثلما هى الآن .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها من التراب ، ألا تستطيع قدرته أن تعيد خلقها مرة أخرى من التراب .. علما بأن إعادة الشيء أسهل من عمله أول مرة .. وإن كانت قدرة الله لا تعرف الصعب ولا السهل .. على أننا سنتناول هذا المثل بالشرح فى فصل قادم .

وتلك الأمثال

على أننا لابد أن نفطن أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم .. يأتى بالأمور مجتمعة .. ولا يأتى بها فرادى ..

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة البقرة)

إذن فهو قد جاء بالأمر جامعا ولم يأت به فرادى . . فلم يبدأ بأن الناس جمعوا الحطب . . ثم ذهبوا إلى مكان كذا ثم أشعلوا النيران . . بل جاء به مكتملا . . وقول تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الكهف)

كأنه جاء بالحياة كلها مجتمعة ولم يأت بتفصيلها . . ولكن جاء بها من أولها إلى آخرها . . وهو يريد أن يضرب مثلا حالة بحالة . . دون الدخول فى تفاصيل .

كما يلاحظ فى الأمثال أنها تأتى مطلقة . . بمعنى أنها لا تنطبق على حالة معينة . . أو زمن معين أو أفراد معينين . . حتى الأفراد الذين يضرب الله المثل بهم لا يأتى بذكر أسمائهم . . لماذا ؟ . . لأنه ليس المقصود هو الفرد ولا الحالة بعينها . . بل إن هذه الأمثال تتكرر فى الدنيا وفى كل العصور . . الذى قال : « أوتيته على علم عندى » . . موجود منه الألوف فى هذا العصر . . وفرعون الذى يطغى ويستبد ويريد أن يعبد فى الأرض . . موجود منه عشرات من الحكام الذين ينصبون أنفسهم آلهة . . والذين يستبدون ويعذبون الناس ويملأون السجون . . والمعتقلات . . وغيرهم من الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . كمثل صاحب الجنتين الذى كان مزهوا بما يملك . . وأصحاب الجنة الذين أقسموا « ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » . . والذين حاولوا أن يأكلوا حق الفقير واليتيم والمسكين فيما أعطاهم الله من مال . . وفيما أعطاهم من رزق . . والكفار الذين يحاولون أن يضلوا الناس بغير علم ويزينوا لهم السوء . .

كل هؤلاء وغيرهم ممن ضرب الله بهم مثلا فى القرآن الكريم .. تتكرر قصصهم فى كل عصر .. وتجدهم فى كل زمن ... بل إن أولئك الكفار الذين يقولون « وما يهلكنا إلا الدهر » ويحاولون إنكار وجود الله .. هم أيضا موجودون بنفس الحجج التى قيلت وبنفس الأمثال .

الله يتحدى

على أن الأمثال فى القرآن الكريم لا تقتصر على ذلك .. بل إن فيها تحديا للبشرية كلها مثل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الحج)

وفى هذا يتحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها .. بالعلم الذى سيحققونه أنهم لن يصلوا إلى خلق ذبابة .. ولا إلى استرجاع ما يأخذه الذباب من طعامهم أو شرابهم .. وهذا دليل على ضعفهم (مما سنتحدث عنه بالتفصيل فى الفصول القادمة) .. على أن هذا التحدى فى خلق أضعف المخلوقات وهى الذبابة .. يريد الله أن يؤكد به أن البشرية قد تصل إلى القمر .. وإلى المريخ .. ولكنها لن تستطيع أن تصل إلى سر خلق الحياة أو المادة الحية .. فهى ستظل عاجزة على مر السنين عن ذلك .

كذلك ضرب الله الأمثال فى دقة الخلق بالنسبة لخلق البعوضة ، وما فوقها ، أى ما هو أدق منها .

إلى هنا نكون قد بيننا أن الله سبحانه وتعالى بضربه الأمثال فى القرآن الكريم ، يريد أن يقرب إلى الذهن البشرى أشياء هى غيب عنه .. وأن يجعل فكرة هذه الأشياء قريبة دون أن يطلع الإنسان عليها .. أو يكون التشبيه بالمثل .. وأنه فى هذه الأمثال التى تناولت ستر وجود الله ومصير المكذبين .. والجنة التى وعد بها المتقون .. ومواكب الرسل .. ومواكب الايمان .. إنما قد تناولت أمثالا لا يتكرر حدوثها فى كل عصر .. لتظل الموعظة دائمة .. كما تناولت تقريب المفاهيم ليمكن الرد على ادعاءات المضلين .. والله سبحانه وتعالى قد لمس بهذه الأمثال جوانب كثيرة فى حياة البشر .

ومن الأمثال التى ضربها الله فى القرآن الكريم مثل مواكب الرسل وبشرية الرسول ، والتكذيب الذى يقابل به .. وكيف أن المكذبين لا يكتفون بانكار رسالة الرسول وعدم الايمان بها .. بل يحاولون ايذاءه هو والمؤمنين .. وكيف تسير مواكب الايمان بعد ذلك .. وكيف يقابلها هؤلاء المكذبون .. هذا المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى .. ينطبق على مواكب الرسل منذ بداية الرسالات السماوية وحتى نهاية الدنيا .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

مواكب الرسل

نبدأ بالمثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل والرسالات .. وكيف يقابلها أهل الأرض .. والمثل الذى ضربه الله حول هذه القضية لا يزال يعيش بيننا حتى الآن ، بالرغم من انتهاء الرسالات . ومازال نفس الجدل الذى أنبأنا الله عنه نسمعه .. وكأنما كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يحصننا ضد هذا الجدل .. وضد الذين يضلون عن سبيله .. وأعطانا المثل عنهم .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾

(سورة يس)

نتوقف عند هذه الآية لنشرح الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله لموكب الرسالات ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾

(سورة يس)

ولم يقل تبارك وتعالى أية قرية . . ومن هنا . . فإن هذا المثل ينطبق على كل قرية . . أو كل جماعة من الناس تسكن قطعة من الأرض فيها نعمة من نعم الله يتمتعون بها . . ويقيمون عليها حياتهم .

لماذا قال الله « أصحاب القرية » ولم يقل أهل القرية . . لأن الذين يقاومون رسالات السماء ويحاربون الرسل هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا فى الحياة الدنيا وأعطاهم الله الجاه والملك . . وفى غالب الأمر يكون باقى الناس تبعا لهؤلاء . . أما خشية من نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم . . أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا . . ولو علم هؤلاء الناس الحقيقة وآمنوا بأن الرزق بيد الله . . وأن أصحاب النفوذ لا يملكون لهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . . لتغيرت الصورة تماما . . ولكن الناس تأخذ بظاهر الأشياء . . وتعتقد أن صاحب النفوذ يستطيع أن يمنح ويمنع . . ويمكن أن يعطى ويأخذ . . ورغم أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال فى الحياة . . فيصبح صاحب النفوذ والسلطان بين يوم وليلة وقد زال عنه كل شيء ويهرب من مكان إلى آخر . . محاولا إنقاذ حياته . . لو تأمل الناس هذا لعرفوا أن الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه ويبقى النعم التى يتمتع بها لا يستطيع أن يحمى أحدا أو يهبه شيئا . . وإلا لكان من الأولى أن يهب لنفسه ملكا لا يزول ونفوذا لا ينمحى . . ولكن لأن الدنيا تمضى بالأسباب ، فيجعل الله سبحانه وتعالى إنسانا سببا فى أن يجرى الله نعمته على إنسان آخر . . ولكن المنعم عليه ينسى المنعم الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى . . ولا يتذكر إلا الأسباب التى أعطته . . وظاهر الشيء الذى أمامه . . فيعتقد أن فلانا يستطيع أن يمنح ويمنع . . والحقيقة أن الله يجرى على يد من يشاء من عباده هذه النعم . . وأنه لولا مشيئة الله ما أخذ أحد شيئا .

ومن هنا . . فإن المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الفضل لله سبحانه وتعالى أولا . . لأنه يعرف أنه المنعم الحقيقى . . وغير المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الشيء للإنسان لأنه لا يؤمن بالله .

ومن هنا جاء المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بلفظ « أصحاب القرية » على أساس أن هؤلاء هم الذين يكذبون الرسل ويؤذونهم ، ويحاولون بما أتاهم الله من نعمه أن يبارزوا الله بالمعاصى .

لماذا يحاربون الرسل ؟

ولكن . . لماذا يحارب هؤلاء الذين أترفوا فى الدنيا . . لماذا يحاربون الرسل . . ؟ الجواب على ذلك أنهم يخشون على نفوذهم وسلطانهم من الحق ومن رسالات السماء . . ذلك أن هؤلاء الناس أقوياء بحكم ما هم فيه . . وهم فى قوتهم يظلمون ويأكلون الحقوق بالباطل ، ويفعلون ما يريدون دون ما مراعاة لحق الضعفاء . . وهم يتخذونهم عبيدا . . أو يجعلونهم يعملون من أجلهم ولا يعطونهم حقوقهم أو أجورهم . . أو يقننوا لأنفسهم أشياء تميزهم عن بقية أهل القرية بحجة السيادة أو حقوق الحكم إلى آخر ذلك . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يعرف صاحب نفوذ . . ولا يحابى أحدا . . فهو العدل المطلق . . يعدل بين الناس جميعا . . والرسالات السماوية أساسها حماية الضعيف من القوى . . وغير القادر من القادر ذلك أن القوى والقادر يستطيعان أن يصلا إلى حقوقهما وأن يجورا على حقوق غيرهما من الضعفاء . . ومن هنا فإن الرسالات السماوية تحرس حق الضعيف وتعيده إليه . . وتجعل الناس متساوين . لا فرق بين أحد ، تجعل الاعتداء على حقوق أضعف الضعفاء كالاعتداء على حقوق أقوى الأقوياء . . كلاهما جريمة لها عقاب . . والعقاب متساو لا ينظر إلى نفوذ أحد . . ولا إلى مركزه . . ولا إلى مقامه . . وإنما ينظر إلى الجريمة نفسها . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءوه يتشفعون فى امرأة من عائلة شريفة سرقت ، ويريدون ألا يقيم عليها الحد . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف منهم تركوه . وإذا سرق

الضعيف منهم أقاموا عليه الحد . . والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » . ﴾

هذه هى رسالات السماء التى لا تميز بين شريف وضعيف . . وتحاسب الناس بأعمالهم . . وليس بأنسابهم ولا بنفوذهم ولا بأموالهم .

ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السماء ويحاول أن يكذبها هم أصحاب الجاه والنفوذ والمال والسلطان ، لأنها ستجرد هؤلاء من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها . . وستجعلهم مساوين للضعفاء فى الحقوق والواجبات . . وستقضى للضعيف من القوى . . فإذا رأوا أن ذلك هو زوال لنفوذهم وذهاب لسلطانهم ، كانوا أول مكذب للمحافظة على جاه الدنيا وزخرفها .
إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا فى أول المثل إلى أن الذين يقفون موقفا معاديا من رسالات السماء هم أصحاب النفوذ والسلطان والترف .

تعاقب الرسالات

ويمضى الله سبحانه وتعالى فى ضرب المثل :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾

(سورة يس)

هنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أنه قد أرسل إلى بنى آدام أكثر من رسول . . وذلك ليعلم الناس أن هناك موكب رسالات . . أولئك الذين عاشوا فى الأيام الأولى يعرفون أن هناك رسلا ستأتى بعدهم . . وأولئك الذين يعيشون

بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه كان هناك موكب للرسل انتهى بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .. وقد أنبأ الله فى القرآن عن الرسل السابقين .. وذلك من رحمة الله بعباده .. أنه لم يرسل رسولا واحدا فقط .. لماذا ؟ .. لأنه لو أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا فى أول البشرية بتعاليم من الله .. ثم بعد ذلك تعاقبت الأجيال .. وأخذ كل جيل جزءا من رسالة الله .. لضاعت الصورة كلها .. ولجئنا يوم القيامة مجادلين بأن ما وصلنا عن الله سبحانه وتعالى هو غير ما أراده الله .. وهنا لا يكون الحساب عدلا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل مواكب الرسل لتبين وتظهر ما حرّف فى الرسالات السابقة .. وما أخفى عن الناس .. وما نسى بقدم العهد .. كل رسول يعالج الداءات التى حدثت .. والانحراف عن منهج الله الذى تم .. وكان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام .

ثم حين جاء الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم .. وحتى يضمن الله أن يصل هذا القرآن إلى عباده كما نزله ، تعهد الله تبارك وتعالى فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا فإن الحفاظ على القرآن الكريم حفاظ من الله تبارك وتعالى .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة فصلت)

وهكذا كانت خاتم الرسالات يحفظها الله .. وتصل إلى البشر وليس فيها إخفاء ولا تبديل .

وقد يتساءل البعض .. لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى الذكر من عهد آدم مرة واحدة ، ويحفظه الله من أول الخلق إلى يوم القيامة ؟ ..

مواكب الرسـل

نقول . . إن الدنيا فى أولها كانت مجتمعات صغيرة متباعدة قد يعيش مجتمع منها ويفنى دون أن يعرف شيئا عن المجتمع الآخر . . ولذلك كانت الداءات مختلفة . . اقتضت رسولا إلى كل أمة . . ليعالج داء انتشر فيها . . حتى أن الأمر اقتضى كما قلنا ، أن يكون هناك أكثر من رسول فى وقت واحد . . ثم تقدم العالم . . وزالت بينه فوارق الزمن والمكان . . بحيث أصبح ما يحدث فى مكان يصل إلى المكان الآخر فى أيام . . ثم فى ساعات . . ثم تقدم الزمن وأصبح ما يحدث فى أى مكان يصل إلى العالم كله فى دقائق معدودة . . وهكذا توحدت الداءات . . وأصبحت وحدة المعالجة ضرورية فنزل القرآن الكريم ليعالج قضية موحدة . . هى قضية البشرية كلها . . نزل للناس كافة . . لأن الداءات قد توحدت . . وأصبح لابد من وحدة المعالجة .

على أن الرسالات السماوية فى جوهرها ودعوتها للتوحيد واحدة . . وإن اختلفت فى أحكام أخرى بما يلائم تطور الزمن . . فإنه يجمعها جميعا :

أنه لا إله إلا الله . . وأن المعبود الحق هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

لماذا الرسل ؟

وقبل أن نمضى فى شرح المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى ، لابد أن نشرح لماذا جاءت الرسل ؟ . . ولقد بينا فى الفصل السابق أن الرسل أساسا قد جاءوا لتبليغ منهج الله فى افعل ولا تفعل . . وأن الانسان يستطيع أن يهتدى بعقله إلى أن هناك خالقا للكون كله هو الله سبحانه وتعالى . . ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هى مرادات الله من خلقه . . ولا كيف نعبد الله . . وكيف نشكره على نعمه .

والله يبين ذلك فى القرآن الكريم فيقول فى سورة ابراهيم :

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

إذن فأساس الرسالات السماوية وهو الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى . . الرحمة بخلقه وبعباده الخطائين . . وكل ابن آدم خطآء . . والله سبحانه وتعالى خلقنا ليمتعنا بالجنة . . وينعمنا نعيما أبديا على حسب قدراته هو سبحانه وتعالى . . وهذا تكريم لبنى آدم . . وأراد أن يجعل الدنيا اختبارا لحب الله فى قلوبنا . . فمن أحب الله وأخلص له فاز بالجنة . . ومن عصى الله وخالفه واستهان بأوامره . . عاقبه الله سبحانه وتعالى بالنار . . ولقد وضع الله للحياة الدنيا دستورا . . فيه صلاح البشر . . ولا يوجد من هو أعلم من الله بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان . . فالله هو صانعنا . . وصانع الشيء هو الأدرى والأعلم بما يفسده ويصلحه .

ولقد خلقنا الله مختارين . . قادرين على المعصية . . وقادرين على العبادة . . لأنه أرادنا أن نأتيه عن حب واختيار . . لا عن قهر كالمخلوقات التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، مقهورة على طاعته كالملائكة . . ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى عنا القهر والإكراه . . فمن أتى بعمل الخير وهو مكره ومجبر ومقهور . . بينما هو فى حقيقة نفسه لا يريد أن يعمل هذا الخير . . فلا يثاب عليه . . ومن أكره على عمل سوء ، وهو يريد خيرا لا يعاقب عليه مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النحل)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إذن أساس الرسالات هو دعوة من الله سبحانه وتعالى للبشر لأن يمتعهم فى الآخرة خالدين فيها متمتعين بنعم لا تزول .. تأتى إليهم بمجرد أن تجول فى خاطرهم .. وكل ما هو مطلوب من الإنسان .. هو أن يتبع منهج الله الذى يعطيه الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة .. وجاءت الرسل ليبشروا خلق الله برحمة الله سبحانه وتعالى وإنعامه عليهم .. وهو بعد أن خلق لهم النعم فى الدنيا .. خلقهم فيها .. زاد فضلا على فضل .. بأن خلق لهم الجنة لينعموا بها فى الآخرة .. ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

يدل على أن منهج الله هو رحمة بعباده وخلقه .. ودعوة للتمتع الحقيقى بنعم الله فى الدنيا والآخرة .

ومن رحمة الله أيضا .. أن منهجه هو تثبيت للإنسان فى حياته الدنيوية .. ذلك أن الله قد خلق الدنيا وخلق لها أسبابها التى تعمل بها .. ولكن هذه الأسباب ليست قيدا على المسبب .. ولا تعمل بذاتها .. أو تعطى بذاتها .. وإنما تعمل وتعطى بإرادة الله الذى له طلاقة القدرة التى هى موجودة ونراها جميعا فى ضعيف ينصره الله على قوى .. وفى مظلوم ينصره الله على ظالم .. وفى أحداث فى الدنيا لا تمضى بالأسباب .. فكلمة (ربنا موجود) .. أو (ربنا

كبير) . . أو (ربك يمهل ولا يهمل) . . كلها كلمات رددها كل واحد منا فى حياته . . وهذه الكلمات لا تقال إلا إذا ظهرت طلاقة القدرة فى حدث مر بنا . . ذلك أنه إذا انتصر قوى على ضعيف . . فتلك تتطلب منا أن نتذكر قدرة الله ونقول (ربنا موجود) . . ولكننا لا نقول هذه الكلمة إلا إذا تعطلت الأسباب . . وصارت ارادة المسبب عكس ما تعطيه الأسباب . . ومن هنا فإننا نصيح من أعماقنا لأننا نرى قدرةالله مجسدة أمامنا فى حدث من الأحداث .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت عباده المؤمنين ومن هنا فإن رسالات السماء تأتى لتؤكد أنه إذا عزت الأسباب على المؤمن . . فإنه يرفع يديه إلى السماء ويصيح يارب . . لأنه يعلم أنه إذا كانت الأسباب لا تعطيه . . فإن المسبب قادر أن يعطيه بدون الأسباب . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول . .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وما الذى يحدث عادة حين تضيق الأسباب بالناس . . وتغلق الدنيا أبوابها فى وجوههم . . الكفار وغير المؤمن بالله يصيبه يأس قاتل ينتهى به إما إلى الجنون أو إلى الانتحار . . ولكن المؤمن يظل ثابتا . . لا تزعزعه الأحداث . بل يرفع يديه إلى السماء ويقول (يارب) . . وهو مؤمن بأن الله سيجعل له مخرجا .

وهكذا جاءت رسالات السماء لتثبت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا وتبشرهم بالجزاء العظيم الذى ينتظرهم فى الآخرة برحمة من الله . . حتى يحيوا حياتهم فى الدنيا وهم مرفوعى الرأس بلا ذل لأحد . . ويحيوا فى حياتهم الآخرة وهم فى نعيم مقيم لا يفارقهم أبدا . . هذا جزاء المؤمنين إن أحبوا الله وعبدوه .

والجزاء هنا على قدرات الله . . وليس على قدرات البشر . . والله سبحانه وتعالى لا يطلب منهم رزقا ولا مالا . . وإنما يطالبهم بالعدل والاصلاح

والصلاح .. إذن فالرسل جاءوا مبلغين لمنهج الله :. مبشرين من أطاعوه .. منذرين من عصوه .. مثبتين الذين آمنوا أمام أحداث الدنيا وتقلباتها .

بشرية الرسول

وتمضى الآية الكريمة وهى تورد حجج الكافرين منذ إرسال الرسل وحتى هذه الساعة .. تقول الآية :

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

(الآية ١٥ سورة يس)

وهذه الحجة .. حجة تكذيب الرسول لأنه بشر استخدمها الكفار من عهد نوح ويستخدمونها حتى الآن .. محاولين بذلك أن يصلوا ببشرية الرسول إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل شيئا .. حتى أننا فى هذه الأيام لا نزال نسمع من يقول إن محمدا كان بشرا يصيب ويخطىء .. وأن قوله يؤخذ ويترك .. بل إن أساس طعن المستشرقين فى القرآن هو محاولاتهم كذبا وافتراء أنه قول بشر .. مع أن قضية بشرية الرسول قضية حتمية .. ولو لم يكن بشرا .. لكان ملكا أو مخلوقا من أى نوع آخر .. ولوجد من يطعن فى الرسالة .. وسنبين هذا بالتفصيل .

رسالة الله سبحانه وتعالى هى للبشر .. ورسالة الله هى منهج لابد أن يطبق أمام الناس حتى يتبعوه .. وأن يكون هذا التطبيق صحيحا بواسطة بشر يوحى إليه ، محروس من الله سبحانه وتعالى .. مؤتمن على تبليغ الرسالة .. ومن هنا فإن الرسول الذى يأتى بمنهج السماء .. بلاغا عن الله .. إنما يطبق هذا المنهج على نفسه أولا .. ولا يجعل أحكام المنهج تعطيه ميزة عن باقى المؤمنين،ولذلك إذا أردت أن تعرف هل هذا منهج حق .. أو منهج باطل .. أنظر إلى مبلغه أو من يقدمه لك .. فإن رأيت أنه حقق ميزات لنفسه .. وجعل نفسه مميزا عن

باقى الذين معه .. فاعلم أنه منهج بشرى وضعه صاحبه ليحقق ميزات ومكاسب لنفسه .. وإن رأيت أن هذا المنهج لا يحقق أى ميزة لصاحبه بل يساوى بين الناس جميعا .. ويتحمل صاحبة المشقة من أجله .. فاعلم أنه منهج حق .. ذلك أن مناهج وقوانين البشر الأساس فيها أنها تحقق ميزات لمن وضعوها أو للقائمين عليها .. فذلك هو سبيل المنهج البشرى .. يبيح لمن يضعه ما يحظره على الناس جميعا .. أما منهج السماء .. فإن أول من يتبعه هو الرسول .. ولا يأتى أبدا بشىء يخالفه ولا يحقق لنفسه ميزة فوق المؤمنين .

إذن فالرسول بشر .. جاء مبلغا بمنهج السماء .. وحياته هى التطبيق لهذا المنهج .. وهنا تكون بشرية الرسول حتمية .. لماذا ؟ .. لأنه لو أرسل الله ملكا لقال الناس يارب .. هذا ملك .. مخلوق من نور .. ونحن مخلوقون من طين .. له قدرات فوق قدراتنا البشرية .. ولذلك فقد كلفتنا يارب أكثر مما تطيق قدراتنا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه من بين قومه .. وكونه يطبق المنهج .. تسقط حجة هؤلاء جميعا .

إذن فبشرية الرسول محتمة .. حتى لا يقول الناس أن هذا المنهج موضوع لملك .. له فوق قدراتنا .. أو موضوع لمخلوق يتميز عنا فى القدرات والخلق .. ولكن الله أتى ببشر .. اختاره من بين قومه .. حتى يكون شهيدا عليهم يوم القيامة .. فإن قالوا حجتنا أن المنهج كلفنا ما لا نطيق .. كانت هذه الحجة مردود عليها بأن هذا المنهج طبقه بشر مثلكم .. ولم يتحمل فوق ما يطيق .. وكان مثلا لكم لابد أن تحتذوا به .. ومن هنا فإن عدم بشرية الرسول تكون حجة على الرسالة وليست حجة لها .. ومجالا للطعن فى عدم مناسبة التكليف للمكلف به .. ولكن لكون الرسول بشرا .. فذلك عين الحكمة .. لنقول أن هذا التكليف قام به بشر مثلنا ونحن قادرون على القيام به .

وكان أجدر بهؤلاء الكافرين . . أنه مادام الرسول بشرا . . ومادام فى قدراته القيام بالتكليف . . كان الأجدر بهم أن يناقشوا التكليف نفسه . . وكيف يدعو إلى الخير والرحمة وطيب الخلق والتسامح والتكامل . . وكل القيم العليا التى جاءت بها الرسالات السماوية . . وحتى هذه اللحظة نجد أن من يثير نقطة بشرية الرسول . . يحاول أن يدفع بها عن نفسه وغيره قراءة المنهج . . بالتقييم الصحيح . . وهو لأنه يحس أن هذا المنهج حق . . وأنه لا يستطيع أن يناقشه . . يدفع القضية كلها محاولا إثارة قضية بشرية الرسول ليتخذها حجة فى أن يقول إنه مادام بشرا يخطىء ويصيب . . فلن آخذ عنه . . ولو أنه كان يريد النقاش حقيقة لناقش فى هذه المنهج نفسه . . ولما هرب باثارة هذه القضية الوهمية التى هى ضده وليست له . . فبشرية الرسول حتمية لتطبيق الرسالة على أساس أنها للبشر . . وليست لمن يملكون قدرات غير بشرية .

فإذا قرأت الآن من يثير قضية بشرية الرسول . . فأعلم أنه لا يستطيع مناقشة منهج الله . . ولذلك فهو يحاول أن يهرب بكلام هو ضده وليس له .

الإسلام والقهر

وتمضى الآية الكريمة بعد أن ضربت لنا المثل بأن الكفار يستخدمون بشرية الرسول فى محاولة لتكذيب الرسالات وإيهام الناس كذبا أنها ليست من عند الله . . تمضى الآية الكريمة :

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يس)

حينما كذب أصحاب القرية المرسلين . . التجأ المرسلون إلى الله سبحانه وتعالى يشهدونه فقالوا :

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يس)

أى أننا لا نكذب على الله فى الرسالة التى جئنا بها . . ولماذا نكذب إذا كنا لا نحقق ميزة . . لو أننا جئنا بمنهج بشرى نحقق به ميزة لكان أول شيء نفعله أن نحاول ارضاء أصحاب النفوذ والجاه . . ذلك لأن هؤلاء هم الذين يملكون أسباب فائدتنا . . ومن هنا فلا يعقل أن نكون قد جئنا برسالة بشرية نعادى بها هؤلاء الناس . . لأن ذلك ضد منهج البشر . . وتصرف البشر . . فالإنسان عادة إذا أراد فائدة دنيوية يبحث أين هؤلاء الذين يملكون هذه الفائدة الدنيوية . ثم يبدأ فى نفاقهم . . ويضع المنهج الذى يعتقد أنه يرضيهم . . أما إذا جاء بمنهج يغضبهم به لأنه ينتزع ميزاتهم . . ويحاول أن يساوى بينهم وبين غيرهم . . فإنه فى هذه الحالة يتعرض لبطشهم . . بدلا من مكافآته منهم . . وفى هذا يكون المنهج الذى أتى به . . منهج حق . . وهؤلاء الرسل جاءوا بمنهج الحق . . وهم لا يحاولون أن يطبقوا ما أتوا به بالقوة والعنف . . بل هم يبلغون رسالات الله . . والله الذى خلق الإنسان مختارا . . ومتمتعا بحرية الاختيار . . فى أن يفعل أو لا يفعل . . يترك هذا الإنسان بعد أن تم ابلاغه برسالة ربه . . يتركه بعد ذلك ولا يقهره الله سبحانه وتعالى وهو قادر على ذلك . . لا يقهره على الإيمان .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(من الآية ١٩ سورة يونس)

ويقول جل شأنه :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولذلك فإن مهمة الرسول ابلاغ منهج الله للناس .. والدعوة إلى الله بالقول .. والموعظة الحسنة .. ثم بعد ذلك من يدخل فى دين الله ويؤمن .. يجب أن يدخل وهو راغب فى الإيمان .. وهو مريد لهذا الإيمان .

وهنا نقطة لابد أن نتحدث عنها .. ذلك أن عددا من المستشرقين يتهم الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف .. وأن الناس كانوا يخيرون بين الإيمان أو القتل .. وأن الفتوحات الإسلامية هى التى نشرت الإسلام بالسيف .. وهذا قول يحمل بهتانا عظيما .. ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف .. لما وجد فى الدولة الإسلامية غير المسلمين .. ولكن وجد فى الدولة الإسلامية اليهود والنصارى .. وظلوا على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يدخلهم فى دين الإسلام قهرا .. بل تركوا على دينهم .. وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا فى ظل الدولة الإسلامية .. حتى أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون فى المغارات وقت الحكم الرومانى .. قد خرجوا إلى الآفاق فى أيام الحكم الإسلامى .. وكانوا يؤدون عبادتهم فى حماية الحكومة الإسلامية .

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتصر بالسيف قول كاذب .. ولكن الإسلام استخدم السيف ليدافع عن حرية الكلمة .. وحرية العقيدة للبشرية كلها .. فقد كان دعاة المسلمين يريدون أن يعرضوا الإسلام على الأمم .. فيشرحوا الدين الجديد للناس .. وبعد إبلاغهم بالدين الجديد والحجج التى نزل بها القرآن .. بعد ذلك من شاء آمن .. ومن لم يشأ ظل على دينه .. وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأى .. وحرية العقيدة وأن يعرضوا الإسلام على الناس .. ومن له حجة ـ ولله الحجة البالغة ـ فليتقدم .. ثم بعد ذلك يترك حرية العقيدة لكل إنسان .

ولكن حكام هذه الدول . قتلوا دعاة المسلمين . . ومنعوا المسلمين من أن يعرضوا دينهم على الناس . . وصادروا حرية الرأى وحرية العقيدة . . محاولين فرض دين الكفر . . وحملوا السيف ليمنعوا الإسلام من أن يصل إلى قلوب وآذان البشر . . وكان لابد دفاعا عن حرية الرأى والعقيدة أن يحمل المسلمون السيف . . ليضمنوا للبشرية حرية الرأى . . وحرية العقيدة . . ويخلصوها من جبروت فرض الكفر والالحاد على الناس بالقوة . . وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذى يستطيعون فيه ابلاغ تعاليم الإسلام للناس . . تركوا السيف وألقوا به بعيدا . . وبدأوا فى شرح تعاليم الدين . . ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حرا فى أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه . . فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز ، ومن بقى على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون .

لماذا العداء ؟

إذن فالرسل حين استشهدت بالله . . قالت ما علينا إلا البلاغ المبين . . أى أن الله سبحانه وتعالى كلفنا بأن نبلغكم منهجه . . فمتى أبلغناكم هذا المنهج . . نكون قد أدينا رسالة الله . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحاسبكم . . ولكن هذا الكلام لا يعجب السادة والمترفين . . الذين يريدون أن تكون العزة فى الدنيا لهم قهرا . . بل إنه يؤرقهم . . لماذا ؟ لأنهم يحسون فى داخلهم أن الرسل سيجذبون الناس بمنهج الله . . وأن الإيمان الفطرى للنفس البشرية . . يدفع هذه النفس إلى منهج الله . . وتحس إن هى اتبعته بانسجام مع الكون ، وبالراحة والطمأنينة والسلام داخل النفس . . كما أن هناك داخل نفس كل كافر . . ما يجعله يحس أن المؤمن أفضل منه . . فهو يحاول أن يؤذيه . . ويتعمد أن يسخر منه . . وكلما رآه يحاول أن يهينه . . وما هذه المحاولات كلها . . إلا لأن شيئا داخله يجعله غير منسجم مع هذا الكون . . وهو يريد أن يخرج المؤمن من إيمانه ليصبح الاثنان سواء .

وكان المفروض عندما أشهد الرسل وقالوا .. ما علينا إلا البلاغ المبين .. أى البلاغ الظاهر .. المؤيد بالحجة .. كان المفروض أن يتركوهم وشأنهم .. ولكنهم أبوا ذلك وأرادوا أن يتعرضوا للرسل بالايذاء .. ولكن الرسل لم يجبروهم على شيء قهرا .. فقالوا « إنا تطيرنا بكم » .. أى إنا قد تشاءمنا من وجودكم فى هذه القرية .. فدعوتكم للإيمان قد أفسدت الناس علينا .. وجعلتهم بعد أن كانوا خاضعين لنا خضوعا كاملا .. ينظرون إلينا على أننا متساوين معهم .. وهذا مالا نريده ولا نسمح به .. ثم ازداد هؤلاء الكفار فى بغيهم على الرسل فقالوا لهم « إن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » .. أى أنهم أرادوا من الرسل أن يتركوا الدعوة لدين الله .. وأن يتركوا هذه الدعوة وينضموا إليهم كما عرضوا على رسول الله وعرضوا على عمه أبى طالب أن أراد مالا جمعنا له المال . وإن أراد ملكا ملكناه علينا .. محاولين بذلك أن يغروه لترك الرسالة .. والانضمام معهم إلى موكب الكفر .

وهكذا بدأ أصحاب القرية العداء .. وطالبوا رسل الله أن يتركوا الدعوة .. فلما فشلوا فى اغرائهم .. قالوا .. إذا لم تتركوا الدعوة للدين فأننا سنقتلكم رجما أو نعذبكم عذابا شديدا حتى تتركوه .. وهكذا عندما فشل الاغراء لجأ الكفار إلى التهديد .. بأن حاولوا أن يجعلوا الرسل يتركون الدعوة .. أو يتعرضون لايذاء شديد .. وبذلك يكون العداء قد بدأ مع الكفار .. ويكونون بذلك هم الذين اتخذوا الخطوة الأولى فى العداوة لله .. وهم الذين بدأوا فى محاربة دين الله الذى لم يحاول أحد أن يفرضه عليهم .. ويكونون بذلك قد استحقوا عدلا عقاب الله ، لأنهم هم الذين بدأوا العداوة .. وبدأوا ايذاء الرسل الذين يدعون إلى الهداية وإلى الصراط المستقيم .. ورد الرسل فقالوا « طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » .. أى أن هذا التشاؤم الذى تحملونه لنا هو من عند أنفسكم .. هو من ذاتكم .. فأنتم قوم تريدون أن تسرفوا فى الأرض .. وأن تبغوا وأن تأخذوا حقوق غيركم غصبا وبالقهر .. فإذا سمعتم كلمة العدل ضاقت بها نفوسكم .. وملأها التشاؤم .. لأنها تمثل بداية النهاية

بالنسبة للظلم الذى تحاولون أن تفرضوه على الناس .. وأن تجعلوه هو دستور الحياة .. بينما الله سبحانه وتعالى قد جعل دستور الحياة هو العدل .

والاسراف هنا هو إعطاء النفس البشرية كل شهواتها واطلاق العنان لها .. لترتكب ما تريد وتشتهى دون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس .. والله سبحانه وتعالى فى منهجه قال افعل ولا تفعل .. وفى قوله لا تفعل .. فقد قيد النفس البشرية من أن ترتكب ما تفسد به الحياة فى الكون .. وأن تعيش فى الحدود التى تضمن عدالة للجميع . ذلك أننا كلنا عبيد لله .. والله سبحانه وتعالى .. له عطاء ربوبية يعطيه لنا جميعا .. وهو لا يقبل العدوان إلا ردا للعدوان .. ولا يقبل الاعتداء بغير الحق .. ولكن النفس البشرية بطبيعتها تكره القيود وهى تريد أن تنطلق فى شهواتها وتسرف فيها دون ما مراعاة لحق .. وهذا الاسراف على النفس وليس لها .. لماذا ؟ لأنها قد أخذت نفعا عاجلا .. ولم تنتبه إلى الجزاء الذى ينتظرها فى الآخرة .. ذلك الجزاء الذى يؤدى بها إلى الهلاك .. ومن هنا فهى لم تقدم خيرا لنفسها .. بل تقدم شرا .. هكذا كان هذا الشر عليها وليس لها .. لأنها وإن حققت نفعا وقتيا فقد كسبت بذلك عذابا أبديا .. والعجيب أننا فى أمور الدنيا نحاول أن نعمل من أجل ما نعتقد انه نفع قادم .. فكل منا يرسل أولاده فى مرحلة طويلة إلى المدرسة ثم إلى الجامعة ويظل يسهر عليهم ويضنيهم فى المذاكرة ليحصلوا على درجة علمية ، ويعتقد أنها ستنفعهم فى المستقبل .. وربما قيد حركته وحركتهم أيضا من أجل ذلك .. ويأتى نفس الإنسان مع يقينه أن حياته ستنتهى وأنه سينقل إلى الحياة الآخرة ، نجده غافلا عن أن يعمل لآخرته ما عمله لدنياه .. وأن يطبق نفس المنطق الذى يطبقه على حياته الدنيوية .. مع أن هناك فارقا كبيرا بين مستقبل سيحققه لسنوات معدودة .. وبين نعيم مقيم سيخلد فيه ولا يموت أبدا .. ولكنها الغفلة التى تصيب القلب البشرى وتجعله ينظر إلى ما هو عاجل .. وإلى ما تقدمه له الدنيا .. وينسى ما هو قادم .. وهو لقاء الله فى الآخرة .. وتلك الغفلة التى

تصيب القلوب ، سببها البعد عن منهج الله . . ولو أن كلا منا تمسك بمنهج الله لربح الدنيا والآخرة .

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنفهم معنى مواكب الرسل من بداية الخلق حتى نهايته . . ونكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يخبرنا بأنه أرسل أكثر من رسول ليزيح الغفلة عن قلوب الناس . . ويظهر ما أخفاه بعض الناس من منهج الله وما نسوه وما حرفوه . . وأن مواكب الرسل وجدت أمامها فى كل قرية أولئك المقاومين للإيمان ، المكذبين برسالات الله . . وأن هؤلاء من الذين يخافون أن ينزع دين جديد نفوذهم فى الدنيا . . وأن يجردهم من ميزات حصلوا عليها بالبغى والعدوان . . وأنهم لما وجدوا الدين الجديد لا يوافق أهواءهم ، ولا يتمشى مع نزواتهم . . ولا يعطيهم السيادة . . بدأوا فى حربه . . فقالوا إن الله لم ينزل شيئا . . وأن ذلك قول بشر . . ثم تمادوا بعد ذلك فى تكذيبهم للدين إلى محاولتهم اغراء الرسل بأن يتركوا الدعوة . . فلما فشل الأعداء . . بدأوا هم بالعدوان وبالايذاء . . فكان عقاب الله عدلا . . حيث أنهم هم الذين بدأوا .

ثم يضرب الله بعد ذلك مثلا لمواكب الإيمان التى جاءت فى فترات بين الرسل وبعد انتهاء الرسالات السماوية . . وكيف أن هذه المواكب ستستمر إلى يوم القيامة ماذا فعل الدعاة إلى منهج الله . . واتباع ما جاء به الرسل . . وماذا فعل الكافرون ليواجهوا هذه المواكب . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدســـــى

لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . وجعل بين عين كل إنسان منهم وميضا من نور . ثم عرضهم على آدم . فقال أى رب ، من هؤلاء ، قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم أعجبه بياض ما بين عينيه ، فقال أى رب . من هذا ، قال هذا رجل من آخر الأمم يقال له داود . فقال رب : كم جعلت عمره . قال ستين سنة ، قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة . فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت . فقال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ، قال أو لم تعطها ابنك داود ، قال فجحد آدم . فجحدت ذريته . نسى فنسيت ذريته . وخطىء آدم فخطئت ذريته .

الفصل الثالث

مواكب الإيمان

مواكب الإيمان ضرب الله لها أكثر من مثل وأكثر من قصة فى القرآن الكريم . . كل تناول جانبا من جوانب الإيمان . . ولا يمكننا أن نستعرضها جميعا فى فصل واحد . . بل هى ستأتى تباعا خلال الفصول القادمة .

على أننا إذا تعرضنا هنا لمواكب الإيمان . . فإننا سنتعرض للأمثال التى ضربها الله لمواكب الإيمان فى عهد الرسل . . والتى ضربها الله لمواكب الإيمان فى الفترات التى بين الرسالات . . وللمَثَل الذى أعطاه الله عن المؤمنين لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، .

حينما نبدأ بمواكب الإيمان نكمل الـمَثَل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى سورة يس :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى
شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ
لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا مثل عن مواكب الإيمان فى عهد الرسول . . فالذين يؤمنون برسالة الرسل وبالدين . . لا يقفون عادة عند حد الإيمان . . بل يكونون دعاة له . . ويحاولون أن يجذبوا غيرهم إلى الهداية . . وأن يجادلوا الكفار بالحجة . . عسى أن يؤمنوا

بالدين . . أى أنهم لا يقفون من مواقف الكفر موقف المتفرج . . ولا هم يتركون الرسول وحده يدعو . . بل هم موكب إيمانى مؤيد وداع لما جاء به الرسول . . وهذا الموكب يعانى من أذى الكفار كما يعانى الرسل . . ويضطهدون ويعذبون .

على أننا نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾

ذلك أن مواكب الإيمان سواء كانت من الرسل أو من أولئك الذين آمنوا بالدعوة وصدقوا بها دائما تسعى لعرض الإيمان على غير المؤمن وشرحه له . . تلك هى سمات المؤمنين .

فالإنسان المؤمن يريد دائما أن يجذب غيره إلى الإيمان . . أولا لأن فى قلبه حب الله . . وهذا الحب يجعله يريد أن يلفت الدنيا كلها إلى الإيمان بالخالق . . وثانيا لأن فى قلبه الخير . . ومادام الخير فى قلبه . . فهو يريده للناس جميعا . . وهل هناك خير من الفوز العظيم الذى يفوز به الإنسان فى الآخرة . . إن المؤمن يعرف يقينا الجزاء والحساب . . وما فى قلبه من خير . . يجعله يريد للناس جميعا أن ينجو من العذاب . . ويفوزوا بخير الدنيا والآخرة . . وحبه لله يجعله يريد الدنيا كلها أن تشاركه هذا الحب العظيم .

وفى هذا يلفتنا الله فى أكثر من مكان لهذا السلوك الإيمانى . فيقول فى سورة الأعراف :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾

والحوار هنا بين موكب الإيمان وبين الكافرين .. والكفار يعاتبون المؤمنين فى سعيهم الإيمانى .. ويوجهون إليهم اللوم ويقولون : « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا » .. وكأنما يستكثر الكفار على المؤمنين محاولاتهم المستمرة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .. ولكن هذه هى طبيعة موكب الإيمان .

وحتى لا يحاسب الله المؤمنين يوم القيامة أنهم شهدوا مواكب الكفر دون أن يعظوهم أو يذكروهم بالله .

وهذه التذكرة هى ثواب للمؤمن حتى ولو لم يهتد الكافر .. وكأنما المؤمن يتصرف من منطلق إيمانى .. وبذلك تكون الرسالة قد بلغت على أيدى الرسل .. واستمرت بمواكب الإيمان .. حتى لا يأتى أحد يوم القيامة ويجادل الله فى أنه لم يعلم .. أو لم يبلغ .. فإذا اهتدى الكفار .. كان هناك أجران .. أجر لبيان الطريق المستقيم .. واستمرار البلاغ عن الله لعباده عن طريق الموكب الإيمانى .. وأجر على من اهتدى من غير المؤمنين ودخل فى الإيمان .. ثم يقول سبحانه وتعالى فى سورة الرعد :

﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

أى أنه رغم علم المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدى الناس جميعا ويخضعهم له .. مع علمهم بهذه الحقيقة .. فإنهم يظلون مستمرين فى موكبهم الإيمانى .. عسى الله إن شاء أن يجعل الهداية على أيديهم .. ومهما بلغ الكفر فإن المؤمن لا ييأس أبدا .. بل يظل يدعو للمبدأ الإيمانى وهو الذى يسعى .. وهو الذى يحث الناس على اتباع منهج الرسل وعلى طاعة الله .. فهذا

مواكب الايمــان

الموكب الإيمانى لا ينتهى أبدا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة)

موكب الإيمان مستمر

الله يريد فى هذا المثل أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر . . وأن المؤمنين يسعون دائما إلى تذكير غيرهم بمنهج الله وحثهم على اتباعه . . وهو يضرب لنا هذا المثل لأن الحياة قصيرة قد لا نستوعب نحن ما يحدث فيها . . ولذلك يريد أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر فى الدنيا دائما . . ثم يمضى المثل الذى ضربه الله .

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة يس)

هنا يريد الله أن يلفتنا إلى حقيقتين هامتين فى موكب الإيمان والرسالة . .

الحقيقة الأولى أن هؤلاء الناس يعيشون حياة شاقة فى اصطدامهم بمن يحاولون استغلال المجتمع الإنسانى والافساد فى الأرض . . وفى نفس الوقت فإنهم لا يحصلون على أجر دنيوى . . فالرسل لا يطلبون من الناس مالا . . ولا يطلبون أن يعيشوا فى قصور . . ولا يطلبون أن يعيشوا فى حياة الثراء والترف . . بل هم لا يحصلون على ميزات كثيرة يتمتع بها عباد الله غيرهم . . وهم مثلا لا يتركون ميراثا لأهلهم . . بل إنهم كل ما يتركونه يذهب للصدقة ولا يرث أهلهم شيئا . . وهم فى الزكاة أو أموال الصدقات التى يجمعونها لا يعطون منها أقاربهم ولو كانوا من مستحقى الصدقة . . بل إننى أريد أن أذكر آية كريمة نزلت فى المدينة المنورة . . عندما بدأت غزوات المسلمين ، وبدأت معها الغنائم . . ومع الغنائم التى حصل عليها المسلمون كانت هناك رغبة من

زوجات الرسول فى بعض الغنائم . . وكان هذا إتجاها إلى الدنيا . . وإذا بالقرآن ينزل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

سورة الأحزاب

وهكذا حددت هذه الآية الكريمة أن متاع الدنيا من فاخر ثياب ومال وغنائم وكل ما تقدمه الدنيا من زينة هو ليس لزوجات رسول الله . . حتى لا يكون هناك مطمع دنيوى .

إذن فالرسول لا يطلب أجرا ممن آمن . . وإنما أجره من الله . . وهو لم يطلب مالا ليبنى به قصورا ويحيط نفسه بمباهج العظمة . وهو لا يعطى أهله ولا أقاربه مالا أو فائدة باستغلال النفوذ ، إلى آخر ما يحدث بالنسبة للمناهج الدنيوية . . كل هذا لا يتم بالنسبة للرسل . . ولو تم لانحرف المنهج . . ولكان عند الناس عذر فى عدم الإيمان ، لأنه يحقق فائدة دنيوية يسعى إليها غير المؤمن . . ولكن كون الرسالات هى مشقة يتحملها الرسول دون أن يطلب أجرا من أحد من المؤمنين . . أو يتميز عليهم . . أو يطالبهم بما لا يفعل . . وبما لا يلتزم هو به . . ومادام هو ملتزما التزاما تاما بالمنهج . . ومادام لا يستفيد من هذا يكون ذلك أدعى لأن نتبعه .

ولنسأل أنفسنا إذا كان هذا الرجل لا يتلقى منهجا من السماء . . فما هى فائدته فى كل المشقات التى يتحملها . . وفى كل الأذى الذى يقع عليه . .

فلو كان هناك عقل .. لكان هناك اتباع للرسول الذى جاء بمنهج السماء .. ولا يريد علوا فى الأرض ولا ثراء ولا نفوذا .

إذن فموكب الإيمان فى دعوته إنما يتخذ من الرسل قدوة .. ويقول للناس اتبعوا من لا يسألكم أجرا ، ولا يريد أن يأخذ من أموالكم ليزيد هو فى ماله .. ولا يحقق بواسطتكم جاها فى الدنيا .. وهو فى نفس الوقت أكثركم التزاما بالمنهج الذى يدعو إليه .. لا ينهاكم ثم يفعل هو .

قمة الحجة الإيمانية

ثم يمضى موكب الإيمان بعد ذلك « **ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** » .. وهنا يأتى السؤال بقمة الحجة الإيمانية .. وهو أى عذر لى أو حجة فى ألا أعبد الذى خلقنى .. والذى سأعود إليه مرة أخرى ليحاسبنى ويجزينى أجر إيمانى وعملى .. والحجة هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وتلك حجة لا يستطيع أحد أن يجادل فيها .. الإنسان لم يخلق نفسه .. ولم يقل أحد إلا الله أنه هو الخالق .. ومن هنا فإن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى .. لم يدعها غيره .. والذى أخبرنا عنها هو الله وحده .. إذن ما هو أساس عدم العبادة مادامت القضية محسومة وواضحة .. ولماذا المجادلة .. « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .. لا هذا ولا ذاك .. ومع ذلك فإن الإنسان يبتعد عن هذه القضية محاولا أن يجادل فيها بأكثر من جدال .. ومادام الله هو الذى خلق والقضية محسومة .. ألا يستطيع الخالق سبحانه وتعالى أن يعيد خلقه مرة أخرى ويحشرهم إليه يوم القيامة .

إذا كنت أنا قد صنعت شيئا .. فهل لا أستطيع أن أعيد صناعته .. بالعكس فى المرة الثانية يكون أسهل من المرة الأولى بالنسبة للإنسان على الأقل .. فقد تحتاج فى المرة الأولى إلى ابتكار ولمسات .. ولكنك فى المرة الثانية

إذا قيل لك أعد صناعة نفس الشيء تستطيع أن تعيده أسهل وأيسر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده سهل ولا صعب . . فإذا كانت قضية الخلق محسومة . . فكيف تكون قضية إعادة الخلق فيها جدل . . بينما هى بالنسبة لقدراتنا نحن أسهل .

قضية البعث

ولكن الكفار الذين قد لا يجدون حجة فى المجادلة فى قضية الخلق لأنها كما قلنا محسومة . . يجادلون فى قضية البعث . . ولقد جاء رجل يقال له العاصى ابن وائل ، وأخذ عظمة قديمة من البطحاء وفركها بيديه حتى صارت ترابا . . ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أيحيى الله هذا بعد ما ترى . . أى بعد أن صار ترابا . . فقال رسول الله . . نعم يبعث الله هذا . . ويميتك الله ثم يحييك . . ثم يدخلك نار جهنم . . ونزلت الآية الكريمة فى سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

إذن الذين يجادلون فى البعث . . إنما حجتهم داحضة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أول مرة . . وهو يستطيع أن يعيد خلقه . . أو أن يعيد ما خلقه مرة أخرى . . وذلك أسهل .

فموكب الإيمان عندما يأتى يذكر الناس بهذه الحقائق . . وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم . . وهو قادر مادام قد خلق على أن يعيدهم مرة أخرى . . ولو أنهم فكروا قليلا لوصلوا إلى هذه الحقيقة . . ولكن من نقائص العقل البشرى أنه يأتى إلى من هم دون الله ليتخذ منهم آلهة . . ولو أن هذا

العقل كان يفكر التفكير السليم . . لما ترك الأعلى ليتخذ إلها ممن هم دونه . . فلا يقبل عقلا ولا منطقا أن أترك القوة التى ليس فوقها قوة . . والقدرة التى ليس فوقها قدرة وآتى إلى من هم أقل قدرة لأعبدهم . . أو آتى لمخلوق مثله لأتخذه إلها . . ولكن الذى يحدث أن النفس البشرية لها شهوات . . وهى تريد أن تنطلق بهذه الشهوات دون أن يكون هناك قيود تحدها . . والله سبحانه وتعالى قد خلقنا جميعا . . وجعل لنا حقوقا متساوية . . فإذا جاء هوى النفس يطلب ما هو حق للغير جاء عدل الله وقال لا . . وحينئذ يبحث هوى النفس عمن يبيح له ذلك . . فيخترع آلهة . . أو يتصور آلهة تبيح له شهوات نفسه . . ومن هنا فهو يريد أن يشكل إلهه على هواه . . فيتخذ أحجارا أو أسماء أو أشياء يسميها هو . . ولا وجود لها . . ويضع لها هو المنهج الذى تمليه عليه نفسه . . وفى هذه الحالة يكون الإنسان قد ألغى عقله . . وحاد عن الحق .

الجدل الإيمانى

وهنا يأتى الجدل الإيمانى ليرد على القضية من كل جوانبها . . بعد أن بين أن أى إله يتخذ هو من دون الله . . لأن الله وحده هو الذى خلق وأوجد . . وكل إله من دون الله لم يخلق شيئا . . ولم يوجد شيئا . . يأتى بعد ذلك إلى حجتهم . . ويقول هب أنكم لا تؤمنون بالبعث . . ولا بأنكم ستعودون مرة أخرى لتحاسبوا . . هب أن ذلك هو ما فى عقولكم . . أفتتخذون آلهة من دون الله . . لماذا ؟ للحياة الدنيا كما تقولون . . سنمضى معكم فى هذا . . هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم من دون الله ليدفعوا عنكم الضر ويحفظوكم فى الحياة الدنيا . . هل هم قادرون على ذلك ؟ فيقول موكب الإيمان :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرࣲّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـࣰٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة يس آية ٢٣)

أى أن هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم فى الدنيا وحدها عاجزون حتى عن هذه المهمة . . فهم إذا أرادنى الله بضر وهو خالقى . . ويجرى على قدره . . لا يستطيعون ولا يملكون دفع الضر عنى . . وحتى ما تدعونه من أنكم أخذتم هذه الآلهة لتشفع لكم عند الله سبحانه وتعالى . . فالله لا يقبل شفاعتها . . وبذلك فهى عاجزة تماما عن انقاذى من ضر أرادنى الله به . . أو التشفع لى عند الله ليذهب الضر عنى . . إذن لا هى أفادتنى فى منع الضر . . ولا كانت واسطة لى فى شىء .

وهكذا جاء الرد على كل الجوانب . . فإذا كان هناك إيمان بالدنيا والآخرة . . فالله هو الذى خلقنى وهو قادر على أن يرجعنى ليحاسبنى . . فلابد أن أؤدى له حق العبادة . . وإذا كنت أريد الدنيا وحدها ولا أصدق بالآخرة . . فحتى فى هذه الحالة فإن الآلهة التى أتخذتها من دون الله غير قادرة على توفير الحماية لى فى الحياة الدنيا . . وانقاذى من ضر أرادنى الله به . . بل وأكثر من ذلك هى عاجزة على أن تشفع لى عند الله .

عندما نصل إلى هذه النتيجة . . نكون قد وصلنا إلى أن كل من يعبد غير الله هو فى ضلال مبين . . أى ابتعد عن الطريق . . وضل الوصول إلى غايته . . فلا هو عمل للآخرة . . ولا هو حقق لنفسه فى الدنيا ما يحميه من غضب الله إن أراد به سوءا . . فكأنما خسر الاثنين معا . . الدنيا والآخرة . . ولذلك فإن الله وهو يضرب المثل بعد أن ساق الحجج يقول :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي

﴿ رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الايذاء والعنف فى مواجهة مواكب الإيمان

الذى حدث أن موكب الكفر لم يجد لديه حجة فى أن يرد . . أو أن يقول شيئا؛ ذلك أن كل الحجج التى جاءت كانت دامغة . . فلم يكن هناك إلا الايذاء والقتل . . لأن الإنسان حين يفقد حجته يلجأ إلى العنف . . فطالما هو يملك الحجة فيستطيع أن يجادل . ولا يلجأ إلى العنف أبدا مادام قويا بحجته وبرهانه . . إنما ذلك الذى يلجأ إلى العنف فهو ضعيف الحجة . . ولذلك فإن مواكب الكفر تلجأ دائما إلى الايذاء والعنف فى مواجهة مواكب الإيمان . . وتحاربهم بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . . مادام قد فقد المنطق وضاعت حجته . . ولكن مصير أهل الإيمان دائما إلى الجنة . . يجزيهم ربهم على عملهم . . وعلى دعوتهم . . ويبقى الخير فى قلوبهم حتى بعد ايذاء الكفار لهم . . ذلك أنهم يحسون أن هؤلاء الكفار قد خسروا خسرانا مبينا . . ويتمنون لو أنهم يصلون إلى حقيقة الإيمان وحقيقة الكون لذلك يقول الرجل الصالح :

﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة يس)

وهنا لابد أن نلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى « بما غفر لى ربى » وقوله تعالى على لسان المؤمنين الذين حاربوا مع داود ضد جالوت :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ذلك أن الله يريد أن يعلمنا أن باب التوبة مفتوح دائما . . وأن الإنسان المؤمن إذا صدق إيمانه . . وصدق عمله من أجل الله . . فإن الله يتجاوز عن سيئاته ويغفر له . . ذلك حتى نحس جميعا أن الذنب لا يقف عقبة أمام حسن الإيمان . . مادام الإنسان قد ارتكبه بجهالة ثم تاب عنه توبة حقيقية ثم يقول الله :

﴿ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة يس آية ٢٨)

والله هنا يريد بعد أن أخبرنا بموقف الإيمان وموقف الكافرين . . وكيف كذبوا الرسل أولا . . وبدأوا هم بالعداوة . . ثم وقفوا هذا الموقف المعادى أمام مواكب الإيمان التي جاءت تحثهم على اتباع المنهج . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن هؤلاء الكفار ليس لهم قيمة . . ولا قوة . . ولا قدرة . . وأنهم حتى لا يستحقون أن تنزل إليهم جند من السماء لتقضى عليهم . . بل إن الله سبحانه وتعالى لم يكن منزل هذه الجند لأن هؤلاء لا يساوون شيئا . . وهو إن تركهم فى غيهم فى الدنيا فليس بذلك مرجعه إلى أنه غير قادر عليهم . . وليس مرجعه إلى أنهم معجزون فى الأرض . . أو يساوون شيئا أمام قدرة الله . . بل مرجعه وأساسه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأعطاه حرية الاختيار . . فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . فإن الله سبحانه وتعالى وهذه مشيئته يترك الكافر يجادل ويكابر . . وينذره ويرسل إليه الرسل ومواكب الإيمان . . لا لأنه لا يقدر عليه . . ولكن لأنه تركه مختارا . . ويوم يأتى أجله أو ينتهى عمره . . فهو لا يساوى عند الله شيئا ويستطيع أن يسلبه الحياة فى لحظة . . أو فى أقل من لحظة .

أصحاب الكهف

على أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا لموكب إيمانى آخر فى سورة الكهف . . وصورة الموكب الإيمانى هنا تختلف . . وهى تمثل عصرا انتشر فيه الكفر . . قلة

مؤمنة لا تدرى ماذا تفعل أمام بطش الكافرين . . وهنا يعطينا الله المثل ليكمل بذلك موكب من مواكب الإيمان .

وقبل أن نبدأ الحديث أحب أن أقول . . إن كل الأمثال التى تضرب فى القرآن . . قد أخفى الله سبحانه وتعالى حقيقة أبطالها . . لأنها تحدث وتتكرر فى كل عصر . . والخلاف الذى يحدث حول من هم أبطال هذا المثل أو هذه القصة أو فى أى عصر حدثت . . هو خلاف لا يفيد القضية . . فالمفروض بدلا من أن يجرنا هذا الخلاف إلى متاهات . . أن نلتفت إلى الحكمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى ونتدبر فيها . . فذلك هو المقصود . . وهو الأساس .

قصة أهل الكهف . . هى قصة فتية آمنوا بربهم . . أى فتية ؟ كل فتية آمنوا بربهم . . قال الله :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ
أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى . . إنما هم يمثلون المنهج الإيمانى واستمراريته . . الله قد ضرب لنا المثل فى أصحاب القرية فى منهج

إيمانى . . يجادل ويواجه . . وهذا هو أساس المنهج الإيمانى . . ولكن الله فى هذا المثل فى سورة أهل الكهف . . بأنهم لم يواجهوا ولم يستمروا . . بل هربوا بدينهم . . أو فروا بدينهم بعيدا عن الكفار . . فهل فى هذا تناقض . . كيف يبقى الإنسان مرة يجادل . . ثم يفر بدينه مرة أخرى !

نقول لمن يدعى ذلك أنك لم تفهم الحكمة . . فالحكمة فى المثلين واحدة وإن اختلف الأسلوب . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى المنهج الإيمانى مواجها الكافرين . . مجادلا لهم حتى آخر لحظة . . ولكنه فى نفس الوقت لا يريد من المنهج الإيمانى إذا واجه قوة ستقضى عليه . . أن يستسلم ويتركها ليقضى عليها . . إنما عليه أن يفر بدينه إلى مكان آخر . . ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى . . بعد أن يكون قد قوى واستطاع أن يواجه . . يعود مرة أخرى قويا إلى المواجهة . . وهو لا يريد لمن يدعون لدينه أن يهربوا من المجتمع . . أو أن يعتزلوا . . بل لابد أن يبقوا . . وأن يقولوا كلمة الحق . . وأن تظل الدعوة مستمرة . ولذلك إذا قرأنا قصة أهل الكهف بعناية . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد شرطين لا ثالث لهما . . ليفر الإنسان بدينه إلى مكان آخر ويبدأ الدعوة من جديد . . الشرطان هما :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالأساس هو ما حدده القرآن الكريم فى هذه السورة . . فقد كان الفتية المؤمنون إذا بقوا . . فإنهم سيواجهون أحد أمرين . . أما أن يرجموهم علنا أمام الناس . . ويقتلوهم على رؤوس الأشهاد . . وفى هذه الحالة ينتهى موكب الإيمان من هذه البلدة إلى فترة محدودة . . وإما أن يجبروهم علنا على أن يعودوا إلى عبادة الأصنام . . وفى هذه الحالة . . ربما يكون هناك عدد من المؤمنين الذين

يكتمون إيمانهم . . فيشهدون هؤلاء الفتية وقد ارتدوا عن الإيمان فيفتنون بهم ويرتدون هم أيضا . . ويتوقف موكب الإيمان فى هذه البلدة إلى حين .

إذن فالأساس هنا هو استمرارية موكب الإيمان أو المحافظة على هذه الإستمرارية . . هذا بالنسبة لمن يدعون إلى تطبيق المنهج . . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . فالله يستطيع أن ينصر دينه وكلمته . . وهو ليس محتاجا إلى أحد . . وهذا ما سنبينه . . إنما الأساس هو أن الهجرة أو الفرار بالدين . . لا يكون إلا لهذين السببين اللذين حددهما الله . . وأن بقاء الدعاة فى المجتمع . . ماداموا غير مهددين بالقتل . . أو مهددين بأن يكرهوا علنا على الكفر . . أقول إن بقاءهم فى هذه الحالة واجب إيمانى . . وأنهم لابد أن يبقوا ويظلوا يؤدون واجبهم كدعاة للحق .

هؤلاء الفتية وجدوا أن بقاءهم فى المجتمع الكافر سيعرضهم لأحد شيئين . . إما أن يقتلوا ويحرم المنهج ممن يدعون إليه . . وفى هذه الحالة فإن قتلهم لا يفيد المنهج . . لأن المنهج محتاج لموكب إيمانى . . وإما أن يكرهوا على الكفر فيصبحوا فتنة للذين آمنوا . . ودعوة إلى الكفر والالحاد . . وفى هذه الحالة أيضا يحرم المنهج الإيمانى من حاملين له ومؤمنين به ودعاة له . . وفى هذه الحالة لابد أن يفروا إلى مكان ليعودوا مرة أخرى وهم أكثر قوة .

وكانت أول مرحلة لهؤلاء الفتية هو أن يلتجئوا إلى الكهف حتى يتدبروا أمرهم . . ولذلك فهم لم يذهبوا إلى الكهف ليبقوا هناك بقية حياتهم . . أو لكى يناموا أو لكى يعتزلوا المجتمع ويعيشوا هم فى مجتمعهم الخاص . . وإنما الكهف وسيلة للاختفاء نهارا . . ربما ليكملوا رحلتهم ليلا . . أو وسيلة للاختفاء فترة قصيرة حتى يهاجروا من هذا البلد . . بعد أن تهدأ العيون التى تتبعهم . . والتى تريد أن ترجمهم . . أو ترغمهم على الكفر . . فلما دخلوا الكهف ألقى الله

سبحانه وتعالى عليهم النوم .. ولم يكن هذا مقصودا منهم .. بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أراده لحكمة .. ولكن التجاءهم للكهف كان المقصود به منهم إبقاء الخميرة الإيمانية .. أو خميرة منهج الإيمان .. ليذهبوا بها إلى مكان آخر يمكن أن تختمر فيه وتنتشر .. لذلك لابد من المؤمن أن يحافظ على حياته .. لأن حياته هى الخميرة لمنهج الإيمان .. وحتى يظل المنهج الإيمانى .. وفرارهم كان من أجل استبقاء حمل المنهج .. وليفروا إلى مكان ينشروا فيه الدعوة .

وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

وهنا اشارة من الله سبحانه وتعالى إلى الرحمة التى تصيب العبد المؤمن .. والذى يضطهد بسبب إيمانه ودينه .. والمعروف أن الكهف مكان ضيق .. لا يصلح للاقامة إلا فترة قصيرة .. فهو عادة يكون سيىء التهوية وغير صالح للحياة .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد حفظ لهم الحياة فى هذا الكهف الضيق سنوات طويلة وهذه اشارة إلى أن ذلك الذى يسلك مسلك الإيمان .. قد يجعل هذا المسلك حياته الدنيوية ضيقة صعبة .. وقد يسلبه ميزات كثيرة من التى يتمتع بها الناس .. ويجعله يعانى .. وهنا تأتى رحمة الله على عبده المؤمن .. إذ يجعل الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الضيقة حياة ميسرة .. ويذهب الضيق الذى أوجده الكفار فى حياة الإنسان المؤمن .. بأن ينشر الله من رحمته على هذه الحياة .. ما يجعل من الضيق فرجا .. ومن العسر يسرا .. ومن الحياة المحدودة جدا حياة واسعة .. ويهيىء الله برحمته مخرجا بالنسبة للخطوات القادمة ..

خرج الفتية إلى الكهف .. وفى هذا المكان الضيق الذى ـ كما قلنا ـ لا يصلح للحياة لفترة طويلة .. جعل الله سبحانه وتعالى برحمته هذا المكان يصلح لهم لما

قالوا :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

إذن فهم رفعوا الأمر من قدراتهم هم عندما فشلوا فى اقناع قومهم بعبادة الله وترك الأصنام التى يعبدونها . . وعندما أحسوا بالتهديد بالرجم أو بالاكراه على الكفر . . رفعوا الأمر إلى قدرات الله فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

ماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

والله يريد أن يلفتنا إلى أن الصلة التى تؤرق الإنسان فى نومه . . أو تصله بالدنيا فى كل الأوقات . . هى الأذن . . فكل الحواس تنام ماعدا الأذن . . ذلك انك إذا جئت إلى إنسان نائم . . وقربت أصبعك من عينه حتى تكاد تلمسها . . فإنه لا يحس ولا يستيقظ . . وإذا وضعت يدك على يده . . قد لا يستيقظ إذا كان ينام نوما عميقا . . وإذا أطلقت رائحة غريبة فى حجرة فلا يحس بها ولا يستيقظ . . حتى إذا أطلقت غازا ساما . . فقد يستنشقه ويموت وهو نائم دون أن يستيقظ .

ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه باستخدام أية آلة تحدث صوتا عاليا . . أو باستخدام كفيك تصفق بهما بجانب أذنه . . أو بالنداء عليه بصوت

عال ، فإنه يهب من نومه مذعورا . بل ان الأذن هى أول حاسة تعمل فى جسم الإنسان عند ولادته .

فالطفل حديث الولادة قد تمضى عليه عدة أيام قبل أن يستطيع أن يستخدم حاسة البصر استخداما سليما .. ولكن حاسة السمع تعمل من أول لحظة فيزعجه الصوت العالى .. والأذن هى أداة الاستدعاء عند البعث ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا كيف نام هؤلاء الفتية تلك السنوات الطويلة دون أن يحسوا .. بأن ضرب الله على آذانهم .. فأصبح النهار بلا ضجيج كالليل فى سكونه تماما .. وحتى إذا وصل أعداؤهم إلى مدخل الكهف وتحدثوا بصوت عال .. فإن ذلك لن يزعجهم ولن يجعلهم يحسون بالخطر .. وربما تصرفوا تصرفا يكشفهم ويعرضهم لايذاء الأعداء .. ولذلك كان الضرب على آذانهم حتى يرقدوا فى سلام تام .. تماما كما ينام الإنسان فى جوف الليل .. حين تهدأ الحركة تماما فلا يسمع صوتا واحدا .

ووفر الله لهم سبحانه وتعالى أسباب الحياة الكونية .. فجعل الشمس تدخل إلى الكهف .. دون أن تصيب أشعتها أجسادهم فتوقظهم حرارتها وشاءت قدرته أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .. ليحفظ أجسادهم من أمراض الرقدة الطويلة .. ومن أن تأكلها الأرض .

ثم جاءت الحكمة فى البعث بعد فترة طويلة من النوم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا

أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(سورة الكهف)

من الواضح هنا أن الفتية المؤمنين قد فقدوا عنصر الزمن . . وعندما أفاقوا من نومهم بعد هذه السنوات الطويلة . . لم يكن هناك شيء في الكهف قد تغير . . وإن كان كل ما في خارج الكهف قد تغير . . ولكنهم لم يشعروا به . . لأن عنصر الزمن لا يحس به الانسان إلا بالمتغيرات . . بمعنى انك إذا جلست في حجرة . . وأقفلت كل منافذها . . وجعلتها ظلاما ليس فيها أي حركة ولا أي أحداث تتم . . ولا صلة لك بالعالم الخارجي . . فأنت لا ترى الشمس حين تشرق أو تغرب . . وليس هناك ساعة تدلك على الزمن . . ولا من يأتيك فإنك تفقد القدرة على الصلة بالزمن . . فالزمن أساسه التغير الذي يتم . . الشمس التي تشرق وتغرب . . مظاهر الكون التي تتأثر بالزمن . . القمر وحركة النجوم . . أي أساسه الحركة . . ومادام الفتية المؤمنون كانوا في سكون تام . . نتيجة أن الله ضرب على آذانهم . . وماداموا قد قاموا فوجدوا الكهف كما هو . . لم يتغير فيه شيء . . فقد خيل لهم أن الزمن لم يتغير . . وأنهم قد لبثوا يوما أو بعض يوم . . ومن هنا فقد كانوا على حذرهم وخوفهم من الكفار . . ولذلك طلبوا من ذلك الذي يأتي إليهم بالطعام ألا يجعل أحدا يشعر بهم حتى لا يرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم . . وجعل الله الناس يعثرون عليهم . . فقال :

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ

وكان العثور عليهم له أكثر من حكمة . . فأولا . . تحولت البلدة الكافرة التي كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد الله سبحانه وتعالى . . في هذه السنوات

الطوال التى مرت . . تغير الحال تماما . . وانتهى موكب الكفر وزال من البلدة وانتشر موكب الايمان . . وكان فى ذلك حكمة فى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الايمان . . وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه . . وأن هذا الذى تبدل وتغير . . إنما تم وهم نائمون فى الكهف . . وذلك حتى يعلموا أن قدرة الله فوق كل قدرة . . وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم الله إلى اختيار طريق الايمان . . فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم بالجنة . . ويريد أن يمتعهم بقدراته فى الآخرة . . وليس ذلك لأن الله محتاج إلى خلقه لينشر دينه أو ليعلى كلمته . . ولكنه غنى بقدرته عن ذلك كله . . وذلك حتى نعرف جميعا . . اننا إذا أخذنا طريق الايمان . . فإن ذلك يكون رحمة من الله بنا . . ورضا من الله عنا . . ولا يكون حاجة من الله إلينا .

وهكذا رأى الفتية المؤمنون وشهدوا موكب الايمان . . وعرفوا أن هدى الله لهم كان من رحمته بهم . . ولم يكن عن حاجة لأحد .

وحكمة أخرى . . أنهم شهدوا بأنفسهم البعث ورأوا كيف أنامهم الله هذه السنوات الطويلة . . فلم يحسوا إلا أنهم قد قضوا يوما أو بعض يوم . . وأن الله سبحانه وتعالى الذى بعثهم فى هذه الدنيا قادر على أن يبعثهم فى الآخرة . . ويستيقنوا برؤيا اليقين بعد أن آمنوا إيمان اليقين . . بأن الساعة قادمة . . وبأن ما آمنوا به هو الحق . . ويعرفوا أنهم اختاروا طريق الحق . . وأنهم فازوا فوزا عظيما .

والحكمة الثالثة . . ليستيقن هؤلاء الذين جاءوا ونشروا الايمان بعد الكفر . بالبعث وبالآخرة . . وبقدرة الله سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة . . ويتحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤيا يقينية شهدوها بأعينهم . . وذلك حتى

يثبت إيمانهم . . وجزاء لهم على أنهم جاءوا ليبدلوا دولة الكفر إلى دار إيمان . . وليعبدوا الله وحده . . بعد أن كان من قبلهم يعبدون الأوثان .

مثل لأهل الكتاب

ثم نأتى بعد ذلك إلى المثل الذى ضربه الله فى القرآن لأهل الكتاب عن المؤمنين . والذى يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفتح :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لأهل الكتاب أن هذا الدين يجمع بين الدنيا والآخرة فلا هو معزول عن ماديات الدنيا . . ولا هـو معزول عن الروحانيات . . بل هو دين ودنيا . . يأخذ من كل بقدر صلاح المؤمن . . وبقدر المنهج .

ولما كان اليهود قوم ماديون . . يقدسون المادة وحدها . . ويكنزون المال . . ولا يعطون اهتماما إلا لماديات الحياة . . فقد جاء الله لهم بمثل للعبادة فقال :

﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (سورة الفتح آية ١٢٩)

ليقول لأهل التوراة ، إن موكب الإيمان فى الإسلام لا يعتمد على الماديات وحدها . . ولكنه يعطى العبادة لله حقها . . وتراهم دائما فى المساجد يعبدون الله ركوعا وسجودا . . حتى أنهم من كثرة السجود فإن ذلك يظهر على وجوههم علامة بارزة يعرفهم الناس بها عندما يشاهدونهم . . أى أن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا ينطلق إلى ماديات الدنيا ، وينسى عبادة الله سبحانه وتعالى . . بل هو يعطيها حقها تماما .

أما فى الانجيل فحيث تأخذ الروحانية نصيبا كبيرا . . يعطى الله مثلا ماديا للمؤمن كزرع اعتنى به حق عنايته فكبر واشتد عوده وغلظ . . كلما رآه الكفار ورأوا ما هو فيه من حسن عناية وإثمار . . دب فى قلوبهم الغيظ . . وذلك ليؤكد الله سبحانه وتعالى أن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا يهمل أمور الدنيا ويتركها ، بل هو يأخذ بأسباب الدنيا والآخرة . . وأن منهج الإيمان فيه ما يؤدى إلى صلاح العبد المؤمن فى دنياه وفى آخرته .

وبذلك تكون أمثال مواكب الايمان التى ضربها الله سبحانه وتعالى . . تؤكد لنا أن موكب الايمان يسعى دائما إلى مواجهة الكفر والالحاد بالحجة والبرهان . . وأن هذا الموكب الإيمانى لا يتوقف أبدا . . وأن عنده مما أعطاه الله من البراهين ما يجعله قادرا على أن يواجه أى مجتمع كافر . . وأن الكفار فى لجوئهم إلى القوة والعنف والقتل فى محاربة الدين الاسلامى . . إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا الدين بالحوار والاقناع . . وأن هؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين فى الأرض ولا يساوون عند الله شيئا . . وهو ان كان يتركهم فى غيهم

لأنه كتب على نفسه أن يترك الإنسان مختارا فى أن يؤمن أو يكفر . . وليس لقيمتهم أو لعلو شأنهم . . أو لأنهم يساوون شيئا على الاطلاق .

وأن موكب الإيمان لابد أن يستمر . . وعليه واجب ، هو مواجهة الكافرين والدعوة إلى دين الله . . ولكن إذا حدث أن تمكن الكفر فى بقعة من الأرض . . وكان مصير المؤمنين إما أن يقتلوا أو يرجموا ، فيتوقف موكب الإيمان إلى حين . . أو أن يكرهوا على العودة إلى الكفر علنا وأمام الناس . . حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر . . على أن يعودوا وهم أكثر قوة . . وأن الله سبحانه وتعالى . . قادر على أن ينصر دينه دون معونة أو حاجة إلى أحد من البشر . . ولكن مواكب الإيمان هى رحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليثيبهم بها فى الآخرة ويدخلهم الجنة .

وأن الله يعلم أن الذين يتخذون طريق الإيمان والدعوة إليه يحاربون من الكفار ومن غير المؤمنين حتى يضيقوا عليهم حياتهم . . وأن الله يفتح لهم من رحمته ما يبدل هذا الضيق فرجا . . ويوجد لهم من السبل ما يعوضهم عن هذه الحرب التى يلاقونها من أعداء الدين . . ثم يثبتهم باليقين . . ويريهم من آياته ما يثبتهم على المنهج . . ويثلج صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم . . وموكب الإيمان لا يترك الدنيا وما فيها . . ولا يترك الآخرة وما أعده الله لها . . بل هو منهج عبادة يعطى لكل حقه . . فالدنيا معبر للآخرة لابد فيها من العمل . . والآخرة خلود لابد أن نعد أنفسنا لها .

وكما أعطى الله الأمثال على مواكب الإيمان . . أعطى الله الأمثال عن الكافرين . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع

مَثَلُ الكَافِرِّينَ

مَثَـلُ الكافرين

الله سبحانه وتعالى ضرب أمثالا كثيرة فى القرآن الكريم ليوضح بها سلوك الكافرين فى الحياة الدنيا .. وما سيلقونه فى الآخرة .. لبعدهم عن الحق .. يبين بالحجة والمنطق كيف أن الكافرين والمنافقين والمشركين .. وإن كانوا يشتركون فى سلوك واحد .. إلا أن لكل واحد منهم طريقة تفكير مختلفة .. يبين الله بالأمثال التى ضربها كيفية هذا التفكير وعدم القدرة على التمييز .. ولم تقصر الأمثال التى ضربها الله عن الكافرين وغير المؤمنين والمشركين والمنافقين .. على سلوكهم وحده .. بل تجاوزت ذلك لتريهم خطأ هذا السلوك وتبين لهم الضلالة التى يعيشون فيها .. ورغم هذه الأمثال فإنها زادتهم ضلالا .. ولم ينتبهوا لها ولا للحكمة منها .

الأمثال الثلاثة

على أننى سأقدم فى هذا الفصل نماذج لسلوك الكافرين وفكرهم كما بينه الله .. وفى فصول قادمة .. سأتناول بالتفصيل الأمثال التى تحدى الله بها الكفار .. وهى أكثر من مثل فى القرآن الكريم .

وقبل أن نبدأ الحديث .. لابد أن نأخذ مثلا عاما .. فالله سبحانه وتعالى فى سورة إبراهيم يقول :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

وقال الله فى سورة الكهف :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ

جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

وقال الله تعالى فى سورة النور :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

وفى هذه الأمثال الثلاثة ينبئنا الله عن مصير أعمال الكافرين . . أو من يكفر بالله ولا يؤمن . . والله فى هذا يريد أن يلفتنا إلى قضية إيمانية هامة . . هى أن أساس العمل الصالح أن يكون مقرونا بالإيمان . . فإن لم يكن مقرونا بالإيمان ذهب عنه صلاحه . . وضاعت قيمته وذهب إلى القصود منه . . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** »

وهذه نقطة بداية هامة . . لأن بعض الناس يعتقد أنه يستطيع أن يشرك مع الله شركاء فى العمل ثم يأخذ الجزاء من الله . . وأولئك الذين يذهبون إلى الحفلات الخيرية مثلا . . ويعلنون عن أسمائهم ويتباهون أمام الناس بما تبرعوا . . بل يحاول كل منهم أن يزيد على الآخر حتى يقال إنه رجل بر أو رجل احسان . . أو أنه أغنى منه إلى آخر ما يحدث . . هل يحتسب لهؤلاء جميعا وهذ

صدهم ونياتهم . . هل تحتسب الحسانات لهم من الله . . وهم يقصدون بها غير جه الله . . الجواب طبعا لا .

ومثل ذلك ما يقال من أن ٢٥٪ من حصيلة سباق الخيل تذهب للخير . . نول أي خير هذا الذى يأتى بارتكاب معصية . . وهل الله فقير محتاج إلى مال تى ننفق من معصية أو مما حرم الله . . إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يملك نزائن الأرض كلها وهو الذى يرزقنا . . وكل المال الذى فى الأرض هو مال الله سبحانه وتعالى . . فكلنا يخرج من الدنيا ويتركه . . والله هو الذى يرث وحده لأرض وما عليها . . ولذلك يقول الله :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحديد)

أى أن المال أصلا ملك لله . . وهو الذى يجعلنا مستخلفين فيه لفترة من لفترات طالت أو قصرت . . ولكمية زادت أو نقصت . . ومن هنا فإن الله غير محتاج لمال حتى ننفق فى وجوه البر من المعاصى ومما حرم الله . . والله طيب لا يقبل إلا طيبا . . ومن هنا فإن لم يكن المال من حلال فإن الله لا يقبله .

هذه قضية لابد أن نفهمها حتى لا تحبط أعمالنا فى الحياة الدنيا . . ولكن هب أن المال من حلال فعلا . . وأن العمل به يقصد به الخير . . ولكن الإيمان بالله غير موجود . . هل يقبل منك هذا العمل ويجازى الناس عليه . . وهل هؤلاء الناس الذين عملوا كما يقولون من أجل الإنسانية . . والذين قد يكون الله كشف على أيديهم دواء نافعا أو اختراعا أفاد الإنسانية . . هل هؤلاء يدخلون الجنة مع عدم إيمانهم . . وهل ما قدموه من عمل للإنسانية يغفر لهم أنهم لم يؤمنوا بالله أو يجعل الله يتجاوز عن ذلك .

اختبار للإيمان البشرى

الجواب طبعا لا . . ذلك أنك فى أى عمل تقوم به . . إنما تطلب الجزاء ممن عملت من أجله . . فأنت مثلا إذا كنت تقوم ببناء عمارة لى . . تطلب الأجر منى . . وإذا قمت لغيرى تطلب الأجر منه . . ولا يعقل أن تقوم بالعمل لإنسان آخر أو لشخص آخر . . ثم تأتى فتطلب منى الجزاء .

والأساس فى الأعمال كلها . . وفى الدنيا كلها . . هو الإيمان . . ذلك لأن الدنيا هى دار اختبار للإيمان . . فيها امتحان يليه امتحان . . منها الابتلاء بالخير . . والابتلاء بالشر . . ومنها الفتنة التى يسقط فيها البعض . . وينجو البعض بإيمانهم منها . . كل هذه . . وكل أحداث الدنيا هى اختبار للإيمان البشرى . . والله غنى عنا جميعا . . لا نزيد فى ملكه شيئا . . ولا ننقص منه شيئا . . ذلك أن الله قد خلق الكون بكل ما فيه من نعم وآيات وخصائص وأسرار . . كشف الله للعقل البشرى بعضا منها . . ومازال هناك ما هو مجهول للبشر . . كل هذا خلقه الله قبل أن يخلقنا نحن . . ولذلك فنحن لا نزيد فى صفات قدرة الله ولا كماله شيئا . . ولا ننقص منها شيئا .

إذن الأجر نأخذه ممن عملنا من أجله . . فإذا كنا قد عملنا من أجل الله ، وإذا كنا قد عملنا وفى قلبنا الله وارضاء الله . . فنحن نأخذ أجرنا من الله . . ونأتى يوم القيامة آمنين .

وإذا كان فى قلبنا غير الله فإن الله يوفينا أجرنا ممن عملنا من أجله . . سواء كان هذا الجزاء خيرا أم شرا . . أما فى الآخرة فليس لنا شىء لأننا لم نعمل من أجل الله . . لذلك شاء عدل الله أن الذين يعملون من أجل الدنيا يوفيهم أجورهم فى الدنيا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

. . ولذلك نرى أنه من عمل من أجل الإنسانية مثلا تخلده الإنسانية فتقام له المعامل وترصد له الجوائز ويطلق اسمه فى الدنيا كلها . . وهكذا نال جزاءه من نوع ما عمل من أجله . . ومن يعمل من أجل مجموعة من الناس . . فإنهم يرفعونه ويبنون له القصور . . وربما عينوه حاكما عليهم . . ومن هنا فقد نال جزاءه من نفس نوع العمل الذى قام به . . ومن يعمل من أجل الله واليوم الآخر يجد جزاءه عند الله سبحانه وتعالى فى الآخرة . . ذلك هو عدل الله . . وهو الأساس فى الحساب .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهمنا ذلك فيضرب لنا الأمثال حتى يقرب هذا المعنى من أذهاننا . . وحتى نستطيع أن نستوعبه .

المثل الأول :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

فالله يريد أن يقول لنا إن الذين كفروا وهم لا يؤمنون بى ويكفرون بألوهيتى ، مهما عملوا ومادام الايمان ليس فى قلوبهم فمثل أعمالهم كرماد (والرماد هو التراب المتخلف عن الحريق) . نأتى بهذا الرماد ونضعه فى أى مكان خلوى فى يوم عاصف أى شديد الرياح . . تبلغ فيه الرياح من شدتها قوة العاصفة . . وذلك حتى لا يتبادر إلى أذهاننا أن الرياح ربما تكون شديدة ولكنها فى شدتها قد تترك

شيئا . . ولذلك يصورها الله بالعاصفة التى لا تترك شيئا من الرماد على الاطلاق إلا بعثرته وأضاعته . . فهم أى هؤلاء الكافرين فى أعمالهم مهما قصدوا بها . . إنما هى كالرماد الذى أطاحت به عاصفة . . ومهما كسبوا فهم لا يقدرون على شيء منه . . أى لا يبقى لهم شيء منه . . لماذا . . ؟ . . لأنهم ليس فى قلوبهم الله . . ومن هنا فإنهم لم يبقوا شيئا للآخرة . . ولم يعملوا شيئا يقصدون به وجه الله . . ولذلك ضاعت أعمالهم جميعا كما تضيع حفنة من الرماد فى العاصفة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم الآية ١٨)

والضلال يأتى من الضلالة . . وهى من ضل الطريق أى ابتعد عن الغاية التى توصله إلى الهدف . . أى أن هؤلاء الناس بعدم إيمانهم وكفرهم . . قد ابتعدوا عن الطريق الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يتقبل منهم صالح الأعمال . . ولذلك كان ضلالهم بعيدا . . لأنهم متى ابتعدوا عن الغاية لم يصلوا إلى شيء . . ومهما عملوا وفى قلوبهم ظلام الالحاد والكفر . . فلن يتقبل منهم .

الأخسرون

ثم يأتى الله بمثل ثان فيقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ

جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

(سورة الكهف)

يريد الله أن ينبئنا بالأخسرين أعمالا . . واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة الأخسرين هو استخدام لصيغة المبالغة . . أى أن هناك من هو خاسر . . وهناك من هو أخسر منه . . أى أن هؤلاء الناس ليسوا من الخاسرين فقط بل من الأخسرين الذين لا ينالون شيئا على الاطلاق . . ولا يكسبون شيئا .

. . الذين ضل سعيهم

من هم هؤلاء الناس . . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا . أى أنهم ضلوا عن الطريق فيما يفعلون . . واتخذوا طريقا لا يوصلهم . . وهم فى ضلالهم هذا لا يحسون بأنهم قد بعدوا عن الطريق . . بل يحسبون أنهم يحسنون صنعا ويعملون الخير . . ويحسبون أنهم سيجزون على ذلك بأحسن الجزاء . . ويتفاخرون على الناس بأنهم يفعلون طيبا . . ثم يعرفهم الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

(سورة الكهف)

أى أن هؤلاء الناس كفروا بالله . . وكفروا بآياته . . وكفروا بالآخرة . . ورغم أن آيات الله سبحانه وتعالى واضحة بينة لا يستطيع غيره أن يدعيها لنفسه . . ولا يمكن لعقل أن ينكرها فأمامهم الكون والشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار . . وكل ما خلقه الله مما لا يستطيع غير الله أن يدعى خلقه . أمامهم هذه الآيات بينة ظاهرة ، ومع ذلك كفروا بها . . وأمامهم الخلق والبعث

قضيتان محسومتان . . فالذى خلق أول مرة كما قلنا . . يستطيع أن يعيد هذا الخلق . . ورغم هذه الآيات البينات . . فقد كفروا بها وبلقاء الآخرة . . وعملوا وليست فى قلوبهم إلا الدنيا وحدها . . ولذلك فإنهم لا وزن لهم عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . . لأنهم لم يقدموا شيئا لهذا اليوم حتى يمكن أن يوضع فى ميزان أعمالهم . . وبماذا يجزون فى هذا اليوم . . يجزون بجهنم . . ذلك هو جزاء من يكفر بالله وآياته ورسله . . ولا يكفر فقط وإنما يزداد فى الكفر . . ويستهزىء بالايمان . . ويسخر من المؤمنين .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(سورة النور)

وهنا يضرب الله مثلا آخر لأعمال الكافر التى يحسبها طيبة نافعة له : فيقول الله سبحانه وتعالى : أن مثلها كمثل السراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عند وقت الظهر وعند اشتداد وهج الشمس . .

وكلنا يعرف السراب الذى يظهر فى الصحراء من انعكاس ضوء الشمس . . أى أن الكافر عمله الذى يحسب أنه سيحسب له وسيجزى عنه . . تماما كالسراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عن بعد فى يوم شديد الحر وهو ظمآن يتمنى شربة فيحسبه ماء . . ويسرع إليه وهو ظمآن من شدة الحر . . وعندما يصل إلى مكانه لا يجده شيئا . . أى لا يجد أنه قد كسب شيئا على الاطلاق مما عمل مادام قد كفر بالله . . ولكن المفاجأة التى تذهله . . والتى لم يكن يحسب لها حسابه . . وهو يوم الأهوال . . يبحث عن العمل الطيب الذى اعتقد أنه قد قام به فى الحياة الدنيا . . والذى يظن أنه قد يشفع له فى هذ اليوم . . ولكنه لا يجده شيئا . . ثم يجد الله سبحانه وتعالى الذى لم يؤمن به والذى لم يحسب حساب

لقائه فيوفيه أجره وجزاءه من جنس العمل الذى قدمه لله وهو الكفر به والهزء بآياته ورسله . . فماذا يكون الجزاء فى هذه الساعة . . ؟ يكون نار جهنم وبئس المصير . . والله سريع الحساب . أى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوفيه حسابه بسرعة لأن الله لا يشغله حساب عبد عن حساب عبد آخر .

الإيمان أساسه تقبل الأعمال

أعتقد أننا فى هذه الحالة نكون قد وصلنا بوضوح إلى أن الإيمان هو أساس تقبل الأعمال . . وأن الله لا يتقبل عملا من كافر . . ولا عملا من مشرك . . وإنما يتقبل العمل الذى يقصد به وجه الله وحده . .

ومن هنا فإن كل قول عن أناس عملوا فى الدنيا وقلوبهم كافرة . . أو قدموا للانسانية وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . .

كل قول بأن هؤلاء يدخلون الجنة . . هو قول مردود . . وإنما يجزون أعمالهم فى الدنيا بما عملوا . . ولكن الله الذى لم يقصدوه بأعمالهم . . ولا كان فى قلوبهم لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا . . ولا ينتظرون منه جزاء . . بل إن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا مثلا الفرق بين أعمال المؤمن والكافر ليقرب لنا هذا المعنى . . وحيث أن جزاء الله هو غيب عنا لا نستطيع أن ندركه . . فقد أراد الله بهذا المثل أن يقربه إلينا . . حتى نستطيع أن نفهمه ونحسه ، وأن تكون الصورة قريبة من أذهاننا .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

مَثَـلُ الكافرين

ثم يقول الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فى هذا المثل يعقد الله مقارنة بين الذى ينفق فى سبيل الله وقلبه يملؤه الإيمان .. وبين ذلك الذى ينفق مراءاة للناس وقلبه فيه الكفر والعياذ بالله .. ليقرب إلى أذهاننا الفرق الرهيب بين الجزاء الذى ينتظر المؤمن .. والجزاء الذى ينتظر الكافر على نفس العمل .. ولكن أحدهما يقوم به وفى قلبه إيمان ويقصد به وجه الله .. والثانى يقوم به وفى قلبه كفر ويقصد به الناس أو الدنيا .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا مثلا لكل من ينفق مالا فى سبيل الله يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم كلمة أموالهم .. مع أن المال هو مال الله .. ولكن الله أراد هنا أن يحترم الأسباب فى الكسب .. حتى يحس

مَثَلُ الكافرين

كل مؤمن بأنه ينفق من جهده فى سبيل الله . . وأنه يعطى شيئا من ذاته فى سبيل الله ، فيحس بفرحة العمل الصالح .

ويريد الله أن يكرم عبده المؤمن أو يكرم عمله . . ويقول له هذا من مالك . . أو مما اكتسبته وأنا قبلته . . وهذا إكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين .

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾

الله سبحانه وتعالى وعدنا بأن الحسنة بعشر أمثالها وأنها بسبعمائة ضعف ، وأن الله يضاعف لمن يشاء . . قد تكون هذه الحقيقة بعيدة عن فكر بعض الناس . . فيتساءلون كيف يمكن أن يضاعف الله الحسنة بمثل هذه المضاعفات . . وكيف يمكن أن يكون الشىء الواحد بسبعمائة ضعف . . حينئذ يقول الله أنتم تستغربون هذا الجزاء لأنه مخفى عنكم وليس قريبا إلى عقولكم . . ولكنى سأقربه إلى عقولكم بمثل ترونه كل يوم ، ويعيش فى حياتكم المادية حتى تكون الصورة قريبة إلى أذهانكم . . هل ترون الأرض التى تزرعونها . . إنك تضع الحبة الواحدة فيها فتعطيك أضعاف أضعاف هذه الحبة . . إن المال الذى تنفقه فى سبيل الله مثل حبة قمح تضعها فى الأرض . . الحبة الواحدة تنتج سبع سنابل . . فى كل سنبلة من هذه السنابل مائة حبة . . أى أن الله سبحانه وتعالى يقول لا تستغرب من أننى أضاعف الحسنات هذه المضاعفة الكبيرة . . فو أنك نظرت إلى الأرض التى هى مخلوق من مخلوقاتى ، فإنك تجد أنك تضع فيها الحبة فتعطيك سبعمائة حبة . . فإذا كان خلق من مخلوقاتى يعطيك سبعمائة ضعف . . فما بالك بقدراتى وأنا الخالق على أن أضاعف الحسنات إلى أكثر من ذلك . . ولذلك يقول الله « والله يضاعف لمن يشاء » . . أى أنها لا تقف عن السبعمائة ضعف . . بل هى مرتبطة بمشيئة الله سبحانه وتعالى فهو يضاعف لمن يشاء . .

وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد قرب لنا صورة مضاعفة العمل الصالح . . وصورة مضاعفة الجزاء للمؤمنين بحيث أصبحت صورة محسوسة . . قريبة إلى ذهن المؤمن . . يراها أمامه كل يوم . . فلا يقول أحد كيف يضاعف الله الحسنات . . وكيف أن الحسنة بسبعمائة ضعف . . بل كلما نظر إلى الزرع وإلى ما تنبته الأرض تذكر قدرة الله الذى أعطى للأرض خاصية المضاعفة . . وكيف أنه سبحانه وتعالى وهو خالقها قادر على المضاعفة أكثر . . وبلا حدود .

ثم يأتى الله إلى الصورة المضادة . . صورة ذلك الكافر الذى ينفق ليس فى سبيل الله . . ولكن من أجل نفاق الناس ورضائهم . . والذى يقدم على العمل وليس فى قلبه الله . . فبماذا يشبهه . . ؟ .

يقول سبحانه وتعالى : « **مثله كمثل صفوان** » . . أى كمثل صخرة ملساء ليس فيها حتى ولا تعاريج بسيطة يمكن أن تبقى شيئا مما عليها . . أى أن هذه الصخرة ملساء تماما ليس فيها أى فجوات . . عليها تراب يغطى سطحها . . قد يحسبها بعض الناس تربة طيبة . . لكنها كمية من التراب فوق صخر . . « **ثم أصابها وابل** » . . أى مطر شديد . . وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل أصابها مطر . . فقد يكون المطر خفيفا فيترك جزءا من التراب فوق الصخر . . ولكن إذا كان هناك وابل من المطر فلا تبقى ذرة واحدة من التراب فوقها . . حينما نزل هذا الوابل من الماء أصبحت الصخرة « صلدا » . . أى ليس عليها ذرة واحدة من التراب الذى كان فوقها . . وانكشف أنها صخرة لا تنبت شيئا . . وأن التراب الذى كان فوقها ليس تربة . . وليس له قرار . . بل هو مجرد طبقة لا تنفع . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ ﴾

(**سورة البقرة ٢٦٤**) ( )

.. أى أن الله يريد أن يقول لنا أنه حتى طبقة الغبار البسيطة التى قد تغطى حقيقة هؤلاء الكافرين فى الدينا لا يبقى منها شىء .

أعمال المؤمن والكافر

وهنا لابد أن نستحضر الفرق الرهيب بين أعمال المؤمن والكافر .. ونستحضرها من هذا المثل الذى أعطاه الله لنا .. فنجد أن المؤمن يقوم بالعمل فى سبيل الله .. ويضاعف له هذا العمل إلى سبعمائة ضعف .. والكافر قد يقوم بعمل الخير .. ولكنه يريد أن يرائى به الناس .. ولا يقصد به وجه الله ولا اليوم الآخر .. ومن هنا فإنه لا يحسب له شىء .. أو يذهب العمل إلى ما قصد به .. وفى هذا حتى نؤمن يقينا بأننا إذا أردنا عملا يجزينا به الله فلابد أن نقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .. ولا نقصد غيره .. ولا نشرك معه أحدا وبعض الناس يناقش هذه القاعدة الإيمانية بحدة ونقول له لماذا أنت تناقشها بهذه الحدة .. هل كان فى باله الله وهو يعمل .. ان كان فى باله الله وقت أن عمل فهو عمل إيمانى يجازى عليه .. وإن لم يكن فكيف تطلب من الله أجرا عن عمل ليس فيه شىء لله .. ولو قلنا لهذا الكافر وهو يعمل .. إنك لن تأخذ أجرا من الله فسيهز كتفيه بلا مبالاة .. لأن الله لا وجود له عنده .. فكيف يأتى فى الآخرة مجادلا فيما فعل .. وهو لم يأبه فى الدنيا بما قلناه له .. الإنسان يطلب أجرا ممن عمل له .. ومن عمل للإنسانية .. وأعطته الانسانية وكرمته وأقامت له التماثيل ونشرت اسمه فى الدنيا كلها .. هذا أجره فى الدنيا .. على أن بعض الناس يجادل فى ذلك .. ويقول إن الله قال فى كتابه يغفر الذنوب جميعا ..

ونحن نقول لهم إن الله قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

فيقول أن هناك تعارضا بين تلك الآية وبين قوله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . أنت الذى أخطأت حين اعتبرت الشرك ذنبا . . ولكن الشرك ليس ذنبا . . إنه فوق الذنوب جميعا . . ذلك أن الذنب يقتضى أن تكون مؤمنا بمنهج الله وشرط الذنب الذى يقتضى المغفرة من الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك إيمان . ومخالفة وندم وتوبة . . والكافر لا يندم ولا يتوب لأنه لا منهج له .

المنافقون أخطر على قضية الدين

على أن الله سبحانه وتعالى كما ضرب الأمثال بالنسبة للكافرين ضربها بالنسبة للمنافقين . . بل إن الله اعتبر المنافقين أخطر على قضية الدين من الكافرين . . ذلك أن الكافر معروف عداؤه بالنسبة لقضية الإيمان . . وهو يجاهر بهذه العداوة . لذلك فإن المؤمنين يأخذون حذرهم منه ويواجهونه . . وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنه مرفوضا . . أما المنافق فهو يظهر المودة ويخفى العداوة . . ولذلك فإن المؤمنين يظنونه واحدا منهم فلا يأخذون حذرهم منه . . ولا ينظرون إلى ما يقول على أساس أنه عدو الله . . وفى هذه الحالة فهم يأمنون . . ويمكن أن يستغل هو هذا الأمان فى أن يطعن فى قضية الدين . . ويشكك فيها ويجد آذانا تسمعه . . ولذلك فإن المنافق أخطر على قضية الايمان من الكافر .

ولذلك يضرب الله مثلا لهم فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ

مَثَلُ الكافرين

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ
كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

هكذا أراد الله بهذا المثل أن يوضح لنا مدى اضطراب المنافقين . . ومدى قلقهم . . ومدى الحيرة والتمزق فى ملكات هؤلاء . . هذا التمزق الذى يفضحة تصرفهم عندما يعلنون الإيمان باللسان . . ولكن قلوبهم ممتلئة بالكفر .

وإذا أردنا أن نفهم المثل ، فلابد أن نستعرض الآيات التى قبله . . يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾

. . إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

والله سبحانه وتعالى يمثل هؤلاء بمن استوقد نارا لتضيىء ما حوله . . وبمن أراد أن يهتدى لما حوله . . فذهبوا إلى المؤمنين علهم يحصلون على الهداية . . أو يرون طريق الهداية . . ولكن كان فى قلوبهم الكفر . . فلما أضىء لهم الطريق . . ولأنهم غير صادقين مع الله . . وغير صادقين مع أنفسهم . . ذهب الله بنورهم . . وأصبحوا لا يرون شيئا وتركهم الله فى الظلمات التى اختاروها لأنفسهم بنفاقهم وجشعهم وحبهم للدنيا . . تركهم فى هذه الظلمات لا يبصرون . . طريق الهدى . . ولا طريق الايمان . . أى أن سبحانه وتعالى علم ما فى قلوبهم . . وما يخفونه من كفر ونفاق . . فأثابهم بهذا الكفر الذى يخفونه . . فأصبحوا لا يرون شيئا ولا يسمعون شيئا .

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾

والصيب هو المطر . . والمثل كما قلنا يضرب عن المنافقين . . فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يشببهم بأنهم كقوم أصابهم نزول المطر من السماء . . والمطر كما نعلم جميعا رزق عميم وخير وفير . . ولكنهم لم يأخذوا من المطر خيره .

لأنه كما قال القرآن الكريم : إن ذلك المطر فيه ظلمات ورعد وبرق .

أى أنه مطر عاصف صاعق . . يذهب النفس عما هى فيه . . فهم أخذوا ما جاء فى المطر من الصواعق والرعد والبرق ، ولم يلتفتوا إلى خير المطر نفسه .

مَثَلُ الكافرين

ولابد أن نتأمل بالتفصيل هذه الصورة القرآنية التى تمثل حال المنافقين .. نحن نعرف أن المطر ينزل من السحاب .. وأن السحاب حين يتجمع فى الجو بشكل كثيف يورث الظلمة نهارا .. لأنه يحجب نور النجوم والقمر .. فالظلمة سابقة لنزول المطر لأنه لا مطر إلا من سحاب .. والسحاب من طبيعته أن يوجد الظلمة .. ومن طبيعته أيضا أن يصاحبه رعد وبرق .. والرعد يستقبله الإنسان بآلة السمع وهى الأذن .. وأما البرق فيراه الإنسان بآلة الابصار وهى العين .

ولما كان صوت الرعد قويا ، فعندئذ يفزع الإنسان عند سماعه .. ويحاول أن يبعد الصوت أو يمنع استقبال الأذن للصوت ، بأن يضع أصابعه فى أذنيه ، ليمنع شدة صوت الرعد على أذنيه .. كما يحدث ذلك أيضا بالنسبة لأى صوت عال يزعج الأذن وإن كان أقوى هذه الأصوات هو الرعد .. ولنا هنا أن نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى .. « **يجعلون أصابعهم فى آذانهم** » .. ذلك أن كل كلمة فى القرآن الكريم كما قلنا من قبل مناسبة تماما لموضوعها .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يصور لنا أن صوت الرعد عنيف جدا .. وأنهم لذلك لا يكتفون بوضع أنملة الأصبع أو طرفه فقط لمنع صوت الرعد .. ولكنهم يحاولون أن يدخلوا كل الأصبع فى آذانهم .. لأن الصوت عال جدا يجعل الإنسان يبالغ فى محاولة منعه .. حتى أنه لو استطاع أن يضع أصبعه كله فى أذنه لفعل .. والله سبحانه وتعالى يقول « **يضعون أصابعهم فى آذانهم** ».. ومعنى ذلك أن الذى يفعل جماعة وليس شخصا واحدا .. وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أن هذا المثل ينطبق على كل منافق .. أو على جماعة المنافقين على مر العصور .. وليس على منافق أو عدد معين من المنافقين .

ولنا أن نسأل كيف يحدث ذلك .. أن الأمر للجماعة يكون عادة لما يقوم به كل فرد فيهم .. فإذا كنا مسافرين وقلنا اركبوا سياراتكم فمعنى ذلك أن يتجه كل راكب إلى المكان المخصص فى السيارة التى ستحمله .. فمعنى قول الله تعالى

يضعون أصابعهم فى آذانهم ، ان كل واحد من المنافقين يضع اصبعيه فى أذنيه ، وذلك حذر الموت . . ونحن نعرف أيضا أن الرعد يصاحبه برق وصواعق . . وأن الصواعق تنزل خلالها شحنات كهربائية . . قد تحرق أو تقتل . . والمنافق يعرف أن العاصفة التى فيها رعد وبرق قد تصدر عنها صواعق تسبب الموت .

ومعنى ذلك أن الإنسان يجب ألا يظن أن استقبال الخير يأتى مجردا . . فإن استقبال الخير يأتى ومعه التحمل . . هذا لابد فى قوانين الدنيا . . فأنت إذا أردت أن تكسب أكثر فإن عليك أن تعمل أكثر . . وهذا العمل يقتضى منك تحملا حتى تصل إلى ما تريد من الخير . . ولكن المنافقين لا يريدون ذلك . . فهم يريدون الخير فقط دون تحمل مشاقه . . ولذلك فالمنافق يريد بخداعه للمؤمنين أن يأخذ عاجل النفع دون أن يتحمل شيئا . . وهو يريد أن يتظاهر بلسانه أنه مع المؤمنين ليكون له نصيب فيما يجريه الله على أيديهم من خير . . وفى نفس الوقت فهو مع الكافرين حتى لا يتحمل ما يتحمله المؤمنون من مشقة إيمانية فى سبيل دعوتهم . . ومن ايذاء الكفار لهم . . وفى نفس الوقت فهو لا يريد أن يحمل نفسه على المنهج الإيمانى بما يحمله من مشقة للنفس فى تقييد شهواتها . . والمنافق قصير النظر . . مفتون بالمزايا . . وغير قادر على تحمل المسئولية .

المنافقون فى أول عهد الإسلام

ولذلك فالمنافقون فى أول عهد الإسلام لم يستطع واحد منهم أن يصبر على ما تضعه التكاليف الإيمانية على النفس من قيود . . وما يضعه المنهج الإيمانى من شدة يلقاها المسلمون من أعدائهم . . كل ذلك تحمله المؤمنون وحدهم . . ورأوا فى المطر خيره . . وهو الماء الذى ينزل من السماء ويسقى الزرع والحيوان والنبات ويشرب منه الإنسان . . ذلك الخير الذى يدوم . . أما البرق والرعد والصواعق . . فهى ظاهرة وقتية لا تبقى إلا فترة بسيطة . . فإذا تحملها الإنسان بشجاعة مرت وتركت له الخير وهو الماء . . أما إذا كان الإيمان فى النفس ضعيفا

فإنه فى هذه الحالة ترهبه هذه الظواهر الوقتية . . فيهرب من المنهج كله . . تاركا خيره وهو الماء .

والله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يقرب إلى أذهاننا صورة المنافق الذى يخشى على ضياع الدنيا . . وترهبه أى شدة وقتية . . فيجرى تاركا الخير الأجل الباقى . . وكان يجب على الإنسان أن يصبر على أى شدة . . أو أى ابتلاء ليصل إلى الخير الأجل .

وهنا لابد أن نعرف أن المؤمن يختلف عن المنافق .
فهو يأخذ الأمور الصعبة مأخذ الجد . . ويزيح ألوان الشرور ليستخرج منها الخير . . المؤمن قد يتعرض للابتلاء والشدة ويصبر أمام هذا الابتلاء وهذه الشدة . . أما المنافق الذى يبتغى من اظهار الإيمان أن يستمتع بخيرات المؤمنين . . وفى نفس الوقت يبطن الكفر ليأمن شر الكفار . . هو كصاحب المطر الذى يريد أن يأخذ الماء ويهرب من الرعد والصواعق .

والله سبحانه وتعالى يضع دائما المنافقين مع الكفار . . ويعتبرهم كما قلنا أشد خطرا من الكفار . . ذلك أن الله يقول :

﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أنه سبحانه وتعالى محيط بما فى نفوسهم . . وما يخفونه عن الناس فهو يعلمه . . ومحيط بهم إحاطة قدرة . . فهو يجعلهم فى الدنيا ينالون جزاء نفاقهم وما نالوه من حقوق المسلمين . . وهنا يكون العذاب الأول . . ثم يكون العذاب الكبير فى الآخرة حين يستقرون فى الدرك الأسفل من النار .

الاسلام منهج

وهنا نصل إلى الحكمة الالهية من المثل .. إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الاسلام ليس فقط نطقا بالشهادتين .. ولكن الاسلام منهج يختبر به الخالق عباده .. وهذا الاختبار هو ما تظهره التكاليف الايمانية .. والمحن والنعم .. فالنعمة ابتلاء تماما كالمحنة .. لأن الله حين ينعم على عبده يختبره .. هل سيشكر .. أم سيكفر .. فإذا استخدم النعمة فيما يرضى الله وفيما أمر به الله فقد شكر .. وإذا استخدمها فى الافساد فى الأرض .. وفيما يغضب الله .. فقد كفر بالنعمة .. والمحنة إذا صبر الإنسان عليها فقد فاز .. وإذا لم يتحملها وضاق بها .. قادته إلى المعصية .. وهكذا نعرف أن الابتلاءات هى لتمييز المؤمن .. والله يريد أن يخبرنا أن المنافق لا يريد أن يتحمل تكليفا .. وإنما يريد أن يحصل على ميزات فقط .. ولذلك فقد شبههم الله سبحانه وتعالى فى الجزء الأول من المثل بأنهم كالذى استوقد نارا .. ولكنه فقد القدرة على الابصار بهدى الضوء ، رغم أنه لم يفقد بصره .. لأن النفاق أعمى قلوبهم وسد أسماعهم ووضع غشاوة على أبصارهم .

ثم يأتى الجزء الثانى من المثل مكملا الصورة :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

هؤلاء المنافقون

إن هؤلاء المنافقين الذين يحيطون بالمؤمنين ويظهرون الإيمان وهم يبطنون الكفر .. إنما يريدون بذلك فائدة دنيوية .. وهم يريدون أن يحصلوا بدون وجه حق على خير مما يصيب المؤمنين أو مما يملكونه .. وهم بهذا قد دخلوا مدخلا إيمانيا بدعوى أنهم آمنوا أو يريدون أن يؤمنوا .. ومن هذا المدخل الايمانى ..

ومن جلوسهم مع المؤمنين رأوا نور الله .. كان لابد فى هذه الحالة أن ايمانهم يرى على ضوء ذلك الهدى .. ولكن الإيمان فى القلب ليس سلبيا .. ولذلك فإن القلب لا يستقبل .. والنور لا يصل .. فهم رغم وجودهم فى مجالس الإيمان .. وجلوسهم وسط النور الإيمانى .. فإنهم لا يرون شيئا .. لأن الله سبحانه وتعالى قد ذهب بنورهم .. وهم مع أنهم يجلسون فى مجالس الإيمان التى يشع عليها نور الله سبحانه وتعالى .. فإنهم فى ظلمات لا يبصرون شيئا من هذا النور .. وهم رغم جلوسهم فى مواكب الإيمان يسمعون كلام الله .. فهم صم لا يصل هذا الكلام إلى آذانهم فيعرفونه .، ورغم أنهم يحضرون مجالس الايمان فهم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديث الايمان ، لأنهم لا يعرفون هذا الحديث فقلوبهم لم تستوعبه .

وهم فى هذه الحالة كمثل قوم نزل عليهم مطر غزير من السماء .. أى نزل عليهم خير عميم من الله سبحانه وتعالى .. وصاحب هذا المطر برق ورعد .. ولكنهم لقصر نظرهم لم يلتفتوا إلى الخير .. بل خافوا من المصاعب الوقتية التى تصاحبه .. فأصبح همهم هو كيف يهربون من هذا الخير العميم خوفا من أن تصيبهم صاعقة فتقتلهم أو أذى .. أو شدة فتزعجهم .

ولو أنهم فطنوا لعرفوا أن الزمن الذى يستغرقه الرعد والبرق قليل .. بينما النفع الذى يجلبه المطر دائم ولاستفادوا من هذا النفع الدائم بدلا من أن يفروا من شدة وقتية تواجههم .. ولكنهم فى بحثهم عن الخير العاجل .. ولأنهم تظاهروا بالإيمان دون حقيقة أو صدق وحتى يصلوا إلى النفع العاجل .. فإنهم لا قوة لهم ولا عزم . لأنهم لا إيمان لهم .. وهم يحسبون كل صيحة عليهم .. وهم أول من يفر من أى قتال .

مَثَـلُ الكافرين

حديث قدسى

يا عبادى . إنى حرمت الظلم على نفسى ،وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته . . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا . فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم . وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم . وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد . فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته . ما نقص ذلك مما عندى . إلا كما ينقص المخيط . إذا أدخل فى البحر . يا عبادى . إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك . فلا يلومن إلا نفسه .

* * *

كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك . وأما تكذيبه إياى . فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق على أهون من إعادته . وأما شتمه إياى . فقوله اتخذ اللهولدا . وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد . ولم يكن لى كفوا أحد .

* * *

« ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ؟ . فليخلقوا ذرة . أو ليخلقوا حبة . أو شعيرة » .

الفصل الخامس

مثل التحدي

مَثَلُ التحـدى

الله سبحانه وتعالى لم يضرب للكافرين الأمثال فقط على ما هم فيه من ضلالة ليقرب هذه المعانى إلى عقول المؤمنين . . بل تحدى الله سبحانه وتعالى . . بدقة الخلق . . وتحدى بقدرة الخلق . . ففى سورة البقرة قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

عندما نزلت هذه الآية . قال أهل الكفر والنفاق . . كيف يضرب الله المثل فى القرآن بالبعوض والذباب والعنكبوت . . تلك المخلوقات الضعيفة التافهة . . ولكن قصر نظر هؤلاء الكفار والمنافقين هو الذى صور لهم أن البعوض أو الذباب أو العنكبوت . . هى كائنات ضعيفة واهية بالقياس الحجمى بالنسبة للإنسان . . فالذبابة أو البعوضة أو العنكبوت حجما وقوة إذا قسيت بالإنسان فهى لا تساوى شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى . . ضرب الأمثال بهذه الكائنات . . ليصور العلاقة بين أضعف المخلوقات وبين مقدرة الخالق . . وبين ادعاء المشركين . . بأن الله له شريك فى الكون .

وقد ضرب الله فى مثل آخر سنتحدث عنه فى هذا الفصل . . ضرب مثلا بالذبابة . . وكيف أنها وهى أضعف المخلوقات . . قد وضع الله سبحانه وتعالى تحديا فيها بالنسبة لقدرة الكون كله . . وتحدى الله سبحانه وتعالى فى المثل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

مَثَلُ التحدى

﴿ ... اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(سورة الحج)

إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها .. يتساءل بعض الناس : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى - فى معرض ضربه للأمثال تقريبا لأذهان عباده - إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا .. نقول أن الله سبحانه وتعالى حين يصف نفسه بصفة .. أو يسمى نفسه أسماء كالرحمن .. والرحيم .. والعزيز .. والقدير .. فهذه نسميها أسماء الله .. أو صفات الله .. ولكن حين يسند الله سبحانه وتعالى إلى ذاته فعلا .. فإننا لا نشتق من هذه الفعل أو تلك الأفعال أسماء لله أو صفات لله .. مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هنا يمثل صراعا بين الكفار وبين رسول الله .. فالكفار يريدون أن يمكروا بالرسول بتدبير أمورهم كلها سوء وأذى .. وهم يحسبون فى ذلك .. أنهم فى سريتهم وحذرهم .. وهم يدبرون خطط الشر والايذاء .. ويحسبون أن الله غير محيط بهم .. ولكن قدرة الله محيطة بهم .. ولذلك فهى تعد لهم من الأحداث ما لا يعرفونه .. وما يفسد خططهم تماما .. ويردها إليهم فلا يحققون شيئا .. وتدبير الله سبحانه وتعالى هو الغالب .. لأن الله هو القوى العليم .. هنا لا نستطيع أن نقول أن خير الماكرين اسم من أسماء الله سبحانه

وتعالى . . لأن الفعل وهو المكر منسوب إلى الله سبحانه وتعالى فى قوله خير الماكرين . . وإنما يريد أن يقول لنا أنه قادر على حماية رسول الله من مكر الكافرين . . وأن تدبيره أعلى من تدبيرهم . . وأمره هو النافذ عليهم . . سواء أرادوا أو لم يريدوا . . ويسمى ذلك فى اللغة مشاكلة .

الاستحياء

فإذا سأل سائل . . فكيف ينسب إلى الله القول أن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا . فالاجابة هى أن الله يرد على الكفار الذين قالوا ألا يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بكذا وكذا . . وفى تلك لفتة إلى أن علم الله أعلى من علمهم . . وأن مايعتبرونه هم شيئا تافها . . لا يستحق من الله سبحانه وتعالى أن يضرب مثلا به . . إنما فى الحقيقة فيه قدرة وحكمة تجعل الله يضرب لنا هذا المثل .

والاستحياء هو تغيير فى البنية والسلوك عند الخوف من القيام بعمل يعيب الإنسان أن يفعله . . أو لا يريد أن يراه أحد وهو يفعله . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف الاستحياء كفعل انسانى فى سلوك ابنة شعيب . . عندما ذهبت إلى موسى عليه السلام . . تطلب منه أن يأتى ليقابل أباها . . فيقول الحق تبارك وتعالى فى سورة القصص :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ ﴾

إذن فذهاب ابنة شعيب إلى موسى وأن تكلمه أمام الناس وهو غريب عنها . . مسألة اعتقدت أنها تعيبها . . أو على الأقل غير محببة إلى نفسها أن تفعلها أمام الناس . . ولكنها مأمورة من والدها أن تفعل ذلك . . ولذلك فهى تفعله وهى

كارهة . . فالاستحياء أمر قسرى . . يعترى الإنسان عند خوفه من أن يلام من فعل قام به . . وهو فى الغالب صراع بين ملكات النفس البشرية . . فهناك ملكة تدعو النفس البشرية إلى المعصية . . وتأتى أخرى وتحاول أن تمنعها . . وهكذا نعرف أن الاستحياء هو خوف من فعل غير محمود . . وهو بمعناه لا ينطبق إلا على السلوك البشرى . .

أما قول الله سبحانه وتعالى إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . . فذلك ليس معناه أنه تغيير قسرى أو خوف من فعل شىء يعاب عليه . . والله جل وعلا منزه عن ذلك تمام التنزيه المطلق . . والله يغير ولا يتغير . . ويفعل ولا ينفعل . . ولكن هذا بيان لجهل الكافرين الذين تساءلوا عن استحياء الخالق فى أن يضرب مثل هذا المثل . . ذلك أنهم تساءلوا عن شىء يدل على عدم العلم . . وعدم القدرة على الفهم . . فهم كما قلنا قد نظروا إلى المظاهر وهو الحجم . . ونظروا إلى الضعف الظاهرى . . ولكنهم لم يفطنوا إلى قدرة الخالق فى الدقة . . وفى الاعجاز . . ولذلك فإنهم عندما قالوا وهم لا يعلمون ألا يستحى الله . . رد الله عليهم بأنه لو علمتم القدرة والحكمة وأوتيتم من العلم . . لعرفتم أن هذا المثل لابد أن يضربه الله سبحانه وتعالى . . وأن هذا المثل لا يرمز إلى شىء أو لا يبين شيئا يستحيى منه أحد . . بل أن قدرة الله لابد أن يضربها لكم لتفهموها . . ومعنى يضرب الله مثلا . . أى أن الله يريد لهذا المثل أن يشيع بين الناس . . وهو يأتى من ضرب النقود . . أى سكها حتى تصبح صالحة للتداول بين البشر . . إذن الله سبحانه وتعالى يريد لهذا المثل أن يتداول بين الناس . . ويريد أن يقول للكفار أنه لا يوجد فى هذا المثل ما يجعل من يضربه يستحى منه . . بل توجد فيه من مظاهر القوة والقدرة ما لابد أن يبين للناس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « بعوضة فما فوقها » . . إذا أخذنا البعوضة على أنها قليلة الحجم بالنسبة للإنسان . . فإن فى هذه عظمة للخالق . . وإذا

أخذناها على أساس ضعف قوتها بالنسبة لقوة الإنسان .. فإن فى هذا قوة للخالق .. ولنتحدث عن ذلك .. نقطة .. نقطة .

النقطة الأولى هى قلة حجم البعوضة بالنسبة للإنسان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قال « فما فوقها » .. أى ما أصغر منها .. نقول .. إذا تأملنا التقدم العلمى الذى تم فى العالم .. نجد أن هذا التقدم والرقى يسير نحو الدقة .. ففى أول الأمر مثلا كانت الساعة تصنع كبيرة ضخمة تحتاج إلى مساحة . الآن هناك ساعة توضع مكان فص الخاتم وأقل من ذلك .. وقديما كان الراديو مثلا يحتل مساحة كبيرة .. أما الآن فقد أصبح حجمه أقل من حجم الكف .. والسيارة مثلا كانت كبيرة الحجم قليلة السعة .. وهى الآن تتطور .. والآلات الحاسبة كانت فى الماضى لابد أن توضع على المكتب لا يستطيع أحد أن يحملها من مكان إلى آخر لكبر حجمها ، فأصحبت الآن توضع فى الجيب وتقوم بعمليات متعددة .. وهكذا كلما ارتقى العلم وتقدمت البشرية .. مالت الأشياء إلى الدقة وصغر الحجم .. بل أنه فى الماضى مثلا كان لابد للطائرات أن تحمل أطنانا من القنابل ، حتى تستطيع أن تدمر حيا من الأحياء .. وكان لابد أن تشترك عشرون أو ثلاثون طائرة ، لأن حجم القنابل الذى يحمل كان كبيرا جدا .. أما الآن فإن طائرة واحدة تحمل قنبلة هيدروجينية تستطيع أن تدمر مدينة بأكملها .. إذن الدقة أو صغر الحجم هو من علامات التقدم العلمى .. أو الرقى فى العلم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للكفار .. أنتم التفتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الانسان فاحتقرتموها .. ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق .. فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهى فى الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة .. من عيون ترى .. وأجنحة تطير .. وأجهزة جنسية لحفظ النوع .. وجهاز هضمى للطعام وإخراج الفضلات وكل مقومات الحياة .. لم تلتفتوا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذى وضع كل سبل الحياة فى هذه المساحة

الصغيرة . . ولو أنكم التفتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل . . ولأدركتم أن هذه البعوضة الصغيرة التى تسهينون بها فى مثل حى وضعه الله أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق ، فى أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحى فى هذا الحجم الصغير . . ولكنها سطحية التفكير وعدم القدرة على التمييز فى عقول الكافرين .

حكمة الخلق

ثم يقول الله سبحانه وتعالى « فما فوقها » . . أى أن الله لا يضرب مثلا بالبعوضة فقط المتناهية الصغر فى الحجم . . بل إنه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عن خلق البعوضة فى هذا الحجم الصغير . . بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلقه الله . . ولذلك فليس هنا نهاية قدرة . . بل القدرة ممتدة إلى ما هو أصغر وأصغر . . وقد تقدم بنا العلم ، فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها . . ووجدنا أن هذه أشياء كلما صغر حجمها . . زادت قوتها وقدرتها . . فالجراثيم مثلا على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية ، وتهلكه دون أن يستطيع النجاة منها . . بل أن أخطر الجراثيم خطرا على الحياة البشرية هو الذى لا نستطيع أن نراه حتى الآن لدقة حجمه ، فلا يظهر تحت الميكرسكوب الالكترونى . . وهذا لا يستطيع العلماء أن يقاوموه . . أو أن يجدوا له علاجا لأنهم لا يرونه . . ومن ثم لا يستطيعون اجراء التجارب العلمية عليه لدرء خطره . . ولذلك يصبح هذا المخلوق المتناهى فى الدقة هو أكثر خطرا على الإنسان من الجراثيم التى ترى . . ولا يستطيع أحد أن يعرف الداء ليجد له الدواء . . ولذلك فإن المشكلة التى تحير العلماء فى كثير من الأمراض ، هى التى لا يستطيعون عزل الميكروب المسبب للمرض حتى يرونه ويدرسونه ويفحصونه .

بل ان من أكثر الأشياء دقة وربما فتكا ، هى الأسلحة التى لا ترى كاستخدام أشعة الليزر مثلا . . وهذه وحدها هى القادرة على تدمير الأقمار الصناعية أو

اصابتها فى الفضاء للدقة المتناهية . . وكذلك الأسلحة الكيماوية التى تنتشر فى الجو فتقتل عشرات الألوف فى لحظات ، مع أن أحدا لا يراها . . وربما لا يميز الإنسان رائحتها .

إذن الدقة فى الخلق هى إعجاز من الله سبحانه وتعالى . . لابد أن نتنبه له . . وكلما زادت الدقة . . زادت معرفتنا لقدرة الخالق الذى استطاع أن يخلق فى هذا الحيز الصغير الذى لا يرى بالعين المجردة . . استطاع أن يخلق فيه حياة تتكاثر . . واستطاع أن يخلق فيه قوة تستطيع أن تفنى ما هو أكبر منها بملايين المرات . . وما هو أقدر منها ظاهريا . . ولو أن الكفار كان لديهم شيء من العلم . . أو حتى من الفهم . . لتنبهوا لهذه الحقيقة . . ولعرفوا أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب هذا المثل ببعوضة فما فوقها . . فإنه يلفتنا إلى القدرة الإلهية فى دقة الخلق . . ويلفتنا إلى أن ما قد لا نراه بأعيننا قد يكون أشد قوة وأخطر مما نرى . . على أنه حتى فى البعوضة نفسها . . فإن ذلك المخلوق الذى قال عنه الكفار . . ألا يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا ببعوضة . . أن يعرفوا من ظاهر الحياة الدنيا أنهم عاجزون أمام هذه البعوضة الصغيرة الضعيفة التى يحتقرونها . . فهى تستطيع أن تأخذ جزءا من دمائهم دون أن يستطيعوا أن يردوها . . أو يعيدوها مرة أخرى إلى أجسادهم . . وهى تستطيع أن تنقل إليهم الأمراض التى قد تقتلهم . . ولا يستطيعون منها النجاة . . ولذلك فإن ضرب المثل بالبعوضة فيه حكمة بالغة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

أى أن الذين آمنوا لتفكرهم وتدبرهم لآيات الله ، يعرفون أن ما قاله الله سبحانه وتعالى هو الحق . . وحتى لو لم يصلوا إلى العلم الأرضى فى هذا المثل . . فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب هذا المثل ليكون حقا . . فالمؤمن يستقبل كلام الله سبحانه وتعالى من منطلق إيمانى . . ومادام الله قد قال . . فيكفى هذا . . فإذا ظهرت الحكمة بعد ذلك . . أو كشف الله سبحانه وتعالى عن الحكمة يكون ذلك تثبيتا للإيمان . . وإذا شاء الله أن يبقى الحكمة فى علمه هو . . فيكفى حيثية عند الإنسان المؤمن أن الله قد قال . . ولذلك فإن كلام الله يزيد المؤمنين إيمانا وتصديقا . . أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالله . . فإنهم يأخذون هذا الكلام على ظاهره . . وعندما تفشل عقولهم أو لا تستطيع الوصول إلى الفكر السليم وراء المثل . . فإنهم يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . ولو أنهم تفكروا وتدبروا دون بحث علمى أو تقدم تكنولوجى . . فى كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق فى هذا الحجم الصغير حياة كاملة . . لكان هذا يكفى . . ولكن حتى هذه النقطة لم يتنبهوا إليها . . ولم تعرفها عقولهم . . بل أن كل ما وصل إليه تفكيرهم هو أن الإنسان كبير الحجم والبعوضة صغيرة الحجم . . ومن هنا فإن الله ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالبعوضة . . هو شىء فى رأيهم لا يصح . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

أى أن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل يضل به كثيرا من الناس . . من المشركين والكافرين والمنافقين . . الذين لا يأخذون من الحياة الدنيا إلا ظاهرها . . دون عمق أو تعمق . . وهم يريدون شيئا سهلا ميسورا دون أن يتعبوا أنفسهم حتى فى التفكير . . أما أولئك المؤمنين الذين يتدبرون القرآن الكريم . . فهذا المثل يهدى كثيرا منهم . . لأنهم يتدبرون فى كلام ويصلون إلى المعنى المقصود من دقة الخلق .

مَثَلُ التحدى

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى أن أولئك الذين تصيبهم الضلالة هم الفاسقون الخارجون عن منهج الله الذين امتلأت أفكارهم وعقولهم بتفاهات الظاهر دون أن يتدبروا شيئا من حكمة الخلق .

التحدى الأعظم

تأتى بعد ذلك إلى المثل الذى تحدى به الله سبحانه وتعالى حين قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الحج)

وفى هذا المثل تحد للبشرية كلها . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لهم إنكم وما تدعون من دون الله من آلهة أو من علم أرضى لن تخلقوا الذباب الذى تعتبرونه مخلوقا تافها . . ولو اجتمعتم جميعا . . ولقد كان هذا المثل فى الماضى تحد بأن ما يشرك به الناس من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تخلق الحياة فى أتفه الأشياء بالنسبة لنظرتهم على الأقل . . فهى لا تستطيع أن تهب الحياة لأحد ولو للذبابة . . ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات والعلوم والاختراعات . . ويصل الإنسان إلى القمر . . وقد يصل إلى المريخ والزهرة . . ويأتى العلم كل

يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول . . وتسمع من يقول لك . . لقد انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم . . وترد أنت عليهم بهذا المثل . . إن الله قد تحداكم أن تخلقوا الحياة . . ولم يتحداكم بأن تخلقوا كونا مثل الكون الذى تخلقه الله سبحانه وتعالى . . ولا شمسا تضىء ملايين السنين و نجوما . . ولا قمرا . . كلها معلقة بالفضاء لا يمسكها إلا قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولم يتحداكم أن تخلقوا أرضا مثل الكرة الأرضية التى تعيشون عليها . . ولا نعما مثل التى ملأ الله بها الأرض من ماء وهواء . . وتربة خصبة تنبت الزرع . . ولاتحداكم أن تخلقوا إنسانا مثل ملايين البشر الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى . . ولكنه تحداكم أن تخلقوا ذبابة . . وتحداكم أن تجتمعوا من أجل ذلك . . وقال أنكم حتى لو اجتمعتم لن تفلحوا . . وكأن التحدى للناس جميعا ،

ولكن يبين الله سبحانه وتعالى . . أنه هو الذى يعطى العلم للإنسان . . وهو الذى يكشف له عن أسرار وضعها فى كونه . . فقد كشف لكم الله عن أسرار جعلتكم قادرين على غزو الفضاء . . وعلى السير فوق القمر . . وعلى اكتشاف خصائص مذهلة فى الكون . . ولكنه حجب عنكم العلم الى تحداكم فيه . . وهو خلق المادة الحية أو خلق ذبابة .

وقول الله سبحانه وتعالى . . ضُرِبَ مثل فاستمعوا له . . وكلام الله متعبد بتلاوته . . لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . معناه أنه لابد أن تستمع لهذا المثل فى كل عصر . . وحتى قيام الساعة . . وهو منطبق وحقيقى فى كل العصور . . أى أنه يقينا لن يأتى عصر يستطيع الإنسان أن يخلق فيه ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك . فيقول : « **فاستمعوا له** » . . ثم يقول الله إن الذين تدعون من دون الله . . وهكذا كان التحدى من الله سبحانه وتعالى على اطلاقه . . أى الذين تدعون من دون الله من آلهة . . وعلم . . وعلماء . . وأصحاب قدرة . .

صحاب نفوذ . . وشياطين وجان . . وكل من تستطيعون أن تدعوه من دون . . قوموا بدعوتها . . وأجمعوهم جميعا . . وقولوا لهم تعالوا واخلقوا لنا ذبابة حدة . . فإن استطاعوا يكون لكم العذر فى دعوتكم . . ولكن الله يقول لنا م غير مستطيعين . . حتى الآن . . وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا ها . . ولا معامل الدنيا كلها . . ولا أبحاث الدنيا كلها أن تخلق جناح بة . . أو حتى خلية للمادة الحية . . بحيث يستطيع أى مكابر أو جاحد أن ل هذا من خلق الإنسان . . وفى هذه الآية اعجاز كبير لأن الله سبحانه الى . . كان فى علمه سيأتى بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا انتهى ر الإيمان وبدأ عصر العلم . . فرد الله سبحانه وتعالى عليهم قبل أن لوها . . وقال لهم : إذا كان عصر الإيمان قد انتهى وعصر العلم قد بدأ . . ه سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذا الكون . . بما فيه . . ومن فيه . . يريد منكم إلا أن تخلقوا ذبابة واحدة لتثبتوا دعواهم وحتى تقدموها حيثية لهذا دعاء . . والله يقول لكم قبل أن تقدموا على ذلك . . انكم لن تقدروا . . أى يبلغكم بالنتيجة قبل أن تبدأوا لتعلموا أن الله بكل شىء عليم .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليزيد فى تحقير الكافرين والمنافقين . . ويقول . . ربما كانت مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم . . ولذلك فسأيسرها م : إذا أخذ الذباب منكم شيئا فاستعيدوه منه . . إذا علق بأرجل الذباب ء من طعامكم فاستعيدوه منه مرة أخرى . . ثم يزيد الله فى التحدى فيقول ى هذا لن تستطيعوه « **وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه** » . . أى أن الله حانه وتعالى نزل بالتحدى من مرحلة الخلق إلى مرحلة استعادة ما يسلبه باب . . وقال . . وحتى هذه لن تستطيعوها .

عظمة الخالق فى دقة الخلق

ثم قال الله سبحانه وتعالى : « **ضعف الطالب والمطلوب** » . . أى أن طلبته منكم هو ضعيف جدا . . ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون مقابلة هذا

التحدى رغم ضعفه .

﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى أن البشر كلهم لا يقدرون قدرة الله حق قدرها . . فالله قوى لا حو ولا قوة لغيره . . عزيز يفعل ما يشاء . . ولا يوجد من يحاسبه على فعله . . أ أنه كان يكفى نظرة واحدة لقدرة الله فى كونه أن تجعلكم تعرفون هذه القد وترونها . . وتسلمون بها . . على أن هناك مثلا آخر ضربه الله سبحانه وتعا بالنسبة لمذهبات النعمة . . وحذرنا ألا نقع فيها . . ذلك المثل هو انكار ح الفقير واليتيم والمسكين والمحتاج فى النعمة . . ومحاولة أخذ حقوقهم من الزك الصدقة وغيرهما مما فرضه الله . .

فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة « الروم » :

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُو وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وبعض الناس يعتقد أن المال يزيد بأكل حق اليتيم والفقير والمسكين . . و الصدقة تنقص المال . . والزكاة تذهب بجزء منه . . والحقيقة غير ذلك تماما . فالصدقة والزكاة تطهران المال وتحفظانه . . وتزيدانه بركة . . فتبقى النع وتستمر . . والمال هو مال الله . . أتانا إياه ليرى ماذا سنفعل . . وهل سنشـ على النعمة . . أم سنبغى ونطغى ونفسد فى الأرض . . والله جعل فى ماله ح للضعفاء والفقراء . . فلا آتى أنا وأسلب هذا الحق . . لأن الله قادر على يذهب بالمال كله .

مَثَلُ التحدى

ولنقرأ فى سورة القلم :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
لَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟
يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فهو يضرب لنا مثلا بأصحاب الجنة . . مجموعة من الناس يملكون بستانا بيرا . . أتى ثمره وحصاده وهم فى هذا البستان الذى ملأه الله لهم بالنعم ، ريدون أن يأكلوا حق اليتيم والفقير والمسكين فى هذه النعم ، فلا يعطوه دقه . . ولذلك فإنهم اتفقوا على أنهم يذهبون فى الصباح الباكر ليحصدوا هذه لنعم قبل أن يستيقظ الناس . . ولا يسمحوا ليتيم أو فقير بأن يقترب من جنتهم . . وفى الصباح الباكر . . وقبل طلوع الشمس يوقظ بعضهم بعضا ،

ويتسللون واحدا بعد الآخر إلى الجنة ليأخذوا ثمرها . . حينئذ . . وحين يصلون يجدون أن الثمر كله قد تلف . . والرزق كله احترق وأصبح هشيما . . ذلك أنه وهم نائمون طاف عليها طائف من الله فأصبح ثمرها كالصريم . . أو الشيء المحترق . . المهشم . . أى لا تصلح للغذاء الآدمى . . جفت وسقطت وتلفت فأصبحت لا تصلح لشيء . . حينئذ أعتقد أصحاب هذه الجنة أنهم قد ضلوا الطريق إليها . . وأنهم لابد دخلوا مكانا آخر . . فلقد كانت هذه الجنة حتى ساعات قليلة مليئة بالثمار الناضجة الطازجة . . ولكنهم تأكدوا من أنهم فعلا فى جنتهم التى يملكونها . . وحينئذ تنبهوا أنهم قد نسوا الله . . ونسوا قدرته . . وأنهم فى ظلمهم للضعفاء لم يتذكروا أن الله مع هؤلاء الضعفاء . . وأنه هو ناصرهم . . فأفاقوا وقالوا : إنا لضالون بل نحن محرمون من نعم الله .

وفى اللحظة التى أفاقوا فيها وتذكروا قدرة الله . . بدأوا يسبحونه « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » . والأوسط هنا إشارة إلى أن خير الأمور عند الله الوسط . . وهو بين الاسراف والتقتير . . قال أوسطهم لولا تسبحون الله وتعودون إليه . . ثم أخذوا يلومون بعضهم البعض . . وكل واحد منهم يحاول أن يحمل الآخر تبعة ما حدث . . واعترفوا بأنهم كانوا طاغين ومتجبرين فى حق المحتاج واليتيم .

وفى هذه اللحظة تذكروا أن الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة ويبدل العسر يسرا . وقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها .

ويقول الله سبحانه وتعالى « كذلك العذاب » فى الدنيا . . إن من ينسى الله ويحرم الفقير والمسكين من حقه . . يحرمه الله من نعمه .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى يبين للإنسان المؤمن . . فالقرآن نزل . يبين لنا مهلكات النعم فى الدنيا . . أو مذهبات النعم . . وقال أيها المؤمنون إذ

أردتم أن تبقى نعم الله عليكم . . فتذكروا دائما أن النعمة من الله سبحانه وتعالى فأنسبوا الفضل لله دائما حتى تبقى النعمة . . وإياكم أن تنسبوا الفضل لأنفسكم وتنكروا فضل الله . . وتظنوا أن هذه النعم دائمة لكم بقدراتكم أنتم . . فإن الله سبحانه وتعالى قادر ـ وهو الذى منحها ـ أن يذهبها . . ولذلك أعطانا مثل صاحب الجنتين . . ومثل قارون . . أحدهما لديه نعمة عاجلة . . والآخر لديه نعمة مختزنة . . وكلاهما أنكر قدرة الله ونسب النعمة لنفسه .

أصحاب الجنة !

والمثل الآخر لمذهبات النعمة ، هم أصحاب الجنة ، الذين أنكروا حق الضعيف والمسكين والفقير . . فأراد الله أن يذكرهم أنهم قد نسوا حق أولئك الذين أوصى الله بهم . . فإن الله ينساهم ويذهب عنهم النعمة . . ولذلك فأول الأشياء فى بقاء النعمة أن تنسب الفضل لله سبحانه وتعالى . . ولا تنكرها . . وأن تخرج حق من أوصى بهم الله . . وتتذكر أنهم إذا كانوا ضعفاء لا يقدرون . . فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوصى بهم هو حاميهم وهو معهم . . فأول شيء تفعله هو أن تخرج حق الضعفاء فى النعمة .

خير الأمور الوسط

على أن الله سبحانه وتعالى أعطى أمثالا ليثبت بها المؤمن . . أمثالا تشرح له الحياة الدنيا حتى لا تغره . . وأمثالا تقربه من موعد الآخرة حتى لا ينساها . . وأمثالا تحذره من أن يغتر بقدرة الإنسان على التقدم والحضارة . .

والله سبحانه وتعالى ضرب للمشركين أكثر من مثل فى القرآن الكريم . . ليبين الضلالة التى يعيشون فيها . . وتفاهة الفكر الذى يعتنقونه . . وهو فى هذه الأمثال كلها . . أراد أن يقرب المعنى للإنسان المؤمن . . حتى يستطيع أن يستوعب الحكمة . . وأن يعرف قدر هؤلاء الناس وضحالة فكرهم . . بل إن

مَثَلُ التحدى

الله سبحانه وتعالى تحداهم فى مثل ضربه لهم سيظل ساريا إلى يوم القيامة ، وفى كل الأمثال التى ضربها الله ، كانت بأشياء من واقع الحياة لتقرب المعنى إلى ذهن الإنسان المؤمن .

قضية الشرك محسومة

على أن قضية الشرك بالله .. قضية محسومة كما قلنا .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وأوجد .. وقد أخبرنا بذلك .. ولو أن هناك آلهة أخرى .. لقالت وردت .. وكون الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وهو الذى أوجد .. وهو الذى أبلغنا تكون قضية وحدانية الله محسومة تماما .. ولكن بعض الناس تأبى عقولهم .. إلا أن يحاولوا أن يشوهوا هذه الحقيقة .. وبعضهم يتخذ من البشر آلهة .. وبعضهم تخلق له مخاوفه آلهة .. وبعضهم يغريه الشيطان .

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

إذن كل من يتخذونه أولياء من دون الله إنما يتخذونه وهما .. وإنما يعبدون خوفا .. وإنما يخترعون خيالا .

ويأتى الله سبحانه وتعالى ليناقش جل جلاله هذه القضية فى القرآن الكريم .. ويضرب لنا مثلا فى سورة الزمر :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

مَثَلُ التحدى

الله سبحانه وتعالى يريد أن يوحد الناس . . والناس قد اخترعت آلهة متعددة فى غيبة من العقل . . حتى أن بعضهم صنع آلهة بنفسه ثم عبدها . . وفى ذلك تحقير للعقل البشرى . . ويأتى الله سبحانه وتعالى برحمته . . ويريد أن يلفتهم إلى عبادة الإله الواحد . . هنا يأتى لهم بمثل من واقع حياتهم . . فيقول الله سبحانه وتعالى اننى سأضرب لكم مثلا فى العبودية والسيادة من واقع حياتكم :

هب أن عبدا مملوكا لعدد من الأسياد . . وهؤلاء فوق أنهم متعددون . . أى أن لكل منهم سلطات . . يريد من هذا العبد أن يلبى رغباتها . . وفوق أنهم متعددون . . فأنهم مختلفون لا يتفقون على رأى . . بل لكل واحد منهم رأى مخالف للآخر . . هذا يعطى أمرا . . وذلك يعطى أمرا مضادا . . والثالث له أمر يخالف الأمرين السابقين . . وبينهم تشاكس وتنافر . .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطى هذه الصورة الغيبية فى هذه الصورة الحسية . . مشاهدة فى كل يوم . . فإن لم يكن يراها على نفسه فإنه يراها على غيره .

ويسأل الله عباده . . أيرتاح هذا العبد الذى يأتمر من أسياد متعددين مختلفين . . أيحصل على الراحة . . أيستطيع أن يرضيهم جميعا . . وإذا كان ذلك مستحيلا . . فهل يستطيع أن يرضى بعضهم دون أن يخاف انتقام الآخرين وغضبهم عليه . . وهل هذا العبد هو الذى يصل إلى الحياة المريحة . . أم ذلك الذى يأتمر بأمر إله واحد وسيد واحد . . فهو عنده أمر واحد فقط يعطيه . . ولا يحدث خلاف . . لأن الأمر واحد . . يعطينا الله سبحانه وتعالى هذه الصورة . . ويقول لنا :

أليس من الأسهل والأسلم لكم أن تطيعوا إلها واحدا وأن تعبدوا إلها واحدا . . لقد شاءت رحمتى أن تيسر لكم أمر العبادة . . ولكنكم أنتم تريدون أن تخلقوا لأنفسكم آلهة متعددة . . أى أنكم تختارون الطريق الصعب . . غير

الميسور . . غير الحقيقى . . تتعبون به أنفسكم وتلقون بأيديكم إلى التهلكة . . بينما اخترت لكم الطريق السهل الميسور .

وهكذا يقرب الله سبحانه وتعالى لنا الصورة فى صورة مادية محسوسة . . ليظهر لنا غباء هؤلاء الذين يريدون أن يتعبوا أنفسهم ، فيخترعوا لها اختراعا آلهة متعددة . . وعندما تقترب منا الصورة إلى هذه الدرجة . . نحس بتفاهة فكر . . وتفاهة حجج . . أولئك الذين يخترعون آلهة متعددة ليعبدوها . .

وفى سورة الروم يضرب الله مثلا ثانيا :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وهنا يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا . ويقول جل جلاله أننى سآخذ هذا المثل هذه المرة من أنفسكم حتى تحسوا به احساسا مباشرا . . اننى أرزقكم أموالا وأعطيكم رزقا فى الحياة الدنيا . . فهل تأتون أنتم فى هذه الأموال . . وتشركون فيها أحدا غيركم فيما أعطيتكم من رزق . . إن هذا الرزق ، الله هو الذى وهبه لكم . . هل خرج أحدكم إلى القرية وأحضر عددا من الناس . . وقال لهم تعالوا فعندى رزق ولنشترك فيه . . بحيث نصبح كلنا فيه سواء أى نقسمه على بعضنا البعض . . أم أنكم تخافون على هذا الرزق . . وتحاولون أن تحموه بكل وسيلة . . بل أن كل واحد منكم يخاف أن يأخذ الآخر منه شيئا . . وإذا كان هذا هو مسلككم مع أنفسكم . . ألا يكون هو نفس مسلككم على الأقل مع الله الذى أعطاكم هذا الرزق ومنحكم هذه النعمة . . ولكنكم والله وحده هو

الوهاب . . تأتون بشركاء تشركونهم مع الله فيها رزقكم . . فتقولون هذا رزق الله . . وهذا رزق من فلان . . بل أنكم تنذرون النذور لغير الله فيها رزقكم به الله . . فيكون نذركم لمن لم ينزل به الله سلطانا . . ونجد أنواعا غريبة من آلهة وتعاويذ عبر التاريخ وحتى الآن . . يقال إنها لجلب الرزق . . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق والمنعم . . والله بهذا المثل يريد أن يجعل الإنسان حكما على نفسه . . فيقول له لقد وهبت لك رزقا . . فهل أشركت فيه غيرك . . وهل أدخلت فيه شركاء . . أم أنك حاولت ألا تشرك فيه أحدا . . إذن لماذا تريد أن تأتى لله بشركاء . . وتخلع عليهم صفات الألوهية . . إذا كان عقلك قد طاش . . فأنا أحاول أن أعيد لك الحكمة وأن أضرب لك مثلا تحسه فى ذاتك وفى نفسك . . حتى لا تحتاج إلى مجرد عمق التفكير . . بل سيكون هذا المثل ظاهرا بمجرد أن أضربه لك . . ستحسه وتعرفه .

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال على أن من يتخذ إلها غير الله . . فقد أورد نفسه مورد التهلكة . . فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه الإنسان إلى أنه لا أحد يرعاه . . ويعطى له الرزق والحماية إلا الله سبحانه وتعالى . . وأنه إذا ابتعد عن الله . . فأين يذهب . . وإلى من يلتجىء . . ومن الذى يملك له من الله شيئا . . لا أحد . . ولذلك فإن أولئك الذين يحسبون أنهم عندما يلجأون لغير الله يحققون شيئا . . فإنهم واهمون . . ذلك لأنهم لم يلجأوا إلى شىء له قوة أو قدرة . . بل لجأوا إلى شىء بلا قدرة .

خيوط العنكبوت

ولكن هذا القول من الله إخبار عن شيء غيبى عنى . . لا ألمسه ماديا . . ولذلك يريد الله أن يثبت الذين آمنوا ويقرب لهم الصورة . . أن يضرب مثلا من حياتهم اليومية مثلا يرونه كل ساعة . . وهو فى كل بيت . . مثل خيوط العنكبوت . . يقول لهم انظروا إلى خيوط العنكبوت هذه . . هل تستطيع أن تحمى أحدا . . أو توفر الحماية حتى للعنكبوت نفسه . . إنها أسهل شيء يسقط . . ويستطيع طفل صغير بأى شيء لين أن يسقط بيت العنكبوت فى ثانية . . لا يحتاج ذلك إلى قوة من الطفل . . ولا إلى الشيء الذى يمسك به ويسقط بيت العنكبوت . . وهو لا يحمى أحدا ولا يحمى صاحبه . . وحتى الحشرات التى تحاول أن تلتجىء إليه وهى تظن أن هذا البيت فيه الحماية وإنما تسقط فى شرك نصب لها . . وتفقد حياتها وهى تظن أنها تحتمى بهذا البيت وتنجو . . أى أن طريق النجاة الذى تصوره لنا عقولنا بعيدا عن الله . . هو طريق الهلاك بالنسبة لنا .

هنا لابد أن نتوقف لحظة . . أمام ما يقال وما يشاع عن هذا المثل . . فبعض الناس يقول أن خيوط العنكبوت فيها صلابة . . أو هى قوية . . على الأقل بالنسبة للحشرات التى تسقط فى بيته . . فهذه الحشرات عندما تسقط وتحيط بها خيوط العنكبوت لا تستطيع أن تتخلص منها . . ذلك لأن الخيط أقوى من قدرة الحشرة . . نقول لهؤلاء جميعا أن القرآن كتاب نزل للإنسان . . وهو يخاطب الناس حسب قدراتهم البشرية . . ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع قياسا غير ذلك . . ونحن نريد أن نفهم معانى القرآن . . الوهن هنا هو بالنسبة لقدرة الإنسان وقوة الإنسان .

الفصل السادس

مثل الحياة الدنيا

الأمثال عن الحياة الدنيا فى القرآن تتناول أكثر من جانب . . وبعض الناس فى
ير من الأحيان يحاول أن يضع للأمثال أسبابا قد لا تكون هى الحقيقة أو الهدف
ها . . مثال ذلك ما أثير حول قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المدثر (الآيات
ن ٢٧ - ٣١) .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا
سْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا
رْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ
اذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

ولقد قيل أشياء كثيرة عن رقم ١٩ الذى هو عدد الملائكة « **عليها تسعة
شر** » . . وحللوها بالعقل الالكترونى . . وخرجوا منها إلى متاهات كثيرة . .
سعة عشر عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم . . والله سبحانه وتعالى يضرب
ذا المثل ويقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

حتى نعرف أنها قضية إيمانية . . وأن المشكلة ليست فى عدد الملائكة . . سواء
انوا عشرة . . أو عشرين . . أو ثلاثين .

وقفة العقل الإيمانية

والسؤال فى العدد هو دائما دائر . . فلو قال الله إن عددهم ثلاثة . . لوجدت من يسأل . . لماذا ثلاثة ؟ وإذا قال إن عددهم أربعة . . لوجدت من يسأل . . أربعة لماذا ؟ أو خمسة لماذا ؟ والسؤال الدائر لا يرد عليه . . فالله قد جعل أصحاب النار ملائكة . . وهذا اختيار الله سبحانه وتعالى . . والله قد جعل عددهم تسعة عشر . . وهذا اختيار الله أيضا . . ومادام أى عدد سيسأل عن سببه . . يجب ألا يرد على السؤال . . لأنه لا يوجد عدد يحسم اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولكن الحق أراد بهذا المثل وقفة العقل الإيمانية . . لأنه لو أن كل شىء يخضع للتعليل العقلى . . لما كانت هناك وقفات إيمانية . . ولكانت الدنيا والآخرة . . كل منها . . بكل ما فيها . . له تعليل عقلى . . ولكن أمور الحياة الدنيا التى يحتاجها الإنسان فى معيشته . . هى التى تدخل وتخضع للتعليل العقلى . . وهناك أمور تعبدية . . وغيبية . . لابد أن تخضع للوقفة الإيمانية للعقل . . ولذلك فإن الوقفة الإيمانية تقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختارهم تسعة عشر . . وهذه مشيئته . . ولكن الذين فى قلوبهم مرض يسألون لماذا اختار الله تسعة عشر . . ولو أن الله اختار عشرة . . كان نفس السؤال موجودا . . وهو لماذا اختار الله عشرة . . أما المؤمن فإنه يستيقن ويقول إن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى .

ولو فتحنا هذا الباب . . ودخلنا إلى التعليل العقلى وحده . . وتركنا الوقفة الإيمانية للعقل . . لوجدنا أمامنا أسئلة كثيرة بلا جواب . . فقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

سورة الحاقة

كان لابد أن يحمل مثل هذا التساؤل .. ولماذا العدد ثمانية .. وليس أكثر
لا أقل .. والله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات .. وكان لابد أن نسأل لماذا
خلق الله السموات سبعا .. ولم يخلقهن عشرا أو خمس عشرة .. وقول الله
سبحانه وتعالى :

فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

فى قصة موسى عليه السلام .. كان لابد أن نسأل ما هى الحكمة فى أن تكون
أربعين ليلة .. ولماذا لا تكون ثلاثين أو عشرين .. وبهذا نفتح الباب أمام أشياء
لا نعرف لها جوابا .. إلا أنها مشيئة الله فيما فعل .. والله سبحانه وتعالى حين
اختار هذه الأعداد .. لم يخترها بحيث يكون بينها قاسم مشترك .. تكون هذه
ضعف هذه .. أو هذه نصف أو ثلث هذه .. وإلا لكنا قد ذهبنا إلى
تعليلات .. ولكن الأعداد سبعة .. وثمانية .. وتسعة عشر .. وأربعين ..
ليس بينها قاسم مشترك .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى قد اختارها لأنها
مشيئته .. ويأتى الذين فى قلوبهم مرض ليقولوا لماذا اختار الله هذا العدد ..
ولكن الذين فى قلوبهم الإيمان .. يقفون وقفة إيمانية من هذه الأعداد ويعرفون
أنها مشيئة الله فى اختياره .. وأن أى عدد يضرب به مثل .. إنما يمثل هذه
المشيئة .. وتلك وقفة العقل الإيمانية التى تبعدنا عن متاهات لن نصل فيها إلى
الحقيقة .. ولذلك لا يجب أن نحمل الأمثال والأعداد فى القرآن الكريم أكثر مما
تحتمل .

والله سبحانه وتعالى رحمة بالعقول البشرية قد ضرب لنا مثلا فى القرآن الكريم
حول الحياة الدنيا من بدايتها إلى نهايتها .. ونلاحظ فى هذا المثل أنه يذكرنا ..
يذكرنا بأن الحياة الدنيا بداية ونهاية .. وأنها ليست مستمرة .. فيقول الله
سبحانه وتعالى فى سورة الكهف (الآية ٤٥) :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب من رسوله أن يضرب للمؤمنين هذا المثل ليثبت إيمانهم . . ولقد أراد الله أن يضرب هذا المثل ويقول ان الحياة الدنيا لها أول ولها آخر . . لماذا ؟ لأن الذى يدرك أول الحياة الدنيا لا يدرك آخرها . . والذى يقترب من آخرها لا يدرك أولها . . ولذلك فإنه من المستحيل أن يعيش إنسان الدنيا كلها من أولها إلى آخرها . . فكل واحد فينا يعاصر فترة من الحياة الدنيا . . ما قبلها هو غيب عنه . . وما بعدها هو غيب عنه . . ومن هنا فإننا باراكنا المحدود لا نستطيع أن ندرك أن الدنيا لها بداية ولها نهاية . . بل إننا قد نعتقد أنها دائمة لا نهاية لها . . فنحن نولد وهى موجودة ونرحل وهى موجودة .

مثل عن الحياة الدنيا

وحتى لا تغرنا الدنيا . . ونعتقد أنها دائمة . . طلب الله سبحانه وتعالى من رسوله أن يضرب للناس مثلا عن الحياة الدنيا . . يقرب الصورة إلى نفوس الناس بشىء حسى يرونه . . فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

أى أن هذه الدنيا ليست ذاتية الخلق . . أى لم تخلق نفسها . . أو لم توجد هى . . بل خلقها الله سبحانه وتعالى . . تماما كما يخلق الزرع الذى تنبته . .

مَثَلُ الحيـاة الدنيـا

ولماذا ضرب الله مثل الحياة الدنيا بالزرع . . لأن كل واحد منا يشهد دورة الزرع . . تحدث أمامه فى فترة قصيرة يشهد أولها وآخرها . . ومن هنا فإن المثل أمامه حى ، يعرفه ويراه . . مرة أو عدة مرات كل عام . . فيقول :

﴿ مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى وهو الذى ينزل الغيث . . هو الذى خلق الحياة على الأرض . . تماما كما ينزل الماء من السماء فينبت الزرع . . « **فاختلط به نبات الأرض** » . . أى أن هذا الماء الذى نزل من السماء قد أخذ من مقومات الأرض استمرارية الحياة . . فقد خلق الله الأرض وأودع فيها أسس استمرارية الحياة للإنسان . . أو العوامل والعناصر التى تكفل استمرار الحياة . . تماما كما ينزل الماء من السماء فيسقى الأرض ويأخذ النبات منها عناصر استمرار الحياة . . ليكبر ويعلو ويترعرع . . ولذلك فإن الأرض قادرة فقط على اعطاء عناصر استمرار الحياة . . ولكن الحياة نفسها بدون ماء تنعدم . . فإذا ذهبنا إلى صحراء جرداء فيها الأرض وليس فيها الماء . . لا نجد فيها حياة .

إذن فأصل الحياة جاء من السماء . . وعوامل استمرارها خلقها الله ووضعها فى الأرض . . والأرض تأخذ زينتها وتعطى من استمرار مد السماء لها بالحياة ، أو مد الله لها بالحياة . . ثم يكبر الزرع وتأخذ الأرض زخرفها ، فينتج منه الثمار والورود . . ويصبح شكله بهيجا يسر الناظرين . . ثم بعد ذلك تأتى نهاية الحياة . . فيصبح هذا الزرع هشيما محطما لا جذور له فى الأرض . . تستطيع الرياح أن تبعثره فى أى مكان . . أى أن جذور الحياة تنتهى . . وتصبح كأن لم تكن . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوجد الحياة . . وقادر على أن يذهبها .

وهكذا ذكر لنا الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا كلها . . فى حدث صغير يتسع له عمر كل فرد فينا . . ويقدر عليه بصر كل فرد . . فهو يركز الحياة الطويلة منذ خلق آدم حتى تقوم الساعة فى حالة موجزة من الممكن أن يشهدها كل فرد منا . . ويقول إن الغيب عنكم وهو هذه الحياة الطويلة من أولها إلى آخرها . . أقربه لكم فى مثل صغير . . انظر إلى الزرع كيف ينبت ثم يصير هشيما . . وأعلم أن هذه الحياة تماما مثل دورة الزرع . . مصيرها إلى فناء وزوال . . فلا تجعلها تغرك عن الله . . ولا تبعدك عن منهجه . . فهى مثل دورة الزرع ستنتهى إلى لا شىء .

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويضرب مثلا آخر للحياة . . فى سورة يونس :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ
ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا
حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

فى هذا المثل الذى يختلف عن المثل الأول . . ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لبداية الدنيا ونهايتها . . ولكنه أعطانا فى هذا المثل شيئا من التفصيل . . لما يمكن أن يحدث بالنسبة لعمر الحياة على الأرض . . ففى المثل الأول . . كان الكلام

مجملا عن البداية والنهاية . . ولكن فى هذا المثل وضع شيئا من التفصيل . . عن كيف تبدأ الدنيا وكيف تنتهى . . فبداية الدنيا كماء نزل من السماء دليل على أن الحياة فى الدنيا مخلوقة وليست ذاتية . . فالماء ينزل من علو . . والحياة تأتى من الأعلى . . وهو الله . . هذه الحياة تستمر بارادة الخالق . . أو باستمرار الوجود من العلو وهو المطر . . وتأخذ عناصر استمراريتها من الأرض . . فتخرج الأرض النبات الذى يأكل منه الناس والأنعام . . ثم يضيف الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾

وهذه الآية تمثل لنا استمرار موكب الحياة فى الأرض .

فالحضارة التى بدأت مع الإنسان تتقدم معه لتزين الأرض . . وتجعل لها زخرفها . . وهنا لابد أن نتنبه إلى عدة عناصر . .

العنصر الأول أن منشأ الحضارة هو من خلق الله . . وما زاد عليها من اكتشافات هو مما يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للإنسان . . فأنت إذا أخذت نظرية من نظريات الهندسة . . ولتكن نظرية رقم مائة . . نجد أنها اعتمدت على النظرية التى قبلها وهى رقم ٩٩ . . وتلك اعتمدت على النظرية رقم ٩٨ . . والنظرية التى قبلها اعتمدت على النظرية التى قبلها . . وهكذا حتى تصل إلى النظرية رقم واحد . . وتسأل على ماذا اعتمدت ، فتجد أنها اعتمدت على بديهية من بديهيات الكون التى خلقها الله . . أى أن كل هذا العلم أساسه بديهيات الله فى الكون . . فالإنسان لم يخلق شيئا جديدا . . ولم يوجد شيئا لم يكن موجودا . . وإنما طوره بشكل يجعل استخدامه أسرع وأحسن . . ويكشف عن خصائصه التى خلقها الله .

إذا أخذنا مثلا أشعة الليزر واستخدمناها فى الطب وفى قياس المسافات وفى الحروب إلى آخر ما عرفناه .. وما يمكن أن تقدمه هذه الأشعة للإنسانية من استخدامات فى الكون .. والسؤال هنا هو من الذى أوجد أشعة الليزر .. والجواب أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها .. أى أنها ليست من خلق بشر .. ومن هنا فهى موجودة فى الكون منذ الأزل .. ولكنها لم تدخل فى علم الإنسان إلا خلال هذه الفترة .. فكأن الإنسان .. لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشفه .. أو اكتشف استخداماته .. ولكن هذا الشىء موجود من خلق الله .. منذ خلق الأرض ومن عليها .. وكذلك كل اكتشافات العلم فى الحياة .. إنما هى كشف عن قدرة موجودة .. أو عن خصائص موجودة فى الكون .. لم نكن نتنبه إليها ..

والعلم البشرى فى الكون كله فى آية واحدة من سورة فاطر (الآية ٢٦) . ويقول الله سبحانه وتعالى فيها :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ ﴾

ومن هنا فإن العلم الإنسانى يدور حول الأرض وما فيها وما تنبت .. وحول الجبال وما تحمل من معادن وأسرار .. وحول الناس والدواب والأنعام .. وكلما اكتشف العلم شيئا جديدا .. كان ذلك أدعى للعلماء الذين يكشف لهم الله دقة

صنعه أن يكونوا أكثر الناس خشية لله .. فهم يرون الاعجاز فى كل خلق الله .. وهم بوصولهم إلى هذا الاعجاز .. كان لابد أن تدخل الخشية إلى قلوبهم .. وهم يرون دقة الصنع وإبداع الخالق .

العلم اكتشف فقط

أما الخلق الحقيقى والايجاد الحقيقى لله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله فى سورة لقمان:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠)

هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (١١) ﴾

هذا هو الخلق .. ولا يستطيع أن يدعيه أحد إلا الله .. والعلم لم يخلق شيئا .. ولكنه اكتشف خصائص استخدمها الإنسان .. فالإنسان فى الماضى كان يحفر الأرض بقطعة من الخشب .. فجاء العلم وأعطاه المحراث .. مستخدما مواد الله فى الكون .. ثم أعطاه الجرار .. وكل إضافة جديدة تجعل عملية الزرع أسهل .. ولكن أساس الزرع وجد مع الإنسان .. ولا يستطيع أحد أن يدعيه .. بل أن هناك أشجارا فى الغابات الكثيفة .. تقذف بحبوبها بعيدا لتنبت هناك أشجار جديدة .. دون أن يكون للإنسان دخل فى ذلك .

والماء أوجده الله مع الخلق .. ولكن العلم استطاع أن يقلل المتاعب .. بدلا من أن أذهب إلى العين أو إلى النهر لأشرب .. نقل لى الماء باستخدام المواد التى خلقها الله بحيث أصبحت أجد كوب الماء فى المكان الذى أعيش فيه .. والشمس بكل أشعتها وما فيها من أسرار .. هى كما هى منذ بدء الخليقة .. وكل يوم نكتشف أشعة من أشعة الشمس لها فوائد لم نكن نعرفها

فنستخدمها .. وهكذا كلها اكتشافات لخصائص وليس ايجادا لأشياء .. فلا يوجد شيء نأتى به من العدم .. ولكن العقل المخلوق لله يوجهه الله للعمل فى المادة المخلوقة من الله فيكتشف شيئا جديدا .. وحتى الإنسان هو من آدم .. فالسبب فى وجودى هو أبى وأمى .. والسبب فى وجودهما هو جدى وجدتى .. فإذا تتبعنا الخيط نجد أننا نصل إلى أصل البشرية كلها . وهو لابد أن يوجد ذكر وأنثى .. أى أنه لابد من الخلق ليبدأ التكاثر .. وهذا الخلق هو آدم وحواء .. بل ان عدد البشر فى الدنيا أقل .. ومنذ عدة قرون كان أقل جدا .. ونظل نتسلسل إلى أن نصل إلى البداية وهى ذكر وأنثى .

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾

يصور لنا تسلسل الحضارات .. ذلك أنه عند بداية الحضارة .. كان التقدم فى العالم يسير بطيئا .. بحيث لا يتم اكتشاف إلا كل فترة طويلة من الزمن .. ولأن العقل البشرى أعطاه الله القدرة على أن يرث الحضارة الإنسانية .. كل عقل يرث حضارة الجيل الذى قبله .. وهكذا لا يبدأ كل جيل من الصفر .. ولكنه يبدأ ولديه رصيد من الحضارات والاكتشافات يساعده على أن يكون التقدم أكثر وأسرع .. وهكذا كلما مر عصر وجاء عصر جديد كان هناك إضافة ضخمة إلى رصيد الإنسان الحضارى .. تمكنه أن يبدأ من نقطة متقدمة عن الجيل الذى قبله .

ومع استمرار التقدم والزمن يصبح لدى الإنسانية بداية تؤهله لأن يضيف أكثر .. ذلك أنها تبدأ من حيث انتهى الآخرون .. وهكذا نجد مع تقدم الزمن .. بعد أن كان هناك كل ١٠٠ سنة اكتشاف علمى .. يصبح هناك اكتشاف علمى كل عشر سنوات .. ثم كل خمس سنوات .. ثم كل سنة ..

ثم كل شهر . . ثم كل يوم . . ثم عدة اكتشافات فى اليوم الواحد . . كل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بعقل يرث الحضارات . . ولم يعط هذا العقل لباقى مخلوقاته . . فالحيوانات مثلا تعيش بنفس الطريقة منذ بداية خلقها . . فهى لم تضف شيئا إلى حياتها . . وليس لها رصيد حضارى أو عقل يرث الحضارات . . وكذلك الجماد والنبات . . إنما الذى يملك عقلا يرث الحضارة ويضيف إليها . . هو الإنسان الذى م[illegible] الله سبحانه وتعالى وفضله على خلقه .

موكب العلم يتقدم

يمضى موكب العلم ليضيف اكتشافات جديدة إلى حياة الإنسان . . ويزين الأرض . . فكل ما على الأرض هو زينة لها . . كل ما يحدث على الأرض من عمارات شاهقة . . وما يؤسس عليها . . وما يزرع بالزرع المختلف الألوان . . هذه كلها زينة للأرض ، فلا أحد يأخذها معه . . ولا أحد يأخذ شيئا معه . . إلا حسناته أو ذنوبه . . أما كل ما عمله فوق الأرض وما بناه فهو يتركه زينة للأرض نفسها . . يأتى الذين بعده والذين من بعدهم . . فيرونه ويعجبون به . . وقد لا يعرفون من أقامه . . ولكنهم يتمتعون بالزينة التى تملأ الأرض .

حينما يتقدم العلم ويرى الناس ما تحققه لهم الاكتشافات العلمية . . يبدأون فى الاتجاه إلى العلم . . وينسون المعلم . . الذى وضع هذا العلم فى الأرض . . ويسر لنا أن نكتشفه .

ويبدأ الإنسان يغتر بقوته . . ويحس بأنه هو الذى يعمل وهو الذى يضيف . . ويرى أثر العلم فى ظاهر الحياة الدنيا فيتجه إليه .

ولكن العلم الذى قد يعطى الإنسان الكثير لا يستطيع أن يعطيه شيئا واحدا . . مما سيعطيه له الله بقدراته . . فقد يجعلنى العلم أضغط على زر

فيطهى لى الطعام .. أو يأتينى ما أطلب .. ولكنه لا يستطيع مهما تقدم العلم أن يجعلنى أجد الشيء أمامى بمجرد أن يخطر على بالى .. فساعة أفكر فيه ودون أن أعمل شيئا أجده حاضرا أمامى .. وهذا سيحدث فى الآخرة .. وهو أبسط ما سيحدث فيها بالنسبة للمؤمن .

النهـــار والليـــل

ولكن الإنسان يظل يتقدم بالعلم حتى يظن أنه قد سيطر على الأرض تماما .. ويحس أن كل ما يطلبه أو يريده يستطيع أن يحققه .. وأنه قادر على أن يصل إلى كل ما يريد بالنسبة للأرض وما عليها .. حينئذ يصدق فيه قول الله : « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » .. وهذا الظن يرجع إلى نسبة الإنسان كل شيء إلى قدراته هو .. ناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى الذى يسر له ذلك .. حينئذ .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية من الحضارة ، حتى أنه يظن أنه قادر على أن يتحكم فى كل ما على الأرض .. فيجعله يعمل وفقا لهواه أو ارادته تكون نهاية الإنسان وقيام الساعة :

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

حينئذ تقوم الساعة ويأتى أمر الله .. ليعرف الإنسان يقينا أنه غير قادر على شيء .. وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ليلا أو نهارا ﴾

دليل على أن الليل والنهار موجودان على سطح الأرض فى وقت واحد .. فبعض الناس ستأتيهم الساعة والوقت عندهم نهارا .. لأن الله خلق الليل والنهار معا .. مصداقا لقوله تعالى فى سورة يس :

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾

وكان العرب يقولون أن الليل يسبق النهار . . ويبدأون يومهم بالليل أولا . . أى بعد غروب الشمس . . وهكذا عندما نزل القرآن . . كانت هناك قضيتان . . قضية النهار يسبق الليل . . وهذه لم يتعرض لها أحد . . ولم يقل بها أحد . . وقضية أن الليل يسبق النهار . . وهذه كانت خطأ يعتقده العرب . . فجاء الله سبحانه وتعالى ليصحح هذا الخطأ فقال :

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾

. . ومعنى ذلك أن الليل لا يسبق النهار كما تعتقدون . . ومادام الليل لا يسبق النهار . . والنهار لا يسبق الليل . . إذن فقد وجدا على الأرض فى وقت واحد .

﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ ﴾

. . بعد أن استعرض الله سبحانه وتعالى كيف أن العلم البشرى والحضارة البشرية سترتقى وتتقدم . . حتى يحسب الإنسان أنه قد سيطر على الأرض تماما . . وأصبحت الأرض خاضعة لمشيئته وارادته . . كل شيء فيها هو يتحكم فيه . . حينئذ تقوم الساعة فيدمر الله الأرض وما عليها . . وتنتهى الحياة من الدنيا . . ويصبح كل الذين ظنوا أنهم قادرون على الأرض أمواتا لا يقدرون على شيء .

على أن هذا الهلاك . . أو هذا الدمار الذى يتم فى الآخرة . . لا يجعل الله سبحانه وتعالى يترك الدنيا بلا عقاب للكافرين حتى تقوم الساعة . . بل إن السماء تتدخل إذا استشرى الظلم . . وعم الفساد . . وكان الكفر هو عقيدة الناس .

مَثَلُ الحياة الدنيا

وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النحل :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونظرة واحدة إلى خريطة العالم . . ترينا كيف أن هذا المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى موجود فى كل بقاع الدنيا . . والأصل فى الخلق . . أن الله خلق الناس . . ويسر لهم رزقهم . . وأعطاهم المنهج الذى لو اتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين . . ولو أن منهج الله طبق فى أى دولة فى العالم . . وفى أعتى الدول اجراما لحولها إلى أكثر الدنيا أمانا . . هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها . . والتى نستطيع أن نصل إليها بسهولة . . إذا أحصينا عن جرائم القتل والنهب والسلب فى الدول التى تطبق منهج الله . . فنجدها تكاد تتلاشى .

ماذا يكون العقاب

ماذا يحدث لهذه القرى . . ولماذا تتحول من الأمن إلى الخوف . . ومن الشبع إلى الجوع . . ولماذا فى كل دولة فى العالم حرب . . وقتال . . وقتل . . ولا يوجد هناك أمان . . السبب فى ذلك أن الإنسان كفر بنعمة الله . . وابتعد عن طريقه . . ووضع منهجا لهوى النفس . . وما أن الذين يضعون هذا المنهج هم الأقوياء أو الحكام أو المترفين . . فقد جاءوا بما يحقق لهم أكثر الميزات . . وبما يسلب من غيرهم كل الميزات . . وهكذا أصبح هوى النفس هو الذى يحكم . . ومع هذا الهوى وجد الظلم . . ومع الظلم وجدت الثورات والانقلابات . . ثم المطامع والحروب . . وكل واحد يريد أن يأخذ ما فى يد الآخر . . ولا أحد يأخذ شيئا . . بل كل نعم الدنيا تنتقل من يد إلى يد . . إلى يد .

انظر بعد ذلك ماذا يكون العقاب .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

والجوع ألا يجد الإنسان ما يقيم أوده .. أو الطعام الذى يكفيه هو ومن يعول .

والخوف هو ألا يكون آمنا على نفسه أو على من يعولهم .

وكلا العاملين الجوع والخوف هم البلاء فى كل الحروب.فالشعوب فى الحروب تجوع ولا تجد طعاما .

وكما شهدنا فى الحرب العالمية مثلا .. كان نصيب الفرد فى بريطانيا بيضة واحدة فى الأسبوع .

أما فى الأماكن التى دارت فيها الحروب .. فلم يكن الإنسان يستطيع الحصول على بيضة .. أو قطعة من السكر .. أو رغيف من الخبز .. مع أن عندهم الأرض التى تنتج ما يحتاجون ويزيد .

والحرب تقضى على الخير .. وتذيق الناس لباس الجوع .. ثم ينتشر الخوف .. الخوف من الموت .. الخوف من الرصاص الطائش الخوف من العدوان .. فلا أحد يحمى أحدا .. المهم فى ذلك كله .. أننا إذا نظرنا إلى العالم اليوم .. نجد فى أكثر من بقعة منه ناسا تذوق لباس الجوع والخوف .

ونجد معظم الناس حتى فى الدول التى ليس فيها حروب خائفين .. ربما سلط الله عليهم أنفسهم .. فامتلأت الدولة بالعصابات التى تسرق وتقتل ..

وربما سلط الله عليهم غيرهم فغزا أرضهم .. وربما نشأت البغضاء والضغينة بينهم وبين بعض فقامت الحروب .. وكما قلت فإنه يكفى نظرة واحدة إلى أحوال العالم المضطرب الذى نعيش فيه .. من أغنى الدول حتى أفقرها .. لنعرف رضا الله على خلقه .. ولنرى غضب الله على خلقه .

على أن عدل الله .. كما اقتضى ألا يأخذ كافرا أو مذنبا أو عاصيا ويترك كافرا آخر .. كذلك فإن هذا العدل اقتضى ألا يتحمل مؤمن وزر ومعصية كافر .. وأن تكون كل نفس مسئولة عما تفعل .. ولا تحاسب عما يفعله غيرها .. ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى أكثر من مثل لذلك فى القرآن الكريم .. وكانت الأمثال بأقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى .. وهم الأنبياء .. فكان أبو إبراهيم كافرا رفض أن يؤمن .. وكان ابن نوح كافرا رفض أن يؤمن .. ورفض أن يركب مع أبيه السفينة .. قال :

﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النور)

وكانت امرأة لوط وامرأة نوح غير مؤمنتين .. خانتا زوجيهما .. فلم يغنيا عنهما من الله شيئا .. وكانت امرأة فرعون مؤمنة .. فلم يصبها كفر زوجها بأذى .. وبنى الله لها قصرا فى الجنة .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة التحريم :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ
عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ
﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا

﴿ فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ويلاحظ هنا فى القرآن الكريم . . أن الله سبحانه وتعالى لم يقل على لسان امرأة فرعون ونجنى من زوجى . . لأنه فى هذه الحالة مادام كافرا وهى مؤمنة . . فلا زواج بينهما . . بل إن صلة النسب تختفى . . فنوح عندما قال لله بعد أن وعده بأنه سينجيه وأهله من الغرق :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

فهذا يدل على أنه فضلا عن أن أهل أى نبى هم المتبعون لمنهجه . . فإن إنسان لا يحاسب عن وزير يرتكبه إنسان آخر . . وهكذا نجد ان امرأة فرعون . . رغم أن زوجها وكل المحيطين بها كانوا كفارا . . فإنها حينما توجهت بالدعاء إلى الله أن يبنى لها قصرا فى الجنة وينجيها من فرعون وعمله . . لم يتقبله منها فقط . . بل ضرب بها مثلا فى القرآن الكريم حتى لا تأتى امرأة يوم القيامة . . فتقول ان زوجى كان كافرا فاتبعته . . أو يأتى رجل يوم القيامة فيقول أن زوجتى كانت كافرة فأغوتنى . . أو يأتى أى إنسان فيقول إن أباه أو عمه قد أغواه . . نقول لهؤلاء جميعا ان عدل الله سبحانه وتعالى شاء « ألاّ تزر وازرة وزر أخرى » . . ومن هنا فإنك إن ابتعدت عنهم ولم تشترك معهم فى الكفر وآمنت بالله فلن يضرك كفرهم شيئا . . وإذا اتبعتهم على أن يحملوا أوزارك يوم القيامة . . لا يحملون منها شيئا . . وستحمل أنت هذا الوزر .

مَثَلُ الحياة الدنيا

ولا تعتقد أن الذى يحمل منهجا ولا يعمل به هو فى حماية من العذاب .. بل حمل المنهج أساسه العمل به .. تلك هى القاعدة التى يريدها الله سبحانه وتعالى لعباده .. ومن هنا فقد ضرب المثل للذين يحملون منهج الله ولا يعملون به .. فقال فى سورة الجمعة:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

.. أى أنه شبه الذين لا يعملون بالمنهج مع أنهم يعرفونه .. كمثل الحمار الذى يحمل مجموعة من كتب الحكمة والعلم .. هل يستفيد منها شيئا ؟ طبعا لا يستفيد .. مع أن الناس حين يعرفون أن إنسانا يحمل منهجا فهم يتبعونه أو يطيعونه . يقول لهم الله سبحانه وتعالى .. لا تغتروا بمن يحمل المنهج ولا يعمل به .. ولا يغركم أنه يحمله .. ويتساءل الناس كيف ذلك ؟ فيعطيهم الله الصورة التى تقرب مثل هذا الإنسان إلى عقولهم بصورة محسوسة يرونها أمامهم كل يوم .. فيقول لهم ان هذا الشخص مثل الحمار الذى يحمل كتبا فيها قيم وعلم وحكمة .. هل يستفيد منها شيئا ؟ مهما كان يحمل من كنوز .. هؤلاء تماما كهذا الحمار .. قد يحملون علم الدنيا كله .. ولكنهم لا يعرفون شيئا .. ولا يستفيدون شيئا .. وذلك أيضا مثل الذين كفروا بآيات الله .

على أن الله ضرب فى القرآن الكريم أمثالا للعمل الطيب والعمل السيىء .. والكلمة الطيبة والكلمة السيئة .. والحق والباطل .. وضرب مثلا لعيسى عليه السلام فقال:«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. خلقه من تراب ثم قال له كن » .. وهذه الأمثال هى موضوع كتابنا القادم إن شاء الله .. والله ييسر لنا السبيل .. ويهدينا إلى صراط مستقيم .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٧ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0180 – 1

٧

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي

تقـــديم

الأمثال .. في القرآن

لماذا ضرب الله الأمثال ؟

إن الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الايمان وربطها بالهدى والضلال . فكأنما هذه الأمثال أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمنين ليرد بها على قضية مثارة ، أو يلفتهم لفتة إيمانية ، أو يبين لهم مثل الكافرين .

والأمثال كما قلنا لاتشبه شيئا فرديا بشيء فردى ، ولكن المثال يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يستوعبها . ولا يشترط أن يكون المثال من نفس نوع الشيء الذى تتحدث عنه . ولكن يشترط أن يعطينا الفكرة التى نريدها أن تكون واضحة فى أذهان الناس .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى من الأمثال بالقرآن الكريم ، أن يوضح لنا ويقرب إلى أذهاننا معالم هى غيب عنا . ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشرى مهما اجتهد ، لأن هذا العالم محجوب عنا .

ولكن كما اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وتسخيرها للانسان ، اقتضت رحمته أن يضرب فى

تـقـــديـم

منهجه الأمثال ، ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما لا تستطيع أن تصل إليه ، ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها ، وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيبا عنا ، كاختبار وامتحان إيمانى وتثبيت للايمان فإن الله قد قرب إلينا ما هو غيب عنا بأمثال نعرفها ونحسها فى حياتنا .

ولقد تناولنا فى الجزء السادس من الكتاب الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى حول : مواكب الرسل ، ومواكب الايمان ، ومَثَلُ الكافرين ، ومثل التحدى ، ومثل الحياة الدنيا .

وفى هذا الجزء نكمل الأمثال فى القرآن الكريم ، وهى التى تقرب لنا معانى الجنة والنار ، ومعانى الغرور النفسى واتباع الشياطين ، ومثل عيسى وآدم عليهما السلام ، ومثل الرقم ١٩ الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لملائكته الذين يقفون على أبواب النار .

ونرجو من الله أن نكون قد وفقنا فى خواطرنا حول هذه الأمثال .

الفصل الأول

مثل المعصية

منهج الله سبحانه وتعالى هو اختبار لحب الله فى النفس البشرية . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أجناسا كثيرة . . وأراد أن يعطيها الاختيار فى أن تطيع . . أو لا تطيع . . فلم تقبل . . وقالت . . رب إننا نريد أن نكون مقهورين على حبك وعبادتك ، ولسنا مختارين . . ولذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب ٧٢)

ومن هذه الآية يتبين عدل الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه . . ذلك أنه قبل أن يلزمه . . عرض عليه . . فمن لم يقبل منهم بقى مكرها . . ومن قبل مختارا كان عدلا أن يحاسب على اختياره .

إذن منهج الحياة كلها هو إختبار لحب الله فى النفس البشرية . . وإغراء الشيطان كله يتركز حول نقطة واحدة . . هى أن يجعل الانسان يترك حب الله . . ويذهب الى حب من هم دون الله مما لا يضر ولا ينفع . . وبذلك ينقل الانسان من رحمة الله الى خارج موجبات هذه الرحمة . . فيضل الانسان فى الأرض ويشقى لأنه يعمل بالقدرات البشرية . . دون الاستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

تلك هى القضية الأساسية للايمان . . وإذا حللنا أحداث الحياة كلها نجدها إما حب لله وطاعة له . . وإما حب لغير الله ومعصية لله . . فالذى

مثل المعصية .

يأكل المال الحرام إنما ارتفع فى نفسه أو زاد فيها حب المال على حب الله . . فانطلق الانسان وراء المال ونسى طاعة الله . . وأحب المال أكثر من حب الله سبحانه وتعالى . . والذى يفسد فى الأرض ارتفع عنده حب شهوات النفس الى أكبر من حب الله . . فاطلق لشهواته العنان ونسى الله . . وفى كل حدث من أحداث الدنيا يمر عليك فيه إختبار لحب الله فى النفس . . فأنت إذا تركت نفعا عاجلا كمال أو شهوة حرام فى سبيل الله . . فإن حبك لله سبحانه وتعالى يكون أكبر من حبك لما هو دونه . . وأنت إذا قضيت بالعدل . . وأنصفت مظلوما ووقفت مع الضعيف . . أوراعيت الله فى مالك وبيتك . . فذلك هو حب الله فى نفسك دفعك ربما أن تعرض نفسك للأذى فى سبيل حب الله سبحانه وتعالى .

وإذا رجعنا الى قصة ابراهيم أبي الأنبياء خليل الله وإسماعيل . . ماذا نرى ؟ . . نرى أن ابراهيم عليه السلام قد رأى رؤيا فى المنام أن الله سبحانه وتعالى يأمره بذبح ولده إسماعيل . . فقال الله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام فى (سورة الصافات الآيات ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

مثل المعصية

وهنا نقف وقفة . . نحن نعرف أن إبراهيم عليه السلام لم يرزق بإسماعيل إلا بعد فترة طويلة مرت عليه عدة سنوات ، وهو لم ينجب من زوجته سارة ثم تزوج بهاجر وهى مصرية ، وأنجب منها إسماعيل . . إذن هذا الطفل الذى جاء بعد سنوات عديدة يكون غاليا جدا على الأب . . وإذا أضفنا الى ذلك أنه بلغ معه السعى ، أى أنه كبر واقترب من مرحلة الشباب يكون تعلق أبيه به أكبر . . باعتبار أنه معين له فى شيخوخته . حينئذ يأتى أمر الله فى المنام ليأمر إبراهيم أن يذبح ابنه . . ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة . . أب قد بلغ مرحلة الشيخوخة وابنه الوحيد . . وفى السن التى يعتمد فيها الأب على الابن . . ثم يأمره الله أن يذبحه . . أهناك اختبار لحب الله فى القلب أكبر من هذا الاختبار .

ولا يأمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح بعيدا عنه . . حينئذ تكون المصيبة أهون . . بأن يتركه هو ويرحل ولا يرى شيئا . . ويأتى غيره لذبحه . . ولكن الله يأمر أن يقوم إبراهيم نفسه بذبح الابن . . ويمسك السكين بيده . . ويضعها على عنق ابنه ليذبحه .

اختبار كبير

أرأيت اختبارا أكبر من هذا لحب الله سبحانه وتعالى ؟ وهل من يمتثل لهذا الأمر . . يكون هناك شىء فى قلبه أقوى من حب الله . . ومن منا إذا قيل له إن الله يأمرك أن تذبح ابنك الوحيد . . وأنت شيخ لا يرجى لك بأسباب الدنيا أن ترزق بغيره . . من منا يمتثل لذلك . . إلا أن يكون

مثل المعصية .

حب الله فى قلبه أكبر من الدنيا بما فيها . . لأن الانسان قد يضحى بماله . . وقد يضحى بزوجته . . ولكن عندما تأتى مسألة الابن تكون عملية قاسية على النفس .

ومع ذلك أخذ إبراهيم ابنه . . وأخذ السكين . . وانطلق به الى حيث تتم عملية الذبح . . وهنا جاء الشيطان محاولا أن يغرى إبراهيم بالمعصية ، أو أن يثير إسماعيل على أبيه . . فكان رد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هو رميه بالجمار ليبتعد عن طريقهما . . ولم يستطع الشيطان أن يجد منفذا الى قلبيهما .

وانطلق إبراهيم عليه السلام الى المكان المحدد . . وأمسك بالسكين ليذبح إبنه طاعة لله سبحانه وتعالى . . ولينجح فى اختبار حب الله فى النفس . . ذلك الحب الذى يعلو كل شيء . . حتى على حب الأب الشيخ لابنه الوحيد .

حينئذ ينزل الملك بالكبش ليفدى إسماعيل عليه السلام . . ويعرف إبراهيم أن المسألة كانت اختبارا لحب الله فى نفس إبراهيم . . وأن إبراهيم عليه السلام نجح فى الاختبار .

ولم يكن هذا مثلا غير متكرر . . وإن اختلفت الظروف . . ولكنه مثل يتكرر فى الدنيا كل يوم . . ففى أول الاسلام . . وعند الهجرة . . ماذا حدث ؟ . . ترك المسلمون أموالهم وأولادهم وأسرهم وزوجاتهم ، وكل

ما يملكون فى مكة ، وانطلقوا الى المدينة مهاجرين الى الله . . تركوا كل متاع الدنيا من أجل الله ورسوله . . وكان هذا اختبارا لحب الله فى نفوسهم . . ولو أن أحدا قال الآن : هيا نترك أموالنا وأولادنا وزوجاتنا وننطلق مجاهدين فى سبيل الله . . لرأيت كل إنسان يتعلل لك بعذر . . فواحد يقول : إن أولاده صغار . . وآخر يقول يجب أن يبقى من أجل كذا وكذا . . فالجهاد والعبادة هما اختبار لحب الله سبحانه وتعالى فى النفس البشرية . . وإذا وصلت النفس البشرية الى أن حب الله ورسوله فوق حبهما للدنيا وما فيها من زوجة وولد ومتاع . . وصل الى أعلى درجات الايمان . . مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)

ليكون الحساب عدلا

والله سبحانه وتعالى قد خلق الناس مختارين ليكون الحساب عدلا . . ذلك فإنه رغم أنه رب العالمين . . إلا أنه لا يلزم بالتكاليف الايمانية إلا من آمن به . . ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو العبادات . . فإنه لا يقول يا أيها الناس . . ولكنه يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . أى يا من آمنتم بى إلها واحدا أحدا . . هذا هو الطريق الى عبادتى ومرضاتى . . أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحكموا بالعدل بين الناس . . الى آخر التكاليف التى يضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لمن دخل فى عقد إيمانى مع الله . . أما من لم يدخل . . ولم يؤمن . . فإن الله لا يكلفه بشىء . . لأنه ليس بعد الكفر ذنب .

مثل المعصية .

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى . . رحمة منه بعقولنا أن يضرب لنا أمثلة فى القرآن الكريم عن الانسان الذى يرى دين الحق وآيات الله فى الأرض . . ثم بعد ذلك يبتعد عنها . . ويتخذ من المعصية سبيلا . . فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ ﴾

(سورة الحج آية ٧٢)

الله سبحانه وتعالى يبدأ المثل بقوله تعالى :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ

(الأعراف ١٧٥)

مثل المعصية .

وهذا المثل لن نتحدث عنه فى خصوصية من الخصوصيات . . بل سنتحدث فى عموميته . . ذلك أن الأمثال فى القرآن الكريم إنما ضربت للناس جميعا . . وهى تتكرر وتقع فى كل زمان ومكان . . أبطالها بين الناس جميعا . . فإذا نظرت فى أى عصر فإنك ستجد فرعون موسى فى الحاكم الذى يريد أن يعبد فى الأرض من دون الله . . وستجد قوم نوح وقوم هود وقوم صالح . . وكل من استكبروا وعاثوا فى الأرض مفسدين . . وأكلوا الكيل والميزان . . والميزان هنا فى كل أمور الدنيا . . وكل حقوق البشرية . . والذين استكبروا وقالوا من أشد منا قوة . . الى آخر الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . ستجدهم جميعا ممثلين فى أمم موجودة فى الأرض . . حتى الذين يعبدون الأصنام والأوثان . .

والذين يعبدون البشر . . والذين يعبدون المال أمثال قارون وغيرهم . . كل هؤلاء أمثلة متكررة أمامنا فى الحياة . . حتى نرى ونعى ونعرف . . فلا نقع فى الضلالة . . ولا نبتعد عن طريق الله . . ولا تخدعنا كل المغريات التى يحاول الناس أن يقدموها لنا . . وهى حق يراد به باطل .

ايات الكون

آيات الله فى الكون ظاهرة ومعروفة . . والعقل يهتدى اليها والفطرة تهتدى اليها . . وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون آياته فى كونه منذ

بدء الخليقة حتى قيام الساعة ظاهرة للناس أجمعين . . فهذا الكون بكل ما فيه من معجزات ومن شموس وأقمار وسماء وأرض وجبال وبحار ونبات وحيوان وإنسان هو من آيات الله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع أحد أن يدعى مهما تكبر فى الأرض وعلا أنه هو الذى خلق الشمس ، أوخلق الأرض ، أوخلق النجوم ، أوخلق نفسه . . فتلك قضية تغلب كل كافر . . ولقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة . . وبين أنه لا أحد يستطيع أن يدعى الخلق . . أوحتى وضع نظام الكون . . عندما كان الذى آتاه الله الملك يقارع الحجة بالحجة مع إبراهيم عليه السلام . .

فقال إبراهيم : ﴿ **ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ **فقال الملك المتكبر** ﴿ **أنا أحيى وأميت** ﴾ (سورة البقرة ٢٥٨) مشيرا الى أنه قد يحكم على إنسان بالموت فكأنه يميته ثم بعد ذلك يعفو عنه فكأنه يحييه . . ولوأن هذه القضية تحتاج الى مناقشة لأن القتل هو نقض للبنية يجعل الروح تخرج من الجسد . . أما الموت فهو انتهاء الأجل فى الحياة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **أفإن مات أو قتل** ﴾ (آل عمران ١٤٤) أى أن الله فرق هنا بين الموت والقتل .

ماذا حدث بالنسبة لابراهيم عليه السلام ؟ قال : ﴿ **فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر** ﴾ (سورة البقرة ٢٥٨)

أى أنه عندما أشار إبراهيم عليه السلام الى نظام الكون فقط . . بل الى جزء يسير جدا من نظام الكون وهو شروق الشمس وغروبها . . فبهت الذى كفر . . وسقطت حجته ولم يستطع الاجابة .

إذن آيات الله فى الكون التى تدل على أنه الخالق موجودة وظاهرة أمامنا جميعا . . والايمان فينا بالفطرة . . وللعقل أن يناقش كيف يشاء . . وغاية ما يستطيع العقل أن يصل اليه . . أن هناك خالقا لهذا الكون وضع هذا النظام البديع . . وأن هذا الخالق سبحانه وتعالى قد سخر للانسان كل القوى الموجودة فى هذا الكون لخدمته . . وهذه القوى هى أقوى من الانسان ملايين المرات . . أى أن الانسان لا يستطيع أن يسخرها بقدراته هو . فلا يستطيع أحد أن يسيطر بقدراته على الشمس أو البحار أو الأمطار أو الجبال وغيرها . . ومع ذلك فكل هذه الأشياء تخدم الانسان وتعينه فى حياته فإنما هى مسخرة لخدمته من قوة أعلى هى التى خلقتها وهى التى سخرتها . . وحينئذ يهتدى العقل الى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .

ولكى يعرف الناس ماذا يريد الله سبحانه وتعالى منهم مقابل ما سخر لهم من النعم . . كان لابد أن يرسل الله رسولا يبين منهجه فى الكون . . وأن يكون هذا الرسول مؤيدا بمعجزة تخرق قوانين الأسباب حتى يصدق الناس ويطمئنوا أنه مبلغ عن الله سبحانه وتعالى .

مثل المعصية

إذن آيات الله فى الكون هى معروفة ومحسة لنا جميعا . . ولكن الانسان يرى هذه الآيات وينسلخ عنها . . أى أنه يتركها واحدة بعد الأخرى . . يبدأ بالتخلى عن واحدة وينكر الثانية . . وينسى الثالثة ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا . فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا . فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض . والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا »

عداوة الشيطان

يترك الانسان نعم الله واحدة بعد الأخرى . . ومعنى يتركها أى ينكرها . . فإذا كانت عنده نعمة الصحة ادعى أن ذلك من قدراته الذاتية ، لأنه يفعل كذا ويمشى على نظام كذا . . وإذا ذكر بالكون أخذ ينكر أن الكون مسخر له من الله . . وادعى أن ذلك إنما هو الطبيعة . . ثم بعد ذلك ادعى لنفسه أنه صانع الحضارة . . وصانع العلم ، وصانع التقدم ، الى آخر ما نسمعه .

حينئذ ماذا يحدث ؟ . . الذى يحدث أن الله سبحانه وتعالى يتخلى عنه . . ويتركه لقدراته التى عبدها . . أو للآلهة من البشر الذين عبدهم . . ماذا يحدث فى هذه اللحظة ؟ . . يكون الشيطان متربصا له . . لماذا ؟

مثل المعصية .

لأن الشيطان للبشر . . عداوته دفينة وعميقة منذ بداية عهد البشرية . . فهو يحقد على آدم . لأن الله كرمه عليه . . وأمره بالسجود له . . ويزداد حقدا لأنه هو السبب أو الوسيلة التى أغوى بها وقادته الى معصية الله والى الطرد من الجنة . . والى العذاب فى الآخرة .

والانسان مع الله فى حماية من الشيطان . . لماذا ؟ . . لأن الله يدافع عن الذين آمنوا . . ولأن الله يثبت الذين آمنوا . . ومن هنا فإن الشيطان لا يجرؤ على أن يقترب من عباد الله المخلصين . . لأن الله سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾

(سورة الصافات ٤٠)

ولنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . إذا كان أمامى حمل ثقيل لا أستطيع أن أحمله . فماذا أستطيع أن أفعل لأقوم بهذا العمل . . بلا شك إننى سأحاول أن أستعين بمن هو أقوى منى ليعيننى عليه . . حينئذ لو جاء الرجل القوى وحملنا ذلك الحمل الثقيل معا فإننا نستطيع أن نرفعه . . فإذا كانت قوة الانسان الأقوى تعين . . فما بالك بقوة الله سبحانه وتعالى حين تكون معك . . حينئذ يصبح هذا الحمل لاشىء . . ولكنك إذا كفرت بالله ـ والعياذ بالله ـ واعتمدت على نفسك فماذا يحدث . . ستسقط أنت وما تحمل على الأرض . . وما تقوى عليه أبدا . .

كذلك غواية الشيطان . . ما دام معك الله . . فلن يستطيع أن يسقطك أبدا على الأرض حتى لو كنت تحمل أثقال الدنيا كلها . . فأنت

مثل المعصية .

تدخل على الحياة بكل أثقالها وفى قلبك الايمان الذى يجعل الصعب سهلا والمستحيل ممكنا . . يهون الله أمامك كل صعب . . ويفتح لك من أبواب رحمته ما يجعلك تحمل على كتفيك ثقلا واحدا من أثقال الحياة . . حينئذ لا يجد الشيطان الى نفسك مدخلا .

جـــزاء الاحســان

ولكن ماذا يحدث إذا تركت الاستعانة بالله ، واستعنت بمن هم دون الله . . أولا يسلط الله عليك خلقه . . فذلك الذى تعتقد أنك قد أرضيته نفاقا ورياء وباطلا . . وارتكبت فى سبيله السيئات والمعاصى . . وظلمت الناس لترضيه تجده أول من ينقلب عليك ، ويقابل الاحسان بالاساءة . . ولأنه إحسان لم تقصد به وجه الله فإنه لا يعود عليك إلا بالسوء . . والأمثلة أمامنا كثيرة كل يوم من أناس يشكون الجحود ومقابلة الاحسان بالاساءة . . أقول لهؤلاء جميعا إنكم لم تقصدوا بإحسانكم وجه الله . لأن الله يقول :

﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ (سورة الرحمن ٦٠)

ولكن قصدتم إرضاء بشر فجاءكم الجزاء بمقاييس البشر .

ثم يسلط الله عليك هم الدنيا . . فتبدأ تحمل هم ما هو قادم أو ما هو غيب عنك . . وتحس بعجزك أمام الأثقال التى تتوقعها . . وبما أنك تعبد عقلك . . والعقل لا يجد لك الحل . . فإنك أحيانا تلجأ الى الانتحار . . وأحيانا أخرى تنغمس فيما يغيب العقل .

والمهم فى هذا كله أن الدنيا كلها تنقلب الى شقاء داخل النفس . . يؤرقها ويعذبها .

وحينئذ يأتى دور الشيطان الذى اتبعك . . ويبدأ الشيطان غوايته بأن يخوفك من الدنيا . . يخوفك من رئيس أو حاكم ظالم فتعينه على ظلمه . . ويخوفك من رزق قادم فتمد يدك الى المال الحرام ، مدعيا أنك بذلك تؤمن مستقبلك ومستقبل أولادك . . ويخوفك من وظيفة أو منصب يزول عنك . . فتحاول أن ترضى رؤساءك بدلا من أن ترضى الله . . وتجد نفسك فى دوامة من الخوف مصداقا لقول الله :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾

(آل عمران ١٧٥)

وتظل تدور فى دائرة الخوف حتى تفقد الحياة كل معنى لها . . وتجد نفسك غير آمن على حياتك وأولادك . . تحس دائما بالقلق يقتلك . . وترى فى الغد صورة مفزعة للحياة والمستقبل .

تلك هى عداوة الشيطان للانسان . . وعندما يأتى يوم القيامة يتبرأ الشيطان من كل هذا . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :
﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ (سورة الأعراف ١٧٥) أى أن الشيطان زين له الباطل وجعله يغويه . . بأن أظهره له فى غير حقيقته . . فى صورة مزيفة ولكنها وردية . . متاع الغرور فى الدنيا . . كأن تملك

وتملك وتملك . . سيارة وعمارة وأرضا . . وكل هذا هو من أساليب الغواية . . لأنه لا أحد يملك شيئا إلا الله سبحانه وتعالى . . فنحن كما دخلنا الدنيا نخرج منها . . لا نحمل إلا حسناتنا أو سيئاتنا .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦).

يقول الله سبحانه وتعالى إن هذا لا يحدث رغما عن مشيئة الله جل جلاله وتعالى وعلا . . ذلك أن الله شاء أن يعطى للانسان حرية الاختيار بين الحق والباطل . . وبين الطاعة والمعصية . . فبادىء بدء . . كون أن الانسان يملك القدرة على الاختيار وليس مقهورا كالشمس والجبال والأرض والحيوان . . كون هذا حدث فهذه مشيئة الله . . فى أن يعطيه حق الاختيار . . ذلك أنه لا شىء يحدث فى الكون ضد مشيئة الله سبحانه وتعالى . . بل كل ما يحدث فى الكون هو بمشيئة الله .

معنى المشيئة

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا هنا الى حقيقة مهمة أنه سبحانه وتعالى ليس عاجزا عن مواجهة الكافرين . . ولا هو غير قادر على أن يهلكهم . . وأن كل ما يحدث فى الكون بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذى شاء أن يخلق الانسان مختارا ليكون الحساب عدلا . . وتكون الجنة حقا والنار حقا . . فكل إنسان صالح لأن يفسد أو يصلح . . وفى هذا شاءت إرادة الله

مثل المعصية .

سبحانه وتعالى بعد أن بين له طريق الحق وطريق الضلال . . شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يتركه مختارا ليلقى جزاءه . . فإذا أتى الله أتاه مختارا دون جبر من الله سبحانه وتعالى . . وإذا اتخذ سبيل المعاصى تركه الله يمضى فيه ، لأن الله تعالى لا يهدى القوم الضالين والقوم الفاسقين .

إذن لا يعتقد أحد أن إنسانا يعصى الله تحديا أو عدم قدرة . . ولكنه يعصى الله سبحانه وتعالى لأن إرادة الله سبحانه وتعالى شاءت له أن يقدر على المعصية . . كما يقدر على الفلاح والايمان .

إذن لو شاء الله سبحانه وتعالى لرفعه بهذه الآيات . . ولفتح له طريق الايمان . . ولكن إرادة الله التى شاءت أن يخلق الانسان مختارا . . هى التى جعلت الانسان صالحا للمعصية وصالحا للتقوى .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦)

وهنا يبين لنا الله لماذا تخلى عن هذا الانسان العاصى أو الكافر . . ذلك أنه أخلد الى الأرض فاعتقد أن الخلود والبقاء فى الأرض وحدها . . إما لأنه أنكر البعث والآخرة واعتقد أن الخلود والبقاء فى الفترة الزمنية التى يعيشها فى الأرض فعمل لها وحدها . . وهنا فهو لم ينظر إلا الى النفع المادى الذى يعطيه الحياة الأرضية دون ما نظر الى القيم فى الحياة . . أى أنه عمل من أجل الحياة فى الأرض وحدها . . وزاد على ذلك أنه فى هذا العمل لم يتبع الحق . . بل اتبع هواه . .

مثل المعصية .

وهنا لنا وقفة . . لماذا يذكرنا الله كثيرا بعملية إتباع الهوى . . أو هوى النفس . . ذلك لعدة أسباب . . منها أن الله سبحانه وتعالى قد جعل منهجه قائما على الحق . . والحق غالبا ما يكون ضد ما تهوى النفس . . فالنفس تهوى أن تأخذ ما لا حق لها فيه . . فالنفس تهوى مثلا أن تأخذ شقة جارك وماله وأثاثه وكل ما يمتلك . . وتضمه الى ما تملك . . والنفس تهوى الفائدة العاجلة . . وهى فى سبيل ذلك تكذب وتزور وتنافق . . دون أن ترى أثر ذلك كله على المجتمع وكيف أنها تفسده . . والنفس تهوى أن يكون لها الكبرياء فى الأرض ، وأن تحصل على كل ما تريد دون ما عناء أو مشقة .

هــوى النفــس

ولكن هل يستقيم المجتمع الانسانى بهوى النفس . . ماذا يمكن أن يحدث لو أطلقنا العنان ، وأبحنا لكل إنسان أن يسرق من المال ما يريد . . وأن يأخذ من حقوق غيره ما يشاء . . وأن يستعبد البشر ويسخرهم لخدمته . . ما الذى يمكن أن يحدث فى الكون . . إلا أن يتحول الكون كله الى مجموعة من العصابات والقتلة . . ويصبح كل إنسان غير آمن على حياته ولا بيته . . فبدلا من أن يسخر طاقاته لعمارة الأرض يسخرها لحماية نفسه . . وتصبح الدنيا كلها مجموعة من الفوضى بلا نظام وبلا أمن وبلا معنى . . لذلك وحتى فى الدول التى لا تتخذ من قيم الدين منهجا للحياة . . فإنها تضطر إضطرارا لكى تضع قوانين تعطى الحماية لكل فرد لتستقيم الحياة .

إذن فالمسألة هنا ضرورة . . يلجأ الناس اليها ليقوم المجتمع . . وعندما يبتعد الناس عنها يفسد المجتمع . . ويتحكم فيه هوى النفس فيكثر فيه الظلم والرشوة والاختلاس والفساد والفاحشة . . والذى يتخذ هوى النفس وسيلة ينسى أن الله سبحانه وتعالى قد نظم الحياة ليحمى حق كل فرد فينا . . ذلك أنه حرم على مال غيرى ، ولكنه حرم مالى على المجتمع كله . . فالمستفيد من قوانين الله هو كل فرد فى المجتمع .

والله سبحانه وتعالى يعاملنا بحق الربوبية . . ولذلك فهو يرعى حقوقنا جميعا . . ولا يبيح لمسلم أن يسرق كافرا . . ولا لمؤمن أن يعتدى على عرض غير المؤمن . . فكل منا . . كل من خلق الله . . له حقوقه التى يجب أن يحترمها الجميع بصرف النظر عن درجة إيمانه . . ولذلك عندما سرق مسلم من يهودى وأراد الصحابة أن يمالئوا المسلم ويتهموا اليهودى بالسرقة نزل قول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء (الآيات من ١٠٥ ـ ١٠٩) :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا
تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا
تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا

يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

وكان هذا القول فيه حسم لئلا يحاول الناس ممالأة إنسان لأنه مسلم على حساب الحق . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى وهو الحق لا يرضى فى منهجه بظلم مهما كانت أسبابه . . بل أن من قوة منهج الله أنه يحفظ حقوق الناس جميعا . . حتى إذا جاء من لا يؤمن بهذا الدين ويقع فى خصومة مع من يؤمن به . . ووجد أن القضاء هنا لصالحه . . ووجد أن الدين لم يسلبه حقه ولم يبح ظلمه لأنه لا يؤمن به . . أحس بعظمة دين الله وبأنه دين الحق . . وربما دخل فيه واعتنقه . . فإذا لم يعتنقه كان هناك دوى فى المجتمع كله عن هذا الدين الذى هو مع الحق وحده ، دون النظر لأى اعتبار آخر . . وفى هذا يحس الجميع بأن هذا الدين هو دين الحق . . لم يضعه بشر . . ولم ينبع عن هوى حتى ولو كان ذلك لا يخدم أولئك الذين اتبعوه . . بل نبع عن الحق المطلق الذى لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى .

إذن فأعدى أعداء منهج الله . . هو هوى النفس . . الذى يريد أن يقلب الباطل حقا . . وأن يعطى لكل إنسان ما لا يستحقه ظلما . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن ذلك الذى أخلد الى الأرض . .

واعتبرها هى دار الخلود ويعمل من أجلها فقط ، فلا يفعل شيئا إلا للمادة . . وزاد على ذلك بأنه اتبع هوى النفس الذى يهدم كل عدل فى المجتمع ويشيع الظلم والفساد . . حينما يفعل أى إنسان ذلك . . يكون قد ابتعد عن مشيئة الهداية لله سبحانه وتعالى فيتلقفه الشيطان ويراه يتخبط بين مادية الأرض وهوى النفس فيأخذ به الى الفساد . . ويتخذه أداة لظلم الناس والاعتداء عليهم وسرقة حقوقهم .

إنــه يلهــث

حين يصل الانسان الى هذه الدرجة يشبهه الله سبحانه وتعالى الى أنه أصبح مثله . .

﴿ فمثله كمثل الكلب . إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦)

نلاحظ أن الكلب هو الحيوان الوحيد الذى يلهث دائما . . أما باقى الحيوانات فإنها تلهث حين تكون عطشى فقط . . أى أننا إذا استعرضنا حيوانات الأرض نلاحظ أنها لا تلهث وتخرج ألسنتها إلا إذا كانت عطشى . . أما الكلب فانه يلهث فى جميع الأحوال ، سواء كان عطشان أو يملأ بطنه الماء . . جوعان أو شبعان . . فذلك الانسان الكافر شبه بالكلب الذى يضع فمه فى كل شىء قذر نجس . . وفى كل شىء له رائحة

نتنة . . تماما كذلك الكافر الذى يضع اللقمة فى فمه فلا يهمه من أين تأتى . . ويضع أنفه فى أشياء ويشترك فيها ولا يهمه إن كانت قذرة أو نظيفة . . تؤدى الى إيذاء الناس أو إفساد المجتمع . . فهو يقدم كل ما هو دنىء ورخيص ويقبله من أجل المال .

هذا هو الوجه الأول للتشبيه . . فالكافر يقوم بأعمال كثيرة لا يقترب منها مؤمن . . ويقوم بأعمال لا تتسم بالخلق . . ولا ترتبط بأى قيم . . ويتهم الناس بالباطل ويدعى عليهم كذبا . . ولا يبالى إذا كانت أعماله هذه ستؤدى الى خراب البيوت . . وتشريد أطفال صغار والقضاء على أناس شرفاء . . ونشر الشقاء والذل .

ولا يحسب المؤمن أنه لو ترك الكافر وحاله سيسكت . . ذلك أن المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ﴾

(سورة الأعراف ١٧٦) .

ذلك أنك لو حملت عليه وهاجمته فإنه يحاول أن يرد هذا الهجوم مستخدما أقذر الوسائل اللاأخلاقية . . يضع أنفه وفمه فى النجاسة ولا يبالى . . وإذا تركته هاجمك هو . . فالكافر لا يطيق المؤمن . . لأنه فى داخل نفسه هناك شىء يؤرقه . . هناك شىء يحس أنه يغلى فى داخله إنه يرى فى هذا المؤمن الخير الذى لم يستطع أن يحمل نفسه عليه . . لذلك فإن الكافر

لا يمكن أن يترك المؤمن دون أن يحاول أن يهاجمه أو يشوهه . . ويكفى لكى تعرف ذلك أن تأتى لبعض الناس الذين يفعلون المعاصى وضع بينهم إنسانا لا يفعلها . . إذا كان بعض الناس يشربون الخمر وجلس بينهم واحد لا يشربها . . انقلبوا جميعا عليه يحاولون أن يلحقوا به أذى بالكلام ، وأحيانا بالفعل لأنهم لا يطيقون وجوده . . كذلك إذا وجد الشريف وسط اللصوص ، وجلس بينهم فى عمل واحد فإنهم يحملون عليه جميعا حتى ولو لم يهاجمهم هو . . ولعل الايمان الذى خلق فينا بالفطرة يكمن داخل نفوسنا . . وهذا الايمان من النفس التى رأت الله فى عالم الذر حينما أشهد الناس على أنفسهم وقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢)

هذه النفس وصاحبها يرتكب المعصية تحس بهول ما ستلقاه . . فتوجد فى داخله صراعا يجعله يريد أن يفتك بكل مؤمن . . ويصور الله سبحانه وتعالى هذه الصورة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(سورة الحج ٧٢)

مثل المعصية

إذن فالكافر لا يترك المؤمن . . بل هو يحاول بقدر الامكان . . إما أن يجعله يتبع طريقه . . أى طريق الكفر . . أو يهاجمه بشتى الوسائل . . لأنه يحس إحساسا داخليا بأن المؤمن أفضل منه . . ويحس إحساسا نفسيا بالذنب وهو يرى المؤمن المطمئن الثابت الذى لا تهزه أحداث الدنيا .

لعلهم يتفكرون

وفى أى مجتمع تجد دائما الكفار أو غير المؤمنين يحاولون أن يبحثوا عن عورات المؤمنين ليشوهوا صورتهم أمام الناس . . بينما لو كان هناك إنسان كافر أو ملحد . . فإنه لا أحد يتتبعه . . بل إن المجتمع يحاول أن يبرر له معاصيه وجرائمه . . وينسبها تارة الى حالة نفسية . . وتارة الى ظروف قاسية . . محاولا بذلك أن يجد له المبرر للمعصية .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى : **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** » . .

وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يختم المثل الذى ضربه لنا عن المعصية والكفر . . وعن العاصين والكافرين . . فيقول مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقصص عليهم هذه القصة التى تشرح لنا كيف تتم الغواية وكيف يضل الانسان ويخرج من الايمان الى الكفر . . لعلهم يتفكرون فيها ويعرفون أسبابها . . فإذا أحس أحدهم أنه بدأ ينصرف عن آيات الله ويبتعد عنها . . يعرف أن هذا هو الطريق . . أو أولى خطوات الطريق ليفتنه الشيطان فى الدنيا ما دام قد دخل اليها غير متسلح بالايمان . . ولا مستعين بقدرة الله سبحانه وتعالى .

مثل المعصية

حينئذ نكون قد وصلنا الى الهدف أو الغاية من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنا . . ذلك المثل الذى يرينا أننا لابد أن نتمسك بمنهج الله فى الكون ونلتفت الى آياته وتعاليمه . . وننظر الى ما يحدث أمامنا بفكر إيمانى . . فإذا أتى الناس هذا ثم انسلخوا عنه وتركوه . . فإننا لابد أن نعرف أن الشيطان سيتبعهم . . وأن مشيئة الهدى والعون من الله سبحانه وتعالى ستتركهم لأنفسهم . . وحينئذ يحسون أن الأرض . . أو هذه الحياة القصيرة هى الخلود . . ويفقدون إيمانهم بالآخرة . . وما داموا قد فقدوا الايمان بالآخرة فإنهم سيصبحون فى هذه الحالة لا قيم عندهم . . يتبعون هوى النفس دون أى شىء آخر . . ويصبح مثلهم كمثل الكلب الذى يلهث إذا هاجمته . . ويلهث إذا تركته . . يستخدمون كل وسيلة مهما تكن غير شريفة وغير نظيفة . . ويصبح فى داخلهم غل لموكب الايمان . . فإذا هوجموا استخدموا جميع الوسائل فى الرد دونما رادع من خلق أو قيم أو دين . . وإذا تركوا وشأنهم هاجموا مواكب الايمان وتعرضوا لها بالزور والبهتان . . ذلك مثل المكذبين بآيات الله .

ولعل هذه الصورة تكتمل بقصة الخير والشر على الأرض . . تلك القصة التى ضربها الله سبحانه وتعالى لابنى آدم أول ذرية من البشر والتى ارتكبت فيها أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية . . وعن هذا المثل يحدثنا الله . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

مثل بني آدم

مثل الخير والشر فى هذه الدنيا لا يجب أن يؤخذ بمقاييسنا نحن . . بل لابد أن يؤخذ على اطلاقه . . لأن كل انسان منا خلق صالحا لفعل الخير . . ولارتكاب الشر . . أما ما يقع من الله سبحانه وتعالى فهو خير . . لكن بعض الناس يأخذ الشر بمقاييسه هو . . فمثلا اذا لم يذاكر ورسب فى الامتحان . . اعتبر هذا شرا . . بينما هو خير عميم . . لماذا ؟ . . لأنه هب ان كل انسان لم يذاكر ونجح فى الامتحان . . ماذا سيحدث ؟ . . سيترك الجميع المذاكرة ولا يتم تحصيل للعلم ولا تقدم فى الحياة الدنيا . . ولذلك فان من جمال الأسباب فى الحياة . . أن يرسب من لا يذاكر . . ومن جمال الأسباب فى الحياة الا يجد قوت يومه من لا يعمل . .

ومن جمال الاسباب فى الحياة أن تتخلف الأمم التى ينتشر فيها الفساد والسرقات . . ومن جمال الأسباب فى الحياة ان تنتج الأرض وتعطى أحسن محصولاتها لمن يعتنى بها فى البذرة وفى الرى وفى كل مستلزمات الزراعة . . وذلك هو جمال أسباب الحياة الذى يضمن استمرار التقدم للبشر . . واستمرار الحياة فى الكون . . وان يعمل الناس فى عمارة الأرض كما يريد الله سبحانه وتعالى . . وليس هذا شرا . . بل هو خير لأنه اذا تساوى من يعمل ويأخذ بالأسباب ومن لا يعمل . . ضاعت الحكمة من الكون وضاع من البشرية التقدم . . لذلك فان من يهمل أرضه مثلا . . من الخير ألا تعطيه محصولا . . ومن يهمل عمله من الخير الا يعطيه دخلا . . وهناك فى الكون من الأسباب ما ينفعل لك . . وما ينفعل بك . . فما

ينفعل لك يتم دون أى جهد شخصى . . ودون أى تفرقة بعدل الله . . فالشمس تشرق وتعطى أشعتها للجميع : المؤمن والكافر . . دونما جهد من أى منهما . . والهواء يتنفسه العاصى والمطيع . . دون أن يحبس عن احدهما ويعطى للاخر .

اما الأسباب التى تنفعل بك . . فهذه بقدر ما تعطيها . . بقدر ما تعطيك . . بلا ظلم . . فاذا اعتنيت بالأرض أعطتك المحصول الجيد . . واذا اعتنيت بالصناعة لاقت رواجا . . واذا اعتنيت بالتجارة كان ربحك أكبر . . بقدر ما تعطى بقدر ما تأخذ والله يزيد على هذا . . ويبارك لمن يشاء . . ذلك لأن الاسباب فى الكون لا تعمل بعيدا عن مشيئة الله . . بل هى خاضعة لهذه المشيئة التى لا قيود عليها . . فلا قيود على طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى .

إلا أن قصة ابنى آدم والقربان الذى قرباه إلى الله سبحانه وتعالى . . والنهاية التى انتهت بها القصة بأن قتل الأخ أخاه . . فيهما مثل ايمانى على الخير والشر . . كجانبين من جوانب الحياة . . يستطيع الانسان أن يستخدم أيا منهما .

قال الله تعالى :

﴿ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ

إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(سورة المائدة ٢٧ - ٣٠)

هذه الآيات الكريمة تضرب لنا مثل ابنى آدم . . أو تحكى لنا قصتهما . . ماذا حدث ؟ عندما بدأت البشرية فى مزاولة مهامها على الأرض ، ونزل آدم وزوجه من الجنة وسكنا هذه الأرض . . كان الله سبحانه وتعالى يرزقهما بذكر وأنثى فى كل حمل حتى تبدأ عمارة الأرض . . وكان الذكر والأنثى اللذان جاءا فى حمل واحد لا يتزاوجان . . وانما تتزوج الأنثى من الحمل الأول بالذكر من الحمل الثانى . . والذكر من الحمل الثانى بالأنثى من الحمل الأول . . هكذا علم الله آدم . . والحكمة فى هذا لم تكتشف الا فى الفترة الأخيرة . . كل شىء فى الدنيا تأتى بشبيه له قريب منه ينشأ الناتج ضعيفا . . وكلما بعدت كان الناتج قويا . . هذه حكمة الله التى أودعها فى خلقه . . ولذلك فان زواج الأقارب اذا توالى ينتج سلالة ضعيفة . . وذلك ينطبق على الحيوان وعلى النبات . . وهذا ما نعرفه الآن باسم عملية التهجين . .

على اننا نأتى بالبقرة من أمريكا مثلا ونقوم بعملية تهجين من البقر المصرى تنتج سلالة قوية . . فاذا طمعنا بعد ذلك ولم نعد التجربة . . باعتبار ان البقر الذى لدينا قوى . . فانه فى هذه الحالة تنشأ سلالة

ضعيفة . . تتوالى فى النزول . . فاذا أتينا مثلا ببذرة البطيخ الشيليان من أمريكا . . وزرعناها فى تربة مصر فإننا نجد المحصول جيدا وعظيما . . فإذا اخذنا من ناتج المحصول وزرعنا دون ان تتم عملية التهجين هذه . . يبدأ المحصول يضعف بالتدريج .

الله سبحانه وتعالى أراد ان يلفتنا إلى هذه الحقيقة فى قصة ابنى آدم . . بانه حتى فى أول الخلق تمت المباعدة بقدر الاستطاعة بين من هم من حمل واحد . . فكان الابن لا يتزوج أخته التى هى معه فى الحمل نفسه . . حتى ينشأ الجيل الذى بعدهما قويا . . ولكننا لم نلتفت لهذا الا اخيرا . . كان ذلك أيضا من حكمة تحريم زواج الأخوات . . زواج الأخ وأخته . . وابنة الأخ وابنة الأخت . . وما شرعه الله سبحانه وتعالى فى الاسلام .

ماهى القصة

ابنا آدم هابيل وقابيل . . كان على كل واحد منهما أن يتزوج من الأخت التى جاءت فى الحمل مع الأخ الآخر . . فماذا حدث ؟ . . قابيل وجد أن الأخت التى جاءت مع هابيل فى حمل واحد دميمة . . أو غير مقبولة الشكل ، فرفض ان يمتثل لما علم الله آدم من الحكمة . . وثار . . وقال لا بد أن أتزوج أختى التى جاءت معى فى حمل واحد . . ضاربا بما علم الله آدم . . وضاربا بتعاليم الله التى كانت تقضى بالفصل بين الأخوين والأختين فى حمل واحد .

وذهب الأخوان قابيل وهابيل إلى آدم ليحكم بينهما . . فقال آدم : ان هذه هى الحكمة التى علمها الله له . . ولكن قابيل الذى كان يتهم أباه بالتحيز لهابيل رفض هذا الكلام . . وغرته قوته على أن يحاول فرض الأمر متجاهلا بذلك تعاليم السماء .

ولما اشتد الخلاف ورأى آدم أنه لا فائدة أراد أن يرد الأمر إلى الآمر . . أو إلى الله سبحانه وتعالى . . واقترح عليهما ان يقدما قربانا إلى الله . . وما يحكم به الله . . أو من يتقبل قربانه يكون هذا هو صاحب الحق . . وفى هذا يكون احتكام إلى الله فى أمر من أمور التشريع . . ووافق الأخوان على ذلك . . ذهب هابيل وأحضر أحسن ما عنده كبشا سمينا من أحسن ما يملك وجعله قربانا لله . . وذهب قابيل وأحضر حفنة من ثمرات لم يتخيرها وجعلها قربانا . . وهذا يدل على ان التقوى فى قلب هابيل كانت أكبر . . وأنه عندما قدم قربانا إلى الله اختار أحسن ما عنده . . لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . . أما قابيل فقد غرته بشريته وقوته . . ومادام ظاهرا يستطيع ان يفرض الأمر الواقع ، فلماذا العناية ؟ ولماذا التقرب ؟ ولذلك جمع بعض ثمرات باهمال وجعلها قربانا .

ووقف الاثنان ينتظران حكم الله فى القربان الذى قدماه اليه . . وجاء حكم السماء فنزلت النار ، وأكلت قربان هابيل ، علامة على التقبل من الله سبحانه وتعالى . . وأن الله يؤكد شرعه من أن ابن الحمل الأول يتزوج من ابنة الحمل الثانى . . وابن الحمل الثانى يتزوج من ابنة الحمل الأول . . ولكن هذا الحكم لم يعجب قابيل . . ولم يرض بحكم الله . . وثار وقال

لأخيه : إن لم تخضع لرأيى فسأقتلك . . وهنا رد هابيل بأنه لاذنب له فيما حدث . . ذلك ان الذى تقبل القربان والذى حكم ليس هابيل . . ولكنه الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا قال هابيل انما يتقبل الله من المتقين . . فلماذا تريد ان تقتلنى وأنا لا ذنب لى فى هذا ؟ والله سبحانه وتعالى هو الذى تقبل . . وقد تقبل منى لأنى تقى . . وهو يحب المتقين ويتقبل منهم . . وكيف تمت التقوى ؟ . . وكيف كانت ؟ . . ولماذا كان هابيل تقيا ؟ . . لأنه رضى بحكم الله أولا . . فى أن يتزوج اخته من الحمل الثانى . . ورضى بحكم الله ثانيا فى القربان الذى قدمه . . ولذلك فهو يتبع تعاليم الله سبحانه وتعالى . . ويعمل وفق مرادات الله . . انه لا يحاول ان يشرع لنفسه بغير ما قضى الله . . ولا هو يحاول ان يعدل فى أحكام الله وفق هواه البشرى . . بل هو راض ومتبع لمنهج الله . . وهذه هى سمات المتقين .

رضى هابيل بأن يتزوج أخته من الحمل الآخر . . فكافأه الله بان جعلها جميلة تسر الناظرين . . ورضى بالتحكيم لله بالقربان ، وقدم أحسن ما عنده . . فتقبل الله منه

يمثل ثورة البشر

ولكن هل يرضى قابيل بهذه النتيجة ؟ . . لا . . لا بد أن يمثل ثورة البشرية التى تحكم هوى النفس على المنهج الالهى . . ولابد أن تغره قوته . . ويعتقد أنه يستطيع أن يفرض ما يشاء مادام قويا . . وكم من الأقوياء فى الدنيا يحس أنه بقوته التى مكنه الله منها يستطيع ان يفرض

مايشاء ، ويعبث فى الأرض ضاربا بمنهج الله . . ليحقق ما تريده نفسه رغم ما فى ذلك من سلب حقوق الآخرين . . والاعتداء عليهم وظلمهم .

وهنا نأتى للحكمة الخالدة « إلىَّ بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك . انى أخاف الله رب العالمين » . . هنا يقول بعض الناس ان هذه سلبية من هابيل . . إذ كيف يترك أخاه ليقتله دون أن يدافع عن نفسه . . ولكنها فى الحقيقة لا تمثل سلبية . . ولكنها تحكى ايمانا ويقينا . . فهابيل يريد أن يثير نوازع الخير فى نفس اخيه . . هل هذا الخير يتغلب على الشر الذى ملأه . . وهو بذلك اتخذ أول خطوة يتخذها انسان مؤمن اذا اراد انسان آخر به سوءا فى أن يحاول اثارة الخير فى نفسه . . فتجد الانسان المؤمن اذا اراد انسان آخر به سوءا . . فانه يذكره بالله وقدرته عليه . . ويذكره بالخير وماله من جزاء . . وكثيرا ما نسمع من يقول لانسان يريد شرا اتق الله . . أو يذكره بالله سبحانه وتعالى . . علَّ هذه التذكرة تجعله يتردد أو يفيق مما هو فيه . .

يضاف إلى ذلك انك إذا قلت لأى انسان يريد بك شرا . . مهما أردت بى الشر فلن أمد اليك يدى بالأذى . . فى هذه الحالة وفى أحيان كثيرة تسكن نفسه وتبتعد عن الشر الذى أراده . . مضافا الى ذلك صلة الرحم التى بين الأخوين . . والتى غالبا اذا قابل أحدهما اساءة الآخر بالاحسان تجعل الثانى يفيق ويبتعد عن الشر الذى يريده . . وهكذا لجأ هابيل كانسان مؤمن إلى محاولة اثارة عوامل الخير فى نفس قابيل علها تردعه عما يريد ان يفعله وعن جريمة القتل التى يريد أن يرتكبها . . ثم يرفع هابيل الأمر إلى

الله سبحانه وتعالى ويذكر أخاه به فيقول :

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(سورة المائدة ٢٩)

أى انه يذكر أخاه بان جريمة القتل التى سيرتكبها جزاؤها كبير عند الله . . ذلك انه من يقتل انسانا فانه يحمل فوق جريمة القتل كل اثام المقتول وذنوبه ان كانت له اثام . . ويبقى فى النار مخلدا فيها . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى لا يسمح لأى انسان بالعبث فى خلقه . . ولذلك فان الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾

(سورة النساء ٩٣)

. . ويقول جل جلاله :

﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾

(سورة المائدة ٣٢)

. . وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بالذنب العظيم للقاتل . . وأنه قد حرم قتل النفس البشرية الا بما شرع الله . . كأن يكون

القتل قصاصا على جريمة قتل ارتكبت بغير حق . . أو ان يكون لمنع الفساد فى الأرض . . وفيما عدا ما شرع الله سبحانه وتعالى فى قتل النفس . . فان القتل ذنب عظيم . . ولذلك حرم الله على عباده قتل النفس الا بالحق . . أى الحق الذى شرعه الله كقصاص على جريمة ارتكبتها هذه النفس .

أيـن الخـــير ؟

ولكن بالرغم من هذا التحذير . . ومحاولة اثارة كوامن الخير فى نفس قابيل وتذكيره بالله وبالجزاء الذى ينتظره . . فان هذا لم يجعله يرتدع . . ذلك ان قوته وعبادته لنفسه وغروره بانه هو الأقوى ، وهو الذى يستطيع أن يقتل . . كانت كل ما يفكر فيه . . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(سورة المائدة ٣٠)

وهنا لفتة من الله سبحانه وتعالى إلى أن النفس جبلت على الخير بفطرتها . . وأن الانسان هو الذى يطوعها ويقهرها لفعل الشر . . ولذلك فإن مسألة القتل قد احتاجت من قابيل جهدا ليطوع نفسه ويدفعها إلى الشر . . تماما كما يحاول كثير من الناس أن يذهب ليتناول كمية كبيرة من الخمر مثلا قبل ان يرتكب جريمة حتى تغيب هذا الخمر عوامل الخير فى نفسه . . فيقدم على الجريمة فى لحظة غياب الخير . . أو أن يظل المجرم فى صراع نفسى وعقلى قبل الاقدام على جريمته . . يحاول أن يثير نوازع الشر فى نفسه . . وأن يجعل الغل والحقد فى قلبه . . حتى يستطيع أن يرتكب

جريمته دون أن يتردد . . وكثير من الذين يتخذون سبيل الجريمة نجد أنه فى المرة الأولى يحتاج إلى تطويع نفسى كبير حتى يستطيع ان يصبح قادرا على ارتكاب جريمته . . فاذا فعل ذلك تركه الله سبحانه وتعالى للشيطان يزين له الجريمة . . ويمنيه بأنه سيفلت من العقاب الدنيوى . . وأنه سيحصل على مميزات كذا وكذا حتى يرتكب جريمته . . ونادرا ما يرتكب أى انسان جريمة الا وهو واثق من أنه سيفلت من العقاب الدنيوى على الأقل . . هكذا يزين له الشيطان . . ثم بعد ذلك تقع الجريمة وتنكشف . . ويخسر الانسان الدنيا والآخرة . . على ان الانسان الذى يفعل ذلك هو انسان قصير النظر . . يمتاز بالغباء . . ذلك أن الذى يفكر فى العقاب الدنيوى فقط . . انما يفكر فى شىء زائل وقتى . . ويفرح بشىء لا ينجيه الا لفترة مؤقتة طالت أو قصرت . . لأنه مهما اختفى عن أعين الناس ومهما استطاع بفكره وبمعونة الشيطان ان يهرب من البشر . . فانه لا يوجد مكان لا يراه الله فيه . . ولا يوجد وقت يغفل الله فيه عنه . . ولذلك فانه إن غفلت البشرية كلها . . فان الله سبحانة وتعالى لا يغفل . . وما قيمة البشرية وهو مغادرها . . وكيف الهروب من الله وهو ملاقيه . . والعقاب فى الدنيا على أساس قدرات البشر . . والعقاب فى الآخرة بقدرة الله سبحانه وتعالى . .

وفرق هائل بين القدرتين . . ولذلك لا يفرح انسان بأنه أفلت من العقاب البشرى ويحسب ان هذا فوز . . بل هو خسران مبين . . لانه إن افلت فإلى أين يذهب ؟ وأين يختفى ؟ . وإلى أى مكان يهرب من لقاء الله ؟

قتذن فقد كان تذكير هابيل لقابيل بعاقبة جريمة قتله بأنه سيكون مخلدا فى النار هى فطنة المؤمن التى لا تخيب . . وهى ذكاء المؤمن الذى يعرف حقيقة الدنيا والآخرة . . وكان عدم اكتراث قابيل بهذا التذكير . . هو غباء الكافر . . الذى يعتقد ان العقاب الدنيوى هو نهاية المطاف . . وانه إن افلت منه قد أفلت نهائيا من العقاب . . واذا كانت النفس البشرية قد جبلت على الخير ، فان الانسان يطوعها للشر . . ولذلك فالأصل فى الانسان . . والاصل فى الكون هو الخير . . ولكن الانسان بقصر نظره واغترارہ بقوته وقدراته هو الذى يدفع ويطوع هذه النفس للشر . . وهى صالحة لهذا وصالحة لذلك . . . حسب تطويع صاحبها لها .

على أننا هنا لابد لنا من وقفة . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يذكرنا وينبهنا إلى ان ذلك الضعيف الذى لا يستطيع ان يدافع عن نفسه ضد الذى يحاول ايذاءه أو الاعتداء عليه . . فان الله سبحانه وتعالى يقتص له . . ذلك ان الله قائم على خلقه . . قوام على عباده بالعدل والقسط . . وقد شاء عدل الله سبحانه وتعالى ان يعطى لعباده كلهم حقوقا متساوية . . وان يكون هو القائم أو القوام على هذه الحقوق . . بحيث اذا اعتدى قوى على ضعيف مستخدما بذلك قوته التى وهبها الله له فان الله يقتص منه . . فلا يحسب إنسان مهما يكن قادرا أو قويا بأنه سيفلت من العقاب . . ولا يحسب انسان مهما يكن ضعيفا وغير قادر أن الله لن يقتص له . . فعدل الله ماض فينا جميعا . . وكلنا عبيده . . لنا عنده نفس الحقوق . . وعلينا نفس الواجبات . . وذلك حتى تطمئن نفس الانسان الضعيف إلى ان ظلم

القوى له لن يجعله يفلت من العقاب . . وانه اذا كان هناك جبار فى الأرض . . فجبار السموات أقوى وأقدر .

الخير . . والشيطان

وتمضى الآية الكريمة . .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة ٣٠)

أى انه حين استذله الشيطان . . ونسى الله . . وارتكب جريمة القتل خسر الدنيا والآخرة ولم يكسب شيئا . . ففى الدنيا باء بغضب من الله ، وذلك الغضب يجعل رحمة الله سبحانه وتعالى تبتعد عنه . . فينطلق من اثم إلى اثم لا يكسب شيئا . . وخسر الآخرة ، لأنه اصبح من اصحاب النار ، فلم يكسب الا الخلود فى عذاب النار دون رجاء فى الرحمة . كوينئذ تأتى الحكمة الخالدة التى ترى هذا الانسان الذى اغتر بنفسه انه لا يساوى شيئا . . وان قوته وعلمه وكل مايملكه هو لا شىء عند الله سبحانه وتعالى . . وان الله قد يعطى من هو أضعف منه من العلم والقوة . . مالم يعطه لهذا الانسان الذى غرته قدراته وقوته على معصية الله وارتكاب الاثم . . فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(سورة المائدة ٣١)

حينما تمت جريمة القتل بقيت الجثة أمام قابيل لا يعرف ماذا يفعل بها . . لقد كانت هذه أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية . . وأول انسان ينتقل من الحياة إلى الموت على ظهر الأرض . . ماذا يفعل قابيل فى الجثة . . هل يتركها هكذا فى العراء ؟ . . أم ما الذى يحدث . . فتلفت قابيل حوله وهو حائر عله يستطيع ان يهتدى إلى حل . . أو يجد طريقة يبعد بها جسم الجريمة الذى يذكره بالاثم الكبير الذى ارتكبه . . يبعدها عن نظره . . يواريها بعيدا . . فقد كان منظر الجثة والدماء يصرخ فى وجه قابيل صراخا داخل النفس وان لم يكن خارجها . . وكلما التقى نظره بجثة أخيه اراد ان يبعده عنه . . لأن الجريمة تؤرق المجرم كلما تذكرها . . ولذلك فهو يحاول ان يكبتها فى نفسه ، وينحيها بعيدا . . وأنت اذا أردت ان تهيج النفس البشرية فذكر الانسان باثم ارتكبه أو بفعل لا يقره الله قام به . . حينئذ تحس النفس البشرية بضيق . . لأن هذه النفس رأت الله وهى تعلم ما ينتظرها من عقاب .

حينئذ دار قابيل بنظره حول المكان الذى ارتكب فيه جريمته محاولا ان يجد وسيلة للتخلص من جثة أخيه أو إبعادها عن نظره . . فماذا حدث ؟ . . ارسل الله سبحانه وتعالى غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه . . كأن الله سبحانه وتعالى يريد ان يقول لقابيل . انت الذى غرتك قوتك . . وغرتك مقدرتك . . وارتكبت جريمة القتل وعصيت . . سأريك ما هى قوتك وماهى قدرتك . . وسأجعل الغراب الضعيف الذى لا يضاهيك فى الحجم ولا يقترب منك فى القوة . . سأجعل هذا الغراب

الضعيف معلما لك . . يعلمك لتعرف قدر نفسك . ولتعرف أنك لا تساوى شيئا . . أنت ارتكبت جريمة القتل هذه اعتزازا بقوتك . . وغرورا بمقدرتك . . ولكنك عجزت أمام سوءة اخيك بعد أن اصبح جثة هى عورة لابد ان تدارى . . ووقفت وأنت المغرور عاجزا تتطلع هنا وهناك لا تدرى ماذا تفعل . . وأنا أرسل اليك هذا الغراب ليكون أستاذا لك . . وقادرا فوق قدرتك . . فيعلمك كيف توارى سوءة أخيك ، حتى تعرف ان القوة لله وليست لأحد . . وأن المغرور بما أعطاه الله عاجز تماما أمام قدرات الله . . وليكن هذا لك آية . . لتعلم انه لا علم الا ما علمه الله لك . . ولا قدرة الا بما اعطاه الله لك

وتنبه قابيل للحكمة

وحينئذ يتنبه قابيل إلى الحكمة من ارسال الغراب أو ينبهه الله سبحانه وتعالى إلى إرسال الغراب ليريه كيف يوارى سوءة أخيه . . فيقول :

﴿ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ ﴾

(سورة المائدة ٣١)

وحينئذ ينبه الله قابيل إلى الحكمة من ارسال الغراب ويتنبه لها . . ويعترف بعجزه أمام هذا المخلوق الضعيف . . ويتنبه للجريمة التى ارتكبها . . ولغرور النفس الذى سيطر عليه فيقول : ياويلتى ويعرف ان الويل والعذاب هو الذى ينتظره . . ثم يعترف بعجزه أمام العلم الذى اعطاه الله سبحانه وتعالى للغراب فيقول أعجزت أن أكون مثل هذا

الغراب ؟ . . أى أننى وأنا قوى الذى اعتقدت أننى بقوتى استطيع ان افرض ما أريد . . وأن أحقق ما أشاء . . اكتشفت فجأة اننى عاجز . . وعاجز أمام من ؟ . . أمام من هو أقل منى قوة وقدرة . . أمام هذا الغراب . . حينئذ عرف قدراته الحقيقية وهو انه عاجز مهما خيل اليه انه قوى . . وأنه مهما بلغ من العلم . . أنه لاشىء مقابل ما يعطيه الله من علم لعدد من مخلوقاته . . وهذا العجز الانسانى اراد الله سبحانه وتعالى ان يظهره لنا حتى لا نحس بأننا نملك القوة والقدرة لنعصى الله . . مدعين أنها قدرات ذاتية . . فالانسان فى نفسه حقيقة عاجز عن أشياء كثيرة . . وهو يستطيع ان يفعل . . أو يدعى انه يستطيع ان يفعل مجازا . .

فالانسان عاجز أو غير قادر حتى على نفسه . . حتى على جسده . . من منا يستطيع ان يأمر قلبه بأن يتوقف عن النبض . . أو يأمره اذا توقف ان يعود للنبض مرة أخرى . . من منا يستطيع ان يأمر رئتيه بعدم التنفس . . كأن يقول قررت ألا أتنفس لمدة ساعة حتى تستريح رئتاى . . ثم أعود إلى التنفس . . من منا يستطيع ان يقول لمعدته اهضمى هذا الطعام . . أو لا تقربى هذا الطعام الذى نزل اليك . . من منا يستطيع أن يقول لكبده اعملى أو توقفى عن العمل . . بل إننا سنترك هذه الحركات غير الاختيارية . . لنناقش الحركات الاختيارية . . انت تمشى بقدميك . . أو هكذا تعتقد على الأقل . . ذلك انك حين تريد ان تمشى فانك تقوم وتمشى . . وحين لا تريد ان تمشى تجلس . . ولكنك اذا نظرت إلى أحد المصابين بأمراض مختلفة فى العمود الفقرى والأعصاب والمخ وغيرها . .

تجد ان له قدمين ولكن لا يستطيع ان يمشى . . لو أن المشى قدرة ذاتية من الانسان لو أنه لا يعتمد على قدرة الله . . ولكنه نابع من الشخص نفسه . . أكان من الممكن ان يكون لأنسان قدمان ولا يستطيع ان يمشى ؟ . . أكان من الممكن والعينان وسيلة الابصار ان يكون لانسان عينان مفتوحتان ولكنه لا يرى ؟ . . أكان من الممكن ان يكون لأنسان يدان كاملتا النمو ولكنه لا يستطيع ان يحركهما ليفعل بهما شيئا ؟ . . أكان من الممكن ان يكون لانسان لسان ولكنه لا يستطيع النطق ؟ . . أو له أذنان ولكنه لا يستطيع السمع . . إننا نرى هذه الأمثلة أمامنا كل يوم وهى قليلة جدا فى الحياة بالنسبة لملايين البشر الأصحاء الأقوياء . . ولكنها مع قلتها لها حكمة . . بأننا نتحرك وفقا لارادتنا ولكن بمشيئة الله . . ونتكلم عندما نريد الكلام ولكن بمشيئة الله . . ونبصر بأعيننا ولكن بمشيئة الله . . فاين هى القوة والقدرة الذاتية للانسان فتجعله يغتر . . ويرتكب المعاصى . . ويقول أنا . . وأنا . . وهو فى الحقيقة عاجز . . واين هو علم الانسان من علم الله الذى سيكشفه لنا فى الآخرة . . الذى يجعل الشىء يأتينا بمجرد ان يخطر على عقولنا . . اين هذا العلم من ذلك الذى أشار إليه الله سبحانه وتعالى فى قصة سليمان . .

﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النمل ٤٠)

مثل بنى آدم

أين علـم الانســان ؟

أين علم الانسان من هذا كله . . والذى عنده علم من الكتاب قد قام بنقل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل أن يرتد طرف عين سليمان . . أى قبل ان يرتفع جفن العين ويعود إلى الانخفاض مرة أخرى . . أى فى مالا زمن . . هذا قدر من عنده علم من الكتاب . فماذا يكون قدر من عنده علم الكتاب كله . . فلا بد ان يعترف الانسان انه عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . فلا يغتر ولا ينسب الفعل لذاته أو لشخصه . . ولينسب الفضل كله لله . . واذا لم يفعل فإن الله سبحانه وتعالى يأتى بأدنى مخلوقاته ويسلطه على هذا الجبار ليريه انه عاجز تماما . . كما يأتى الله سبحانه وتعالى بجرثومة صغيرة لا تظهر ولا حتى تحت الميكرسكوبات العادية ولا الميكرسكوبات الالكترونية . . يأتى بهذا المخلوق البالغ الدقة . . والصغر ويسلطه على أكبر جبابرة الأرض الذين يعتقدون أنهم يقولون للشىء كن فيكون . . والذين يقولون من أشد منا قوة . . يسلط الله سبحانه وتعالى هذه الجرثومة عليهم فتدخل إلى اجسادهم فتجعلهم عاجزين . . ويجتمع أطباء الأرض كلهم بما لهم من علم . . ويأتون بأحدث اكتشافات الدنيا ، واحسن عقاقير بلا فائدة . . ويبحث العلماء عن السبب فلا يعرفونه . . وأحيانا امعانا من الله سبحانه وتعالى فى اظهار عجز خلقه يعرفون الداء ، ولكنهم لا يجدون له الدواء . . ولعل هذا يذكرنا بما حدث بالنسبة لدول كبرى . . رقد رؤساؤها فى المستشفى طويلا بلا حراك . . بينما كانوا يدعون انهم أقوى الناس فى الأرض . . ووقف حولهم علمهم وهو عاجز أن يفعل شيئا . . ووقفت الدنيا بكل

قدراتها وما وصلت اليه من علم واكتشافات عاجزة تماما أمام قدرة جرثومة صغيرة من خلق الله . . ثم بعد ذلك يتحدثون عن قدرة البشر . . وقوة البشر

هذا هو ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه عندما أرسل الغراب ليرى قابيل كيف يوارى سوءة اخيه . . ويجعله يتعلم ممن هو أقل منه قدرة وأضعف منه . . ذلك الغراب الذى يستطيع قابيل ان يقتله بحجر أو بيده اذا أمسك به . . ولا يستطيع الغراب ان يحمى نفسه . . ذلك الغراب بعثه الله معلما لقابيل . . ومعلما للبشرية كلها بعدم الغرور . . لأن من هو ادنى منك قد يعطيه الله من العلم أكثر مما يعطيك . . وأنك وأنت القادر ظاهرا على أشياء كثيرة ربما تعجز أمام ادق مخلوقات الله سبحانه وتعالى وهى جرثومة صغيرة لا تعرف لها علاجا ولا تعرف لها دواء

بلم يكمل الله سبحانه وتعالى فيقول على لسان قابيل فقال ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ . . أى ان قابيل حين تنبه إلى ضعفه وعجزه . . وعرف ان غرور قوته كان من الشيطان الذى يحاول ان يغرى الانسان على المعصية . . ثم بعد ذلك يهرب ساعة الجزاء مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر الآية ١٥)

فندم على الغرور الذى أدى به إلى هذه المعصية التى سيجازى عليها جزاء مهولا . . لأن قابيل هو الذى سن سنة القتل فى الدنيا . . مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) . . أى ان كل جريمة قتل وقعت أو ستقع فى الأرض منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة سيقع اثمها على من عمل بها وعلى قابيل الذى استن هذه السنة السيئة .

إلى هنا ونأتى إلى الحكمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى من قصة ابنى آدم التى جاءت فى القرآن الكريم . . فيرينا أن الرضا بما قسمه الله وهو الخير . . ولو أن قابيل رضى بما قسمه الله وتزوج اخته التى جاءت فى الحمل مع أخيه هابيل . . لكان ذلك خيرا له . . ولوقاه شرورا كبيرة . . ولوقاه الخلود فى النار . . ولكن عدم الرضا بما قسمه الله والذى يضع الشر فى النفس البشرية ويقودها إلى طريق التهلكة . . والمؤمن هو الذى يعلم دائما أن الخير فيما اختاره الله يفعل ما فى وسعه ويأخذ بالاسباب . . فاذا جاءت النتيجة وفق هواه فهو خير . . واذا كانت النتيجة عكس هواه . . فهواه كان سيؤدى به إلى الشر . . والله وقاه بأن أعطاه الخير . . بدلا من أن ييسر له الشر . . والمؤمن عليه أن يرضى بحكم الله . . والله تقبل قربان هابيل . . وكان على قابيل ان يرضى بهذا الحكم ويمتثل له . . ولكنه بدلا من ذلك وضع نفسه فى مرتبة العليم . . ورفض تقبل حكم الله . . وان الله سبحانه وتعالى يتقبل من المتقين . . فاذا أردنا ان نتقرب إلى الله . . فلا بد ان تكون التقوى فى قلوبنا أولا . . وان نتخير الطيب نتقرب

به إلى الله ولا نختار الخبيث والاشياء التالفة والعفنة لأن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل الا طيبا . . والا يقودنا غرور النفس وتغرنا قدراتنا على ظلم

الناس . . ولنعلم ان قدرة الله وقوة الله مع الضعيف . . ولنحذر ان نبطش وان نظلم . . فان الله قادر أن يسلط علينا أبسط مخلوقاته لتسلبنا القدرة والقوة التى نظن انها تنبع من ذاتنا ومن انفسنا . . والا نسن سنة سيئة فى الحياة يراد بها الافساد فى الأرض لاننا سنتحمل وزرها ووزر من عمل بها

إلى هنا ونأتى إلى مثل آخر فى القرآن الكريم . . هو مثل الكلمة الطيبة . . والكلمة الخبيثة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

مثل الكلمة الطيبة
والكلمة الخبيثة

الله سبحانه وتعالى حينما خلق الانسان ونفخ فيه من روحه . . انطلق الانسان فى مهمته فى الحياة . . وهى عمارة الأرض ؛ وتطبيق منهج الله . . وكانت أحداث الحياة كلها بالنسبة للانسان هى الكلمة . . والفعل . . والنية . . وفى خارج إطار هذه الثلاثة لن تجد شيئا فى الدنيا . . فالانسان إما أن يتكلم . . أو يبيت النية على أن يفعل شيئا . . أو يفعل هذا الشىء فعلا . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى للكلمة السيادة فى الدنيا . . فهى التى يتلقى عن طريقها الانسان منهج الخالق سبحانه وتعالى . . ومنهج الله هو كلمات الله إلى خلقه . . والكلمة هى أساس سيادة الانسان فى الأرض . . ذلك أنه لولا الكلمة ما استطاع انسان أن يدون فكرا . . وما استطاع الانسان نفسه أن يستفيد من علم غيره . . والانسان يرث الحضارات عن طريق الكلمة . . ويرث العلم عن طريق الكلمة . . ويرث التقدم عن طريق الكلمة . . وكل جيل يقرأ ما وصل إليه الجيل الذى قبله . . ثم يضيف إليه وينقله إلى الجيل الذى بعده . . إذن فالذى صنع الحضارة الانسانية وجعلها تتوارث جيلا بعد جيل . . وكل جيل يضيف إلى ما انتهى إليه الجيل الذى قبله . . كل هذا تم بالكلمة . . ولو أننا أعطينا من الله سبحانه وتعالى الكلمة . . ما أمكن لعلم أن يدون . . ولا لتقدم أن يعلم . . ولأصبحت الانسانية كلها لا اتصال بينها . . الجيل الماضى عاجز عن أن ينقل إلى الجيل الحاضر علمه . . والجيل الحاضر عاجز عن أن يدون ويبقى للجيل القادم حضارته . . وهكذا لو أن الانسانية جردت من الكلمات لخسرت حضارتها كلها وثقافتها كلها . .

الكلمة تعبير عن شيء ما . . لكن هذا التعبير لا يأتى من مطلق . . ولا من فراغ . . بل لا بد أن يوجد المعنى فى الذهن أولا . . ثم بعد ذلك تأتى الكلمة التى تعبر عنه . . أى أن الكلمات لا تصدر من فراغ . . ولكنها تصدر عن أشياء موجودة أو متصورة ذهنيا لتعبر عنها . . بحيث إذا قيلت الكلمة قفز المعنى إلى الذهن . . لذلك لا نجد مثلا أن هناك كلمات لأشياء غير موجودة . . وقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن اسم التليفزيون موجودا . . ذلك أنه لم يكن يوجد فى العقل البشرى حتى يمكن أن يعبر عنه بكلمة . . وكذلك التليفون . . وكذلك أشعة الليزر . . وكذلك الصواريخ . . والأطباق الطائرة . . إلى آخر ما يسجله العلم . . ولكن الشيء وجد أولا ؛ ثم بعد ذلك وضع له الاسم الذى يجعل العقل عندما يذكر أمامه هذا الاسم تتضح أمامه متعلقات الاسم فيفهم عن ماذا تتحدث . . ولذلك فإن اللغات فى جميع أنحاء العالم يضاف إلى قواميسها كل عام كلمات جديدة . . والكتب تصدر فى كل أنحاء العالم لتعلم الناس هذه الكلمات الجديدة فى كل فرع من فروع الحياة . .

إذن ما هو غيب عن الانسان لا يستطيع أن يعبر عنه بكلمة . . أو لا يستطيع أن يفهمه . . ولذلك فإنك عندما تتحدث عن شيء لم يره إنسان تجد أن من تتحدث إليه لا يفهم ما تقول . . حينئذ تحاول أن تقرب إليه المعنى بشيء موجود يفهمه . . كأن تقول له : ان هذا الشيء مثل الكرة مثلا . . أو كالخط المستقيم . . أو شكله بيضاوى . . أو حجمه كالفيل تماما . . أو فى سرعة الطائرة . . وإذا أردت أن تعرف ذلك بالدقة

فاقرأ حديث الذين رأوا أشياء غير مألوفة فى الأرض ويحاولون أن يصفوها للناس . . نجد أنهم يشبهونها بأشياء مألوفة لدينا حتى نستطيع أن نفهمها . . الذين رأوا الأطباق الطائرة مثلا وحاولوا أن يصفوا ما رأوا إلى الناس . . لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا بالتشبيه . . وقالوا إن الطبق مستطيل يبدو من بعيد كشكل السيجارة . . أو مستدير أو مسدس . . وانه يخرج منه مخلوقات تمشى على قدمين مثل الانسان . . ولكن أجسادها نحيلة كالعظام بلا لحم . . وعقولها كبيرة مثل حجم العقل الانسانى أربع أو خمس مرات . . وتخرج من أيديها وأرجلها مثلا أشعة تضىء مثل الكهرباء . . وفى مقدمة الطبق الطائر ماسورة على هيئة مدفع تخرج منه حمم مثل الصواعق إلى آخر ما قيل حول الأوصاف التى رواها أولئك الذين قالوا انهم رأوا الأطباق الطائرة . . وأرادوا أن يشرحوا للناس ما رأوه . . ولقد كان هذا الشرح مستحيلا دون أن يشبهوه بأشياء فعلا ، حتى يستطيع العقل أن يستوعبها .

لفـــظ الجـــــلالة

وهنا لنا وقفة . . ذلك هو لفظ الجلالة « الله » سبحانه وتعالى . . ما ذكر اسم الله إلا وفهمه الجميع . . الجاهل والمتعلم . . الصغير والكبير . . والذى قرأ علوم الدنيا . . والذى لم يقرأ حرفا واحدا فى حياته . . الله غيب عنا . . لم يره أحد . . الله ليس كمثله شىء . . فلا يمكن تشبيهه - تبارك وتعالى وتنزه - بأى شىء فى عالمنا المادى . . إذن من أين جاء هذا الفهم ؟ . . جاء لأننا عرفنا الله سبحانه وتعالى

بالفطرة . . وأشهدنا على نفسه قبل أن نأتى إلى هذه الحياة . . قال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآيات ١٧٢ : ١٧٣)

. . ومصداقا لهذه الآيات الكريمة . . فإننا إذا ذكر لفظ الجلالة فهمناه جميعا دون حاجة إلى شرح . . ولذلك فإن الايمان ضرورة لغوية . . لأن اللفظ فى اللغة لا يطلق إلا على موجود . . ولا يفهم إلا إذا كان ما يطلق عليه موجودا . . ومعنى فهمنا للفظ الجلالة أن الله سبحانه وتعالى موجود . . وكلنا يعلم وجوده .

وحتى الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى من الكافرين . . نقول لهم انه لا يمكن أن يتم هذا الستر إلا إذا كان الله سبحانه وتعالى موجودا . . فلا جدل بين الناس يقوم حول العدم . . أو حول شىء غير موجود . . لأنه ما دام الشىء غير موجود فالعقل البشرى لا يعرفه . . وعلى هذا لا تكون هناك مشكلة تقتضى الانكار . . ولكن إذا وجد الشىء وجد الجدل . . لأن الجدل لا بد أن يقوم على شىء يفهمه العقل . .

ووجود الشىء وفهم العقل له تم أولا . . ثم بعد ذلك بدأ حديث عنه . . والذين يجادلون فى الله ويحاولون ستر وجوده إنما هم فى الحقيقة يثبتون هذا الوجود لأنهم يتحدثون عنه . . ولا يمكن للعقل البشرى أن يتحدث إلا عن شىء موجود فعلا ويعرفه .

والكلمة التى هى تعبير عن شىء موجود فعلا . . لها تأثير كبير فى حياة البشر . . فكم من كلمة أشقت إنسانا . . وكم من كلمة أسعدت إنسانا . . وكم من كلمة أقامت أسرة سعيدة . . وكم من كلمة هدمت أسرة وشردتها . . وكم من كلمة قامت على أساسها عداوات وحروب . . وكم من كلمة بدلت الحروب بالسلام . . وكم من كلمة أدت إلى جرائم . . وكم من كلمة منعت الجرائم . . وكم من كلمة أقامت ثورات وأسقطت عروشا . . وكم من كلمة قضت على ثورات وأبقت عروشا .

الكلمــــة . . والبشـــــر

إذن فالكلمة فى حياة البشر لها أهمية كبرى . . وهى التى يبدأ بها العمل . . الكلمة تضع الاطار للعمل . . أو تضع النظرية كما يقولون أو الخطة . . ونحن لا نستطيع أن نقوم بعمل متقن إلا إذا حددناه بكلمات أولا . . حتى نعرف ماذا نفعل . . فلا يعقل أن تأتى بالناس وتطلقهم هكذا كل واحد منهم يفعل ما بدا له . . حينئذ تكون العملية هى فوضى مطلقة ؛ ويكون الناتج منه شيئا بلا نفع . . ولكن إذا أتيت بالذين يشتركون فى عمل محدد . . وعرفت كل واحد منهم ماذا سيفعل . . وشرحت له بالكلمات ما هو مطلوب منه . . سيكون عند كل واحد منهم

صورة ذهنية واضحة لما سيقوم به . . سيتم العمل على أكمل وجه . . لأن الصورة الذهنية لا بد أن تكون واضحة قبل أن يقوم بالفعل تماما . . كما أنه من الضرورى حين تفتح مدرسة مثلا أن تضع منهجا لهذه المدرسة قبل أن يأتى تلميذ واحد ليتلقى الدرس فيها .

الله سبحانه وتعالى ذكر الكلمة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة . . وقال :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

(سورة الأنعام ـ الآية ١١٥)

﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾

(سورة التوبة ـ الآية ٤٠)

وكلمة الله نافذة . .

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سـورة يس ٨٢)

ولذلك فإن كلمات الله سبحانه وتعالى هى تمام فعله . . لماذا ؟ لأن الله عزيز . . فليس هناك أى قوة تستطيع أن تقف وتمنع تنفيذ كلمة من كلمات الله ؛ أو توجد ظروف تمنع أن تتم هذه الكلمة وتصبح فعلا ووجودا . . ولنشرح هذه النقطة قليلا . .

الانسان قد يقول . . ولكن الفعل لا يتم . . وهناك فرق بين القول والفعل فى حياة البشر . . لماذا ؟ . . لأننا نعيش عالم الأغيار . فالفعل عندنا محتاج إلى عناصر كثيرة لكى يتم . . محتاج أولا إلى وقت وإلى زمن . . ونحن لا نملك الزمن . . ولكن الزمن هو الذى يملكنا . . نحن لا نستطيع أن نعرف يقينا أننا سنعيش الساعة القادمة مثلا . . لذلك فإننا إذا تحدثنا عن فعل شىء قد لا نعيش وقد لا نوجد حتى نتمه . . وإذا امتد بنا العمر إلى ساعة حدوث الفعل . . فنحن نخضع لظروف كثيرة . . منها انه لا بد لنا من إمكانيات حتى يتم العمل . . وهذه الامكانيات لا نملكها ذاتيا . . بل هى معتمدة على آخرين لا نستطيع أن نتحكم فى ظروفهم . . فمثلا إذا أردت أن أبنى بيتا فقد أعد كل شىء وأملك الزمن . . ولكن الذين سيعملون فى البناء لا يحضرون فلا يتم . . ونحن قدرات مختلفة بعضها فوق بعض . . ومن هنا فان قدرة قاهرة قد تأتى لتمنع وقوع الفعل . . كأن تأتى مثلا الحكومة وتستولى على الأرض التى قررت إقامة البناء عليها . . فتمنع إتمام الفعل . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن . . ولا توجد قوة أو قدرة فوق قوة الله وقدرته . . فهو قاهر فوق عباده . . وهو العزيز الذى لا يوجد إلا من هم دونه . . ولذلك إذا قال للشىء كن فيكون .

شـــجرة طيبـــة

والله سبحانه وتعالى تحدث عن الكلمة كثيرا فى القرآن الكريم . . ولكنه ضرب مثلا فقال فى كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٤ و ٢٥)

الله سبحانه وتعالى يريد أن يحبب عباده المؤمنين فى كل كلمة طيبة وكل عمل طيب . . ذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . . والكلمة الطيبة هى التى تمسح كل سوء وتذكر كل حسن . . تتغاضى عن العيوب . . ولا تعرف إلا المحاسن . . الانسان فى هذه الحياة يشقى بأنه يضخم العيوب . . ويضخم المشكلات . . ولا ينظر إلى الزوايا الحسنة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يشيع بين المؤمنين الحديث الطيب . . وألا يتناول المؤمنون أعراض الناس أو سيئاتهم فيما يتحدثون . . وبما أن الله كما قلنا هو رب العالمين وعطاء الربوبية يكون عطاء متساويا للناس كل الناس ؛ بصرف النظر عن درجاتهم الايمانية . . وقد حرم الله سبحانه وتعالى الغيبة والنميمة . . وصورهما فى القرآن الكريم بصورة بشعة فقال تبارك وتعالى :

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾

(سورة الحجرات - الآية ١٢)

وهكذا كانت الصورة من البشاعة بحيث تصبح كريهة لكل انسان . . فلا يتصور أن يأتى أحد لرجل ميت ؛ ويجلس أمام الناس ليأكل لحمه . . صورة بشعة كريهة للقول السيىء أو الكلمة الخبيثة . . ويوم القيامة يأتى الله بمن قال هذا القول السيىء ويأخذ من حسناته ويعطيها لمن أغتيب . . فإذا نفدت حسناته جاء بسيئات من تم اغتيابه لمن اغتابه بالقول السيىء . . لذلك فإن سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه . . علم أن رجلا قد اغتابه ؛ فطلب من خادمه أن يأتيه بأحسن أنواع التمر الموجودة عنده . . ثم انتقى طيبها وأرسلها فى طبق إلى الرجل الذى اغتابه ؛ وكتب معها ورقة قال فيها : أعلمت أنك قد اغتبتنى بالأمس . وبما أنك قدمت إلى أحسن ما عندك وهو حسناتك . . فلم أجد بدا من أن أرد الهدية فأعطيك أحسن ما عندى وهو هذا التمر .

لماذا . . الشجرة

عندما نبدأ فى الحديث عن المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة . . فإننا نتوقف عند تشبيه الكلمة بشجرة . . لماذا شبه الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة . . والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة . . لا بد أن الله يريد أن يلفتنا إلى عدة معان فى تشبيهه الكلمة بالشجرة . . أولا الشجرة تبدأ بذرة . . وتكبر . . وتكبر . . وتكبر . . وكذلك الكلمة خبيثة كانت أو طيبة . . تخرج من الفم كبذرة صغيرة . . ثم بعد ذلك يتناقلها الناس فتكبر وتكبر . . وتشيع فى القرية ؛ ثم تنتقل إلى القرى الأخرى وهكذا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن

يلفتنا فى أول المثل إلى خطورة الكلمة . . فيقول لا تحسبوا أن الكلمة مجرد حروف ينطق بها الفم . . ثم تنسى وتنتهى وتذهب . بل هى كالشجرة التى تبدأ ببذرة . . ثم تنتشر فروعها وتكبر وتترعرع . . لذلك فليراقب كل واحد منا كلماته ليعرف أن هذا الكلام له خطورته وله معناه . . ويريد الله أيضا أن يقول لنا : أن الكلمة محسوبة . . فلا نطلقها على عواهنها . . فإذا رميت البذرة فى الأرض قبل أن تنبت الشجرة فقد وضعت لها قرارا . . والكلمة محسوبة على البشر . . لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سـورة ق ـ الآية ١٧)

. . أى أن القول الذى يلفظه الانسان هو محسوب عليه . . فلذلك لا بد أن يتدبر الناس قبل أن يقولوا القول السيىء لأنه محسوب عليهم . . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشجرة تكون بذرة ثم تكبر وتترعرع وتعطى ثمارا . . ثم هذه الثمار تتحول مرة أخرى إلى بذرة . . وتؤخذ وتزرع فى أماكن مختلفة فتنتج شجرة من نفس النوع . . وهذا الشجر يأتى بدوره بثمر . . والثمر هو الآخر يصبح بذرة صالحة للزراعة . . وهكذا بلا نهاية . . حينئذ نعرف عظم ثواب الكلمة الطيبة ؛ أو السنة الطيبة ؛ وعقاب الكلمة الخبيثة ؛ أو السنة الخبيثة . . ونعرف أن كلتيهما تنتشر فى الأرض كالشجرة التى تنتج البذرة . . ويكون جزاء الذى استن سنة طيبة . . وقال كلمة طيبة أن له ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم

القيامة . . ويكون جزاء الكلمة الخبيثة أو السنة الخبيثة وزر صاحبها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

(العنكبوت - ١٣)

. . وقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها . ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

هكذا كان اختيار الله سبحانه وتعالى لتشبيهه الكلمة بالشجرة اختيارا بالغ الدقة . . لأنه يريد أن يقول أن البشرية ستتوحد . . والمسافات ستلغى أو تختفى . . ويصبح ما يحدث فى أقصى الأرض يعرف فى كل مكان فيها خلال دقائق . . فالشىء الطيب ينتقل بسرعة . . والشىء الخبيث ينتقل بسرعة . . ويظل فى المجتمع ويقلده الناس . . وإذا نظرنا إلى داءات البشرية الآن نجد أنها تأتى من سنن خبيثة ابتدعها بعض الناس الذين لا إيمان لهم . . ثم بعد ذلك أثمرت الشجرة ؛ وانتقلت البذرة إلى أنحاء الدنيا كلها . . أنظر مثلا إلى « الموضة » التى تتفنن فى تعرية جسد المرأة وإظهار ما حرمه الله . . تجد أن « الموضة » تبدأ فى بلد خبيث لا إيمان فيه . . ثم تنتقل بعد ذلك ثمرة هذه الشجرة الخبيثة إلى دول العالم كله . . فتجدها فى كل عاصمة وفى كل دولة . . فرغم أنها نشأت فى بلد واحد ؛ وانتقلت الثمرة بعد ذلك إلى باقى دول العالم . . وانظر إلى الجريمة التى

ترتكب فى بلد من البلاد التى لا تطبق شرع الله . . ثم تنتشر إلى باقى دول العالم . . إذن فلا يقتصر أثر الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة على منبتها . . بل هى تثمر ثمارا تملأ الدنيا . . ولذلك كان التشبيه من الله جل جلاله بالشجرة .

وهـذا هـو الفـرق

إلا أن الله سبحانه وتعالى فرق بين الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة . . صحيح أن كلا منهما يشبه الشجرة التى تنتج الثمار وتنشر البذور . . ولكن الكلمة الطيبة قال الله سبحانه وتعالى عنها . . كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . . أى أن الكلمة الطيبة والسنة الطيبة باقية راسخة فى الأرض ؛ لا تخرج منها أبدا . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة) . .

إذن السنة الطيبة والكلمة الطيبة متى بذرت فى الأرض تبقى ويعمل بها الناس قلوا أو كثروا فانها لا تنتهى أبداً . . بل الخير موجود دائما . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم ٢٤)

وهنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن جزاء الكلمة الطيبة والسنة الطيبة هو عنده سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم ٢٤)

أى لا تنتظر الجزاء من الأرض . . أو لا تنتظر الجزاء كل الجزاء من الأرض . . فإذا قلت الكلمة الطيبة فانتظر الجزاء من الله . . وابتغ الجزاء من الله وحده . . فإذا نالك خير من الأرض . . كان خيرا . . وإذا لم يحدث فأنت تعلم يقينا أن الجزاء من عند الله سبحانه وتعالى لأن الله هو القائل :

﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾

(سورة الرحمن - ٦٠)

أما إذا كنت تفعل الخير ابتغاء لرضاء غير الله من أصحاب النفوذ وغيرهم . . فإن الله سبحانه وتعالى يسلط عليك من ابتغيت رضاه على حساب الحق . . فيكون هو أول من يؤذيك . . وأول من يهينك . . وتلقى منه السوء من حيث لا تتوقع ولا تحتسب . . إذن قول الله تعالى :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٤)

انما يريد أن يلفتنا به إلى أن لا ننتظر الجزاء عند أحد . . بل ننتظر منه سبحانه وتعالى وقد نلقى خيرا فى الدنيا من كلمة الخير التى قلناها . . ولكن الجزاء الحقيقى والجزاء العظيم هو عند الله سبحانه وتعالى فى الآخرة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

. . وهنا تظهر عظمة الدقة القرآنية فى قوله تعالى :

﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

. . فهذا القول كل حين ينطبق على كل كلمة طيبة . . يمكن أن يقال تؤتى أكلها كل حين بمعنى أنها كلما انتقلت من مكان إلى مكان . وزرعت فى المكان الجديد أو انتشرت فيه جاءت بمحصول جديد لمن ألقى البذرة الأولى فأثابه الله عليها بأجر من عمل بها . . أى أن الكلمة الطيبة أو السنة الحسنة فى كل مكان انتقلت إليه كان لها ثواب أو ثمر يؤتى به لصاحبها الذى سن هذه السنة الحسنة والكلمة الطيبة فى كل فترة من الفترات . . رغم أنه لم يبذل جهدا إلا فى البذرة الأولى التى وضعها فى الأرض . . هذه واحدة . .

وإذا كانت الكلمة الطيبة عن شخص ما . . فإن هذا الشخص كلما تذكر أنك قلت عنه كلمة طيبة أراد أن يجزيك عليها بالطيب . . فكأنه فى كل فترة من الفترات . . وكلما جاءت مناسبة . . كانت هذه الكلمة ثمرة . . ولعلنا جميعا حين نعرف أن إنسانا تحدث عنا بطيب القول يستثير

فينا عوامل الخير فنحاول أن نرد له هذا الكلام الطيب بما هو أطيب منه . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٥)

أى أن ذلك يحدث بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذى يبارك فى العمل الطيب . . ليس بقدرات البشر ولكن بقدراته هو . . فنجد صاحب الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة يأتيه الطيب دون أن يعرف من أين أتاه ولا كيف أتاه . . أى أن الله سبحانه وتعالى يسخر له من يسعى فى العمل الطيب ويعطيه ثماره .

ويكمل الله سبحانه وتعالى بأن يبين لنا مثل الكلمة الخبيثة . . فيقول :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

أى أن الله يريد أن يقول لنا أن الكلمة الخبيثة شجرة أيضا . . أى أن لها بذوراً وتنتشر من مكان إلى آخر بثمارها التى تتحول إلى بذرة تنقل لتزرع فى أماكن أخرى . . فكما تنتشر الكلمة أو السنة الطيبة . . كذلك فان الكلمة الخبيثة أو السنة الخبيثة لها انتشار أيضا . . ولكن هناك فرقا . . فيقول :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

أى أن الكلمة الخبيثة عطاؤها خبيث مثلها . . وهى تأتى بثمر لا يعطى نفعا بل يعطى ضررا للبشرية كلها . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ٥٨)

بذرة . . من الانسان

إذن كل سيىء فى الأرض هو بذرة بذرها انسان سيىء لا إيمان له . . ثم بعد ذلك انتقلت من مكان إلى مكان لتفسد حياة الانسان على الأرض وتضع فيها ما يشقيه . . والانسان أعطاه الله المنهج . . ولكنه أراد بعقله أن يفسد الكون . . ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٦)

ومعنى أنها اجتثت من فوق الأرض انه لا قرار لها . . وهكذا العمل السيىء . . لا تجد له عطاء متجددا . . ومن السهل جدا أن يقتلع من الأرض إذا ووجه بالحق أو بالعمل الطيب . . فهو ليس متين القرار بحيث يثبت أمام الحق . . ولكنه صاحب جذور ضعيفة ، ولذلك إذا وقعت معركة بين الحق والباطل . . فإن الحق هو الذى ينتصر والباطل يجرى

مهزوما . . وإذا أردت أن تعرف دقة هذا المثل . . فانظر إلى حكم رجل ظالم أو ملك ظالم . . ذلك الذى يأمر بالسوء ويشيع الفحشاء ويبغى فى الأرض . . بمجرد أن ينتهى حكم هذا الرجل الذى استخدمت فيه كلمات السوء وأفعال السوء ؛ ويأتى حكم جديد إلا ويقتلع كل شىء قام به هذا الحاكم الظالم من جذوره ؛ ولا يبقى منه شىء . . بل على العكس تظهر الخبايا والخبائث التى كانت مخفية . . ويظهر الناس كلهم ليسبوا الحاكم الذى رحل ويقتلعوا أنصاره وكل السنن التى اتبعها . . ولا يشترط فى ذلك أن يكون الحاكم الذى جاء طيبا . . بل قد يكون الحاكم الذى جاء أخبث من الحاكم الذى رحل . . ولكن مع ذلك كل منهما يقتلع جذور الآخر . . ولا يكون حكم الظالم له جذور أبدا . .

فإذا أخذنا حكم ستالين مثلا بما كان فيه من ظلم واعتداء على الناس إلى آخر ما نعرفه . . نجد أن الحكم الذى جاء بعده اقتلع كل الجذور التى وضعها ستالين . . فأطاح برجاله ووضعهم فى السجون وأعدمهم . . وأطاح بالمظالم التى وضعها ستالين ؛ بل أطاح بسمعة ستالين نفسه ولطخها بالطين وحطم تماثيله . . وجاء النظام الجديد بظلم آخر أى أنه لم يأت بالعدل . . ولكنه اجتث جذور ظلم ستالين . . ووضع هو جذورا جديدة . . ثم جاء الذى بعده فأطاح بكل هذه الجذور التى اعتقد الناس أنها قد رسخت فى الأرض وأصبح لها قرار . . وأطاح بالرجال الذين اعتقدوا أن الدنيا قد دانت لهم . . وأنهم خالدون فى مناصبهم . . أطاح بهم جميعا . واقرأ تاريخ الحكم الديكتاتورى فى العالم كله . . حكم عبادة

الفرد . . تجد كل واحد يأتى يقتلع جذور الذى سبقه ويلطخه بالطين . . ومع ذلك فإن الناس لا تعتبر ولا تتأمل فى كلمات الله سبحانه وتعالى فى أن الخبيث ليس له جذور فى الأرض . . وأنه فى كل فترة قصيرة تقتلع جذوره وتلقى أشجاره وهم الرجال الذين قاموا برعاية هذه الثمرات السيئة والحرص عليها . . تلقى هذه الأشجار كلها لتموت . . ثم يأتى من بعده ببذور إما طيبة فتبقى . . وإما خبيثة فتقتلع بعد فترة . . ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾

(سورة المائدة ـ الآية ١٠٠)

. . أى أن الخبيث قد يكون كثيرا بمعنى أنه يأتى حكم سيىء أو حاكم سيىء ثم وراءه حاكم سيىء . ولكن لا جذور لهذا ولا جذور لذاك . . فمع كثرة الخبيث فهو يقتلع من الأرض دائما . تماما كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة ابراهيم ـ ٢٦)

ولعل فى هذا ردا على بعض الناس الذين يتعجبون من كثرة الخبيث فى الحياة الدنيا ؛ ويحسبون أنه قد طغى على العمل الطيب والفعل الطيب . نقول لهم ان هذا الخبيث الذى ترونه لا قرار له فى الأرض وهو يقتلع كل

فترة قصيرة فأما الزبد فيذهب جفاء ؛ وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

القــول الثــابت

نأتى بعد ذلك إلى ختام المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾

(سورة ابراهيم ـ ٢٧)

وهنا يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن الدور الايمانى الذى يتم فيقول إن كثرة الخبيث قد تفتن المؤمنين وربما اهتز إيمانهم . . حينئذ تكون المشيئة محيطة بكل مؤمن لتثبته أمام هذا الخبيث الذى يبدو كثيرا فى الأرض . . فيعطيهم الله القول الثابت . . أى أنه يريهم من حلاوة الايمان وصدقه ما يجعل قلوبهم تثبت على الايمان ولا تهتز . . والله سبحانه وتعالى هو المعين للمؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٧)

هنا تمتد مشيئة الله لتقول للمؤمن لا تخش شيئا مما يحيط بك . . فهذا كله لن يستطيع أن يصل إليك لأن الله معك . . وما دام الله معك فأنت

القوى والدنيا كلها لا حول لها ولا قوة . . فاطمئن إلى أن الله يرعاك . .
ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وفى الآخـــرة ﴾

أى أن التثبيت من الله سبحانه وتعالى لا يكون فى الحياة الدنيا وحدها . . بل أيضا يوم الهول الأكبر فى الآخرة . . فيقفون أمام الله سبحانه وتعالى يقولون الحق . . ويلهمهم الله الصواب وينجيهم من العذاب .

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة ابراهيم - ٢٧)

. . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يثبت إلا المؤمنين . . أما الظالمون فإنه يتركهم ليزين لهم الشيطان الخبيث فى الأرض فيندفعوا مفتونين بكثرة الخبيث غير متنبهين إلى الحقيقة ؛ وإلى أن الطيب وحده هو الذى يمكث فى الأرض . . ثم ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أن ذلك لا يحدث خارج المشيئة . . بل ان الله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الانسان مختارا صالحا لأن يفعل الخير والشر . . وان منهج الله ومشيئته اقتضت أن يأتى الانسان إلى الايمان مختارا . . ولذلك فان اتجاه الانسان إلى الظلم أو الضلال أو السيىء إنما هو خاضع للمشيئة الالهية التى أعطت الانسان حرية الاختيار . . وبالتالى ليكون الحساب عدلا فى الآخرة .

إلى هنا ونأتى إلى ختام المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى عن الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة . . وكيف أن كلا منهما مثل الشجرة التى تنبت الثمار وتنتشر منها البذور فى الدنيا كلها . . ولكن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . . يأتينا منها الخير حتى يوم القيامة . . والكلمة الخبيثة ليس لها قرار فى الأرض ؛ فهى تقتلع بعد فترة قصيرة . . وذلك بأن يسلط الله رجلا صالحا على رجل ظالم . . أو يسلط ظالما على ظالم . . وان الله سبحانه وتعالى يثبت المؤمن ويعينه ويترك الظالمين للشيطان ليضلهم .

على أن الله سبحانه وتعالى ضرب لنا مثلا آخر عن كلماته . . هو عيسى ابن مريم عليه ارسلام . . فقال تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٥٩)

وهذا هو موضوع الفصل القادم . .

الفصل الرابع

مثل عيسى كمثل آدم

الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الحياة . . وخلق الموت وخلق الكون . . وقضية الخلق لايستطيع أحد أن يدعيها .

فهى محسومة لله تباركَ وتعالى . . لأنه هو الذى قال إنه خلق . . ولم يجرؤ أحد أن يدعى الخلق . ومن هنا فإن القضية ليست موضع مناقشة . . على أنه اذا كان الخلق ايجاداً من عدم . . بعض الناس يقول إننى صنعت كوبا أو ابريقا أو آلة فكأننى أوجدت شيئا من عدم . . أى أننى خلقته . . نقول بادىء ذى بدء ان الشىءالذى يوجد من عدم لغويا قد يكون خلقا . . ولكن الانسان الذى يصنع الكوب . . ويصنع الصاروخ ويصنع « ماكوك » الفضاء عاجز عن أن يصنع خلية حية . . فأى صناعة تستطيع أن تنتج لك ما تشاء .

ولكنها لاتستطيع ان تهب لهذا الشىء الحياة . . فلا يمكن مثلا أن يتكاثر بالتوالد . . ولا أن ينمو نموا ذاتيا . . ولا أن تكون له خاصية العقل والفكر التى تمكنه من الحياة . . حتى ما يطلقون عليه الانسان الصناعى الذى يستخدم الآن فى الصناعات بالدول المتقدمة . . فهو لايستطيع التمييز ولا التكاثر ولا الرقى . . ولا أى شىء من خصائص الانسان الحقيقى . . ولكنه عبارة عن آلة معقدة لديها أوامر محددة تقوم بها بحركات ميكانيكية محسوبة ولا شىء غير ذلك . . ولذلك لا يستطيع العلم أن يقول إنه خلق انسانا صناعيا . . ذلك ان ما صنعه العلم ليس فيه شىء من صفات الانسان التى تميزه عن غيره . . فلا هو يفهم ، ولاهو يفعل ، ولاهو يستطيع ان يتصرف اذا حصل خلل . . ولايتناسل . . دائما يبقى

على حاله منذ ساعة ايجاده حتى يبلى ويتحطم . . يقوم بنفس الحركات . . بنفس الترتيب بنفس الطريقة . . ويكرر نفسه كل عدة ثوان أو عدة دقائق . . ولا يغير حركته الا بتوجيه جديد يدخل فيه الانسان ، أو ما اخترعه الانسان . . وتكون النتيجة آيات صماء بلا حياة .

ولكن بعض الناس يتساءل عن معنى الآية الكريمة :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون الآية ١٤)

. . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال أحسن الخالقين . . فلابد أن هناك من هم أدنى درجة فى الخلق والايجاد من عدم . . نقول : ان هؤلاء الأدنى درجة هم الذين يصنعون الاشياء الصماء التى لاحياة فيها ولاحركة . . الا أن تكون حركة ميكانيكية لاتتغير ولاتتبدل والا أن تكون حياة صماء هى الجماد وبعد ذلك لا شىء ـ أما الحياة نفسها بالمعنى الذى تعرفه فى كل مخلوقات الله التى يوجد منها التكاثر وتنتقل من جيل إلى جيل ، فذلك هو خلق الله . .

ولقد تحدى الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى خلق الحياة . . فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الحج ٧٣ - ٧٤)

. . وهذا التحدى الذى طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نستمع له أو ننتبه اليه . . هو تحد للبشرية كلها منذ خلق آدم وحتى قيام الساعة . . فلو اجتمع علماء الانس والجن على ان يخلقوا ذبابة واحدة على ضعفها وتفاهتها . . لما استطاعوا أن يخلقوا حتى جناح ذبابة فيه الحياة التى يضعها الله فى بلايين المخلوقات فى كونه كل ثانية . . ولقد استطاع الانسان أن يصل الى القمر . . وربما استطاع ان يصل الى المريخ . . بما كشفه الله سبحانه وتعالى من علم له . . ربما اطلعه الله على القوانين التى يسير عليها الكون . . وجعله يستفيد منها فى أن يحقق تقدما وسيطرة . . هذا كله ممكن . . ولكن الانسان لن يستطيع أن يخلق خلية حية ، وهذا هو التحدى .

لماذا المثل ؟

على أن الله سبحانه وتعالى لم يضرب مثلا بنبى من أنبيائه كما ضرب مثلا بعيسى عليه السلام فقال .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٥٩)

. . وذلك بسبب الخلاف الذى نشأ حول معجزة ميلاد عيسى عليه السلام وكيف تم الاعجاز ؟ . . ولقد كان هذا الاعجاز موضع جدل حتى يومنا هذا . . بالرغم مما حدثنا الله تعالى به .

على أننا لابد أن نبدأ القصة من أولها . . قصة الخلق لنعرف أين المعجزة . . وكيف حدثت . . فذلك هو أهم ما يمكن تقديمه من تفسير . إن الخلق بدأ بآدم عليه السلام . . وكان خلقا أو ايجادا من عدم . . أى لم يكن آدم موجودا ، ووجد بكلمة كن من الله سبحانه وتعالى . . لم يكن أحد من البشر قد خلق بعد . . ولذلك لم يكن لآدم أب ولا أم . . أى أنه خلق خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . . أوجده بدون ذكر أو انثى . . وكانت هذه هى أولى معجزات الخلق بالنسبة للانسان . . أن يتم خلق بشر بدون ذكر أو انثى . . وكان لابد لكى تمضى الحياة وتتكاثر أن يكون خلق كل شىء فيها من ذكر وأنثى ، حتى يمكن أن يتم الوجود والتكاثر . . فكان خلق حواء من ضلع من آدم . . أو من جزء منه . . وتمت المعجزة الثانية من الخلق وهى ايجاد خلق من ذكر دون أنثى . . وهكذا وجد الذكر والأنثى فى الحياة بعد أن تم إعجازان أو معجزتان من معجزات الله فى الخلق . . الأولى . . آدم بدون ذكر أو أنثى . . والثانية خلق من ذكر دون أنثى . . ثم اختار الله سبحانه وتعالى ان تتم طريقة الخلق أو التكاثر من ذكر وأنثى فى كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى التى فيها حياة نعرفها . . فالحيوان يتم تكاثره من ذكر وأنثى . . والنبات يتم تكاثره بذكر وأنثى . . سواء كان التذكير والتأنيث فى نفس الثمرة أو الزهرة . . أو كانت تحمله

الرياح من ثمرة الى أخرى أو من زهرة الى اخرى . . وفى كل يوم يكتشف العلم اضافة جديدة تؤكد أن كل شىء فيه حياة نعرفها فى الكون يتكاثر ويتوالد من ذكر وأنثى . .

معجزة الخلق

بقيت بعد ذلك فى معجزة الخلق . . أن يتم الخلق من أنثى بلا ذكر . . وبهذا يكون تمام اعجاز الخلق فيكون الخلق قد تم بدون ذكر أو انثى وبذكر دون أنثى . . وأنثى دون ذكر . . وذكر وأنثى . . وهذا تمام معجزات الخلق الأربع . . ولو أنه لم يتم ميلاد عيسى من أنثى بلا ذكر لكانت معجزات الخلق غير تامة . . ولبقيت منها هذه المعجزة الأخيرة . . على أنه كما قلنا فان الخلق هو من صفات الله سبحانه وتعالى التى لايشاركه فيها أحد . . ومن هنا ورغم أن الخلق يتم من ذكر وأنثى فانه يخضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه . . ذلك أنه لايجتمع رجل وامرأة على اطلاقهما ليتم خلق جديد . . بل انه قد يجتمع الرجل والمرأة ويتزوجان سنوات طويلة متخذين بذلك أسباب الخلق التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى كونه . . ومع ذلك لايرزقان بطفل . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن

يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى ـ الآية ٤٩ ـ ٥٠)

. . أى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يبقى الخلق من طلاقة قدرته . . فهو رغم أنه جل جلاله جعل أسباب الخلق الذكر والأنثى . . الا أن المشيئة فى يده . . فلم يجعل زواج الرجل والمرأة سببا للانجاب على اطلاقه . . ولم يجعل نوع المولود خاضعا إلا لمشيئته . . فمشيئة الله هى التى تهب الذكور . . وهى التى تهب الاناث ، وهى التى تجعل انسانا قد يتزوج عشرات السنين ولاينجب . . ثم بعد ذلك ينجب فجأة . . فلا يستطيع انسان أن يقول انى سأنجب طفلا ذكراً ولن أنجب الا ذكورا . . ولايستطيع انسان أن يقول انى لن أنجب الا بنات . . ولايستطيع انسان أن يقول متى تزوجت فلابد أن انجب .

أننا هنا لابد لنا من وقفة قصيرة . . ذلك أن الله سبحانه قد ذكر الأنبياء فى القرآن الكريم دون تعريف . . فقال موسى . وإبراهيم . وإسماعيل . وإسحق . ويعقوب والياس دون ان ينسبهم الى آبائهم أو أزمانهم بالدقة . . حتى انه حينما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة موسى مع فرعون . . لم يعرف لنا من هو فرعون الذى ارسل موسى فى عهده . . وعندما ذكر لنا قصة يوسف مع عزيز مصر . . لم يذكر لنا من هو العزيز الذى ارسل يوسف فى عهده . . ذلك أن قصص الأنبياء بما جاءوا يعالجونه من داءات البشرية وما أصابها من فساد ليست قصصا تتعلق بذاتية

الأشخاص أو بالوقت الذى حدثت فيه . . ولكنها داءات فى الحياة تتكرر فى كل عصر حتى يوم القيامة . . ففرعون مثلا . . هو كل حاكم يريد أن يعبد فى الأرض . . موسى هو كل انسان مصلح مؤمن يقف يواجه هذا الحاكم وظلمه . . وشعيب هو كل انسان ينصح قومه بألا يأكلوا حقوق الناس وأن يعطوا كل ذى حق حقه بالكيل والميزان . . فإذا وجدت أمة تؤكل فيها حقوق الناس ويبتخس فيها اشياؤهم ثم وجد رجل مصلح يدعو الى الحق والى اعطاء الناس حقوقهم كاملة ويحارب هذا الداء الوبيل فى أكل حقوق الناس . . فاننا نتذكر فى تلك اللحظة قصة شعيب عليه السلام وقومه . . ونعرف ما يدعونا الله سبحانه وتعالى اليه فى هذه الحالة . . وهكذا فى كل الداءات التى أرسل الانبياء لعلاجها . . هنا ليست خصوصية الداء بالذات . . ولاقصة حدثت ولكن تتكرر . . بل الداءات تتكرر والله يريدنا أن نعرف الدواء . . ويريد أن يعرف المؤمن المنهج الإيمانى تجاه هذه الداءات . . حتى يقاوم الظلم والعدوان . . ليس فى صورة واحدة . . ولكن فى كل الصور التى جاء الأنبياء لمعالجتها ، وهذا كمال الدين وجماله .

العبرة هنا . . لاتتكرر

اذن فالعبرة من قصص الأنبياء متكررة . . والداءات التى جاء الانبياء لعلاجها فى الكون تتكرر . . واذا نظرنا الى صورة الكون اليوم على اختلافها واتساعها . . وجدنا فيها فرعون وآله . . وقوم لوط . . ومدين وثمود . . وعبدة الاصنام والاوثان . . وكل الداءات التى وردت وعالجها

الله سبحانه وتعالى فى القرآن بقصص الأنبياء التى قصها علينا . . كلها موجودة وكلها متكررة الا معجزة ميلاد عيسى عليه السلام . . فهى لن تتكرر أبداً . . ولذلك عندما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة مريم فى القرآن الكريم لم يقل مريم فقط . . ولكنه قال مريم ابنة عمران بل انه حددها بالاسم بين نساء العالمين . . فقال ان ذلك لن يحدث الا لامرأة واحدة هى مريم ابنة عمران . . ولن تنجب امرأة فى العالم دون أن يمسها بشر . . الا مريم ابنة عمران . . وهنا أراد الله سبحانه وتعالى ان يلفتنا الى خصوصية هذه المعجزة .

. . وأنها لن تتكرر لأى امرأة اخرى . . فذكرها بالاسم منسوبة الى ابيها . . وعندما ذكر الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء لم ينسبهم الى آبائهم . . ولكنه عندما ذكر عيسى عليه السلام قال « عيسى ابن مريم » . . نسبة الى امه مريم عليها السلام لأنه ولد دون أب . . ومعنى ذلك أن المعجزة هنا لن تتكرر . . ولن يولد طفل من أنثى بدون ذكر الا عيسى عليه السلام . . ولذلك نسبه الله الى أمه حتى نتنبه لهذا الاختلاف فى اسماء الأنبياء فى القرآن الكريم الذين ذكرت أسماؤهم الاولى دون نسبهم . . ولأن عيسى عليه السلام ذكر منسوبا الى أمه ولقد قيل فى عدم نسبة الانبياء وورثتهم هم ومن اتبعوهم من المؤمنين الى اهلهم لأن أهل عشيرتهم هم المؤمنون مصداقا لقول الله تعالى عندما خاطبه نوح فى ابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ

أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ
فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود ـ الآية ٤٥ و٤٦)

. . ولذلك لم ينسبهم الله الى أهلهم الذين قد يكون فيهم المؤمن وغير المؤمن . . كما حدث بالنسبة لأبي ابراهيم . . وامرأة لوط . . وابن نوح .

نعود الى قصة مريم عليها السلام لنرى كيف أعد الله سبحانه وتعالى المعجزة حتى تتم . . فتلك المعجزة تكون قاسية على النفس جدا بالنسبة لأي امرأة لاتستطيع أن تواجه بها المجتمع . . فكيف بامرأة صالحة ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . لقد بدأ التمهيد للاعداد للمعجزة لتظهر على الأرض للناس قبل ان تولد مريم عليها السلام . .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾

(سورة آل عمران ٣٥)

أم مريم

﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٥)

. . أى أن أم مريم نذرت ما فى بطنها ساعة علمها بالحمل . . ولم تكن تعرف هل ستلد ذكرا أو أنثى . . نذرته لله سبحانه وتعالى . .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٦)

كانت أم مريم تعتقد ان الله سيرزقها بولد . . وتعتقد أن الولد اقدر على خدمة دين الله فى الأرض من الانثى . . ولكن الله شاء لكى يتم سبحانه وتعالى بقدراته معجزات الخلق بخلق من انثى دون ذكر . . أراد الله سبحانه وتعالى لكى يتم هذا ان يكون المولود أنثى . . وهنا اتجهت أم مريم عليها السلام وقالت « إنى وضعتها انثى » . . ثم تضرعت إليه سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٦)

طلاقة القدرة

هنا يبرز سؤال مهم . . كيف عرفت أم مريم أن مريم سيكون لها ذرية . . والجواب على ذلك سهل . . فكل طفلة تولد يتوقع لها اهلها ان

مثل عيسى كمثل آدم .

تتزوج وأن يكون لها ذرية . . فلذلك فقد كان دعاء أم مريم دعاء بشريا عاديا تدعوه كل أم لطفلتها . . ولم يدر فى خلدها أن هذه الطفلة الصغيرة التى أسمتها مريم سيجرى الله عليها بقدراته اتمام معجزات الخلق من أنثى بلاذكر .

وذهبت مريم تتعلم الدين ، وتتعبد ، وكفلها زكريا وهو نبى الله ومن الصالحين . . وهو شقيق والدتها . . كفلها لتتعبد لله سبحانه وتعالى فى محراب بعيدا عن الناس . .

ولكن زكريا لاحظ شيئا غريبا ، وكانت بداية اشارة من الله بمعجزة . . حتى تستطيع مريم أن تتقبلها . . فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا . . كان يجد عندها فاكهة الشتاء فى موسم الصيف . . وفاكهة الصيف فى موسم الشتاء . . وكان زكريا يتعجب من ذلك . . ويسأل لماذا يحدث هذا . . فلا يجد جوابا . . ولم يطق زكريا صبرا فوجه سؤالا مباشرا الى مريم : « يا مريم أنى لك هذا ؟ » . . أى يامريم من اين تأتيك هذه الفاكهة فى غير أوانها . . وكان جواب مريم بسيطا صريحا كالحدث نفسه . .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾
(سورة آل عمران ٣٧)

ولابد هنا أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بدأ يجعل مريم تحس بطلاقة القدرة فى لقاء مباشر مع هذه الطلاقة التى تعدها بعد ذلك بأن تحس

تماما وتعرف ان الله يفعل ما يشاء . . ولايحدث عن ايمان غيبى فقط . . ولكن عن حقيقة واقعة . . هى أن تأتيها الفاكهة فى غير موسمها . . فتألف هذه الطلاقة واقعا . . حتى اذا وضعت دون ان يمسها رجل لم تكن الصدمة عنيفة عليها . . بل أحست باختيار الله لها ليتم عليها معجزات خلق الانسان . .

وتوقف زكريا عند كلام مريم . . وأراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه بطلاقة قدرته الولد الذى يرث زكريا . . وزكريا . . فى ذلك الوقت شيخ كبير ، وامرأته عاقر . . ولقد أخذ بالاسباب أولا فتزوج . . ولكن الله لم يرزقه الولد بالأسباب فاراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته . . بعد أن انعدمت الأسباب . . وبعد أن أصبح هو شيخا كبيرا وامرأته عجوزا . . ومنطق الدنيا ومنطق الأحداث يقول انهما لن ينجبا . . أراد أن يعطيه الله بطلاقة القدرة الذى لم يحصل عليها بالأسباب .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٣٨ و٣٩)

مثل عيسى كمثل آدم .

. . ونفهم من سياق الايات ان الدعاء الى الله تم وزكريا يصلى لله مبتهلا .

يفعل ما يشاء

حين حدث هذا وتجلت طلاقة قدرة الله لزكريا ليعرف ان مريم صادقة تماما فيما قالت . . وأن ما يأتيها من رزق فى غير أوانه هو من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . أخذته الأسباب مرة أخرى . . ورفع يديه الى السماء قائلا .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٤٠)

. . زكريا رغم أنه نبى ومن الصالحين حين أتته طلاقة قدرة الله لتهبه الغلام بعد أن انعدمت الأسباب ، سواء من ناحيته أو من ناحية زوجته . . ليتم له ذلك وقف مبهوتا . . وقد كان اللقاء مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى لقاء قويا . . زلزل نفسه . . فقال ياربى أنا شيخ كبير وامرأتى عاقر كيف ستهبنا الولد وقد فقدنا كل اسباب القدرة على ذلك . . وهنا قال الله سبحانه وتعالى لاتسأل يازكريا كيف . . فهذه الكلمة ليس لها مكان عند الله . . اذ إن الله هو خالق كل شىء . . ومن هنا فانه يقول للشىء : كن فيكون . . ليست هناك كيفية . . فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء ولايحتاج لتبرير ما يحدث . . ولايحتاج لمعونة فيما يريد أن يخلق . . ومن هنا

فكلمة كيف هذه لايسأل عنها الله سبحانه وتعالى . . بل يسأل عنها من هم دون الله . . ان الله هو الذى يخلق ولا قيود على قدرته . . ولذلك كان الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران ٤٠)

. . وكان جوابا إيمانيا قويا لم يستطع بعده زكريا أن يسأل أو يقول شيئا . . لأن الجواب لايفتح المجال لأى سؤال ـ فطلاقة قدرة الله فى كونه تفعل كل شىء .

أما مريم التى عرفت طلاقة القدرة فى محرابها فيما يأتيها من رزق لايخضع لأسباب الدنيا . . فقد كانت راضية بذلك تحس أنه من رضا الله سبحانه وتعالى عليها . . وظلت مريم تتعبد فى محرابها . . تعبد الله الذى اصطفاها وطهرها على نساء العالمين . . الى أن جاء اتمام معجزة خلق الانسان . . وهنا نزلت الملائكة لتبشر مريم بالمعجزة .

إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ

(سورة آل عمران ٤٥)

. . هنا نتوقف عند قوله تعالى ﴿ بكلمة منه ﴾ . . فنقول ان الله سبحانه وتعالى حين بشر زكريا بمولد ابنه يحيى قال :

مثل عيسى كمثل آدم .

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران ٣٩)

وقال الله لبنى إسرائيل :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(سورة الأعراف الآية ١٣٧)

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾

(سورة يونس ـ الآية ٣٣)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة يونس الآية ٩٦)

وقال جل جلاله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾

(سورة غافر الآية ٦)

.. وقال :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة فصلت الآية ٤٥)

.. وقال سبحانه :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾

(سورة البقرة الآية ٣٧)

وقال :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(سورة البقرة الآية ١٢٤)

.. وقال تبارك وتعالى :

﴿ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾

(سورة الانفال الآية ٧)

وقال :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ

كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا

(سورة الكهف ـ الآية ١٠٩)

وهكذا نرى ان الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظ كلمة بمعنى أنه أمر يتم ولارجوع فيه وأنه قد استخدمها فى عدة مواضع فى القرآن الكريم كما بينا .

ويخـلـق مـا يشـاء

حين جاءت الاشارة الى مريم ، ورغم أنها رأت رؤيا اليقين طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى أن يرزقها بما يشاء فى أى وقت يشاء . . فانها اهتزت بعنف . . اتجهت الى الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٤٧)

. . هنا رجعت مريم الى الاسباب مرة اخرى وهزتها المعجزة من داخلها . . وقالت ياربى كيف أرزق بولد ، وأنا عذراء لم يمسسنى بشر ، ولم يقترب منى انسان وحينئذ جاء الرد من الله سبحانه وتعالى ﴿ **كذلك** ﴾ . . أى أن هذا السؤال لايسأل لله والله بقدرته يفعل ما يشاء . . وكلمة كيف قالها زكريا وكان رد الله سبحانه وتعالى عليه هو نفس الرد . . كذلك يفعل الله ما يشاء وكان رد الله على مريم كذلك يخلق الله ما يشاء . .

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق فى لفظ واحد اختلف فى الردين . . فعندما رد على زكريا قال يفعل ما يشاء لماذا ؟ . . لأن الأسباب موجودة ولكنها لاتفعل . . والله حينئذ يجعلها تفعل . . ولكن فى رد الله سبحانه وتعالى على مريم . . لم تكن هناك أسباب فمريم لم يمسسها بشر . . ولذلك قال الله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ . . لأنه فى هذه الحالة لن يأمر الله الأسباب لتفعل . . فالاسباب غير موجودة ولكنه سيخلق خلقا مباشرا لاتمام معجزات خلق الانسان . . وهكذا الاختلاف فى الردين بالتدليل بكلمة واحدة على أن المستفهم عنه شيء واحد . . ولكن الذى سيتم فى الحالتين مختلف . . ففى الحالة الأولى عند زكريا سيجعل الله الأسباب تفعل . . وفى الحالة الثانية سيخلق الله بشراً بقدرته سبحانه وتعالى .

ومضت الملائكة فى بشارتها من الله الى مريم . . تبين لها أن من سيخلقه الله سيكون له شأن كبير .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران الآية ٤٨ و٤٩)

وهكذا حملت الملائكة بشرى الله الى مريم ليثبتها على ما هى مقدمة عليه . . وكيف ستواجه الناس . . وماذا ستقول لهم . . وهل سيصدقونها ؟ . . فاذا بالملائكة تبشرها من الله بأن من سيتم خلقه سيكون رسولا من الله وسيؤيده بالمعجزات الدامغة التى تحمل الدليل على صدق ما ستخبر به مريم قومها . . وان عيسى ابن مريم الذى سيأتى متمما لمعجزات الله فى خلق البشر بأن يخلق من انثى بلا رجل . . ستكون معه الدلالة على صدق المعجزة التى تمت بانه سيخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا باذن الله . . وأنه سيحيى الموتى بإذن الله . . وأن هذه المعجزات الخارقة التى أعدها الله سبحانه وتعالى قد اعدت لتكون تأييدا قويا على صدق رسالة عيسى عليه السلام ، وصدق تبليغه عن الله . . وعلى صدق المعجزة التى تمت بطريقة ميلاده .

واهــتزت مــريم

ورغم كل هذا التثبيت فإن مريم قد اهتزت من المعجزة وعندما اراد الله سبحانه وتعالى ان تتم عملية الخلق وارسل اليها الملك ليتم النفخ من روح الله . . تماما كما حدث فى خلق آدم عندما قال الله سبحانه وتعالى فى خلق آدم :

﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾

نفس عملية الخلق تمت مع عيسى عليه السلام . . الفرق الوحيد أن آدم خلق من غير ذكر أو أنثى . . وعيسى خلق من أنثى بغير ذكر . .

مثل عيسى كمثل آدم .

عندما جاء الملك مفوضا من الله سبحانه وتعالى ليتم نفخ الروح .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة مريم من الآية ١٨ إلى ٢١)

. . أى أن مريم رغم كل التثبيت الذى تم اهتزت وقت المعجزة وأعادت الأمر إلى الأسباب مرة أخرى . . فجاء الرد من الله سبحانه وتعالى وكان نفس الرد « كذلك » ثم جاء بعد ذل الشرح لما يحدث كيف تتعجبين من حدوث هذا الخلق من الله سبحانه وتعالى وهو شىء هين على الله . . لا يحتاج إلى جهد وليس أمراً صعبا . . فكل ما فى هذه الدنيا وكل ما يريده الله فيها هو هين عليه .

﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾

(سورة مريم ٢١)

وهكذا تم اخبار مريم بالحكمة من كل ما يحدث . . ان هذا الطفل الذى سيأتى هو آية من الله سبحانه وتعالى للناس لاتمام آيات خلق الله للبشر

وليعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق بشرا بدون ذكر وأنثى وقادر على ان يخلق بشرا من ذكر دون انثى وقادر على أن يخلق بشرا من أنثى دون ذكر وقادر على ان يخلق بشرا من ذكر وانثى . . تلك هى الآية التى اراد الله سبحانه وتعالى أن يبينها للناس . . ثم هو رحمة لبنى اسرائيل يعلمهم الكتاب والحكمة . . ويحل لهم بعض الذى حرم عليهم . . وهو رحمة لهم فى أن يصحح لهم الذى حرفوه ويخرجهم من ماديتهم وعبادة الذهب والمال الى الروحانيات . . ثم يختتم الله سبحانه وتعالى الآية حسما للأمر بأن ما يحدث من معجزة الخلق هو أمر مقضى من الله سبحانه وتعالى لارجوع فيه ولاتوقف فى تنفيذه .

حينئذ نكون قد وصلنا الى الحكمة من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . « ان مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » . . والله سبحانه وتعالى يريد ان يقول لنا لماذا تعجبون من خلق عيسى من انثى بلاذكر . . ولاتعجبون من خلق آدم بدون ذكر وانثى والمعجزة فى خلق آدم اكبر واشمل من معجزة خلق عيسى فكلاهما خلقته من تراب . . وكلاهما نفخت فيه الروح . . وإذا كنتم تريدون ان تعرفوا لماذا تمت هذه المعجزة . . فهى لم تتم دون حكمة . . بل كانت لها حكمة هى إتمام معجزات خلق البشر . . وقد سبق إتمام هذه المعجزة منذ إعداد لمريم عليها السلام ، وتثبيتها بطلاقة القدرة حتى اذا جاء أمر الله لم يزلزلها . . ومع ذلك فانها اهتزت حين جاءها الملك لنفخ الروح وتساءلت كيف تضع غلاما ولم يمسسها بشر فجاء الرد من الله سبحانه

مثل عيسى كمثل آدم .

وتعالى ان الله يخلق ما يشاء بدون اسباب لأن ذلك من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . على ان الله ضرب فى القرآن الكريم امثلة للجنة وما سيلقاه فيها المؤمن من نعيم . . والنار وماسيجده فيها الكافر من عذاب . . وذلك هو موضوع الفصل القادم . .

حديث قدسى

اعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رات ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقراوا إن شئتم : (وظل ممدود) ، وموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، واقراوا إن شئتم : (فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

* * *

يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا ابالى ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا ابالى ، يا ابن آدم لو اتنيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا ، لاتيتك بقرابها مغفرة .

* * *

إذا أحب الله عبدا نادى جبريل : انى احببت فلانا فاحبه ، قال : فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى اهل الأرض ، فذلك قول الله :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) .

وإذا ابغض الله عبدا نادى جبريل : إنى قد ابغضت فلانا ، فينادى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض .

* * *

الفَصْلُ الخَامِسُ

مَثَلُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ

مثل الجنة والنار .

الله سبحانه وتعالى ضرب فى القرآن الكريم أمثالا كثيرة للجنة والنار . . وهى أمثال امتدت فى معظم آيات القرآن الكريم . . وذلك حتى يقرب للعقل البشرى عظم ثواب المطيع ، وعظم عقاب الكافر أو غير المؤمن . . وذلك لأن هذه هى نهاية الخلق أو هدفه . . فكما قلنا ان الله سبحانه وتعالى قد خلق أجناسا مقهورة لطاعته وخلق الانس والجان مختارين فى الطاعة . . وطلب منهم أن يكونوا طائعين باختيارهم هم . . وذلك كما بينا فى الفصل الأول .

والايمان كما بينا هو اختبار لحب الله فى القلب . . فالانسان المؤمن هو من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما . . هنا يثور سؤال طالما وجه الى . . لماذا يعذب الله سبحانه وتعالى خلقه ؟ . . ولماذا يوضعون فى النار ؟ . .

الله سبحانه وتعالى لا يريد العذاب لأحد . . بل يريد أن يدخلنا جميعا جنات النعيم خالدين فيها . . وحب الله سبحانه وتعالى يجعله أرحم بنا من رحمة الأب والأم بأولادهم . . الله خلق لنا هذا الكون كله بكل ما فيه من نعم . . خلقه بتمام قدرته . . ووضع فيه قوى أكبر منا كثيرا كالشمس والقمر والجبال والبحار وغيرها . . تلك القوى تستطيع أن تهلك ابن آدم فى لحظات . . فالبحر اذا انطلق على اليابسة جردها من الحياة . . والشمس إذا اقتربت من الأرض أحرقتها . . والجبال لو تزحزحت من مكانها لاختل توازن الأرض تماما ولهوت فى الفضاء السحيق والنجوم لو اختل نظامها واصطدمت بالأرض لدمرتها تماما . . اذن كل هذه القوى هى

أكبر وأقوى من الانسان . . ومع ذلك سخرها الله قهرا لخدمة الانسان . . فقال للشمس أشرقى كل يوم لتضيئى له وتعطيه الدفء اللازم لحياته . . وتعطيه النور اللازم لعمله . . وتتفاعلى مع الأرض والنبات لتعطيه الطعام اللازم لحياته . . وقال للماء : كن أنهارا عذبة لتسقيه ماء عذبا يحفظ له حياته فى الأرض . . وكن بحارا لتعطيه الطعام وتنقله من مكان الى آخر . . ووضع كل شىء فى مكانه لخدمة الانسان . . ثم أوجد له طعامه فى الأرض . . ولم يوجد له طعاما واحدا ليحفظ حياته . . بل وضع له الرفاهية فأوجد له طعاما مختلفاً ألوانه . . فهذا حلو . . وهذا مر . . وهذا له طعم مختلف محبب الى النفس . . أى أن الله سبحانه وتعالى لم يوفر الضروريات فقط للانسان فى حياته . . بل وفر له الكماليات وأعطاه الرفاهية . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر - الآية ٢٧ ، ٢٨)

هكذا أوجد الله للانسان كل النعم فى الكون . . ووضع له ما يحفظ حياته فى جسده وفى عقله وفى قدراته . . وتم ذلك كله بقدرة الله . .

ودون أن يكون للانسان أى دخل . . ودون أن يبذل جهدا . . ودون أن يحرك قدما اويدا .

وجاء الانسان الى الكون والنعمة كلها موجودة . . ووجد الشجر الذى يستظل به من حرارة الشمس . . ووجد الطعام الذى يأكله والماء الذى يشربه . . واللبن الذى يسقيه لاطفاله . . ثم كشف الله للانسان من علمه فى الأرض ما يجعله قادرا على عمارتها . . وقال له انطلق الى عمارة الأرض تزدد خيرا . . وتزدد رفاهية وتزدد سعادة . . وانني سخرت لك كل ما فى الكون وأعطيتك كل هذا الرزق فوجب عليك ان تشكر الله . . ولم يطلب الله منا أن نسجد له ليلا ونهارا ولا حملنا ما لاطاقة لنا به . . والله سبحانه وتعالى يقول لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . بينما أعطانا من العبادات ما يستغرق دقائق معدودة فى اليوم . . نصلى له شكرا لهذه النعم التى لا تعد ولا تحصى . . وزاد الله فى رحمته وفضله ، وقال من يشكرنى ويعبدنى طائعا مختارا أعددت له جنة فيها كل النعم بقدرات الله سبحانه وتعالى . . وابقيته فيها يتمتع بهذه النعم خالدا فيها لا يموت ولا يمرض ولا يتعب جزاء له على هذا الشكر وهذه العبادة التى قدمها . . هذا هو كرم الله . . وهذا فضله . . نعم بلا حدود . . وكون بديع جميل يخدم الانسان بلا مقابل . . ثم جنة جعل الله فيها مكانا لكل واحد من خلقه . . فكل منا له مقعد فى الجنة . . ومقعد فى النار .

ماذا فعل الانسان ؟ . . هل قدم الشكر الذى أوجبته هذه النعم عليه ؟ لا . . بل انه أخذ كل هذه النعم وتمتع بها دون ان يؤدى حتى حق

الشكر . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

« سورة سبأ الآية ١٣ »

. . ولم يفعل ذلك فقط . . ليته لم يقدر الشكر وسكت . ولكنه مضى الى الكون يفسد فيه . . فقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق . . واحتكر خيرات الله فوجد فى الكون أناسا يملكون أكثر مما يستطيعون أن يأكلوه وشعوبا أخرى تموت من الجوع . . وماذا فعلت الشعوب التى تملك أكثر من حاجتها أخذت نعمة الله التى خلقها لاطعام الانسان وأفسدتها وألقت بها فى البحر . . قطعت الأشجار والغابات التى هى رئة الكون يتنفس بها وبنت مكانها كل ما يلوث الجو ويفسده . . خلق الله الانسان حرا . . فإذا بالانسان يستعبد الانسان . . يستعبده بالمال . . ويستعبده بالحاجة . . ويستعبده بما خلق الله فى الكون للناس جميعا . . خلق الله الانسان آمنا . . فإذا بالانسان يستعبده بالخوف والايذاء وبكل ما هو كريه يفسد به صنعة الله وخلقه . . طلب الله من كل منا ان يحترم حقوق الآخر . . فإذا بالانسان يعتدى على حرمات أخيه وعلى ماله وعرضه .

منهـج اللـــه . .

بل انطلق الانسان الى أكثر من ذلك . . وضع الله سبحانه وتعالى له منهج الحياة فى الأرض . . وقال إذا طبقت هذا المنهج فانك ستعيش حياة سعيدة فى الدنيا والاخرة . . فجاء الانسان الى منهج الله فغيره وأفسده . .

وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ المنهج بقدرته هو ، بحيث لا يتم فيه تبديل ولا تغيير . . انطلق الانسان تاركا منهج الله وبدأ يشرع لنفسه ، فيحلل ما حرم الله . . ويحرم ما أحله . . ويضع عقله ظلما وزيفا وعدوانا فوق قدرة الله . . فيشرع لنفسه مستخدما هوى النفس . . مضلا عن الله . . ثم يمعن ويحاول ستر وجود الله . . ويعبد الاحجار والأصنام والحيوانات والانسان . . فإذا سألته هل هؤلاء جميعا يستطيعون أن يخلقوا مثل هذه الحياة . . يحاول ان يجادلك عبثا فى الخلق . . ولو أنه شهد الخلق لقلنا شاهد ومن حقه الكلام . . ولو أنه علم اسرار الخلق لقلنا عالم يتحدث عن علمه ، ولكن لا هذا ولا ذاك . . فلا هو شهده ولا هو يعلم . . ومع ذلك هو يكابر ويحاول أن يضل الناس . . فيقول الله فيه . .

﴿ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ (سورة الكهف ـ الآية ٥١)

. . هذا هو الانسان وهذه هى نعم الله عليه . . وهذا هو كفره بهذه النعم حتى أن الله سبحانه وتعالى قال . .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة عبس ـ الآية ١٧)

لكن الله عدل . . وهو رب العالمين . . ومن هنا فإنه يعطى لخلقه

حقوقا متساوية . . وهو قيوم قائم على كونه . . من هنا فإنه حريص على حقوق كل عبد من عباده . . ضعيفهم وقويهم . . صغيرهم وكبيرهم . . فإذا اعتدى القوى على الضعيف كان ذلك اعتداء على حق من حقوق الله فى قيوميته على خلقه . . وإذا ظلم جبار الناس . . كان ذلك اعتداء على حقوق الله فى كونه . . والله سبحانه وتعالى بعد أن كفل لكل منا حقا متساويا دون تمييز بين جنس أو لون أو مركز . فكلنا أمام الله متساوون لافرق بيننا إلا بالتقوى . . والله سبحانه وتعالى إما أن يكون قادرا على حماية خلقه وحماية الحقوق التى أعطاها لهم بعدله . . وإما أن إن يكون ـ تنزه وتبارك وتعالى ـ عاجزا عن ذلك . . والله قادر . . وقاهر . . ومن هنا فان عدله يقتضى القصاص . . لأنه لا موجب ولا مبرر للظلم إلا هوى النفس البشرية وحرص الانسان أن يتميز على غيره وأن يعلو عليه ويستعبده . . ولذلك فإن القصاص يكون عدلا . . ما دام الله قد أعطانا حقوقا متساوية فلا يعتدى واحد منا على خلق الله . . فيفسده أو يهدر حقا من الحقوق التى أعطاها الله لخلقه .

رحمـــة اللـــه

ومع هذا . . ومع كل هذه النعم التى أعطاها الله للانسان بلا مقابل وبدون جهد بشرى . . بل بقدرة الله سبحانه وتعالى . . ومع أن الانسان أفسد وظلم . . وأكل حقوق غيره . . وعبث فى كون هو من خلق الله . . ونقل الحياة من السعادة والازدهار إلى البؤس والشقاء . . وقد شاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يمهله المرة تلو المرة . . وان يبعث له الرسل رسولا

بعد رسول . . وأن يجعل عباده المؤمنين يذكرون البشرية كلها ببشاعة فعلهم ويذكرونهم بعذاب الله . . فإذا تاب انسان ورجع عن ظلمه وندم على ما فعل . . تاب الله عليه برغم كل الآثام التى ارتكبها . . وإذا رفع يديه الى السماء وطلب المغفرة من الله . . غفر الله له وعفا عنه . . ويذكره الله ويقول . .

إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ

(سورة الزمر ـ الآية ٥٣)

. . ويقول توبوا الى الله توبة نصوحا . . علينا نرجع . . علينا نفيق ـ علينا نتذكر . . ولكننا لا نتذكر الله إلا ساعة الشدة . . أو ساعة الضيق . . أو ساعة الموت . . تلك هى الساعات التى يتذكر فيها الانسان قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته . . فيرفع يديه الى السماء ويصيح يارب فإذا أعطى كفر . . تلك هى حقيقة الانسان الذى فتح الله له من أبواب رحمته ابوابا واسعة . . وفتح له من أبواب التوبة ما يسع الذنوب جميعا . . وفتح له من أبواب التذكرة ما جعله يفيق ويرجع . . ولكنه أبى كبرا وعنادا إلا ان يمضى فى ضلاله متحديا كل منهج الله . . فكان حقا عليه العقاب .

الله سبحانه وتعالى لا يريد ان يعذب أحدا من خلقه . . لأنه هو الذى خلقهم وأوجدهم . . فيقول فى كتابه العزيز . .

﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ ﴾

(سورة النساء ـ الآية ١٤٧)

. . ولكن الانسان هو الذى يوجب على نفسه العذاب . . وهو الذى يوجب على نفسه اللعنة . . وهو الذى يوجب على نفسه سوء المصير . . الله يذكره برحمته . . يذكره بنعمه . . ويذكره بقدرته . . ويقول . .

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الآية ٢٨)

. . أى أنت أيها الانسان لاحول لك ولاقوة إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . أفق . . تنبه . . قف لحظة واحدة لتتنبه الى أين تسير . . ولكن الانسان لا يتنبه ولا يتدبر ولا يعرف الى أين يسير . . ويذكره الله فى القرآن الكريم بالجنة والنار . . ويضرب له الأمثال ليقرب له المعنى إلى ذهنه . ولكن الانسان بدلا من أن يقبل على الله يزداد نفورا وبعدا عن الله سبحانه وتعالى . . ويزداد غرورا ، حتى تحق عليه كلمة العذاب . . وحينئذ حين يرى العذاب . . يحس ببشاعة ما فعل وما اقترفت يداه .

ولكن الجنة . . أو الآخرة . . فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . ومادامت هذه هى الحقيقة . . فكيف يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال لنا بما لم نسمع ولم نر ولم يخطر على عقولنا . . إذن فكل الامثال التى ضربها الله فى القرآن الكريم عن الجنة والنار لا يمكن ان تصل الى الحقيقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى ضربها لنا لتؤدى معانى ولتضع فى عقولنا ما هى فلسفة النعيم الذى ينتظرنا فى الجنة . . وما هى بشاعة العذاب الذى ينتظره الكافرون فى النار . . على أننا قبل أن نبدأ هذا

لابد لنا من أن نتذكر مثلا جاء فى القرآن الكريم ، وذلك فى قول الله تعالى . .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجمعة ـ الآية ٥)

. . أى أن الله شبه من يعلم منهجه ولا يعمل به كأنه فى منزلة أقل من منزلة الحمار . . لماذا ؟ . . لأنه يحمل هذه الكتب التى فيها الحكمة والحق والبيان . . ثم بعد ذلك لا يستفيد منها سوى أنه يحمل ثقلها . . ولكن لماذا هذا الانسان فى منزلة أقل من منزلة الحمار ؟ . . لأن الحمار خلق ليحمل الاثقال فى الحياة وينقلها من مكان الى آخر . . ولم يعطه الله موهبة العلم . . أو ييسره ليتعلم . . ولذلك هو حين يحمل هذه الكتب التى تحتوى الحكمة من مكان إلى آخر يؤدى مهمته فى الحياة . . يفعل ما خلق من أجله . . ولكن الانسان أعطاه الله موهبة العلم . . وجعله صالحا لأن يتعلم ويعى ، ويطبق منهج الله . . ولكنه لا يؤدى مهمته فى الحياة . . فهو يحمل هذه الكتب ولا يعمل بها . وهو يقرأ ولا يعى . . فكأنه فى منزلة أقل من منزلة الحمار . . لأن الحمار يؤدى مهمته فى الحياة . . والانسان الكافر المبتعد عن منهج الله لا يؤدى مهمته فى الحياة .

مثـــل الجنـــة

الله حين يضرب لنا الأمثال يقول . .

﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد ـ الآية ١٥)

. . عندما نقرأ هذه الآية ونتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة (فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر) . . يلاحظ فى حديث رسول الله أنه بدأ بالعين ثم الأذن ثم قلب البشر . . لأن العين فى رؤياها لها حدود . . ولكنها أهم من عدد من الحواس الاخرى كاللمس مثلا . . فان العين ترى أبعد ما تلمس اليد . . أو كالشم مثلا فان العين ترى ابعد وأوسع من الرائحة التى يشمها الأنف . . وهكذا . . ثم تأتى الأذن لأن الأذن أوسع فانك قد تسمع صوت انسان ولكن نظرك لا يدركه . . والأذن تسمع تجربة غيرك وتعيها . . أما العين فلا ترى الا ما يحدث أمامها . . ثم يأتى مالا خطر على قلب بشر ـ لأن ما يخطر على قلبك أوسع كثيرا مما تراه عينك . . وكما قلنا : ان المعنى يسبق اللفظ . . ووجود اللفظ دليل على ان المعنى موجود . . وذلك ما بيناه بالتفصيل فى فصل سابق .

فاذا كانت المعانى التى فى الآخرة ما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . فلا توجد لها ألفاظ فى اللغات تعبر عنها . . ولذلك فاننا نلاحظ دقة الله سبحانه وتعالى فى استخدامه مثل الجنة دون أن يطلق الألفاظ على اطلاقها . . ولذلك فان الحديث مختلف عما سنراه فى الجنة . . انه حديث على قدر عقولنا وفهمنا بما تراه فى الدنيا .

نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى حينما تحدث عن النعيم فى الجنة كان هناك خط مشترك يربط بين هذا كله . . ذلك أن الله سينزع من كل نعمة من النعم ما يضايق الانسان فى الدنيا ، أو ما يسبب له الضيق . . فالماء فى الدنيا حين تتركه فترة راكدا فانه يفسد ويصبح ماء آسنا . . يتغير طعمه فلا تستسيغه .

ولكن فى الآخرة لا شىء من هذا . . الماء دائما وأبدا سيكون حلو المذاق نقيا طاهرا . . كلما شربت منه ازدادت حلاوته فى فمك . . وكذلك العسل . . وكذلك باقى النعم كلها منقاة من الشوائب . . منقاة من كل شىء . . مخلوقة خلقاً جديدا صافيا . . ليس هو خلق الدنيا . . ولكنه خلق لا يلحقه أى نوع من العيوب التى تظهر فى نعم الدنيا حين تترك لفترة أو يساء استخدامها . . بأن تتحول من حلال الى حرام . . كالعنب الذى يصنعون منه الخمور من رزق حلال الى رزق حرام . . والخمر فى الدنيا إثم ، لأنها تذهب العقل . . والانسان حين صنعها ملأها بالشوائب الضارة التى تجعلها ضارة بالصحة وضارة بالجسد . . وضارة بالعقل وفيها أذى كبير للانسان . . لذلك حرمها الله . . وهى حين تغيب العقل تدفع

الانسان الى طريق الشر ، والى طريق الشيطان . . لذلك فهى أم الكبائر . . من يشربها يستحل كل كبيرة . . ولكنها فى الآخرة غير ذلك . . ان الله سبحانه وتعالى ينزع منها كل هذه الشوائب . . ويوجدها بتكوين طاهر غير هذا التكوين الذى نعرفه فى الدنيا .

كل شـــىء مطهـــر

أى أن كل نعم الله ستكون طاهرة مطهرة من كل شائبة . . الماء لا يأسن ولا يتلف . . واللبن لا يتغير طعمه . . وكل شىء هو مخلوق ليكون نعيما مطلقا دون أن يكون فيه ما يكدر ، أوما يضر ، أو ما يؤذى آكله أو شاربه . . ذلك هو المعنى الذى يريد الله تعالى أن نفهمه من المثل الذى ضربه . . لأن عقولنا لا تستطيع ان تعى ما هو موجود فعلا فى الجنة . . لذلك يقول الله أن ما هو موجود سيكون نعيما ليس فيه شائبة واحدة . . ليس فيه ما يكدر الصفو أبدا . . ولا يصيب الانسان بأى نوع من الضيق ولو كان ضيقا خفيفا . . ولذلك فهو نعيم يحيط به نعيم .

هذا بالنسبة لنعم الله سبحانه وتعالى . . أما بالنسبة لأهل الجنة فيزال من نفوسهم كل ما يضايق أو تضيق به النفس . . فيقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(سورة الحجر الآية ٤٧)

والغل فى القلب والحقد هما آفة الدنيا . . أى أن الذى يفسد الدنيا

ويفسد العلاقات بين الناس . . ذلك الحقد الذى يصيب الانسان . . فيجعل فى قلبه غلا نحو انسان آخر فيفسد الجو بينهما ويصبح كل منهما عدوا للآخر . . وتبدأ مع العداوة البغضاء وشرور الدنيا . . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف ان الانسان فى الجنة سيكون مطهر القلب . . وأن المجتمع فى الجنة سيكون مجتمعا متحابا . . مجتمعا ليس فيه غل ولا حقد ولا كل ما يشوه الحياة الدنيا ويضع فيها أى نوع من أنواع الشقاء . . فالله يريد منا بهذا المثل أن نعرف . . ان الانسان فى الجنة لن يكون كالإنسان فى الدنيا . . بل سيكون مطهرا من كل الشوائب . . ومن كل الأشياء التى قد تسبب أو تثير أى نوع من الشقاء . . وإلى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥)

. . أى أن التطهر هنا سيكون شاملا وكاملا . . كيف سيكون ؟ . . وكيف سيتم ؟ . . ذلك علم الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى كما سينزع من النعم كل ما يضايق النفس البشرية . . كذلك سينزع من الانسان كل ما يثير الشقاء فى المجتمع . . الى أى درجة ؟ . . تلك التى لا يعرفها أحد لأنها من قدرات الله سبحانه وتعالى .

الجنة مجتمع مطهر من كل شىء يصيب من يعيش فيه بأى نوع من الضيق أو الشقاء أو عدم الراحة . . وذلك يحدث بقدرة الله سبحانه

وتعالى . . هذا ما يريدنا الله أن نفهمه من هذه الأسئلة انه سيأتى بنعم مطهرة وأزواج مطهرة . . ونفوس مطهرة . . ليصبح هذا المجتمع الطاهر نعيما لا تدخل فيه ذرة واحدة مما يثير الضيق فى النفوس . . فإذا وصلنا الى هذه الصورة . . لم نصل الى كيف يكون النعيم فى الجنة . . ولكننا نكون قد وصلنا الى ما تستطيع عقولنا أن تفهمه عن معنى النعيم فى الجنة . . دون أن نصل الى حقيقته . .

لماذا تترك المرأة ؟

على ان هناك قبل ان نترك هذه النقطة لنتحدث عن مثل العذاب فى النار . . تلك النقطة هى التى تثار دائما فى لقاءاتى . . خصوصا تلك التى تحدث مع المستشرقين . فى أن الله سبحانه وتعالى أعد حورا عينا فى الجنة للرجال . . ولم يعد مثل ذلك للنساء . . نقول لكل من يثير هذا الحديث إنك لاتفهم طبيعة الحياة . . ذلك ان كرامة المرأة فى ان يكون لها رجل واحد . . والمرأة المبتذلة هى التى يتعدد عليها الرجال . . أما المرأة الحرة فقد يموت زوجها فترفض أن تتزوج حتى لا يدخل عليها رجل آخر . . وإذا كانت طبيعة خلق الله للمرأة هى أن كرامتها فى ألا يتعدد عليها الرجال . . فكيف يأتى الله سبحانه وتعالى فى الجنة وهى دار النعيم ويجعلها دار إهانة للمرأة .

عندما سئلت هذا السؤال فى أمريكا . . قلت لمن سألنى هل لديكم مكان يستريح فيه النساء ويجدن رجالا متعددين ؟ قال : لا . . قلت : لماذا

تقيمون مكانا يرتاح فيه الرجال جنسيا ويجدون فيه من النساء ما يريدون ، ولا تقيمون نفس المكان للنساء فيه رجال يقومون بنفس المهمة . . فسكت ولم يجب . . وسألته هل هذا المكان الذى يوجد فيه النساء ويذهب اليه الرجال ليقضوا ساعة أو ساعتين فى متعة محرمة يخضع لاشراف طبى ؟ . . فقال بحماس شديد . . نعم إشراف طبى كل يوم . . قلت وهل تفعلون ذلك مع النساء المتزوجات . . قال: لا . . قلت : لماذا ؟ . .

فسكت فقلت له : لأن تعدد الرجال على المرأة الواحدة يخلق الأمراض الخبيثة . . فهل تريد من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة أن يهين كرامة المرأة . . وقد ارتفع بكرامتها فى الدنيا وأحل لها زوجا واحدا . . وهل تعدد الرجال على المرأة الواحدة الذى هو نوع من الاهانة . . ونوع من الجلب للمرض . . نريد من الله أن يجعله فى جنة كلها نعيم . . ان المرأة الحرة ترفع رأسها الى السماء وهى تمشى . . وتموت جوعا ولاتبيع جسدها . . هذه هى كرامة المرأة . . وهى كرامة يحافظ الله سبحانه وتعالى عليها فى الآخرة . . ويجعلها مرفوعة الرأس محفوظة الكرامة فالحرة لا تزنى أبدا . . والمرأة الكريمة الشريفة تكره أن يتعدد عليها رجل آخر حتى بعد أن يموت زوجها . . وتلك هى الحكمة .

عرض سريع للأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى للجنة . . فمجتمع مطهر من كل شائبة . . وبشر مطهرون من كل ما يثير أى نوع من أنواع الشقاء أو التكدير فى النفس . . تأتى فيه الأشياء الى الانسان دون تعب أو جهد . . وبمجرد ان ترد على خاطره يجدها أمامه فليس فيه تعب

ولا نصب ولا غل ولا حقد . . كل النعم مطهرة . . وكل ما فيه مطهر . . نعيم فى نعيم . . ثم نضيف الى ذلك أن هذا النعيم هو على قدرة الله سبحانه وتعالى وليس على قدرة البشر . . وبذلك يكون نعيما فى أعلى درجات العلو . . وتمتعا فوق كل تصور بشرى . .

العذاب فى النار

نأتى بعد ذلك الى الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للعذاب فى النار والعياذ بالله . . هذه الامثلة لا تمثل حقيقة واقع العذاب . . ولكنها تعطينا كما أعطتنا الأمثلة عن الجنة صورة مقربة تجعلنا نفهم طبيعة هذا العذاب الرهيب . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن العذاب فى النار لا ينتهى أبدا . . أى أنه عذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة فيقول . .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الآية ٥٦)

. . ونحن نعلم بعلمنا البشرى أن الأعصاب التى تنقل الحس الى الانسان والتى تجعله يشعر بالالم موجودة تحت الجلد مباشرة . . ومن هنا نعرف ان المسألة ليست عذابا بحيث يحترق الجلد وتحترق معه الأعصاب . . ثم لا يشعر الانسان بشىء ولكن كلما احترقت الأعصاب

بدل الله جلود الذين يعذبون فى النار بجلود أخرى تحتها أعصاب حية ليستمر الشعور بالالم والاحساس بالعذاب . . لأن الله يريد بهذا المثل ان يقول لنا لا تحسبوا ان عذاب النار مجرد عذاب وقتى . . أو أن الانسان يحترق ولا يحس بشىء . . بل كلما احترقت الجلود بدلناها بجلود غيرها . . ويعطينا الصورة البشرية التى نفهمها بأن العذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة . . فإذا كان هناك خلود فى النار . . فالعذاب فيها لا يتوقف أبدا . .

ويمضى الله فى بيان صورة العذاب فى النار فيقول :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الحاقة ـ الآية ٣٠ , ٣١ , ٣٢)

. . وهنا نجد صورة أخرى من العذاب هى ان الانسان سيكون وسط هذا الجحيم مقيدا بالسلاسل . . وأنت إذا أردت ان تعاقب انسانا فى الدنيا فانك تقيد حركته وتربطه بالسلاسل . . هذا وحده عذاب للبشر دون أن يكون معه أو مضافا اليه عذاب آخر . . فإذا أضفت اليه عذاب النار كان ذلك عذابا مضاعفا . . لذلك فإن الله يريد أن يفول لنا مع هذا الألم المستمر من النار الذى يتجدد بتجديد الجلود . . فإن الانسان لا يستطيع أن يتحرك يمينا أو يسارا . . لأنه ربما خففت عنه الحركة العذاب قليلا . . ولكن حتى هذا التخفيف غير موجود . . فهو مقيد فى مكانه . . لا يستطيع

ان يتزحزح عنه . . مما يجعل الشعور بالعذاب مضاعفا . . ثم يضاف الى ذلك الماء الذى يشربه . . والطعام الذى يأكله . .

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد الآية ١٥)

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النبأ ـ الآية ٢٥)

والمـــاء يغـــلى . .

فى ظل هذا العذاب المقيم . . والنار تأكل جلودهم التى تعاد اليها الحياة والسلاسل والأغلال تحيط بهم يطلبون الماء عله يكون فيه برد يخفف هذا العذاب ولو للحظة واحدة . . فيؤتى لهم الماء . . ولكنه ماء يغلى . . ومن اللهفة على الماء يشربونه . . فبدلا من أن يخفف عليهم العذاب يزيده ويقطع أمعاءهم . . ويزيد من إحساسهم بالعذاب بالألم الرهيب . . ثم بعد ذلك يأتى لهم الطعام لعله يقيم أودهم . . يقول الله . .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ

حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الصافات الآيات ٦٢ إلى ٦٧)

هنا يتحدث الله سبحانه وتعالى ليصور بشاعة ما سيأكله أهل النار فيقول . .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾
(٦٤ الصافات)

. . ولك ان تتصور ما نوع الشجرة التى تخرج من نيران خالدة . . وكيف يكون كل ما فيها من نار . . ثم يتحدث الله عن طلع هذه الشجرة وثمارها فيقول . .

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾
(٦٥ الصافات)

كيف يأتى هذا التشبيه ولم ير أحد منا الشيطان . . ولا يستطيع أن يفهم معنى رءوس الشياطين . . لأنه لم ير رءوس الشياطين .

عاقول ان ذلك تصوير بالغ فى الدقة . . فلو أنك قلت للرسامين فى العالم ارسموا لى صورة رأس شيطان . . لأمسك كل واحد منهم بريشته وألوانه ، ورسم شكلا بشعا مخيفا . . ولكنك إن أخذت هذه الأشكال وطابقتها على بعضها البعض لن تجد شكلا واحدا متفقا مع الشكل الآخر . ذلك ان كل واحد منهم قد رسم صورة بشعة كما تخيلها . . وكل خيال مختلف عن الخيال الآخر . . فلو كان للبشاعة شكل واحد . . لخرجت كل الصور متطابقة . . ولكن هذا يمثل بشاعة . . وهذا يمثل بشاعة . . والبشاعة

عندى تختلف عن البشاعة عندك . . وقد يمسك احد الرسامين بصورة من الصور التى رسمها زميل له ويقول ان هذه ليست رءوس الشياطين . . ان الصورة ليس فيها أى نوع من البشاعة وهى لاتخيف .

شــــىء لا يعـــرفه النـاس

ولهذه الحكمة ضرب الله هذا المثل . . هو لم يأت بشىء يعرفه الناس . . فما يخيفنى قد لا يخيفك . . وما يفزعنى قد لا يفزعك . . والله يريد افزاعا عاما لكل واحد منا . . فهو يأتى بكلمة رءوس الشياطين ثم يطلق العنان لخيال كل فرد منا ليتصور صورة الشيطان الذى يفزعه . . فكأن الصورة فى هذه الحالة تكون مفزعة للناس جميعا . . والله يلحق مجهولا بمعلوم . . لأن المجهول فى هذه الحالة متخيل عند الناس بوجوه مختلفة . . هذا يتخيله . . وهذا يتخليه بوجه آخر . . ولكن العامل المشترك فى هذه الخيالات كلها هو الفزع والخوف . . ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطانا تشبيها بمعلوم لدينا نعرفه يفزع منه الناس . . لوجدت بعض الناس لا يفزعون منه . . فالثعبان مثلا يخيفنى ويفزعنى . . ولكنه بالنسبة لصائد الثعابين شىء عادى جدا لا يثير الفزع فى نفسه . . بل ان صائد الثعابين ينبش جحور الثعابين بحثا عنها . . بينما أنا لو رأيت جحر ثعبان لوليت هاربا من الفزع . . والنمر والأسد والحيوانات المفترسة تخيف الناس . . ولكن صائد هذه الحيوانات لا يخافها . . وربما لا تكون هى فى طريقه فيذهب ليبحث عنها .

إذن قوله تعالى . .

﴿ طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ هو قمة البلاغة لاثارة الفزع فى كل نفس بشرية . . فكأنما أهل النار حينما يطلبون طعاما لا يجدون إلا شجرة الزقوم . . وهم يفتنون بها فيخيل إليهم أنها طعام جيد . . فاذا أتى بها اليهم . . أثارت فى نفوسهم الفزع والرعب من بشاعتها وكأنها رءوس شياطين تثير الخوف والفزع فى نفس كل واحد منهم . . ولا تجد انسانا واحدا فى النار لا يصاب بالفزع من هذا الطعام .

نكون بذلك قد وصلنا الى الحكمة من التشبيه الذى ورد فى القرآن الكريم بالنسبة للجنة والنار . . وإن كان هذا التشبيه ليس هو الواقع باطلاقه . . ولكنه يعطينا الفكرة العامة من الواقع دون حقيقته . . فالجنة نعيم فى نعيم فى نعيم . . فالرزق يأتى بلا عمل . . والنعم كلها مطهرة من كل شائبة . . وأهل الجنة مطهرون من كل غل أوحقد . . والصورة بالنسبة للنار عذاب دائم لا يذهب لحظة واحدة تجدد فيه الجلود لدوام الاحساس بالألم . . ويقيد فيه الناس بالسلاسل لدوام الاحساس بالضيق ويقطع امعاءهم الماء . . ويأتى الطعام اليهم فيملأ نفوسهم رعبا . . فى كل مضغة ألم . . وفى معدتهم نار وألم . . وفى امعائهم ألم شديد

على أنه ثار فى الفترة الأخيرة سؤال حول المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للملائكة الذين يقفون على أبواب النار . . والعدد الذى ذكر فى القرآن . .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ (سورة المدثر الآية ٣٠)

. . وهذا هو موضوع الفصل القادم

الفصل السادس

عليها تسعة عشر

عليها تسعة عشر .

قبل أن نختم هذا الكتاب وهو الجزء الثانى من الأمثال فى القرآن الكريم . . لابد أن أرد على ما يثار حول الأعداد فى القرآن الكريم ومعناها الى آخر ما يقال هذه الأيام . . ولقد أشرت الى ذلك إشارة بسيطة فى الجزء الأول الذى نشر فى رمضان الماضى . . ولكن لابد لنا من العودة لايضاح عدد من الأشياء .

وقبل أن نبدأ الحديث لنا وقفة مع ما يقال على استخدام العقل الألكترونى أو « الكمبيوتر » بالنسبة للقرآن الكريم . . ذلك أن بعض الناس يتوهم أننا مادمنا قد استخدمنا العقول الالكترونية فإننا قد اتجهنا الى شاهد عدل لا يخضع لهوى النفس . . وإننا جميعا لابد أن نحنى رءوسنا إجلالا واحتراما للنتائج التى يصل إليها الكمبيوتر أو العقل الالكترونى . . وأن نسلم بها تسليما قاطعا ، باعتبار أنها آلة صماء ، لايدخل بها هوى النفس أو الهوى الشخصى .

نقول لهؤلاء جميعا إنكم قد دخلت فى قلوبكم الغفلة . . ذلك أن هذه العقول الالكترونية تعمل وفق برامج يعدها الانسان . . وأن الانسان الذى يعد هذه البرامج إذا كان لديه هوى النفس ـ فإنه يستطيع أن يعد للكمبيوتر برنامجا يوافق هوى النفس البشرية . . وأنه هناك معلومات توضع فى الكمبيوتر وتخزن فى ذاكرته . . فإذا كانت هذه المعلومات سليمة وصحيحة . . جاءت النتائج سليمة وصحيحة . . وإذا كانت المعلومات يدخلها هوى النفس . . جاءت النتائج طبقا لهوى النفس . . الكمبيوتر آلة صماء تنفذ ما يلقى لها من معلومات . . وهى لا تفكر ولا تستطيع أن

عليها تسعة عشر .

تفكر لتمنع هوى النفس من أن يصل الى النتائج التى يريدها . . سواء أكانت هذه النتائج صحيحة أم مفروضة . . ولذلك فإن علينا أن نأخذ هذه المسائل بحذر شديد . . وأن نعرف أن المعلومات التى أعطيت الى الكمبيوتر معلومات خاطئة . . ليصل الى نتائج خاطئة . .

فمثلا يقال له ما هو عدد الحروف الذى يقبل القسمة على ١٩ . . فيبدأ فى العد حتى يصل بجمع حروف سورة أو سورتين الى العدد الذى يقبل القسمة على ١٩ . . فإذا لم يكن هذا العدد ، جمع حروف سورة أخرى . . وهكذا حتى يصل ذلك الذى استخدم العقل الالكترونى الى غرضه من تضليل البشر . . وكما نرى العقل الالكترونى لا يفعل شيئا إلا تنفيذا لأوامر تعطى له . . وهو فى هذه الحالة إنما هو عبد للبرنامج الذى فى داخله .

ولذلك فإن كل مؤمن لابد أن يستبعد من حياته تماما مسألة استخدام الكمبيوتر فى القرآن الكريم . . ويعرف أن وراء هذا الاستخدام شخصا وضع البرنامج ومعلوماته ليصل الى غرضه . . وأن هذا الشخص هو الذى يعطى العقل الالكترونى ليعمل ويوجهه كيف يشاء .

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ الحديث . . لكى يعرف الناس جميعا ، أن النتائج التى أذيعت عن طريق العقل الالكترونى يدخلها هوى النفس . . وأنها أعدت بمهارة لتضل الناس ، ونعطى غير الحقيقة ، مستخدما كلمة الكمبيوتر أو العقل الالكترونى . . لتضع الخداع فى

عليها تسعة عشر .

عقولنا . . وتوهمنا أن ما يحدث هو نتيجة لايدخلها هوى النفس لأنها تتم بآلات صماء . . نقول ان هوى النفس يدخل فى برنامج الآلة نفسها حسب ذلك الذى يضع البرنامج .

ولقد قيل إنهم حددوا موعد يوم القيامة . . وكم من مرة حدد الدجالون يوم القيامة . . فإنى أذكر أن عرافة هندية قد حددت موعد يوم القيامة . . وصدقها عدد من سكان الهند . . وفى اليوم المحدد أخذوا أمتعتهم وأولادهم وصعدوا الى قمم الجبال علها تنجيهم من يوم القيامة . . ومر اليوم ولم يحدث شىء . . ولم تكن الجبال لتقيهم من هذا اليوم حين يأتى موعده .

وأذكر مرة أخرى أن عرافة من المكسيك حددت موعد يوم القيامة . . ثم بعد ذلك حدث رعب وذعر فى بعض مناطق امريكا الجنوبية وامريكا الشمالية واتجه عدد من الناس الى المخابىء أو قمم الجبال يحتمون بها . . وطبعا لم يحدث شىء . . والمهم فى هذا كله أن هذه البدعة . . وهى إدعاء معرفة يوم القيامة سبق أن قام بها البشر . . وأثبت الله سبحانه وتعالى كذبهم .

وعلى أية حال فهذا كلام البهائيين وغيرهم من اصحاب المذاهب الهدامة . . وهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . . فماذا سأستفيد لو أننى علمت أن يوم القيامة غدا . . ومن الذى سينجينى . . وإذا لم أعلم أن يوم القيامة غدا . . فإنه سيأتى لا يمنعه علمى أو جهلى . . وسيأتى فجأة دون

أن يعرف أحد منا . . ولا يمكن لأحد أن يحدد موعد القيامة . . ولا يمكن لأحد أن يكشف شيئا من الغيبيات الخمسة . . هكذا قال الله فى قوله تعالى . .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة لقمان ـ الآية ٣٤)

يعلم ما فى الأرحام

وهذه قضية إيمانية فى المقام الأول . . فلا يمكن لبشر أن يأتى ويقول إنه كشف ما ستره الله سبحانه وتعالى عن خلقه واختص به نفسه الى يوم القيامة . . ولا يدخل العقل ـ أى عقل سوى ـ أن هذا يمكن أن يحدث .

فإذا قال لك أحد ان العلم قد وصل الى أنه كشف ما فى الأرحام . . أو كشف احد الغيبيات الخمسة بأنه يعرف ما فى الأرحام تقول له إنك كاذب .

والله يعلم من يشاء . . ويعطى العلم لمن يريد من عباده . . فمثلا هو علم زكريا ما فى رحم امرأته قبل أن يخلق هذا المولود . . فقال له ان المولود ذكر . . وأن اسمه يحيى . . وأنه سيكون نبيا ومن الصالحين . .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ

عليها تسعة عشر .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٣٩)

وفى سورة الكهف (الآية ٦٥) يقول فى العبد الصالح . .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

. . فمدلول العلم هنا إذا كان قد كشف عن شىء من الغيبيات بأن الله هو الذى علمه لمن شاء من عباده الصالحين . . ولذلك لا يكون هذا العلم ذاتيا من الرسول أو العبد الصالح . . بل يكون علما علمه الله له .

وكل الأبحاث التى تمت والتى تتم . . تؤكد أن البشرية لم تصل الى أى معنى من معانى يعلم ما فى الأرحام . . ذلك أن العلم إما أن يكون ذاتيا بمعنى أنه يعلم حسب قواعد ثابتة محددة . . واما ان يكون خاضعا للتجربة ولاحتمالات الخطأ والصواب . . وفى هذه الحالة يكون مجرد تجارب . . فما الذى يحدث بالنسبة لما وصل اليه العلم . . أولا يتم أخذ عينة بعد عدة أسابيع من الحمل . . وهذا هو أول ما ينفى العلم . . لأنه لو كان هناك علم حقيقى لعرفوا ذلك بمجرد بدء الحمل . . ولكن العلم عاجز حتى الآن عن أن يحدد اليوم والساعة التى بدأ فيها الحمل . . وهو لا يستطيع أن يصل الى ذلك إلا بعد مرور عدة أسابيع على حدوث الحمل . . فهل ذلك العاجز عن تحديد موعد حدوث الحمل . . يعلم ما فى الأرحام ؟ . . إن كل التحاليل والاكتشافات وكل ما يملكه العلم لا يستطيع أن يحدد بالدقة موعد حدوث الحمل .

العلم . . بعد الخلق

هذه واحدة . . وثانيا أنهم بعد الحمل بعدة أسابيع يأخذون عينة ويحللونها ليقولوا هل المولود ذكر أو أنثى . . وهناك احتمالان لا ثالث لهما . . إما أن يكون المولود ذكرا . . وإما أن يكون المولود أنثى . . وهذا يجعل التخمين سهلا جدا . . فلو أنه هناك مائة نوع من الأجنة . . وأنت ستحدد أى نوع موجود فى الرحم . . لقلنا إن ذلك علم . . لأنه فى هذه الحالة يكون التخمين مستحيلا ، والوصول الى نوع من بين مائة نوع شىء محتاج الى علم فعلا . . ولكننا نرى بعض النساء عندنا عندما ترى امرأة حاملا تقول لها سترزقين بولد . . وترزق فعلا بولد . . فهل هذه المرأة التى قالت هذا الكلام تعلم ما فى الأرحام . . أم أن التخمين هنا سهل . . والوصول الى النتائج حتى الآن هو وصول ظنى وليس يقينا . . هم يقولون انه بنسبة ٩٠٪ . . ونحن نشك فى هذه النسبة . . إلا انه حتى لو كانت صحيحة نقول من الذى قال لك أن كلمة « ما » تعنى ذكرا أو أنثى . . ان كلمة « ما » تعنى كل أحداث الحياة . . من كلمة « كن » التى تم بها الخلق حتى الموت . . بل وحتى البعث . . « ما » تعنىْ ، أهو شقى أو سعيد . . طويل أو قصير . ما لون عينيه ولون شعره . . عمره وأجله . . والأحداث التى ستقع عليه . . من سيتزوج . . ومن سينجب . . وأى الأمراض سيصاب بها . . وأى الحوادث سينجو منها . . وأى الحوادث لا ينجو منها . . رزقه وعمله . . كل خلية من خلايا جسمه ومتى تبعث فيها الحياة . . ومتى تتوقف عن الحياة . . الى أى البلاد سيذهب . . وفى أى الأماكن سيعمل . . ومن سيصادق . . ومن سيعادى . . ونستطيع أن

عليها تسعة عشر .

نمضى الى مالا نهاية فى أحداث الحياة التى تقع على البشر ليكون لها مدلول تحت كلمة « ما » التى قالها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . . فمن الذى فسر كلمة « ما » بأنها ذكر أو أنثى . . وكيف يمكن أن تدعى أنك تعلم ما فى الأرحام مع إنك علمته بعد ان وجد فعلا . .

فهل هذا علم ما فى الأرحام . . لقد وجد الجنين وتم خلقه فى رحم الأم . . ومرت عدة أسابيع على بداية خلق هذا الجنبن . . وبعد أن وجد جاء العلم ليقول ذكرا أو أنثى . . فهل هذا علم بكشف ما فى الأرحام فعلا ؟ . .

لو أن هناك علما حقيقيا لعرفت قبل أن يوجد . . ولكن ما دام قد وجد فقد خرج من عالم الغيب الى العالم المحسوس المكشوف . . وعندما خرج وكان قد علمت نوعه . . ولم تستطع أن تعرف ذلك ذاتيا . . ولكن كان لابد من اجراء عدة تحاليل . . فكأنك ترى المرض على وجه الانسان وتحلل دمه لتعرف نوع الميكروب . . فهل هذا علم بالغيب . . الجنين تخلق . . وصار فى عالم الواقع . . فأصبحت العملية هى اجراء تحاليل كتلك التى تجريها على الجسد البشرى لتعرف نوع المرض . . وكما تخضع هذه التحاليل البشرية للخطأ والصواب . . فكذلك تخضع التحاليل التى تجرى على الجنين للخطأ والصواب . . وكما لا تعرف من التحليل إلا الحالة التى أمامك . . كذلك لا يمكن ان تعرف من التحاليل التى تجرى إلا حالة الحمل التى أمامك . . ولا ينطبق هذا التحليل على أية حالة أخرى . . بل

عليها تسعة عشر .

لابد من إجراء تحليل لكل حالة على حدة . . وبعد ذلك كله . . فالمعرفة ظنية وليست يقينية . .

حديث قدسى

من عادى لى وليا اذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء احب إلى مما افترضت عليه ، وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى احبه ، فإذا احببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .

وإن سالنى لاعطينه ، وإن استعاذنى لاعيذنه ، وما ترددت عن شىء انا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وانا اكره مساءته .

* * *

اسرف رجل على نفسه ، فلما حضره الموت اوصى بنيه ، فقال : إذا انا مت فاحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى فى الريح فى البحر ، فوالله لئن قدر على ربى ايعذبنى عذابا ، ما عذبه احدا ، قال : ففعلوا به ذلك ، فقال الله للأرض : اد ما اخذت فإذا به قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيت ـ أو مخافتك ـ يارب ، فغفر له لذلك .

* * *

إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها ، كتبها الله له عنده عشرة حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى اضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها ، كتبها الله سيئة واحدة .

عليها تسعة عشر .

معنى العلم

ولذلك عندما يقول أى إنسان إنه يعلم ما فى الأرحام . . نقول له : أن العلم لذاته ، وأنك متى حللت دل ذلك على جهلك ، وأنك تريد أن تصل الى الحقيقة ـ فلماذا يرسلك الطبيب الى معمل التحليل . . لأنه يجهل مرضك . . أو على الأقل لأنه ليس لديه علم مؤكد لما تشكو منه . . ومن هنا فان كل الذين يقولون : إن أحد الغيبيات الخمسة قد كشف إنما يحاولون الاضلال . . ذلك لأنهم يعرفون يقينا أن العلم يعلم ما فى الأرحام قبل أن يوجد . . ولا يعلم مافى الأرحام ساعة أن يوجد . . ولا يعلم ما فى الأرحام بعد أن يوجد إلا بعد أن تمر ستة أسابيع أو أكثر ثم بعد ذلك تكون التجارب والتحاليل لتحديد نوع الجنين فقط . . وحتى هذا ليس يقينيا . .

ولكن التكوين النفسى والتكوين الخلقى ومستقبل المولود والمواصفات الوراثية له ثم حياته كلها لا يعرف عنها العلم شيئا . . فاذا وصل العلم الى جزء من المليون من معنى كلمة « مافى الأرحام » . . ووصل الى هذا الجزء من المليون بعد بدء خلق الجنين فى الرحم بأسابيع طويلة هلك المضللون وقالوا لقد انكشف احد الغيبيات الخمسة .

نأتى بعد ذلك الى الغيث . . أو المطر . . فنجد نفس الشىء بنفس الخطة التى تمت بالنسبة لـ « ويعلم ما فى الأرحام » . . ثم أيضا بالنسبة الى ﴿ **ينزل الغيث** ﴾ . . وبعض الناس قال أن هناك نوعا من المواد الكيماوية تلقيه الطائرات فوق السحاب فينزل المطر والبعض الآخر ادعى أن التنبؤات الجوية التى تتم الآن ويقال فيها مثلا ان أمطارا غزيرة ستنزل غدا . . ثم

ينزل المطر فعلاً . . اعتبروا أن هذا كشف لقول الله ﴿ ينزل الغيث ﴾ . . والله يقول ﴿ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ أى أن الله هو الذى ينزل الغيث . . ونلاحظ هنا قول الله سبحانه وتعالى ﴿ ينزل الغيث ﴾

. . ولم يقل يعلم وحده موعد نزول الغيث . . أى أن المسألة فى العملية نفسها التى تتم وليس فى موعد نزول الغيث ، لأن ذلك شىء تافه بالنسبة لعملية نزول الغيث نفسها . . فان الذى يقول : ان المطر سينزل اليوم أو غدا أو بعد غد . . فإن هذا التنبوء مازال ظنيا حتى الآن . . ورغم أنها جزئية صغيرة ألا أن العالم يستخدم لها الأقمار الصناعية والمعدات التى يطلقها فى طبقات الجو العليا ومحطات أرضية تستقبل ومعلومات تحلل . . ومع ذلك فمازال هذا العلم حتى الآن علما ظنيا . أى أنه يصدق ويكذب حتى فى أكبر دول العالم تقدما . . فكل ما يقال عن تطورات الجو أو عن نزول المطر بالذات هو احتمالات فقط قد تحدث أو لاتحدث .

الله جعل عملية نزول الغيث من غيبياته سبحانه وتعالى وقدرته . . انه يعرف مسيرة الغيث منذ أن يتصاعد كبخار ماء من البحر ، ولا اريد ان أذهب الى أبعد من ذلك حتى لا ندخل فى تفصيلات طويلة . . فقطعة البخار هذه عندما تصعد الى السماء بإذن الله من اسفل الى أعلى ثم تتجمع لتصبح سحابة . . هذه السحابة إلى أين تذهب ؟ . . وكيف تدفعها الريح ؟ . . وكم سرعتها ؟ . . ثم أين تسقط المطر ؟ . . وهل ينزل رذاذا أم سيلا ؟ . .

عليها تسعة عشر .

نـــزول الغيـــــث

بعض الناس يقول ان مناطق المطر معروفة فى العالم . . وهناك مناطق معينة تنزل فيها الأمطار . ومناطق لاترى الأمطار إلا نادرا . . نقول لهم ان هذا غير صحيح . . إرادة اللهقسمت العالم الى مناطق صحراوية ومناطق خصبة . . ولكن لأن الكون يسير بطلاقة القدرة وليس بالاسباب . . تأتى سنوات تصاب فيها هذه المناطق الكثيرة الأمطار بالجفاف ولا توجد فيها قطرة ماء . . ويهلك الزرع . . ويهلك الحيوان . . ويهلك الانسان . . لو أن هذه بطبيعة الخلق وحدها ما حدث هذا . . ولكن مع طبيعة الخلق هناك مشيئة الخالق . . نأتى الى الانسان المدعى والضال . . ونقول له إن الله قد شاء أن تصاب المناطق التى تنزل فيها الأمطار بغزارة . . أن تصاب هذه المناطق بالجفاف . . تعال أنت ومعك السحب وبقدراتك أنك تنزل الغيث . . أنزل لنا قليلا من الغيث أو من المطر فى هذه المناطق الجافة . . وينظر اليك عاجزا ، ويقول إنه لا يستطيع . . نقول له هذا الماء الذى يشربه بلايين البشر ويسقون منه حيواناتهم وزرعهم وأنفسهم أنت تعرف عناصر تكوينه من الاكسوچين والهيدورچين . . تعال فاصنع لنا مائة برميل من الماء لهؤلاء الناس العطشى لنسقيهم فيقف عاجزا . . نقول له تعال لهذه الترعة التى جفت من عدم هطول الأمطار وضع فيها قليلا من الماء فلا يستطيع . . فأين هو الانسان من عملية نزول الغيث ؟

بل إن هناك مناطق فى العالم تغرق من غزارة الأمطار وصحارى شاسعة لا تجد نقطة ماء . . والله سبحانه وتعالى جعل ذلك دالا على قدرته . .

عليها تسعة عشر .

نقول لمن يدعى أنه ينزل الغيث . . خذ السحابة التى تعطى ماء هنا يكاد يهلك الناس وانطلق بها الى الصحراوات لتملأها بالحياة . . فلا يستطيع .

إذن ماذا انكشف من معنى « ينزل الغيث » . . ما الذى ظهر وعملية تكوين السحب ودفعها الى الأماكن التى قدر الله لها أن تمطر فيها . . ثم نزول المطر . . كل ذلك يتم وأنت لا تدرى عنه شيئا ولا تحس به . . بل إن اكثر بلدان العالم فى العلم والتكنولوچيا لا تستطيع اذا أصابها الجفاف ان تأتى بسحابة تمطر . . أو إذا أصابها مطر غزير ان توقف نزول هذا المطر .

حديث قدسى

قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، يقرأ العبد (الحمد لله رب العالمين) ، فيقول الله حمدنى عبدى ، فيقول (الرحمن الرحيم) ، فيقول الله أثنى على عبدى ، فيقول (مالك يوم الدين) ، فيقول الله مجدنى عبدى وهذا لعبدى ، (إياك نعبد وإياك نستعين) ، وآخر السورة لعبدى ما سأل ، يقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) .

عليها تسعة عشر .

وأنـــت لا تشـــعر

ان الله سبحانه وتعالى . . يتم عملية البخر من هذا السطح الواسع من الماء الذى خلق ومن كل شىء مبتل حتى ذلك الغسيل الذى فوق سطح منزلك . . انه يساهم فى عملية تكوين السحب ونزول الأمطار . . كل مساحة مائية ، وكل شىء فيه ماء يتم استخدامه بقدرة الله فى عملية نزول المطر . . ثم يصعد هذا كله الى طبقات الجو العليا . . الى حيث يشاء الله . . ثم تتكون السحابة كما شاء الله لها أن تتكون . . ودون أى تدخل بشرى . . وبعد ذلك تمضى الى حيث هى مأمورة أن تنزل الماء . . وقدرة الله سبحانة وتعالى تتجسد واضحة فى العملية كلها . . من ساعة حدوث البخر الى ساعة نزول المطر . . وفى سيطرة الله على كل خطوة من هذه الخطوات . . ولا أحد يستطيع أن يدعى أن هناك مشاركة بشرية من أى نوع بحيث يكون هناك أى أساس للادعاء . . فلا يوجد أى عامل مشترك حتى يمكن أن يقال ان احد الغيبيات الخمسة قد انكشف . . فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يكشف أنه خلق كل شىء **من ذكر** وأنثى حتى السحاب . . وأن عملية تلقيح السحاب يمكن ان تتم . . فان هذا بعيد جدا عن معنى ينزل « الغيث » . . ذلك أن الله بقدرته تكونت هذه السحابة . . وبقدرته جاءت الى هذه المنطقة لتمطر . . وبعلمه أراد أن يرى الانسان جزئية تافهة من عملية المطر . . وعلمه أن تتم عملية رش المواد الكيماوية بالطائرات . . وهذه تصيب مرة وتخطىء مرات . . والذى يريد أن يقول ان أحد الغيبيات قد انكشف فليأت لنا بسحابة لتمطر حيث نشاء . . أو يجعلها تمتنع عن المطر حيث نشاء . . وفى ذلك يقول

الله سبحانه وتعالى . .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النور - الآية ٤٣)

يبقى بعد ذلك من الغيبيات الخمسة . .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

وهذه لم يدر حولها جدل حتى الآن . . فلم يدع أحد أنه يعرف ماذا يحمل له الغد من رزق . . ولم يدع أحد أنه يعرف أين يموت بل إن الله سبحانه وتعالى يخلف ظنون كل من يحاول ولو كذبا أن يعرف أين نهايته . . وما زلت أذكر قصة مليونير لبنانى بنى مقبرة كلفها ما يقرب من ثمانين ألف جنيه ليدفن فيها . . فشاء الله أن يكون أجله فى سقوط طائرة فى البحر . . ونزل الغواصون للبحث عن جثث الضحايا . . فعثروا عليها جميعا ما عدا جثة المليونير اللبنانى التى لم يعثروا عليها رغم كل الجهود المكثفة . . وبقيت المقبرة خالية حتى يومنا هذا . . وكأنها تنطق بالآية الكريمة

﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾

الرقم ١٩ . . والحقيقة

نأتى بعد ذلك الى الرقم ١٩ الذى يروج له البهائيون وغيرهم من أصحاب المذاهب الهدامة ، ويريدون أن يجعلوا منه شيئا مقدسا . . الله ذكر فى القرآن الكريم أرقاما كثيرة ليس بينها ترابط . . أى أنها لا تقبل القسمة على عدد واحد مثلا . . ولا هى مثلا كلها أحاد . . ولا كلها أزواج . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحاقة ـ الآية ١٧) . .

وقال جل جلاله . .

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٥١)

. . وقوله تبارك وتعالى . .

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ (سورة الأعراف ـ الآية ١٤٢) .

عليها تسعة عشر .

وقوله سبحانه . .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٤٣ و ٤٤)

. . وقوله تعالى . .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج ـ الآية ٤) . .

وقوله جل جلاله . .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٢٥) . .

وقوله عز من قائل :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

(سورة الحج ـ الآية ٤٧)

وهكذا نرى ان الله سبحانه وتعالى قد استخدم فى القرآن الكريم أرقاما كثيرة لا يربط بينها الا مشيئة الله . . فحملة العرش هم ثمانية . . لأن الله

أراد لهم ان يكونوا ثمانية . . وأبواب جهنم سبعة لأن الله أراد لها أن تكون سبعة . . وميقات موسى كان أربعين ليلة لأن الله أراد ان يكون ميقاته أربعين ليلة .

وليس هناك معنى لاثارة الجدل فى هذا كله . . ذلك ان الجدل ممكن ان يثور حول أى رقم من الارقام . . ولو أننا قلنا ما الحكمة فى أن الله اختار أن يحمل عرشه ثمانية لثار السؤال ما هى الحكمة لو أن الله اختار عشرة أو اثنى عشر ملاكا لحمل العرش . . اذن لا توجد العلة فى الاختيار لتضع قيودا على مشيئة الله فى اختياره . . وفى هذا حكمة ايمانية كبرى ، لأنه متى اختار الله . . فلا نقول لماذا ؟ . . ولا نحاول أن نفلسف الأمور . . ولكن نقول شاء الله وما شاء فعل . . وهذا هو نفس المنطق الايمانى الذى كان يجب ان يقابل به العدد ١٩ . . من أن مشيئة الله أرادت أن يكون الملائكة حول النار تسعة عشر . . كما أرادت هذه المشيئة أن يكون حملة العرش ثمانية . . وكل ما يقال خلاف ذلك . . كلام من باب المجادلة دون الوصول إلى شىء . . والذى يدلنا على ذلك هو سياق القرآن نفسه . . ولنرجع إلى الآية الكريمة فى قوله سبحانه وتعالى :

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

عليها تسعة عشر .

إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المدثر الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١)

القـــران يتحـــدى

إذا قرأنا هذه الآيات بامعان فكأننا نرى ما يحدث اليوم مسطورا فى القرآن الكريم بدقة ووضوح . . يقول الله ﴿ **وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا** ﴾ . . أى أن الذين سيفتنون بهذا العدد ويحاولون تفسيره بأوجه شتى . . ويحاولون استخدام الكمبيوتر وغيره لفتنة الناس ينطبق عليهم قول الله ﴿ **وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا** ﴾ . . ومن هنا يصف الله كل من يفتن بهذا العدد ، أو يحاول ان يفتن به الناس من الذين كفروا . . وتأكيدا لما يحدث اليوم . . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ . . وليحذر الذين يحاولون الآن ان يضعوا تفسيرا لهذا الرقم من عند أنفسهم أو باستخدام التمويه أو باستخدام الحيل بالعقول الالكترونية . . ليحذر هؤلاء جميعا من أنهم إذا حاولوا أن يفسروا لنا ﴿ **ماذا أراد الله بهذا**

ثلا ﴾ . . هؤلاء ينطبق عليهم قول القرآن الكريم ﴿ والذين فى قلوبهم رض والكافرون ﴾ .

وهكذا نرى من اعجاز القرآن الكريم أنه أنبأنا بما سيحدث قبل وقوعه وقت طويل . . وقال إننى ضربت مثلا بالملائكة حول النار . . وقلت انهم سعة عشر . . وهذا العدد جعلته فتنة للذين كفروا . . فسيأتى الكافرون يفتنون به ، ويحاولون أن يفتنوا الناس به . . ويقولون إنه يحتوى على سرار الكون . . وأنه يحتوى على موعد يوم القيامة . . وأنه يحتوى على مر الدنيا . . وسيحاول هؤلاء الكافرون أن يتخذوا من هذا العدد فتنة يفتنوا الناس به . . بل أكثر من هذا . . إن الذين فى قلوبهم مرض الكافرين سيحاولون تحليل هذ الرقم . . ليتقولوا على الله سبحانه تعالى . . وليحاولوا أن يفسروا لكم ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ . . وهذا ا يحدث الآن . . ولو أن هؤلاء الكافرين والمضلين لم يأتوا ولم يستخدموا هذا الرقم بالذات (تسعة عشر) فى الفتنة والاضلال . . ولم يحاولوا بالكمبيوتر وغيره أن يقولوا لنا ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ . . لقلنا ان الله قد أخبرنا فى القرآن عن كافرين ومضلين سيأتون ليضلونا ويحاولوا فتنتنا بالعدد تسعة عشر ولكنهم لم يأتوا . . فكونهم أتوا . . وكونهم استخدموا الكمبيوتر وغيره لينشروا عمليتهم هذه . . أكبر دليل يثبت الايمان ويدلنا على أن الآية الكريمة التى وصفتهم بالذين فى قلوبهم مرض والكافرين قد حددتهم بالذات . . وهكذا يثبت الله الايمان وينشر الدين بالكافرين ويجعل من هؤلاء الكافرين الذين جاءوا ليضلوا بآيات الله وبالقرآن الكريم يجعلهم

عليها تسعة عشر .

مثبتين للايمان ودليلا على صدق اليقين .

وبذلك نعرف ان كل العبث الذى يقال عن الغيبيات الخمسة وعن رقم ١٩ . . انما هو نوع من الاضلال والضلال . . والعجيب ان الذين يروجون أن الغيبيات الخمسة قد انكشفت هم أنفسهم الذين يروجون للرقم ١٩ . . وما يدعونه مما يحمل من معجزات .

إلى هنا وأحمد الله سبحانه وتعالى على انه قدرنا على اتمام خواطرى حول الأمثال فى القرآن الكريم . . والتى تمت فى الجزء السادس من معجزة القرآن الكريم الذى صدر فى رمضان الماضى وهذا الجزء .

وبذلك أكون قد تحدثت عن الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم مسبوقة بكلمة مثل . . وإلى لقاء فى رمضان القادم ان شاء الله .

حديث قدسى

إذا قال العبد لا إله إلا الله ، والله أكبر ، قال : يقول الله ـ عز وجل ـ : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، وأنا الله أكبر ، وإذا قال العبد لا إله الله وحده ، قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا وحدى ، وإذا قال العبد لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، ولا شريك لى ، وإذا قال لا إله إلا الله ، له الملك وله الحمد ، قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا لى الملك ، ولى الحمد ، وإذا قال لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال : صدق عبدى ، لا إله إلا الله أنا وحدى ، ولا حول ولا قوة إلا بى .

المحتـويات

رقم الايداع ٣٣٢٨ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0181 – X

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

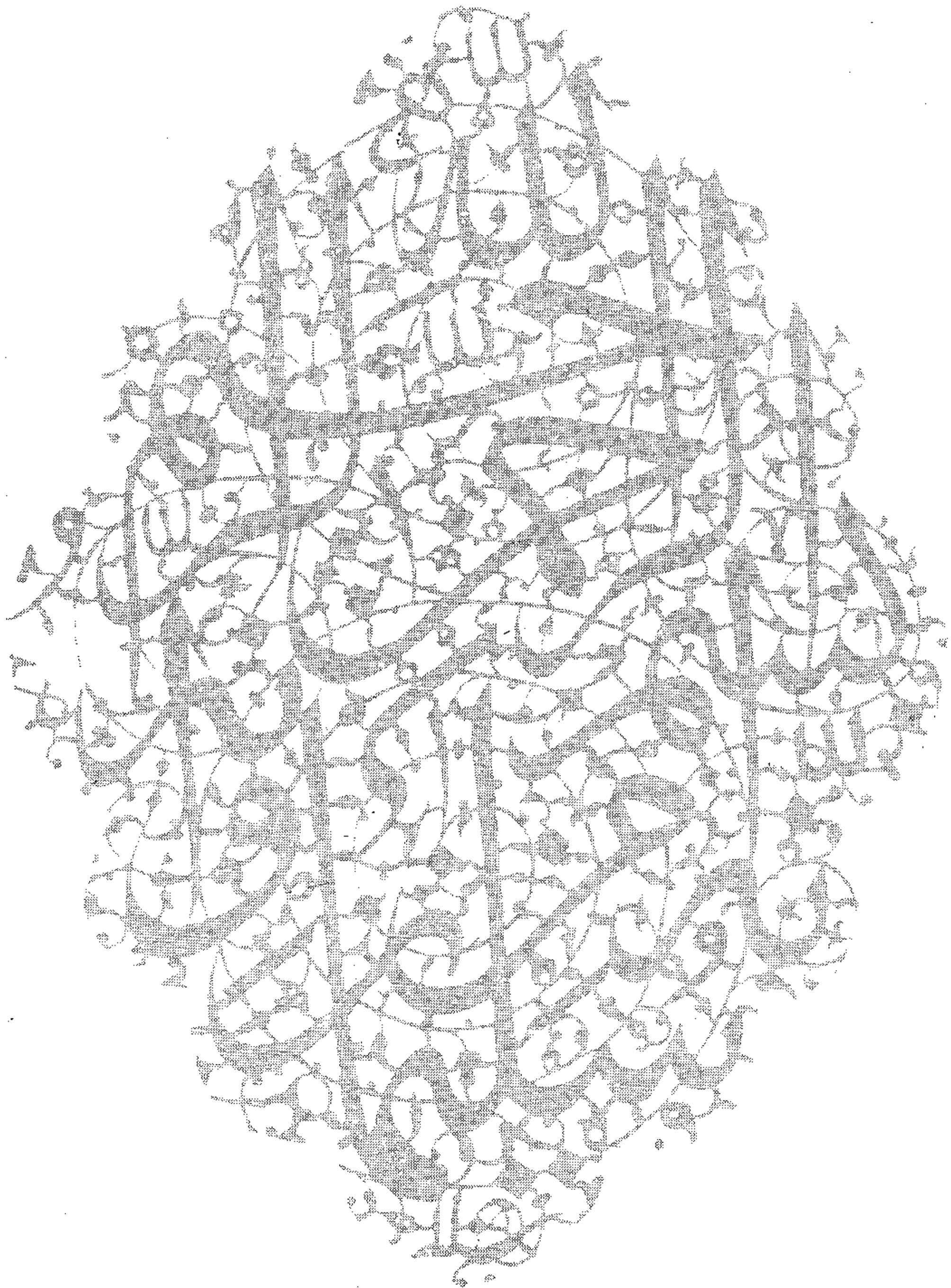
٨

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات



الفصل الأول

لماذا اختل الميزان؟

لماذا اختل الميزان ؟

عندما نتحدث عن الإسلام فإننا نتحدث عن منهج الله الذى رسمه سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض . وهو المنهج الذى لن يصلح الكون إلا إذا تم تطبيقه .. ذلك أنه لا يوجد من هو أعلم من الله .. وأحكم من الله .. ليرسم لنا طريق الحياة الآمنة المطمئنة على الأرض .

والله هو الذى خلق الإنسان .. وليس أدرى بالشيء من خالقه أو صانعه .. فهو الذى يضع له قانون تشغيله .. وقانون صيانته .. ليؤدى مهمته على أكمل وجه .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى برحمته أن يفهمنا ذلك فجعل ذلك قانونا أرضيا لا تصلح الحياة إلا به .. فإذا أخذنا التليفزيون مثلا .. فإن أول من يضع قانون تشغيله هو الذى اخترعه .. وهو يقول لك أفعل كذا واضغط الزر رقم كذا ليعطيك الصورة ، ورقم كذا ليعطيك الصوت .. ثم يضع الصانع « كتالوجا » مع الجهاز يدرسه المتخصصون ويرجع إليه الناس إذا فسد الجهاز وأرادوا إصلاحه .. فإذا ذهبت لتحضر نجاراً أو حدادا ليصلح جهاز التليفزيون فإنه يفسده .. وإذا قلت للناس ذلك فإنهم يسخرون منك .

والعجيب أن هؤلاء الناس الذين يسخرون منك إذا فعلت ذلك بالنسبة لأى اختراع أو آلة .. فإنهم هم أنفسهم الذين يحاولون مقاومة تطبيق نفس النظرية على الإنسان .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون .. وخلق الإنسان ووضع القوانين التى تمضى بها الحياة كلها .. ولكن الناس تأتى لتحاول أن تفسد الكون بأن تضع له القوانين التى تروقها .. تماما كما تحضر الحداد أو النجار ليصلح جهاز التليفزيون .. وهى بذلك تدعى ـ بلا حياء ـ أنها أعلم من الله بخلقه ، وأعلم من الله

بأسرار كونه .. فبدلا من أن تأخذ قوانين الله الخالق والصانع .. تحاول أن تضع هى القوانين .. فنرى القانون الرومـانى والقانـون الفرنسى .. إلخ .

فساد قوانين البشر !

ويمضى الزمن ويظهر فساد قوانين البشر .. وأنها لم تجلب إلا الشقاء للبشرية .. فيأخذون فى تعديلها بحجة معالجة المشكلات التى ظهرت عند التطبيق .. وبعد عدة سنوات يتبين أن التعديل لم يصلح شيئا ، فيتم تعديل التعديل .. وهكذا تمضى القوانين البشرية فى حلقة مفرغة .. تتزايد معها المشكلات وتتفاقم معها الداءات . ولكن أحدا لا يفكر أبدا فى أن يريح البشرية فيرجع إلى قوانين الله .. لأن هذه القوانين البشرية كلها لا تصلح حياة الإنسان فى الكون .. بل تفسده .

وإذا نظرنا للعالم اليوم نجد أنه يملؤه الشقاء .. ولو استمعت إلى أى نشرة أخبار فى الإذاعات أو فى الصحف .. لوجدت أنها تحمل من أخبار الدمار والخراب والقتل والحروب .. أكثر مما تحمل من أخبار الخيروالبركة و الحياة الآمنة للناس .. والحل هو تطبيق قوانين الله .. وهذه ستأتى عن اختيار أو عن اضطرار .. لأنه لا طريق غيرها .. ولكنها ستكون اضطرارا بعد تجارب مريرة ، وشقاء بشرى يمر به العالم .

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن حتمية الحل الإسلامى للبشرية كلها .. لابد أن نفرق بين قوانين الأرض وقوانين الله ذلك أن هناك فرقا جوهريا

لمــاذا اختل الميزان ؟

قد لا ينتبه إليه الكثيرون .. فقوانين الأرض عند التطبيق لا تقتضى أى نوع معين من السلوك .. ولكن قوانين الله تقتضى مع التطبيق سلوكا بالعمل ..ومأساة هذا العصر ليست فى أن نصل إلى النص الواضح فى قوانين الله .. ولكن القدوة السلوكية هى القليلة .. بل النادرة .. وقوانين الله محتاجة إلى سلوك .. وإلى قدوة وهذا ما يغيب عنا .

ونفسر ذلك قليلا .. ان الله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يطبقوا قوانينه .. و أن يطبقوها أولا على أنفسهم .. فإذا لم يبدأ الإنسان بنفسه .. انتفت القدوة الإيمانية التى تجعل الناس يستمعون إلـيـه ويصدقونه .. ونحن فى عصر جرب الإنسان فيه كل شىء ، وكل نظريات الدنيا التى تبدو براقة .. ووجد فيها الشقاء والتعاسة .. ولذلك أصبح يحن للرجوع إلى الذين ليخلصه من هذا الشقاء ولكن الرجوع إلى الدين تلزمه القدوة فيمن يقدمون النصيحة .. أو كما قلت أن يطبق الإنسان ما يقوله على نفسه أولا .. ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ أنا لا آمركم أمرا أنا عنه بنجوى ﴾

ومن هنا فإن أهم ما يلزمنا ليس تعليم الدين فقط .. ولكن سلوكيات الدين .. فهذه هى التى تصنع .. وهذه هى التى تبنى .. وأنا عندما يأتينى رئيس عمل ولا أراه متميزاً عنى إلا بالشقاء فى عمله ، والدقة فى حضوره .. فإذا طلب منى أى شىء فإننى أقوم به عن طيب خاطر .. ذلك أننى أحس أنه غير متميز عنى إلا بكثرة مسئولياته .. وهو فى هذا يعطينى القدوة السلوكية التى رسمها الإسلام .. والإسلام دين الحق ..

لمــاذا اختل الميزان ؟

ولقد قال لى أحد المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام : إنه آمن بهذا الدين لأن الرسول كان يكره أن يتميز على أصحابه .. ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولا .. وكان يأتى بهذا الدين من عنده .. لكان له هدف من ذلك .. فكل من يكذب يفعل ذلك لهدف .. والكذب فى مدعى النبوة أنهم يريدون أن يسيطروا أو يحكموا أو يحصلوا على نفع عاجل من الذين يدعونهم إلى الدين الجديد .

محمــد .. القــدوة

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان قدوة سلوكية .. فلم يكن يبغى السيطرة .. بل كان يقول دائما : إنه بشر رسول .. ولقد عرضوا على رسول الله فى أول الأمر وبدون جهد أو تعب أن يعطوه من المال ما يريد .. فلما رفض عرضوا عليه الملك إن أراد .. فلما رفض عرضوا عليه الزعامة والثروة والجاه والسلطان وكل ما تستطيع الدنيا أن تهبه .. كل هذا وهو فى أول الطريق ولكنه رفض هذا كله .

إذن فالغاية التى من أجلها يدعى الناس النبوة .. أو يبتدعون النظريات .. الغاية ، وهى زينة الدنيا بما فيها ، قد رفضها رسول الله من أول الطريق .

وعندما وجد من يصافحه يرتعد من الانفعال لأنه يصافح رسول الله قال له : هون على نفسك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، أى الخبز الجاف .. وهكذا رفض أن يكون متميزاً فى علاقته مع أى ممن اتبعوا دين الإسلام .

لمـاذا اختل الميزان ؟

وعندما مات ابنه ابراهيم عليه السلام .. حدث خسوف فى الشمس .. وقال الناس : ان الشمس قد انخسفت حزنا على وفاة ابراهيم .. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

﴿ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنخسفان لموت أحد ﴾ .

وهكذا أرادوا أن يضعوا له مجدا يعطيه السيطرة على القوى الهائلة فى الكون .. ولكنه رفض أن يقبل ذلك .. وكان دائما يباهى ببشريته ، وهذه ليست صفات من يدعى النبوة .

وأخيرا فإنه يحدث فى بعض الأحيان أن تكون المثل عند الإنسان أكبر من حجم الدنيا . لأنه لم يذق حلاوة المجد والحياة والسلطان والمال ونعيم الحياة .. ولكنه حين تقبل عليه الدنيا قد تتغير مثله وقيمه .. فكم من انسان بدأ مكافحا ، حتى إذا حقق لنفسه الثروة نسى المثل التى قامت عليها حياته .. وأباح لنفسه ما كان يحرمه عليها .. ولذلك نسمع من كثير من الذين قادوا ثورات الإصلاح فى العالم أنهم انحرفوا عن الطريق .. وأنه لابد من تصحيح مسار الثورة .. وابعاد المنحرفين عنها ..

ولكن رسول الله صلى الله عيه وسلم رفض بعد أن انتصر الاسلام وانتشر فى الجزيرة العربية وثبت أقدامه .. رفض أن يحصل على ميزة شخصية .. فلا هو بنى لنفسه قصرا .. بل ظل يعيش فى بيته .. ولا هو أنشأ لنفسه حرسا مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٦٧ »

ولا هو كان بيته ممتلئا بالولائم وفاخر الطعام .. بل كان كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها تمر الأيام ولا توقد فى بيتنا نار .. فكان يعيش على التمر والماء .. ولا هو حقق لزوجاته ثروة من مال الدنيا .. بل منع عنهن الغنائم دون سائر نساء المسلمين .. ولا هو ترك ثروة لذريته ، بل قال : لا لنفسى .. ولا لذريتى .. نحن معشر الأنبياء لا نورث .. وما تركناه صدقة .

وينهى المستشرق حديثه .. بأن رجلا هذا خلقه لابد أن يكون صادق الرسالة .. ورسول الله الحق الأمين .

أمثلة من الحيـاة

وإذا كانت البشرية تعانى ما تعانى فإنها لابد أن تعود مضطرة ومقهورة إلى قوانين الله فى الأرض إذا أرادت إصلاحا .. وفى ذلك نستطيع أن نضرب الأمثلة التى بدأت تتحقق .

أول هذه الأمثلة هو الطلاق .. والله سبحانه وتعالى أباح الطلاق . لأن الحياة لا تستقيم إلا به .. وجاءت الكنيسة الكاثوليكية تحرم الطلاق ، وتدافع عن ذلك بأنه حفظ لكيان الأسرة إلى آخر ما قيل وما يقال .. ومضت السنوات وتفاقمت المشكلات ، وبدلا من أن يحفظ عدم الطلاق الأسرة هدمها .. وانحرف الزوج .. وانحرفت الزوجة .. وضاع

الأولاد .. واضطرت الكنيسة الكاثوليكية مرغمة أن تبيح الطلاق. .. لم يحدث ذلك اقتناعا بالدين الإسلامى .. ولا إيمانا بقوانين الله .. ولكنه حدث لأن الحياة لا تستقيم بدونه

والمثل الثانى مسألة أن ترضع الأم طفلها .. حكم من الله سبحانه وتعالى أن تكون الرضاعة مدة عامين ، مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

« سورة البقرة - الآية ٢٣٣ »

وجاءت المجتمعات غير الإسلامية لتقدم نوعا من اللبن للأطفال يعطى لهم بعد أسابيع من الولادة .. وقالت : ان هذا اللبن يعطى الطفل من العناصر الغذائية ما لايعطيه له لبن الأم .. وصدق الناس هذه النظريات ، واندفعوا بلا وعى وراء ألبان الأطفال التى تبيعها الصيدليات .. وضاع الزمن ، وهذا الوهم الكبير يسيطر على العالم .. إلى أن اكتشفوا أخيرا الأضرار الهائلة التى تحدث للطفل الذى لم يرضع من لبن أمه .. ومن نفس المكان الذى انطلقت منه نفس الصيحة عن الألبان من غير لبن الأم التى تعطى للأطفال .. انطلقت الصيحة هذه الأيام لتقول : ان الطفل الذى لا يرضع من لبن أمه ينشأ عليل الجسد عليل النفس .. وأن الأم لابد أن ترضع طفلها إذا كانت تريد أن ينشأ ابنها نشأة طبيعية .. وهكذا عادت المجتمعات الغربية التى تبهر بعض الناس بما يسمونه التطور العلمى .. عادت هذه المجتمعات إلى قانون من قوانين الله ، وأن الأم لابد أن ترضع طفلها .. عادت إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾

هل عادت بالإيمان .. ؟ .. هل عادت لأنها آمنت بالإسلام ؟ .. لا .. لكنها عادت لأن الكون لا يصلح إلا بقوانين الله .

والمثال الثالث هو عقوبة القتل .. والله سبحانه وتعالى قد شرع هذه العقوبة ، جزاء لقتل النفس البشرية والفساد فى الأرض .. فقال سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٣٣ »

كما شرع الله سبحانه وتعالى عقوبة القتل بالنسبة للقاتل .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٤٥ »

وجاءت بعض المجتمعات الأوربية وألغت عقوبة الإعدام .. وصفق الناس وهللوا .. وقالوا هذه هى المدنية .. ومن هذه الدول : بريطانيا وإيطاليا .. ومرت السنوات ، وإذا بالجريمة تنتشر فى هذه المجتمعات انتشارا مروعا ، حتى ازداد معدلها بنسب كبيرة .. وإذا بنفس هذه الحكومات التى قالت بأن ذلك مدنية .. تطالب مرة أخرى بعودة عقوبة

الإعدام كحل ضرورى لمواجهة زيادة الجرائم وبخاصة جرائم القتل والتخريب ..

الاقتصـــاد .. والإســلام

والمثال الرابع فى الربا .. ونظرة واحدة إلى الاقتصاد العالمى الآن ترينا ماذا فعل الربا .. فقد وقعت كل دول العالم فى الديون .. الدول الغنية والدول الفقيرة . وفى كل يوم يزداد الأغنياء غنى ، ويزداد الفقراء فقرا .. اختل الميزان الاقتصادى للعالم كله .. واجتمع خبراء الاقتصاد فى العالم وقالوا إنه لا حل للمشكلة الاقتصادية .. إلا أن يصبح سعر الفائدة فى العالم صفرا .. ولو أنهم كانوا منصفين لقالوا : انه لا حل للمشاكل الاقتصادية فى العالم والربا موجود .. ولكن كلمة الحق لم تكن تخرج من أفواههم فقالوا سعر الفائدة لابد أن يساوى صفرا .

وعلى أية حال .. فلن يعتدل النظام الاقتصادى فى العالم مادام التعامل يتم بالربا .. فإذا انتهى التعامل بالربا انصلح اقتصاد العالم .. تلك القضية التى لابد أن نفهمها .. أن العالم كله لابد أن يعود إلى القوانين التى شرعها الله للحياة على الأرض حتى تستقيم الأمور .. فإن لم يعد باختيار وإيمان .. فسيعود مضطرا بعد تجربة مريرة تعانى منها البشرية الويل .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾

« سورة الصف ـ الآية ٩ »

أى أن منهاج الإسلام ومبادئه ستسود العالم كله ولن تستقيم الحياة بدونها .

الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا المنهاج هدية من عنده .. وبين لنا الطريق فى رحمات تنزلت علينا .. و هو يريد بذلك أن يقينا سوء التجربة والخطأ التى سنمر بهما .. ثم بعد ذلك نعود إلى منهج الله .. و لكننا رفضنا هذه النعمة وبدأنا نبحث عن المدنية .. التى هى فى الحقيقة تحاول أن تهاجم الإسلام وتظهره بمظهر الرجعية والوحشية .. وفى ذلك يتحدثون عن عقوبة قطع يد السارق وكيف إنها وحشية .. وينسى هؤلاء أنه فى كل صباح فى العالم تقطع مئات الأيدى والأرجل فى الحروب الصغيرة التى أصبحت تدور فى كل مكان .. وفى حوادث الخطف والنهب والاعتداء على الأعراض التى زادت بنسب هائلة فى كل انحاء العالم .. أن الأيدى التى تقطع فى لبنان وحدها كل صباح .. أكثر من الأيدى التى قطعت كقصاص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا .. فأين هى الوحشية .. ومن هم المتوحشون ؟ ومن هم المتمدينون ؟

على أن الله سبحانه وتعالى فى كونه آيات كثيرة تظهر إعجاز الله .. ونحن لا نفهمها .. فقوانين الكون .. وقوى الكون التى تحارب هذا الدين إنما تظهر الحق فيه .. وذلك أن الجمال فى الكون هو أن يوجد الشر بجانب الخير .. وأن نرى الحق ينتصر على الباطل .. فالله سبحانه وتعالى حين وضع قوانين كونه .. وضعها بحكمة ودقة .. ليسير الكون إلى غايته .. فالله سبحانه وتعالى جعل لكل مجد نصيبا ليكون هناك

العمل .. فلو أن الطالب الذى يذاكر نجح .. والطالب الذى لم يذاكر نجح .. لاختفى الجمال فى الكون .. لماذا ؟ .. لأنه فى هذه الحالة لن يذاكر أحد ، وسيصبح الناس أميين وتنتهى حضارة البشرية التى أرادها الله للإنسان .. ولكن الجمال فى الكون هو أن يرسب الذى لا يذاكر ، وينجح الذى يذاكر .. وأن يتم كشف أسرار الكون للعالم الذى يبحث عنها .. ولا يتم لمن لا يبحث .. وأن يعرف الذى يدرس أكثر من الذى لا يقرأ .. تلك أسباب وضعها الله سبحانه وتعالى ليرقى الكون المخلوق الله إلى الحضارة التى خلقها الله .. ولو أعطى الله سبحانه وتعالى الحضارة للإنسان بدون علم لحطم نفسه وانتهى الكون .. ولو أعطاه علما بدون حضارة لأحس الإنسان تفاهة قيمة العلم .. ولكن الاثنين يكمل بعضهما بعضا ..

والإسلام قبل كل شىء هو سلوك .. والإنسان المسلم يجب أن يسلك سلوك الإسلام .. ولكن القليل هم الذين يفعلون ذلك .. ولو أنهم فعلوه لأحسوا عظمة هذا الدين وما يقدمه من سلوك طيب ومنهج كريم .

شيئان فى الكون

ان فى هذا الكون شيئين : شيئا يفعل لك .. وشيئا ينفعل بك .. فالشىء الذى يفعل لك يستوى فيه الناس جميعا .. كافر ومسلم .. فالشمس مثلا تفعل لك .. فهى تشرق كل صباح ، ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما .. أو شاكراً الله وجاحدا لنعمته .. كلهم سواء .. عطاء الشمس للجميع بلا تفرقة .. والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية

بدون أى تفرقة بين جاحد لنعمة الله وشاكر لها .. والماء يشرب منه كل كائن حى وبصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله وكفره .. هذه الأشياء تفعل كثيراً .. الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك .. والهواء يعطينا أسباب الاستمرار فى الحياة .. والماء يعطينا الحياة نفسها .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

« سورة الأنبياء - الآية ٣٠ »

كل هذه الأشياء تفعل لك .. وهى تفعل بلا تمييز ، لأنها عطاء من رب العالمين .. فهى عطاء ربوبية .. ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يمنح عطاء ربوبيته للجميع .. لأنه رب الجميع .. رب العالمين .. ومادام هو الرب الذى استدعاك للوجود .. وجاء بك إلى هذه الحياة ، فهو يكفل لك بنعمة أسباب الاستمرار فى الحياة .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تنفعل بك .. وارتقاء الإنسان فى الكون يتم فيما ينفعل به .. لا فيما ينفعل له .. وما ينفعل بك أن فعلت ينفعل .. فإذا حرثت الأرض حرثا جيدا ، ثم وضعت فيها البذرة .. ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمراً جيدا ، ومحصولا وفيرا .. وان بحثت فى باطن الأرض وجدت البترول والمعادن تعطيها لك الأرض .. لأنك فعلت فهى تنفعل بك .. وفى هذا لابد أن تنتبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة طـه)

.. ذلك أن هذه الآية قد نزلت منذ أربعة عشر قرنا .. ولم يكن أحد فى ذلك يعرف ما تحت الثرى سوى آبار المياه التى يحفرها الناس .. فأخذت على هذا المعنى .. ثم تقدم العلم ليكتشف لنا أن فى باطن الأرض كنوزاً تزيد على ما فوق سطح الأرض .. فتنبهنا إلى قوله تعالى :

﴿ وما تحت الثرى ﴾ .

وعرفنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنبأنا فى قرآنه الكريم منذ أربعة عشر قرنا أن هناك كنوزاً فى باطن الأرض .. ولو تنبهنا إلى هذه الآية لبحثنا عن هذه الكنوز .. ولكن وقت أن نزل القرآن لم يكن قد جاء موعد ميلاد ما تحت الثرى ليخدم الإنسان فى حياته .. ويؤدى دوره للحضارة الإنسانية .. ومر الزمن ووجدنا تحت الثرى الكثير والكثير .. وربما بعد سنوات سنكتشف أكثر وأكثر .

هكذا نجد أن الارتقاء فى الحياة وفى الكون يأتى من الأشياء التى تنفعل بك .. والذين لا يقومون بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان فى الأرض لا يتقدمون ، ويظلون متأخرين .. وهذا ما يحدث الخلاف فى التقدم والارتقاء بين الأمم والناس .. فتخلف أى شعب إنما يتم لأنه لا يقوم بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل به فى الكون .. وتقدم أى دولة إنما يتم بالتعامل مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان .. والأشياء التى تنفعل بك يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على نتيجة .. فهذه الأشياء أيضا لا تفرق بين مسلم وكافر .. ومؤمن وملحد .. فالكافر الذى يحسن حرث أرضه وخدمتها وريها يحصل على أجود أنواع البذور ، ويجنى محصولا وفيرا .. والمؤمن الذى يهمل أرضه ولا يزرعها

لا تعطيه شيئا ، لأنه لايطبق قوانين الله فى كونه .. والملحد أو الكافر الذى يستخدمُ أحْدث الأساليبِ العلمية يجنى ثمار التقدم .. فهوَ يبحث عن المعادن فى باطن الأرض بأحدث الأساليب التى وصل إليها العلم فتظهر له هذه المعادن لأنها تنفعل به .. وبالمؤمن الذى يترك المعدن فى باطن الأرض ولا يبحث عنه ، لا يخرج المعدن له .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾

« سورة الكهف ـ الآية ٧ »

ليجتذب الإنسان إلى العمل .. والزينة هى ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية .. فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل .. وزينة الأرض هى أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل .. فالإنسان حين يرى حديقة جميلة ، أو عمارة فخمة يتمنى أن يزرع أو يبنى مثلها .. فتكون هذه الزينة حافزا للإنسان على أن يعمل .. فكأن الله جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبنى إليها .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

« سورة هود ـ الآية ٦١ »

معنى استعمركم ، أى طلب منكم عمارتها .. وذلك لا يأتى إلا بأمرين : أن تبقى الصالح على صلاحه لا تفسده .. وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه .. وزينة الله على الأرض من أثرين .. آثار خلق

الله .. وهى الطبيعة التى وهبها الله لنا دون أن يكون لنا جهد فيها .. وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له ليزين به الأرض .

حتمية الحـل الإسـلامى

هنا نأتى إلى حتمية الحل الإسلامى .. وهذا يظهر فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعنى ذلك أن الله أعطى لذى القرنين أسباب القوة والحكم فى الأرض .. ولكنه لم يقتصر على ما أوتى .. لم يقف على ما فعل له .. بل اتبع سببا .. أى أخذ بالأسباب فيما ينفعل به .. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليرينا الأسلوب الصحيح فى مواجهة الحياة .. ذلك أن الإنسان يجب ألا يكتفى فيما ينفعل له ولا يفعل شيئا .. بل يجب أن يأخذ هذا العطاء ويعمل من أجل أن يضيف إليه .. وأن يتفاعل مع العناصر التى خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان فى الأرض ، وذلك مصداقا للحديث الشريف :

(لاخير فيمن لا يضيف)

والإضافة بمعناها العام .. أنك أنت إن عملت للكون ، يكون فى خدمتك ليعطيك الخير الكثير .. فلا بد أن تعطى عطاء الكون ،

وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة ولا متطورة .. ويتوقف تطور البشرية ونموها .. أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يتفاعل مع بيئته ومع الكون .. وينهانا عن أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئا .. بل لابد للإنسان أن يعرف ويدرس كيف يحرث هذه الأرض ، وما هى النباتات الصالحة لها ليحصل على أحسن النتائج .

ومن هنا نصل إلى أن العالم لكى يتقدم ويعيش فى سلام وأمان .. لابد أن يتبع القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون .. وهذه القوانين متكاملة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تأخذ من هذه القوانين ما يعجبك .. وتترك منها مالا يعجبك .. فأنت فى هذه الحياة لابد ان تتعامل مع أسباب الأرض التى تنفعل بك ، لأن فيها الرقى فى الحياة .. وهذه توفر لك التقدم .. وتوفر لك خيرات الأرض .. وتوفر لك الاكتشافات العلمية التى تعطيك الرفاهية .. وأن تتعامل مع منهج الله فى الأرض ، وهذا يوفر لك الحياة الآمنة المطمئنة .. ويوفر لك الأمن والأمان .. ويعالج داءات المجتمع التى هى آفة البشرية كلها .. فلا تحسب أن الغنى والمال وحده يستطيع أن يعطيك الاتزان فى الحياة .. وإذا كنت فى شك من ذلك ، فابحث عن الشواهد .. ستجد أن أعلى نسبة للانتحار والجنون موجودة فى الدول المتقدمة ماديا ، تلك التى تحسب أنت أن شعوبها أكثر الشعوب سعادة فى الأرض .. فالسويد والولايات المتحدة مثلا فيهما أعلى نسبة من الدخل للفرد .. وفيهما أيضا أعلى نسبة من الجنون والانتحار .. ذلك لأن الحياة هناك فقدت أتزانها .. أخذت عنصر التفاعل مع مواد الأرض فتقدمت .. وتركت عنصر الميزان الذى وضعه الله لتأمين الحياة فى الأرض ،

فاختلت الحياة فيها .. ولم تعد هى القادرة على تكوين المجتمع الآمن المطمئن الذى وضع الله قوانينه للحياة الدنيا .

ثم بعد ذلك بعدت هذه الدول عن منهج العبادة الذى هو الأساس الذى يعطى للنفس البشرية مقوماتها الروحية .. فالإنسان إذا آمن بالآخرة وعمل لها ملأت نفسه السكينة .. وأحس أن هناك حسابا فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله .. فلا يقدم على مال حرام ولا يخون الأمانة .. ويعمل فى سبيل الرزق وهو يعلم أن رزقه سيأتيه .. والعمل الذى يقدمه الإنسان فى سبيل رزقه هو نوع من العبادة ، لأننا نطيع قوانين الله فى الأرض .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجد رجلا معتكفا فى المسجد يصلى ليل نهار .. سأل من يكفله ؟ .. فقيل يا رسول الله يكفله إخوته .. فقال صلى الله عليه وسلم : كلهم أعبد منه .. ورسول الله يقول :

﴿ إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ﴾

.. ويقول :

﴿ من استحل الأجر حاسبه الله عن العمل ﴾

وهكذا نرى أن العمل نوع من العبادة .. أمر الله به عباده ليرتقوا فى الأرض .. وأنه طلب أن يأخذوا بالأسباب حتى يعطيهم العطاء فى الدنيا ، والعطاء فى الآخرة .

وبهذا نصل إلى ختام الفصل الأول .. هو أن الله سبحانه وتعالى قد رسم الحياة الطيبة الآمنة لعباده ، وحددها لهم .. وأن هؤلاء العباد بدلا

من أن يأخذوا هذه الأسس ويطبقوها تطبيقا عمليا وسلوكيا .. ابتعدوا عنها إلى قوانين البشر التى أساسها عدم العدل ، وهو النفس .. فعم الشقاء فى الكون .. ومهما طال الزمن فإن البشر سيعودون إلى قوانين الله .. ولكنهم سيعودون إليها مضطرين بعد أن تطحنهم المشكلات والآلام .. سيعودون إليها لأنها الطريق الوحيد لتخليص الإنسانية من الشقاء الذى صنعه البشر لأنفسهم .. وأن الله سبحانه وتعالى برحمته قد شاء أن يجنب عباده هذا الشقاء .. فنزل عليهم من السماء كتابا يهديهم إلى الطريق السوى .. ولكنهم بغرورهم البشرى أعرضوا عنه ، واختاروا الطريق الذى وسوس لهم به الشيطان .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل آدم إلى الأرض ليباشر مهمته عليها قد أدخله التجربة .. عله يستفيد ويعرف أين الحق وأين الخطأ .. وبين له بتجربة عملية ما هو الطيب ، وما هو الخبيث حتى يتجنب الخطأ فى الدنيا ، ويعرف أن الشيطان عدو له .. ولكن الإنسان بما أعطاه الله من اختيار .. ابتعد عن الطيب ، واختار الخبيث .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

وخلق الله الإنسان

وخلق الله الانسان

ولنبدأ من البداية .. لنعرف ما هى مهمة الإنسان فى الأرض .. ونعرف كيف حدد الله له هذه المهمة .. وماذا فعل الإنسان بتكليف من الله .. وما هو الحل لمشاكل هذا العالم ؟

خلق الإنسان هو غيب عنا .. فلم يشهد أحد منا كيف خلق .. حتى يستطيع أن يقول ان الإنسان خلق هكذا .. أو حدث له كذا .. وكذا .. أو يفتى فى كيفية الخلق .. بل ان خلق السموات والأرض هو غيب عنا .. فلم نشهد خلقها حتى نصل إلى حسم فى هذه النقطة بالذات .. نقول ان كيفية الخلق فى كل شىء هى غيب عنا .. وإنها علم اختص به الله سبحانه وتعالى ذاته الكريمة .. لا يعرف أحد عنه شيئا .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن هنا فإن هذا الموضوع محسوم .. وما دام الخلق غيبا عنا لم يشهده أحد .. فلابد أن نأخذ العلم منه عن الخالق سبحانه وتعالى .. فإذا روى الله لنا كيف خلق السموات والأرض وكيف خلق الإنسان ؟ فكلام الله هو المصدر الوحيد للعلم فى هذا الموضوع .. وكل كلام بشرى يدور حول ذلك .. هو كلام مرفوض لا يستحق المناقشة .. لأنه كلام ممن لم يخلق .. ولم يشهد الخلق .. ولم يشهد خلق نفسه .

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن نتنبه إلى عنصرين أساسيين .. هما

وخلق الله الانسان

من تمام عدل الله سبحانه وتعالى وقدراته .. العنصر الأول : إن الله أعد الأرض للإنسان ليستطيع الحياة عليها .. والعنصر الثانى أن الإنسان قبل أن ينزل إلى الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى تجربة عملية مر بها .. وكانت هذه التجربة فى وضوحها كافية لترى الإنسان ما هو منهج الحياة ، وماذا سيلاقى ، وكيف يواجه ما سيلاقيه .

هذان هما العنصران الأساسيات فى إعداد الإنسان للحياة على الأرض .. عطاء الله سبحانه وتعالى يوفر للإنسان مقومات حياته .. وتجربة تعطيه مفهوم الحياة .. وتبين له الحق والباطل .. وتريه رؤية العين ماذا يفعل الزيف وماذا تفعل الحقيقة .

وكان العنصر الأساسى الأول هو أنه ما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى استدعى الإنسان للوجود فلابد أن يوفر له مقومات حياته الأساسية .. ومن هذا المنطلق .. خلق الله سبحانه وتعالى الكون بتمام قدراته وقبل أن يخلق الإنسان .. فخلق الشمس والقمر والنجوم .. وخلق الأرض والماء والهواء .. وخلق النبات والحيوان .. كل هذا خلقه الله ليكون مسخرا لخدمة الإنسان فى الأرض . فخلق الله أجناس الوجود بعضها تخدم بعضا .. وكلها تخدم الإنسان .

فالجماد خلقه الله ليخدم أجناس الوجود كلها ، وهى النبات والحيوان والإنسان .. فالجماد هو فى خدمة الكون كله .. ثم يأتى بعد ذلك النبات ، وهو يخدم الحيوان والإنسان .. فيعطيهما مقومات الحياة من الطعام وغيره .. ثم خلق الحيوان الذى يتغذى على النبات ، فجعل الله

الجماد والنبات فى خدمة الحيوان .. ثم خلق الإنسان الذى جعل كل ما فى هذا الكون من جماد ونبات وحيوان مسخرا له .

وقد تم هذا الخلق بكمال قدرات الله سبحانه وتعالى .. وكل ما خلقه الله فى الكون .. لم يستعن فيه بأحد .. فملك الله هو من خلق الله بكمال قدراته .. ولذلك فلو آمن من فى الأرض جميعا ما زادوا فى ملك الله شيئا .. ولو كفروا جميعا ما نقصوا من ملك الله شيئا .

وهكذا شاء عدل الله أن يعطى للإنسان كل مقومات حياته قبل أن يخلقه ليمارس مهمته فى الأرض .. ولكن بعض الناس يقول : إن مقومات الحياة قد تغيرت .. وان العلم والحضارة قد أعطيا للإنسان من مقومات الحياة ما لم يكن موجودا عند بدء الخلق وبدء الخليقة .. نقول : إن هذا غير صحيح .. فالحضارة لم تخلق مقومات الحياة .. ولكنها وضعت فى حياة البشر نوعا من الرفاهية .. وليس أكثر من ذلك .. وإنما مقومات الحياة هى من خلق الله سبحانه وتعالى . فلا يمكن أن يدعى العلم أنه خلق الماء .. ولكنه يمكن أن يقال إن العلم قد أضاف الرفاهية إلى استخدام الماء .. فبدلا من أن كنت تضطر لأن تذهب إلى البئر أو إلى النهر لتشرب .. جاء العلم لكى يصل الماء إلى مكانك بحيث تستطيع أن تحصل عليه فى الحجرة أو الشقة التى تعيش فيها بواسطة المواسير التى تحمل الماء إليك .. وأضاف العلم إلى ذلك أنه يستطيع أن يعطيك الماء مثلجا فى الصيف ، وساخنا فى الشتاء بعمليات ميكانيكية .. ولكن هل خلق العلم لك الماء ؟ .. الجواب طبعا لا .

ونمضى فى التساؤل .. هل خلق العلم الهواء ؟ .. الجواب طبعا لا ..

ولكنه اخترع أجهزة لتنقى الهواء من شوائب المصانع .. وأجهزة تكييف تجعل الجو باردا أو حارا حسب رغبتك .

إذن هو أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق .. هل خلق العلم الأرض والنبات مما يأكله الناس ؟ .. الجواب طبعا لا .. فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الأرض ، أو خلق حبة واحدة من النبات .. ولكن الذى حدث أن العلم قام بنوع من التهجين لتصبح الثمرة أكثر حلاوة ، أو لتعطى البذرة محصولا أوفر بجهد أقل .. أى أنه أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق شيئا .

وهكذا فى الكون كله .. إذا نظرنا للعلم فإنه مجرد إضافة للرفاهية أراد الله سبحانه وتعالى أن ييسرها لخلقه .. فبدلا من أن أذهب مثلا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم .. أصبحت أشاهد هذه المباراة وأنا جالس فى منزلى عن طريق التليفزيون .. فالإنسان استخدم الغلاف أو خصائص الغلاف الجوى الذى خلقه الله فى أن يوفر الرفاهية لتنتقل الصورة من مكان إلى مكان فى ثوان معدودة .. ولكن العلم لم يخلق العينين اللتين أرى بهما .. أو الغلاف الجوى الذى ينقل الصورة وهما الأساس لما حدث .

وكان الإنسان يسافر ماشيا .. فهداه الله إلى استخدام الأنهار والسيارات والطائرات .. كل هذه لم تعط الإنسان الحركة .. ولكنها يسرتها له .. فالإنسان مازال قادرا على أن يستغنى عن كل هذا . ويسافر على قدميه أو على دابة من مكان إلى آخر .. كل ما حدث هو أن المشقة رفعت .

وخلق الله الانسان

وأتى العلم بالرفاهية إلى حياة البشر .. ولكن ضروريات الحياة .. خلقها الله ولم يخلقها العلم .

الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعلها لحياة الإنسان .. فجعل فيها مسطحات هائلة بالماء لتمد الإنسان بالمطر والماء العذب اللازم للحياة .. وأودع فى الأرض أرزاقها ، فجعل مخازن الطعام فى الجبال التى فيها الطمى الخصب . ينزل المطر ، ويجرفه إلى الأنهار ليغذى الأرض فتصبح صالحة للإنبات .. فيخرج الزرع مختلفا ألوانه ليأكل منه الناس .. وقدر الله فى الأرض رزقها إلى يوم القيامة .

وهنا تقف لتتساءل .. ماذا عن المجاعات التى تحدث فى العالم .. مع أن الله كفل الرزق والكفاية للجميع بعطاء ربوبيته .. نقول إن ذلك من صنع الإنسان .. فهو الذى كفر بنعمة الله وبددها .. فالنبات الذى تخرجه الأرض يكفى الناس جميعا ليأكلوا بحيث لا يوجد جائع واحد .. ولكن ما الذى يحدث ؟ البشر بدأوا يحجبون رزق الأرض عن الإنسان .. فنرى دولة كالبرازيل تلقى الملايين من البيض فى البحر حتى لا ينخفض سعره فتحرم ملايين البشر من رزق يسره الله لهم لتحقق جشعا إنسانيا .. ونرى دولا أخرى تحرق البن حتى تحتفظ بسعره مرتفعا فى العالم .. ونرى دولة كأمريكا مثلا تدفع للزراع مئات الملايين من الدولارات حتى يتركوا الأرض بدون زراعة بالنسبة للقمح وعدد آخر من المحصولات حتى يحتفظوا بسعره العالمى كما يقولون .

وهكذا نرى ان الأرض تنتج ما يكفى البشر أو يزيد .. ولكن جشع الإنسان هو الذى يحجب هذا الطعام عن أخيه الإنسان فتحدث

المجاعات .. بل وأكثر من ذلك أن عددا من الدول التى تملك أراضى صالحة للزراعة مشغولة بتوافه الدنيا والمنازعات والحروب عن أن تجعل الأرض تنفعل بها وتعطيها الثمار .

ومن معجزات الله فى خلقه أنه كلما زاد تعداد العالم .. كشف الله من العلم للإنسان ما يمكنه من أن يزيد إنتاج الأرض .. فكل الاكتشافات العلمية الجديدة التى يسرها الله لخلقه بالنسبة للزراعة .. لو تتبعناها لوجدنا أنها تزيد من إنتاج الأرض كلما زاد عدد سكانها ..

وهكذا تمضى الحياة بدقة إلهية متناهية لتخلق فى الأرض رزقا جديدا لكل فم جديد يولد .. ولو وزع إنتاج الأرض بالعدل على البشر كلهم لما وجد جائع .. إذن فالمجاعات هى من ظلم الإنسان وإفساده فى الأرض .. بل إننى أزيد على ذلك هو أنه كلما قدر الله عدم نزول المطر على جزء من الأرض .. زاد الإنتاج فى الأجزاء الأخرى بحيث لو نقلنا هذه الزيادة لعالجت الذى وجد .. وهذا من عدل الله .. فلا يمكن أن يحدث جفاف فى العالم كله أو فى أجزاء كثيرة فى وقت واحد .. بل الجفاف يحدث فى جزء صغير يكون باقى الإنتاج قادرا على أن يسده ويعالجه .

خلق الله الأرض ، وقدر فيها أقواتها إلى يوم القيامة .. وقدر فيها رزقها .. وخلق الشمس ولها مهامها فى الحياة .. سواء فى الضوء الذى تعطيه فى النهار ، أو فى البخر الذى تسقط به الأمطار .. أو فى إنماء الزرع ، أو فى غير ذلك وخلق الكون كله فى نظام بديع متكامل لخدمة

وخلق الله الانسان

الإنسان وإعطائه مقومات الحياة .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ
رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا تم إعداد الأرض ليعيش فيها الإنسان ووضعت له فيها كل مقومات حياته .. وضعت له بقدرة الله .. مسخرة له من الله سبحانه وتعالى .. فوجد الماء ووجد الطعام ووجد الحيوان .. وكان كل ذلك فى خدمة الإنسان ومعدا له قبل أن يخلق الإنسان ويسكن الأرض . وهو معد إعداداً من لدن حكيم خبير .. وضع للأرض والسموات نظاما دقيقا لا يختل لحظة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَآءَ
رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وهكذا نرى أن كل شيء فى الكون خلق بحساب دقيق .. الشمس لا تتأخر ثانية عن موعد شروقها .. والأرض لا تتوقف برهة عن الدوران .. والنجوم والجبال والأنهار كلها تمت بصنع دقيق لتلائم مهمتها .. وبقيت ملايين السنين وستبقى إلى قيام الساعة .. لا يحدث على عظم مهمتها خلل ولو جزءا من الثانية لأنها من صنع الله العليم القدير ، وليست من صنع الإنسان الذى تفسد صنعته بعد سنوات قليلة وتحتاج إلى إصلاح ، وإصلاح .

نأتى بعد ذلك إلى خلق الإنسان .. أعد الله الأرض ووضع فيها كل مقومات الحياة وخلق الإنسان ليؤدى مهمته فى الأرض .. ولنبدأ قصة الخلق :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعـالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ ﴾

(سورة ص)

وقوله سبحانه وتعالى :

وخلق الله الانسان

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾

(سورة ص)

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين .. ومن صلصال .. ومن حمأ مسنون .. ونحن نأخذ كيفية الخلق عما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى خلق .. وكما بينا لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا (٥١) ﴾

(سورة الكهف)

فإذا جاء بشر يجادل فى خلق السموات والأرض .. ويجادل فى خلق الإنسان .. ويقول إن السماء والأرض كان أصلهما سحابة أو ذرات خامدة .. أو أن الإنسان نشأ بنظرية التطور والارتقاء ، كما ادعى داروين أو غيره ممن جادلوا فى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان .. نقول لهم نحن نعرفكم . أنتم المضلون الذين أنبأنا الله عنهم فى القرآن الكريم .. الذين يأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض والإنسان .. لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بمجيئكم قبل أن تأتوا .. وحذرنا من أنكم ستأتون للإضلال عن سبيل الله ومجيئكم هو تثبيت للإيمان فى قلوبنا .. لأنكم لو لم تأتوا .. ولو لم تحاولوا الإضلال عن منهج الله بنظريات كاذبة .. لقلنا إن القرآن أنبأنا أن هناك مضلين سيأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض ، وفى خلق الإنسان فأين

هم ؟ .. ولكن كونكم أتيتم وجئتم بهذه النظريات الكاذبة التى تحاولون بها نشر الكفر والإلحاد .. فإنكم بذلك تثبتون قضية الإيمان .. فالله لم يشهدكم عملية الخلق .. ولم يطلب منكم العون فى خلق الكون والإنسان .. حتى تدعوا ما تدعونه .. والله قد اتخذ منكم ـ وأنتم تحاولون نشر الكفر والإلحاد ـ دليلا على صدق الإيمان ، وصدق القرآن .. والله فى كونه يسخر المؤمنين والكفار لخدمة قضية الإيمان .

نأتى بعد ذلك إلى الخلق كما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى . لقد قال الله انه خلق الإنسان من طين ومن صلصال ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .. ونحن لم نشهد الخلق .. ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكل قضية غيبية عنا قضية مادية مشهودة تقرب المعنى من عقولنا .. ونحن لم نشهد الخلق ، وهو بداية الحياة .. ولكننا نشهد الموت وهو نقض للحياة .. ونقض الشىء يكون عكس بنائه .

إننا بدأت بناء عمارة فأنت تبدأ بالدور الأول .. فإذا أردت هدمها .. فإنك تبدأ بما انتهيت إليه .. فتبدأ بإزالة الدور الأخير .. ثم الذى تحته .. ثم الذى تحته .. وأنت إذا ذهبت من القاهرة إلى الاسكندرية فأول ما تبدأ به هو خطوة تبعدك عن القاهرة وتقربك من الاسكندرية .. فإذا أردت أن تعود فإنك تبدأ عند النقطة التى انتهيت إليها .. وهكذا طبيعة الأشياء .

آخر ما دخل فى الإنسان حسب قول الله سبحانه وتعالى هو الروح .. ولذلك عند نقض الحياة فإن أول ما يخرج منك هو آخر ما دخل فيك وهو

الروح .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصير كالحما المسنون ، أى الطين الذى فيه صلابة الفخار .. ثم يصير طريا كالصلصال .. ثم يصبح طينا يذهب الماء فيه إلى الأرض .. ثم تحلل عناصر الطين والتراب .. ويعود الإنسان إلى العناصر الأولى التى خلق منها .. وهكذا كان الموت دليلا على الخلق .. وهو دليل مشهود لنا ـ يعطينا بالحس المادى الذى نراه ـ طريقة هدم الحياة التى هى عكس بنائها .

نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾

وحينما نأتى إلى أى صفة من صفات الله ، أو فعل من أفعاله .. فإننا لابد أن نرفع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى لأن الفعل يتناسب دائما مع القدرة .. فلله يد .. ولكل منا يد .. ولكن هل يد الله كأيدينا ؟ .. طبعا لا .. حين نصل إلى ذلك لابد أن نرفع الأمر إلى الله سبحانه ، ليس كمثله شىء .. ولذلك فإن هذا يقع فى يد القدرة التى لا يدركها العقل والتى لابد أن نقف أمامها دون أن نحاول أن نضيف أكثر فالله سبحانه ليس كمثله شىء .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(سورة الحجر ـ ٢٩)

والروح هى أمر من أمور الله .. وكل الأبحاث التى تجرى عن الروح هى مجرد عبث .. ذلك أن الروح لا يمكن أن تضعها فى معمل .. ولا أن تجرى عليها التجارب حتى تصل إلى الحقيقة .. والبحث عن الروح

يشغل الإنسان منذ بداية الحياة .. ذلك أنها سر الحياة الذى عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين .. ورغم ان الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى ، وكل ما يقال عنها ظن وتخمين يفتقر إلى الدليل .. فإن الإنسان مازال يحاول أن يعرف شيئا .

لقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الإنسان عندما يحتضر على ميزان .. وجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح .. والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا .. والكافرون ينكرون وجود الروح ويسمونها الزمن أو الطبيعة .

وحيرة البشر كلها .. سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهناك الروح .. وهناك النفس .. فالنفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة .. هذه هى النفس .. ولذلك فإن التكليف من الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية ، أو لفترة الحياة التى تلتقى فيها الروح والجسد .. فالله لا يكلف الروح وحدها شيئا بعد أن تخرج من الجسد .. ولا قبل أن تدخل فيه ، والله لا يكلف الجسد شيئا إذا خرجت منه الروح .. ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة .. فهنا

تنشأ الحياة الأرضية .. أو تنشأ النفس التى هى تمر بمرحلة الاختبار فى الالتزام بمنهج الله فى الأرض .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الشمس)

إذن الله سبحانه وتعالى بين طريق الإيمان وطريق الخطأ والمعصية للنفس البشرية .. أى فى الفترة التى تلتقى فيها الروح بالجسد ، أى أن الله بين منهجه للنفس فقال افعل .. ولا تفعل .. وقال هذا خطأ .. وهذا صواب .. وبين طريق الجنة للنفس البشرية .. والتكليف الالهى هو فى فترة الحياة الدنيا وحدها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وإذا أردنا أن نفهم كلمة الروح فإنها ذلك السر الالهى الذى يهب الحياة للمادة .. أو الذى تحيا به المادة .. أو بشكل آخر هو إرادة الله لها أن تحيا .. فإذا سلب الله هذه الإرادة ذهبت الحياة بشكلها الدنيوى وانتهت واختفت .. ولذلك يصور رسول الله ﷺ الحياة الدنيا كأنها فترة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى .. يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ثم يرحل .. فيقول رسول الله ﷺ :

« مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولابد هنا من الإشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾

فكأنما الحياة عند الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية هى فى الآخرة .. ذلك أنها حياة الخلود التى تساوى أن تسمى حياة بمقوماتها التى يريدها الله سبحانه وتعالى للإنسان .. ولذلك فإن الله يذكرنا أن اتباع منهجه فى الدنيا هو الذى يعطينا الحياة المنعمة الطيبة التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة .. حيث أعد لهم مالا عين رأت ..

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وان الحياة الدنيا إنما هى فترة قصيرة لا تساوى شيئا .. وإنما هى فترة اختبار للنفس البشرية لتقودها إلى الحياة الطيبة الخالدة .. ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾

أى أن الله يريد أن يلفتنا إلى أن الحياة التى يعمل الإنسان لها لو أوتى العلم والذكاء هى الحياة الآخرة .. ولذلك فهو يحذرنا من أن تفتننا الحياة الدنيا التى هى لعب ولهو ، والتى هى متاع الغرور .. عن الحياة الآخرة التى هى حياة الخلود والنعيم ، والتى لابد لكل إنسان عاقل أن يعمل من أجلها .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (لو كانت الحياة الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى فيها كافرا شربة ماء) .

إذن فالنفس البشرية هى التقاء الروح بالجسد لتهب له الحياة .

ونعود للآية الكريمة :

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾

.. وحينما سئل رسول الله ﷺ عن الروح .. كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح .. ومم تتكون ، وكيف تهب الحياة للجسد ، ثم تذهبها عنه ؟ .. وهنا رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة .. الله سبحانه وتعالى يقول : ان علمكم الأرضى الذى تظنون أنه كثير .. وهو فى الحقيقة أقل القليل .. علمكم هذا لن يصل لكم إلى سر الروح .. أنتم تسألون ما هى الروح .. وأنا أقول لكم ان علم البشرية كلها لن يصل إليها .. بل لن يصل إلى أسرارها .. وأقول هذا يقينا .. وهذا تحد من إعجاز القرآن الكريم .. فمازالت البشرية بكل علمها وعلمائها عاجزة عن أن تقترب من الروح .. أو تكتشف سرا واحدا من أسرارها

بل ان تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح ، وهى تعيش فى جسد بشرى .. يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم شيئا عنها .. كيف جاءت وكيف خرجت ؟ .. بل انك تسأل أعلم علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا استحياء ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله .. أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله ويعلنون الكفر والإلحاد ويطالبون أن يروا الله .. نقول لهم : إن الله برحمته قد أظهر لنا فى هذه الحياة الدنيا جهلكم وأنتم تدعون العلم .. فالروح فى أجسادكم .. معكم فى رحلتكم من المهد إلى اللحد .. أو من الميلاد إلى القبر .. وأنا أسألكم يا من تدعون العلم .. أين هى الروح التى فى أجسادكم .. هل هى فى القلب الذى ينبض أو فى العقل الذى يفكر .. أو فى القدم التى تمشى .. أو فى اليد التى تبطش .. أو فى اللسان الذى يتكلم .. أو فى الرئة التى تتنفس .. أين هى ؟ .. وأين مكانها ؟ ..

والجوانب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها .. فنقول لهم :

ما هو شكلها فيقفون صامتين بلا جواب .. فنقول لهم هل هى موجودة ؟ فيقولون نعم موجودة لانها تعطينا الحياة .. فنقول لهم إذا كانت الروح وهى موجودة وجودا يقينا فى كل كائن حى قد عجزتم عن تحديد مكانها أو شكلها . أو أن تروها رؤية العين .. ومع ذلك فهى موجودة وجودا يقينا .. إذا كان ذلك لمخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. لا تستطيعون الإحاطة به .. فكيف تريدون رؤية الله وتقولون لن نؤمن حتى نرى الله جهرة .. وأنتم عاجزون عن أن تروا الروح وهى مخلوق من مخلوقات الله فى أجسادكم .. الا يصيبكم الخزى وأنتم تجاهرون بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله جل جلاله .. الا تكفى هذه التجربة لتبين لكم أنكم تفترون على الله .. وكان من الأجدر بكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الإعجاز .. وتوقنوا بوجود الله .. وبعظيم علمه .. وتسجدوا له وتسبحوه .

ولكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟ .. لأنه أولا دليل قدرة .. وثانيا دليل الوجود بلا رؤية .. وثالثا لأن حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم لن تفيدك شيئا فى حياتك الدنيا .. فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها .

ولكى نقرب هذا المعنى إلى القارىء نقول : ان الله سبحانه وتعالى قد خلق أشياء كثيرة لا يقتضى الاستفادة بها علما من المستفيد .. فالكهرباء مثلا أستفيد بها ، سواء علمت أو لم أعلم .. فالأمى الذى لا يقرأ يضع يده على الجرس فيحدث رنينا ، وعلى مفتاح النور فتضىء الحجرة .. هل يعرف هذا الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة

الكهرباء .. أبدا .. ولكنه ينتفع بها .

بل أنت فى حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئا عن حقيقتها .. هل يعرف كل من يركب الطائرة نظريات الطيران .. وهل يدرى كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمة .. وهل يعرف كل من يشاهد برنامجا تليفزيونيا ينقل بالقمر الصناعى .. كيف يتم الاتصال أو نقل الصوت والصورة عن طريق الأقمار الصناعية .. وهل لو جهل من يزرع الأرض أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها .. هل لو جهل هذه الحقيقة ، فإنه لا يستطيع الاستفادة من الأرض فى أن تنتج له ما يريد من طعام .

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية فى أشياء أقول عنها ينتفع بها ملايين الناس دون أن يعرفوا سرها .. لأقول ان الله سبحانه وتعالى برحمته عندما يحجب حقيقة الروح عنا فإن ذلك لا يؤثر فى انتفاعنا بهذه الروح فى رحلة الحياة .

إذن أنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة وان كنت تجهل ما هى .. ولا يعنى ان الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها .. إنها فى داخلك . فى كل خلية من جسدك تهبها الحياة والحركة .

نعود إلى قول الله :

﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾

وخلق الله الانسان

.. وماذا تعنى كلمة أمر الله .. القرآن الكريم يبين لنا ذلك .. فالله يقول :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن أمر الله بالنسبة لنا هو إرادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا ، هو التفسير لمعنى الأمر من الله سبحانه وتعالى أى الإيجاد بكلمة كن .. والخروج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان بكلمة كن .. وهذا الخروج يحدث ليباشر الشىء دوره ويؤدى مهمته فى الكون .. فأمر الله سبحانه وتعالى يكون إيذانا بأن يباشر الشىء مهمته فى الكون بكلمة كن .

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة القيامة)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وخلق الله الانسان

والله سبحانه وتعالى يتحدث فى هذه الآيات عن الروح وهى تغادر الجسد .. وهى تخرج منه .. انه يتحدث عن لحظة الموت .. لحظة الفراق بين الجسد والروح .. والله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح يتحدث عن شيء له دخول وله خروج .. أو عنصر تام .. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يهب للجسد الحياة وحدث ذلك بكلمة كن .. دخلت الروح إلى الجسد لتعطيه الحياة .. وإذا أراد الله أن يسلب الحياة أخرج من الجسد تلك الروح التى تعطيه الحياة .. فإذا جاء بعض العلماء وقالوا إنهم وضعوا عددا من الذين يحتضرون فوق ميزان حساس ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءا فجائيا من وزنه .. وانهم يدللون بذلك على أن الروح لها وزن يسير .. نقول لهم ان ما تقولونه ليس علما ، ولكنه ظن فقط .. أى أنكم تظنون ذلك .. فقد يكون هذا الوزن الذى يفقد نتيجة كمية من الهواء من الجسد فجأة .. أو توقف سريان الدم .. أو نتيجة أى تفاعل مادى يحدث ساعة الوفاة .. وأن هذا لا يعنى يقينا ان الروح لها وزن .. ولذلك فإن البحث العلمى على أن الروح لها وزن أو ليس لها وزن مجرد عبث .

أن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم بيديه ونفخ فيه الروح .. ولقد بينا عناصر الخلق والذين يجادلون فيه بغير علم .. ثم تحدثنا عن النفس البشرية التى هى التقاء الروح بالجسد .. وعن الحياة الحقيقية التى هى فى الآخرة .

ونصل إلى أمر الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

السجود لآدم

السجود لآدم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم آدم تكريما عظيما يليق بمهمته فى الحياة . كخليفة الله فى الأرض .. فبعد أن خلق له هذا الكون كله بشمسه وأرضه ونجومه وقمره وبحاره ليستقبله ويكون فى خدمته . أراد أن يكرمه عند بداية الخلق .. وكان أول إختبار من الله سبحانه وتعالى للملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة هى قبل خلق آدم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى أنه أخبر الملائكة بخلق آدم قبل إتمام الخلق . فقال سبحانه وتعالى للملائكة انه سيخلق بشرا من صلصال من حمإ مسنون .. ثم أصدر الله سبحانه وتعالى أمرا للملائكة أنه ساعة إتمام خلق آدم أن يسجدوا له .. هذا السجود قد يكون لعظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض .. وقد يكون لعظم التكريم الذى جعله الله لآدم فى الآخرة .. وقد يكون تفضيلا لآدم من الله سبحانه وتعالى مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ما هو معنى عظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض .. هذه المهمة تتلخص فى أنه حمله الأمانة .. وتلك مهمة كبيرة وحمل ثقيل حمله الإنسان فى حياته على الأرض .. ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ما هى الأمانة فى معناها الواسع ، وما هى الأمانة التى حملها الإنسان .. الأمانة فى معناها الواسع أن نودع شيئا لدى أى شخص من الأشخاص بشرط أن يكون هذا الإيداع ليس عليه دليل مادى أى أنه يكون بينك وبينه .. فإذا أعطيت إنسانا مبلغا وكتب لك شيكا بهذا المبلغ أو كمبيالة له فهذا ليس أمانة ولكنه دين .. فإذا لم يكن هناك دليل مادى على أنك أودعت عنده هذا المبلغ فهذا أمانة .. ولقد حدد الله سبحانه وتعالى معنى الأمانة فى القرآن الكريم بمعناها الواسع .. فقال سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٨٢)

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى أن الدين هو الذى يقوم عليه صك

مكتوب أو ورقة مكتوبة - ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالأمانة هى دين لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب وذلك كأن آتى إلى شخص وأودع لديه مبلغا من المال وأقول هذا أمانة عندك حتى العام القادم مثلا . قد يقبل هذا الشخص الأمانة ويقول لى اعطها لى وهى فى الحفظ والصون إلى أن يأتى العام القادم فتأتى لتأخذها وتجدها كما هى .. وقد يخاف الشخص من نفسه ويقول اعفنى من هذه المهمة إن يدى ستمتد إليها ، ولن أستطيع أن أحمل هذه الأمانة ، ولذلك فأنا أرفضها .. ونوع ثالث من الناس يبدى استعدادا وتحمسا ليتقبل الأمانة فإذا أصابه ضيق مادى أو احتاج إلى شىء امتدت يده إليها ليأخذ منها على أنه سيعيد ما أخذ قبل أن يأتى موعد رد الأمانة .. ثم يحتاج فيأخذ ويأخذ على أمل أنه سيرد .. ثم يفاجأ عند مجىء موعد الرد بأنه قد بدد الأمانة وعجز عن ردها . هذا هو معنى الأمانة عامة .. وهو معنى أوضحه الله فى القرآن الكريم فى سورة البقرة إيضاحا لا يحتمل أى نوع من التأويل ..

فإذا كان هذا هو المعنى العام لكلمة الأمانة فما هى الأمانة التى حملها الإنسان .. انها منهج الله فى الأرض ، وحرية الاختيار فى إفعل

ولا تفعل .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى حين خلق السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عرض عليها الأمانة ـ أى أن يأتمنها الله سبحانه وتعالى على منهجه .. ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل .. فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم .. وإن خالفت المنهج وعصيت استحقت العذاب فى النار .

عرض الله هذا على السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات .. فقالوا يارب لا نستطيع أن نحمل الأمانة .. إنا نخاف ونشفق على أنفسنا منها .. ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريد أن تحمله لنا .. فإن هذه المهمة تحتاج إلى جهد عظيم .. فيارب اجعلنا مقهورين غير مختارين .. مقهورين على طاعتك .. غير مختارين فى أن نعصى .. ولكن الإنس والجان قبلوا أن يحملوا الأمانة .. وقالوا يارب نحن قادرون على ذلك حملنا الأمانة ، وسنكون أمناء على المنهج .. وسنطيع ولا نعصى .

ولعظم هذه المهمة التى حملها الإنسان .. فإن الله سبحانه وتعالى يصفه بصفتين فيقول إنه كان ظلوما جهولا .. وظلوم معناها أنه كثير الظلم .. وجهول أنه عظيم الجهل .. لماذا وصف الله الإنسان فى هذه الآية بالذات بأنه ظلوم جهول .. لانه لم يقدر عاقبة ما اختاره .. فهو بهذا الاختيار قد ظلم نفسه .. فحملها مالا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله .. هذه واحدة ولأنه ـ أى الإنسان ـ يجب أن يتميز كل واحد منهم عن غيره .. فهذا يريد أن يأخذ حق هذا .. وهذا يريد أن يستبيح حرمات غيره وهكذا .. والله نهى عن ذلك .. ولكن هوى

النفس يدعو الإنسان إلى أن يأخذ ما ليس له حق فيه .. وهكذا كان الإنسان كثير الظلم .. كل واحد منا يظلم .. فهو ليس ظالما .. ولكنه ظلوم .. مضافا إلى ذلك أن الإنسان قد أخذ حق المعصية .. فمادام الله قد قال افعل .. فالإنسان قادر على ألا يفعل .. وما دام الله قال : لا تفعل .. فالإنسان قادر على أن يفعل .. وهذه المقدرة التى وهبها الله للإنسان أو أعطاها له قد ملأت نفسه بالغرور .. والغرور هو الطريق السريع إلى المعصية ، وإلى الظلم والاستبداد فى الأرض .. وهكذا من كل ناحية كان الإنسان كلما حمل الأمانة ، ظلوما لنفسه ، وظلوما لبنى جنسه .

وكان الإنسان جهولا .. أى عظيم الجهل .. لماذا ؟ .. لأنه وقد أخفى عنه الجزاء للمعصية استهان به .. فلو أن الجزاء كان حاضرا ـ أى أننا نراه أمامنا .. ما جرؤ واحد منا أن يرتكب معصية .. ولكن لأن الجزاء غيب عنا .. فإننا بجهلنا نستهين بعذاب الله .. فلو أننا أحضرنا معاصى الدنيا كلها بكل ما فيها من مال وشهوات وزينة وأعطيناها لإنسان .. ثم قلنا له هذه كلها لك .. تمتع بها كما تريد وكما تشتهى .. ولكن قبل أن تتمتع وحتى نكون عادلين نريد أن نريك النتيجة .. ثم فتحنا له بابا فرأى نار جهنم .. وقلنا له بعد أن تمضى فترة عمرك فى هذه المعاصى كلها بكل ما تمنحه من زينة وجاه وسلطان وشهوة .. سنأخذك إلى هنا .. إلى جهنم لتبقى فيها خالدا .. لو أننا قلنا له هذه الكلمات وفتحنا له أبواب جهنم ما اقترب من معصية أبدا .. ولكن لأن هذا أخفى عنه ، ظن الإنسان أنه لا علم إلا علمه ، ونسى علم الله الواسع الذى لا يحده حدود .

وهو جهول لأنه سيعبد الدنيا بقصر نظره بعد علمه يقينا بأنه سيخرج منها .. فلا يوجد إنسان إلا ويعرف يقينا أنه سيموت .. وأن أجله سيأتى ولكن لا يوجد إنسان يحسب أو يؤمن أنه قد يموت غدا .. فمهما بلغ به العمر فالأمل داخل نفسه أنه سيعيش سنوات وسنوات .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت) ذلك أن الإنسان رغم علمه اليقينى أنه سيموت فإنه كان فى شك بأن هذا لن يحدث لسنوات طويلة ..

والإنسان جهول .. لأنه فى داخله فطرة الإيمان التى فطره الله عليها .. وحوله الكون الذى سخره له الله لخدمته .. يرى فيه كل يوم آيات الله عن قوى أكبر منه وتستطيع أن تدمره .. ولكنها مسخرة لخدمته وطاعته .. فالشمس تستطيع إن اقتربت من الكون أن تحرقه فى دقائق .. ولكنها لا تجرؤ إلا أن تشرق فى موعدها ، وتبقى فى مكانها تخدم الإنسان بالضوء وفى الطعام وفى تكوين السحب لإنزال المطر إلى آخره .

والبحر يستطيع أن يغرق الأرض فى لحظات محدودة .. ولكنه يبقى فى مكانه مسخرا ليحمل السفن والإنسان .. ويعطى الإنسان الطعام والحلى .. ويرى فيه الإنسان من عجائب خلق الله .. والأرض بزلزال هائل تستطيع أن تفنى البشرية .. ولكنها تستمر خادمة الإنسان خاضعة له فى مقومات حياته .. تلك القوى لم يخلقها الإنسان حتى نقول إنه سيطر عليها لانه خالقها .. ولا يستطيع أحد من البشر أن يدعى أنه خالق هذا الكون .. ولكن الله الذى قال لنا انه هو الخالق ..

ورغم أن الإنسان يرى الإعجاز فى تسخير هذا الكون له بكل القوى الهائلة الموجودة فيه .. ويعلم يقينا أن الله هو الذى خلق هذا كله .. لأن الله أخبرنا بأنه هو الذى خلق .. ولم تجرؤ أى قوة أخرى أن تدعى لنفسها الخلق .. رغم هذه الآيات الظاهرة .. فإن الإنسان بعظيم جهله يعبد حجرا .. أو يعبد حيوانا .. أو يعبد إنسانا مثله .

الله سبحانه وتعالى حين أعطانا الأمانة وحملناها .. كان لابد أن يميزنا بعقل حتى نستطيع أن نختار بين البدائل .. فالعقل مهمته الاختيار بين البدائل .. أما باقى المخلوقات التى اختارت طاعة الله جبرا فتحكمها قوانين غريزية .

ولذلك كان الحساب يقف حين يتعطل العقل عن أداء ومهمته .. فالمجنون يسقط عنه التكليف ولا يحاسب .. والطفل الذى لم يبلغ الحلم أو مبلغ الرجولة والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق وأن يميز .. لا يجرى عليه القلم .. وهكذا فإن مناط التكليف هو العقل .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد حرم كل ما يعطل العقل عن عمله أو يفسده .. أو يجعله ينحرف عن مهمته .. فحرم الخمر تحريما قاطعا لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة فقال :

﴿ فلا تقربوها ﴾

فهى ليست محرمة فقط .. ولكن القرب منها بالجلوس فى مجالسها ممنوع .. وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات .. لأن مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهى .. الذى ميز الله

به الإنسان وهو العقل .. فالعقل هو أساس الرقى فى حياة الإنسان .. وإذا أردت أن تعرف ذلك .. أقول لك أرأيت جيلا من الحيوانات يعقد اجتماعا ليبحث فيه كيف يرتقى بمعيشته .. وينشىء له حظائر على أحدث نظام .. ويغير طعامه بطعام أفضل .. ويخترع الدواء لأمراضه .. ويحاول حل مشاكله بنفسه .. أرأيت جيلا من الحيوانات يفعل ذلك ؟ .. أرأيت حيوانا حين يوضع أمامه الطعام .. يقول أنا آكل هذا ولا آكل ذلك هذا الصنف من الطعام أفضل .. أو يقول سأوفر جزءا من هذا الطعام إلى غد .. أو يقول سأدخر جزءا من الطعام الذى أمامى للأيام القادمة .. أرأيت حيوانا حين يشبع يظل يأكل .. ولو أنك ضربته مهما ضربته ليأكل أكثر فهل يستجيب لك .

كل هذه التصرفات كفلها الله سبحانه وتعالى بالغريزة تحكمها .. ولذلك فإن هذه الغريزة تحرس حياة الحيوان ، فلا يأكل عودا من البرسيم أكثر من حاجته فيصاب بالتخمة .. ولا يخلق المشاكل فى حياته فتتعقد .. ولا يبقى طعام اليوم إلى غد أو بعد غد فيصيبه القلق والأسى .. ولكنه يتصرف بغريزته ويأخذ حاجته فقط .. حياته من مولده إلى يوم القيامة هى نفس الحياة التى وضعها الله له .. فهو لا يرتقى بنفسه .. ولا يطلب شيئا غير موجود .

ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة أعطاه الله العقل مناط التكليف .. فهو بعقله يستطيع أن يختار بين البدائل التى خلقها الله سبحانه وتعالى .. فهو قادر على فعل الخير .. وقادر على فعل الشر .. وحتى يكون الحساب عدلا .. فإن مغيبات العقل كلها محرمة تماما .. مهما

أخذت أى شكل من الأشكال .. والذى يقدم عليها يحاسب لأنه قد عطل أداة الاختيار فيه .. وانطلق بلا وعى إلى أشياء حرمها الله .

واختيارات العقل هي التى تشقى الإنسان وتسعده في الحياة .. وهى التى تقوده إلى الجنة أو النار .. فأنت بالغريزة لك انفعال واحد ورد واحد .. أما بالعقل فأمامك بدائل كثيرة تختار منها ما تريد .. فإذا ضرب الإنسان كلبا مثلا .. فإن الانفعال الغريزى لهذا الكلب هو أن يرد بأن يعض الإنسان ولا انفعال آخر .. كلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه .. والحمار أو الحصان مثلا يرفس من يؤذيه .. أى أن انفعاله له شيء واحد لا يتغير .. بينما الإنسان له عشرات البدائل من الانفعالات .. فإذا ضربك شخص فإنك تستطيع أن ترد الضربة بمثلها .. أو تردها بأشد منها .. أو تردها بأقل منها .. أو تصفح عمن ضربك .. أو تحسن إليه .. أو تكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها .. موجودة عند الإنسان وحده .. وما دامت هذه البدائل موجودة .. فلابد أن هناك فى الإنسان شيئا يجعله يختار .. أو يميز بين البدائل بحيث يتخذ القرار .. أما الذى ليس عنده سوى اختيار واحد فهو محتاج إلى فكر ليميز بين البدائل التى أمامه .. وهنا نأتى إلى معنى الآية الكريمة :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة البلد)

ولابد أن نعرف أن كلمة الإنسان حين تطلق من الله سبحانه وتعالى .. يراد بها الإنسان على إطلاق خلقه بلا تمييز بين مؤمن

وكافر .. أى أن الإنسان على إطلاقه مخلوق فى كبد .. أى فى ضيق ومعاناة .. لماذا ؟ .. لأنك وأنت أمامك هذه البدائل كلها مطلوب منك أن تختار فى كل لحظة من لحظات حياتك .. ماذا تفعل ؟ .. وكيف تتصرف ؟ .. هل ترد الإساءة بالإساءة ؟ .. أو تواجهها بالإحسان فيطمع فيك عدوك ؟ .. وأنت فى ضيق مالى هل تستقيل من وظيفتك وتبدأ عملا حرا ؟ .. وماذا يحدث لو أفلست إذا لو قمت بهذا العمل ؟ .. كيف تتصرف فى الصفقة التى أمامك .. ان بعتها فقد يرتفع سعرها فيضيع الربح الذى كنت تستطيع أن تكسبه .. وإذا لم تقرر البيع قد ينخفض السعر فتخسر .. أين الخير وأين الشر فيما يحدث لك وفيما تختاره ؟ هل اخترت الصواب أم الخطأ ؟ .. لو اتخذت هذا القرار فما هو أثره على غدك ومستقبلك ؟ .. أيأتى يوم تندم فيه على ما فعلت ؟ .. وإذا لم تتخذ القرار أتكون قد ضيعت فرصة عمرك كما يقولون ؟ .. وهل ستأتى فرصة غيرها ؟

إذن فالإنسان إذا امتنع عن اتخاذ قرار فهو فى ضيق .. لانه يحس أنه ربما أخطأ وربما فاتته الفرصة .. وإذا اتخذ القرار واختار أحد البدائل فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه ربما أخطأ فى قراره .. وإذا قال نعم .. فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه كان يجب أن يقول لا .. وإذا قال لا فهو فى تعب وكبد .. فربما كان الخير فى كلمة نعم . وهكذا لا يخرج من الضيق والمعاناة أبدا إذا اتخذ قرارا أو لم يتخذ .. وإذا قام بعمل أو امتنع عنه .. إنه يعيش فى ضيق دائم ..

والمخرج من هذا كله أن تتحد مرادات الإنسان وما يريده فى الحياة

مع مرادات منهج الله .. ولذلك فإن الإنسان المؤمن هو الذى يعيش فى راحة .. فالإنسان المؤمن كل قدر الله بالنسبة له هو خير .. والإنسان غير المؤمن كل قدر الله بالنسبة له يعتبره شرا .

والإنسان المؤمن إذا جاءه المال فهو خير .. وإذا ذهب عنه المال فهو خير .. فإذا جاءه المال كفاه حاجته .. وإذا ذهب عنه فربما كان سيقوده إلى المعصية والهلاك فأبعده الله عنه .. والإنسان غير المؤمن إذا جاءه المال فهو شر .. يخاف من الحسد فينكره .. ومن السرقة فيظل قلقا عليه ليل نهار .. ومن أن يضيع هذا المال فيحاسب نفسه على قرش ينفقه .. وإذا جاءته وجوه إنفاقه فهو يخشى أن تزيل وجوه الإنفاق هذه نعمة المال عنه وتفنيه .. وهو يحس أن كل من حوله يطمع فى ماله فتضيع ثقته فى الناس .. ويشعر أنهم جميعا خونة وطماعون .. وهكذا فإن المال أتاه بالشقاء .. فإذا ذهب المال عنه فهو شر .. لأنه ينظر إلى النعم التى أنعم الله بها على غيره من خلقه وتمتلىء نفسه مرارة وحسرة . ويحس بالضيق فى كل دقيقة من حياته .. ويشعر بالحرمان ويملأ نفسه السخط لانه يريد ولا يستطيع أن يحصل على ما يريد .

والإنسان المؤمن إذا كان صحيحا معافى .. يعرف قيمة الصحة ويشكر الله عليها .. وإذا مرض يعلم أن هذا ابتلاه من الله واختبار للإيمان .. ويرضى ليحصل على الثواب وينجح فى الاختبار .. والإنسان غير المؤمن يعتبر الصحة أمرا مفروضا .. فإذا أعطاه الله الصحة انطلق إلى المعاصى التى تذهبها عنه .. ويرهق جسده بالسفر والخمر والشهوات وفاخر الطعام يحشره حشرا .. فإذا مرض نتيجة هذا

السلوك .. سخط وضاق ولعن الدنيا ومن فيها .. وظل متبرما بالحياة فهو في ضيق دائما .

هكذا نرى أن التكليف أو الأمانة التى حملها الإنسان ليست مهمة سهلة ولا هينة .. بل هى مهمة صعبة واختبار دقيق بين مغريات الحياة ومطلوبات الإيمان وهى امتحان لا ينتهى فى كل دقيقة .. كما سنبين ذلك فى الفصول القادمة .. ولذلك لعظم هذه المهمة كان أمر الله لملائكته للسجود لآدم .

والله سبحانه وتعالى قد أعد للإنسان المؤمن فى الآخرة جنات ونعيما عظيما وتكريما على قدرات الله سبحانه وتعالى .. وتحقيق هذا التنعيم والتكريم من الله سبحانه وتعالى لابد أن يكرم ساعة خلقه بأن يسجد الملائكة له .. وقد يكون ذلك تفضيلا من الله سبحانه وتعالى وتكريما للإنسان .. والله يكرم من يشاء ويرفع درجات من يشاء .. ولذلك أراد تكريم الذرية المؤمنة التى خلقت فى ظهر آدم ساعة خلقه .. كل هذا تفسير لأمر السجود وان كان التفسير الأكبر هو التفسير الإيمانى فى أن الله سبحانه وتعالى يعبد لذاته .. وان الأشياء تأخذ تفضيلها ورفعة شأنها وكمال وجودها من الله .. ولا شىء له فضل ولا قدسية فى ذاته .. وهذه حقيقة لابد أن نفهمها لأنها هى الحقيقة الإيمانية الكبرى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فضل الأماكن على بعض .. وبعض الأزمنة على بعض .. وبعض خلقه على بعض .. ولكن هذا التفضيل ليس فى ذاتية هذه الأشياء كلها .. ولكن : اختيار الله لها .. فليس فى هذه الدنيا كلها شىء مفضل لذاته .. ولعل هذا الاختيار

الإيمانى قد مر به المسلمون عند تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .. وبعض الناس يتساءل عن حكمة تغيير القبلة .. وقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الحكمة .. فبعضهم قال ان ذلك تم حتى نخالف اليهود والنصارى .. وبعضهم قال إن ذلك تم لإرضاء العرب الذين نزل الإسلام عليهم أولا حتى يكون بيت الله وقبلة المسلمين فى الجزيرة العربية .. وبعضهم قال غير ذلك .

ولكن الحكمة فى هذا كله تأتى من أن الله يريدنا أن نفهم أن عبادته .. يجب ألا نشرك معه فيها شيئا مهما كان هذا الشىء .. بل العبادة له وحده .. والطاعة له وحده .. وان اختياره سبحانه وتعالى للأشياء هو الذى يعطيها قدسيتها فى نفوسنا .. فإذا قال الله اتجهوا إلى بيت المقدس للصلاة .. اتجهنا إلى بيت المقدس .. لا لأنه مكان رسالات سابقة .. ولا لأن هذا المكان شهد الأنبياء السابقين .. ولكن الله هو الذى أمرنا أن نتجه إليه .. فإذا جاء أمر الله فى أن نتجه إلى الكعبة ، فإننا نتجه إلى الكعبة تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى أن نتجه إليها .. ولا نعترض أو نقول ان بيت المقدس الذى شهد الرسالات السابقة هو أفضل وأقدس .. ذلك أن بيت المقدس أخذ قدسيته من أمر الله لنا بالاتجاه إليه فى أول الإسلام .. والكعبة المشرفة أخذت قدسيتها من أمر الله لنا بتحويل القبلة والاتجاه إليها .. وهكذا نعرف أن الألوهية والطاعة والتقديس لله وحده .. ولا ندخل معه شيئا إلا أمر الآمر وهو الله بأن نفعل ذلك .. لأن الله يعبد لذاته .

ولذلك فإن بعض الناس الذين يعتقدون أن هناك شيئا مقدسا لذاته

بعيدا عن أمر الله .. إنما هم قد يقعون فى خطأ جسيم .. ذلك أن مصدر العبادة كلها .. بذاتيتها وكل أوامرها ونواهيها .. هو الله .. فإذا قال سبحانه وتعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. اكتسب رسول الله ﷺ حق الطاعة بأمر الله .. فأصبحت واجبة .. وإذا طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج البيت .. اكتسب البيت حق الحج بأمر الله .. ولو طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج إلى أى مكان آخر لقمنا بذلك امتثالا لأمر الله .. ولذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هذه الحقيقة فى قوله سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نجد أنه فى الآيات الأولى يقول الله :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ومعنى ذلك أن الله أنبأنا بما سيقولونه قبل أن يقولوه .. وهذا واضح فى استخدام حرف (السين) فى قوله تعالى « سيقول » .. ولو أنهم قد قالوا فعلا ما استخدم الله سبحانه وتعالى حرف السين .. وهذا إعجاز من القرآن الكريم .. فلو تنبه الكفار وغير المسلمين إلى هذه الآية التى نزلت قبل أن يقولوا شيئا لامتنعوا عن القول .. وحينئذ كان الجدل يثور حول القرآن الكريم بأن يقول هؤلاء الكفار وغير المسلمين ان القرآن قد قال :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ولكن أحدا لم يقل شيئا .. ولكن الله بقدرته جعلهم لا ينتبهون لهذا .. ويتساءلون ما ولاهم عن قبلتهم .. وبذلك يكونون وهم الكفار مثبتين للإيمان ، مؤيدين لصدق القرآن لأن القرآن قال عنهم :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم ﴾

وقد جاءوا وقالوا فعلا تصديقا لقول الله .. بل إن الله وصفهم بالسفهاء وقالوا لينطبق عليهم هذا الوصف .. وهكذا يستخدم الله الكفار لتثبيت الإيمان دليلا على صدق القرآن .. وليرينا أنهم سفهاء .

ثم يقول الله :

﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾

ويقول فى آية أخرى :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يرد على هؤلاء السفهاء .. ويقول انه سبحانه لا يحده زمان ولا مكان .. ففى أى مكان تتجه إليه فثم وجه الله .. وبذلك ينفى أن تكون حجة التغيير أن وجه الله موجود هنا ، وليس موجودا هناك .. أو أنه فى المشرق وليس فى المغرب أو العكس .. فالله فى كل مكان .. إذن فحكمة التغيير هنا لا تتعلق بذات الله ولا بوجهه .. ولا بمكان معين بالذات ولكنها كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا يعطينا الله السبب فى التغيير وهو اختبار نعمة الإيمان فى النفس البشرية فى أن الله يعبد لذاته .. فتغيير القبلة هو اختبار إيمانى لمن يتبعون الرسول الذى يوحى إليه من الله .. بحيث إذا أبلغهم الرسول بوحى الله اتبعوه إيمانا منهم بأن الله يعبد لذاته .. فأقوياء الإيمان سينفذون الأمر بهذا المنطلق الإيمانى .. وضعاف الإيمان سيحاولون المجادلة بقولهم ان المسجد الأقصى له قدسيته لذاته فهو مكان الرسالات والأنبياء .. فكيف نتركه ونولى وجوهنا إلى البيت الحرام .. وهكذا نرى أن تغيير القبلة هز نفوس ضعاف الإيمان ووضع

أسئلة حائرة فى عقولهم .. وكان شيئا كبيرا بالنسبة لهم أن يتحولوا من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام .. بينما المؤمنون لم يضع ذلك أى تساؤل فى نفوسهم وقلوبهم ، لأنهم يعلمون يقينا أنه لا شىء مقدس لذاته .. وفى هذا يقول الله :

﴿ وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾

بعد أن بينا هذا المنطلق الإيمانى .. نعود إلى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم .. الملائكة يعبدون الله ويفعلون ما يؤمرون .. وفى سجودهم لآدم وإنما فعلوا ذلك لأمر الله بالسجود .. ليس لقدسية ذاتية فى آدم .. أى أنهم سجدوا لأن الله هو الذى أمر بالسجود .. والله كما قلت يعبد لذاته .. ولم يسجدوا لأن آدم له قدسية ذاتية من داخله تدفع الملائكة للسجود له لو أن الله لم يأمرهم بذلك .. وفى هذا رد على الذين يقولون كيف أن الملائكة سجدوا لآدم مع ان السجود لغير الله مرفوض .. نقول لهم انهم سجدوا لأمر الله فى السجود .. وليس لذاتية آدم نفسه .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٠)

أى أنه لم يخرج عن هذا الأمر الذى أمر به الله أى ملك من الملائكة .. وإنما الذى خرج عن هذا الأمر هو إبليس .

وما حدث بين الله وملائكته عندما أبلغهم الله سبحانه وتعالى أنه سيجعل آدم خليفته فى الأرض .. أنبأ به الله فى سورة البقرة ..

وتساءل الملائكة عن الإفساد الذى سيحدث فى الأرض .. ووقف الشيطان . ورد الأمر على الآمر .. وأعلن رفضه لتنفيذ أمر الله بالسجود .

وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى كيف كرم الله آدم عند بداية الخلق .. وان آدم قد قبل حمل الأمانة ، وهى حرية الاختيار بين البدائل وهذا امتحان رهيب للإيمان ، وكيف ان الله سبحانه وتعالى قد ميز آدم وذريته بالعقل وهو أداة الاختيار .. ورفع التكليف والحساب لمن لم يكتمل عقله كالطفل .. أو من يفقد عقله كالمجنون .. وكيف أن إعطاء آدم حرية الاختيار قد أوجد نوعين من الحياة .. نوعا يكابد فيه ويقاسى الإنسان غير المؤمن .. ونوعا للحياة الطيبة للإنسان المؤمن .. أما تساؤل الملائكة عن إفساد آدم فى الأرض .. وكيف علموا ذلك .. وكيف علم الله آدم الأسماء فهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع

إني جاعل في الأرض خليفة

إنى جاعل فى الأرض خليفة

خلق الله آدم وكرمه وأعده لمهمته فى الحياة .. ثم أخبر الله الملائكة بمهمة آدم في الأرض ، وقال سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾

(سورة البقرة)

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو لماذا أخبر الله الملائكة بأنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض .. وما الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يخبر الملائكة بذلك .. وهل هذا الإخبار من الله يتنافى مع طلاقة قدرة الله فى كونه أنه يفعل ما يشاء عندما يريد وهو العزيز الحكيم :

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

(سورة الأنبياء الآية ٢٣)

لقد توقف عدد كبير من العلماء عند هذا السؤال .. وظهرت تفاسير كثيرة لن نتعرض لها .. ولكن سبب الإخبار هو إعلام الملائكة بمهمتهم التى سيقومون بها بالنسبة لآدم وذريته .. ذلك ان من بين هؤلاء الملائكة من سيكونون ﴿ كراما كاتبين ﴾ .. أى يكتبون كل ما سيفعله آدم وذريته فى الأرض .. يكتبون الحسنات .. ويكتبون السيئات .. ويكتبون أداء الإنسان للصلوات وطاعة الله .. كما يكتبون المعاصى التى يرتكبها الإنسان .. ومنهم الحفظة الذين يحفظون الرسل من كل سوء .. وهؤلاء سيكون لهم شأن مع الرسل من ذرية آدم الذين سيبعثهم ليذكروا ويبينوا منهجه للناس .. ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح فى الأرحام .. والملائكة الموكلون بقبض الأرواح وهم ملائكة الموت .. ومنهم الملائكة الموكلون بالأرزاق إلى آخر ما يوكل الله ملائكته لتنفيذه فى الكون .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ

مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن
فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف من آيات القرآن الكريم أن الله جعل للملائكة مهام كثيرة مع الإنسان فى الأرض .. وأن إبلاغ الله سبحانه وتعالى للملائكة بمهمة آدم .. كان إعلاما لهم بالمهام التى سيقومون بها فى حياة ورزق وتثبيت المؤمنين فى القتال ، وكل الشئون التى سيكلفهم الله بها بالنسبة لرسالاته فى الأرض .. إلخ ما سيكلفهم الله به ، ولذلك كان إعلامهم بأن الله قد اختار آدم ليكون خليفته فى الأرض .

ما معنى اختيار الله لآدم كخليفة ؟ .. وما هى الخلافة التى أعطيت لآدم ؟ .. معناها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل ما فى الأرض والسماء ، وسخره لخدمة الإنسان .. وجعله يعمل من أجله .. ولنعرض عرضا سريعا لما سخره الله للإنسان فى الأرض ليخدمه .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾

(سورة النحل ـ الآية ١٤)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

(سورة الحج)

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(سورة لقمان ـ الآية ٢٠)

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

(سورة الجاثية)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان ما فى الأرض وما فى السموات .. وجعل له الولاية عليها بأن تفعل له .. وأن تنفعل به .. وهكذا فإن هذا التسخير هو خلافة الإنسان لله فى كونه .. بل إن جسد الإنسان نفسه مسخر له بأمر الله .. ولكن يوم القيامة ينتهى هذا التسخير .. واستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ
ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نرى أن السمع والبصر والجلود التى هى مسخرة فى جسد الإنسان تفعل له فى حياته ما يريد .. تأتى يوم القيامة لتكون شهيدا عليه فيما فعله من معاص .. لأنها فى الحياة الدنيا مسخرة بأمر الله لكى تطيع الإنسان .. فاليد تمتد لتسرق وهى تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تعصى أمره ، لأن الله سبحانه وتعالى جعلها مسخرة له تفعل له ما يريد .. والعين تزنى وهى تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تخالفه ، لأن الله سخرها له .. وكذلك الجلود والسمع وكل ما فى الجسد .. الله خلقه خاضعا لأمره ثم استخلف الإنسان فيه ليعمل ما يأمره به الإنسان .. وكذلك الكون كله .. البحار تلعن الكافرين ، ولكنها تعطيهم اللؤلؤ والأسماك والبخر الذى يكون السحاب وتحملهم إلى حيث يريدون دون أن تستطيع إلا أن تخدم الإنسان الذى جعلها الله مسخرة له ، وجعله خليفة فى هذا التسخير .. وكذلك الأرض والجبال والشمس والقمر . كل ذلك يعمل بأمر الله ولكنه يخدم الإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، ولا يستطيع أن يعصى أو أن يتوقف عن خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

والله خلق هذا الكون كله ، وجعل الإنسان خليفة له فيه .. كل شىء فى هذا الكون فى السموات يخدم الإنسان .. وكلما تقدم العلم اكتشفنا مالا نعرفه عن كيف يخدم هذا الكون الإنسان الذى جعله الله سبحانه وتعالى سيدا للكون بطريق الخلافة ، بحيث عندما تنتهى هذه الخلافة يوم القيامة تنتهى سيادة الإنسان على الأرض وخلافته فيها ، ويصبح الأمر لله دون أن يستخلف أحدا فيه .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر - الآية ١٦)

وتمضى الآيات :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٠)

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى أذهان الكثيرين كيف علم الملائكة أن الإنسان سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء .. لابد أنه كانت هناك تجربة لخلق آخر لله أعطاهم الله سبحانه وتعالى حق الاختيار فى أن يكونوا طائعين أو يكونوا عاصين .. فأفسدوا فى الأرض وعصوا بعد أن تعهدوا بأنهم سيصلحون ويطبقون منهج الله فى الأرض - من هم هؤلاء الخلق ؟ .. قد يكونون هم الجن لأن لهم الاختيار .. ولأن منهم الصالحين ومنهم العاصين .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ
رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا
﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

.. ثم تقول نفس السورة :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعال :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا
﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ

كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

- أى الإنس والجن -

وهكذا نعرف يقينا من القرآن الكريم أن الجن سيحاسب يوم القيامة .. وأن الرسالات السماوية قد نزلت إلى الإنس والجن مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

فالجن منهم الصالحون ومنهم الظالمون .. ولم يخبرنا الله سبحانه

وتعالى فى القرآن الكريم أنه خلق شيئا مختارا فى سلوكه .. مختارا فى الإيمان والمعصية إلا الجن والإنس .. وقد يكون هناك خلق آخر لم يخبرنا به الله .

إذن فقول الملائكة :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ .

قد يكون منصبا على الجان الذين خلقهم الله مختارين . من قبل .. ولكن ما هو الدليل على أن خلق الجان قد سبق خلق الإنسان بحيث رأى الملائكة هذه التجربة فيمن خلقهم الله غير مسخرين ، وأعطاهم حرية الاختيار فقاسوا عليها تجربة الإنسان الذى أعطى نفس الحق وهو حق الاختيار .. الدليل على ذلك يأتى من القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن أنه خلق الجان قبل خلق الإنسان .. ويقول المفسرون إن الجان قد أفسدوا فى الأرض .

وعلى أية حال فإن الثابت يقينا أن الله قد خلق الجان قبل أن يخلق الإنسان .. وأنه قد أعطى الجان حرية الاختيار ولم يجعله مسخرا .. وقد يكون الله سبحانه وتعالى خلق خلقا آخر قبل الجان لم يخبرنا به .. وعلى ذلك فكون الإنسان ليس أول مخلوقات الله المخيرين يفتح الباب لاحتمال أن هناك خلقا أفسدوا فى الأرض .. وان الملائكة شهدوا التجربة وقاسوا عليها .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

ثم قال الملائكة :

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾

أى أن الملائكة يقولون يارب أنت قادر على أن تخلق خلقا مسخرين يسبحون بحمدك بدلا من خلق مخيرين يفسدون فى الأرض ويكفرون بالله .. وهذا القول قد قاله الملائكة فى أنفسهم .. ولم يجهروا به كما سيأتى بيان ذلك وهذا يدل على ان الملائكة لم تفهم مرادات الله من خلق الإنسان .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء مسخرا لعبادته وتسبيحه .. ولكن الله يريد خلقا يأتيه طواعية واختيارا .. يأتيه عن حب ورغبة .. لا عن قهر ورهبة .. مخلوق قادر على أن يفعل المعصية ولكن لا يفعلها حبا فى الله .. مخلوق قادر على ألا يقوم بالطاعات والعبادات .. ولكنه يقوم بالطاعات والعبادات حبا فى الله .. مخلوق قادر زينت له الدنيا .. وزينت له الشهوات فأصبحت محببة إلى نفسه ولكنه يتركها لأن حبه لله أكبر .

هذه هى مرادات الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وتحميله الأمانة فى أنه يأتى لطاعة الله وحب الله ، وهو قادر على ألا يأتى .. ولذلك أعد له من النعيم فى الآخرة .. ما لم يعده لأحد من خلقه جزاء له على طاعته .. وأعد له من العذاب ما لم يعده لأحد من خلقه عقابا له على معصيته .

هذه هى فلسفة خلق الإنسان ، ولذلك فإن الله إذا شاء يستطيع أن يخلق كما يشاء عبادا مقهورين له .. ولكنه يريد عبادا يأتونه عن حب

وعن رغبة .. ولذلك أسقط الله الحساب عن كل إكراه فى العبادة .. وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦)

وقال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾

(سورة النحل ـ الآية ١٠٦)

وقال سبحانه :

﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣ ﴾

(سورة النور)

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿ إنى أعلم مالا تعلمون ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم بمراداته وأن الملائكة حينما ظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقا يسبح بحمده مقهورين لم يكونوا

يعلمون علم الله سبحانه وتعالى فى أنه يريد خلقا يأتونه طائعين مختارين .. وعدم علم الملائكة من مرادات الله .. هو من تمام علم الله .. لأن الله سبحانه وتعالى محيط بعلم الملائكة .. والملائكة لا يحيطون بعلم الله .

ثم تمضى السورة الكريمة إلى قول الحق :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣١)

وهذا إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم ـ ذلك أن الله قد جعل بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء .. فكما علم الله آدم الأسماء فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء .. خذ الطفل الصغير .. أى طفل فى أى مكان فى العالم ـ كيف يبدأ تعليمه ؟ .. إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه الأسماء أولا .. فيقال له هذا كوب .. وهذا جبل .. وهذا رجل .. وهذا بيت .. وهذا بحر .. وهذا شارع .. وهذه قطة .. وهذه امرأة إلخ .. وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء .. وحتى الطفل الأمى الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية .. وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما .

وهكذا أنبأنا القرآن بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على

العلم بداية بالأسماء .. بل وأكثر من ذلك بالاستعانة بالصورة كما سيأتى بعد ذلك .. إذن كون البشرية كلها حتى يومنا هذا تبدأ بالتعليم دليل على إعجاز القرآن الكريم الذى حدد لنا طريقة البداية فى التعليم .

علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها .. وعرف آدم الأسماء .. ثم ماذا حدث بعد ذلك ..

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة .. وطبعا لم يعرض الله الأسماء على الملائكة ، وإنما عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣١)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾

دليل على أنه لم يعرض الأسماء على الملائكة ، لكنه عرض

المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء .. ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء .

وهنا لابد أن نتوقف عند قول الله :

﴿ إنْ كنتم صادقين ﴾

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الملائكة أنهم لم يكونوا صادقين فى فهمهم لمرادات الله من خلق الإنسان .. ومن عدم فهمهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخلق من يعبده عن اختيار وحب ورغبة .. لا عن قهر ورهبة .

وهنا اعترف الملائكة بعجزهم أمام علم الله سبحانه وتعالى .. واعترفوا بأنهم لم يفهموا مرادات الله ، حين قال لهم :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٠)

فقالوا سبحانك .. أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك ، وبمراداتك أحد .. وسبحان الله وليس كمثله شىء .. هى ما نلجأ إليه عندما ننسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى .. حينئذ يكون الفعل خارجا عن كل قيود وتصورات البشر .. ويكون فى كل معجزاته وخرقه لنواميس الكون إنما هو مناسب بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى خلقت هذه النوامس والقوانين ، والتى تستطيع أن تخرقها متى شاءت .. وأن تفعل من المعجزات ما تشاء .. وقال الملائكة معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٢)

وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلا ما أتاحه الله لهم من العلم .. فالعلم كله يأتى من الله .. والله يكشف من علمه وقدراته فى الكون ما يشاء لمن يشاء .. وكل كشف علمى فى الكون قد جعل الله له ميلادا أو موعدا يكشفه فيه للبشر .. فإن صادف مولد هذا العلم باحثا يبحث فيه كشفه الله له .. وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصدفة .

والمصادفة التى ندعيها فى الكون .. هى الموعد أو الميلاد الذى حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون فى الكون يجهله الناس .. عسى أن يدركوا بهذا القانون الذى كان يعمل فى خدمة الإنسان ولم يكن أحد يدرى عنه شيئا .. عسى أن يكتشفوا بهذا القانون إعجاز من إعجازات الله فى كونه .. فيزيدهم هذا الإعجاز فهما وإدراكا لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذى يحدث للأسف الشديد أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه .. وينسب الكشف لنفسه وينسى قدرات الله .. وكل شىء فى هذا الكون ابتداء وانتهاء هو من الله .. فحبة القمح التى نأكلها الآن أتت من زرعة القمح فى الموسم الماضى .. وزرعة القمح فى الموسم الماضى أتت من زرعة القمح من الموسم الذى قبله .. وهكذا تسلسل الأشياء حتى نصل إلى حبة القمح الأولى التى لم تأت من موسم سبق .. من أين أتت هذه الحبة ؟ .. من الله سبحانه وتعالى .. والشجرة

التى تراها أمامك جئنا ببذرتها من شجرة سابقة .. والسابقة جئنا ببذرتها من شجرة أسبق وهكذا تمضى حتى نصل إلى الشجرة الأولى .. من الذى أنبتها ما دامت لم تأت من شجرة سابقة .. فلابد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدها .

ونفس الشىء ينطبق على الإنسان والحيوان .. فكل حيوان موجود .. هو مولود من حيوان سبق .. والحيوان الأول لابد أن يكون قد خلقه الله .. وإذا طبقنا نفس النظرية على الإنسان .. نسأل إناسا من أين جئت ؟ فيقول من زواج أبى وأمى .. هذا إذا أخذنا بظاهر الأسباب .. والأب والأم جاءا من أبوين وأمين سابقين .. وهكذا نمضى حتى نصل فى النهاية إلى أنه لابد أن يكون هناك ذكر وأنثى جاءا من خلق مباشر .. وهذا الخلق المباشر هو الذى أوجده الله بخلق آدم وحواء .

والعجيب أن العلماء الذين يتناولون هذه المسألة دخلوا فى متاهات كثيرة .. ولعل من أكثر هذه المتاهات شيوعا ، وأقربها إلى العقول هذا الجدل العنيف الذى يدور حول : هل وجدت البيضة أولا أم الفرخة ؟ .. وفى هذه تتصارع النظريات وتختلف الآراء .. وكل يحاول أن يدلل على صدق تخمينه . وكل هذه النظريات خاطئة تدل على جهل بشرى بحقيقة الخلق .. والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى .. فإذا وجد الذكر وحده دون الأنثى فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذا وجدت الأنثى وحدها بدون الذكر فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذن لابد من ذكر وأنثى ليتم التكاثر وتتم استمرارية الخلق .

ولقد تنبهت البشرية فى الفترة الأخيرة إلى هذا الإعجاز الذى ذكره القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. ولذلك فإن النظريات الحديثة للقضاء على الآفات الزراعية قد تنبهت إلى حقيقة ان الاستمرارية جعلها الله سبحانه وتعالى فى الذكر والأنثى معا .. ووصلت إلى اختراعات بالأشعة وغيرها تقوم بها بتعقيم الذكور فتنتهى الآفة تماما .. أو تقوم على أساس القضاء على إناث الحشرات فتنتهى الآفة تماما ولا تعود .. ولكن البشرية كانت تعتمد منذ أعوام قليلة على إبادة الحشرات دون تمييز بين ذكر وأنثى .. ولذلك لو أفلتت من هذه الإبادة انثى واحدة وذكر واحد ، لعادت الحشرة إلى تكاثرها من جديد .. وبدأت تهدد بإتلاف الزرع والنبات مرة أخرى .. ومهما كانت المبيدات التى تستخدم فى هذا المجال قوية فإنه فى معظم الأحيان يفلت من الإبادة عدد ولو قليلا جدا من الذكور والإناث لتعود الآفة الحشرية مرة أخرى أقوى مما كانت .

ولذلك فإن السؤال عمن الذى وجد أولا : البيضة أم الفرخة سؤال ساذج ، لأن البيضة لو لم توجد ملقحة لا يخرج منها الكتكوت ، لذلك لو أتينا بعدد كبير من الفراخ التى تبيض ولم يتم تلقيح هذا البيض بواسطة الذكور .. فإنه لا ينتج عنه شىء ولا يخرج منه كتكوت واحد مهما بلغ عدد هذا البيض .. ولكن إذا وجد الديك والفرخة معا .. أمكن أن تنشأ أجيال من الدجاج بعد ذلك .

وهذا ينطبق على النبات أيضا .. فإذا لم توجد الذكورة والأنوثة فى النبات لا يتكاثر ولا يعطى ثماره .. ولذلك فإن الإنسان يكون حريصا

على تلقيح أنثى النبات بالذكر كما يحدث فى النخل مثلا .. وأحيانا تكون الذكورة والأنوثة موجودة فى زهرة واحدة أو فى شجرة واحدة فيتم التلقيح ذاتيا .. وأحيانا تحمل الرياح عوامل الذكورة من زهرة إلى زهرة أخرى .. بل انه ثبت أخيرا من الأبحاث العلمية أن هناك ذكورة وأنوثة فى السحاب .. ولقد استخدمت فى الحروب الأخيرة وخصوصا فى حرب فيتنام حيث كانت الطائرة تقوم برش ذرات تشبه ذرات ذكورة السحاب فينزل المطر من السحابة .. وقال بعض الجهلاء ان هذا انكشاف لأحد الغيبيات الخمسة التى اختص الله بها نفسه فى قوله تعالى ﴿ وينزل الغيث ﴾ .. ونسوا أن عملية المطر تبدأ من البخر من سطح البحر بواسطة أشعة الشمس ومن كل المياه المعرضة للجو وأن هذه تتصاعد فى طبقات الجو العليا لتكون السحاب الذى يسوقه الله سبحانه وتعالى بواسطة الرياح إلى الأماكن التى قدر الله أن ينزل فيها المطر .. وان هذه العملية تتم دون أن يحس بها إنسان .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقوم بعملية البخر هذه إلا الله سبحانه وتعالى .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تأخذ سحابا وتنقله من مكان إلى مكان آخر بواسطة وسائل صناعية .

وتمضى الآية الكريمة بعد أن قال الملائكة :

﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم فوق كل عليم ، والحكيم الذى لا يدرك خلقه حكمته فى كثير من الأمور .. وهنا قال الله لآدم :

إنى جاعل فى الأرض خليفة

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٣)

أى أن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبىء الملائكة بأسماء تلك المخلوقات التى لا يعرفون أسماءهم والتى عجزوا أن يذكروا أسماءهم أمام الله .

وهنا نتوقف قليلا لنقول كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء .. لابد أنه أنبأهم بها بلغة يفهمونها .. فما دامت هذه الأسماء فهو تنطق أى تقال .. فمن أين عرف آدم اللغة التى يتحدثون بها : واللغة هى وليدة البيئة أى أنها لا تورث ولا تكون فى الإنسان بالطبيعة .. بل لابد للإنسان أن يسمع حتى يتكلم .. ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين ولدوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد .

ولكى ندلك على ما نقول فإننا إذا أخذنا طفلا عربيا ساعة مولده وذهبنا به إلى بلاد تتكلم اللغة الانجليزية وتركناه هناك .. فإنه ينشأ يتكلم اللغة الانجليزية ولا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية رغم أن أصله أبا عن جد عربى .. وإذا فعلنا العكس وأخذنا طفلا انجليزيا لحظة مولده وتركناه فى بلد يتحدث العربية فإنه ينشأ يتحدث العربية ولا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية التى هى لغة آبائه وأجداده .. فاللغة وليدة البيئة وليست بالمولد ولا بلغة الأب أم الأم .

والذى يتكلم لابد أن يسمع أولا قبل أن ينطق .. وآدم قد نطق بأسماء

هذه المخلوقات فلابد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق .. فمن الذى علم آدم الكلام ؟ .. إنه الله .. وهكذا فإن إعجازاً آخر من إعجاز القرآن الكريم يدل على أن الله هو الذى علم الإنسان الكلام .. وآدم قد تعلم اللغة من خالقه سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى ان آدم عندما عجز الملائكة عن أن يقولوا أسماء المخلوقات التى عرضها الله عليهم طلب الله من آدم أن ينطق بهذه الأسماء فنطق بها وأنبأ بأسماء هذه المخلوقات .. وحينئذ وقف الملائكة وهم يرون هذا الإعجاز من الخالق فقال لهم الله سبحانه وتعالى :

ألم أنبئكم أنى أعلم الغيب وأعرف ما سيقع فى السموات والأرض ولا يغيب عنى شىء وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ إذ أن هذا يبين لنا أن الملائكة لم يجهروا بالقول لله سبحانه وتعالى :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ .

ولكنهم قالوا ذلك فى أنفسهم دون الجهر .. وعلمه الله سبحانه وتعالى لأنه يعلم ما نخفى وما نعلن .. وعلمه رغم كتمان الملائكة عن

الجهر به .. فرد عليهم بتجربة عملية بأن علم آدم الأسماء ووقف الملائكة عاجزين عن معرفة هذه الأسماء وهنا قال الله سبحانه وتعالى للملائكة أنه رد على ما قالوه فى أنفسهم ولم يجهروا به وأنه لا شىء يغيب عن علم الله .

هنا يريد الله أن يعلمنا عدة حقائق هامة .

أولا : انه لا أحد يستطيع أن يحيط بمرادات الله حتى ولا الملائكة المقربون .. ذلك ان الله سبحانه وتعالى هو وحده العليم .. ولا أحد من خلقه يستطيع أن يصل إلا إلى ما يريده الله أن يصل إليه .. وان لكل مخلوق مقامه الذى لا يتعداه .

ثانيا : ان الله سبحانه وتعالى حين جعل الإنسان خليفة له فى الأرض سخر له كل شىء تسخيرا دنيويا ـ أى ان كل شىء مسخرلخدمة الإنسان بأمر الله .. حتى جسد الإنسان وجوارحه تأتى يوم القيامة تشهد عليه لأنها مسخرة له فى الحياة الدنيا فقط .. فهى تنفذ له الخير والشر وتتبع إرادته بأمر الله .

ثالثا : ان الله حين خلق الإنسان يريد خلقا مختارا فى أن يفعل أو لا يفعل حتى يقبل هذا الخلق على العبادة عن اختيار ، وحب .

رابعا : ان كل شىء فى هذا الكون أصله من الله ونهايته إلى الله .. وان الثمرة الأولى والشجرة الأولى والإنسان الأول وكل خلق أول هو خلق مباشر من الله سبحانه وتعالى لا يخضع للأسباب التى يتم بها ما يحدث فى الدنيا .

خامسا : ان اللغة علمها الله لمخلوقاته ، لأن اللغة هى ابنة السماع ، ولذلك فلابد أن آدم وهو أول من خلق يكون قد علمه الله اللغة حتى يستطيع أن يتحدث بها ، ثم أخذها أبناؤه وأحفادهم بالسمع وتعددت اللغات حسب البيئات المختلفة .

ونأتى بعد ذلك إلى موقف الشيطان من خلق الإنسان .. وما هى معصية ابليس وكيف حدثت ؟ .. وهذا موضوع الفصل القادم .

يا ابــن آدم

« يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى .

يا ابن آدم انك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » .



أحاديث قدسية

يا عبـــادى

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعمونى أطعمكم ..

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم ..

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا باستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى .. ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله .. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .



الفصل الخامس

معصية إبليس

معصية إبليس

أثارت معصية إبليس جدلا كثيرا مازال يدور حتى الآن .. والجدل هنا يدور حول قشور وظروف وملابسات لا تمس جوهر المعصية التى قام بها إبليس .. وإنما تمس جوانب العلم فيها لايفيد .. ولكن الجدل والتساؤلات تدور دائما حولها ، وكأنما لو لم نعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث لكان لذلك أثر على جوهر ما حدث فعلا .. وهو ما ليس بحقيقة . والحقيقة أن إبليس عصى ربه .. عصى أمر الله فى السجود لآدم .. ثم زاد على ذلك بأن رد الأمر على الآمر .. فقال أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .. وكأن الله سبحانه وتعالى ـ تجلى وتنزه ـ لأحد مخلوقاته ليقول له .. من هو الأحسن والأفضل .. هذا هو جوهر المعصية .

ولكن التساؤل يدور حول أشياء هامشية .. إن أمر السجود صدر للملائكة ولم يصدر لإبليس الذى كان من الجن .. فكيف يحاسبه الله على عدم السجود .. وهل كان إبليس يقف مع الملائكة وقت صدور الأمر ؟ .. بينما هو ليس منهم .. وهل كان إبليس فى الجنة وكيف يدخلها ؟ .. وإذا كانت الغواية من الله لإبليس هى التى سببت المعصية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكيف يكون الحساب مع أن الله هو الذى أغوى .. ولماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لإبليس .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة تدور بين الناس حول هذا الموضوع .. محاولة أن تجد له جوابا .. أو محاولة من و راء

ستار طعن الدين بإيجاد أسئلة غيبية قد تتعذر الإجابة عنها .

ولذلك فإننى رغم إيمانى بأن هذه الأسئلة جانبية .. سأحاول أن أجيب عنها كلها .. لا بالنسبة لأهميتها ولكن حتى لا تستخدم فى محاولة التشكيك فى دين الله .. وسأستخدم الأدلة من القرآن قدر ما يهدينى الله إلى ذلك .

تبدأ القصة عند أمر الله للملائكة بالسجود .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا عندما خلق الله آدم قال للملائكة أنى خالق بشراً . فإذا سويته . أى جعلته على الهيئة التى سيكون عليها . ثم بعد ذلك وهبته الحياة بالتقاء الروح بالجسد .. فنفخت فيه من روحى فاسجدوا له . فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس .

وهنا تأتى وقفتنا الأولى .. ان الخطاب هنا للملائكة .. وإبليس من الجن أى أن الله سبحانه وتعالى لم يوجه الخطاب إليه . فلماذا قال الله

سبحان وتعالى « إلا إبليس أبى » نقول أن الأمر يصدر إلى الأعلى ويكون الأدنى منه مطالبا بأن ينفذ هذا الأمر بالتبعية .. فإذا قلنا مثلا أن الوزير لابد أن يكون فى مكتبه فى الساعة التاسعة صباحا .. أنصب هذا الأمر على من هم أدنى منه دون أن نذكرهم .. فما دام الوزير سيأتى إلى مكتبه فى التاسعة صباحا .. فإنه من باب أولى أن يكون وكلاء الوزارة ومديرو العموم وغيرهم فى مكاتبهم قبل ذلك الموعد ، أو على الأقل فى مثل هذا الموعد .. فالأمر انصب عليهم دون ذكرهم بالاسم .. وإذا قلنا أن رئيس الدولة سيكون فى موقع ما الساعة الثامنة صباحا .. فمن باب أولى أن يكون كل المسئولين عن هذا الموقع فى أماكنهم قبل الثامنة صباحا .

إذن فالأمر إلى الأعلى يشمل الأدنى دون أن يذكر بالاسم .. فإذا كان الأمر قد صدر إلى الملائكة ، وهم أعلى فى المرتبة عند الله من الجن ، فمن باب أولى أن يشمل الأمر الجن وغيره من الخلوقات الذين هم أدنى من الملائكة ولو لم يذكروا .. ولو لم يحددوا بصفاتهم .. ومن هنا فإن الأمر حين صدر إلى الملائكة قد صدر إليهم وإلى من هم أدنى منهم فى الخلق ، ولو لم يذكروا بالاسم .. وهكذا فإن القول بأن الأمر لم يصدر لإبليس بالسجود مردود عليه بأن أمر السجود يشمله ما دام قد صدر للملائكة الذين هم أعلى منه .. و يبين الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله :

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣١)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴾

أى أن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين من الملائكة وغيرهم .. أى أبى أن يكون مع كل من سجد لأمر الله .. ولقد حسم الله سبحانه وتعالى هذه النقطة أنه كان فى علمه هناك من سيأتون ويجادلون بالباطل .. ويقولون أن الأمر صدر للملائكة ولم يصدر للجن .. فقال الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(سورة الكهف - آية ٥٠)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٢)

ومعنى فسق أنه عصى وخرج عن المنهج .. وهنا يجب أن نتنبه إلى قول الله تعالى :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأمر قد صدر منه إلى الجن بالسجود فقوله تعالى :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾

دليل على أن أمر الله سبحانه وتعالى صدر إلى الملائكة ، ومن هم أدنى منهم .. وحتى يحسم الله الجدل البشرى الذى سيحدث حول ذلك .. أتى بها صريحة مباشرة بعد أن ذكرت مجملة فى أمر السجود للملائكة .. ففى الأمر الأول لم يفصل لنا الله من شملهم أمر السجود ..

ولكنه فى هاتين الآيتين ذكر لنا أن أمر السجود لآدم قد شمل الجن وإبليس الذى كان من الجن .. وأن إبليس عصى أمر ربه بالسجود حتى لا يأتى قائل ويدعى كما يقال الآن أن الأمر بالسجود لم يشمل إبليس لأنه كان من الجن والله قال :

﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾

دليل على أنه لم يشذ ملك واحد عن أمر الله بالسجود .. لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لماذا لم يسجد إبليس .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر .

﴿ إلا إبليس أبى ﴾

.. ويقول فى سورة ص :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾

ويقول فى سورة البقرة :

﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾

ويقول فى سورة الكهف :

﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

الآية الأولى تبين لنا أن إبليس رفض السجود .. والآية الثانية تعطينا تفاصيل أكثر ، وتقول إن الكبر قد ملأ صدر إبليس ، واستكبر على أمر الله بالسجود .. والآية الثالثة تبين لنا أنه لم يرفض السجود فقط ، ولكنه رفض واستكبر على أمر الله .. أى أنها جمعت الصفتين معا .. والآية الرابعة تبين أنه عصى أمر ربه .

هذه الآيات تصور لنا أبعاد المعصية التى تمت .. فعندما أصدر الله سبحانه وتعالى أمره إلى إبليس بالسجود فإنه رفض تنفيذ الأمر ، وهذه هى المعصية الأولى .. أمر من الله يصدر وإبليس يرفض التنفيذ .

وما دام إبليس قد رفض التنفيذ فلابد أن نعرف بدهيا أن الله سبحانه وتعالى خلقه مختارا فى أن يفعل أو لايفعل .. فلولا أن الله أعطاه حق الاختيار ، لما استطاع إبليس أن يرفض السجود حين أمره الله بذلك .. وهنا دخل إبليس فى المرتبة الأولى ، وهى المعصية .. والله سبحانه وتعالى فى منهجه أمر بأشياء ونهى عن أشياء .. وخلق الإنسان فى الدنيا مختاراً فى أن يطيع أو لا يطيع .. أى أن ذلك يحدث باختيار البشر حتى يكون الحساب عدلا .. وبما أن الجن أعطاه الله حق الاختيار كالبشر ، فهو يملك أن ينفذ أو أن يأبى التنفيذ ـ وحسابه على ذلك يكون من الله فى الدنيا وفى الآخرة .

ولكن إبليس لم يرفض تنفيذ أمر السجود فقط .. ولكنه استكبر عن

تنفيذ أمر الله .. أى أنه دخل الكبر إلى نفسه .. فلا يمكن أن يقال أنه سها مثلا عن السجود .. أو أنه نسى أو أنه عصى فقط .. بل أنه استكبر على أمر الله سبحانه وتعالى .. أى كانت المعصية بعدم الطاعة استكبارا على أمر الخالق والعياذ بالله .. وهنا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .. لماذا ؟ لأن الاستكبار على أمر الله هو إهدار لمعنى الألوهية فى النفس .. فالإله هو القوى القادر الذى يعبد ويطاع .. ومادمت قد آمنت بالله ربا وخالقا ، فإنك قد أوجبت على نفسك الطاعة ، وأسلمت زمامك لله ، وآمنت بأنه هو العليم والحكيم والقادر .. والإيمان هو خشوع لله .. هو اعتراف من النفس البشرية بضآلتها أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى سورة المؤمنون :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن الخشوع لله هو علامة الإيمان .. قد تزل النفس البشرية وترتكب المعاصى .. ولكنها تعود فتتذكر قدرة الله فتستغفر .. وقد تكون النفس البشرية ضعيفة فلا تقوم بتطبيق المنهج كما أمر الله به .. ولكن هذا لا يعنى أنها استكبرت على الله .. بل هو ضعف فى أن تحمل النفس صحابها على المنهج .. وقد تلهى الإنسان الدنيا .. ولكن إذا ذكر الله أحس بالرهبة تملأ قلبه .

وإذا ذكره أحد بالله قال سبحانك .. ولكن الذى يستكبر يريد أن يضع نفسه فوق مرتبة الألوهية .. انه لا ينفذ الأمر فقط .. ولكنه يحس أنه أكبر من أن ينفذه .. وأكبر من أن يؤمر .. وأنه أكبر من أن يطيع ..

وفى هذه الحالة يكون قد وصل إلى مرتبة الكفر ، والعياذ بالله ، وهى المرتبة التى وصل إليها إبليس حين استكبر أن ينفذ أمر الله بالسجود .. ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .

وهنا .. ولأن الكبر دخل فى نفس إبليس ولم ينطق به .. ولأن الكفر ملأ نفسه ولكنه لم يعلنه .. أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس شاهدا على نفسه بالكفر .. حتى لا يأتى يوم القيامة وينكر ذلك أو يحاول أن يلتمس الأعذار .. وبذلك ليكون إبليس شهيدا على نفسه .. كما سيكون الكافرون شهداء على أنفسهم يوم القيامة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا .. الله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفى الأنفس وما تكن الصدور .. وهو يعلم السر وما هو أخفى من السر .. والسر هو الذى تهمس به إلى أحد من أصدقائك أو إخوتك الذين تثق بهم .. على أن يكون هذا فى الخفاء أى بينك وبينه ، دون أن يعلمه أحد غيركما .. أى أن السر يشترك فيه أثنان . ولكن ما هو أخفى من السر هو ما تخفيه فى صدرك ولا تبوح به لأحد أبدا .. ولكنه يبقى فى صدرك وحدك ولا تبوح به لأحد أبدا .. والله سبحانه وتعالى حين أعطى للإنسان حق الاختيار جعله شهيدا على نفسه .. بمعنى أن الإيمان يمر بتجربة عملية مشهودة .. لأن القول غير العمل .. فأنت حينما يأتى إليك شخص يطلب منك شيئا قد تعده به .. ولكن عندما يأتى وقت التنفيذ تتكاسل ، أو تجد أن الأمر صعب ، أو تجد أن المسألة محتاجة منك إلى جهد .. فلا تترجم ما قلته إلى عمل .. فأنت حين يقال لك لاتكذب ، ولا تسرق ، ولا تشرب الخمر إلى آخره .

من السهل على النفس البشرية أن تقول نعم لن أفعل ذلك .. وهذا ليس اختبارا حقيقيا للإيمان .. ولكنك لو وجدت المال الحرام أمامك تستطيع أن تأخذه دون أن يراك أحد .. فإنك في هذه الحالة قد تضعف ، وتسول لك نفسك أن تمد يدك إلى المال الحرام .. رغم إنك قد عاهدت الله على ألا تمد يدك .. وأنت حين تجلس فى مجالس الخمر قد تمتد يدك لتتناولها ضعفا منك أو إغراء ممن يتناولون الخمر حولك .

وهكذا جعل الله أحداث الدنيا اختبارا عمليا للإيمان وتمحيصا لما فى الصدور .. وهو يبلوك بالخير والشر ليرى أتطيعه فى الخير وتنفق فيما يرضى الله .. أم تنفق فى المعاصى .. وليرى إذا كنت ستصبر على الشر وتحمد الله .. أم ستضيق نفسك وترتكب ما يغضب الله .. وليس هذا عن عدم علم الله بما ستفعل .. ولكن لتكون شهيدا على نفسك يوم القيامة .. تماما كما تأتى للطالب فى العام الدراسى وتسأله هل أديت واجبك ، واستذكرت دروسك فيقول نعم .. فتقول سأمتحنك .. الأستاذ عندما يمتحن تلميذه لا يمتحنه ليزداد منه علما . أو لأنه يجهل ما يعلمه التلميذ ، فهو الذى علمه .. ولكن ليكون التلميذ شهيدا على نفسه .. فإذا رسب فى الامتحان وجاء يجادل أستاذه .. والإنسان أكثر شىء جدلا .. إذا حدث ذلك أخرجت له ورقة الامتحان أمامه ، وأريته إجابته فلا يستطيع أن ينطق .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن الحساب يوم القيامة :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(سورة الإسراء ـ الآية ١٤)

ولذلك شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يجعل إبليس شهيدا على نفسه فقال :

﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٢)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٢)

ويجب ألا نأخذ هذا الاستفهام من الله سبحانه وتعالى .. أنه عدم علم بما فى صدر إبليس من الاستكبار .. فالله تبارك وتعالى يعلم لماذا لم ينفذ إبليس أمر السجود لآدم رغم أن إبليس لم ينطق بذلك .. ومن هنا فإن هذا السؤال ليس استفهاما . فعلم الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شىء .. ولكن لكى يكون إبليس شهيدا على نفسه يوم القيامة .. وفعلا فإن إبليس الذى ركبه الكبر والغرور نطق ليشهد على نفسه شهادة الكفر فقال :

﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٣)

وقال سبحانه :

﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾

(سورة ص الآية ٧٦)

.. وقـال سـبحانه :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٦١)

وهكذا شهد إبليس على نفسه بالكفر ورد الأمر على الآمر .. وأخرج الكبر الذى كان يعلمه الله والذى أخفاه إبليس فى صدره فقال :

﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٣)

أى أنك يارب خلقت من هو أدنى منى ثم أمرتنى أن أسجد له .. وهكذا أنكر على الله سبحانه وتعالى الأمر .. وقال أنا خير منه .. أى أنه لم يتعال فقط على آدم .. بل تعالى على أمر الله له بالسجود لآدم .. فقال أنا خير منه .. وكأن علمه والعياذ بالله يفوق علم الله الذى خلقه .. وأضاف فى حيثيات حكمه هذا :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

.. وفى كلا الأمرين تظهر حماقة إبليس التى قادته إلى الكفر .. وغباء إبليس الذى أدى إلى طرده من رحمة الله .. فهو يقول فى الحيثية الأولى :

﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾

.. ثم يضيف فى الحيثية الثانية :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

وهنا يعترف إبليس بأن الله هو خالقه وهو خالق آدم .. وهذه حقيقة لم يستطع إبليس أن ينكرها لأنه مهما بلغ من الكبر ، فإنه لا يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه .. وما دام إبليس يعترف بأن الله هو الخالق .. فإن الذى خلق هو أعلم بمن هو خير .. ولا يعلم هذه الحقيقة إلا الخالق فليس هناك من هو أدرى بخلقه من خالقهم .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وهو العليم بخلقه قد كرم آدم .. فهل يأتى المخلوق ويقول للخالق :

« أنا خير منه »

وهل المخلوق أعلم من الخالق بما هوخير وما هو شر .. ان الذى يصنع شيئا هو أدرى الناس بصنعته .. فإذا صنع انسان آلة مثلا فهو أدرى الناس بها .. وكل من يستخدم هذه الآلة يأخذ علمه من صانعها .. فإذا صنع آلة أخرى هى خير من الآلة الأولى .. ثم قال ذلك للعالم أجمع فلا أحد يستطيع أن يناقشه لأنه هو الصانع وهو الأدرى بصنعته .

فإذا كان ذلك يصدق فى دنيا البشر فما بالك مع الله سبحانه وتعالى .. أيأتى مخلوق والعياذ بالله ليقول لخالقه أنا خير منه .

أيستطيع مخلوق مهما علا وبلغ أن يقول لخالقه أنا خير من فلان الذى خلقته .. أليس هذا غباء وعدم فطنة .. ولكنه الكبر يعمى الصدور .. ويوقف العقول .. ويجعل المخلوق يحسب بغروره أنه لا عليم غيره ولا حكيم سواء .. ولو كان هذا الكبر عن عمل أو عن علم .. لكان

هناك التماس لعذر ما .. ولكن إبليس لم يعمل شيئا تميز به عن آدم .. ولم يعلم سر خلقه ولا سر خلق آدم .. ومع ذلك فقد دفعه الكبر إلى الكفر .. ودفعه الكفر إلى أن يرد الأمر على الله .. ويقول انه خير من آدم .. لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين .. وهل مادة الخلق هى التى تميز مخلوقا عن مخلوق .. أم أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق ووضع الأسرار والصفات فى هذا وذاك .. وهو وحده جل جلاله الذى يقول من أفضل مِن مَن .. لأننا نعلم أنه هو الذى خلق .. وهو وحده الذى يعلم من هو خير من من .. ولا يستطيع أحد أن يدعى هذا العلم .

وهكذا نطق إبليس بالكفر ورد الأمر على الآمر .. وقال لا أسجد لأننى أنا خير منه .. وأوهمه الجهل أنه يعلم بينما هو لا يعلم شيئا .. حينما فعل إبليس ذلك .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقال سبحانه :

﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وقال سبحانه :

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

معصية إبليس

فى هذه اللحظة التى نطق فيها إبليس بالكفر طرده الله سبحانه وتعالى من رحمته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من جناته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من عظيم نعمه .. وجعل عليه اللعنة إلى يوم القيامة .. وجعله من المرجومين .. وهنا خرس إبليس الذى كان يقول لله أنا خير منه .. فلم يستطع حين طرده الله أن يفعل شيئا .. أو كما قال أنا خير منه ورد الأمر على الله .. وكما قال لن أسجد ورد الأمر على الله .. كان يستطيع أن يقول لو أن له حولا وقوة لن أخرج .. ولكنه فى السجود وعدم استخدام مشيئة الله فى أنه جعله مختاراً فى أن يسجد أولا يسجد .. أما عندما قال له الله اخرج منها .. فقد كان ذلك أمراً من الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إبليس أن يعارضه لأن الله جل جلائه لم يعطه الاختيار فى أن يخرج أولا يخرج ..

وقال الله سبحانه وتعالى لإبليس :

﴿ عليك اللعنة ﴾ . . . ﴿ وعليك لعنتى ﴾

أى اللعنة على عمومها من كل طائع لى مسبح بحمدى سواء كان من الملائكة أو من البشر أو من كل ما خلق الله .. وفوق لعنات هؤلاء جميعا فإن عليه لعنة الله التى هى أكبر وأقوى من كل هذه اللعنات والتى ستتبعه إلى يوم القيامة حيث يخلد فى النار .

وهنا يثور سؤال .. لماذا لم يلق الله سبحانه وتعالى بإبليس فى النار فى اللحظة التى أعلن كفره فيها ورد الأمر على الآمر .. نقول ان الله سبحانه وتعالى قد أخذ على نفسه عهدا بأن يوم القيامة هو يوم الحساب ، ومن أصدق من الله حديثا .. ولذلك لم يكن الله ليغير أمره

ويأخذ بإبليس ويلقيه فى جهنم فى التو واللحظة .. بل كان لابد أن ينتظر إلى يوم الحساب ، لأن الله لا يخلف وعده .. تماما كما يمهل الله الكافرين فى الدنيا ولا يأخذهم ليلقى بهم فى النار لحظة كفرهم .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(سورة فاطر ـ ٤٥)

هنا تضاءل إبليس وأحس بالذنب الذى ارتكبه .. تضاءل بعد أن كان مستكبراً على الله يرفض السجود ويقول أنا خير منه .. تضاءل ليقول :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٦)

هنا تضاءل إبليس ولو كان يملك من الأمر شيئا لتصرف بذاتية قوته .. ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة .. إلى أن تقوم الساعة .. ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء .. وفى هذا نرى أن القوة لله جميعا .. وأن إبليس لا يستطيع أن يبقى نفسه يوما واحداً على قيد الحياة .. أو ينجى نفسه يوما واحداً من العذاب .. فبماذا توسل إبليس إلى الله .. هل توسل له بعطاء الألوهية الذى أنكره .. لو أنه توسل له بهذا ما استجاب له الله لأنه كفر بعطاء الألوهية وأنكره .. ولكنه توسل إليه بعطاء الربوبية .. فالله رب العالمين وهو الذى استدعى هذا الخلق كله إلى الوجود .. وبما أنه سبحانه وتعالى رب لكل المخلوقات ..

المؤمن والكافر ـ فقد أعطى عطاء ربوبيته للجميع .. المؤمن والكافر أعطاهم مقومات حياتهم بلا تمييز .. وكفل لهم حقوقهم بلا تمييز .. فلا يجوز أن يعتدى إنسان على إنسان بغير حق كان ذلك الإنسان مؤمنا أو كافراً .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

(سورة الإسراء ـ الآية ٣٣)

ولم يقل ولا تقتلوا المؤمنين إلا بالحق .. ولكنه قال النفس على إطلاقها .. وقال :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(سورة الأنعام ـ الآية ١٠٨)

وهكذا شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يكون عطاء ربوبيته لكل من استدعاهم للوجود متساويا .. وإنما الذي يختلف فيه الناس هو عطاء الألوهية .. فمن آمن به سبحانه وتعالى إلها كرمه فى الدنيا والآخرة .. ومن لم يؤمن عاقبه الله بذنبه .

تضاءل ابليس وتوسل إلى الله بعطاء الربوبية أن يبقيه إلى يوم يبعثون ، وقال : « فبعزتك » أى أنه توسل إلى الله سبحانه وتعالى بأن الله عزيز وغنى عن خلقه جميعا .. ولا يضيره .. ولا ينقص من ملكة شيئا .. ولا يمس عزته .. أن يبقى إبليس إلى يوم القيامة أولا يبقى .. وحينئذ قال الله :

معصية إبليس

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾

(سورة الحجر)

حينئذ وحين تيقن إبليس أنه سيبقى إلى يوم القيامة طفحت عوامل الشر المخفية فى نفسه والكراهية الشديدة لبنى آدم الذى كان سببا فى طرد إبليس من رحمة الله .. وأفصح إبليس عن نواياه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٩)

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى « بما أغويتنى » .. إذا كانت الغواية من الله فكيف يحاسب إبليس .. نقول لمن يسأل هذا السؤال .. انه لا شىء يقع فى كون الله دون ارادته .. والله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنس والجان مختارين .. فهذه مشيئة الله .. ولا يمكن لأحد أن يدعى أنه خلق مختاراً بذاته .. أو أنه أعطى حق الاختيار لنفسه .. إذن كانت مشيئة الله فى أن يخلق الإنس والجان مختارين .. ومن هذه المشيئة اختار إبليس الكفر .. فلو أن الله سبحانه وتعالى خلقه مسخراً لكان خاضعا لا إرادة له ـ ولكنه أعطاه الإرادة .. فبدلا من أن يختار الإيمان اختار الكفر .. وكان يستطيع أن يختار الإيمان .. إذن فالغواية أساسا تمت لأن إبليس خلق مختارا .. خلق يستطيع الاختيار بين البدائل .. ولكن الكفر وقع لأن ابليس اختار المعصية بدلا من أن يختار الطاعة وحيث إن الله سبحانه وتعالى لم يجبره على اختيار الكفر .. يكون إبليس قد اختار الكفر لنفسه وبإرادته

التى لم يتدخل فيها أحد .. اختار الكفر بذاته فاستحق العقاب .. ولكن هذا الاختيار أمكن أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الإرادة الحرة فى أن يفعل أولا يفعل .. ولكن الله لم يكرهه على الكفر .. ولكن الذى اختار الكفر بإرادته هو إبليس .. وهكذا نعرف معنى الآية الكريمة :

﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٩)

وقـال سـبحانه :

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾

أى بعزتك وأنك عزيز مستغن عن خلقك .. لك كمال صفاتك من ذاتك .. لا تحتاج لخلق من خلقك .. بعزتك هذه أعلم أنك لن تجبر أحدا على الإيمان قهراً .. ولذلك فإننى سأنتقم من بنى آدم وأزين لهم الدنيا وأجملها فى أعينهم .. وأزين لهم الشر .. وأزين لهم المعصية .. وأزين لهم البعد عن صراطك المستقيم .. وأزين لهم الباطل .. ولكن هل قال إبليس أنه سيفعل هذا مع الناس على إطلاقهم .. لا .. فإن هناك عطاء ألوهية يحمى المؤمن ويحرسه .. وينجيه من كل شر ومن كل أغواء .. وعطاء الألوهية يحرس المؤمنين .. لذلك قال إبليس :

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

هنا نقف وقفة .. هل قال إبليس هذا منة منه على عباد الله المخلصين ؟ .. أو رحمة بهم من أن يوسوس لهم بما يؤدى بهم إلى العذاب والتهلكة .. لا .. فهو يكن العداوة لبنى آدم كلهم .. وهو يحاول

أن يغوى كل من هو على الصراط المستقيم .. ولكنه قال هذا لأنه يعرف أن عطاء الألوهية يحرس عباد الله المخلصين .. وهنا أراد الله أن يوضح هذه النقطة فقال :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾

وهنا لابد أن نلاحظ استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة عباد .. فهناك عبيد .. وهناك عباد .. كلنا عبيد الله .. المؤمن فينا والكافر .. والمطيع منا والعاصى .. ولكن عباد الله هم الذين أخلصوا دينهم لله .. ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين فى القرآن الكريم إنما يستخدم لفظ عباد .

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

(سورة إبراهيم - الآية ٣١)

وقال سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ولذلك فإن قول الله :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾

لا يسرى على كل خلق الله .. ولكنه ينطبق على كل مؤمن مخلص لله فى عبادته .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾

أى من كان مخلصا لله سبحانه وتعالى من عياده المؤمنين ثم بعد ذلك فسق وغوى وابتعد عن المنهج .. كفر بعد إيمان وعصى بعد طاعة .. فؤلاء إن فعلوا ذلك لم يصبحوا عبادا لى .. بل أصبحوا عبيدا وخرجوا عن حماية عطاء الألوهية لهم من غواية الشياطين .. ويقول الله :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾

أى أنه من توكل على الله فإن الشيطان لا يستطيع أن يصل إليه . ويبين الله سبحانه وتعالى طريق الغواية الذى سيتبعه الشيطان فيقول :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الشيطان سيحيط بالإنسان من كل جهة .. ويحاول غوايته والوسوسة له .. ولكن هناك جهتين لا يأتى منهما الشيطان أبدا .. فلم يقل ومن تحتهم لأن ذلك مكان السجود ولم يقل ومن فوقهم لأن ذلك مكان رفع الصلوات والدعاء إلى الله .. وهنا يبين الله سبحانه وتعالى أن كيد الشيطان لا يؤثر على ملك الله فعندما يقول الشيطان أنه سيأتى

للإنسان من الأمام والخلف واليمين والشمال ويحيط به .. يقول الله تحقيراً لشأن الشيطان ومن يتبعونه :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء ـ الآية ٦٤)

الشيطان يتوعد الإنسان ويقول إنه سيغرر به فى الدنيا عن طريق التزيين وأنه سيحيط به ليغويه فى كل لحظة .. والله سبحانه وتعالى يقول له بل افعل أكثر من هذا .. أملأ آذان من استطعت منهم بصوتك .. وارهبهم بالقوة سواء كانت من الخيل أو راجلة تمشى على أقدامها وشاركهم فى الأموال وفى الأولاد .. كيف يحدث ذلك ؟ .. هل للشيطان صوت نسمعه .. هل للشيطان قوة حربية تحاربنا ؟ .. هل للشيطان أموال وأولاد ؟ .. نعم .. كل قوى الشر فى العالم يستخدمها الشيطان .. فهناك من الذين كفروا من ينطقون باسمة وينشرون الكفر والإلحاد .. وهناك جنود الشيطان الذين يحاربون الحق ويعتدون على الآمنين ويبيدون الشعوب المؤمنة ويخنقونها سواء أكان اقتصاديا أم عسكريا .. وهناك المال الحرام الذى يزينه الشيطان للناس فيرتكبون به المعاصى .. هذه مشاركة الشيطان فى المال يحوله من حلال إلى حرام .. وهناك مشاركة الشيطان فى الأولاد أن ينشأوا على غير طاعة الله وينشأوا وقد عرفوا المعاصى ولم يعرفوا الطاعة .. كل هذا متاع الغرور ، أى ليس حقيقة .. ولكنه مجرد غرور وكبر فى الدنيا .. ثم تأتى

نهاية الحياة فلا يأخذ الإنسان معه شيئا إلا المعاصى .. يترك المال .. ويترك القوة .. ويترك الجاه .. ويترك السلطان .. ولا يجد إلا الله ليوفيه حسابه .. كل ما فى الدنيا هو متاع الغرور إلا الطاعة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾

.. والغرور هنا معناه الوعد الكاذب الذى لا يتحقق .. أى أن وعود الشيطان وما يزين به للناس المعصية ما هو إلا كذب لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

بقيت بعد ذلك نقطتان .. النقطة الأولى .. هل كان إبليس يعيش مع الملائكة وقت أن أصدر الله سبحانه وتعالى الأمر بالسجود .. بعض الناس قالوا إن الجن والملائكة كانت تعيش ذلك الوقت فى مكان واحد .. ولكن هذا القول يضع قيودا على قدرات الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان .. ولذلك فإنه ليس من موجبات وصول أمر السجود إلى إبليس أن يعيش مع الملائكة فى مكان واحد وقت صدور الأمر بالسجود .. ولو كان إبليس يعيش فى آخر الدنيا .. والملائكة يعيشون فى السموات العليا فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوصل أمر السجود إلى الملائكة ، وإبليس فى نفس اللحظة رغم بعد المسافة .. والله لا زمان عنده ولا مكان .. لأن الزمان والمكان من خلق الله .. ولذلك فهذه ليست قضية تثار .. ولا جدلا يستحق الرد .

والنقطة الثانية هل كان إبليس يعيش فى الجنة ثم طرد منها بعد

المعصية مصداقا لقول الله :

﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ١٣)

.. وقول الله فأخرج منها لا يعنى مكانا على وجه التحديد فقد يكون الطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى .. وقد يكون الطرد من نعم الدنيا والآخرة .. وقوله تعالى : ﴿ فاهبط منها ﴾ ليس معناه هبوط المسافات التى نتحدث عنها .. وإنما معناه ذلة فى القدر وحطة فى القيمة وتنزيل من مقام على إلى أسفل سافلين .. والخروج منها يكون خروجا من نعم الله سبحانه وتعالى كلها .. وأنت تقول أن فلانا هبط فى نظرى .. ومعنى ذلك أنه وصل إلى درجة من الانحطاط بحيث أصبحت أنظر إليه نظرة احتقار .. ولا يوجد ما يجزم أن إبليس كان يعيش فى الجنة قبل المعصية .. ولا أنه كان يعيش مع الملائكة .. وسواء كان خروج إبليس معنويا أو حسيا .. فإن المعنى لا يختلف فى أن الله طرده من كل نعيم كان يعيش فيه .. وأنزله من كل مقام كان له إلى أسفل سافلين ، والمهم فى هذا كله أنه يرينا شدة غضب الله عليه .. وشدة تحقير الله له .. وهذا ما يجب أن نفهمه دون الدخول فى جدل حول هذا الموضوع ..

نأتى بعد ذلك إلى معصية آدم .. وكيف استطاع إبليس أن يوقعه فى المعصية .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..

الفصل السادس

خطيئة آدم

خطيئة آدم

كثير من الناس يدعون أن خطيئة آدم هى سبب خروج الإنسان من الجنة .. وتجد منهم من يقول لك انه لولا أن آدم أخطأ وعصى ربه لكنا نعيش فى جنات النعيم بدلا من ذلك الشقاء الذى يملأ الأرض .. بل ان بعض النظريات التى وضعها الإنسان ونسبها إلى الله زورا هو أننا نعذب فى الأرض بسبب خطيئة .. وأن هذه الرحلة الأرضية بما فيها من عذاب إنما هى تكفير للخطيئة التى ارتكبها آدم فى الجنة ، والتى أدت إلى طرده هو وذريته منها .. وأنه لابد أن يكون هناك من يتحمل آلام البشرية وخطيئتها حتى نعود للجنة من جديد .. فإن هناك من يدعى أن هناك من نزل من السماء .. وأمضى أسبوعا من الآلام فى الأرض ليحمل عن بنى آدمخطاياهمويطهرهم من خطيئة آدم .. ولذلك نسمع عن أسبوع الآلام والبكاء والدموع إلى آخر ما نسمعه .

وهذه النظرية البشرية مبنية على أن العقوبة تورث ، أى أن ذرية آدم قد ورثوا مع ما أخذوه من صفات جسدية قد ورثوا المعصية عن آدم .. وأن هذه المعصية تورث من جيل إلى جيل إلى جيل حتى قيام الساعة .. وأننا لابد أن نبكى وأن ننتحب طالبين المغفرة من خطيئة آدم .. كل هذا يقال وتجد كثيراً من الناس يأتون بأشياء ونظريات واهية .

والذى أحب أن أبينه قبل أن نبدأ هذا الحديث أن آدم خلق ليعيش فى الأرض حياة دنيوية .. وأنه فى ساعة الخلق قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾

إذن آدم خلق ليكون خليفة لله فى الأرض وليعمرها .. ولم يخلق أساسا ليعيش هو وذريته فى الجنة .. ولكنه خلق لينزل إلى الأرض ويعيش فيها .. ثم تأتى الآخرة ، ويكون هناك ثواب وعقاب .. فيدخل المؤمنون الجنة ويعذب الكافرون فى النار ، وهذا هو قدر الله الذى أراده لبنى آدم .. ولو أن آدم استمر فى الجنة .. فكيف يمكن أن يكون هناك حساب وثواب وعقاب .. وخطيئة وتوبة .. وإيمان وكفر .. إلى آخر ما فى الحياة الدنيا .. فكيف كان يمكن أن يكون لآدم ذرية ولا تناسل فى الجنة .

والحديث عن خطيئة آدم ، وأننا نتحمل هذه الخطيئة ونعذب بها فى الدنيا .. حديث يتنافى مع عدل الله سبحانه وتعالى .. لأن الله لا يعذب أحدا بذنب أحد ، ولا يعذب إنسانا بخطيئة انسان آخر .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ولا تزر وازرة وذرى أخرى ﴾

اى أن أحداً لا يتحمل ذنوب الآخر .. وإنما يحاسب كل شخص على ما ارتكبه من ذنوب وآثام .. كل انسان يحاسب على عمله من حسنات وسيئات وطاعات .. أما قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

(سورة العنكبوت الآية ١٣)

فذلك ليس معنى أن الإنسان يتحمل خطأه وخطأ غيره .. بل ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن المضلين الذين يضلون الناس فى الأرض ..

ويزينون لهم طريق المعصية .. فهؤلاء يحملون أوزارهم أو معاصيهم التى ارتكبوها .. ويحملون أيضا أوزار أو معاصى الذين أضلوهم بغير علم ، لأنهم كانوا السبب وعملوا على أن يزينوا للآخرين طريق المعصية والضلال .. فهم فى هذه الحالة يحملون وزرين أو معصيتين .. وكلا الوزرين أو المعصيتين هو من أعمالهم .. فالمعصية الأولى الاثم الذى ارتكبوه .. والمعصية الثانية الاثم الذى دفعوا غيرهم إلى ارتكابه بتزيينه لهم بالباطل وترغيبهم فيه .. وهذا القول متمش مع عدل الله سبحانه وتعالى فى أنه :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

والسؤال الذى يثيره البعض هو أنه إذا كان الشيطان قد أغوى آدم ، وجعله يأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة .. فما ذنبى أنا لأطرد معه وأعيش فى شقاء الدنيا وكبدها ..

السؤال بهذه الطريقة هو بعيد ومجاف للحقيقة .. فآدم لم يكن يعيش فى جنة الآخرة كما يفهم بعض الناس .. ولم يطرد من جنة الآخرة حتى يقال أنه طرد من جنة الخلد .. بل إن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم يكن فيها خلود .. ولم يكن فيها من النعيم ما فى الجنات التى وعد الله بها المتقين فى الآخرة .. بل كانت تجربة عملية يريد الله بها أن يبين

لآدم وذريته كيف يكون اغواء الشيطان وما هى نتيجته .. وكيف أن الغفلة تدخل اغواء الشيطان إلى النفس البشرية .. وكيف أن الشيطان عدو للإنسان .. وكيف أنه كاذب فى كل وعوده التى يمنى بها الإنسان ليقوده إلى معصية الله .

والله سبحانه وتعالى لم يطلق فى القرآن الكريم لفظ الجنة على جنات الآخرة فقط .. ولكنه أطلقه على كل مكان ظليل تتوافر فيه الثمار والحياة الطيبة .. وبذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف الآية ٣٢)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبا الآية ١٥)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تعطينا الدليل القاطع على أن الله سبحانه وتعالى أطلق لفظ الجنة على جنات فى الدنيا .. وأن قول الله سبحانه وتعالى لآدم :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾

ليس معناه الخروج من جنة الآخرة أو من الجنات التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة . لأن آدم وذريته المؤمنة سيدخلون الجنة فى الآخرة .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يلقى آدم وذريته إلى الحياة الدنيا ، حتى يبين لهم بطريقة عملية كيف أن الشيطان سيكون عدوا لهم وكيف سيوسوس لهم الشيطان ليقودهم إلى النار . ولنبدأ خطوة . خطوة .

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم وقال للملائكة اسجدوا لآدم ، وسجدوا إلا إبليس . أراد الله أن يبين لآدم أن ابليس عدو له . وأنه سيحاول أن يجعله يفسد فى الأرض ويهلك الحرث والنسل . ويعصى أمر الله ولا يحصد إلا الندامة والعذاب . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة طـه)

أول شيء حدث ـ حتى يكون عدل الله كاملا ـ أن الله نبه آدم إلى ما يريد أن يفعله إبليس . فقال له : أن هذا أى إبليس عدو لكما . هنا من القرآن الكريم نعرف أن آدم حينما عاش فى المكان الذى وصفه الله بأنه جنة كانت معه زوجته حواء . أى أن الله بعد أن خلق آدم خلق حواء وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(سورة النساء الآية ١)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾

(سورة الروم الآية ٢١)

وهكذا نعرف أن الله خلق آدم .. ثم خلق حواء من آدم .. وهكذا تمت مرحلتان من مراحل الخلق الأربع .. وهى : خلق بدون ذكر أو أنثى وهو خلق آدم .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهو خلق حواء .. ولقد خلق الله حواء من ضلع آدم .

إذن فبداية حياة آدم كانت من ذكر وأنثى .. وهكذا وضع قانون التكاثر لآدم ولكل مخلوقات الله من ذكر وأنثى كما بينا من قبل .. بين الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء إبليس ونواياه . وقال إن هذا عدو لكما .. وأنت إذا قلت لأى إنسان إن هذا الشيء عدو له .. فإنك تريد أن تحذره منه .. فإذا جاءه بنبأ لا يصدقه .. وإذا اقترب منه ابتعد هو عنه .. أو اتخذ موقف الاستعداد ليواجهه وينازله .. وإذا طلب منه أن يفعل شيئا . فإنه لا يفعله لأنه يعلم أن فى هذا الشيء هلاكه مادام الذى جاء به عدوا له .. وإذا أعطاه الطعام والشراب وقال له كل من هذا فلا يأكل منه ، لأنه قد يكون قد دس السم له ليقتله .. وإذا حدث ونسى ذلك الإنسان ما قلته له محذرا بأن هذا عدو له .. تكون فى هذه الحالة أنت قد أبرأت ذمتك .. ويكون الوزر على ذلك الذى لم يستمع التحذير .

ومن هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى شاء عدله قبل أن يدخل آدم ليبدأ مهمته أن يحذره من الشيطان .. وأن يقول له إن الشيطان عدو يريد له الأذى والهلاك .. فكانت هذه هى البداية بالتجربة التى سيمر بها آدم .. والتى تمثل تجربة عملية لما سيحدث له فى الحياة فى الأرض ، حتى لا يقول يارب أنت لم تحذرنى من الشيطان .. ولو أنك يارب حذرتنى منه وقلت لى أنه عدو لى وانه يريد إيذائى .. يريد أن يهلكنى .. لو أنك قلت لى يارب ذلك لما أطعته يارب أبدا .. ولما استمعت إلى وسوسته .. ولكنك ياربى ألقيتنى فى الحياة الدنيا دون أن تبين لى عداوة الشيطان .. فحسبت أنه صديق وأنه ناصح أمين .. فاتبعته ياربى فكيف تحاسبنى الآن فى الآخرة على ما حدث منى بوحى من الشيطان ..

وحتى لا يقول الإنسان ذلك لله فى الآخرة وقت الحساب .. وما أكثر

الأعذار التى سيقولها الإنسان فى وقت الحساب .. حتى لا يحدث ذلك .. جاء الله بهذا وقال لآدم ان الشيطان عدو لك فاحذره .. وأنا أقول لك ذلك حتى لا تأتى فى الآخرة وتقول : ياربى لا تحاسبنى ..

وهنا يجب أن نعرف أيضا أن التحذير لابد أن يسبق الفعل .. بمعنى أنه إذا وقع شيء يغضبك ولم تحذرنى منه من قبل فإن الحساب لا يكون عدلا .. ولكن إذا حذرتنى ثم وقع منى الفعل وعاقبتنى يكون العقاب عدلا .

وبعض الناس يتساءل كيف كلم الله آدم ؟ ونحن نقول انه إما أن يكون كلمه مثلما كلما موسى عليه السلام .. وإما أن يكون كلمه وحيا .. وكلا الأمرين ليس موضع جدل .. فالمهم أن الله قد أبلغ آدم أن ابليس عدو له وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طـه)

قول الله سبحانه وتعالى يخرجنكما من الجنة فتشقى ، هو الذى أثار الجدل حول الجنة التى كان يقيم فيها آدم وزوجته .. وقد بينا أن لفظ الجنة أطلقه الله سبحانه وتعالى على جنات السموات والأرض .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ فتشقى ﴾ قد أثار جدلا .. ذلك أن معنى أنه يخرج آدم وزوجته من الجنة فيشقيان أنهما كانا فى نعيم فحرما منه ..

ويبنى بعض الناس على ذلك أن هذا النعيم الذى كان يعيش فيه آدم وحواء هو الموجود فى جنات الآخرة .. ولكن الآيات التى تلت هذه الآية تصف لنا الجنة التى كان يعيش فيها آدم ، والنعيم الذى كان فيه وهو نعيم محدود جدا بالنسبة لنعيم الجنة فى الآخرة .. فالله يقول لآدم :

﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾

أى أن فى هذه الجنة الثمار والطعام الذى يحتاجه آدم فى حياته متوافرا بلا جهد .. فهو لا يجوع فيها لأن الطعام أمامه متوافر دائما .. ولا يعرى لأن الله قد أعطاه اللباس الذى يستره أو قد ستر عنه وعن حواء عورتيهما . واللباس هو ستر العورة .. أى أن آدم فى هذه الجنة لا يحتاج إلى جهد فى الحصول على طعامه هو وزوجته .. وفى الحصول على اللباس الذى يستره « **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** » أى أن آدم فى الجنة التى كان يعيش فيها الماء فيها متوافر .. وهو لا يتعب ولا يبذل جهدا للحصول على ماء أو طعام أو لباس .. بل يعيش فى الظل والنعم التى منها مقومات حياته أمامه دون تعب أو جهد .

هذا هو وصف الجنة التى عاش فيها آدم التجربة العملية المحسة قبل نزوله ليباشر مهمته فى الأرض .. أين ذلك من جنات الآخرة .. التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وجنة الآخرة أولا هى جنة الخلد .. أى فيها الخلود .. والجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلود كما سنبين بعد ذلك ... ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

﴿ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فاطر)

ويقول سبحانه :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ويقول الحق :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾

(سورة المطففين)

ويقول تبارك و تعالى :

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن

فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(سورة الانسان)

وإذا شئت تستطيع أن تعود إلى القرآن الكريم وتقرأ ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن الجنة فى الآخرة .. لتجد أن الوصف مختلف تماما عن الوصف الذى أورده الله سبحانه وتعالى عن الجنة التى كان فيها آدم وزوجته .. فالجنة التى كان يعيش فيها آدم فيها نعيم محدود .. وجنة الآخرة فيها نعيم بلا حدود .

وهكذا فإن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد أو جنة الآخرة .. فكل الأعذار التى يحاول بعض المفسرين أن يسوقوها ليجيبوا عن السؤال الذى يقول : كيف دخل إبليس الجنة ليوقع آدم وزوجه فى المعصية .. والتى يحاول البعض جاهدا أن يقول أنه دخل على هيئة كذا أو كذا .

نقول لهم أن الله لا يريد من أحد عونا على كلامه .. إن هذه الجنة لم تكن جنة الخلد .. وإبليس محرم عليه دخول جنة الخلد ولم يدخلها ولن يدخلها .

كفل الله لآدم وزوجته مقومات حياتهما بلا تعب ولا نصب .. فى مكان فيه ثمار وماء وكل مقومات الحياة .. ثم بعد ذلك علَّم الله سبحانه وتعالى آدم المنهج فقال له :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ﴾

(سورة الأعراف)

وكان هذا أول بيان لمنهج الله فى افعل ولا تفعل .. والله سبحانه وتعالى أعطى لآدم وأباح له نعما كثيرة .. أباح له كل الثمر الذى فى هذه الجنة .. وأن يأكل ما يشاء ، فى أى وقت يشاء وحرم عليه شجرة واحدة . وإذا نظرنا إلى منهج الله فى الأرض نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح من الطيبات الكثير .. وحرم القليل والقليل جدا .. فكل مقومات الحياة الطيبة مباح للإنسان من الطعام والشراب والأكل الحلال والمال والحلال .. ومن الثياب ومن العمل والكسب .. ولو أحصينا المحرمات لوجدناها قليلة جدا بالنسبة للمباحات .. وهذا رحمة من الله بخلقه .. فلو أن الله حرم الكثير وأباح القليل .. لكان المنهج مشقة لا يستطيع ولا يقدر عليها الكثيرون .. ولأنه أباح الكثير وحرم أقل القليل ، جعل الدين يسرا .. وخفف عن عباده وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾

(سورة البقرة ـ آية ١٨٥)

وهنا أيضا نأتى إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وضع مبدأ العدالة فى الأرض .. وأنه لا عقوبة بدون تجريم .. فلابد أن يأتى التجريم أولا ثم بعد ذلك تأتى العقوبة .. فإذا تمت العقوبة بدون تجريم لم يكن العقاب

عدلا .. فأول شيء هو أن تجرم الفعل .. فلا بد أن تقول أولا إنك إذا قتلت فستعاقب بكذا ، وإذا سرقت فستعاقب بكذا .. وإذا فعلت كذا فستعاقب بكذا .. وهذا لابد أن يأتى قبل أن يقع الفعل بحيث إذا وقع تمت العقوبة .. أما أن يصدر قانون بأثر رجعى .. أى يطبق قبل أن يعلن تجريم الفعل فهذا ليس عدلا .. ولا يتفق مع منهج الله الذى جرم الفعل أولا .. فقال :

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة .. ﴾

وحدد العقوبة فقال : فتكونا من الظالمين .. وقال :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾

وهكذا بين الله منهجه لآدم فى افعل ولا تفعل .. وقال ان هناك أشياء قد جرمتها ومنعتها . و أنا أخبرك بها أولا قبل أن يقع الفعل منك حتى إذا وقع الفعل يكون العقاب عدلا .. وكان هذا الإعلام هو أول إبلاغ عن دين الله للإنسان .. وأول وحى علمهم ما يجب أن يكونوا عليه فى حركة حياتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليخرج آدم إلى حركة الحياة فى الأرض بدون أن يدربه تدريبا عمليا يباشر فيه واقع التجربة .. ولا يرسله الله للأرض بكلام نظرى دون واقع عملى يثبته ويبينه .. لأن الإنسان قد يأخذ كلاما نظرياً يقتنع به .. ولكن حين يأتى التطبيق العملى يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشيا مع المنهج النظرى .

وهكذا شاءت رحمة الله بآدم ألا ينزله إلى الأرض بمنهج نظرى أن افعل كذا ولا تفعل كذا .. إلا بعد أن يربيه تربية دينية على المنهج .. ويبين له عمليا ما يصادف الإنسان المؤمن من إغواء الشيطان واغرائه .. فإذا تمت التجربة العملية وعاشها آدم كواقع ، نزل إلى

الأرض ليباشر مهمته ، وهو مدرب لا بالتوجيه فقط ولكن بالتجربة .. فلم يكن الله ليخبر آدم بمنهج نظرى ثم يعاقبه على ما يقوم به .. ماذا قال الله لآدم : كُلَا من كل شىء ولا تقربا هذا الشجرة .. وهذا أمر بافعل ولا تفعل .. ثم حذره من اغواء الشيطان وعداوته له .. وحذره من أن الشيطان سيجعله يقع فى الخطيئة .. وهنا بدأ اغواء الشيطان .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طـه)

الشيطان جاء لآدم فى المكان الذى يعيش فيه وهو ليس جنة الخلد كما بينا من قبل وقال له :

﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾

واستخدم الله سبحانه وتعالى لفظ « **فوسوس** » والوسوسة هى صوت الحلى ورنينها .. أى أن الشيطان جذب آدم بزينة الدنيا وهى المال والحلى والشهوات .. ماذا قال الشيطان لآدم ؟

﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾

ومعنى هذا أن آدم لم يخلق ليخلد فى هذه الجنة .. ولو أنه خلق كما سيحدث فى جنة الآخرة ما استطاع أن يغويه الشيطان ويعده بأنه سيحقق له الخلود .. إذ ماذا يهم آدم مادام قد خلق فى جنة الخلد وأنه

خلق خالدا أن يعصى أمر الله ليحصل على الخلود . فى حين أنه هو فعلا خالد بحكم خلقه .

إذن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد .. وإلا لما أغراه الشيطان بالخلود .. وهنا نرى كيف أن الشيطان يستغل غياب التفكير السليم عن الإنسان .. أو يستغل الغفلة كما نسميها .. فلو أن هذه الشجرة تهب الخلد فعلا فلماذا تضرع الشيطان إلى الله أن يبقيه إلى يوم الدين .. إنه كان يستطيع أن يأكل من هذه الشجرة ، ويحصل على الخلود ، ويمضى فى الكبر الذى بدأه ..و لكن الشيطان يعرف أن هذه الشجرة لا تعطى خلدا .. ولا شيئا إلا السوء ... ولكنه أراد بالكذب أن يغرى آدم حتى يعصى الله ويأكل من هذه الشجرة .. وكان على آدم أن يتنبه أن الشيطان إذا كان يستطيع أن يمنح الخلد لمنحه لنفسه أولا .

وأضاف الشيطان فى اغوائه لآدم « **وملك لا يبلى** » أى مال ونعيم لا ينتهى .. وهاتان آفتا الإنسان فى الأرض .. فالإنسان يبحث عن خلود ولا يريد أن يموت أبدا .. والإنسان فى حياته يخشى أمرين .. أما أن يفارق النعمة وإما تفارقه .. يفارق النعمة بأن يموت ويترك كل ما يملك ويتنعم به فى الحياة الدنيا .. وتفارقه النعمة أى أن تزول عنه لأى سبب من الأسباب .. كأن يكون غنيا ويصبح فقيراً .. أو أن يكون ذا جاه ونفوذ فيذهب عنه الجاه والسلطان .. ذلك هو هم الإنسان فى الدنيا وخوفه منها أن يفارق النعمة .

ومن هنا تأتى وسوسة الشيطان فى المعصية .. إذا أردت ألا تفارقك النعمة فافعل كذا وكذا .. اسرق .. زور .. نافق .. اقتل من يعترض طريقك .. افعل كل ما نهى عنه الله ولا تبال .. فإنك إذا فعلت ذلك ولم

تبال بمنهج الله بقيت معك النعمة . ويندفعِ الإنسان فى المعاصى فيسرق ويقول الزور ويقتل ويرتكب كل ما حرمه الله لتبقى النعمة معه .. ولكنها رغم كل ذلك تزول .

وهب أن هذه المعاصى قد أبقت النعمة فلم تفارق الإنسان وبقيت له .. فإن الإنسان يفارقها بالموت .. وهنا تأتى وسوسة الشيطان فيجعل الإنسان ينسى حكمة الموت أو نهاية الحياة .. فيصور له أن أمامه أعواما طويلة سيعيشها .. وأن أمامه عمرا مديدا سيستمتع فيه بهذه النعمة ـ وقد يكون أجل الإنسان غدا .. ولكن الشيطان يوسوس له أنه سيعيش أعواما ..وأعواما .. وأعواما يبقيه فى الإثم حتى ساعة الموت وحينئذ لا تنفع التوبة .. ويكون الشيطان قد انتقم من الإنسان وجعله يسلك طريق النار والهلاك .. وهذا هو هدف الشيطان فى عداوته للإنسان .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذ أن الشيطان بعد أن قال لآدم وحواء انه سيدلهما على شجرة الخلد وملك لا يبلى بعد أن زين لهما ذلك .. دلهما على الشجرة ، فإذا هى نفس الشجرة التى نهاهما الله عن أن يقتربا منها .. وهنا تردد آدم وحواء .. فمضى الشيطان يزين لهما المعصية ويقول لهما : إن الله لم ينههما عن الاقتراب من هذه الشجرة إلا أنهما لو أكلا سيكونان من

الملائكة ويحصلان على الخلود .. وتلك أيضا كذبة استخدمها الشيطان فى الاغراء .. فآدم وحواء لم يخلقا نفسيهما ، ولكن الله هو الذى خلقهما . فكيف يتحولان إلى ملكين ؟ والملائكة مخلوقة من نور .. والإنسان مخلوق من طين .. كيف يتحولان من الطين إلى النور بدون إرادة الخالق الذى طلب منهما ألا يأكلا من هذه الشجرة .. ولو أن هذا كان صحيحا من أن المخلوق يملك تغيير طبيعته ومادته بدون مشيئة الخالق .. لاختلطت الأجناس والمخلوقات .. وأصبحت السموات والأرض مجموعة من الفوضى .. ثم أن لكل مخلوق قوانين تتناسب مع مادته .. فالإنسان وقد خلق من طين له قوانيه التى تتناسب مع مادته .. والجان التى خلقت من نار لها قوانين تتناسب مع مادتها ، فهى ترانا ونحن لا نراها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(سورة الأعراف الآية ٢٧)

فالجان لأنه من مادة شفافة وهى النار لا نستطيع نحن المخلوقين من طين أن نراها .. والملائكة المخلوقة من مادة أكثر شفافية وهى النور ترانا ولا نراهم .. ونحن فى حساب الزمن نتحرك ببطء ونقطع المسافات ببطء مهما كانت السرعة التى نسافر بها .. والجان له قدرة أسرع على الحركة .. ويرينا الله سبحانه وتعالى ذلك حين يقول فى قصة سليمان وبلقيس فى (سورة النمل الآية ٣٩)

﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ﴾

أى أن عفريت الجن عرض على سليمان أن يحضر له عرش بلقيس من اليمن قبل أن تصل بلقيس ورجالها .. وكانت بلقيس وقومها قد غادروا بلدهم منذ فترة من الوقت .. على أن هذا العفريت سيقطع المسافة التى يقطعها الإنسان فى أسابيع أو شهور .. يقطعها فى ساعة أو أقل من ساعة ..

إذن فقوانين الجان مختلفة عن قوانين الإنسان .. وقوانين الملائكة تختلف أكثر وأكثر .. فكيف يمكن لآدم لمجرد أكله من الشجرة أن يتحول من مخلوق من طين إلى مخلوق من نور .. ومن الذى سيحوله .. ، أهو ثمرة الشجرة التى حرمها الله .. وهل لديها القدرة على ذلك ؟ وهل تستطيع وهى مخلوقة لله أن تقوم بمثل هذا التحويل لطبيعة الأشياء ... طبعا مستحيل .

وهكذا يرينا الله سبحانه وتعالى أن الشيطان لا يدخل إلى النفس البشرية إلا مع الغفلة .. وإلا مع غياب التفكير الإيمانى السليم .. وأن كل ما يعد به الشيطان لو تمعنا فيه لوجدناه غرورا كاذبا .. ولكن مع هذا فإنه باندفاع الناس إلى حب الدنيا ينسون التفكير السليم .. وفى طمع بنى آدم فى أن يحصلوا على ما تمليه عليهم أهواؤهم يندفعون فى طريق يرفضه العقل وترفضه الفطرة السليمة .

﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾

أقسم الشيطان لهما أنه ناصح أمين لمصالحهما يريد لهما الخير .. أقسم الشيطان بمن ؟ فقد كفر بالله وهل يقبل قسم من كافر ؟ .. وهل الكافر له عهد يرجى .. أو له قسم يصان ؟

رغم أن آدم وحواء قد حذرهما الله ونهاهما عن الاقتراب من هذه

الشجرة .. وأباح لهما كل ثمار الجنة .. يأكلان منها متى شاءا ، وحيثما شاءا .. ورغم أن الله قد حذرهما أن الشيطان لهما عدو مبين .. وأنه يريد أن يخرجهما من الجنة التى يعيشان فيها ، ورغم أن الشيطان قد استخدم حججا فى اغرائه لآدم لا تتمشى مع العقل ولا المنطق ولا قدرة الشيطان ، فقد صدقه آدم وتناول هو وزوجه ثمار الشجرة يأكلان منها ليتحولا إلى ملكين خالدين ويكون لهما ملك لا ينتهى أبدا .

فماذا حدث بعد ذلك .. وأى نتيجة وصلا إليها .. ؟ هل تحولا إلى ملكين فعلا .. هل وصلا إلى الخلود الذى يبحثان عنه .. وإلى الملك الذى لا ينتهى أبدا .. وإلى النعمة التى لا تزول .. أم أنهما أضاعا ما فى أيديهما ووصلا إلى حالة سيئة من الشقاء .. ؟

إن ذلك هو موضوع الفصل القادم ..



الفصل السابع

ونزل آدم إلى الأرض

أقدم آدم وزوجته على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عنها .. ورغم كثرة المباح فى الجنة التى كانا يعيشان فيها .. وأن المحرم هو شجرة واحدة من مئات أو ألوف الأشجار التى كانت فى الجنة .. إلا أن الشيطان استطاع أن يخدعهما ويغرر بهما ويقودهما إلى المعصية .. ولابد هنا أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما حرم على آدم وحواء أن يأكلا من هذه الشجرة لم يقل لهما .. لا تأكلا هذه الشجرة ، بل قال لهما لا تقربا هذه الشجرة .. ما هو الفرق فى أن يقول الله لا تأكلا وبين أن يقول لا تقربا .. لو أن الله قال لا تأكلا من هذه الشجرة .. لكان المنهى عنه هو الأكل فقط .. ولكان المباح أن يذهبا ويجلسا بجوار الشجرة ، ويتأملا ظلالها وأوراقها ، وربما تنبعث رائحة جميلة منها فيتمتعان بها .. ولكن قوله تعالى :

﴿ **لا تقربا** ﴾ معناه لا تقتربا من هذه الشجرة حتى مجرد قرب .. ولا تجلسا لتتأملا فيها .. بل إذا رأيتماها فابتعدا عنها تماما .. لماذا ؟ لأن محارم الله يجب أن يبتعد عنها الإنسان حتى لا يقع فيها .. لأن القرب من الشجرة قد يبدأ بعده إعجاب بالثمار .. والإعجاب بالثمار قد يؤدى إلى قطف ثمرة منها لنتأملها دون أن نأكلها .. فإذا وصلت إلى هذه الدرجة فإنك فى الغالب ستقع فى المعصية وتأكل الثمرة .. وكذلك ما حرم الله .

إن كل معصية إذا اقتربت منها فإنك ستقع فيها .. الذى لا يشرب الخمر مثلا إذا جلس مع الذين يشربون كانت الخطوة الأولى أنهم سيدعونه مرة ومرات إلى كأس ، أو إلى أن يتذوق قطرة منها .. فإذا رفض أخذوا يزينونها له ، ويحاولون اغراءه بأن فيها فوائد للناس ..

ويعيرونه بأنه لم يبلغ مبلغ الرجولة حتى يشرب ، وأخيراً سيقع فى المعصية ويشرب الخمر ..

إننا فى كل أحداث المعاصى التى نراها بالنسبة للخمر تبدأ بكأس واحدة ، وتحت الحاح شديد .. ثم بعد ذلك يبدأ تناول الخمر والإدمان عليها .. كذلك كل المعاصى اذا اقتربت منها فإنك تفتح باب الشيطان فى نفسك ، فتقع فى المعصية .

إذن فلا تقربا أبلغ وأشد فى الاحتياط من لا تأكلا .. ولذلك أراد الله بقوله ﴿ لا تقربا ﴾ أن يجنب البشر ذلك القرب الذى يغريهم على المعصية ويفتح فى نفوسهم الباب أمام هوى النفس واغراء الشيطان .. ولذلك يلاحظ فى القرآن الكريم أن كل شىء محرم يقول الله سبحانه وتعالى بشأنه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ١٨٧)

أى لا تقربوا المعاصى أو مجالسها .. ابتعدوا عنها .

وإذا تتبعنا تسلسل معصية آدم وإغراء الشيطان له نجد أن الشيطان قد بدأ بقوله :

﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾

واستطاع أن يجذب آدم ويقربه من مكان المعصية .. وعندما اقترب آدم من الشجرة وقع فى المعصية ، وأكل من ثمرها .. وبما أن التجربة العملية التى مر بها آدم هى للبشرية كلها .. أراد الله سبحانه وتعالى أن

يفصلها تفصيلا ، حتى يعرف كل إنسان من ذرية آدم كيف تتم المعصية ، وما هو الطريق الذى يقود إليها .. فلا يأتى يوم القيامة مجادلا بأنه لم يعرف ولم يخبر بذلك مقدما حتى يحاسب فى الآخرة ..

أكل آدم وحواء من الشجرة .. وعصيا الله وحينئذ ماذا حدث ؟ هل تحولا إلى ملكين ؟ .. هل حصلا على ملك لا يبلى ؟ .. لم يحدث ذلك .. يقول الله تعالى :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة طـه)

.. ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لما أكل آدم وحواء من الشجرة ظهرت عورتاهما وأسرعا يأخذان من أوراق الشجر الموجود فى الجنة ما يخفيان به هذه العورة .. فكأنما الشيطان يريد دائما أن يظهر عورة الإنسان فيغريه أولا بالشر .. ثم يوحى إليه من التصرفات ما يجعل الفضيحة تقع.وهو يغريه بالسرقة مثلا .. فمتى اتخذ الإنسان الشيطان وليا .. وسمع اغواءه وسرق ، فإنه

يغويه بأحداث تكشف سرقته للناس وتريهم أنه لص .. فالشيطان عدو للإنسان وهو يريد أن يظهر كل سيئة فيه حتى تلك التى سترها الله سبحانه وتعالى .

والإنسان إذا تبع الشيطان صار مفضوحا فى كل أمره .. وهكذا عرف آدم وحواء الشيطان قد كذب عليهما ، وعدهما غرورا ، ليكشف عن عوراتهما التى كانت مستورة .. وهنا كان الجزاء .

قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته ألم أنهكما عن هذه الشجرة ؟ .. ألم أبح لكما من الطيبات ما يكفى حياتكما ويزيد ؟ .. ألم أقل لكما لا تقربا من هذه الشجرة ؟ .. لقد كنت أريد لكما الخير .. ألم أحذركما من الشيطان أنه لكما عدو مبين .. كنت أريد لكما الخير وخلقته ويسرته لكما .. وكان الشيطان يريد بكما الشر وأوقعكما فى المعصية .. فلماذا اتبعتما الشيطان وعصيتما أمر الله .. ولم يجد آدم وحواء عذرا لما حدث .. لقد كان أمامهما الحلال الطيب واتجها إلى الحرام الخبيث .. وكان أمامهما الخير واتجها إلى الشر .. ولكن آدم وحواء قابلا المعصية بطريقة أخرى غير التى قابلها بها الشيطان .. فالشيطان قال :

﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(سورة الأعراف ـ ١٢)

ويقول الحق أيضا :

﴿ قال لم أكن لأسجد لبر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾

فرد الأمر على الأمر .. ولكن آدم وحواء :

ونزل آدم الى الأرض

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف ـ ٢٣)

أى أنك يارب الإله الحق الذى يعلم كل شىء .. ويعلم أين الخير وأين الشر .. ونحن يارب مؤمنون بك إلها .. فأنت لم تظلمنا يارب .. وحاشا لله أن يوصف بالظلم .. ولكننا نحن الذين ظلمنا أنفسنا وأوردناها مورد التهلكة وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكون من الخاسرين .. أى خسرنا النعم التى سخرتها لنا فى الجنة التى كنا نعيش فيها وخسرنا الجزاء بالخلود فى الجنة فى الآخرة .

وفرق بين من يتهم نفسه بأنه ظلمها ويعترف أن أمر الله هو الحق .. وأنه لم يقدر على حمل نفسه على الطاعة .. وبين من ينكر على الله والعياذ بالله حكم ألوهيته .. وهكذا شرعت الخطيئة والتوبة فى الأرض .. وفتح الله باب التوبة للإنسان حتى إذا أخطأ يقول : يارب ظلمت نفسى وعدت إلى الحق فتقبل توبتى .. ولذلك فإنك إذا أنكرت حكما من أحكام الإسلام نقول لك أأنت تنكر أحكام الله .. فإذا قلت نعم فأنت والعياذ بالله كافر .. إذا لم تصل مثلا .. وسألناك لماذا لا تصلى فقلت أنا لا أومن بالصلاة ولا أصدقها .. وهذه الصلاة ليست عبادة .. وليست لها أى حكمة .. فأنت فى هذه الحالة قد كفرت .

ولكنك إذا قلت ان الصلاة حق وأن الله سبحانه وتعالى قد فرضها وأنا مؤمن بها .. ولكنى لا أستطيع أن أحمل نفسى عليها .. ففى مرات أنسى .. وفى مرات أتكاسل .. فأنت عاص تجب عليك التوبة والرجوع إلى منهج الله .

ونزل آدم الى الأرض

وهكذا أراد الله أن يُرى البشرية كلها .. وقبل أن تبدأ حياة البشر على الأرض .. الفرق بين الكفر والعصيان ..

عندما نصل إلى هذه النقطة تكون التجربة العملية قد انتهت .. فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وكرمه وفضله وأباح له من الطيبات ما يحفظ مقومات حياته .. ولكن الشيطان جاء ليفسد هذا كله ويقود الإنسان إلى المعصية .. وهنا تدخل الضعف البشرى والطمع البشرى .. ليجعل الإنسان يخرج عن منهج الله ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾

(سورة طه - الآية ١١٥)

وهكذا يكون آدم قد تم اعداده اعداد عمليا ليمارس مهمته على الأرض .. وأنه قد يبين له المنهج فى أن الله سبحانه وتعالى سيبيح له أشياء كثيرة .. ويحرم عليه أشياء قليلة .. ثم دخل فى تجربة عملية ظهر فيها ان الشيطان كاذب .. وأنه يريد أن يوقع آدم فى التهلكة .. ثم وجدت المعصية فعصى ربه .. ثم شرعت التوبة لأن آدم اعترف بأنه ظلم نفسه .. وبعد هذا الإعداد العملى الذى مر فيه آدم بتجربة الطاعة والمعصية نزل إلى الأرض ليمارس مهمته .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونزل آدم الى الأرض

نلاحظ قول الله سبحانه وتعالى اهبطوا مع أن آدم وحواء اثنان فقط .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

فكيف يتم الخطاب لاثنين فى قوله « **بعضكم لبعض** »

والذين يقولون ذلك لا يتنبهون إلى أن آدم قد خلق وفى ظهره كل ذريته إلى يوم القيامة .. ذلك أن أولاد آدم كلهم من آدم .. وأجدادهم فيهم من آدم .. لأنهم أخذوا من أولاده وأحفاده أحفادهم فيهم من آدم لأنهم أخذوا عن أحفاده الذين أخذوا عنه .. ونوضح ذلك .. لو أتينا بإناء فيه لون أحمر ثم جئنا بإناء أوسع به ماء ووضعنا فيه هذا اللون يكون فى السائل الجديد جزئيات من اللون الأحمر وإن كانت أقل تركيزا .. وإذا جئنا باناء ضخم هائل مملوء بالماء ووضعنا فيه السائل المختلط باللون الأحمر يكون فى الاناء الجديد اللون الأحمر فى جزئيات أقل وهكذا .. أنت أخذت من ابيك .. وأبوك أخذ عن جده .. وجده أخذ عن جد جده ، ونظل نسلسل هذا حتى نصل إلى آدم .. فأنت فيك جزء من آدم .. وهكذا كان قول الله سبحانه وتعالى خطابا للبشرية كلها التى هى ذرية آدم .. وحين يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

.. فإنه ينبهنا إلى أن آدم خلق يمثل أنواعا من البشر : نوع بنوه معصومون لا يعصون الله .. ونوع مؤمن .. يقع فى الخطأ والخطيئة ويتوب .. ونوع يكفر بخالقه .. ومادام آدم أبا لكل هذه الأنواع فلا بد أن يتمثل فى خلقه وتكوينه الأنواع كلها .. النوع المعصوم بالنبوة .. والنوع المؤمن الذى ينسى ويعصى ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام

نزواته وشهواته ولكنه يتوب إلى الله .. ونوع والعياذ بالله يكفر بخالقه ويعبد الشيطان .. وبما أنه سيكون من ذرية آدم النبى والمؤمن والكافر .. فهؤلاء جميعا سيقع بينهم صراع .. فالإيمان دائما يقابل بصراع من الكافرين الذين يريدون أن يحتفظوا بترف الدنيا ويظلموا الناس ويحاربوا كلمة الحق .. كما أن النزوات والشهوات المختلفة المتعارضة بين الناس .. تجعل بعضهم لبعض عدوا فى صراعات الدنيا ، فكأنما العداوة تأتى من نوعين : عداوة بين الكفر والإيمان .. أو الحق والباطل .. وعداوة بين الكفر والكفر وهو صراع النزوات والأهواء .. ولكن لا توجد عداوة بين الإيمان والإيمان .. لأن المؤمنين قد وحد الله هدفهم بمنهج واحد لا يشذون عنه وجمعهم على الهدى ، ولم يجعل فى أنفسهم صراعات الدنيا بنزواتها وأهوائها ..

وهكذا كان خطاب الله لآدم على ما سيحدث لآدم وذريته بعد الهبوط إلى الأرض ..

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

عندما نزل آدم إلى الأرض تلقى صيغة الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى من المعصية التى ارتكبها .. وظل آدم نادما على أنه عصى الله يردد كلمات التوبة ، وهى أول صلاة وتضرع لله من الإنسان على الأرض .. وهنا تاب الله على آدم .. أى غفر له خطيئته التى ارتكبها ، ولم تصبح هناك خطيئة تحملها البشرية على اكتافها إلى يوم القيامة .

لقد تمت التوبة وقبلها الله وبدأت صفحة جديدة من حياة آدم على

الأرض .. وهكذا لا يحمل كل منا على كتفيه خطيئة آدم كما يدعى البعض .. بل كل منا يحمل خطاياه وأعماله وحده .

ولقد ضرب الله فى القرآن عدة أمثلة لذلك .. واختار سبحانه وتعالى الأنبياء حتى لا يقول أحد لماذا ضرب الله بى مثلا ، فيحمل على كتفيه وزرا .. بل نقول جميعا مادام أن الله ضرب هذه الأمثلة بالأنبياء الذين هم قمة الإيمان .. فهى بالأولى تطبق علينا جميعا .

ضرب الله مثلا بالعم الذى يمثل منزلة الأب فى ابراهيم .. وبالابن فى نوح .. وبالزوجة فى لوط ونوح .. وبالزوج فى امرأة فرعون .

والأب والابن والزوج والزوجة هم أقرب الناس بعضهم إلى بعض .. ومع ذلك فكفر من هو فى منزلة الأب أو العم بالنسبة لإبراهيم لم يمس إيمان ابراهيم ومنزلته عند الله .. وكفر ابن نوح وامرأته لايمسان قدر نوح ومنزلته .. وكفر امرأة لوط لا يمس منزلة لوط .. وكفر فرعون لم يمس إيمان امرأة فرعون .. وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا أن أحدا لا يحمل يوم القيامة على كتفيه إلا أوزاره .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يافاطمة بنت محمد . أنا لا أغنى عنك من الله شيئا ، لا يأتينى الناس بأعمالهم يوم القيامة ، وتأتون أنتم بأنسابكم) .. وفى هذا إيضاح وتأكيد بأن التوبة على آدم قد محت معصيته فى التجربة الإيمانية التى مر بها .. وان البداية على الأرض بداية جديدة تماما .

حينما أمر الله سبحانه وتعالى آدم أن يهبط على الأرض حدد له طريق الإيمان .. وقال سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

(سورة البقرة)

وهكذا حدد الله المنهج لآدم وذريته فقال : ان الهدى سيأتى منى على نفس الأسس التى حدثت لآدم فى الجنة بافعل ولا تفعل .. سأقول لكم هذا حلال فافعلوه ، وهذا حرام فاجتنبوه .. وقد خلقتكم صالحين للطاعة وصالحين للمعصية .. وجعلت لكل منكم مقعدا فى الجنة ومقعدا فى النار .. فالذى يتبع هدى الله ويعمل بمنهجه يأخذ مقعده فى الجنة ويرى مقعده فى النار حتى يحس بالفوز العظيم الذى حصل عليه بالإيمان .. وكيف نجاه الله من عذاب رهيب .. والذى يعصى الله ويكفر به يتبوأ مقعده من النار .. ويريه الله مقعده فى الجنة ليعرف كم خسر .. وكيف أنه خسر خسرانا مبينا .

وهكذا أنبأ الله البشرية كلها من أول بدايتها بأنه ستكون هناك رسالات من السماء تحمل هدى الله إلى الإنسان .. وان هذه الرسالات ستأتى لتذكر الإنسان بالمنهج .. وتبين له العذاب الذى ينتظره على جريمة المعصية والكفر .. والرسالات تأتى عندما تنسى البشرية منهج الله ، وتحيد عنه ، وتنطلق فى هواها ونزواتها ويضلها الشيطان ويبعدها عن المنهج ..

ولقد اختار الله أولئك الذين يحملون منهجه إلى بنى آدم من البشر .. من ذرية آدم .. لماذا ؟ .. لأن الرسول فى حياته يمثل تطبيقا عمليا لمنهج الله .. ولذلك فهو لا يأتى بالمنهج من الله ليقول : افعل كذا

ولا تفعل كذا ، ثم يختفى بعد ذلك .. ومادام قد جاء بالنظرية فقد أنهى مهمته .. ومن يطبقها يطبقها ومن لايطبقها لا يطبقها .. ولكنه جاء بالمنهج وتطبيقه .. فهو يأتى بالمنهج ويطبقه على نفسه أولا ، ويكون قدوة لمن يتبعونه .. وهؤلاء ينقلون القدوة إلى من بعدهم وهكذا ..

ولكى يكون الرسول مطبقا للمنهج ، فلابد أن يكون بشرا .. ذلك لأنه لو كان ملكا أو فى مرتبة أعلى من البشر لقال الناس : لقد حملنا الله ما لا نطيق .. فهذا ملك له قدرات ليست لنا .. وهذا رسول له قدرات فوق قدراتنا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه جاء وطبق المنهج على نفسه فهذا دليل على أن هذا المنهج فى قدرة البشر ، ويستطيعون أن يطبقوه على أنفسهم ، لأن الرسول له نفسه قدراتهم .. فلا يقبل عذر لأحد بعد ذلك من أن يقول أن منهج الله فوق قدرات البشر .

ثم يوجه الله سبحانه وتعالى قوله للبشرية كلها محذرا من الشيطان ووسوسته ، مذكرا بالتجربة التى مر بها آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الله سبحانه وتعالى يذكر خلقه بأن العورة التى كشفها إبليس عندما أغرى آدم على المعصية وأوقعه فيها قد علم الله الإنسان كيف يرتدى لباسا ليسترها ويداريها .. بل أن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن أعطى الإنسان الرفاهية .. فلم يعطه الضرورى من الملبس ، بل أعطاه الريش أى الرفاهية .. وأعطاه فوق ذلك لباس

التقوى .. أى أن التقوى تستر عيوب الإنسان وتداريها .. وتظهر الطيب منه وتنميه .. فالإنسان الذى يلزم التقوى هو انسان مظهره طيب وخلقه طيب ، ولباسه طيب ، لأن الملبس الذى أمر به الله للرجل أو المرأة يغطى كل العورات ، ولا يظهر منها شيئا .. ويجعل مظهر الإنسان طيبا ومقبولا ..

والإنسان المؤمن إنما يحاول أن يجمح شهوات الإيذاء والإساءة والضرر للآخرين فى نفسه .. فكأن التقوى هى لباس يستر بها كل هذه العيوب التى تسىء إلى الناس ، وتجعلهم ينفرون منه .. والنفس التى تنشأ فى تقوى الله هى نفس طيبة .. تسعى دائما للخير وتصبر على المكاره .. وهى نفس محببة تساعد المحتاج وتنصر المظلوم وتحسن إلى الناس .. فالله سبحانه وتعالى صور التقوى على انها لباس لأنها تستر السيىء وتمنعه من الظهور .. وتجعله مختفيا .. وتتعامل بالقيم ولاتقدم على ما يعيب .

ويقول الله ان ذلك خير .. أى أن الإنسان المؤمن أو الجماعة المؤمنة هى للخير للبشرية كلها .. تنشر الخير أينما وجدت .. وتمنع الشر كلما استطاعت .. وذلك من آيات الله سبحانه وتعالى أن جعل الإيمان بهذه الصورة الجميلة ليتذكر الناس كيف أن الإيمان ينشر الخير .. وينشىء المجتمع المستقر المنسجم مع نفسه ومع الكون كله .. فإذا تذكر الناس ذلك انضموا إلى مواكب الإيمان التى فيها صلاح البشرية كلها ..

ويوجه الله سبحانه وتعالى تحذيره إلى البشرية كلها بقوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ

﴿لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾

(سورة الأعراف)

يوجه الله تحذيره للبشرية كلها ، لأن الشيطان الذى أمهله الله إلى يوم القيامة سيواصل عداوته للإنسان .. وسيحاول ان يخرجه من الجنة كما أخرج أبويه آدم وحواء .. وسيتم ذلك بطريق الفتنة والإغواء .

يريد الله أن يلفتنا إلى أن الشيطان سيحاول أن يفتننا بالزيف عن الحقيقة .. كيف ذلك ؟ ان منهج الله يوجهنا إلى النفع الحقيقى فى الحياة الدنيا والآخرة .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك للأذهان .. هب أننى أملك مزرعة للقمح جاءت بمحصول عشرة أرادب .. أنا أولا أبقى من هذه الأرادب العشرة أردبين لأزرعهما فى الموسم القادم .. ثم اتصرف فى الباقى .. ما أبقيته هذا أنقصته من انتفاعى العاجل به .. فقد كنت أستطيع أن أبيعه وأستفيد بثمنه .. وكنت أستطيع أن آكله وأستفيد منه .. ولكن لو فعلت ذلك أكون قد فعلت الصواب أو الخطأ .. لو أننى بعت الأردبين أو أكلتهما أكون قد فعلت الخطأ رغم أننى حققت نفعا عاجلا .. ذلك أنه سيأتى الموسم القادم وليس لدى بذرة ، ويضيع كل شىء وبذلك لا أجد ما آكله ولا ما أبيعه وأجد نفسى فى ضيق .

والإنسان يريد النفع لنفسه .. وكل انسان يريد النفع لنفسه .. ولكن هناك من يتعجل النفع .. مثل ذلك الذى باع بذرة الموسم الزراعى القادم أو أكلها .. وهناك من يعرف أين النفع مثل ذلك الذى أبقى هذه البذرة .. وكلنا يقينا نعرف أن هذه الحياة ستنتهى .. ولم يخلد انسان واحد حتى الأنبياء .. لم يفلت انسان واحد من الموت .. والله سبحانه

وتعالى قدوعدنا بأن يمتعنا فى الآخرة التى هى دار الخلود .. وسيكون التمتع فيها على قدرة الله سبحانه وتعالى .. أى فوق قدرة البشر مجتمعين .. ولقد كنت فى شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وأراد بعض الناس أن يبهرونى .. فانزلونى فى أحدث الفنادق التى تتم فيها الخدمة بالعقول الالكترونية والتى تفنن المهندسون فى وضع لمسات الجمال والمتعة والرفاهية فيها .. وقالوا ما رأيك فى هذا التقدم ؟ ..

قلت : إذا كانت هذه الرفاهية والمتعة قد استطاع الإنسان أن يوفرها للإنسان بعلمه المحدود .. فكيف المتعة فى الآخرة التى يوفرها الله بعلمه وقدرته التى هى بلا حدود لعبده المؤمن .. ولذلك فإننا يجب أن نعتبر أن الحياة الدنيا وما يضع الإيمان فيها من قيود على هوى النفس هى مقدمات للجنة .. وما يعطى فيها من نعيم على حسب قدرات الله .

والعجيب أننا نرى الأب يلاحق ابنه سنوات طويلة يسهر ويتعب ويشقى فى المذاكرة ، ويظل يلاحقه ليل نهار فإذا سألته لماذا يفعل ذلك قال لأضمن مستقبله .. ومع ذلك فإنه لا يطلب منه مرة واحدة بأن يصلى .. ولا يعاتبه على تركه الصلاة .. بينما التعب فى المذاكرة مبنى على ظن ، فقد يأتى للتلميذ أجله قبل أن يحصل على شهادته .. وقد يحصل على الشهادة ، ثم يخيب فى الحياة الدنيا ولا يحصل شيئا ، فى حين أن الإيمان جزاؤه مضمون لأنه فى الآخرة .. ولا أحد لا يصل إلى الآخرة .. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى فى كل قوانينه ان تقدم العمل أولا ، ثم بعد ذلك تحصل على الثمرة .. فالتلميذ لابد أن يتعلم ليحصل على الشهادة .. والصانع يشقى ويتعب ليأخذ الأجر .. ولكننا نرفض أن نتعامل مع الله بنفس القوانين التى نتعامل بها فى الدنيا ، فلا نقدم

العمل الصالح حتى ندخل الجنة ..

ولذلك فإن مهمة الشيطان فى إفساد منهج الله أن يفتنك بالعاجل عن القادم .. فأنت تريد مالا لمتاع فى الدنيا ، وتنسى وأنت تسرق هذاالمال أنك تضيع المتاع الأكبر فى الآخرة وأنت لك شهوات فى الدنيا ، وتنسى أنك إذ راعيت الله فيها أعطاها لك أكثر فى الآخرة ..

ومهمة الشيطان هى أن يجعلك تستغنى بالشىء العاجل الذى له نفع ظاهرى عن النعيم الحقيقى الذى أعده الله لك .. فأنت مهما ملكت فى الدنيا فأجلك محدود وقدرة تمتعك محدودة .. فإذا نهكتها أتتك بعكس النتيجة .. فالذى يسرف فى الطعام يمرض ويحرمه الأطباء من الأكل .. والذى يسرف فى الشهوات يضعف وينهار ويحرم منها .. والذى يسرف فى السهر فى معصية الله .. يأتى عليه الوقت الذى لابد أن يختار بين أن ينام مبكراً أو ينام فى فراشه لا يقدر على الحركة .. ولكن قصر نظر الإنسان يجعله لا يقدر هذا كله .

ولذلك يحذرنا الله من هذه الفتنة .. فالشيطان من مهامه فى الحياة أن يدخل الخوف إلى النفس البشرية فيجعلها تعبده .. والإيمان مهمته ان يدخل الشجاعة والطمأنية إلى النفس البشرية ، ويجعلها تعبد الله .. وإذا جاءت قضية حق ضد صاحب نفوذ حاول الشيطان أن يدخل الخوف إلى نفسك ، ويقول لك : إياك أن تقول كلمة الحق .. أكذب ونافق واشهد الزور ، لأنك إذا قلت الحق فإن صاحب النفوذ هذا سيضرك ويقضى عليك ، فى حين أن الإيمان يقول لك : قل كلمة الحق ترضى الله والله يحفظك فهو أكبر وأقوى من كل صاحب نفوذ .. ولذلك إذا دخل الخوف من زوال الدنيا فى نفسك دخل معه الشيطان فأخذك بعيدا عن منهج الإيمان .. وبدلا من أن يكون لك إله واحد وهو الله .. أصبح لك

آلهة متعددة فأنت تريد أن ترضى هذا .. وترضى هذا .. وترضى هذا كذبا وزورا .. وفى النهاية تجد أنك خسرت الدنيا والآخرة .. وذلك هو الخسران المبين .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من فتنة الشيطان . إنه يريد أن يخرجنا من جنة الإيمان فى الدنيا .. وما هى جنة الإيمان فى الدنيا ؟ هى الانسجام مع الكون وعبادة الله وحده .. فالذى يعبد الله يعيش عيشة راضية داخل نفسه .

انظر إلى أى انسان يفعل امرأ حلالا .. انه يقف أمام الدنيا كلها ويفعله .. ضميره مستريح تملأ الراحة نفسه .. وانظر إلى انسان يرتكب إثما تجده يتلفت حوله ، ويحرص على ألا يراه أحد .. ويخاف إذا طرق طارق الباب .. إذا كنت أنت وزوجتك فى المنزل وجاءت الدنيا كلها فأنت تستقبلها بنفس مستريحة .. إذا كنت أنت وامرأة أخرى زوجة غيرك مثلا وطرق الباب .. ماذا سيحدث لك ؟ إذا كنت تمسك فى يدك بمال حلال وعرف الناس لا يهمك شيء .. إذا كان ان المال حراما تحاول أن تخفيه ، وتنفقه سرا ، وتشقى فى اخفائه حتى لا يسألك أحد من أين جئت بهذا المال ، فتضعه باسم ابنك ، أو باسم زوجتك ، أو باسم صديق لك .. وقد يأخذه ويبدده فلا تستطيع أن تفعل شيئا ..

إذن فالمؤمن يعيش فى جنة الإيمان ، لأن ما يفعله كله حلال ، وهو لا يتعرض لفضيحة أبدا مادام يتبع منهج الله.والذى يتبع الشيطان يعيش فى شقاء الخوف من أن ينكشف أمره ، أو تظهر سوءاته للناس فيعرف الناس الحقيقة ، وحينئذ تكون عوراته قد انكشفت.فليست العورة فى الجسد فقط ولكنها فى الخلق وفى التصرفات وفى كل عمل لا يرضى الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة الأعراف آية ٢٧)

أى أن الشيطان فى عداوته الرهيبة للإنسان يتتبع كل خطواته وهو يرى الإنسان .. يراه حين يسرق بعد أن زين له السرقة .. ويراه حين يزنى بعد أن زين له المعصية .. وهو بذلك يعلم عن الإنسان أفعاله .. ويستطيع أن يستخدمها فى الإيقاع بين البشر بعضهم البعض وإثارة الفتن بينهم والعداوة والبغضاء .. ولذلك لا تجعلوا للشيطان سلطانا عليكم بارتكابكم المعاصى ، لأن الإنسان المؤمن ليس للشيطان سلطان عليه .. وكل ما يفعله لا يشين .. وكل ما يقوم به لا يحرص على إخفائه .. ولذلك لا يجد الشيطان وسيلة للإيقاع بينه وبين الناس إلا أن يسلط عليه شياطين الإنس فيؤذوه ويتهموه بالباطل .. وفى تلك الحالة يأتى الاتهام بعكس النتيجة لأن الباطل لا يقف أمام الحق ..

والله سبحانه وتعالى قد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. أى أن كل من استغنى عن الإيمان استغنى الله عنه .. والله كما قلنا ليس محتاجا لأحد من عباده .. ومتى ابتعد الإنسان عن الله فإن الشيطان يصبح وليه الذى يوحى له بما يفعل ..

وهكذا يضيع هذا الإنسان لأنه ملك عدوه منه .. وأنت إذا ملكك عدوك هلكت .. وعداوة الشيطان للإنسان مريرة .. فهو يريد أن يكون مصير كل بنى آدم النار .. حتى لا يلقى هو وذريته وحده فى جهنم ويتميز بنو آدم بالنعيم ..

ونزل آدم الى الأرض

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الكتاب . الذى حاولت أن أبين فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى حين أعد آدم لمهمته فى الحياة كرمه غاية التكريم ، وفضله على كثير من خلقه . وسخر له مافى الأرض وما فى السموات .. وبين له عداوة الشيطان . وكيف أنه لا يأتى منه إلا السوء والشر .. وأمام هذا البيان الشامل المعجز من الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل .. وصدق الله العظيم إذ قال :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٩ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0182 – 8

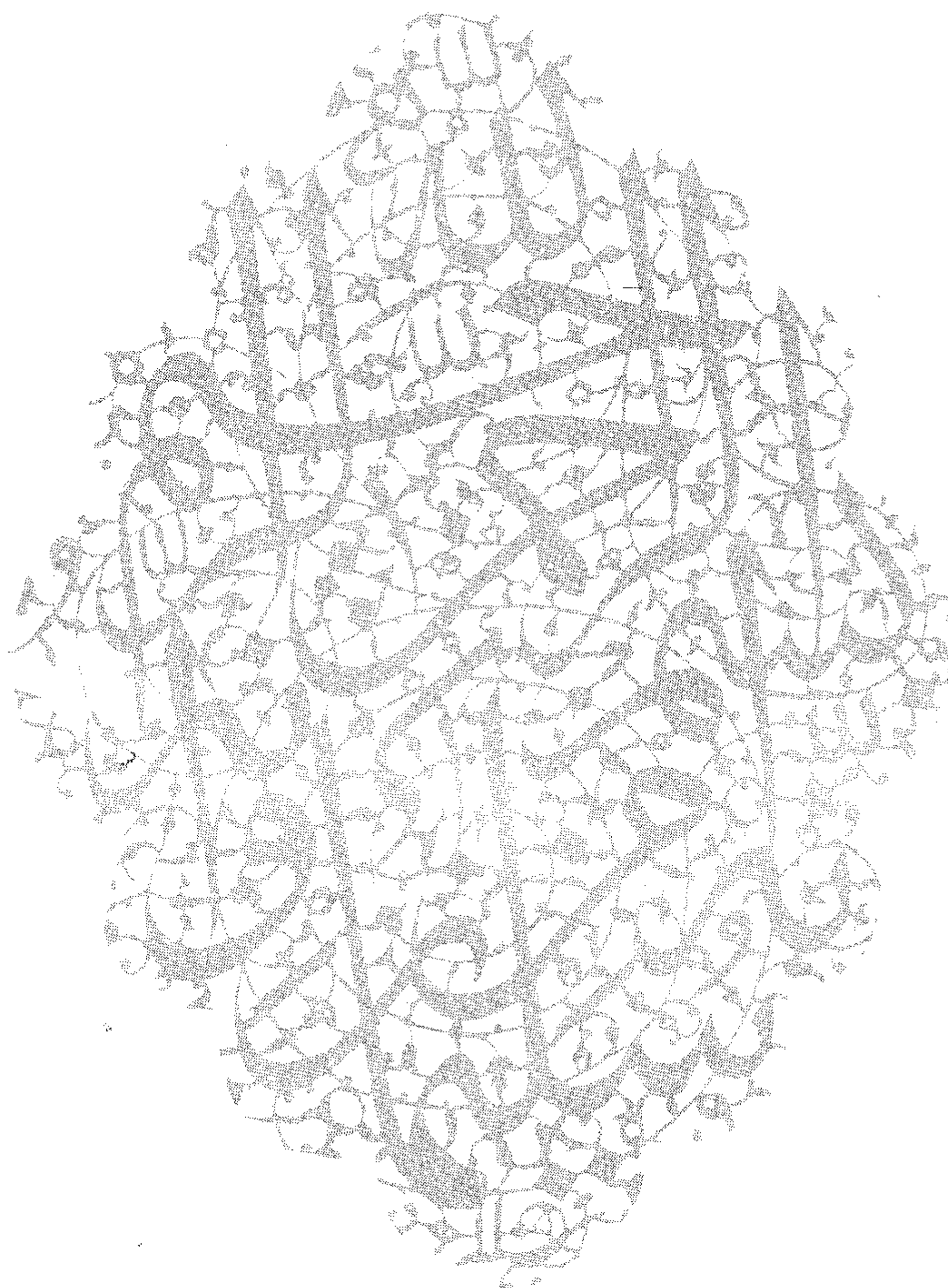
٩

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات



الفصل الأول

معنى القيامة

موضوع هذا الكتاب والكتب القادمة من (معجزة القرآن) سيكون عن يوم القيامة .. وقد يتساءل القارىء : لماذا اخترنا بالذات موضوع يوم القيامة ، مع انه يدخل فى عالم الغيب .. نقول : إن الأساس فى الايمان هو الايمان بالآخرة .. وبأن هناك حسابا .. وبأن الله سبحانه وتعالى سيستدعينا يوم القيامة ليحاسبنا عما فعلناه فى الدنيا .. والدنيا هى دار الاختبار .. والآخرة هى موعد الجزاء .. والذين يوقنون إنهم سيلاقون الله يوم القيامة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ذلك لأن كلا منا سيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب ، وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم ، ويرتكبون المحرمات .. ويعتدون على الحرمات .. ويأخذون المال الحرام .. ناسين أو متناسين أن هناك يوما قادما رهيبا يجعل الولدان شيبا .

ولعل هذا الكتاب ، والكتب القادمة ، تكون تذكرة لهؤلاء .. ولعلهم إذا قرأوه استيقظت الضمائر ، وأحسن الناس بهول ما يفعلون .

هذه مقدمة قصيرة كان لابد منها لايضاح الهدف الذى نسعى إليه .. ذلك أن أمور الغيب دائما هى الباب الذى يدخل منه الشيطان ، سواء كان من شياطين الانس ، أو من شياطين الجن .. يدخل منه إلى النفوس الضعيفة .. لماذا ؟ لأننا لا نرى الغيب . ومادمنا لا نراه فهو محجوب عنا .. ذلك أن الايمان أساسا هو إيمان

بالغيب . . أو إيمان بما هو غيب . . ذلك أنك إذا رأيت شيئا فلا تقول إنك تؤمن به . . لأنك تراه رأى العين . . رؤية يقين . . والايمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات . . ولكنه مطلوب فى الغيب . . فيما هو غيب عنا .

ولقد أوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الايمان فى بداية كتابه الكريم وفى أول سورة البقرة . . إذ يقول تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾

إذن فالايمان بالغيب واليقين واليوم الآخر هما من أهم علامات الايمان . . ذلك أن اليقين بالآخرة قضية هامة جدا ، تحكم السلوك الانسانى فى الدنيا ، وتردع كل من تسول له نفسه أن يغتر بسلطان أو بقوة أو بنفوذ . . فيطلق لنفسه شهواتها ، ويعتدى على حقوق الناس . . دون أن يكون هناك وازع . . ولكنه إذا عرف يقينا أنه سيقف بين يدى الله ، فإن ذلك سيكون رادعا قويا لشهوات نفسه ولظلم غيره . . فأنت تخشى الله سبحانه وتعالى إذا كنت تؤمن

بالآخرة .. فإذا مددت يدك لتسرق فتذكر أنك ملاق الله ، وأنه سيحاسبك فتمتنع عن السرقة ، وإذا أردت أن تأكل حقوق الناس بالباطل ، وتذكرت أنك ستلاقى الله ارتعدت نفسك وابتعدت عن ظلم الناس ، وأكل حقوقهم .

وهكذا كل شيء فى الدنيا مادمت على يقين بأنك ستلاقى الله يوم القيامة . فإنك تتبع السلوك الايمانى . خوفا من عذاب الله .. وطمعا فى رضاه وجنته .

عين اليقين

هناك علم يقين .. وعين يقين .. العلم الذى تأخذه عن الله سبحانه وتعالى لابد أن يكون علم يقين .. لأنه صادر عن الله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال .. فالمؤمن يوقن أن ذلك سيحدث حتما . وكأنه يراه أمامه .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة التكاثر ..

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

فإذا كانت عين اليقين هى المشاهدة كما سيحدث فى الآخرة عندما نرى جهنم . . فإنه لابد أن يكون فى قلوبنا علم اليقين . . لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قد قال فهى موجودة كأننا نراها .

وأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو الايمان باليوم الآخر . . فإذا لم يكن إيمانك بهذا اليوم إيمان يقين ، أى لا يدخل إليه الشك أبدا . . تكون قد اهتززت ، ويستطيع هنا أى شيطان أن يدخل إلى قلبك ليوهمك أن كل حديث عن الغيب هو غير صحيح ، أو غير واقع ، وحينئذ يتغير السلوك الايمانى كله .

فمادام ليس هناك حساب فمن تخشى ؟ . . وممن تخاف ؟ . . ومن الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه إلا إيمانك بالآخرة والحساب . . ومن الذى يوقفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل ، وتبغى فى الأرض ، وتغرك قوتك . . من الذى يقول لك : قف مكانك . . هو الايمان بالآخرة ، لأنك فى هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك . . وانك إذا كنت قويا جبارا فى الأرض فستكون ضعيفا ذليلا فى الآخرة ، لا ناصر لك ، ولا معين أمام الله .

إذن لولا الايمان بالآخرة لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش . . الضعيف يفتك بالقوى . . ويعتدى القادر على غير القادر . . يضيع الحق . . والعجيب أن المؤمن والكافر يخشيان حساب الآخرة . . ولعل التساؤل يكون كيف لإنسان لا يؤمن

بالآخرة أن يخشاها . .

الكافر حقيقة لا يؤمن بالآخرة . . ولكن الموت الذى يراه كل يوم فى حياة غيره يملأ حياته هو بالرعب والفزع ، وينغص عليه عيشته ، وهو يرى الموت كل يوم فى حياة ألوف غيره . . بل فى حياة أقرب الناس إليه ، والسؤال يلح عليه دائما : إلى أين ؟ . . إلى أين ؟ يحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل ولو زيفا . . ولو تضليلا . . يحاول أن يقنع نفسه أن لا شىء بعد الموت ، حتى يستطيع بهذه الفرية أن يهون على نفسه ارتكاب المعاصى . . وهو يبرر لنفسه دائما ما يفعله . . السارق يقنع نفسه بأنه يأخذ حقه من المجتمع بيده . . والمعتدى على حقوق الآخرين يبرر ذلك بأن هذا هو حقه . . والمهم أن الايمان الفطرى فى كل نفس يؤرق صاحبها ، ويحاول أن يجد تبريرا لكل المعاصى التى يرتكبها . . ما من حاكم ظالم إلا أقنع نفسه بأنه مصلح اجتماعى . . وما من آخذ للمال الحرام إلا زين لنفسه أن هذا جهده وماله .

منهج الحياة

نبدأ بعد ذلك فى بيان منهج الحياة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أعد هذا المنهج لاسعاد البشر فى الأرض . . وكيف أن البشر أفسدوه بأهوائهم ومخاوفهم ممن هم دون الله . . الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال قدرته وحده . . فلا أحد يستطيع أن يقول أو يدعى مهما بلغ من القدرة والقوة انه شارك الله سبحانه تنزه وتعالى فى

الخلق . . فقضية الخلق بالنسبة لله وحده هى قضية محسومة لا جدال فيها . . فالله خلق السموات والأرض والجبال والبحار والأنهار والزرع والنبات والحيوان والانسان والجن والملائكة . . والله أخبرنا أنه هو الذى خلق ولم يستطع ولن يستطيع أى ممن خلق الله أن يدعى أنه خلق هذا الكون . . ومن هنا فالقضية محسومة لله سبحانه وتعالى وحده .

وسخر الله سبحانه وتعالى كل ما فى الكون لخدمة الانسان . . فالشمس تشرق لتحفظ الحياة فى الكون . . وهى أقوى من الانسان ملايين المرات . . ولو اقتربت من الكون بضعة كيلو مترات لاحترق الكون كله . . ولو ابتعدت عن الكون بضعة كيلو مترات لتجمد الكون كله . . ولكنها مسخرة من الله سبحانه وتعالى لتخدم الانسان . . والرياح تعطى الانسان الهواء اللازم لحياته . . ولو ذهبت ما بقيت الحياة . . ولو استخدمت قوتها لدمرت الكون كله . . كذلك البحار تستطيع أن تغرق الأرض فى ثوان معدودة . ولكنها مسخرة لخدمة الانسان .

إذن كل قوى الكون ، بما فيها من جماد ونبات وحيوان ، مسخرة لخدمة الانسان . . وهذا التسخير ليس ذاتيا . . لأن الشمس لا تستطيع أن تقول أنا سأشرق اليوم واحتجب غدا . . لأنها مسخرة بأمر ربها لا تملك الاختيار .

ارتقاء الأجناس

كل جنس من أجناس الكون هو مخلوق من الله سبحانه وتعالى بذاتية معينة وقوانين محددة . وفيه إرتقاءات . . ولكن لا يستطيع أى جنس أن يرتقي إلى صفات الجنس الآخر . . وإنما يقف عند حدود هذه الصفات . . فالجماد آخر إرتقاءاته هو النمو . وهذه أولى خصائص النبات . . فنجد الشعب المرجانية لها خاصية النمو ، ولكنها تقف عند ذلك . . ولا تصل إلى خاصية التنفس مثلا الموجودة فى النبات . . فالنبات له خاصية النمو والتنفس وإعطاء الثمار . . ويصل إلى أول مرتبة من مراتب الحيوان وهى الحس . . فتجد عددا من النباتات إذا لمستها انفعلت لك ـ كالست المستحية ـ كما يطلقون عليها إذا لمستها ضمت أوراقها . . وبعض النباتات النادرة فى الغابات الاستوائية إذا لمسها الانسان أمسكت به ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى إلى خاصية الحيوان . . وهى الحركة التى هى أولى مراتب الحيوان . . والحيوان يملك الحركة والحس ، وله خواصه .

وأعلى مراتب الحيوان هى القردة . أولئك أقرب الأجناس الحيوانية إلى الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى مرتبة العقل . . فلم نسمع عن مجموعة من القردة عقدت اجتماعا لتبحث كيف ترتقى بحياتها . . ولم نسمع عن أى نوع من الحيوان يستطيع أن يرث الحضارة عن بنى جنسه ويرتقى بها ليضع التقدم فى حياته . . قد يستطيع الانسان أن يدرب حيوانا على عدد من الأعمال ، ولكن هذا

تدريب فردى بموهبة الانسان . . فلا يستطيع قرد مدرب أن يدرب ابنه ، ولا يولد قرد مدرب يرث صفات أبيه التى اكتسبها بالتدريب .

والانسان هو خليفة الله فى الأرض . أعطاه العقل ليميز بين الأشياء ويرث الحضارات . . ويبدأ كل جيل بما انتهى إليه الجيل الذى قبله ويضيف إليه ، والعقل البشرى يستطيع أن يرث الحضارة ويبدأ من حيث انتهى الذين سبقوه ، ويضيف إليها . . وهذه ميزة الانسان وحده .

والله سبحانه وتعالى خلق الانسان ، وسخر له هذا الكون كله ، وجعل فى الكون آيات بينات يستطيع العقل البشرى أن يصل إليها بسهولة . . فكل ما فى الكون من خلق واعجاز هو آية من آيات الله تلفتنا إلى عظمة الخالق وقدرته . . ونحن حين نتدبر هذا الكون بنظامه الدقيق الذى لا يختل ثانية واحدة . . وبعظمة الخلق فيه . . وبالنعم التى تملؤه ، نجد اننا نصل إلى حقيقة هامة . . وهى انه لابد أن يكون لهذا الكون خالق . . قوة هائلة خارقة معجزة هى التى صنعت لنا كل هذا . . فنحن لم نصنعه لأنفسنا .

الجسد .. والارادة

حين نتدبر فى خلقنا . . وفى الجسد البشرى الذى تعمل معظم أعضائه بدون إرادتنا وبدون سيطرتنا عليها . . وبدون حتى إحساسنا

بعملها . . نحس أنه لابد أنها تعمل بإرادة خالقنا . . فالقلب يدق ، ونحن لا ندرى به ، وهو غير خاضع لنا . . فالقلب ينبض بدون إرادتنا وبدون أن نحس به ، ولا نستطيع أن نقول له : توقف عن النبض فيتوقف . . ولا أن نعطيه ساعات لا ينبض فيها ليستريح . . والرئتان تقومان بعملهما فى تنقية الدم ، واخراج الهواء الفاسد ، واستقبال الهواء النقى ، ونحن لا ندرى عن هذا شيئا ، ولا نستطيع أن نصدر أمرا إلى الهواء بألا يدخل ، أو إلى الرئتين لتتوقفا عن العمل ، بل اننا حينما نصل إلى المعلومات الدقيقة عما يحدث فى الرئتين نذهل مما يحدث فى أجسادنا ، ونحن لا ندرى . . وكذلك المعدة والكبد والأمعاء . . كلها تؤدى وظائفها بدون تدخل منا ، أو خضوع لارادتنا .

والحواس عندنا تقول لنا : هذا حلو المذاق ، وهذا مر . . وهذا بارد ، وهذا حار ، وتؤدى ملايين المهمات بدون أن نعرف عنها شيئا ، وان كنا نستفيد بها .

بل إن الأشياء الظاهرة التى تخضع لقدراتنا هى مسخرة لخدمتنا من الله سبحانه وتعالى . . فالقدم تمشى بأمر صاحبها ظاهريا . . ولكنها فى الحقيقة تتحرك بأمر الله . . ولو كان تحركها من ذاتنا ما وجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشى ، لأنه مشلول ، والعين تبصر بأمر الله ، وان كانت تخضع لنا ظاهريا . . ولو كانت تبصر بقوة ذاتية منا ما وجد من له عينان ولا يبصر . . وكذلك كل الحواس الأخرى .

إذن فنحن نستخدم عقولنا لتوصلنا إلى أن لهذا الكون ولنا خالقا أوجد كل هذه النعم وأوجدنا . . ولكن هذه العقول لا تقول لنا شيئا عن الخالق . . ولا ماهو اسمه . . ولا ماذا نفعل لنشكره على نعمه علينا . . ولا ما هى مراداته منا . . ومن هنا كان لابد ، لكى يكتمل المنهج ، أن يرسل الله سبحانه وتعالى الرسل ليبينوا لنا ماذا يريد الله منا . . وكيف نشكره على نعمه . . ولذلك جاءت الرسل مبلغة عن الله لتقول لنا : إن خالق هذا الكون هو الله . . وانه قد أعد لنا جنة عرضها السموات والأرض ، ينعم فيها من أطاعه . . ونارا يعذب فيها من عصاه . . وان الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للانسان فى الحياة . . وهذا هو المنهج .

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ، رحمة بنا ، ليضع لنا المنهج ، ثم يتركنا لنطبقه كل حسبما يرى . . ونفسره كل على قدر اجتهاداته . ولذلك اختار رسله من البشر . . من جنسنا حتى لا نقول : يارب إن هذا المنهج يعجز عنه البشر . . فلو أن الله أرسل ملكا رسولا ، أو خلقنا من غير جنس الانسان ، لقلنا : يارب لا نستطيع لأن هذا الرسول ليس من جنسنا . . إنه يملك قدرات أكبر . . ولكن كون الرسول بشرا أعطانا التطبيق العملى لمنهج الله بقدرة البشر . . تطبيق الرسالة محروس بمنهج السماء . . يرينا كيف يريد الله سبحانه وتعالى أن يطبق منهجه فى الأرض ، وحتى يكون التطبيق أمامنا عمليا .

ولقد أوكل الله سبحانه وتعالى للانسان أن يحافظ على المنهج . . ولكن الناس حرفوا منهج الله . . فأدخلوا فيه أشياء لم يطلبها ، ولكنها

تخدم أهواءهم البشرية ، وحرفوه وأضافوا إليه . . لذلك جاء القرآن الكريم ، منهج الله وخاتم الرسالات ، ليكون محفوظا بقدرة الله ، لا بقدرات البشر . . فلا يدخل إلى القرآن تغيير وتبديل بشرى . . ولا ينسى منه حرف ، ولا يضاف إليه حرف . . بل يبقى خالدا إلى يوم القيامة .

معنى منهج الله

ماذا آراد الله سبحانه وتعالى بالمنهج ؟ . . أراد أن يحكم به أهواء النفس . . فكل ماليس فيه هوى بشرى تركه الله سبحانه وتعالى ليستنبطه الانسان من الكون بدون أن يتدخل فيه منهج الله بافعل ولا تفعل . . فالعلوم الصماء التى مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية . . فهذه لا خلاف عليها بين البشر . . فعلوم الكيمياء مثلا أو الطبيعة أو الفلك أو غيرها . . نجد العالم كله فيها يتعاون مع بعضه البعض . . بل ان كل دولة تحاول أن تتجسس على الدولة المتقدمة فى العلوم لتأخذ منها . . والجميع يتنافس فى الوصول إلى أكبر درجات العلم المادى . . وهنا لا تتدخل الأهواء ، لأنه مادامت التجارب معملية ، فإن الأهواء لا يمكن أن تتدخل فيها .

ولكن هناك أمور الحياة ، والتى يتدخل فيها هوى النفس . . فبينما

مثلا نرى أمريكا والاتحاد السوفيتي يتسابقان إلى نقل العلوم عن بعضهما البعض . . نجد أننا إذا وصلنا إلى نظريات الحكم . . فكل دولة منهما تحاول أن تمنع نظريات الدولة الأخرى من الوصول إليها . . فأمريكا إذا وجدت فكرا شيوعيا قاومته . . ووضعت من يعتنقونه فى السجون ، وربما حكمت عليهم بالموت . . والاتحاد السوفيتى إذا وجد من يدعو إلى النظام الرأسمالى شنقه ! . . وهكذا نجد أن الصراع فى الدنيا ليس على الحقائق العلمية . . فكل دولة تعطى علماءها الحرية كاملة مهما كانوا ليسعوا لكشف آيات الله فى الكون . . ولكن عندما يدخل هوى النفس ، يبدأ الصراع البشرى حتى بين أبناء الوطن الواحد . . وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة وتقوم الحروب الأهلية ، ويقتل الناس بعضهم البعض ، ويحدث الفساد فى الأرض من قتل وتخريب وتدمير . . وكم من صراعات تدور الآن فى دول العالم كله بين أهواء الانسان . . وكم من حروب أهلية تشتعل بين اليسار واليمين . وبين الشيوعية والرأسمالية . . وبين الأهواء التى يريد كل انسان أن يحققها ليسود ويحكم . . كل هذه الصراعات التى تدمر ولا تعمر . . والتى تريد أن تحقق نفعا ذاتيا لعدد من الأشخاص على حساب غيرهم ، هى آفة الشقاء فى الدنيا .

ولذلك جاء منهج الله . . يحمى الحق . . ويعطى كل انسان حقوقه بلا تمييز . . الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يضع منهجا عادلا بين خلقه جميعا . . فهو خالقهم ، وهم جميعا عبيد له . . وهو سبحانه وتعالى لا يحابى أحدا على أحد . . ولا يميز شخصا

على شخص .. لأنهم جميعا أمامه خلق متساوون .. وهو لا يطمع فيما فى أيدى أى منهم .. فهو لا يطمع فى مال أحد ، لأنه لا يحتاج إلى المال .. ولا يطمع فى قوة أحد ، لأنه هو القوى العزيز .. ولا يطمع فيما يملكه أحد ، لأنه هو خالق هذا الكون ، وموجد كل هذه النعم .. يعطيها لمن يشاء ، وينزعها ممن يشاء .. والانسان حين يضع منهجا إنما يضعه لخدمة مصالحه .. الرأسمالى يضع المنهج الذى يخدم حقوق أصحاب الأموال ، ويعطيهم وحدهم الميزات .. والشيوعى يضع ما يخدم اللجنة المركزية ، ويعطيها كل السلطات .. والدكتاتور يضع منهجا يعطيه وحده كل الحقوق ولا حق لغيره .. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع المنهج الذى يحقق العدالة بين الناس جميعا ، لأنه غنى عن كل خلقه .

إذن فمنهج السماء هو الذى يحقق العدل على الأرض .. ولا شىء غيره .. وكل ما يقال عن فصل الدين عن الدولة .. أو فصل الدين عن نشاطات الحياة مرفوض .. لأن كل هذه النشاطات ، بما فيها الحكم ، تدخل فيها الأهواء .. ويظلم فيها الناس .. وتحدث منها الصراعات .. ولذلك فإنه لابد أن يحكمها قانون إلهى هو فوق هذه الصراعات كلها .. يحمى حق الضعيف قبل القوى .. ويحفظ حق المظلوم قبل الظالم .. ويضع قواعد العدل بين الناس .

وحتى لا تقتل الصراعات البشر على مطامع الدنيا وأهوائها .. بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الحياة الدنيا هى حياة مؤقتة . مهما طال

فيها العمر فإنه قصير . . ومهما امتدت فيها الأيام فإنه لابد لها من نهاية . . وطلب منا الله ألا نجعل هوى النفس ، وشهوة النفوذ ، وسلطان المال . . وحب التملك يقضى علينا . . ويهلك الناس ، ويهلك الزرع ، ويهلك الخير . . يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنفال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

الأنفال (٢٤)

وهنا قد يتساءل بعض الناس عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ والرسول يدعو للآخرة وللجنة ، فهل هذه الدنيا ليست هى الحياة . . نقول إن الله سبحانه وتعالى يريد للانسان الحياة الخالدة فى جنة النعيم ولا يريده أن يتخذ من الدنيا هدفا . . لأن الحياة الدنيا تقوم على الأسباب ، ولذلك يعانى فيها الانسان . . فى حين أن الحياة الآخرة نعيم مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب . . والحياة الدنيا قصيرة وزائلة ، وهى امتحان للانسان واختبار لطاعته لله سبحانه وتعالى . . لذلك لا يريد الله سبحانه وتعالى من خلقه أن يكون هدفهم هو الحياة الدنيا . . وأن ينسوا الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن كل ما فى الدنيا زائل . . وأن الانسان مهما علا فيها ومهما بلغ ، فهو إما أن تزول عنه النعمة . . تنزع منه . . وإما أن يزول هو عن النعمة بالموت . .

ولذلك فإن الحياة الحقيقة التى فيها الخلود . . والتى فيها النعيم الدائم هى الحياة الآخرة التى لابد أن نلتفت إليها . . لأنها هى الحياة الحقيقية التى لا تزول . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

العنكبوت (٦٤)

ولذلك يريد الله أن يلفتنا إلى حياتنا الحقيقة ، وليس إلى الحياة المؤقتة التى نعيشها فى الدنيا . . فإذا طبقنا منهج الله فى الدنيا ، حصلنا على الحياة المليئة بنعم الله فى الآخرة .

وليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نترك الحياة الدنيا للكافرين . . إن هذا خطأ كبير يقع فيه عدد من الناس . . والذى حدث فى الفترة الأخيرة أن المسلمين تركوا الأخذ بأسباب الدنيا ، والعمل على اكتشاف آيات الله فى الأرض ، وركنوا إلى عدم العمل ، وإلى خلافات ونزاعات لا تفيد ولا تجدى . . وأقصى أمنية للكافر أن يترك المؤمنون شئون الدنيا والعمل فيها ويقتصروا على العبادات فقط . . وتزول عنهم قوتهم ولا تعطيهم الأسباب ، ويصبحوا فقراء اذلاء ضعفاء لا يقدرون على حماية أنفسهم ، ولا يحققون من القوة والقدرة ما يجعلهم يسودون الأرض .

وإذا فعلنا ذلك . . فإننا تكون قد أخطأنا فى فهم الاسلام . . ذلك أن الاسلام يسيطر على حركة الحياة كلها فى البيت والمصنع

والطريق والعمل .. وتأملوا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الجمعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الجمعة (٩ - ١٠)

ويلاحظ فى هذه الآية أن الأمر بالسعى فى الأرض مساو تماما للأوامر بالعبادة .. فلا يترك المسلمون السعى ويدعون أن الله قد أمر بالعبادة فقط .. فمنهج الاسلام يطالبنا أن نأخذ بالأسباب ، وتجتهد فى العمل ، ونسعى فى الأرض بنفس القوة التى نأخذ بها العبادات .

ولقد جاء التشكيك فى الدين الاسلامى فى الفترة الأخيرة من أن المسلمين تركوا السعى فى الأرض فتأخروا وتخلفوا .. ثم بدأوا بعد ذلك يتساءلون : ما هو السبب .. وهنا برز دور الكفار فى محاولة لاقناع الشباب المسلم بأن سبب تخلفهم يكمن فى الدين الاسلامى وبدأ بعض الشباب يستمعون إليهم .

ولقد ساد الاسلام الأرض ألف سنة كانت فيها الأمة الاسلامية هى منارة التقدم والعلم والحضارة .. حتى حينما أهدى هارون

الرشيد ساعة تعمل بالمياه إلى ملك فرنسا .. أعتقد علماء فرنسا أن هناك شيطانا داخل الساعة يحركها .

ما هو العمل .. للآخرة ؟

إذا كان الدين الاسلامى يطالبنا بالعمل من أجل الآخرة ، فليست الصلاة وحدها هى العمل من أجل الآخرة .. ولكن السعى فى الأرض هو عمل من أجل الآخرة .. وهو جهاد فى سبيل الله .. والعمل فى الاسلام عبادة .. وسعى الانسان على رزقه ورزق أولاده هو نوع من الجهاد حث عليه الاسلام .. بل إن الله أمرنا بأن نتحرك فى الأرض ليس على قدر ما نحتاج فقط ، ولكن بما يزيد على حاجتنا .. وذلك حتى تتسع حركتنا للفقير والمحتاج والضعيف الذى لا يقدر على الكسب .. والصغير الذى يحتاج لمن يعوله ، ولذلك فرضت الزكاة .. ولذلك حث القرآن على الصدقة والانفاق حتى لا يوجد فى المجتمع الاسلامى فقير ولا عاجز عن الكسب إلا ويأتيه من عمل غيره ما يكفيه . وبهذه الطريقة عالج الاسلام الفقر .

لذلك يجب ألا نأخذ الدين على أنه فى المسجد فقط .. أو إنه صلاة فقط .. لأن الدين الاسلامى يشمل حركة الحياة كلها .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

الأنفال (٢٤)

أى اعلموا أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحول بينكم وبين ما تشتهيه قلوبكم إذا اتخذتم طريق المعصية سبيلا . فلا تعتقدوا أنكم بمعصية الله تستطيعون أن تصلوا إلى ما تريدون . . بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحول بينكم وبين ما تريدون ، فلا تحققوا شيئا مما تتمنون . . وتكون النتيجة أنكم خسرتم الدنيا والآخرة . . ولعل هذا ما نراه كل يوم حولنا . . فكم من إنسان أغضب الله ليرضى صاحب نفوذ ، أو صاحب سلطان ، أو ليصل إلى منصب أو جاه أو مال . . ثم انقلب عليه صاحب السلطان هذا فبطش به . . أو لم يستطع أن يصل إلى المنصب أو الجاه أو المال إلا بالمعصية . . بل ارتكبها ولم تحقق له شيئا . . وإذا نظرت حولك فستجد الكثيرين ممن حاولوا أن يحققواهدفا دنيويا بمعصية الله . . وشاءت إرادة الله أن ينقلب عليهم ما فعلوه وبالا . . وكم من إنسان ارتكب المعصية ، وأصبح فى قمة النفوذ والمال والسلطان . . وبعد يوم وليلة تغير كل شىء حتى لم يجد ما يكفيه أو يستره . .

إذن فمنهج الله جاء ليحكم حركة الحياة فى الأرض ، ويقيم العدل بين الناس . . ومع المنهج جاء التحذير بأن من يريد الحياة الحقيقية فليرع الله فى الدنيا ليصل إلى الحياة الخالدة فى الآخرة منعما مكرما . . وإذا سيطر منهج الله على الحياة فى الكون اعتدلت وامتلأت الدنيا خيرا ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ

آلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

الأعراف (٩٦)

ولو تصادمت الأهواء وتصارعت وبعدت عن منهج الله . . لانتشر الشقاء والخراب فى الأرض . . ومن العجيب أننا نجد كثيرا من الناس ، بل والدول تنفق ما أعطاها الله من خير على الأهواء والصراعات . . ليضيع الخير كله ، وينقلب شرا ووبالا على الجميع .

وحين يبتعد الناس عن منهج الله ويتبعون أهواءهم ، وتفسد الحياة فى الأرض ، وتنسى تعليم الله . . يستدعى الله خلقه سبحانه وتعالى إلى يوم الحساب ليريهم الحق والحقيقة . وليعلموا علم اليقين ما هو الزيف وما هو الحق . . حين تصطدم حركة الحياة وتضيع الحقائق ويحكم الزيف . . والله يريد خلافة مستقرة فى الأرض ، حينئذ من الطبيعى أن نعود إلى الله سبحانه وتعالى .

وخلاصة الأمر أن الناس ينسلخون من دينهم ، ويتبعون أهواءهم ولم يعد الدين حاكما لتصرفات البشر ، ولا لحركة الحياة . . حينئذ تقوم الساعة .

هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى أن يستنفد العقل البشرى فكره . . ويستنفد تجربته . . ويستنفد طموحاته فى اكتشاف أسرار الحياة كلها . . وحين يغتر الانسان بالعلم الذى وصل إليه ، وبالامكانات التى حققها أو التكنولوجيا التى يقولون عنها . . حين

يصل غرور العقل البشرى بأنه هو الذى يتصرف فى الحياة وفق ما يريد . . وينسى الناس الله ، وقدرة الله ، ويعتقدون أن الدنيا قد خضعت لهم بعقولهم هم . . حينئذ يستدعيهم الله سبحانه وتعالى إليه . . ليعلموا أن القوة والقدرة لله وحده . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

يونس (٢٤)

أسماء يوم القيامة

القرآن سمى يوم القيامة يوم الدين . . وسماه يوم الوعيد . . وسماه يوم الفصل . . وسماه الصاخة . . وسماه الوعد الحق . . وسماه الواقعة . . وسماه الساعة . . وسماه يوم الآزفة . . وأطلق عليه مسميات أخرى . . وكل هذه مسميات لمظاهر هذا اليوم ، وما سيحدث فيه . . ما هو اليوم الآخر ؟ . . هو انتهاء أمد الدنيا . . وابتداء أمد الآخرة . وآخر يوم من أيام الدنيا ولذلك سماه الله اليوم الآخر . . وليس معنى ذلك أننا سننتظر إلى آخر أيام الدنيا أو انقضاء عمرها لنرى لمحات مما سيحدث فى الآخرة . . بل إن كل إنسان فينا إذا كانت آخر أيامه من الدنيا يرى مقدمات الغيب . . بل إنه يرى

هذه المقدمات وهو يحتضر . . وهذا ما سنعرض إليه فى الفصول القادمة . . ولكن الذى أريد أن أقوله : إن لكل مرحلة من مراحل الحياة قوانينها . . فحياة اليقظة فى الكون لها قوانينها . . وحياة النوم فى الكون لها قوانينها . . وحياة البرزخ ، وهى ما بعد الموت إلى يوم القيامة لها قوانينها . . وحياة الخلود فى الآخرة لها قوانينها . . وكل قانون مختلف تماما فى كل مرحلة . . كما سنتحدث عن هذا تفصيلا .

ويوم القيامة هو اليوم الذى يفصل فيه بين الناس . . فلا يوجد عمل فى الآخرة . . ولكن يوجد فصل فيما فعله الناس فى دنياهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

الزلزلة (٧ - ٨)

ولا يحسب الانسان أنه مهما سيتقبل منه عمل فى يوم القيامة . . بل إن عمل الانسان ينقطع من ساعة الاحتضار . . فليس هناك عمل فى حياة البرزخ ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

الممتحنة (١٣)

أى أن الذين ماتوا وهم كفار لا يقبل لهم عمل بعد الموت . ويوم الفصل معناه أنه لابد أن يحشر الناس جميعا ليفصل بينهم . . ولقد

استخدم الله سبحانه وتعالى يوم الجمع ، ويوم الحشر فى وصف يوم القيامة . . وبعض الناس يعتقد أن هذه مترادفات لفظية . . ولكن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . . الذى لكل لفظ فيه وحرف فيه معنى دقيق . . ينبهنا إلى شىء جديد . . فيوم الجمع أن يجمع الناس جميعا فى صعيد واحد . . ولكن يوم الحشر مختلف تماما . . فكلمة الحشر يريد الله أن يعطينا بها إحساسا بضيق المكان . . ذلك أنك عندما تحشر شيئا فإنك فى العادة تحاول أن تدخل شيئا كبيرا فى مكان ضيق .

وإذا أردنا أن نقرب هذه الصورة إلى الأذهان . . فإننا نقول : تصور أى مكان من يوم أن خلق الله الأرض ومن عليها . . وتصور أنك أحصيت الخلق الذين تواردوا على هذا المكان ستجد أنهم عدد كبير جدا . . تصور بيتا كان فيه رجل وامرأة تزوجا وأنجبا أولادا . . والأولاد كبروا وتزوجوا وأنجبوا أولادا . . أى البيت الذى كان فيه اثنان واسع عليهما جدا . . فإذا بلغوا مائة أصبح المكان يضيق بهم . . فإذا بلغوا ألفا أصبحوا محشورين فى هذا المكان . . والله سبحانه وتعالى سيبعث الناس مرة واحدة ، وليس تباعا كما خلقهم . . وإذا أحصيت عدد من سكنوا بلدا من البلاد من أول مانشأت الحياة ، وأحصيت الذين ولدوا على أرض هذا البلد . . ثم ماتوا ودفنوا فيه من أول الخلق إلى يوم القيامة . . ثم بعثوا مرة واحدة . . ما هو الموقف ؟ . . إذن فالحيز سيصبح محشورا بالناس ، لأن الحياة التى نثرت فى هذا المكان فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها

مرة واحدة .

كأن الناس سيحشرون حشرا مع بعضهم البعض يوم القيامة .. رقعة الأرض التى ضاقت بالأحياء الذين عمروها فى أزمان مختلفة سيحشر الناس فيها حشرا يوم القيامة .. كان قول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾

هود (١٠٣)

يعطينا معنى الجمع .. ولكنه لا يعطينا صورة هذاالجمع ، فيأتى يوم الحشر ليوضح الصورة الرهيبة التى سيكون عليها الناس يوم القيامة

ومن مظاهر هذا اليوم ، كما وصفه الله سبحانه وتعالى ، انه يوم الدين .. أى أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على منهجه ، وهل اتبعوه أم خالفوه .. أم نسوه .. أى أن هذا يوم لا ينفع الانسان إلا دينه .

وهو يوم التناد .. يوم نخرج جميعا كل واحد منا ينادى الله .. وهو يوم الآزفة .. أى يأزف علينا فجأة .. وهو يوم القيامة الذى فيه نقوم من قبورنا .. وهو يوم الجزاء ، أى يوم يعلن فيه نتيجة الامتحان الذى مر به الانسان فى الحياة الدنيا .. ولا ينفع فيه إلا اجتهاده فى طاعة الله فى الدنيا .

وهو يوم الصاخة .. التى تصخ الأسماع .. ويوم الطامة التى تطم الجميع .. ويوم القارعة .. التى تقرع الآذان فتنبهها من نومها العميق ويقوم الناس لرب العالمين .

وهكذا نرى أن كل اسم من أسماء يوم القيامة .. إنما يمثل ظاهرة من أسماء هذا اليوم .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى ختام الفصل الأول .. وقبل أن نتحدث عن علامات الساعة ، الذى تحقق منها ، والذى لم يتحقق .. لابد لنا من وقفة نتحدث فيها عن : لماذا وصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأنه يوم ، مع أن الله لا زمن عنده .. وما معنى هذا الوصف ؟ .. كما نتحدث عن انتقال الانسان من آخر مراحل الدنيا إلى حياة البرزخ التى يبقى فيها حتى يوم البعث .. أو حتى يأتى يومالحساب .

وسنبدأ الحديث فى الفصل القادم عن الانتقال بين الموت والحياة ..

الفصل الثاني

نهاية الحياة

الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من عناصر الأرض . . والتحليل العلمى فى الفترة الأخيرة أثبت أن جسد الانسان يحتوى على ثمانية عشر عنصرا ، هى العناصر الموجودة فى الأرض . . وهكذا توصل العلم أخيرا إلى ما كشف عنه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه فدبت الحياة فى ذلك الجسد المخلوق من طين . . وتم خلق آدم ، ثم خلق الله حواء من آدم أو من ضلع منه ، وذلك تعرضنا له بالتفصيل فى الجزء الثامن من معجزة القرآن الذى صدر فى العام الماضى .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(ص - ٧٢)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(الاحزاب - ٧٢)

وهكذا فإن الانسان روحا ، وكانت مهمته أن حمله الله الأمانة فى الأرض . . فما الروح ؟ . . وما الأمانة ؟

الروح هى أمر من أمور الله . . وكل البحوث التى تجرى عن

الروح هى مجرد عبث . . والبحث عن الروح يشغل الانسان منذ بداية الحياة . . ذلك أنه سر الحياة الذى عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين . . ورغم أن الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى فإن الانسان مازال يحاول أن يعرف عنها شيئا .

وقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الانسان عندما يحتضر على ميزان . . ووجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح . . والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا . . والكافرون ينكرون وجود الروح . ويسمونها الزمن أو الطبيعة . . وحيرة البشرية كلها سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(الاسراء ـ ٨٥)

وهناك الروح ، وهناك النفس . . النفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة . . هذه هى النفس . . والتكيف من الله سبحانه وتعالى أو الأمانة التى حملها الانسان هى للنفس البشرية . . أى فترة الحياة الدنيا التى تلتقى فيها الروح بالجسد . . والله لا يكلف الروح وحدها شيئا . . قبل أن تدخل إلى الجسد ، أو بعد أن تخرج منه . . والله لا يكلف الجسد شيئا إذا خرجت منه الروح . . ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة فى الحياة الأرضية .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾

(الشمس - ٧ - ١٠)

أى أن الله سبحانه وتعالى بين طريق الايمان ، وطريق المعصية للنفس البشرية .. فبين لها ما يجب أن تفعل وما لا تفعل .. وأوضح لها الخطأ والصواب .. والتكليف الالهى هو فى فترة الحياة وحدها مصداقا لقول الله جل جلاله :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(يس - ٦٩ - ٧٠)

أى أن القرآن نزل للأحياء ليعملوا به فى فترة حياتهم الأرضية ..

ما هى الروح ؟

إذا أردنا أن نفهم كلمة الروح .. فإنها ذلك السر الالهى الذى يهب الحياة للمادة .. أو الذى تحيا به المادة .. أو هو إرادة الله لها أن تحيا .. فإذا سلب الله هذه الارادة انتهت الحياة بشكلها الدنيوى .. ولذلك يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا

كأنها فترة قصيرة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى . . يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ، ثم يرحل . . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (مالى والدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم رحل وتركها) .

وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح . . ومم تتكون ؟ وكيف تهب الحياة للجسد ؟ ثم تذهبها عنه . . وهنا قال الله سبحانه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٨٥)

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن علمنا الأرضى الذى نظن أنه كثير لن يصل إلى سر الروح .

بل إن تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح ـ وهى تعيش فى جسد بشرى ـ يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم عنها شيئا . . كيف جاءت وكيف خرجت ؟ . . وفى أى مكان هى فى الجسم ؟ . . هل هى فى القدم التى تمشى ، أم فى القلب الذى ينبض . . أم فى الرئتين اللتين نتنفس بهما . . أم فى العقل الذى يعطى الاشارات كلها للجسم .

كل هذا عجز عن أن يحدده علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم . . ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله . . أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله . . ويعلنون الكفر والالحاد .

الروح فى أجسادهم ، وهى معهم فى رحلتهم من المهد إلى اللحد . . أو من الميلاد إلى القبر . . ولكن أين هى الروح التى فى أجسادهم وأين مكانها .

الجواب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها . . وتقول لهم : ما هو شكلها ؟ . . فيقفون صامتين بلا جواب . . فتقول لهم : هل هى موجودة ؟ فيقولون : نعم . لأنها تعطينا الحياة . . فتقول لهم : إذا كانت الروح . وهى موجودة وجودا يقينا فى أجسادكم ، وفى كل شىء حى . إذا كان هذا المخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى تستطيعون الاحاطة به . . ولكنكم ترون فى اثارة أنه يمنح الحياة للجسد . . فكيف تريدون رؤية الله ، وتجاهرون بأن عدم رؤية الله انكار لوجود الله سبحانه وتعالى .

ألا تكفى هذه التجربة التى هى فى أجسادكم ، والتى تعيش معكم ، لتبين لكم أنكم تفترون على الله ؟ وكان من الأجدر بكم ، وهذه الآية موجودة فى أجسادكم . . أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الاعجاز ، وتؤمنوا بوجود الله وبعظيم علمه وقدرته ؟

لمـاذا أخـفى الله سـر الـروح ؟

لكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟

أولا : لأنه دليل قدرة . . دليل قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يضع فى الجسد البشرى ما يهبه الحياة دون أن يستطيع أحد من الناس معرفته . . وعندما نرى هذه القدرة نحس بعناية الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذا السر فينا دون أن نستطيع اكتشافه .

وثانيا : أنه دليل وجود بلا رؤية . . فنحن نعرف يقينا أن الروح موجودة فى الجسد ، لأنها تعطيه الحياة . . فمادامت الحياة موجودة فالروح موجودة . . فإذا خرجت الروح من الجسد توقفت الحياة، وهذه بديهية وليست محتاجة إلى دليل . . وإنما هى توضح لنا بشكل يقينى دائم معنى الغيب . . وترد على الذين يقولون إن الغيب غير موجود ، لأنه محجوب عنا .

نقول لهؤلاء : إن الروح محجوبة عنا . فنحن لا نراها ، ولا نعرف شيئا عنها . . ولكنها موجودة ، بدليل أنهاتعطينا الحياة . . إذن لا نقول ما هو غيب عنا ليس موجودا .

وهناك دلائل أخرى على أن الغيب موجود . . منها الاكتشافات العلمية التى تتم . . فإننا نرى ميكروبا من الميكروبات ، أو كوكبا من الكواكب ، ويدخل فى علمنا البشرى . . فليس معنى ذلك أنه لم يكن

موجودا قبل أن نكتشفه . . بل معناه أنه كان موجودا ثم أتاح لنا الله سبحانه وتعالى قدرات مكنتنا من رؤيته . . ولكنه كان يباشر مهمته فى الحياة قبل أن نراه ، أو نعلم بوجوده .

وهكذا كل الاكتشافات العلمية الجديدة هى قوانين الله فى الأرض كانت تباشر مهمتها قبل أن نكتشفها . . بل معناه أن الله أراد أن يعلمنا بها . . فالغلاف الجوى لم نضع فيه نحن خاصية حمل الطائرات ، ولا نقل الأصوات والصور للاذاعة والتليفزيون . . ولكن هذه الخصائص كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . ولكنها كانت غيبا عنا ، ثم كشفها الله لنا .

ولكن إذا كانت هناك أشياء كثيرة فى الكون نستطيع أن نستدل بها على أن ما هو غيب عنا موجود . . فلماذا غيب الله علم الروح عنا ؟ لأن هذه الاكتشافات العلمية محتاجة إلى أن يدرس الناس ويتعلموا حتى يصلوا إلى فهم لها . . ولكن ذلك الذى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يستوعب مثل هذا العلم . . والله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده ، بل يساوى بينهم جميعا . . وبما أن وجود الروح فى الجسد دليل لا يحتاج إلى تعلم . . بل هو شىء محس يرُى للناس ، كل الناس ويعرفه الجميع . . لذلك بقيت الروح لتكون دليلا للناس كلهم على أن ما هو فوق قدرة العقل . . أو مالا يحيط به العقل موجود . . حتى إذا دخل الشك أى نفس يكفى أن تضرب مثل الروح . . ليعلم الناس جميعا وبدون حاجة إلى تعلم وقراءة . . ان

ما لا يحيط به العقل موجود فى الكون . . بذلك يساوى الله بين خلقه فى الدليل الايمانى . . على أن ما هو غيب عنا ، وما هو فوق قدرة عقولنا ، موجود .

والسبب الثالث أن حقيقة الروح ، سواء علمت بها أو لم تعلم ، لا يفيدك ذلك شيئا فى حياتك الدنيا . . فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها . . فهى تعطيك الحياة والقدرة ، سواء علمت بها أو لم تعلم . . وفى ذلك يتساوى الإنسان الذى لم يقرأ سطرا فى حياته ، والانسان الذى بلغ مبلغا كبيرا من العلم . . فكلاهما ينتفع بالروح انتفاعا كاملا طوال رحلة حياته . . سواء علم سرها أو جهل ذلك السر .

إذن فأنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة ، ولست محتاجا إلى أن تعرف سرها . . فهو بالنسبة لك جهل لا يضر .

على أننا يجب أن نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٨٥)

ماذا تعنى كلمة أمر بى . . القرآن الكريم يبين لنا ذلك فيقول :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس - الآية ٨٢)

إذن أمر الله هو إرادة الله سبحانه وتعالى للشىء أن ينتقل إلى حياة

البشر بكلمة « كن » . . وأن يخرج الشيء من علم القادر . وهو الله سبحانه وتعالى ، إلى علم غير القادر ليباشرمهمته فى الحياة .

ما هــى مهمــة الانســان

نأتى بعد ذلك إلى مهمة الانسان فى الكون . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد كرم آدم تكريما عظيما . . وجعل الملائكة يسجدون له ، ثم حمله الأمانة .

ما الأمانة ؟ الأمانة هى شيء لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب . . فإذا أتيت إلى شخص ، وأعطيته مبلغا من المال . . وأخذت منه إيصالا أو شيكا بالمبلغ لا يكون هذا أمانة ، ولكنه يكون دينا ، فإذا أعطيته هذا المبلغ وأشهدت عليه الناس ، فلا يكون هذا أمانة ، وإنما يكون دينا . . ولكن إذا أعطيته مالا أو شيئا آخر . . وتم ذلك بدون ورقة مكتوبة . . وبدون أن أشهد عليه الناس أكون قد أعطيته أمانة يستطيع أن ينكرها ، وأن يردها فى أى وقت شاء دون أن يكون لدى دليل مادى إذا أنكره .

والسلوك بالنسبة للأمانة ينقسم إلى ثلاثة ردود فعل :

رد الفعل الأول : أن يقبل الانسان الأمانة ، ويقول أعطها لى ، وهى فى الحفظ والصون إلى أن تأتى لتطلبها .

ورد الفعل الثانى : هو أن يخاف الانسان من نفسه ويقول : اعفنى

من هذه المهمة فأنا لا أستطيع أن أضمن نفسى ويدى ستمتد إليها لتبددها . . وحينئذ يكون قد رفض حمل الأمانة .

ورد الفعل الثالث : أن يبدى الانسان استعدادا وتقبلا لتحمل الأمانة . . فإذا أصيب بضيق مادى ، أو احتاج لشىء ، امتدت يده إليها ليأخذ منها . . على أساس أنه سيعيد ما أخذ . . ثم يفاجأ عند مجىء موعد الرد بأنه لا يستطيع أن يرد الأمانة فينكرها . .

هذا هو المعنى العام للأمانة التى حملها الانسان . . وهى منهج الله فى الأرض وحرية الاختيار فى افعل ولا تفعل . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب ـ الآية ٧٢)

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى الأمانة بمعناها الواسع فى القرآن الكريم . . فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٨٢)

ومعنى ذلك أن الدين هو الذى يقوم عليه صك مكتوب ، أو ورقة مكتوبة . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٨٣)

عرض الله على السموات والأرض والجبال وغيرها أن تحمل منهج الله . . وأن يأتمنها الله على هذا المنهج ، ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل . . وأن تأتى إليه عن اختيار ، وعن حب ، وليس عن قهر . . فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم . . وان خالفت المنهج ولم تفعل بقيت خالدة فى النار . . ولكن كل هذه المخلوقات رفضت أن تحمل الأمانة وقالت : يارب إننا نخاف . ونشفق على أنفسنا . ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريدنا أن نحمله . . ولذلك يارب اجعلنا مقهورين على طاعتك ، غير مختارين أن نعصى .

ولكن الانس والجان قبلوا أن يحملوا هذه الأمانة . . وقالوا : يارب نحن قادرون وسنكون أمناء على المنهج ونطيع ولا نعصى . وعندما بدأت المهمة لم يقدر كثير من الناس على حمل أنفسهم على الطاعة ، وخانوا الأمانة .

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الانسان حين حمل الأمانة

بوصفين : بأنه ظلوم ، أى كثير الظلم . . وجهول ، أى أنه عظيم الجهل . . لأن الانسان ظلم نفسه ، فحملها ما لا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله . . ولأن بنى الانسان يريد أن يتميز كل واحد منهم على غيره . . وأن يغتر بنفسه . . بينما يجب أن تتحدد أهدافهم فى طاعة الله . . لذلك كان الانسان كثير الظلم . . وهو ليس ظالما ، ولكنه ظلوم لأنه يظلم نفسه فيمنعها من نعيم مقيم من أجل متعة مؤقتة تعطيها له معصية . . وظلمها ثانية بأن منعها من الجنة . . ولأنه ـ وهو يعلم يقينا أنه تارك كل شىء فى الدنيا ـ يريد أن يملك ويملك . . ويرتكب فى سبيل ذلك معاصى كثيرة . . ولو تنبه فإنه يدرك أنه لا يخرج من الدنيا بشىء إلا ذنوبه .

وكــان الانســـان جهــولا

ولماذا كان الانسان جهولا ، أى عظيم الجهل . . لأنه استهان بعذاب الله . . ذلك العذاب الذى هو محجوب عنا . . ولو رأيناه ما نطق لسان بمعصية . . ولا امتدت يد إلى مال حرام ، ولكن لأن هذا العذاب أخفى عنه . . ظن الانسان انه لا علم إلا علمه . . ونسى علم الله الواسع الذى لا تحدّه حدود . . وقدرة الله التى لا تفوقها قدرة . . وهو جهول لأنه بقدر ما أعطاه الله من علم ومن ذكاء . . عبد أشياء لا تنفع ولا تضر . . فعبد الحجر ، وعبد الشمس ، وعبد النار ، وعبد الحيوانات ، وعبد الدنيا . . ولو أنه

كان يعقل ولا يجهل . . لعلم أن هذه المخلوقات كلها أدنى منه . . وأن الله سخرها كلها لخدمته . . فكيف يعبد الأعلى الأدنى ؟!

ولأنه جهول عبد الدنيا ، وهو مفارقها . . والخالق لا يفارق مخلوقه .

مع أن الله سبحانه وتعالى حين حمله الأمانة أعطاه العقل الذى يميز به . . وجعل هذا العقل أساس الحساب بحيث يتوقف الحساب حين يتوقف العقل عن أداء العمل . . فالمجنون يسقط عنه التكليف ، ولا يحاسب . . والطفل الذى لم يبلغ الحلم والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق أو يميز لا يجرى عليه القلم . . فلقد حرم الله كل ما يعطل العقل ويفسده .

حرم الخمر تحريما قاطعا ، لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة . . وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات ، لأن مقومات الشريعة الاسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الالهى الى ميز الله به الانسان ، وهو العقل . . واختيارات العقل هى التى تشقى الانسان وتسعده فى الحياة . . وتقوده إلى الجنة أو النار . . فالغريزة لها انفعال واحد . أما الفعل فأمامه بدائل كثيرة .

فالانسان مثلا إذا آذى كلبا فإنه يعضه بلا انفعال آخر . . وكلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه . . والحصان مثلا يرفس من يؤذيه . . انفعاله له شىء واحد لا يتغير . . ولكن الانسان إذا ضربه إنسان آخر فإن أمامه عدة بدائل . . إنه يستطيع أن يرد

الضربة بمثلها أو بأشد منها أو بأقل منها .. أو أن يصفح عمن ضربه ، أو يكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها موجودة عند الانسان وحده .. هذه البدائل يضعها العقل ، وليست الغريزة .

والانسان فى كل لحظة من لحظات حياته مطالب بالاختيار .. إذا قمت بهذا العمل فهل أوفق فيه؟ .. وأنا فى ضيق مالى أترك وظيفتى وأبدا عملا حرا ؟ .. وإذا أفلست فماذا يحدث ؟ هل أبيع السلعة أم أبقيها ؟ ربما يرتفع سعرها فأكسب أكثر .. وربما انخفض سعرها فتكون الخسارة كبيرة .

وهكذا يظل الانسان يعانى فى كل أحداث الحياة .. وهنا يصطدم المنهج مع ما تريده النفس مع الخوف من الدنيا .. هل أرضى صاحب النفوذ ، وأغضب الله ، لأربح مالا ؟ .. هل أشهد الزور وأكذب لأحصل على ترقيه ؟ وهنا يكون الصراع بين هوى النفس وبين منهج الله .

والانسان المؤمن تتحد مراداته فى الحياة الدنيا مع مرادات منهج الله سبحانه وتعالى منه .. فهو يتبع ما أمره الله به .. فيكون قد أدى الأمانة التى حملها .. وحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة .. يخلص نفسه من هذه الصراعات كلها .. ويعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يحميه ، وعلى أن يحقق له ما يريد . فيتبع الحق . ويقول الصدق ، ولا يخشى إلا الله .

أما الانسان الذى يخون الأمانة ، ويعصى الله ، ويجرى وراء

كسب دنيوى دون ما إيمان حقيقى فى نفسه . . فيكون قد خسر الدنيا والآخرة . . فلا يمكنه الله مما يتمناه فى الدنيا ، ويكون من أهل النار فى الآخرة . ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى سلوك هذا الانسان بقوله :

﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(سورة الحج ـ الآية ١١)

وبعد أن تحدثنا عن الخلق والحياة ، ومهمة الانسان فى الحياة ، لابد أن نكمل الحديث بمغادرة الانسان للحياة . . فكما أن هناك حياة . . وأن هناك مهمة فى الحياة حملها الانسان ، وائتمنه الله عليها ليؤديها . . فلابد أن تكون هناك مغادرة لهذه الحياة . . ثم حساب على ما فعلناه .

ولكن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن الانسان ، وهو يغادر الدنيا ، لابد أن نتوقف لحظة لنقول : أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان ليأتيه عن حب واختيار . . ولم يخلقه ليأتيه بالقهر والجبر . . ذلك أن القهر يسقط الحساب حتى فى قمة العقيدة ، مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(سورة النحل - الآية ١٠٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة النور - الآية ٣٣)

ولذلك فإنه لكى يكون الحساب عدلا . . فإنه لابد أن يتم الفعل بإرادة الانسان ورغبته وبلا إكراه . . وعندما تأتى ساعة مغادرة الدنيا تكون كل أفعال الانسان التى يأخذها معه برغبته وبإرادته الحرة .

والخلق والموت والبعث كل هذا موجود فى علم الله وواقع . . ولذلك فإننى أقول دائما إننا يجب أن نتنبه إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(الآية ٤٠ سورة يس)

ولابد أن نتنبه هنا إلى قول الله « أن نقول له » . . أى أن الشيء كائن وموجود فى علم الله سبحانه وتعالى . . فإذا قال له : أى قال

لهذا الشيء الذى له وجود فعلى فى علم الله « كن » . . ظهر لنا فعلمناه . . أو رأيناه . . أو اكتشفناه .

إذن فكل ما فى الكون من موت وحياة وبعث وأحداث تقع . . كلها موجودة فعلا فى علم الله سبحانه وتعالى ولكننا لا نعلم عنها شيئا . . إلا عندما تأتى مشيئة الله بكلمة « كن » .

هذه هى الحقيقة التى لابد أن نتنبه لها أولا : حتى نعرف أن علم الله شامل لكل شىء ولا حدود له .

نلاحظ ، ونحن نتكلم عن الموت والحياة ، أن الله سبحانه وتعالى جعل الموت سابقا للحياة فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

(سورة الملك ـ الآية ٢)

فلماذا سبق الموت الحياة فى هذه الآية ؟ . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا فى هذه الآية لكيلا يأخذنا غرور الدنيا وما تعطيه . . فإذا اغتر الانسان بما يعطيه الله له من مال . . أو ملك ، أو ما أعطاه الله له فى الدنيا من نعم . . فتأتى هذه الآية فتوضح أنه كان ميتا فأحياه الله ، فلا يغتر بهذه الحياة . . ولا يملأ الأرض بالمعاصى . . لأنه وإن كان له كيان اليوم . . فلم يكن له كيان فيما مضى أو حياة ، ومصيره مرة أخرى إلى ترك هذه الحياة ، مهما طال به الأجل ، وترك كل ما فيها من نعم.

فالغرور الانسانى هو بداية المعصية . . ودائما عندما يغتر الانسان بنفسه ويملؤه الفخر بذاته وقدراته . . فإنه يبدأ الابتعاد عن الله تعالى ، والابتعاد عن المنهج . . فمادام قادرا على أن يحقق لذاته ما يريد . . فقد أصبح يتصور أنه ليس محتاجا إلى الله . . ومن هنا تبدأ المعصية . . فالانسان الذى يحس أنه فى حاجة دائما إلى الله تعالى . . يبقى دائما متعالقا بالله متبعا لمنهجه . . فإذا أحس أنه فى منعة وعزة بدأ يبتعد ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٨٣)

وقوله تبارك وتعالى :

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ

(سورة العلق - الآية ٦ و ٧)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس الآية ٩٢)

إذن مادام الانسان فى ضر فإنه لا يتجه إلا إلى الله . . حتى ذلك

الذى ينسى الله . . ويبتعد عن المنهج ، بمجرد أن تصيبه محنة أو ضرر أو أزمة ، يرفع يديه إلى السماء ويقول : يارب . . وفى هذه الحالة يكون الانسان صادقا مع نفسه . . لأنه يعلم يقينا أن الأمر كله بيد الله ، ويعرف أن كل ما اتجه إليه من نعم الدنيا وأسبابها لم يستطع أن يعطيه الحماية التى كان يريدها . . أما إذا اغتر الانسان وأحاطت به النعم فإنه ينسى الله . . ويأخذ بالأسباب . . ويفعل كما فعل قارون ، ويقول : إنما أوتيته على علم عندى .

لماذا أخفى الله موعد الموت ؟

لقد وضع الله سبحانه وتعالى من خصائص الموت ما يجعل الانسان يفيق من غرور وجاه الدنيا ، ويذكره بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فأخفى الله موعد الموت . . لماذا ؟ . . حتى يتوقعه الانسان فى آية لحظة . . فكلما اغتر تذكر انه قد يفارق الدنيا بعد ساعة أو ساعات ، فرجع عن غروره ، ورجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ولو كان الله قد أعلم كلا منا بأجله وعصينا الله . . وطغينا فى الحياة . . وظلمنا الناس . . ثم نتوب ونستغفر قبل موعد الأجل بأشهر . . فى هذه الحالة تنتفى الحكمة من الحياة .

واخفاء الله سبحانه وتعالى موعد الموت هو اعلام به . . ذلك أن

إخفاء الموعد يعنى أن الانسان يتوقع الموت فى أى لحظة . . ولذلك فإنه إذا كان عاقلا تكون عينه على الدنيا ، وعينه الأخرى على الآخرة . . فإذا ارتكب معصية فهو لا يعرف هل سيمد الله أجله إلى أن يرتكب المعصية ويتوب . . أم أن أجله قد يأتى وقت ارتكاب المعصية ، فلا يجد الوقت للتوبة .

وما يقال عن المعصية يقال عن العمل الصالح . . فلو أن موعد الموت معلوم . . لأجل الانسان العمل الصالح إلى آخر حياته . . ولكن الله يريد أن يكون الصلاح ممتدا طوال الزمن ولذلك أخفى موعد الموت . . ليعجل الناس بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى الأجل . . فكان إخفاء الموعد فيه رحمة من الله للبشر . . رحمة بأن يخافوا المعصية أن تأتى مع الأجل . . ورحمة بأن يسارعوا فى الخيرات حتى لا يفاجئهم الأجل .

نأتى بعد ذلك إلى ساعة الاحتضار . . وهى الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد . . أو سكرة الموت ، كما يسميها الله سبحانه وتعالى . . فى هذه اللحظة تكون قد انتهت حياة الاستعلاء ، وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيا . . وكل ما تستطيع الحياة أن تعطيه للانسان . . تقف الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها من علم وقوة ونفوذ وسلطان عاجزة أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . ففى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب . . أى أن الانسان ، وهو يحتضر ، يرى أشياء ما كان يقدر أن يراها فى أثناء الحياة الدنيا . . لماذا ؟ . . لأن بشريته الآن قد خمدت . . ومادامت البشرية قد

خمدت ، تهب نفحات الغيب .. وهذا هو معنى الآية الكريمة :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ١٩)

أي ما كنت تريد ألا تتذكره أو تعترف به .

فى هذه الحالة لا تنفع فيها التوبة ، ولا يجدى فيها الاستغفار .. فمادامت سكرة الموت قد جاءت ، فقد انقطع عمل الانسان الدنيوى .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا أشياء تحدث للانسان وهو يحتضر . فقال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة - الآية ٨٣ - ٨٥)

أي أن الانسان وهو يحتضر ، يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله .. وهم إذا كانوا يقفون حوله فإنهم لا يبعدون عنه إلا مسافات قصيرة .. فإنه يرى أشياء لا يرونها .. ويرى مقدمات الغيب لا يبصرها من حوله ، ويرى الملائكة .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام ـ الآية ٩٣ ـ ٩٤)

ماذا يرى الانسان ساعة الاحتضار ؟

هكذا نرى أن الانسان ساعة الاحتضار يرى الملائكة ويكلمونه فإن كان من الذين عصوا الله ، والعياذ بالله ، بشره الملائكة بالعذاب . . وبشروه بجهنم ، وهو فى هذه اللحظة لا يراهم فقط ، بل يسمع كلامهم على أننا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى

أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ

(سورة الأنعام ـ الآية ٩٣)

والنفس ـ كما قلنا ـ هى التقاء الروح بالجسد . . فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .

لكى نفهم هذه الآية لابد أن نضع فى أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله ، ومكذبا بالبعث . . وحينئذ وهو يحتضر يقول له الملائكة : هائنتذا الآن ترى ما كنت تكذب به . . وترى العقاب الذى ينتظرك ، فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا ، فاخرج نفسك من هذا . . أهرب إذا كنت تستطيع . . خلص نفسك إذا كانت لك قوة أو تفوق . . إنك لا تستطيع فى هذه اللحظة أن تخرج نفسك مما أنت فيه . . ألم تعد لك قدرة على أن تسيطر على ذلك . . لقد كانت هذه القدرة من الله سبحانه وتعالى . . وهبها لك فى الحياة الدنيا . . ولكنك الآن لا تملك فى نفسك شيئا ، ولا ينتظرك إلا العذاب . . لما كنت تقول على الله غير الحق ، وتستكبر فى الأرض .

وفى هذه اللحظة أيضا تذكر الملائكة هذا الانسان الكافر المنكر لآيات الله بأنه قد جاء إلى الموت وحده ، وليس معه عصبته ، ولا عزوته فى الدنيا . . وحيدا كما تم خلقه . . حتى الآلهة التى أشرك بها قد تخلت عنه . . وحتى الذين كان يعصى الله من أجلهم لم يأتوا معه ، ولا يستطيعون أن يدافعوا عنه . . ثم تكتمل الصورة بقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأنفال ـ الآية ٥٠ ـ ٥١)

أى أنه ساعة الاحتضار يكون هناك ضرب وإيذاء من الملائكة للكافرين .

والمعروف أن أى نوع من العذاب لا يتم إلا مع وجود الحياة . فأنت لا تستطيع أن تعذب جسدا ميتا .. ولكن لكى يحس الجسد بالعذاب لابد أن تكون فيه حياة أو روح .. أى أن ما يحدث من الملائكة معه ضرب وإيذاء إنما يحدث ساعة الاحتضار وفى الجسد حياة .

وانظر بعد ذلك إلى الصورة المقابلة فى الصالحين الذين تتوفاهم الملائكة .. يقول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة النحل ـ الآية ٣٢)

أى أن الانسان الصالح حين يصل إلى ساعة الاحتضار يرى الملائكة أيضا .. فكل إنسان ، وهو يحتضر ، يرى ملائكة الموت . ولكن اللقاء يكون مختلفا .. فبينما الكافر يضرب الملائكة وجهه

ودبره .. ويقولون لهؤلاء الكافرين « ذوقوا عذاب الحريق » .. فإن الانسان المؤمن تدخل عليه الملائكة بالبشرى . ويقولون له سلام عليكم .. أى أنت وصلت إلى دار السلام بأمان .. ويبشرونه بالجنة .

هنا فى ساعة الاحتضار يفترق المؤمن والكافر ، وذلك بخلاف الحياة الدنيا كلها ، ففى الحياة الدنيا قد يكون الكافر له من الحياة والسلطان ماليس للمؤمن .. وقد يكون له فى العلو والترف ماليس للمؤمن .. ولكن تبدأ التفرقة بينهما ساعة الاحتضار ، فيرى الكافر الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات الجزاء ، وانهالوا ضربا عليه .. ويرى المؤمن الملائكة ، وقد جاءوا بمقدمات النعيم وبشرى بالجنة . ويرى الكافر النار .. ويرى المؤمن الجنة .

حينئذ لا تنفع التوبة ، وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الآيتان ١٧ ـ ١٨)

أى أن لحظة الاحتضار ـ كما قلنا ـ لا تقبل فيها التوبة ..
ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان ـ الآية ٢٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بأن الانسان يرى الملائكة ومقدمات الغيب فى ساعة الاحتضار .. وفى هذه الساعة لا تنفع التوبة .. والانسان وهو يحتضر ، يعلم موقعه ، هل هو من أهل النار ، أم من أهل الجنة .. تلك هى لحظات نهاية الحياة .

حينئذ ينتقل الانسان من حياة إلى حياة ، أو من قانون إلى قانون .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

قانون ما بعد الحياة

عندما ينتقل الانسان من الدنيا ، وينتهى فيها عمره ، يكون قد بدأ أول أيامه من رحلة الآخرة . . ذلك أن كل من يخرج من الدنيا تنتهى صلته بأحداثها تماما . . ولا يصبح أمر الدنيا هو شغله . . وينقطع عمله إلا من علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له . كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له » .

هذه الأشياء الثلاثة التى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى امتداد لعمل الانسان فى الدنيا . . والعلم الذى ينتفع به هو امتداد لعلم اجتهد فيه الانسان فى حياته الدنيوية ، ثم علمه للناس وتركه لينتفع الناس به . . فهذا النفع هو اتصال لعمل الانسان ، ويكون له جزاء عليه .

ولكن هناك شرطا لهذا العلم ، هو أن يكون لوجه الله سبحانه وتعالى . . أو يقصد به الله . . فكل عمل يقوم به الانسان ، ولا يقصد به وجه الله ، ليس له أجر عند الله . . وهذا كما قلت مبدأ لابد أن نفهمه ، لأنك تأخذ أجرك فى الدنيا وفى الآخرة ممن عملت من أجله . . فلا يعقل أن تعمل عملا لإنسان ، ثم تذهب لتطالب شخصا آخر بأجرك . . هذا لا يتفق مع منطق الوجود . . وكذلك تعمل عملا لغير الله . . ثم تطلب من الله أجرك فى الآخرة .

وكثير من الناس الذين قدموا خدمات للانسانية . . ولم يكن فى بالهم الله ، وهم يقومون بهذا العمل ، أعطاهم الله أجرهم فى الدنيا . . فأطلقت أسماؤهم على الميادين والمدن ، واقيمت لهم التماثيل ، واحتفل الناس بذكراهم . . وكان من عدل الله أن يوفيهم أجرهم فى الدنيا التى عملوا لها . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة هود ـ الآيتان ١٤ ـ ١٥)

وليس معنى ذلك أن يكون العلم من علوم الدين وحدها . . أى أن أى إنسان مؤمن يصل إلى علم وفى باله الله ، وأنه يعمل ليرضى الله واستفادت الدنيا كلها بعلمه ، فإن الله يؤتيه أجره ، لأنه لم يعمل من أجل مال أو جاه أو شهرة . . رغم أن هذه قد تأتى ، ولكنه يعمل من أجل الله . . أما ذلك الذى لا يحمل فى قلبه أى نوع من الايمان ، ويعمل من أجل الدنيا وحدها ، وهو غير مؤمن بالآخرة . فإن الله يؤتيه أجره فى الدنيا .

أما الصدقة الجارية فهى مال الانسان الناتج من عمله ورزقه . . وبدلا من أن ينفقه فى أن يبنى له قصرا . أو فى الترف ، أو فى الافساد

فى الأرض . . ينفقه فى عمل يبتغى به وجه الله وحده . . كأن يبنى مسجدا ، أو يقوم ببناء دار يسكن فيها الفقراء مجانا ، أو ملجأ للأيتام ، أو يرصد إيراد ما يملكه لينفق فى سبيل الله . . ومادام هذا العمل قائما فى الدنيا فإنه يصل إليه أجره فى الآخرة .

وولد صالح يدعو له ، هو جزاء من الله على حسن تربية الأبناء على منهج الله ، بحيث ينشأون صالحين . . ومن علم ابنه القرآن ، وحرص على أن يؤدى هذا الابن الصلاة ، وحثه على الصدقة ، وكل عمل طيب . . فإن هذا الابن الذى هو امتداد للأب يكون دعاؤه مقبولا رحمة لأبيه ، وزيادة فى حسناته ، وذلك حتى نحرص على أن يشب أولادنا على الفطرة السليمة والدين القويم .

كل حياة لها قوانين

هنا قد يتساءل بعض الناس : ما نوع الحياة التى ينتقل إليها الانسان فى قبره وقبل البعث ؟ نقول لهؤلاء جميعا : إن كل حياة خلقها الله لها قوانينها . . فإذا انتقلنا إليها نعرف هذه القوانين . . ولكى يقرب الله سبحانه وتعالى هذه الصورة إلى الأذهان ، ويجعل العقول تستوعبها . . جعل الحياة قانونين مختلفين تماما . . قانون اليقظة وقانون النوم .

فأنت حين تكون مستيقظا تخضع حياتك لحواسك . . فترى بعينيك وتسمع بأذنيك ، وتمشى بقدميك إلى آخر ما يحدث بالنسبة لكل فرد فينا . . فإذا دخلنا إلى النوم انتقلت من هذه القوانين كلها إلى قوانين مختلفة تماما .

أولا حين تنام فإنك تفقد تماما عنصر الزمن . . لأن الزمن لابد له من أحداث تحدده . . فإذا لم تكن هناك أحداث فقدت إحساسك بالزمن . . ولذلك فإن الانسان إذا نام . . لا يعرف حين يستيقظ كم ساعة قضاها فى النوم إلا إذا نظر إلى الساعة . . ولا نجد إنسانا يستطيع أن يقول لك إنه نام ساعة أو ساعتين أو ثلاثا أو سبعا إلا إذا أخبرته أنت ، أو إذا نظر إلى الساعة ، أو إذا تغير الزمن . . بأن يكون قد نام ، والشمس مشرقة . . وقام والليل قد جاء . . إذن ففى قوانين حياة النوم يلغى الزمن .

وأنت نائم ترى فى المنام أشياء عجيبة لا تراها فى الدنيا . . وتجد نفسك فى أماكن غريبة لم تشهدها من قبل . . وتلتقى بعدد من الناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة تتكلم وتتحدث معهم . . وربما رأيت نفسك تقفز من جبل عال ، وتستقط فى واد عميق ، ولا تصيبك كسور ، ولا تحس بآلام . . وتقع لك أحداث لا تتفق مع منطق الحياة ولا قوانينها . فتجد نفسك مثلا فى الهواء بدون طائرة . أو تهبط إلى باطن الأرض . . أشياء لا تتقيد بمنطق ، ولا بقوانين حياة اليقظة فى الدنيا .

والعجيب أن ذلك يحدث لك وكل حواسك معطلة . . فأنت ترى وعيناك مغمضتان . . والعين حين تغمض فى اليقضة لا ترى . . وأنت تجرى ورجلاك ساكنتان فوق السرير . . وسكون حركة القدمين يتنافى مع الحركة فى حياة اليقظة . . فإذا كنت متيقظا ، وقدماك ساكنتان ، فأنت لا تتحرك . . وترى نفسك وأنت خارج هذه النفس . . فالانسان فى حياته الظاهرة لا يرى نفسه وهو خارجها . . وتتكلم ولسانك لا يتحرك . . وفى الحياة الظاهرة إذا سكن لسانك امتنعت عن الكلام .

كل هذا يطرح أكثر من تساؤل . . كيف ترى وعينك مغمضتان إذا كان الانسان لا يرى إلا بعينيه . . إذن فهناك رؤية بغير العين . . أى أن وسيلة الرؤية التى وضع الله أسرارها فى جسدك تعتمد على العين فى الحياة الظاهرة فقط . . أما وأنت نائم فإن هناك ملكات أخرى ترى . . وهناك ملكات أخرى غير قدميك تتحرك . . وهناك ملكات أخرى غير لسانك تتكلم . . والقوانين التى تحكمك ، وأنت نائم ، تختلف تماما والقوانين التى تحكمك وأنت فى حياة اليقظة . . ومع ذلك فأنت أنت نفس الانسان الذى ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد أن يضع جسده على السرير وينام .

وتحاول أن تجد تفسيرا لذلك كله فلا تستطيع . . بعض الناس يقول : إنه العقل الباطن . . والبعض الآخر يقول إنها رغبات مكبوتة . . كل إنسان يفسرها كما يريد . . ولكن أين هى

الحقيقة ؟ . . لا أحد يعرف ذلك يقينا إلا أننا حين ننام لا نتبع قوانين حياة اليقظة . . فإذا كان الانسان ينتقل من قانون إلى قانون بمجرد النوم . . فكيف لا ينتقل من قانون إلى قانون عندما تنتهى حياته فى الدنيا ، ويبدأ الحياة فى البرزخ . . ولا أحد يعرف ما هى القوانين التى تحكم الانسان عندما يغادر الحياة الدنيا . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى من كفار قريش بعد موقعة بدر . . وعندما سأله الصحابة : أتكلم الموتى يارسول الله ؟ . . قال إنهم يسمعوننى . ولكنهم لا يستطيعون الرد . . وكلم الموتى وهم فى قبورهم ، وكان يسمعهم . . ولكن هذه خاصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما قيل إن على بن أبى طالب رضى الله عنه كلم أصحاب القبور فى البقيع .

ولكن كل هذه الخصوصيات لمن أراد الله سبحانه وتعالى أن يفتح له بابا من أبواب الغيب ، ولا يمكن أخذها على أساس أنها عمومية يستطيعها كل إنسان ، أو يقدر عليها كل منا . فهى تختص بصاحبها فقط : ولذلك يجب ألا تعمم . . وإنما تنقل عمن قالها . . ونصدقها مادام قد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها مروية عنه .

أما نحن فيقف علمنا عند حد أن هناك حياة خاصة فى البرزخ لها قوانينها الخاصة ، ولها طبيعتها الخاصة . . كما أعطانا الله سبحانه وتعالى قانون النوم ، وقانون اليقظة ليعرفه كل منا . . فنخرج من ذلك بأن هناك أشكالا متعددة ، أو أطوارا للحياة يمر الانسان بها فى

مراحل مختلفة .. كل له قانون يحكمه ، كما أن لكل خلق من خلق الله قوانين تحكمه .

بـين المـوت والبعـث

على اننا إذا أردنا أن نأخذ مثلا من القرآن الكريم على أن هناك حياة بين الموت والبعث .. فإننا نأخذ ما رواه الله لنا عن آل فرعون كتشبيه لنا عن حياة البرزخ .. يقول الله سبحانه وتعالى فى آل فرعون :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سوة غافر ٤٦)

عندما يقول الله سبحانه وتعالى :
« يعرضون عليها غدواً وعشيا » .

فإن فى ذلك إشارة إلى أن هناك زمنا .. فالغدو والعشى أوقات ، وهذا من صفات الزمن ، ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة غافر ٤٦)

إذن عرض آل فرعون على النار لا يكون يوم القيامة . . فإن هناك زمنا يعرض فيه آل فرعون على النار . . ثم هناك زمن آخر عندما يأتى موعد يوم القيام يدخلون أشد العذاب . . إذن العرض غير قيام الساعة . . الظرفان مختلفان . . وبذلك نرى أن هناك حالتين . . حالة عرض على النار . . وحالة إدخال آل فرعون أشد العذاب يوم القيامة .

وإذا كنا نريد أن نمضى فى معرفة الآية الكريمة فإننا نقول : إن الأزمان يمكن أن نحددها نحن بثلاثة : هى : حياة الانسان . . وما بين الموت والبعث . . ويوم تقوم الساعة . من خلال هذه الأزمنة الثلاثة نحاول أن نحدد متى يتم العرض على النار . . غدوا وعشيا متى ؟

هل كان آل فرعون يعرضون على النار ، وهم فى الحياة الدنيا ؟ ثابت أنه لا . . فقد كان فرعون عاليا فى الأرض ، ونصب نفسه إلها يعبد . . واستخف قومه فأطاعوه . . وكل الأحداث التى رواها القرآن الكريم عن قصة فرعون وموسى تنفى تماما أن العرض كان فى الحياة الدنيا . . ولو أن آل فرعون عرضوا ولو مرة واحدة على النار فى الحياة الدنيا ما عبدوا فرعون ولو دقيقة واحدة . . بل لكانوا قتلوه . . ولو أنهم عرضوا على النار مرة واحدة فى الحياة الدنيا لآمنوا وسجدوا لله تعالى .

إذن لم يبق من الأزمنة إلا زمنان : حياة البرزخ ويوم القيامة . .

يوم القيامة يدخلون أشد العذاب . . ومن هنا انتقلت حالة أنهم يعرضون على النار يوم القيامة . . إذن فلابد أنهم يعرضون على النار فى حياة البرزخ . . وقد اختص الله آل فرعون بهذا العرض لتجبرهم وعبادتهم لفرعون . . وإدعاء فرعون الألوهية . . لأنها ليست معصية أوامر . . ولكنها معصية أمر . . فباقى الأمم عصوا الأوامر . . ولكن آل فرعون عارضوا الأمر على الألوهية وأنكروها . . فلذلك كان لهم أشد العذاب . . وكانت حياتهم فى البرزخ يعرضون فيها على النار .

هذه صورة من حياة البرزخ يرويها لنا القرآن الكريم . . وهناك صور أخرى حجبها الله عنا فى علم الغيب . . وكون الله سبحانه وتعالى قد أعد لآل فرعون أشد العذاب ولم يدخلهم النار إلا يوم القيامة دليل على أن العذاب الحقيقى يبدأ يوم القيامة . . وأن الانسان فى قبره يعرف مصيره . . يعرف حسناته وسيئاته . . يعرف مقامه من الجنة أو من النار . . ويرى مقعده ومنزلته فيها . . فإذا عرف أن مقامه فى النار . فذلك عذاب ما بعده عذاب . . لأنه عرف يقينا إلى أين يذهب . . ولذلك فإن هذا العذاب يجعله فى قبره ، وكأنه يتقلب فى النار حين يرى مصيره الأكيد . . يعيش فى ظلمة . . ويعيش فى كرب ما بعده كرب . . وحين يرى المؤمن مقامه أو مصيره فى الجنة . فإن ذلك نعيم ما بعده نعيم ، لأنه يحس وكأنه يعيش فى الجنة ونعيمها . .

إذن فالعذاب الحقيقى لا يأتى إلا بعد الحساب . . ولكن فى القبر

يكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى النار ، ليعيش فى عذاب مقيم . . ويكفى أن الانسان يعرف أن مصيره إلى الجنة ، فيعيش فى نعيم مقيم .

من هــو القــرين ؟

نأتى بعد ذلك إلى ما يقال عن القرين . . ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين . . وكيف أنه يلازم الانسان فى حياته ، وانه يعيش مدة أطول منه . . وانه عندما يمارس الناس مسألة تحضير الأرواح ، فإن هذا القرين هو الذى يأتى ، وهو الذى يتكلم .

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا فى فهم معنى القرين . . والله سبحانه وتعالى شرح لنا ما المقصود بالقرين . . ومن هو القرين فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

وقوله جل جلاله :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾

(سورة الزخرف - الآيات ٣٦ - ٣٨)

وقوله عز وجل :

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

(سورة النساء - الآية ٣٨)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

(سورة ق - الآية ٣٦)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) ﴾

(سورة فصلت - الآية ٢٥)

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بين لنا بما لا يقبل أى شك أو تأويل ، معنى القرين . . فالقرين هو من شياطين الانس والجن . . ومهمته أن يبعد الناس عن الصراط المستقيم . . وان يزين لهم معصية الله . . وأن يوسوس لهم بالسوء . . وأن يغويهم إلى طريق المعصية . . هذه هى مهمة القرين كما أوضحها الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم . . فكل من يصد عن سبيل الله ، ويحاول أن يبعد الناس عن منهجه فهو قرين .

ولكل إنسان منا قرين يحاول أن يدفعه إلى طريق النار . . ويدخل إلى قلبه الشك فى الايمان ، ويزين له عبادة الدنيا . . حتى إذا جاء يوم القيامة تبرأ هذا القرين من الانسان ، وقال : يارب انا لم أجعله يطغى ، ولم أزين له طريق المعصية . . ولكن هوى نفسه هو الذى دفعه إلى هذا الطريق . . فبعده عن المنهج هو الذى جعله ينحرف . . وهكذا يحاول كل من الانسان العاصى ، وقرينه أن يلقى اللوم على الآخر . . أما القول بأن هذا القرين هو شبيه بالانسان ، وانه يلازمه طوال حياته ويعيش أكثر منه . . فذلك لم يثبت إلا إذا كان المقصود أن القرين يظل يوسوس للانسان بالسوء طول حياته . . ويحاول أن يمنعه من العمل الصالح ومن العبادة . . ويظل يطارده ويلاحقه فى كل مكان ويدفعه إلى المعصية .

وعلى أية حال ، الثابت من القرآن الكريم أن القرين هو من شياطين الإنس والجن الذين يدفعون الناس إلى معصية الله ، وإلى طريق النار . . وان لكل إنسان قرينا يدفعه إلى هذا الطريق ، وان بعض الناس يستمعون إلى هذا القرين ، ويمضون فى طريق البعد عن منهج الله . . وبعض الناس لا يستمعون إلى القرين ولا يبالون به . وبذلك يكونون من أهل الجنة .

لقد ضرب القرآن مثلا عندما سأل واحد من أهل الجنة من القرين الذى كان يوسوس له بالسوء ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، أى فى وسط النار . . ومعنى ذلك أن هذا القرين قد أخفق فى أن يقود المؤمن إلى طريق الهلاك . . وهذا واضح من الآيات التى أوردناها .

كل شىء .. له كيان

كل شىء فى هذه الدنيا له كيان ، ولابد أن نعرف أن الموت له كيان . وإذا كنا لا نراه أو لانشهده ، فذلك لأنه محجوب عنا . . وكل شىء فى الدنيا هناك ملك موكل به . . والملائكة تتولى الانسان منذ خلقه حتى موته ، حتى بعثه .

وهناك خلق كثير ، وأشياء كثيرة لا نراها . ذلك أننا محدودون ببشريتنا . . ولذلك فإننا لا نرى إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . ذلك الظاهر الذى يمكننا من أن نؤدى فترة الاختبار التى تمثلها الحياة الدنيا

فى مراحل الحياة . . والناس فى أطوار الحياة المختلفة ، سواء فى الحياة الدنيا ، أو فى البرزخ ، لهم الحياة التى تتناسب مع قوانين تلك المرحلة . . ولا يموت كل من فى الدنيا من مخلوقات إلا عندما ينفخ فى الصور . . وينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى فيقول :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٨)

ولا أحد يعرف إلا الله سبحانه وتعالى ما هو الفارق بين النفخة الأولى والنفخة الثانية . . والله وحده هو الذى يعلم ذلك .

فترة الموت تستمر ما بقيت الحياة حتى يوم القيامة . . أى أن ملك الموت أو ملائكة الموت يظلون يؤدون أعمالهم فى قبض الأرواح حتى قيام الساعة . . وكل انسان موكل به ملك موت معين ليقبض روحه فى لحظة محددة معينة . . ويقال إنه عندما يطلق سهم الحياة يطلق معه سهم الموت . . ويظل ملك الموت يبحث عن ذلك الموكل بأن يقبض روحه . . إلى أن يأتى الأجل فيهديه الله إلى مكانه .

المـوت .. بـلا أسـبـاب

ولقد جعل الله لكل شىء سببا ، ما عدا الموت . . فالموت يأتى

بلا أسباب قد يكون أجل الانسان ، وهو فى بطن أمه لم ير الدنيا بعد . . وقد يكون عمره فى الدنيا ساعة أو ساعتين . . أو يوما أو أياما أو شهورا أو سنوات . فلكل إنسان أجله .

ولذلك فإن بعض الناس قد يقول إنه تشاجر مع إنسان فانفعل ذلك الانسان ومات . . وذلك قول خطأ . . لأن هناك الموت ، وهناك القتل . . والله سبحانه وتعالى قال عن رسوله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾

(سورة آال عمران ـ الآية ١٤٤)

إذن فالموت يختلف عن القتل . . ولكى نفهم هذه الحقيقة نقول أن القتل هو هدم البنية الأساسية للانسان ، فالروح لا تبقى إلا فى بنية سليمة تناسب بقاءها . . فإذا هدمت هذه البنية خرجت الروح . . أما الموت فإن له أجلا محددا لا يتأخر عنه لحظة ولا يتقدم .

والانسان لا يملك جسده . . ولو كان يملك هذا الجسد لكان يسيطر عليه . . ولكن معظم نشاطات الجسد الانسانى تتم بدون إرادة منا وبأمر الله . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عاقب المنتحر بالخلود فى النار . لأن هذا المنتحر قد قام بهدم بنية هى ليست ملكه . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها ، وهو الذى يملكها . . ولنفس

السبب حرم الله القتل إلا بالحق . . وقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(سورة المائدة ـ الآية ٣٢)

وأوعد القاتل بالخلود فى النار إذا تعمد القتل بغير ما شرع الله .

فإذا مات الانسان خلال مشاجرة مثلا أو مشادة لم يصب فيها بإصابة قاتلة تهدم بنيته ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد تصادف أجله مع هذه المشاجرة ، أو هذا الانفعال . . أما إذا هدمت بنيته الأساسية يكون ذلك قتلا يستحق القصاص فى الدنيا والآخرة .

ولا يستطيع إنسان أن يعرف ما سيحدث مقدما إلا الأنبياء . . وهم من شاء الله سبحانه وتعالى أن يفتح لهم بابا من أبواب الغيب . . لا يعرف إنسان إن كان مصيره إلى الجنة أو النار . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له مله بعمل أهل الجنة » .

ومما يروى فى هذا الصدد انه فى إحدى الغزوات كان أحد المقاتلين يقاتل مع المسلمين بشجاعة فائقة . . وذهب أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليه ممتدحين شجاعة هذا الفارس وإقدامه فى سبيل الله .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أهل النار .. فتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضت المعركة ، وجرح هذا المقاتل ، ولم يتحمل الجرح . فوضع سيفه تحت رقبته وضغطه لينفذ السيف من رأسه فمات .. وبذلك مات منتحرا .. واستحق أن يكون من أهل النار .. وعاد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نشهد إنك لرسول الله .

ولكن كيف عرفت انه من أهل النار ؟ ـ قال كان يقتل ليقال عنه إنه شجاع .. وقد قيل .

والمعنى أن هذا المقاتل لم يكن ، وهو فى المعركة ، يحارب فى سبيل الله .. بل كان يحارب وفى قلبه غرور الدنيا ، حتى يقول الناس إنه شجاع مقدام .. ولذلك لم تكن حربه هذه فى سبيل الله ، ولكن لارضاء الغرور الدنيوى .

ومعنى الحديث ان يعمل أحدكم عمل أهل الجنة .. ان الانسان قد يعمل الصالحات فى حياته ، حتى يصبح قريبا من الجنة ، ثم يغويه الشيطان .. ويغلبه بريق الدنيا فيترك العبادة ، ويطلق العنان لشهواته ، ويضيع عمله الصالح بالانغماس فى المعاصى .. وقد يعصى إنسان الله حتى يكاد يصبح من أهل النار ، ثم يتوب إلى الله فيهدى الله قلبه ، ويتوب عليه ، ويغفر له .

كل العذاب مؤجل
إلا ظلم الناس

وكل العذاب فى الدنيا مؤجل إلا ظلم الناس . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى مؤجل العاصين حسابهم إلى يوم القيامة ما عدا ظلم الناس ، فإن الله سبحانه وتعالى يقتص من الظالم فى الدنيا . . ذلك ان الله إذا ترك الظالم يستشرى بظلمه انتشر الظلم فى الأرض ، وعم الفساد بشكل كبير . . فالفساد الأكبر يأتى من ظلم الناس للناس . . والله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل . . ويعطى الظالم الفرصة بعد الفرصة ليتوب . . ويأخذه بالعذاب الأصغر عله يرتدع . . عله يفيق . . فإذا استشرى فى ظلمه رغم العذاب الأصغر الذى أراه الله له ثم رفعه عنه . . فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر . . فلقد أخذ الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه بالعذاب الأصغر أولا . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ١٣٠)

ويقول تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف - الآيات ١٣٣ - ١٣٦)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ آل فرعون بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكهم بالغرق .. ولكنهم رفضوا أن يرتدعوا بهذه الآيات .. وكلما رفعت عنهم آية من آيات العذاب الأصغر ، عادوا إلى كفرهم وطغيانهم .. ولو أنهم بعد أى آية من هذه الآيات تضرعوا إلى الله ، وعادوا إليه ، فربما تقبل الله توبتهم إن شاء .

وهكذا نجد أن الله يأخذ الظالم بالعذاب الأصغر قبل أن يهلكه ويمهله .. فإذا تجبر فى الأرض ، وزاد فى ظلمه ، فإنه فى هذه الحالة يهلكه .. والسماء تتدخل دائما لتزيل الظلم من الأرض عندما يستكين الناس للظالم ، ولا يتحركوا لدفع الظلم عن أنفسهم .. ذلك أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستشرون عادة فى ظلمهم .. ولذلك لابد أن تتدخل قدرة الله فى الحياة الدنيا لتزيح الظالم أو تهلكه ، حتى لا يستشرى الظلم فى الأرض .. وحتى لا يشقى خلق الله بالظالم حين يزداد فى ظلمه وطغيانه .. لذلك فالله سبحانه وتعالى حريص على أن يرى المظلوم يوما فى ظالمه ، وأن يرى المظلوم هذا الظالم الجبار

مجردا من قوته ذليلا .. تلفظه الأرض كلها .

ولعلنا شهدنا فى الفترة الأخيرة حكاما دانت لهم الأرض .. واستشرى ظلمهم بشعوبهم ، وتدخلت إرادة السماء لتنزع عن هؤلاء قوتهم وجبروتهم .. وانطلقوا مذعورين خائفين .. لا يجدون مكانا فى الأرض يأوون إليه ، رغم عظم ثرائهم ، ووفرة المال عندهم .. ترفضهم حتى تلك الدول التى كانت تعينهم على الظلم .

ولعل قصة ماركوس الذى كان حاكما طاغيا فى الفيلبين .. يقتل ويدمر ويقيم المذابح .. وبين يوم وليلة وجد نفسه مجردا من السلطان .. ترفضه دول الدنيا كلها رغم ما يملك من مال .

إذن فالقصاص من الظالم يتم فى الدنيا .

الانسان يرى الغيب

بقيت بعد ذلك نقطتان .. الأولى : هى أن الانسان يرى بعد الموت مالم يكن يراه فى الحياة الدنيا .. وفى تلك يقول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة ق - الآية ٢٢)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس نيام . فإذا ماتوا انتبهوا » .

والبصر الحديد هو البصر الحاد الذى يدرك إدراكا أفقه أوسع لم يكن يدركه . . فكل بصر له مدى أفق معين . . وعندما يبتعد الشىء عن البصر يصغر ويصغر إلى أن يتوارى ويزول . . فلا يعود البصر يدركه . . ولكن هل حقيقة أن الشىء يزول ؟ . . لا . . الشىء موجود فى مكانه . . ولكن مدى البصر هو الذى لا يدركه فنعتقد أنه توارى .

والناس فى الدنيا لكل منهم مدى بصر معين . . حدود لقوة البصر . . فإذا أتيت بشىء واحد ، وجئت برجلين : أحدهما ضعيف البصر ، والآخر قوى البصر ، فإن أحدهما ، وهو صاحب البصر الأقوى ، يرى الشىء . . ولكن ضعيف البصر لا يراه .

ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن هناك أشياء لا نراها فى الدنيا . لأن بصرنا الدنيوى محدود . . ولكن هذه الأشياء موجودة رغم اننا لا نراها . . ورغم أنها غيب عنا . . ولا يخفى هذه الأشياء إلا أن بصرنا البشرى محدود . . فإذا جاء الموت فإنك ترى الأشياء التى كنت تكذبها فى الدنيا . . فكأن الغشاوة قد رفعت عن بصرك . . فأصبحت هذه الأشياء واقعا فى حدود بصرك بعد أن كان على البصر غطاء دنيوى يمنعك من رؤيتها .

وهكذا فإن ما كنت تكذب به تراه الآن ويراه بصرك الذى أصبح اليوم قويا حادا . . ولو أنك أمنت بالغيب لرأيت الآن ما أمنت به واقعا . . ولرأيت كل ما ستراه من الغيب الذى حجب عنك رؤية

إيمانية ، ولكان لك اليوم رصيد إيمانى ينجيك من النار . . وهذا لوم وتقريع لغير المؤمنين . .

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . .

معناه : أن الناس فى الدنيا كالنائم الغافل عن الحقيقة ، وعما ينتظرهم فى الآخرة ، فإذا جاءت لحظة الموت رأى الناس مالم يكونوا رأوا فانتبهوا من غفلتهم الدنيوية التى كانوا فيها نياما . . والنائم لا يدرى ما حوله ، ولا يعرف ماذا يحدث . . فلما أفاقوا من غفلة حياتهم الدنيوية تنبهوا إلى المصير الذى هم ذاهبون إليه ، ورأوا مالم يكونوا يرون ، ولكن بعد فوات الأوان .

والنقطة الثانية : هى انه لا موت بعد يوم القيامة . . ذلك انه يؤتى بالموت فيذبح . . فينتهى الموت تماما ، ولا تبقى إلا حياة الخلود .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الفصل لنبدأ بعد ذلك فى الحديث عن يوم الدين . . ولماذا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه يوم . . وما مقدار هذا اليوم ؟ . . ومع معنى الزمن ؟

الفصل الرابع

الله .. والزمن

لا توجد حيرة تملأ حياة الناس كحيرتهم بالنسبة للزمن .. ذلك لأنهم عاشوا حياتهم كلها مع الزمن فألفوه .. وحددوا أوقاتهم فى الدنيا بالزمن فلم يعرفوا غيره .. وكان الزمن تأثير مباشر على حياتهم .. فهم يقيسون به أعمارهم ، وهم يقيسون به أحداثهم .. وهم يتخذونه مقياسا للحياة كلها .. فمواعيدهم ولقاءاتهم وانجازاتهم وكل حياتهم مربوطة بالزمن .. يقولون : سنفعل كذا فى يوم كذا .. ويقولون : سنتقابل فى الساعة الثالثة أو الرابعة أو السادسة .. أو فى الشهر القادم .. ويحددون عمر ما يفعلونه بالزمن .. فهذا سيستغرق ثلاثة أشهر .. وهذا يستغرق ثلاث سنوات إلى آخر ما نعرفه جميعا .

بل إن العبادات مرتبطة بالزمن .. فصلاة الفجر مثلا لها وقت .. وصلاة الظهر لها وقت .. وكذلك العصر والمغرب والعشاء .. والحج له زمن أو ميقات معين .. والصوم له زمن أو ميقات معين ..

بل إن الزمن يسيطر على حركة الحياة .. والله سبحانه وتعالى قد خلق النهار للسعى إلى الرزق والعمل .. والليل للسكون والهدوء ليستريح الجسد البشرى ، ويجدد طاقته لعمل اليوم التالى .. وهذا قانون من قوانين الحياة .. فالانسان لا يستطيع أن يعمل ليلا ونهارا .. ولو حاول ذلك خلال أيام قليلة لضاعت قواه ، ولم يستطع العمل .

والله سبحانه وتعالى هو خالق الليل والنهار .. وجعل الليل سكنا .. وجعل آية النهار مشرقة بالشمس .. وفى ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ١٢)

وهذا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العين لا تبصر بذاتها .. ولكن لابد أن تدخل إليها أشعة النور لتبصر .. فأنت فى الظلام الدامس لا تستطيع أن تبصر شيئا مهما تكن قوة بصرك .. ولكنك فى ضوء النهار ، أو فى ضوء المصباح ، تستطيع أن ترى .. ولو كان للعين قوة ابصار ذاتية لأبصرت ليلا ونهارا .

والليل والنهار مقياس من مقاييس الزمن .. ولقد ثار جدل كبير حول خلق الليل والنهار ، وأيهما خلق أولا : هل هو الليل أو النهار .. ولقد كان الاعتقاد فى الماضى أن الليل قد جاء أولا ، ثم بعده النهار .. ولكن الله سبحانه وتعالى رد على ذلك ، وصحح هذا المفهوم فى القرآن الكريم ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(سورة يس ـ الآية ٤٠)

وهنا رد الله سبحانه وتعالى وصحح مفهوما خاطئا كان يقول إن

الليل يسبق النهار . . ورد الله سبحانه وتعالى بأنه لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار . . وهكذا بين الله تبارك وتعالى ان الليل والنهار خلقا فى وقت واحد . . وفى هذا الليل دليل على كروية الأرض ، وعلى دورانها حول نفسها . . فلوأن الأرض كانت مسطحة ، أومربعة ، أوعلى أى شكل آخر ، لخلق النهار أولا ساعة خلق الشمس . . ثم بعد ذلك جاء الليل . . أو لخلق الليل أولا ، ثم بعد ذلك جاء النهار . . ولكن كون الأرض كروية . فإن النهار والليل يوجدان معا على سطح الأرض . . ودوران الأرض حول نفسها هو سر تعاقب الليل والنهار .

واليوم فى حياة البشر هو فترة من الزمن تبدأ من شروق الشمس إلى شروق الشمس . . أومن شروق الشمس إلى غروب الشمس . . بعض الناس يطلق على النهار كلمة يوم . . والبعض الآخر يطلق على الليل والنهار كلمة يوم . . وفى كلتا الحالتين هو وصف لفترة من الزمن تحدها علامة معينة من شروق الشمس إلى غروبها . . أومن شروق الشمس إلى شروقها فى اليوم التالى .

الــزمـن لـــه وجــود نســبى

الزمن لا يوجد فى حياة البشر وجودا مطلقا . . بل هو وجود نسبى . . فكل حدث بالنسبة لنا له زمن محدود ، أو ظرف زمان . . وله مكان محدود يقع فيه ، أو ظرف مكان . . وذلك حتى يستطيع العقل البشرى أن يستوعبه . . ولا يوجد فعل فى العرف البشرى يمكن أن يقع إلا فى زمن معين ، ومكان محدد . . ولا نستطيع نحن أن نستوعب هذا الفعل إلا بالزمان والمكان . . فكل إنسان منا له تاريخ ميلاد ومكان ميلاد . . وله تاريخ وفاة ومكان وفاة . . وبغير ذلك لا تفهم الأمور . . فنحن عاجزون عن فهم الأمور على إطلاقها .

والانسان لا يملك الزمن ، ولكن الزمن هو الذى يملكه . . فأنت لا تستطيع أن تأتى بالماضى لتغير شيئا قد حدث فيه . . فما حدث قد انتهى وخرج من قدرتك تماما . . ولذلك فإنك إذا كنت قد ارتكبت أى عمل ، كجريمة قتل أو سرقة ، أو أنفقت مالا ، أو تزوجت ، أو أنجبت امرأتك طفلا . . فإنك لا تستطيع أن تعيد الزمن ، وتمحو هذه الأحداث . . حتى تعود الحياة إلى الشخص الذى قتلته ، أو لايوجد الابن الذى أنجبته . . أو تستعيد المال الذى أنفقته . . وكذلك كل الأحداث .

وكما أنك لا تملك القدرة على الماضى ، فإنك لا تملك القدرة على المستقبل .. فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو قادم من شر حتى تتقيه .. ولا ما سيحدث لك من خير ، حتى تستطيع أن تستزيد منه .. ولا الأخطار التى ستقابلها ، حتى تستطيع أن تستعد لها .. ولكنك لا تملك إلا اللحظة التى تعيشها .

والزمن حجاب من أحجبة الغيب .. خلقه الله سبحانه وتعالى ليحجب عنا الغيب .. كما أن المكان حجاب أيضا من أحجبة الغيب .. وهناك حجاب الزمن الماضى يحجب ما حدث عنك .. حقيقة تستطيع أن تقرأ عنه فى الكتب .. وأن تسمع عنه من الرواة .. ولكن كتب التاريخ مليئة بالمتناقضات .. كل يحاول أن يروى من وجهة نظره وعلى هواه .. ورواة التاريخ مختلفون .. فإذا اختلفت الروايات .. فهل تستطيع أن ترى رؤية العين ما حدث فى الماضى حتى تصل إلى اليقين .. إنك لا تستطيع . لأن الزمن الماضى حجاب للغيب .. فهو غيب لم تره ولن تراه .

وأمن المستقبل أيضا من حجب الغيب .. فأنت لا تستطيع أن تعرف ماذا يحدث غدا .. ولا تستطيع أن تعلم ماذا يحدث فى العالم القادم .. والمكان أيضا من حجب الغيب .. فأنت لا تستطيع أن تعرف وأنت فى مكان محدد ماذا يحدث فى الأماكن الأخرى من الدنيا .. وهكذا كان الزمن من حجب الغيب .

وأنت لا تستطيع أن توقف الزمن ، لأنه ـ كما قلت ـ هو الذى

يملكك وأنت لا تملكه ، وأنت لا تستطيع أن تبقى طفلا ، ولا أن تبقى شابا لا يؤثر فيك الزمن . . ولكنك تنطلق من الطفولة ، إلى الشباب ، إلى الكهولة رغما عنك .

كل ما نملكه .. لحظة

وهكذا لا يملك الانسان إلا اللحظة التى يعيش فيها . . واللحظة التى مضت هى ماض لا يملكه إلا الله . . واللحظة القادمة هى مستقبل لا يملكه إلا الله . . وإرادتك لا تستطيع أن تجعلك طفلا لا ينمو ، أو شابا لا يصيبه الهرم . . أو إنسانا لا يدركه الموت . . فالزمن يمضى ، وأنت تأتى إلى الدنيا فترة محدودة ، وترحل ، وما تفعله لا تستطيع أن تعيد الزمن لتصححه .

ولذلك إذا قلنا « يوم » فهذا قانون دنيوى . . لا تسيطر عليه أنت . . فترة من الوقت لا تستطيع أن تعيدها . . وإذا نحن استطعنا أن نعرف الزمن بالقوانين البشرية . . فإن الزمن بمعناه المطلق غير موجود ، أى أنه نسبى . . مرتبط بالأحداث ، فهو فترة قياس أحداث معينة تقع . . وبدون هذه الأحداث لا يصبح للزمن معنى ولا وجود .

فمعنى زمن طويل أن الحركة التى حدثت فيه واسعة . . ومعنى

زمن قصير أن الحركة التى حدثت فيه ضيقة وسريعة .. فإذا استعرضت عمرك مثلا .. وقلت إن فترته ستون سنة أوسبعون سنة .. فأنت فى الحقيقة تستعرض أحداثا كثيرة ، وحركة حياة واسعة حدثت .. وإذا قلت : إن هذا الشىء لم يستغرق إلا ثوانى معدودة .. فأنت تستعرض حركة ضيقة وسريعة .. وبدون الحركة لا يكون هناك معنى للزمن .. ولكن ذلك الذى يغفل عن الزمن بنوم أو بموت لا يشعر بالزمن .. وليس الزمن موجودا فى حياته .. فنادرا عندما ينام الانسان أن يستطيع وحده ، دون أن يلجأ إلى ظواهر الزمن كالساعة أو الليل والنهار ، أن يحدد عدد الساعات حين يستيقظ إلا إذا نظر فى الساعة .. ولا يستطيع فاقد الوعى لفترة من الزمن أن يحدد الفترة التى قضاها فاقدا الوعى .. وكذلك لا يستطيع الانسان عندما يموت أن يحدد مدة الزمن التى قضاها فى البرزخ .. ولذلك نجد القرآن الكريم يلفتنا إلى ذلك فى يوم البعث فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(سورة الاسراء ـ الآية ٥٢)

وقوله تعالى :

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون ـ الآيات ١١١ ـ ١١٤)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة طه - الآيات ١٠٢ - ١٠٤)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا فى القرآن الكريم أن حياتنا فى البرزخ لا تخضع للزمن . . ذلك أننا حين البعث يوم القيامة يسألنا الله سبحانه وتعالى عن المدة التى قضيناها فى البرزخ . . فيقول بعضنا : لبثنا يوما أو بعض يوم . . ويقول المجرمون وهم لا يستطيعون تحديد الزمن ، فبعضهم يقول : إنها عشرة أيام ، وبعضهم يقول : إنها يوم ، وبعضهم يقول إنها ساعة . . ولو كان هناك زمن فى حياة البرزخ لعرف الذين عاشوا فيه كم قضوا . . ولكن عدم علمهم وتخبطهم يبين أن من يموت . . لا يستطيع أن يحدد الزمن الذى يقضيه فى حياة البرزخ . . لأن الزمن لا يقاس إلا بالأحداث .

صـورة الزمـن .. فى القـرآن

على أن هناك صورة أخرى أعطاها الله لنا فى القرآن الكريم هى سورة الكهف الذين لبثوا فى كفهم ثلثمائة سنين . وازدادوا تسعا . . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

(سورة الكهف الآية ١٢)

ويقول الله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ١٩)

فى هذه الآيات يريد الله سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى قوله الكريم :

﴿ ثم بعثناهم ﴾

وقوله تعالى :

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾

أى أن الايقاظ هنا كان إيقاظ بعث كما سيحدث يوم القيامة .. وكان الهدف منه أن يلفتنا الله إلى أننا لن نعلم كم من الزمن قد مر علينا قبل أن نبعث .. ولذلك قال تعالى :

﴿ بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾

أى أن البعث تم حتى يعرفوا أن تأثير الزمن يمكن أن يوقفه الله .. ولذلك حين تساءلوا ، وسألوا بعضهم البعض ، لم يكن عندهم ما يحدد لهم الزمن الذى قضوه خلال فترة النوم .. فحددوه على أساس العادة .. فالانسان عادة لا ينام إلا جزءا من اليوم ، أو على أقصى تقدير يوما بأكمله إذا كان فى غاية الارهاق .. والدليل على أن قولهم صادق بالنسبة لهم ، أنهم لم يروا تأثير الزمن على أجسادهم ، ولا على وجوههم .. بل بعثوا على نفس الهيئة التى ناموا عليها .

لو أن بعضهم مثلا نام ، وشعره أسود ، واستيقظ وقد شاب شعره .. لساعده ذلك على أن يقيس الحدث على مدة نومه .. لو أن أحدهم نام ، وهو شاب ، ثم استيقظ ليجد نفسه كهلا .. فى هذه الحالة كان من الممكن أن يقيس مدة النوم على مدة الحدث .. حينئذ تكون هناك أحداث قد حدثت ، وهى انتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، والحدث هو قياس الزمن .. فكانوا حينئذ ولو بالتقريب يستطيعون أن يحددوا مدة نومهم .. ولكن ماداموا قد استيقظوا على نفس الهيئة التى ناموا عليها .. إذن ففى هذه الحالة يقيسون الحدث بالزمن .. كيف حددوا الحدث .. إنهم استخدموا عادة النوم عند

الانسان .. أو مدة النوم ، أقلها بعض اليوم ، وأكثرها يوم كامل ، لأنه ليس عندهم مقياس للزمن فلا يوجد مقياس للزمن يعيش به الانسان مادام غائبا عن الأحداث .

طـلاقـة الـقـدرة
تـوقـف الـزمـن

إذا انتقلنا إلى قصة أخرى أنبأنا القرآن عنها فى قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٩)

فى هذه الآية يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته فى الكون .. وأن الكون الذى يعمل بالأسباب التى خلقها الله فيه طلاقة القدرة التى هى فوق الأسباب ، فلا يمكن ان تكون الأسباب

وهى من خلق الله ، قيدا على الخالق سبحانه وتعالى .

مر هذا الرجل على قرية خربت بعذاب من الله أو بذنوب أصحابها وفسادهم .. فتعجب ! كيف والأرض قد ماتت وذهبت منها كل آثار الحياة من إنسان وحيوان ونبات .. كيف سيحيى الله هذه الأرض التى ليس فيها أى مقومات للحياة ؟

وحينئذ أرادت مشيئة الله أن تريه هذا بالتجربة ، وأن يلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه .. ولما استيقظ وعادت الحياة إليه ، لم يكن فيه شىء قد تغير .. بل استيقظ على نفس الهيئة التى مات عليها .. استيقظ شابا قويا لا شىء حوله يستطيع أن يقيس عليه الزمن .. وحينئذ سأله الله : كم لبثت ؟ فقال قياسا على عادة النوم عن الانسان . وربما أكون قد نمت يوما ، وربما نمت بعض اليوم .. ولذلك كان صادقا مع نفسه حين قال : لبثت يوما أو بعض يوم .. حينئذ أنبأه الله سبحانه وتعالى أنه قد لبث مائة عام .. ولكى يعطيه الدليل المادى على ذلك قال :

﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك ﴾

فوجد الطعام لم يتغير .. ثم طلب الله منه أن ينظر إلى حماره .. فوجد أن الحمار قد مات ، ولم يبق منه إلا عظاما نخرة .. أى أنه مات .. ثم تعفن ، ثم تحلل ، حتى أصبح عظاما نخرة ، فقال : إن ذلك لا يمكن أن يحدث فى يوم واحد .. بل لابد له من فترة طويلة .. فلما تبين له ذلك أعطاه الله آية بأن جعله يشهد عودة

العظام النخرة ، وعودة الحياة إلى حماره .. فقال الرجل :

﴿ أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

ولقد كان مرور الزمن على الحمار وتوقف الزمن عن الطعام .. آية بأن الله سبحانه وتعالى يستطيع بطلاقة قدرته أن يجعل الزمن يمضى أو يقف . بذلك قد وصلنا إلى أن مقياس الزمن هو الأحداث التى تقع فيه .. وأن الانسان إذا كان فاقد الوعى ، أو فى حياة البرزخ ، لا يستطيع أن يحدد الزمن .. وهنا يقف الزمن .. أى لا يكون هناك زمن ..

إذن فالزمن شيء نسبى فى الحياة .. وهو كما لا نحس به عندما ننام ، ولا نستطيع أن نحدده .. كذلك فى حياتنا فى البرزخ لا نستطيع أن نحدد الزمن ، لأنه لا زمن فى هذه الحياة .

ما معنى يوم القيامة

ننتقل بعد ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى أطلق على البعث ووصفه بأنه يوم ، فقال سبحانه وتعالى : يوم القيامة .. ويوم الدين .. وكلمة يوم يمكن أن تؤخذ بأنها موعد . غير أن بعض الناس يتساءلون : كيف يمكن أن يطلق الله لفظ يوم وهو لا يحده زمان ولا مكان .. وليس هناك زمن .

إن هذا الاطلاق له أكثر من معنى . . فيمكن أن نقول إن هذا تنبيه بأن الحساب سيمضى بلا توقف . . بمعنى أنه لن يتوقف الحساب ليستريح الناس وينامو . . ثم يستأنف فى اليوم التالى كما يحدث فى عالمنا البشرى . . ويقرب الله هذا إلى أذهاننا فيطلق اسم يوم . . على أساس أن العمل يستمر طوال النهار ثم يتوقف ليلا .

ولكن الذى يجب أن نفهمه أن كلمة يوم عند الله لا يحدها زمان . . أو لا يحدها وقت . . الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحج - الآية ٤٧)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج - الآية ٤)

وأمام هاتين الآيتين لابد أن نتوقف قليلا . . كيف يكون اليوم عند الله سبحانه وتعالى مدته مرة ألف سنة ؟ ومرة خمسون ألف سنة ؟ . . وأى مقياس لليوم عند الله . . هل يوم القيامة يساوى يوما من أيام الدنيا . . أو يساوى ألف سنة - أو يساوى خمسين ألف سنة - إن ذلك يلفتنا إلى حقيقة هامة . . تفهمنا معنى اليوم فى استخدامه مع يوم القيامة .

إذا أردنا أن نعرف المعنى المطلق للزمن ، فإنه كما قلنا لا يوجد معنى مطلق .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن .. ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوما مقداره ساعة .. ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة .. ويوم مقداره ألف سنة .. ويوما مقداره خمسون ألف سنة .. ويوما مقداره مليون سنة .. فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. بأحداثه كلها .. بجنته وناره .. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه .. وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون ويخرج من علمه إلى علم مخلوقاته .. سواء كانوا من الملائكة أو البشر أو الجان .. يقول الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم :

﴿ كـن . ﴾

فيخرج من علمه إلى علم خلقه .. أو يخرج من علم الله الأزلى ، إلى علم غير الله المحدود .. والله سبحانه وتعالى لا يحده يوم ولا زمان ، ولا مكان .. ولكنه إذا قال هذا يوم الدين .. كان ذلك يوم الدين .. فإذا أراده الله أن يحدث فى هذه الدقيقة ، حدث فى هذه الدقيقة .. وإن أراده يحدثه بعد ألف عام ، يحدث بعد ألف عام .. وإن أراد أن يظهره بعد مليون سنة ، حدث بعد مليون سنة .. فيوم الدين موجود فى علم الله بكل مواصفاته من زمان

ومكان ، وطريقة بعث وحشر ، وطريقة حساب وجنة ونار . . كل هذا فى علم الله . . والله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده .

اليـوم فى حيـاة البشـر

ونحن إذا قلنا « يوم » بمنطق البشر فهذا قانون دنيوى . . يحكمنا ولا نحكمه . . يسيطر علينا ولا نسيطر عليه . . حقبة من الزمن تمر ، سواء أردنا أو لم نرد بأحداثها ووقائعها ، وكل ما يتم فيها . . هذا هو المنطق البشرى . . ولكن الله سبحانه وتعالى فوق هذه القوانين كلها . . انه هو خالقها يأمرها فتطيع .

إذن فيوم الدين يتم بمقاييس الله سبحانه وتعالى يضعها هو بزمن يخلقه فى موعده . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا باختلاف المقاييس فى الآخرة عن مقاييس الدنيا . . فكما أننا قد بينا أن القوانين تختلف بين النائم والمستيقظ . . فإن القوانين أيضا تختلف يوم القيامة . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى ألا نأخذ شيئا فى يوم القيامة بمقاييس الدنيا . . فنحن سنرى ما كان محجوبا عنا . . وسنشهد مالم نشهده فى حياتنا الدنيوية . . وستكون هناك أحداث تقع لم نكن نتخيل أنها موجودة . . ولذلك إذا أراد الله أن يخلق يوما كيوم القيامة مقداره ألف عام لاستطاع . . ولو أراد أن يفرق بين هذا

اليوم وغيره .. بأن يجعله مليون سنة ، فإن ذلك يحدث .. إذن فلا نأخذ نحن ، ولا نحاول أن نحدد مقاييس يوم القيامة بمقاييسنا الأرضية .. بل علينا أن نبتعد عن ذلك تماما .. ولنأخذ تحديد الله لليوم بأنه الفترة التى يقتضيها حساب الناس جميعا .. أى أنها فترة أحداثها تبدأ بالبعث .. وتنتهى بانتهاء محاسبة الخلق . وبقدر ما شاء الله لهذه الأحداث أن تمتد ، فذلك هو يوم القيامة .. الذى يحدده بداية ونهاية هو البعث من القبور ونهاية الحساب .. هل يتم ذلك فى ساعة أو فى مليون سنة .. لا أحد يستطيع أن يحدد لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى تحدد ذلك اليوم .

وكما اننا قد عرفنا اننا نغيب عن الزمن بحيث يبعث الذين ماتوا منذ بداية عمر حياة الانسان .. فلا يعرفون كم قضوا فى البرزخ .. ويقولون انه يوم أو بعض يوم .. مع انه قد يمتد بحسابنا البشرى إلى مئات الألوف من السنين .. وربما ملايين السنين .. فكذلك يوم القيامة لا تحده المقاييس التى نعيش بها .. ولا قدرات الدنيا ..

بعض العلماء يقول : ان الناس فى الآخرة سيتعرضون لأهوال ، ويرون أشياء لم يكونوا يرونها كالملائكة والشياطين .. بل إن الناس سيرون من كان قبلهم فى الدنيا ، ومن أتى إليها بعدهم .. وهؤلاء وهؤلاء لم يكونوا قد رأوهم من قبل .. نقول : إننا لا نريد أن نتجاوز ، لأن يوم القيامة ينتهى فيه إلف الحياة الدنيا .. أى ما ألفنا فى الدنيا كالليل والنهار والبحار والجبال والنجوم والشمس والقمر

كل هذا سيختفى وسينتهى . ونحن سنخرج من هذه الأرض ، ثم بعد ذلك نحشر فى أرض المعاد .. ولكن ما قضينا معه عمرنا .. كل هذا سينتهى تماما .. وذلك إذا تنبهنا لعلامات القيامة فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

(سورة الانفطار - الآيات ١ - ٤)

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾

(سورة التكوير - الآيات ١ - ٦)

إذن فكل الحياة التى ألفناها من شمس وبحار وجبال ونجوم ستختفى وتنتهى تماما .. وكل المقاييس الدنيوية ستزول .. ولا يمكن لنا أن نستخدم مقياسا دنيويا مما ألفناه فى مقاييس الآخرة .

نكون هنا قد وصلنا إلى توضيح معنى اليوم .. وقد شاءت رحمة

الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى القرآن الكريم من المعانى التى تقرب إلى أذهاننا ما هو غيب عنا ، وذلك رحمة بعقولنا .. وحتى لا تتيه وتضيع .

وانتهت الأسباب فلا تعمل

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه مالك يوم الدين .. ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده .. ليس هناك دخل لأى فرد آخر فيه .. أنا أملك عباءتى : وأملك متاعى ، وأملك منزلى .. وأنا المتصرف فى هذا كله وحدى .. والذى أحكم فيه جميعه .. فمالك يوم الدين معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب أى أن كل شىء سيأتى من الله مباشرة .. بدون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهرا .. ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس .. ويولى بعض الناس ظاهرا أمر بعض .. ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر .. الأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار ـ الآية ١٩)

لقد خلق الله الأسباب فى الدنيا لتمضى بها الحياة . . ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، والأمر مباشر من الله .

والملك فى ظاهر الدنيا يهبه الله لمن يشاء ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ٢٦)

ولعل كلمة « تنزع » التى استخدمها الله سبحانه وتعالى تلفتنا إلى أن أحدا فى الدنيا لا يرحب ولا يريد أن يترك الملك . . ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا . . أى رغما عنه ، ورغما عن إرادته . . والله هو الذى ينزع الملك ممن يشاء .

ولعل بعض الناس يتساءل : هل الملك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟ . . نقول . . الأمر فى كل وقت لله . . ولكن الله قد استخلف بعض خلقه . . أومكنهم من ملك فى الأرض . . فجعل لهم ملكا ظاهريا . . ومعنى ذلك أنه ملك ظاهر للناس فقط على انه للبشر . . ولكنه فى حقيقته ليس نابعا من ذات من يملك . . ولكنه نابع من أمر الله . . ولو انه كان نابعا من ذاتيه من يملك وقدراته لبقى له . . ولم ينتزع منه . . ولكن انتزاع الملك ممن يملك دليل على انه لا يملكه بذاته وقدراته ، ولكنه مستخلف فيه بأمر الله . . ولهذا حكمة . . فالملك الظاهر يمتحن فيه العباد . . يمتحن فيه من يملك ، لأن الله سبحانه

وتعالى يحاسبه يوم القيامة على كيف تصرف فى ملكه واداره .. وهل طبق فى ذلك منهج الله أم انطلق يفسد فى الأرض .. ويمتحن فيه الناس .. هل سكتوا على الحاكم الظالم ؟ .. وهل استكانوا للظلم ؟ .. وهل استحبوا المعصية ؟ أم أنهم وقفوا مع الحق وضد الظلم ؟ .. وهو لا يمتحن هؤلاء لأنه لا يعلم المصلح منهم من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكون كل منهم شهيدا على نفسه ، حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة .. ويقول يارب : أنك أعطيتنى الملك لا تبعث الطريق السوى ولطبقت منهجك .. ولكن حتى لا يجادل إنسان ، ويكون كل شخص شهيدا على نفسه يوم القيامة . خلق الله الأسباب فى الدنيا ، وخلق الملك الظاهرى .

علم الله ..
وأحداث الدنيا

وبعض الناس يتساءل عما إذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء ، فهل هو محتاج لأن يمتحننا فى الدنيا ؟ .. والجواب طبعا لا .. ولكننا إذا أردنا أن نضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان ، ولله المثل الأعلى ، نقول إن الجامعات فى كل أنحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها .. فهل أساتذة الجامعة يجهلون ما يعرفه الطالب ، ويريدون أن يحصلوا منه على العلم ؟ .. طبعا لا .. ولكن ذلك يحدث . حتى إذا رسب الطالب فى الامتحان ، وجاء

يجادل ، واجهوه بإجاباته فيسكت . . ولو انه لم يعقد مثل هذا الامتحان . . لا دعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف . . ولو لم يجعل الله الملك ظاهريا فى الأرض . . ويجعل فى ظاهر الأشياء أن هذا يعطى وهذا يمنع . . وهذا يستطيع أن يعطيك المال والخير . . وهذا يستطيع أن يأخذه منك . . لما اندفع ضعاف النفوس من الناس لارضاء البشر على حساب الله . . ولما وجد الاغراء بالمعصية ، واستحق الناس الذين يلتزمون منهج الله دخول الجنة .

إذن فظاهر الأشياء فى الدنيا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا من أنها امتحان يمر به الانسان . . ليوصله إلى الجنة ، أو إلى النار . . أما فى الآخرة فظاهر الملك يختفى ، والأسباب تختفى ، ولا يملك إنسان لانسان أمرا ولو كان ذلك ظاهرا .

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن معنى الزمن ، ومعنى يوم الدين . . والاختلاف بين قوانين الدنيا ، وقوانين البرزخ ، وقوانين الآخرة . . ونبدأ فى الحديث عن علامات الآخرة . . أو علامات الساعة التى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى تحققت .

الفصل الخامس

علامات الساعة

رسول الله صلى الله عليه وسلم له نبوءات كثيرة عن اقتراب الآخرة . . وهذه النبوءات . . تحقق معظمها ، وأصبح واقعا نعيش فيه بعد أن كان غيبا عمن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاشوا معه . . ونحن نصدق هذه النبوءات جميعا ، ما تتحقق منها مل ومالم يتحقق ، لأنه مادام رسول الله قد قال ، وهو الصادق الأمين ، نى فلابد أنها هى الحق .

ولقد كشف الله من غيبه لرسوله الكثير . . وأطلعه على ما هو قادم ، ولكن ليس معنى هذا أن يدعى أحد أنه يعرف الغيب . . ذلك أن تلك خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده . . فهو موحى إليه من السماء . . وقد أسرى به إلى سدرة المنتهى ، وأطلع ورأى وعرف أشياء لم يطلع عليها غيره .

وإذا كنا نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنه رسول آخر الزمان . . ومعنى ذلك أنه الرسول الخاتم الذى لن يأتى رسول بعده حتى يوم القيامة . . ومعنى ذلك أيضا أن رسالته تستمر فى الأرض إلى آخر يوم من أيام الزمن . . والزمن ـ كما قلنا ـ مقياس أرض ينتهى بانتهاء الدنيا .

وهناك نبوءات لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحداث قريبة وقعت بعد وفاته . . فقد تنبأ بانتشار الدولة الاسلامية شرقا وغربا . . وقامت الدولة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها . . ولم تمتد شمالا إلى أوربا ولا جنوبا . . وتنبأ بواقعه الجمل ، كما تنبأ بمقتل

الحسين وغير ذلك .. ولكننا لن نتعرض للنبوءات القريبة التى تحققت .. وإنما ستتعرض للنبوءات التى تحققت فى هذا الزمان .. أو على وجه الدقة لبعض هذه النبوءات ، لأن المجال لا يتسع لها كلها .

عندما ترى هوى متبعا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا رأيت هوى متبعا ، وشحا مطاعا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فانتظر الساعة) .

هنا فى هذا الحديث ثلاثة أشياء : أولها الهوى المتبع .. ما معنى الهوى المتبع ؟ .. لقد أنزل الله سبحانه وتعالى للناس منهجا يحكم حركة حياتهم .. ومنهج الله هو الذى ينبغى أن يسود إذا أرادت البشرية أن تحصل على الحياة الآمنة المنسجمة فى الأرض .

ولقد طبق المسلمون الأوائل منهج الله .. فسادت الحضارة الاسلامية العالم أكثر من ألف سنة .. وقادت الحضارة والعلم ، وكان الرقى والتقدم والازدهار للمسلمين وحدهم المتبعين لمنهج الله .

ثم بدأ المسلمون يبتعدون عن المنهج وعن تطبيقه .. لأن الدنيا اجتذبتهم .. وأصبح لكل واحد منهم هوى فى الدنيا .. رغبة

تناقض منهج الله وتنقضه ، ولكنه يفعلها ليرضى أهواء نفسه .. ويحقق منافع ذاتية لذاته .. فكل واحد فى الدنيا يريد المال .. والله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا للمال .. بأن ما يأتى منه عن طريق حركة الحياة يكون هو الحلال .. أى ما يتأتى منه بالعمل ، سواء أكان ذلك عملا مباشرا ، أم عن طريق المشاركة ، ولكن الناس تريد المال بلا عمل .. وهذا مناقض لمنهج الله .

ولكى يحقق الناس هذا النفع الذاتى نقضوا منهج الله .. وأصبح الواحد منهم يتفنن فى الحصول على المال الحرام .. إما بالسرقة ، أو بالنصب ، أو بالتحايل ، أو بفعل ما يغضب الله .. هذا نوع من الهوى المتبع .

نوع آخر .. الانسان يريد أن يعتدى على حرمات غيره ليحقق لذاته متعة وقتية .. والله يحرم ذلك .. ومنهج الله لا يقره .. وهنا يدخل الهوى المتبع .. فبدلا من أن يطبق الناس منهج الله ، ويغضوا أبصارهم انطلقوا وراء شهواتهم ، ونقضوا منهج الله لحركة الحياة .

إذن لم يصبح منهج الله هو الذى يحكم .. ويرجع الناس إليه فى افعل ولا تفعل .. بل أصبح ما يريد أن يحققه كل إنسان لذاته هو الذى يحكم .. وفى هذه الحالة ينسى الناس التكليف ، ويبتعدون عنه ، ويجعلونه وراء ظهورهم ، ولم يعد يسيطر على حركة الحياة فى الدنيا إلا هوى النفس .. وأصبح أى إنسان يستبيح أى شىء ، وأى عمل فى حركة الحياة ليحقق لنفسه مالا أو نفعا .. ومادام هوى

إذن يكون الخلاف هو السائد .. ونكون قد نقضنا منهج الايمان .. لأنه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .. وإذا اصطدمت أهواء الناس فى الحياة .. تفسد الحياة الدنيا .. لأننا فى هذه الحالة نخضع الحق للهوى .. أى يكون الحق فى يدنا لعبة نشكلها كما نشاء ، بحيث تحقق لنا ما نريد .. وينطبق علينا قول الله سبحانه وتعالى :

النفس هو الذى يحكم الحياة ، وليس منهج الله .. تصبح حركة الحياة متعاندة .. وصراع الحياة مريرا .. هذا يريد ، وهذا يريد ، ولا تتفق النفوس أبدا .. ويشقى الانسان فى الأرض . لأن حركة الحياة لا تستقيم إلا إذا كان هناك أمر تصونه ويصونك .. ونجتمع عليه جميعا .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(سورة المؤمنون - الآية ٧١)

لماذا ؟ لأن هوى كل واحد منا مخالف لهوى الآخر .. ولكن الحق واحد لا يتغير .. ومن هنا فهذا يريد .. وهذا يغير .. وهذا يغير .. وما جاء الدين إلا لعصمة حركة الحياة من أهواء الناس حتى يكون هناك حق واحد ، فنتجه جميعا إلى عمل لا يتعارض .. ولكن يتعاضد .. أى يكمل بعضه بعضا .. ويتساند ، أى يقف بعضه مع بعض حتى تستقيم الدنيا .

فإذا رأيت هوى متبعا .. فاعلم أن منهج الله لا يحكم حياة الانسان فى الكون ، وعندئذ انتظر الساعة .

ما هو ..
الشح المطاع ؟

الأمر الثانى حين ترى شحا مطاعا .. والشح هو البخل .. ومعنى ذلك بخل النفس عن أن تعطى .. وفى هذه الحالة تحدث النفس صاحبها أنه لو انفق لذهب ماله .. واغواء الشيطان فى هذه الحالة يكون هو الغالب والحاكم على سلوك الانسان ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٦٨)

يبخل الناس بما لهم فلا ينفقونه فى سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير والمحتاج .. ولا ينفقونه فيما ينفع الناس .. وحينئذ يختل المقياس الاقتصادى .. ويصبح هناك غنى فاحش ، وفقر مدقع .

ولابد أن نتنبه إلى أن شح الحياة ليس معناه الشح المالى فقط ..

ولكن معناه العام .. شح أو بخل كل ذى قدرة بقدرته وجهده .. فتجد العامل يستطيع أن يعمل ، ولكنه لا يعمل .. والموظف يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج .. وكل عمل فيه جهد يبخل العاملون فيه بجهدهم .. فهناك بخل من ذى القدرة بجهده .. وبخل من ذى العلم بعلمه .. أى أن العامل أو المعلم أو الأستاذ قد يملك العلم الكثير والغزير .. ولكنه يبخل أن ينقل هذا العلم إلى طلبته .. أو إلى من يدرسون العلم على يديه .. بل لا يعطيهم من علمه إلا قدرا بسيطا جدا .. وشح ذى الجاه بجاهه .. أى أن الانسان يكون فى مجتمعه مسموع الكلمة ، مطاع الأمر .. ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له من هذا الجاه فى مساعدة المحتاجين .. أو فى انصاف المظلومين .. أو فى تمكين الضعفاء من حقوقهم .. فيأتى إليه المحتاج ، وهو يستطيع أن يقضى له حاجته بكلمة واحدة .. ولكنه لا يفعل .. بل يتركه بدون أن يقضى له حاجته .. ويأتى إليه المظلوم .. ويعرف ذو الجاه أن هذا المظلوم قد وقع عليه ظلم .. وهو يستطيع بكلمة واحدة أن يزيل هذا الظلم ، ولكنه لا يفعل .. ويظل المظلوم يرجو ، وذو الجاه أو السلطان لا يفعل شيئا .. ويأتى الضعيف إلى صاحب الجاه يطلب منه أن يمكنه من حقه ، ويستطيع صاحب الجاه أن يفعل .. ربما بتوقيع صغير منه يستطيع أن يعيد لهذا الضعيف حقه ، ولكنه لا يفعل .

وهكذا فى كل أوجه الحياة تجد شحا مطاعا .. فكل إنسان يبخل بجهده على غيره ، حتى ولو كان هذا الجهد لا يكلفه شيئا .. وأقل

الشح هو شح المال .. وأكثر الشح ضررا هو شح النفس فى أن كل إنسان لا يعطى المجتمع الذى يعيش فيه ما عنده .

وبذلك يتدهور المجتمع ، وتزداد مشاكل الناس تعقيدا .. ولا توجد لها الحلول .. فمادام الشح المطاع هو الذى يحكم .. فالمجتمع كله ينحدر بسرعة إلى هاوية عميقة .. حتى لو وجدت أقلية تعطى ما عندها من مال وعلم وجاه إلى آخره .. فإن الأكثرية التى لا تعطى تفسد جهود الأقلية التى تعطى ، وتجعلها جهودا غير مؤثرة .

حديث القرآن عن الشح

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا فى القرآن الكريم مسألة الشح فى ثلاث آيات .. فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء ـ الآية ١٢٨)

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(سورة الحشر - الآية ٩)

وقال تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن - ١٦)

وهكذا نرى فى الآيات الثلاث أن الشح لا ينطبق على المال فقط . . ولكنه ينطبق على كل نشاطات الحياة . . ففى الآية الأولى ينطبق على المعاملة مع الزوجة ،وعلاقة الزوج بها . . والله سبحانه وتعالى يطالبنا فى علاقتنا بالسماح وليس بالتشدد . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا اقتضى » .

والآية الثانية فى سورة الحشر يبين الله سبحانه وتعالى فيها السماحة التى لابد أن تقوم فى المجتمع الاسلامى . . تلك السماحة التى تقيم

المجتمع على أساس المحبة . . وقد نزلت هذه الآية فى الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . . وتركوا أزواجهم وأولادهم ، وكل ما يملكونه فى مكة .

انظر إلى السماحة فى هذا الظرف غير العادى ، أو هذا الظرف القهرى . . مجموعة تملك كل شىء . . ومجموعة ليس لديها شىء ، حتى الزوجات أو النساء . . والرجل قد يفرط فى شىء . وقد يعطى من كل شىء : من ماله وعلمه وجهده . . ولكن لو وصلت المسألة إلى الزوجة ، أو الزوجات ، فإنها فى هذه الحالة تكون شديدة جدا على النفس . . ولكن الأنصار كان الواحد يذهب إلى أحد المهاجرين ، ويقول له : هذا مالى فخذ نصفه . وهذه دارى نقتسمها معا . . وهؤلاء زوجاتى انظر إليهن . . أحبهن إلى نفسك أطلقها وتتزوجها .

وهكذا وصل العطاء فى هذا الظرف غير العادى إلى حدود غير عادية . . ولكن ذلك تم حتى لا يكون المجتمع الاسلامى بادئا بمجتمع فيه فقر مدقع ، وغنى فاحش . . فيه متزوجون ورجال بلا زوجات ، فقد تشيع الفاحشة . . وألا يقوم هذا المجتمع على الحقد ، لأن من لا يملك سيحقد على من يملك .

والآية الثالثة فى الايمان والتقوى . . وذلك حتى يعطى الانسان الطاقة التى يستطيعها للايمان والعبادة ، ولا يكون شحيحا فى صلاته . . يقول : سأصلى الفرض وحده ، ولن أصلى السنة . .

أو شحيحا فى زكاته وصدقته . . فيقول ، وهو يملك الكثير ، لن أخرج من زكاة المال إلا ما هو مفروض بدون أن أزيد عليه قرشا واحدا . . وكذلك فى كل متطلبات الايمان من الله سبحانه وتعالى . . يعد الله بالأجر العظيم من يزيدون فيها ولا يبخلون . . بشرط أن تكون الزيادة من جنس ما فرض من العبادة . .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أن الله سيسأل الناس يوم القيامة عما فعلوه بالمال الذى وهبهم إياه . . وبالعلم الذى أعطاه لهم . . وبالجاه والسلطان الذى جعلهم مستخلفين فيه . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه) .

على أننا لابد أن نتساءل : لماذا يكون الشح المطاع نقضا لمنهج الله فى الأرض ؟ . . لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل للبشرية حضارة وتقدما . . وهذه الحضارة والتقدم لايتمان إلا إذا أعطى كل جيل كل ما عنده للجيل الذى بعده . . وحينئذ يبدأ الجيل الجديد من النقطة التى انتهى إليها الجيل الذى قبله . . ثم يضيف إليه .

وعدم عطاء أى جيل كل تقدم فى الحياة للجيل الذى بعده سيوقف تقدم الحضارة والعلم . . ويؤثر على تقدم البشرية كلها . . والله قد وضع منهجا يحقق تقدم الانسان فى الحياة ورقيها . . وشح النفس يمنع

تطبيق هذا المنهج وينقضه .

إعجاب صاحب الرأى برأيه ..

والأمر الثالث إعجاب كل ذى رأى برأيه .. ما هو الرأى ؟ .. الرأى هو الذى يمثل هوى النفس الداخلى .. أى ما تخفيه فى نفسك من أهواء وأطماع ولا تعلنه للناس .. ولكنك تصل على تحقيقه بأراء تبديها .. تحاول أن تضع فى ظاهرها المصلحة العامة .. بينما هى فى الحقيقة محاولة لتحقيق ما تخفيه من أغراض .. حينئذ تختلف الآراء فى الشىء الواحد .. فيصبح لهذا رأى ولهذا رأى .. ولهذا رأى .. وكل الآراء التى تسمعها هى آراء بعيدة عن الحق والحقيقة .. وكل إنسان متمسك برأيه يحاول أن يدافع عنه دفاعا مستميتا .. وفى هذه الحالة عندما تختلف الآراء لا تعرف أين الحق .

ولا يلتفت كل هؤلاء الذين يدلون بآرائهم إلى رأى المشرع ، ولا رأى منهج الله .. بل يصبح كل تشريع يطبق على أساس المطامع التى يخفيها كل إنسان فى صدره .. والتشريع الواحد يطبق مئات التطبيقات المتعارضة المتناقضة .. وكل من يطبق متمسك برأيه .. معتز به .

حينئذ تتعاند حركة الحياة وتصطدم .. ويصبح الناس فى فوضى

لا يعرفون ماذا يفعلون .. الشيء محدد .. ولكن الأغراض التي يخفيها الناس في صدورهم ، ويحاولون تحقيقها عن طريقه ، متناقضة ومتباعدة .. بحيث تجعل حركة الحياة نفسها لا تستقيم ولا تعتدل .

وإذا نظرنا إلى ما يحدث الآن .. نجد أننا في بعض الأحيان نرى أناسا يعرفون أن الرأي الذي يقال هو الحق .. ومع ذلك فانهم مع اعجابهم برأيهم ينقضون هذا الحق برأي باطل .. ومع أنهم يعرفون أن هذا الرأي الذي يقولونه باطل ، إلا أنهم يتمسكون به ، ويدافعون عنه زهوا واعجابا .. بأن الرأي الذي سيؤخذ به هو رأيهم هم ، مهما يكن رأيهم مخالفا للحقيقة ، ومتصادما مع الحق .

بل انهم يفاخرون بعد أن تنتهي الجلسة وتنفض .. بأنهم قد استطاعوا أن يفرضوا رأيهم على غيرهم .. ويقولون زهوا : لقد أخذ الجميع برأينا .. وقد يقضي موظف كبير برأي ما . فإذا جاء من هو أقل منه في المنصب ، وأبدى رأيا مخالفا يتفق مع الحق .. فإن هذا الموظف الكبير يرفض الرجوع عن رأيه مع أنه باطل ، ويصر عليه وعلى تنفيذه ..

وهكذا يضيع الحق في الدنيا بين إعجاب كل ذي رأي برأيه .. ويصبح ما يتخذ من قرارات أو قوانين لا يمثل الحق .. ولكنه متخذ من آراء تتمسك بالباطل ، وتعتز بالإثم .. فلا يحكم الحق الدنيا .. والله سبحانه وتعالى .. يريد أن يكون الحق هو الحاكم .

عندما تلد الأمة ربتها

ومن علامات الساعة التى أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها هى (أن تلد الأمة ربتها) .. ولقد فسر هذا الحديث تفسيرات كثيرة ، فقالوا : إن معناه أن يتعلم أولاد الفقراء ، ويصبحوا من ذوى المناصب الهامة ، فتتنكر الابنة لأمها .. وتجد أنه من العار أن تعترف أنها ابنة هذه الأم فتجعلها خادمة عندها .. وقيل إن المقصود به أن الابنة إذا تزوجت رجلا غنيا أصبحت أمها خادمة عندها .

ولكننى أعتقد أن هناك تفسيرا آخر لهذا الحديث .. فمعنى أن تلد الأمة ربتها هى أن تصبح الابنة هى الأمرة الحاكمة فى البيت .. تفرض رأيها على أمها وأبيها ، ولا يجرؤان إلا أن يطيعاها .. والمفروض فى الابنة بالذات أن تكون طيعة لوالديها ، وأن تفعل ما يأمرانها .. ولكن الأمر انقلب . فبدلا من أن تكون الأم هى سيدة البيت .. ورأيها هو الذى ينفذ ويطاع .. تصبح الابنة هى سيدة البيت .. وأمرها هو النافذ .. والأم والأب عاجزان عن أن يفعلا شيئا .

بل إن الأمر قد يصل إلى نوع من التحدى .. تفرض فيه الابنة إرادتها حتى فيما يغضب الله ، وتتحدى بذلك أمها وأباها .. ونحن نرى أن هذا قد أصبح سمة من سمات الحياة الآن .. فالابنة هى

ربة الأم . . والأم لا تملك إلا أن تطيع ولو مكرهة . . وهذا فى رأيى معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات الساعة (ان تلد الأمة ربتها) . . أى أن الابنة أصبحت لها ولاية والأم من رعيتها .

تطاول الحفاة العراة

ومن علامات الساعة ، كما أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتطاول الحفاة العراة فى البنيان . . أى أنه يأتى زمن يكون المال فى يد بعض الناس الذين تراهم فتعتقد أن أحدهم فقير لا يملك شيئا من صورته وهندامه . . ولكنك تفاجأ بأنه يملك المال الكثير . . وعادة مثل هؤلاء الناس عندما يأتيهم المال من كل مكان . . فإن عقلهم لا ينصرف إلا لبناء العمارات وتملكها . . هم يقوّمون أنفسهم بما يملكون من عقارات ، لأنهم عادة لا تكون لهم ثقافة ولا علم يصنع لهم مكانة فى المجتمع . . فلا يستطيعون بعلمهم أو ثقافتهم أن يحصلوا على احترام الناس . . ولا بنسبهم وعائلاتهم . . ولا يكون أمامهم أن يحصلوا على منزلة فى المجتمع إلا بالبنيان أو العمارات التى يمتلكونها ويفاخرون بها . . وتكون هى سندهم الوحيد فى محاولة أن يصلوا إلى طموحاتهم فى الدنيا .

على أن هناك معنى آخر لابد أن نلتفت إليه . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق البدو والحضر . . أو المدينة والريف . . لحكمة فى الحياة . . والله يريد حضرا فيه كل المقومات الحضرية ، أو مقومات المدنية من بنيان عال ، وحركة حياة مزدحمة ، إلى آخر صفات الحضارة أو المدنية التى نعرفها . . وفى نفس الوقت يريد بادية أو ريفا له كل مقومات البادية أو الريف . . والحضارة البدوية أو الريفية لها دور هام فى الراحة النفسية . . فنجد أن أى إنسان يعيش فى المدينة لا يستريح إلا إذا ذهب بعض الوقت إلى مكان خلوى أو مزارع ليقضى بها جزءا من وقته بعيدا عن حضارة المدينة وزحامها وضجيجها . . فالنفس البشرية لا ترتاح إلا فى المكان الذى فيه فطرة الحياة بدون حضارة البشر .

والله سبحانه وتعالى يريد حياة متكاملة متساوية . . ذلك أن ملكات الانسان متساوية ، لا تطغى فيها ملكة على ملكة . . وهو لا يستطيع أن يستغنى فى حياته عن تلك الأماكن التى فيها فطرة الله وحدها .

يأتى زمن يتحول فيه الاجراء فى البادية أو الريف إلى ملاك للمال . . ويصبح المال فى أيديهم كثيرا . . وكانوا من قبل معدمين . . حينئذ لا تكون طموحاتهم فى أن يزيدوا الريف أو البادية جمالا فطريا . . بل إنهم يفسدونه بكثرة البنيان حتى أصبح الريف كالحضر من كثرة البنيان فيه . . ويتم هذا عشوائيا وبدون تخطيط

يساعد على إبقاء جمال الريف أو البادية ، الذى وهبه الله لها . . بل يتم كل ذلك بصورة دميمة . . تجعل هذه الأماكن بعد أن كانت لراحة النفس البشرية مصدر تعب لها . . ولا يجد الانسان مكانا يذهب إليه ليستريح فيه .

حينئذ نجد أن الذين كانوا من فقراء أهل الريف أو البادية ويعملون فيها ، يتركون عملهم . . لأنهم تعالوا فى البنيان . . وتصبح الأرض لا تجد من يزرعها . . ويزيد هذا من قبح الريف أو البادية ، لأنها تصبح مهجورة . . وبذلك تختل ملكات الانسان ، لأنه لا يجد مكانا يستريح فيه ، وهذه العملية تتم بالتدريج وعلى مر الزمن .

ومن علامات القيامة أيضا التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (النساء الكاسيات العاريات) . . وهذا ما نراه حولنا الآن . . فعدد من النساء يظهرن من أجسادهن أكثر مما يسترن منها . . والله سبحانه وتعالى أمرهن بأن يسترن أجسادهن وحدد ما يكشف بالوجه والكفين . . وهذا يرجع إلى أن الناس يبتعدون عن دينهم . . ولم يعد الدين حاكما لحركة الحياة ، ولا تصرفات البشر ، كما كان يجب أن يكون .

إعطاء الشىء
لغير أهله

ومن علامات الساعة (أن يعطى الشىء لغير أهله) .. وهذا الحديث له معنيان :

المعنى الأول : أن العقل البشرى يستنفد تجربته ، ويستنفد فكره ، ويستنفد طموحاته كلها فى اكتشاف أسرار الله فى كونه .. حتى يظن الانسان انه بالعلم الذى وصل إليه ، وبالامكانيات ، أو التكنولوجيا التى يقولون عنها قادر على أن يتصرف فى الحياة وفق ما يريد .. وأن يخضع أحداثها لإرادته .

ومادام الانسان قد ظن أنه قادر على الحياة فى الأرض .. وعلى أن يفعل ما يشاء بذاته .. فإنه ينسى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع له هذه الامكانيات فى الأرض ، واستخلفه فيها .. وجعلها خاضعة لإرادته ، ينسى الانسان قدرة الله .. ولا يعقد إلا فى قدراته .. وإذا نسى الانسان قدرة الله فقد ترك منهجه .. وبدأ يتصرف فى الكون وفقا لارادته ، أو ما تشتهيه نفسه ، فتختل الموازين .. ويستعبد القوى الضعيف ، ويصبح المال الحرام حلالا .. ومادام الحق قد ضاع من الأرض ، والانسان اعتقد أنه قد سيطر عليها ، بحيث يستطيع أن يفعل ما يريد .. فإن الله سبحانه وتعالى ، وهو يرى البشرية قد وصلت إلى هذه الحالة ، يأتى

يوم القيامة ليعيد الميزان الحق يحكم بين البشر .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة يونس - الآية ٢٤)

إذن إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع .. فإنه من علامات القيامة أن يعطى الشىء لغير أهله .. أى أننا بدلا من أن نعطى فى الدنيا الأمر لله سبحانه وتعالى .. لأنه هو الآمر والخالق والناهى .. تأتى لغير أهل هذا الأمر .. والذين لا يستطيعون فننسبه إليهم دون ما حقيقة .. وهكذا ينسب الانسان بغروره التقدم العلمى الذى يحققه لنفسه ، وهو غير أهل لهذا .. فهو لا يستطيع حقيقة .. أن يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون لارادته .. ولكن هذه القوانين كلها تخضع لارادة الله وحده .. ومع ذلك فهو يظن .. ولنلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وظن أهلها ﴾ .. أى اعتقدوا باطلا على غير الحقيقة انهم قادرون عليها .. والظن نوع من

التخمين الذى لا يستند إلى أى حقيقة علمية ولا يعتد به . .

ولكن أهل الأرض قد أخذوا هذا الظن وحولوه إلى يقين . . وقالوا : لقد استطعنا بالعلم والتكنولوجيا أن نخضع الأرض ونجعلها خاضعة لمشيئتنا . . حينئذ يأتى أمر الله ليدمر كل الشىء . . فيعرف الناس يقينا أن الأرض لا تخضع لمشيئتهم . . لأنها لو كانت تخضع لهذه المشيئة ، لاستطاعوا حمايتها من التدمير بالقوانين التى ظنوا أنهم اكتشفوها .

نأتى بعد ذلك إلى الشق الثانى من نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومعناه أنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون بالابقاء على حكمهم وولايتهم ألا يختاروا الناس حسب كفاءتهم أو علمهم أو خبرتهم . . ولكنهم يختارونهم من الذين يطيعونهم فى الحق والباطل ، وتلك قضية يعبر عنها فى العصر الحديث بأهل الثقة وأهل الخبرة .

يأتى هؤلاء الحكام أو الولاة ، وهم يعرفون من يصلح لهذا العمل ، فيبعدونه عنه ، ويضعون انسانا لا يفقه شيئا فى هذا المجال ، لأنه يطيعهم حتى ولو كانوا على باطل .

وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل . . ويصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئا . . والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله . . ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة . . تكون كل الأمور قد خضعت للهوى . . لأن أهل الثقة هم

الذين ينفذون هوى النفس بالنسبة للوالى أو الحاكم بدون أى اعتبار آخر . . وهنا تكون حركة إشراف الناس على الحياة قد اختلت . . ومادامت حركة إشراف الناس على حركة الحياة مختلة . . تصبح حركة الحياة كلها مختلة . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : (من ولى أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين) . . وذلك لأن مثل هذا العمل سيفسد نظام الكون كله .

على أن هناك نبوءات أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة تبين لنا بوضوح أكثر . . كيف ستختل حركة الحياة عندما تقترب الساعة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل السادس

انقلاب في الموازين

إذا أردنا أن نكمل الحديث عن علامات يوم القيامة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإننا نحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، ذلك أن العلامات التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم علامات كثيرة .. منها علامات تحققت .. وعلامات كبرى لم تتحقق بعد كظهور المسيخ الدجال ، والمهدى المنتظر ، وغير ذلك مما لم يتحقق بعد .. ولكننا لن نتعرض إلى مالم يتحقق .. مكتفين ببعض ما تحقق فعلا .. وإذا كان بعض الناس يشكون ، أو لا يصدقون فى أن العلامات الكبرى للقيامة ستتحقق ، فاننا نقول لهم : إن صدق ما تحقق الآن دليل على صدق ما هو قادم .. ونحن نصدقه لأنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين .

على أننا قبل أن نتحدث عن بعض علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نقول إن هذه العلامات كلها هى تفسير للآيات الكريمة :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الروم ـ الآية ٤١)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

(سورة الفرقان ـ الآية ٣٠)

أى أن ظهور الفساد فى الدنيا هو بما كسبت أيدى الناس . . أى أن منهج الله لا يتضمن الافساد فى الأرض . . بل إن منهج الحياة يضع أسس الاصلاح فى الأرض ، والصلاح فى الكون . . ولكن الناس بعدوا عن منهج الله ، فظهر الفساد .. ومع ظهور الفساد سيعانى الناس ، لتصبح حياتهم أكثر تعقيدا ، وأكثر عناء ، وأكثر معاناة . . وذلك جزاء من الله ليذيقهم بعض ما عملوا .

ونلاحظ هنا أن رحمة الله قد سبقت عدله . . فلم يقل سبحانه وتعالى يذيقهم ما عملوا . . ولكنه قال :

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾

(سورة الروم - الآية ٤١)

أى أن الله سيذيق الناس فى الدنيا نتائج جزء يسير جدا من أعمالهم ، ويؤجل الجزاء الأوفى للآخرة ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾

(سورة فاطر - الآية ٤٥)

أى ما ترك على ظهر الأرض أى حى يدب بقدميه عليها . وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان - الآية ٣٠)

معناه انهم هجروا منهج الله . . لأن القرآن هو منهج السماء إلى الأرض وهجروا هذا القرآن . . أى تركوا العمل بأحكامه . . وكما بينا هو أن يوم القيامة يأتى عندما يهجر الناس المنهج ، ويظنون انهم بقدراتهم يحكمون الأرض ، ويسيطرون عليها .

على أننا قبل أن نمضى لابد أن نقول إن علامات الساعة متى تحققت لا تختفى . . وأنها تزيد ولا تنقص . . ذلك فإن ما تحقق منها حتى الآن سيزداد مع مرور الزمن .

أماتوا الصلاة ..
وأضاعوا الأمانة

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، واستعلوا بالبناء ، وباعوا الدين بالدنيا . . . . » .

هذه بعض علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ما معنى أماتوا الصلاة . . الميت هو الغائب عن الدنيا . . ذلك أن أساس الدين كله هو منهج للحياة الدنيا . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة يس - الآيتان ٦٩ و ٧٠)

إذن فالقرآن الكريم نزل للأحياء .. وهو منهج السماء للحياة الدنيا .. ونحن حين نموت نرى كل شىء رؤية يقين .. ولا تعود هناك فائدة من إنذار بالغيب ، أوما سيقع لنا .. لأنه أصبح واقعا فعلا ورأيناه .

وإذا كان القرآن كمنهج السماء إلى الأرض .. فإننا يجب أن نعمل به ونطبق تعاليمه فى حياتنا الدنيا .. وأهم تعاليم المنهج وأساس العبادة هى الصلاة .. لأنها الصلة بين العبد وربه .. وكل أحكام الدين ترفع ما عدا الصلاة .. فالحج لمن استطاع إليه سبيلا .. فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، لا يملك ما يحج به لا يكلف بالحج .. والزكاة لمن عنده فائض من المال .. فإذا كان رزق الانسان يكاد يكفيه بالكاد ، فلا يكلف بالزكاة .. وإذا كان فقيرا لا يجد قوته ، فهو مستحق للزكاة ، وليس مكلفا بها .. والصوم لمن كان فى تمام صحته ، ولم يكن مسافرا .. فمن كان مريضا أوعلى سفر ، فيستطيع أن يفطر فى رمضان .. ويقضى الأيام التى أفطرها فى غير رمضان .. إلا الصلاة فهى لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالسفر .. ولا تسقط بالفقر .. والانسان لابد أن يصلى واقفا .. فإن كان مريضا يصلى قاعدا .. وأن كان لا يستطيع أن يغادر الفراش بسبب

المرض ، يستطيع أن يصلى راقدا . . والصلاة تظل قائمة عند المؤمن من سن التكليف حتى الوفاة . .

والصلاة إذن هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أماتوا الصلاة) . . أى غابت عن حياتهم الدنيا ، فلم تصبح موجودة . . والميت لا يسمع ولا يعى حركة الدنيا . . وكأنه من علامات الآخرة ، أن يؤذن للصلاة ، فلا يقول أحد إلى المساجد ، ليؤدى الصلاة . .

أى أنه عندما يؤذن المؤذن للصلاة ، كأنه ينادى على ميت ، فلا يجيبه أحد .

وقوله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الصلاة) يؤخذ بمعناه الواسع ، ومعناه المحدود . . فالأمانة هى منهج الله التى حملها للانسان فى الأرض وحمله الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل . . وكأن إضاعة الأمانة معناها أضاعوا منهج الله فى الأرض . . هذا هو المعنى الواسع .

أما المعنى المحدود فهو أن الأمانة بين الناس ضاعت . . أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عندما تصبح الأمانة مغنما » . . أى أنه يأتى الانسان إلى أخيه الانسان يحمله أمانة بأن يحافظ على ماله ، أو على عرضه ، أو على أولاده ، فيعتبر هذا الشخص هذه الأمانة غنيمة له ولا يردها ، يأخذها وهو يعد بردها ، ولكنه بمجرد أخذها يعتبرها غنيمة لا ترد . . فإذا كانت الأمانة

مالا ينكره ولا يرده . . وإذا كانت الأمانة على العرض أو الزوجة يحاول هو أن يغرى هذه الزوجة بالفاحشة ، ويدفعها إلى خيانة زوجها ويعتبرها غنيمة له ، ليستحل ما حرمه الله . . وإذا كانت هذه الأمانة فى الأولاد . . أخذ هؤلاء الأولاد ، وكلفهم بخدمته فى منزله . . وربما منع عنهم الطعام والشراب . . وربما ضربهم إذا لم يخدموا ويفعلوا ما يريده . . وهكذا نرى أن إضاعة الأمانة بمعناها الواسع ، ومعناها المحدود ، تزداد فى المجتمعات .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأكلوا الربا) ونحن نرى أن العالم كله يأكل الربا . . وأن كل إنسان يستحل ويحب أن ينمو ماله بلا حركة فى الحياة ولا عمل ، وهذا ما حرمه الاسلام . . والربا هو أساس الكوارث الاقتصادية . . واضطراب اقتصاد العالم الآن . . حتى إن دولا أعلنت إفلاسها بسبب عجزها عن سداد فوائد الديون ، أو بسبب تعاملها بالربا ، وهو ما حرمه الله . . ولن ينصلح اقتصاد العالم إلا إذا عاد إلى منهج الله . . وانتهى نظام الربا كنظام عالمى ، ليحل محله نظام المشاركة الاسلامية ، والنظم الاسلامية التى وضعها الاسلام . .

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستحلوا الكذب » فمعنى ذلك أن الكذب أصبح حلالا يتعامل به كل الناس ، بدلا من الصدق . . ومن كثرة الكذب يصبح هو السمة الغالبة فى المجتمع . . ويصبح الانسان يسمع الكلام فلا يصدقه ، ولو كان صدقا . . لأن الثقة قد انتهت . .

والكذب هو انفصال الكلام عن الفعل . . وما دام الكلام ينفصل عن الفعل فى حياة الانسان ، ويراه فى كل شىء حوله ، فإنك ذلك يهدم ، الثقة فى المجتمع . . ويعطى الناس الشعور بأن كل ما يقال هو زيف ، وليس حقيقة .

وفى هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها . . فيصبح واقع الحياة شيئا . . وما يتكلم به الناس شيئا آخر .

والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة أو عملا شائنا . . ذلك أن العمل الذى أحله الله يتباهى به الناس جميعا . . فإذا كنت مثلا مع زوجتك فى البيت وسألك أحد أين كنت ؟ . . قلت بلا تردد ، وبدون أن تحاول أن تكذب : كنت مع زوجتى فى البيت . . أما إذا كنت فى البيت مع زوجة رجل آخر . . وسألك أحد أصدقائك : أين كنت ؟ . . فإنك فى هذه الحالة تلجأ إلى الكذب ، لتخفى مخالفة لمنهج الله لا تنسجم مع حياة النفس البشرية وملكاتها .

وأنت حين تملك مالا حلالا ، فانك تجلس فى أى مكان وتحصيه إن أردت إحصاءه . . ولكن إذا كان هذا المال حراما . . فانك تبحث عن مكان مهجور ، أوطريق مظلم ، أو بيت لا يراك فيه أحد ، لتحصى هذا المال . . فإذا سألك أحد : ماذا كنت تفعل ؟ . . كذبت ولم تستطع أن تقول له : كنت أعد مالا مسروقا .

إذن فإنه عندمايستحل الكذب ، فمعنى ذلك أن المعصية قد تفشت فى المجتمع . . وأن أفعال الناس لا تتفق مع منهج الله . . وما دامت الأعمال لا تتفق مع منهج الله . . فإن الناس يستحلون الكذب ليخفوا معاصيهم . . وهذا دليل على انحراف خطير فى المجتمع .

واستخفوا بالدماء

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستخفوا بالدماء » . . أى انتشر القتل بدون قصاص . وهذا ما نراه الآن فى العالم كله فى الحروب الأهلية وحوادث النسف والتدمير التى لا تكاد تخلو نشرة أخبار واحدة منها . . هؤلاء الناس الذين دبروا حوادث النسف هذه ، واستخدموا السيارات الملغومة ، وأطلقوا الرصاص عشوائيا ، واستخفوا بدماء الناس . . لأن هؤلاء الضحايا هم ضحايا أبرياء . . لم يفعلوا شيئا حتى استحقوا القتل . . وهم ليسوا طرفا فى النزاعات

التى تحدث .. ولذلك لا تستحل دماؤهم .. ولكن أولئك الذين يقومون بهذه العمليات التى تتم فى معظم دول العالم ، ويدبرون حوادث النسف والاغتيال ، إنما يستخفون بدماء البشر .

وباعوا الدين .. بالدنيا

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « واستعلوا بالبناء وباعوا الدين بالدنيا » .. معناه أن الناس قد استحلوا جمع المال عن أى طريق وبأى طريق .. وليس لديهم أى وازع من الدين .. بل انهم فى عملهم وكل تحركاتهم .. ليس فى بالهم الله .. ولكن فى بالهم أن يعلو بنيانهم ، وتزداد ثرواتهم .. ومادام هناك بيع فمعناه أن هناك سلعة وثمنا .. وكون الذى بيع هو الدين .. فمعناه أنهم أخذوا مغانم الدنيا ، بدلا من منهج الله .. وأصبح الصراع بين الناس صراعا بين دنيا ودنيا ، وليس صراعا بين دنيا وآخرة .. ولم يعد أحد يحرص على الدين حرصه على المال أو متاع الدنيا . مع أن كل ما فى الدنيا زائل مهما طال العمر .

الزكاة .. مغرما

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت الأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، والتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ،

وعق أمه وود صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وأُكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات وكثرت المعازف ، وشرب الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها) .

ومعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن تكون الأمانة غنيمة لمن أؤتمن عليها لا يردها وقد سبق أن بينا ذلك . . أما أن تكون الزكاة مغرما . فهى أن يعتبر الناس دفع الزكاة غرامة يحاولون أن يتهربوا منها . . بينما الزكاة هى ركن من أركان الاسلام . . ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . ولكن الناس لأنهم ابتعدوا عن منهج الله يعتبرون الزكاة غرامة . . لا يؤدونها إلا وهم كارهون . . هذا إذا أدوها . . ويحاولون التهرب من أدائها بمبررات كاذبة .

والتعلم لغير الدين

والتعلم لغير دين نراه الآن فى مجتمعاتنا . . فالأب حريص على أن يعلم ابنه اللغات . . وحريص على أن يعلمه العلوم الدنيوية . . والناس يتقاتلون ليلحقوا أولادهم بما يسمى الآن بمدارس اللغات . . والأب يضرب ابنه ويراقبه مراقبة دقيقة إذا لم يذاكر . . مع انه لا يأمره بالصلاة مثلا ، ولا يحاسبه عليها ، ولا يحثه عليها . . ولا يحاول أن يجعله يدرس علوم الدين مع علوم الدنيا . . أو يعرف

شيئا عن دينه .. بل كل همه هو العلوم الدنيوية .. مع أن الأب فى هذا قصير النظر .. ذلك أنه يعمل لشىء قد لا يقع ، ويترك شيئا لا محالة واقع .. فقد يموت الابن قبل أن يتخرج فى الجامعة ، فلا يحقق هدفا .. وقد يصاب بمرض يقعده عن العمل فيضيع كل ما تعلمه .. ولكن هذا الابن لا محالة سيقابل الله .. أى أن تعلمه للدين ، واتباع المنهج ، أمر له جزاء مضمون .. فلا أحد سيفلت من الآخرة .. أما علوم الدنيا فلا ضمان فى الدنيا .. ومع ذلك فاننا نجد الناس يتكالبون ليعلموا أولادهم لغير دين .. ولا يهتم إلا القليل منهم بتعليم أولاده الدين ، ومحافظتهم على الصلاة ، وحثهم على صالح الأعمال .

وأطاع الرجل امرأته وعق أمه

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو أطاع الرجل امرأته . وعق أمه ، وود صديقه ، وأقصى أباه) .. فمعناه أن الرجل حينما يتزوج يطيع امرأته فى كل شىء ، وهو يغرقها بالمال وما تحتاج إليه .. فإذا كانت أمه فقيرة ، عقها ولم يعطها شيئا .. وإذا كانت مريضة ، وطلبت منه امرأته أن تذهب لزيارة احدى صديقاتها ، ترك أمه المريضة ولم يزرها ، وصحب زوجته فى هذه الزيارة .. وإذا كانت

الأم تعيش وحيدة فى شقة أغرته امرأته باخراج أمه من الشقة ، لتحصل هى على الشقة .. وبيوت المسنين فيها أمثلة كثيرة من الأمهات اللاتى طردهم أولاهن من منازلهن .. وأحيانا يؤذى الرجل أمه إرضاء لزوجته .. مع أن الرجل أمامه آلاف النساء ليختار منهن زوجة .. ولكن ليس له إلا أم واحدة .. وعقوق الأم جريمة كبرى فى الاسلام .. فالله قد حث على رعاية الأم والأب فى شيخوختهما .. وقال تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٢٤)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .. وعندما سأله صحابى .. من أحق الناس بصحبتى يارسول الله ؟ .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمك .. وكررها ثلاث مرات .

وما يقال عن الأم ، يقال عن الأب .. فالابن قد يترك أباه المريض الذى لا يجد أحدا يعطيه كوب ماء ، ويذهب ليقضى السهرة مع أصدقائه .. وقد يأخذ مال أبيه الذى هو فى أمس الحاجة اليه لينفقه على أصدقائه .. وقد يزور صديقه المريض .. ولا يزور أباه المريض .

وظهرت الأصوات فى المساجد

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وظهرت الأصوات فى المساجد) .. أن الناس يذهبون إلى المسجد ليس للعبادة ، ولكن للتحدث فى شئون الدنيا .. والمسجد هو بيت الله .. وإذا ذهبت إلى المسجد ، فأنت تذهب لذكر الله والعبادة وإياك وأنت فى المسجد أن تتحدث فى شأن من شئون الدنيا .. ولكننا نرى الناس يذهبون إلى المساجد لاتمام صفقة ، أو للاتفاق على تجارة ، أو أى شىء من هذا القبيل .. ويقول أحدهم للآخر : سأقابلك فى المسجد لنتفق على هذا وذاك وبذلك تخرج المساجد عن أنها دور للعبادة ، وتصبح مكانا دنيويا للتحدث فى شئون الدنيا .. ومن يتفق على تجارة أو أى شأن من شئون الدنيا فى المسجد ... فلا يبارك الله له فيما اتفق عليه .. وذلك أن المسجد لا يقصد إلا للعبادة .. ولا يتحدث فيه إلا بذكر الله والتسبيح له .

تكريم الرجل مخافة شره

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأكرم الرجل مخافة شره » .. أى أن الناس من خوف الدنيا تكرم الرجل الشرير اتقاء

شره ، ولا تكرم الرجل الكريم .. فالانسان عادة يكرم لدينه ، ويكرم لخلقه ، ويكرم لعلمه .. ولكنه لا يكرم أبدا لشره .. بل إن الانسان الشرير لابد أن يقف المجتمع كله أمامه حتى يقوموه .. ولكن لأن الخوف يملأ قلوب الناس .فإنهم لا يجرؤون على مواجهة الانسان الشرير .. بل يكرمونه ليبتعد عنهم .. وفى هذا تشجيع للشر والرذيلة فى المجتمع .. بحيث يصبح الشر هو القوى .. وهو السائد .. وهو الذى يحكم المجتمع ..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكثرت القينات والمعازف وشرب الخمر » .. والقينات معناها أماكن اللهو التى تعزف فيها الموسيقى ، وتلهى الناس عن دينهم وعن ذكر الله .. ولعلنا نشهد الآن هذه الظاهرة بعد أن كثرت أماكن اللهو والغناء والخمور .. وأصبحت فى كل حى ، وهى تزداد ولا تنقص .. بمعنى أنه يفتح الجديد منها ، والقديم قائم .

ظهور هذه الأماكن معناه أن الناس قد نقضوا نظام الله فى الكون .. ذلك لأن الله تعالى قد جعل الليل لباسا والنهار معاشا .. أى أن الانسان المؤمن حين يأتى الليل يأوى إلى بيته بعد صلاة العشاء لينام .. ولكن وجود هذه الأماكن يجعل الناس يسهرون الليل ، بدلا من أن يناموه .. ويضيع منهم اعتدال حركة حياتهم .. ويقوم الانسان من نومه بعد شروق الشمس بساعات .. ويكون قد أضاع صلاة الفجر التى هى خير من الدنيا وما فيها .. فرسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » . . وينزل الانسان لعمله متعبا ، لأنه لم يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى أن ينام الليل . . بل ظل ساهرا حتى ساعة متأخرة . . وتكون النتيجة أنه أضاع صلاة الفجر ، وأضاع إنتاج اليوم .

وبعض الناس يشكون من أنهم لا يستطيعون الاستيقاظ عند الفجر للصلاة . . نقول لهؤلاء جميعا : لو أنكم اتبعتم منهج الله وأويتم إلى فراشكم بعد صلاة العشاء ، فانكم تستيقظون فى الفجر ، بل قبل الفجر ربما بساعة أو أكثر . . فالليل للسكون ، وليس للحركة . . وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

(سورة النبا ـ الآيتان ١٠ ـ ١١)

ولكن المعازف والسهر فى الليل . . يتنافى مع كون الليل سكنا لينام الانسان ويجدد نشاطه .

إذن فظهور القينات والمعازف وشرب الخمر . . هو إفساد لمنهج الله ، وإضاعة لصلاة التهجد ، وصلاة الفجر ، وقرآن الفجر . . وكل هذا يشير إلى أن الناس يبتعدون عن تطبيق المنهج .

يلعن آخر الأمة أولها

ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويلعن آخر هذه الأمة أولها) . . أى أن الذين يعيشون خلال هذه الفترة يهاجمون الصحابة ويصفون هذا الدين بالتخلف . . ويتحدثون عن السلفية أحاديث مقصود بها تشويه السلف الصالح . . أولئك الذين حملوا هذا الدين ونقلوه إلى الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز فى وصف المؤمن . .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة الحشر ـ الآية ١٠)

وهكذا طلب منا الله سبحانه وتعالى آن نطلب المغفرة لأولئك الذين سبقونا بالايمان . . على أساس الوحدة الايمانية للمؤمنين أولا . . وعلى أساس أنهم تركوا لنا من العلم ما ننتفع به فى ديننا . . فكل ما كتب حول القرآن الكريم قام به أولئك الذين سبقونا بالايمان . . وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتفسير هذه الأحاديث وصلتنا عن الذين سبقونا بالايمان . . وكتبهم ودراستهم لا تزال موجودة بيننا حتى اليوم . . تعطينا نور الايمان . . وتبين لنا كيف أن السلف الصالح قد أفنوا أعمارهم فى دراسة دين الله ،

والتفقه فيه ليقدموا لنا ذخيرة لا تنفد .. وكان المنتظر منا ، بعد أن قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة فى ديننا ، أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة . وأن يتقبل الله منهم صالح أعمالهم .. بهذا وصف الله المؤمنين فى القرآن الكريم ..

ولكننا الآن نجد تجنبا واضحا وعلنيا على السلف الصالح .. وهجوما وتشويها لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وإلصاق التهم الباطلة بهم .. وصب اللعنات عليهم .. واتهامهم بأنهم سبب تخلف هذه الأمة .. وهذا يتم جهارا نهارا فى الصحف والمجلات والكتب .. ويتخذ بعض الناس من الهجوم على السلف الصالح وتشويههم صناعة يتكسبون منها فى الحياة الدنيا .

الورع تصنع

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من علامات القيامة أن يكون الزهد رواية ، والورع تصنعا ، وأن يكون الولد غيظ أبيه وأمه ، وأن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤتمن الخائن ويخون الأمين ، ويسود كل قبيلة منافقوها ، وكل سوق فجارها ، وأن يعمر خراب الدنيا ، ويخرب عمرانها .

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يكون الزهد رواية والورع تصنعا » هو أن يختفى أولئك الزهاد والوراع الحقيقيون ..

وأن يظهر الانسان غير ما يبطن ، فيصبح الزهد ليس حقيقة ، ولكنه مجرد روايات كاذبة يتناقلها الناس عن بعض الناس . . فى محاولة لخداع عامة المسلمين ، وايهامهم بأن هذا الرجل زاهد فى الدنيا . . ليحصل بهذه الطريقة على مزيد من المال . . ويقال : أن هذا الانسان زاهد . . فى حين أنه يملك مالا كثيرا . . يكنزه ولا يتصدق به . . أو تصبح تجارة الناس هى الدنيا . . ومن تكالبهم عليها لا يكون الزهد حقيقة . . ولكنه يكون ماضيا قد اندثر يحكيه الرواة عن أبائهم ، أو عن أجدادهم . . ويقولون فى عام كذا كان هناك رجل زاهد يعيش فى مكان كذا . . ويفعل كذا وكذا . . وتصبح حكايات الزهد كلها هى روايات عن الماضى ، ليس لها واقع ، وليس لها حاضر . . فيبحث الناس عن الزهاد فلا يجدونهم . .

(والورع تصنعا) . . أى أن الناس تتظاهر بالورع . . ولكنه فى الحقيقة ليس موجودا فى قلوبهم . . وينتشر الرياء فى الدين . . فيذهب الانسان إلى المسجد لا يقصد الصلاة ، ولكن ليقول الناس عنه : انه مصل . . ويذهب الانسان إلى الحج لا يقصد الحج ، ولكن لقال عنه انه حاج . . ويتحدث الناس عن الدين ويتخذونه صناعة ، يعلمونه للناس ولا يعملون به . . ويقيم الناس المساجد لا يقصدون منها وجه الله . . وانما يقصدون منها أن تخلد أسماؤهم فى الدنيا ، أو أن يحصلوا على إعفاءات من رسوم عقارات ، أو أرض مجانا ، أو أى ميزات دنيوية كالذى يخصص مكانا صغيرا فى عمارة كزاوية للصلاة ، وهو فى الحقيقة يريد إعفاءه من الضرائب

العقارية . . أو كالذى يتحايل لبناء عمارة بأن يحصل على رخصة بناء مسجد حتى يتخطى أوامر منع البناء فى منطقة معينة ، ثم بعد ذلك يقيم العمارة التى يريدها . . أو ذلك الذى يأتى إلى أرض ليسورها على أساس أنها مسجد ليأخذها مجانا ، أو بثمن زهيد ، ثم بعد ذلك يبنى عليها ما يريده .

كل هذه الأشياء لا تنفع ، ولا يجزى الله سبحانه وتعالى عنها أحدا من الذين قاموا بها . . فلا يعتقد أحد أنه يستطيع أن يخدع الله . . قد يستطيع الانسان أن يخدع الناس . . ولكن أحدا لن يستطيع أن يخدع الله . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الجن ـ الآية ١٨)

فإذا لم يكن بناء المسجد يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى خالصا . . يشيد أولا كمسجد ، وليس كوسيلة للحصول على إعفاء ضريبى أو رخصة بناء ، أو أى نوع آخر من الفوائد الدنيوية . . والا يكون تخليدا لذكرى إنسان . . إذا لم يكن المسجد كذلك فلا يتقبل بناؤه . . أما ما يمكن أن يقال عن المساجد التى سميت بأسماء أولياء الله الصالحين . . فإن هؤلاء الصالحين اسمهم خالد فى الدنيا بعلمهم الصالح . . وهم لم يبنوا هذه المساجد ، وانما بناها من بعدهم . . كما أنها مبنية فى أحياء من المدن مسماة بنفس الأسماء . . والمهم هنا ألا تكون نية صاحب المسجد ، وهو يبنيه ، انه يفعل شيئا

ليخلد اسمه فى الدنيا . .

وهكذا نرى أن من علامات الساعة أن يصبح الزهد رواية ، ويختفى الزهد من الدنيا ، ويلعن السلف الصالح . وأن يصبح الورع تصنعا . . أى يختفى الورع من القلوب ، ويصبح مجرد صناعة يلجأ إليها بعض الناس من أجل أغراض دنيوية . .

يكون الولد غيظ أبيه

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن يكون الولد غيظ أبيه وأمه) . . معناه أن موازين الحياة ستختل ، بحيث يصبح الولد أو الابنة هما مثار التعب والغيظ للأم والأب . . والولد أساسا يكون قرة عين أبيه وأمه . . وامرأة فرعون قالت عن موسى عليه السلام :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾

(سورة القصص - الآية ٩)

أى أن الولد أساسا موجود فى الدنيا كقرة عين لأبيه وأمه ، يعينهما على الحياة ويطيعهما ويرعاهما فى الكبر . . ولكن بدلا من أن يحدث ذلك يكون الولد غيضا لأبيه وأمه . . يعمل ما يغيظهما . . فيتلف المال ، وربما كان الأب والأم لا يملكان من المال ما يكفى . . ويوجد لهما المشاكل بسوء عمله مع الناس ، أو اعتدائه عليهم . . ولا يعينهما على قضاء حوائج الحياة ، فإذا طلبا منه أن يفعل لهما شيئا رفض . .

وإذا طلباه بأن يؤدى عملا قال : لا . . وهكذا لا تأتى منه راحة لأبيه وأمه . . بل يأتى منه ما يغيظهما وينغص عليهما حياتهما . . ويصبح الأب يتمنى لو انه لم يرزق بهذا الغلام الذى حول حياته إلى شقاء لا يعينه على الحياة . . ولكنه يزيدها ظلمات وتعقيدا . .

كما أن بعض الأبناء لا يحمل احتراما لأبيه ، فإذا تكلم الأب عارضه الابن ، وربما هاجم رأيه إلى آخر ما نراه الآن . . وكل هذه العلامات إنما هى دليل على نقض منهج الله ، وعدم العمل به .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، ويؤتمن الخائن ، ويخون الأمين » . . معناه اختلاط القيم فى المجتمع ، بحيث يختلط الأمر على الناس . . فمن كثرة الكذب الذى يسمعونه لا يعرفون من يصدقون ومن يكذبون . . كل كلمة تحتمل الكذب . . وكل ما يقال بعيد عن الحقيقة . . ولذلك فإن الناس يصدقون الكاذب ، لأنهم لا يسمعون إلا كذبا . . فإذا جاء انسان مخلص يريد أن يقول لهم الحقيقة كذبوه . . كذبه أولا أصحاب المنافع الدنيوية . . الذين يريدون للكذب أن يسود حتى يصلوا إلى أهدافهم بالنفاق والخداع . . وكذبه الناس من كثرة ما يروى من الكذب على أنه صدق .

ويؤتمن الخائن ويخون الأمين تحمل نفس معنى اختلاط القيم . . فلا يعرف الناس من هو الأمين من كثرة انتشار الخيانة فعندما يأتى رجل أمين لا يصدقه الناس ويخونوه . . لأن الخيانة هى السمة فى

المجتمع كله . أما أن يؤتمن الخائن فهى أن يكون أناس خونة . . يدعون الأمانة ، ليحصلوا على أموال الناس بالباطل . . وبعض الناس يصدقونهم .

ويسود القبيلة منافقوها

وقوله صلى الله عليه وسلم (يسود كل قبيلة منافقوها) . . علامة على أن النفاق سيكون هو الوسيلة للارتقاء فى المجتمع والتقدم إلى أعلى المناصب . . وهذا أيضا دليل على اختلاط القيم فى المجتمع . . فلا يعتمد تقدم الانسان فى الحياة على علمه ، أوعمله ، أو ثقافته ، أو مهارته . . بل يعتمد على إتقانه للنفاق . . فكلما اتقن الانسان النفاق كانت فرصته أكبر للوصول إلى أعلى المناصب .

وهكذا تصبح القمة من المنافقين ، وينزوى المخلصون بعيدا . . وهذا معناه أن الأمور لا تصرف بالحق ، ولا بالصدق . . ولا بالأمانة . . ولكن تصرف بهوى النفس . وتصبح الأغراض الشخصية هى التى تحكم .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يسود كل سوق فجارها » . . والفاجر هو الذى يجاهر بالمعصية . . أى أن يكون أولئك العاصون هم الذين يعجب بهم الناس ، ويجاهرون

بالمعصية .. وأن يكون التاجر الذى يغش ويبخس فى الميزان ، ويحقق أرباحا فاحشة هو سيد السوق .. أى أكثر التجار غنى .. وأكثرهم احتكارا لأقوات الناس .

وأن يكون المؤمن فى القبيلة أذل من النقد .. والنقد هو صغار الغنم .. أى لا يؤبه به ، ولا يكون له أى وزن فى قبيلته ، لأنه محافظ على إيمانه .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن يخرب عمران الدنيا ، ويعمر خرابها » .. أى أن تحدث الفتن فى المدن التى يسكنها الناس ويقاتل الناس بعضهم بعضا .. حتى تخرب الأماكن العامرة ، ويهرب منها الناس ، وتصبح خرابا .. وهذا حادث الآن فى كثير من دول العالم .. حيث تخرب الحروب الصغيرة ، والحروب الأهلية المدن العامرة ، وتحولها من أماكن مليئة بالخير إلى أماكن خربة .

ولعلنا إذا أردنا أن نأخذ مثلا قريبا .. فأمامنا لبنان .. أما أن يعمر خراب الدنيا .. فمعناها أن تضيق الأرض بالناس .. حتى إنهم لا يجدون حلا لاستمرار حياتهم إلا أن يعبروا الأماكن الخربة .. فيحاولوا زراعة الصحراء والأماكن النائية عن العمران لتستطيع الحياة أن تستمر .

شهادة الزور

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق . . ونشر الظلم أى (كثرة النكتة) . وقلة العلماء . وانتشار البيع بالربا والسحت بالهدية ، وأن تزخرف المحاريب : وتخرب القلوب) . . ومعنى ذلك أن الحق يختفى من الأرض فتظحر شهادة الزور ، وتكتم شهادة الحق ، ويجد الرجل أن هناك قول زور يقال أمامه ليؤمن عليه ، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بشهادة حق . . ونشر الظلم أى كثرة النكتة ، معناه استهتار الناس بالقيم ، وأخذهم الجد بالهزل . . فيهزلون طوال يومهم ، ولا يقوم واحد منهم بأى عمل جاد . . وقلة العلماء . . أى أن العلماء يصبح عددهم أقل من القليل . . فلا يوجد العلماء الذين ينشرون كلمة الحق ، وذلك معناه أن يذهب الصالحون الأول فالأول . . ولا يبقى إلا أولئك الذين لا يعرفون من العلم إلا القليل النادر .

واستحلال البيع بالربا ، معناه أن ينتشر الربا . . ويقول الناس عنه انه بيع . . أى يحصل الناس على الربا ، ويستحلونه باسم البيع ، والسحت بالهدية . . أى يستحل الناس الرشوة على أساس أنها هدية . . أى أن الناس يتحايلون على اظهار الربا انه بيع . . والحصول على الرشوة والمال الحرام ، ويسمونها هدية . .

تزخرف المحاريب وتخريب القلوب

وقوله صلى الله عليه وسلم (أن تزخرف المحاريب ، وتخرب القلوب) .. معناه أن حقيقة الايمان تختفى ، ولا يبقى إلا مظهره .. فالناس تكون قلوبها خربة ليس فيها ذرة من إيمان .. ومع ذلك فهى تتسابق لزخرفة المنابر والمساجد تظاهرا وليس عن إيمان .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأن يقرأ القرآن فلا يتجاوز الحلقوم) .. معناه أن القرآن سيقرأ باللسان فقط ، ولا يعمل به .. أى أن الانسان يقرأ القرآن بلسانه ، فلا يدخل إلى قلبه .. ويقوم من قراءة القرآن ليفعل ما حرمه الله .

هذه بعض أشراط الساعة ، أو علامات القيامة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهناك علامات أخرى كثيرة قد تحققت .. سنتعرض لها فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله .

ومادمنا قد تحدثنا عن مقدمات الساعة .. فلابد أن نكمل الحديث عن بداية أحداث الساعة .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل السابع

وجاء يوم القيامة

قبل أن نتحدث عن يوم القيامة ، وما سيحدث فيه .. لابد أن نتناول أولا معنى الآية الكريمة :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾

(سورة القمر - الآية ١)

ذلك أن بعض الناس يجادل فى هذه الآية ، ويقول إنها حدثت وانتهت والبعض الآخر يقول إنها ستحدث فى آخر الزمان .

ومسألة انشقاق القمر هى معجزة حسية ، أو معجزة مشاهدة . والمعجزات الحسية تأتى مرة واحدة ولا تتكرر .. والمقصود بها هم الذين شهدوها .. أما نحن الذين لم نشهدها فإننا نصدقها ، لأنها جاءت فى القرآن الكريم .. ومن هنا فإن موسى عندما ضرب بعصاه فانشق البحر .. نحن لسنا المقصودين بهذه المعجزة .. ولكن المقصود بها هم أولئك الذين شهدوها .. أى تثبيت المؤمنين الذين كانوا مع موسى عليه السلام ، وجنود فرعون يتبعونه .

فالذين يقولون أن انشقاق القمر قد حدث .. هم الذين شهدوا هذه المعجزة .. ومعنى اقتربت الساعة أن رسول آخر الزمان قد بعث .. هذا هو معنى الاقتراب .. فإن كل رسول ، قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء وبعده رسل .. أما الرسول الخاتم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام .. فهو الرسول الذى ستقوم على رسالته الساعة .. ولن تأتى بعده رسالة أخرى من السماء .. هذا هو معنى « اقتربت الساعة » .

أما معنى « وانشق القمر » .. وهل سينشق أم انشق فعلا .. إذا أخذناها بمعنى أنه قد انشق فعلا ، فهذه ظاهرة كونية ، وهى ليست مطلوبة ممن لم يرها ، بل هى مطلوبة ممن شهدها ، لأنها تجىء لمن يشهدها .. وهى تكون آية على صدق هذا الرسول ، ولا تأتى للبشر كافة .. وانما لمن شهدوها .

فالذى جاء للناس كلها .. للبشر جميعهم ، لم يكن آيات كونية .. ولكنه كان معجزة خالدة مستمرة لا تنتهى أبدا .. فمثلا عندما نقول ان عيسى أبرأ الأكمه والأبرص .. فهذا لم يحدث إلا مرة واحدة ، ثم انتهى .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بمثل هذه الآيات .. ولكننا نحن لسنا مطالبين بها .. انما المطالب بها من شهدها .. فنبع الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتظليل غمامة له ، وتسبيح الحصى فى يديه .. كل هذه آيات كونية لتثبيت المؤمنين الأولين الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن شهدها فهو مطالب بها .

وانشقاق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه بعض الناس .. وبعض الناس لم يروه .. نقول : ان هذا شىء طبيعى .. لأننا ، ونحن الآن فى عصر تقدم ، يحدث كسوف للشمس ، أوخسوف للقمر .. كم من الناس يشاهد هذه العملية .. عدد قليل جدا .. مع أن الموعد يكون معلنا مسبقا ..

والناس قد قرأوا الخبر وسمعوه من أكثر من مصدر .. فإذا حصل خسوف للقمر ، وهذا يحدث ليلا ، فمعظم الناس يكونون نياما ، ولا يراه إلا قلة من العلماء الذين يعملون فى الفلك ، وبعض من يبقى مستيقظا خصيصا ليتابع هذا الحدث .

إذن فلا معنى لأى ظاهرة كونية إلا لمن يراها .. ونحن نقول دائما أنه ليس مع العين علم .

بقى الذين لم يروا .. من أراد أن يصدق فقد آمن بأن هذا حدث . لأنه فى هذه الحالة يكون ما تم غير مشهود بالنسبة له .. أى غيبا بالنسبة له .. والايمان لا يكون إلا بالغيب .. ولا يكون شىء حسى مادى مشاهد .

ففى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر ، ورآه من رآه .. فمن أراد أن يصدق رواية الذين رأوه فقد آمن .. ولكن المسألة عندما تذكر فى القرآن الكريم ، أو يجىء بها القرآن مؤكدا رواية الرواة تصحبح يقينا .

وأما من يريد تفسير الآية الكريمة ، بمعنى أن اقتربت الساعة .. أى أن الساعة تقترب .. وينشق القمر آية لها .. فنحن لا نستطيع أن ننفى أن ذلك يمكن أن يحدث .. ومادام الله سبحانه وتعالى يقول : « اقتربت » فإننا لابد أن نعرف يقينا أنها اقتربت .. ذلك لأن الله حين يخبرنا بشىء مستقبلى فهو يقين إيمانى .

أتى أمر الله فلا تستعجلوه

وهنا ننبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾

(سورة النحل - الآية ١)

.. كيف يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أتى ﴾ .. ثم يقول « لا تستعجلوه » .. مادام قد أتى .. أى قد حدث وتم .. فكيف لا نستعجله ؟

نقول لمن يحاول أن يستخدم مثل هذا الاختلاف الظاهرى بين الألفاظ أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن أمر مستقبلى ، فإنه يتحدث عنه بأنه قد وقع وتم فعلا .. ولا يستطيع أحد من خلق الله ، ولا قوة غير الله ، أن تتحدث عن المستقبل فى صيغة الماضى .. لماذا ؟

إذا تحدث عن شىء سيقع فى المستقبل ، فلابد أن يتحدث عنه كشىء مستقبلى .. فالانسان لا يملك القدرة ولا القوة ليضمن حدوث الشىء .. فهو لا يملك البقاء على قيد الحياة ، حتى يأتى موعد وقوع الشىء .. وهو لا يضمن أن قوته ستمكنه من عمل هذا الشىء ، حتى إذا بقى على قيد الحياة .. وهو لا يضمن الظروف التى قد تكون سائدة فى هذا الوقت ، حتى يقع هذا الشىء أو لايقع ..

فقد يأتى شىء ما خارج عن إرادة الانسان يمنع حدوث ما وعد الانسان بأنه سيحققه .. ونحن لا نملك المستقبل .

ولكن الله سبحانه وتعالى حى لا يموت .. قاهر فوق عباده .. لا أحد يستطيع أن يمنع حدوث أمر الله .. فإذا حدث الله سبحانه وتعالى عن المستقبل بصيغة الماضى ، فإنه لا محالة حادث .

إذن فإن المستقبل بالنسبة للبشر يصح أن يكون أو لا يكون .. ولكن الأخبار من الله القادر على قوله .. يكون قد وقع بمجرد اخبارنا به .. وإن لم يكن نراه أو نشهده .

والذين يقولون انشق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذين يقولون سينشق القمر عندما تقترب الساعة .. نقول : إن كلا القولين غير متعارض ، فالقمر قد انشق .. والقمر سينشق مرة أخرى .

أحداث يوم القيامة

ونأتى إلى ما جاء فى القرآن عن أحداث يوم القيامة .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٨)

وقوله تعالى :

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾

(سورة القمر - الآية ٧)

هاتان الآيتان وآيات غيرهما تخبرنا كيف سيخرج الناس من قبورهم .. فنحن نأتى إلى الدنيا تباعا .. أى فردا فردا .. ولكننا حين نبعث فى الآخرة .. فإننا نبعث مرة واحدة ، أى نقوم جميعا فى لحظة واحدة .. حينئذ يصبح هناك ازدحام شديد .. لأن أهل الأرض كلهم منذ بداية الخلق قد خرجوا من قبورهم دفعة واحدة .. والله يريد أن يقرب لنا هذه الصورة بشىء يحدث أمامنا فى الدنيا .. فيشبه هذا الازدحام بالجراد .. عندما يأتى يكون هناك ازدحام رهيب .. بحيث لا تستطيع أن تميز بينه كأفراد .. بل يكون كأنه غمامة لا تستطيع أن تميز بين فرد وآخر .. ويحجب الازدحام الشمس ، ويصبح الأفق مظلما .. ولا أحد يستطيع أن يميز فى وسط الزحام .. بل أفواج تلو أفواج .. هذه احدى صور يوم الحشر .

والناس سيخرجون من نفس الأرض التى دفنوا فيها .. وبعد خروجهم .. يساقون إلى أرض الميعاد .. فتتبدل السموات غير السموات .. والأرض غير الأرض .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٤٨)

.. وهذا القول لا يعارض قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ٢٥)

لأن الناس سيخرجون من هذه الأرض .. سيبعثون منها .. ثم بعد ذلك يساقون إلى أرض الميعاد التى سيتم فيها الحساب ..

والأرض التى نعيش عليها هى معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث .. ومدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم .. ولأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب .. لا تصبح هذه الأرض التى نعيش عليها صالحة .. فقد أدت مهمتها فى استيعابها الحياة الدنيا .. ثم انتهت هذه المهمة بيوم البعث .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن يخرج الانسان إلى أرض الميعاد .. فإن تلك الأرض التى كان مطمورا فيها أسباب الحياة .. ومطمورا فيها أقوات البشر انتهت مهمتها .. فالرزق فى الآخرة سيأتى من الرازق مباشرة . وليس بالأسباب ..

هـل سـنخرج ونمضـى ؟!

ولكن هل سنخرج ونمضى هكذا بدون أن نكون غايتنا محددة .. وهل كل واحد فينا يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريده وعلى هواه .. هذا يتأخر وهذا يتقدم .. وهذا يذهب يمينا ، وهذا يذهب يسارا .. وهذا إلى الخلف .. وهذا يزاحم من الخلف ليتقدم الصفوف .

لن يحدث هذا أبدا .. فلقد انتهت أهواء النفوس ورغباتها .. وأصبح كل واحد منا خاضعا لأمر الله مباشرة .. لقد انتهى الاختيار فى افعل ولا تفعل .. انتهت فترة الامتحان .. ولم يعد أحد قادرا على ألا يفعل إذا قال الله افعل .. أو أن يفعل إذا قال الله لا تفعل .. فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا لحكمة .. وهو أن يكون كل انسان شهيدا على نفسه .. وان يختار الانسان طريقه بإرادته ليكون الحساب عدلا .. ولكن هذا انتهى اليوم . فلم يعد لأحد حرية ليختار ما يريد .. بل أصبح الأمر كله لله .

انظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ ﴾

(سورة ق ـ الآية ٢١)

.. ما هو السائق ؟ .. السائق هو الذى يسوق الغنم إلى

المرعى . . ومكانه دائما خلف الغنم حتى يصحح مسارها . . فإذا انحرفت يمينا أسرع هو ليعدل مسارها . . وإذا انحرفت يسارا أسرع ليعدل مسارها . . إذن لكل انسان من يسوقه إلى مكانه يوم القيامة . . يسوقه إلى أرض الميعاد ، إلى الحساب .

المؤمن الذى عرف أن مصيره النعيم سيمضى وهو مسرور مبتسم . . ولكن الكافر الذى عرف أن مصيره إلى النار . . كلما توقف فإن هذا السائق الذى وراءه يدفعه إلى الأمام إذا حاول أن يتجه إلى أى اتجاه آخر . . فإن هذا السائق سيدفعه إلى مساره . . لأنه لا يقوده ، أى لا يمشى أمامه . . ولكنه يسوقه ، أى يمشى خلفه ، حتى لا يفلت منه ، ويكون أمام نظره دائما . . حتى إذا حاول أن يقف أو يتوقف يدعه دعا إلى أن يوقفه فى مكانه .

أما معنى قول الله سبحانه وتعالى « وشهيد » . . فإن الانسان يكون معه شهيد من نفسه ، وشهيد من صحيفة عمله . . بل ان جوارحه تشهد عليه يوم القيامة . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور - الآيات ٢٤)

. . إذن فكل انسان سيكون معه كتابه ، ومعه الشاهد عليه . . ويقف الناس لرب العالمين . .

وعرضوا على ربك صفا

وحينئذ يبين الله سبحانه وتعالى لنا :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(سورة الكهف - الآية ٤٨)

وهنا يلفت انتباهنا قوله تعالى (صفا) . . هل سيقف الخلق جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة صفا واحدا ؟ . . وكم سيبلغ طول هذا الصف ؟ . . وأى مكان يتسع لكل هؤلاء الخلق من بدء الخليقة حتى نهايتها ؟

نقول إن المعنى أن يكون ذلك . . وأن قدرة الله تستطيع أن تخلق المكان . . وأن كل هؤلاء جميعا يقفون صفا واحدا . . والله قدرته لا تفوقها قدرة ، وكونه بلا حدود .

وقد يكون المقصود من الآية هو أن لن يفلت واحد من الله سبحانه وتعالى . . ذلك أنك إذا أوقفت الناس أمامك صفوفا . . فإن الذى تراه وتلحظه جيدا ، وتراقب كل حركاته ، هم الموجودون فى الصف الأول . . أما أولئك الموجودون فى الصفوف : الثانى والثالث والرابع والأخير ستكون ملاحظتك لهم أقل ، بحيث يستطيع أى واحد منهم أن يتوارى فيمن هم أمامه . . ويفعل شيئا لا تراه أنت . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أحدا من خلقه لن يستطيع أن يفلت ، ولو ثانية ، من مراقبة الله له . . وكأنهم جميعا واقفون صفا

واحدا . . لا يمكن لواحد منهم أن يتوارى فى شىء . . لأن كلا منهم لن يستطيع لا الافلات ، ولا حتى مجرد الاتيان بحركة ولن يتجاوز أحد منزلته . . بل سيلزم مكانه فى الصف . . مكانه الذى حدد له بعمله فى الدنيا . . بالطاعة واتباع منهج الله .

كما خلقناكم

ومعنى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٤٨)

ان الحياة التى نثرت فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها فى هذا المكان . .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾

(سورة هود ـ الآية ١٠٣)

ومعناها أيضا أنكم تركتم كل ما كان لكم فى الحياة الدنيا من مال وجاه وعزة وعزوة .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(سورة الكهف ـ الآية ٤٨)

.. بدون أى قوة تمنعكم منا .. أو عصبة تدافع عنكم .. أو مال يشفع لكم .. وليس معكم شفعاؤكم الذين كنتم تعتقدون فى الحياة الدنيا أنهم سينفعونكم فى هذا اليوم .. ولا آلهتكم الذين عبدتموهم من دون الله .

والمعروف أن كل إنسان فى الحياة الدنيا قد يكذب على نفسه .. فقد يعتقد زيفا فى أن هناك من سينفعه ، أو سينقذه من العذاب يوم القيامة .. وقد يعتقد زيفا أنه قد يستطيع أن يفلت ، أو أن عذاب الله سيكون يسيرا عليه ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .. أو قد يقول نؤجل التوبة حتى أكبر ، ولكن بعد ذلك لا يمهله الأجل .. أى أن كل انسان قد يكذب على نفسه فى امتدادات الأمل .. وهذا حادث فى الحياة الدنيا .. فكل انسان لديه آمال كثيرة قد لا تتحقق أبدا .. ولكنه يعيش على أساس أنها ستتحقق .. ولكن هذا معناه الأمل الكاذب .. أى الأمل الذى لن يتحقق .. ولكن إذا أصبحت المسألة واقعا .. حينئذ لا يكون هناك أمل .. بل يصبح هناك واقع فقط ، كما سيحدث فى الآخرة .

وإذا أردنا أن نضرب لهذا مثلا ، ولله المثل الأعلى . نقول : هب أن طالبا أخذ يمنى نفسه بالأمل الكاذب .. ويقول لنفسه أنه ليس من الضرورى أن أحضر محاضرة ؟ فأنا فاهم .. وليس من الضرورى أن أسمع الأستاذ . فأنا سأقرأ الكتاب .. ويظل هكذا إلى أن يأتى يوم الامتحان فيجد نفسه راسبا .

هكذا الانسان فى الحياة الدنيا .. يقصر فى تطبيق منهج الله فيقول : أنا لن أصلى اليوم ، ولكنى سأصلى غدا .. لن أؤدى الزكاة هذا العام ، ولكنى سأؤديها فى العام القادم .. ويظل هكذا يهمل فى تطبيق المنهج إلى أن يأتيه الأجل .. حينئذ يجد نفسه أمام الحساب ، وأمام الجزاء ، بدون أن يكون قد استعد لهذه اللحظة .. بل غرته الأمانى فى حياته الدنيا .

الشيطان الذى استغل الانسان ، وقعد له فى كل طريق مستقيم . ووسوس له فى الدنيا .. وزين له أن يترك الصلاة اليوم على أساس أنه سيصلى غدا .. وأن يترك الزكاة إلى العام القادم .. إلخ .. يأتى يوم القيامة فيحاول أن يهرب من المسئولية .. فيقول انه لم يكن له سلطان على عباد الله ليقهرهم على المعصية .

والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر .. ذلك بأن أقيد إنسانا ثم أقوده إلى حيث أريد .. أو أقيده ، ويحمله أعوانى إلى المكان الذى أريده .. أو يكون السلطان هو سلطان الحجة .. بحيث يقنع الانسان ليفعل ما يريده الشيطان .. إذن فالسلطان إما قوة قهر افعل بها أنا ما أريده بك .. أو سلطان حجة وإقناع يجعلك أنت تفعل ما أريده ، ولكن باختيارك .. والشيطان لم يعط سلطان القوة ، ولا سلطان القهر .. أى أن الشيطان ليس عنده حجة ليقنع . وليس لديه سلطان قوة ليقهر .. ولكنه وجد فى داخل الانسان هو ورغبة للمعصية فزينها له .. فلا يقول أحدكم اليوم : انه مقهور لأن الشيطان لا يستطيع أن يقهركم على المعصية ، أو حتى يقنعكم بها ..

وكل إغواء الشيطان للنفس البشرية ، هو شهوات هذه النفس التى تريدها ، يزينها لها .

ودعوى الشيطان كاذبة . . ونحن نعرف أنها كاذبة . . وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك فى إغواء الشيطان لآدم . . وقد قال الشيطان لآدم :

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

(سورة طه - الآية ١٢٠)

. . أى أنه وعده بالخلود والمال الذى لا يفنى . . ولم يأخذ آدم إلا المعصية والطرد من الجنة . . ولكن رغم اننا نعرف كذب الشيطان . . فإن إغواءه يصادف هوى فى نفوسنا فنصدقه . . ويقول الشيطان فى هذا الموقف الذى تخلت فيه الدينا عن الانسان العاصى . .

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢٢)

. . أى أن الشيطان يقول : أنا لا أستطيع أن أنجيكم من العذاب اليوم . . ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى منه . . لأن الصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده . فإذا شب فى بيت إنسان حريق . . فإما أن يستطيع أن يطفئه بنفسه ،

فلا يصرخ طالبا النجدة ، وانما يقوم بإطفاء الحريق . . وأما إن كانت النار أقوى منه ومن قدراته ، فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة . . لأنه يواجه حدثا أقوى من قدراته .

وإذا هاجم الانسان لص ، فإنه إذا كان يقدر عليه واجهه . . أما إذا لم يكن يقدر عليه . . كان يكون اللص أقوى منه . . فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة .

حين يسمع الناس الصراخ ، فهم نوعان : نوع لا يجد فى نفسه المقدرة ، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده . . ونوع آخر يجد فى نفسه المقدرة فيذهب وينقذه ، وحينئذ يقال : أصرخه فلان ، أى أزال سبب صراخه .

ولكن الشيطان يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا . . لا يستطيع أن ينقذ أحدا من العذاب . . ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب . . يقول الشيطان للعاصين .

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(سورة ابراهيم ـ الآية ٢٢)

وخشعت الأصوات للرحمن

ولهذا يعطينا الله سبحانه وتعالى صورة دقيقة يوم الحساب فيقول :

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

(سورة طه - الآية ١٠٨)

ولقد ألفنا فى الدنيا انه ساعة أن يكون هناك حساب أو محاسبة .. فإن الأصوات تعلو .. وكل واحد يجادل بقوته وصياحه .. كذلك ألفنا أن الانسان ذا القوة والنفوذ عالى الصوت دائما .. ومعنى علو الصوت هنا أنه يستطيع أن يحقق ما يريده .. ذلك هما المعنيان المادى والمعنوى لأن تقول : فلان صوته عال .. وفى أحيان كثيرة تقول سنرى أيا منا أعلى صوتا ، أى أكثر قدرة على تحقيق ما يريد .

وعلو الصوت المادى يبين أن صاحبه قوى ، أوكما يقولون (مسنود) .. فالانسان يعلو صوته عندما يحس بالقدرة .. ولكنه إذا كان مسكينا مغلوبا على أمره ، فإنك تراه يقف ذليلا لا يستطيع صوته أن يتجاوز أمتارا قليلة .

فلو أخذنا علو الصوت على أساس مادى .. أى أنه يمثل قوة ساعة المجادلة أو المحاسبة .. أو أخذناه على أساسه المعنوى .. أى أنه يمثل القدرة على قضاء ما يريده .. فكلا الأمرين سيختفى فى الآخرة .. فلا يستطيع انسان أن يعلو بصوته على غيره مهما يكن هذا الانسان قويا فى الدنيا ، والآخر ضعيفا فيها .. لأن ارتفاع الصوت إعلام

بمدى ظهور ذلك المستعلى بصوته على الآخر .. إذن فستكون هناك مساواة كاملة .. فلا يوجد قوى دنيوى يستطيع أن يعلو بصوته على ضعيف دنيوى .. ولا سيد يستطيع أن يعلو بصوته على من كان يستعيدهم أو يسيطر عليهم ..

وهكذا تخشع الأصوات كلها ، فلا يوجد تمييز دنيوى بين الناس . بل تختفى كل الميزات فى الآخرة ، ونصبح جميعا مستاوين .. أمام الله سبحانه وتعالى .

ويقال : خشعت الأصوات من هول الموقف أمام الله .. ذلك أننا حين نقف أمام الله منتظرين الحساب .. فإن هول الموقف يجعل الأصوات تخشع .. ونحن فى الدنيا حين نقف أمام رئيس دولة ، أو حاكم .. فإن كنا نريد أن نتحدث مع بعضنا البعض ، نتحدث همسا ، أو بصوت خافت مناسب للموقف الذى نحن فيه .. فكيف إذا كان الوقوف بين يدى الله .. حينئذ فى هذه الحالة لا يجرؤ ملوك الأرض ، وأعتى العتاة فيها وجبابرة على النطق إلا همسا .

هل سيحدث كلام ؟

ولكن هل سيكون هناك كلام وحديث بين الناس يوم القيامة ؟ .. الجواب عن ذلك : نعم .. ولذلك سمى يوم القيامة . يوم التناد حيث ينادى بعض الناس أولئك الذين أضلوهم فى الحياة

الدنيا .. طالبين منهم أن يدفعوا عنهم العذاب ، أو شيئا من العذاب ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة البقرة - الآيتان ١٦٦ و ١٦٧)

.. وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

(سورة ابراهيم - الآية ٢١)

ومن هنا نعلم أنه سيكون هناك جدل بين الكفار وبين الذين اتبعوهم .. وأن الكفار سيتبرأون من الذين اتبعوهم .. بل انه سيكون هناك حوار بين المؤمنين وغير المؤمنين ، وهم يساقون إلى أرض الميعاد .. ينبئنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن
نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ
بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن
مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ
حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الحديد ـ الآيتان ١٣ ـ ١٤)

بل انه سيكون هناك حوار أو كلام بين أهل الجنة وأهل النار مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ٥٠)

وكل هذا سنتعرض له بالتفصيل فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله ، ذلك أننا فى هذا الفصل نحاول أن نعطى صورة لوقوف الناس بين يدى الله قبل الحساب .

ولتكتمل الصورة لابد أن نلقى الضوء على بعض الجوانب بالنسبة لما سيحدث فى هذا اليوم العظيم .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(سورة آل عمران - الآية ١٠٦)

أى أن وجوه المؤمنين ستكون متلألئة بالنور ، بيضاء مليئة بالسرور . . بينما تكون وجوه غير المؤمنين مليئة بالانقباض ، سوداء مما ينتظرها من الهم والعذاب . . ويوضح الصورة أكثر قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾

(سورة الشورى - الآية ٤٥)

وذلك يرينا كيف أن الكفار والعاصين فى يوم القيامة سيشعرون بذل رهيب بعد أن كانوا فى الدنيا يملؤهم الكبر والكبرياء بما كانوا فيه من نعمة وجاه . . ولكنهم فى يوم القيامة ذهبت عنهم وسائل كبريائهم الدنيوى ، وانتهت تماما وسائل صلفهم ، ووسائل غرورهم ، وأصبحوا أمام الله لا تحيط بهم إلا ذنوبهم . . وهكذا يغشى وجوههم الذل .

يـوم تولـون مدبـرين

ولتصوير ما سيحدث بصورة تقربه إلى الأذهان حتى لا يأتى أحد مجادلا يوم القيامة . . ويقول : يارب لو أنك أخبرتنا بصورة

ما سيحدث لكنا آمنا .. ولكنك يارب لم تخبرنا .. يعطينا الله سبحانه وتعالى صورا كثيرة لهذا اليوم فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾

(سورة غافر - الآية ٣٣)

.. ويقول الحق جل جلاله ..

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

(سورة التكوير - الآية ٦٦)

.. ومعنى ذلك أن غير المؤمنين حين يرون هذا الهول الكبير يتمنون أن يهربوا من الله سبحانه وتعالى .. ولكن هل يستطيع إنسان مهما هرب . أن يهرب من الله ؟ .. وإلى أين يذهب ؟ والملك كله ملك الله .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

وتكتمل الصورة أكثر بقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان - الآية ٢٧)

.. أى أن الله سبحانه وتعالى يكون قد بين لنا الفرق بين صورة الظالم وصورة الكافر .. فالظالم هو الذى آمن . ولكنه ظلم نفسه بالمعصية .. ولذلك يعض على يديه من ندم ، لأنه يعرف أن عذابا شديدا ينتظره .. أما الكافر فيعرف أنه خالد مخلد فى النار ويرى النار وهولها .. وحينئذ يتمنى لو أنه لم يكن مخلوقا من البشر .. بل كان جمادا لا يملك فكرا ولا إرادة ، لأن فكره أضله .. وإرادته قادته إلى النار ليخلد فيها .. وهو يعرف أنه لن يخرج من النار .. وحينئذ يتمنى لو أن لديه ملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، فهو مستعد لأن يضحى بهذا المال كله لينجيه من العذاب .

وهذه الصورة تعطينا مدى استعداد الانسان لأن يفدى نفسه من العذاب بأى شىء .. ذلك أن المال هو العزوة فى الدنيا .. والانسان يحرص على ماله فى الدنيا ، ويحرسه ، ويدافع عنه أحيانا بحياته .. ولكن هذا المال الذى له هذه القيمة الكبيرة فى الدنيا يكون فى الآخرة عديم القيمة . والله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هول العذاب وتأثيره على نفوس البشر ، حتى إن الانسان يكون مستعدا أن يضحى بأى شىء .. بماله وبأولاده وبكل ما كان يعتز به فى الحياة الدنيا ، لينجو فى الآخرة .

ومع أن هذه الصورة قد أعطيت لنا فى القرآن الكريم ، وقرأناها ونحن فى الحياة الدنيا .. وكان من الواجب أن تجعلنا نفزع ونفر إلى الله ونتبع منهجه .. ونلتصق بهذا المنهج حتى ينجينا الله من

العذاب ، فإن كثيرا من الناس يسمع وصفا لهذه الصورة فى القرآن الكريم .. فلا يهتز قلبه ، لأن العذاب محجوب عنا فى الدنيا .. ولو أن واحدا منا رأى عذاب الآخرة لامتنع عن كل المعاصى الدنيوية ..

يبقى بعد ذلك استكمال الصورة التى رسمها القرآن الكريم بالنسبة ليوم القيامة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(سورة طه ـ الآيتان ١٢٥ ـ ١٢٦)

وقوله تعالى :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ٥١)

وقول الله سبحانه وتعالى « أعمى » يمكن أن يكون معناه العمى الدنيوى ، لأن الكافر يوم القيامة ستحيط به ظلمات ذنوبه ، فلا يرى شيئا ويمشى يتخبط .. ويمكن أن يكون معناه أيضا العمى المعنوى ، وذلك من سوء ما ينتظره يوم الحساب .. يتخبط كالأعمى تماما .. فأحيانا يأتيك خبر فى الدنيا ، ويكون هذا الخبر سيئا ، فتقول أنا لم

أعد أرى شيئا وتمشى وأنت تتخبط . . ومعناه أيضا أن المسائل تختلط على الكافر بسبب هوى النفس الذى كان يتبعه ، فلا يستطيع نظره أن يميز شيئا ، فيمشى وهو يتخطبط .

واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « ننساهم » ليس معناه أن الله سينسى الظالم فى الآخرة . فلا يحاسبه . . ولكن الله ينساه من موجبات رحمته فلا يرحمه . . ويظل الكافر والظالم يستغيثان . . ولكن الله لا يستمع إليهما . . كذلك ينسى الله سبحانه وتعالى الكافر من موجبات عفوه يوم القيامة ، فلا يعفو عنه أبدا ، ويظل خالدا فى النار . . ذلك أن هؤلاء الناس تابوا على منهج الله فى الدنيا ونقضوه ولم يعملوا به . . فكيف يريدون عفو صاحب المنهج فى الآخرة ؟

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾

(سورة الزمر - الآية ٦٩)

بأنه لن تكون هناك شموس ولا نجوم ولا أقمار ، ولكن نور الله سيأتى مباشرا إلى خلقه ينير كل شىء .

إلى هنا ونصل إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب - على أن يكون الجزء الثانى ، إن شاء الله ، عن ساعة الحساب . . وكيف سيتم ، والله يوفقنا لما فيه الخير والسداد .

المحتويات

رقم الإيـداع : ٣٣٢٩ / ٩٣

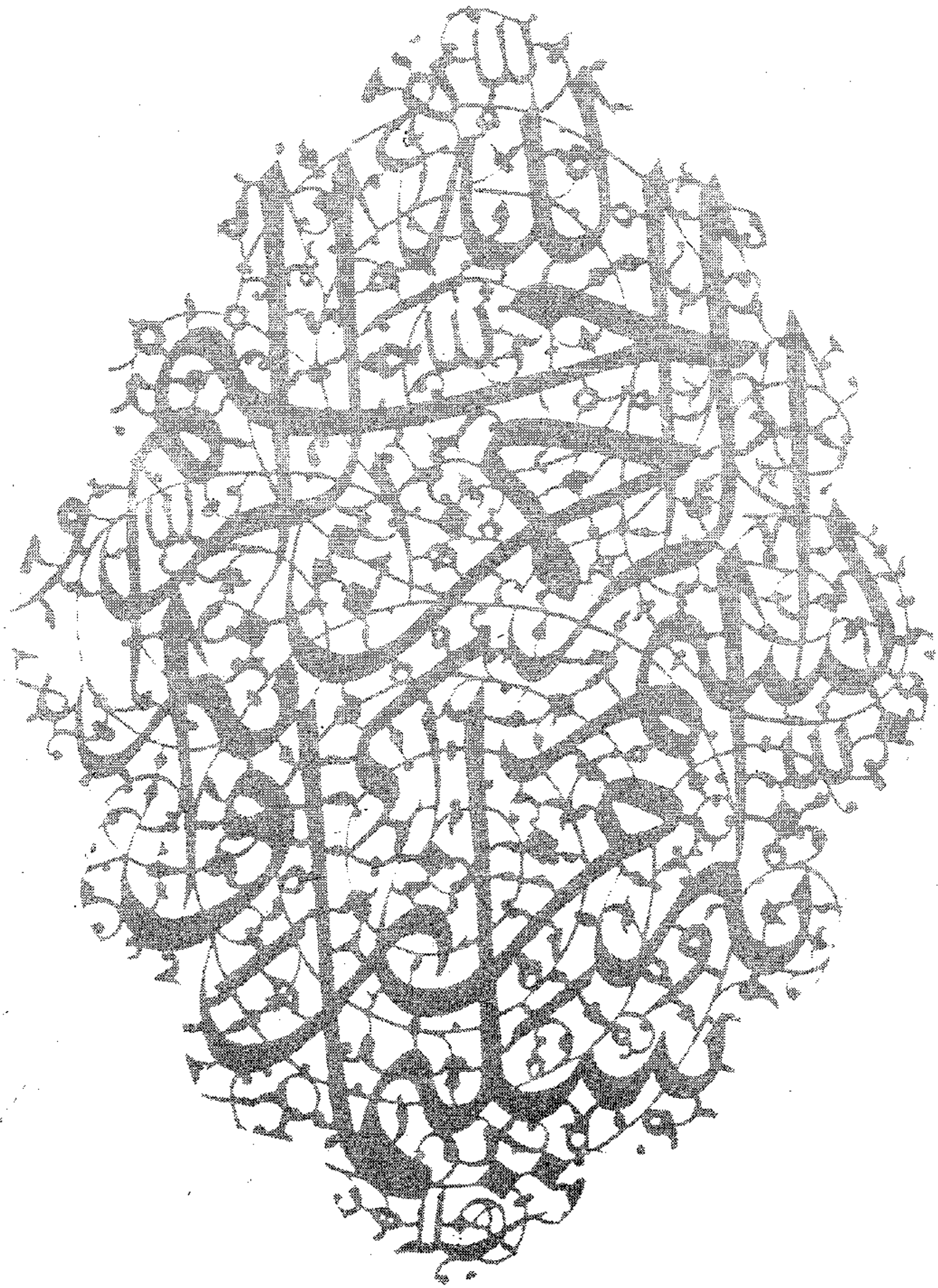
الترقيم الدولى / I. S. B. N.

977 - 08 - 0175 - 5

١٠

معجزة القرآن

محمد متولي الشعراوي



المقدمة

معنى يوم القيامة

لماذا الحديث عن يوم القيامة ؟ ذلك سؤال لابد ان نجيب عليه قبل ان نبدأ هذا الكتاب .. والجواب ان القيامة هى اساس الايمان .. وهى اساس العمل فى الدنيا .. وهى اساس منهج الله .. فلو انه لا توجد قيامة لكان المؤمن هو الخاسر فى هذه الحياة الدنيا .. ذلك ان المؤمن يحرم نفسه من شهواتها ويمتنع عما حرم الله .. ويتحمل المشاق فى الدنيا .. لا يمد يده إلى حرام .. ولا يحاول ان يحصل على مال بغير حق .. وإذا اشتهى شيئا حرمه الله نهى النفس عنه .. بينما غير المؤمن يطلق لشهواته العنان فيفعل ما يريد ويتمتع كما يشاء .. عاصيا لمنهج الله .. فإذا لم يكن هناك يوم حساب كان الخاسر هو المؤمن والرابح هو غير المؤمن الذى اعطى نفسه كل ما تشتهيه .

ولأن يوم القيامة هو الرادع لكل ظالم مفسد فى الأرض .. فالانسان قد يرتكب الجرائم فى الدنيا ويحكم خططه بحيث يفلت من العقاب الدنيوى .. او بحيث لا يقوم على ما فعل دليل .. واحيانا يستبد الظالم بالناس فيخضعون له جميعا ولا يقف واحد منهم ليقاوم ظلمه .. لذلك كان لابد لكى يكتمل العدل فى الكون .. ان يكون هناك

يوم يؤتى فيه باولئك المؤمنين الذين هربوا من العقوبة فى الدنيا لينالوا اشد العذاب فى الآخرة .. ولولا ساعة الحساب هذه ما ارتدع ظالم عن ظلمه .. ولا تردد قاتل فى ان ينفذ جريمته .. ولا خاف مستبد وهو يفتك بالضعفاء .

ولذلك فإن وقفة الحساب ضرورية .. لو لم تكن موجودة لطالب بها كل إنسان لأنها ميزان العدل فى هذا الكون .. لكل من ارتكب ظلما فى الأرض وافلت من العقاب .. وكل من نسى الله وانطلق بأسباب الدنيا يفسد فى الأرض .

ويوم القيامة هو اليوم الذى تزول فيه الأسباب .. ولا يصبح لأى واحد منا قوة ولا قدرة .. بل تذهب عنا كل اسباب الدنيا .. الذى تغره الأسباب فى الدنيا .. لابد ان يتذكر هذا اليوم الذى سيذهب فيه كل هذا النفوذ .. والذى سيصبح فيه الانسان وحيدا أمام الله .. لا احد ينصره .. ولا شىء ينفعه إلا عمله .

وإذا ظهر الفساد فى الدنيا وازداد .. فاعلم أن عدد الذين لا يؤمنون بالآخرة او ينسونها قد ازداد .. فإذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما شئت .. وكلما زاد العمل الصالح فى الدنيا .. كان ذلك لزيادة الايمان باليوم الآخر .

وإننى اقدم هذا الكتاب .. علّ الذين عبدوا الدنيا ونسوا الآخرة يتذكرونها فيدخل الايمان إلى قلوبهم .. ويحسون بهول ما سيحدث فيكون ذلك رادعا لهم عن الظلم والفساد .. دافعا لهم إلى العمل الصالح والايمان .. لعل القلوب تهتدى .. ولعلنا نعرف جميعا ماذا ينتظرنا .. وما هى المواقف التى سنواجهها .. وما هى المشاهد التى سنراها .

والله اسال ان يهدينا جميعا إلى الطريق المستقيم .

الفصل الأول

حرية الانسان

إن الحديث عن يوم القيامة وأهوالها جدير بنا أن نتناوله فى أكثر من كتاب . . ورغم أن أحداث القيامة غيب عنا . . فإن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا من الأحداث الحسية ما يقرب لنا معانى الغيب . . وذلك رحمة بالعقول البشرية من أن تضل أو تفتن . . وإذا كان هذا هو أحد المعانى التى نريد أن نبينها عن مشاهد يوم القيامة . . فإن هناك معنى آخر هو أننا جميعا محتاجون إلى التذكرة . . لابد أن نعرف يقينا . . أن هذه الحياة التى نحياها . . لا تحمل مفهوم الحياة التى يريدها الله سبحانه للانسان . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

« من الآية ٢٤ من سورة الأنفال »

وإذا قرأنا هذه الآية الكريمة . . فإننا نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ . . ويبرز السؤال هنا إلى الذهن . . ألسنا أحياء فعلا ؟ . . أليس القرآن يخاطب الأحياء مصادقا لقوله تعالى فى سورة يس :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

« الآيتان ٦٩ و ٧٠ من سورة يس »

كيف يكون القرآن قد نزل للأحياء .. بينما هو منهج يدعو إلى حياة قادمة .. نقول إن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا مجرد اختبار للآخرة .. لأن الله الذى كرم الانسان ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خليفة فى الأرض ، يريد له حياة تليق بهذا المخلوق ، وبتفضيل الله له ، وبتسخير الله سبحانه وتعالى لكل ما فى السموات والأرض للانسان .

الانســان سـيد الـكون

فالكون كله بقواه الهائلة التى تفوق قدرة الانسان ملايين المرات ، والتى تستطيع أن تهلكه فى لحظة واحدة .. الكون كله بتلك القوى الهائلة الموجودة فيه مسخر لخدمة الانسان .. الشمس تعطى أشعتها له ولا تستطيع أن تعصى .. والهواء يعطيه التنفس ، ولا يستطيع أن يرفض .. والبحار تعطيه الأمطار ولا تستطيع أن تقول لا .. والأرض تعطيه كل خيراتها .. فلا هى تقدر أن تمنع الزرع ، ولا أن توقف الثمار عن الوجود .. وهكذا نرى أن كل ما فى الكون مسخر لخدمة الانسان .. الانسان على إطلاقه .. مؤمنه وكافره .. العاصى والمطيع .

ولكن كل هذا فى دار الاختبار .. فالدنيا كلها ليست حياة الانسان الحقيقية ، ولكنها فترة زمنية محدودة ، كاختبار أو امتحان للحياة الحقيقية التى أعدها الله للانسان العابد له ، الشاكر له المنفذ

لمنهجه بحب واختيار . . ولذلك نجد فى القرآن الكريم أكثر من آية تلفتنا إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

« الآية ٦٤ سورة العنكبوت »

اى أن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية . . وفى قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

« الآية ٢٥ من سورة يونس »

الحيـاة الحقيقية هى الآخـرة

لماذا أعد الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة ؟ . . أولا . . لأن الدنيا دنيا أغيار يعانى فيها الانسان ويكابد . . وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة . . فأنت اليوم قوى ، وغدا ضعيف . . وأنت اليوم غنى ، وغدا فقير . وأنت اليوم سليم ، وغدا مريض . . وأنت اليوم حى ، وغدا ميت . . لا شىء يستقر على حال . . فكل شىء فى الدنيا يتغير ويتبدل . . لماذا ؟ .

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار ؟ . . حتى يلفتنا إلى أن كل شىء منه . . ونحن لا نملك شيئا بذاتنا . . حتى نعرف أن الصحة من الله . . ولو كانت الصحة من أنفسنا ما مرضنا أبدا . .

ونعرف أن الغنى من الله . . ولو كان الغنى تضعه عقولنا ما أصابنا الفقر أبدا . . ولكى نعرف أن القوة من الله . . ولو كانت من أنفسنا لما أصابنا الضعف . . وذلك حتى نتذكر دائما نعم الله وقدرته فلا نعصاه . . ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الواهب وهو الفعال . . فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا . . ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم ، فنقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى »

إنما يريد الله أن يجعلنا ملتصقين به . . ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة الله . . وعجزنا وقدرة الله . . فنتبع المنهج ونتجه إلى الله . . وكلما غرتنا مظاهر الدنيا تغير الحال من قوة إلى مرض . . ومن قدرة إلى عجز . . علنا نفيق ونتذكر .

عالم أغيار .. لماذا ؟

وهكذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا . . فلو أنه ليس عالم أغيار لبعد الناس عن منهج الله . . لو رأوا فى أنفسهم قوة لا تضعف . . وقدرة لا تعجز . . ومالا لا يفنى ولا يذهب . . لابتعد الكثير عن ذكر الله ، ولغرتهم قوتهم ، فأفسدوا فى الأرض . . وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم . . وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى . . فمادامت القوة لا تتغير ولا تتبدل . . فكثير من الشفاه تنسى كلمة يارب . . وطغيان البشر يزداد فى الكون كله . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾

« الآية رقم ٦ ـ ٧ من سورة العلق »

ولقد شاءت رحمة الحق سبحانه وتعالى . . أن يوجد فى الكون ما يذكرنا دائما بأننا لا نفعل شيئا إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فنحن نرى بأعيننا ، ولكن الله شاء أن يخلق من له عينان ولا يبصر . . لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها . . ولكنها تبصر بقدرة الله . . ونمشى بأقدامنا . . ولكن الله شاء أن يوجد من له قدمان ولا يستطيع المشى . . ونسمع بآذاننا . . ولكن مشيئة الله خلقت من له أذنان ولا يسمع .

تلك أمثلة قليلة مما وضعه الله فى الكون وعوضه عما فقد بميزات أخرى ، ليكون ميزان العدل موجودا . . فوجد من هو أعمى ومن أعلم الناس . . ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين . . ووجد من لا تحمله قدماه وحكم أقوى دولة فى العالم من فوق كرسى متحرك .

إذن فعالم الأغيار ، رحمة بالانسان ، حتى لا يطغى ويبتعد عن منهج الله . . وتسخير الله لقوى هائلة فى الكون لخدمة الانسان رحمة من الله بنا ، حتى نتذكر كل يوم ، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار ، ونتنفس الهواء ، أن هذه القوى كلها مسخرة لنا بقدرة الله .

مصـير العـلماء غير المؤمنين

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية .. وهى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين .. ولكى يكون ذلك عدلا ، فلابد أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا .. يكون فيها قادرا على المعصية ولكنه يطيع .. ويكون قادرا على الكفر - والعياذ بالله - ولكنه يؤمن .. ويكون قادرا على الافساد فى الأرض ، ولكنه يصلح .. كل هذا حبا لله وليس لأى هدف آخر .. فالانسان يصلى طاعة لله .. ويتصدق حبا فى الله ويعمل الصالحات إرضاء لله .. فمن فعل ذلك بإيمان حقيقى تقبل الله منه .. ومن فعل كل هذا ، وليس فى قلبه إيمان لم يتقبل منه .

وهذه النقطة لابد أن نلتفت إليها جيدا ، لأنها أخذت جدلا كثيرا بين العلماء .

فالناس تتساءل : أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها .. ذلك الذى اكتشف البنسلين .. ذلك الذى كشف الله على يديه دواء لداء كان بلا شفاء .. أولئك الذين قدموا للانسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعا .. ولكنهم لم يكونوا مؤمنين .. هل يخلدون فى النار ؟

بعض العلماء قال : لا .. وقال إنهم سيدخلون الجنة . لما قدموا من خير البشر .. ولكنى أقول لهم : مادام لم يكن الله فى بالهم فلن يدخلوا الجنة .. لماذا ؟ .. لأنك إذا عملت عملا ، فإنك تأخذ

أجرك ممن عملت من أجله . . ذلك قانون أزلى . . فلا يمكن مثلا أن تبنى عمارة لانسان وتطلب أجرك من إنسان آخر . . أو تكون عاملا فى مصنع ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك .

والله أغنى الشركاء عن الشرك . . لماذا ؟ . . لأنه لا يحتاج إلى أحد من مخلوقاته . . فالله قد خلق الكون كله ، بما فيه من نعم وأرزاق ومخلوقات ، بكمال قدرته سبحانه وتعالى . . ولم يستعن فى ذلك بأحد . . ولا احتاج فى يوم من الأيام إلى أى مخلوق ، أو مجموعة من المخلوقات ، ليستكمل بها كمال قدراته تبارك وتعالى وتنزه .

ومن هنا فهو غنى عن خلقه جميعا . . غنى عن أى شريك . . فإذا قصدت بالعمل وجه الله وحده . . تقبله منك وجزاك عليه . . وإذا أشركت مع الله أحدا ترك كل ما عملت لمن أشركت به ، لأن الحق سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله .

حـدود حـرية الانسـان

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى فى آيات كثيرة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

« من الآية ٩٤ من سورة الأنبياء »

.. ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وهو مؤمن ﴾ . أن هناك من يعمل عملا صالحا وهو لا يؤمن .. وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر .. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾

« الآيات ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ من سورة الكهف »

وحتى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الانسان .. فكان لابد أن يخلق الانسان مختاراً .. مختارا فى ماذا ؟ .. فى أن يتبع منهج الله أو يعصى .. وبعض الناس يحسب ـ وَهْما ـ أن اختيار الانسان فى الحياة اختيار مطلق .. وتسمع كثيرا من الناس يقول لك : أنا حر على إطلاقها .

نقول له لست حرا إلا فيما يؤهلك للحياة الآخرة .. فيما يؤهلك للجنة أو النار .. إذن فالاختيار هنا للانسان اختبار .. وليس اختيارا على إطلاقه .. وإلا لو كان اختيار الانسان على إطلاقه لوقى نفسه المرض .. فعندما يأتى إليه المرض يختار الصحة .. أو عندما تأتى إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه .. بل يكون له اختيار فى جسده مثلا ، فيختار متى ينبض قلبه .. ومتى يتوقف .. ومتى تتنفس الرئتان ومتى لا تتنفسان .. ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل .. وما هى العضلات التى تتحرك عندما يقف ، وعندما

يمشى ، وعندما يجرى .. وألوف من الأشياء الأخرى .

ولكن الانسان يقوم ويجلس .. ويمشى ويقف ويجرى ويبطىء الخطى .. وهو لا يعرف أى العضلات تتحرك ، وأيها لا تتحرك .. كل أحداث الدنيا التى تقع على الانسان لا اختيار له فيها .. فنجد إنسانا حريصا على أن يركب الطائرة أو القطار .. مع أن هذه الطائرة أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة فى حادث سيقع .. ولا أحد يختار الموت .. ولكنك تجد أولئك الذين كتب عليهم الموت فى حادث طائرة مثلا هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة .. بل إن بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا ومع ذاك ، ليحصل على مقعد فى الطائرة التى تحمل له الموت .

الاختيـار محـدود بالمنهـج

إذن فاختيار الانسان فى الحياة محدود بالمنهج .. وهذه رحمة أخرى من رحمات الله على خلقه . حتى نتذكر أننا لسنا أحرارا بإرادتنا .. ولكننا أحرار بمشيئة الله .. وفيما أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نملك حق الاختيار فيه .. فلا يجعلنا حق الاختيار هذا نبتعد عن الله .. بل نعرف مهمتنا فى الحياة ، وهى فى منهج الله وعبادته .. فلا يغرنا ذلك بأن نصدق أننا أخذنا هذا الاختيار بقوتنا نحن .. فإذا عرفنا ذلك اتجهنا إلى الله سبحانه وتعالى فى اختيارنا .. فإذا قال أفعل نفعل .. وإذا قال لا تفعل لا نفعل ..

إذن فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار ، وبما فيه من حرية

الاختيار .. كل هذا كان يجب أن يذكرنا بالله دائما .. لنعرف أن هذا كله هو من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وليس بقدراتنا .. فلا نعصى ولا نتجبر .. ولكن نخشع ونخضع لنفوز بالحياة الحقيقية التى أعدها لنا الله ، ونفوز برضاه ونعمه .. ولنعلم يقينا أننا مهما علونا فى الأرض .. ومهما بلغنا من أسباب القوة فنحن فى قدرة الله لا نخرج عنها أبدا ، ونحن فى قبضة الله لا نستطيع أن نفلت منها .. وأن وعد الله حق .. بأن كل ما فى الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير ، ومن اختيار محدود فى المنهج .. ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا .

الحقيقـــة المنســية

ولكن رغم كل هذا هل اتعظ الانسان ؟ .. هل أحس يقينا أنه سيلقى الله فى الآخرة .. وهل أحس بالنعم التى أعدها الله له فى الجنة ؟ .. الجواب عن ذلك لا .. رغم أن كل لحظة فى حياتنا الدنيوية تذكرنا بالآخرة والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب .. ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا .. ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى .. ولكن الناس نسوا يوم الحساب .. وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم .. يرتكبون المعاصى ويعتدون على الحرمات ، ويأخذون المال الحرام ، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم ، ومكتوب عليهم .. فهناك الحفظة الكرام الذين

يكتبون كل شىء .

هذه مقدمة كان لابد منها لإيضاح الهدف الذى نسعى إليه من هذا الكتاب .. وهو أن يتذكر الناس أن هناك حسابا قادما .. بعد أن عم الفساد معظم أقطار الأرض .. وانطلق الناس بعدم إيمانهم بالآخرة يفعلون كل شىء ، وأى شىء .. حاسبين أن الله غافل عما يعملون .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ « الآية ٣٤ من سورة إبراهيم »

اليقــين بالآخــرة

والايمان بيوم القيامة هو الأساس فى العمل الصالح .. ففى أول سورة فى القرآن الكريم سورة البقرة .. فى أولى آياتها يوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الايمان فيقول :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

« الآيات ١ و٢ و٣ و٤ و٥ من سورة البقرة »

وهكذا نرى أن من مطلوبات الايمان أن يكون هناك يقين بالآخرة . . لماذا ؟ . . لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ماشئت مادام ليس هناك حساب . . ومادمت لا تلاقى الله . . فمم تخشى ؟ وماذا تخاف . .

إن أساس اليقين فى الدنيا هو يقين بالآخرة . . ذلك الذى يقف حائطا صلبا بينك وبين كل المعاصى . . وبينك وبين كل المظالم . . فالناس ترتكب المعصية . . لأن الجزاء مستور عنا . . لو رأينا العذاب لما اقترب واحد منا من المعاصى . . لو رأى السارق ما سيفعل به يوم القيامة لما اقترب من المال الحرام . . ولو رأى الزانى جهنم ، ولو لحظة واحدة ، لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغرينه . . ولورأى أى إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها . . ولكن لأن الجزاء مخفى عنا . . ولأننا لا ندقق ولا نتفهم بعمق ماروواه الله سبحانه وتعالى لنا عن الآخرة ، فإننا ننطلق إلى المعاصى . . تغرينا الشهوة العاجلة التى نحققها ، وننسى ماهو خالد قادم .

وأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو اليقين باليوم الآخر . . ذلك اليقين الذى يرفع يد القوى عن أن يغتصب حق ضعيف . . لأنه يعلم أنه ملاقى الله يوم القيامة . . ويوقف كل قادر عن أن يأخذ أموال الناس بالباطل ويبغى فى الأرض . . فإذا تذكرت الآخرة وأنت تهم بأى معصية ، فإنك سترفع يدك عنهاعلى الفور خوفا من عقاب الله .

منطق عدم الايمان

ولو أننا تتبعنا منطق إنكار الايمان لوجدناه كله قائما على عدم الايمان بالآخرة .. وفى هذا آيات كثيرة فى كل سورة من القرآن .. ماذا قال الكفار؟ .. ماهو منطق عدم الايمان؟ .. قولهم :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

« سورة الجاثية - الآية ٢٤ »

.. كان هذا هو منطق الكفار .. وعدم إيمانهم هو إنكار للبعث وإنكار ليوم القيامة .. فلما جادلهم الرسل قالوا :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ « سورة الجاثية - الآية ٢٥ »

وفى سورة « المؤمنون »

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

واقرأ فى سورة المؤمنون «فى الآيتين ٨٢ و٨٣» أيضا :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وفى سورة الصافات ـ فى الآيتين ١٦ و ١٧ :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وفى سورة النحل ـ الآية ٣٨ :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قضـية البعث

هذه الآيات هى قليل من كثير موجود فى القرآن الكريم عن البعث . . يروى لنا أن قضية البعث هى أساس فى الايمان ـ وأنه ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون . . ذلك أن إنكار البعث كما بينا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب . . وإذا

كانت قضية البعث هى القضية اليقينية الأولى . . فإننا نجد كل المذاهب التى انحرفت عن الاسلام تحاول إنكار العذاب فى الآخرة بطرق شتى . . فمنها من يحلل بعض الذنوب والمعاصى . . ليشعر العاصى بشىء من الاطمئنان يحلل به معصيته . . وأما إنكار التعذيب بالنار . . والقول بأن رحمة الله تحيط بجهنم . . كل هذا خروج عن المنهج . . وهو فى الحقيقة محاولة للهروب من حقيقة الحساب والعذاب فى الآخرة .

والكافر حقيقة لا يؤمن من بالآخرة . . ولكن الموت الذى يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفزع ، وينغص عليه عيشته . . وخصوصا أنه يرى الموت فيمن لا يعرف . . وفيمن يعرف ، وفى أقرب الناس إليه . . وإيمان الفطرة يلح عليه دائما . . وملكات الايمان التى خلقها الله فى نفسه تتصادم مع الكفر الذى ملأ حياته زيفا . . ولذلك فهويحاول أن يخدع نفسه دائما بأنه لا شىء بعد الموت . . فهل يكون الانسان سعيدا حتى إذا وصل إلى ذلك ؟ .

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهى بلا هدف ولا غرض . . وإذا كنا نولد ونموت فى عالم كله امتحانات إيمانية للنفس . . فلو أنه ليس هناك بعث . . لكان الكافر بالله هو الفائز فى هذه الحياة . . لأنه أعطى نفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصى . . ثم بعد ذلك مضى ولا شىء . .

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا ؟ . . هل الله سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر بالله ؟ . . ولا ينال ذلك الطائع الذى يحمل نفسه على منهج الله ، ويحرم عليها الشهوات

والمعاصى .. ثم بعد ذلك لا شىء . إن هذا المنطق يهدم فكرة الخلق نفسه .. ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا .. وأمنية كل كافر مسرف على نفسه هى ألا يكون هناك يوم حساب .. وألا تكون هناك آخرة .. لكنه لو جلس قليلا وتأمل بالمنطق وحده .. لوجد أن هذا الكلام لا يتفق مع العقل . وإنه مادام هناك خالق ومادام هناك كون .. فلابد أن تكون هناك غاية .. ولا توجد غاية لهذا الكون إلا إذا وجد يوم القيامة .. ووجد الحساب والعقاب والجنة والنار .. تلك هى الغاية من الكون كله .

المنهج يقيّد هوى النفس

ولكى تكمل الصورة .. فإننا لابد أن نعرف .. أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكون منهج العدل .. ولذلك فقد قيد فى منهج السماء هوى النفس الذى هو أساس الفساد .. فكل ما يستنبطه الانسان ، وليس فيه هوى النفس .. تركه الله سبحانه وتعالى فى الكون بلا منهج .. فالعلوم الصم التى مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أنْ يحيطها بقيم أخلاقية تحميها من الهوى .. فالكيمياء مثلا علم أصم يتسابق عليه العالم أجمع .. فتسرق أسراره الدول من بعضها البعض .. وأنه ليس فيه هوى نفس .. ولذلك فهو موحد فى العالم كله .. لا توجد كيمياء إنجليزية .. وأخرى فرنسية ..

وأخرى سوفيتية .. بل كلها علم كيمياء .. يحيطه المنهج بقيم أخلاقية ليكون علما خالصا قائما على حقيقة .. ليس فيه غش ولا تدليس .. فإذا انتقلنا إلى المناهج السياسية التى يدخل فيها هوى النفس .. وجدنا الصراع .. فأمريكا تحرم وتجرم المبادىء السياسية للاتحاد السوفيتى .. والسوفييت يوقعون عقوبات تصل إلى الاعدام على كل من يعتنق المبدأ الرأسمالى الأمريكى .. وهنا ينزل المنهج ليقضى بين الناس فى الأهواء التى هى أساس الصراعات فى الدنيا .. فيقول لا رأسمالية ولا شيوعية ، وإنما منهج السماء يحكم بين الجميع .. لماذا ؟

لأن الله سبحانه وتعالى لا يميز أحدا عن أحد .. ولا يفضل خلقا على خلق بحيث يبيح لبعض الناس ما يحرمه على البعض الآخر .. فعدل الله مطلق .. وإذا تأملنا فى تشريعات الله نجد فيها حماية للضعيف من القوى ، وحماية للقوى أيضا .. قد يكون هذا كلاما متناقضا .. ولكنه فى الحقيقة كلام متكامل .. وهذا التكامل لا يكون إلا فى منهج الله .

إذا أخذنا مثلا حد السرقة .. هذا الحد يحمى الضعيف من أن يعتدى عليه القوى فيسرق من ماله .. وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه ، وهذا ما نراه فى كل مجتمع .. وقد يكون للقوى منطق آخر ، وهو أنه يستطيع أن يغتصب مال الضعيف دون أن يمنعه أحد أو يصيبه أذى .. فلماذا حرم الله عليه ذلك ؟ .. نقول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم السرقة .. فإنه منع القوى من أن يأخذ مال الضعيف .. ولكنه فى نفس الوقت منع المجتمع كله من أن يأخذ مال

القوى ، والانسان مهما كان قويا فإنه أمام المجتمع ضعيف .. وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ثورات المجتمعات ، وهى ضد الأقوياء والطغاة .. فلا تحدث ثورة ضد ضعيف لأنه لا حول له ولا قوة .

ماذا يحدث فى حالة الثورات ؟ .. يصبح ذلك القوى الذى كان يفاخر بقوته ضعيفا أمام المجتمع ، لا حول له ولا قوة .. وينطلق الناس ينهبون ثرواته ويعتدون على أمواله وهو لا حول له ولا قوة .. يبحث عن مكان يختبىء فيه . ويتمنى لو أنهم أخذوا أمواله كلها وتركوه حيا .

إذن ففى هذه الأحداث تتلاشى قوة أقوى الأقوياء أمام المجتمع .. والله سبحانه وتعالى يرينا قوة المجتمع المدمرة أمام أقوى الجبابرة .. لنعرف من أمثلة قد تحدث على فترات .. يرينا قوة المجتمع الذى يحمينا منه بمنهجه .. ولو استحضر أحدنا هذه الصورة وما يمكن أن يحدث له لسجد شكرا لله سبحانه وتعالى ، لأنه حماه من المجتمع بمنهجه الذى حرم على الجميع أن يمدوا أيديهم إلى أمواله .. لأن منهج الله إن كان قد حرم على القوى مالا محدودا يملكه الضعيف .. فإنه حرم على المجتمع أن يفتك بالقوى ، وأن يأخذ أمواله ، وربما حياته .. إذن فالمنهج ليس قيدا على أى فرد .. ولكنه حماية لكل الناس .. ولو نظر أى إنسان مهما كانت قوته إلى أبعد من قدميه لادرك أن القيد الذى وضعه الله هو قيد له ولمصلحته ، وليس قيدا عليه .

كيف يعالج الرسول الأمور ؟

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى جريمة الزنا . . نجد أن بعض الناس يريد أن يحلها على أساس أنها حرية شخصية . . ولقد جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقال له يارسول الله : أنا أريد أن أؤمن ولكنى أحب النساء ، فهل تبيح لى الزنا . . ولم يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يأمر بجلده أو رجمه . . وإنما قال له ، وهو المعلم والحكيم : أترضى هذا لأمك ؟ . . قال الرجل لا . . قال أترضاه لأختك ؟ . . قال الرجل لا . . قال أترضاه لزوجتك ؟ . . قال لا . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكلنا كذلك يا أخا العرب . . وهكذا عرفنا من هذا الحديث حكمة بالغة من حكم تحريم الزنا . . وهى أن الله سبحانه وتعالى حينما حرم الزنا علينا كان يحمى بذلك أعراضنا . . يحمى أمك وأختك وزوجتك من أن يزنى بها أحد . . وهكذا كان القيد لصالحك وليس قيدا عليك . . لأنه حرم على المجتمع كله أن يقترب من أمك أو أختك أو وزوجتك . . ولك أن تتصور الحال لو أن الله أباح الاعتداء على أعراضك للناس . . كل الناس . . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟

وهكذا إذا استعرضنا منهج الله فى افعل ولا تفعل تجد أنه حماية للناس كل الناس . . ولو فكر أى واحد منا تفكيرا سليما لطالب بهذا المنهج وسعى إليه . . ودعا الله أن ينزله ، وأن يشرعه . . لأن فيه الضمان والأمان لكل الناس . . ولكن الذى ينكر منهج الله ويحارب منهج الله . . إنما يريد أن يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره . . فهو يريد

أن يعتدى على أموال الناس .. ولا أحد يعتدى على ماله .. وهو يريد أن يعتدى على أعراض الناس .. ولا أحد يعتدى على عرضه .. ولذلك فهو لا يريد الحق .. لأن الحق والعدل هما مساواة بين الجميع .. وليس تمييزا لأحد على أحد بالباطل .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ من سورة المؤمنون »

العمــــل عبــادة

على أن البعض يحاول أن يلصق بهذا المنهج أنه ترك للدنيا .. فمادامت الحياةهى الآخرة .. ومادامت هذه دنيا أغيار لها نهاية ، طالت أم قصرت ، فلماذا العمل ، ولماذا إجهاد النفس فى شىء سيفنى ؟ .. وفى شىء سيزول وينتهى ؟

نقول لهؤلاء جميعا الذين يرددون هذا الكلام ، وما أكثر من يرددونه ؛ إن العمل عبادة .. ولو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد من المؤمنين به ألا يعملوا لما فرض الزكاة .. ولما أوجد الصدقة .. ولما وضع فى منهجه تشريعات التوريث فيما يتركه الانسان بعد وفاته .. ولكن وجوب الزكاة وفضلها .. معناه أنه لابد أن يتحرك كل مؤمن فى الحياة .. حركة تزيد عن حاجته ، وإلا فمن أين سيدفع الزكاة .. وكلما زادت حركته زاد مقدار الزكاة الذى سيدفعه ..

وكلما ازدادت حركة حياته أكثر استطاع أن يتصدق بجزء من ماله .. فزاد ثوابه عند الله ، وزادت حسناته .. وكلما ترك لأولاده شيئا يعينهم على حياتهم المستقبلة كان ذلك أفضل بشرط أن يكون مالا حلالا زكيت عنه .. ولو أن منهج الله حقيقة لا يحث على العمل والتحرك فى الحياة بأقصى طاقة ممكنة ، بحيث تزيد حركة حياتك عما تحتاج إليه أنت وأسرتك . أنت وزوجك وأولادك ما فرضت الزكاة ، وماوجبت الصدقة .

إذن فكل من يقول إن منهج الله ترك للعمل لأن الدنيا فانية .. نقول إنه ترك للعمل غير الصالح وحث على العمل الصالح .. لأن مهمة الانسان هى عمارة الأرض . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده) .. ويقول صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بيد أحد الصحابة وقد أحس بأنها خشنة الملمس من العمل .. (هذه يد لا تمسها النار) .. ولو أن منهج الله فعلا كان يدعو إلى عدم العمل وترك الدنيا للكافرين .. لكان أول من طبقه هم المسلمون الأوائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن هؤلاء رضى الله عنهم جميعا فهموا المنهج الفهم الصحيح .. ولذلك عملوا وجاهدوا وأنشأوا حضارة من عرق الحضارات .. التى أخذت الدنيا كلها عنها أساس الحضارة الحديثة .

ولذلك فإن الذين يمتنعون عن العمل هم مخالفون لمنهج الله .. والذين يريدون أن يعيشوا على فتات المجتمع فى حقيقتهم يسيئون

للمنهج ولا يطبقونه . . فمنهج الله يريد أمة قوية قادرة تسود الأرض . . ولا يريد أمة من الضعاف الجياع الذين يسألون الصدقة ويعيشون مستضعفين فى الأرض . . تلك هى الحقيقة التى لابد أن يعيها الجميع . . وأجر الانسان العامل هو أجر المجاهد . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد كان جالسامع أصحابه ذات يوم ، فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا هذا . فإن كان يسعى على نفسه ، ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسَعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله .

إلى هنا نأتى إلى ختام الفصل الأول . . وقد بيننا فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى برحمته قد وضع منهجا فى الحياة الدنيا . . يذكرنا دائما بقوته وعجزنا . . ويذكرنا بفضله علينا فيما خلق لنا من النعم . . حتى لا تغرنا قوتنا ، ونحسب أننا فى غنى عن الله سبحانه وتعالى . . وكيف أن الانسان الذى خلقه الله مختارا . . لم يعط له الاختيار المطلق . . وإنما أعطاه الاختيار فى المنهج الذى بينه ووضحه له . . حتى يكون الحساب عدلا فى الآخرة . . وكيف أن الدنيا هى دار اختبار . . وأن الحياة الحقيقية التى أعدها الله للانسان هى الحياة فى الجنة . . حيث ينعم بلا حدود . . وحيث يعيش حياة خالدة لا تنتهى أبدا . . ويعيش فى نعمة الله فلا تزول عنه بأن تذهب وتنتهى . . ولا يزول عنها بأن يموت . .

وبينا أن اليقين بالآخرة هو أساس الايمان . . وأن كل كافر بمنهج الله يحاول أن ينكر يوم الحساب . . . ويحاول أن ينكر أن هناك جزاء فى الآخرة . . لأنه يريد أن يعيش تبعا لأهوائه وشهواته . . وهذا يتنافى مع الحق الذى قامت عليه السموات والأرض . . والذى هو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى .

وبينا كيف أن منهج الله قد وضع لحماية الناس كل الناس . . فهو يحمى الضعيف من القوى . . ويحمى القوى من المجتمع . . ولو أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل منهجا للحياة فى الأرض لطلبنا نحن هذا المنهج . . لأنه هو الوسيلة الوحيدة ليعيش الانسان آمنا مطمئنا فى الأرض . . وهو الطريق إلى الحياة الطيبة .

معـــنى الحيـــاة

على أننا قبل أن نبدأ فى مشاهد الآخرة . . وكيف سيشهد على الانسان جلده وسمعه وبصره مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

« سورة فصلت ـ الآيتان ٢٠ و ٢١ »

وقبل أن نتحدث عن كيف أن الحجارة ستحرق من عبدها . . لابد أن نتحدث عن معنى الحياة . . وهل الحياة فى الانسان فقط . .

أم فى الانسان والحيوان . . أم أنها فى كل ما خلقه الله فى الدنيا حتى لو كنا لا نرى فيه أية حياة بمفهومنا نحن . . ولكن كل شىء فى هذا الكون فيه حياة . . وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .

أحاديث قدسية

يقول رب العزة فى حديثه القدسي :

« مِنْ عبادى مَنْ صلاحُه فى الغنى . فلو أفقرتُه لفسدَ حالُه .

ومِنْ عبادى من صلاحهُ فى المرضِ ، فلو عافيتُه لفسد حالُه .

ومن عبادى من صلاحُه فى العافية فلو أمرضتُه لفسدَ حالُه » .

الفصل الثاني

معنى الحياة

الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون .. هو خالق الحياة فيه .. ولكى نفهم معنى الآيتين الكريمتين :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

.. لابد أن نعرف معنى الحياة والمقصود بها .. وهل هى الحياة بمفهومنا أم أن الحياة فى الكون بمفهوم آخر يختلف تماما عن مفهومنا .. نحن نفهم الحياة على أساس أنها حس وحركة .. الانسان فيه حياة لأنه يحس ، ويعقل ويتحرك .. والحيوان فيه حياة أيضا ، لأنه يحس ويتحرك .. أما النبات فهناك من يقول : إن فيه حياة لأنه ينمو ويكبر ويثمر ويذبل .. فيه نوع من التغيير والحركة .. حركة النمو .. إذن ففيه نوع من الحياة .. أما الجماد فى مفهومنا فليس فيه حياة ، لأنه لا يحس ولا يتحرك ولا ينمو .

وأجناس الكون أربعة .. أدناها الجماد ، وتنتهى حياته المنظورة لنا بخاصية النمو ، وهى أولى خواص النبات .. لذلك نجد عددا من الشعب المرجانية وهى جماد تنمو فى البحر .. أما النبات فيبدأ بخاصية النمو التى انتهى عندها الجماد ، وينتهى بخاصية الحس التى يتميز بها الحيوان .. فنجد بعض النباتات إذا لمستها أحاطت بك ،

أو أغلقت أوراقها ، مثل ما يطلق عليه الناس ـ الست المستحية ـ . . وهكذا تنتهى الحياة فى النبات عند الحس . . وتبدأ الحياة فى الحيوان بالحس والحركة . . وتنتهى بشىء من التمييز ، وهو من صفات العقل . . فنجد أن أرقى الحيوانات ، وهى القردة ، تستطيع ـ إلى حد ما ـ أن تقوم ببعض الحركات التى فيها نوع من التمييز . . وهو ما تبدأ به حياة الانسان . . فلا يوجد إنسان ليس له عقل مميز . . وتنطلق مظاهر الحياة فى الانسان مع العقل إلى آفاق بلا حدود . . وتظل ترتقى وترتقى مع ارتقاءات العقل إلى ما شاء الله .

هذه هى مظاهر الحياة كما نفهمها نحن . . فكل جنس من أجناس الكون ـ جمادا كان أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا ـ يبدأ عند النهاية التى يصل إليها الجنس الذى قبله . . ولكن هل مفهومنا فى الحياة صحيح ؟ وهل الحياة هى الحس والحركة فقط ؟ وهل خلق الله الأشياء فى الدنيا جامدة . ثم يجعلها يوم القيامة تنطق وتتكلم ؟ فالحياة فى الدنيا ، وهى التى يشارك فيها المؤمن والكافر ، قصارى ما تعطينا الحس والحركة . فهل هذه حقيقة هى مظاهر الحياة ؟ أم أن هناك مظاهر أخرى وأسرارا أخرى فى الكون لا ندرى عنها شيئا . . فى معنى الحياة يحكمنا القرآن الكريم . . ماذا قال الله سبحانه وتعالى . . إقرأ قول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(الآية ٤٢ ـ سورة الانفال)

إذا تدبرنا فى هذه الآية نكون قد عرفنا من القرآن أن الهلاك مقابل للحياة . . أو ضد الحياة . . هناك حى وهناك من هلك . . أى لا حياة له . . يأتى الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى ليقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(الآية ٨٨ ـ سورة القصص)

. . مادام الله سبحانه وتعالى قال كل شىء سيصبح هالكا . . إذن فكل شىء فيه حياة . . أو ما يقال عنه شىء فيه حياة . . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول عندما تأتى القيامة سيهلك كل شىء إلا وجه الله . . إذن فقبل ساعة القيامة يكون كل شىء فيه حياة . . وطبعا قبل ساعة القيامة يكون هناك جماد ونبات وحيوان وإنسان . . فإذا أضفنا إلى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

. . يكون كل ما فى الكون مسبحا لله . . يقول بعض العلماء أن كل شىء يسبح تسبيح دلالة على الخالق . . نقول لهم لو أنه كان تسبيح دلالة نكون قد فهمناه . . ولكن الله يقول :

﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

. . إذن فنحن لا نفهم هذا التسبيح ، إذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد عرفنا أن كل شىء فى الكون له حياة . . وهذه الحياة تناسب

مهمته . . إذن فالأشياء التى نراها أمامنا ساكتة لا تنطق ولا نتكلم . . هى فى الحقيقة تنطق وتتكلم ولكننا لا نسمعها . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢٠ من سورة فصلت)

مفهـــوم الحيـــاة

هنا لابد لنا من وقفة طويلة عند مفهوم الحياة . . فنحن نفهم الحياة على أنها حس وحركة مرئية لنا . . ولكن الحقيقة أن هناك حسا وحركة فى الكون مرئية لنا . . وهناك حس وحركة غير مرئية لنا . . ولنأخذ الجماد أولا باعتباره أكثر الأشياءالتى يعتقد العلماء أنه ليس فيها حياة فى منطق الانسان . . وسأضرب هنا أمثلة بسيطة جدا حتى نكون جميعا عارفين بما يحدث .

نحن حين نريد أن نمغنط قضيبا من الحديد . . ماذا نفعل . . نأتى بمغناطيس ونمر على قطعة الحديد فى اتجاه واحد عدة مرات ونظل نقوم بهذه العملية لفترة حتى تتم مغنطة قطعة الحديد . . ماذا حدث ؟ أولا دخلت المغناطيسية إلى قطعة الحديد غير الممغنطة . . كيف حدث ذلك ؟ نحن لم نر شيئا ، ولكننا شهدنا أثر المغناطيسية على قطعة الحديد التى أتينا بها فأصبحت تجذب الأشياء . . هذه واحدة . . قوة معنوية ظهرت ـ لم نر شيئا يتغير أمام أعيننا . . ولكن مع ذلك فقد تغير شىء ما فى قطعة الحديد التى أجرينا عليها التجربة . . بحيث

أصبحت ممغنطة بعد أن كانت غير ممغنطة . . فإذا ارتقينا بالتجربة ، وجئنا ببرادة الحديد فى أنبوبة اختبار . . ومررنا عليها عدة مرات بالمغناطيس فى اتجاه واحد . . نجد البرادة تتحرك وتتبدل حتى تصير فى اتجاه واحد . . ذرات القضيب الحديدى قامت بنفس الحركة . . ولكن فى داخل الجسم الصلب . . ونحن ننظر إلى هذا الجسم لم نلاحظ فيه أى حركة . . ولكننا حين جعلناه جزئيات صغيرة بحيث أصبح برادة حديد . . رأينا الحركة والتبدل الذى حدث . . ولكن السؤال ظل مستمرا . . وهو كيف دخلت المغناطيسية ، واخترقت هذا الجسد الصلب القوى وهو الحديد . . وأحدثت فيه حركة حتى تحولت ذراته وتجمعت فى اتجاه واحد . . هذا لم يصل إليه العالم حتى الآن .

ولكن إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لنا من علمه ما جعلنا نرى برادة الحديد وهى تتحرك فى أنبوبة اختبار . . وتتشكل وتتبدل . . إنما ليرينا أن الشىء الساكن والجامد وهو الجماد . . يمكن أن تكون فيه حركة مستمرة . . ولكننا لا نراها لأنها فوق طاقة أبصارنا . . إذن فالجماد فيه حركة ولكننا لا نراها .

وقبل أن نمضى فى هذا الحديث . . لابد أن نبين أن وجود الشىء مختلف تماما عن إدراك وجوده . . فقد يوجد الشىء ولا ندركه مثل ملايين المخلوقات فى الكون التى تتحرك وتتكلم وتعيش ، ولا ندركها بأبصارنا ، ولا نسمع أصواتها . . فالجن مثلا تعيش وتتناسل وتتحدث مع بعضها البعض ولها حياة ولكننا لا نراها . . والملائكة مثلا موجودة تؤدى مهمتها فى الكون ، ولكننا لا نراها .

هذه قضية هامة لابد أن نتحدث عنها لنفهم معنى الحياة فى الجماد .. وهى قضية غيبية .. فوجود الملائكة والجن أخبرنا به الله .. وأخبرنا بأننا لا نراهم فى قوله تعالى عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الأعراف)

إذن فهناك من يرانا ولا نراه .. وهذه كما قلت قضية غيبية .. وقد يأتى أى إنسان ويقول لك أنا لا أؤمن بالغيب .. ولا أصدق أن هناك مخلوقات لا نراها .

نقول له : إن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده جعلته يضع فى الكون قضايا حسية .. تقربّ إلى أذهاننا صور الغيب رحمة بعقولنا .. فلنأخذ من العالم المادى ما يقرب لأذهاننا الصورة .. كيف ؟ إن الجراثيم مثلا كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها .. وكنا نرى آثار هذه المهمة فى أعراض كثيرة .. ولكننا لم نكن نرى الجراثيم التى تسبب هذه الأعراض .. ثم تقدم العلم الذى كشفه الله للبشر .. واخترعت الميكروسكوبات التى تكبر مئات المرات .. ووصلت إلى أنها تكبر الصورة ملايين المرات .. فماذا حدث ؟

رأينا هذه الميكروبات .. ورأيناها بصورتها البشعة .. مخلوقا عجيبا غاية فى الدقة .. وفيه حياة ويتوالد ويتكاثر ويأخذ أشكالا مختلفة .. بل إن الميكروب فيه حياة متكيفة .. بمعنى أنه بعد أن تستخدم ضده دواء معينا .. يتكون من جسده ما يقاوم هذا

الدواء ، ولا يجعل له فاعلية . . ولذلك فلابد من فترة إلى فترة . . أن يغير الأطباء الدواء ، لأنه لم يعد مؤثرا على الميكروب فقد تحصن ضده . . ويلفتنا هذا إلى دقة خلق الله سبحانه وتعالى . . فالله خلق فى هذه المساحة الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة . . وربما لا ترى . . بمجهر صغير . . خلق فى هذه المساحة الدقيقة غاية فى الدقة مخلوقا له حياة كاملة . . فيها غذاء ، وفيها تناسل ، ولها دورة حياة متكاملة .

والسؤال هنا : هل وجد هذا الميكروب أولا ، ثم أدركنا وجوده . . أم أنه لم يوجد إلا ومعه إدراكنا لهذا الوجود ؟ والجواب طبعا أنه وجد أولا وكان يقوم بمهمته فى الحياة قبل أن ندرك وجوده . . ولولا أننا أدركنا آثار هذه المهمة . . وبدأ العلماء يبحثون عن سبب هذه الآثار . . ما أدركنا هذا الوجود . . ولكن عدم إدراكنا لوجود هذا الميكروب لم يكن يعنى أنه غير موجود .

الوجـود .. وإدراك الوجـود

إذن فالوجود شىء وإدراك الوجود شىء آخر يختلف تماما . . وهذا ينطبق على أشياء كثيرة فى الكون لا تعد ولا تحصى . . فكأنه قضية عامة وليس قضية خاصة . . إذا وضعت نقطة الماء أو نقطة الدم تحت الميكرسكوب فستجد فيها أشياء عجيبة . . كائنات حية تتحرك وتعيش وتتناسل . . وتؤدى مهمة فى الحياة دون أن نعرف عنها شيئا أو ندرك وجودها . . فإذا اتجهت بالتليسكوب إلى السماء رأيت نجوما لم تكن تراها بعينك المجردة . . هل هذه النجوم التى رأيتها

بالتليسكوب كانت موجودة .. أم أنها خلقت ساعة أدركت وجودها ؟

الجواب الذى يوافق عليه كل علماء الأرض أنها كانت موجودة تؤدى مهمتها فى الحياة دون أن تدرك أنت وجودها . ولما تقدم العلم الذى كشفه الله للانسان فى الأرض .. واخترعت آلة التليسكوب التى تقرب الأشياء .. أصبح من الممكن رؤية هذه النجوم لأن الآلة الجديدة أعانت العين وجعلت رؤية هذه النجو فى مقدورها .

إذن فهذه النجوم أدت دورها ربما لملايين السنين دون أن تحس بها ، أو تعرف شيئا عن وجودها أو حياتها .. وإذا كان وجود الشىء كما ثبت علميا مما قلناه ـ على سبيل المثال ـ وليس على سبيل الحصر .. إذا كان وجود الشىء مختلفا عن إدراك وجوده .. فإذا حدثت عن شىء لا تراه فلا تنكر وجوده .. وإذا كان المتحدث هو الله سبحانه وتعالى .. فالشىء ثابت الوجود كأنك تراه .

حيـاة الجمـاد

نعود بعد ذلك إلى حياة الجماد .. وقد أثبتنا بتجربة علمية بسيطة وسهلة أن هناك حركة فى الجماد لا تستطيع أن تدركها بعينك .. ولكنك قد تقول : إن هذه الحركة مجرد تغير ذرات .. نقول لك إن المسألة أعمق من ذلك بكثير .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الآية ٢٩ من سورة الدخان)

.. إذن فالسماء والأرض ، وهما كما ترى بعينك المجردة ليس فيهما حياة ، تبكيان .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .. (إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان : موضع سجوده ، وموضع صعود صلاته ودعواته) .

إذن فالأرض بنص القرآن تبكى ، ولكننا لا نسمع بكاءها .. ومادام هناك بكاء فلابد أن يسبقه حس وعاطفة .. إذن فهذا الجماد الذى تعتقد أنه لا حياة فيه .. فيه حس وفيه عاطفة .. ولكنك لا تعرف عنهما شيئا ولا تدرك وجودهما .. فإذا سمعت هذا فلا تنكره .. ولكن قل إن الوجود شىء ، وإدراك هذا الوجود شىء آخر .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى فى يديه .. ولكن هل معنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع هذا التسبيح والحصى فى يده .. هل معنى هذا أن الحصى لا يسبح فى غير يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحصى يسبح ، سواء كان فى يد نبى أو فى يد غيره من البشر .. أو لو لم تمسسه يد .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

.. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الانبياء)

إذن فالجبال تسبح .. والحصى يسبح .. وكل شىء فى الكون دائم التسبيح لله سبحانه وتعالى .. ولكننا لا نفهم هذا التسبيح ولا نفقهه .. والسماء تبكى والأرض تبكى وقد يضحكان ، ولكننا لا ندرك هذا .. بل إن الأرض وهى أمامنا جماد ليس فيه حياة .. لها حياة ذكر لنا القرآن الكريم لمحة عنها فى قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (الآية ٥ من سورة الحج)

إذن فالأرض لها حياة مع النبات .. فهى تهتز وتصبح هشة حتى تخرج ساق البنات الصغير من داخل الصخرة الصلبة فى الجبل .. كيف اخترقت هذا الساق اللينة هذا الصخر الصلب .. هناك حياة وتفاعلات تمت دون أن نراها بقوانين خلقها الله .. فجعلت هذه الساق الضعيفة الصغيرة تخترق هذا الحجر الصلب وتخرج منه .. بينما لو جئت أنت بفأس من الصلب أو آلة حادة .. ربما تفشل فى تحطيم هذا الصخر أو إحداث ثقب فيه .. ولكنه كون كل شىء فيه حي ويؤدى مهمته .. ومهمة الصخرة أن تلين وتصبح هشة تخرج منها ساق النبات دون تدخل يد إنسان ليتم ذلك .. إذن فهناك حياة فى الجماد .

الحجـــارة .. والحيـــاة

فإذا أردنا أن نزيد ، وهذا الموضوع يمكن أن نمضى فيه بلا نهاية .. نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(الآية ٧٤ من سورة البقرة)

إذن فالحجارة التى تحسبها لا حياة لها .. يتفجر منها الأنهار .. ويخرج منها الماء .. وتهبط من خشية الله .. أليست هذه ألوانا من الحياة نحن غافلون عنها .. وهكذا بين الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم ألوانا من الحياة فى الجماد .. ولكنه لم يحطنا بكل تفاصيل حياة الجماد .. وإنما أعطانا آيات ترينا أن الجماد له حس وله حركة .. وله مهمة فى الحياة .. وله حياة ليؤدى هذه المهمة .. وعرفنا أن الجماد يبكى مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الآيلا ٢٩ من سورة الدخان)

.. وعرفنا ألوانا أخرى من حياة الجماد ، منها اهتزاز الأرض إذا نزل عليها الماء ليخرج منها الزرع .. وهكذا نجد أن حياة الجماد حياة كاملة .. فيها لغة وهى التى يسبح بها الجبال والحصى .. وفيها انفعال إذا نزل الماء على الأرض الساكنة .. وفيها تفاعل مثل ذرات الحديد والمغناطيس .. وفيها دورة حياة عرفنا لمحات منها والباقى لم يكشفه الله لنا .

نأتى بعد ذلك إلى النبات . . نقول إن النبات فيه نوع من الحياة هو خاصية النمو . . ولكننا نقول إن الحياة فى النبات فيها كل صفات الحياة . . فالنبات يسبح ، إذن فهناك لغة . . والنبات له خاصية النمو . . ولكن هذا ليس كل شىء . . فالنبات له خاصية الاختيار . . أى أنه يختار بين البدائل . . قد يبدو ذلك غريبا لأن الذى يختار هو الانسان . . ولكن الانسان اختياره بعقله . . وهو قادر على أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن النبات اختياره اختيار غريزى . . كيف ؟

. . عندما نروى الأرض نرويها بالماء لينبت الزرع . . وينزل الماء ليختلط بمواد الأرض . . وتمتص الغذاء جذور فى التربة لتعطيها للنبات . . هذه هى طريقة تغذية النبات . . ولكن كيف يتم ذلك ؟

. . قالوا إنه يتم بواسطة نظرية الضغط الأسموزى . . أى أن الضغط خارج شعيرات الجذور يكون أعلى من داخلها . . فيدخل الماء مختلطا بالمواد المغذية للنبات داخل الشعيرات ليغذى النبات . . وجاءوا لنا بعدد من هذه الأنابيب الشعرية ، ووضعوها فى إناء فدخل السائل فيها وارتفع . . وقالوا هذه النظرية هى التى يتم على أساسها غذاء النبات ، ولا يوجد أى نوع من الحياة . . نقول لهم . . هذه النظرية صحيحة ، ولكن ينقصها شىء واحد . . هو الاختيار الذى يتم . . لو أن كل النباتات كانت تنبت ثمرا واحدا لكانت هذه النظرية وحدها هى سر حياة النبات . . ولكننا نزرع الأنواع المختلفة من النبات . . هذا حلو ، وهذا مر ، وهذا حريف . . نزرعها كلها فى أرض واحدة . . ونسقيها بماء واحد . . ومع ذلك تنبت هذه الثمار

المختلفة فى الشكل واللون والطعم .

من الذى جعل كل جذر من جذور نبات معين يمتص من الأرض تلك العناصر التى تعطى نوع الثمرة تنبتها هذه الشجرة بالذات ؟ . . كلها جذوع متساوية فى التكوين تقريبا . . ولكن لكل واحد منها عناصر معينة . . يأخذها من الأرض لتعطى تكوين الثمرة . . هذه حلوة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى الحلاوة للثمرة . . وهذه مرة فتأخذ من الأرض العناصر التى تعطى المرارة . . وهذه لونها أصفر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون صفراء اللون . . وهذه لونها أحمر فتأخذ من الأرض العناصر التى تكون اصفرار اللون . . ألوف من الثمر المختلف الألوان . . وكل جذر يأخذ من الأرض هذه العناصر بالذات التى تكون الثمرة التى يثمرها . . بل وأكثر توجد أنواع مختلفة من الثمار . . من ذلك النوع الواحد من التفاح مثلا يوجد التفاح الأحمر ، والتفاح الأصفر ، والتفاح الأخضر ، والتفاح الذى يختلط فيه أكثر من لون . . وكل جذر يأخذ من الأرض المواد اللازمة لتكوين هذه الثمرة بالذات دون تغيير أو تبديل . . ولا يضل جذر أبدا عن المواد اللازمة للثمرة التى تنبتها الشجرة . . بل وأكثر من ذلك فإن امتصاص الجذر للمواد اللازمة للثمرة يختلف فى المراحل المختلفة . . ففى أول الأمر يمتص المواد التى تعطى للثمرة النمو ، ولكن تبقيها جامدة . . لونها أخضر لا طعم لها ولا رائحة .

فإذا تمت المرحلة الأولى أعطاها المواد التى ترقق محتويات الثمرة . . حتى تصبح صالحة للأكل . . ثم بعد ذلك يعطيها المواد اللازمة للون الثمرة . . والمواد اللازمة تكون لها رائحة تجذب الانسان إليها وتحببه

فيها . . فيلتفت الانسان إلى الرائحة فيرى لونا وشكلا جذابا للثمرة فيشتهيها ويقطفها . . كل هذا يتم بنظام غاية فى الدقة تتبدل فيه اختيارات أنواع الغذاء . . حسب كل مرحلة من مراحل النبات . . إذن هناك اختيار فى النبات . . ولكنه اختيار غريزى . . يخضع للغريزة ولا يخضع للعقل . . اختيار تحكمه المهمة التى خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها . . فالحياة فى أى شىء هو أن يكون مناسبا لمهمته .

وهناك فى النبات الذكورة والأنوثة والتناسل . . وهناك نوع من النبات الذى يوجد فى الغابات يتكاثر بأن يقذف البذرة الملقحة بعيدا عن الشجرة . . لتنبت شجيرات جديدة من نفس النبات حتى لا ينقرض . . علم واسع جدا يتقدم مع الزمن لنكتشف كل يوم أشياء مذهلة وأسرارا جديدة فى حياة النبات .

للنبـــات حيـــاة

وهكذا نرى أن للنبات حيلة أوسع كثيرا من مجرد النمو ، وأنها حياة هائلة فيها أسرار كثيرة . . وصلنا إلى بعضها وربما نصل إلى البعض الآخر خلال السنوات القادمة . . ولكنها على كل حال أشياء كثيرة ، وحياة واسعة على أن نظرتنا السطحية للنبات لا تتناسب مع مهمة النبات فى الحياة . . ولعل أبرزها أن النبات هو الرئة التى تتنفس بها الأرض . . والتى تخلص الأرض من التلوث . . ولذلك كلما زادت المساحات الخضراء فى المدن كان الجو صحيا ، والهواء أقرب إلى النقاء . . وكلما قلت هذه المساحات كان الهواء غير صحى ،

والجو أقرب إلى التلوث . . ما معنى هذا كله ؟ . . معناه أن هناك مهمة لكل خلق لله . . وأن حياة كل خلق تناسب مهمته .

فإذا جئنا إلى الحيوان . . أقرب الأشياء لتعريف الحياة بالنسبة للانسان . . وجدنا أننا نصف الحيوان بأنه أبكم . . أى أنه لا يتكلم . . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . . فالقرآن الكريم يحدثنا عن أنبياء الله الذين علمهم الله سبحانه وتعالى منطق المخلوقات ولغتها . . فكانت الجبال تسبح مع داود مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٩ من سورة الأنبياء)

وحديث سليمان مع الهدهد . . الذى يقول فيه الحق سبحانه وتعالى عن سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآيات ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من سورة النمل)

إلى آخر الحوار الذى دار بين سليمان عليه السلام والهدهد . . وكيف أن سليمان كلف الهدهد بأن يأخذ كتابا منه ويلقيه إلى بلقيس

وقومها . . كل هذا كان حوارا كلاميا بين سليمان والهدهد . . ذلك الطير الذى نقول عنه إنه لا ينطق . . وحديث النملة الذى ذكر فى القرآن الكريم :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(الآية ١٨ من سورة النمل)

. . وهكذا نجد أنه فى حياة الحشرات والطير والحيوان . . هناك لغات تتحدث بها مع بعضها البعض . . ولكننا لا نسمعها ولا نفهمها . . وأن هناك حياة منظمة بحيث إن النملة قد سمعت وهى تنذر قومها خشية أن يهلكهم سليمان وجنوده . . وأن يعقل الهدد أن هناك من يسجدون للشمس من دون الله .

كل هذه لمحات من حياة الحشرات والطير والحيوان . . لم نكن نعرف وجودها . . ولا أظننا أن هناك حياة لهم يمكن أن تبلغ هذا الرقى وهذا النظام . . ومع ذلك فهناك مثل هذه الحياة .

حيـــاة.. لـكل شـىء

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن هناك حياة لكل ما خلق الله فى هذا الكون . . حياة قد نجهلها . . وحياة قد نعرف منها أشياء ، ونجهل أشياء . . وحياة قد نعرفها كلها . . ولكن كل ما خلق الله فى هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة .. فلا نستغرب قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ من سورة فصلت)

.. لأن الجلود هي من خلق الله سبحانه وتعالى .. ولها لغة تسبح بها ولكن لا نفهمها ولا نسمعها .. وكذلك العين والأذن والأنف .. وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له .. ولكنها مسخرة لنا .. فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكينا ، أو رجلا أعمى .. وأن أبطش بها بالضعيف .. واللسان في الحياة الدنيا مسخر لي .. أستطيع أن أقول به الحق ، وأن قول به الكذب .. وأنطق بكلمة الايمان وكلمة الكفر .. وهو في هذا يطيعني وفي هذا يطيعني .

وكذلك كل أعضاء الجسد .. فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال .. وأصبح اللسان الذي كان مسخرا لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله .. خارجا عن أن يكون مسخرا لي ويشهد على .. وكذلك العين .. وكذلك الجلد .. إلى آخره .. وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد على بالحق .. بما فعلت في الدنيا من معاص .. وحينئذ يجعلنا الله نفهم لغتها وهي تنطق وتقول الله أنطق كل

شىء . . وهو أعلم بلغة الأجناس كلها . . ويستطيع أن يعطى وأن يهب ما يشاء لمن يشاء .

ولقد خص أنبياءه فى الدنيا بنفحات من هذا العلم . . فأعطى سليمان ملكا لن يعطيه لأحد بعده . . وعلمه منطق الطير ، وآتاه من كل شىء . وكذلك داود . . وكذلك كل من ارتضى الله من عباده . . يعلمه من لدنه علما فيفقه ويفهم ويرى ويسمع . . ما ولا نراه ، ولا نسمعه ، ولا نفهمه . . تلك عظمة الله وتلك حكمة الله .

هذا هو معنى الحياة على الأرض . . كل شىء فيه حياة . . وساعة الخلق كل شىء وجد بكلمة « كن » . . وعلى الهيئة التى أرادها الله سبحانه وتعالى . . وكل قضايا الكون لمسها القرآن ليعطينا من العلم ما سيكشفه لنا الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة . . حين نظن أننا قد وصلنا إلى العلم الذى مكننا من السيطرة على الأرض . . مصادقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة يونس)

. . أى بالليل أو بالنهار . . لأننا كما نعرف فإن نصف الكرة مضىء ونصفها مظلم . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً (من الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : « خِلْفَةً » . . أى يخلف أحدهما الآخر . . ومعنى الخلفة أن هذا يخلف هذا . . وردية حراسة - مثلا - تخلفها وردية حراسة . . وردية عمل تخلفها وردية عمل خلال الأربع والعشرين ساعة .

لكن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

تحمل معنى أعمق من هذا بكثير . . لأنه فى كل عمل لابد من بداية . . وإذا قلنا أن دورية الحراسة هذه تخلف ما قبلها فلابد عند البداية أن تكون هناك وردية قد جاءت . . هى الوردية الأولى . . لم تخلف وردية كانت قبلها . . وإنما جاءت دون أن تكون خلفة لشىء .

وكذلك عندما بدأ المصنع العمل . . فإن الوردية الأولى التى بدأت العمل لم تخلف وردية كانت قبلها . . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

. . ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك بداية لليل وحده ثم جاء النهار . . ولم تكن هناك بداية للنهار وحده ، ثم جاء الليل . . بل منذ الوجود الأول كانا معا ليخلف كل منهما الآخر . . وهذا دليل على كروية الأرض . . لأنه ساعة خلق الأرض وجد الليل والنهار معا فى لحظة الخلق . . فهما خلفة منذ وجدا . . وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

المـــوت .. والحيـــاة

بقيت بعد ذلك نقطتان : النقطة الأولى .. كيف سيعذب الله الجلود والأعين والألسنة ، وهى عابدة لله مسبحة له .. وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ من سورة النساء)

.. نقول إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة ، وهى تحرق العاصى لله الكافر به .. كما ستكون الحجارة سعيدة ، وهى مشتعلة بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا بالله .. كل هذه الأشياء المطيعة لله والتى تستخدم فى إذاقة العذاب للنفس البشرية ستكون سعيدة ، لأنها تذيق العذاب لعاصٍ كفر بنعمة الله .

والنقطة الثانية هى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾

(من الآية ٩٥ من سورة الأنعام)

.. ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحى ، ومعنى الميت .. ومادام كل شىء حيا .. فكيف يخلق الله الحى من الميت .. نقول : إن الحياة فى خلق الله .. هى أن يؤدى الموجود مهمته .. أى أن كل شىء حى له مهمة فى الحياة .. فإذا انتهت هذه المهمة .. خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتا .. ولذلك فإن

الشجرة - مثلا - إذا أعطت كل ما فيها من ثمار تموت بعد ذلك ، وتخرج من الحياة ، لأنها أدت مهمتها .

وكذلك الانسان عندما تنتهى مهمته فى الحياة ويمر بفترة الاختبار التى قدرها الله له . ويمتحن ويختبر مرة ومرات تنتهى حياته . . بعد أن انتهت المهمة التى جاء من أجلها للحياة ، وهى فترة الاختبار التى مر بها .

وكذلك الحيوان والنبات والجماد . . فالله أعطى الانسان حياة حس وحركة فى الدنيا . . ثم أعطاه حياة أخرى فى الآخرة يسعد بها حياته فى الدنيا ، ويجعل لها قيمة . . فالنعم فى الدنيا للمؤمن والكافر . . ولكنها فى الآخر للمؤمن وحده .

هنا نتوقف عند قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾

فمادام كل شىء فى الدنيا فيه حياة . . فأين هو الميت الذى ستخرج منه الحياة ؟ . . والحياة عرفنا أنها فى الانسان والحيوان والنبات والجماد . . فإذا كان كل ما فى الكون حيا فأين هو الميت ؟ وقبل أن نبدأ الاجابة على هذا السؤال ونحن نعرف أن من أسماء الله الحسنى المحيى والمميت . . لابد أن نوضح أن أسماء الله سبحانه وتعالى تدل على الثبوت ، وعلى الحدوث معا . . فالحق تبارك وتعالى له صفة فى ذاته . . وصفة فى متعلقات هذه الذات . . فإذا قلنا أن الله هو الرزاق . . فهذه صفة للحق تبارك وتعالى قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه الله . . والله سبحانه وتعالى رزاق قبل أن يخلق من يحتاج

إلى الرزق . . ولو أنه سبحانه وتعالى لم يكن رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه فكيف يستطيع أن يرزق خلقه لحظة وجودهم . . وإذا لم يكن سبحانه وتعالى هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق فبأى صفة يتم هذا الخلق ويبدئه ؟ لابد أن توجد الصفة أولا قبل أن يوجد الفعل .

فالله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق أحدا . . والخلق بدأ أولا بوجود صفة الخالق فى الله تبارك وتعالى حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد . . إذن فالخلق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجد أفعال هذه الصفة . . والله محيى قبل أن توجد الحياة . . ومميت قبل أن يوجد الموت . . إذن فالصفة موجودة فى الذات . . فالله قبل أن يخلق كان خالقا . . وقبل أن يقدر كان قادرا . . وقبل أن يحيى ويميت كان محييا ومميتا .

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

قبل أن تكون هناك حياة ووجود . . وإذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

بمعناها السطحى . . فنحن لا نرى فى أشياء كثيرة حياة الحس والحركة كما نفهمها . . وعدد كبير من الحيوانات التى تبيض ولا تلد لا نرى فى بيضها حياة . . ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض . . والمرأة قد تلد طفلا ميتا . . والبيض قد لا تخرج منه حياة .

ولكن إذا أردنا أن نتعمق . . فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما أن الحياة خلق . . فالموت أيضا خلق مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالحياة خلق والموت خلق . . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر الموت قبل الحياة فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

. . فإذا كنا نعيش فى هذه الدنيا خلق الحياة . . فإننا نعيش خلق الموت عندما نغادر هذه الحياة . . وكل خلق له قوانينه وله عالمه . . وله وجوده الذى لا نحس به . . ومادامت الحياة والموت خلقا . . والله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق فكل شىء يأتى إلى الحياة هو من الله . . وكل شىء يذهب عن هذه الحياة فهو إلى الله . . وانتقال الشىء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يطلق عليه الله سبحانه وتعالى الموت والحياة .

فنحن قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين ولكن كنا أمواتا لم تكن لنا حياة فى هذا العالم . . ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا حياة . . ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتا ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة الأبدية . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

معنى الحيـاة

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة البقرة)

.. أى أننا كنا أمواتا قبل أن نأتى إلى هذه الحياة الدنيا ، ثم انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة فى الدنيا ثم ننتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لنحاسب يوم القيامة ، ثم نعود إلى الله .. إما أن يعذبنا وإما أن ينعمنا .

فكأننا ونحن أحياء فى عالم الذر كنا أمواتا فى عالم الدنيا .

وعندما انتقلنا من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء .. ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ لنعود مرة أخرى أمواتا فى عالم الدنيا .. ثم نبعث ونخرج أحياء من نفس الأرض .. ثم هناك الحساب والخلود .

وعندما يأتى الخلود لا يكون هناك موت .. أى أن عالم الموت ينتهى يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر .. ولكن يكون هناك خلود .. خلود فى النعيم .. أو خلود فى العذاب .. ولكن عالم الموت ينتهى .

إذن فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة .. ثم ينتهى .. أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة .. بهذا نكون قد عرفنا أن الحياة هى خروج من عالم خلقه الله له قوانينه إلى عالم الحياة الدنيا الذى له قوانين مختلفة تماما .. والموت هو خروج من عالم الدنيا إلى عالم آخر من خلق الله .. فكأن الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده

أن يخرج مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا . . ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت . . ولا قدرة لأحد . . ولذلك تأمل دقة القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

يخرج الحى من الميت . . أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يأتى بكل شىء إلى عالم الحياة دون أن يكتب على نفسه شيئا . . فهو يخرج من يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة . . ولكن متى جاء الانسان إلى عالم الحياة ، ثم مات . . فإن الله لابد أن يخرجه يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة . . أى لابد أن يبعثه . . فقبل المجىء إلى الدنيا لم يكتب الله على نفسه شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كل من يأتى إلى الدنيا لابد أن يبعث يوم القيامة : وعدا عليه حقا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾

(الآية ٤٧ من سورة الكهف)

. . فكل من جاء من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا وانتقل إلى عالم الموت لابد مبعوث يوم القيامة . . ولذلك اختلف التعبير فقال الحق :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾

إلى هنانكون قد تحدثنا عن الحياة بمفهومها العميق . . وتحدثنا عن

خلق الحياة وخلق الموت . . بقى أن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة . . وقبل أن نبدأ فيها فإن هناك علامات للساعة . . لابد أن نمر عليها مرورا سريعا وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



الفصل الثالث

نهاية الدنيا

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة ، فإنه لابد من حديث عن معنى الساعة .. ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة ، ومتى تقع .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس .. ومن تنبؤات بين عدد من العلماء .. بعضهم يقول : إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمد كل شيء .. والبعض الآخر يقول : إن الأرض ستقترب من الشمس ، فيحترق فيها كل شيء .. والبعض الثالث يقول : إن الأكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة .

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن ، وليس على اليقين . . فحتى الآن لا أحد يعرف يقينا ماذا سيحدث . . ولا متى سيحدث . . نقول لهؤلاء جميعا . . لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع وجهل لا يضر . . ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جدا هي فترة عمري . . فقبل أن أولد لا علاقة لي بالحياة على الأرض . . وبعد أن أموت لا علاقة لي بالحياة على الأرض . . إذن فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض . . فمن مات قامت قيامته . . لماذا ؟ . . لأنه يرى كل شيء . . يرى ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب . . ويرى أشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا . . وبالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة . . لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

(الآية ١٣ من سورة الممتحنة)

لماذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

لأن الذى يموت كافرا .. يعلم يقينا أن لا أمل له إلا العذاب فى الآخرة .. ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أمل له فى دخول الجنة .. وأن لا أمل له فى النجاة من النار .. وهذا اليأس يصبح يأسا يقينيا .. فالانسان يعرف مصيره ساعة يحتضر .. تلك اللحظات التى هى بين الموت والحياة .. يشاهد فيها الانسان كل ما أخفى عنه .. تلك الساعة التى تغادر فيها الروح الجسد .. أى سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى .. تلك اللحظات التى تخمد فيها بشرية الانسان .. وتنتهى فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر ، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها .

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد تجبّر وعلا وأعطاه الله أسباب الملك فى الدنيا .. تجده ساعة الاحتضار ضعيفا ذليلا عاجزا .. كل مظاهر الاستعلاء ذهبت .. ينظر إليك فى مسكنة غريبة ، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله .. ولكن الكل عاجزون .. فى هذه اللحظة يأخذ الانسان مقدمات الغيب .. ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه ، ولم يكن يصدقه .. ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت .. ومادامت البشرية خمدت ، تهب نفحات الغيب .. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

(الآية ١٩ من سورة ق)

أى ما كنت نظن أنه لن يقع . . أو تحاول ألا تتذكره ، وألا تعترف به ، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتى . . فإذا أتت فأنت تتوهم بأن شيئا لن يحدث فيها . . فى هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة . . ولا يجدى الاستغفار . . فمع سكرة الموت ينقطع عمل الانسان الدنيوى . . وتأتى الساعة التى ينتقل فيها كل منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب . . وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(الآيات ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ من سورة الواقعة)

. . أى أن الانسان وهو يحتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعة الاحتضار . . ومع أن أهل المحتضر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قرب فى هذه الساعة العصيبة . . فإن ملكوت الله يكون أقرب منهم إليه . . وتحيط بالانسان فى هذه الحالة إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحا . . أو زبانية جهنم ـ والعياذ بالله ـ إذا كان فاسقا .

أخـــرجـوا أنفســكم

على أننا لابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾

(من الآية ٩٣ من سورة الأنعام)

نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾

والنفس كما قلنا هى التقاء الروح بالجسد .. فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه .

لكى نفهم هذه الآية لابد أن نضع فى أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا بالله وكذوبا بالبعث .. وحينئذ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أو زبانية جهنم .. يقولون له هأنتذا ترى الآن ما كنت تكذب به .. وترى العذاب الذى ينتظرك .. فإن كان لك قوة أو قدرة كما كنت تدعى فى الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك .. اهرب من العذاب الشديد الذى سوف تلاقيه .. أرنا أين ستذهب .. لقد كانت لك قدرة فى الحياة الدنيا .. قدرة من الله ولكنك بدلا من أن تستخدمها فى شكر الله .. انطلقت تقول على الله غير الحق .. وتستكبر فى الأرض ، وتبارز الله بالمعاصى ، ولكنك الآن خامد خافت .. لا تملك شيئا لنفسك ، ولا صوتا تستجير به بأنصارك .. فأنت ترى العذاب وهو واقع بك ، ولن تفلت منه .

ملائكة الرحمة

والمؤمن يرى الملائكة أيضا ، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين

يبشرونه بالجنة ، ويستقبلونه بالسلام ، ويكون فرحا مستبشرا . . فالانسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت ، ولا علاقة له بالأيام والأحداث القادمة إلى الدنيا . . فهو قد انتهى دوره عند هذه اللحظة ، وانتهت مهمته فى الحياة ، وانتقل إلى عالم القيامة : عالم الحساب لينتظر يوم تقوم الساعة .

ولذلك فإننا نقول لكل من يجهدون أنفسهم فى أشياء هى من علم الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . نقول لهم : لا تجهدوا أنفسهم فى أشياء هى من علم الغيب ، ولم يصلوا إليها يقينا . . فمادام الله قد أخفى وجعل علم الساعة عنده . . فلا أحد يعلمها سواه . . وحتى لو علمتها فماذا ستستفيد منها . . لنفرض أننى علمت أن الساعة ستقوم بعد ألف سنة . . ماذا سيفيدنى ذلك ؟ . . هل سأعيش ألف عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة وتتأثر بى . . أم أن المسألة ستنتهى بعد سنوات ، طالت أم قصرت . . وحتى لو أننى قلت للناس إن القيامة ستقوم بعد ألف سنة . . فماذا يستفيدون ؟ . . معظمهم سيقابل هذا الكلام بالسخرية ، وعدم التقدير . . . وآخرون سيقولون : مالنا نحن وما سيحدث بعد هذ الفترة الطويلة ؟!

إذن لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى الطويل . . فإذا نظرنا إليها على المدى القصير . . أو تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من مات قامت قيامته) . . إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية . . وهى أن القيامة الصغرى عندما يموت الانسان ، والقيامة الكبرى فى آخر الزمان . . نجد أيضا أن الأجل قد أخفى عنا . . لماذا ؟ . . لنتوقع الموت فى كل لحظة ودقيقة فيسارع

كل منا إلى الخير قدر امكانه . . ويبتعد عن الشر قدر استطاعته . . ولو أن الأجل محدد معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير فى الكون . . ولزاد من استمرارية الشر .

فإذا علمت أن أجلى مثلا خمس وستون سنة ، فإننى أظل اتبع أهوائى وشهواتى إلى سن الستين ثم أتوب بعد ذلك . . وبذلك نكون قد أعطينا استمرارية للشر فى الكون . . وبخاصة أن ذلك سينطبق على معظم الناس . . وفى نفس الوقت فإن كلا منا إذا عرف أجله أجل الخير إلى السنوات الأخيرة من عمره . . فنكون بذلك قد قطعنا استمرار الخير . . ولكن حتى يستمر الخير فى الكون ، ويسارع كل منا إليه . . فإن الأجل المخفى هو السبيل .

على أنه حتى لو قلت لانسان : إن عمرك سينتهى بعد عام أو عامين ، أو شهر أو شهرين ، فإنه لا يصدقك . . وسيظل يراوده الأمل فى أنه سيعيش أكثر . . ولا يحس الانسان بيقين الموت إلا ساعة الاحتضار . . ففى هذه الساعة يعرف الانسان يقينا أنه سيموت . . ولكن حتى قبلها بساعات ، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل يراوده فى أنه سيشفى ويعيش .

إذن فالبحث عن موعد الساعة سواء كان نهاية للأجل أو نهاية للكون . . لابد أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شىء . . وعندما ينتقل الانسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ . . فإنه ينتقل من حياة لها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقرب ذلك إلى أذهاننا فأعطانا قانونين مختلفين فى حياتنا . . هما قانون اليقظة . . وقانون النوم . . فالانسان

وهو مستيقظ يحس بالأحداث . . يؤثر فيها ويتأثر بها . . ويحس بالزمن . . ويرى بعينيه ويمشى بقدميه . . إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة . . فإذا نام رأى نفسه يمشى وهو نائم . . قدماه لم تتحركا من فوق السرير . . ويرى وعيناه مغلقتان . . ويتحدث مع من انتقلوا إلى الحياة الآخرة . . ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها . . كيف يتم ذلك وهو ملقى على السرير بلا حراك . . عيناه مغمضتان لا يدرى بما ايحدث حوله . . غائب عن الزمن . .

نقول لأن هناك قانونا للنوم يختلف تماما عن قانون اليقظة . . فهناك بصر يرى بخلاف العينين . . وحركة تتم دون تحرك الجسد . . وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشرى ولا يعرف العلم عنها شيئا . . فإذا حدثنا عن أن هناك قوانين بعد الموت مختلفة تماما عن قوانين الحياة فى الدنيا . . فلنأخذ من الاختلاف بين قانونى اليقظة والنوم ما يقرب هذه الصورة لأذهاننا . . وحينئذ تستطيع عقولنا أن تفهم .

العلامات الصغرى

على أننا لابد أن نتوقف لنعرف أن للساعة علامات أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت العلامات الصغرى التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . . أما العلامات الكبرى فهى لم تتحقق بعد . . بعض الناس هنا يتساءل : إذا كان علم موعد الساعة لا يفيدنا ، فلماذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات اقتراب الساعة :

نقول : إن هذه الأحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعطينا موعد الساعة . . فإنها لا تقول لنا : إنه إذا تحقق كذا وكذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام . . ولكنها تذكرة لأولئك الذين سيعم الفساد بينهم كلما اقترب موعد الساعة . . تذكرة لهم تطالبهم بأن يتنبهوا جيدا إلى أن ما يحدث فى الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققت نقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ونتذكر المنهج الذى بعث به الله رسوله صلى الله عليه وسلم . . فنسارع باتباع المنهج ، وتكون علامات الساعة هذه تذكرة لنا بصدق الرسالة التى بعث بها الرسول الكريم . . وتكون من المعجزات المستمرة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . . كلما تحققت نبوءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . كانت بمثابة معجزة جديدة لنا تثبتنا على الايمان . . كما ثبتت المعجزات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابة رسول الله على الايمان . . فكأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم متجددة وليست متجمدة . . بأشياء رواها تحدث الآن . . وأشياء رواها ستحدث فى المستقبل . . كلما حدث شىء قلنا : هذا حق . . ورسول الله حق . . وكانت لفتة إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذى نسوه وتركوه بمرور الزمن .

إذن فالعلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيت للايمان . . وفيها إعجاز يفيق الناس الذين غفلوا عن منهج الله . . ولكن ليس فيها ولكن ليس فيها ما يمكن منه أن نحدد موعد يوم القيامة . . ربما يكون

الموعد قريبا . . ولكن القريب عند الله بعيد عندنا مصداقا لقوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية ٤ من سورة المعارج)

. . وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾

(الآيتان ٦ و ٧ من سورة المعارج)

إذن فالقرب والبعد عند لله مختلف عن مفهومنا . . الساعة قريبة نعم . . بعد أن أردنا أن نضعها فى إطار عام . . هى اختلال الموازين وانقلاب المبادىء . . فبهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس . . وكانت هى الطريق السوى الذى لابد أن يمضى بها هذا الكون ليصلح . . هذه الموازين والقيم الأخلاقية التى كانت سائدة تختل وتهتز وتنقلب . . فيصبح ما هو مستنكر واقعا . . وما هو واقع وحقيقة مستنكرا .

ترى الشح المطاع بأن كل إنسان لا يعطى ما عنده ، بل يبخل به . . وليس الشح هنا شح المال . . ولكنه شح فى كل شىء . . الصانع لا يعطى صنعته . . كل علمه وإتقانه . . والأستاذ لا يعطى تلاميذه كل ما يعلم ، بل يعطيهم إياه على قدر الأجر . . فجزء فى المدرسة ، وجزء فى الدرس الخصوصى ، وجزء فى الدرس الخاص جدا ، يبخل الناس بمالهم فلا ينفقونه فى سبيل الله ، ولا يعطونه للفقير والمحتاج . . ويبخل العامل بعمله فتجده يستطيع أن يعمل

ولكنه لا يعمل . . ويبخل الموظف بجهده . . فنجد أنه يستطيع أن ينتج ، ولكنه لا ينتج . . وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم .

فهناك بخل من كل ذى قدرة بقدرته . . وبخل من كل ذى علم بعلمه . . وبخل من كل ذى جاه بجاهه . . أى أن الانسان يكون فى مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر . . ولكنه يرفض أن يستخدم ماوهبه الله له فى مساعدة المحتاجين . . أو إنصاف المظلومين ، أو قضاء الحاجات . . وهو يستطيع أن يفعل ذلك بكلمة واحدة . . ولكنه لا يفعل . .

يجد الانسان أنه يستطيع أن يرفع ظلما يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم . . ويجد أنه يستطيع أن يقر الحق بشهادة يقولها ، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة . . كل إنسان يبخل بما عنده . . لتنحدر الانسانية بعد ذلك إلى أسفل السافلين . . لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذى قبله القشور . . وبهذا تضمحل الحضارات جيلا بعد جيل . . هذا هو معنى الشمح المطاع . . ولعلنا نشهده الآن فى الدنيا كلها . . ولعلنا نرى جميعا أن كل جيل هو أقل عطاء من الجيل الذى قبله . . ويقل العطاء كلما مضت الأيام . . وهكذا نجد فى كل أوجه الحياة شحا مطاعا ينبئنا عن بداية انحدار الانسانية إلى الهاوية . . بينما المجتمعات التى سبقت كانت قائمة على العطاء بلا حدود ، حتى إن الأنصار عرضوا على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل .

اختــــلال المــــيزان

العلامة الثانية لاختلال الميزان هى ضياع الحق .. أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : `إعجاب كل ذى رأى برأيه .. وإعجاب الناس بآرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس .. وكل واحد يقول : هذا رأيى ولابد أن يتبع .. ويحاول بشتى الطرق أن يزين هذا الرأى ، ولو بالباطل .. وأن يجمع الأدلة عليه ، ولو كذبا .. فإذا رأى الحق فإنه ينسى أن الرجوع إلى الحق فضيلة .. ويرفض أن يهزم ، وأن يؤخذ بغير رأيه .. فكأن الناس قد وضعوا أنفسهم فوق الحق .. بينما الحق هو الذى كان يجب أن يسود

ولكن الدنيا كلها تتفنن فى الخداع ، ويصبح كل صاحب رأى يحاول أن يحقق غايته بأى طريق .. بالضلال والاخلال .. وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مقام على الحق .. ويصبح الحق ضائعا لا صاحب له .. لأن كل صاحب رأى معتز برأيه ، بصرف النظر عن الحق .. وهذا ما نجده الآن فى الدنيا .. فالناس تحاول أن تفعل أشياء وتخلد أسماءها .

نأتى بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان .. وهى إعطاء الشىء لغير أهله .. والدنيا كلها قائمة .. والحياة كلها تقدمت بأن يعطى الشىء لأهله .. فتعطى قضايا العلم للعلماء .. وتعطى قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين .. ويعطى القضاء مثلا لمن هم قد درسوا قوانين الله وشرعه .. ولكن العقل البشرى عند اقتراب الساعة لا يعطى الشىء لأهله .

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى ، وهى قضية خلق الحياة والكون . . فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق . . وهو الذى أخبرنا بأنه خلق . . ولم يخبرنا أحد ، ولا يجرؤ أحد أن يدعى أنه خلق الكون . . ومع ذلك يأتى بعض الناس ليقولوا : إن الكون خلق بالصدفة . . وأن هناك تفاعلات كذا وكذا هى التى فعلت كذا . . ونجد نظرية التطور تقول : إن الانسان أصله قرد . . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الانسان ، وأخبرنا كيف خلقه .

ولكن فى هذه القضية الكونية الكبرى ينسب الشىء لغير أهله . . ويفترى الناس على الله ويغرهم ما كشف الله لهم من قوانين وأسرار فى الكون . . فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين ، وأنهم قد صنعوها بقدرتهم ، وإنها تتصرف وفقا لارادتهم ، فتختل الموازين ، ويعبد الانسان نفسه . . فتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتزيل هذا الزيف كله ويدعى الناس للحساب أمام الله . . فيرون أنهم كانوا عجزة لا يقدرون على شىء ، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئا ، ولكن الله هو الذى أعطاهم من قدرته ، ومنحهم من ملكه ، فإذا بهم يقابلون ذلك بالكفر بدلا من شكره .

هذا هو المعنى الواسع لأن يعطى الشىء لغير أهله . . أى أن يحسب الانسان أنه الأصيل فى الكون ، وأن كل شىء خاضع له وينسى خالقه .

وكلما مر الزمن شهدنا ذلك يبرز على الساحة فى العالم . . فنجد من يقول : انتهى عصر الدين وبدأ عصر العلم . . كأنما الدين والعلم متعاندان . . بينما الدين هو دين الله ، والعلم هو علم الله . .

وكلاهما مثبت للايمان . . ونرى العالم كلما تقدمنا فى الزمن يحسب أنه قد استطاع أن يسيطر على الأرض بالعلم ، ويخضعها لارادته ، ويتحكم فيها . . بينما العلم لم يخلق شيئا . . وإنما استخدم المادة التى خلقها الله والعقل المسخر له من الله . . فى استخدام ماشاء الله من أسرار هذا الكون .

فالذى اخترع الصاروخ مثلا جاء بالمواد التى خلقها الله ، وأوجدها فى الأرض ليصنع منها جسد الصاروخ ووقوده . . فهو لم يخلق المادة التى صنع منها جسم الصاروخ . . وإنما جاء بها من المناجم التى أوجدها الله فى الأرض . . قد يكون قد طورها وقواها بمواد أخرى . . ولكنها كلها جاءت من خلق الله . . مما أودع الله سبحانه وتعالى فى كونه من نعم وكنوز . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الآية ٢٤ سورة يونس)

الشىء لغير أهله

فإذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع ، وهو أن يعطى الشىء لغير أهله . . نجد أننا بدلا من أن نعطى ما فى الدنيا لله سبحانه

وتعالى الخالق والموجد . . نأتى لغير أهل هذا الأمر ، وهوالانسان ، فننسبه إليه لغرور التقدم العلمى . . والانسان غير أهل لذلك . . فهو لا يستطيع أن يخضع قانونا واحدا من قوانين هذا الكون لارادته . . ومع ذلك فهو يظن باطلا على غير حقيقة أنه قادر على هذا الكون . . وأنه هو الذى أخضع القوانين بالعلم والتكنولوجيا . . حينئذ يأتى أمر الله ليعلم الناس الحقيقة .

وإذا أخذنا هذا الحديث . . « يعطى الشيء لغير أهله » . . بأنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون الابقاء على حكمهم بألا يختاروا الناس لكفاءتهم أو عملهم أو خبرتهم . . ولكنهم يختارونهم من المخلصين لهم بغير علم . . ومن الذين يطيعونهم بالحق والباطل ، ويعطونهم ما هم ليسوا بأهل له . . وهو ما يعبر عنه فى العصر الحديث بأهل الثقة ، وأهل الخبرة . . هؤلاء الحكام وهم يعرفون من يصلح للعمل ، ولكنه متمسك بالحق فيبعدونه عنه . . ويضعون فيه أولئك الذين لا يفقهون شيئا . . وبهذا تنتفى الخبرة السليمة فى إدارة العمل ، ويصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئا ، والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة فى الكون كله .

ومادامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة . . تكون حركة أشراف الناس على الحياة مختلة فيختل الكون كله . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك فى الحديث الشريف حين يقول : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (إذا رأيتم الناس أماتوا

الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، وباعوا الدين بالدنيا فهذه من علامات الساعة .

والصلاة هى الصلة بين العبد وربه . . وكل أحكام الدين ترفع ماعدا الصلاة ، لأنها الصلة بين العبد وربه . . فالحج لمن استطاع إليه سبيلا . . فمن لم يستطع ، لأنه كان فقيرا ، يسقط عنه الحج . . ومن لم يستطع لأنه مريض بمرض مزمن لا يشفى منه ، سقط الحج . . والزكاة تسقط عمن لا يملك إلا قوته وقوت عياله . . والصوم لمن كان فى تمام صحته ولم يكن مسافرا . .

ولكن الصلاة لا تسقط بالمرض ، ولا تسقط بالفقر ، ولا تسقط بالسفر ، فالانسان يصلى واقفا ، ويصلى قاعدا إذا كان لا يستطيع أن يقف ، ويصلى فى فراشه إذا كان لا يستطيع أن يغادر الفراش . . ويصلى حتى ولو لم يكن قادرا على أن يحرك يديه وقدميه . . فالصلاة هى أساس حياة المؤمن لا يتركها أبدا . . وقولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم (أماتوا الصلاة) . . أى لم تعد موجودة فى حياتهم . . فالميت يخرج من الحياة الدنيا . . وكذلك الصلاة تخرج من حياة الناس فى آخر الزمان . . والميت يصبح نسيا منسيا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ من سورة مريم)

وهكذا ننسى الصلاة فى آخر الزمان . . ويؤذن الله أكبر ، والناس لاهون فى أمور الدنيا . . فلا يقوم أحد إلى المسجد ليصلى . . أو يقوم

ليتوضأ ويْصلى . . بل عندما يؤذن المؤذن للصلاة يكون كأنه ينادى على موتى فلا يجيبه أحد .

وأضاعوا الأمانة

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأضاعوا الأمانة) . . معناها أنهم أضاعوا منهج الله ، لأن الأمانة هى المنهج الذى حمله الانسان ليؤديه فى الدنيا ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(الآية ٧٢ من سورة الأحزاب)

فكأن الناس فى آخر الزمان يضيعون منهج الله . . وكيف يضيعونه ؟ . . إنه يكون فى أيديهم ولكنهم لا يعملون به . . وهكذا ضيعوا على أنفسهم ثواب المنهج الذى لو علموا به لحصلوا على خير الدنيا والآخرة . . فكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم شيئا ثمينا ، وهو منهج السماء ، وهو القرآن الكريم فأضاعوه . . أى وضعوه فى مكان بعيد عن حياتهم ولم يلتفتوا إليه . . ولم يحاولوا أن يبحثوا عما فيه من كنوز ومن علم . . هذه واحدة .

والثانية أنهم أهملوا الأخذ به . . فبدلا من أن يتبعوا التشريعات التى جاء بها الله ذهبوا ليقننوا لأنفسهم ، وكأنما قوانين البشر هى أعلى من قوانين الله . . ولذلك ترك الانسان المنهج الذى أعطاه الله إياه

وانطلق يشرع لنفسه . . وسمعنا عن القانون الرومانى ، والقانون الفرنسى ، والقانون الانجليزى إلى آخر هذه القوانين . . كل قانون منها يتبع هوى النفس . . وكل قانون منها وضع ليميز طبقة عن طبقة ، ويميز أفرادا عن أفراد .

ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى لخلقه القانون الذى فيه العدل بلا هوى . . والحق بلا غرض ، فأضاعوه وأخذوا يبحثون عن قوانين البشر . . يضعونها . . فإذا العيوب تظهر فيعدلون ويبدلون فيها . . حتى يصبح القانون غارقا فى التعديلات كالثوب المهلهل المرقع لا يصلح لشىء ، وأضاعوا الأمانة جعلوا الدين فى خدمة الدنيا . . بينما الدين هو السيد ، وكل ما فى الدنيا يجب أن يخدمه . . ففسروا دين الله بغير ما قاله . . وأصدروا الفتاوى ليحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحله خدمة لأمور دنياهم ، وتقربا منهم لذوى النفوذ . . فأضاعوا عدل الدين ، وأضاعوا حكمته ، وأضاعوا كل شىء يمكن أن يعطى الانسان الحياة الآمنة المستقرة . . إذا حدث هذا كله فاعلم أنه من علامات الساعة .

واستحلوا الكذب

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (واستحلوا الكذب) . . فمعنى ذلك أن الكذب قد أصبح حلالا يتعامل به كل الناس . . وأصبح مقبولا فى المجتمع لا ينفر منه ولا يستنكره أحد . . والكذب هو انفصال الكلام عن الواقع . . فأنت إذا قلت : محمد

عندى ولم يكن عندك فقد انفصل كلامك عن الواقع الحقيقى .. ولذلك يقال كذب .. واستحلال الكذب معناه أن القول قد انفصل عن الفعل فى حياة المجتمع .. فيصبح المجتمع كلامه شىء ، وفعله شىء آخر .. ويصبح الناس كلامهم غير أفعالهم .. فما يقوله الناس شىء وما يفعلونه شىء آخر تماما .

نجد إنسانا يحدثك عن الأمانة . فإذا ائتمنته خانك .. وإنسان يحدثك عن الذمة والشرف .. فإذا عاملته كان لا ذمة له ولا شرف عنده .. وإنسان يحدثك عن المال الحرام حديثا مستفيضا فإذا أتيحت له الفرصة مد يده إلى المال الحرام .. وفى هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها .

والانسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يخفى خطيئة .. فإذا رأى إنسان امرأة معك وسألك عمن معك .. فإن كانت زوجتك فإنك تقول زوجتى .. أما إذا كانت زوجة غيرك .. فإنك تحاول أن تخفى هذه الخطيئة بالكذب .. وإذا كنت تحصى مالا حلالا ، ودخل عليك إنسان ، وسألك عن هذا والمال تقول : هو مالى بلا تردد ولا خوف .. فإذا كان مالا حراما حاولت أن تكذب لتخفى هذه الخطيئة .

وهكذا نرى أن معنى أن يستحل الناس الكذب أن يكون المجتمع مليئا بالخطايا .. ولذلك يحاول الناس أن يكذبوا لتغطية خطاياهم .. فإذا رأيت مجتمعا يملؤه الكذب ، فاعلم أنه تملؤه الخطيئة .. وإذا رأيت مجتمعا يعيش بالصدق فاعلم أنه مجتمع خطاياه قليلة .. ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. (واستحلوا

الكذب) . . أى أن مجتمعات آخر الزمان ستكون مليئة بالخطايا التى يخجل منها الناس فيكذبون .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (واستخفوا بالدماء) . . أى أن الناس أصبحوا يهدرون دم بعضهم البعض باستخفاف غريب . . ودم الانسان لا يهدر إلا بحقه . . ولكن فى آخر الزمان يستخف بالدماء ، فيقتل الأبرياء دون أن يفعلوا شيئا ، وتهدم الأماكن فوق رءوس النساء والأطفال دون ذنب فعلوه . . وهذا ما يحدث الآن . . فقد استخف الناس بالدماء . . فترى رجلا مثلا يدبر حادث نسف بسيارة ملغومة يقتل فيه العشرات من الأبرياء باستخفاف غريب ، دون أن يشعر بأى ذنب . . وكذلك خطف الرهائن وقتلهم . . ووضع المتفجرات فى الأماكن المزدحمة ، ونسف القطارات والسيارات . . وما يحدث فى الحروب من استخفاف بأرواح الأبرياء ، وقصف المدن بالقنابل والصواريخ . . كل هذا يحدث الآن باستخفاف غريب ، ولا ضمير يستيقظ ، ولا إنسان يثور على قتل الأبرياء بلا حساب . . وهذا هو الاستخفاف بالدماء .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . (أن يكون فاسق القوم كبيرهم) والمفروض أن الكبير ـ سنا كان أو مقاما ـ هو الذى يحافظ على الخلق الكريم ، وهو الذى ينهى وينهر كل من يخرج على السلوك القويم ، أو يرتكب عملا سيئا . . فإذا كان الفسق والفجور فى الكبير فمعناهما أن الفاحشة تعم الجميع ، لأن الكبير هو القدوة . . وهو المثل .

عقــوق الــوالــدين

ومن علامات الساعة التى أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نقص الكيل والميزان . . ومعناها أن يسود المجتمع أكل حقوق الناس . . فالكيل والميزان هنا معناهما حقوق الناس . أى أن حقوق الناس تضيع . . وأن يعق الولد أباه حتى أنه يصبح خيرا للأب أن يربى كلبا صغيرا من أن يربى ولده ، لأن الكلب يخلص لصاحبه . . أما الأبن فيكون غيظ أبيه وأمه .

وهكذا معناه انتشار عقوق الوالدين ، وألا يوقر الناس الكبير . . ولا يرحموا الصغير وأن يلبسوا جلود الضأن ، وقلوبهم كالذئاب . . أى أنهم يتظاهرون بالمسالمة ، بينما هم فى داخلهم متوحشون . . لا شفقة عندهم ولا رحمة ، وأن يتعالى الحفاة العراة ، رعاة الشاة فى البنيان . . أى يصبح المال فى يد من لا علم لهم . . يملكون مال الدنيا ، وليس عندهم علم لكى يحسنوا استثماره . . وأن يقتل الرجل أباه . . أى تنقطع صلة الأرحام بين الناس . . وأن يركن العلماء إلى الولاة . . أى يخضع العلماء أحكام الدين للدنيا ، يريدون بها مالا أو وظيفة ، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال . . وأن يؤخذ المال بغير حقه . . فينتشر المال الحرام حتى تصبح الصفة الغالبة فى المجتمع هى أن يحصل الناس على المال حراما بدون عمل . . فتكثر السرقة والرشوة والنصب والاختلاس ، ويتحايل الناس بالمشروعات الوهمية ، ليحصلوا على الأموال بالباطل .

ومن علامات الساعة التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن تقطع الأرحام . . وأن يشتكى ذو القرابة لقرابته ، فلا يعود عليه ذلك بشىء رغم أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، وأن يعبد المال فيعصى الناس الله فى سبيل الحصول على المال الحرام ، وأن تختلط الأمور بين الناس ، فلا يعرف ما هو الحرام وما هو الحلال . . وأن يظهر البغى والحسد والشح ، وأن يجهر الناس بالفحشاء كأن يرتكب رجل أو امرأة فاحشة ، ثم يأتى وسط أصدقائه ، ويجاهر بها وكأنه يتفاخر بمعصية الله . . وأن يأكل القوم بألسنتهم كما تأكل البقر . . أى يعيشون على النفاق والرياء والكذب ومديح الناس بالباطل ولا يعملون شيئا . . وأن يعز الله ثلاثا : درهما من حلال وعلما مستفادا وأخا فى الله . . أى يكون من العزيز والنادر أن يكسب الناس مالا حلالا . . أو يستفيدوا من علم يقال لهم فيتبعوه . . أو يحب الرجل رجلا فى الله ولله .

ومن علامات الساعة التى أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتشر الخرافات . . فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع بالنجوم ، وأن يمر الرجل على المسجد فلا يدخل فى قلبه خشوع ولا يركع ركعتين . . وأن يكون السلطان والقوة للنساء فيحكمن الرجال . . ويطيع الرجال النساء فى كل الأمور ، وأن تكون قلوب المسلمين قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب . . أى أنهم يتكلمون باللغة العربية . . ولكن قلوبهم تهوى وتعشق كل ما هو أجنبى . . فحياة الأجانب الأعاجم هى التى تستهويهم . . وهى التى تعجبهم . . وأن تزخرف المساجد وتحلى المصاحف . . أى أن يكون الايمان ظاهريا فقط دون قلوب تخشع ، أو أفئدة تخضع . . فبدلا من

أن يعمر المسلمون المساجد بالصلاة يصنعون فيها الزخرفة ويحلونها بالنقوش .. وبدلا من أن يقرأ المسلمون القرآن .. يحلون المصاحف بماء الذهب .. أى أن القلوب تكون خاوية خالية من الايمان .

هذه هى بعض العلامات الصغرى التى تنبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لقيام الساعة .. وقد تحققت جميعا ومادامت قد تحققت فهى لا تختفى ، وتزيد ولا تنقص حتى تقوم الساعة .

نكون بذلك قد بينا بعض العلامات الصغرى لقيام الساعة ، ووصلنا بذلك إلى المشاهد فى يوم القيامة التى رواها لنا القرآن الكريم ، والتى ستحدث فى هذا اليوم العظيم ، وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



أحاديث قدسية

يقول الله فى حديثه القدسى :

« لا يزالُ عبدى يتقرَّبُ إلى بالنّوافلِ حتى أحبَّهُ . فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذى يسمعُ به ، وبصرَهُ الذى يبصرُ به ، ويدَّهُ التى يبطش بها .

ومَنْ ذكرنى فى سِرِّه ، ذكرتُه فى سِرى ، ومَنْ ذكرنى فى مَلأ ذكرتُه فى ملأ خيرٍ منه . ومن اتانى يَمْشِى أتيتُه هَرْولةً » .

الفصل الرابع

يوم البعث

يـوم البعث

عندما نبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة ، فلابد أن نتعرض إلى ثلاث نقاط : أولاها معنى الموت . . وثانيتها نفخة الصور . . وثالثتها طريقة البعث . . فمع البعث تبدأ أحداث يوم القيامة . . ولكن يسبق هذا الموت . . والحديث عن الموت ، أو انتهاء الحياة حديث يمكن أن يلخص فى سطور قليلة . . فالموت كما قلنا خلق من خلق الله مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ من سورة تبارك)

ولعلنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قدم فى هذه الآية الموت على الحياة . . فقال سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾

ولنا أن نتساءل : لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة . . فنجد أنه لسببين :

السبب الأول أنه يسبق الحياة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة البقرة)

أى أن الموت يكون قبل الحياة . . ومن هنا فهو سابق للحياة . . والثانى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الموت حتى إذا تذكرناه سارعنا إلى الخير والايمان والعمل الصالح . . ولكنه ليس فى حاجة

لأن يلفتنا إلى الحياة . . فدوافع الحياة متمكنة متأصلة فى النفس البشرية . . من منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه . . من منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكل لعدة أيام . . من منا لا يحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا . . دوافع الحياة كثيرة وموضوعة فى النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدى مهمتها فى الكون ، وهى عمارة الأرض ، وبناء الحضارة . . ولكننا ، ونحن نتذكر الحياة فى ثانية ، ننسى دائما الموت . . وقد تمر سنوات دون أن نتذكر أننا سنموت ونلاقى الله . . بل إننا إذا ذكرنا إنسانا بذلك . . فإننا نحاول أن نبعد هذه الصورة . . صورة نهاية الحياة ، ونستعيذ منها .

إذن فنحن محتاجون دائما لأن يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى الحقيقة . . فيأتى ذكر الموت أولا ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصابا واقتدارا ولن نخرج منها .

والموت هو انتهاء الارادة البشرية . . فمادمت حيا . . تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا . . ويكون لك اختيار وبدائل . . ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار تماما ولم يعد لك اختيار فيما سيفعل بك ، أو سيقع عليك من أحداث . . من لحظة الموت إلى يوم القيامة . . فالارادة البشرية انتهت مهمتها فى اختيارات الدنيا . . ومادامت انتهت مهمتها فهى الأخرى لم يعد لها وجود .

وهكذا تنتهى إرادتك البشرية . . وتنتقل إلى حياة البرزخ التى لا تملك فيها إرادة . . ثم يوم القيامة الذى لا تملك أيضا إرادة . . على أننا لابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

يوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ﴾

(من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران)

هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الانسان ؟ .. هل له طعم مثل الطعام مثلا ؟ .

نقول إن الله سبحانه وتعالى يستخدم لفظ الذوق ، دون الاحساس الصارخ فى الأشياء الذى يحس بها كيانك كله ، فأنت مثلا ترى بعينيك ، وتسمع بأذنيك ، وتلمس بيديك وتشم بأنفك .. ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذى يعود بالنفع على هيكل الجسم كله .. فيعطيك إحساسا باللذة وجمال الطعم .. ويعطى جسدك الطاقة التى يعيش بها .. يعطى الدم الغذاء الذى يحتاج إليه .. ويعطى المعدة ما تمتصه للجسم ويعطيك القدرة على الحركة .

فأنت إذا تناولت الطعام فإنك تعطى لجسدك كل شيء يحتاج إليه .. ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد ، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله .. فإذا كان الانسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة ، ولا على التفكير ، ولا على الكلام .. ولا على الرؤية السليمة بالعينين .

وهكذا نرى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ﴾

(من الآية ٥٠ من سورة الأنفال)

أى أن الكفار حين يعذبون فى النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم ، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد فى الحياة . . والله سبحانه وتعالى حين يقول :

﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ من سورة النحل)

أى أن الجوع تمكن منهم حتى ذاقته كل خلية فى الجسم . . أو أن الخوف ملكهم حتى مس كل خلية من أجسادهم . . فارتعدت أيديهم ولم تكن أقدامهم قادرة على حملهم . . ولم تقو ألسنتهم على النطق ولا عقولهم على التفكير من شدة الخوف .

حيـــاة .. ولا زمـــن

إذن فمعنى الذوق هو أن يحيط الشىء إحاطة كاملة بالانسان حتى تتأثر به كل خلية فى جسده . . وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

أراد الله أن يعطينا بها معنى الاحاطة . . فكأن كل خلية من الجسد سيسمها الموت . . شمولية الأثر يريد الله سبحانه وتعالى منها أن نلتفت إليها . . فلا يؤثر الموت على الحواس فقط . . وعلى العقل والقلب فقط . . ولكنه يشمل كل خلية فى جسد الانسان له تأثير عليها ، وهى تحس به ، وتتأثر به . . وهذا هو المعنى الذى قصده الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

يـوم البعث

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

وبعد الموت تأتى حياة البرزخ بقوانينها التى تحدثنا عنها فى الجزء التاسع من معجزة القرآن الكريم .. فهى حياة لا زمن فيها .. وضربنا مثلا لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام .. وعندما بعثوا لم يحسوا بالزمن :

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(الآية ١٩ من سورة الكهف)

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(الآيتان ١١٢ و ١١٣ من سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(الآيات ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من سوة طه)

وهكذا نرى أنه لا زمن فى حياة البرزخ ، وأن الذين يعيشون

فى البرزخ لا يحسون بالزمن . . وهذا ما شرحناه بالتفصيل فى الجزء التاسع من كتاب معجزة القرآن الكريم .

وجاءت الصاعقة

ثم ينفخ فى الصور ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(الآية ٦٨ من سورة الزمر)

فى هذه الآية هناك ملاحظتان : الملاحظة الأولى أن الله سبحانه وتعالى استثنى من الصاعقة التى ستحدث فى الآخرة . فكأن هناك من لن تصيبهم الصاعقة . . وقدم النظر فى هذه الآية على السمع ، وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن الكريم التى قدم فيها النظر على السمع . . فالله سبحانه وتعالى فى كل آيات القرآن كان يأتى بالسمع قبل البصر :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة النحل)

ولكن فى هذه الآية وحدها قدم النظر على السمع . . نقول : إنه بالنسبة للصاعقة التى ستصيب الانسان يوم القيامة ، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أن المخلوقات كلها تصيبها صعقة واحدة . ولذلك فكل من أصيبوا بالصاعقة من قبل لن يصابوا بالصاعقة

مرة أخرى . . لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين . . موسى عليه السلام صعق فى الدنيا . . عندما طلب أن يرى الله جهرا . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة الاعراف)

. . ولذلك فإن موسى لن يصاب بالصاعقة مرة ثانية . . وكذلك الجبل الذى تجلى له الله سبحانه وتعالى فأصيب بالصاعقة فكان دكا ، وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صعقوا قبل ذلك . . وقال عنهم القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(الآيتان ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة)

. . وهناك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود . . فهؤلاء أصابتهم الصاعقة . . ولذلك فإن كل من صعقوا لن تصيبهم الصاعقة مرة أخرى . . وهذا معنى قول الحق :

﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

على أن ذلك لا يعنى أنه ليس لله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة . . فالله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء ، متى شاء . . وطلاقة القدرة فى الكون هى التى صنعت المعجزات للأنبياء . . فمعجزات

الرسل خرقت نواميس الكون .. وأبطلت الأسباب .. ذلك أن أسباب الدنيا ليست قيدا على خالقها ، وهو الله سبحانه وتعالى .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعل للنار خاصية الأحراق .. جعلها بردا وسلاما على إبراهيم .. "وجعل البحر ينشق لموسى .. وطلاقة القدرة موجودة فى الكون منذ خلق إلى يوم القيامة .. فهى التى تعين المظلوم على الظالم .. وتنصر الضعيف على القوى .

لذلك عندما ترى إنسانا يصيح ربنا كبير .. أو ربنا موجود .. فاعلم أنه رأى طلاقة قدرة الله .. لأنه لو رأى الأسباب تعطى ، ما تعجب وما صاح .. ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب .. فإنه صاح ربنا كبير .. ربنا موجود .

إذن فقول الحق فيمن ستصيبهم الصاعقة إلا من شاء الله .. يعنى من إصابته الصاعقة من قبل .. ومن يشاء الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ألا تصيبه الصاعقة .

أما استخدام ينظرون فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (من الآية ٦٨ من سورة الزمر)

لأنها الحالة الوحيدة التى سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور .. يخرج الناس فيرون أولا الأرض وهى تتشقق والناس تخرج منها .. ولكن العكس يحدث فى كل الأحداث الأخرى .. فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى .. حتى إنك إذا قربت إصبعك من عينه لا تهتز جفناه .. ولكنك إذا أحدثت صوتا عاليا بجانب أذنه فى لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج .. ولذلك كانت

الأذن أولا فى آيات القرآن . . لكننا فى الآخرة نخرج من القبر فنرى أولا .

ما هــو البعــث ؟!

على أن مشاهد يوم القيامة التى ذكرها القرآن الكريم ترينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض . . سنبعث مرة واحدة . . سنقوم جميعا فى لحظة واحدة . . ولذلك قد سماها الله سبحانه وتعالى الحشر . . ما معنى الحشر ؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة فى مكان ضيق لا يتسع لها . . بهذا يريد الله أن يقرب لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر . . لأن الناس الذين دفنوا فى الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة . . وبما أننا سنبعث من نفس الأرض التى دفنا فيها . . وسنبعث فى لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيبا ، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة .

يخرج الناس من الأرض يوم البعث . . ويخرجون هُمْ هُمْ بكل صفاتهم وأوصافهم التى كانوا عليها فى الدنيا . . بعض الناس يتساءل : كيف يمكن ذلك ؟ . . كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات .

ويقول هؤلاء الناس : لنفرض أن إنسانا مات ودفن فى مكان ما . . ثم زرعت شجرة تفاح فى هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها . . فإذا طرحت هذه الشجرة ثمارا وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار التى فيها عناصر من

إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة ، واختلطت العناصر بعضها البعض . . فالعناصر التى فى جسد الانسان الذى أكل التفاحة هى من إنسان آخر . . ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر . . وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفى أجساد متفرقة . . كيف يجمعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فى جسد صاحبها مرة أخرى .

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام . . إن تفكيركم ينقصه الحكمة والعلم . . ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين ، وقد انتهى العلم التجريبى أو العلم المعملى ، إلى أن جسد الانسان مكون من ستة عشر عنصرا هى عناصر الطين . . وأن أولها الكربون والأكسيجين . . فهى أعلاها نسبة وآخرها المنجنيز . . ذلك هو الجسد البشرى . . والجسد البشرى قوته من عناصر الأرض نفسها . . أو مما تنتجه الأرض،ولذلك فإن الانسان إذا أكل كثيرا ترهل جسده وزاد وزنه . . من نفس جنس المواد المصنوع منها الجسد . . أى أن الانسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلا . . فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم . . ولكن من نفس مادة الجسم . . لأنها من الطين ، والانسان مخلوق من طين . . وإذا لم يأكل الانسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضا . . هذه الزيادة والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للانسان . . ولكنها مواد تفقد وتعود حسب الطعام الذى يتناوله كل منا .

إذا جئنا بعد ذلك إلى الانسان . . صحيح أننا جميعا مخلوقون من عناصر الأرض . . ولكن لكل منا خلقا مميزا . . أى أن نسب عناصر

تكوين كل منا تختلف عن الآخر . . فبعضنا يزيد فى جسمه الحديد ذرة أو ذرتان . . وبعضنا ينقص . . والبعض الآخر يزد فيه ذرة منجنيز والبعض الآخر ينقص . . ولذلك فإنك تجد فى كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك : إن عندك نقصا فى الحديد أو فى البوتاسيوم . . ويعطيك الدواء الذى يكمل لك هذا النقص .

إذن فعناصر الأجسام كلها واحدة . . كل واحد فيه الستة عشر عنصرا الموجودة فى الأرض . . ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر . . تكوين هذه النسبة هو الذى يكون كل شخص فينا . . وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى .

ولذلك إذا أعدت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هُوَ هُوَ إلى الحياة . . وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله . . واختلاف النسب يعطينا عددا لا نهائيا من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر . . إذن فاختلاف الشخصيات مبنى على اختلاف النسب ، وليس على عناصر التكوين التى نشترك فيها جميعا .

اختيارات .. بلا حدود

ولكى نقرب ذلك إلى الأذهان ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول : لنفرض أننا أردنا طلاء منزل ، وأتينا بستة عشر لونا أساسيا . . ولا يوجد فى الكون ستة عشر لونا أساسيا حسب علمنا . . ثم بدأنا نعد الطلاء الذى نريده . . وأتينا باللون الأبيض مثلا . . لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لا ختلف . . ولو زودنا ذرة أخرى لا ختلف . . وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لا ختلف . . وإذا

وضعنا ذرتين لا ختلف .. فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرتين من اللون الأحمر .. ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أوسوداء أو خضراء .. كل ذرة تعطى لونا مختلفا .. ولذلك فإن الذى يريد طلاء المنزل .. فإنه لابد أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معا .. ذلك لأنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبدا ، لأنها عملية غاية فى الدقة .. توجد بدائل لا نهائية .. بل إن اللون إذا تركته يوما فى وعاء ، فإنك تأتى فى اليوم التالى لتجده قد تغير .. بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام .. تجد أن اللون فى مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط .. لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون .

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة .. فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة الله مع خلقه .. إنها تؤلف نسبا لا نهائية .. لا يقف أمامها عدد مهما بلغ .. ذلك لأنه إذا كانت امكانياتنا الدنيوية نحن لها حدود .. وإذا كانت وسائل إدراكنا لها حدود .. فهذا نظره قوى ، وهذا ضعيف ، وهذا أضعف .. وهذا يسمع دبيب النملة ، وذلك لا يسمع دوى القنابل .. ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودوى القنبلة .. إذن فالادراكات عند البشر تختلف .. واختلاف المدرك حجما ولونا وتكوينا .. هو الذى يعطى هذه الادراكات درجاتها من ضعف وقوة .. فتعطينا فى الدنيا اختيارات بلا حدود .. فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى ؟

إذن فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه مادامت أجسادنا

مخلوقة من الأرض . . ومادامت الأرض من ستة عشر عنصرا فإن الأجساد ستختلط .

نقول لهم : لا . . إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى « كن » . . عادت هذه النسب بنفس الطريقة التى تكونت بها . . أو بنفس الخلق الذى تم أول مرة . . فيبعث الانسان يوم القيامة بجسده هو هو . . وبشخصيته هى هى ليحاسب . . ولا تأتى الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض . . بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره . . وكل منا سيأتى بجسده هو ، وشخصيته هى يوم القيامة . . ويبعث هو هو ليحاسب . . فإما أن ينعم . . وإما أن يعذب .

تأتى ساعة البعث ويخرج الناس جميعا مرة واحدة ، ويبعثون من نفس الأرض التى دفنوا فيها ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الاعراف)

وبعد أن نخرج من هذه الأرض التى كنا نعيش عليها نساق إلى أرض الميعاد .

ذلك لأن هذه الأرض معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث . . مدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم . . والحياة فيها تمضى بالأسباب ولكن المسبب والخالق قيوم على هذه الأسباب . . لا يترك كونه لحظة . . ولا يغفل عنه ، ولو برهة صغيرة . . وهو إذا شاء ، ومتى

شاء ، عطل الأسباب لتتدخل قدرة المسبب لتنصر مظلوما على ظالم .. أو تقتص لضعيف بغى عليه من قوى طغى بالأسباب ، وأفسد فى الكون .

أرض الأسباب هذه انتهت مهمتها .. ولذلك فهى تدمر .. والبشر يساقون إلى أرض الميعاد التى يتم عليها الحساب .. لأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب ، ولا تصبح الأرض التى نعيش عليها صالحة ليوم الحساب ، وما بعد يوم الحساب .

إلى أرض الميعـــاد

إذا فالناس تخرج من أرض الأسباب إلى أرض الميعاد .. ولكن هل يخرجون هكذا ؟ .. كل منهم يذهب حيث يريد ، ويتجه إلى أى مكان يريده .. أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شىء فى موضعه تماما .. إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(الآية ٤٨ من سورة إبراهيم)

فإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة وكذلك السموات .. فهل سنمضى كل يذهب باختياره إلى المكان الذى يريده وعلى هواه .. هذا يتأخر وهذا يتقدم .. وهذا يمينا ، وذلك يذهب يسارا .. وبعضنا يجرى إلى الخلف هروبا من هذا الموقف الرهيب .. وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى

الصفوف الأمامية .. هل سيحدث هذا ؟ .. لا .

لقد قلنا إن الموت معناه انتهاء إرادة الانسان .. انتهاء الاختيار .. فلا أحد يملك أن يختار لنفسه شيئا ، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه .. فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا كامتحان لهذا اليوم .. والآن انتهى الامتحان .. وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التى أطاع فيها منهج الله ، والتى عصى فيها هذا المنهج .. وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب .. لم يعد أحد يملك من أمره شيئا .. تأمل دقة القرآن الكريم ، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التى نعيش عليها إلى أرض الميعاد .

من هـو السـائق ؟!

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ من سورة ق)

.. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

« كل نفس »

.. أى لن يفلت أحد .. كل قادم .. من عهد آدم إلى يوم القيامة .. ولكن ليس كل قادم باختياره ومشيئته .. بل كل نفس معها سائق .

ما هو السائق ؟ .. السائق فى اللغة هو الذى يسوق الغنم إلى المرعى ، وهو الحريص على أن تسير الغنم فى الطريق المرسوم إلى

مكان الماء أو العشب . . فلا تتجه يمينا أو يسارا . . بل هى ذاهبة إلى مكان محدد لها ، حيث يوجد العشب أو الماء . . والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان . . ولماذا يسوقها أمامه ؟ . . لماذا لا يجرها خلفه ؟ . . أو لماذا لا يأتى بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقهما والكل يتبعه . . لأنه لو فعل ذلك ، وجعلها خلفه . . يمكن لواحدة منها أن تنحرف يمينا أو يسارا ، أو تبتعد عن الطريق ، دون أن يدرك هو ذلك . . ولكنها حين تكون أمامه . . إذا انحرفت أى واحدة منها يمينا أو يسارا . . فإنه يجرى ويعيدها إلى الطريق المرسوم .

وهذا التشبيه الذى أعطاه لنا القرآن الكريم جملة . . هو الذى سيحدث يوم القيامة تفصيلا . . فعندما ينفخ فى الصور ، ونخرج من القبور . . سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره . . ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . . وهذا الملك مكلف بأن يسوق الانسان من مكان الحشر على هذه الأرض التى نعيش فيها . . إلى مكانه المحدد له فى أرض الميعاد . . حيث سيتم الحساب . . وهذا الملك يكون خلف الانسان . . تماما كما يكون سائق الأغنام خلفها . . والانسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة . . ولو برهة . . بل يسوقه الملك وهو أمامه حتى مكانه فى أرض الميعاد . . ويكون حريصا عليه لا يستطيع الانسان أن ينحرف يمينا أو يسارا . فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد »

أى ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها فى أرض

الميعاد. بل معها أيضا الشهيد ، وهو أعمالها .. شريط حياتها .. ما فعلته فى الدنيا لحظة لحظة .. حتى إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا لمحة عن دقة الحساب .

يقول :

﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

أى أن هذا الكتاب الشاهد على الانسان .. الشهيد عليه .. لا يترك عملا صغيرا بسيطا إلا أحصاه .. فإذا كان لا يترك صغيرة ، فإنه من باب أولى ألا يترك كبيرة .. على أننا سنتحدث بالتفصيل فى الفصول القادمة إن شاء الله عن الحساب وعن الميزان .. وعما سيدور لحظة الحساب .

أحـــوال كثيـــرة

كيف سيكون الناس .. أحوال كثيرة .. ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم .. ولا نستطيع أن نتعرض لها كلها فى هذا

الجزء من الكتاب .. ولكن موعدنا إن شاء الله فى أكثر من كتاب قادم .

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾

(الآيتان ١ و ٢ من سورة الحج)

هذا تصوير دقيق للحالة التى سيكون عليها الناس كل الناس يوم البعث وقبل الحساب .. وهم يساقون من الأرض التى نعيش عليها وبعثنا منها إلى أرض الميعاد .. عقولهم من هول الموقف ستكون ضائعة .. فالأم التى هى فى الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها ، تتابعه أينما كان .. وتلحظه أينما وجد ، وبخاصة إذا كان رضيعا صغيرا .. هذه الأم ستذهل عن ابنها .. يكون أمامها فلا تراه .. ويناديها فلا تجيبه .. ويقترب منها فلا تحس به .. ذهول تام من هول الموقف .

فالناس فى يوم الحساب .. كل واحد منهم مشغول بنفسه .. يفكر فى ذاته .. ولا يدور فى فكره أى شىء آخر .. إنه يريد أن ينجو من هذا الهول العظيم .. يريد أن يطمئن إلى مصيره . وقد أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه .. يراها بعينيه .. ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيبا عنه .. اللحظة التى يفيق فيها

الانسان . . ويعرف أن يوم القيامة قد جاء . . وأن ساعة الحشر قد بدأت . . يذهب عن عقله كل ما كان فيه . . ولا يفكر إلا فى نفسه . . إنه يوم كما وصفه الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧ من سورة المزمل)

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾

. . أى أن المرأة التى تعتز فى الحياة الدنيا بجنينها . . تتخلص منه . . فهى لا يشغلها إلا نفسها . . وعندما يساق الناس إلى أرض الميعاد لا يمشون بخطى ثابتة . . لا يكونون ثابتين فى مشيهم وفى نقدمهم . . بل من الرعب الذى يجتاح القلوب يترنحون يمينا ويسارا كالسكارى . . حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم من الخمر . . ولكنهم حقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر . . ولكن هول الموقف الذى هم فيه ، وشدة عذاب الله الذى يخشون أن يصيبهم . . يجعلهم كالسكارى . . لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم ، ويترنحون فى مشيتهم .

الفــرار .. إلى أين ؟

ويزيد الصورة وضوحا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

يـوم البعث

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾

(الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة عبس)

إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى هذا . . فإنك تعرف أنه سيكون هناك تناد بين الناس فى هذا الموقف العظيم هذا ينادى هذا بحكم . قرابة الدنيا وبحكم الصلات التى كانت بينهم فى حياتهم قبل الموت . . ولكن الأنساب هنا تختفى . . فلا يصبح كل واحد ملتفتا إلى تحية أو سلام أو لقاء . . رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة . . كل واحد منهم يقول نفسى نفسى . . فإذا ناداه أو حاول أن يحتمى به مثلا أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه . . بل يفر منه . . فإذا ظن الابن مثلا أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح فى هذا اليوم . . فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه . . ولن تشفع القرابة بين الاثنين . . لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع فى الحياة الدنيا . . فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه فى ساعة الشدة ، ويقفوا معه فى ساعات العسرة . . وهم فى دنيا الأسباب يفعلون ذلك .

. . ولكن فى هذا اليوم . . كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين . . يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من الله . . لا يريد أن يتعلق به أحد . . ولا أن يحمل من أوزار أحد . . بل يبتعد قدر الامكان عن الناس كل الناس . . متمنيا أن ينجيه الله من العذاب .

وانتهى التـــوازن

وهكذا يساق الناس إلى أرض الميّعاد ، وهم يترنحون من هول الموقف . . مشيتهم غير متزنة . . وخطواتهم غير ثابتة . . وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء . . ينادونه فلا يرد عليهم . . ويستنجدون به فلا ينجدهم . . ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم . . ولكنه لا يلتفت إليهم . . لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم . . وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا . . وتجمعوا على معصية الله . . يفرون من بعضهم البعض وهم أعداء ألداء . . صداقتهم فى الدنيا قد تلاشت تماما . . وكيف لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار . . كل الناس فى هذا الموقف أعداء إلا المتقين . . لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض فى ذلك اليوم . . لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير . . إذا رأى واحد منهم زميله يمشى فى الخير ، وطاعةالله . . يقول له عليك أن تكثر . . وإذا رأى أحدهم صديقه يمشى فى طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فوقوا أنفسهم عذاب النار . . كل واحد منهم نصح الآخر . . والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب فى هذا اليوم العظيم . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(الآية ٦٧ من سورة الزخرف)

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث . . المؤمنون فى هذا اليوم لهم نور يمشون به فى وسط ظلمات هذا اليوم العظيم . . والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم . . أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم ، أو يكونوا لهم عونا . . ولكن هذا كله لا يفيد . . لقد تقطعت الأسباب ، وأصبح كل إنسان مشغولا بنفسه .

وتكتمل الصورة فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الحديد)

. . وفى هذه الآية الكريمة يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى . . ففى يوم الحشر والناس فى طريقهم إلى أرض الميعاد . . من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسوء الظلمة . . فلا يرى الناس ما أمامهم . . الله سبحانه وتعالى يضىء للمؤمنين نورا يمشون على هداه .

وحين يرى المنافقون ذلك النور . . يحاولون أن يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السير ، دون التخبط الذى يفرضه الظلام . . حينئذ يقال لهم ارجعوا فيرجعون بعيدا عن المؤمنين . . ثم

يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز . . هذا الحاجز من ناحية المؤمنين فيه رحمة الله سبحانه وتعالى بما عملوا من صالح الأعمال . . فيحسون بالرحمة تحيط بهم من كل مكان . . بينما من الناحية الأخرى . . ناحية المنافقين والمنافقات . . يكون هذا السور محاطا بعذاب الله ، حيث يحسون بالعذاب يحيط بهم . . وهكذا يمشى الاثنان . . المؤمن تحيط به رحمة الله ونوره . . والكافر والمنافق يحيط به عذاب الله . . وحينئذ يعرف الكفار والمنافقون الفرق ، ويحسون بأن العذاب يحيطهم . . بينما الرحمة تحيط بالمؤمنين .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الحديد)

حينئذ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذى يحيط بهم . . والرحمة التى تحيط بالمؤمنين . . ينادى الكفار والمنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم فى الحياة الدنيا . . ألم نعش معا فى وقت واحد .

فيرد عليهم المؤمنون . . نعم لقد عشنا فى وقت واحد . . ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة . . وكنتم تتربصون بعباد الله المؤمنين . . لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر . . ودخلت فى أنفسكم الريبة من أنكم ملاقو الله . . فظننتم أنكم لن تلاقوه . . وأنكم ستفلتون من هذا اليوم . . وجاءت شياطين الانس والجن لتقدم لكم الأمانى الزائفة . . عما ستحققونه فى

الدنيا ، فأصابكم الغرور بهذه الأمانى . . وتكبرتم وتجبرتم حتى جاء أجلكم ، وجاء أمر الله ، وجاء يوم الحساب . . فوجدتم أن ماوعدكم الله حق . . وأن غرور الشيطان باطل . . فاليوم لا ينفعكم شيء ، ولا ينجيكم من عذاب الله أحد .

تلك هى بعض المشاهد التى ستحدث يوم القيامة . . والناس يساقون إلى الحساب . . على أن هناك مشاهد أكثر ساعة يوضع الميزان ويحاسب الناس . . يومها يفضح الله الكافرين أمام كل خلقه . . ويحدث حوار كبير يشهده الخلق جميعا .

ولكن قبل أن نتعرض لهذه المشاهد . . لابد أن نتحدث عن معنى الميزان الذى سيحاسب الناس على أساسه فى الآخرة . . كيف تزيد الحسنات على السيئات . . أو كيف تزيد السيئات على الحسنات . . وكيف يحمل الناس أوزارهم ، أو ذنوبهم ، يوم القيامة .

وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله .



الفصل الخامس

الميزان

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة . . فلكل واحد منهم درجة من الدرجات . . الله سبحانه وتعالى يعرض لنا عددا من هذه المواقف فى القرآن الكريم . . ليريناكيف ستكون أحوال العباد المختلفة . . فلا المؤمنون على درجة واحدة ، ولا الكافرون على درجة واحدة . . ولكن لكل منا درجة . . ولكل منا حال من الأحوال . . هناك الذين كذبوا على الله . . وهناك الذين أشركوا بالله . . وهناك الذين عبدوا غير الله . . وهناك الذين أضلوا الناس . . وهناك صور عديدة ومتعددة . . كل فى صورة . . كل فى شأن .

هذا يريد أن يفر . . وهذا يتمنى أن يكون ترابا . . وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحا ولو عاد لأفسد . . والناس حين تساق إلى أرض الميعاد . . يعطينا الله لأحوالها صورا مختلفة فى القرآن الكريم . . لأن الناس فى هذا اليوم العظيم لا يمكن أن يكونوا فى حالة واحدة . . ولكنهم فى أحوال متعددة . . وفى أول يوم الحشر هم فى حال . . وفى آخره هم فى حال . . لقطات كثيرة . . وكل واحد من الناس له حالة تناسب عمله . . له حال مع الله سبحانه وتعالى يناسب ما قدمه فى الدنيا . . فكل نفس بشرية لها عمل . . خيرا كان أو شرا . . فهو متفاوت . . الخير متفاوت والشر متفاوت .

ولنستعرض معا بعض هذه الصور التى ستحدث يوم القيامة . . هناك وجوه ستكون سوداء . . ووجوه ستكون بيضاء ، مصداقا لقوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (الآية ١٠٦ من آل عمران)

.. هل البياض أو السواد يتعلق باللون .. أم يتعلق بالحالة ؟

إنك فى كثير من الأحيان ترى إنسانا إذا أصابه هم ، وبلغ حالةاليأس يقول لك : لقد اسودت الدنيا فى وجهى .. هل الدنيا اسودت حقا وأصبح لونها أسود .. أم أن الدنيا كما هى ؟ ولكن ما ينتظر هذا الانسان من الهم والغم قد جعل الدنيا تبدو سوداء فى نظره ، بحيث لا يرى فيها أملا ، ولا يرى شعاع النور .

وهناك إنسان آخر ترى وجهه فتقول : إن وجهه أسود كأن غضب الله نزل عليه .. مع أن لونه فى الحقيقة .. لون وجهه يكون أبيض ، وليس أسود .. ولكنك تحس من الهم الذى يركبه والآثام التى يحملها أن وجهه أسود حالك السواد .

وكم من إنسان يكون وجهه أسود اللون فعلا وتراه مشرقا بالايمان متلألئا بالنور .. تستبشر به وتقول إن وجهه مشرق .

إذن فاللون هنا ليس هو المحك .. ولا يستطيع إنسان أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء فى الدنيا ، وذم الوجوه السوداء ، وشبه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء .

نقول لك لا .. إن عدل الله يأبى هذا .. ولا فرق بين عباد الله جميعا .. بل إن أهل جهنم فى الآخرة قد يكون معظمهم ممن يحملون وجوها بيضاء فى الدنيا وأعمالهم يملؤها السوء .

إذن فالسواد هنا معناه .. أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغض النظر عن لونها ، فإنك ترى سحاب السواد يحيط بها .. تراها وقد غاب عنها الاشراق .. تبدو ذميمة كالحة تحس أن كل ما حولها أسود .. فعملها أسود .. وحسابها أسود .. ومصيرها أسود .. ولا أمل لها

ولا فيها .

موكب الحشر يمضى ، وهم يومئذ على صور مختلفة . . إنهم يمشون جماعات . . المؤمنون جماعات ، والكافرون جماعات . . وكل جماعة فى شأن . . جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقولون :

﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة الفجر)

قد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا . . وجماعة أخرى من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على الله :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾

(من الآية ٦٠ من سورة الزمر)

﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة يونس)

وجماعة يتمنون أن تسوى بهم الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة النساء)

وهناك صور عديدة فى القرآن الكريم سنعرض لها فى الفصول القادمة بالتفصيل . . تبين أحوال الخلق جميعا يوم القيامة . . خلق يحملون أوزارهم . . والوزر هو المعصية والفسق وكل ما يغضب الله . . وخلق يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم . . أى أنهم لا يحملون فقط خطاياهم . . . بل هم يحملون أيضا خطايا

أخرى .. كيف يمكن أن يحدث ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(الآية ١٨ من سورة فاطر)

.. أى أن كل واحد يحمل ذنبه فقط وما اقترفه .. ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر .. وضرب الله لنا سبحانه وتعالى أمثلة فى القرآن الكريم توضح لنا ذلك .. وهذه الأمثلة فى قمة الايمان .. ففرعون مثلا كان من أشد العصاة لله .. نصب نفسه إلها فى الأرض ليعبده الناس .. وجاءه موسى بآيات كثيرة ، فرفض أن يؤمن .. بل استمر فى ضلاله وفى ادعائه الألوهية .. حتى أن الله سبحانه وتعالى من كثرة ذنوب فرعون وعصيانه لله وعده بأشد العذاب .. فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة غافر)

من يحمل الوزر

فرعون هذا الذى هو من أكفر أهل الأرض .. كانت له امرأة صالحة مؤمنة .. ومن شدة صلاحها وإيمانها ذكرت فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ من سورة التحريم)

وهكذا نرى أن امرأة فرعون وقد عاشت فى قمة الاثم فى عصرها فى قصر فرعون . . إلا أنها أخلصت لله سبحانه وتعالى ، وطلبت منه النجاة من فرعون وعمله . . ومن القوم الظالمين المحيطين به . . فجاءت فى الآخرة ، ومصيرها الجنة ، ولم يحملها الله من أوزار فرعون شيئا .

وتنتقل من قمة الايمان إلى قمة المعصية . . امرأة نوح وهو نبى وامرأة لوط وهو نبى . . تأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة التحريم)

. . هذه قصة امرأتين كانتا فى بيتى نبوة . . ولكنهما كفرتا بالله ، وارتكبتا الآثام ، فكان مصيرهما إلى النار . . ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتى نبيين . . لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم

وصدقوا بالرسالة وعملوا بها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن نوح ، وقد رفض أن يؤمن ، وأصر على الكفر ، فلم يغن عنه أنه ابن رسول ونبى . . وعندما أراد نوح أن يستغفر الله لابنه وقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ **(من الآية ٤٥ من سورة هود)**

. . رد الله سبحانه وتعالى عليه :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾

(الآية ٤٦ من سورة هود)

وإبراهيم حين أراد أن يشفع لعمه آزر :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

(الآية ١١٤ من سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة فى القرآن الكريم تؤكد لنا أن الانسان لا يحمل يوم القيامة إلا ما ارتكب من أوزار أو من معاص . . وأن كل إنسان يحاسب عن عمله . . وأن أى نفس لا تحمل إثم أو ذنب أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى . . فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ **(من الآية ٢٥ من سورة النحل)**

نقول إن الوزر الذى يحمله هو من عمله .. والوزر الذى يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضا .. فالانسان حين يكون ضالا كافرا أو عاصيا ، فإنه يحمل وزره يوم القيامة .. فإذا كان مضلا .. أى لا يكتفى هو بالمعصية بل يزينها لغيره .. فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلا .. ويغريهم بالزنا .. ويزين لهم شهادة الزور .. فإنه فى هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس فوق وزره .

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر .. كلما تناول كأسا من الخمر عليه إثم .. وعلى الذى زين له ذلك إثم .. وكل إنسان شجع امرأة أو رجلا على الزنا .. كلما زنا هذا الرجل أو هذه المرأة عليها إثم .. وعلى الذى زينه لها إثم .

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة » .. ويأتى القرآن الكريم ليوضح لنا الصورة تماما فى قوله تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ من سورة النحل)

.. وهكذا نعرف كيف سيحمل بعض الناس أوزارهم .. وكيف سيحمل آخرون أوزارا مع أوزارهم .

كيف يحملون أوزارهم ..؟

على أن السؤال هنا . . هو الصورة التى سيتم عليها ذلك . . هل سيحمل الانسان فوق ظهره عمارة أوعدة عمارات بناها بمال حرام ؟ . . وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا ؟ . . أم أن الناس سيحملون كتابا فيه أعمالهم . . وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلا ينتشرون به . . لا يستطيعون المشى ، وأحيانا يضطرون أن يزحفوا على بطونهم ، أوعلى ركبهم من ثقل ما يحملون .

الصورة هنا فى غيب الله سبحانه وتعالى . . ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم . . ثقل يجعل هذه الظهور تئن مما تحمل . . تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة . . ويبذل جهدا كبيرا فى أن يخطو خطوة واحدة . .

وهنا يتلفت يمينا ويسارا . . يبحث عمن يساعده فى هذا الحمل الرهيب فلا يجد أحدا . . الكل يهرب منه . . والله سبحانه وتعالى يكمل لنا الصورة فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ ﴾ (من الآية ١٨ من سورة فاطر)

النفس العاصية والكافرة التى تحمل هذه الأثقال الرهيبة ستبحث يمينا ويسارا . . تحاول أن تستنجد بأحد . . وأول من يلجأ إليه الانسان هم أقاربه . . فتحاول هذه النفس أن تستنجد بأولادها وإخوتها . . ولكنهم جميعا يهربون . . ولا يحمل أحد من هذا الحمل

شيئا .. فيظل الحمل الرهيب يئن منه ظهر هذه النفس .. وهى تحمله وتمضى به حتى مكانها فى يوم القيامة .

كل هذا قبل الحساب

كل هذا وغيره يتم قبل الحساب .. بل إن هناك حوارا يجرى بين الله سبحانه وتعالى وأولئك الذين لم يستجيبوا لمنهج الله ولا لدعوته .. فيجمع الله المتخذين له ـ تبارك وتعالى ـ أندادا ، وذلك المتخذ ندا .. ويواجههم حتى تكون الفضيحة تامة وعامة بين عابد عبد باطلا .. وبين معبود مرة لم يطلب من عابده أن يعبده ، ومرة طلب منه .. فالذين يعبدون من دون الله شركاء .. منهم من عبد الملائكة .. ومنهم من عبد رسولا وجعله إلها .. ومنهم من عبد صنما .. ومنهم من عبد شمسا أو قمرا أو جنا .. إذن فالمعبودون متعددون ، والعابدون متعددون .. وكل معبود وكل عابد له حكم فى ذلك الحشر .. والمواجهة ستكون علنية يراها الناس جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة .

هذا الحوار الذى سيتم ، وهذه المواجهة ستكون أمام الأشهاد جميعا .

قد يتساءل بعض الناس كيف يمكن لهذا الخلق كله أن يشهد ويسمع ويرى هذا الحوار مع وجود هذا العدد الهائل من البشر ؟ نقول لهؤلاء جميعا .. لو فكرتم قليلا لما أصابتكم الدهشة .. ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم فى العالم تنقله الأقمار الصناعية .. ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه فى جميع الأماكن بالأرض

فى وقت واحد ؟

إذا كانت هناك مثلا بطولة العالم لكرة القدم .. ألا نستطيع أن نشهدها هنا فى مصر فى عشرات الألوف من المنازل فى وقت واحد .. ونسمع كل ما يدور هناك .. فإذا أحصينا ذلك فى العالم أجمع نجد أن هناك ملايين المشاهدين فى ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها .. يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث فى نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة .. إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر .. فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى .. ألا تستطيع قدرة الله أن تجعل خلق الله كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه هم فى أماكنهم ؟ إن ذلك على الله يسير .

المهم أن هذا الحوار سيكون علنيا يشهده أهل الأرض كلهم .. يرون ويسمعون ما يدور .. سيرون ما يحدث .. وكيف سيكون الحساب .. وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(من الآية ١٠٣ من سورة هود)

المعبودون الذين عبدهم هؤلاء المشركون إما أن لهم علما بهذه العبادة .. أو لا علم لهم بها .. الذين لا علم لهم بأنهم معبودون ولا دعوة لهم إلى الناس أن يعبدوهم ، كالأصنام والشمس والقمر والأشجار والأحجار والرسل الذين اتخذوهم آلهة .. ولكن المعبود الذى له علم وله دعوة للناس لأن يعبدون غير الله إنما يتركز فى شياطين الجن ، وشياطين الانس .. ذلك أن إبليس وذريته وشياطين

الانس هم الذين يسعون فى الأرض ليفسدوا منهج الله .. هم الذين يحاولون أن يغروا الناس بالشرك ويزينون لهم السوء .. وهؤلاء على علم بما يعملون .. أما باقى مخلوقات الله كلها فلا علم بأنها تعبد .. ولا مطلب لها فى ذلك .. بل هى مسبحة لله خاشعة لله .

وهنا ، ويوم القيامة ، تحدث مواجهة بين الذين عَبدوا غير الله وبين ماعبدوا .. وهذه المواجهة تتم بين كل مخلوقات الله ماعدا الملائكة .. ذلك لأن الملائكة لا يواجههم الله سبحانه وتعالى بمن عبدوهم .. ولكن يسألهم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(الأيتان ٤١ ، ٤١ من سورة سبا)

وهكذا يتبرأ الملائكة من أنهم كانوا معبدون من دون الله .. والله يعلم ذلك لأن الملائكة :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(من الآية ٦ من سورة التحريم)

المواجهـــة .. مـــع المعبـــود

تأتى بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام . فتبرأ جميعا ممن عبدها من البشر وتقول :

« سبحانك أنت ولينا »

.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

(من الآية ١٦٦ من سورة البقرة)

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى .. أنهم لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة .. وأنهم لم يدعوا أحدا لاتخاذهم آلهة .. ولذلك فعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التى اتخذوا منها أصناما .. تقول الأحجار عذبونا ونحن أعبد لله من القائمين فى الأسحار .. ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله .. مصادقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الاسراء)

بعض الناس يتساءل .. هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة ؟ .. وهل ستنطق ؟ .. نقول لهم إن كل شىء سينطق يوم القيامة .. تسألونا كيف سينطق ؟ .. وبأى لغة سيتكلم ؟ .. ولكنها ستكون بلغة تفهمونها جميعا .. فإذا كان الانسان سيفهم لغة العين والسمع والجلود .. ويعاتب أعضاء جسمه فيقول لهم :

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ (من الآية ٢١ من سورة فصلت)

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم .. وإلا لما قالوا :

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾

(الآية ٢١ من سورة فصلت)

فترد الجلود والأسماع والأبصار :

﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

إذن هناك حوار سيدور بين الانسان وسمعه وبصره وجلده فى لغة يفهمها الانسان . . وتفهمها هذه الأعضاء كلها . . وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة .

فلو أننا أتينا برجل إنجليزى لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية . ورجل عربى لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الانجليزية . . هل يمكن أن يدور بينهما حوار ؟ . . طبعا لا . . ولكن لابد أن تكون هناك لغة مشتركة ، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض . . ولغة كل مخلوقاتها التى نراها والتى لا نراها حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى . . فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا . . ونحن سنرى إبليس وذريته . . ويدور بينه وبين الكافرين حوار . . وكل شىء سيتكلم وينطق . . كل شىء كان صامتا فى هذه الدنيا سيتكلم . . وسينطق وسيشهد . . حتى الأشياء التى سخرها الله لارادة الانسان وجعلها خاضعة لهذه الارادة فى الدنيا كاللسان مثلا الذى جعله الله صالحا لأن يقول كلمة الايمان . . وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله . . فإذا أمر الانسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها . . ولكن هذا اللسان عابد وطائع ومسبح . . ولذلك يأتى يوم القيامة ويشهد على صاحبه . . بأنه أجبره على نطق كلمة

الكفر بما جعله الله مسخرا لارادة الانسان .

ولكن عندما تخمد الارادة البشرية بالموت . . يشهد كل شيء على الانسان . . ولا يملك الانسان أن يقهر عضوا من أعضائه . . على أن يفعل ما يغضب الله . . بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه . . ولذلك فإن الحجارة التى هى أعبد لله من كثير من البشر . . ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منهم . . وكذلك الشمس والقمر والنجوم . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾

الذين عبدوا البشر

فإذا ما انتقلنا إلى البشر ، وعلى قمتهم الرسل . . يأتى الله سبحانه وتعالى بعيسى ابن مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

. . وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدوهم من دون الله .

ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم فى موقف حقير جدا . . فهؤلاء الذين عبدوهم فى الدنيا وقدموا لهم القرابين . . وتعبوا أنفسهم فى إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة . .

هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يبتعدون عنهم . . لأنهم رجس . . ولأنهم عمل غير صالح لابد أن يبتعد عنه الناس جميعا فى هذا اليوم العظيم . . ويحس أولئك المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم . . ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض ، أو كانوا ترابا . . بدلا من أن يقفوا هذا الموقف المخزى أمام الله سبحانه وتعالى .

الإنس والجن

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى شياطين الجن والانس . . إلى إبليس الذى قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة ص)

إبليس الذى أعلن من يوم الخلق الأول أنه سيكون عدوا لآدم وذريته . . واستطاع أن يصل إلى ذلك بالقسم الذى يمكنه أن يفعل ما يقول . . فقال :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين »

. . أى يا ربى نشهد أن لك العزة . . وعزة الله عن خلقه جعلته غنيا عنهم :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢ من سورة الكهف)

فبهذه العزة التى استغنى بها الله سبحانه وتعالى عن خلقه .. تدخل إبليس ليأخذ حق الغواية .. ولذلك فقد قال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(الآية ٨٣ من سورة ص)

إذن فكل من عبد الله مخلصا وقاه الله غواية أبليس ... ولم يستطع أن يقدر عليه .. وكل من عبد الله وفى قلبه شك أو رياء أو نفاق فإن غواية الشيطان تدخل إلى نفسه .. فيزين له المعصية .. وإبليس يعرف ناحية الضعف فى الانسان فيغويه منها .

فإن كان الانسان ضعيفا أمام المال أغواه إبليس بالمال .. وإن كان الانسان ضعيفا أمام النساء أغواه إبليس بالنساء .. وإن كان الانسان ضعيفا أمام الحياة والسلطة والسلطان أغواه إبليس بالجاه والسلطان .

إذن فقد بقى الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته .. وبين ذرية آدم .. معزولا عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله .. فهؤلاء ليسوا طرفا فى الخصومة .. لأن الله وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من أن يغووهم .. فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا .. وإنما عبدوا الله وأخلصوا له الدين .

يجمع الله إبليس وذريته ، وهم الفاسقون من الجن .. لأن هناك الجن الصالحين المؤمنين .. وهناك الجن الظالمون الفاسقون .. فالجن الذين يتبعون إبليس فى إغواء الانسان وفى إفساد منهج الله فى الأرض .. هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين .. ولابد أن نعرف أن الجن هم مقابل الانس ولهم اختيار .. وإنه كما يوجد فى الانس

طائع وعاص .. كذلك يوجد فى الجن .. العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس فى إغواء الانسان بالكفر .. ويوجد من الانس من أغواهم الشياطين ، فأصبحوا فى خدمتهم يفسدون منهج الله .. وهؤلاء هم شياطين الانس .

إذن فالحوار بين من ومن ؟ .. أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئا عن ذلك .. أم يكون بين شياطين الانس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج .. قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الأنعام)

.. يشمل كل مخلوقاته .. الملائكة والأحجار والكواكب والرسل والشياطين الجن والانس .. والخطاب فى القرآن موجه للأحياء .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا اذكروا جيدا وأنتم فى الدنيا أنكم ستحشرون حشرا إلى موقف تفضحون فيه أمام كل مخلوقات الله :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة الأنعام)

إذن فالكلام هنا : ونقول للذين ، أشركوا من الانس والجن مكانكم .. وحين تسمع إنسانا يقول لك مكانك .. يعنى لا تتحرك حتى ينتهى هذا الموقف ويحسم .. وهى كلمة وعيد .. كلمة تهديد من الله سبحانه وتعالى .. ومعناها لا تتحركوا فإن لى معكم موقفا .. وهذا الموقف ليس فى صالحكم .. الذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا فى زحام الآخرة .. وأنهم أفلتوا من المواجهة .. ومن

الفضيحة أمام خلق الله .. والله سبحانه وتعالى يقول لهم : ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤهم ﴾ .. أى كل الذين اجتمعوا على باطل يجمعون معا .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريهم فى معسكر واحد .. إنه يريد الذين أغووهم فى معسكر .. الذين قاموا بالغواية والاضلال فى معسكر .. والذين خضعوا لهذه الغواية فى معسكر آخر .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾.

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

.. أى فرقنا بينهم .. حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقا :

﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة يونس)

ما هو الميزان

هنا لابد لنا من وقفة .. إذا كان هذا هو الحوار أو جزءا من الحوار الذى يدور فى الآخرة .. فهل هذا هو الميزان ؟ .. وهل هذا هو الحساب ؟ .. أم أن الحساب هو شيء مختلف تماما عن كل هذه المشاهد .. بحيث هناك هذه المشاهد وحدها ، ثم بعد ذلك يكون الحساب .

قبل أن نبدأ الاجابة عن هذا السؤال .. لابد أن نرد على الفكرة التى تقول : إن هناك ميزانا منصوبا فى الآخرة .. توضع فيه السيئات فى كفة ، والحسنات فى كفة .. فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة

يذهب إلى الجنة . . ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار .

فكرة ماديات الدنيا هذه لا يمكن أن تكون فى الآخرة . . ليست المسألة أوراقا مكتوبة بشكل مادى . . وإنما فكرة الميزان هى فكرة العدل فى أساسه . . بل هى دقة متناهية فى العدل الذى لا يقوم شىء بدونه . . لقد سئل على بن أبى طالب كيف سيحاسب الله الناس فى وقت واحد يوم القيامة ؟ . . قال على رضى الله عنه كما يرزقهم فى وقت واحد فى الحياة الدنيا . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(الآية ٧ من سورة الرحمن)

. . أى ميزان العدل .

وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلا ترى رسما للميزان موضوعا فى المكان الذى يجلس فيه القاضى . . هل القاضى يأتى بميزان مادى ليحكم فى القضايا . . أم أن هناك ميزانا فى كل نفس وضعه الله لتفرق أنت بين الحق والباطل .

حينما تجد إنسانا فى تفكير عميق . . فإذا سألته لماذا هو صامت . . قال لك إنه يزن الأمور قبل أن يتكلم . . هل جاء بميزان مادى أم أن الميزان داخل نفسه . . يضع هذه الحقيقة هنا . . ويضع هذه الحقيقة هنا ، ويزن كل شىء بعقله . . وهل إذا جار عليك إنسان ، وأخذ منك حقوقك ، وقلت له : إن كفة الميزان مالت ناحيتك . . أيكون هناك ميزان مادى . . إن الميزان فى الدنيا معناه الحق . . معناه التفريق بين الحق والباطل . . معناه العدل فى كل شىء . . العقل

يستطيع أن يعرف جيدا فى كل أمر من أمور الدنيا . . إذا كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة . . الله وضع فينا فطرة الايمان . . ومع فطرة الايمان فهمنا فكرة الميزان لنفرق بين الحق والباطل . . ولا يستطيع إنسان أن يمضى فى الحياة ، دون أن يكون هناك ميزان فى نفسه . . يزن الأمور حتى بعيدا عن الدين . . وهذا الميزان فى عقل كل منا وفى تكوينه .

الانسان عندما يبعث يوم القيامة يكون معه سائق وشهيد . . السائق عرفناه . . هو الملك المكلف به لكى يوصله إلى المكان المحدد له ، فلا يذهب يمينا أو يسارا . . وإنما يسوقه أمامه . . والناس يوم القيامة تذهب جماعات . . جماعات من المؤمنين . . وجماعات من غير المؤمنين . . أما الشهيد الذى مع الانسان فهو عمله يشهد عليه . . إقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(الآية ١٤ من سورة الاسراء)

والنفس هى التقاء الروح بالجسد . . وهذا يحدث مرتين : مرة فى الحياة الدنيا دار الاختيار . . ومرة فى الحياة الآخرة لينعم الانسان أو يعذب . . ومادام التنعيم والتعذيب لم يأت وقتها بعد . . فإن الحديث هنا عن الحياة الدنيا . . فى قوله تعالى :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

كيف تكون النفس شهيدة على صاحبها . . تكون بأنها تحمل

كتابا فيه كل ما حدث فى الحياة الدنيا مسجلا بالصوت والصورة .

ما ترى وما لا ترى

بعض الناس قد يتعجبون من هذا الكلام .. ولكننا كما قلنا الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا .. قد أعطانا من الماديات فى الدنيا ما يسهل لهذه العقول أن تعى شيئا عن الغيبيات .. فكما تحدثنا كيف أن الوجود شىء وإدراك الوجود شىء آخر .. وأثبتنا ذلك بالدليل العلمى .. حتى إذا حدثنا الله سبحانه وتعالى أن هناك شيئا موجودا ، ونحن لا نراه .. لا نقول : إن هذه قضية مستحيلة .. ولكننا نقول : إنها قضية ممكنة وقائمة وعليها دليل .. وإذا كانت قدرة الانسان قد أثبتت أن ما هو غيب موجود .. فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى .

فلنستجمع قليلا ما نراه اليوم .. ألاتدير الردايو فتستمع إلى صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للصلاة .. أين هو الشيخ محمد رفعت .. غير موجود الآن .. لقد مات منذ سنوات طويلة .. ولكن صوته مازال موجودا .. استطاع الانسان بالعلم الذى كشفه الله له أن يبقى الصوت فى الكون بينما صاحبه انتقل إلى رحمة الله .. بل إن الأبحاث العلمية الحديثة قد أثبتت أن الأصوات لا تفنى .. بل سابحة فى الفضاء .. وهناك جهود علمية لم تكلل بنجاح تحاول أن تسجل أصوات الأنبياء والعظماء الذين مازال التاريخ يذكرهم من بين بلايين الأصوات السابحة فى الفضاء .. ولكن للدقة

المتناهية التى يحتاجها مثل هذا العمل . . وللعلم الواسع الذى لابد أن يستند إليه . . لم يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر ما يمكنه من ذلك .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى التليفزيون . . فإننا نجد برامج تذاع حدثت فى عام ١٩٣٠ وقبل عام ١٩٣٠ . . ونرى فيها الأشخاص الذين قاموا بهذه الأحداث ، وهم يتكلمون ويتحركون وكأنهم أحياء . . مع أنهم انتقلوا من عالمنا منذ حوالى ستين سنة . . ولو احتفظنا بهذه الأفلام لاستطعنا أن نعرض هذه الأحداث بعد مئات السنين . . بل إن المعارك التى دارت فى الحرب العالمية نستطيع أن نراها وكأنها تحدث الآن .

إذا أردنا أن نجرى تجربة وقلنا : أننا سنسجل حياة فلان بالصوت والصورة منذ ساعة مولده حتى ساعة مماته . . ألا نستطيع ؟ . . طبعا نستطيع . . ثم بعد ذلك أخذنا هذا التسجيل ، واحتفظنا به مائة سنة ، ثم عرضناه . . ألا نرى تاريخا كاملا لحياة هذا الانسان . . إذا كانت هناك الآن آلات بالغة فى الدقة تخطئها العين ، ولا تحس بها . . تسجل لنا بالصوت والصورة وتستخدمها المخابرات فى العالم . . ألا يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يضع فى ذرات هذا الكون ما يتم به ذلك ؟ . . وهل الملائكة التى تكتب الحسنات والسيئات وتحصيها . . وتكتب على الانسان كل أعماله . . تحصى هذه الأعمال وتسجلها على الانسان بشكل يجعل الكافر وغير المؤمن . . يستطيع أن ينكرها دون أن يكون هناك دليل قوى يدحضه ويفحمه إذا حاول أن يكذب على الله .

إن من دقة الكتاب الذى سيحمله الانسان معه يوم الحساب . . أن المجرمين سيقولون :

﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾

(من الآية ٤٩ من سورة الكهف)

. . أى أنه أحصاه غاية فى الدقة . . حتى الأشياء التافهة التى نسيها الانسان . . والأشياء الصغيرة سيجدها فى كتابه . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المجادلة)

ما عملوا حاضرا

ما معنى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾

(الآية ٤٩ من سورة الكهف)

. . وما هو الدليل الدامغ يوم القيامة . . لأن يكون الانسان شهيدا على نفسه إلا أنه يرى كل حياته أمامه . . كفيلم سينمائى سجل كل شىء . فإذا أنكر أى شىء فإنه يواجه بما كان يفعل بالدليل الدامغ . . إذا كانت قدرة الانسان فى تسجيل الأحداث قد وصلت إلى هذا الحد المذهل ، فما هى قدرة الله سبحانه وتعالى . . وقول الحق :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الاسراء)

معناه أن كل إنسان ستشهد عليه نفسه بكل ما حدث ولن يستطيع أن ينكر شيئا .. لأنه سيرى كل شىء .. لعل الله سبحانه وتعالى غير قادر على أن يرينا حياتنا كلها لحظةبلحظة فى ساعة الحساب .. أليس هذا ممكنا ؟ .

إذن ففيم المجادلة ؟ .. وهل قدرة الملائكة أقل من قدرة الانسان بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس فى الدول المتقدمة ، أو حتى المتخلفة .. أن تسجل على الانسان الأحداث التى تقع وتواجهه بها .. ولا تستطيع الملائكة الحفظة الأبرار أن يقوم بأكثر من هذا .. إن مجرد النقاش فى أن هذا ممكن أن يحدث يرفضه العقل .

ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالامكانيات المادية الموجودة فى الدنيا .. فإنما نحاول أن نقرب ذلك من الأذهان .. ولكن الله الذى ليس كمثله شىء .. لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية .. بل فى علمه أشياء وأشياء .. والمهم أن الانسان سيرى كل ما فعله .. وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها .. حتى يكون هو الشهيد على نفسه .. ويكون عدل الله وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق .

حينما يواجه الانسان بكتابه لا تستطيع أن ينكر .. ولا أن يقول لم أفعل ولا أن يجادل فى أنه ظلم .. بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل الله .. حتى الذين سيخلدون فى نار جهنم سيشهدون أن عقابهم

حق .. وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .. وأن الله لم يظلمهم .. قد يطلبون الرحمة .. قد يطلبون فرصة أخرى .. ولكنهم لا يمكن أن يدعوا مهما كان الكبر فى صدورهم أنهم ظلموا فى يوم الحساب .. وهذا ما سنبينه فى الفصول القادمة .. ونحن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة .



الفصل السادس

يوم الحشر

مشاهد يوم القيامة كما قلنا متعددة . . ولا يمكن حصرها فى كتاب واحد . . ولكننا هنا نأتى ببعض اللقطات التى تقرب الصورة لأذهاننا فيما سيحدث يوم القيامة . . ولقد تحدثنا فى الفصل السابق عن المشركين الذين اتخذوا آلهة من الشمس والقمر والنجوم والأحجار والبشر . . وقلنا . . إنه فى يوم القيامة سيحشر الله هؤلاء جميعا . . فهناك منهم من عبده الناس ، وهو لا يدرى عن عبادتهم شيئا . . فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم . . بل هم أعبد الله من القائمين فى الأسحار . . وهم لم يرسلوا رسلا إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا . . أو ليبلغوهم بمنهج عبادة .

فالشمس لم ترسل رسولا مثلا إلى من عبدوها لتدعى أنها إله . . وتطلب منهم أن يسجدوا لها وتقول لهم : إن منهجى كذا وكذا . . وكذلك النجوم والأحجار التى اتخذوا منها أصناما .

لذلك فإن هؤلاء جميعا يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم . . ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه . . بل إن الأحجار التى عبدها الناس . . يجعلها الله سبحانه وتعالى وقود النار يوم القيامة . . وتكون الأحجار سعيدة بذلك ، وهى تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب .

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة . . يؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد . . أمام خلق الله كلهم . . من الذين ابتعوا واتخذوهم آلهة وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعيسى ين

مريم عليه السلام :

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

بماذا يرد عيسى ابن مريم يقول :

﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾

(من الآية ١١٦ من سورة المائدة)

أى تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا . . فنحن جميعا عبيدك نسبح بحمدك . . ثم يكمل عيسى بن مريم كلامه :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾

(من الآيتين ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة)

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلها ويقول إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفى . . فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علنا ، فقد علمه الله سبحانه وتعالى . . وإن كان قد قاله سرا وفى نفسه فقد علمه الله سبحانه وتعالى . . لأنه يعلم ما تخفى الصدور . . ويكون هذا على مشهد من جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة . . وهم يشاهدون كل

ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة علنا وأمام كل خلق الله .

نـرى جميعـــا

الله قادر على أن يجعل خلقه جميعا يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب . . كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب . . وكما يرى الناس يوم باستخدام قوانين الله التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون ليروا جميعا فى وقت واحد . . وفى ملايين الأماكن المتفرقة حدثا يقع فى العالم فى نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية . . وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن . . فماهى قدرة البشر بعد آلاف السنين فى نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا . . ثم بعد ذلك ما هى قدرة الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ؟

بقى المشهد الذى يتم بين الذين عبدوا غير الله عن علم وعن قصد . . وهم شياطين الجن والانس . . . أولئك الذين أفسدوا فى الأرض . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن . . أو يخاطب شياطين الجن فيقول لهم لقد أخذتم نصيبا كبيرا من الانس إلى جهتكم . . فأضللتوهم وقدتموهم إلى طريق الفساد . . والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن ويقول لهم استكثرتم من الانس والجن لا يردون . . ولكن من الذى يتكلم ؟ . . الذى يتكلم هم الانس الذين اتبعوا

شياطين الجن .. يقولون :

« وقال أولياؤهم »

أى المتابعون لهم من شياطين الانس :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

إذن فالكلام هنا من الانس عن أنفسهم ، وأيضا عن أوليائهم من الجن - إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيرا من الانس إلى جانبهم .. كيف ذلك ؟ .. لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الجن فى تكوينهم ما لم يعطه للانسان من ناحية التكوين .. فجعل الجن يرون الانس ، بينما الانس لا يرونهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ من سورة الأعراف)

وأعطى الله الجن أيضا قوة أكثر من الانس .. ولذلك عندما طلب سليمان من يحضر له عرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن تصل إليه .. ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومن معها اليمن فى طريقهم إلى بيت المقدس .. وكان فى مجلس سليمان الانس والجن وغيرهم .. لم يتكلم إنسى واحد ليقول : إنه يستطيع أن يحضر عرش بلقيس .. لماذا ؟ .. لأن الانس مخلوق من طين .. امكانياته محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة .. بينما الجن مخلوق من نار .. يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية ..

وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة .

ولذلك فإن المخلوق من نار ، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار التى تشع فيخترق إشعاعها الجدران . . بحيث تصل حرارتها إلى من يجلس وراء الجدار . . هذه بعض قوانين الجن التى تختلف عن قوانين الانسان . . لذلك عندما قال سليمان عليه السلام :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(من الآية ٣٨ من سورة النمل)

سكت الانس الذين كانوا فى مجلس سليمان ، لأن نقل العرش من اليمن إلى مكان سليمان . . يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة ، وهذه لا تتوافر فى الانس بحكم خلقهم . . ولذلك كان أول من تكلم هوعفريت من الجن . . أما الانسان فلم يدخل نفسه فى تجربة يعلم أنه لا يستطيعها . . فسليمان قد علم أن ملكة سبأ فى طريقها إليه لتعلن إسلامها . . وهو يريد من الذى يذهب ليأتى بالعرش من قصر ملكة سبأ . . أن يتميز أولا بالسرعة التى تتفوق على الانسان بمراحل كثيرة . . لأن هذا الذى سيذهب جالس مع سليمان . . بينما ملكة سبأ فى طريقها إلى سليمان . . ولذلك فلابد أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ . . ثم يحل العرش . . ثم يحمله ويكون حريصا عليه . . ثم يأتى به إلى سليمان . . كل هذا فى وقت أقل من الذى ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان ، وكانت قد قطعت فعلا جزءا من الطريق .

من الذى تكلم

إذن فلم يتكلم الانسان ولا الجن العادى . . وإنما تكلم عفريت من الجن . . مما يدلنا على أن الجن غير متساوين فى القدرة بل إنهم متفاوتون فيها . . والذى تكلم هو عفريت من الجن . . أى أقوى الجن . . وقال :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ من سورة النمل)

ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه ساعة أو ساعتين أو أكثر . . ولكن العفريت الذى يتكلم يعرف الزمن . . وهنا :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى قبل أن تطرف عينك . . وقبل أن يقول لسليمان نعم . . وجد عرش بلقيس أمامه :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ من سورة النمل)

أى أن المسألة لم تتحمل حتى مجرد الكلام . . وهكذا إذا كان الله قد خص الجن بقوانين متفوقة . . فقد أعطى بشرا من خلقه قدرة أكبر تخضع الجن لها . . ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط ، ولكن بإرادة المكون والخالق .

مـن العـــدو ؟

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى ، وهو يعرض علنيا مشاهد القيامة ، أن يقول لنا .. أنه أعطى الجن ميزات كثيرة .. وأنهم استخدموا هذه الميزات فى التكوين فى الشر والاضلال .. حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ (من الآية ١٢٨ من سورة الانعام)

ما معنى هذا ؟ .. هل استمتع الجن بالانس .. أم استمتع الانس بالجن .. كلاهما استمتع بالآخر .. استمتع الجن بالانس فى إعانته على المعاصى .. ومادامت شياطين الجن تعين الانسان على المعصية فهذا استمتاع لها .. لأن العداوة بين شياطين الجن والانس منذ لحظة خلق آدم .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٦ من سورة فاطر)

فكان إبليس ومن تبعه من الجن متعتهم فى الحياة أن يقودوا الانسان للمعصية والهلاك .. تماما كما يكون لك عدو وتدبر له مصيبة .. فإنك تستمتع وأنت تدبر له هذه المصيبة .. ثم تستمتع أكثر عندما تنفذها .. ثم تستمتع أكثر وأكثر وأنت تراه يعذب .. فهذا هو استمتاع الجن بالانس .. استمتاع ذلك الذى يوقع عدوه فى مصيبة ، ويقوده إلى النار .. وهو يفعل ذلك يكون فى قمة السعادة والاستمتاع .. وهذه هى مهمة الشيطان .. وبذلك يتحقق قول

إبليس : لأغوينهم ولاقعدن لهم صراطك المستقيم .

ولكن ماذا عن استمتاع الانس بالجن .. لأن الجن قد زين للانسان شهواته .. وجعل النفس البشرية التى تتبعه تستمتع بكل شهواتها وأهوائها فى الحياة الدنيا .. وذلك أن شياطين الانس لا يعيشون بمنهج .. ولكنهم يجرون وراء شهواتهم .. فيأخذون المال الحرام .. ويعتدون على حرمات الناس .. ويفعلون كل ما تريده أنفسهم من ظلم وفساد .. وفى هذا يكون الانس الذى اتبع وحى شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها .. ففعل ما يريد دون وازع من ضمير ، أو خلق أو دين .

وهكذا يكون استمتاع الانس بالجن .. استمتاعا عاجلا لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم .. ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم .. ولكنها تنقلب وبالا عليهم .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(الآية ٦ من سورة الجن)

أى أتعبوهم لأن العداوة بين شياطن الجن والانس تجعله يقدم له العون أولا حتى يتبعه ، ثم ينقلب عليه .

والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئا .. لوكان فعلا خيرا لاستطاعوا هم أن يرزقوا أنفسهم .. ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفى ذريته شذوذ .. الأعور والأعرج والأكتع .. لماذا ؟ .. ليلزم

كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر .. تماما كالذى يستعين بالفتوات ليسيطر على الناس .. ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحى الذى كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب .

إذن فالانس يردون :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

يعنى مادمنا نحن على قيد الحياة .. فنحن مضينا فى منهج الاستمتاع .. فاستمتع الجن بأنه قاد الانسان إلى المعصية .. واستمتع الانسان بمتعة المعصية حتى جاء الأجل .. فماذا وجدوا ؟ .. قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ من سورة الأنعام)

أى أن المستمتع الأول والمستمتع الثانى فى النار .

وقال الشيطان

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة تكمل هذه الصورة فى قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ ﴾

﴿ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة فى يوم الحساب . . شياطين الجن وشياطين الانس قالوا إنهم استمتعوا ببعضهم البعض فى الحياة الدنيا ،، فقضى الله بينهم بأن النار هى مصيرهم ومثواهم . . عندما قضى الأمر التفت شياطين الانس إلى إبليس الذى قادهم إلى هذه الهاوية . . التفتوا إليه يستنجدون به من النار التى سيقذفون فيها . . ماذا قال إبليس ؟ . . قال الحقيقة لأن حياة الخداع قد انتهت وقد أصبحنا فى مرحلة اليقين . . لم يعد هناك ظن ولا غيب . . فقد كشف الله حجب الغيب للناس ، وانتهت مهمة إبليس . . فإبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة ص)

أى يا ربى أعطنى مهلة إلى يوم البعث قبل أن أخلد فى العذاب . . ذلك أن إبليس رد الأمر على الآمر . . رد الحكم على الله . . قال :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(من الآية ٧٦ من سورة ص)

وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

(الآية ٦١ من سورة الاسراء)

ففى كلا الأمرين رد الأمر على الله .

وفى ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانيا هاما بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله . . من الخير لهم أن يقولوا إن منهج الله حق ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج . . أما أن نرد الحكم على الله ونقول : إن الربا حلال وأن قطع يد السارق حرام . نقول لكل من يتخذ هذا السلوك . . لا ترد الحكم على الله فتكون فى صف إبليس مطرودا من رحمة الله . . ولكن قل إن كل ما فى منهج الله حق . . ولكننى لا أستطيع أن أحمل نفسى على الايمان . . فبدلا من أن تكون كافرا إن رددت الحكم على الله . . تكون عاصيا إن أقررت بذنبك . . بخطئك . . معصية يمكن أن تستغفر منها فيغفر لك الله . . وأن تتوب منها فيتوب الله عليك . . أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر .

وانتهـــت المهـــلة

إذن فقد انتهت المهلة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لابليس . . وجاء اليوم الذى يحاسب فيه . . ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئا . . فلم يعد هو قادرا على غواية الانسان . . ولم يعد الانسان مستجيبا له . . انتهى كل هذا لأن الحياة أصبحت غير الحياة . . ولم يعد

الشيطان يستطيع أن يغوى أحدا فى يوم البعث . . ونحن نرى النار والجنة والجزاء والحساب . . فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق . . لأنه لوكذب فإن كل ما هو حادث يكذبه . . ولم يعد الموقف يسمح بالكذب والشيطان يرى جهنم التى سيلقى فيها ، ويخلد إلى الأبد . . فى هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الانسان أن يقول إلا الصدق . . تماما كساعة تنفيذ حكم الاعدام على القاتل ، وهو يقاد إلى المشنقة . . هل فى هذه الحالة هو صالح للكذب . . إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا الحق . . فما بالك وإبليس يواجه نار جهنم وعذاب الله .

ماذا قال الشيطان عندما قضى الأمر ، وقال الله :

﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أن الله سبحانه وتعالى كان وعده حقا ، ووعد الشيطان كان كذبا . . يمنى الانسان ويغريه بالأكاذيب ليرتكب المعاصى . . ويزين له العمل السيىء . . فوعده كذب ، ووعده لا يتحقق .

والشيطان فى هذا يظل يغرى الانسان حتى يكذب الانسان على نفسه . . ويعتقد زيفا أنه سيفلت من عقاب الله . . أو أن العذاب سيكون يسيرا ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة . . وعندما يأتى الانسان ليتوب يأتى الشيطان فيقول له . . أجل التوبة حتى تكبر فى السن ، ثم

بعد ذلك لا يمهل الأجل الانسان ليكبر فى السن . . وكل إنسان لديه امتدادات الأمل . . بمعنى أنه لو لم يحقق ذلك اليوم فإنه سيحققه غدا . . وهناك آمال كثيرة فى حياة الناس قد لا تتحقق أبدا . . ولكننا نعيش على أمل أنها ستتحقق . . ومهمة الشيطان أن يعطى للانسان الأمل الكاذب . . الأمل الذى لن يتحقق . . فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلا . . ويمنيه بأنه سيفعل كذا وسيحقق كذا بالمال الحرام . . وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه بالكوارث والأمراض ، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت . . هذه هى بعض وعود الشيطان التى تكون دائما مخالفة للحقيقة .

معـنى السـلطـان

ثم يقول الشيطان :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والسلطان هو قوة القهر . . أى أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الانسان على المعصية . . والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض ، فأقيده بالسلاسل ، وأحمله إلى هناك . . أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعنى ، فأحضر بعض أعوانى بالعصى والسياط ويلهبون ظهره حتى يفعل ما أريد . . أو يكون السلطان هو سلطان الحجة . . حيث تأتى

للانسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذى تريده ، فيقتنع اقتناعا يجعله يفعل ما تريده منه ، ولكن باختياره . . كلاهما سلطان ، سواء اتبعت القهر أو اتبعت الحجة والاقناع . . والشيطان لم يعط سلطان القهر . . فهو لا يستطيع أن يقهر إنسانا على معصية بالقوة والقهر . . وليس للشيطان حجة ليقنع بها الانسان ، فيجعله يرتكب المعصية ، بحجة الاقناع . . ولكن لابد أن يوجد فى داخل النفس أولا هوى ورغبة للمعصية ، فيأتى الشيطان ويزينها له . . كأن يكون الانسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال . . وجدت الرغبة أو الشهوة فى داخل النفس البشرية . . حينئذ يأتى الشيطان ليزين لك المال الحرام . . ويقول : إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية التى تتمناها . . ويظل يوسوس لك بذلك حتى تسرق .. أو يزين لك جمال امرأة مستهترة حتى تزنى معها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى وهو ينقل لنا الحوار الذى سيدور بين إبليس وشياطين الانس :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنه لم يكن يملك سلطان القهر ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية . . ولكن شهواتهم التى فى داخلهم هى التى قادتهم لهذا . . عندما يتجه شياطين الانس إلى إبليس باللوم يقول :

يوم الحشر

﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنكم لو لم يكن عندكم استجابة فى داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم . . فلا توجهوا لى اللوم . . بل وجهوه إلى أنفسكم .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الانسان على مواجهتها بمفرده . . بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها . . فإذا شب حريق فى البيت مثلا وكان الحريق صغيرا يمكننى أن أسيطر عليه . . فأنا لا أصرخ طالبا النجدة . . وإنما أقوم بإطفاء الحريق بامكانياتى مادمت واثقا أننى أستطيع . . ولكن إذا كان الحريق كبيرا فإننى لا أستطيع بقدراتى أن أتغلب عليه . . فإننى فى هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة . . لأننى أواجه حدثا أقوى من قدراتى . . فأنا محتاج إلى عون الآخرين . . وإذا هاجمنى لص مثلا فى الطريق . . فإذا كنت قويا فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده . . ولكن إذا كان اللص أقوى منى . . فأنا فى هذه الحالة أصرخ طالبا النجدة حتى يعيننى الناس عليه .

معنى الصراخ

حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان . . نوع لا يجد فى نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل ، فلا يذهب إلى الصارخ

لينجده .. كأن يهاجمنى لص قوى وأصرخ طالبا النجدة .. ويكون الذى يمر شيخ لا يكاد يقوى على السير .. حينئذ فإنه لا يجيب على صرختى ، لأنه لا يستطيع أن يقدم لى العون ، وهو ضعيف كبير السن .. ونوع آخر يجد فى نفسه القدرة على التدخل ، فيأتى إلى ويساعدنى فى أن أتغلب على ما لا أقدر عليه .. حينئذ يقال أصرخه فلان .. أى أزال سبب صراخه .. والشيطان فى يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا .. أى لا يستطيع أن ينقذ أحدا من النار .. ولا يستطيع أحد أن يصرخه ، أى ينجيه من العذاب الذى ينتظره .. لذلك يقول الشيطان للعاصين : لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب ، ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى من الخلود فى النار .. فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

ويمضى الحق سبحانه وتعالى ليكمل لنا أحد مشاهد يوم القيامة :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أن ما أغويتكم على أن تشركوا أنا كافر به .. لأنى أول من يعلم أنه زيف وكذب ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واتبعتم الزيف الذى قدمته لكم ، فجزاء الظالمين النار .

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى وهو الحوار الذى سيدور بين الكافرين فى النار :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ **(من الآية ٣٣ من سورة سبأ)**

الحوار هنا بين الكافرين . . جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين . . وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات . . ماذا يحدث فى الحوار الذى يدور :

﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾

(الآية ٢١ من سورة إبراهيم)

أى نحن كنا نتبعكم وكنا نفعل ما تأمروننا به وننفذ كل ما تطلبونه . . فهل تستطيعون أن تنجونا من عذاب النار أو تخففوه عنا . . هذا مظهر من مظاهر العجز البشرى يوم القيامة . . يرويه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . . لنعرف أن هؤلاء الذين يغووننا على المعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة أو يخففوا عنا يوما من عذاب الله .

فمهما كان لهم من سلطان وقهر فى الدنيا فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئا فى الآخرة . . ولن يعطيهم قدرة ولا قوة . . وفى ذلك نجد أن بعض الناس فى دفعهم الآخرين للمعصية يقولون لهم : أفعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة . . أنا سأحمل عنك الوزر . . ويكون هذا الكلام دفعا للنفس المترددة فى ارتكاب المعصية أن ترتكبها . . أياكم أن تصدقوا هذا الكلام .

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزرا فوق أوزارهم أو معاصيهم . . ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك

إثم ،وعليك عقاب ، وستحمل وزرك يوم القيامة . . ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك افعل هذا والاثم على . . أو افعل هذا وسأحمل وزرك . . بل على مشهد من أهل المحشر جميعا . . لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية . . ويكون أولئك الذين ارتكبوها بلا معصية . . بل هذا يحملها وهذا يحملها . . وعندما يقفون أمام الله للحساب يرينا الحق ماذا سيحدث :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾

(الآية ١ من سورة سبأ)

أى هذا يلقى اللوم على هذا وهذا يلقى اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة علنية . . وترى المحبة التى كانت بينهم على الشهوات وعلى الكفر وعلى المعصية قد ذهبت وانتهت . . فهناك نوعان من المحبة فى الدنيا . . أناس أخذوا الحب فى الله يذهبون للمسجد معا ويتدارسون العلم معا ، ويسمعون القرآن معا . . وإذا ارتكب أحدهم معصية نصحه الآخرون ومنعوه . . ومحبة أخرى بين الناس الذين يتفقون على قضاء السهرة الليلة فى الخمر والميسر عند فلان . . أو قضاء ليلة فى الاثم عند فلان . . يشجع بعضهم البعض على المعصية فى مجالسهم . . هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء . . ولكن الذين اجتمعوا على الاثم والمعصية . . إذا وقفوا أمام الله هذا يلقى اللوم على ذاك . . وذاك يلقى اللوم على الآخر . . المحبة التى كانت بينهم على الشهوات انتهت . . والله سبحانه وتعالى يقول لنا لوترون ماذا

سيتحقق فى الآخرة .. أولئك الذين كانوا فى الدنيا متفقين على الشر .. تجمعهم المعصية .. يتلاومون اليوم ويحاول كل منهم أن يلقى اللوم على الآخر .. ماذا يقولون ؟

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(الآية ٣١ من سورة سبأ)

أى إن المستضعفين يحاولون إلقاء اللوم على سادتهم وكبرائهم .. فيقولون لولا أنتم وغوايتكم لنا وتزيينكم للمعصية لكنا قد اتبعنا طريق الهدى وجئنا اليوم آمنين ..

ماذا يقول الذين استكبروا ؟ .. أيوافقون على هذا الرأى ؟ .. طبعا لا .. فى هذا الموقف العظيم يحاول كل واحد أن يبرىء نفسه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبأ)

هنا يحاول كبراء القوم وسادتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم .. لو أن فى قلوبكم هداية لاهتديتم .

معنى الهداية

ما معنى الهداية ؟ .. الهداية هى أقصر طريق يؤدى إلى الغاية .. والله سبحانه وتعالى قد أوجد فى الدنيا نوعين من الهداية .. هداية

دلالة وهذه للناس جميعا ، للمؤمن والكافر . . أى أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس ، كل الناس ، طريق الهداية فى منهجه ، ويدلهم عليه بالرسل والأنبياء والصالحين وغيرهم . . يدل الناس جميعا على طريق الهداية ويبين لهم طريق الضلال . . حتى يعرفوا طريق الله ومنهجه . . ولا يأتوا يوم القيامة مجادلين . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(الآية ٥٢ من سورة الشورى)

أى تبين للناس طريق الحق وتدلهم عليه . . فإذا اتبع الناس طريق الحق جاءت الهداية الثانية ، وهى الزيادة فى الهداية فيحببهم فى طريق الايمان . . فيزيدهم الله هدى ويعينهم عليه . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا عن هداية الدلالة . . فهم يقولون لهم :

﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبا)

أى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية ودلكم عليه . . ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان فى استطاعتنا أن

نخرجكم عنه أو نمنعكم . . ذلك لأننا مهما فعلنا فإن قوة الايمان فى قلوبكم . . كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا فى طريق الهدى . . وكان الله سيعينكم على ذلك .

﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ من سورة سبا)

أى أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة .. وكنتم تريدون المعصية . . فما إن أشرنا إليكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصى بطبعكم واتباعكم للشهوات . . وإلا لو كان فى قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا . . ويرد الذين استضعفوا مرة أخرى :

﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة سبا)

أى أنكم كنتم تقعدون لنا ليلا ونهارا . . لتزينوا لنا المعصية ، وتزينوا لنا الكفر ، وتزينوا لنا عبادة غير الله . . أنتم الذين كنتم ليلا ونهارا تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر . . وتعدوننا بالمكافآت لنرتكب المعاصى . . وتبينون لنا ليلا ونهارا طرق الاغراء على المعصية . . ولا تملون أبدا حتى استجبنا لاغرائكم وعصينا . . وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾

(الآية ٣١ من سورة سبا)

يعنى هذا يقول وهذا يرد عليه . . ويعود الأول إلى الكلام ويعود

الثانى إلى الرد .

وأزواجهـم ..

على أننا إذا انتقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة .. نأتى إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾
(الآية ٢٣ من سورة الصافات)

أى أن بعض الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم ، بل سنحشر معهم زوجاتهم .. لماذا جعل الله الزوجات يحشرن مع أزواجهن الذين ظلموا .. بل قدم الزوجات على الشرك فقال :

﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾
(الآية ٢٢ من سورة الصافات)

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون .. ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات فى الاغراء وفى التوجيه إلى الشر قبل الشيطان ، وما كان يزينه من عبادة غير الله .

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا فى هذا إلى أن هناك فى بعض الأحيان شيطانا ملازما للرجل فى حياته ، ذلك الشيطان متمثل فى عدد من الزوجات اللاتى ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن ، ويزين له طريق الاثم والانحراف ليفعل ما يردن .. فإن كن فى حاجة إلى المال أغرينه ليسرق أو يرتشى أو يختلس .. وإن كن فى حاجة إلى المجون والاستهتار أغرينه ليحضر الحفلات التى تملؤها المعصية ..

وإن كن يردن الحياة الناعمة الرتيبة أغرينه لارتكاب المعاصى كلها .. حتى يهيىء لهن هذه الحياة .. وإن كن يردن الانتقام من شخص ما أغرينه بالشر والكذب والتزوير وربما الجريمة ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام ولو بالزور والزيف .. ويطيع الزوج وينحرف ويفعل كل معصية .. يأتى الله سبحانه وتعالى ليفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة .. وعلى مشهد من خلقه جميعا وهم واقفون فى المحشر ينظرون .. فيصدر الأمر إلى ملائكته :

﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الآيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ من سورة الصافات)

أى أوقفوهم فى مكان محدد حيث يكونون معروفين ومميزين من وسط الخلق جميعا .. لنسألهم عما فعلوا .. فكأنه فى هذه الحالة يكون الزوج والزوجة مسئولين معا عن الاثم الذى حدث .. الزوجة .. لها إثم وارتكبت معصية بالتحريض الذى قامت به والاغراء على الاثم الذى ظلت تطارد به زوجها وكأنها شيطان ملازم .. تأمره بالمعصية .. فإذا رفض جعلت حياته سوادا وجعلت معيشته جحيما حتى يذعن ويفعل ما تريد .. والزوج هو الآخر مسئول وإنه كان لابد أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التى تريد أن تعيش مع المعصية .. والتى تريد الثياب الفاخرة والزينة بصرف النظر عن الطريق الذى ستأتى منه هذه الأشياء .. وهذا أحد

الأسباب فى أن الله شرع الطلاق . . ولا عذر لأحد فى أن يطيع مخلوقا فى معصية الخالق .

وهنا فى هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته . . ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر . . وحينئذ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الصافات)

أى أنكم كنتم حزبا واحدا . . كنتم يدا واحدة . . كان كل منكم يسرع إلى نجدة الآخر ، والوقوف معه على الباطل . . فمالكم اليوم لا ينصر كل منكم الآخر . . بل تقفون أمام الله لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر . . ثم يقول الحق :

﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة الصافات)

لماذا استسلموا ؟ . . مع أنهم كانوا فى الدنيا يتعاونون على الاثم والعدوان . . وكانوا لا يستسلمون لشىء فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس أو إلى أى طريق آخر على أن هناك تساؤلات لابد أن نجيب عنها . . ومن هذه التساؤلات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن تدركه رحمة الله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا ألا أن يتغمدنى الله برحمته) .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأننا لن ندخل الجنة

إلا برحمة الله وفضله .. فلماذا إذن الحساب مادامت أعمالنا لا تدخلنا الجنة .. وما معنى الحديث الشريف .. وهل هناك حساب للأنبياء فى يوم القيامة .. وما معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾

(الآية ٦٩ من سورة الزمر)

وكيف سيقيد الكفار بالسلاسل يوم القيامة .. والحوار الذى سيدور بين أهل الجنة وأهل النار .. وهذا هو ما سنتناوله فى الفصل القادم إن شاء الله .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٣١ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0184 – 4